

سید محمد رفیع الدبوی

مفاهیم اسلامیة

مقالات وفتاویٰ

للشیخ یوسف الدبوی

عضو جماعة كبار العلماء

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية



مفاهيم اسلامية

مقالات وفتاوى

السيد محمد يوسف الربوي

عضو جماعة كبار العلماء

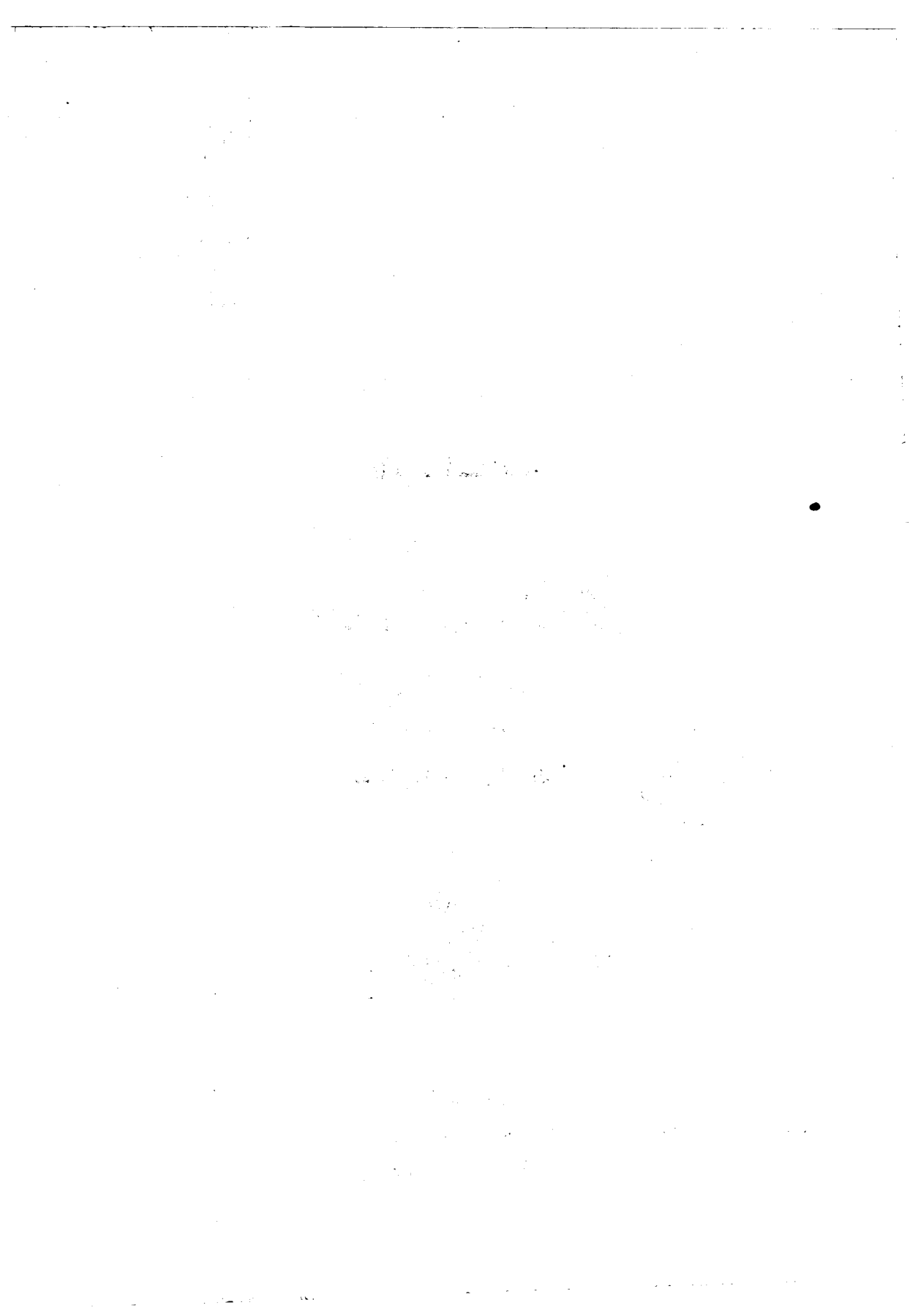


من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

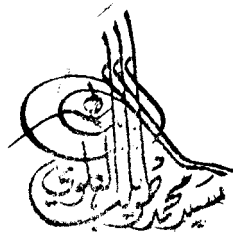
القاهرة

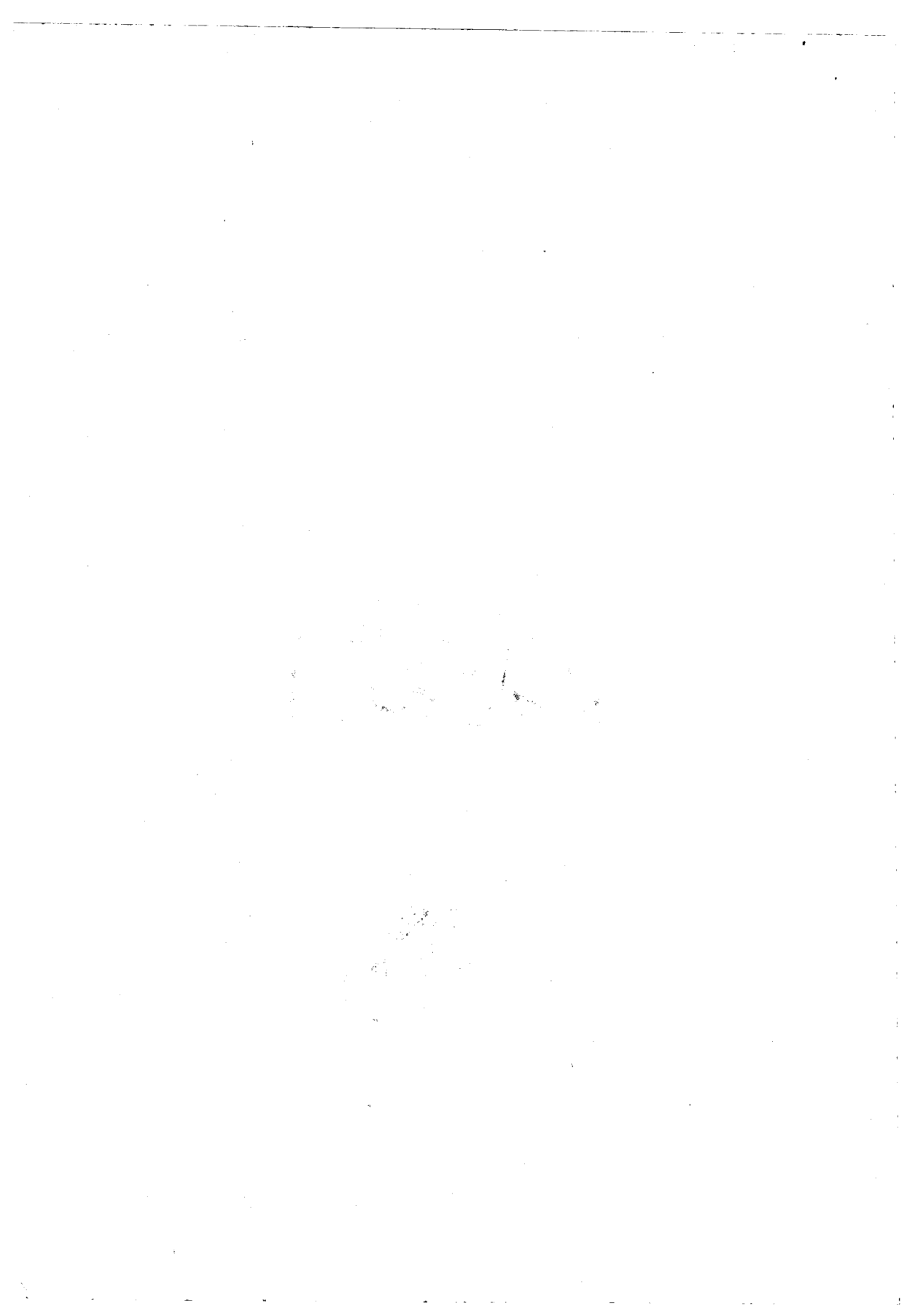
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



الجزء الأول
الإلهيات







تقديم

بقلم فضيلة الدكتور: (حسيني هاشمي)

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين •

وبعد : فقد بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين وأنزل عليه كتابه المبين شفاء لما في الصدور وهدى وبشرى للمؤمنين فاستجاب لدعوته أصحاب العقول النيرة والفتوة السليمة وجاهدوا تحت لوائه مخلصين حتى نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وأظهر دينه على الدين كله .

وقد واجهت الدعوة الإسلامية على مدى العصور والأزمان حروبا فكرية متلاحقة أراد بها خصوم الإسلام أن يطفئوا نور الله بأفواههم (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

ومن رحمة الله بعبادة أن قيض للإسلام في كل زمان رجالا دافعوا عن دينه بكل ما يملكون من قوة شرعوا في أقلامهم وألسنتهم في الدفاع عن الإسلام : نشروا حضارته ، وأظهروا أصالته ، وكشفوا عن نوره المبين ، وبسطوا أحكامه ومسائله في وضوح ويقين •

ومن هؤلاء عالمنا الجليل الشيخ يوسف نصر الدجوى ، أحد أكابر علماء القرن الرابع عشر الهجرى ، وقد نشأ في بلدة « دجوة » من أعمال القليوبية ، وحفظ القرآن مبكرا ، ثم التحق بالجامع الأزهر وارتشف رحيق العلم من شفاة أعلامه الممتازين ، حتى صار متبحرا في مختلف العلوم الدينية والعربية وساعده على ما أكرمه الله به من بصيرة نيرة وعقل وقاد ، وحصل على الشهادة العالمية ، وأظهر جدارة ممتازة في شتى علومه المقررة .

ثم تولى التدريس بالأزهر وكان لعامة الغزير وفهمه الناضج وأسلوبه
البلغ أثر عظيم في اجتذاب الطلاب إلى درسه والالتفاف حوله ، حتى
ارتفع ذكره وانتشر مجده خارج محيط الأزهر ، حيث كتب في الصحف
اليومية والمجلات الدينية بأسلوب عصري رفيع وفهم لما استحدثت من العلوم
والمعارف وتطبيق الآيات الكونية على ما صح منها .

واستمر مجد هذا العالم المجاهد في صعود حتى اختير عضوا بارزا في
هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف وأصبحت له شهرة واسعة في العالم
الإسلامي جعلت داره بعزبة النخل كعبة للوافدين من العلماء وطلاب المعرفة .

ولقد كان شيخنا الدجوى عليه رحمة الله واسع الفكر في الفقه الإسلامي
فكانت له فيه فتاوى عقلية يحتاج إليها المسلمون في كل زمان ، وبخاصة
في عصرنا الحاضر ، حيث تناول فيه معاملات البنوك ، وحكمة تعدد
الزوجات ، والأولياء ، والحسد والرقية منه ، وهل للحسد تأثير في الحسود ؟
وبعض مشكلات الرضاخة والأيمان التي لا يعتبرها الشرع ، والقراءة
للأموات ، إلى غير ذلك من الفتاوى الفياضة النافعة والمقالات الممتعة في
شتى المجالات .

وكان لمقالاته وفتاويه ورسائله دوى عظيم في الأوساط الإسلامية
والعلمية وتلقاها الأمة بالتببول الحسن .

ولقد رأى مجمع البحوث الإسلامية ، في هذه الآونة من تاريخ مصرنا
العزيزة ، وفي مواجهة التيارات الفكرية المختلفة — أن يقدم هذا الكنز الثمين
للأمة المحمدية لكي تتمتع بنفائسه ، فتبرر أن يطبع هذه الفتاوى والمقالات
التي نشرت متناثرة في الصحف والمجلات ، إسهاما منه في توضيح الكثير
من المفاهيم الإسلامية .

ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العسل عباده المؤمنين وأن يثيب هذا العالم
على هذا العطاء الجزيل .

إنه نعم المولى وولى التوفيق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ يوسف الدجوى بقلم الشيخ محمد زاهد الكوثري (١)

انتقل إلى رحمة الله سبحانه ذلك العلامة الأوحد والنحرير المفرد
الشيخ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن أحمد بن نصر الدجوى ،
عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف .

وأم الجماعة في الصلاة عليه فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع
لأزهر في مسجد الأميرة فريال في عزبة النخل .

رحلت جنازته على الأكتاف في جماعة كبيرة جداً من علماء الأزهر

غيرهم من عارفى قدره العظيم إلى مدفنه في (مقبرة ، عين شمس) .

وأودع مقره الأخير بعد العصر من نهار الأربعاء خامس صفر الخير من

سنة ١٣٦٥ هـ . عن ثمان وسبعين سنة قضاها في الأعمال الصالحة ونشر

العلوم النافعة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجهاد في مسيله

بقلمه ولسانه .

(١) الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكوثري المتوفى في تاسع عشر ذى القعدة الحرام من سنة

احدى وسبعين وثلاثمائة وألف . ودفن بشارع الفخر الرازى أمام مسجد الكحلاوى قريباً

من قبر أبي العباس الطوسى المشهور عند العوام بالتونسى .

وكان رحمه الله آية في الذكاء وسرعة الخاطر وجودة البيان وقوة الذاكرة وسعة العلم، يحضر حلقات دروسه في (الأزهر الشريف) مئات تناهز الألف من العلماء وطلبة العلوم، ويصفون إصغاءً كلياً إلى بيانه الساحر وإلقائه الجذاب، وينهلون من هذا المنهل العذب .

وكان هو مفسر الأزهر ومحدثه وفيلسوفه وكاتبه وخطيبه بحق بين أهل طبقتهم من العلماء .

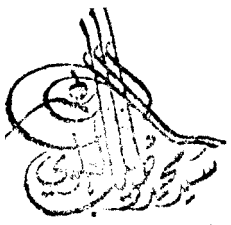
وكان موضع ثقة الجماهير من الشعوب الإسلامية في شتى الأقطار، اعترافاً منهم بسعة علمه وعظم إخلاصه وبالغ ورعه، تتوارد إليه استفتاءات من شتى الأقطار والجهات .

وكان سمحاً كريماً يتهلل وجهه سروراً عندما يتمكن من قضاء حاجة من يرجع إليه في أمر ما، وكان عطفه على الغرباء مما لا يتصور المزيد عليه، وذلك مما هو مذخور له في آخرته .

وله مؤلفات ممتعة سارت بها الركبان إلى شتى البلدان، ومقالاته النافعة في شتى المواضيع لم تزل تنشر في الجرائد والمجلات العربية إلى آخر لحظة من أيام حياته رحمه الله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولد الأستاذ - رضي الله عنه - في (دجوة) من أعمال قليوب بمصر سنة ١٢٨٧ هـ . من أب عربي من بني حبيب، وأم من سلالة سيدنا الحسن السبط - رضي الله عنه - .

ولما أصيب بفقد البصر في صغره بسبب مرض الجدري أخذت أمه تبكي وتتألم فقال لها والدها - من كبار الصالحين في زمانه - لا تحزني إن



اللَّهُ سبحانه سيعوضه عن بصره ببصيرة نافذة تجعله عالماً كبيراً، يرجع إليه في حل المشكلات، فعدت أمه هذد الكلمة كلمة تسلية مجردة، لكن الله - سبحانه - حقق ما قاله أبوها فيه حتى أصبح هذا الطفل - فيما بعد - عالماً عالمياً مشهوراً في الآفاق .

وحفظ القرآن الكريم في بلده ثم أرسله والده شيخ العرب أحمد ابن نصر إلى (الأزهر الشريف) فتلقى العلوم من كبار أساتذته من سنة ١٣٠١ هـ . إلى سنة ١٣١٧ هـ . حتى دخل في امتحان العالمية في شهر صفر من سنة ١٣١٧ هـ . فحاز شهادة العالمية بتفوق عظيم . وأعجب به ممتحنوه من كبار أهل العلم ، حتى قصد منزله الشيخ راضي الحنفي المشهور بالبراعة في العلوم إذ ذاك مع نوع من الترفع عن أهل طبقتهم، وهنأه بهذا التوفيق ودعا له بكل خير، وعد هذا منقبة عظيمة له بين أترابه و فاتحة خير لوجوه التوفيق في سبيل العلم، إلى أن أصبح نجماً متألّقاً في سماء جماعة كبار العلماء .

وله شيوخ أجلاء في العلوم ، ومن أعظم شيوخه الشيخ هارون بن عبد الرازق البنجاوي المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ . عن ٨٧ سنة وهو عمدته - والشيخ أحمد الرفاعي الفيومي المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ . عن ٧٥ سنة عالية ، والشيخ محمد بن سالم طموم المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ . والشيخ أحمد فائد الزرقاني ، والشيخ رزق بن صقر البرقائي، والشيخ داود، والشيخ سلم البشري شيخ الجامع الأزهر وهؤلاء من السادات المالكية ومن كبار شيوخه أيضا الشيخ محمد البحيري، والشيخ عطية العدوي الشافعيان .

وكان شيخه في علوم القراءة هو القارئ المشهور الشيخ حسن الجريسي الكبير ، وسنده في علوم القراءة معروف !

وأما هارون والرفاعي وطوموم والزرقاني فقد أخذوا عن الشيخ أحمد منة الله الشباسي المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ . عن الأمير الكبير المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ .
وأما رزق والبشرى وداود فقد أخذوا عن الشيخ محمد الصنمى المالكي المتوفى سنة ١٢٩٤ هـ . وهو عن الأمير الكبير - أيضاً - ، وأما البحيري والعدوي فقد أخذوا عن إبراهيم السقا الشافعي المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ . عن الأمير الصغير المتوفى سنة ١٢٤٨ عن والده الأمير الكبير ، وإلى الأمير الكبير منتهى أسانيد هؤلاء الشيوخ الأعلام ، وللشيخ أحمد منة الله ثبت مطبوع مع ترجمة عبد القادر الرفاعي ، يسوق فيه سنده بطريق البهي ، على أغلاط مطبعية كثيرة فيه ، والشيخ طوموم أخذ - أيضاً - عن الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوي صاحب رموز الأحاديث وشرحه المتوفى سنة ١٣١١ هـ . وهو أخذ عن السيد أحمد بن سليمان الأروادي المتوفى سنة ١٢٧٥ هـ . وعن مصطفى المبلط المتوفى سنة ١٣٨٤ هـ . فالأروادي أخذ عن ابن عابدين وحامد العطار وعبد الرحمن الكزبري والشهاب الصاوي ، وللأربعة أثبات معروفة ، والمبلط له ثبت ، أخذ عن الأمير الكبير والشنواني تلميذي علي الصعيدي . والشنواني أخذ أيضاً عن مرتضى الزبيدي ، وأسانيد هؤلاء وأثباتهم معروفة جامعة لأثبات من تقدمهم ، حشرنا الله - سبحانه - وإياهم تحت لواء حبيبه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ونفعنا بعلومهم !

وقد تلقيت من الأستاذ الدجوى رحمه الله (موطأ الإمام مالك)
من رواية يحيى الليثي في مجالس آخرها في اليوم الثاني والعشرين من صفر
سنة ١٣٦١ هـ . بقراءتي عليه لجميعه إلا بعض مواضع يسيرة منه فإنه
ناوبني فيها الشيخ على الخصوصي في بعض المجالس .

فأجازني به ويجمع ماله من الروايات إجازة عامة . وساق سنده في
الموطأ عن أحمد منة الله عن الأمير الكبير بسنده بطريق السقاط ، ورجال
هذا السند كلهم من (المالكية) من الأستاذ الدجوى إلى الإمام مالك
رضي الله عنه .



كلمة مجلة الأزهر

عن الشيخ يوسف الدجوى^(١)

فوجيء المسلمون يوم الأربعاء ٥ من صفر سنة ١٣٦٥ نبياً وفاة العلامة الشيخ يوسف الدجوى ، فكان لوفاته أثر عميق في القلوب ، قل أن يشاهد مثله لغيره في هذا العهد الحديث . فقد كان - رحمه الله - واحداً من بقية الأعلام الأزهريين الذين مثلوا مجد الأزهر القديم ، وحفظوا تقاليده المتوارثة كابراً عن كابر ، بحيث يتعذر ملء الفراغ الذي تركه أمداً غير قصير .

كان الأستاذ الدجوى من العلماء الراسخين في العلوم التي تدرس في الأزهر ، أخذها عن أئمتها مثل الشيخ هرون عبد الرزاق والشيخ أحمد الرفاعي الفيوى والشيخ محمد طوموم ، والشيخ أحمد فايد الزرقانى ، والشيخ رزق البرقامى ، والشيخ سليم البشرى ، والشيخ محمد البحيرى العدوى ، وكلهم من أقطاب الجامعة الأزهرية الذين صانوا رسالتها إلى هذا العصر الحديث^(٢) .

(١) كلمة نشرتها مجلة الأزهر بمناسبة وفاة الشيخ يوسف الدجوى .

(٢) اعتمدنا في إيراد هذه الأسماء وفي سنى ميلاده وتخرجه على ماكتبه عنه فضيلة الأستاذ

محمد زاهد الكوثرى .

ولد الأستاذ الدجوى فى قرية دجوة التابعة لمركز قليوب فى سنة (١٢٨٧) من أب عربى ، وأدخله والده الأزهر فى سنة (١٣٠١) ونال شهادة العالمية فى سنة (١٣١٧) بنجاح عظيم كان مدعاة لأن يزوره فى داره الشيخ راضى الحنفى من كبار العلماء وهنأه على ما أصاب من توفيق . وما فعل ذلك إلا من شدة إعجابه به ، وإكباره لشأنه ، وتوقعه له حياة علمية تشرف الأزهر والأزهريين. وقد صدق حاسه فإن الأستاذ الدجوى لم يلبث أن ظهرت مواهبه ، وتجلت خصائصه ، فصار مرجعاً للمستفيدين والمستفتين فى جميع البلاد الإسلامية .

ولما أسست المشيخة الأزهرية (مجلة الأزهر) كان أول من وقع اختيارها عليهم ليحرروها الأستاذ الدجوى - رحمه الله - فكتب فيها البحوث الممتعة فى الدين والتفسير والحكمة ، وبقى على موافاتها ببحوثه إلى عهده الأخير .

ومن مميزات الفقيه - رضى الله عنه - أنه يأنس إلى البحوث النفسية الحديثة فى أوروبا ويراها خير أداة لكسر شوكة الماديين ، وقد اعتمد فى كتاباته على ما حققوه منها ، وكان لا يخشى فى مجاهرته بذلك لومة لائم .

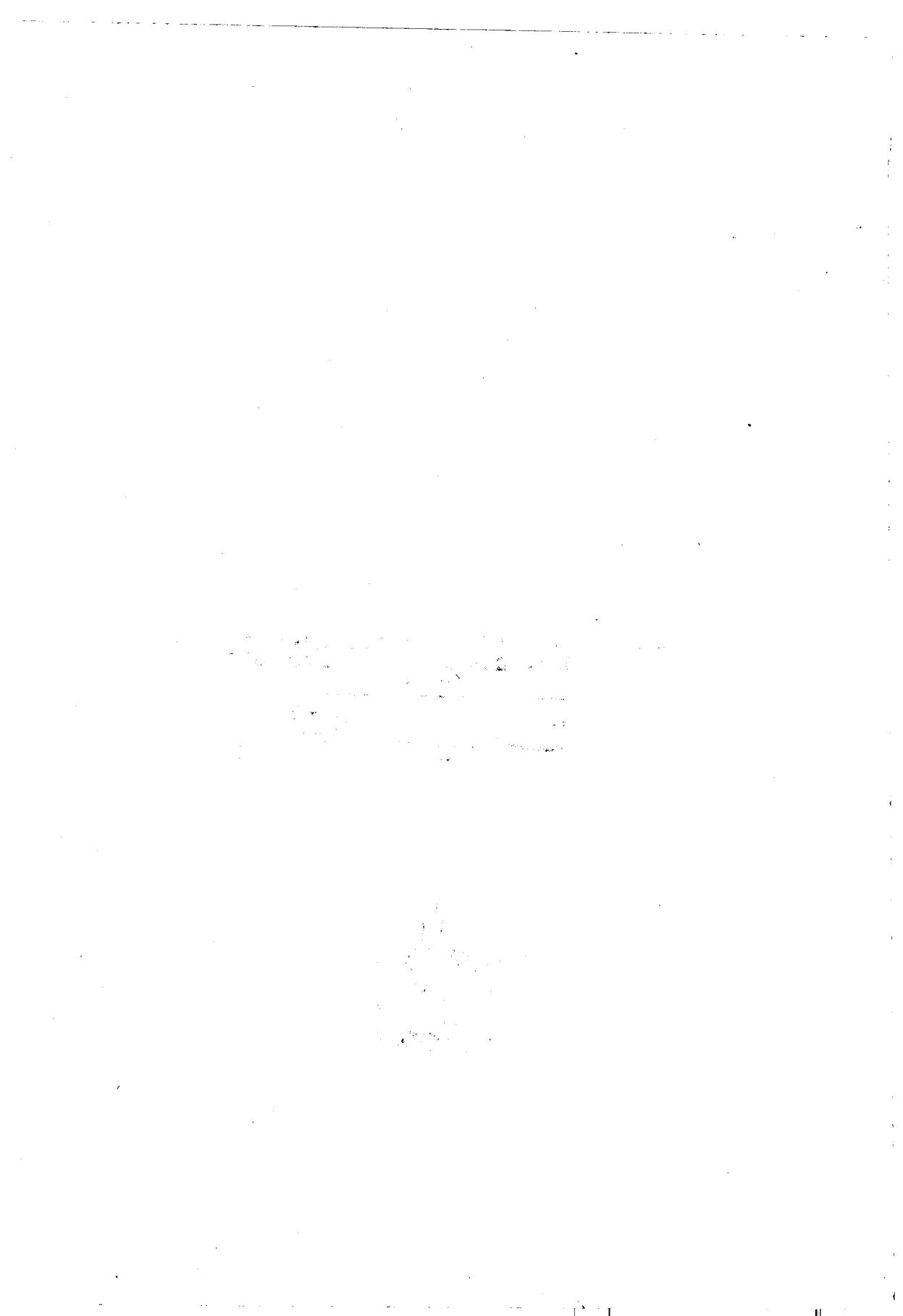
وقد ترجم له قلم ترجمة مجلة الأزهر كتابة القيم (رسائل السلام) إلى اللغة الانجليزية ، فطبعت المشيخة الأزهرية منه عشرة آلاف نسخة

نشرنا كثيراً منها لمن لا يستطيعون فهم العربية ولا نزال نبعث منها
للأجانب الراغبين .

الله نرجو أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يعوض المسلمين فيه خيراً
وأن يجعل من جهاده وإخلاصه وسيرته الطيبة ، خير مثال للصالحين ،
ومنارة هدى للسالكين .

مقالات الشيخ يوسف الدجوى
قسم اللاهيات





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الإيمان بالله

علم الطبيعة برىء مما نسبوه اليه وافتروه عليه

(١)

أدلة وجود الله :

منينا في هذه العصور - التي يجدر بنا أن نسميها عصور الزور
والإثم والفجور - بتوم ينسبون إلى العلم ما يتبرأ منه العلم ، فيعارضون
كل شيء جاء به الديانات بحجة أن العلم يابأه .

وقد وثق بهم كثير من الناس لما بهرهم من آثار ذلك العلم المادى
التي تسبى الأنظار وتدهش الأفكار ، فظنوا أن كل ما يقولون من جنس
هذه المنظورات ، وأن لهم من التجديد في المعقولات ما لهم من التجديد
في المخترعات .

ولكن فاتهم أن هؤلاء المتفیهقين المتحاملين على الأديان إنما برزوا
في المحسوسات لا في المعقولات ، وفي علوم الطبيعة لا فيما وراء الطبيعة ،
ولما لم يمكنهم أن يكذبوا على علم الطبيعة في المحسوس كذبوا عليه
في المعقول ، فكانوا كالملدس الذى لا ضمير له أو لا منطق له : فهو
يخلط الحق بالباطل والصحيح بالعاطل ، فخانوا العلم وغشوا الناس
جهلاً بالدين وبغضاً فيه وتحاملاً عليه .

مع ملاحظة أنهم ليسوا أهل منطق ولا استدلال ، وليس لديهم غير ذلك التمويه الباطل ، وتلك الثرثرة الفارغة التي ليس فيها ظل من برهان ولا أنارة من علم ، وكثيراً ما يشتهبه عليهم القياس الفاسد بالقياس الصحيح ، والتخمين باليقين ، والاستحسان بالبرهان ، وكثيراً ما تكون المسائل هناك في محل الفرض أو الأخذ والرد فيحسبونها علماً ، وهي في أول مرحلة من مراحل البحث العلمي .

وظالما تناقضوا « والمبطل لا بد أن يتناقض » فبينما هم يقررون أنهم متمسكون بالمحسوس ولا يقولون بغير ما وقع عليه العيان ، إذ تراهم يخبطون خبط عشواء في ظلمات الأوهام ، متخطين تلك الحدود التي رسموها لأنفسهم إلى حضيض الخيال والتظن والتخرص ، على أن الملحدين عندما أجهل وأقل من أن يقال إن لهم شيئاً يتقدم به العلم المحسوس أو المعقول ، وأصغر من أن يكون لهم فيه ظن أو استحسان ، وإنما هم أذيال لأولئك الماديين المتعصبين الجاهلين ، كالمناق الغمرا الذي يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فهؤلاء لا يعدون من رجال العلم ، وإنما يعدون من صبية ملاحدة الغرب الذين يصفقون لهم كلما سمعوا شيئاً من الترهات أو الخرافات « والمصفق يصم الآذان ولا يعرف البرهان » .

ولنسق إليك بيان علم الطبيعة وحدوده التي يقف عندها ولا يخرج عنها لتعلم أن هؤلاء كما مرتوا من الدين مرقوا من العلم وكما برئوا من

الصق برئوا من المنطق ، وكما قتلوا ضحاياهم أرادوا أن يقتلوا الحق
أيضاً فنقول :

إن علم الطبيعة علم تعرف به علاقات الأشياء بعضها ببعض ،
ولا بحث له عما وراء ذلك . فإذا سألته عن حقيقة الأشياء أو عن
أوائلها ومصيرها أجابك : ذلك خارج من حدودى وليس من اختصاصى .
فالطبيعى إنما يبحث عن الطبيعة وظواهرها بعد وجودها وتحققها ،
لا قبل وجودها وظهور مفتضياتها ، كما لا بحث له عن أوجدتها
ولا لماذا أوجدت فيها تلك الظواهر ، ولا كيف أودعت فيها تلك
الخواص .

فعلم الطبيعة يعرفنا مثلاً أن جزءاً من الأوكسجين وجزءاً من
الأيديروجين تكون ماءً ، ولكن كيف كون هذان العنصران ماءً مع أن
الأوكسجين عنصر محرق ، متى لقيته شئ قابل للالتهاب التهب ،
والأيديروجين عنصر لا يعيش فيه الحيوان ، وكذا الأزوت الداخلى
فى تركيب الهواء بنسبة ٧٩٪ فكيف كونا ماءً أو هواءً تكون به
الحياة وأحدهما محرق والآخر مميت .

إذا سألته هذا السؤال أجابك أنه عاجز عن تعليل ذلك ، وإن هو
إلا علم تجربة فقط ، فما أدت إليه التجربة العملية جعله قانوناً من
قوانينه ، وإن كان لا يعرف لماذا كان ولا كيف كان ، فضلاً عن أن
يعرف أول الأشياء وآخرها أو كنهها وحقيقتها .

ولديك هذا الغذاء : تعرف من أحواله أنه يهضم في الفم هضمًا أول ، ثم يهضم في المعدة هضمًا ثانيًا ، وتعرف أن في المعدة عصارة تساعد على الهضم ، ثم يخرج منها إلى الأمعاء الدقيقة فيهضم فيها هضمًا ثالثًا ، ويساعد على ذلك العصارة البنكرياسية التي أوجد لها الحكيم العليم تلك الغدة التي تفرزها ، ويساعد عليها أيضًا الصفراء التي تفرزها الكبد ، إلى آخر ما هو معروف . ولكن كيف تمثل ذلك الغذاء عينًا وفماً ويدًا ورجلاً ومخًا ومدركًا إلخ .

أو تقول : كيف تمثلت تلك الأصناف التي تأكلها من البقول والخضراوات والفواكه . . . إلخ إنسانا سميعا بصيرا عالما متكلمًا؟ إذا قلت للطبيعي : كيف صارت هذه الأشياء إنسانًا؟ ولو حدثنا أحد بذلك ما صاقناه لولا أننا نرى الأمر عيانا في كل وقت ، أو قلت له : كيف انقلب هذا التراب زرعًا وزيتونا ونخيلًا وأعنابًا وثمرات مختلفة الأشكال والالوان ؟ .

لو سألته مثل هذه الأسئلة لأجيبك : إني لا أعرف لذلك سرًا ولا أفهم له معنى ، ولكنني أقرر لك ما أثبتته المشاهدة وأوصتني إليه التجربة ، فأما ما وراء ذلك فليس من علمي ولا هو داخل تحت اختصاصي .

ولذلك قال سبنسر الفيلسوف الإنجليزي الكبير : « ليس الغرض من تعلم علم الطبيعة معرفة هذه الظواهر التي يعرفها تلامذة المدارس ، وإنما الغرض الأسمى أن نقف على ذلك السر الباهر من وراء تلك الحدود التي ينتهى إليها علم الطبيعة » . وقال باكون وهو أستاذ أساتذة علم

الطبيعة : « من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ومن شربها عبا أوصله إلى الخالق » .

أوفي (سبيل السعادة^(١)) نقلاً عن (مجلة الحياة) هذه العبارة الطريفة : « جاء في أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه الجملة : « ليست الفكرة الواحدة إلا اتحاداً يشبه اتحاد حمض الفسفوريك ؛ والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذى هو فى تركيب المخ » فرد عليها العلامة الطبيعى الشهير كاميل فلاديميون قائلاً : « من أخبركم بذلك يا حضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلمكم يعلمونكم هذه الهديانات مع أن الأمر بخلاف ذلك لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباءً منشوراً ، على أنى لا أدرى أى الأمرين يستحق أن نتعجب منه أكثر ، أمن الجسارة الصادرة من هؤلاء المشايخ العجيبين للعلم أم من سخافة ادعاءاتهم ، إن (نيوتن) كان يقول : « يظهرلى » و (ديكارت) كان يقول : « إنى أستنزل حلمكم فى هذه الفروض » ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت . نحن ننكر . هذا موجود هذا غير موجود . العلم قد حكم . العلم قد أقر . العلم قد أدهض .

مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى ، إلى أن قال : « إنكم تتجاسرون أن تعزوا إلى العلم هذا العبء الثقيل ، ولئن سمعكم العلم أيها السادة - ويجب أن يسمعكم لأنكم من أبنائه - لضحك استهزاءً من غروركم ، إنكم تقولون : العلم يثبت . العلم ينفى . العلم

(١) مؤلف من مؤلفات الشيخ الدجوى - عليه رضوان الله - وقد طبع أكثر من مرة.

يأمر . العلم ينهى . وبذلك فأنتم تضعون على شفتى هذا العلم المسكين
هذه الكلمات الضخمة ، وتدخلون إلى فرأده هزة الكبر والعجب « اه .
كلامه .

فأنت ترى مكان تلك الطنطنة الفارغة أمام الفلاسفة الصحيحة
والعلوم الحقة التي يعرفها (كاميل فلامريون وأمثاله) . وكان البحاثة
الكبير (توماس كارليل) في هؤلاء المتشدين الذين ضغطوا على
وجدانهم حتى قتلوه وعلى عقولهم حتى أزهدوها ثم دفنوها في مقبرة
المحسوسات .

قال : إنهم يحصرون هذا الكون وما به من شتى المناظر والاشكال
والأصوات والحركات العديمة العدد ، والنجوم والغيوم والقفار والبحار
في اسم مركب من بضعة أحرف (طبيعة) فيطوون جلاله العظيم في أثناء
لفظ حقير . إن للكون لروعة في القلب أي روعة وموقعاً أي موقع
لو ظهر عارياً من تلك الحجب التي غصت جماله ورونقه .

إلى أن قال : « أما ظاهر الكون فقد عرف العالم عنه شيئاً ،
وأما الباطن فهو سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كماوى ،
إنما أولى بالمرء في هذا المقام الإذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من
العلم ، وما يستفيد المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر
 مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيميائه » .

إلى أن قال : « صنع العلماء في أسرار الكون الرائع الذي يتضاءل
العلم في حضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على موجة المتلاطم كريحته
في مهب الريح » .

إلى أن قال : « إن هذا الكون على رغم العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات » ثم قال : « أليس أقصى ما نستطيع أن نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخر فهذا أكل ما يمكننا معرفته ، الكون شيء ونحن شيء غيره : قوة في قوة ، فحيثما ألقيت البصر ألفت قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية » . ثم يقول : لا أخال أنه يجتمع الإلحاد والتفكير في هذه القوى الفعالة الذاتية المحدقة بنا والتي لا تكل ولا تنى ولا تفر ولا نعرف لها أولاً ولا آخراً ولا مبدأً ولا نهاية . (فقضى على الملحدين أنهم غير مفكرين) إلى أن قال : ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هي جثة ميتة توضع في الزجاجات وتباع في الحوانيت . إلى آخر ما قال .

وقال العلامة الطبيعي الانجليزي (ميلين ادوارد) : يجب أن يدهش الإنسان حينما يرى أن أمام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج المصادفة ، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة وأثراً لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الأحجار ، وأن إلهامات النمل بل أسمى مدركات القوة الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الكيمائية ، إن هذه الفروض الباطلة أو بالأحرى هذه الأضاليل العقلية التي يسترونها باسم العلم الحسى قد أدحضها العلم الصحيح إدحاضاً ، فإن الطبيعي لا يستطيع أن يعتقد لها أبداً ، وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية

الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية .

ثم نقول لهم بعد ذلك على سبيل التنازل : هل عدم الدليل يدل على عدم المدلول ، ومل عدم العلم بالشيء يوجب العلم بعدم الشيء ، أما كنا نجهل الميكروبات والكهرباء ومكثنا على ذلك ألوف السنين : فهل نستنتج من ذلك عدمهما في الواقع ، وكذلك الراديوم مثلاً لم يعرف إلا منذ عهد قريب ، فهل كان معدوماً قبل أن تستكشفه تلك السيدة التي أبرزته إلى عالم الظهور ، وأى فرق إذن بينكم وبين زنوج أفريقية المتوحشين الذين ينكرون مرقم الخطاب الجوى : (التلغراف اللاسلكى) مثلاً لعدم علمهم به وتصورهم إياه ، اللهم إنا نرفع الصوت عالياً بأنكم في إنكار الأشياء حتى تروها بأعينكم مثل أولئك الزنوج لا فرق بينكم وبينهم ، فإن حجتكم هي حجتهم ، وما تستندون إليه عين ما يستندون إليه ، وكان ينبغي أن تربأوا بأنفسكم عن تلك المخجلات وترتفعوا بها عن ذلك المستوى الذى فيه أولئك الهمجيين المتوحشون ، بل نقول لهم أكثر من هذا ولا نخشى في الحق لومة لائم : إن الوقوف مع الحس وعدم تخطيه إنما هو شأن البهائم التى لا تعرف غير المحسوس ولا يمكنها أن ترتقى إلى ما فوقه ، فهذه فلسفة بهيمية لا إنسانية .

ثم نقول بعد ذلك : إن العلم الذى يستندون إليه كثيراً ما ينتقض اليوم ما قرره بالأمس ، فقل لى بعيشك أى ثقة تبقى لهذا العلم بعد ذلك . وأى علم هو ذلك الذى يوجب هذا التبجح وتلك الكبرياء التى

جعلتهم يحكمون على السموات والأرض ويخرجون على الله ورسوله
وينفون جازمين ويثبتون موقنين ، وكلما عرّتهم مشكلة في الكون حلّوها
بعبارة فارغة لا معنى لها عند من لا يقدرهم ولا يهابهم . وما أجدنا
أن نقول لمن يتفلسف ذلك التفلسف الفارغ الذي عرفت قيمته ما قال
بعض الفضلاء :

يا من تفلسف كي يؤيد كفره مع أنه لم يدر كنه وجوده
خسرت بسوق الفضل صفقة جاهل تخذ العلوم ذريعة لجحوده
ولنذكر لك بعد هذا شيئاً من الأدلة الواضحة القريبة التي يطرب
بها أهل الوجدان ويشهد لها أرباب صناعة البرهان ، فنقول :

أدلة واضحة

كان ينبغي ألا يختلف الناس في هذه العقيدة لأن دلالة الأثر على
المؤثر ، والنظام على المنظم ، والفعل المحكم على الحكيم بديهية بل قالوا :
إن ذلك مما يدركه الحيوان فضلاً عن الإنسان ، فإنك إذا ضربت
الحمار مثلاً التفت ليرى من ضربه ، لأنه مركوز في فطرته أن الأثر
لا يكون بلا مؤثر والفعل لا يكون بلا فاعل . فإذا رأيت كلمة مركبة
من ثلاثة أحرف لم تشك في أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير
إلى الأوقات أيقنت أن لها صانعاً رتب أجزائها وأعدّها لتلك الغاية .

وما مثل من ينكر الخالق وهو أظهر من الشمس—لأن وجود الأثر
في نظر العقول ليس أقوى ولا أجلى من وجود المؤثر—إلا كمن رأى خزان
أسوان بالقطر المصرى أو برج إيفل بفرنسا فقال : إن ذلك على فخامته

رضخامته لا يحتاج إلى مهندس ولا صانع ، أو كمن رأى كتاباً بديعاً
في مبانيه بايغاً في معانيه وفيه من الفلسفة العالية والأفكار السياسية
ما يفوق أفكار أفلاطون وفلسفة أرسطو ومن الأدب الرائع والشعر
البارع ما يسمر على شعر المتنبي وأدب أبي العلاء ، فلما نظر فيه عيس
يسر وفكر وقدر ثم قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت في صندوق
بكان معها نبيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية
نعمت حروف الطباعة في الأوراق عملها فوجد ذلك الكتاب على ماترون ؛
نهل ترمى صاحب تلك الفلسفة بالجنون .

وإذا كنت لا تسلم أن ساعة توجد بلا صانع وأن باخرة توجد
بلا مهندس ، بل لا تسلم أن كلمة صغيرة توجد بلا كاتب . فكيف
تسلم أن هذا الكون العظيم الذى يبهر العقول ويحير الألباب قد وجد
بلا موجد ونظم بلا منظم وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار
وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار إلى أنواع
لا يحصيها العد ولا يأتى عليها الحصر ، قد وجدت بلا موجد يخرجها
من العدم ويوسعها إلى مالا يحصى من الأنواع ، ويمتعها بما شاء من
الخصائص المختلفة والمزايا المتباينة والصفات المتقابلة ، علماً منه بما
بترتب على ذلك من الغايات وماله من جليل الثمرات ، ثم يحفظها
ما أودع فيها وما هياً لها ، وما أوجد بينها وبين غيرها من العلاقات
والروابط التى ربطت العالم العلوى بالعالم السفلى ، وجعلتهما جميعاً
يؤلّفان نظاماً واحداً يرمى إلى غاية واحدة .

فكان العوالم كلها في ترابطها وتضامنها - أو نقول في تجاذبها وتضافرها على مقصد واحد - تؤلف بيتاً أحكمه بانيه . فلست ترى شيئاً صغيراً أو كبيراً إلا لغرض سام وحكمة جليلة ، أو كأنها جسم واحد قد تعاونت أعضاؤه وتضافرت أجزاؤه ، وإذا نظرت إلى كل جزء من أجزائه بهرك ما فيه من حكم وأسرار وما نيظ به من منافع وآثار فإذا نظرت إلى ما بين تلك الأجزاء من العلاقات وما فيها من الدقائق الخفيات والمناسبات المدهشات . ورأيتها متآخذاً يمسك كل منها بحجزة الآخر ، وهى مسوقة للسير الدائم لا تفتت ولا تنى ولا تعرف الهدوء ولا السكون ، علمت أن لها مديراً دبرها ، ومقدراً قدرها ، وحكيماً سيرها ، هقيوماً يكلؤها بعينه التى لا تنام ، وقدرته التى لا ترام .

وقد قال بعض الفلاسفة : يكفينى من الدلالة على الله وجو الأنثى بجانب الذكر ، فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود المرأة فأوجدتها وغايرت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومتعته بما يجذب الرجل إليها من صفات الجمال حتى فى صوتها ، ومنحتها ما يحتاج إليه يطفلها الصغير . هذا معنى ما قال ، وهو يشبه ما قال أفلاطون : « يكفيننا ما فى العين من التدبير الذى جعلها فى مكان من الحجاج ، وجعل لها الحاجب ليقبها من العرق أن يتساقط فيها ، والهدب ليقبها الغبار ولا ينعجها الضوء » .

وقد قال (فولتير) وهو من أكبر الفرنسيين : من قال إن طبقات العين العجيبة التي تدل كل واحدة منها على حكمة سامية قد وجدت بالمصادفة كان مصاباً بأفطع أنواع الجنون التي تلم بنوع الإنسان .

وقال بعض فلاسفة اليونان لرجل يقول : إني معجب بفلان المصور الذى يخرج لنا تلك الصور البديعة ، قال له ذلك الفيلسوف (وأظنه أفلاطون) : من الذى يستحق الإعجاب أكثر ؟ من يصور صورة لا روح فيها أم من يصور صورة فيها روح .

وإن شئت بعد ذلك فانظر إلى الإنسان وما فيه من العجائب ، فنظرك فيه يكفيك . (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(١) ولسنا ننهج بك نهج الفلاسفة الذين يقولون : إن كل شئ ممكن وكل ممكن لا شئ له من ذاته ، فلا بد من مرجح يرجح وجوده على عدمه ، ويعطيه مقداره الخاص به ، الذى كان يجوز أن يكون أصغر منه أو أكبر ، ومنحه كل الصفات القائمة به ، التي تجوز عليه هي ومقابلاتها ، حيث إن الجميع جائز عليه ، فلا بد من مرجح يجعله متمتعاً بتلك الصفات المخصوصة دون غيرها ، وواقفاً عند ذلك الحد منها دون ما فوقه وما دونه .

ولكن نسلك إليك طريقاً أوضح ومهيماً أوسع ونريك الأمر فصلاً . ودقائق الصنع واضحة جلية حتى تكون لمس اليد ورأى العين فنقول قبل كل شئ : إن المادة ليس فيها حياة ولا إدراك ، ومن البدهي أن فاقد الشئ لا يعطيه ، فلا يمكنها أن تعطى عبداً ما ليس عندها ، وقد أحسوا ذلك فاعترفوا بأنهم عاجزون عن تعليل الحياة بالتعاليل الطبيعية ،

أما المكابرون منهم فيقولون : إنها فلتة من فلتات الطبيعة ، ولا ندرى ما معنى ذلك وكيف يعقلونه ، وهل فلتة الطبيعة تجوز أن يوجد معلول بلا علة ، ومسبب بلا سبب ، اللهم إن ذلك غير معقول ، فالحياة وحدها كافية في إفحامهم فضلاً عن الإدراك السامى والعلم الواسع اللذين لا تملكهما المادة لنفسها ، على أن المادة وخصائصها لا يعقل أن تكون إلا من غيرها لا منها (أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)^(١) على أن المادة لا يظهر عنها إلا مقتضاها ، أما اجتماعها مع غيرها ، واتفاقها هي وسواها على أن توجد أشياء مرتبة وأمرراً مدبرة منظمة تشتمل على حِكْمٍ كبيرة وترمى إلى غايات بعيدة فمما لا يعقل فيها بوجه من الوجوه ، وهل يعقل أن العناصر التي تتألف منها اليد والرجل والمعدة والأمعاء والقلب والكبد والمخ أرسل بعضها إلى بعض من أجل أن تجتمع ، ثم توزع العمل فيؤلف بعضها قلباً وبعضها كبداً وبعضها عيناً وبعضها في المرأة رحماً الخ . . وهل علمت بيضة الصقر أنه يتغذى باللحوم فهيأته لذلك ، بخلاف بيضة العصفور والدجاجة مثلاً .

فإذا قلنا : إن المادة تفعل مقتضاها على حسب ما أودع الله فيها من الخصائص ، فهل يمكنها أن تنتج كائناً حياً سميعاً بصيراً ؟ وهل يمكنها أن تدبر الأشياء تدبيراً حكيماً بحيث يكون في موضعه اللائق به ولغاياته المقصودة منه ؟ وإذا كان لها سلطان على نفسها وظواهر من ذاتها فكيف يكون لها السلطان على غيرها حتى تأتي به معها وتنوطه بعمل خاص لغرض خاص ، اللهم إن ذلك غير معقول ولا مفهوم .

فهل علمت المادة أنه لا بد لك من عين تبصر بها ، وأنه لا بد لها من طبقات مختلفة في الشكل والتركيب ، وأنه لا بد لها من صيانتها لما فيها من مزيد الرقة واللطافة فجعلتها في حجاج العين ، وحاطتها بتلك العظام الصلبة وهذا الغطاء الذي يشتمل على الجفن والهدب وعلى ذلك الحاجب الأعلى ، إلى آخر ما لا يمكننا شرحه ولا الخوض فيه .

وماذا يكون الحال لو كانت هذه العين في الرجل أو تحت الإبط مثلاً .

ثم نقول : هل علمت الطبيعة أنه لا بد لك من أكل وشرب ، فصنعت لك الفم وجعلت فيه الأسنان والأضراس مشكلة بأشكال مختلفة لحكم جليلة ، ثم جعلت له غطاءً من الشفتين والأشداق ، ثم علمت أن الغذاء لا يمكنك بلعه إلا بسائل تسيغه به ، فخلقت لك الريق وركبته من تلك العناصر التي تفيد في هضم الطعام . ثم جعلت لك منفذين : منفذاً للنفس ومنفذاً للطعام والشراب ، ثم احتاطت فجعلت لك غطاءً يغطي به مجرى النفس عند البلع خوفاً من أن تدخله اللقمة فتموت ، ثم جعلت لك ذلك اللسان الذي لا تحصى عجائبه ولا تعد فوائده ، ثم جعلت لك معدة مركبة تركيباً خاصاً لكي تفرز تلك العصارة المعدية . ثم جعلت لك أمعاء يتم فيها الهضم الثالث . ودبرت لذلك تدبيراً حكيماً فأعانتها بالعصارة البنكرياسية وبالصفراء التي تفرزها الكبد ثم ترسلها إليها عند الحاجة ، ثم خلقت لك الكلى التي تفرز البول وهيئات له السبيل .

فقل لى بعيشك : كيف يكون الحال إذا لم يدبر للغذاء سبيل الخروج كما دبر له سبيل الدخول ، وكيف يكون الحال إذا لم توجد فيك تلك المفاصل وماذا كنت تصنع عند القيام أو الرقاد أو الجلوس ، وإلى أى حد من المشقة والضيق كنت تصل إذا لم يخلق لك ذلك الأنف الذى تتنفس منه وتستنشق منه الهواء صافياً خالياً من التراب والغبار بواسطة ما أودع الله فيه من تلك المصفاة العجيبة البديعة .

وماذا كنت صانعاً لو خلقت بلا يدين أو خلقت اليد بلا مفاصل تمكنها من الحركات المختلفة إلى الجهات المختلفة ، أو خلقت اليد بلا كف ولا أصابع ، أو خلقت الأصابع بلا أنامل ولا أظافر ، إلى آخر ما يطول الكلام فيه ، ولا نستطيع أن نصل إلى باطنه وخوافيه غير أن نقول بالإجمال : إن الذى وضع فيك الرئتين لإصلاح الدم ، ووضع فيك القلب بشكله المخصوص وتقسيمه إلى : الأذين الأيمن ، والأذين الأيسر ، والبطين الأيمن ، والبطين الأيسر ، وما دبر لذلك من تلك المجارى التى تحمل الدم الصالح المسماة بالشرابين ، وهاتيك المجارى الأخرى التى تحمل الدم الفاسد المسماة بالأوردة ، وأوجد تلك الصهومات المختلفة ، إلى آخر ما أدهش علماء الفزيولوجيا ، إن الذى فعل ذلك وأضعافه وأضعافه لجدير أن يعرف ولا ينكر ، ويشكر ولا يكفر .

إن الطبيعة لا يمكنها التفتن فى العمل ، ولا أن تلاحظ المقاصد والغايات فتدبرها تدبيراً وتقديرًا وسائلها تقديرًا ، ولكننا نرى فى

الإنسانى من الأشكال والألوان والصنائع والتدبيرات أفانين وأعاجيب ،
الجسم فنجد نصفه الأعلى يغاير نصفه الاسفل ، ورأسه يغاير بدنه ، وكل
عضو فيه يباين الآخر .

وما من عظم صغير أو كبير ولا عصب ولا وريد ولا شريان
إلا قد وجد لحكمة كبرى ، ولو زاد عن مقداره الذى هو عليه أو
نقص عنه أو تغير موضعه لاختل نظام الجسم ، حتى الشرايين الشعرية
التي هي كالشعر أو أدق منه بكثير كل واحد منها لحكمة كبرى ،
ولو زال عن محله أو زاد عن مقداره لفسدت الصحة واختل مزاج
البدن .

ولتعلم أن الأشياء الطبيعية لا يعجز عنها الإنسان بعد ما عرك
ظواهر الطبيعة ومقتضياتها وتحليل المادة وعناصرها وقوانين المزج
والاتحاد ، وأحكام الجوامد والسوائل والغازات ، ولذلك تراهم
يخترعون لنا من الآلات على مقتضى تلك الظواهر ما نشاهده كل
يوم ، ولكن ليس في إمكان الطبيعة أن تنظم وتدبر ، ولا في إمكان
الطبيعيين - وقد عرفوا عناصر الأحياء - أن يوجدوا لنا إنساناً
أو عضواً حياً مع أن الأمر لو كان طبيعياً لم يتوقف إلا على عناصره
التي يعرفونها ويمكنهم أن يركبوه تركيباً طبيعياً على مقتضى قوانينهم .

ومن نظر في مقدار حبة خردل من الجسم الإنسانى كفته في
الدلالة على الله ، فإن في تلك الذرة الصغيرة من جسمك عصباً للحس
وعصباً للحركة ومجرى للدم الشرياني ومجرى آخر للدم الوريدي ،
إلى غير ذلك مما لا يحصره العد ولا يأتى عليه القول .

وبالجملة إن أنكر الطبيعيون ما في الإنسان من الأعمال المدهشة والأسرار الغريبة التي أثبتت في كل ذراته بحيث لو أخذنا منها شرياناً شعرياً لتعطلت وظيفته ، لو أنكروا ذلك كانوا مجانين وكذبهم علماء الفزيولوجيا تكذيباً مخجلاً ، وإن اعترفوا بأن كل شيء فيه لحكمة لافرق بين مادقّ منه وما جلّ كما يقرره العلماء وكما هو مشاهد ، تم نسبوا ذلك لتلك المادة الصماء العمياء كانوا أشد جنوناً من المجانين وأفظع جهلاً من الحيوان الأعجم ، فأين يذهبون .

ولعلنا ننظر نظرة أخرى في بقية العوالم وما اشتملت عليه من الحكم والأسرار في أنفسها وما وضع بينها من العلاقات والروابط وما نيظ بها على وجه التضافر والمعونة من الغايات والمقاصد إن شاء الله .

الإيمانُ بالله . ومناقشة الطبيعيين^(١)

(٢)

عجبا للطبيعيين يبحثون لكل شيء يحدث في الوجود عن سبب ولو كان صغيراً وحقيقياً ، فإذا وصلوا إلى سبب الأسباب وما لا يعقل شيء إلا به أنكروه . وقد قال بعض الفلاسفة : « إن إنكار السبب الأول للأشياء بمنزلة عدم الأسباب بالكلية ، فليس بمعقول أن الحلقة من السلسلة تحتاج إلى ما يمسكها من الحلقات الأخرى ، والسلسلة كلها لا تحتاج إلى ممسك » .

وقال آخر : لا يمكننا أن نعقل شيئاً ولا أن نعرف سراً في هذا الوجود ما لم نعرف بوجود الخالق ، وإلا تعذر علينا تعليل الأشياء تعليلاً مفهوماً .

ثم نقول : من تأمل في الحكم المودعة في تركيب المركبات خصوصاً الحيوان والإنسان وما نيط بكل جزء من أجزائها وكيف تعاونت الأجزاء كلها على مقصود واحد ، ثم نظر بعد ذلك في ارتباط مجموع العالم ببعضه ببعض وما أودع فيه من غريب الصنع ودقيق الحكمة ، حتى إنك لاتجد ذرة في جسم الإنسان أو في جسم العالم كله إلا لحكمة سامية ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

من تأمل هذا كله بهره ذلك العلم الذى وسع كل شئ ، وأتقن كل شئ ، ودبر كل شئ ، وحفظ كل شئ ، وقام على كل شئ . وما تسابقت العلماء فى ميدان البحث ولا تبريزهم فى مجال العلم إلا لاستطلاع هذه الحكم ، واستكشاف تلك الأسرار التى أبان علم التشريح منها شيئاً كثيراً أو قليلاً . وكذلك علم الفلك وكل العلوم التى تدور حول ذلك المحور ، وتشيد صرح عظمة الله - تعالى - كما قال بعض الفلاسفة ، وستسمع ما قال .

وما هذه الكتب المتراكمة فى علم النبات والحيوان والإنسان والمعادن والأرض والسماء والنجوم والأفلاك ، وكل ما كتب فيه العالم من أوله إلى آخره إلا نقطة صغيرة من علم الله - تعالى - الذى دبر هذا العالم ، لأنها تفصيل لبعض ما أودعه من الأسرار فى أرضه وسمائه ولسنا فى الوجود إلا شيئاً ضئيلاً . ولعل ما عندنا غيرنا من العوالم يفوق ما عندنا أضعافاً مضاعفة . فليست أرضنا هذه إلا كحبة رمل صغيرة فى جانب غيرها من العوالم .

وقال العلامة الشهير (هرشل) : « كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية ، فعلماء طبقات الأرض والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده .

ثم لو فرضنا أنهم عرفوا نواميس هذه الأرض كلها - مع أن ذلك محال - لما كان ينبغى لهم أن يتبجحوا بهذا التبجح ، فإن الأرض بجانب غيرها من العوالم ليست إلا شيئاً ضئيلاً جداً كما قلنا .

ولعل فيها ما لم يصلوا إلى معرفته ولم يحلموا بشيء من نواميسه .
هذا ولنقل لهم بعد ذلك : هل حافظتم على مبدئكم ومقتضى
مذهبكم فلم تقولوا إلا بالمحسوس عند ما قلتم ببقاء القوة والمادة وأنها
لا تزيد ولا تنقص ولا تفتى ؟ فهل سببتم العالم كله ووزنتم ما فيه من
مادة وقوة فعرفتم مقدارها حتى قلتم بذلك ؟

لايستطيع أحد منكم أن يدعى هذا ، وهل وصاكم من الوسائل
والآلات إلى حد لا يمكن الزيادة عليه حتى قلتم بعدم فناء المادة .

ألم يبلغكم ماقرره (جوستاف لوبون) وغيره : (إن انادة تفتى)
وسواء أصبح هذا الرأي أم لم يصبح فقد قلتم بغير المحسوس : وعاراضه
هذا العلامة بالمحسوس الذى قام عليه البرهان الحسى عنده . فقد رجعت
من العيان إلى البرهان ، وكل نظرية لايشهد لها العيان بوقوعها تحت
الحس وامتحانها بالتجربة فليست عندكم من العلم فى شيء .

وهذا مايتبجحون به ، ولكنهم يضطرون إلى نقضه فى مسائل كثيرة
كما سمعت وكما تسمع . فإن قولهم ، إن دقائق المادة تتجاذب
وتتدافع لايمكنهم أن يثبتوه ثبوتاً علمياً ، بل يكاد يعجز العقل عن
إدراكه ولتسليم به . فإننا لانعقل كيف أن دقيقة من دقائق المادة
تجذب أخرى فى حين أنها تدفعها ، ومع ذلك هم قائلون به من غير أن
يعلموه أو يفهموه . فآين أساسهم الذى أسسوه .

وما احتراضهم بعد ذلك على أصحاب الإيمان وأرباب البرهان .
وما قيمة قولهم : إننا لا نؤمن إلا بما رأينا ، ولا نرضى لأنفسنا أن
نقول بالخرافات أو الخيالات .

« لا يا حضرات الفلاسفة » إننا ندعوكم أن تقولوا بما توجهه العقول
ويقوم عليه البرهان كما هو شأن أنواع الإنسان . ولذلك نراكم تلجئون
إلى النظر والامتدلال في كثير من المسائل ، لأنكم من نوع الإنسان
الذي فطر على ذلك على كل حال .

ثم نقول لكم بعد ذلك : ماذا استكشفتكم من النواميس حتى تحكموا
على السماء والأرض وعلى المنظور وغير المنظور . لم تكشفوا إلا بضعة
نواميس قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فليست هذه الأرض في
جانب العوالم إلا كحجرة صغيرة للحيوانات الدنيا في جانب قصر
كبير . وقد حيركم ما أودع فيها من الأسرار والخواص . وما جهتتموه
منها أكثر مما علمتموه باعتراف المنصفين منكم ، ثم نقول : إنكم
ما أخذتم علمكم إلا عن الحواس وهى في خداجها وخداعها على ما بينه
العلماء . فما هذا التبجح الذى لا أساس له يا إخواننا فى الإنسانية .

ولست أدرى كيف ينكرون ما وراء الحس ويتبجحون بأنهم
لا يقولون إلا بالمحسوس ، وقد تركوا لغيرهم الخرافات والأوهام ،
ساخرين منهم هازئين بهم ، مع أننا نراهم أثبتوا الأثير وبنوا عليه
كثيراً من قواعدهم ، ولم يروه ولا أحسوا به . فإن قالوا : أثبتناه
بالأدلة الكثيرة فقد نقضوا أصلهم ورجعوا إلى الاستدلال ، وأى فرق
إذاً بينهم وبين من يستدل على الله بآثاره وباهر أنواره وعلى الروح
بظواهرها التى يستحيل لدى العقل الصحيح أن تكون أثراً لذبذبات
المادة أو شعاعاً لفسفور المخ ، إلى آخر ما يتخيلون . وهل هذا إلا
عدول عن المعقول المقبول إلى التخيلات الفرغة والتعليقات السقيمة ،

فضلاً عن كونهم هدموا بذلك ما أصلوه من القول بالمحسوس ومجافاة
غير المحسوس .

على أنه يمكننا أن نطعن على الحس أكثر مما طعنوا على العقل
فنقول :

إن إدراك هذا العالم المحسوس الخارج عنا إنما هو بوساطة الحس ،
فلو فقدنا البصر لم يكن للمبصرات وجود عندنا ، ولو فقدنا السمع
لم يكن للمسموعات وجود كذلك إلى آخره . فالذى يصلنا بالعالم
الخارجي إنما هو حواسنا ، فهل الحس مأمون ؟ (اللهم لا) . وقد
بينوا ذلك في كتب الفلسفة القديمة وذكروا : أن هناك فرقة لانقول
بشهادة الحس الذى يغلط كثيراً ، فإننا نرى حبة العنب مثلاً فى الماء
كبيرة ، ونرى مافى البر يعجرى إذا كنا فى البحر ، وها هو ذا كوكبنا
الأرضى يسير بنا أسرع من كل سريع عندنا ولانحس به ، ونتوهمه
[ثابتاً ساكناً] .

فما الذى يؤمننا أن نكون مخطئين فيما نحس به ، وها هى ذى
الألوان تستند إلى ذبذبات معينة فى الأثير حتى تتصل بأبصارنا ،
ويتغير الحكم لدينا بقلة عدد الذبذبات وكثرتها ، وكذلك الأصوات
فى سمعنا على ماقرروه ، فكيف نحكم على الأشياء بأنها فى الواقع على
ماهى عليه عندنا والحواس على ما سمعت ، على أننا لو تنزلنا وقبلنا
أحكام الحواس على علاتها وكثرة ما يكون فيها من الخطأ ، فما الذى
يؤمننا بعد ذلك أن تكون هناك أشياء لاتدرك إلا بحالة أخرى لم تخلق

فيينا . وقد أثبت بعضهم للنحل حاسة ليست في الإنسان ، وكذلك لغير النحل كالحمّام والكلاب ، وقد ذكروا أنّ القطاط ترى في الظلام إلى آخره ، وعلى كل حال فالإبصار لا يكون إلا على حد محدود من الذبذبات في الأثير ولا يمكن فيما دون ذلك ، وكذلك السمع . ومما لاشك فيه أنّ الحيوانات مختلفة في ذلك اختلافاً كثيراً ، فأى ثقة بالحس حتى ترتبوا عليه ذلك كله ؟

أفلا يجوز أن تكون الأشياء في الواقع على غير ما أدركناه بحسنا . اللهم إن ذلك جائز وواقع . فيجب إذاً أن يكون التعويل على العقل لا على الحس ، والثقة بالبرهان لا بالعيان . وإن رأيتم أنّ ذلك إفراط . (فليس دواء الإفراط إلا الإفراط .) والعقل أولى أن يكون ذا السلطان ومرجع الإنسان .

ويعجبنى قول العلامة (كروزيار) في هذا المقام : إذا كنت لا أقول إلا بالمحسوس فكيف يمكنني أن أعرف أن صديقي الذي يماشيني يجوز شيئاً أدعوه العقل ، إني لأستطيع أن أراه أو أحس به أو أتناوله بتجربة أتخذ مجهر الطبيب أو مشرط الجراح أو مجهزات الكيماوى أداة لها ، فلو كان معتدى في عقل صاحبي يعود إلى مقدار ما أستطيع أن أعرف منه علمياً (أى بالحس) لم أستطع أن أعتقد بوجوده مطلقاً ، مع أن مفخرة العلم الحاضر ادعاؤه بأن كل مستنتاجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس ، فإذا وجود العقل في صاحبي كوجود (واجب الوجود) كلاهما اعتقاد إلزامي لا نستطيع أن نعرفه من طريق الحس ، وفي الوقت نفسه نحن ملزمون بالاعتقاد به .

ثم قال : كيف ندرك أن العقل متفوق على المادة وأن العواطف العقلية أركى طبيعة من العواطف الحسية ، كيف ندرك أن الشجاعة وكرامة الأخلاق وتضحية النفس أصنى طبيعة من حب الملاذ والخشونة وأشرف من الحسيات بضروبها وأن خلايا المخ هي التي تنشئ من نشاطها وحركتها تلك الانفعالات . ولكن نعرف من جهة أخرى وبقدر ما يسمع لنا به العم الطبعي أن هذه الخلايا متشابهة في المرتبة والقدر ، فكيف وقع الفرق في المرتبة بين الانفعالات المتشاكلة . ولولا هذا الاعتقاد لأصبحت العلوم والمجادلات الأدبية برمتها سخرية وتضليلاً ، وهناك تتعطل المسالـح العظمى في حياة الإنسان ، ويبطل التفريق بين درجات الفضيلة والرذيلة والمدح والذم والشرف والإسفاف ، ونصبح هذه الأشياء غير واقعية ولا حتمية ، وهو ما ينافي العقل ويصادم البدية . انتهى كلام هذا المفكر الكبير .

ثم نقول لهم بعد ذلك : هل يعقل أنكم تطلبون لكل شيء سبباً ثم لا تطلبون للكون كاه سبباً ؟ ثم نكرر ما قلناه ببسط وتوسيع : هل يعقل أن كل حلقة من حلقات العالم تحتاج إلى حلقة تمسكها أو تنشأ عنها أو تعتمد عليها أو قل ما شئت ، ولا تحتاج السلسلة كلها إلى ممسك يمسكها ومبدأ تعتمد عليه . وهل إذا وجدنا مدفعاً كبيراً ذا صنع دقيق ، ولقذوفاته الأثر الكبير ، وقد عرفنا سر صنعته وترتيب أجزائه وانصال حلقاته إلى أن يترتب عليه أثره في الوجود ، فهل يغنينا ذلك عن التساؤل الذي صنعه ، والعقل الذي دبره والإرادة التي أرادته ؟

اللهم إن الأمر جليّ واضح حتى على مقتضى قوانينهم التي تطلب لكل شئ سبباً وتبحث لكل معلول عن علة . ولا أدري كيف يبحثون في الأشياء الجزئية عن عللها ثم لا يبحثون للمجموع عن علته ، ثم نقول من وجه آخر : إذا عرفت أطوار البذر ودرجات نموه حتى يثمر : فهل يُعدّ ذلك معرفة للبذرة نفسها ولما أُودع فيها من السر الذي أوجب هذا النمو وذلك الإثمار . على أن معرفتهم للأشياء التي يدعونها ليست ناشئة إلا عن رؤيتهم تواليها وحدث بعضها عقب بعض ، فما الذي أدراهم أن الحلقة السابقة هي الفاعلة في الحلقة اللاحقة ، بل ما الذي أدراهم أنها سبب حقيقي في حدوث ما بعدها ، وهم لم يشاهدوا إلا وجود هذا عقب ذلك لا غير .

وهل هذا يفيد السببية الحقيقية أو يقتضى الفاعلية المؤثرة أم ذلك ظن وتخمين لاشهود عيان كما يزعمون ، وقد ينطقون بالصواب في بعض الأحيان من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فيقولون سنة الكون فإذن الأسباب هي السنن والسببية هي العادة الجارية بحدوث هذا عقب ذلك ، أما التأثير أو الفاعلية أو السببية الحقيقية فأمر وراء ذلك . فإن القوانين التي تضعها والخطط التي ترسمها والأعمال التي ترتبها على نظام خاص ، لاتدل على تأثير بعضها في بعض ، ولا إيجاد بعضها لبعض ، وإنما هي قوانين اقتضتها إرادة المقنن ، وأنظمة استدعتها حكمة المنظم ، فهذا هو كل ماتعطينا المشاهدة التي ظلموها فنسبوا إليها ما هي بريئة منه ، على أننا نستطيع أن نقول : إنهم لم يعرفوا حقيقة

شئ على الإطلاق ، وإنما هي ظواهر يعرفونها عند ظهورها ، أما مهابيا الأشياء فلم يصلوا إليها ولم يعثروا عليها .

أما كلمة قوة ومادة التي يعتبرونها من الأوليات الضرورية وأنها كذلك من حيث ظاهراتها المحسوسة ، فلا تؤدى إلى العقل - كما قال بعض المحققين - إلا معانى خفية غامضة مجملة لا تفيد شيئاً من معرفة الماهية والحقيقة . ويكفى أن ما يذكرونه في أمثال ذلك لا يخرج عن كونه جنساً عالياً أو عرضاً عاماً ، وقد ذكر المنطقيون أن التعريف بالجنس لا يفيد ، وأن التعريف بالخاصة رسم ناقص ، والرسم لا يبين الكنه ولا يشرح الحقيقة . وكذلك الحياة والإدراك والتذكر والتخيل لا يمكنهم أن يعللوه تعليلاً مادياً فضلاً عن أن يعرفوا الحقيقة والماهية .

ومن أظهر الاشياء أن المادة التي حللناها كل التحليل وقلبوها على كل وجه وفعلوا بها الأفاعيل (أو فعلت بهم الأفاعيل) لم يعرفوا حقيقتها حتى الآن ، فبعد أن قالوا : إنها جواهر فردية ، واستمروا على ذلك قروناً كثيرة رجعوا فثابتوا مذهب الالكترونات وما فيه من تخمين أو يقين . وأثبتوا ذلك الدوران السريع الذي يوجب دوران الدماغ في تلك المنظومات التي تشبه المنظومات الشمسية على ما يقولون ولا داعى للتوسع ولعلك رأيته وقرأته .

ومن أغرب ما قالوه فيها وهو من أحدث الآراء : إنها الحركة وليت شعري هل الحركة تقوم بغير متحرك وهل العرض يقوم بنفسه .

ولكن مالنا ولهذا ، وإنما نريد أن نقول : إنهم عجزوا عن إدراك حقائق الأشياء حتى المادة التي عبدوها ولم يعرفوا شيئاً سواها ، وهكذا شأنهم في كل أدوارهم يتبجحون من غير علم ، ويحسبون أنهم على شيء وما هم على شيء . فقد قالوا : انتصرت المادة وارتفع لواؤها عندما استكشف (غليليو) دوران الأرض ، وقالوا مثل ذلك عندما كشف (نيوتن) الجاذبية . وقالوا مثل ذلك عندما قال (دوران) بالنشوء والارتقاء . وقالوا ذلك عندما وضع (لا بلاس) قاعدة نظام العالم على ما يزعم .

وقد جاءهم (اينشتين) أخيراً فهدم لهم نظرياتهم الأولى وأتاهم بشيء جديد إذ تم هدم كل قواعدهم ومقرراتهم . وهكذا لا يزالون يتبجحون تبجح الأطفال عندما يظفرون بشيء ضئيل ، ويصفقون تصفيق الجهال للشيء العليل والنزر القليل . وقد كانوا يظنون في كل دور من تلك الأدوار أنهم أكملوا ما لديهم من نقص وسددوا ما في مذاهبهم من فراغ ، ثم تبين لهم أن النقص لازم لهم ، والاستدراك قضاءً عليهم ، ولا يزالون كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولا يفوتنا أن ننصح لهم أن الوقوف مع الحس هو شأن الحيوان لا الإنسان ، والنظر إلى الأسباب الأخيرة دون المسبب الأول يشبه مايقع من الحيوانات التي تعرف سائسها الذي يقدم إليها ما تأكله دون رباها ، أو الحيوانات التي إذا ضربت بالحجر عضته لا اعتقادها أنه هو الذي ضربها ، أو الحيوانات الدنيا التي ترى المداد يسود القرطاس ، فتعتقد أنه من القلم لكونها لا ترى الكاتب لقصر نظرها .

ومع هذا فربما كان الماديون معذورين بتصرّهم أنفسهم على دراسة المادة التي وجدوا الباري قد وضع فيها من الأسرار ما يدهش العقول ويحير الأفكار ، وجعل لها نواميس ثابتة ، فلم تقو أبصارهم على استطلاع شمس الألوهية من وراء تلك الحجب فقالوا ما قالوا ، ولو نزلوا من عروش كبرياتهم إلى الإنصاف وحسن التفاهم لعلموا أن مدارسه لا يخرج عن كونه سنناً وقوانين وضعها الخالق في خليقته ، وأنظمة أبدنها الحكيم بحكمته ، وليس لذلك كله شيء من الفاعلية بل هو أدل على القابلية من الفاعلية ، وكان يجب أن يكونوا أكثر الناس إيماناً لأن من عرف سر الصنعة كان أعلم بالصانع ، فكان يلزم من عمهم بذلك النظام العجيب أن تكون معرفتهم بالحكيم الذي أتقنه بحكمته التي تدهش الأبواب ، وقدرته التي لا حد لها ، أعظم من معرفة غيرهم وإيمانهم أشد وأثبت ولكن الإنسان هو الإنسان .

كلمة انصاف عن الدينين والطبعين

رأينا أن نختم مقالنا هذا بكلمة إنصاف تقرب بين الفريقين وتشرح وجهة النظرين ، ولعلها تزيل ما بينهما من خلاف أو تقلل ما مرنا عليه من اعتساف فنقول :

يظهر أن المتدينين أنكروا الأسباب الظاهرية التي تستند إليها مسيئاتها دفاعاً عما يعتقدون من التوحيد فيما يظنون ، فصادموا المحموس وجنوا بذلك جناية كبرى على الدين ولكن تطرف الطبعيون أيضاً عندما كشفوا الأسباب الموجبة للمسببات عن مقتضى السنن

التي وضعها الله في العالم . فقالوا : ليس هناك تدخل لغير هذه الأسباب في إيجاد شيء من الأشياء ولا إيجاد أنفسها .

ولكن لو عرف الطبيعيون أن هذا قانون وضعه الله في العالم لأنه حكيم فتأني حكيمته أن يكون العالم فوضى بلا قانون ولا نظام ، واعترف لهم أهل الدين بذلك كما يفعل مفكروهم وفلاسفتهم ، وعرف الطبيعيون أن هذه النواميس ليست مؤثرة ولا فاعلة وعلمهم نفسه لا يثبت التأثير ولا يدل على الفاعلية وإنما وظيفة العلم الطبيعي أن يبين العلاقات والترتب والنظام والارتباط بين الأشياء .

وليس عندهم ما يدل على السببية الحقيقية كما قلنا ، ولذلك يعبر كثير منهم بالسنن ، وهي كلمة لا تفيد غير القانون والنظام ، بل هم معترفون أنها ليست سببية حقيقية . ومصرحون بأن العلم الطبيعي لا يدل على ذلك ، لو عرفوا ذلك كله وعرفوا بعد هذا أن ما استكشفوا ليس إلا نزرا يسيرا لا يقام به وزن ، بجانب هذا الكون العظيم ، ثم ضموا إلى ذلك تلك الحتمية الناصعة التي لأمرأة فيها : وهي أن الكون بعد كل تنزل محتاج في مجموعه ووحدة نظامه وأصل وجوده إلى علة ، ولا يمكن أن يكون كل جزء فيه محتاجاً إلى علة ومجموعه غير محتاج إليها .

وليس في قدرة العالم الطبيعي الذي يبحث عن علل الجزئيات المعينة والحلقات المتوالية أن يستكشف علة المجموع في أصل وجوده ولا أن يعرف كيف تمت له هذه الوحدة ولا ما هو الأصل الذي أعطاه

ذلك النظام بوساطة علمه الطبيعي بل نقول : لا يمكنه أن يعرف كيف
اختص كل جزء فيه بخاصته المعينة ، ولا لماذا وقفت العناصر الأصلية
عند ذلك الحد الذي وصلت إليه من نحو ثمانين عنصراً على
ما يقولون ، ولا لماذا كان بعضها في هذا الوجود أكثر من بعض
(كالاكسوجين) مثلاً مع (الراديوم) أو غيره من العناصر العزيزة
الوجود ، لو عرف الطبيعيون ذلك وعرف الدينيون أن الاعتراف
بالأسباب والمسببات والقوانين والأنظمة لا تمس الألوهية بشيء ، بل
على العكس من ذلك تثبت حكمة الله وعلمه الذي لا يتناهى . لو تم
ذلك لما كان هناك نزاع بين الفريقين ولتم الصلح بينهما ، ولست
أظن أن هناك نزاعاً بين المحققين من الدينيين والراسخين من الطبيعيين .

ولكن ماذا نصنع وقد جمد كل فريق على ما أداه إليه علمه
الناقص ونظره القاصر . فكان شراً مستطيراً على نفسه وعلى الناس .

وقد علمنا الله تعالى أن هناك قوماً من أرباب الجهل المركب أضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . .

وقد قال : (كل حزب بما لديهم فرحون)^(١) وقال : (إن
الذين حققت عليهم كلمته ربك لا يؤمنون . أولو جآئتهم كل آية)^(٢)
وبعد : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً
مرشداً)^(٣) .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥٣

(٢) سورة يونس ، الآية ٩٦-٩٧

(٣) سورة الكهف ، الآية ١٧

الدين ضرورة للعُمران^١ وأكبر مقومات الإنسان من حيث هو إنسان

خلق الله الإنسان مركباً من شيئين : روح وجسد ، ولكل منهما مطالب لا يتم أمره ولا يصفو عيشه ولا تحصل راحته ولا بغيته التي هي من خصائص ذاته ومقتضى طبيعته إلا بها ، فإذا فرط في مطالب البدن عاش ذليلاً عليلاً ، وأسرع إليه الضرر من كل جانب ، ولم يمكنه أن يقاوم السنن الكونية التي تصرع كل من يغالبها ويخرج على أحكامها ، وإذا أهمل مطالب الروح عاش عيشة البهائم ولم يكن له من الإنسانية نصيب ، اللهم إلا في صورته الظاهرية ، وتخاطبته الجسمية ، بل نقول : إن عيشة أسوأ من عيش البهائم لأن البهائم ليس فيها ذلك الشعور المغروس في طبيعة الإنسان الذي يريه الآلام صنوفاً وألواناً ولا ذلك الخيال الذي لا يقف عند حد ، ولا ينتهي إلى غاية ولا تلك الشهوات التي تبعد مراميها وتتسع نواحيها ، ولا ضروب ذلك الانزعاج الذي يحصل مما يكون أو لا يكون ، وليس فيها النظر إلى المستقبل الذي فعل بنا الأذاعيل ولا تلك العواطف التي قد تهلك صاحبها في سبيل ما تصبوا إليه ، ولديك مصارع العشاق وأخبار من ماتوا شهداء في

سبيل الفضائل ، أو قتلوا مجرمين في سبيل الرذائل : مما لا نطيل القول فيه .

فإن هذا من الحيوان الذى يكون هادىء البال حتى يفجأه ما يفجؤه من الحوادث الوقتية التى ينتهى الألم بانتهائها ، من غير أن يحسب لها حساباً قبل هجومها عليه ، ولا يعتريه أسف الذكرى بعد مفارقتها ، فإذا لم ينظر الإنسان فى المنهاج الذى يضعه لنفسه من الجهة الروحية والمطالب النفسية ، حتى يقفها على الصراط المستقيم ويهذبها بما يقيم أودها ويزيل اعوجاجها ، كان شراً من البهائم ، وأحط من كل ذى روح ، - هذا حاله فى نفسه .

أما حاله بالنسبة إلى المجتمع العام : فهو وبال عليه فإنه لا يلقى منه المجتمع إلا صنوف البلاء وأنواع الشقاء ، فإن الرجل العارى من مكارم الأخلاق الذى لم تهذب عواطفه ، ولم تصف معارفه ، فأصبح يتخبط فى دياجير الظلمات ، وأنواع الشرور والآفات ، هو وحش ضار يفتك بكل من قدر عليه ، وهو عقرب يلدغ كل من يلتصق به أو يقرب منه ، وهو بعد ذلك شيطان متفنن ، فى ضروب الشر وفنون الاحتيال ، لا يعرف إلا نفسه المجرمة وشهوته الفاجرة ونزعتة الحمقاء ولو هلكت الأمة وخرب العالم ، فهو من نفسه فى شقاء شديد . أصبح مضطرب الأحوال مختل الخيال مرتبكاً كل الارتباك بين إنسانيته وحيوانيته .

أما المجتمع فقد فقدته ، أو نقول بعبارة أصح : قد اعتاض منه شعباناً ينفث السم ، ووحشاً أقسى قلباً من وحش الفلاة ، وأكبر

روغاناً من الثعلب ، وأعظم شرهاً من الخنزير ، وجدير به أن يكون كذلك ، فانه لا يؤمن بالجزاء على ما اقترب ولا بالحساب على ما جنى ، فهو لا يرغب في جنة ولا يخاف من نار ، وكأن العالم في نظره لعبة للاعب ، لا يكون الفوز فيها إلا لمن كان أكثر تهويشاً وأحذق شعوردة ، ولا حياة في نظره غير هذه الحياة .

وهؤلاء هم الذين خاطبهم الله بقوله : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)^(١) وينبئهم في الآيات الكثيرة على خطيئهم فيما ظنوا ، بمثل قوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)^(٢) فهذا ما يعانیه في نفسه ، وما يعانى المجتمع منه في الدنيا. أما ما أعد له الله في الآخرة فهو أشد وأخزى .

ولكن تعال ننظر في حال المؤمن المتدين وإلى ما يعود على الناس منه فصور لنفسك رجلاً مؤمناً حق الإيمان بقواه تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٣) وبقوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)^(٤) ، (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ)^(٥) ، (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٢) سورة من ، الآية ٢٧

(٣) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٣٥

(٥) سورة الانبياء ، الآية ٤٧

إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ^(١) وبقوله
عز وجل : (وَكَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ^(٢) ، (مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ^(٣) .

فانظر كيف تكرون مراقبته لله - تعالى - وخوفه من الله ، وهو يعتقد
أن الله يعلم السر وأخفى ، وأنه مسئول عن كل أحواله ومجزى بجميع
أعماله . هل يمكنه أن يكون مع هذا الاعتقاد منتهكاً للحرمات مختصباً
للأموال ، أو يكون سارقاً ، أو قاتلاً ، أو خداعاً ، أو غشاشاً ،
أو مزوراً . . . الخ .

ثم تراه بعد ذلك قد نظر فيما جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
وجده يبحث على مكارم الأخلاق وينهى عن مساوئها ، وجده يأمر
بالرحمة لكل أحد حيث يقول : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ .
ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَن فِي السَّمَاءِ » .

ثم لم يقتصر على رحمة الإنسان العاقل بل أوجب الرحمة والشفقة
على كل ذي روح ، وإن شئت فانظر إلى قوله عليه السلام : « دَخَلَتْ
أَمْرَأَةُ النَّارِ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ

(١) سورة يونس ، الآية ٦١

(٢) سورة ، الآية ١٦

(٣) سورة ، ق ، الآية ١٨

خَشَاشِ الْأَرْضِ » وقوله : « لَا تُنَزِعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ » .
إلى غير ذلك .

ثم نظر فوجده يبحث على المحبة بين المؤمنين جميعاً ، علماً منه
- عليه السلام - أن المحبة رسول السلام والوثام ، وماحية الخصام
والانقسام ، ومبعث الهناءة والصفاء . فأمرهم أن يكونوا إخواناً فقال :
« لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .
وجعل البغضاء هي الحالقة ، ونهى عن التفرق والتهاجر بأبلغ ما يكون
وأقصى ما يتصور ، حتى حرم الخصام فوق ثلاثة أيام .

ونهى عن الإيذاء بكل أنواعه حتى جعل غيبتك لأخيك من أكبر
الكبائر ، وشبهها بما تشتمز له كل نفس ، وينفر منه كل إنسان ،
وقال الله في الكتاب العزيز : « وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ
أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا » ^(١) . وقد نهى قبل ذلك عن أن تظن السوء
بأخيك ، كى يظهر نفسك واسانك وظاهرك وباطنك فتكون خيراً
محضاً للناس ، لا تضممر لهم حقداً ولا تسوءهم بكامة حتى فى مغيبهم
فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » ^(٢) .

يريد بذلك أن يجعلهم متحابين متآزرين حتى يكون بينهم التعاون
والتآزر ، لا التهاجر والتفاجر والتخاصم والتشاتم . وهل نجد شيئاً
أبلغ فى التآزر الذى يريد الدين أن يجعله بين أبنائه من قوله - صلى الله

(١) سورة الحجران ، الآية ٢

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٢

عليه وسلم - : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُهِمْ كَالْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى » ويقول : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ويقول : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » ويقول : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ويقول في التحذير من إيذاء بعضهم بعضًا : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » ويقول : « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » ويقول في الترغيب في عمل الخير بكل أنواعه ، والترغيب فيما يعود على الناس بالمنفعة صغيرة كانت أو كبيرة : « لَا تَحْتَمِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَوْلِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ أَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَائِقٍ » ويقول : « إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » وقد جعلها شعبة من شعب الإيمان في الحديث الآخر .

فتراه قد -حت كل إنسان على فعل الخير، وعرفه أنه قادر عليه مهما كان أمره حتى جعل الكلمة الطيبة صدقة ، وأن تعين الأخرق الذي لا يحسن العمل صدقة ، وأن تساعد الرجل في الحمل على دابته صدقة ، وأخيرًا جعل الكف عن الشر صدقة .

فطلب من كل إنسان أن يعمل الخير ما استطاع وبين أن كلاً مستطيع . وقد ورد في بعض الآثار أن كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام .

أما تحذير من النفل فحدث عنه ولا حرج ، حتى عرفنا أن كثيراً من العقوبات يؤجل للأخرة ولكن عقوبة الظلم معلقة في الدنيا ، مع

ما ادخر له في الآخرة ، وأخبرنا أن الله يحاسب على الفتيل والنقير ، وأن من أخذ شيئاً ظلماً فإنما اقتطع قطعة من نار ، وقد حذر الحكام أن يجوروا في حكمهم بما لا يمكن الزيادة عليه ، حتى قال - صلى الله عليه وسلم - فيما ورد عنه : « مَا مِنْ أَمِيرٍ عَشْرَةَ إِلَّا يُجَاءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْدُولَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ فَلَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ » . وانظر هل تجد أبلغ وأروع من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)^(١) . وقوله في الآية الأخرى : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا)^(٢) فإذا كان هذا شأنهم مع أعدائهم الذين يبغضونهم في الله والله : فكيف يكون حالهم مع غيرهم ؟ ومن ذلك القبيل قوله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)^(٣) .

وعلى الجملة فإننا نعجب كيف لا يظهر نور الإسلام في هذا العصر ، عصر العرفان ويقظة العقول .

ونذكر هنا قول اللورد « هدلي » الإنكليزي الذي اختار الإسلام ديناً بعد أن وقف على ما فيه من خير وسعادة وتعاليم تروق العقول وتبهج الأرواح :

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٥

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨ أى لا يحملكم بغضكم لقوم أن تقعوا في جريمة الظلم .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ ، أى إذا كان بينك وبين قوم عهد وتبينت من حاهم

فيه خيانة العهد فأندرهم بطرح العهد الذى بينك وبينهم حتى تكونوا على سواء في الحل من اختراق ذلك العهد .

« إني أعجب من الذين يبحثون عن أحسن مأكَل ومشرَب وملبس ومسكن ولا يبحثون عن أحسن دين في الوجود » - إني أعجب كما يعجب أو فوق ما يعجب للأوربيين كيف يستكشفون ما كان غامضاً من أسرار المادة التي أدهشوا بها العالم ، ولا يستكشفون أسرار هذا الدين وهي أعظم من كل ما استكشفوه ، حتى يعرفوا ما انطوى عليه من الحكمة العلمية والعملية التي تفوق حكمة أفلاطون وأرسطو ، وكان لها من الأثر ما لم يكن لها ، ولا لغيرهما من كبار الحكماء ، ويجدون فيه من البلمس الشافي للأدواء كلها ما يعجز عنه عصابة الأمم ومؤتمرات السلام ، ومن وسائل المحبة والوثام ما يستأصل الشيوعية التي تهدد مدنيتهم ، وستقضى على كياناتهم وتأتي على بنيانهم شاءوا أم أبوا ، كما أنذرهم بذلك كثير من عقلائهم إن لم يصلحوا مدنيتهم الفاسدة ، ولا غرو فهي لا تدور إلا على محور واحد ، يرجع كل شيء عندهم إليه ، وهو المادة التي أخذت كل عقولهم ، واستولت على جميع مشاعرهم - وإحساسهم ، فملأوا الدنيا من أجلها شراً وشقاءً ، وضراً وبلاءً ، بحجة أنهم يريدون أن ينتقدوا الإنسانية المعذبة « وما عذبها غيرهم ولا قضى عليها سواهم » ، ولو كانوا صادقين لرحبنا بهم وما نقمنا عليهم وقلنا : إن الطبيب يفعل بالمريض ما يؤلم لكن بقصد أن يداويه ، والأب يضرب ابنه لكن لقصد أن يربيه ، أما أولئك الماديون فكاذبون فيما يدعون ، غشاشون موهون فيما يقولون ، فليسوا يريدون من الأمم إلا ما يريد ربه الماشية من الماشية ، ورب الضيعة من الضيعة ، وقد أفسدوا علينا معشر الشرقيين - لا سامحهم الله - آدابنا وأخلاقنا

وعقائدنا وجميع فضائلنا ، إلا قليلاً من عقلائنا يجاهدون في ذلك السبيل ، عسى الله أن ينصرهم ويكثر سوادهم بمنه وكرمه .

على أن كثيراً من الأوربيين قد شهدوا للإسلام ونبي الإسلام أكبر شهادة كاللورد « هدى » المتقدم و « لامرتين » الذى نقلنا شهادته في العدد الأول . ومثل « توماس كارليل » والدكتور « موريس » و « كاين تيلر » وغيرهم .

ولو حسن التفاهم بين الناس وحل الإنصاف محل الاعتساف واهتم العالم بغذاء أرواحهم ، كما اهتموا بغذاء أبدانهم ، لدخل الناس في دين الله أفواجا طوعاً ورجبة .

فالإسلام—وحتمك—هو بغية الأرواح وطلبة الأشباح ومهبط السكينة ومستقر الطمأنينة وضالة العقول وخلصة المعقول والمنقول وأمنية القلوب ورأس كل مطلوب ، وهل للناس مطلب غير أن يسعدوا في ظاهريهم وباطنيهم وديارهم وأخراهم سعادة تدفع عنهم شرور الحياة ومكارهاها ، ثم تفيض عليهم من أنواع السرور وشرح الصدور وبهجة الأسرار وصداء الأنوار ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ثم تسلمهم بعد ذلك إلى نعيم لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال ، وملك ليس فيه عناء ولا له انقضاء .

ثم هو فوق هذا يدعو إلى الديمقراطية الحقمة والمساواة الصحيحة ، فلا يرى فضلاً لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وقد أمر الناس بالتواضع في أنفسهم وخشية الله من قلوبهم ، وأن يشارك غنيهم فقيرهم بالشر

أو نحوه فيما أعطاه الله - تعالى - حتى يطهر نفوس الأغنياء من البخل وقلوب الفقراء من العقد عليهم ، فيتم بينهم المحبة والوئام ، أوصى الجار بالجار حتى قال : « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ : فَقَالُوا : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ » . وقال : « مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ » .

أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا فرق في ذلك بين أمير ومأمور ورئيس ومرؤوس ، وقال جل شأنه في حق قوم أصابتهم اللعنة : (كَانُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)^(١) فكيف تكون مكارم الأخلاق في مثل هذه الأمة لو أخذت بتعاليم دينها ، وهل يكون لانتهاك الحرمات وارتكاب المحرمات وخرق سياج الآداب سبيل إلى أمة يكون بعضها رقيباً على بعض ، وقد سيطر عليها الدين الذي يجعلها خير أمة أخرجت للناس سيطرة تستولى على نفوسها ، ولا تفارقها في خلوتها وجلوتها ، به أوجب أن تكون لها العزة والرفعة ، حتى أوجب عليها الهجرة من أرض الذل ضناً بكرامتها ، واستبقاء لعظيم شرفها ، حتى قال : « المؤمن لا يذل نفسه » وقال الله في وصفهم : (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٢) وقال : (وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)^(٣) . إلى آخر ما لا يسعنا إلا التلميح به - والإشارة إليه .

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٩

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤

(٣) سورة المائدة ، الآية ٨

نعم هذه قواعده المتينة وقوانينه الرفيعة ، وإن أمره فوق هذا ،
بأنه لما رأى الإنسان كثيراً ما تلعب به الأهواء وتغلب عليه الشهوات ،
وكان يمكنه أن يحافظ على ظاهر تلك القوانين ولا تقوم عليه حجة بعد
المحافظة على أشباح هذه الرسوم ، مع ما له من القصد السيء فيما يأتي
ويذر ، فيكون ظالماً يلبس ثياب العادلين ، ومتدنساً يتسم بسيمما
المتطهرين .

لما علم ذلك علمنا أن المحافظة على تلك الرسوم الظاهرة لا قيمة لها
في نظر الدين ، فقال في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ
وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » وقال : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ
أَمْرٍ مَّا نَوَى » . وقد قال تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ
فَاحْذَرُوهُ) وقال : (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) (١) .

وعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الأشياء تتشابه فأمرنا
بالاحتياط عند ذلك فقال : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ » وقال :
« الْحَالَالُ بَيْنٌ وَالْحَرَامُ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ
فَقَدِمَ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ » وقال تعالى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ
لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا
بِهَا وَكُنْفَىٰ بِذُنَا حَاسِبِينَ) (٢) ، (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ
وَأَخْفَىٰ) (٣) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٥

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧

(٣) سورة طه ، الآية ٧

فَأَنْتَ تَرَى وَقَدْ وَضَحَ الصَّبْحَ لَذِي عَيْنَيْنِ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَرِيدُ مِنْ
أَبْنَائِهِ إِلَّا الْحَقَّ الصَّرَاحَ ، الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ رَيْبٌ ، وَالْعَدْلَ الْكَامِلَ الَّذِي
لَا يَشُوْبُهُ ظَلْمٌ ، وَلَا تَبْنِي أُمُورَهُ إِلَّا عَلَى الْمَصَالِحِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ
الْوَاقِعِيَّةِ ، فَمَا أَدْرَى كَيْفَ صُمِّتَ آذَانُهُمْ عَنْ سَمَاعِ نِدَائِهِ الْعَالِي وَعَمِيَّتْ
أَبْصَارُهُمْ عَنْ رَوْيَةِ شَمْسِهِ الْمَشْرِقَةِ .

وَلِنَخْتَمَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِمَحَادِثَةٍ وَجِيْزَةٍ جَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ بَعْضِ الْعِظَمَاءِ
تَنَاسَبَ هَذَا الْمَوْضُوعُ :

قَالَ : إِنَّ الْأُمَّةَ لَا يَزِعُهَا عَنِ الشَّرِّ إِلَّا أَحَدٌ أَمْرَيْنِ : الدِّينَ وَالْفَلْسَفَةَ .
وَحَيْثُ إِنَّ الْأُمَّةَ لَا تَسْتَطِيعُ الْفَلْسَفَةَ ، وَلَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ ذَوِيهَا
فَلَا بَدَ لَهَا مِنَ الدِّينِ . فَقُلْتُ لَهُ : أَشْكُرُكَ عَلَى أَنْ أَحَلَلْتَ الدِّينَ ذَلِكَ
الْمَحَلَّ وَأَنْصَفْتَهُ ذَلِكَ الْإِنْصَافَ ، وَلَكِنْ يَسْمَحُ لِي مَعَالَى الْبَاشَا أَنْ أَقُولَ :

إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا كَثِيرًا بَيْنَ الدِّينِ وَالْفَلْسَفَةِ ، فَالْفَلْسَفَةُ تَسْتَمِدُّ مِنْ
نَظَرِيَّاتِ الْعُقُولِ الَّتِي تَصِيبُ وَتَخْطِئُ ، وَأَمَّا النُّسُوفُطَائِيَّةُ الَّتِي تَجَافِي
فَلْسَفَتَهُمُ الْحَقَائِقَ عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ هُنَاكَ نَزَعَاتُ
خَفِيَّةٍ تُوْحِي لِلْفِيلَسُوفِ فِلْسَفَتَهُ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُ أَوْ لَا يَشْعُرُ .

وَالْإِنْسَانُ أَسِيرُ نَزَعَاتِهِ وَشَهْوَاتِهِ مَحْصُورٌ فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي تَسِيرُهُ
فِيهَا نَزَعَتُهُ الْخَاصَّةُ أَوْ شَهْوَتُهُ الْخَفِيَّةُ ، وَأَمَّا فِلْسَفَةُ « أَبِيقُورِ »
وَأَتْبَاعِهِ تِلْكَ الْفِلْسَفَةُ الَّتِي لَاتَرَى الْخَيْرَ إِلَّا فِي الْمَلَاذِ الْحَسِيَّةِ ، وَتَقُولُ :
إِنَّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَهَمٌّ أَوْ خِيَالٌ ، وَقَدْ يُوْثِرُ زَخْرَفُهَا الْخِلَابَ الْمُوَافِقَ لِأَهْوَاءِ
النُّفُوسِ وَشَهْوَاتِ الطَّبِيعَةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَطْفَالِ الْعُقُولِ وَأَسْرَاءِ الشَّهْوَاتِ

فيرون كل شيء مباحا، وإن الأموال والأبضاع حق مشاع بين الناس ،
وإن من الظلم استثثار بعض الناس بشيء ، فيجب في شرعة الطبيعة أن
لا يكون هناك استئثار بملك أو زوجة ، وألا يكون هناك تحريم لأخت
ولا بنت ولا أم ، وأن من استطاع الوصول إلى الاستمتاع بشيء من
ذلك كله حل له أن يتمتع به ، لأنه استرداد لحقه المعتصب ، إلى
آخر تلك الفلسفة ومزخرفاتها .

أما الدين فيستولى على النفوس من كل جهاتها فيقف بها عند ما حد
لها من الحدود ، ثم يحاول أن تكون فاضلة كاملة حتى تؤثر على نفسها
ولو كان بها خصاصة . وترى في ذلك كل سعادتها وهنائها ، وللقلوب
سعادة لا يحس بها ذوو الأموال ولا أرباب المناصب .

على حين أن فلسفة «أبيقور» تقول هازئة بهذه التعاليم : «ماهى
الفضائل ، وماهى الرذائل ، وماهى السعادة ، وماهى الشقاوة ، وماه
النقص ، وماهو الكمال ، ماهذه إلا أَلْفَاظُ فارغة وخيالات باطلة»
فهذه الفلسفة لاتلقن أبناءها إلا الزور والفجور ، ولا تغذيهم إلا بجرائم
الأوبئة الفتاكة المهلكة والأفكار المربكة ، ولكن المتدين يقول مايقول
الله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »^(١) ، (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ
تُبَدَّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا تُحْفِوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ)^(٢) إلى آخر ماجاء
بالكتاب والسنة ، وهو كثير .

(١) سورة يونس ، الآية ٧ ، ٨ (٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٤

فأنت ترى المتدين فاضلاً خيراً كاملاً ، وترى ذلك الفيلسوف
جاهلاً ضالاً شريراً ، فالفلسفة غير مأمونة ولا مقدسة ، لأنها من نتائج
الأفكار البشرية ، بل ضررها أقرب من نفعها . بخلاف الدين الذي
هو تنزيل من رب العالمين .

وبالجملة فالإسلام عظيم أمره ، كبير شأنه ، ولكن ضيعه أمراؤه ،
وفرط فيه علماءؤه ، منذ زمان بعيد ، ولنقف هنا اليوم ولنا إلى الموضوع
عودة بعد عودة بعد عودة إن شاء الله .

(١)

سَوَاحٍ وَمَقْتَبَسَاتٍ

ليس الشأن أن تتكلم في كل علم ، إنما الشأن أن تكون راسخاً فيه تعرف عثه من سمينه : كثير من الناس يتلقف فقرات من العلم من غير أن يعرف حقيقتها فيرددنها ويطنطن بها ولا يعرف ما فيها ، فهو أشبه شيء بما ورد في الحديث في شأن المنافق حين يسأل حيث يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

وقد أصبح المتعلمون عندنا يقصدون كل ما يسمعون عن أوربة بلا بحث ولا تمحيص ، ويعتقدون أنهم أصبحوا علماء ، وقد يكون ذلك محل نزاع كبير عندهم . ولكنهم كالأطفال الذين إذا سمعوا شيئاً لم يخالجهم فيه شك ، ولم يعترضهم فيه حيرة ، خصوصاً إذا كان ذلك من آباءهم أو أساتذتهم ، وليس الفضل في تلك الوثبات الحمقاء فإنها ضارة لنافعة ، وإنما الفضل في البحث والتمحيص بحيث يحيط بأطراف المسائل ، ويقارن بينها وبين ماجاء في الديانات مقاومة صحيحة .

أما هؤلاء فلا يعرفون ما قيل في تلك المسائل العقلية نفيًا وإثباتًا ، ولا ما كان لها من مراحل البحث العلمي ، ولا ما وصلت إليه من درجة الظن أو اليقين أو الشك أو التخمين ، كما لا علم لهم بما قيل في تلك

المسائل الدينية ، وما قرره العلماء فيها ، وما كان لهم من أنظار وأفكار وتأويل وتعليل ، وقد كان يجب أن يعرفوا أولاً أسمى من القطعيات أم من غيرها ، وهى^{١٧} مما جاء فى الكتاب المجيد ، والسنة الصحيحة ، أم من عمل الاجتهاد الذى هو معترك الأنظار ومزدهم الأفكار ، فإن هذا القسم قد يدخله وهم كثير ، شأن البشر فى كل أبحاثهم وأفكارهم .

١١ قيل لابد للناس من فلسفة أو دين ، ولكن هناك فرق كبير بينهما ، فإن الفلاسفة يستمدون من أفكارهم التى تختلف ونزعاتهم التى تتضارب وتتناقض ، ومنهم من اقتضت فلسفته الإكباب على الشهوات .

١٢ وفرق بين الرسول الذى يفزع إلى الله ، والفيلسوف الذى يفزع إلى فكره وعقله .

الفلسفة تدخل فى كل شئ ، حقا كان أو باطلا ، لأن مدارها على قوة الخيال ، وفصاحة اللسان ، وحسن الأسلوب ، والقدرة على التلاعب بالكلمات ، والتفنن فى العبارات ، وليس مدارها على كون الشئ حتماً ولا كون الدعوى صادقة ، ولديك السفسطائيون المعروفون . ولكل فلسفة قوم يعتنقونها ، وأذواق تقبلها وعمول تصطبغ بها .

إن الله قد أرجد العالم على نظام محكم ليدل على حكمته ، وقد يخرق هذا النظام المشاهد أو يتصرف فى نواميسه ليدل على قدرته ، ولكن الماديين إذا رأوا إتقان النظام ، قالوا إن العالم سائر على سنن لا تتبدل ، فلا حاجة إلى إله . كأن القوانين تغنى عن المقتن ، وكأن النظام يغنى عن النظم ، أو وضع الخواص فى الأشياء يغنى عن الواضع ،

وإذا رأوا مالا يدركون سره ، قالوا إن ذلك فوضى لاتليق بالحكيم ،
فماذا يريد هؤلاء الذين لا ينفعمهم نظام ولا غيره ، ولكن إذا فسدت
معدة الإنسان وجد كل شيء مرأ ، وفي بعض الكتب أن الطاهر يجعل
كل شيء طاهراً ، والدنس يجعل كل شيء دنساً ، والمريض الذى اختل
مزاجه لا ينفع معه شيء .

العالم لانهاية له وهو منظم غاية النظام ، ففيه قوة لاحد لعملها
وحكمتها وقدرتها ، والمادة وجه من وجوها ، وأثر من آثارها ، لاسبب
فى أصل وجودها ، إن وراء العالم المادى عالماً خفياً ، هو عالم الإدراكات
والرغبات والانفعالات والعواطف ، ولا يدركون كنهه ، ولا يمكن أن
يعلل بتعليل مادى ، وأصول علم النفس الآن ليست أقل من أصول علم
الطبيعة .

الإسلام يعطى الأرواح الأمان والاطمئنان ، وقد جعل تحيته
السلام ، وكلما لاقيت رجلاً بدأت به بالسلام فرد عليك السلام . فشعار
المسلمين السلام وأتمته جديرة أن تسمى أمه السلام .

وأما عصبيته للحق فمن أكبر فضائله ، ولو صدق الأوربيون
المستعمرون المتعصبون فى أنهم أنصار الإنسانية المعذبة ، ومنقذوها
مما هى فيه ورافعوها إلى ذرى السعادة ، لقابلنا ما يفعلون فى الناس
بالاستحسان والابتهاج ، ولكنها وسيلة من وسائل الاستعمار أيضاً ،
وما كان ذلك إلا لأمة الإسلام حينما كانوا متمسكين بمبادئه ، عاملين
بتعاليمه التى أصبحوا بها ملوك الشرق والغرب فى أقل من قرن ، يقيمون
موازن العدل « ولا يخشون فى الله لومة لائم » .

قال الفيلسوف تولستوى : ولعل المبادئ العظيمة السامية الشاء التي تضمنها القرآن في بسط قوة الله وحبه وعظمته ورحمته لامثيل لها ولا ضريب في أى دين آخر من الأديان ، تراها تتدفق في آيات من أبلغ آيات البيان وأشدّها إثارة للأرواح وهزة للنفوس ، ثم لا تنزال الروحانية تعمل عملها في الحياة وفيضها ونورها ، مبادئ لا ينتهى الإنسان منها .

ولا تجد في دين الإسلام كله من أوله إلى آخره أثرا من آثار الاستبداد النكرى والسفسطة التي تراها في تلك النظريات . ولا من السفسطة وللجاج والحاجة والثثرة ، بل لا يزال هذا الدين ينعش أرواح^١ ، وينادى الضمير العميق في الإنسان ، ويناجى الفؤاد والوجدان ، ويمشى^٢ مع الصوت الخارج^٣ من حبة القلب الصادر من سروراء الروح ، ولا يقبل إلا منطق القلوب ، وعمتل الغريزة والفضرة .

الكلام على الإسلام يجب أن يكون في مقامين : مقام النظر^٤ في أصول الإسلام وتعاليمه ، ومبيرة من جاء به ، ومقام رد الشبه عنه^٥ وما يخالف به من العقول الصغيرة مما لا يدركون له سرا ، ولا يفقهون له ، وتأويلا^٦ . وألا يد من هذا ، فإن الناس مختلفون اختلافاً كبيراً في الاستعداد^٧ وفي التربية^٨ والنزعات^٩ والأهواء^{١٠} ، بحسبها أحاط بهم من الأوساط المختلفة والبيئات المتنوعة^{١١} ، وهم بعد ذلك في معلوماتهم^{١٢} متفاوتون تفاوتاً لا يعلمه إلا الله ، فمنحال أن يتفقوا . ولر فرضنا أنك ذكرت ما يفكر فيه كبار الرجال وما يرمون إليه من مرام بعيدة وأنظار سديدة ، للأطنال ، وأعطيتهم الحرية فيما يقولون وفيما ينتقدون

لذهبوا مذاهب شتى ، ولاعترتهم شكوك وأوهام تناسب حالهم
وخيالهم .

فهكذا الجهلاء مع العلماء ، والسفهاء مع الحكماء ، لأنهم لا يعرفون
لهم قدرا ، ولا لما يقولون معنى ، فإذا انضم إلى ذلك تبجح وعناد مع
تقديس الجهلاء أنفسهم كانت الطامة الكبرى والداهية الدهيئة ،
ومن جهل شيئا عاداه ، وما أصدق قول الله - تعالى - وأصماه لكبد
الحقيقة : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١) .

لايجوز أن يكون العالم بلا إله بالأدلة القطعية ، ولا يجوز أن
يكون له إله ثم يهمل خلقه ، فلا يرسل إليهم من يرشدهم إلى طريق
السعادة ، ولايجوز أن يترك من يكذب عليه بلا انتقام ، كما في
القرآن وغيره من كتب الأنبياء ، وقد قال الله في كتابه العزيز
(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ الْوَتِينَ)^(٢) . ينكرون الشياطين وقد آمنت بهم أوربه عندما شاع
استحضار الأرواح ، ويطلبون السفور وهم يئنون منه هناك ، ولكننا
عندنا أن نهزأ بكل ما ورثناه عن أسلافنا ، فاجتهدنا في هدم كل
معتقداتهم وعلومهم .

أريد في هذه السوانح أن ألقت نظرك إلى شئ بديع جدا في الإسلام
لا تكاد تجده في غيره خدمة للحقيقة ، وتحقيقاً للحق ، لاطعناً

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة الحاقة ، الآية ٤٤-٤٦

ولا تعصبا ، وقد أصبح البحث والتمحيص شهوة من شهوات العصر الحاضر ، والوقوف على الحقائق كما هي نزعة من نزعات العقول العصرية ، فتحليل الأشياء تحليلاً علمياً ، حتى المسائل الأدبية والتاريخية الآن ، هو فوق كل شيء ومقدم على كل شيء ، وبهذه الأبحاث الحرة التي لا يقصد منها إلا خدمة العلم كان للإسلام شهادات كثيرة من منصفى الأوربيين وفلاسفتهم ، وقد كانوا يشوهونه غاية التشويه في القرون الوسطى فنقول :

إن الإسلام لا يعرف الإفراط ولا التفريط ، ولا غرو فهو الصراط المستقيم الذى هدانا الله إليه ، ولا يكون مستقيماً إلا إذا سلك الجادة والتزم الوسط ، فتراه لم يجيء بالزهد البالغ الذى يترتب عليه خراب الدنيا وذل المؤمنين به ، مما هو منافر للطباع البشرية تمام المنفرة ، وموجب لسقوط الأمة واستدلالها ، فلم يقل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ولم يقل : « لا يدخل الغنى ملكوت الله » مما لا ينبغى أن يستعمل الأدرء وقتياً لمرض خاص فى وقت خاص .

ثم لاتجده مع هذا يذكر الدنيا مرغباً فيها ، لافتاً الأنظار إليها بجعلها جزاءً على الأعمال كما فى الشريعة اليهودية « وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً »^(١) .

وكذلك لاتجده حتم القصاص كالتوراة ، ولا العفو كالإنجيل ، لأنه يعلم أن الطباع فى ذلك تختلف اختلافاً كبيراً ، فمن الناس من لايشفيه إلا القصاص ، ومنهم من كرمت نفسه فيسمح بالعفو ابتغاءً

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٧

وجه الله تعالى ، ومنهم من تسمح نفسه بالعمفو في نظير شيء يأخذه من الجاني ، فجاءت الشريعة الإسلامية بذلك كله ، بعد أن رغبت في العفو كثيرا .

وكذلك تجد الشريعة الموسوية أمرت بقتل النساء والاطفال في بعض الأمم ، وجاءت الشريعة الإسلامية بتحريم ذلك . وترى الديانة المسيحية بجانب هذا لاجهاد فيها ، فأكبر مخالفيها على وجه الأرض اليوم هم المدعون لاتباعها المجتهدون في التبشير بها .

تجد الإسلام يحث على التوكل ويجعله لازماً للإيمان فيقول :

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(١) وبجانب هذا يقول :
(فَاْمشُوا فِي مَنَآكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)^(٢) ويقول : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)^(٣) ويقول :
(وَابْتَغِ فِيهَا عِوَاظَ اللَّهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)^(٤)
ويأمرهم ألا يكونوا عالة على الناس وهو القائل : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)^(٥) يريد أن يجعلهم معطين لا آخذين .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٣

(٢) سورة الملك ، الآية ١٥

(٣) سورة الجمعة ، الآية ١٠

(٤) سورة القصص ، الآية ٧٧

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٤١

وهو القائل : « أَلَيْدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ أَلَيْدِ السُّفْلَى » . ويقول في حفظ الجماعة الإسلامية ودرء الشرور عنها ورد عادية أعدائها : (وَأَعَدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)^(١) ثم يأمرهم أن يحتفظوا بفضيلة الاعتدال في جميع الأحوال ويطلب منهم ألا يأسوا على ما فاتهم ولا يفرحوا بما آتاهم ، يريد أن يجعلهم رجالاً عظاماً ، لا يطيشون عند ورود نعمة أو حلول نقمة .

يقول : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)^(٢) ولا يدعها حتى يتلافها بقونه : (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابٌ وَخَيْرٌ أَمْلاً)^(٣) . (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)^(٤) ويقول : (فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ)^(٥) ثم يقول في الجزاء : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ)^(٦) دلالة على طريق العدل . ثم يدل على طريق الفضل فيقول : (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)^(٧) ومثل ذلك قوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)^(٨) إلى آخر ما يرشدك إليه بحثك الصادق وذهنك الثاقب .

يرمون الإسلام بأنه دين التأخر والجمود ، وأنه لا يمكننا أن نجاري الأمم الراقية في ميادين الحياة ، ونحن متمسكون به حريصون

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠

(٢) سورة الكهف ، الآية ٤٦

(٣) سورة الكهف ، الآية ٤٦

(٤) سورة القصص ، الآية ٦٠

(٥) سورة محمد ، الآية ٤

(٦) سورة النحل ، الآية ١٢٦

(٧) سورة النحل ، الآية ١٢٦

(٨) سورة الشورى ، الآية ٤٠

عليه ، يريدون أن يجعلونا ماديين نخدم الأجسام والأوهام ، وأن نقتل الوجدان ولا نصغى إلى البرهان ، وأن نخنق أنفاس الأرواح ، ونحصر جهودنا كلها في مطالب الأشباح .

على أنى وأبيك لا أعرف لذلك معنى ولا أذوق له سرا ، فإن الدين يوجب علينا أن نكون أرقى الأمم ، وأن لانحتاج إلى غيرنا ، حتى إنه جعل الصنائع كلها مهما تجددت بتجدد العصور من فروض الكفاية التي تأثم الأمة جميعها بترك أصغرها وأحقرها ، فلا يبيح لنا الدين أن نجهل صنع إبرة نحتاج إليها فكيف بالمدفع أو الطيارة . . . الخ .

فما أدري كيف يفهمون أن الدين أخرجهم ، وما تأخروا إلا بترك أوامر الدين وتعاليمه ، وإنا ننادى بأعلى صوت : إن المسلمين اليوم كلهم آثمون بهذا التكاثر الذى يحرمه الدين تحريماً باتاً وينهى عنه هيباً بليغاً ، وهم محتاجون بعد هذا إلى أن يكونوا مخلصين فيما يعملون ، فندّطهت نفوسهم من الأثرة والأنانية والتشاحن والتكالب على حطام الدنيا الذى تجاوزوا به حده ، ولم يعرفوا أنه وسيلة لا غاية ، وأن مقاصد الإنسانية أسمى من ذلك وأكبر مما هنالك .

ومعلوم أنه لا يمكن الاعتدال فى طلب الدنيا ، ولا الإخلاص الصحيح ولا محبة الفضائل واجتناب الرذائل إلا بالخوف من سلطان الله ، والرغبة فيما عند الله ، فإذا خضت غمار الدنيا وأنت متسلح بسلاح الدين ، وراقبت الله تعالى فيما تفعل وما تترك ، حفظت من مكاييد الشيطان ، وآثار الطغيان ، وإذا كنت أعزل من هذا السلاح تخطفتك الشياطين ،

وضللت في تلك الميادين فارتكبت الموبقات ، ووقعت في الهلكات ،
فكنت شراً مستطيراً على نفسك وعلى أبناء جنسك .

فالناس في الحقيقة في حاجة إلى الدين لإصلاح الدنيا قبل الآخرة ،
وأجدني مسوقاً إلى أن أقول : إنه لا يمكن الانسان أن يعيش في راحة بال ،
وصفاء حال ، ولا أن يشعر بلذة إنسانية حقيقية ، إلا إذا كان ذا دين
قويم ، وقلب سليم ، فإنه يجد من النور وشرح الصدور ، ومن برد
اليقين ، ونفحات رب العالمين ، ما يفوق نعيم الملوك والسلاطين ،
فإن نعيمهم جسماني لاروحاني ، وبهيمى لا إنساني ، على أن قلوبهم دائماً
في قلق واضطراب ، وخوف ووجل ، مما يتوقعون أو يتوهمون ، لأنهم
لا يتغذون إلا من زقوم المادة وهي « شجرة الهموم والغموم » .

ومحال أن يكون للشئ غير ظواهره الطبيعية ولوازمه الخلقية ،
فالسعادة لا تجيء من هذه الناحية ، وإنما تجيء من ناحية أخرى يعرفها
المؤمنون ، وقد رسخ فيها الروحانيون ، وأما أهل الدنيا فلا أثر لذلك
إلا في ظواهرهم لاغير :

لاتغترر بنعيمهم فجسومهم في جنة وقلوبهم في نار .

الدين ضرورة للعُمران^(١) الفرق بين المؤمن وغيره

قلنا : إن الإنسان مركب من جزء علوى سماوى ، وجزء مادى أرضى ، وأنه لابد له بمقتضى هذا الجزء أن يتغلغل فى المحسوسات ، ويوغل فى وادى اللذائذ الجثمانيات ، ولا شئ عليه فى هذا ، بل بذلك تحصل سعادته وتم راحته ، وقد اعتنت الشريعة بذلك أتم اعتناء ولكن رسمت له قواعد ، وحددت له حدودا .

غير أن المؤمن لا يتفانى فى تلك المطالب البدنية ، ولا يتهالك عليها ، بل يراعى حدود الله فيها ، وبذلك يصفو عيشه وتم راحته .

وأما غير المؤمن : فيعدو وراء الأوهام ، وينخدع بأضغاث الأحلام ، ويغره لمعان السراب فيحسبه من لذيذ الشراب ، فيشقى شقاءً لاسعادة فيه ، ويكد كدًا لراحة معه . قد عظم فيه الشره ، فهو يطلب أن يستأثر بكل شئ ، فتراه يثب وثوب الوحوش على إخوانه وبني نوعه ، يفترسهم افتراس الذئب الضارى نائية الغم ، ويستلب منهم ما استطاع إليه سبيلًا . حتى يكون له من رفعة الحياة ووفرة المال وضروب اللذات ما ليس لأحد سواه فى بلده أو قطره أو الدنيا كلها ، على حسب ما تسمح به درجته وتوصله إليه قدرته ، وهو الذى فى نفسه من التكالب الحيوانى

(١) مجلة الأزهر - العدد الخامس - المجلد الأول - جادى الأولى سنة ١٣٤٩

على جمع المال ، والحرص على قتل غيره لينفرد بالحياة ، وماركب فيه من ذلك الشره الذى لا يتناهى ، حتى لا يساويه أحد ، ولا يدانيه إنسان ، فيكون وحيد دهره ، وفريد عصره على ما يزعمه شيطانه ، «ولو أنصف لعرف أنه وحش إخوانه ومفترس أقرانه» .

كل ذلك الذى يدور بنفسه ويطلبه على موجب شرهه وجهله ، هو بعينه فى نفس كل واحد من بنى نوعه بمقتضى الغريزة البشرية ، فلا يلبث أن يقوم فى وجهه قومة الأسد فى وجه من يريد أشباله ، فلا يزالان يتصارعان حتى يصرع أحدهما الآخر بفضل غلبة الأهواء ، وعدم معرفة حقيقة السعادة والشقاء ، وإذن تنحل الروابط الإنسانية ، بل علاقات القرابة الأبوية ، كما شاهدنا ونشاهد ، فتتفكك أجزاء الأمة ، ويكاد ينهار بناء المجتمع الإنساني ، لولا لطف الله تعالى به ، ووجود الكاملين فيه .

ولا غرو فالإنسان مجبول على محبة الدنيا وعلى الإفراط فيها كما قال تعالى : (وَتُجِبُونََ الْمَالََ حُبًا جَمًّا)^(١) وقال : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)^(٢) وقوة المحبة غير المعتدلة ينشأ عنها : التحاقد ، فالتحاسد ، فالتدابير ، فالتنازع ، فالتقاتل . «نتائج طبيعية يستلزم بعضها بعضا» وهذه حقيقة ملموسة تراها بين الدول والأفراد . وناهيك بالحرب

(١) سورة الفجر ، الآية ٢٠

(٢) سورة القيامة ، الآية ٢٠

الكبرى وما تفعله دول الاستعمار ، وماتراه من عمل المرابين ومجبي الأثرة في كل أمة ودولة .

ولذا كان غرس مكارم الأخلاق التي تقف النفوس عند حدها ، وترسم لها طريق السعادة الحقيقية ، وتنفخ فيها روح الإنسانية ، ويرشد إليها الدين ، ويعلو بها عن الصفات البهيمية ، من أول الضروريات التي يتوقف عليها صلاح الكون وبقاء النوع الإنساني ، حتى لا يذهب فريسة الشره وضحية الأطماع . لافرق بين الأفراد وبين الأمم في ذلك .

المؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها إلى سعادته الباقية ، وليسير على راحتها إلى محل قراره ، فهي في نظره لاتتجاوز رتبة الوسائل التي تراد لغيرها ، ولا ترتفع إلى درجة المقاصد التي تراد لذاتها وإن كان لا بد منها .

وقد أثمر هذا النظر للمؤمنين أن يتمتعوا بقلوبهم وتمام حريتهم إذ لم تستعبدهم الدنيا بمحبتها كما استعبدت أبناؤها المتعشقين لها المتهالكين عليها ، ولم تأخذ من قلوبهم إلا كما تأخذ الوسيلة من قلوب ذوى العقول السليمة ، ومن أجل ذلك قل فيهم الخصام ، وتم بينهم الوئام ، ولا تظن - أيدك الله - أنا نرى أن المؤمن لا يتوسع في الدنيا ولا يكون بعيد النظر فيها ، فإنه هو العاقل الحكيم بحكمة دينه وتعليم سيده ، الذي جعل له العزة وأوجب أن تكون أمته خير الأمم . وقد بسطنا ذلك في مقال آخر .

والمؤمن من أرفع الناس همة ، وعلى قدر همة الرجل تكثر واجباته
وتكبر مروءته فتعظم أثقاله ، وهو الذى لا يزال لسان حاله يقول :
أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلى
ولكنه يعمل كل ما يعمل فيها لله على سنن الاعتدال ، غير غافل
عن مقصده الذى يريده ، فيتوسل بكل شئ فيها إلى فعل الخير
واكتساب الأجر .

سوانح ومقتبسات

أرجو من حضرات القراء أن يطلبوا من هذه السوانح الفوائد
لا المناسبات :

١ - لا نعترض على علماء الطبيعة فيما يرون وما يقولون فإن
حرية الرأي أساس تقدم العلم، فإذا ضغطنا على حرية الرأي فقد وقفنا
عقبة في سبيل تقدمه، كما كان يفعله القسوس في القرون الوسطى .
ولكن نحب منهم أن يخلصوا للعلم أيضاً، فلا يوهمونا أن الظنى قطعى
والتخمينى يقينى، نحب منهم دائماً أن يضعوا نصب أعينهم أن العلم
متغير متبدل، وأن عقل الإنسان قاصر والكون كبير وأسرار الوجود
لا نهاية لها، فإذا لم يخلطوا التخمين باليقين، ولم تغلب عليهم الأثرة
والتبجح بما اكتشفوا، ووقفوا عند حد العلم الصحيح، ولم يصادموا
كل شىء بمقتضى ذلك الاكتشاف الناقص الذى أكملوه من نزعاتهم
وأهوائهم وأوهامهم وخيالهم، لو فعلوا ذلك لرحبنا به كل الترحيب،
ولزال كثير مما بيننا وبينهم، ولكن النفوس الإنسانية مجبولة على
التبجح فهى فى عملها بمنزلة المجهر الذى يكبر الأشياء إلى أكثر من ألف
ضعف من حجمها الحقيقى .

٢ - إننا نجلهم كل الإجلال على بحوثهم واكتشافاتهم ولكن نحس منهم أن يعرفوا أن هذه البحوث ليست إلا معرفة سلسلة الموجودات ، وترتب بعضها على بعض ، أو نقول : حدوث بعضها عقيب بعض ، أو قل أنت : نشوء بعضها من بعض ، ولكن نعجب لهم كيف لا يمتثلون عجباً ودهشاً من ذلك النظام الذى لا يعرفون له سرّاً غير أنهم شاهدوه ، فكان المعقول أن يمتثلوا بعظمة ذلك الفاعل المستتر الذى حيرت آثاره العقول والأفكار ، وإننا نجلهم أن نشبههم بالأطفال الذين يرون الأشياء فى هذا الكون فيحللونها تعاليل لا توافق الحقيقة ، غير مفرقتين بين مقارنة الشيء للشيء ، وسببية الشيء للشيء ، أو نقول بين السببية والفاعلية ، أو نقول بين الفاعلية والقابلية ، ولعلمهم يفيقون من سكرة الظفر بهذه المكتشفات فيرجعون إلى العقل والمنطق .

٣ - إنهم عرفوا عناصر الأشياء ومقاديرها ، فهل يمكنهم أن يصنعوا لنا تفاعلة أو رمانة أو نحو ذلك بناءً على ما عرفوا فى كيميائهم من قوانين المزج والاتحاد فضلاً عن إنسان حى أو حيوان حى .

٤ - إنه يمكنهم أن يحللوا الخلية ، ولكن لا يمكنهم بعد تحليلها أن يعيدوها حية كما كانت ، أليس ذلك وحده دليلاً على أن الأمر ليس راجعاً إلى ألفة العناصر ولا مقاديرها ؟ بل إلى سر يجهلونه تمام الجهل حتى فى أصغر الأشياء .

٥ - إن المادى الملحد لا ينتظر منه غير الإلحاد والقول بالمادة ، فإنه لم يقرأ إلا كتبها ، ولم يطرق سمعه فى تربيته الخاصة وأدوار

حياته الطويلة إلا التنويه بها والحديث عنها ، فنفسه ممتلئة بها فارغة من كل ما سواها ، فهو سكر بمحبتها مخمور بآثارها ، وماذا تريد من السكران الذى انحصر فى موضوع واحد حتى تخلل ذلك الموضوع أجزاء نفسه ؟ وماذا تنتظر من الذى حصر نظره فى اتجاه واحد ؟ هل يمكنه أن يعرف غيره وهو لم يتجه إليه ؟ والإنسان محصور فيما وضع نفسه فيه ، والعالم كبير جداً ، والعلم لا آخر له ، فتكفى ناحية ضئيلة من نواحي العلم أن تأخذ الإنسان كله حتى لا تدع منه شيئاً لغيرها ، والإنسان ليس موجوداً إلا فى جزء صغير من العالم ، وهو ما وجه نفسه إليه وقصر بحثه عليه ، وإن كان يظن أنه موجود فى العالم كله .

٦ - لننظر أى الفريقين أهدى سبيلاً ؟ فريق المؤمنين الذى أرجع الحياة إلى أصل حى ، والإرادة إلى أصل مرید ، والعلم إلى أصل عالم ، والنظام المحكم إلى منظم حكيم ، أم فريق الماديين الذين خالفوا فى ذلك كله بدائه العقول وصرائح البراهين ؟ فبلغوا من الأوهام حداً لم يبلغه الفلاسفة الأقدمون الذين يرمونهم بالخيالات والخرافات ويفتخرون عليهم كبيراً وتبجحاً بأنهم خلصوا من الوهم ، وبرئوا من الخيال غير شاعرين أنهم وقعوا فيما هو أفضح منه .

٧ - وصل التخصص فى حقيقة المادة والمتظن فيها إلى حد أن قالوا : إنها مؤلفة من مجموعات كثيرة كالمجموعات الشمسية ، وإنما الذى يرينا أنها جامدة وصلبة هو سرعة سيرها ، فلا نحس بحركتها مثل الأرض التى تسير بنا سيراً حثيثاً ولا نحس بسرعتها .

ألا نقول لهم : إن ذلك مصادم للحس والبدئية « والحس مقدس عندكم . والبدئية مقدسة عند جميع العقلاء » ولكن نقول لهم : ما الدليل على ما زعمتم ، أليس من الجائز أو الواقع أنما لا تصير كذلك إلا إذا وصلت إلى حد الغازية أو المتكهرب ؟ وذلك لا يكون إلا بعد تحليلها ودخولها في أدوار كثيرة ، فما الذى جعلكم تحكمون أنها متحركة بتلك الحركات الزوبعية السريعة غاية السرعة في حال جمودها وصلابتها ، أليس كل دور من الأدوار له حكم من الأحكام ؟ ومن الغلط أن نعطي الجامدات أحكام السائلات ، أو السائلات أحكام الغازات ، إلى آخر ما تعرفون ولا تجهلون .

ولكنهم عتادوا أن يتهجموا على الأحكام تخرصاً وجرأة ، ناسين ما جعلوه قواعدهم من إبعاد العلم عن التخرص والتخمين . وطالما سلقوا السابقيين الأولين بألسنة حداد ، لشرطهم في التخرص وفرض الفروض من غير أن يقوم عليها الدليل الحسى .

فهذا آخر رأى لهم في المادة بعد ما تخلص العقل البشرى من الخرافات والأوهام ، وبنى العلم على أساس صحيح من الحس والمشاهدة على ما يقولون .

وأغرب من هذا وذاك ، القول بأن أصل المادة الحركة أو القوة ، كأن العرض يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى جوهر يقوم به .

قال بعض الفضلاء : الواقع أن القوة التى لهجوا بها ما هى إلا كلمة تقال للدلالة على آثار تقع في العالم المادى لا يمكن فهمها إلا سبها ، فإذا ثارت عاصفة قيل تحرك الهواء بقوة ، وإذا سقط حجر على

الأرض قيل انجذب إليها بقوة ، ولكن ما هي القوة مجردة عن هواء وحجر ؟ لا ندري ولا أحد في العالم يدري ، فكلمة القوة التي جعلها العلماء المعاصرون لنا مبدئاً ومعاداً لجميع الكائنات المحسوسة لا تساوى أكثر من كلمة « الجواهر الفرد » وستخول تلك ما خولت هذه من السلطان المطلق ، ثم يعثرها السقوط إلى الحضيض فتخلفها كلمة أخرى أصلح منها ، مسائرة للعلم في الدرجة التي يكون عليها إذ ذاك ، ثم لا تكون تلك هي الكلمة النهائية .

بل لا ينفك الإنسان ينتقل من مدركات ومصطلحات حتى يبلغ الغاية مما أعد لبلوغه من العلم ، ولا ندرك إن كان يتم له هذا العلم المطلق في عالمه هذا بحواسه القاصرة هذه ، أم في عالم آخر حيث تنطلق روحه من القيود المادية .

فيجب على طالب الحقيقة المطلقة أن يحترس من الكلمات الفارغة وإن سايرت أهواءه الراهنة ، فرب انخداع بنظرية لا أساس لها يقف بصاحبه عشرات السنين في دائرة معينة من الخيال ، ويقف بأهم برمتها عشرات القرون في حالة محدودة من الضلال .

وقد كان الطبيعيون إلى ما قبل مائة وخمسين عاماً يفكون جميع المعيمات الوجودية بالعناصر الأربعة : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب وقد اتضح اليوم بالتجربة أنها مركبة . وماذا يدريهم أن العناصر التي زعموها بسيطة وأوصلوها إلى نحو الثمانين مركبة ؟ وأن قصور آلاتهم عن تحليلها هو الذي جعلها بسيطة في نظرهم ، وإلا فالبسيط على

الإطلاق إنما هو الأثير الذي أثبتوه وقالوا : إن كل شيء يرجع إليه ، وقد كانوا يحللون بالجواهر المفرد الذي لا يقبل الانقسام ولا التلاشي كل العضلات الطبيعية ، وقد ثبت بالعلم أنه قابل للانحلال والغناء .

فلا يصح والأمر على ما سمعت أن يعول الباحث عن الحق الصراح في الطبيعيات إلا على ما يحس به وتمكنه منه تجربته بوسائله الذاتية ، فأحسن موقف يقفونه أمام مسألة المادة هو : أن يعترفوا بأن أصلها مجهول ، وأن كل ما يقال فيه لا يخرج عن دائرة الظنون والآراء .

ويحسن بنا هنا أن نبلغك أن الرأي المذائع في معاهد التعليم من أن المادة لا تنفى قد أدحضه العلامة « جورج بوهن » والعلامة الكبير « جستاف لوبون » .

٩ - يحاول الإنسان أن يعلل كل شيء وهو لا يستطيع أن يعلله إلا برده إلى العلل التي يعرفها ، وهو لم يعرف إلا قليلاً جداً من هذا الوجود . على أنه لا يستطيع أن يعلل شيئاً تعليلاً حقيقياً ، ولكنه كما قال بعض فلاسفة أوربية ، يشاهد بعض الأشياء مشاهدة متكررة فيظن أنها مفهومة ومعقولة ، وأن غيرها ليس مفهوماً ولا معقولاً ، لكونه لم يشهده أو شاهده على سبيل الندرة ، والحقيقة أنه لا يعرف عنة هذا ولا ذاك .

قال الدكتور فرايبار : ليس لأي عقل مهما كانت درجة اتساعه أن يضع حدوداً للممكن وغير الممكن ، لأن الممكن لا ينتهي إلى حد كالمكان والزمان ، ونحن وإن كنا قد حددناه في نظرياتنا فهو يتعداه

كل لحظة ويسخر من ضيق عقلنا ، ألم تعلمنا التجربة أن ما يظهر لنا مستحيلاً اليوم قد يكون بديهية الغد ؟ هكذا كان الحال حيال اكتشاف أمريكا ، وبارود المدافع ، ودورة الدم ، والكهرباء الجلوانية ، والبوصلة وآلة الطباعة ، وممانعة الصواعق ، والطيارات والتلقيح والعلاجات المقطرة إلخ . . إلخ . .

أما ما يقوله لنا العقل فهو : أنه لا يوجد خطأ محض إلا في الأمرين المتناقضين ، ولا حق محض إلا فيما هو بديهي ، وعلى ذلك يمكن الإنسان أن يقول : إنه من المستحيل أن يرى مثلثاً بغير ثلاثة أضلاع لأن ذلك تناقض ، ولكنه لا يستطيع أن يقول يستحيل أن رجلاً يمكنه أن يقرأ من قفاه وأن آخر يسمع من فم معدته ، كما يقول علماء الأرواح « وثالثاً يرى عن بعد مائة ألف فرسخ ، ورابعاً ينبئ عن الغيب كما يقولون ، وخامساً لا يشعر بالألم ، وسادساً يشخص داءه وأدواءه سواه ، وسابعاً يلهم بوصف العلاجات .

« لا » لا يستطيع أحد أن يقول بدون أن يحط من كرامة العقل بأن هذه الحوادث بديهية الاستحالة ، لأنه ليس لأحد الحق ولا القدرة على أن يقول للممكن « إنك لن تصل إلى هذا المدى » .

وفي الواقع أن هذه الظواهر الخارقة للعادة جداً ليست أكثر إدهاشاً ولا عجباً ولا استقصاءً على التعليل من الظواهر التي نشاهدها كل يوم .

أليس كل شيء في الطبيعة غامضاً وعجيباً ، ولكن يوجد عجائب تجري في الطرقات وأخرى قليلة الشبوع ، فيخيل للإنسان أنه قد

فهم الأولى دون الثانية ، لأنه لا يراها إلا نادراً ، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يعلل هذه ولا تلك فهو يشاهدها وكفى .

٩- يقول الماديون إنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس ولا يقولون إلا بالمشاهد ، فهل عرفوا أن الناس كانوا غير متدينين ، فلما خافوا من أفاعيل الطبيعة : حرها ، وبردها ، وظلمتها ، ورعودها وعواصفها ، وسحبها ، وبرقها ، وأمطارها ، اخترعوا ما وراء الطبيعة ، وقالوا بالقوة الغيبية ، واخترعوا الجن والشياطين والأرواح ، إلى غير ذلك ، فهل هذا هو شأن الأمانة في العلم ، أو شرف الثبات على المبدأ يا حضرات المتبجحين؟

١٠- لا بد من تكرار الفوائد في العبارات المختلفة والأساليب المتنوعة ، ثم لا بد من مذاكرتك ذلك كله المرة بعد المرة ، حتى تنتفع به وتصل إلى لبابه ويدخل في شغاف قلبك ، فإن الإنسان مجبول على الغفلة والنسيان ، وقلما يصل إلى لب الحقائق فيما يقرؤه إلا إذا عاوده مراراً كثيرة ، وقلما ينتفع به إلا إذا امتزج بنفسه وكاد يكون علماً حضورياً لديه ، ولذلك تكرر القصص والأمثال كثيراً في القرآن لتلك الحكمة ، وقد كتبنا في موضوعات كثيرة ثم نراها غريبة لدينا عندما تقرأ علينا بعد رده من الزمان ، وسبب ذلك الغفلة والنسيان وهما غريزتان في نوع الإنسان .

١١- نريد من الطبيعيين أن يقولوا فيما وصلوا إليه من القطعيات : إنه قطعي ، وفيما هو في محل البحث والافتراض إنه فرضي ، وفيما جهلوه رأساً إنهم جاهلون به لم يصلوا إلى حقيقته ولا سره ؛ وبهذا يكونون قد أخلصوا للعلم ولأنفسهم وللناس جميعاً .

١٢- إنهم يقولون إن المادة قوة أو هي راجعة في آخر أمرها إليها ، وقد رجعوا عن الرأي القديم فيها ، أفلا يرى القارئ الكريم أنهم قالوا بالمجردات من حيث لا يشعرون ؟ بل زادوا علينا بأن كل شئ من الماديات هو في حقيقة أمره قوة تقمصت هذه الصور وتلك الأشكال ، فما فرارهم بعد ذلك من القول بما وراء المادة ، وقد أكثروا الدوران ثم رجعوا إليه .

١٣- العلم ومباحثه البرهانية لا يصبر عليه إلا من ارتاض بضاعة المنطق والبرهان ، ومن النفوس نفوس هينة رقيقة ، لا يمكنها الصبر على ذلك ، فلا يغذيها أو لا يدخل جوفها ولا يروق عينها إلا الروايات والفكاهات ، فليت شعري من أي قبيل أنت ، وبماذا كنت تشتغل في سالف أوقاتك ، وأيام تربيتك الأولى !!!

١٤- من ضعف الإنسان أن الشبهات التافهة تنحرف به عن الصواب ، ومتى انحرف عن الحق ولو قيد شعرة وقع في الباطل ، وقد تكون هناك فروق دقيقة يضل في ثناياها كثير من الناظرين ، ولا يهتدى إليها إلا الراسخون المبرزون .

١٥ - إن المقلدين كثيراً ما يحملون مذاهب متبوعيههم ما لم يقولوا به ، لا فرق بين أهل الدين وغيرهم . وهذا « بخنز وشبل شميل » ينسبان المادية والدهرية وإنكار الألوهية لمذهب « دارون » استنباطا وإجتهدا ، والمذهب برئ من ذلك ، « ودارون » نفسه معترف بالألوهية ، لأن المذهب مقصور على البحث في نشوء بعض العضويات

من بعض . بعيد عن البحث في الأصل الذى تستمد منه حياتها
ووجودها .

١٦- الماديون فرّوا من تأليه الإله الحكيم الذى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ اللَّهُ بَصِيرٌ ^(١)) إلى تأليه المادة التى لا تسمع ولا تبصر
ولا تغنى عنهم شيئاً ، وهم يعيبون المتدينين بالجمود ، ولو انصفوا
لعرفوا أنهم هم الجامدون المتحجرون الذين خلعت عليهم المادة كثافتها
وجمودها

١٧- إننا فى عصر ثورة فكرية وانقلابات خطيرة ، وفى انثورات
يختلط الحابل بالنابل ، والحق بالباطل ، ويرتفع الجاهل فوق
العالم ، والخالل فوق النابه ، والصغير فوق الكبير ، والحقير فوق
الخطير ، ولا يكاد يسلم من ذلك إلا شذاذ من الناس اكانوا من الرفعة
وكبر النفوس بحيث لا تؤثر فيهم تلك الضوضاء ، ولا تطغى عليهم
هاتيك الغوغاء. فهذه ظاهرة تلزم كل انقلاب ، والفوز المؤقت فى
الانقلابات للأصاغر وللأكابر ، والجاهل للفاضل ، وللخامل الذى ليس
له من ومائل الظهور إلا تلك الوسيلة الشاذة ، ولا من الفرص والظروف
إلا تلك الفرصة التى قلما تسنح له وذلك الطرف الذئبى لا يحسن
العمل فى غيره ولكن الباطل كان زهوقا .

١٨- تأثير الشهوات يغطى العقل ، فإن الإنسان متى كان متأثراً
كان مقهوراً مغلوباً تحت سلطان المؤثر فيه لأنه إذ ذاك منفعل لا فاعل .
ولنتمنصر اليوم على هذا حرصاً على نشاطك واستجماماً لنفسك ،
فلعل ذلك أشهى إليك وأسهل عليك .

في وحدة الخالق^(١) وجود الله عز وجل

إن كل شيء في الوجود يدل على الله ويرشد إليه ، لافرق بين الصغير والكبير ، والعظيم والحقير ، ولا بين المحسوسات وغير المحسوسات ، فإنك في إدراكك وتخيلك وتوهمك وتذكرك وتفكيرك وتصورك وعواطفك وميولك ، وما أودع فيك من الأسرار الجثمانية والروحانية التي تظهر فيك آثارها وتنخى عليك أسرارها ، أعجب من كل عجيب وأغرب من كل غريب ، وإذا نظرت إلى أي شيء في هذا الكون وجدت له ناموساً لا يتعداه ، وطريقاً لا يخرج عنه ، ولذلك يقول الله تعالى : (وَأُنَبِّئُكُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُّؤَزَّنٍ)^(٢) فما في التفاح مثلاً من العناصر ومقاديرها له وزن مخصوص به يصير التفاح تفاحاً ، ولا تقبل بذرته عندما تزرع من عناصر الأرض والماء والهواء إلا تلك العناصر لا سواها ، ثم لا تقبل منها غير هذه المقادير المخصوصة على نسب معينة محدودة ، ولا ندرى ما السر في هذه البذرة التي تكون بجانب بذرة أخرى فلا تأخذ كل منهما إلا ما يناسبها ، وتطرح ما سواه وهي مختاططة به ذائبة فيه ، ولا تتعدى تلك المقادير التي تكون كلا منهما ، وهكذا في كل شيء .

(١) مجلة الإسلام - السنة الثانية - العدد الرابع - المحرم - سنة ١٣٥٢

(٢) سورة الحجر ، الآية ١٩

ولعل هذا هو الميزان الذي حفظت به السموات والأرض وما فيهما (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) ^(١) .

وما وراء ذلك من إيجاد العلاقات بين الأشياء التي جعلت لها نظاما عجيبا فيما بينها ، تنتفع به السفليات من العلويات ، وتتعاون فيه العوالم كلها على نظام عجيب وأسلوب غريب ، لهو أكبر وأعظم من نظام كل شيء في خاصة نفسه ، وإن كان الكل موزونا بميزان لا ينخرم (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) ^(٢) فما أوسع ذلك العلم وما أهدى تلك القدرة وم أقصر علمنا وأقل اعتبارنا (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) ^(٣) . (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ) ^(٤) . (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) ^(٥) (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) ^(٦) .

وماذا نعدد من الآيات وكل ما في الوجود آية لو تأملت فيها ، ووصلت إلى خوافيها . وإن كان الوصول إلى كنه الأشياء ليس من خصائص العقول البشرية . ولا متناول قدرتهم ، فإننا لا نعرف الأشياء إلا بوجودها ، وما لم يوجد فلا نعرفه .

(١) سورة الرعد ، الآية ٨

(٢) سورة فاطر ، الآية ٤١

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٩

(٥) سورة فصلت ، الآية ٣٧

(٦) سورة الروم ، الآية ٢٥

وبعد وجوده إنما يعرف منه إنيته وشخصه ، لا ماهيته وحقيقته ،
وإن كنا ننتزعها انتزاعاً عقلياً بعد الوجود ، وأما ما هو في طي الخفاء
فلا يمكننا أن نحس منه بشيء ما دام في طي العدم لأن العقول البشرية
لا مجال لها في العلم بشيء من الأشياء إلا بعد وجوده ، وهي بعد ذلك
لا تعلم كيف وجد ولا ما هو سر العلاقات بين أجزائه التي كونته ،
ولكن هكذا رأته فعرفته .

ويعجبني قول ذلك الفيلسوف : « إن هوية الأشياء عبارة عن
ارتباطها بموجدتها وإشراق نوره عليها فإنك إذا قطعت النظر عن
موجدتها لم يكن لها هوية ولا وجود » .

يريد أن الممكن يجوز وجوده وعدمه ويستحيل أن يبرز إلى
الوجود بلا موجد يوجده ، فإذا نظر إليه في نفسه كان فانياً
معدوماً ، ولا يمكننا أن نعقل المعلول بلا علة أو المفعول بلا فاعل .

ولهذا قلنا إن كل شيء يدل عليه ويوصل إليه :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقلنا : إن من الناس من رأى وجوده تعالى أظهر من كل شيء
فقال : (متى غاب حتى يستدل عليه) وعلى كل حال فالكون كله
السنة ناطقة وبراهين صادقة .

ولكن تأخذ الأنظار منه على قدر القرائح والفهوم

في وحدة الخالق^(١)

بدهى لعبت به الأوهام

إننا نريد في مقالنا هذا أن نلمح إلى إثبات وجود الله تعالى بنبراهين الملموسة « إن صح أن يقام على البدهى برهان ». وإنا نرى حاجة شديدة إلى ذلك إذ إنه المحور الذي يدور عليه فلك السعادة . والمحيط الذي تنتهي إليه خطوط الدائرة لمكارم الأخلاق ، ومتى لم تكن بذور تلك العقيدة ثابتة في أعماق النفوس ، كان الإنسان إلى الشر أقرب منه إلى الخير ، بل لا تكاد تكون له فضيلة أو يصدر عنه فعل حميد ، إذ لا يعتقد جزاءً ولا حساباً . فلا غرو أن لا يألُو جهداً في تحصيل ملاذه التي لا يعرف غيرها ، وشهواته التي لا يرجو السعادة في شيء سواها ، ونوبادت الأمم وهلكت الشعوب : بخلاف المؤمن المرشد الذي يعتقد أن الله يعلم ما في الضمير ، ويحاسب على الفتيل والنقيير : تالياً في غدواته بروحاته قوله تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)^(٢) .

وقد انتشر الآن بين كثير من شبابنا مذهب الماديين وتعاليم — الإنحاديين ، ولولا ما أودع في النفوس من نور إلهي ، يريد الله به حفظ كيان الأمة الإسلامية ، وبقية خير فيها ، لذابت تلك التعاليم بوحدتها ، وشرقت بين أبنائها ، وجعلت كل فرد منها لا يطلب إلا سعاده

(١) مجلة الإسلام — السنة الثانية — العدد الأول — الحزم — سنة ١٣٥٢

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٥

الشخصية ، وسماعته فيما يزعم ليست إلا بالتكالب على لذائذه الوقتية وشهواته الحيوانية ، فتراه وحشاً قد فقدت إنسانيته كما يقول بعض الحكماء ؛ يفترس الأقران ويقتل الإخوان ، لا يبالي ماذا صنع من المنكرات ، ولا ماذا ارتكب من المحظورات ، وإن وجود هؤلاء بين الأمم فهو النداء العصال ، إذ بهم تذهب وحدتها وتنعدم جامعتها ، وإن تطهير الأمم منهم قبل تفاقم شرهم وانتشار عدواهم لأوجب من تطهيرها من ميكروبات السمل وجراثيم الكوليرا . وما كان أغنانا عن الرد عليهم في هذه العجالة بما أودع في الفطر الإنسانية من نور ساطع وبرهان قاطع ووجدان يتملك النفوس ويحيط بجميع المشاعر ، شأن كل علم ذاق للنفس .

وما وجود النهلستيين « العدميين » والكمونستيين « الاشتراكيين » والسيالستيين « الفوضويين » إلا نتيجة من نتائج العقيدة السيئة ، وثمره مرة من ثمرات شجرتها الملعونة ، ولكن الإنسان مظهر المتضادات ، ومجمع العجائب والغرائب ، فطالما طوحت به الأوهام في أودية الضلال ، حتى أنسته واضحات المنقول وأوليات المعقول . بل أنسته نفسه وكل ما فيها من أصول الخير وجماع الفضائل (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)^(١) . (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)^(٢) . وما أصدق ذلك القول وما أصحاه لكبد الحقيقة ، وما أشد انفعال النفس به : وما أعرف كل واقف على آراء الناس ونزعاتهم بذلك القول : « الجنون فنون » .

(١) سورة الحشر ، الآية ١٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ، ١٥٣

وليت شعري ماذا يكون دهشك وإلى أى حد يصل عجبك إذا سمعت أن من عقلاء النوع الإنساني من ينكر حقائق الأشياء ، ويقول إنها غير ثابتة ، ولا حقيقة لشيء البتة حتى نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا ، أو تسمع فريقاً آخر يقول : إن الأشياء لا حقائق لها ولكنها على ما يظن الناس ، فإن حسبت النار ماء والماء ناراً ، كان الأمر على ما حسبت « وهم العنودية » ، أو تسمع أن رؤية البصر للمبصرات ليست طريقاً من طرق اليقين ، أو تسمع أن قوما آخرين قد وقفوا عند حد الحيطة والتثبت ، فلم يكونوا مع هؤلاء ، فشكوا في كل شيء حتى في شكهم ، فجوابهم عن كل ما يسألون عنه لا أدرى وهم « اللأدرية » .

ولنقدم لك بين يدي الكلام مع أولئك الماديين شيئاً من أحوال الإنسان وما منى به من ذلك الاختلاف فنقول :

قد قرر علماء المنطق أن العلوم النظرية يجب أن تنتهي إلى الضروريات التي تعرف بأنفسها ولا تحتاج في بيانها إلى سواها وإلا لزم الدور أو التسلسل .

وأن البدهي هو ما لا يختلف فيه العقلاء ، ومع هذا فإننا نجدهم قد ملأوا الكتب بالخلاف في البديهيات ، التي لا يمكنك أن تصدق أن فيها خلافاً قبل أن تطلع على تلك الحرب العوان التي قامت بينهم في مثل « العلم » ما هو ؟ وهل هو عين المعلوم أم غير المعلوم ؟ وإذا كان عين المعلوم لزم أن يقال : إن الذهن كيفية تصير كل معلوم يحل فيها كيفاً ،

ولو كان ذلك المعلوم جبلاً راسياً أو بحراً داوياً ، إلى آخر ما تعجب له كالعجب « لو قدر لك أن تطلع عليه » .

والعلم هو البين بنفسه المبين لغيره حتى عند البله والصبيان ، ومثل ما أظالوا به في مسألة « الوجود » فمن قائل إنه لا يعرف لكونه ضرورياً لا يحتاج إلى تعريف ، ومن قائل إنه لا يعرف لكونه في غاية الخفاء فلا يمكن تحديده ، ثم اختلفوا بعد ذلك أهو عين الموجود أم غير الموجود ؟ في أدلة للفريقين لا يسهل عليك أن تخلص من ظلمات أوهامها ، وغياهب ليل خيالها إلا بعد جهد جهيد .

ولولا ما نريد من إيضاح المقام والبعد عن خفيات المعاني الاصطلاحية والكلمات الغريبة لأوردنا لك من أدلتهم ما يغنيك عن أعجب الألعاب ويدهيك عن أعظم المصاب ، ولا بد أن تكون قد اشتقت لاستطلاع سر ذلك والوقوف عليه .

فاعلم أن كل شيء متى عدل به عن سننه ووزن بغير ميزانه كان الضلال فيه أقرب من الهدى ، وقد أودع في الفطر الإنسانية بل والحيوانية من العلوم ما لا تحتاج معه إلى دليل يقام عليه ، بل تجعله الدليل على غيره ، وبذلك استقام أمر الحيوان في نظام حياته وكل حاجاته .

وقد علمت أن العلماء قد جعلوا تلك العلوم الضرورية هي الحاكمة في صحة ما نكتسبه من العلوم النظرية ، ولكن لحكمة ما أودع في الإنسان غريزة الفكر كيلا يقف عند حد كالحيوان ، وقد كان ينبغي

أن تسيّر تلك الغريزة في طريقها من بيدااء العلوم النظرية المجهولة ،
ولا تتعرض لذلك الحرم المقدس الذى من دخله كان آمناً ، وهو حرم
الفطرة الذى يجمع من العلوم ما لم يتول تعليمه غير العليم الحكيم ،
ولكن لشرد تلك الغريزة الفكرية وانتكاسها في أكثر الناس أخذت
تبحث عن كل شيء وتطلب ما ليس لها ، فتراها تطلب لكل شيء
تعليلًا يقع تحت سلطانها الضعيف فتريد له اكتناها تصل إليه بقوتها
التي لم تخان له . تراها تطلب ذلك التعليل حتى في العلل التي هي علل
بمقتضى حقائقها فتطلب للعل عللا ، لأنها لا تعرف مقتضيات حقائق
الأشياء ولا تشعر بها إلا بواسطة آثارها ، وما وراء ذلك فليس من
علومها على الحقيقة ، فهي تهوى ذلك الاكتناه ولو لم يكن من اختصاصها .
ولو رجعت إلى الفطرة لأغنتها عن ذلك العناء ، ولكنها أرادت أن
تستبد بالأمر كله في تلك المملكة الإنسانية فلا تقبل رأياً غيرها ،
ولا تسمع صوتاً يرتفع لسواها ، فعملت على إغلاق ذلك الباب السماوى
المعصوم ، فجعلت بينها وبينه سداً منيعاً من الظلمات التي طال عليها
الأمم ، فأظلمت منها جهات ذلك الحرم المقدس ، ومات فيه كل
إحساس كان حياً من ذلك النور الذى كان يهبط عليه من سماء الوحي
الإلهي ، فلا غرو أن يفضل ذلك الفكر الذى سار إلى غير غايته التي
خلق لها ، فهو يفضل تارة ببعد المطلوب عن متناول قوته ، وتعاضمه
عن الخضوع لسلطان إدراكه كما يتعاضم الهواء عن رؤية الأبصار ،
وتارة لشدة قربه من النفس ومزيد التصاقه بها فكان كالمبصر الذى

يحاول أن يرى ما التصق به فلا يستطيع لذلك "ووصولاً ولا يجد إليه سبيلاً ، فهو يجهله لامحالة ، وإن كان أقرب الأشياء إليه .

وإذا لم يثق الإنسان بما فطر عليه ويحس به أشد الإحساس من نفسه فبأى شيء يثق ؟ وعلى أى شيء يعتمد ؟ ويلزمه إذا كان لا يعول إلا على ما يقام عليه البرهان الفكرى أن يشك في الشمس التى يشاهدها بعينى رأسه وفي قراءته الان في تلك المجلة ، وفي يقظته وقت القراءة ، لأنه يمكن المشكك أن يقول له يجوز أن يكون كل ذلك من أضغاث الأحلام حتى كلامى معك ومناقشتى إياك ؛ لأن ذلك كله مما يجوز أن يراه النائم في منامه ، هذا ، وإنك توقن كل الإيقان بما تلوناه عليك عندما ترى الآراء المتباينة والأفكار المتضاربة بين المتقدمين والمتأخرين مثل الخلاف فى أن النظر يفيد العلم ولهذا خلق ، أولاً يفيد لكثرة ما ترى من خطأ الأفكار وضلال العقول ، وكالخلاف فى أن الحس يفيد العلم وهو أقوى طرقه ، أو لا يفيد لأن من فى السفينة يرى الشاطئ يجرى ، وكذا حبة العنب مثلاً فى الماء تراها أكبر من حجمها الحقيقى ، ولأننا نرى الأشياء البعيدة صغيرة جداً وهى من أكبر المخلوقات كالنجوم مثلاً ، إلى آخر ما قالوه .

وإذا نظرت فى حال المتأخرين لم تجده أهون ويلاً ولا أخف جهلاً ، تراهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس وبثبتون فى مكان ما نفوه فى مكان آخر ويرجعون عن قواعدهم التى قرروها إلى غيرها .

وقد قال أحد وزراء خارجية إنجلترا فيما رأيته منذ زمان : « إذا تركنا المقررات القديمة واتبعنا الفوضى العلمية الجديدة ، فلا بد أن

نخرج من الموضوعات كلها وليس في يدنا من العلم شيء لكثرة ما نجد من المضاربات والمناقضات ، ومزيد ما نراه كل يوم من العقد والحل ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء وهو النور ، كما اختلف المتقدمون فيه قديماً . أعرض هو أم جوهر ؟ وما حقيقته ؟ في كلام يطول شرحه . كما احتدم بينهم الجدل في أصل المادة وأول العالم ما هو ؟ مثل ما وقع بين الأقدمين من الكلام في الهوى .

وأكثر ما نراه لهؤلاء وهؤلاء إنما هي خيالات وتخمينات لم يقم عليها دليل . ولا أيدها برهان .

وقد كنت في بدء أمرى أتجشم الصعوبات في انتحال الحجج الواقعة بين العلماء وأحسب أن ذلك يرتكز على أنظار سامية اغتراراً يعظمة قائلها وكنت أجدل تلك الشبه وهاتيك التشكيكات وخزاً شديداً في نفسي .

فلا أزال أعالجها حتى أظهرها من تلك التسه وأرجعها إلى الاطمئنان وبرد الإيقان . ثم علمت والحمد لله أن الإنسان أقوى المخلوقات على الإطلاق وأضعفها على الإطلاق . وأنه مظهر المتضادات ومجمع العجائب والغرائب ، فصرت لا أعجب لمناقضات الأفكار ، ولا متباينات الآراء ، وأصبحت ولا قيمة لشيء من ذلك عندي مهما كان قائله ، لعلمي أنه الإنسان .

وقد رأينا أن نشبت هنا كلمة جليلة لها مناسبة تامة بهذا الموضوع لأحد فلاسفة فرنسا « كاميل فلامريون » - على ما ذكره الأستاذ :

الفاضل فريد بك وجدى قال ذلك الفيلسوف : إن من الضلال التصديق بكل ما يقال ، ويساويه فى الضلال عدم الاعتقاد بشئ أصلاً ، ولا يجوز لنا أن نسلم بشئ حتى يقوم عليه الدليل . ولكن يجب علينا الاعتراف بما تؤيده الحجة بكل إخلاص ، ولنعترف مع هذا بأنه توجد أمزجة هى من الاستعصاء عن قبول المسائل الخاصة التى تشغلنا هنا^(١) بحيث لا نصدق بشئ منها رغماً عن قيام جميع الأدلة التى يتخيلها العقل . وأننا كثيراً ما نصادف فيما حولنا رجالاً لا يصلحون لأن يقتنعوا بهذه الحوادث ، على الرغم من المشاهدات البالغة الحد الأقصى فى -
الوضوح ، على أنهم رجال عظام فى مسائل أخرى متعلمون محبوبون محبوبون للإنسانية ، ولكن بصائرهم مخلوقة على حال لا يستطيعون معها أن يروا ما هو أمامهم على خط مستقيم « الصيادون يؤكدون أن الأرناب على هذه الحال » فأمام أعينهم منشور زجاجى موضوع حبال الشبكية يحير الأشعة الساقطة عليها بضع درجات ويعكسها عكسات مختلفة على حسب أشكال تلك العيون .



ليس هذا خطوهم فهم ليسوا يريدون عدم الاعتراف بوجود الشمس فى خط نصف النهار ولكنهم لا يستطيعون ذلك .

تعرضهم فى ذلك أساليب مختلفة من التريبة وغيرها : فبعضهم منقاد انقياداً أعمى للتصديق بتعاليم لم يقم عليها دليل ، وهم مرتاحون إليها مقتنعون بها ، وبعضهم مصاب بعدم التصديق وهو ليس أقل عمى

(١) يريد إثبات وجود الروح وخلودها .

من سابقته . وقد جاء في المثل العربي « لا تفيد العينان من كان مخه
أعمى » .

إن هؤلاء المنكرين مصرون على إنكارهم ويهزؤون بكل شيء
ولا يتخيلون أننا نضحك من تخيلاتهم العلمية المزعومة ، وأن منهم من
يخلط الجد بالهزل على أحسن ما يكون ، ومنهم متكلمون دقيقون
يتخيلون أنهم يطوفون طريقاً سلطانياً باتومبيلاتهم الفخمة بينما هم
محمولون على عجلات مملوءة بالهواء ، يكفي حصاة واحدة لأن تفرغ منها
ذلك الهواء المضغوط .

البعث

نكتب اليوم في البعث ، وهو من أصعب ما جاءت به الشرائع
الساوية ، حتى أن كثيراً من الناس ليعده من الخرافات أو المحال .
ولنقدم قبل ذلك كلمة وجيزة عن الإنسان فنقول :

مقدمة :

الإنسان من أعجب الكائنات وأغرب المخلوقات ، جمع بين
المتضادات ، واستعد لأكبر السعادات وأعظم الشقاوات ، لأن فيه قابلية
لا تحدد ، وجهات ضعف وقوة لا تعد : أما قوته فأنت غنى عنها وممتلئ
منها . وأما ضعفه : فمن وجوه كثيرة ، فمنها أنه متى أُلِّف شيئاً إلفاً
تاماً ، واعتاده اعتياداً متكرراً ، لم يكذب يقبل غيره ، أو يصدق بشيء
سواه ، ولو كان من أوضح الواضحات أو أول المبرهنات ، فإنه لا يستمد
إلا من مألوفه ، ولا يرجع إلا إلى معروفه ، وما عدا ذلك فهو عنده
خيال أو محال ، ثم يأخذ وهمه في الاستدلال عليه . وكل قوم أدلة
يقتنعون بها ويعتمدون عليها لأنها تناسب حالهم : وتروق خيالهم ،
وإن كانت من عمل الشيطان وعلى نقيض البرهان . ومن ذلك ما قاله
المشركون في رد التوحيد :

(أَجْعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ^(١) وفي رد النبوة :
(أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَعْلَفِي الذُّكْرُ عَلَيْهِ مِن
بَيِّنَاتٍ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ) ^(٢) :

ومن ضعف الإنسان أنه إذا نظر في موضوع فقلما ينظر فيه إلا من بعض نواحيه ، ثم يكون الباقي عنده في عالم المجهول أو غير المعقول ، لأن البصيرة كالبصر متى اشتغل بروية تى ٤ حجب عن غيره ، وإن كان أقرب الأشياء إليه وأدناها منه . وكيف تنظره البصيرة وهي لم تتوجه إليه ولم تلتفت له ، وما دامت تجهله فهي تنكره ولا تكاد تتصوره . ومن جهل شيئاً عاداه . وقد قال الله تعالى في مثل هؤلاء : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) ^(٣) وهو بعد ذلك مستعد للتقليد في أى شىء من الأشياء ولو كان من أجهل الجهل وأبطل الباطل بمقتضى تلك القابلية التى لاحد لها ، فإنه يتأثر بكل شىء يراه أو يحس به أو يتلقاه من أبيه أو أستاذه أو رجل كبير فى نفسه ، خصوصاً ما مرن عليه بين بيئة مردت عن الجهل والتقليد ، أو يقرأ فى كتاب من الكتب أو جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات مادام لا يقرأ ما يعارضه .

وقد قالوا قديماً : « من يسمع يخل » والنفس الإنسانية مستعدة لكل ما ينقش فيها ، خيراً كان أو شراً ، والغذاء المعنوى بمنزلة الغذاء الحسى ، لا بد أن يؤثر أثره فى صاحبة ضاراً كان أو نافعاً ، حتى إذا

(١) سورة س ، الآية ٥

(٢) سورة قمر ، الآية ٢٤-٢٥

(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩

تمكنت تلك النقوش من النفس ، وأصبحت راسخة فيها تعسر زوالها وربما تعذر ، وكأنها صارت جزءاً من تكوينها وعنصراً من عناصرها .

ومعروف أن الشيء إذا صبغ بأى صبغ وتمكن منه ذلك لم يقبل صبغاً آخر إلا بتحليل كبير وعناء كثير . فمثل هذا الرجل لا يبتغي غير ماعنده بديلاً ولا يجد إلى ذوق الحقائق سبيلاً ، لأنه لا يرى له أثراً في وجدانه ، ولا يقع له على ظل في زوايا قلبه . والإنسان ليس إلا قلبه . والقلب ليس إلا تلك المعلومات التي غذيته بها ، ولا النفس إلا تلك النقوش التي نقشتها فيها وصبغتها بها . ولذلك يقول الله في حق هذا الفريق : (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)^(١) وهؤلاء يرون تقليد الآباء من أول الواجبات ، وقولهم من أكبر الأدلة .

وقد قلنا : إن لكل قوم أدلة تناسب طفولتهم وتوافق جهالتهم ، وهؤلاء هم الذين يقولون :

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)^(٢) .

وعزيز على أن أقول : إن آباء أكثر الناس الآن هم الأوروبيون ، وأسأتدتهم هم الماديون والملحدون ، وذلك بفضل التعليم المدني وجهلنا بكل شيء عندنا حتى أوليات ديننا وتاريخ أسلافنا .

(١) سورة يس ، الآية ٨-٩

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٢٢

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول :

ومن أكبر الضعف أنه يظن الشبهة الباطلة دليلاً ساطعاً ، والحجة الداحضة برهاناً نيراً ، والإنسان مستعد أن يتسفل إلى أسفل الدرجات ، أو يرتقى إلى أعلى الدرجات . ولقد وصل من الجهل إلى حد أنه كان يعمل الصنم بيده ثم يعبده ، بل إلى حد أنه كان يعمل من عجوة ثم يأكله ، ومن أظهر وجود ضعفه وأعمقها في نوعه ، تأثير الشهوات التي تختلف ضرورها وتنوع مراميها ، حتى تقتل عقله وتميت إحساسه ، أو تفسد إنسانيته فتجعله غير إنسان . ومن أظهر وجوه الضعف فيه أننا نرى بعض أفراد من أقوى الأقوياء ، ثم نراه من أضعف الضعفاء ، وقد يكون فيلسوفاً سارت الركبان بحديث نظرياته ، ثم لا يلبث أن يتهمس في بعض البدهيات ويتخبط في أوائل الضروريات . وعندى أن من أكبر ضعفه جهله بضعفه ، ولو عرف ضعفه ولم يجهل جهله ، لكان ذلك أدنى إلى قوته وأقرب إلى سلامته .

وقد تؤمن بهذا كله عندما ترى أن لكل ضال ومبطل وشريد وجاهل يجد له من هذا النوع أتباعاً يقولون بترهاته ويدينون بخرافاته ، وليس المدار في وجود من يتبعك ، ويقول بقولك ، ويترسم جميع خطواتك في هذا العالم ، مهما كان قولك وعملك ، ونحلتك ونزعتك إلا أن تتقن وسائل دعوتك ، فإن نوع الإنسان مستعد لصنوف الهديان وجميع الألوان ، وقابل لضروب الحق والبهتان ، وسبيل الكفر والإيمان ، وأنواع السفسطة والبرهان . وبعد فالإنسان هو الإنسان ، وما أحكم قول المتنبي :

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

أو نقول :

غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بغیظها الحكماء

ولنقتصر من هذه المقدمة على هذا .

(المقصود) :

إني أعجب ولا أخفي عليك ممن ينكر البعث ، وهو فيما أراه من أوضح الواضحات ، فإن البعث ليس إلا خلقاً جديداً ، ليس بينه وبين الخلق الأول الذى نشأه كل وقت وكل ساعة ، أدنى فرق يصح أن يكون شبهة للمنكر أو تكأة للمرتاب .

وقد قال المعلم الثانى أبو نصر الفارابى وهو من أكبر فلاسفة العالم :
« كنت أشتهى أن يطلع أرسططاليس على ذلك القياس الجلى » الذى يشير إليه قوله تعالى : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(١)
أما القياس الذى أشار إليه فهو أن الله أنشأ الخلق أول مرة . وكل من أنشأ شيئاً كان قادراً على إعادته . هذا هو القياس . بل نقول إن الإعادة أسهل فى العقول من البدء ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله :
(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)^(٢) وهذا مسلم يعرفه كل أحد من نفسه ، فإن العمل كلما تكرر كان أخف وأهون ، وما نشأ ذلك التوقف إلا من جهل الإنسان الذى قاس قدرة الله التى لاتحد ، على قدرته التى لا قدر لها ، فوجد أنه لا يستطيع أن يحيى

(١) سورة يس ، الآية ٧٩

(٢) سورة الروم ، الآية ٢٧

الموتى « فأنه كذلك » فهو جاهل بالله من جهة وواقف عند حسه من جهة أخرى ، فلا يصدق إلا بما رآه ببصره (وهو لم ير البعث) وهذا هو شأن البهائم التي لاتصدق إلا بالمحسوس . على أن ذلك محسوس لكل أحد .

ولكن الإنسان مستعد بجهله أن ينكر المحسوس ولا يفكر في المشاهد ، فإن القادر على أن يخلق من النطفة ، وهي فضلة من الفضلات إنساناً عاقلاً مفكراً مدبراً فصيحاً بليغاً مخترعاً متفنناً عالماً فيلسوفاً ، إلى آخره . كيف يعجزه أن يعيد أجزاءه إلى ما كانت عليه ثم ينفخ فيها الروح مرة أخرى ، ولعلها مهياة للخلق وأقرب إليه مما كانت ، وهل هناك إلا أنك رأيت الرجل يخلق من النطفة ولم تر ذلك في الأموات .

ويعجبني قول بعض الفلاسفة الإسلاميين : « لو حدثنا أحد أن رجلاً سمعاً بصيراً خرج من قطرة ماء لم نصدق له ولهزئنا به وقلنا إنه يهزأ بنا ، ولكننا رأينا ذلك ووجدنا فيه ومنه فصدقناه وصرنا لانفكر فيه ، وآل شئ تكررت رؤيته لم يكن له وقع في النفوس ، فالشبهس أكبر آية ، وكذا الكواكب البديعة الأشكال العزيزة المثال ، لا نتفت إلىها لكثرة رؤيتنا إياها وإلغنا لها . وقد كنا نحلق في الطيارات يوم ظهورها ديننا ، وقد أصبحنا لا ننظر إليها ولا نهتم بها ، وكنا نستهن السفور أيام انتصار العادات الشرقية الإسلامية على العادات الغربية الأوروبية ، فأصبحنا لا نتمعض من التهتك ولا ننفعل به ولا ننكر

عليه ، وما نحن أولاء يدهمنا الليل بظلمته الحالكة كل يوم مرة فلا تهتز له أعصابنا اهتزازها لكسوف الشمس ولو جزئياً .

فهكذا شأن الإنسان وعلى هذا جبل ، وقد قال الله في تقرير هذا الدليل : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)^(١) . ثم إذا نظرت في هذا التراب وجدته ينقلب نفاحا ورماناً وموزاً ولوزاً وورداً ، إلى آخره . وتشاهد ذلك في كل عام من الأعوام ، بل في كل فصل من الفصول ، وكل يوم من الأيام ، فما الذي تستنكره بعد ذلك .

أليس جهل الإنسان كبيراً حيث لا يعرف قدرة ربه التي لا تحد ، ولا يستعمل عقله وفكره ، ولا يلتفت إلى نفسه وأبناء جنسه ولا إلى مزروعاته وجميع محيطاته ، ويصادم المعقول والمحسوس ؛ على أنه إذا لم ير شيئاً من ذلك لم يصح له أن ينكر البعث ، فإنه لا بدري من نواميس الوجود إلا أقلها ، ولم ينل من بحر العلم إلا قطرات يسيرة شرق بها ، أو نقول تبجح بسببها ، فزادته جهلاً على جهله ، وكان مصيبة على الدين وعلى العلم وعلى نفسه وعلى أبناء جنسه إلا من وصل من الفلسفة إلى لبها ، ومن الحقائق إلى صميمها وقليل ما هم .

وإني لا أدري كيف ينكرون البعث الآن ، وقد قرروا أن العالم كله يرجع إلى شيء واحد في أصله هو الأثير أو الكهرباء أو ما إلى ذلك ،

ثم تغيير هذه التغييرات واستحالة تلك الاستحالات حتى صار إلى تلك الأجناس التي لا يحصيها عد ، ثم تنوعت إلى تلك الأنواع التي لا يهيط بها علم ، فما معنى إنكار البعث بعد ذلك ، وليس هو إلا شيئاً مما هنالك . ولكن لا عجب فالإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومحل المتضادات والمتناقضات ، على أننا نسألهم هل ينكرون الإنسان الأول ، أو الحيوان الأول « على مذهب درون » فإن أنكروه وقالوا إنه ذاهب إلى غير نهاية « وهم لا يقولون ذلك » أبطلنا قولهم هذا بأنه يلزم عليه التسلسل المحال الذي لا يقولون به أيضاً ، وإن اعترفوا (ولا بد أن يعترفوا) بأنه خلق من الأرض وهو من أحدث المخلوقات عندهم ، فقد قامت عليهم الحجة ولزمهم العجز وأحاط بهم الإفحام ، فإن هذا هو إخراج الحي من الميت الذي لم يشم رائحة الحياة أصلاً .

وليس البعث إلا هذا أو أقرب منه ، ولا يمكنهم التقصّي عن ذلك مهما حرفوا أو خرفوا . ولهذا كله ترى القرآن يعجب من إنكارهم البعث إشارة إلى أنه في غاية الجلاء ونهاية الوضوح فيقول : (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)^(١) ويقول للبي : (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)^(٢) فكانوا يعجبون منه ويستهزئون به ، وكان يعجب من إنكارهم واستهزائهم . حتى قال لهم : (كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

(١) سورة الرعد ، الآية ٥

(٢) سورة الصافات ، الآية ١٢

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (١) وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لا يبعد استحالة الحجارة إلى الحي ، فإنك تراها تستحيل ، ثم يزرع فيها ، ثم تنقلب نباتاً حياً ، ثم ينقلب النبات نطفاً ، ثم تنقلب النطف حيواناً وإنساناً . أليس ذلك كله إخراجاً للحي من الميت ، وقدرة الله بعد ذلك لا يحيط بها محيط .

وما أبدع ما قال الله تعالى في الاستدلال على البعث : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) إلى أن قال : (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) ثم قال في آخر هذه الآيات مشيراً إلى دليل آخر : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (٢) . ثم ذكر النتيجة بعد تلك الأدلة الواضحات فقال : (ذَلِكَ بَيِّنٌ لِّلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْيَبِ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) (٣) ولا بأس أن نتلو عليك الآية التي بعد هذه : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ثَانِيٍ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (٤) وقد قال الله قبل ذلك وهو العليم بخلقه : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعِ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) (٥) إلى آخر ما جاء في القرآن من الآيات البينات والحجج الواضحات .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٥٠-٥١

(٢) سورة الحج ، الآية ٥

(٣) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧

(٤) سورة الحج ، الآية ٨ وجزء الآية ٩

(٥) سورة الحج الآية ٣

وعنى كل حال فمن تأمل وجد أمر البعث واضحاً جلياً للغاية ، فإنه لا فرق بين الخلق الأول والخلق الثاني كما قلنا . ونحن نشاهد هذا الخلق كل وقت وساعة : فكلما رأيت طفلاً رأيت خلقاً جديداً . وإذا رأيت عصفوراً فى روض رأيت خلقاً جديداً . وكلما رأيت نباتاً فى حقل فقد رأيت خلقاً جديداً . ففى بيتك وفى سوقك وفى حقلك وفى نفسك وفى البر وفى البحر وفى الارض وفى الجو ، كلما ألقيت ببصرك رأيت دلائل البعث تحيط بك من كل جانب .

ومن الغريب أن بعض أهل الجاهلية - وأظنه عبد المطلب - كان يرى البعث حقاً ويستدل عليه عقلاً فيقول : إن هذه الدار مثلكة ظلاماً وجوراً فلا بد من دار يقام فيها العدل ويقتص فيها من الظالم للمظلوم ، وهذا هو مقتضى قواعد المعتزلة الذين وسموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، فلا يجوزون عدم البعث عقلاً ، ولعلنا نجد فى كتاب الله تعالى ما يشير إلى ذلك مثل قوله تعالى : (أَمْ نَجْعَلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلِ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)^(١) فإن عدم التسوية بينهما فى الآخرة لا فى الدنيا .

فقد تجد حظ الفجار فى هذه الدار أعظم من حظ المتقين فيها . ويشير أيضاً قوله تعالى : (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ)^(٢) ويقول : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

(١) سورة ص ، الآية ٢٨

(٢) سورة يونس ، الآية ٤

اجْتَرَحُوا الْمِثْيَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١)

ولك أن تقول : لو تساوى الظالم والمظلوم والصالح والظالم مع ما كان بينهما من الفرق العظيم في الدنيا ، لكان ذلك قادحاً في عدل الله تعالى ، لكن ذلك لا يجوز . فلا بد أن يذيق الظالم كأس النكال على ما كان منه . وتقر عين المظلوم على عظيم صبره . وإذا يهون علينا ما نلاقه في هذه الحياة انتظاراً لما في تلك الحياة . (أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) (٢) (أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) (٣) عن ذلك العبث (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) (٤) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (٥) ولك أن تقول : لو لم يكن هناك بعث لكان الإنسان أخص من الحيوان الذي لا يحزن ولا يخاف ولا يترقب الحوادث .

ومن الأدلة الطريفة قول بعضهم : إن الإنسان يحس من نفسه بعدم النهاية في شعوره وفي مطالبه وفي شوقه إلى عالم لا يتناهى ، وكلما وصل إلى شيء طلب غيره لأنه يجد غير محقق لما تتوق إليه نفسه من صفاء لا غاية له وملك لا يعتره زوال ، وسعادة ليس فيها شقاء ،

(١) سورة الجاثية ، الآية ٢١

(٢) سورة القيامة ، الآية ٣٦

(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ١١٥-١١٦

(٤) سورة من ، الآية ٢٧

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ١٦

ونعيم كنعيم أهل الجنة ، فهو يحس بأنه مستعد لهذا ، ولكنه يطلبه من هذا العالم جهلاً منه ، فإن هذا الشعور لم يخلق فيه عبثاً ولا جزافاً ، فليس من سنة الله العبث أو الجزاف . وأيضاً فكل شيء في الوجود خلق لغاية ، ولو لم يكن للإنسان غاية أخرى غير ما في هذه الحياة لكان وجده عبثاً ، فإن غيره في هذه الأرض مخلوق لأجله ، فلا بد أن يكون هو مخلوقاً لغاية سامية ، فإنه لم يحصل هنا إلا الهموم والأحزان ، وهو متخبط في هذه الحياة لا يعيش فيها عيشاً صالحاً بوجه ما إلا بالتعلة أو الأمل أو الخيال . ولهذا يقول القائل :

طُبعتْ على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقدار والأكدار
ومكاف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

أما الظلم هاهنا ورفعة الجاهل وانحطاط الفاضل ووضع الأمور في غير موضعها فحدث عنه ولا حرج ، حتى مع أرقى القوانين وأعظم الدساتير فإنهم يزولونها على ما شاءوا ويطبّقونها على ما أرادوا :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى صار ظلماً منظماً

« وإن شئت فسمه ظلماً قانونياً أو دستورياً » .

. هذا ، والقرآن يذكر في هذا الموضوع الذي نحن فيه أدلة واضحة للغاية فيقول : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(١) . ويقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى

الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا
لَمُخِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) ويقول : (لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) ^(٢) . ويقول : (أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ
أَنَا خَلَقْتَنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ
خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ^(٣) .

وإني أستلفت نظرك إلى ما في هذه الآية الشريفة مما يملوك روعة ،
فبعد أن قاس الإعادة على البدء - وهو قياس أولوى كما عرفت - قال :
(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) كأنه أراد أن يقف النفوس عند حدها ويقلل
من هواجسها ، أو يقضى على وساوسها التي تجول في تلك الشبه ،
ولعلك رأيتها أو سمعت بها فقال لهم : دعوا عنكم تلك الوساوس
وهاتيك الهواجس ، فإنه بكل خلق عليم .

وكيفية خلقه وجميع أفعاله لا يحيط بها محيط (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ
الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ^(٤) .

وإني أكرر عجبى البالغ من إنكار أولئك الماديين الذين يقولون
إن أصل الأشياء هو الأثير قد استحال استحالات كثيرة حتى كون
المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، فكيف ينكرون البعث بعد

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٩

(٢) سورة غافر ، الآية ٥٧

(٣) سورة يس ، الآيات ٧٧ - ٧٩

(٤) سورة النحل الآية ٧٤

اعترافهم بهذا وبعد كثرة ما يشاهدونه الان من استحالات المادة التي لا تقف عند حد والتي تأتي بالمبتائيات والمتناقضات .
أما ما رأيت من الشبه التي تذكر في بعض الكتب - وقد أشرنا إليها - فلا نريد أن نزع بك في ظلماتها ، أو نعرضك لآفاتها ، أو نعرض عليك ما فيها من خيال وخبال ، ولكن نقول لك : إن الإنسان على الحقيقة هو الروح الحافظة لشخصيتها في أي ثوب تلبسه ، وأي مظهر تظهر به ، والجسم الإنساني له شيء أصلي بمنزلة البذر الصغير للأشجار الكبيرة .

تلك البذرة الأولى هي ما كان عند نفخ الروح أو تلك الذرة التي وجدت يوم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)^(١) أو نحو ذلك . ولعلك ممن يكتفي بإيجاز الإشارة عن إطناب العبارة ، ولا يمكننا أن نتوسع أكثر من هذا فلا نحمل البيئته فوق ما تطيق ولا الظرف أكثر مما يسمح به .

ولنختم مقالنا هذا بما يروى عن بعض العلماء أنه جاءه ملحد ينكر البعث فلم يطل معه الجدل ولا أكثر له القيل والقال ، بل عدل عن كل ذلك وجاء من ناحية أخرى لعلها أعظم أثراً في وجدانه وأقرب سبيلاً إلى إيمانه ، فقال : إن كان عدم البعث حقاً نجت أنا وأنت والإنجوت أنا وهلكت أنت ، ومن ذلك قول القائل .

تال المنجم والطبيب كلاهما لاتبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

فنحن إذاً أعقل منهم على كل حال ، وهذا على سبيل التنزل
أو المداعبة ، وإلا فالبراهين واضحة لا يمارى فيها إلا من قال الله فيهم :
(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)^(١) .

حُرَيَّةُ الْإِنْسَانِ

تكليفه - القضاء والقدر

(١)

نكتب اليوم في القضاء والقدر ، وهو من أعوص المسائل سرّاً وأبعدها غوراً ، وقد اضطربت فيه الأفهام ، وزلت فيه الأقدام ، وأكثر في خوض عبايه المسلمون والمسيحيون ، وإن كانوا يرموننا الآن بالتأخر والجمود والتكاسل والتواكل ، من جراء ما نعتقد من القضاء والقدر ، ونسوا أن تلك العقيدة عندهم كما هي عندنا ، بل يجب أن تكون في كل دين من الأديان لأنها حق لا مرية فيه ، وليس ذلك منافياً للحرية الإنسانية . كما سيتضح لك أجلى اتضاح ، ولقد كان يكفي لإدحاض ما رمو به المسلمون نظرة واحدة لما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الذين أتوا من جلائل الأعمال ما غير وجه البسيطة وقلب نظام العالم .

هذا ما أرشدنا إليه عمله مما امتلأ به التاريخ ، وقد عضده الكتاب والسنة ، ولكن الأمر كما يذكرون هم عن سيدنا المسيح - عليه السلام - « إن الإنسان يرى القذى في عين أخيه ولا يرى الخشبة في عين نفسه » .

على أن ذلك جهل بحقيقة القضاء والقدر عندنا وعندهم كما ستقف عليه .

ولنجهتهد في توضيح ذلك حتى نجعله على طرف الثام وإن كان من معترك الأفهام ومزالق الأوهام ، ولعل ذلك هو ميزة المجلات العلمية في هذا العصر ، توضح الخفي وتقرب البعيد ، وتطلع الجمهور على ما كان لا يتحدث به إلا بين الخاصة وسط المعاهد العلمية أو المنعبد الدينية ، معرضين عن الاصطلاحات المذهبية والعبارات الفنية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، فنقول :

من البدهي أننا نختار الفعل على الترك ، والترك على الفعل^١ ، فنرجح ما شئنا متمتعين بالحرية ، وقد كان يجب أن يكون هذا كافياً في الجزم بحريتنا واختيارنا ، وقد تعلم أن كل ما يعارض البدهي أو المحسوس يجب ألا يلتفت إليه ، ويكفي في سقوطه مصادمته للبديهية ، حتى إننا لو عرفنا أن هناك دواعي تدعو إلى ذلك الفعل لم نشك في أن لنا تدخلاً في الفعل بالتفكير والترجيح بعد الموازنة والتروى .

فإذن لنا شيء في العمل لا محالة وإن كنا نعتقد أن ما يسرد الله كان وما لا فلا ، وإذا كانت الأسباب الجمادية لها تدخل في الأشياء كما قال تعالى في حق الماء : (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)^(١) فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به في الآية الأخرى .

فكيف لا يكون لنا تدخلاً فيما يكون منا ، هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار ، الذى يستطيع أن يقلب الأسباب الآلية

(١) سورة النحل ، الآية ١١

ويسيرها في أى طريق شاء وهو أعظم منها ، فإنها مسخرة له وهو مليكها فكيف لا يعطى ما أعطيته من الأحكام وهو أقوى الأسباب وأعظمها ، ولذا لا يجنبون من الأسباب التي يتوقف عليها الفعل نظر الإنسان وإرادته واختياره وترجيحه ، هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل في الفعل ما ليس للعاقل المختار ، اللهم إن ذلك غير معقول ، فلم يبق إلا التحنيد وبيان مقدار ما للعبد من ذلك ، وهو غير ضرورى للعلم الإنسانى بل غير ممكن ، فإن اكتناه الأشياء كما هى غير مستطاع للإنسان ولا ناخلة في متناول قدرته ، فهذا الغذاء الذى هو من أظهر الأشياء لا نعرف من أمره إلا الظواهر التي « لا تسمن ولا تغنى من جوع » أما كيفية انغلابه أعضاء مختلفة فلا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها ، وكذلك ما تنبت الأرض من أوضح الواضحات من حيث أطواره المعروفة ، ولكن كيف تكون هذا النبات من التراب وكيف استحال التراب أزهاراً بهية ، وأثماراً شهية ، فذلك مما لا سبيل إلى الوصول إليه وهكذا الأشياء كلها

وما يجب أن يلتفت إليه أن كل شيء نستطيع البحث فيه إلى حد محدود ، فإذا تجاوزنا ذلك الحد استغلق علينا وانسدت أبواب الفهم فيه ، فأخذنا نضرب في متاهات الخيال ونخبط في مهامه من الظنون والأوهام ، فتضاربت الأقوال وتناقضت الآراء .

ولعلك رأيتهم كيف تخبطوا في الوجود وهو أظهر الأشياء عندما تعمقوا فيه ، ركزوا العلم والنور . . إلخ . ما رأيته ، ولو عرفنا هذه الحقيقة فلم نجاوز قدرنا ولم نتعد طورنا لزال هذا العناء وذهب ذلك

الشقاء ، وهى حقيقة يجب أن تقرر ونكرر حتى تملأ الرؤوس وتثبت فى النفوس .

ومن العجيب أنهم أطلوا القول فى هذه المسألة « مسألة أفعال العباد » منجدين ومتهمين ، مشرقين ومغربين ، فكانت من أعوص المسائل بين الفرق الإسلامية والمسيحية .

ولو تأملوا يعرفوا أنه لا فرق بينها وبين غيرها ، فكل شئ عويص إذا أردنا أن نقف على كنهه وحقيقته ، فما بالناس نتجاوز قدرنا ثم نكسر من الصراخ والضوضاء .

وبعد : فالقول بكون الإنسان مجبراً لا مختاراً قول بإسقاط كل تبعة وكل مزية ، وجراءة على التسوية بين الخبيث والطيب . وهو أمر يناقض العلم اليقيني ، وينافى البدهيات الأولية ، ويعجبني قول من قال : كيف تزعم أنك جبرى مع أنك تجرى لإحضار الطبيب لمريضك ، وتدافع عن وطنك ، وتستدعى رجال المطافئ لإطفاء حريق بيتك ، وتعمل على وقف النار التى بدأت تشب من شرارة أصابت أوراقك فى حجرة عملك ، وأن لديك عقلاً وأنت لتنتفع به فما تريد . ولا سبيل إلى إنكار ذلك .

فالأشياء تقع بأسبابها ومنها الإرادة الإنسانية ، فهى بعض الأسباب العاملة فى سير الحوادث فى هذا الوجود .

ثم نقول : يوجد أعمال كبيرة لكبار الرجال ، فمن الذى يستطيع أن نقول : إنهم لا فضل لهم فى إحداثها أو ليس لهم تدخل فيها .

وبعبارة أخرى ليسوا من أسبابها ، أو هم أعظم أسبابها من حيث كونهم رجالاً ذوي عزيمة صادقة ، وإرادة قوية وأفكار حرة ، لا من حيث كونهم آلات مسخرة لا تستحق حمداً ولا شكراً ، ولا تستطيع أى سفسطة أن تزيل منا ذلك الاعتقاد الذى يتملك كل نفس وكل عقل ، حتى نموس الأطفال وعقول الجهال ، فإن كل واحد منا يعتقد اعتقاداً لا يدافع ، أن له أثراً أو تسبباً فى كثير من الأشياء ، فنحن نعمل ونعتقد أننا فاعلون لا منفعلون ، ونعتقد أننا نبني بأيدينا صرح المستقبل فى الدنيا والآخرة ، وإن كان ذلك على حد محدود وعلى قدر ما وهبنا الله تعالى ، فكيف يصح أن يقال : إننا كمية مهملة فى الوجود ، مع أننا أكبر عوامله التى تعطيه الرواء والبهاء ؟ ؟ .

والنتيجة لهذا كله أن للإنسان تأثيراً فى وجود الأشياء ، فإنه حلقة كبيرة من حلقات سلسلة الوجود بل هو أهم حلقاتها ، ولكنه غير مستقل استقلالاً تاماً فى المسألة ، فيجب أن يكون عليه من المسؤولية بقدر ما له من الأثر فى ذلك الفعل ، والتدخل فيه ، حتى إذا صار مكرهاً أو ملجأً كان غير مسئول بالمرّة ، فليس العبد مجبراً ولا آلة صماء . كما بحسب ذلك إحساساً لا يعارض ، عندما يعرض له أمر خطير ، بل عند ما يسعى لرزقه وجاهه ووظيفته وشهادته .

ومن العجب أنه فى أموره الدنيوية يكون معتزلياً متطرفاً . وفى أموره الدينية يكون جبرياً متطرفاً : اتباعاً لما تهوى الأنفس (وكَلَدَ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى)^(١) .

ومع كوننا نقول : إنه غير مجبر نقول - أيضاً - : إنه لا غنى له عن الله - تعالى - ، فإن علمه قاصر وقدرته قاصرة ، ولا سلطان له على الأمور الخارجية ، ولا على تتميم الموجبات لما يريد ، ولا منع الموانع عما يريد . فمن الموانع التي يجوز أن تحدث ما لا يدخل تحت علمه وقدرته . وأنت تعرف أنك حرها هنا ، ولكن كونك حرّاً لا يقتضى أن تكون غير مقيد بالقوانين ولا خاضع للسلطات ، إلى آخر ما تعلم ولا تجهل .

فالأشياء ، يجب أن توضع في مراكزها ولا تتعدى حدودها ، فإن الاستقلال التام يستتبع القدرة القاهرة والعلم المحيط ، وذلك ليس إلا لله تعالى .

لسنا ننكر أن هناك أسباباً خارجية تؤثر في مجرى الحوادث ، ولكن أنت من الأسباب أيضاً ، ولك عملك الخاص في دائرتك الخاصة عندما يجيء دورك .

وقد رأيت بعضهم يشبه الإنسان في هذه الحياة براكب في سفينة قضى عليه أن يركبها وأن يسير فيها ، فليس مختاراً في ركوبها ولا في السير فيها ، ولا هو ذليق يذهب حيث شاء ويسير حيث أراد ، ولكن له مع ذلك حرية تامة فيما يفعله في تلك الدائرة المحدودة ، فيتصرف في شئونه الخاصة كما يشاء : يذهب ويجيء فيها كما يريد ، بشرط ألا يتعدى مقدم السفينة . ولعل هذا معنى قول سلفنا الصالح : « لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين » .

ثم إننا نرى أن الأفعال كلها قد أُسندت إلى العباد في كتاب الله تعالى ، ولذلك كلفوا ، وما كان الله يكلّفهم ما هو خارج عن استطاعتهم ومتناول قدرتهم (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)^(١) فقد منحك الله القدرة والإرادة فجعلك قادراً مريداً ، ولو شاء لجعلك عاجزاً مهقوراً ، ثم وكل إليك تصريف تلك الإرادة بمحض اختيارك إلى أحد الجانبين من الفعل والترك ، والترجيح شأن من شؤون الإرادة الذاتية ، والتصرف أمر اعتباري يرجع إليك الفصل فيه ، حتى إنك قد ترجح المرجوح تقديماً للشهوة على النظر العملي أو تمتعاً بلذة الحسية التي تجدها من نفسك .

ومع ذلك ما لنا والتعمق والتحديد بعد ما أريناك أن تحديد الأشياء على ما هي عليه مختص بالله تعالى وإلا تساوى علمك وعلمه ، وأين العبد من المعبود ، وأين المحدود من غير المحدود ، وهذا جار في كل شيء لا في خصوص أفعال العباد .

ويعجبني قول بعضهم : إننا نعرف أننا أحرار في حركاتنا وسكناتنا وذلك محسوس لدينا لا يمكن أن نشك فيه ، كما نعلم بالبرهان العقلي أن الأمور راجعة إلى الله تعالى ، وهو مالك زمامها ، وصاحب التصرف فيها على ما تقتضيه الإلهية (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(٢) وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلنؤمن بهاتين الحلفتين الأولى والأخيرة ، ولنُدع ما بينهما من الحلقات .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

(٢) سورة هود ، الآية ١٢٣

هذا : وقد علمت أنه شاء أن يعطيك الإرادة والاختيار ، ولنتمف عند هذا الحد من الكلام على أفعال العباد . ولنتكلم على القضاء والقدر الذى يظن كثير من الناس أنه ملزم ومجبر فنقول :

القضاء والقدر

هما راجعان إلى عمله تعالى وقدرته ، فالقضاء فى رأى حكماء الإسلام - وليس بلازم أن نوزع قلبك بين شعاب الخلاف ونسلك بك مسالك الاعتساف - هو عبارة عن وجود الأشياء على الوجه الأكمل فى علمه تعالى على وجه كلى . والقدر إيجاد تلك الأشياء فى عالم الظهور على وجه تفصيلي يوافق القضاء السابق .

وهنا شبهة صعب حلها على كثير من الناس ، قالوا : إن ماسبق فى العلم الإلهي لابد منه ويستحيل نقضه ، فإذا الأشياء مرسومة مقررة قبل أن يوجد الإنسان فهو إذاً مقهور لا مختار . ومن الغريب أن الإمام فخر الدين الرازى « وهو هو » كثيراً ما يذكر ذلك فى إلزام المعتزلة بالجبر وإسقاط الاختيار ، مع أن ذلك غلط واضح لا أدرى كيف وقع فيه الإمام الرازى وغيره من الأعلام .

ذلك أن العلم لا علاقة له بالجبر والاختيار فإننى إذا علمت بآى وسيلة من وسائل العلم أنك تسافر غداً وكان ذلك علماً حقاً لم يكن له تدخل فى سفرك الذى سيقع بمحض إرادتك واختيارك ، والعلم ليس من صفات التأثير ، وتختلف المعلوم أو عدم تخلفه ليس مبنياً على كون العلم مؤثراً بل على كونه صحيحاً أو غير صحيح .

وهذا من أظهر الظاهر وأوضح الواضح . فإن من الجلي أن العلم
لا أثر له في المعلوم ، وأن المعلوم يوجد بأسبابه وسلسلة علله لا يعلم
العالم أو جهل الجاهل .

والخلاصة : أن الله تعالى قبل أن يخلقك يعلم أنك ستكون
مريداً مختاراً لأنك إنسان لا جماد « بل الحيوان الأعجم له إرادة
واختيار أيضاً » ويعلم بالضرورة ماتختراره ، بحض إرادتك وما ستصرف إليه
عزمك من خير أو شر ، وقد اقتضت حكمته أن يهبك تلك الإرادة
الحرّة التي تصرفها كما تشاء كي يحقق لك الحرية التي اقتضت
حكّمته أن يمنحك إياها ، ثم يجازيك بعد ذلك على ما كان منك في
يوم عصيب^١ تؤدى فيه الحساب عن كل ما كسبت يداك^٢ ، ولولا
ذلك لم يكن هناك معنى للحرية والاختيار ، ولا للتكليف والنواب
والعقاب .

ولسنا ننكر أنه لو شاء لسلبك تلك الإرادة ، ولو أراد^٣ لجعلك
آلة صماء لا إرادة لك ، ولا تكليف عليك ، ولكنه لم يفعل لأنه
يريد أن يجعلك إنساناً ، فأى جبر يقتضيه القضاء^٤ بعد ذلك ؟

وإن كان لابد من حصول ما سبق به القضاء ولا يتأتى^٥ تخلفه
ولكن ذلك مبنى على صحة العلم لا على تأثيره كما قلنا .

وقد سأل الإمام علياً - كرم الله وجهه - شيخ^٦ بعد أن صرفه من
صفين فقال : أخبرني عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء^٧ الله وقدره ؟
فقال : « والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا^٨ »

وإدياً ولا علونا تُلعة إلا بقضاء الله وقدره » فقال الشيخ : عند الله
أحتسب عنائي ما أرى لى من الأمر شيئاً ، فقال له : « مه أيها الشيخ
عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم
منصرفون ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين »
فقال الشيخ : فكيف ساقنا القضاء والقدر ؟ قال : « ويحك لعلك
ظننت قضاءً مجبراً وقدرًا قاسراً ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ،
والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله للذنب ،
ولا محمداً لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسئء ، ولا
المسئء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وجنود
الشياطين ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية
هذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً ، وكلف يسراً
لم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكرها ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه
عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض ، وما بينهما باطلاً (ذلك ظنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَويلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)^(١) ، وقال الإمام الرضا :
إن الله هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم ، فإن ائتمر العباد
بطاعته لم يكن الله عنها صاداً ، وإن ئتمروا بمعصية فشاء أن يحول
بينهم وبين ذلك فعل ، وإن لم يحل وفعلا فليس هو الذى
أدخلهم فيه .

والخلاصة : أن هنا غلظتين : الأولى ، أن علم الله بالأشياء
يوجبها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار ، ولا أدرى كيف يفهمون

ذلك مع أن العم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذن يؤكد الاختيار ولا يعارضه .

والثانية : إخراج الإرادة الإنسانية من سلسلة الأسباب وجعلها لغواً في البين . وقد اختصرنا لك الطريق وأهدينا إليك لياب التحقيق .
هذا : وهنا شيء آخر لا بد أن ننبه عليه ترمياً للمقام ، وإزالة لما عسى أن يكون من شبه الأوهام ، وذلك أن بعض الناس قد يعطى من المواهب ما لا يعطاه غيره ويجد من المعونة الإلهية ما لا يجد سواه ، فلماذا ؟ ؟

لنا عن ذلك جوابان : الأول : أن ذلك يرجع إلى سر القضاء والقدر ، أر نقول إلى الحكمة الكبرى التي دمرت العالم ، ووضعت نظام الوجود ، ولا نستطيع أن نصل إليها تماماً مهما بلغ علمنا واتسعت مداركنا ، وفي قضية موسى مع العبد الصالح التي قصها الله علينا في سورة الكهف كبر شاهد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .
الجواب الثاني : أن ذلك من باب الفضل ، والاعتراض لا يكون على ترك الفضل ، وإنما يكون على ترك العدل ، وذلك غير موجود بل هو محال في حق الله تعالى ، وقد أعطى كلاً من عباده ما يمكنهم من القيام بما كلفهم به ، حتى إذا عجزوا رفع عنهم التكليف فمنح كل إنسان من الواجب ما يستطيع أن يفعل به ما طلب منه ، فهذا انقذار مشترك بين الجميع ، وأما تفضيل بعضهم على بعض

فذلك راجع إلى فضله الذي يعطيه من يشاء ويمنحه من يريد ،
ولا يعترض عليه في ذلك (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)^(١) .

ولو فتحنا هذا الباب لوجب ألا توجد هذه المخلوقات ولا تظهر
تلك المبدعات ، فقد كان للجاهل بناءً على هذا أن يقول : لم جعلتني
جاهلاً ؟ وللناقص في أي شيء أن يقول : لم خلقتني ناقصاً ؟ بل
كان للحمار مثلاً أن يقول : لم لم تخلقني حصاناً ؟ وللحصان أن
يقول : لم لم تخلقني إنساناً ؟ وللإنسان أن يقول : لم لم تخلقني
ملكاً ؟ بل وللأرض بالسان حالها أن تقول : لم لم تخلقني سماءً ؟
وللسماء أن تقول : لم لم تخلقني عرشاً ؟ الخ الخ . فأنت ترى أن
فتح هذا الباب يوجب أن ينسد باب الخلق بالكلية (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ
أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)^(٢) ولعل للمتمم
متممات ، ولعلنا نأتى عليها في فرصة أخرى إن شاء الله . وبعد هذا
فلا يسعنا إلا أن نقول ما قال الله تعالى : (وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا)^(٣) أو ما قال جبار الله الزمخشري رحمه الله :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلته يتقتم
ما للتراب وللعلوم وإنما بسعي ليعلم أنه لا يعلم^(٢)

(١) سورة التوبة الآية ٤١

(٢) سورة المؤمنون من الآية - ٧١

(٣) يقال : تقتم إذا ذهب في الماء وغمر به حتى غرق .

القضاء والقدر

(٢)

ورد هذا السؤال من صاحب التوقيع :

س : ذكرتم في كلمة (القضاء والقدر) أن العبد غير مجبوراً مع أن العلم الإلهي سبق بكل ما كان وما يكون ، وما سبق في العلم الإلهي لا يتخلف ، فكيف يكون العبد مع ذلك مختاراً

عبد الرحمن محمد

بشين

الجواب : قلنا في كلمتنا في « القضاء والقدر » : « إن العلم غير مجبر للعبد ولا مسقط اختياره بل يحقق الاختيار ، فإن الله إذا علم أنك ستفعل كذا باختيارك كان ذلك محتقاً لاختيارك لا منافياً له وإن كان ذلك الفعل لا بد من وقوعه ، ولكن ليس معنى ذلك أنك تدفع إنيه دفعاً أو تفعله قسراً .

فإن الله وهب للإنسان إرادة واختياراً فضله بهما على غيره ، ولولا ذلك ما صح أن يكلفه ولا أن يحاسبه ، فهو بمنزلة السيد الذي أعطى عبده الحرية فيما يفعل ثم يحاسبه بعد ذلك على ما كان منه ، فلو فرضنا أن السيد فعل ذلك امتحاناً لعبده ، وكان عالماً بما سيفعله عبده باختياره ، لم يكن علم السيد مجبراً للعبد على ما فعله ، لأن

العلم ليس من صفات التأثير وإن كان معلومه لا يتخلف ، فإن هناك فرقاً بين صحة العلم وعدم تخلفه وبين كونه قاهراً أو مؤثراً .

ثم قلنا في تلك الكلمة : إننا نعلم بالضرورة فرقاً واضحاً بين حركة المرتعش والمحموم ، وبين حركة المختار الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، ونعلم مع هذا أن الله لو أراد لسلبه ما وهبه من القوة على الفعل ، وما أعطاه من الإرادة والاختيار ، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد ، ولكنه منحك الإرادة ولم يرد سلبها منك ولا قهرك على غير ما تريد .

ثم قلنا في الخلاصة : إننا نعلم حق العلم أن لنا دخلاً في أفعالنا الاختيارية ، ونعرف أيضاً أننا غير مستقلين فيما نأتي ونذر ، فكأن دائرة الحرية لدينا دائرة محدودة ، وعلى قدر تلك الحرية التي منحناها تكون المسؤولية ويتوجه الحساب ، أما تحديد ما لنا في أفعالنا ومالله تعالى في تصريفه المطلق غير المحدود فيجب علينا ألا نبحث عنه أو نتطلع إليه ، فإن ذلك خارج عن الطاقة البشرية .

وقلنا : إن علمنا بأي شيء من الأشياء حتى المحسوسات ناقص جداً ولا يمكن أن نصل إلى الحقيقة في أي شيء مما علمناه ، بل علمنا قاصر على الظواهر ، واقف عند حد محدود منها ، ولا بد أن يبقى وراء ما علمنا شيء كثير يستأثر به العلم الإلهي (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) .

ولابد أن تعرف أنه قليل كما وكيفاً ، فمعلوماتنا في عددها
قليلة : وفي الإحاطة بها واحداً واحداً فيما علمناه منها قليلة ، وقد
نظم الله الملك على حسب ما يقتضيه علمه لا علمك ، ولا سبيل إلى
أن تعرف ما في علمه الذي انبنى عليه ذلك النظام المراعى فيه حلقات
سلسلة المخارقات كلها لا كل حلقة على حدتها ، ولعل في ذلك مقنعاً
وكفاية .

كلمة نثر محببة لله في القلوب المستعدة

يقول الله تعالى : (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(٢) ويقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتُمْوها وتجارةٌ تحششون كسادها ومساكين ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتريصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القومَ الفاسقين »^(٣) ويقول - صلى الله عليه وسلم - فيما روى عنه : « حَبَّبُوا اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ يُحِبُّكُمْ اللَّهُ »^(٤) ويقول بعض من تخلص من الاوهام ورسخ في هذا المقام :

بادر لدرك الذى قد فات من عمرك ولتتخذ زارك التوحيد في سفرك
فيامليك الورى يا منتهى أملى ما أشوق الواله المضنى إلى خبرك
ما ظل لى أمل فى غير مشهدكم ولا قرأت كتابا ليس فى سبرك

(١) مجلة الأزهر - العدد السادس - المجلد الأول - جبادى الآخرة سنة ١٣٤٩

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٥

(٣) سورة التوبة ، الآية ٢٤

(٤) ويقول صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون لله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعوذ فى الكفر كما يكره أن يتلف فى النار » .

إذا كنت تحب أحدا لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ،
فأحب الله تعالى الذي أتقن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها من الأسرار
ما أدهش فلاسفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسهِ .

وقد ذكرنا في بعض ما كتبناه أن سبنسر الإنجليزي كان يقول :
« ليس العرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية : وإنما
الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ويستطلع
تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التي ينتهي إليها علم الطبيعة » .
ويكفيك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة التي تكفل بها علم
التشريح وعلوم وظائف الأعضاء مما بهر علماء التسيولوجيا « علم وظائف
الأعضاء » فطأطأوا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعيش الخفاش
أمام الشموس .

وإن كنت تحب أحداً لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره
من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم
السموات والأرض ، ورب العالمين ومدبر الخلق أجمعين ، من أمرد بين
الكاف والنون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه في باب
الفضائل والكارم ، فأحب منبع النعم ومعدن الكرم ، وأين كل
ما تتخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله ، وماذا نعد لك من نعمه
أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة في

الوجود ، وأنه رب الكرم والجدود . (ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١) .

ولعمر الإنصاف أن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام ، وتخرس فيه الألسن ، فلن تطيق شرح نعمة من نعمه . وانظر إن شئت لنعمة الهواء التي يتوقف عليها وجود كل حي ، إلى آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها . وإن شئت فانظر إلى نعمة الضياء أو الماء وما أودعه في الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (٢) . (وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطُلُومٌ كَفَّارٌ) (٣) .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل من في الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود الفيلسوف « لينه » الفسيولوجي الفرنسي الذي كان يدعو وجدانه فيجيبه ويناجيه شعوره الحي فلا يتغافل عنه ، قال : « إن الله الأزلي الكبير العالم بكل شيء قد تجلى لي ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهورا ، فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده ، سواء أكان في أصغر الأشياء أم أكبرها . إن المنافع التي نستمددها من هذه الكائنات تشهدا بعظيم رحمة الله الذي سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بوسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجدها ينطق بجلاله وعظمته » .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢

(٢) سورة يس ، الآية ٣٨

(٣) سورة ابراهيم ، الآية ٣٤

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكمالها فأحب من أوجدها في أحسن
نقويم ، وشق سمعها وبصرها وأسبغ عليها نعمه ظاهره وباطنه ، ولم
يقتصر كرمه على إقامته الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من
الكماليات ما تنتوع به لذاتك وتم به بهجتك : فليس من الوفاء أن
تعرض عنه وقد غمرتك نعمائه وأشرق عليك ضياؤه وعذب ماؤه ولطف
هواؤه ، وأذعشتك بدائع أكوانه من : رياض غناء ، وصحارى فيحاء ،
وأثمار شهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب إلى حضرة علام
اليوب : من شمس وأقمار ، وأطياف وأزهار ، وليل ونهار ، أما يجب
أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات ، والدلائل الناطقات ،
والنعم الفائضات ، ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزحرفها
عن أن يرجع إلى قلبه ويسمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه اذكار وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات وعيون مياهن غزار
ونجوم تلوح في جنح ليل مشرقات في كل يوم تدار
وشمس مضيئة للبرايا في نهار وفي الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير جل رباً وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

أو تقول كما قال غيره مخاطباً نفسه مستحسناً لها على العبرة وإطالة
الفكرة حيث يقول في تخميس أبي نواس « بتصرف وزيادة » :

تبصر حيث كان لك التبصر وفي ذات الإله دع التفكير
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر

إلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحة أصول من لجين زاهرات

على أغصانها ذهب سبيك

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات إلى ما لست أدرى طائرات

يطير بها له الجرم السميك

رياض موقنات منعشات وألوان إهينك مدهشات
وأزهار تروك مبهجات على قضب الزبرجد شاهدات

بأن الله ليس له شريك

أو يقول كما قال ذلك القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ في الجوير سن طرف إذ ما أبدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده وهذى حواشيه وهذى مواكبه

وأى امرئ ما سبح الله مرة إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب بي في الأنام كثيرة ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو يقول وقد امتلأت نفسه بأنوار وجود الحق الذى ظهر في جميع
الأشياء وتجلى نوره في عوالم الأرض والسماء ، وإن غاب عن الأبصار
وجل أن يدرك بالأنظار :

ظهو الوجود الحق في الأشياء متجلياً جهراً بغير خفاء
إن الوجود عن البصائر غائب من حيث ما هو ظاهر للرأى
والقوى يكشف أن ثمت شاخصاً متحكماً فيه. بغير مرآة
فرأيته من حيث لم تعلم به وعلمته في رتبة الأسماء
والشمس لاتستطع رؤية ذاتها لتتالق فيها وفراط ضياء

أو يقول يقال ذلك الرجل الذى رآه ظاهراً في آثاره ظهور الشمس
وأنه تعالى بحقيقته محتجب عن العقول :

حسن تراءى في المرأى وبه تحجير كل رأى
والكون عرس زينت ذى الارض فيه مع السماء
بكواكب ومراكب والنجم خفياق اللواء
وصدى جميع الكائنا ت أحنى من أشهى الغناء
هو باطن هو ظاهر فاحذره من وجه الخفاء
واطلبه من وجه الظهو ر تجده في كل المرآة
شمس وكل الخلق في أنوارها مثل البهاء
يا قوم كيف عقولنا لا تضحل من الهباء

أو يقول عندما يرى الأشجار تتهادى في حلق الأوراق والأزهار
معجباً بروبيتها متعجباً من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبا للملابس قد حاكها من لم يد لهايدا

فقل لي بعيشك هل من الحياء « والحياء خلق كل كريم » أن
تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإمساء ، وما أوجد لك
من بديع الأشياء ، وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على
ما يقول عز وجل : « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »^(١) ثم
لاتؤدى شكره ولا تعرف قدره :

إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً من فرط لطفك ربي كيف ينساكا

فإن كان لا يؤثر في نفسك فائض إنعامه ومزيد إحسانه ولا ما هو
عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون وعظمة لا يصفها الواصفون ، وعلم
لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وحكمة أتقن بها
جميع الأشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجمال وصفات
الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا سلطان الحسن الذي تشاهده
بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل
به لمسك فإنما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق الذي يجعل عن
الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أي مظهر من مظاهره
إلا بعض سريره ، ولا تمثل لك أي مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه ،
وأني يسع المحدود من لا يقبل التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد بمن

لا يدخل في سجن التقييد ، فطوبى لمن شمَّ عرف شذاه أو شام برق
سناء ، وهنيئاً لمن شرب قليلاً من مدامه ولو مزجاً ، فإذا لم يدر ماهو
تافت إليه ومتهلف عليه قال :

شيء به فتن أورى وهو السدى يدعى الجمال ولست أدرى ماهو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى الله
أندرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون إلى صلاح لا يتناهى وكمال لا يتناهى
وجمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا الله تعالى :

فأرجع إلى سلامة فطرتك وحدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك
الجمال الإلهى الذى تجلى على صفحات الموجودات ، واقراه بين
سطور تلك المباحث ، ثم انظر رعاك الله إلى أى حد انتهيت ، ولا ظنك
إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الإحساس بالجمال إلا قد
وصلت إلى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن ، إذ تجددك أحسست بجمال
لا يكيف ، وغرقت في بحر من الجلال لا يحد ولا يأتى عليه التعبير :
فطوراً في الجلال على التذاذ وطوراً في التذاذ بالجمال
وعند ذلك ينطق لسان حالك منشداً :

عجبت لعافل في الناس أضحى يرى هذا الجمال ولا يهيم

ويترنم بدلى روحك مغرداً :

لعمرك كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن إلا جماله

فاستجلب هذا الحسن رعاك الله في كل شيء تراه من العلويات
والسفليات :

إن شئت في فلك أو شئت في ملك أو شئت في مدر أو شئت في حجر
فالكمل ينطق أن الله خالقه وهو المليك ورب النفع والضرر
وهل الشمس -وهي أظهر ما علمت، وأبهر ما رأيت، وأجمل ما وقع
عليه البصر، وأبهى ما وصل إليه النظر- إلا أثر من آثاره ونور من أنواره
وقد كتبت عليها سطور البهاء والجمال والعزة والجلال ، فنحن نقرأ
فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالاً
أيذوقه الوجدان ، وإن كان لا يكفيه وتمتلئ به النفوس ، وإن كانت
لا تعرفه ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : ﴿ تبارك
الله أحسن الخالقين ﴾ وحقه وما أكبر حقه لو تفرغت من الشواغل
التي أخذتك ولم تدع منك شيئاً لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عني كل جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
وفي مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا أهدى إلى سحيراً أطيب الأرج
إنظّم والله البرهان وامتلاً الوجدان ووصل الأمر إلى حد العيان ،
أرليس بعد العيان بيان ، ولكن قويت الأنوار فعشيت الأبصار ، فهي
آيات أعتيدت مشاهدتها وتكررت رويتها ، وسقط عن القاب وقعها :

وإن عظم نفعها ، ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين ، لا ممن أخذت
إلى الأرض من الغافلين الجامدين :

خليلى قد طال لمقام على القذا وحال على ذا الحال يا قوم أحوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملوك وعشاق الجيروت ، فإن
كنت تحب أحداً لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب فأحب الملاء
الأعلى سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (١) .

وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه
إلا السرور والحبور ، ولا أمنيته إلا الإطلاق من جميع التقييدات ،
والاطلاع على جميع المغيبات وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك
نسيت عالمك الأول منذ فارقت واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسماني
الذى لا بد له من الفناء فأنست بالظلمات وتمرت على احتمال الآفات .
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت إيلام

ولذلك يصنف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أَمَاتَ أَفْضَلَ غَرِيْزَةٍ
فيه ، بل أَمَاتَ خَاصَّتَهُ الَّتِي هُوَ بِهَا إِنْسَانٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، فيقول .
(أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (٢) .

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية ، حتى أنستك عالم
البهجة والبهاء ، فصرت لا تعرفه ولا تحس به ، وإنه لموطن روحك

(١) سورة إسرائ ، الآية ٨٠

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢

ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل
بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما مطلبها الذاتي وغداؤها الأصلي فهو الأسرار
والأنوار ، ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات
نسيت ما هى مستعدة له ومخلوقة لأجله وهو فى الحقيقة نسيان لنفسها
(نَسُوا اللَّهَ فَنَسَّاهُمْ أَنفُسَهُمْ)^(١) فكأن لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة
بعالم الجمال .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم بسمر بمكة سامر

! أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها
التي أضعفت منها تلك الحاسة العليا ، التي هى مناط لذتها الكبرى ،
وشرفها الأعلى ، وخاصتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء
الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه .

التوسل

كتبنا كلمة وجيزة في التوسل بالنبي - صلى الله عليه وسلم -
وحذيرنا الغلاة ومن حذا حذوهم من تكفير المسلمين ، وقلنا لهم : إن
التكفير أمر عظيم لا ينبغي لمن يشفق على دينه أن يسارع إليه .
وذكرنا من الأدلة على جوازه ما يخضع له المنصف ، ولا يمارى فيه
إلا الجاهل المتعسف .

فجاءتنا رسائل من الجهلة كلها سب وإقذاع وليس فيها غير ذلك ،
ولا غرو فسلح السفهاء بداعة اللسان لا قوة البرهان .

وإني أبادر فأقول : إن كل ما يجد القارئ في مقال هذا من كلمة
لاذعة فإننا لا نقصد بها إلا سفهاءهم وأراذلهم ، وحاشا أن نقصد منهم
عاقلاً أو كاملاً . فإن سبق القلم بغير ذلك فهو على غير قصد منا ، وإنما
جرنا إليه جهل الجاهلين وجمود الجامدين :

وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانيه البلاء
وقد خيل لأولئك السفهاء أنهم سينسفون الحق وأهله بسفاهتهم
التي لا تزيدهم عندنا إلا صغاراً واحتقاراً ، ولسنا نقيم لها وزناً وإن

تفننوا فيها ، وكم في كلامنا من إشارات لم يفهموها ورُموز لم يدروا
المراد منها وإن ظنوا أنهم مبرزون فيما يكتبون :

إن العصافير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهدنا

وللحق والإنصاف نقول : إنه جاءنا رسالة من بعض المكيين تحت
إمضاء (ا . د) سلك فيها الكاتب مسلك الأدب ولم يقنع إقذاع أولئك
الزعانف ، وربما نشرناها وعلّمنا عليها تحقيقاً للحق وإبطالاً للباطل .

أما اليوم فنقول : ليعلم القارئ الكريم أن إسناد الفعل تارة يكون
لكاسبه كفعل فلان كذا ، وتارة يكون لمخالقه كفعل الله كذا . والكل
حقيقة في اللسان العربي ، وقد جاء ذلك في القرآن الشريف (وَاللّٰهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)^(١) . (مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)^(٢)
ومع هذا فقد قال : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)^(٣) . وهو
كثير معروف .

فإن منع أولئك الجهال الإسناد على وجه الاكتساب فهم مجانين ،
وإن ادعوا أن الواقع في كلام الناس هو الإسناد للمخالق لا للكاسب فهي
دعوى كاذبة لم يقم عليها برهان ، وقد استباحوا بها دماء المسلمين جهلاً
وضلالاً . ومن منع الإسناد على وجه الكسب سقطت مخاطبته وانقطع
الكلام معه .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٣

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧

(٣) سورة الشورى ، الآية ٥٢

فمثلاً : الغوث من الله خلق وإيجاد ، ومن النبي تسبب وكسب .

هذا على فرض أننا طلبنا الغوث منه - صلى الله عليه وسلم - مع أننا لم نفعل ذلك ، ولو فعلناه لصح على طريق التسبب والاكتساب بطلب الدعاء منه - عليه السلام - ، وقد قالت أم إسماعيل عندما سمعت الصوت : « أغث إن كان عندك غوث » فأسندته إليه على مسبيل الكسب .

فكيف يجوز مع هذا تكفير المسلمين واستباحة دمايتهم وأموالهم بالتوسل والاستغاثة ، حتى على اصطلاحهم الذي لا نوافقهم عليه ، والنزاع في معان لا في ألفاظ ؟

وقد جاء في الحديث الصحيح : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه » وقد قال الله تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)^(١) . فإذا كان هذا في رجل لم يكن منه إلا مجرد السلام الذي هو تحية المسلمين ، فكيف بمن يتجاسر على خيار الأمة المحمدية ويكفرهم بالتوسل بالأنبياء والصالحين بشبه أوهى من بيت العنكبوت (أَلَا يَظُنُّ أَوْلَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٢) ومن المقرر أن اليتيم لا يزول بالشك ، وأنه يؤول للمسلم من وجه إلى سبعين وجها كما نص عليه النووي وغيره من العلماء .

(١) سورة النساء ، الآية ٩٤

(٢) سورة المطافين ، الآية ٤ ، ٥ ، ٦

ولست أدري هل يأخذ هؤلاء بظواهر العبارات أم بالمقصود منها ؟
فإن كان التعويل عندهم على الظواهر كان قول القائل : « أنبت الربيع
البقل » و « أروانى الماء » و « أشبعنى الخبز » شركا وكفرا ، وإن
كانت العبرة بالمقاصد والتعويل على ما فى القلوب التى تعتقد أنه لا خالق
إلا الله وأن الإسناد لغيره إنما هو لكونه كاسبا له أو سببا فيه لا لكونه
خالقا له لم يكن شئ من ذلك كله كفرا ولا شركا .

ولكن القوم متخبطون خصوصا فى التفرقة بين الحى والميت على
نحو ما يقولون « كأن الحى يصح أن يكون شريكاً لله دون الميت »
أو كأن الأرواح تستمد قوتها وسلطانها من الأشباح لا العكس ،
ولكنهم ليسوا أهل منطق ولا برهان ، ثم انضم إلى ذلك الصلف
المدموم والكبرياء الممقوتة . فيماذا نخاطبهم؟ وعلى أى قاعدة نحاورهم .

ولكننا نكتب لغيرهم عسى أن نقيه شر سمومهم التى ينفثونها فيما
يكتبون تبعاً لأسلافهم ، مطبقين الآيات التى نزلت فى الكفار على
المسلمين ، مع أن الشاذ عن جماعة المسلمين أولى بالتكفير منهم وأقرب
إلى الخطأ والضلال ، . وهل يرضون أن نقول لهم ؛ إنكم مخالفون
لسلف الأمة وخلفها إتباعاً لمن قبلكم ، ثم نطبق عليكم قوله تعالى :
(وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)^(١) .
(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)^(٢) . (وَمِنَ النَّاسِ

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٠

(٢) سورة القصص ، الآية ٥٠

مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ * ثَانِيًا أَعِظْهُ
لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١)

وعندنا من ذلك شيءٌ كثير ، وهل لنا أن نأخذ بظاهر هذا الحديث وهو أصح مما تأخذون به فنقول : إنكم كسرتم عند ما رميتم المسلمين بالكفر ؟ أو نتول : إنكم من أولئك الذين يحقر أحدنا صلاته بجنب صلاتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؟ أو نقول : إنكم من أولئك الخوارج الذين قال فيهم عبد الله بن عمر - كما في صحيح البخارى - « إنهم عمدوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها في المسلمين » ؟ أو نقول كما قال ابن عمر أيضا : « إنكم قتلتم أهل الإسلام وتركتم أهل الأوثان » ؟ أو نقول : « ولا نريد إلا أولئك الفظاظ الغلاظ الجامدين الجاهلين » :

إنكم أعداء الله حيث أثبتتم له الجهة وشبهتموه بخلقه ، وأعداء رسول الله حيث لم توقروه ولم تراعوا حرمة ، وأعداء أولياء الله حيث حقرتموهم كل التحقير ، وأعداء جميع المسلمين حيث استحلتم دماءهم وأموالهم حتى قتل أطفالهم من بنات وبنين ، وذلك شيء لم نفعله مع أكفر الكفرة وأفجر الفجرة ، إلى آخر فظائعكم وشنائعكم .

فيا أيها الناس ، اتقوا الله في المسلمين فنحن أحوج إلى الوثام والاتحاد أمام العدو الذي أجمعنا جميعاً على كفره وعداوته . بل اتقوا الله في أنفسكم وأعلموا أن النفس أمارة بالسوء ، وأن من اتبع

هواه ضل عن سبيل الله . ولو سلكننا مسلككم واتبعنا خطتكم وقابلنا
السيئة بالسيئة لقلنا لمن يريد نصحكم ونحن يائسون منكم :

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ
تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ
أَضَلُّ سَبِيلًا)^(١) .

وعلى نهجكم كان يمكننا أن نسير ولكن ديننا أعز علينا من أعراضنا
التي نهشتموها ، ودمائنا التي استبحتموها ، ولعمر الله لقد صيرتم
الإسلام بذلك نارا مضطربة على وجه الأرض ، لا دين يسر وسلام
كما جعله الله ، بل صار دين جهالة وجمود مع أن نبيه يقول :
« إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ
وَنِيَّاتِكُمْ » . وإنا لنعلم أن الفرق الضالة كلها تستدل بالقرآن لي
نحلها ونزعاتها ، فلا يفرنكم ما تستدلون به من الآيات في غير محل
الاستدلال ، مطبقين إياها على المسلمين خطأ وجهلا ، كما فعل
أسلافكم ، فإن ذلك لا يغني عنكم من الله شيئا . والناجى من نجاه الله
(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)^(٢) .

ولا أدري لماذا قامت قيامتكم ، وقد قلنا : إننا نعتقد في توسلنا
أن الله هو الفاعل ، ولسنا نطلب من غيره فعلا ، ولا عملا ، ولكن
نسأله بمنزلة النبي عنده ، وتلك المنزلة ثابتة له في الدنيا والآخرة ،

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣ ، ٤ ، ٥ ؛

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧

وبها نذهب إليه للشفاعة يوم القيامة . وذكرنا وجوهاً أخرى هي في غاية الوضوح لا داعي لإعادتها ؟ ! وسنفيض بعد فيما يقنع المناظر ويفصح المكابر .

فما ذلك الشرك الذي شغفتم بذكره ؟ وما ذلك التفكير الذي جنتم برمي المسلمين به ؟ وسنذكر من أدلة التوسل ما يلتمكم الحجر ، ونبين لكم أن آية (وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ)^(١) ما ذكرناها إلا لما قاله بعض أئمتكم . وستسمعونه بعد ، ولأننا لا نستبعد منكم شيئاً مما يعقل ومالا يعقل ، ولأن التفرقة بين الأحياء والأموات في هذا المقام غير صحيحة ، فإن الطلب من الله والفعل لله لا من المستغاث به على أنه يستطيع أن ينفعنا بدعائه على ما نوضحه أتم توضيح .

ولنقتصر على هذا ونورد لكم شيئاً عن الأرواح وعملها بعد الموت مما قاله ابن القيم ، وشيئاً عن التوسل مما قاله الشوكاني . وهما من أئمة الغلاة الذين يرددون كلامهم في كل موطن ، بل كل ما تراه لهم من علم أو ما يشبه العلم فإنما هو لابن تيمية وابن القيم والشوكاني ، يحكونه واحداً بعد واحد كالببغاء أو كالحاكي للصوت « الفنوغراف » وليتهم كان لديهم من الأمانة (ما للفنوغراف) أو ليتهم عرفوا كل ما قال أئمتهم ، فسلكوا طريقتهم ولم يقولوا بغير قولهم .

وهذا هو كلام ابن القيم في الأرواح بعد موتها :

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٢

عمل الأرواح بعد الموت

قال ابن القيم في « كتاب الروح » : إن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه في التصرف والقوة والنفوذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق به سبحانه وتعالى ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه بسبب انغماسها في شهواتها . فإذا كان هذا في عالم الحياة الأرضية وهي محبوسة في بدنها ، فكيف إذا تجردت عنه وفارقت ، واجتمعت فيها قواها ، وكانت في أصل نشأتها روحاً عالية زكية كبيرة ذات همة عالية ؟ فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواردت الروى في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد الموت أفعالا لا تقدر على مثلها حال اتصالها بالبدن في هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد ، والفيالق بالعدد القليل جدا ونحو ذلك ، وقد روى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر وعمر - رضى الله تعالى عنهما - في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المؤمنين وقتلتهم .

هذا ما قاله ابن القيم . فانظر فيه مع ما يقول هؤلاء . ولا تنس أنه ليس لهم علم ولا شبه علم إلا من كلام ابن القيم وأصحابه ، ولكن يظهر أنهم قاصرو الاطلاع كما أنهم قاصرو العقل .

التوسل في رأى الشوكانى

وقال الشوكانى وهو ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة عندهم : قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاواه ما لفظه : « والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيه مسلم ، ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر وإما مخطىء ضال » . أقول : فليكن النزاع فيما هو اللائق به وما يقدر عليه وفيما لا يليق به ولا يقدر عليه ، ولا شك أنه قادر على أن يدعو لنا وهو فى البرزخ كما قال فى الحديث الذى ستعلم صحته : « تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ فَإِنْ وَجَدْتُ خَيْرًا حَمَمْتُ اللَّهُ وَإِنْ وَجَدْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ » .

ولنرجع إلى تنميم كلام الشوكانى :

قال الشوكانى : « وأما انشراح بالمخارق فلا خلاف بين المسلمين أنه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا » .

هذا ما قاله ، وإنى أكرر لفت نظرك إلى أنه يجب أن يكون البحث إذاً فى تحقيق ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه ، وقد علمت أنه قادر على أن يشفعنا وهو فى البرزخ بدعائه كما كان فى الدنيا ، فليكن محل النزاع هو كونه قادراً أو غير قادر ، على أنه لا وجه للشرك على كل حال .

ثم قال الشوكانى : وفى سنن أبى داود أن رجلاً قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ وَنَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ » . فقال : « شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ

خَلَقِهِ « فَأَقْرَهُ عَلَى قَوْهِ » نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ « وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ
« نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ » .

إِلَى أَنْ قَالَ :

وَأَمَّا التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فِي مَطْلَبٍ يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ
مِنْ رَبِّهِ فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ عَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّوَسُّلُ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ فِيهِ .
رَلَعْلَهُ يَشِيرُ إِلَى الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي
صَحِيحِهِ وَابْنُ مَاجَةَ وَغَيْرُهُمْ : أَنَّ أَعْمَى أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُصِيبْتُ فِي بَصَرِي فَادْعُ اللَّهَ لِي ، فَقَالَ لَهُ
النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْ : اللَّهُمَّ
إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَسْتَشْفَعُ بِكَ
فِي رَدِّ بَصَرِي اللَّهُمَّ شَفِّعِ النَّبِيَّ فِيَّ » . وَقَالَ « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ
فَمِثْلُ ذَلِكَ » فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرَهُ .

وإني ألفت نظرك إلى قوله « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » .

ثم قال الشوكاني : وعندى أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل
بالنبي - صلى الله عليه وسلم - كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام
لأمرين : الأول : ما عرفناك به من إجماع الصحابة - رضي الله عنهم -
والثاني : أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل
بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة ، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً
إلا بأعماله ، فإذا قال القائل : اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني ،

فهو باعتبار ما قام به من العلم ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حكى عن الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركا كما يزعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام ومن قال بقوله من أتباعه لم تحصل الإجابة من الله لهم ، ولا سكت النبي - صلى الله عليه وسلم - عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم .

وإني أرجو أن تمنع النظر في جعله ابن عبد السلام متشدداً مع قوله بجواز التوسل به - صلى الله عليه وسلم - . غاية الأمر أنه قصر ذلك عليه ،

ثم قال الشوكاني : وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ^(١) ونحو قوله تعالى : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) ^(٢) . ونحو قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ) ^(٣) ليس بوارد ، بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه فإن قولهم . (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) مصرح بأنهم عبدوهم لذلك .

(١) سورة الزمر ، الآية ٣

(٢) سورة الجن ، الآية ١٨

(٣) سورة لرعد ، الآية ١٤

والتوسل بالعالم مثلاً لم يعبد ، بل علم أنه له مزية عند الله بحمله العلم ، فتوسل به لذلك وكذلك قوله تعالى : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) فإنه نهى عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول : يا الله يافلان ، والتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله ، وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح ، عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم . وكذلك قوله : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ) الآية فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذى يستجيب لهم ، والتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه .

فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع .

إلى أن قال :

والتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله فى أمر . ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبياً أو غير نبي فهو فى ضلال مبين . وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)^(١) . (قُلْ لَا أَمْرُكَ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)^(٢) فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمر الله شيء ،

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٢٨

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٨

وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فكيف يملك لغيره ؟ وليس
فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء والأولياء أو العلاء .

وقد جعل الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - المقام المحمود ، مقام
الشفاعة لعظمى ، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه
وقال له : « سل تعط واشفع تشفع » .

إلى أن قال : وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله - صلى الله
عليه وسلم - لِمَا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^(١) :
« يَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً . يَا فُلَانَةُ بِنْتُ فُلَانٍ
لَأَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه -
صلى الله عليه وسلم - لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضرره ، ولا ضرر
من أراد الله نفعه ، وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلاً عن غيرهم شيئاً
من الله تعالى . وهذا معلوم لكل مسلم ، وليس فيه ألا يتوسل به إلى
الله ، فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر وإنما أراد الطالب أن يقدم
بين يدي طلبه ما يكون سبباً للإجابة ممن هو المتفرد بالعطاء والمنع .

هذا كلام علمائهم الذين يقدمونهم على علماء المذاهب الأربعة ،
على أن لهم مع هذا شذوذاً لا نوافقهم عليه في كثير من المواضع ،
ولكن أتباعهم الذين لم يتذوقوا العلم إلا منهم ، ولم يتشددوا بما
يشبه الحق إلا بفضل كتبهم التي لا يستقون الدين والهدى إلا منها ،

وليس وراءها لديهم علم ولا دين ، يجب عليهم ألا يخالفوهم في ورد ولا صدر ، وأن يكون كلامهم حجة عليهم كما كان الحجة لهم .

ويكفي هذا اليوم . وسنذكر من الأدلة الصحيحة الصريحة ما يدل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يجوز التوسل به قبل وجوده ، وبعد وجوده في الدنيا ، وفي البرزخ ، وفي عرصات القيامة . وقد وعدناهم في كالمنا الأولى بذكر الأدلة وتمام التفصيل ولكنهم قوم لا يفقهون .

وكثيراً ما تراهم إذا أرادوا أن يردوا علينا . أو على غيرنا قرروا مذهبهم ، - ونحن أعرف به منهم - متخيلين أن الأدلة يرد عليها بالدعوى غير المبرهنة . وحيث عجزوا عن الاستدلال فلنتبرع نحن بإقامة الأدلة على فساد كل دعاويهم - حتى دعوى التفرقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - وإن كان عجز المدعى عن إثباتها كافياً في سقوطها ، فلينتظروا .

التوسل

إنه لا بأس أن نتوسل بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ونستغيث به فى حياته وبعد مماته ، لأن التوسل إنما هو بمنزلة عند الله ، وهى ثابتة له فى الدنيا والآخرة ، والمطلوب منه هو الله تعالى ، على أننا لو طلبنا من النبى أن يتشفع لنا عنده تعالى لصح عقلا ونقلا ، فإنه يمكنه وهو فى البرزخ أن يسأل الله لنا كما كان يسأله فى حياته .

وقد قلنا : إن الأرواح بعد الموت باقية فاهمة مدركة : بل نقلنا عن إمامهم ابن القيم أن للروح بعد مفارقة الجسد أعمالاً تعملها . « فى هذا العالم » لم يكن يمكنها أن تعملها حال اتصالها بالبدن ، إلى آخر ما نقلنا عنه .

وهو معقول جدا ، فإن الأرواح لم تستمد قوتها من الأشباح حتى تذهب قواها وخصائصها بمفارقتها : بل الأشباح هى التى تستمد حياتها وأفعالها من الأرواح ، فما هذا الاشتباه الذى أدى إلى قلب الحقائق ومصادمة المعقول والمنقول .

على أن تخصيص الجواز بالحي دون الميت أقرب إلى إيقاع الناس فى الشرك ، فإنه يوهم أن للحي فعلا مستقل به دون الميت ، فأين هذا من قولنا : إن الفعل فى الحقيقة لله لا للحي ولا للميت ؟ ! ومن أمعن

النظر في كلامهم لم يفهم منه إلا مذهب المعتزلة في الأحياء ، ومذهب الذين يئسوا من أصحاب القبور في الأموات .

وعلى كل حال فالغفلة عن الفاعل الحقيقي ، وتخيل أن الفاعل غيره أظهر في الأحياء منه في الأموات . وقد نقلنا لك في كلام « الشوكاني » - وهو من أئمتهم - أيضاً - في التوسل ورده على « العز بن عبد السلام » في تخصيصه جواز ذلك بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : إنه لا فرق بينه وبين غيره .

ولنقل كما قال على سبيل التنزل عسى أن ينقطع النزاع بيننا وبينهم : لماذا لا تجعلون التوسل بالولي أو النبي توسلاً بعمله الصالح ، فإنك تتوسل بالولي من حيث هو ولي مقرب إلى الله تعالى ، وما تقرب إليه إلا بما أحبه من صالح الأعمال ، وسؤال الله بالأعمال الصالحة مجمع على جوازه منا ومنكم ؟ ! وستسمعون أكثر من هذا . ولنذكر لكم اليوم عبارة ابن قدامة وهو من كبار الحنابلة الذين أنتم على مذهبهم ، وقد قال فيه ابن تيمية : « إنه لم يدخل الشام بعد الأوزاعي أفضل منه » فلعله يحرك منكم الإنصاف أو يذكركم بمذهبكم إن كان لكم مذهب كما تدعون .

نريد أن نحاكمكم إلى العقل تارة ، وإلى ما قاله « الشوكاني » « وابن القيم » وأئمة الحنابلة تارة أخرى .

وليت شعري هل يفيد شيء من هذا ! « بكل تداوينا فلم يشف ما بنا » وقد قال الله في حق قوم أشربوا في قلوبهم التعصب والعناد : (وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا وَإِذْ يَرَوْنَ سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا (١) وسر ذلك كما بين الله أنهم كانوا يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وأى تكبر أعظم من تكبر من يحتقر جميع المسلمين ، ويعتقد أن لا ناجى غيره ! ولكننا نكتب لغير جهل الوهابيين كى نقيه من عدواهم ، وللمنصفين منهم كى يرجعوا إلى الحق إذا تبين .

أما عبدة ابن قدامة الحنبلى فى (مغنيه) الذى هو من أجل كتب الحنابلة أو أجلها على الإطلاق فهاك نصها : قال فى "صفة زيارته - صلى الله عليه وسلم - فى الصفحة ٥٩٠ من الجزء الثالث : تثنى القبر فتولى ظهره القبلة ، وتستقبل وسطه وتقول : السلام عليك أيها النبى ورحمنا الله وبركاته ، السلام عليك يا نبى الله وخيرته من خلقه ، إلى أن قال : اللهم أجز عنا نبينا أفضل ما جازيت به أحدًا من النبيين والمرسلين وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغطه به الأولون والآخرون ، إلى أن قال : « اللهم إنك قلت وقولك الحق : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَجِيمًا) (٢) وقد أتيتك مستغفرًا من ذنوبى مستشفعًا بك إلى ربى .

إفانظر إلى استشفاعه به وهو فى قبره الذى يحرمه الرهابيون « الحنابلة » ! وأظن أنهم لا يجردون على التفرقة بين الاستشفاع والتوسل ، ون كنا لا نستبعد منهم ما يعقل وما لا يعقل ، كما نعتقد

(١) سور الأعراف ، الآية ١٤٦

(٢) سور النساء ، الآية ٦٤

أنهم لا يفهمون إلا ما يفهمه الناس ن أن الزائر يستغفر والرسول
بستغفر أيضاً وهو في البرزخ ، وإلا فلا معنى لإيراد هذه الآية .

ولا بُد في استغفاره .. صلى الله عليه وسلم - بعد موته ، فقد ورد
في الحديث الصحيح « تَعَرَّضَ عَلِيٌّ أَعْمَالِكُمْ - أَى بعد الموت - فَإِنْ
وَجَدْتُ خَيْرًا أَحْمَدْتُ اللَّهَ وَإِنْ وَجَدْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ » وقد أطال
المنائوي وغيره في تصحيح هذا الحديث ، فأنت تراه أثبت الاستغفار
لنا بعد وفاته بنص الحديث :

وفي شرح المقنع المطبوع مع المعنى على نفقة جلالته الملك ابن سعود
وبتصحيح الأستاذ السيد رشيد رضا في الصفحة (٤٩٥) مثله حرفاً
بـحرف ، وفيه زيادة على ذلك ما نصه : روى الدار قطنى عن ابن عمر
- رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَجَّ
فَزَارَ قَبْرِى بَعْدَ وَفَاتِى فَكَأَنَّمَا زَارَنِى فِى حَيَاتِى » وفي رواية : « مَنْ زَارَ
قَبْرِى وَجَبَّتْ لَهُ شَفَاعَتِى » ا هـ . والدار قطنى من أعظم المحدثين تحريماً
وأكثرهم تشدداً في الحديث ، ولكنه وافق على حديث الزيارة كغيره
من الحفاظ النقاد كما بينه السبكي في « شفاء السقام » بما لا مزيد
عليه .

فهذا كلام الحنابلة الأول المتبعين لمذهب الإمام أحمد ، المتمسكين
بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومحبه كسائر علماء المذاهب .

ولنذكر لك بعد ذلك ما وعدنا به من أدلة التوسل من السنة الصحيحة فنقول : (شئ من أدلة التوسل) :

جواز التوسل وحسنه معلوم لكل ذى دين ، وكأنه مركز في الفطر الإنسانية أن يتوسل إلى الله بأنبيائه وأصفيائه والمقربين لديه ، ولذلك يذهب الناس يوم القيامة للأنبياء كى يشفعوا لهم لمنزلتهم عنده ، وإن كان الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، وأتباع كل نبي كانوا يتوسلون إلى الله بذلك النبي .

وقد ثبت التوسل به - صلى الله عليه وسلم - قبل وجوده وبعد وجوده في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة . أما التوسل به قبل وجوده فيدل له ما أخرجه الحاكم وصححه ، ولم يتعقبه الذهبي في كتابه الذى تعقب به الحاكم في مستدركه .

وقد صح عن مالك - أيضاً على ما رواه القاضى عياض فى (الشفاء) - أن آدم لما اقترب الخطيئة توسل إلى الله بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فقال له : من أين عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ فقال وجدت اسمه مكتوباً بجانب اسمك فعلمت أنه أحب الخلق إليك ، فقال الله : إنه لأحب الخلق إلىّ وإذ توسلت به فقد غفرت لك .

وقال مالك للمنصور وقد سأله : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل النبي - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال له الإمام مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك إلى الله ووسيلة أبيك آدم . يشير

إلى ذلك الحديث . وقال المفسرون في قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا)^(١) : إن قريظة والنضير كانوا إذا حاربوا مشركى العرب استنصروا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان فينتصرون عليهم ، وهو مروى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما ، فأنت تراهم سألوا الله به قبل وجوده .

أما التوسل به بعد وجوده في حياته فلا أظن أن أحداً يمارى فيه ، فقد كانوا يذهبون إليه في كل شدة : إذا أجذبوا ، أو نزلوا منزلاً فلم يجدوا به ماءً ، وعند ما يمسهم ضرر أو كرب ، مما لا يسعنا الإفاضة فيه الآن ، وإن أنكره منكر ملأنا له الدنيا أدلة وبراهين ، وإن سماوا بعضه استغاثة فلا ضرر فإنه يثبت المطلوب بالطريق الأولى ويرد عليهم على كل حال ، والنزاع ليس في ألفاظ وعبارات كما قلنا في العدد السابق .

ولكن نسوق لك الآن حديثاً صحيحاً أخرجه الترمذى وصححه والنسائى والبيهقى والطبرانى بأسانيد صحيحة اعترف بها الحفاظ حتى (الشوكانى) : رووا جميعاً عن عثمان بن حنيف - رضى الله عنه - أن رجلاً أغمى جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم جلوس معه ، فشكا إليه ذهاب بصره فأمره بالصبر ، فقال ليس لي قائد وقد شق على فقد بصرى ، فقال له : « انت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد

إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي لِتَقْضَى لِي اللّٰهُمَّ شَفْعُهُ فِي «
وفي رواية « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » قال عثمان بن حنيف :
فر الله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيراً كأنه لم يكن به ضرر .
هذا هو الحديث الصحيح الصريح الذي كان ينبغي أن يقطع النزاع .

ولكن السخيف المتعصب لا يعدم خيالاً فاسداً وكلاماً فارغاً ، وقد
الله تعالى : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)^(١) . فلننتظر حتى
يتخيل ، وإني ألفت نظرك إلى قوله عليه السلام : « فَإِنْ كَانَ لَكَ
حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » وإلى ندائه - صلى الله عليه وسلم - وهو غائب عنه ،
وهو مما يحرمه الوهابيون أو يجعلونه شركاً .

وأما الترسل به بعد وفاته فيمكننا أن نستدل عليه بهذا الحديث ،
فإن قوله - صلى الله عليه وسلم - « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ »
صريح في جوازه بلا قيد ولا شرط ، ويبدل له أيضاً ما رواه الطبراني
والبيهقي والترمذي بسند صحيح عن عثمان بن حنيف : أن رجلاً كان
يختلف إلى عثمان بن عفان زمن خلافته في حاجة له فكان لا يلتفت
إليه ، فرجاً عثمان بن حنيف أن يكلمه في شأنه فعلمه الدعاء المذكور
فتراضاً وصلى ثم دعا به كما علمه ، ثم جاء إلى باب عثمان فأخذه
الخادم وأدخله عليه فأجلسه بجانبه على الطنفسة ثم قضى حاجته
وقال له : إذا عرضت لك حاجة فأتنا ، فلما قابل الرجل عثمان بن
حنيف قال له : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي حتى كلمته

فيها ، فقال له : والله ما كلمته ولكني كنت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل عليه أعمى ، وذكر الحديث .

هذا وقد توصل - صلى الله عليه - بالأنبياء السابقين بعد موتهم كما في الحديث الصحيح .

فعن أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - قال : « لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ أُمُّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله تعالى عنه - ، وَكَانَتْ قَدْ رَبَّتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهَا ثُمَّ قَالَ : رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أُمَّيَّ بَعْدَ أُمَّيَّ . وَذَكَرَ ثَنَاءَهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ كَفَّنَهَا بِبُرْدَتِهِ وَأَمَرَ بِحَقْرِ قَبْرِهَا ، قَالَ فَلَمَّا بَلَغُوا اللَّحْدَ حَفَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخْرَجَ تُرَابَهُ بِيَدِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاضْطَجَعَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ » اغْفِرْ لِأُمَّيَّ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ وَوَسِّعْ لَهَا مَدْخَلَهَا بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِي فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم بسند صحيح . وروى ابن أبي شيبه عن جابر - رضي الله تعالى عنه - مثل ذلك ، وروى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس - رضي الله تعالى عنه - .

ثم نقول : إنهم كانوا يتبركون بآثاره - صلى الله عليه وسلم - بعد موته ، فقد ثبت أنه كان له - صلى الله عليه وسلم - جبة عند

أسماء بنت أبي بكر كانوا يستشفون بها ، ولا معنى لهذا إلا أنهم كانوا يتوسلون بآثاره إلى الله تعالى فيشفينهم ببركتها .

والتوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد كما يفهمه هؤلاء ، أفتراهم يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به ! وفي الباب شيء كثير لعلنا نذكره بعد .

أما توسل عمر بالعباس حينما استسقى به دون النبي - صلى الله عليه وسلم - فلكون ذلك هو سنة الاستسقاء أو لكون العباس من ذوى الحاجة للمطر ، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره - صلى الله عليه وسلم - لفضله أو لقربته منه عليه السلام ، أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل ، أو ليدلهم على أن التوسل بالمنضول جائز مع وجود الفاضل ، وإلا فعلي أفضل من العباس وكذا عمر .

على أن البيهقي في (دلائل النبوة) أخرج ما يأتي ، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن مالك الدارخازن عمر - رضى الله عنه - قال : أَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ فِي زَمَانِ عُمَرَ ، فَجَاءَ رَجُلٌ قَبَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَسْقِ اللَّهَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا ، فَأَنَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَنَامِ فَقَالَ : « أَنْتِ عُمَرُ فَأَقْرِدِي السَّلَامَ وَأَخْبِرِي أَنَّهُمْ مُسْتَقُونَ وَقُلِي لَهُ : عَلَيْكَ الْكَيْسُ الْكَيْسُ » . فَأَتَى الرَّجُلُ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ ، فَبَكَى عُمَرُ - رضى الله عنه - ثُمَّ قَالَ : يَا رَبِّ مَا آلُو إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ .

ومحل الاستشهاد في هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد موته وإقرار عمر إياه على ذلك .

هذا وأحب أن نتذكر ما قلناه من أن المسؤول هو الله تعالى لا فاعل غيره ولا خالق سواه ، وإنما نسأله بمنزلة حبيبه لديه ومحبته له ، وذلك شيء ثابت لا يتغير في الدنيا ولا في الآخرة .

ومن شك في منزلته أو قربه - صلى الله عليه وسلم - فقد كفر .
على أن قول عمر بمحضر من الصحابة إنا نتوسل إليك بعم نبيك يدل على جواز التوسل بالمنزلة وإلا لم يكن له معنى ، وأى حاجة إليه إذا كان المقصود دعاء العباس ، وهل ذلك من دعاء العباس ؟ !

أما التوسل به في عرصات القيامة فلا حاجة للإطالة فيه ، فإن أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر ، وفيها : أن الناس يذهبون إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة ، إلى آخر ما هو معروف : « ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا » .

الخلاصة :

والخلاصة أنه مما لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم له عند الله قدر عظيم ، ومرتبة رفيعة ، وجاه عظيم ، فأى مانع شرعي أو عقلي يمنع التوسل به - فضلا عن الأدلة التي تشبهه - في الدنيا والآخرة . ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين إلا إياه ؟ !
فنحن ندعوه بما أحب أيأ كان ، تارة نسأله بآعمالنا الصالحة لأنه يحبها ، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه كما أتى حديث آدم السابق

وكما في حديث فاطمة بنت أسد الذى ذكرناه ، ، وكما في حديث
عثمان بن حنيف المتقدم ، وتارة نسأله بأسمائه الحسنى كما في قوله
- صلى الله عليه وسلم - : « أَسَأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ ». أو بصفته أو فعله
كما في قوله في الحديث الآخر : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ
مِنْ عُقُوبَتِكَ ». وليس مقصوداً على تلك الدائرة الضيقة التى يظنها
الجاحدون .

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به ، وكذا كل من
أحبه من نبي أو ولي ، وهو اوضح لدى كل ذى فطرة سليمة ولا يمنع
منه عقل ولا نقل ، بل تضافر العقل والنقل على جوازه ، والمسئول
في ذلك كله الله وحده لا شريك له ، لا النبي ، ولا الولي ، ولا الحى ،
ولا الميت (قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا لَهُوَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَاذُونَ يَفْتَهُنَ
حَدِيثاً)^(١) .

وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي - صلى الله عليه وسلم - أولى
لأنه أفضل المخلوقات ، والأعمال منها ، والله أعظم حياً له - صلى الله
عليه وسلم - من الأعمال وغيرها . وليت شعرى ما المانع من ذلك ،
واللفظ لا يفيد شيئاً أكثر من أن للنبي قدراً عند الله ، والمتوسل لا
يريد غير هذا المعنى ، ومن ينكر قدره عند الله فهو كافر كما قلنا .

لو كنا مثاهم نأخذ بالظنة ونتصيد الشبه ونسارع إلى تكفير
المسلمين لأمكن أن نقول لهم : إن من لا يعرف قدر النبي أولى

بالإشراك ممن عرفه ، ومن استباح دماء المسلمين أقرب إلى الضلال
ممن استبرأ لدينه وعرضه .

وبعد ، فمسألة التوسل تدل على عظمة المسئول به ومحبته ،
فالسؤال بالنبي إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبتة إياه ، وذلك
مما لا شك فيه .

على أن التوسل بالأعمال متفق عليه منا ومنهم ، فلماذا لا نقول
إن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التي يحبه
الله تعالى ، وقد ورد بها حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق ؟

ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث إنهم
صالحون فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل
بها كما قلنا في صدر المقالة .

ولنتصر اليوم على هذا وموعدنا الأعداد المقبلة إن شاء الله .

التوسل والاستغاثة^٤

(٣)

لا تزال ترد إلينا الرسائل بشأن التوسل طلباً للتوضيح والإسهاب .
وقد ذكر بعض مرسلينا أن من الناس من يكفر المتوسلين برسول الله
صلى الله عليه وسلم - الذى سنتوسل به جميعاً يوم القيامة على ما
نطقت به الأحاديث الصحيحة . ولو قالوا إن فى المسألة تفصيلاً
أو أن بعض العبارات التى يقولها المتوسلون أو الزائرون ينبغى التحاشى
عنها ، وتعليم ما يصح أن يقول فى توسله أو عند زيارته ، لقبنا
منهم ذلك وشكرناهم عليه ، ولكنهم أفرطوا كل الإفراط ، فرأينا
أن نفيض القول فى ذلك ، فلعلنا بزيادة التقرير والتكرير نزيل
تلك العقيدة التى هى أخطر شئ على الإسلام والمسلمين :

ولنجعل الكلام معهم فى مقامين حتى نفهمهم بالمعقول والمنقول ،
فنقول : الكلام معهم من جهة الدليل العقلى وما نضطر إليه من الدليل
النقلى :

قبل الخوض فى الموضوع نحب أن نشترط عليهم أن يصبروا
صبر المرتاضين بصناعة المنطق ، العارفين بقوانين المناظرة ، فلا
يخرجوا عن الفرض الذى نفرضه حتى نتم الكلام فيه ، وأن يعرفوا

موضوع البحث فلا ينتقلوا عنه إلى غيره : وسنفرض الفروض كلها
ثم نبطلها واحداً واحداً :

ولينظروا حتى لا يختلط الممتول بالمنقول ، ولا المنقول بالمعقول ،
وسنوفى كلاً حقه إن شاء الله ، وعسى ألا يكونوا بعد ذلك ممن يسلم
المقدمات ثم ينازع في النتيجة ، فنقول :

هؤلاء إن كانوا يمنعون التوسل والاستغاثة ويجعلونها شركاً
من حيث إنهما توسل واستغاثة ، فاستغاثة المظلوم بمن يرفع ظلمه
إذاً شرك ، واستغاثة الرجل بمن يعينه في بعض شئونه شرك ، واستغاثة
الملك بجيشه لدى الحروب شرك ، واستغاثة الجيش بالملك فيما يصلح
أمره شرك ، بل نقول : يلزمهم على هذا الفرض أن طلب المعونة
من أرباب الحرف والصنائع التي لا غنى للناس عنها شرك ، وطلب
المرض للطبيب شرك ، بل يلزم بناءً على تلك الكليات التي تقتضيها
الحيثية أن استغاثة الرجل الإسرائيلي بسيدنا موسى عليه السلام
وإجابته إياه كما قال تعالى : (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى
الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)^(١) شرك ، إلى غير
ذلك مما لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل .

هذا كله إن كانوا يقولون : إنها ممنوعة من حيث إنها استغاثة
بغير الله كما فرضنا ، فإن قالوا : إن الاستغاثة والتوسل بالأموات
شرك دون الأحياء ، قلنا لهم لا معنى لهذا بعد أن سلمتم أن الاستغاثة
بغير الله من الأحياء ليست بشرك ، وبعد ما ورد به القرآن ووقع
عليه الإجماع في كل زمان ومكان ، ولا معنى لأن يكون طلب الفعل

من غير الله شركاً تارة وغير شرك تارة أخرى ، فإن فيه نسبة الفعل
لغير الله على كل حال .

وإن قالوا : إننا لا نعتقد التأثير الذاتي من الأحياء الذين نطلب
منهم المعونة ، قلنا لهم : يجب إذاً أن تجعلوا مناط المنع هو اعتقاد
التأثير الذاتي لغير الله تعالى لا فربق بين الأحياء والأموات . فإن
وجد ذلك الاعتقاد كان شركاً وإلا فلا ، سواء كانت الدعوة لحي
أو ميت ، وإن كان مناط المنع هو تلك السببية الظاهرة التي نفهم
من ظواهر الألفاظ ، وجب أن يكون ذلك كله شركاً ، حتى طلب
الرجل من أخيه أن يعينه في الحمل على دابته ، أو بناء داره ، أو
حفر نهره ، إلى غير ذلك كما أوضحنا في الفرض الأول .

فإن قالوا : إننا ننسب تلك الأفعال والتأثيرات إلى غير الله
تعالى - من الأحياء معتقدين أن الخلق والإيجاد ليس إلا لله
تعالى - وأن الحي ليس له إلا الكسب لا غير ، قلنا لهم كذلك
من يطلب من الأموات أو يتوسل بهم ، والقرينة فيهما واحدة
وهو إيمانه بأن الله بيده ملكوت السموات والأرض وإليه يرجل الامر
كله ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا خالق غيره ،
ولا موجد سواه ، وإن كان سر المنع عندهم هو : أن الميت لا يقدر
على شيء مما طلب منه .

فنقول لهم :

أولاً - لا يلزم من ذلك أن يكون الطلب شركاً بل عبثاً فقط ،
والاستغاثة بالأحياء أقرب إلى الذم منها بالأموات ، لأنها أقرب

إلى اعتقاد تأثيرهم في الإعطاء والمنع بمقتضى الحس والمشاهدة لولا نور الإيمان وساطع البرهان .

ثانياً - ثم نقول لهم : ما معنى قولكم : إن الميت لا يقدر على شيء ، وما سره وباطنه عندهم ؟ إن كان ذلك لكونكم تعتقدون أن الميت صار تراباً . فما أضلكم في دينكم ، وما أجهلكم بما ورد عن نبيكم ، بل عن ربكم ن ثبوت حياة الأرواح ، وبقائها بعد مفارقة الأجسام ، ومناداة النبي - صلى الله عليه وسلم - لها يوم بدر بقوله : « يا عمرو بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا فلان ابن فلان إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حتماً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » فقول له : ما ذلك ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ومن ذلك تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الدِّيَارِ » . ومن ذلك عذاب القبر ونعيمه ، وإثبات المجيء والذهاب إلى الأرواح ، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي جاء بها الإسلام وأثبتتها الفلسفة قديماً وحديثاً .

ولنتقصر هنا على هذا السؤال :

أيعتقدون أن الشهداء أحياء عند ربهم كما نطق القرآن بذلك أم لا ؟ فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهم ، لانهم كذبوا القرآن حيث يقول : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) (١) . (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (٢) .

وإن اعتقدوا ذلك فنقول لهم : إن الأنبياء وكثيرا من صالحى المسلمين الذين ليسوا بشهداء كأكابر الصحابة أفضل من الشهداء بلا شك ولا مرية ، فإذا ثبتت الحياة للشهداء فثبوتها لمن هو أفضل منهم أولى .

على أن حياة الأنبياء مصرح بها فى الأحاديث الصحيحة ، وقد رأى - صلى الله عليه وسلم - موسى - عليه السلام - يصلى فوق الكتيب الأحمر ، وراجع مرارا عندما فرضت الصلاة خمسين فى كل يوم وليلة حتى صارت خمسا ، كما قابل آدم وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء - عليهم السلام - ، فهذا كله يثبت حياة الأرواح وأنه لا شك فيها .

فإذا نقول : حيث ثبتت حياة الأرواح بالأدلة القطعية التى قدمنا بعضها فلا يسهل بعد ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها ، فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم كما أن نفي اللازم يوجب نفي الملزوم كما هو معروف .

وأى مانع عقلا من الاستغائة بها والاستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة فى قضاء حوائجه ، أو كما يستعين الرجل بالرجل « وأنت بالروح لا بالجسم إنسان » .

وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى تماسة ولا آلة ، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا فإياها من عالم آخر (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)^(١) وماذا يفهمون من تصرف الملائكة أو الجن فى هذا العالم ؟

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ولا شك أن الأرواح لها من الإطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها ، وتغيث من يستغيث بها ، كالأحياء سواءً بسواءً ، بل أشد وأعظم . وقد ذكرنا لك فيما سبق^١ عن ابن القيم أن الأرواح القوية كروح أبي بكر وعمر ربما هزمت جيشاً ، إلى آخر ما ذكرناه . فإن كانوا لا يعرفون إلا المحسوسات ولا يعترفون إلا بالمشاهدات فما أجدرهم أن يسلموا طبيعيين لا مؤمنين .

على أننا نتنزل معهم ونسلم لهم أن الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئاً ، ولكن نقول لهم : إذا فرضنا ذلك وسلمناه جدلاً فلنا أن نقرر : أنه ليست مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح في هذا العالم على نحو ما قدمنا : بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم بالدعاء لهم ، كما يدعو الرجل الصالح لغيره ، فيكون من دعاء الفاضل للمنضول ، أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه ، وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون ، بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد لزوال الحجب الترابية وعدم منازعات الشهوات البشرية .

وقد جاء في الحديث : أن أعمالنا تعرض عليه - صلى الله عليه وسلم - فإن وجد خيراً حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر لنا . ولنا أن نقول إن المستغاث به والمطلوب منه الاغاثة هو الله - تعالى - ، ولكن السائل يسأل متوسلاً إلى الله بالنبي أو الولي في أنه يقضى حاجته ، فالفاعل هو الله ، ولكن أراد السائل أن يسأله - تعالى - ببعض المقربين لديه الأكرمين عليه ، فكأنه يقول : أنا من محبيه « أو محسوبيه »

فأرحمني لأجله . وسيرحم الله كثيرا من الناس يوم القيامة لأجل النبي
- صلى الله عليه وسلم - وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء .

وبالجملة فأكرام الله لبعض أحاب نبيه لأجل نبيه بل بعض
العباد لبعض أمر معروف غير مجهول ، ومن ذلك الذين يصلون على
الميت ويطلبون من الله أن يكرمه ويعفو عنه لأجلهم بقولهم : وقد
جئناك شفعا فشفعنا فيه .

والمقصود من ذلك كله إثبات أن الله يرحم بعض العباد ببعض ،
على أن توجه الإنسان إلى النبي أو الولي والتجاء إليه تحس به روح
النبي والولي تمام الإحساس ، وهو كريم ذو وجهة عند الله - تعالى - ،
كما قال تعالى في بعض أصفياه : (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً)^(١) وكما
قال في بعض آخر : (وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)^(٢) ففتعنى تلك
الروح بذلك المتجىء أشد الاعتناء في تسديده وتأييده ، والدعاء له
هى والملائكة الذين يجلوها ويحبون مسرتها ورضاها ،

والأنبياء والأولياء محبوبون للملائكة بشاهد قوله - صلى الله
عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ : إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانَا فَأَجِبُوهُ » إلى آخر الحديث ، وأن الملائكة لتقول للذين
قالوا ربنا الله ثم استقاموا : (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ)^(٣) كما نص على ذلك القرآن الشريف .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦٩

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٤٥

(٣) سورة فصلت ، الآية ٣١

وذلك سر التوجه إلى الأولياء وزياراتهم ، لتتنبه أرواحهم لحال الزائر ، وتلتفت إلى معونته بما أعطاهم الله تعالى من الخصائص ، كما تنفع أخاك بما أعطاك الله من قوة أو جاهة أو مكانة أو ثروة أو أعوان أو أنصار إلى آخره ، وإن الإنسان هو هو في الدنيا والآخرة ، من حيث روحه التي هي باقية في العالمين جميعا . وليس الإنسان إنسانا إلا بها كما شرحنا ، والأمر جلي « ولكنها الهواء عمت فأعمت » .
ولنرجى تكميم المقام الثاني ، فربما طال الكلام فيه لعدد آخر - إن شاء الله .

والخلاصة :

أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى .
والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها ، فإنه إن اعتقد الإيجاد لغير الله كفر ، على خلاف للمعتزلة في خلق الأفعال ، وإن اعتقد التسبب والاكْتساب لم يكفر .

وَأنت تعلم أن غاية ما يعتقد الناس في الأموات ، هو أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء ، لا أنهم خالقون موجدون كالإله ، إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء وهم لا يعتقدون في الأحياء إلا الكسب والتسبب ، فإذا كان هناك غلط فليكن في اعتقاد التسبب والاكْتساب ، لأن هذا هو غاية ما يعتقد المؤمن في مخلوق كما قلنا ، وإلا لم يكن مؤمنا ، والغلط في ذلك ليس كفرا ، ولا شركا .

ولا نزال نكرر على مسامعك أنه لا يعقل أن يعتقد في الميت أكثر مما يعتقد في الحي ، فيثبت الأفعال للحي على سبيل التسبب ويثبتها

للميت على سبيل التأثير الذاتي والإيجاد الحقيقي ، فإنه لا شك أن هذا مما لا يعقل .

فغاية أمر هذا المستغيث بالميت - بعد كل تنزل - أن يكون كمن يطلب العون من المقعد غير عالم أنه مقعد ، ومن يستطيع أن يقول إن ذلك شرك ؟ على أن التسبب مقدور للميت وفي إمكانه أن يكتسبه كالحي بالدعاء لنا ، فإن الأرواح تدعو لأقاربهم كما في الحديث الشريف إذا بلغهم عنهم ما يسوءهم ، فيقولون : « اللَّهُمَّ رَاجِعْ بِهِمْ أَوْلَا تَحْتَهُمْ حَتَّى تَهْلِيَهُمْ » .

بل الأرواح يمكنها المعاونة بنفسها كالأحياء ، ويمكنها أن تلهمك وترشدك كالملائكة ، إلى غير ذلك على ما شرحناه ، وكثيراً ما انتفع الناس برويا الأرواح في المنام . ولعلنا نعود إليه .

تعليق

على بعض ما جاء في مقال الأستاذ الشيخ الجبالي
نقلا عن بعض العلماء الغلاة

قال فضيلته عن ذلك العالم : « بدأ الكلام معي في العتب على فضيلة الأستاذ المحقق الشيخ يوسف الدجوى فيما نسبته إلى الغلاة من تفكيرهم بالتوسل والاستغاثة بالموتى ، فقد زعمهم الأستاذ يسوون بين الاستغاثة والتوسل في الإنكار ، وليس الأمر كذلك عندهم ، فهم وإن لم يقولوا بالتوسل لا ينكرونه ، إنكارهم للاستغاثة ولا يكفرون به ، إنما المنكر في نظرهم أشد الإنكار هو الاستغاثة بالموتى .

ولقد كان من حق الأستاذ أن يفحص كلامهم ويتثبت مما يقولون قبل أن ينسب إليهم ما نسب .

ونحن نقول أولا : إننا كتبنا ما كتبنا إجابة عن سؤال يقول سائله : إنه اشتد النزاع في التوسل برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إن بعضهم كفر من يتوسل به - عليه السلام - .

وثانياً نقول لذلك العالم المغالى : يكفيننا منكم تكفير المسلمين بالاستغاثة على ما يفهم من كلامك السابق .

التوسل والاستغاثة^(٢)

(٤)

س : هل جاء في السنة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - علم الناس أن يسألوا الصالحين من الأموات ويطلبوا منهم الدعاء؟^(٢)
أرجو أن تذكر ولو حديثاً واحداً .

الجواب : ونحن نقلب عليه السؤال أولاً - فنقول : هل جاء في السنة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نهى الناس عن أن يسألوا الصالحين ويطلبوا منهم الدعاء؟ أرجو أن تذكر لنا شيئاً من ذلك ولو حديثاً واحداً .

ثم نقول له ثانياً : إن جواز الأشياء لا يتوقف على ورود الأمر بها بل على عدم النهي عنها كما هو مقرر في علم الأصول : (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ)^(٣) إلى آخره ، فكل ما لم يرد فيه نص بالتحظر فهو مباح على ما تقتضيه الآية ، وعلمنا - صلى الله عليه وسلم - في السنة الصحيحة : أن ما أمرنا به فعلناه ولم نتركه ، وما نهى عنه اجتنبناه ولم نفعله ، وما سكت عنه فهو عفو ، فهذه هي قواعد العلم الذي يعرفه العلماء .

(١) مجلة الأزهر -- الجزء الخامس - المجلد الثاني - جمادى الأولى سنة ١٣٥٠

(٢) - ناهنا خطاب مطول، بإمضاء (مسلم بمكة) أطال فيه صاحبه وأعاد وأبدى وأكثر وكرر ، ظناً منه أنه أتى بالقواصم . وقد ألح في طلب الإجابة حتى قال في آخره : (يا فضيلة الشيخ أرجوك وأناشدك الله الذي لا اله إلا هو إلا ما حققت هذا الموضوع وأنصفت فيه) ونحن نلخص ما جاء فيه من الأسئلة معرضين عما فيها من غمز مشوب بأدب وتمريض نسأله فيه فنقول وبالله التوفيق :

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٤٥

وأما شبهة الموت فهي شبهة واهية لأنكم بين أمرين : إما أن تنكروا إدراك الأموات وعلمهم ودعائهم وسماعهم ، وإما أن تقرروا بذلك ، فإن أنكرتموه ملأنا لكم الدنيا أدلة وبراهين على ثبوت ذلك لهم مثل : دعاء آدم وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء - عليهم السلام - لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ليلة المعراج كما في حديث البخارى ومسلم وغيرهما ، وكما في حديث « تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ فَإِنْ رَأَيْتُ خَيْرًا حَمَدَتَ اللَّهُ وَإِنْ وَجَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ اسْتَعْفَرْتُ لَكُمْ » وكما في حديث عرض أعمال الأحياء على الأموات ودعائهم لهم ، وقد ذكره ابن تيمية نفسه في فتاويه ، واعترف به ابن القيم كل الاعتراف وقرره أتم التقرير .

ومن محاسن المصادفات في هذا ما يقرره الأوربيون الآن مما يوافق ذلك ، وقد قرره قباهم بعشرات القرون الفلاسفة الأقدمون مثل أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، فالمسألة متفق عليها بين علماء الدين وعلماء الدنيا ، أو نقول : بين المسلمين وغير المسلمين ، أو نقول : بين أهل الأثر والنقل ، وبين أهل الفلسفة والعقل .

أما إذا اعترف الوهابيون بأن للأموات إدراكاً وعلماً وسماعاً ، وأنهم يدعون ويردون السلام إلى غير ذلك كما ورد في السنة ، ثم منعوا طلب ذلك منهم كانوا متناقضين ، أو نقول : كانوا ممن يسلم بالمقدمات وينازع في النتيجة ، أو ممن يقطع اللوازم عن ملزوماتها . وهو مما لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل .

على أننا ذكرنا في ذلك ما يقطع الشعب من أصله ، والمرء من أسفه ، وذلك هو الحديث الصحيح الذى رويناه عن عثمان بن حنيف فى التوسل به فى ياته - صلى الله عليه وسلم - وبعد مماته ، وقد قال فيه :

« يَا مُحَمَّدُ اسْتَفْعِ لِي عِنْدَ رَبِّكَ . ولا معنى للشفاعة إلا الدعاء الذى يكون منه - صلى الله عليه وسلم - ، وفي الحديث الصحيح « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » وفي حديث آخر « بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ » .

فالتوسل بالصالحين والدعاء ثابت وواقع ، وقد قلنا فى بعض ما كتبناه : لا معنى لكون هذا شريكاً كما يقوله الغلاة ، فإن الحى إذا طلب من الميت الذى هو حى بروحه ، متمتع بلوازم الحياة وخصائصها فإنما يطلب منه على سبيل التسبب والاكتساب ، لا على سبيل الخلق والإيجاد ، لأنه ليس من المعقول أن يرفعه عن رتبة الحى ، وهو إذا طلب من الحى فإنما يطلب منه على هذا الوجه لا على جهة الخلق والإيجاد ، والطلب من المخلوق على سبيل التسبب ليس شركاً ولا كفرة ، فلا معنى لتكفير المسلمين بذلك ، ولو فرضنا أن الميت لا عمل له ، فإن خطأ المنادى أو المستغيث على هذا الفرض إنما هو فى اعتقاد السببية لا الإلهية ، واعتقاد السببية فى غير الله ليس هو اعتقاد الإلهية كما يظنه الجاهلون ، وقد عرفت مما قدمناه أنه ليس غلطاً أيضاً ، وإنما الغالطون هم الغلاة ، وإن كان التوسل بمنزلته عند الله فالأمر واضح ، لأن الموت لا يغير المنزلة عند الله تعالى .

س : هل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أهمل نوعاً من لتوسل إلى الله تعالى ، أو ترك شيئاً مما يقرب إلى الله تعالى ؟ .

ج : لم يهمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - شيئاً مما يقرب إلى الله ، ولا ترك نوعاً من أنواع التوسل ، وقد علمنا التوسل فى حديث عثمان بن حنيف المتقدم ، بل توسل هو بحقه وحق الأنبياء قبله ،

وعرفنا أن آدم - عليه السلام - توسل به قبل وجوده ، وقد بين ذلك كله في الأعداد السابقة .

وبعد فماذا عسى أن يدل ذلك للسائل ، فلو فرضنا أن الرسول لم يتوسل بالصالحين لأمكن أن يقال إن مقامه أرفع من كل مقام ، على أنه - صلى الله عليه وسلم - كان عريقاً في العبودية ، وكان أعلم خلق الله بإطلاق الربوبية وسعتها ، وبأن الكل عبيدها ، وتحت قهرها ، وليس هناك إلا فضلها الواسع ، وكرمها الشامل ، وأنه لا بد من ظهور ذل العبودية على كل أحد ، وذلك من تعظيم الربوبية .

ويعلم - صلى الله عليه وسلم - أن عبيد السيد المطلق لهم منازل عنده ، وأن لكل منهم مزية لديه ، وأن المقتضى لعطائه - تعالى - إنما هو العبودية له عز وجل ، فلا بد أن يكون بينهم ارتباط العبيد وتبادل المنافع ، وعلى هذا قام بناء الكون .

كان - صلى الله عليه وسلم - أعرف الناس بذلك كله . فطلب الدعاء من عمر وابن عمر من رسول الله : وأمر عمر أن يطلب الدعاء من أويس القرني ، وأين أويس من عمر ، وسأل الله - تعالى - بحق الأنبياء قبله كما في حديث فاطمة بنت أسد ، وأمرنا أن نتوسل به إذا عرضت لنا حاجة إلى الله ، فقال لذلك الأعمى : « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » وقد فعلها الرجل الذي كان يتردد على عثمان بن عفان في خلافته ، وقد بينا ذلك أتم البيان .

على أننا نريد منكم أن لا تكفروا المسلمين بمثل هذا العمل الذي لا شيء فيه ، ونكتفي منكم أن تقولوا إنه مباح أو خلاف الأولى

أو مكروه « إذا أردتم » ولو قلتم ذلك لاحتملناه منكم ، وإن كان غير صحيح . ولكن قومك يا حضرة السائل الذى يظن أنه منصف وغير متعصب يعملون على خلاف ذلك .

س : هل ثبت ما يروى عنه - صلى الله عليه وسلم - : « مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرَّبُكُمْ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بَيَّنَّتُهُ لَكُمْ » ؟ وإذا كان ثابتاً فهل الطلب من الأموات أن يدعوا للأحياء مما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمر به وفعله أم لا ؟ .

ج : نعم ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك ، ودعاء الأموات داخل في دعاء الأخ لأخيه الذى لا يمكنكم أن تمنعوه ، وقد عرفتنا السنة الصحيحة أنه لا فرق بين الحى والميت فى ذلك ، وأن الميت يدعو كما يدعو الحى على ما سبق ، فإن الموت ليس فناء أو عدماً كما يظنه الجاهلون ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار :

لا تظنوا الموت موتاً إنه حياة وهو غايات المي
لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا نقلة من ها هنا

ولا نزال نكرر أنه قد دعا آدم عليه السلام - وغيره من الأنبياء النبينا - صلى الله عليه وسلم - وأن النبي يدعو لأمته فى البرزخ ، بل آباؤنا يدعون لنا على ما عرفت وتعرف ، على أننا نكتفى منكم أن تقولوا إنه مباح لا قربة ، أو على الأقل لا نكفروا به مسلمين وقد قلنا فى ما كتبناه فى العدد الثالث من هذه السنة : أنه لا وجه لذلك ولو قلنا : إن الميت لا يمكنه أن يدعو ولا أن يفعل شيئاً ، فإن الغلط

على هذا الفرض يكون غلطاً في اعتقاد التسبب لا الإلهية ، ولا نزال نكرر أن معتقد السببية في المخلوقات لا وجه لتكفيره ولا معنى له ، فإن من يجعل غير السبب سبباً يكون جاهلاً لا كافراً ، ويكفي هذا .

س : هل بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أمر به من الوسيلة في آية المائدة عملاً بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)^(١) الآية أم لا ؟

ج : نعم بين لنا - صلى الله عليه وسلم - كل ما نحتاج إليه ، على أن الوسيلة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، والقرآن عربي نزل بلغة العرب ولا وجه لقصركم إياها على نوع خاص فإنه قول بلا دليل ، على أنه لا داعي لذلك كله فقد ثبت التوسل مصرحاً به في حديث عثمان بن حنيف وغيره مما قدمناه ، وقد جاء في آخر الحديث المذكور « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » وقد عمل به في زمن عثمان بن عفان كما بيناه فيما سبق من الأعداد .

س : هل يلزم من عدم دعاء الأموات ومخاطبتهم بغير المشروع إنكار كرامتهم ؟ وإذا قلتم بالتلازم فبينوا لنا وجهه بالبرهان ، واذكروا لنا من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين من قال بجواز هذا النوع من التوسل .

ج : نعم من كان مثلكم ينكر التوسل والاستغاثة يجب أن ينكر كرامات الأموات ، فإنه إذا لم يصح أن نتوسل إلى الله بالميت ولا يمكنه

(١) سورة المائدة الآية ٦٧

هو أن يدعو لنا ولا تستطيع روحه أن تفعل شيئاً كما هو اعتقادكم ،
فأى كرامة تكون له بعد ذلك ؟ وما معنى إثباتكم إياها وقد نفيتم عنه
كل عمل وكل قدرة ، ومنعتم أن نتوسل به لله تعالى ليفعل لنا ما نريد
لأجله ؟ فأى شيء يبقى بعد ذلك .

وأما طلبكم منا ذكر من جوز ذلك من التابعين أو الأئمة المتبوعين
فنحن نقول : إن الأئمة كلها قبل ظهور ابن تيمية على هذا الجواز ،
ونحن نعلم فنقلب السؤال عليكم فنقول : هل يمكنكم أن تذكروا لنا من
التابعين أو الأئمة المتبوعين من منع ذلك النوع من التوسل ؟

أليست المذاهب كلها مجمعة على توسل الزائرين للحجرة النبوية
به - صلى الله عليه وسلم - ؟ وقد ذكرنا لكم نص الحنابلة في ذلك وكذلك
جميع الأئمة ، ولا نرى لكم سلفاً فيما تقولون بل جميع العلماء يصرحون
بأن ذلك مطلوب من كل زائر لا جائز فقط ، فهذا هو الإجماع ،
وقد مر من الأدلة العقلية والنقلية ما يكفي ويشفي . ثم نقول لكم :
ألم يعترف ابن القيم بأن الروح القوية لها من الأعمال بعد الموت -
ما لا تستطيعه حالة الحياة ، وقد وصل الأمر إلى أئمتكم أنفسهم ؟ .

فأنتم في إثبات كرامات الأولياء وغيرها متناقضون تارة مع الهوى
وتارة مع الحق ، ويرحم الله من قال : المبطل لا بد أن يتناقض شاء
أم أبى .

وأما تضليلنا إياكم فإنما هو لتكفير المسلمين ، واستباحة دماهم
وأموالهم ، إلى آخر ما كان يفعله الخوارج ، وكان ينقمه عليهم

الإمام علىّ ومن معه من الصحابة ، ولو قلتُم : إن الأولى أن يرجع الناس في كل أمورهم إلى الله - تعالى - بلا واسطة ، أو قلتُم : إن هناك مقاماً تسقط فيه الأسباب والوسائط كما قال إبراهيم - عليه السلام - لجبريل عليه السلام - : « أَمَا إِلَيْكَ فَالَا » عندما قال له : « أَلَك حَاجَةٌ ؟ » .

لو قلتُم ذلك وسلكتُم هذا المسلك لم ننكر عليكم ولم نشد في مناقشتكم ولو كان لكم رأى في المسألة غير التكفير لقلنا : مجتهدون ظنوا ظناً وإلى الله أمرهم ، وكم مجتهد أخطأ ، ولكن أولئك الذين أخطأوا لم يقدسوا أنفسهم هذا التقديس ، ولم يحملوا الناس على مذاهبهم بالسيف ، لأنهم يجوزون أن يكون الحق في جانب غيرهم ، ويعلمون ما جاء عن الرسول : أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ، وأن من رمى أخاه بالكفر فقد كفر أو كاد .

ولم يرض الإمام مالك من الخليفة المنصور العباسي أن يحمل الناس على الموطأ وهو هو عند مالك ، ولا من الرشيد أيضاً أن يلزم الناس بما فيه احتراماً للأمة وعلمائها واتهاماً لنفسه ، شأن أئمة الهدى وورثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والجاهل لا يعرف غير تعظيم نفسه ، والعالم لا يعرف غير تعظيم ربه ، ومن تعظيم الله تعظيم من عظم الله ، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

ثم قال السائل : لا يمكننا أن نسيغ توجه المسلم العارف بربه الانس بذكره إلى عبد من عباده انتقل من عالم إلى آخر ، لا يعلم له فيه إلا الله ، يسأله ويخاطبه بعد أن كان متلذذاً بخطاب الله تعالى ومناجاته ، ولا يخفى عليكم حديث أم العلاء من صحيح البخاري ،

وفيه أنها شهدت لمهاجر - وهو أبو السائب - توفى عندهما فقالت :
أما شهادتي فيك لقد أكرمك الله ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم -
قال لها : وما يدريك أن الله أكرمك ^(١) إلى غير ذلك من الأحاديث
من أمثاله .

وكاها تدل على أن الأموات قد أفضوا إلى ما قدموا ، وأنه لا يجوز
نا أن نحكم لأحد حكماً جازماً بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار
إلا ما ورد النص بأنهم من أهل الجنة أو من أهل النار كما ورد في أهل
بدر وبعض الصحابة كعكاشة بن محصن .

ونحن نقول : إن حضرة السائل أدمج في هذا الكلام الخطابي
شيء لا نتركها له بل نناقشه الحساب فيها ، أما التمويه بذكر ثوجه
المسلم إلى ربه وتلذذه بذكره فهو لذيد في الأسع يكاد يأخذ بمجامع
النفوس ، ولكن هذا مقام تحقيق علمي لا ينفع فيه التمويه ولا تفيد
فيه الخطابة ، وقد قلنا فيما سبق : لو كان رأى الوهابين أن هنا هو
مقام الكمال لم نتعرض له ، ولكنهم بدعوا وفسقوا وكفروا ، -
إلى آخره .

(١) هذا نص الحديث الذي أشار إليه :

عن أم العلاء امرأة من الأنصار رضى الله عنها - وهي من بايع النبي - صلى الله عليه
وسلم - قالت : إنه اقتسم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه في آياتنا فوجع
وجعه الذي توفى فيه فلما توفى وغسل وكفن في أثوابه ، دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم
فقالت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال النبي - صلى الله
عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمك ؟ قالت بآبي أنت يارسول الله فن يكرمه الله ؟ فقال :
أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إنى لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ؟
قالت فوا لله لا أركى أحدا بعده أبأ .

فأين هذا مما يقوله السائل ، فإن كان يريد أن الاشتغال بذكر الله ومناجاته أولى ، فليس الخلاف بيننا وبينه في الأولوية ، ولكن الناس درجات بعضها فوق بعض ، ولا حرج على من يلتفت للأسباب والوسائط عالمًا أن الله هو الأول والآخر ، فهو ممد كل شيء والمفيض على كل شيء ، وإليه يرجع الأمر كله ، ولا بين من ترك الأسباب ثقة بالمسبب فكان هذا غريبًا في قدرته كما كان ذلك ناظرًا إلى حكمته ، عاملاً بسنته ، فلا حرج على هذا ولا ذلك وإن صح أن نقول^٣ : إن بعضهم أفضل^٤ من بعض .

وهل ما ذكره السائل من حديث التلذذ والأنس الذي قطعه خطاب الأموات صحيح أم هو تمويه وخيال ؟ ولماذا لا يقول مثل ذلك في الطلب من الأحياء ؟ أليس الأنس بالله ومناجاته خيرًا من الطلب من الأحياء أيضًا^٥ « ولو كان وزيراً أو أميراً » أم التفضيل الذي ذكره لا يتحقق إلا بين الطلب من الله والطلب من الأموات ؟ .

وقد أدمج في كلامه ما يلهج به كثير من الجهلة من أن الميت لا ندرى حاله ولا ما مات عليه ، وهو سوء ظن كبير بالمسلمين بل بالله تعالى ، فنلفت نظر السائل : إلى أن من عاش على شيء مات عليه كما في الحديث الشريف ، فهذه هي سنة الله الغالبة ، وما عدا ذلك فشاذ لا يقاس عليه لحكمة يعلمها هو .

ثم نقول : إن الأمور في هذا العالم مبنية على الظن ، حتى الأمور الشرعية والأحكام الفقهية ، وعلى هذا يجب أن نعامل أمواتنا فنغسلهم ونكفنهم وندفنهم في مقابر المسلمين ، ونورث أموالهم إلى غير ذلك ،

ولسنا على اليقين الذى يريده السائل من أمرهم « ولكن ذلك اليقين لم يشترطه أحد » .

فعلينا أن نعد من عاش فى حياته على خير وصلاح من أهل الخير والصلاح بعد موته ، ولا يجوز لنا غير ذلك اتباعاً لتلك الوسواس التى ما أنزل الله بها من سلطان .

وليت شعرى هل إذا رمينا أحدهم بأن أباه لا ندرى حاله أمسلم هو أم كافر أفىغضب أم لا ؟ أهـل يريد أن لا نعمل شيئاً إلا بناءً على جزم ويقين ؟ إذاً يختل أمر هذا الوجود وتبطل أحكامه .

أما حديث عثمان بن مظعون الذى أشار إليه السائل فالمراد منه : أنه ينبغى الخوف من سعة التصرف الإلهى ، وأن مرتبة العبودية لا تتخطى مقام الرجاء والضراعة ، وأم العلاء قد قطعت على الله أنه مكروه على سبيل الجزم فاخرجت ذلك مخرج الشهادة ، وأظن أنها لو شهدت له بالدين والصلاح لتغير جواب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد قال فى آخر الحديث : « وإني لأرجو له الخير » .

فهل يفرق السائل بين رجاء الخير وظن الخير ؟ ولماذا لا يذكر لنا ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : مرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - : « وَجِبَتْ » . ثم مرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ : « وَجِبَتْ » . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : مَا وَجِبَتْ ؟ فَقَالَ : هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَأُوجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَنْتُمْ

شَهْدَاءِ فِي الْأَرْضِ » . أو ما أخرجه عن عمر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » فقلنا وثلاثة ؟ قال : وثلاثة ، واثنتان ، قال : واثنتان ، ثم لم نسأله عَنِ الْوَاحِدِ » . أو ما أخرجه البخارى أيضاً من قوله - صلى الله عليه وسلم - فى شهداء أحد : « أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ » .

ثم نقول للغلاة جميعاً : لماذا لا تذكرون أو لا تعملون - ولا نقول لا تصدقون - بما أخرجه البخارى أيضاً من قوله - صلى الله عليه وسلم - : « وَاللَّهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ وَلَكِنِ أَخْشَى أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا » إلى آخره ، بل سارعتم إلى القول بالشرك الذى لا يخافه - صلى الله عليه وسلم - على أمته فأوسعتموهم ذبحاً وقتلاً معتقدين أنهم مشركون خارجون عن الملة ، وكان السائل قد أحس بذلك كله فتمال : « على سبيل الجزم » .

ونحن نقول له : يكتمينا الظن ، وحسن الظن بالمسلمين مطلوب خصوصاً الصالحين ، وأما الجزم الذى تريده فلم يشترطه أحد كما قلنا .

ثم قال السائل : وإن من المجازفة أن نزيد على حسن الظن فيمن لم يرد لهم شهادة من المعصوم ، ونحن نقول له : إن من المجازفة أن تسمى الظن بمن لم يرد فيهم نص عن المعصوم : خصوصاً من ظهرت عليه علامات الخير وأمارات الصلاح ، أو ظهرت له كرامات فى حياته وبعد مماته ، وتجوز أن يكون قد تغير حاله هو من سوء الظن بالمسلمين بل بالله تعالى ، كما أنه عقوق للآباء والأجداد ، وما معنى الزيادة التى زدتها حضرتك ! وليس ذلك كله إلا أثراً لحسن الظن ومبنيّاً عليه .

ثم قال السائل : وكم أكون مسرورا جدا إذا عثرت لنا على نص صريح في هذا النوع من الوسيلة .

وأقول : : ذكرنا من الأدلة العقلية والنقلية الشيء الكثير ، وقد كان يكفيهِ حديث واحد على ما يقول ، وقد قلنا : إن من يثبت الحياة والإدراك والعلم للأرواح ، والقربة والمنزلة للصالحين ، ثم يمنع التوسل والاستغاثة بهم متناقض غاية التناقض قاطع للملزوم عن لوازمه ، وقد ذكرنا إجماع الأئمة على التوسل به - صلى الله عليه وسلم - عند زيارته ، ولو لم يكن في الموضوع إلا حديث عثمان بن حنيف لكان كافياً شافياً .

وعلى الجملة فقد أجمعت الشرائع كلها ، والفلاسفة الأقدمون ، والفلاسفة العصريون ، أو نقول : المسلمون والأوروبيون والأمريكيون والهنديون على إثبات الحياة ولوازمها للأرواح ، وعلى أن لها من الإطلاق وسعة التصرف ما لم يكن لها حال حياتها في هذا العالم ، وهو عين ما قرره ابن القيم أحد أئمتهم في (كتاب الأرواح) . أسأل الله أن يزيل عنا حجاب المادة وكثافة الطبيعة وظلمة الأشباح بمنه وكرمه .

نزيه الله عن المكان والجهة^(١)

بقية الكلام على سؤال الأستاذ محمود على المدرس بمدرسة المنتزه :
قال حضرته ما ملخصه : إن الله في السماء بمعنى جهة العلو ، ويدل
لذلك آيات كثيرة وأحاديث عديدة ، ثم ساق من الآيات مثل قوله
تعالى :

(أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)^(٢) وقوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)^(٣)
(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)^(٤) (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)^(٥)
(بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)^(٦) إلى غير ذلك .

ومن الأحاديث مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ
كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ :
هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرُ لَهُ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبُ لَهُ » الخ . . .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الرابع - المجلد الثاني - ربيع الآخر سنة ١٣٥٠

(٢) سورة الملك ، الآية ١٦

(٣) سورة طه ، الآية ٥

(٤) سورة فاطر ، الآية ١٠

(٥) سورة النحل ، الآية ٥٥

(٦) سورة النساء ، الآية ١٥٨

ونحن نقول له : ما كان ينبغي أن تذكر هذه الآيات المتشابهة « مجتمعة » وكذلك أحاديث الصفات ، فإن هذا يلبس على الناس ويدع في نفوسهم أثراً سيئاً عند ما تمتلىء من تلك الظواهر التي لم تذكر في الكتاب والسنة إلا في مقامات معدودة ، وربما احتف بها من القرائن ما يوجب صرفها عن ظاهرها ، كما في قوله - صلى الله عليه وسلم - فيمن ذكر أنهم يكونون على يمين الرحمن ، معرّفاً إيانا أنه يجب تنزيهه عما يعطيه ظاهر لفظ اليمين فقال « وَكَلِمَاتُ يَدَيْهِ يَمِينٌ » .

ولا يكاد يذكر ذلك في « مقام واحد » على نحو ما تفعلون قسداً للتأثير في الناس والتلبيس عليهم ، خصوصاً من لا علم له بما ذكره أهل البيان من الاستعارات والمجازات والكنايات ، ولا ارتاض بصناعة المنطق ، ولا زاول العلوم العقلية ، ولا تعمق في براهين العقائد ، ولا عرف ما قاله العلماء في ذلك ، وقد قال تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي دُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)^(١) .

ولابد أن تكون قد عرفت أن السلف في آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه ، وأن الخلف يؤولون خوفاً من التشبيه ، فكلهم متفقون على التنزيه ، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعينون المعنى المراد فيقولون مثلاً في قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) : المراد باليد القدرة ، والسلف يفوضون

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧

عد التنزيه فيقولون : إننا ننزهه تعالى عن الجارحة ولا نعين شيئاً
خاصاً من المعاني التنزيهية كما يفعل علماء الخلف^(١) .

أما أولئك المتفهبون الذين يعينون ويشبهون فهم مجسمون
مشبهون يبرأ منهم السلف والخلف جميعاً ، فهم كراميون^(٢) لا سلفيون
ولا خلفيون .

وليت شعري أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر :
فيثبتون له تعالى يداً بمقتضى قوله : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)^(٣) أم يدين
بمقتضى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « كَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٌ » أم أيدياً
عديدة بمقتضى قوله تعالى : (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ
أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)^(٤) أو عيناً بمقتضى قوله : (وَكَلْتُنَّع
عَلَى عَيْنِي)^(٥) أم أعيناً بمقتضى قوله :

- (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)^(٦) إلى غير ذلك ، وهو كثير جداً ألف فيه .
- ابن الجوزي وغيره ، أو يقولون : إن الله في السماء بمقتضى (أَأْمِنُّم)

(١) قال الوزير العالم العادل يحيى بن هيرة : تفكرت في أخبار الصفات فرأيت الصحابة
والتابعين سكتوا عن تفسيرها مع قوة علمهم . فنظرت السبب في سكوهم فإذا هر
قوة الهيبة للموصوف ، ولأن تفسيرها لا يتناق إلا بضرب الأمثال لله ، وقد قال عز وجل (ولا
تضربوا لله الأمثال) . وقال الوزير أيضاً تأويل الصفات أقرب إلى الحق من إثباتها على وجه
التشبيه ، فإن ذلك كفر وهذا بدعة .

(٢) أي منسوبون لمحمد بن كرام ، وهو من رؤساء المشبهة .

(٣) سورة الفتح ، الآية ١٠ .

(٤) سورة يس ، الآية ٧١ .

(٥) سورة طه ، الآية ٣٩ .

(٦) سورة القمر ، الآية ١٤ .

مَنْ فِي السَّمَاءِ) أم على العرش بمقتضى قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
اسْتَوَى) أم في الآفاق بمقتضى قوله : (وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَيَاذَنَمَا
دُلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)^(١) أم في أماكننا وأحيانا بمقتضى قوله :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(٢) أم يشبتون له أصابع بمقتضى قوله
-- صلى الله عليه وسلم -- : « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ
الرَّحْمَنِ » أم يشبتون له يمينا في الأرض من حجر بمقتضى قوله -- صلى الله
عليه وسلم -- : « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ! »

وبعد هذا فأى لون يشبتون له وأى طول وأى عرض يصفونه به
إلخ . إلخ ؟ !

ويرحم الله الإمام الغزالي حيث يقول : « من أخذ علمه من العبارات
والألفاظ ضل تضللاً بعيداً ، ومن رجع إلى العقل استقام أمره وصلاح
دينه . »

ولست أدري كيف يخوضون في هذا وهم لم يعرفوا حقيقة أرواحهم
التي يحيون بها . فكيف يعرضون للكلام فيمن ليس كمثله شيء :

« مَبُوحٌ قَدُوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ » وقد أقام كل ذرة من ذرات
الكون دليلاً على وجوده ، حتى أصبحت معرفته بناثاره من أجلى .

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٢) سورة الحديد ، الآية ٤

الواضحات وأظهر الظاهرات ، ولنقل ما قال فيلسوف الإسلام ابن سينا
في بعض مؤلفاته :

الحمد لله بقدره الله لا قدر وسع العبد ذى التناهى
الحمد لله الذى من أنكره فإيما أنكر ما تصوره
الحمد لله الذى برهانه أنه أن ليس شأن ليس فيه شأنه

أما معرفة حقيقته والوقوف على كنهه فهو من أول المحالات ،
فإنه ليس بيننا وبينه مشاكلة ولا مناسبة ، فكيف يمكن أن تحيط به
العقول ، وهى لا تحيط إلا بما شاركها فى نوع أو جنس أو فصل مما هو
حادث مثلها ! فهو بكل شىء محيط ، ولا يحيطون به علما .

وإنما غاية ما نعلم منه وجوده وتنزيهه عن صفات المحدثات ، وقد
علمنا فى أول ما علمنا تلك القضية العقلية مع برهانها الواضح فقلنا :
تجب مخالفته تعالى للحوادث ، لأنه لو ماثلها لكان حادثا مثلها لكن
التالى باطل فبطل المقدم .

والإلهية يجب أن تكون أكبر من أن تخضع لسلطان عقل قاصر
هو من صنعتها ، وقد عجز عن إدراك نفسه ، وعن حقيقة ما يقع
تحت حسه ، فيكفيه أن تدهشه تلك الآيات الباهرات وما أبدعه
فى الأرض والسموات ، أما ما وراء ذلك فليس من علمه ولا يليق بمرتبه
ولا بمرتبة الإلهية .

قال الجاحظ فى بعض كتبه : « إياك وأن تظن أن العلم بوجود
الشىء يستلزم العلم بحقيقته ، أو الجهل بحقيقته يستلزم الجهل

بوجوده ، فإنه إذا ضربك أحد في ليل مظلم علمت وجوده لا محالة
وإن لم تعرف شخصه .

تاه الأنام بسكرهم	فلذاك صاحى القوم عربيد
تالله لا موسى الكلي	م ولا المسيح ولا محمد
كلا ولا جبريل وه	و إلى محل القدس يصعد
علموا ولا النفس البسي	طة لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أن	سك أوحى الذات سرمد
من أنت يا أرطو ومن	أفلاط ^(١) قبلك قد تفرد ؟!
ما أنتمو إلا الف	ش رأى السراج وقد تهود
فدنا فأحرق نفس	ولو اهتدى رشداً لأبعد

وإنى لأعجب كل العجب والله ممن يجعله على العرش ! فأين كان
قبل أن يحدث العرش : وهل العرش غير محتاج إلى من يحمله ،
أم هو محتاج إلى من يحمله ؟ ! وكذا حامله أيضاً ، حتى تصل إلى
حامل غير محمول كما يقتضيه البرهان ، وهل يقولون : إن الله محتاج
إلى العرش ، والعرش غير محتاج إليه ، أم كلاهما محتاج لصاحبه ،
أم ماذا يقولون ؟ ! وهل العرش أكبر منه تعالى أم مساو له ، أم هو عز وجل
يزيد عليه !

(١) هو أرسططاليس واضع المنطق ، وأفلاط هو أفلاطون أحد فلاسفة اليونان وهو
أستاذ أرسطو ، وقد تصرف الشاعر هذا التصرف لأنهما أعجميان ، وهم لا يبالغون بالأسماء
العجمية كما قالوا : عجمي فالعجب به .

وليت شعري بعد ذلك من أى العناصر هو ، وكيف تركيبه إلخ .
إلخ . . .

ومتى ثبت له بعض لوازم الجسد ثبت له جميعها ، وقد بالغ
الامام الرازى فى الرد على القائلين بذلك ، وله فيه كتاب سماه « أساس
التقديس » .

ولننقل لك شيئاً مما قاله علماء الاسلام فى التنزيه^(١) ، ونبدأ بعبارة
الرازى :

كلام العلماء فى التنزيه

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :
فى الاستواء عند الخلق تأويلات : أولها أنه كناية عن تمام الملك ،
كما يقال جلس فلان على عرش المملكة وإن لم يكن هناك عرش
ولا جلوس ، فيكون مثل قوله تعالى حكاية عن اليهود : (يَدُ اللَّهِ
مَغْلُوبَةٌ)^(١) كناية عن البخل . ثم قال : إن من ملك بلداً صغيراً
لا يحسن أن يقال فيه : جلس على العرش ، وإنما يحسن ذلك فيمن
ملك البلاد الشاسعة والأقطار الواسعة .

ومما قاله ، إن العرش يطلق على الملك ، وعلى السرير الذى يجلس
عليه الملك ، ووزيره أمامه على الكرسي ، فالعرش والكرسي فى العادة
لا يكونان إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض
فى غاية العظمة عبر بما ينبيء فى العرف عن العظمة . ثم قال : ونظير

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٤

هذا أنك تقول للمقهور المغلوب : ضاقت به الأرض . أتظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له ؟ وكيف يتصور الجسم بلا مكان ! فكما يقال : الهارب لم يبق له مكان ، مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر : هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له . ومن التأويل : أن استوى بمعنى استولى ، كما هو في كتب اللغة كديوان الأدب وغيره كقوله :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

كأنه قال : خلق السموات والأرض ثم ههنا ما هو أعظم منه (استوى على العرش) فإنه أعظم من الكرسي ، والكرسي وسع السموات والأرض .

إلى أن قال ما محصله : إنه لا يجوز أن نفهم من هذا الكلام إثبات المكان له تعالى ، حتى ولو قيل إنه استقر على العرش ، فإن فهم التمكّن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكّن ، حتى إذا قال قائل : استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكّن وكونه في مكان ، وإذا قال قائل : استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك في فلان ، فقول القائل : الله استقر على العرش ، لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان ، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقديم الشيء على نفسه ، وهو محال .

ثم قال : كيف يكون محتاجاً إلى العرش وهو الغني عما سواه ! وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهته العقل

حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه في استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره ، وهو غنى بالنص .

إلى أن قال : اعلم أن كلمة «على» تستعمل لكون حكمه على الغير ، كما يقول القائل : لولا فلان على فلان لأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال : لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه ما حصل له شيء ، فكيف لا تقول في (استوى على العرش) إنه استوى عليه بحكمه ، كما نقول هو معنا بعلمه ! كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان ! وذلك لأن كلمة (ثم) للتراخي ، فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه ، فقبله إما أن يكون في مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان : أحدهما كون المكان أزلياً ، والثاني جواز الحركة والانتقال على الله تعالى ، وهو يفضى إلى حدوث الباري ، أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن في مكان كان هناك محل آخر ، وهو أن ما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لم يكن ، فهو القول بحدوث الله تعالى ، وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الأزل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان ، فلا يتم دليل حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه .

ألا يعلم ذلك الجاهل أنه جعله معلوماً حيث أحوجه إلى مكان !
فإن كل محتاج إذا نظر إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم . ولو كتبنا
ما فيها لطان الكلام .

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي - رضى الله عنه -
في حديث النزول المتقدم : ما أسهل على العالم إرشاد الجاهل ! بأن
يقول : إن كان المراد من النزول إلى سماء الدنيا أن يسمعنا فما
أسمعنا ، فلا فائدة في النزول ، فلا بد أن يكون المراد بالنزول شيئاً
آخر له محصل : كنزول الرحمة أو نحو ذلك ، وقد تكلمنا على
التأويل وما قال العلماء فيه في عدد سابق

وقال إمام الحرمين : إن الله خلق العرش من ذرة ، وهو بالنسبة
إلى قدرته أقل من ذرة ، فكيف يكون مستقره ! .

وقال ذو النون المصري - رضى الله عنه - وقد سئل عن التوحيد :
التوحيد أر تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج ، وصنيعه
لأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس
في السموات العلاء ، ولا في الأرضين السفلى ، مدبر غير الله تعالى ،
وكل ما تصور في وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك .

وقال أبو الحسين الثورى - رضى الله عنه - وقد سئل عن القرب
من الله تعالى ، فقال : أما القرب بالذات فتعالى الملك الحق عند ، وأنه
متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ،
جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فهذا قرب محال ، وقرب

هو في نعمته واجب ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الرحمة واللفظ .

وقال يحيى الرازي - رضى الله عنه - وقد قيل له : أخبرنا عن الله تعالى فقال : إنه واحد ، فقيل كيف هو ؟ فقال : ملك قادر ، فقيل أين هو ؟ فقال بالمرصاد . فقال السائل : لم أسألك عن هذا ، فقال : ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق ، فأما صفته فما أخبرت عنه .

وقال جعفر الصادق - رضى الله عنه - : من زعم أن الله سبحانه في شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك بالله ، إذ لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان محدثاً ، تعالى الله عن ذلك .

وقال بعض العلماء لتلميذ له يتمنحه : لو قال لك أحد أين معبودك ذئبى شيء تقول ؟ قال كنت أقول : حيث لم يزل ، قال فإن قال : فأين كان في الأزل فأى شيء تقول ؟ قال أقول : حيث هو الآن ولا مكان فهو الآن على ما عليه كان ، قال التلميذ فارتضى الشيخ ذلك .

وقال السهروردى من كلام طويل : جل الله عما يهجنس به الوسواس ، وعظم عما تكتنفه الحواس ، وكبر عما يحكم به القياس : لا يصوره خيال ، ولا يشاكله مثال ، ولا يعتربه زوال ، ولا يشوبه انتقال ، لا يلحقه فكر ، ولا يحصره ذكر ، لا تحد أزليته بمتى ، ولا تقيده أبديته بحتى ، إن قلت أين فقد سبق المكان ، وإن قلت متى فقد تقدم الأزمان ، وإن قلت كيف فقد جاوز الأشياء والأمثال

والأقران ، وإن طلبت الدليل فقد غلب الخبر العيان ، وإن رمت
البيان فذرات الكائنات بيان وبرهان ، عرفنا المكان بتعريفه إيانا ،
ولو شاء كونا ولم نعرف زماناً ولا مكاناً ، وكوننا في المكان ولو شاء
كوننا ولا مكان ، فعوالم قدرته غير محصورة ، وغرائب مشيئته غير
منكورة ، وما نحن فيه من العالم بما نحن فيه من العقل والعلم عالم
من عوالمه ، ولا يستبعد قولي : « ولو شاء كونا في غير مكان » فقد
كون المكان لا في مكان ، إذ لو كان في مكان لتسلسل ، فمن يكون
المكان والمكون فيه ، والزمان والمقدر فيه ، عالماً من عوالمه ، ويسيراً من
مبدعات قدرته ، كيف يحصره الزمان والمكان ! فما أحقر وأحق
علمك ! فلو فتحت عين بصيرتك ، استحييت من قياسك ، وفكرك ،
ووهمك ، وخيالك . أيها المحدود المحصور ! لا ينتج فكرك إلا
محدوداً محصوراً . وأيها المحيط به الجهات ! لا يحكم علمك إلا على
الجهات ! ، فالجهات من جملة العالم ، وقد علمت نسبه إلى عظمة
الله ، فتبارك الله رب العالمين .

والخلاصة أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها ، وأن لها
تأويلات تليق بجلال الله تعالى ، ولا نقطع بتعيين تأويل منها ،
بل نكل ذلك إلى العليم الخبير ، ولكن لا بد من التنزيه على كل حال .

رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً عَرَفَتْ قَدْرَهُ^(١)

تعلم وعاك الله أن بعض الناس الذين رقى دينهم وغلظ حجابهم يتكلمون فيما نسب إلى الأنبياء مما لم يدروا له تأويلاً ولم يعرفوا له معنى ، فتراهم ينكرون ما جاء في الدين من الروحانيات وأمور الآخرة ، لأن طبعهم الخبيث لا يقبله ، واستعدادهم الضعيف قاصر عنه .

وكثيراً ما يؤثر ذلك في قراء الصحف والمجلات ، فنريد أن نحذرهم من تقليد أولئك الجهلاء في مقالنا هذا ، فعسى أن نرجع ذوى الثرثرة الذين يريدون أن يطيروا بأجسامهم الثقيلة في جو سماء الأرواح ، إلى خطة الإنصاف ، حتى يعرفوا أن لهم درجة من العلم والاستعداد ، يجب عليهم أن يقفوا عندها ، ويدعوا ما وراء ذلك ولا يخوضوا فيه ، حتى إذا سمعوه عن الأنبياء لم ينكروه ، فيكونون من الذين يؤمنون بالغيب : وهو نوع من الهداية .

إن التفاوت الذى بين أفراد الإنسان لم يتفق مثله لأفراد نوع آخر ، فليس هناك فرد يساوى ألف فرد أو أكثر من أفراد نوعه غير الإنسان ، وإنه باعتبار أفراداه لأرفع الأنواع على الإطلاق ، وأحطها على الإطلاق ، وليس لكل فرد من تلك الأفراد علم إلا عن نفسه ، ولا خبر لديه عن معلومات الفرد الآخر وما هو عليه .

(١) مجلة الأزهر - الجزء السابع - المجلد الثانى - رجب سنة ١٣٥٠

وإن كل إنسان لا يعرف إلا ما يناسب استعداده الخاص ،
ولا يمكنه أن يعرف ما يناسب ما فوقه من ضروب الاستعداد ، وما لذلك
من الأحكام الخاصة التي تعلق عن درجته ، فذلك عالم آخر بالنسبة
إليه محجور عليه دخوله ، بمقتضى استعداده السافل ، حتى إنه
لا يكاد يصدق بأوضحها عند أربابها .

وربما كان البعد فيما بين ذلك وبين استعداده شاسعاً ، فلا ينفع
فيه البرهان ، ولا يمكنه أن يدركه ، وكان كالذي يكلف أن يرى
ما بعد عن متناول بصره ، وقوة نظره ، من المراثيات لغيره ، ولو ذكرت
الكهرباء وآثارها للمصرى الساذج منذ مائة سنة لم يصدقك ولو أقمت
له على ذلك ألف برهان ، بل ذلك يجده الإنسان من نفسه إذا تأمل في
أحواله وتنقلاته في أدوار حياته المختلفة ، يعرف أنه كان في دور
السذاجة ينكر ما يعتقد الآن في دور العلم ، ولا يزال هكذا يترقى في
معرفة الحقائق « يعتقد اليوم ما كان ينكره بالأمس » .

وقد استباننا تلك الحقيقة لأساطين الفلاسفة في أوروبا ، فاعترفوا
بأن ما يجهلون أكثر مما يعلمون ، وأن فوق استعدادهم ما لم يصلوا إليه
حتى الآن ، وقد قال الفيلسوف « سيزار لومبروزو » في كتاب ألفه
في إثبات الاسيرتزم « استحضار الأرواح » : « لتحذر من ادعاء دقة
العقل ، واعتماد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ، ولنحترس
من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا ، فإن ذلك يوقعنا ولا شك
في الضلال » .

ولو ذكر لأرسطو وأفلاطون وسقراط أن الماء مركب وأن الذهب غير مركب لأنكروا ذلك كل الإنكار .

كما أنك تعد الآن انحصار العناصر في الأربعة التي يذكرها القدماء الذين يجعلون الماء بسيطاً ، والهواء كذلك ، جهلاً عظيماً أو خرافة لا تسمع ، فليس من العقل أن نحكم في كل شيء بالأحكام الجازمة ، بل يلزمنا أن نعتقد أن وراء استعدادنا ما لا يدخل تحت مداركنا .

ولو فرضنا أن حاسة الشم مثلا كانت مفقودة من العالم كله لأنكروا نوع المشمومات بأسرها ، لفقد آلة إدراكها فيهم ، ولعل هناك من الأشياء ما لا يدرك إلا بحاسة سادسة لم تخلق فينا أو في بعضنا ، فكانت تلك الأشياء عنده داخلية في عالم العدم لا في عالم الوجود .

وقد ذكر بعض علماء الحيوان أن للنحل حاسة ليست فينا ، فكل إنسان محصور في سجن استعداده المحيط به من كل جهاته ، لا يمكنه أن يرفع رأسه إلى ما فوق سقف ذلك السجن ، ولا أن يجاوز بصره ما وراء حيطانه ، وإن كان في وسط ذلك العالم الفسيح ، والأشياء موجودة في أنفسها لا يؤثر فيها جهل الجاهلين بها ، وكل يرى منها على قدر بصر عقله ، فليست الأشياء كلها موجودة في حقلك ، أو لست أنت موجوداً إلا في بعض يسير منها ، وإن كان يخيل لك أنك في الكون كله .

وبهذا تعلم أن حكم الطبقة الدنيا على الطبقة العليا ، لا يكاد يقرب من محل الصواب إلا بالمصادفة والاتفاق ، أو بالقرب من درجة تلك

الطبقة العالية ، بل إذا رأينا شخصين من طبقة واحدة وقد صدر منهما فعل واحد لم يمكننا أن نحكم عليهما حكماً واحداً ، حتى نعرف مبدأ الفعل وباعثه وغايته التي تراد منه عند كل منهما ، فقد تكون صورة الفعل واحدة وهو حسنة كبرى بالنسبة إلى شخص ، وسيئة عظمى بالنسبة إلى آخر .

ودرجات الأفعال في ذلك وجزاؤها على ما يقتضيه وزنها الحقيقي لا يتضح في هذا العالم إلا نوعاً من الإيضاح ، ولا يقوم بالجزاء الحق إلا من علم كنه الأشياء على ما هي عليه في الواقع ، وليس إلا الله تعالى كما قال : (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ)^(١) .

ولا بد أن تكون قد علمت بعد هذا : أن كل إنسان إنما يحكم حسب ما يريه بصره الضعيف أو القوي « المحدود على كل حال » وأما ما بعد عما يتناوله إدراكه فهو بالنسبة إليه في عالم العدم ، وإن من الجهل أن يعتقد الإنسان أن كل شيء يدخل تحت علمه ويمكنه أن يصل إليه .

فكما خلقت على حد محدود في القوة الجثمانية فلا تستطيع أن تنتقل الصخر ، ولا أن تحرك الجبل ، ولا أن تسمع من الأصوات أو ترى من المبصرات إلا على مسافة مخصوصة ، ولا يمكنك أن تصل إلى ما وراء ذلك ولو أجهدت سمعك وأتعبت بصرك ، كذلك خلقت

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧

على حد محدود في عقلك وإدراكك ، فأنت محدود في جميع أمرك ،
مقيد في استعدادك الباطني تقييدك في استعدادك الظاهري ، وإن كان
يمكنك أن تترقى ولكن إلى حد محدود أيضاً . ولكل من الدرجتين
علوم تخصصها لا يمكنك في كلتا الحالتين أن تتجاوزها إلى ما وراءها .

وليس ذلك الإطلاق الذي تتخيل ، والقوة غير المحدودة في
كل شيء ، والعلم غير المتناهي إلا الله تعالى ، وتعلم أن من الحكمة
بعد ذلك إلزام كل حده ، حتى لا يحكم الصغير العقل ، الضعيف
الاستعداد ، القليل المعلومات ، النازل الدرجة على العظيم في كل ذلك .

وإذا أبينا على السوقي الساذج أن يتكلم في السياسة ويحكم على
قادة الأمم وكبرائها بأحكامه الجائزة التي لا يشك هو في عدالتها
ويخطئهم في آرائهم التي لا يعرف أسرارها ودخائلها ، فكيف لانبأى
على هؤلاء الزعانف الذين لم يعرفوا من العالم المحسوس إلا ظواهره ،
فضلا عن العالم الروحاني الذي لم يشموا له رائحة أن يتكلموا
في الأنبياء والمرسلين ، ويحكموا عليهم بجهلهم حكم من في الأرض
على من في السماء .

فأمر الدين وما فيه من الأسرار أدق وأغمض من أمر السياسة
وأرفع من أن يصل إليه أولئك الجثانيون ، وبينهم وبين الأنبياء
أبعد مما بين الملوك والسوقة ، وأرفع مما بين الفرش والعرش .

وإن العلم أشبه شيء بالبحر ، ومن نزل البحر ولم يحسن السباحة
أدركه الغرق لا محالة . وليست كل سفينة تصلح لكل بحر ،
ولا ربانها يسير بها مع كل عاصفة .

فعليك أيها الراغب في سعادتك ، المحتاط لأمر دينك ، الخائف
على نفسك أن تنتقى للأمراض قلبك من العلماء ، كما تنتقى للأمراض
بدنك من الحكماء ، وأن تحتاط في تحصيل مزاياك ، كما تحتاط
في اكتساب قضاياك ، فواء ، ذلك شقاء ما له غاية ، أو سعادة
ليس لها نهاية .

تنزيه الله عن المكان والجهة^(١)

(٢)

كتبنا تحت هذا العنوان كلمة في تنزيه الله تعالى عن الجهة في العدد الرابع من هذه السنة جواباً عن سؤال ورد إلينا ، فجاءنا خطاب مطول من الأستاذ الشيخ عبد الغفار على المسلاوي أحد العلماء بينها ، يبين فيه مذهب السلف والخلف ويبرأ فيه من التجسيم والتشبيه ، كأننا رميناه بذلك ، أو كأن الكلمة كانت موجهة إليه ، وقد اجتهد ما استطاع في تبرئة السلف من التشبيه ولم يعلم أنه جهاد في غير عدو ، ولو التفت قليلاً لما كتبناه لأراح نفسه من ذلك العناء ، وأراحنا من العودة إلى الموضوع مرة ثانية .

ولنسق لك عيون ما كتبه ، ونعلق عليها بما يعن لنا من الملاحظات :

قال : حضرته : إن مذهب السلف - رضى الله عنهم - التصديق بآيات الصفات وما صح من أحاديثها ، وإمرارها على ظاهرها مع نفي التشبيه والتكييف عنها ، فلا يجوز صرفها عن ظاهرها ، لأن فيه تعطياً لما جاء في الكتاب والسنة من صفاته تعالى ، وكذلك لا يجوز تكييفها وتشبيهها بصفات المخلوقين ، لقوله تعالى :

(١) مجلة الأزهر - الجزء التاسع - المجلد الثاني - رمضان سنة ١٣٥٠

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)^(١) وقوله : (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)^(٢)

فضلا عن دلالة العقل وإجماع الأمة على مخالفته تعالى للحوادث .

فكل ما وصف الله تعالى به نفسه من الوجه والعين واليدين والامتواء على العرش ، أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - كنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، فهو عندهم حق على حقيقته التي تليق به - تعالى - من غير تشبيه ولا تكييف فقولته تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)^(٣) الصحيح عندهم ما نقله الإمام البخارى في صحيحه وغيره عن مجاهد من أن معناه : علا أى علواً « بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته ، كما قال مالك الإمام وقد سئل عن كيفية استوائه على العرش : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » فهو سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وإنما هو تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة ، فقولته تعالى : (أَلَمْ يَنْتُمْ مَن فِي السَّمَاوَاتِ)^(٤) يعنى نفسه ، لا يريد - تعالى وتقدس - أن السماء ظنن له ، وإنما معناه أنه فوفها على العرش بلا تمكن ولا تكييف .

كما أجمعوا على أن له تعالى - يدين وعيناً ووجها بلا تكييف ولا تشبيه ، إلى آخر ما وصف الله - تعالى - به نفسه أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

(١) سورة البورى ، الآية ١١

(٢) سورة النحل ، الآية ٧٤

(٣) سورة طه ، الآية ٥

(٤) سورة الملك ، الآية ١٦

إلى أن قال : وحديث « لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَسَقَطَ عَلَى اللَّهِ » قال مخرجه الحافظ أبو عيسى الترمذى فى جامعه ، لما أخرجه : قال أهل العلم أراد لهبط على علم الله ، وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه . انتهى بلفظه .

إلى أن قال : وقال أبو عيسى الترمذى أيضاً إثر ما روى حديث أبي هريرة « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّبُهَا » : روت عائشة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحوه ، وقد قال غير واحد من أهل العلم فى هذا وما يشبهه من الصفات ، كنزول الرب : ثبت هذه الروايات فى هذا ونؤمن به ، إلى أن قال : ولم يثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - ولا عن أصحابه حرف واحد يفيد صرف هذه الآيات والأحاديث عن ظاهرها ، نعم التشبيه غير مراد منها قطعاً ، إلى آخر ما قال .

ونحن نقول له : أولاً : إن ما كتبناه كان جواباً عن سؤال يقول سائله : إن المراد من قوله تعالى : (أَلَمْ نَتَّمَّ مِنْ فِى السَّمَاءِ) جهة العلو ، فأثبت الجهة لله تعالى - بصريح العبارة .

وكثير ممن يطالع كتب ابن القيم وابن تيمية لا يكاد يخلص من تلك العقيدة ، فإنه بكثرة ما يوردونه من التلبيسات والتشكيكات وما يموهون من ذكر الآيات تسرى فيه تلك العقيدة من حيث لا يشعر ، ولو فتش عن قلبه تفتيش المتهم لنفسه لوجدناها راسخة فيه . غير أنه ضويق بما يلزم ذلك من الحدوث لجأ إلى كلمات لا محصل لها ، أو هى متناقضة ، ثم اقتنع بذلك واطمأن إليه .

على أننا نقول لحضرة المدافع عن السلف - قبل مناقشته في بعض كلماته - : ما الذي هاج أعصابك علينا ؟ وهلا أعدت النظر فيما كتبناه حتى تعرف ما نسبناه إلى السلف الذين تدافع عنهم ، وما نسبناه إلى الخلف الذين توهمت أنهم المعتزلة أو الجهمية ، مع أن ذلك مبين في كتب التوحيد أتم البيان ؟ وقد قال في الجوهرة مشيراً إلى المذهبيين ، وهي من أصغر كتب التوحيد ، وصاحبها أشعري صميم :

وكل نص أوهم التشبيهاً أو فوض ورم تنزيهاً

ولنذكر لك ما قلناه في مقالنا المشار إليه عليك^١ ننظر فيه بإنصاف وإمعان ، حتى تعرف أنه لا خلاف بيننا وبينك ، وأنا كنا نرد على السائل الذي أثبت الجهة لله ، لا عليك ولا على السلف ، وهاك نص ما قلناه في العدد الرابع :

« ولا بد أن تكون قد عرفت أن السلف في آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه ، وأن الخلف يؤولون خوفاً من التشبيه ، فكلهم متفقون على التنزيه ، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعينون المعنى المراد ، فيقولون مثلاً في قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)^(١) : المراد باليد القدرة ، والسلف يفوضون بعد التنزيه ، فيقولون : إننا ننزهه - تعالى - عن الجارحة ولا نعين شيئاً خاصاً من المعاني التنزيهية كما فعل علماء الخلف « فهل ترى في ذلك نسبة التشبيه إلى السلف حتى تشور ثائرتك » ؟

(١) سورة النتح ، الآية ١٠

ثم نقول لك : ما معنى قولك : إن كل ما وصف الله به نفسه من الوجه ، والعين ، واليدين ، والاستواء على العرش ، أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - كنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة فهو عندهم حق على حقيقته التي تليق به - تعالى - من غير تشبيه ولا تكييف ؟ نريد منكم أن تفهمونا معنى تلك الكلمات التي تسبق إليها ألسنتكم من حيث تشعرون أو لا تشعرون ، فما معنى كون النزول حقاً وعلى حقيقته ؟ وهل هناك حقيقة للنزول غير الهبوط من أعلى إلى أسفل ؟ لا تعرف العرب حقيقة للنزول غير هذا ، وإن جاز استعماله في غيره على طريق المجاز .

وكذلك اليد : لا معنى لها على سبيل الحقيقة عندهم إلا الجارحة المخصوصة وإن جاز استعمالها في غيرها على سبيل المجاز ، وكذا العين وغيرها .

فما معنى كونها عندكم على سبيل الحقيقة ؟ وهل عرفتم لها معنى في حق الله حتى تحكموا بأنها حقيقة فيه ؟

فإن بينتم لها معنى تنزيباً لا تشبيه فيه وافقتم الخلف في هذا ، وكانت حينئذ على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة .

وما معنى قولكم بعد ذلك : بلا تشبيه ولا تكييف ؟ وهل هو إلا قول متهافت لا معنى له بعد أن قررتم أنها ثابتة له على سبيل الحقيقة ؟

ثم نقول : إنك أثبت له في خطابك يدين وعينين ، فلماذا لم تثبت له أعيناً لا عينين فقط ، مع أنه يقول : (تجرى بأعيننا) ؟^(١)
ولماذا لم تثبت له أيدياً لا يدين فقط ، فإنه يقول : (خلقنا لهم مما عملت أيدينا نعاماً فهم لها مالكون)^(٢) ؟ .

ثم تقول في قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)^(٣) :
الصحيح عندهم ما نقله الإمام البخارى في صحيحه وغيره من مجاهد من أن معناه : علا أى علواً بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفية ، كما قال مالك الإمام وقد سئل عن كيفية استوائه على العرش : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » فهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

ونحن نسألك عما فهمته من كلام مجاهد هذا : هل فهمت العلو الحسى كما ينبىء عنه قولك الذى تكرر إنه فوق عرشه ؟ وإذا تكون قد أثبت له الجهة والحيز لا محالة ، وإذا ثبتت له الجهة ثبتت له الجسمية ، ومنى ثبتت له الجسمية ، ثبتت له لوازمها ، وإن أردت العلو المعنوى وفتتنا ولم تأت بشيء جديد . ولكن قلت : إنك لا تعقل ذلك العلو ، وعلو المعنوى معقول ، فما الذى فهمته وما الذى أثبتته ؟ وهل هناك شيء وراء العلو الحسى والعلو المعنوى ، أم هو كلام « كالورد يشم ولا يدعك » ؟

ولماذا لم تقل : إنه فى السماء بلا تمكن ، كما قلت : إنه فوق العرش بلا تمكن ؟ وهل هناك فرق بين الآيتين ؟ وإذا قلتم بفوقية بلا تمكن ،

(١) سورة القمر ، الآية ١٤ (٢) سورة يس ، الآية ٧١ (٣) سورة طه ، الآية ٥

ولا كيف وهى على^٦ حقيقتها: فلماذا لا تقولون : بظرفية بلا تمكن
ولا كيف متى كان الغرض التشبث بكلمات من ههنا القبيل تعقل أو
لا تعقل، ثم كنتم تقولون: إن الظرفية بلا كيف لا تنافي الفوقية
بلا كيف؟ .

ثم نقول لك بعد ذلك : ماذا فهمت عبارة الإمام مالك في قوله :
الاستواء معلوم ؟ هل ظننت أن مالكاً يثبت الاستواء المعلوم ؟ « إذاً
يكون مشبهاً ومجسماً » لأن الاستواء المعلوم هو الاستقرار المستلزم
للجسمية ولوازمها ، فإن كان الاستواء بغير هذا المعنى فهو غير معلوم ،
فيجب إذاً أن يكون مراد مالك أنه معلوم الثبوت والورود* ، فإنه
نطق به القرآن ، لا معلوم الحقيقة والمعنى .

على أن بعض المحققين يطعن في ثبوت الرواية عن مالك ، وهو
الذى أقول به ولا أكاد أعتقد غيره ، فإن جعله الاستواء معلوماً
— على ما يفهم منه — اعترافاً بأن المجهول هو كيف فقط ، وقد
يستوى الملك على عرشه بكيفيات كثيرة ، فجهل الكيفية لا يكفي
في التنزيه ، بل يثبت التشبيه ، فإن الكيفية حاصلة على كل حال غير
أنها مجهولة ، والاستواء الحقيقي لا يعقل بدون كيفية وإن لم تكن
معلومة لنا ، ولكن لا بد له من كيفية في الواقع .

هذا . وقد رأيت رواية أخرى في هذه الواقعة عن عبد الله بن وهب
أن مالكاً سئل عن الاستواء فأطرق وأخذته الرحضاء^(١) ثم قال : الرحمن

(١) هو العرق الكثير الذى يغسل الجلد لكثرة .

على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع ، إلى آخر ما قال .

ومما يلبسون به على الناس أو على أنفسهم قولهم : إن ذلك كله حق على حقيقته .

فإن كلمة « حق » ها هنا تقع في النفوس موقع الإيمان والقبول ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول : إن ما ورد في الآيات غير حق ؟ ولكننا نستفسر منهم عما أرادوا بتلك الكلمة : فإن كان قصدهم أن هذه النصوص لا يمكن ردها فإنها نصوص قرآنية أو سنة صحيحة ، فهو حق ، ولكن ليس محل النزاع ، وإن أرادوا أن معناه الذي يعرفه الناس حق ، فذلك باطل ، ولكنها عادتهم يأتون بالكلام الموجه وبالكلمات المحتملة .

وليت شعري ، أى شيء أثبتوا لله تعالى إذا كانت اليد في حقه ليست على ما نعرف ، والاستواء والنزول بالنسبة إليه على غير ما نعهد ، فما الذى أثبتوه له ؟ وهل يمكن التصديق بثبوت شيء لا نفهمه ولا تعقل له معنى ؟ ! كيف وتصور المحمول والموضوع شرط في التصديق أو شطر منه ، كما هو معروف في المنطق ؟ وهل بيننا وبينهم خلاف إذا كانوا سلفيين حقاً كما يقولون ؟ فإن الاستواء عندهم وصف كمالى تنزيهى ثابت لله تعالى ، وكذا اليد والعين إلخ ، ونحن نقول بثبوت كل كمال لله تعالى ، فما الذى أثبتوه زائداً على ذلك ؟ !

ونحن نقرر دائماً أن كمالات الله لا تتناهى ، وفي الحديث :
« أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ
أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ »
غاية الأمر أن الخلف يوولون خوفاً من وقوع القاصرين في التشبيه ،
فما أرادوا إلا النصح لله وكتابه ورسوله والمسلمين .

على أنى أختار مذهب السلف وأدين به ، وقد قلت في آخر العدد
الرابع ما نصه : « والخلاصة : أن أحاديث الصفات ليست على
ظاهرها وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ولا نقطع بتعيين تأويل
منها ، بل نكل ذلك إلى العليم الخبير ، ولكن لا بد من التنزيه على
كل حال .

أما قول الكاتب : إنه تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة ،
فهو من قبيل ما سبقه ، ولست أدري أيقصد به العلو المعنوى الذى
لا يخالف فيه أحد ، أم العلو الحسى الذى يستلزم الجهة ، أم هو شئ
لا نعرفه « نحن ولا أئمتهم » ؟

ومثل ذلك قوله تعالى : (أَلَمْ يَنْتُهِمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ)^(١) يعنى نفسه :
لا يريد - تعالى وتقدس - أن السماء ظرف له ، وإنما معناه أنه فوقها
على العرش بلا تمكن ولا تكييف ، وهل يظن الكاتب أنه بين معناها
بقوله : إنه فوق سمائه على عرشه ، ما دامت الفوقية غير معروفة ؟ .

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

ثم نقل صاحب الخطاب بعد ذلك عن الترمذى أنه قال في حديث
« لَوْ أَنَّكُمْ دَلَيْتُمْ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ » قال الترمذى
في بيان المراد منه : « لهبط على علم الله وهو على العرش كما وصف
نفسه في كتابه » ولا أدرى لماذا نقلها وقد كان مقتضى مذهبهم ألا
يؤوّلوا هذا التأويل ، لأنهم يبقون النصوص على ظواهرها ويؤمنون بها
على حقيقتها ! ولعله نقلها لقوله فيها : وهو على العرش كما وصف
نفسه في كتابه .

وليت شعري لماذا لم يقولوا : إن الهبوط على حقيقته ولكن بلا
تشبيه ولا تكييف ؟ .

ثم قال : قال أبو عيسى الترمذى أيضاً إثر ما روى حديث أبي
هريرة « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرِيهَا » : روت عائشة
عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحوه ، وقد قال غير واحد من أهل
العلم في هذا أو ما يشبهه من الصفات كنزول الرب : نشبت هذه
الروايات في هذا ونؤمن به . ونحن أيضاً نشبتنا ونؤمن بها ، ولكن
النزاع ليس في ثبوتها والإيمان بها ، ومن ذا الذي لا يؤمن بما ورد عن
رسول الله ؟ ولكننا ممن يجوز إجراء المجازات والكنائيات في أمثال
هذه المقامات من غير جزم ولا تحميم على ما شرحنا .

ثم قال الكاتب : لم يرد عنه - صلى الله عليه وسلم - ولا عن
أصحابه حرف واحد يفيد صرف هذه الآيات والأحاديث عن ظواهرها ،
نعم التشبيه غير مراد منها قطعاً .

ونحن نقول أيضاً : لم يرد عنه - صلى الله عليه وسلم - ولا عن أصحابه حرف يفيد أنها باقية على حقيقتها كما تقولون ، بل ترك ذلك للعقول وتصرفاتها ، وللنصوص المنزهة الكثيرة ، فضلاً عن البراهين العقلية ، ولما تعرفه العرب من مجازاتها وكناياتها ، ولا أرى قولكم : إن الاستواء على العرش مثلاً باق على حقيقته مع التنزيه وعدم التشبيه إلا منناقضاً ، فكأنكم قلتم إنه مستقر على عرشه ، غير مستقر على عرشه وهل هذا إلا التناقض الصريح ؟ ! والذي لا يفهم للاستواء معنى محصلاً ، لا ينبغي له أن يكثر من ذكر الفوقية والاستواء والعلو ، وإلا فليصارحنا بما يعتقد ، ولا يقل إنه سلفي ، فإن السلفي لا يقبل بمعنى معين في آيات الصفات ، وإنما يفسرها كما وردت ، ولا يتعرض لتخيل معناها ، ولا إطالة القول فيه .

ثم قال الكاتب في آخر كلامه : لسنا بحمد الله مجسمة ولا حلولية .
وإني أحمد الله على ذلك ، وما رميت الكاتب بالتجسيم ولا كان كلامي معه ، ولا مع السلف الذين ينتمى إليهم ، ولكن كنت أكتب لمن يثبت لله جهة ، أو يقول وقد نزل من على المنبر : « إن الله ينزل من عرشه إلى سماء الدنيا كنزولي » .

هذا . وكلامنا اليوم - أيضاً - هو مع هذه الطائفة لا مع الكاتب ، وإن كان هو المثير غبارها ، فإني أسلم ما يقرره من عقيدته وأواقفه عليه . وما أريد بكل ما أكتب إلا النصح للمسلمين : والتحذير من نزعات النصارى الجاهلين . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

العالم الذي نوه الدين بذكره وَخَطَأَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ^(١)

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والأحاديث ، اغترارا بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان ، أو تصنيف في الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأصول أو نحو ذلك ، جاهلاً أن ما افتخر به من ذلك قد يوجد في غير المسلمين ، وما هي ذى كتب مدارسهم التي ألفها آباؤهم وعلمائهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المنصف ، وما تسمعه عن مستشرق أوربا أعجب وأغرب ، فهم شركاؤك فيما علمت ، فلا بد أن يكونوا شركاءك في خاصة ذلك العلم ، وإلا وجد الشيء بدون خاصته وهو محال .

فإِذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ سِرُّ تَفْضِيلِ الْعَالَمِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ رَاجِعًا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ ، وَأَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْعُلُومُ الَّتِي تَرْفَعُنَا بِهَا عَلَى الْجُهْلَاءِ ، وَامْتِلَانًا بِهَا عَجَبًا وَكِبْرًا وَغُرُورًا ، وَزَالَتْ بِهَا سَلَامَةُ فِطْرَتِنَا وَطَهَارَةُ قُلُوبِنَا بِمَا أَوْرَثْتَنَا مِنَ الصِّفَاتِ الْمُهْلِكَةِ ، وَنَخْشَى أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)^(١) أَشْبَهَ شَيْءٌ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي يَتَعَلَّمُهَا الْمُسْلِمُ وَالْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ، وَلَا يَرْجِعُ بِهَا الْفَاسِقُ

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثاني - المجلد الثالث - صفر ١٣٥١ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٤٧

عن فسقه ، ولا يتميز بها عن بنى نوعه ، إلا على قدر ما يتميز العالم بصنعة من الصنائع عن الجاهل بها .

نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمراً وراء ذلك كله ، وهو الذى جعل « العلماء ورثة الأنبياء » وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) ^(١) وكان مجلس واحد من مجالس العالم خيراً من عبادة ستين سنة ، ذلك العلم الذى يبلغ بك تلك الغاية ، ويحلك تلك المنزلة الرفيعة ، ومن أجله احترمك الجهلاء وعظمتك الكبراء ، معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ، ووصلت إلى ما لم يصلوا إليه .

والقلوب الإنسانية تحس بشرف العلم الأعلى ومكانة ذويه ، وتجل الروحانيين الريانيين إجلالها للملائكة المقربين ، وتنظر إليهم نظر أهل الأرض لأهل السماء على موجب ذلك الإحساس الذى لا يكاد يخلو منه إنسان فيه روح الإنسانية .

ذلك العلم يجعل عن أن يكون هو العلم بأحكام الفاعل والمفعول ، والتصغير والتكسير ، والمسند والمسند إليه ، والحقيقة والمجاز ، وتناقض الموجهات ، وأحكام المختلعات ، وفروع الطلاق ، والبيع والجنائيات ، إلى آخر ما اشترأت به الأعناق ، وعظم فيه السياق ، وتبجحت به النفوس ، وارتفعت به الرؤوس .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله - تعالى - وعظمته ، وبتدبير آياته ، وعظيم أسرارهِ في خلقهِ ، مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها ، وتلبيسها وكثرة دسائسها ، وسرعة طيرانها نحو شهواتها ، فتراهم يتهمونها في كل شيء^(١) ، ويعاملونها معاملة العدو المحتال : باحثين وراءها في كل ما تشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية ، مجاهدين لها ما عاشوا ، ذائقين لقوله تعالى : (وَمَا أُبْرَىٰ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)^(٢) قائلين : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » . « أَعْدَىٰ عَدُوِّكَ نَفْسَكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » وجلين من أن يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، وأضلّه الله على علم .

فكانوا ممن عرفوا نفوسهم فعرفوا ربهم ، فامتثلوا قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(٣) فعزلوها عن منصب الرياسة فتحلصوا من غوائلها كلها ، فلم يتحركوا إلا لله ، ولم يسكنوا إلا لله ، ولم ينطقوا إلا لله ، ولم يسكنوا إلا لله ، متحققين أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، فصبروا على بلائه ، وشكروا على نعمائه ، بل رضوا بانصائه ، وسارعوا إلى رضائه ، فلم يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضى وقدر ، بل سلموا له تسليما ، شأن العبد الصادق في العبودية مع مولاه ، فرقين أن يندرجوا في سلك من قال الله فيهم : (وَكَلِمَاتُنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَرْجِعُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوا)^(٤) سائرين في الدنيا على قدم الأنبياء ، يتجرعون في سبيل الحق شدة الأذى ،

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣

(٢) سورة ص ، الآية ٢٦

(٣) سورة النساء ، الآية ٦٦

كاظمين غيظهم ، صابرين على ما أصابهم ، بل عافين عن الناس محسنين إليهم ، مشفقين عليهم ، على نهج من قال الله - تعالى - في وصفه الكريم : (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(١) .
(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)^(٢))
زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة .

مقبلين على الله - تعالى - بكليتهم ، داعين إليه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، عالمين أنها محل المحن ودار الفتن ، فلا يحبونها إلا على نحو ما رسم الشرع لهم ، مشفقين من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)^(٣) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم ، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم ، عالمين أنها سريعة الفناء وشيكة الانقضاء ، يرون قريبا ما يراه الناس بعيدا :

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى بعيدا غدا ، ما أقرب اليوم من غد
(إِذْمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا إِ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٣) سورة فاطر ، الآيتان ٥ ، ٦ .

فَجَعَلْنَاهَا حَبِيدًا كَمَا لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ (١) مقتفين أثر من قيل له :
 (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) (٢) واصلين إلى روح قوله تعالى :
 (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) (٣) (أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ
 مِنْ مَّالٍ مُّبِينٍ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (٤) محبين
 للمرشد الأعظم والنبي الأكرم الذي هداهم الصراط المستقيم ، وأخرجهم
 من الظلمات إلى النور محبة تزيد على محبة الوالد لولده ، والولد لوالده .

متحققين بما جاء في حديث البخارى من قوله - صلى الله عليه
 وسلم - : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ
 مِنْ وَالِدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وما ورد في حديث البخارى -
 أيضًا : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ » فوصلوا
 بذلك إلى روح اليقين ، حتى صارت مظان ثوابه ومواقع مرضاته تعالى ،
 مما تنشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم ، عالمين أنهم لا يبلغون درجة
 الكمال ، وينتفى عنهم الحرج والمشقة ، ويصلون إلى محل الأمن ، إلا إذا
 تخلل ذلك جميع أجزائهم ، ورسخ في كل ذراتهم ، فيميلون إليه ميلاً
 طبيعياً يتقاضى منهم المسارعة إليه والعكوف عليه ، إذ هو محل الأنس
 وحضرة القدس ، مجتلين في تلك الحضرات من عرائس الجمال

(١) سورة.ونس ، الآية ٢٤

(٢) سورة طه ، الآية ١٣١

(٣) سورة لأعراف ، الآية ١٨٢ وسورة القلم ، الآية ٤٤

(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٥٦

الإلهي ما يفوق كل نعيم ، ويحتقر معه كل لذة سواه ، حتى قال قائلهم : « نبتن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » .

فكادوا يييمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ، ويذوبون عندما يوغلون في سرادقات ذلك الجلال ، مدهوشين مما يذوقونه في تلك الحضرات من مناجاة وإلهامات ، وملاطفات وأنوار وأسرار ، فكانوا من قديم (يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(١) يتيهون على ملوك الدنيا استغناءً وعزة ، على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء ، ولكن أبي لهم مقامهم الذي يعرفونه من أنفسهم ، وعزتهم التي يحسون بها من أعماق قلوبهم ، أن يتواضعوا لأهل العظمة ، والكبرياء ، وقد قال تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) إلى آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه .

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة ، وتخلصوا من كل رذيلة ، وأدركوا من شريف الأحوال ، ورفيع المقامات ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكانوا بذلك ورثة الرسل ، وقادة الأمم ، ودواء العلل ، وكواكب الظلمات ، وسرج المشكلات ، هم تنحل الغند وتنفرج الكرب « وراثه نبوية وخلافة إلهية » ولذلك كانوا مرجع الأمراء والكبراء ، حتى قال القائل قديماً :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

(١) سورة مائدة ، الآية ٥٤

(٢) سورة منافقون ، الآية ٨

وقد قالوا : إن الأمة تفسد بفساد الأمراء ، والأمراء يفسدون بفساد العلماء . فانظر أين أنت من تلك المقامات ، وإلى أى حد وصلت من البعد عن تلك الصفات ؟ أيها المتبجح بعلمك ، المترفع على بنى الله نوعك ، الغافل عن كون الإنسان لا يزال متعلماً طالباً من العلم ما يكون وراء ما علم ، وكلما ازداد منه رياً ازداد عطشاً ، وكلما زاد فضله ، بان له جهله ، وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ^(١)) وقال : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ^(٢)) وقال : (وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ^(٣)) .

وإن العالم حقاً ليستحي من الله أن يتبجح بعلمه ، وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل ، والنقص والغفلة والنسيان ، ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الأمواج ، وهو بساحله يرجو أن يتطاير عليه من بحره رشاش ينقع به مزيد غلته ، ويشفي به بعض علته ، وإن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء .

أنظر إلى ذلك كله ثم قل لى بعميشك ، هل أحببت النبي - صلى الله عليه وسلم - حباً وجدانياً يزيد على محبتك للناس أجمعين ؟ وهل صار هواك تبعاً لما جاء به ؟ بل هل سعيت إلى ذلك سعيه يوماً من الأيام ، وآلمك من أجله ضميرك ، وعاتبك عليه نفسك ؟ أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حباً يهون عليك قضاءه ، ويخفف عنك

(١) سورة طه ، الآية ١١٤

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

بلاءه؟ أم هل صدقت في بيع نفسك لله - تعالى - وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلا عن العلماء منهم ، فخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله ، فلم تتكالب على أمورك الشخصية ، ولم تنهالك على شهواتك النفسية ، ولم تذلل لأهل الدنيا ذل العبيد ، ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لثام الطباع ؟ وهل ذقت لعزة المؤمنين طعماً أو عرفت لها معنى ؟ .

وهل أنت ممن قال الله فيهم : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(١) ؟
أو ممن قال فيهم : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(٢) ؟
وهل أنت ممن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؟ وهل أنت ممن يقول لأخيه عندما يقابله : اجلس بنا ساعة نوؤمن ، كما كان يقول ذلك أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بعضهم لبعض ؟ وهل أنت ممن (إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَّبُكْيًا)^(٣) ؟ وهل وهل . . . إلخ ؟ .
أم أنت ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، وقد أحاط به الشره ، واستعبده حب الدنيا ، فليس يهمله إلا شيء يعود عليه ، ودرهم يعسل إليه ، فمئاته عزة العلماء ، وثروة الأغنياء ، فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء ؟ !

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٥٨ .

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ لَهُ : مَا لَكَ وَقَدْ كُنْتَ تَأْمُرُنَا وَتَنْهَانَا ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَأَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » . كما يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْذِرُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَمِ) (١) .

وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه : « قل لعلماء السوء أَلَسْتُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبِكُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ ، فِي يَسْتَهْزِئُونَ بِإِيَّايَ يَخَادِعُونَ فَوْعَزَقِي وَجَلَالِي لِأَتِيحَنَ لَهُمْ مِنَ الْفِتْنَةِ مَا يَدْعُ الْحَلِيمَ حِيرَانَ ! »

وفي الأثر « لَا تُجَالِسُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا مَنْ يَأْخُذُ بِكُمْ عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ ، وَعَنِ الْكِبَرِ إِلَى التَّوَاضُعِ ، وَعَنِ التَّبَاغُضِ إِلَى التَّحَابُّبِ » ولا قدر للدنيا حتى تببيع بها السعادة الأبدية ، وقد قال بعض الملوك عندما حضرته الوفاة : « كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي مَلَكَتُ كُلَّ شَيْءٍ فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ لَا شَيْءَ » . وقال بعض الحكماء : « أَعْظَمُ النَّاسِ نَدَامَةً صَانِعُ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ ، وَعَالِمُ فَرْطٍ فَوْعَلْمِهِ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ حَتَّى حَضَرَهُ الْمَوْتُ » .

وقد سئمت لك ذلك عسى أن يحرك مني ومنك شوقاً إلى العمل بالعلم وندما على ذلك العمر العزيز ، وخوفاً من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤

القيامة بقوله : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)^(١) ورجاء أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم
من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا :

نُجِبُ ^(٢) الأيام بنا تثب	ما أسرع ما تصل النجب
والشمس تطير بأجنحة	والليل تطايره الشهب
والدهر يجسد بفعل الج	سد فليس يليق بك اللعب
ما القصد سواك فخل هوا	ك وكن رجلاً فلك الطلب
سل دهرك أين قرون الأرو	ض يعجبك بانهمو ذهبوا
ساروا عننا سيرا عجلا	فكأن مسيرهم الخيب
ما أفصحهم ولقد صمتوا	ما أبعدهم ولقد قربوا
يا لاعب جد بفعل الجد	فليس الأمر به لعب
واحد دنياك وزخرفها	فجميع مناصبها نصب
فكأنك والأيام وقد	فتحت بابا فيه النوب
وبقيت غريب الدار فلا	رسل تأتيك ولا كتب
وسلاك الأهل ومل الصح	ب كأنهم لك ما صحبوا
فإذا نقر الناقد جثو	ت ويومئذ يوم عجب
فيصيخ السمع ويدجثو الجم	ع ويجرى الدمع وينسكب
وجميع الناس قد اجتمعوا	ثم افترقوا ولهم رتب
ذا مرتفع ذا منخفض	ذا منجزم ذا منتصب
فهناك المكسب والخمرا	ن وثم الراحة والتعب

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٤

(٢) جمع نجيب وهو الكريم من الأبل .

أين مقر الأرواح بعد الموت^(١)

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

كنت أطالع بعض موضوعات في « كتاب فتح العلام - الجزء الثاني ،
فرأيت فصلاً معقوداً للبحث في روح الميت بعد القضاء الحياة وهو
كما يأتي :

« رأى جمهور المتكلمين أن الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن
اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو باق لا يفنى ، قال الشيخ البجيرمي :
إن الأرواح خمسة أقسام : أرواح الأنبياء ، أرواح الشهداء ، أرواح
الطيبين ، أرواح العصاة من المؤمنين ، أرواح الكفار .

أما أرواح الأنبياء فتخرج من أجسادها وتصير على صورة المسك
والكافور^(٢) وتكون في الجنة تأكل وتنعم ، وتأوى بالليل إلى قناديل
معلقة تحت العرش . أما أرواح الشهداء إذا خرجت من أجسادها فإن
الله يجعلها في أجواف طيور خضر تدور بها في أنهار الجنة ، وتأكل
من ثمارها ، وتشرب من مائها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل
العرش . هكذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما أرواح .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الرابع المجلد الثالث - ربيع الآخر ١٣٥١

(٢) الرواية المعروفة : أطيب من ريح المسك . واستمعها عن أبي موسى الأشعري
في أرواح المؤمنين .

المطيعين من المؤمنين فهي في رياض الجنة لا تأكل ولا تنعم لكن تنظر في الجنة فقط . أما أرواح العصاة من المؤمنين فبين السماء والأرض في الهواء . وأما أرواح الكفار فهي في أجواف طير سود في سجين ، ومجبن تحت الأرض السابعة ، وهي متعلقة بأجسادها ، فتعذب أرواحها فيتألم بذلك الجسد ، كالشمس في السماء الرابعة ونورها في الأرض ، كما أن أرواح المؤمنين في عليين متنعمة ونورها متصل بالجسد .

ثم قال : إن المحقق القسطلاني نقل عن الحافظ ابن كثير ما يفيد تمتع أرواح المؤمنين وإن لم يكونوا شهداء بالأكل والتلذذ ورؤية منازلهم في الجنة لا بالنظر فقط . انتهى ما رأيته في فتح العلام فيما يتعلق بروح الميت :

أرجو بيان ما هو الصحيح من هذه الأقوال ، وهل ورد نص في الشريعة المحمدية عن صحة هذه الأقوال كلها أم عن بعضها دون بعض ؟ .

عطية الشواذ في هلال

بمعهد الزقازيق

الجواب

مقدمة :

ليس يهمننا الكلام في حقيقة الروح ما هي ، ويكفيينا أن نعرفها بآثارها وخصائصها ، وأنها ليست من جنس هذا العالم المنظور

(وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) ^(١) وليعلم قبل كل شيء أنه قد صح فيما لا يحصى من الأحاديث والآثار أن الأرواح جواهر حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر ، وانها عارفة مميزة مدركة عالمة ، إلى غير ذلك مما جاء في السنة الصحيحة .

ولتعلم أيضاً أن الإنسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس . ثم ينتزع منه ما قدر له من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده . ثم هو بعد ذلك تارة يصيب فيما ينتزع ويستنبط وتارة يخطيء فيما يحبس ويتخيل ، بل نستطيع أن نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التي يقع عليها الحس ويدركها اللمس لا يصل إليها الإنسان تماماً وإن كان يظن ذلك جهلاً وتبجحاً . فالعلم بكنه الأشياء على ما هي عليه من كل وجه مخدس بالله تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) ^(٢) وقد خلقت على حد محدود في عقلك ، كما خلقت على حد محدود في سمعك وبصرك .

ثم هنا شيء آخر يجب التنبيه له خصوصاً في هذا المقام ، وهو أن العوالم كثيرة . ولكل عالم منها أحكام تخصه ، ولا يصح أن يقاس بعضها على بعض . فمن الغلط البين أن تحكم بأحكام عالم الإنس على عالم الجن . وبأحكام عالم الجن على عالم الملائكة . وبأحكام عالم الأجسام على عالم الأرواح . أو تحكم بشيء من أحوال هذه العوالم كلها على إله العالم الذي ليس كمثل شيء ، بل في عوالم الحس

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥

ما يرشدك إلى هذا ، فللسوائل أحكام تغاير أحكام الجوامد ، وللغازات أحكام تغاير أحكام السوائل .

وقد عرف الآن من ظواهر الكهرباء والراديو ما لا تكاد تصدق به إلا بالمشاهدة . بل بين أنواع الحيوان - وهو جنس واحد - ما تختلف خصائصه وتتباين أحكامه . وكم من فرق بين الحيوانات المائية وغيرها ، أو نقول بين الحيوانات الدنيا والعليا ، وكلها مخلوقة من تراب ، وقد خلق الله الإنسان من سلالة من طين ، وسلط عليه الروح ، فكان له من الأحكام ما تعرف . ثم خلق الجن من مارج من نار ، فكان لها بمقتضى ذلك ما تقضى منه العجب ، فليس يحجبها ستار ، ولا يمنعها جدار ، فلو فرضنا أن الله عز وجل - وهو على كل شيء قدير - خلق مخلوقاً من الكهرباء وسلط عليه الحياة ومتعته بالشعور والإرادة والاختيار ، فماذا يكون حاله وإلى أي حد تنتهي عجائبه ؟

إذا عرفت هذا فأمّر الأرواح والملائكة أعجب من ذلك كله : لأن هذه الأشياء كلها خلقت من تلك العناصر المادية الأرضية التي تعرفها ، فما بالك بما جاوز تلك الظواهر ، حتى قال فيه الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالي والراغب والحلي : إنها جواهر مجردة عن المادة وعلائقها « والله يخلق ما يشاء كما يشاء » فلها من الأحكام والشئون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (١)

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ومن ظن أن أحكام الوجود كلها منحصرة في تلك النواميس الطبيعية التي عرفها فتمد جهل عظمة الله الذي لا نهاية لمقدوراته ، وجهل قدر العلم الذي لا آخر له ، وجهل قدر الإنسان الذي قال الله فيه : إنه خلق ضعيفا ، وكان ظلوما جهولا . ولنقتصر من المقدمة على هذا .

بعد المقدمة :

أما ما قاله الشيخ البجيرى فهو منقول من بحر الكلام للسنى على تغيير فيه ، ولا حاجة للإطالة في ذلك . وفي المسألة أقوال كثيرة للعلماء من السلف والخلف ، وفيها سنن ماثورة وأحاديث شهورة . وسنتلو عليك شيئا من ذلك ثم نعرفك جلية الحق ووجه الجمع بين تلك الآراء المتعارضة ، فنقول :

يرى كثير من العلماء : أن أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء أو غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين ، وهو مروى عن أبي هريرة وابن عمر . وقريب منه قول الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله : أرواح الكفار في النار ، وأرواح المؤمنين في الجنة لقوله تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَسَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ)^(١) ذكره تعالى بعد ذكر خروجها من البدن ، وقسمها ثلاثة أقسام : مقربين : في الجنة ، وأصحاب اليمين : سالمين من العذاب ، ومكذبين : لهم نزل من حميم ، وتصلية جحيم .

كما قسمها يوم البعث الأكبر يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام في أول سورة « الواقعة » في قوله : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ

(١) سورة الواقعة ، الآية ٨٩

الْمِيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ .
أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ^(١) ولما في الموطأ والنسائي عن ابن شهاب
عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً : « إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ
طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وأخرج عبد الله بن منده عن أم كبشة بنت المعرور قالت : دخل
علينا النبي - صلى الله عليه وسلم - فسألنا عن هذه الروح فوصفها
حتى أبكى أهل الميت فقال : « إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ
خَضِرٍ تَرَعَى فِي الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَشْرَبُ مِنْ مِيَاهِهَا وَتَأْوِي
إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ تَحْتَ الْعَرْشِ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَلْحَقْ بِنَا إِخْوَانَنَا
وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا ، وَإِنَّ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ سَوْدٍ تَأْكُلُ مِنَ
النَّارِ وَتَشْرَبُ مِنَ الذَّارِ وَتَأْوِي إِلَى جُحْرِ فِي الذَّارِ » .

وقيل : إن الذي في الجنة الشهداء لقوله تعالى : (وَلَا تَحْسِبِ
الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ^(٢)
وروى عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « الشُّهَدَاءُ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ فِي
الْجَنَّةِ ثُمَّ يَكُونُ مَاوَاهِمُ إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ » .

وفي صحيح مسلم - واللفظ له - وجامع الترمذي وغيرهما عن
مسروق قال : سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية (وَلَا تَحْسِبِ
الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فقال :

(١) سورة الواقعة ، الآيات ٨ - ١٢

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :
« أرواحهم في أجواف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح
من الجنة في أيها شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل » .

وأخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن كعب بن مالك أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أرواح الشهداء في طير
خضر تعلق^(١) من ثمر الجنة - أو شجر الجنة » لفظ الترمذى ،
وقال حسن صحيح . ولأحمد وأبي داود والحاكم - وقال صحيح
الإسناد - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : « لما أُصيب إخوانكم - يعنى يوم أُحد - جعل
الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها
وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » الحديث . وفي
بعض الآثار : « في صور طير » وفي بعضها « في أجواف طير » وفي
بعضها « كطير خضر » .

وحديث كعب « نسمة المؤمن طائر » وقيل : هم بفناء الجنة
على بابها يأتهم من نعيمها ورزقها ، قاله مجاهد . وقد يحتج له بما
في المسند عن ابن عباس مرفوعا : « الشهداء على بارق نهر بباب
الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم بكرة وعشيّة من الجنة » .

وقالت طائفة من الصحابة والتابعين : أرواح المؤمنين عند الله .
ولم يزيدوا على ذلك . وقريب منه قول حذيفة بن اليمان : « الأرواح

(١) تعلق : أى تناول : وهو بضم اللام ، كما فى المختار

موقوفة عند الرحمن عز وجل تنتظر موعتها حتى ينفخ في الصور « وهذا .
تأدب منهم مع لفظ القرآن حيث يقول : (أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .
وعن أبي موسى الأشعري قال : « تَخْرُجُ رُوحُ الْمُؤْمِنِ أَطِيبَ مِنْ
رِيحِ الْمِسْكِ فَتَنْطَلِقُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَتَوَقَّوْنَهُ فَتَتَلَقَّاهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ
دُونِ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ : هَذَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ كَانَ يَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا
لِمَحَاسِنِ عَمَلِهِ فَيَقُولُونَ : مَرْحَبًا بِكُمْ وَبِهِ . فَيَقْبِضُونَهَا مِنْهُمْ فَيَضَعُونَهَا
بِهِ مِنْ أَلْبَابِ الَّذِي كَانَ يَضَعُ عَمَلُهُ مِنْهُ فَتَشْرُقُ فِي السَّمَاءِ وَلَهَا بُرْهَانٌ
كَبِيرُهُانِ الشَّمْسُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَرْشِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِذَا قُبِضَ انْطَلَقَ
بِرُوحِهِ فَيَقُولُونَ : مَا هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ كَانَ يَعْمَلُ كَذَا
وَكَذَا . لِمَسَاوِيءِ عَمَلِهِ فَيَقُولُونَ : لَا مَرْحَبًا لَا مَرْحَبًا رُدُّوهُ فَيُرَدُّ إِلَى
أَسْفَلِ الْأَرْضِينَ » .

وقال الإمام مالك : بلغني أن الروح مرسلة في برزخ من الأرض
تذهب حيث شاءت . وهو قول سلمان الفارسي - رضي الله عنه -
وقال ابن حزم : إنها عند منقطع العناصر : الماء والهواء والتراب
والنار ، تحت السماء ، ثم قال : ولا يدل ذلك على تعادلهم . بل
هو لاء من المؤمنين عن يمين آدم في العلو والسمعة ، وهو لاء من الكفار عن
يساره في السفلى والسجن ، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة .
وقيل : هي على أفنية قبورها . وقد ذهب إليه ابن عبد البر
وقال : هو أصح ما ذهب إليه العلماء ، ألا ترى أن الأحاديث الدالة على
ذلك ثابتة متواترة كأحاديث السلام على القبور ؟ يريد بالأحاديث
المتواترة مثل : حديث ابن عمر في عرض المقعد على الميت . وحديث
البراء بن عازب الذي فيه « هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم

القيامة » وحديث أنس بن مالك الذى فيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن فى قبره سبعون ذراعاً ويضيق على الكافر . وحديث جابر أن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان . الحديث ، وفيه أنه يرى مقعده من الجنة فيقول : دعونى أبشر أهلى . فيقال له اسكن فهذا مقعدك أبداً . وكذا سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه . ومراده بأحاديث السلام — وهى صحيحة — أن فيها خطاب المسلم لأهل القبور خطاب العاقل الحاضر .
تحقيق فى المسألة وجمع بين الآراء :

قال ابن القيم : وهذا القول يعنى قول ابن عبد البر — إن الأرواح
به أن كونها على القبور لازم بحيث لا تفارقها ، فهذا خطأ يرد
الكتاب المحكم والسنة الصحيحة ، وعرض المقعد لا يدل على أن
الروح فى القبر ولا على فنائه ، بل على أن لها اتصالاً به يصح أن
يعرض عليها مقعدها ، فإن للروح شأناً آخر ، فتكون فى
الرفيق الأعلى وهى متصلة بالبدن ، بحيث إذا سلم المسلم على
صاحبها رد عليه السلام وهى فى مكانها ، وقد رأى النبى — صلى الله
عليه وسلم — موسى — عليه السلام — ليلة الإسراء قائماً يصلى فى قبره
ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فإما أن تكون سريعة
الحركة والانتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها
بالقبر بمنزلة شعاع الشمس يكون فى الأرض وجرمها
فى السماء . وهذا قول ابن عبد البر بعينه ، فإنه قال : أرواح الشهداء
فى الجنة ، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورها . والمعنى أنها قد
تكون على أفنية قبورها ، لا أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور .

وقد قال مالك : بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت . وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله تحت العرش ثم ترد إلى جسده في أيسر زمان . وللروح المطلقة من أسر البدن وعوائقه من التصرف والقوة ما ليس للمحبوسة في علائقه وعوائقه .

فلا يحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصحة وعلى غيره بالبطلان ، بل الصحيح أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ، ولا تعارض بين الأدلة ، فإن كلاً منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم في السعادة أو الشقاوة :

فمنها أرواح في أعلى عليين في الملاء الأعلى ، وهم الأنبياء . وهم متفاوتون في منازلهم أيضاً ، كما رآهم النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة الإسراء^٣ ، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره ، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يارسول الله مالي إن قُتِلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة فلماً ولئى قال : « إلا الدين ، سارنى به جبريل أنفا » . ومنهم من يكون على باب الجنة كما في حديث ابن عباس : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة » ومنهم من يكون محبوساً في الأرض لم تعلق روحه إلى الملاء الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لاتجتمع الأنفس السماوية ، كما أنها لا تجتمعها في الدنيا .

فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها « فالمرء مع من أحب هنا وهناك » ومنها أرواح تكون في تنور كأرواح الزناة ، وأرواح في نهر الدم كأكلة الربا ، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها في قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له .

وإذا أمعنت النظر في السنن والآثار عرفت حجج ذلك وأنه لا تعارض بينها، لكن انشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها ، وأن لها شأنًا غير شأن البدن ، وأنها مع كونها في الجنة هي في السماء ، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهي أسرع شيء انتقالا . وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة ، وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة وألم ، وما أشبه حالها في هذا بحال الجنين في بطن أمه ، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

وللنفس أربع دور ، كل دار أعظم من التي قبلها . الأولى : بطن الأم ، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث . الثانية : هذه الدار التي نشأت فيها وألقتها واكتسبت فيها الخير والشر . والثالثة : دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم . ونسبة هذه الدار إليها كنسبة الدار الأولى وهي بطن الأم إلى هذه التي نحن فيها . الرابعة : الدار التي لا دار بعدها ، دار القرار : الجنة أو النار .

والله تعالى ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ، وهي التي خلقت لها وهيئت لنعمل الموصل إليها . ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى .

وقال ابن القيم في موضع آخر : إن الأرواح المنعمة مطلقة لا حجر عليها ، فأرواح الأنبياء في الجنة وفي عليين ، ولكن ذلك لا يمنعها أن تكون في السماء الأولى أو الثانية . كما في حديث المعراج ، وأنها حرة مطلقة تكون عند قبرها وتذهب حيث شاءت ، فالآثار في ذلك كله صحيحة وحق لا مرية فيه .

وقال الحكيم الترمذى : الأرواح تجول في البرزخ فتبصر أحوال الدنيا وأحوال الملائكة ، تتحدث في السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح طيارة إلى الجنان إلى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعي إلى الله تعالى أيام الحياة .

وذكر البيهقي في كتاب عذاب القبر أنه لما توفي إبراهيم بن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ لَهُ مَرْضِعاً فِي الْجَنَّةِ » وهو في الصحيح ، ثم قال : فحكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ابنه إبراهيم بأنه يرضع في الجنة وهو مدفون بالبقيع في مقبرة المدينة .

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه ابن أبي الدنيا من مرسل سليم ابن عامر الجبائي مرفوعاً : « إِنَّ مَثَلِ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنِينِ

فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا بِكَيْ عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إِذَا رَأَى
الضُّوَاءَ وَرَضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَكَذَا الْمُؤْمِنُ يَجْزَعُ
مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا أَفْضَى إِلَى رَبِّهِ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا
لَا يُحِبُّ الْجَنِينُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ .

ويكون هذا وإن كان قليلا من كثير :

حَدِيثٌ^(١) «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»

جاءنا هذا السؤال من صاحب التوقيع :

سيدى الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوى :
السلام عليكم ورحمة الله ، لم يسبق لى شرف التعرف بكم ،
ولكن سبق لى كثيراً الانتفاع بآثاركم وبقلمكم فى كل ما هو دينى
 واجتماعى . لذلك أتقدم إليكم الآن راجياً الانتفاع بكم وبعلمكم الغزير
 واطلاعتكم الشامل فى ذلك الموضوع الذى يهمنى كثيراً ، وكذلك كل
 من يعنى من أساتذة علم النفس بمعرفة إحساسات الطفل . وأملى
 كبير أن أجد روح الدين الإسلامى فى الخلق وفى طبيعة البشر حينما
 أهتدى بواسطة جوابكم الشافى إلى أن الاستعداد الموجود فى الطفل يتفق
 كلياً أو جزئياً مع تعاليم الإسلام الحنيف . لذلك أرجو التكرم ببيان
 هذا الحديث « كَلُّ ابْنِ آدَمَ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ
 يُنَصْرَانِهِ أَوْ يُمَجْسَانِهِ » من غير أن يذكر الحديث « أو يسلمانه » .
 فمنطوق الحديث يفيد أن الإسلام أصل وطبيعة ، وأن ما عداه طارىء
 فمواجه ذلك وما سره ؟ أرجوا أن تبينوا ذلك بياناً شافياً ، يتفق وما
 نعرفه من علم النفس مما تهدى إليه التجربة وترشد له المشاهدة .

ثانيا : ما المراد بالفطرة هنا : هل الفطرة هي الإسلام أم هي الاستعداد لقبوله ؟

ثالثا : أمجرد أن الإنسان إنسان أو ابن آدم كافى أن يعرف الإسلام بحيث لو نشأ في شاهر جبل - كاصطلاح الفقهاء - أو بعيداً عن كل تعليم ، أمكنه أن يتوصل إلى دين وإلى دين هو الإسلام بنوع خاص ؟ أو أنه لابد من التعليم والتهديب ، وإذا يكون الدين أو الخلق من تأثير الوسط وتأثير الجماعة ؟ .

أرجو أن تفيض في الموضوع بما يشقى الغليل ، حتى يلتقى البحث العملى بالبحث الدينى ، ويصدق الأول الثانى ويهدى الثانى الأول .
وإني منتظر جواب فضيلتكم .

ابراهيم سلامة
مفتش بالمعارف
وعضو بعثتها بفرنسا

الجواب

مقدمة :

إن هناك أموراً بدھية لا يختلف فيها الصغير والكبير : فهى عند الطفل كما هى عند الرجل ، وإن ما جاء به الإسلام من وجود الصانع ووحدته وعدم مماثلته لخلقه هو من وادى هذه البدھيات التى توجد فى كل فطرة إنسانية ، وليس المراد تفاصيل الشريعة ، بل المراد الأصل الأصيل الذى يتحقق به الإسلام . ولنبين هذا الإجمال فنقول :

إن الطفل لديه علوم ضرورية غرسها الله فى فطرته لحكمة كبرى .

ولذا ذكر لذلك أمثلة :

١- فمن ذلك أنه يدرك بالفطرة أن الجزء أقل من الكل ، ولذلك إذا أعطيته نصف تفاحة مثلاً فبكي فأعطيته النصف الثاني سكت ورضى ، وما ذلك إلا لكونه يعلم علماً فطرياً أن الجزء أقل من الكل ، وأن الكل أعظم من الجزء ، وإن لم يتنبه لذلك تنبهاً فكرياً ، ولا يمكنه الإفصاح عنه . فإن البدهيات مركوزة في الفطرة فلا تحتاج إلى عمل من العقل ولا حركة من الفكر ، فلذلك تصدر منه هذه الأشياء في حين أنه لا يعرف تحديدها .

٢- ومن ذلك علمه بأن النقيضين لا يجتمعان ، ولذلك نراه يبكي إذا رأى حيواناً أو طفلاً دخل البيت لا يحب وجوده فيه ، فإذا أخرجت الحيوان أو الطفل سكت واطمأن ، وما ذلك إلا لكونه يعلم علماً فطرياً أن الحيوان أو الطفل لا يكون داخل البيت وخارجه في وقت واحد ، فالعلم إذاً بأن النقيضين لا يجتمعان ، أو نقول بعبارة أخرى : إن الشيء لا يوجد في مكانين في آن واحد ، هو علم بدهي مركوز في فطرة الطفل غير محتاج إلى نظر وفكر .

٣- ومن ذلك إذا أمرته مداعباً أن يأتي بشيء من نافذة مثلاً وهو قصير لا يصل إليه ، قال لك بلسان حاله أو مقاله : إنه لا يدركه ، أو طلب منك شيئاً يطول به ككرسي مثلاً ، وذلك مبني على إدراك فطري هو الفرق بين الطويل والقصير .

٤- ومن ذلك أنك إذا قلت له : هات كذا ، ذهب مسرعاً إليه ، فكأنه يعلم أن المسافات المحدودة ذات النهاية تقطع بالعدو ، وأن الذي لا يقطع إنما هو غير المنتهى .

٥- ومن ذلك تفرقة بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، فإنك إذا أخبرته بشيء تريد أن تخدعه ، فتراه لا ينخدع ولا يسارع إلى التصديق ، فإذا أخبره شخص آخر بذلك وتضافرت لديه القرائن على صدق الخبر ، قبل وصدق وما ذاك إلا لتفرقة بين الصدق والكذب ، والحق والباطل ، فهو يسكن إلى الحق دون الباطل ، وإلى الصدق دون الكذب .

٦- ومن ذلك علمه أن الحوادث لا تكون إلا في زمان ، فإذا أخبرته بشيء قال لك : متى كان هذا ؟ وإن قلت له : لم قلت هذا ؟ قال لك : متى قلته ؟ علماً منه بأن الحوادث لا بد لها من وقت تقع فيه .

٧- ومن ذلك أنه يعرف أن للأشياء طبائع وحقائق تقف عندها ولا تتجاوزها، إثاراً لا يعرفه قال : أي شيء هذا ؟ فإذا عرفته به سكن واطمأن وفرح بذلك .

٨- ومن ذلك علمه بأنه لا يكون فعل بلا فاعل ، فإنه إذا رأى شيئاً مع طفل آخر قال له : من أعطاك هذا . وإذا ضربه شخص من وراءه التفت : فهماً منه أن الفعل لا يكون بغير فاعل ، وأن الأثر لا يوجد بدون مؤثر .

٩- ومنها إدراكه أن هناك أشياء قبيحة وأشياء حسنة ، وأن ما يعود على النفس بالثناء والمدح ينبغي فعله ، وما يعود عليها بالنقص والذم ينبغي تركه ، ولذلك تشجع الأطفال وتثار فيهم رغبة فعل الحسن بمدحهم والثناء عليهم ، وينفرون من فعل القبيح بدم من ينعله وتهجينه عندهم .

فهذا كله ونظائره مشاهد في الأطفال من أول نشأتهم . وهذه الأشياء الفطرية كلها صحيحة مركوزة في أفراد النوع الإنساني صغيرهم وكبيرهم ، ولا يشك أحد في شيء منها ، إلا من أصيب عقله بآفة غيرت فطرته . وقد قال بعض الحكماء : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان وفساد الإنسانية إنما هو بفساد هذه الفطرة .

والمقصود

إذا تمهد هذا فاعلم أن الاعتراف بالصانع وتوحيده هو من تلك الأمور الفطرية فإنه راجع إلى أن الأثر لا يوجد بدون مؤثر ، وأن الفعل لا يحدث بدون فاعل ، وهو مركوز في نفس الطفل كما بينا . فالإسلام يقول للناس : آمنوا بأن لكم إلهاً واحداً عظيماً ، ويستدل على ذلك بهذا الدليل الفطري ، فيقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)^(١) فهذا أنت ذا ترى هذا الدليل فطرياً يعرفه كل أحد . فإن وجود الأثر بدون مؤثر محال في إدراك الفطر الإنسانية ، حتى عند الطفل كما شرحنا ، « وكذلك يستحيل عندها وجود النظام بدون

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

منظم « كما أن إيجاد الإنسان نفسه مجال في الفطرة ، فإن الصانع لا بد أن يكون متقدماً على صنعته ، ولا يصح في بداهة القول أن يتقدم على نفسه .

ثم نقول : إن من تلك العلوم الفطرية أيضاً أن المثليين لا بد أن يثبت لأحدهما ما ثبت للآخر ، وإلا لم يكونا مثليين .

وبذلك العلم الفطري نقول :

إن الله تعالى مخالف لنا ، لأنه لو مائلنا لكان حادثاً مثلنا . وعاجزاً مثلنا ، ومتغيراً مثلنا ، وفانياً مثلنا ، إلى آخر ضروب المماثلات ، وهو دليل واضح لا يحتاج إلى كبير تأمل ، لأنه راجع إلى ما هو مركز في النظر من أن ما ثبت لأحد المثليين ثابت الآخر . فهذا هو ما جاء به الإسلام في أبسط تعاليمه وأول أصوله . وقد علمت أن الفطرة تشهد له وتنتطق به ، إلا أن تصاب بأفة تغيرها عن خلقها فتتحرف بها عن الجادة ، وتميل بها إلى منحرجات الطريق وملتويات الشعاب وسحيقات الأودية .

ولتلاحظ أن الفطرة الإنسانية في غاية الصفاء واللطافة . فلاجل لطافتها المتنادية واستعدادها الواسع وقابليتها غير المحدودة بمقتضى إنسانيتها وما أراد الله بها ، لأجل ذلك تراها قابلة للخير والشر . والنفع والضر ، والكمال والنقصان ، والكفر والإيمان ، والجهل والعلم . والضلال والهدى . إلى آخر المتضادات والمتقابلات .

وبهذا صار الإنسان قابلاً لأن يكون أرفع المخلوقات على الإطلاق وأحطها على الإطلاق . وقلما يوجد في باقي الحيوانات إلا استعداد

محدود ، فلا تراه مبرزاً إلا في شيء واحد بخلاف الإنسان . فإذا اشتاقت نفسك أن ترى مخلوقاً يمثل الأسود في سطوتها ، والأرانب في ضعفها ، والعقارب في أذيتها ، والخنازير في دنسها ، والدب في شهوتها ، فذاك هو الإنسان .

فإذا نظرنا إلى الإسلام وجدناه جاء بتلك الأصول التي تشهد لها الفطر قبل فسادها ، والبصيرة قبل انطماسها بسبب وجود الإنسان في تلك البيئات الفاسدة . وهاتيك الأجواء الموبوءة .

فإذا وجد الإنسان بين أبوين غير مسلمين ، انحرفا به عن الجادة ، وأخرجاه عن حدود الفطرة ، وأبعدها عن حرمها المقدس ، ووضعها الإلهي ، فنقشنا في نفسه أن الله يماثل خلقه : فله زوجة أو أم تسمى مريم . وله ولد يسمى المسيح كما تقول النصارى ، أو عزيزاً كما تقول اليهود ، وأنه يحل في البشر كبقية الأشياء المادية التي يجوز عليها الحلول والاتصال والانفصال ، فهو إذاً كغيره لا محالة ، فإن ما ثبت لأحد المثليين يثبت للآخر « ولذلك أثبتوا له القتل والصلب والتحجير والتسمير ، وكل أنواع الإهانة ، على نحو ما يذكره النصارى » وأن اليهود فعلوا ذلك مع إلههم (إله الكل ، ضابط الكل : خالق الكل . إلى غير ذلك) !

فانظر — رعاك الله — هل ترى الفطرة السليمة تسلم هذا في رب العالمين . وإله الأولين والآخرين ، الذي يجب أن لا يماثله أحد من مخلوقاته . كيف ولو ما ثلها لكان حادثاً مثلها (سبحان ربك رب

لِعِزَّةِ عَمَّا يَصْنَعُونَ (١) ولكن الإسلام يقول في وصفه تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (٢) . (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (٣) ويقول نبيه - صلى الله عليه وسلم - : « لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقل لى بعيشك أى دين من الأديان الثلاثة جاء بما تقتضيه الفطرة قبل أن يفسدها الأبوان وتقتضى عليها (الأوساط) الميوؤة ؟ أدو الإسلام ، أم اليهودية والنصرانية !

هذا والحديث مروى في صحيح البخارى في مواضع متعددة ، ولفظه من رواية أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجِجُ الْبَيْهِيمَةُ بِبَيْهِيمَةٍ جَمْعَاءُ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءُ » ؟ ثم يقول أبو هريرة : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (٤) و « جمعاء » فى الحديث : معناها تامة الخلق . و « جدعاء » معناها مقطوعة الأذن والأنف . والحديث انتهى عند كلمة « من جدعاء » أما ذكر أبى هريرة للآية فهو استشهاد لما فى الحديث .

والفطرة فى الحديث وفى الآية المستشهد بها معناها : قبولهم للحق واستعدادهم للدين الصحيح متمكنين من إدراكه على وجهه .

(١) سورة الصافات : آية ١٨٠ .

(٢) سورة الشورى : آية ١١

(٣) سورة الإخلاص

(٤) سورة الروم آية : ٣٠

أو هو الإسلام ، فإنهم لو تركوا وما خلقوا عليه من سلامة الفطرة
لاختاروا الإسلام على غيره من بين الأديان ، لأن نقاء هذا الدين
وحسنه يتلاقى مع الفطرة السليمة ، ويتلاءم هو وطهارتها ، ولا يعدل
عنه الإنسان إلا بآفة من الآفات البشرية كالتقليد للأبوين ، والتأثير
للبيئة التي يعيش فيها . وتجد هذين المعنيين في تفسير الفطرة
قد ذكرهما كثير من العلماء .

فصاحب الكشف قال في تفسير الآية . (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا)^(١) ما نصه : أَلْزَمُوا فِطْرَةَ اللَّهِ أَوْ عَلَيْكُمْ فِطْرَةَ اللَّهِ ...
أى خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام لكونه على مقتضى العقل
والنظر الصحيح حتى إنهم لو تركوا وطباعهم لما اختاروا عليه ديناً
آخر . ١٠١ .

والقسطلاني شارح البخارى ذكر في معنى الفطرة : أنها الجبلة
السليمة والطبع المتهيبى لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومه ،
لكن تطراً على بعضهم الأديان الفاسدة . ١٠١ .

تجد هذا في شرحه للبخارى في كتاب التفسير من هذا الصحيح
في باب « لا تبديل لخلق الله » . وذكر هذا المعنى في شرحه أيضاً
للبخارى في كتاب الجنائز في باب « إذا أسلم الصبي فمات هل يصل
عليه » وكذلك في كل موضع من البخارى يذكر فيه الحديث تجد
الشرح يذكرون هذا المعنى .

والمعنى الثاني للفطرة هو الإسلام وهو رأى كثير من السلف . وهو ليس ببعيد من الأول . لأنه كنتيجة لازمة له .

وهناك معنى ثالث للفطرة . وهو العهد . أى عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)^(١) المذكور فى سررة الأعراف . وأظنك تعرف أن كثيراً من العلماء قرروا فى معنى هذا لعهد أنه عبارة عن الأدلة التى أقامها الله فى أنفسنا وفى الآفاق . والتى تدلُّ على وجود الله وربوبيَّته . مع ما وضع فىنا من الاستعداد والتمكّن التام لفهمها « إذا لا يمكن الاستدلال إلا مع سلامة الفطرة ونقاها مما يفسد طرق الاستدلال » فهذا المعنى هو والمعنيان السابقان يلتقيان فى نقطة واحدة .

أما كون لحديث لم يذكر « أو يسلمانه » فىمكنك أن تجيب عنه بما قدمناه من أن الإسلام جاء بما هو مركزوز فى الفطر . فهو غنى عن التعليم والتلقين . بخلاف تلك التعاليم المعوجّة التى تنحرف بصاحبها عن الطريق السوى إلى تلك الوسوس والخيالات . ولذلك قال كثير من علمائنا : إن الإنسان مكلف بالتوحيد وإثبات الصانع . ولو لم ترسل الرسل لأن العقل كاف فيه . والفطرة شاهدة به . والآثار دالة عليه .

وقد يقول قائل : إن اليهودية والنصرانية فى نقائها وسلامتها هى الإسلام الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - : من حيث العقائد والأصول العامة ، كما قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وعيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (١) وكما في النداء الذي خاطب به الرسل كل في زمنه وحكاه إجمالاً في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (٢) وفي كثير من آيات القرآن ما يدل على هذا .

والجواب عن ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما يحدث في هذا الحديث عن هذين الدينين بعد أن تقطعت الأمم أمرهم بينهم زيرا ، وبعد أن اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، وبعد أن آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض وبعد أن كتموا الحق وهم يعلمون ، وبعد أن اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وبعد أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبعد أن قالوا في الإله ما شاءت لهم أهواؤهم : من أنه ثالث ثلاثة ، وأن المسيح ابن مريم إله أو ابن إله ، حتى كان رسولنا مأموراً بأن يدعوهم إلى كلمة سواء بيننا وبينهم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

ويؤيد هذا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (أَوْ يَجَسَّسَانِه) فقرن اليهودية والنصرانية مع المجوسية في سلك واحد هو سلك الانحراف والزيغ ، ولو بقيا على طهارتهما الأولى لما ساغ أن يسموى بين هذين الدينين والوثنية : على أنهما قبل التبديل هما الإسلام بعينه في أصوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (٣) .

(١) سورة الشورى ، الآية : ١٣

(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥١-٥٢

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩

وقد سألت عن كون الحديث يفيد أن الإسلام أصل وضيعة وما عداه طارئ ، فيستطاع أن يجاب على هذا السؤال بما قدمنا ، فإن الإسلام لما كان مرادفاً للحق الذي تهيأت له الفطر واستعدت لقبوله ، كان أصلاً وغيره طارئاً . وكذلك كل الأديان في سلامتها الأولى تسمى إسلاماً ، والفطر متهيئة لها قابلة لمبادئها بخلافها على صورها الأخيرة المتبدلة ، فإنها طارئة على الفطر متنافرة معها .

وقد سألت : ماذا يعنى الحديث بالفطرة : هل هى الإسلام أو الاستعداد لقبوله ؟ فاختر ما تشاء منهما فإن المعنيين يتصافحان .

وسألت ثانياً : هل مجرد كون الإنسان إنساناً كاف في أن يعرف الإسلام بحيث لو نشأ في شاطئ جبل أمكنه أن يتوصل إلى دين وإلى دين هو لإسلام بنوع خاص ؟ ولقد لفتناك إلى هذه النقطة أولاً ، وقلنا : إن بعض علمائنا يقررون أن وجود الصانع وتوحيده ، وكذلك كل العقائد العامة ، يكفي فيها العقل ، ولا يخرج من عهدة التكليف مثل لناشئ في شاطئ جبل « وأصحاب هذا الرأي المعتزلة والماتريدية » .

ورأى الأشاعرة أنه لا بد في التكليف بالأصول والعقائد العامة من رسالة رسول يلفتهم إلى هذه العقائد على وجهها الصحيح . وإن كان هذا الرسول غير مرسل إلى الأمة التي منها الشخص الذي يكلف بالعقائد ، فيكفي سماعه برسالة أى رسول ولو غير مرسل إليه وإلى أمته ، وأنت جبير بأنه يوجد في الغالب علم برسالة رسول . وهذا

الرأيان يختلف أصحابهما في فهم قوله تعالى : (وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)^(١) ، فالرأي الأول يقول بكفاية رسالة العقل والفترة ، أو يقول : إن المراد عذاب الاستئصال في الدنيا لا عذاب الآخرة .

والآخرون يفهمون الرسالة والرسول على الاصطلاح المعروف ، وأن الرسول هو المرسل بالوحي . وهذا الخلاف إنما هو بالنظر للعقائد والأصول العامة ، كوجود الصانع ووحدته وعلمه . أما الفروع وما هو ليس من العقائد فلا بد فيها من التعليم والتهذيب بالإرشاد والأسوة الحسنة .

والخلاصة : أن هناك أموراً عامة يكفي في الوصول إليها سلامة الفترة واستعدادها الذي خلقت عليه ، وأن ما عدا هذه الأصول لا بد فيها من تعليم وتهذيب وبيئة صالحة .

وبهذا الفرق يمكنك الجواب عن باقي موالك الثالث : ونسأل
الله تعالى أن يزيدك هدى .

توحيد الألوهية - وتوحيد الربوبية^(١)

جاءتنا رسائل كثيرة يسأل مرسلوها عن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية مامعناهما ، وما الذي يترتب عليهما ، ومن ذا الذي فرق بينهما ، وما هو البرهان على صحة ذلك أو بطلانه ؟ .

فتقول وبالله التوفيق :

إن صاحب هذا الرأي هو ابن تيمية الذي شاد بذكره .

قال : إن الرسل لم يبعثوا إلا لتوحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة ، وأما توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف في أمورهم فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين ، بدليل قوله تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)^(٢) ثم قالوا : إن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء ويتشفعون بهم وينادونهم عند الشدائد هم عابدون لهم . قد كفروا بما كفر به عباد الأوثان والملائكة والمسيح سواءً بسواءٍ . فإنهم لم يكفروا باعتقادهم الربوبية في تلك الأوثان وما معها ، بل بتركهم توحيد الألوهية بعبادتها ، وهذا ينطبق على زوار القبور المتوسلين بالأولياء المنادين لهم ، المستغيثين بهم ، الطالبين منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

(١) مجلة الأزهر الجزء الرابع - المجلد الرابع - ربيع الأول ١٣٥٢

(٢) سورة لقمان ، الآية ٢٥ وسورة الزمر ، الآية ٢٨

« بل قال محمد بن عبد الوهاب : إن كفرهم أشنع من كفر عباد الأوثان ، وإن شئت ذكرت لك عبارته المحزنة الجريئة » .

فهذا ملخص مذهبهم مع الإيضاح ، وفيه عدة دعاوى . فلنعرض لها على سبيل الاختصار ، ولنجعل الكلام في مقامين فنتحاكم إلى العقل ثم نتحاكم إلى النقل ، فنقول :

قولهم : إن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، تقسيم غير معروف لأحد قبل ابن تيمية ، وغير معقول أيضاً كما ستعرفه ، وما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لأحد دخل في الإسلام : إن هناك توحيدين ، وإنك لا تكون مسلماً حتى توحد توحيد الألوهية ، ولا أشار إلى ذلك بكلمة واحدة ، ولا سمع ذلك عن أحد من السلف الذين يتبجحون باتباعهم في كل شيء . ولا معنى لهذا التقسيم ، فإن الإله الحق هو الرب الحق ، والإله الباطل هو الرب الباطل ، ولا يستحق العبادة والتأليه إلا من كان رباً .

ولا معنى لأن نعبد من لا نعتقد فيه أنه رب ينفع ويضر ، فهذا مرتب على ذلك ، كما قال تعالى : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)^(١) فرتب العبادة على الربوبية ، فإننا إذا لم نعتقد أنه رب ينفع ويضر ، فلا معنى لأن نعبده كما قلنا . ويقول تعالى : (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(٢)

(١) سورة مريم ، الآية ٦٥

(٢) سورة النحل ، الآية ٢٥

يشير إلى أنه لا ينبغي السجود إلا لمن ثبت اقتداره التام ، ولا معنى لأن يسجدوا لغيره .

هذا هو المعقول ، ويدل عليه القرآن والسنة :

أما القرآن فقد قال : (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا)^(١) فصرح بتعدد الأرباب عندهم .

وعلى الرغم من تصريح القرآن بأنهم جعلوا الملائكة أرباباً ، يقول ابن تيمية ، ومحمد بن عبد الوهاب : إنهم موحدون توحيد الربوبية وليس عندهم إلا رب واحد وإنما أشركوا في توحيد الألوهية . ويقولون يوسف -- عليه السلام -- لصاحبي السجن وهو يدعوهم إلى التوحيد :

(أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)^(٢)

ويقول الله تعالى أيضاً : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي)^(٣)

وَأَمَّا هُم فَلَمْ يَجْعَلُوهُ رَبًّا . ومثل ذلك قوله تعالى : (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي)^(٤)

خطاباً لمن أنكر ربوبيته تعالى . وانظر إلى قولهم يوم القيامة :

(تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِالرَّبِّ الْعَالَمِينَ)^(٥) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٠

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٩

(٣) سورة الرعد ، الآية ٣٠

(٤) سورة الكهف ، الآية ٢٨

(٥) سورة الشعراء ، الآيتان ٩٧-٩٨

« أَى » فى جعلكم أربابا كما هو ظاهر . وانظر إلى قوله تعالى :
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا
تَأْمُرُنَا)^(١) فهل ترى صاحب هذا الكلام مؤحدا أو معترفا ؟ ثم انظر
إلى قوله : (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ)^(٢) إلى غير ذلك وهو كثير
لا نطيل بذكره .

فإذاً ليس عند هؤلاء الكفار توحيد الربوبية كما قال ابن تيمية ،
وما كان يوسف - عليه السلام - يدعوهم إلا إلى توحيد الربوبية ،
لأنه ليس هناك شئ يسمى توحيد الربوبية وشئ آخر يسمى توحيد
الألوهية عند يوسف - عليه السلام - « فهل هم أعرف بالتوحيد منه ،
أو يجعلونه مخطئاً فى التعبير بالأرباب دون الآلهة ؟ » .

ويقول الله فى أخذ الميثاق : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)^(٣) فلو
كان الإقرار بالربوبية غير كاف وكان متحققاً عند المشركين ولكنه
لا ينفعهم كما يقول ابن تيمية ، ماصح أن يؤخذ عليهم الميثاق بهذا ،
ولاصح أن يقولوا يوم القيامة : (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) .

وكان الواجب أن يغير الله عبارة الميثاق إلى ما يوجب اعترافهم
بتوحيد الألوهية حيث إن توحيد الربوبية غير كاف كما يقول هؤلاء ،
إلى آخر ما يمكننا أن نتوسع فيه ، وهو لا يخفى عليك . وعلى كل حال
فقد اكتفى منهم بتوحيد الربوبية ، ولو لم يكونا متلازمين لطلب

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٠

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٣

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٧٢

إقرارهم بتوحيد الألوهية أيضا ، ومن ذلك قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي
السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)^(١) فإنه إله في الأرض ولو لم يكن فيها من
يعبده كما في آخر الزمان . فإن قالوا : إنه معبود فيها . أى مستحق
للعباداة . قلنا : إذا لا فرق بين الإله والرب ، فإن المستحق للعبادة
هو الرب لا غير ، وما كانت محاوراة فرعون لموسى عليه السلام إلا في
الربوبية وقد قال : (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)^(٢) ثم قال : (لَعْنٌ اتَّخَذَتْ
إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ)^(٣) ولأدعى للتطويل في هذا .

وأما السنة فمسؤال الملكين للميت عن ربه لاعتن إلههم . لأنهم
يفترقون بين الرب والإله « فإنهم ليسوا بتمييزين ولا متخبطين » وكان
الواجب على مذهب هؤلاء أن يقولوا للميت « من إلهك » لا « من ربك »
أو يسألوه من هذا وذاك .

وأما قوله : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ)^(٤) فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم إجابة لحكم الوقت ،
ومضطربين ذلك بالحجج القاطعات والآيات البينات . وأعلمهم نطقوا
بما لا يكاد يستقر في قلوبهم أو يصل إلى نفوسهم . بدليل أنهم يقرنون
ذلك القول بما يدل على كذبهم ، وأنهم يتسبون الضر والنفع إلى غيره ،
وبدليل أنهم يجهلون الله تمام الجهل . ويقدمون غيره عليه حتى في
صغائر الأمور .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٤

(٢) سورة النازعات ، الآية ٢٤

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٢٩

(٤) سورة لقمان ٢٥ ، وسورة الزمر ٣٨

وإن شئت فانظر إلى قونهم لهود - عليه السلام - : (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) ^(١) فكيف يقول ابن تيمية : إنهم يعتدون « أن الأصنام لاتضر ولاتنفع » إلى آخر مايقول ؟ :

ثم انظر بعد ذلك إلى قولهم في زرعههم وأنعامهم : (هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ) ^(٢) فقدموا شركاءهم على الله تعالى في أصغر الأمور وأحقرها .

وقال تعالى في بيان اعتقادهم في الأصنام : (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) ^(٣) فذكر أنهم يعتقدون أنهم شركاء فيهم .

ومن ذلك قول أبي سفيان يزم أحد : اعل هبل : فأجابه - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « الله أعلى وأجل » .

فانظر إلى هذا ثم قل لي ماذا ترى في ذلك التوحيدالذى ينسبه إليهم ابن تيمية ويقول : إنهم فيه مثل المسلمين سواء بسواء ، وإنما افترقوا بتوحيد الألوهية ! .

ثم انظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي) ^(٤) (أَى) وأما هم فلم يجعلوه رباً . ومثل ذلك قوله تعالى :

(١) سورة هود ، الآية ٥٤

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٣٦

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٥٤

(٤) سورة الرعد ، الآية ٣٠

(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي)^(١) خطاباً لمن أنكر ربوبيته تعالى : وانظر إلى قولهم يوم القيامة : (تَبَّاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسَوْنَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٢) (آى) فى جعلكم أرباباً كما هو ظاهر لغير المتعسف . وانظر إلى قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا لِرَّحْمَنِ)^(٣) فهل ترى هذا كلام مرحد أو معترف ؟ ثم انظر إلى قوله : (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ)^(٤) إلى غير ذلك ، وهو كثير .
وأدل من ذلك كله قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)^(٥) إلى غير ذلك مما يطول شرحه .
فهل ترى لهم توحيداً بعد ذلك يضح أن يقال فيه إنه عقيدة ؟
أما التيميون فيقولون بعد هذا كله : إنهم موحدون توحيد الربوبية ، وإن الرسل لم يقاتلوهم إلا على توحيد الألوهية الذى لم يكفروا إلا بتركه ولا أدرى ما معنى هذا الحصر مع أنهم كذبوا الأنبياء ، وردوا ما أنزل عليهم ، واستحلوا المحرمات ، وأنكروا البعث واليوم الآخر ، وزعموا أن لله صاحبة وولداً ، وأن الملائكة بنات الله (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)^(٦) . . الخ . وذلك كله لم يقاتلوهم عليه الرسل فى رأى هؤلاء . وإنما قاتلوهم على عدم

(١) سورة الكهف ، الآية ٣٨

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٩٨

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٦٠

(٤) سورة الرعد ، الآية ١٣

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨

(٦) سورة الصافات ، الآية ١٥١-١٥٢

توحيد الألوهية كما يزعمون ، وهم بعد ذلك مثل المسلمين سواءً
أو المسلمون أكفر منهم في رأى ابن عبد الوهاب !

وما علينا من ذلك كله ، ولكن نقول لهم بعد هذا : على فرض أن
هناك فرقاً بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - كما يزعمون -
فالتوسل لا ينافي توحيد الألوهية ، فإنه ليس من العبادة فى شىءٍ لآلة
ولا شرعاً ولا عرفاً ، ولم يقل أحد إن النداء أو التوسل بالصالحين
عبادة ، ولا أخبرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، ولو كان
عبادة أو شبه عبادة لم يجز بالحى ولا بالميت .

ومن المعلوم أن المتوسل لم يطلب إلا من الله تعالى بمنزلة هذا النبى
أو الولى ، ولا شك فى أن لهما منزلة عند الله - تعالى - فى الحياة
وبعد الممات .

فإن تشبث بتشبهت بأن الله أقرب إلينا من جبل الوريد فلا يحتاج
إلى واسطة ، قلنا له : حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ، فإن رأيتك
هذا يلزمه ترك الأسباب والوسائط فى كل شىء ، مع أن العالم مبنى
على الحكمة التى وضعت الأسباب والمسببات فى كل شىء . ويلزمه
عدم الشفاعة يوم القيامة وهى معلومة من الدين بالضرورة ، فإنها على
هذا الرأى لا حاجة إليها ، إذ لا يحتاج سبحانه وتعالى إلى واسطة فإنه
أقرب من الواسطة ، ويلزم خطأً عمر بن الخطاب فى قوله : إنا نتوسل
إليك بعم نبيك العباس . . . الخ .

وعلى الجملة يلزم سد باب الأسباب والمسببات والوسائط والوسائط ،
وهو خلاف السنة الإلهية التى قام عليها بناء هذه العوالم كلها من أولها إلى

آخرها ، ولزمهم على هذا التقدير أن يكونوا داخلين فيما حكموا به على المسلمين ، فإنه لا يمكنهم أن يدعوا الأسباب أو يتركوا الوسائط ، بل هم أشد الناس تعلقاً بها واعتماداً عليها .

ولا يغفوننا أن نقول : إن التفرقة بين الحي والميت في هذا المقام لا معنى لها ، فإن المتوسل لم يطلب شيئاً من الميت أصلاً ، وإنما طلب من الله متوسلاً إليه بكرامة هذا الميت عنده أو محبته له أو نحو ذلك ، فهل في هذا كله تأليه للميت أو عبادة له ، أم هو حق لا مرية فيه ، ولكنهم يوم يجازفون ولا يحققون ؟ كيف وجواز التوسل بل حسنه معلوم عنا جميع المسلمين !

وانظر كتب المذاهب الأربعة « حتى مذهب الحنابلة » في آداب زيارته - صلى الله عليه وسلم - : تجدهم قد استحجوا التوسل به إلى الله تعالى ، حتى جاء ابن تيمية فخرق الإجماع وصادم المركوز في الفطر ، مخالفاً في ذلك العقل والنقل .

ونخشى أن يطول بنا القول . فلنقف هنا ، ونؤخر الكلام على نداء الأولياء وتعظيمهم والاستغاثة بهم . وموعدا العدد الآتي ، إن شاء الله

توحيد الألوهية - وتوحيد الربوبية (١)

تفرق قومنا من غير شيء فحل بقومنا وبنا البلاء

كتبنا في هذا الموضوع في العدد الماضي ، ونكتب فيه اليوم ، ولعلنا نكتب فيه غداً . وإنما نريد بذلك كله الدفاع عن سماحة الإسلام : غيرة عليه من تلك الطائفة التي جعلته حرباً لا سلاماً . ولو كان كما زعدوا لم يكن دين الرحمة والمحبة والحكمة ولا دين الأمم كلها ، بل كان دين الخصام والانقسام والنار والدمار ، ولم يصلح إلا لقوم جامدين وطائفة مخصوصين .

ولسنا نريد بكل ما نكتب في هذا الموضوع غير ألا يتنازع المسلمون ولا ينقسم بعضهم على بعض : من أجل أشياء يقع فيها الخلاف ويتباين فيها الرأي .

فيجب على أولئك المكفرين للمسلمين أن يحترموا رأي غيرهم ، ولا نريد منهم أن يتبعوا غيرهم ، بل أن يتركوهم أحراراً كما أنهم أحرار ، وأن يقيموا لأولئك العلماء من أئمة الهدى وزناً ، فلهم منطق سليم ونظر مستقيم وموقف صالح .

وينبغي أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر رموضع للاجتهد يجب أن لا يتنازع فيه الناس ، فالأمر واسع . فكمختلف الصحابة والتابعون

وتابعوهم مع محبة بعضهم بعضاً ، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعي ما له مراراً ، وقد خالفه في أشياء كثيرة وهو تلميذه . وقد قالوا : إن المنكر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعاً على إنكاره . فكيف بالكفر الذي جاء في الحديث الصحيح أن أحدهما يبوء به ؟ ! وكيف بالقتل الذي يستبيحه هؤلاء ؟ !

وقد أذكر - صلى الله عليه وسلم - على أسامة حين قتل من قال : لا إله إلا الله - تقية في رأى أسامة - ولم يقبل منه ذلك العذر ، ولا رضى منه هذا التأويل .

وإني أكرر عجبى منهم كيف يلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ويتمم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك ؟ وهل هذه إلا رتبة المعصوم الذي يجب على الناس أن يتبعوه ولا يخالفوه ؟ فهل هم معصومون حتى لا يجوز أن نخالفهم بحال من الأحوال ؟ ! بل نتنزل قليلاً ونقول لهم : أفتوجبون علينا التقليد وأنتم تحرمون التقليد ، أم تلزموننا أن نتبعكم ونحن مجتهدون كما أنكم مجتهدون؟! !

وإننا نسألهم : هل كان الصحابة والتابعون يقسمون التوحيد إلى توحيد الألوهية والربوبية . ويدعون الناس لذلك ؟ الجواب أنه لم يسمع ذلك عن أحد منهم ، فلماذا لا يسعنا ما وسعهم ؟ !

وأن من علامات الراسخين في العلم أن يحترموا كلام الأئمة ، وما درجت عليه الأمة . أما إمامهم ابن تيمية فلم يسلم منه أحد ، حتى أبو بكر وعمر ، وعلى ، وفاطمة . ولا يسعنا تفصيل ذلك الآن

ومن علامات الراسخين في العلم أيضا أن تراهم ميالين دائما إلى اليسر والسهولة علما بسماحة الإسلام ، وأنه يسر لا عسر فيه ، وعملا بما كان عليه - صلى الله عليه وسلم - مع المسلمين ، وأنهم لا ينكرون إلا ما أجمع على إنكاره ، إلا ما اختلف فيه ، كما كان حال أئمة الهدى بعضهم مع بعض ، وأن كل ما كان محلا للاجتهد والنظر كان الأمر فيه واسعا ، متمسكين في ذلك بأن المجتهد إذا أخطأ كان له أجر ، وإذا أصاب كان له أجران ، كما في الصحيح .

ومن علاماتهم أنهم لا يقصدون أنفسهم ، ولا يحتقرون غيرهم ، علما منهم أنهم غير معصومين ولا مقدسين ، فلا يوجبون على غيرهم أن يرجع إلى رأيهم ، ولا يفرضون طاعتهم على الناس فرضا ، كما فعل الخوارج فيما مضى ، وكما يفعلون الآن .

ومن علامتهم أنهم يجادلون غيرهم بالتى هى أحسن ، وأن الحق إذا ظهر على يد غيرهم اتبعوه ، كما هو معروف من سيرة السلف الصالح أما أرباب الأهواء فهم على العكس من ذلك كله ، وإن صاموا وصلوا ، وعملوا من ظواهر العبادات ما يحقر أحدنا صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم .

وقد أخبرنا - صلى الله عليه وسلم - أنهم يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء ، وأنهم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب^(١) بأصحابه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخل فيه . وكأنه - صلى الله عليه وسلم - يحذرنا من مخالطتهم ، مخافة أن يسرى إلينا داؤهم كما

(١) بالتحريك : هو الداء المعروف الذى يصيب الكلاب الكلبة .

يسرى داء الكلب الذى يسرع انتقاله ويعسر شفاؤه . فجزاه الله عنا
أفضل ما جازى نبياً عن أمته .

ولا تكاد تجد لواحد منهم شيئاً يروك من علم أو عمل إلا وجدت
بجانبه ما يفسده ويربو عليه . وسر ذلك أنهم يتبعون الهوى ، فهو
معهم حيناً كانوا ، ومن كان تابعا لهواه فلا بد أن يضل عن سبيل الله .
وعلاوة الإيمان الصحيح ، بل علامة العقل الصحيح أن يتهم المرء
نفسه ، ويرجع إلى ما عليه الأمة المعصومة التى شهد لها - صلى الله
عليه وسلم - أنها لا تجتمع على ضلالة . وأكثر ما نجد هذه النزعة التى
لا تحترم إلا عقلها ولا تقدر إلا هواها ولا تبالي بالتضليل والتكفير -
أكثر ما نجدها فى الخوارج الذين هم أضر على الإسلام والمسلمين من
كل شيء ، بنص الحديث الصحيح الذى يقول فيه : « إنهم شر
الخلق والخليقة » ويقول فى تصلبهم فيما أشربوا من حب الهوى :
« إنهم لا يعودون إلى الإسلام حتى يعود السهم إلى فوقه » أى مع كون
أحدنا يحقر صلاته مع صلاتهم . . . إلخ . ولا بدع فى ذلك ، فإن
للأخبار والرببان من التقشف والزهد فى الدنيا والبعد عن زخارفها
وأنواع المجادلات ما لا يتفق لكثير من أفاضل المسلمين ، ومع ذلك
لم يغن عنهم شيئاً (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل
من يشاء ويهتدى من يشاء)^(١) والله يتولى هدى الجميع .

وإنى أعجب لتفريقهم بين توحيد الألوهية والربوبية ، وجعل
المشركين موحدين توحيد الربوبية مع قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهبَانَهُمْ أَرْبَابَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (١) . وهل المراد من الأرباب في الآية إلا المعبودون (٢) إلى آخر ما ذكرناه في مقالنا السابق من تنفيذ تلك الدعوى التي ابتدعوها . فإننا لم نسمع أن أحداً سمي المشركين موحدين غير ابن تيمية وابن عبد الوهاب .

والخلاصة التي نريدها من ذلك كله : أن الذي يجب على كل من يحتاط لدينه ونفسه هو الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة دماء المسلمين المصلين المقرين بالتوحيد خطأ لا يمثله شيء ، فإن الخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أدون من الخطأ في سفك دم مسلم واحد ، كما قاله حجة الإسلام الغزالي وغيره .

ولا بد أن ننبه هنا على أن الشرك والكفر لا بد أن يكون معقول المعنى .

ولا أدري كيف يكفرون بالاستغاثة ونحوها ، فإن المستغيث إن كان طالباً من الله بكرامة هذا الميت لديه فالأمر واضح ، وإن كان طالباً من الولي نفسه فإنما يطلب منه على اعتقاد أن الله أعطاه قوة روحانية تشبه قوة الملائكة فهو يفعل بها بإذن الله ، فهل في ذلك تأليه له ؟ ولو فرضنا جدلاً أننا مخطئون في ذلك لم يكن فيه شرك ولا كفر ، بل نكون كمن طلب من المقعد المعونة معتقداً أنه صحيح غير مقعد : مع

(١) سورة انبؤة ، الآية ٣١

(٢) فكيف يقولون إن عندهم توحيد الربوبية وكذلك قوله : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) وقد قال عدى : إننا لم نتخذ الأبحار والرهبان أرباباً فإننا لم نعبدهم فذل ذلك دلالة صريحة على أن كل معبود رب . وقد أقره صلى الله عليه وسلم - على هذا .
فاذا ترى ؟

أن عمل الأرواح ومواهب الأنبياء والأولياء ثابتة في الدلائل القطعية ،
على الرغم من أنوفهم .

وصفوة القول أننا نقول : هؤلاء المستغيثون يعتقدون أن الله أعطى
هؤلاء الأولياء مواهب لم يعطها لغيرهم ، وذلك جائز لا يمكنهم منعه .
وهم يقولون : إنهم اعتقدوا فيهم الألوهية ، مع أن ذلك لا يقول به
أحد ، إلا عند من أساء الظن بالمسلمين ظلماً و عناداً . ولو فرضنا أن
ذلك مشكوك فيه ، فهل يجوز التكفير والقتل بمجرد الشك ؟

فلاستغاثه مبنية عندنا على أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم
كالشهداء . بل أعلى من الشهداء ، ويمكنهم أن يدعو الله - تعالى -
للمستغيث بهم ، بل يمكنهم أن يعاونوه بأنفسهم كما تعاون الملائكة
بني آدم . وللأرواح تصرف كبير في البرزخ . وعلى ذلك دلائل كثيرة
أطنب فيها ابن القيم ، وهو من أئمة هؤلاء . وأثبت ابن تيمية سماع
الأموات وردهم السلام في فتاويه وغيرها ، مستنداً إلى الأحاديث
الصحيحة في ذلك ، وذكر سماع سعيد بن المسيب الأذان من قبره -
صلى الله عليه وسلم - أيام الحرة في كتبه . فإذا استغاث بهم كان
كمن يستغيث بالحي سواء بسواء ، لأنهم عندنا أحياء ، بل أعظم
نفوذاً ، وأوسع تصرفاً من الأحياء .

ولو تنزلنا غاية التنزل ، وفرضنا أننا مخطئون في ذلك ، لم يكن
هناك وجه للتكفير ، وإنما يقال للمستغيثين ، إنكم أخطأتم في ذلك ،
فإنهم ليسوا أحياء ولا قادرين على ما سبق لنا .

فإذا يكون الخلاف بيننا وبينهم مبنياً على أن الأموات يسمعون ويعقلون ويدعون ، أم هم كالجماد لا يستطيعون شيئاً من ذلك ؟ فنحن نقول بالأول : مستندين في ذلك إلى الكتاب والسنة ، والأخبار المتواترة عن كرامات الأولياء ومرائي الصالحين وبركات النبي - صلى الله عليه وسلم - التي حصلت للمستغيثين به والاستشفاع به عند زيارته - صلى الله عليه وسلم - وقد نصت على ذلك كتب المذاهب الأربعة ، حتى الحنابلة عند ذكر آداب الزيارة له - صلى الله عليه وسلم - .

وهم يقولون بالثاني ، وأن الأموات قد دخلوا في عالم العدم ، كما يقول الماديون . وعندما تخرجهم بالبراهين القاطعة يقولون : إنهم أحياء ، ولكنهم مشغولون بالعذاب أو النعيم !

وهذا كلام خيالي ، ولا نقول خطابي ، فإنه أقل من ذلك . وأكبر ظني أنهم يقولونه بالسنتهم وليس في قلوبهم . وليس هذا محل شرح ذلك ، فإن المتنعم حر مختار ، ولا ينافي نعيمه أنه يدعو الله لأحد المسلمين ، بل قد يرى من نعيمه أن يساعد ابنه أو محبه بما يقدر عليه .
والدلائل على ذلك متواترة مستفيضة ، خصوصاً المرائي في ذلك : كحديث بلال بن الحارث الصحابي - رضى الله عنه - المذكور عند البيهقي وابن أبي شيبة ، وفيه : أنه جاء قبره - صلى الله عليه وسلم - وقال : يا رسول الله استسق لأمتك ، أي ادع الله لهم ، فجاءه في المنام وقال : « بشر عمر أنهم سيسقون » وقل له : « عليك الكيس الكيس » . ورؤيته - صلى الله عليه وسلم - جعفرأ ذا الجناحين يظير مع الملائكة يبشرون أهل بيته بالمطر . وهو في المستدرك وغيره بالألفاظ

مختلفة . وكروية أم سلمة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإخباره إياها
بقتل الحسين . وهو في المسند وغيره .

ويكفي في ذلك محاجة آدم لموسى عليه السلام ، وما رأى - صلى
الله عليه وسلم - ليلة الإسراء من الحوادث الكثيرة ، خصوصاً مراجعة
موسى في أمر الصلاة ، وكفالة إبراهيم لأطفال المؤمنين . وانظر كيف
رأى موسى صلى في قبره ، ثم رآه في السماء السادسة وببيت المقدس
مع الأنبياء . وأى استبعاد في ذلك ؟ وقد قلنا : إن لهم حاة ملكية
لا تقاس على أحوالنا .

وإنك تعرف أن عزرائيل - عليه السلام - لا يشغله قبض عن
قبض ، والتبض لا يشغله عن العبادة طرفة عين . على أن حال البرزخ
بخلاف حال الدنيا ، وقد قال أبو الطيب المتنبّي ما يفيد هذا المعنى
وإن لم يكن مما نحن فيه :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نورا ثاقباً

« ولكن عالم نواميس تخصصه . ومن الغلط البين الحكم على عالم
بأحكام عالم آخر » . وقد نهى عمر عن رفع الصوت في مسجد رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - . ونهى الإمام مالك المنصور عن رفع صوته
كذلك . ونهت السيدة عائشة عن دق الوتد بالدور المجاورة للحجرة
الشريفة : ، مخافة أن يتأذى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
وقد كانت تدخل مشدوداً عليها إزارها بعد دفن عمر حياً من عمر :
إلى غير ذلك مما هو معروف في كتب السنن والآثار .

فلو كانوا منقطعين عن هذا العالم تمام الانقطاع على ما يقول هؤلاء ،
لم يكن لذلك معنى ، خصوصاً ما هو خارج عن المعقول في العادة ،
كعرض الأعمال عليه ، وامتداده لنا - صلى الله عليه وسلم - ،
ورد السلام على كل من يسلم عليه ، وهو ثابت لامراء فيه . وقد كتبنا
فيه في العام الماضي .

وقد نهي - صلى الله عليه وسلم - عن أذية الميت ، وكسر عظمه
والجلوس على قبره ، مخافة تأذيته . إلى غير ذلك ، وهو كثير .
ولا يمكننا في هذه العجالة إلا أن نلمح إليه ، وندل على ما وراءه .

ولا نزال نكرر إنه إذا لم يكن في هذا إلا ما كان في حديث المنعراج :
من أسف سيدنا موسى على بنى إسرائيل ، ومراجعة النبي في أمر الصلاة ،
واجتماع الأنبياء في بيت المقدس وخطبهم ، لكفى .

وقد ذكر ابن القيم في كتاب الروح حديث مذاكرة الأنبياء
في أمر الساعة ، وأنه إذا جاء عيسى - عليه السلام - كانت كالحامل
المتم^(١) فلو كانت الأرواح على ما يقولون لم يكن لهذا معنى .

ومع كل هذا نسلم لهم صحة ما يتولون ، ونفرض أننا نحن
المخطئون ، فهل يوجب ذلك شركاً أو كفراً ؟ وقد قلت لبعض أذكيا
العمامة في المولد الحسيني - وقد قال يا رسول الله - : إن الوهابية يكفرونك
بتوكلك : يا رسول الله ، كما في الهدية السنوية وغيرها ، فقال إن كنا
نقول يا رسول الله على ما نريد ، فلا معنى للكفر ، وإن كنا نقوله على

(١) وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أنهم يحجون ولبون. ونسأل الله أن يكفينا شر المتعسفين .

ما يريدون من تأليه الرسول ، فنحن كفار . فأعجبني هذا منه ، فقلت له : وهل يسمعك وأنت هنا وهو بالمدينة ؟ فلم يجب جواباً شافياً .

ونحن نقول : إن هذا الاستبعاد منشؤه قياس الغائب على الشاهد ، وقد عرفنا أن سماع الأجسام لا يصل إلا إلى مسافة محدودة ضئيلة ، ولكن هل عرفنا المسافة التي يصل إليها سماع الأرواح ، وماذا أعطيت من ذلك ؟ وكيف ندرك أن عمر وهو بالمدينة أسمع سارية وهو بناهوند من أرض العجم ؟ .

وأس اغلط في هذا وأمثاله أننا نعطي أحكام العوالم المختلفة بعضها لبعض ، مع أن لكل عالم أحكاماً تخصه ، ونواديس ليست لغيره ، فقياس عالم الأرواح على عالم الأشباح من أفسد الأقيسة وأبطلها . والواقفون عند ما عرفوا من أحكام هذا العالم فحسب ، إنما هم الماديون لا أتباع الرسل (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله)^(١) .

أما قواكم : إنهم يطلبون ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فكلام لا تحقيق فيه ، فهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فإننا نول أولاً :

هب أر الأمر كذلك ، وقد أخطأ ذلك السائل فظن غير الممكن ممكناً ، وغير المقدور للبشر مقدوراً له ، أفيكفر بذلك ، أم يعذر بجهله وخطئه ؟ « وهو لم يعتقد الألوهية على كل حال » .

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

وثانياً - نقول لكم : إننا لم ندع أنه يفعل ذلك استقلالاً من عند نفسه ، بل نقول : إنه يفعله بإذن الله . وبعبارة أخرى نقول : أعطاه من المواهب مالا تعقلونه . وهل عرفتم ما يصحح أن يعطيه الله عبیده المقربين وما لا يصحح ؟ وهل ثبتت عندكم تلك الحدود التي لا يصحح لله أن يتجاوزها مع عبیده ؟ وهل كان الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يترد الطرف مما يقدر عليه البشر في نظركم ؟ وهل كان رد عين قتادة - رضى الله عنه - وقد سألت على خده فجاء للنبي - صلى الله عليه وسلم - فردها إليه فكانت أحسن عينيه ، مما يقدر عليه البشر في رأيكم ؟ وهل رؤية عمر بن الخطاب لسارية وجيشه ببلاد العجم مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إسماعه صوته وهو بنهاوند مما يقدر عليه البشر !

وهل قول بنى إسرائيل لموسى عليه السلام : (لَكِنَّ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ)^(١) مما يقدر عليه البشر ؟ إلى غير ذلك ، وهو طويل عريض ، أم الخوارج كلها من هذا القبيل لا يقدر عليها البشر في العادة ، ولكنه يقدر عليها بإقدار الله إياه ؟ .

وهل تقيسون الأرواح على الأشباح ؟ وهل عرفتم نواميسها وما تنتهى إليه ، أم ذلك قياس الغائب على الشاهد كما قلنا ؟ فهو قياس مع الفارق ، بل مع ألف فارق . وهل إذا رأيتم بنى إسرائيل يطلبون من عيسى - عليه السلام - إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص تقولون : إن هذا مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتم النبي يضرب جبل أحد ويأمره أن يثبت ولا يتحرك ، تقولون : إن ذلك يقدر عليه البشر ؟

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٣٤

وهل إذا رأيتموه يأمر الشجر فيمثل أمره ، ويخذ الطريق خدا ،
تقولون : إن ذلك مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتموه وقد نبع
الماء من بين أصابعه قلم : إن ذلك مما يقدر عليه البشر ؟ إلى غير ذلك
مما جاء في الصحيح ، ولا يمكنكم المكابرة فيه .

على أن لنا أن نقول : إن كل شيء مقدور للمبشر بالدعاء ، فما
لا يقدر عليه البشر بالذات يستطيعه بالدعاء ، فالفاعل في الحقيقة هو
الله لا غيره ، والذي يستغيث بالنبي مثلاً لا يريد منه إلا هذا .

وقد عرفنا أنه - صلى الله عليه وسلم - يستغفر لنا بعد موته ،
كما في الحديث الصحيح : « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ » إلخ . وقد بينا
صحته بلا مزيد عليه في العام الماضي . ويمكننا أن نتوسع في هذا المقام
كثيراً ، فسمع الموتى وإدراكهم لا شك فيه لمن يرمن بالله وما جاء
عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، كما قال السيوطي في منظومته :

سمع موتى كلام الخلق قاطبة جاءت به عندنا الآثار في الكتب

وقد قلنا أن ابن تيمية نفسه ذكر أن سعيد بن المسيب كان
يسمع الأذان والإقامة في زمن الحرة من تبره - صلى الله عليه وسلم - . وأما
جعلهم هنا عبادة ، وعبادة غير الله كفر ، فهو من مجازفاتهم الشنيعة ،
فإنهم إذا فهموا أن كل تعظيم عبادة ، أو كل طلب عبادة ، فقد برهنوا
على جهلهم ، فإننا رأينا إخوة يوسف قد سجدوا ليوسف ، والملائكة
قد سجدوا لآدم ، وليس هناك شيء أبلغ في التعظيم من السجود ،
فإذاً ليس التعظيم شركاً لذاته مهما بلغ أمره . ولو كان ذلك وصفاً

ذاتياً له لوجب ألا يفارقه . فالتعظيم لا يكون عبادة إلا إذا كان معه اعتقاد الربوبية .

وأما الدعاء الذى يتمسكون به ويستدلون عليه بمثل قوله تعالى :
(فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)^(١) إلى آخر الآيات الكثيرة التى نزلت فى
المشركين ، فطبقتها على المسلمين ، زاعمين أن الدعاء عبادة ،
وعبادة غير الله كفر ، فهو تلبيس لا ينبغى أن يصدر إلا من غاش
أو جاهل : فإن الدعاء مشترك .

فإذا قالوا : إن كل دعاء عبادة ، رد عليهم قوله تعالى :
(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)^(٢) * (رَبِّ إِنِّي
دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا)^(٣) *
(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٤) .
(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَمَقْتِ لَنَا)^(٥) إلى غير ذلك ،
وورد عليهم أنهم يدعون الأمير والوزير ، فهذا دعاء لغير الله ، فيلزمهم
على هذا الفرض أن يكون ذلك شركاً ، وأن يكون الدعاء فى تلك
الآيات بمعنى العبادة ، وهو ما لا يقوله أحد .

وإن قالوا : إن الضلب من غير الله كفر ، وهذا هو العبادة ،
لزمهم كفر العالم كله . ولا معنى هنا للفرق بين الحى والميت كما

(١) سورة الجن ، الآية ١٨

(٢) سورة النور ، الآية ٦٣

(٣) سورة نوح ، الآيتان ٥-٦

(٤) سورة يونس ، الآية ٢٥

(٥) سورة القصص ، الآية ٢٥

أوضحناه ، فلا يقول إن مجرد الطلب من غير الله عبادة إلا من لا بدري ما يقول . وإن قالوا : إن الطلب من الأولياء والأنبياء هو الكفر لا غير ، قلنا : إن هذا هو محل النزاع ، وهذه هي الدعوى التي لم يتم عليها دليل ، بل قام على بطلانها ألف دليل ..

وإيراد الآيات النازلة في حق المشركين العابدين لغير الله لا معنى له ولا غناء فيه ، فهل نظفر منهم بعد ذلك بشيء من الإنصاف : حتى يرحموا هذه الأمة المسكينة ، فلا يكفروها ولا يستبيحوا دماءها ؛ إني أشك في ذلك . ولا أكاد أتوقعه ، ولكننا نكتب لغيرهم ، خشية أن ينخدعوا بترهاهم وضلالاتهم .

والخلاصة أن هؤلاء يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، بل هم أقل من ذلك ، فإنهم يقولون مالا معنى له ولا مستند فيه . تلبساً على العوام الذين هم كالأطفال يمكن كل أحد أن يأخذهم إلى ما يشاء .

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال في ذي الخويصرة التميمي « إِنَّ مِنْ ضِئْضِيِّ هَذَا - أَوْ فِي عُقْبَى هَذَا - قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرِ دِمِّمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ ، لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ » . وفي بعض الروايات : « سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْعَمَلِ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ ، لَا يُجَاوِزُ

إِيمَانُهُمْ تَرَاقِيهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ ،
لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَعُودَ السَّهْمُ إِلَىٰ فَوْقِهِ هُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ،
يَدْعُونَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ . الحديث . وفي رواية
أخرى : « سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ ، سُفَهَاءُ
الْأَخْلَامِ ، يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ
حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ » الحديث .

وعند مسلم من رواية عبد الله بن أبي رافع : « يَقُولُونَ الْحَقَّ
بِالْسِّنْتِهِمْ ، لَا يُجَاوِزُ هَذَا مِنْهُمْ » . وأشار إلى حلقه . وفي رواية عنده
أيضاً : « سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أَنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ
وَلَا آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ » . رواه بلفظ آخر فقال : « يَكُونُ
فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَالُونَ كَذَابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا
أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يُفْتِنُونَكُمْ » وجاء
في وصفهم كما في بعض الروايات عند أبي داود وغيره : « إِنَّهُمْ
تَتَجَارَىٰ بِهِمُ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَىٰ الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَىٰ فِيهِ عِرْقٌ
وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَ فِيهِ » .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي وردت فيهم . فجزى
الله نبينا أفضل ما جازى نبيا عن أمته . لقد بلغ ونصح وأدى الأمانة
حتى تركنا على الحنيفية البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها
إلا هالك . وهذه الفرق الضالة لا يزال يتجدد شرها ، ويتفاقم أمرها

إلى يوم القيامة . ففي بعض الروايات أنه سيكون آخرهم مع الدجال ،
وهم ميثوس منهم ، لحديث البخارى « إِنَّهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ ثُمَّ
لَا يَعُودُونَ فِيهِ » .

وبعد : فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن
أنتم إلا تخرصون .

وكل ما يقوله الكذوب يزول بالتحقيق بل يزوب

ولنقتصر على هذا ، ففيه مفتح وكناية .

الحكم على المسلمين بالكفر^(١) شبهة مسمية وتشبيه فاسد وحكم باطل

جاءنا هذا السؤال تحت هذا العنوان :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير والمحقق الشهير ، مرشد الضالين وقامع الملحدين ، لسان الإسلام الناطق ، وترجمانه الصادق ، وسيفه الماحق لكل مارق وفاسق ، الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ، حفظه الله وأطال بقاءه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فنير نخاف على فضيلتكم أن تفسير الشوكاني المسمى « فتح القدير » ، وكان من بين ما قرأناه فيه عند تفسير قوله تعالى في سورة التوبة : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ)^(٢) الآية « ص ٣٣٧ من الجزء الثاني » العبارة الآتية التي حكم فيها على عموم المسلمين المقلدين للأئمة المجتهدين بالكفر الصريح ، ووجههم على نبيذ كتب الدين ، ولم يردعه عن جهره بهذا الحكم الفاسد والرأى المنكر وازع من الدين ولا زاجر من العلم . وهذا نص عبارته :

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثالث - المجلد الرابع - ربيع الأول سنة ١٣٥٢

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣١

وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير^(١) ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة ، مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ، ونطقت به كتب وأنبيأؤه ، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأجبار والرهبان أرباباً من دون الله ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل طاعوهم وحرموهم وحلوا ما حللوا ، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء ، فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ، ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه ، فعملتم : مما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين ، ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويبينه ، فأعرتوهما^(٢) آذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً ، وأفهاماً مريضاً : وعقولاً مهيضة ، وأذهاناً كليلية ، وخواطرٌ عليقة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبتها لكم الأموات من أسلافكم^(٣)

(١) لعله الإيثار .

(٢) لعل الصواب (فاعرعتوهما) .

(٣) ليت نعرى ماذا يريد بكلمة الأموات وماذا دس فيها ، أيريد ألا تأخذ شيئاً إلا عن

الأحياء وإذا يضيئ الدين كله ، أم ماذا يريد ؟

واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأى أقوال إمامكم وإمامهم ، وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - . ٥١ .

ننتس من فضيلتكم دحض هذه الشبهة ، ورد هذه الفرية ، بما آتاكم الله من قوة في الدين وصلابة في الحق ، ونشر ذلك بأول عدد من « مجلة الازهر » الغراء . وحبذا لو أتيتم على جميع شبههم ، فكم في تفسير الشوكاني من الشبه المعسولة المسمومة التي نحا فيها نحو ابن تيمية ، وإن الله لمؤيدكم بروح القدس ما نافحتم عن دينه ، ودافعتم عن كتابه ، وأرشدتم عباده إلى الصراط المستقيم . وختاماً نتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يحفظكم ذخرا للإسلام ، ومرشدا للمسلمين ، وتفضل ياسيدى بقبول فائق احترامى .

محمد أحمد عمارة

تلا - منوفية

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فهذا كلام لا يصدر إلا ممن غلظ فهمه وجمدت عواطفه وقسا قلبه وقل احتياظه ، فاستهان بإجماع العلماء وكلام أئمة الهدى الذين لا يقولون في الدين بشيء إلا إذا كان لهم مستند من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - كما سنبينه .

وذلك منه اغتراراً بما زعمه لنفسه من زعامة كاذبة واجتهاد باطل ، ولو احتاط في أمر الدماء وتخرج من خطر التكفير ، أو احترم اتفاق المسلمين وكلام غيره من العلماء المبرزين ، لم يجازف بإلقاء القول على عواهنه ضد أمة بأسرها ، وفيها من العلماء والفضلاء والأولياء والمحدثين والمفسرين وعلماء التوحيد والفلسفة ما أدهش التاريخ وأنطق أعداء الإسلام بفضل الإسلام .

و « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقَى لَهَا بَلَاءٌ يَهْوَى بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا »^(١) .

وكل من قدس نفسه واتبع هواه فلا بد أن يضل عن سبيل الله ، وكل من اتلأ أنانية وكبراً فلا بد أن يحتقر المسلمين ولا يحترم العلماء السابقين^(٢) (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(٣) هؤلاء إذا حللنا نفوسهم وجدناها مملوءة سمرة لا تقبل في وزنها وتقديرها عن قسوة قطاع الطريق ، الذين يستهزئون بسفك الدماء وقتل الأبرياء ، غير أن أولئك يسفكونه ايلاً ، وهؤلاء يسفكونه نهارة لو قدروا ، وأولئك يسفكونه خائفين

(١) حديث شريف يتفق معناه مع ماورد في صحيح الإمام البخارى (كتاب الرقاق باب حفظ اللدن عن أبي هريرة رضى الله عنه) .

(٢) ولعل أدل على ذلك من أن جهلة أتباعهم يجرمون بل يكفرون من صلى على الرسول بعد الأذان بلاحياء من رسول الله ، ولا تحقيق من العلم ، ولا احتياط في الدين ، وعندنا خطابات كثيرة من هذا وهو أدل دليل على ما ذكرنا فإن علماء المذاهب الأربعة هموا على استحسانها . وكم لهم من أشغال تلك المجازفات .

(٣) سورة غافر ، الآية ٥٦

وجالين ، وهؤلاء يسمفكونه فرحين متبجحين ،^(١) وأولئك لا يصفون
بألسنتهم الكاذب ولا يتقولون على الله ، وربما رجعوا إليه نادمين
مستغفرين ، وهؤلاء ياصقون ذلك بدين الله مفتريين على الله الكذب
قائلين : هذا حلال وهذا حرام ، هذا كفر وذاك إسلام .

فجدير بهم أن يغلق باب التوبة في وجزهم ، فإنهم من الذين
ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ،
فكيف يتوبون أو يستغفرون (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)^(٢)

هذه النزعة نزعة تكفير المسلمين ، والاستهانة بدمائهم هي نزعة
الخروج الذين هم شر الطوائف ، حتى ذهب كثير من العلماء « وتشهد
لهم الأحاديث الصحيحة » إلى تكفيرهم . وما نرى طائفة على نقيض
ما جاء به الأنبياء من الشفقة والرحمة والمحبة والوفاء وعدم الانقسام
مثل هذه الطائفة .

وبعد فالقول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقايد على كل واحد
يجافي المحقول قبل أن يخالف المنقول ، فما أدرى بأى قلم يكتبون
وبأى عقل يتفكرون ، فإن الناس خلقوا على درجات متفاوتة لا يحصيها
إلا الله « وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالنَّعْمِ » ومبنى هذا الوجود على أن الصغير يرجع
إلى الكبير ، والجاهل يرجع إلى العالم ، والضعيف يرجع إلى القوى .

(١) وانظر إلى الوهابية مقالة ابن تيمية وما امتلأ به تاريخهم من حوادث قتل المسلمين
واعتمادهم أنهم يشركون ، فهم يتقربون إلى الله بسفك دماهم ، وتطهير الأرض منهم
كما هو معروف .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢

وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ » قال ذلك في قوم أفتوا مجروحاً أن يغتسل ويغسل جرحه ولا يتيمم فمات . رواه أبو داود وابن ماجه ^(١) وقال تعالى : (وَكُوِّدُوهُ إِلَى الرُّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ^(٢) وقال ، (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ^(٣) فعلة الامر بالسؤال هو الجهل ، والامر المقيد بالعلة يتكرر بتكررها . ومعلوم أن العلماء لم يزالوا يستفتون فيفتون ويتبعهم الناس من غير إبداء المستند ، ثقة بدينهم وأمانتهم ، ومزيد معرفتهم ، حتى شاع وملاً البقاع ولم ينكره أحد ، فكان إجماعاً . ولو أوجبنا على كل أحد أن يوهل نفسه للأخذ من الكتاب والسنة وما يجب لذلك لأدى الأمر إلى إبطال المعاش والصنائع ، ولكان تكليفاً بما لا يطاق .

ولا يمكن أن نطيل في النصوص الآن ، ولا فيما ورد من خطر تكفير المسلم وعدم احترام دمه وماله وعرضه ، ولكن نقول : إن سنة الله في البشر أن يرجع الناس في كل شيء إلى العارفين به المبرزين فيه ، ولو لم يفعلوا ذلك لاختلت أمورهم وفسد نظامهم ، ولأصبح العالم فوضى ، ولكان الهلاك أسرع إليه من السلامة .

(١) وكان من حقه على مذهب هؤلاء أن لا يبرئ له فإنه اتخذ هؤلاء المسؤولين الجاهلين أرباباً من دون الله فكان حقه أن يسخط عليه وإن يحد من مثل فعله .

(٢) سورة نساء ، الآية ٨٣

(٣) سورة نحل ، الآية ٤٣ وسورة الأنبياء الآية ٧

وانظر لو اجتهد كل إنسان برأيه في الطب أو ذهب المريض إلى من لا يحسن علاجه ، فماذا تكون النتيجة . وكيف يكون الحال إذا ألقينا بقيادة الحروب إلى الجهال الأغرار أو الجبناء الأغمار ، أو حولنا كل أحد حرية الرأي ورسم الخطط في مجالدة الأعداء والذود عن بيضة الإسلام ، أفلا تكون النتيجة خراب البلاد وهلاك العباد ! .

وقل مثل ذلك في التجارة والزراعة وكل حرفة من الحرف وصنعة من الصنائع . وها أنت ذا ترانا إذا أردنا طبيباً لمرض من الأمراض لم يقنعنا أن نذهب إلى طبيب عام بل إلى الطبيب المختص بذلك الفرع الذى وجه كل عنايته إليه ، علماً منا بسعة العلم وأن الأمور تشتهبه ، وأن الجهل غريزة في البشر ، والمضعف طبيعة في الإنسان ، وشعوراً بأنه لا يكاد يخلص من سلطان الوهم وظلمات المشكلات والمتشابهات إلا من قتل العلم بحثاً ، وأحاط بمناحي التفكير خبيراً ، وعرف ضعف نفسه فلم يسارع إلى أول رأى فظير ولا أسبق خيال طائش .

هذا كله مركوز في الطباع يعرفه الجاهل والعالم والصغير والكبير والرجل والمرأة . فليت شعرى هل أصبحت الشريعة أهون من ذلك كله مع ما فيها من الأسرار الدقيمة والمشكلات الخفية والمتعارضات القوية والمرجحات المختلفة والمنسوخات المتروكة والمطلقات المقيدة والعمومات المخصصة والمفاهيم المعطلة والمجملات التى قد يخفى بيانها والظواهر التى لا يراد ظاهرها والمجازات التى تدق قرينتها والكنايات التى تخفى إشارتها وتبعد غايتها ومواقع الإجماع والاختلاف ومباحث القياس المتشعبة ومسالك العلل الخفية وقوادحها المترامية ، إلى أقوال الصحابة

المختلفة وآرائهم المتباينة وما يحتاج إليه ذلك كله من دقة الفهم وإصابة الرأي وأهلية الحكم ، وسعة الاطلاع وطول الباع ، بعد معرفة اللغة العربية وفنونها ، إلى آخر ما ذكره الأصوليون في مباحثهم الطويلة العريضة ، خصوصاً شروط الاجتهاد المبينة هناك ، حتى قال كثير منهم : إن لاجتهاد لا يتجزأ لجواز أن يكون لبعض الأبواب علاقة بغيره ، إلى آخر ما قالوا .

فلا بد إذً من الرسوخ في جميع الأبواب والإحاطة بمطائنها . وما عسى أن يكون فيها من مقيد ومخصص ومعارض ومرجح ، إلى غير ذلك ، وهذا بحر لا ساحل له ، ومهامه فيحاء يضل فيها الخريت ، ولذلك كان كثير من السلف الصالح يتخرجون من الفتيا غاية التخرج «أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ» .

وقد عرس الخليفة المنصور العباسي وحفيده هارون الرشيد على الإمام مالك أن يحملا الناس على الموطأ فأبى ، وإذا حالت ذلك الإباء وبحثت عن سره وجدته الإخلاص البالغ والدين القيم ، واتهام النفس وعدم تقديسها ، فهو يجوز على نفسه أن يكون مخطئاً وأن يكون الحق مع غيره ، تالياً قوله تعالى : (وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) ^(١) وقوله عز وجل : (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا) ^(٢) (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) ^(٣) .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣

(٢) سورة النساء ، الآية ٢٨

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

وإن من أول شروط الاجتهاد عندى نور البصيرة وصفاء الذوق وقوة الإخلاص وشدة الخوف والمراقبة ، واتهام النفس الباعث على شدة التحرى ومزيد الاحتياط ، ولا يكفى فى ذلك سعة العلم ولا كثرة الاطلاع .
وكم قد رأينا من كبار الحفاظ من هو أكثر حديثاً من بعض المجتهدين ، ولكن لم يسمح له دينه أن يدعى الاجتهاد ، علماً منه بآنه لم يخلق له ولا وجد فيه استعداده الذى يعرف به روح الشريعة فى كل شىء وذوقها فى أحكامها ومراميتها ، وقد قالوا : إن الْمُحَدَّث كَالصَّيْدِ وَالْمَجْتَهِد كَالطَّيِّب .

ولا بأس أن أفكهنك بشىء طريف له مغزى شريف عن بعض هؤلاء المجتهدين العصريين ، ثم نردفهم برؤسائهم المتقدمين الذين كانوا من سعة العلم بالذروة العليا ، ولكن ليس فيهم أناة الأئمة ولا تحريم ولا رزانتهم ووقارهم ، بل كانوا أنانيين متبجحين ، وقلما يأتى المتبجح بخير أو يهدى إلى صواب وقد قال تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)^(١)

أما هؤلاء الطائشون فلا يعرفون الصبر ولا الإيقان . وعلى الجملة فالأمانة تحتاج إلى استعداد خاص فى طينة النفس وتكوينها « والناس معادن كمعادن الذهب والفضة »^(٢) والنحاس لا يكون ذهباً أبداً وإن راقتك صفرته وخفيت عنك حقيقته .

(١) سورة السجدة ، الآية ٢٤

(٢) رواه المسكوى مرزوعاً ، وأخرجه الطيالسى وابن منيع والحارث والبيهقى فى

حديث بلفظ آخر .

وقد شط بنا القلم ، فلنعد إلى تلك الفكاهة : سئل بعض مجتهدي العصر عن قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخِنْزِيرِ)^(١) هل يبقى التحريم في لحم الخنزير إذا أوصلناه من الغليان إلى درجة تقتل كل ما فيه من الديدان التي اكتشفوها الآن ؟ فأجاب مجتهدنا الظريف بأنه لاوجه للتحريم حينئذ ، ويمكننا أن نستنبط ذلك من آخر الآية حيث تقول (إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ)^(٢) والتذكية هي التطهير ، فحيث طهر لحم الخنزير ما فيه كان حلالاً داخلاً في هذا الاستثناء .

ولم يفرق -تضرته بين التذكية بالذال وهي الذبح ، وبين التزكية بالزاي وهي التمسير (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)^(٣) ولا حقيق ما يرجع إليه الاستثناء في الآية ، وهذا من البدعيات التي يعرفها صغار الطلبة ، فماذا تقول في هذا الاجتهاد وذلك التجديد العصري : أليس هذا أشبه شيء بقول من قالت : إن النساء أفضل من الرجال بنص القرآن ، ثم استدلت بقوله تعالى : (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)^(٤) غير منسقة بين همزة الوصل وهمزة الإنكار فظنت أنه إخبار عن فضلهن ؟ فلا أكثر الله من هؤلاء المجتهدين ولا هؤلاء المجتهدات !

لون آخر :

جاء في تفسير ابن كثير هذا الحديث الذي رواه الحاكم عن عبادة ابن الصامت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِي

(١) سورة المائدة ، الآية ٣

(٢) سورة المائدة ، الآية ٣

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٣

(٤) سورة الحافات ، الآية ١٥٣

عَلَى ثَلَاثٍ « ؟ ثم قرأ قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ)^(١) الخ . الآيات الثلاث ، ثم قال : « فَمَنْ وَفَى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » الحديث . قال الحاكم صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه .

فعلق عليه ذلك المجتهد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا خمس لا ثلاث ، ولم يبين حضرته فى الحديث علة تقدر فى صحته غير ما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هى الوصايا مع أن النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد بها الآيات لا الوصايا ، والآيات ثلاث بلا شك ، وقد جاء التصريح بذلك فى رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عباد بن الصامت ، وفيه : « أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِي عَلَى الْآيَاتِ ؟ » ثم تلا (قُلْ تَعَالَوْا) إلى ثلاث آيات .

فانظر إلى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائماً على شفا جرف أهار ، وكم لهؤلاء من أمثال هذه التعليقات الحمقاء ، فرحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتعد طوره .

ولنترك هذه الطبقة المتفهبقة المتشدقة على ما بهم من جهل وسخافة . ولنرجع إلى من قبلهم من رؤسائهم وأئمتهم لنرى إمامهم ابن تيمية الذى قدموه على جميع الأئمة ، وهم فى تلك النزعات الخبيثة على الرغم من دعوى الاجتهاد ، مقلدون له فانون فى تقليده ، كيف منع من شد الرحال لزيارته - صلى الله عليه وسلم - وجعل السفر للزيارة سفر معصية

لا يباح فيه قصر الصلاة ، خارقاً بذلك إجماع المسلمين ، غير مستحى من سيد المرسلين ! ودليله الذى استند إليه واستنبط منه ما لم يستنبطه أحد من الأولين والآخريين هو منعه - صلى الله عليه وسلم - من شد الرحال إلا لأحد - المساجد الثلاثة ، ففهم من ذلك النهى أن الرحال لا تشد للزيارة بناء على خيال قام برأسه أن القصر حقيقى لا إضافى ، ولو كان كما فهم ذلك المجتهد الكبير لكان شد الرحال لصلة الرحم أو زيارة الإخوان أو التجارة أو غير ذلك محرماً ، فإذا تقف مصالح العالم ، وتتعطل أمور الدين والدنيا !

ولو تبصر قليلاً لعلم ما أراد - صلى الله عليه وسلم - من أن المساجد متساوية فى الفضل فكلها سواء إلا هذه المساجد الثلاثة ، وذلك ظاهر لا خفاء فيه ، فإن الأصل أن الشيء يستثنى من جنسه القريب ، فإذا قلنا : ما مات إلا زيد ، كان معناه : ما مات إنسان إلا زيد ، وليس معناه : ما مات حيوان إلا زيد ، ومن فهم ذلك كان من الحيوان لا من الإنسان .

على أننا لو جعلنا القصر حقيقياً لتسدت أمور العالم كما قلنا ، والشريعة إنما جاءت بالصلاح لا بالفساد .

ويلتحق بذلك ما رأيناه فى « فتح البارى » من قول ابن تيمية المذكور : إنه لم يجمع بين إبراهيم وآل إبراهيم فى رواية من الروايات التى وردت فى تعليم الصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - حين سئل عن ذلك ، مع أن الجمع بينهما وارد فى البخارى ، وهو لدى الحفاظ بمنزلة الأجرؤميا. فى النحو ، إلى غير ذلك مما هو معروف عنه .

وهو من كبار - أو كبير - أولئك المجتهدين ، ولو لم يكن له إلا ما هو معروف عنه وعن تلميذه ابن القيم خصوصاً في نونيته من إثبات الجهة لله تعالى أخذنا بالمشابهات واغتراراً بظواهر الآيات لكان كافياً لكل منصف في تقدير ما لهم من علم وعقل^(١) .

ثم انظر بعد ذلك كله إلى كلام الشوكاني^(٢) الذي ذكره السائل ، وإلى فهمه الكاسد وقياسه الفاسد ، وهو من كبار هؤلاء أيضاً .

فإن الأجبار والرهبان كانوا يحللون ويحرمون من عند أنفسهم قائلين : ما حللناه في الأرض فهو محلول في السماء وما ربطناه في الأرض فهو مربوط في السماء ، كما هو معروف عنهم ومسطر في كتبهم المقدسة ، فضلاً عن تاريخ الكنيسة أو التاريخ العام .

وأما أئمة المسلمين فلم يدعوا لأنفسهم ذلك المنصب الذي لا ينبغي أن يكون إلا لله ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك أو يصدروا عن غير قول المعصوم وسنته التي هم أعرف الناس بها وأحرصهم عليها .

(١) ومن الاجتهاد المضحك قول بعضهم إن الأمة إذا زنت جلدت مائة إن كانت بكراً تدخلوها في عموم قوله تعالى : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فان تزوجت جلدت خمسين بقوله : (فإذا أحسن فإن أتت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فالحصنة عنده أقل من غير الحصنة . فانظر إلى هذا الاستنباط العجيب ، وأعجب منه ما نقل بعضهم عن ابن حزم من أن الإنسان إذا بال في الماء الراكد نجسه لورود النهي في الحديث عن ذلك ، فإن بال في إناء ثم صبه فيه لم ينجس ، إلى غير ذلك من المضحكات الميكيات من أولئك الجهابذيين الذين لا يأخذون إلا من الكتاب والسنة . وما أحسن قول ابن الجوزي في حقهم :
لعمرى لقد أدركت منهم مشايخاً وأكثر من أدركته ماله عقل

(٢) لما تولى الشوكاني القضاء قال بعض علماء اليمن : وإنا لا ندرى أشراً أريد من في الأرض أم أرادهم ربهم رشداً . وهناك ما هو أشد من هذا من أقوال العلماء في حقه ، ولاداعي إلى نقلها .
(١٠)

وقد صرحوا بذلك فقالوا : إذا خالفنا الحديث الصحيح فاضربوا بقولنا عرض الحائط . فكيف يحل له بعد ذلك أن يقول : إنكم اتبعتم آراءهم ولم تتبعوا الكتاب والسنة ، وكل إنسان يعلم أنهم لم يقولوا من عند أنفسهم ، وإنما يقولون : هذا قول رسول الله وذاك فعله وتلك سنته ، وهم أعرف الناس بذلك وأقدرهم على تعرف ما جاء فيه .

وقد وثق الناس بهم فلم يتهموهم في دينهم ولا علمهم ولا أمانتهم بعد ما عرفوا أنهم يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وحاشاهم أن يشرعوا من عند أنفسهم وهم خير القرون . فإن لم يجدوا شيئاً في كتاب الله ولا سنة رسوله ، اجتهدوا ما استطاعوا . وهم أعرف بروح الشريعة ومقاصدها ومناط أحكامها . ولو لم يفعلوا ما فعلوا لكانت الشريعة الآن لعبة بيد الجهال كما رأيت فيما تلوناه عليك .

وبالجملة فهوؤلاء الأئمة قد نظروا في الشريعة نظر العالم المدقق والأمين الحذر . فم وجدوه مجعاً عليه عضواً عليه بالنواجذ ، وما كان فيه اختلاف أخاؤا منه الأقوى والأرجح ، لكثرة من ذهب إليه أو لموافقته لقياس قوى ، أو تخريج صحيح من الكتاب والسنة .

وقد كان هذا ميسراً للطراز الأول من المجتهدين حين كان العهد قريبا والعلوم غير متشعبة ومذاهب الصحابة والتابعين معروفة ، على أنه لم يتيسر ذلك أيضاً إلا لنفوس قليلة ، ومع ذلك فقد كانوا مقتدين

بمشايخهم معتمدين عليهم ، ولكن لكثرة تصرفهم في العلم صاروا مستقلين .

وكيف يقيس عاقل هؤلاء الأئمة على أولئك الرهبان الذين لم يدعوا لأنفسهم منصب النبوة فحسب ، بل تخطوا ذلك إلى منصب الإلهية ! فإن النبي يقول من عند نفسه ، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)^(١) ولذلك قالت الآية : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)^(٢) كما اتخذوا المسيح ابن مريم ، فسوت . بينهما ، وقالت في آخرها ، (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)^(٣) .

فهل ترانا أشركنا الأئمة بالله تعالى ، أم ذلك كلام من يرسل لتقلبه العنان بما يوجب سحق الله والملائكة والناس أجمعين ؟ .

وقد امتنع ذلك ما لا يحصى من المفاصد التي يرتكبها هؤلاء الجهلة ويتشدد بها أعمار من ينتسبون إلى العلم من زعانف القوم وأراذلهم . وقد جر ذلك إلى استباحة الأعراض بل الأموال والدماء ، فهي من السيئات الباقيات التي عليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

فإن تشبثوا بالقياس والاستنباط ، قلنا : ذلك لا بد منه على رغم أنوفهم بمقتضى الدلائل العقلية والنقلية ، حتى قال بعضهم : إن من لا يقول بالقياس لا يعد من العلماء ولا يعتبر من أهل الإجماع .

(١) سورة النجم ، الآية ٣

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣١

(٣) سورة يونس ، الآية ١٨

وإجمال القول أنهم إذا قالوا إن كل إنسان يأخذ من الكتاب والسنة ولو لم يعرف الفاعل من المفعول فضلاً عن دلالة الإيماء والافتضاء ومسالك العلة وقوادحها، ومعرفة المنطوق والمفهوم وما فيه من جدل وكبير عمل، ومعرفة ما صح وما يعمل به في فضائل الأعمال، وما يحتاج به في الحلال والحرام، وما قيل في المرسل والمسند، إلى غير ذلك فضلاً عما قيل في الرجال من تعديل وتجريح، وهو بحر لا ساحل له، وما عسى أن يكون في الحديث من علة خفية، مع معرفة تاريخ الأحاديث ليتميز الناسخ من المنسوخ، ومعرفة المرجحات عند التعارض ومواقع الاختلاف والاتفاق، حتى لا يخرقوا الإجماع الخ .

نقول إذا أباحوا للناس أن يأخذوا من الكتاب والسنة مع الجهل بذلك كله، فقد عرضوا الدين للضياع والشريعة للهزة والسخرية، وكان ذلك منهم جنوناً أو فوق الجنون، وإن قالوا إنه يقلد العالم في ذلك كله، فقد هدموا ما بنوا، وقوضوا ما شيّدوا فأين يذهبون .

« وهل هذا إلا رجوع للتقليد الذي منعه وتفسير للماء بعد الجهد بالماء^(١) » .

وبعد فإني أعجب كيف يكلفون أرباب الحرف والصناع وعامة السوق المشتغلين بمعاشهم وعيالهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة، وليس ذلك في وسعهم ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها؟ .

(١) وليت شعري ماذا يريدون منا؟ أيريدون أن نقلدهم فيما يقولون وهم يحرمون التقليد أم يريدون أن ينازعونا ونحن مجتهدون كما أنهم مجتهدون؟

ولا أراني محتاجاً بعد ذلك للإضافة في الدلائل النقلية والكلام عليها ، فإن الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس . ولولا ظهور تلك الطائفة التي اقتدت بأسلافها من الخوارج الذين هم أسرع إلى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم من الفراش إلى النار ، لما تحرك به قلم ولا تفكر فيه أحد .

ولنختم كلمتنا هذه بتلك الحكاية التي تخفف عنك ما لا قيت من تلك الترهات التي يخجل منها العلم ويبكى لها الدين .

قال مولانا الشيخ محمد عليش - رحمه الله - في فتاويه : إن ابن حزم كان له مناظرات مع الباجي وهو من كبار علماء المالكية : فلقى أخاه إبراهيم بن خلف الباجي يوماً فقال له : ما قرأت على أخيك ؟ فقال : قرأت عليه كثيراً ، فقال له ، هلا اختصر لك العلم فأقرأك إياه في سنة أو أقل ؟ فقال : أو يصح هذا ؟ فقال : أنا أقرئك العلم في سنة ، فقال : أنا أحب ذلك ، فقال له : أو في شهر فقال له : ذلك أشهى إلي ، فقال له : أو في جمعة أو دفعة ، فقال : هذا أحب إلي من كل شيء ، فقال له ، إذا أوردت عليك مسألة فاعرضها على الكتاب ، فإن وجدتها فيه وإلا فاعرضها على السنة : فإن وجدت ذلك فيها وإلا فاعرضها على مسائل الإجماع . فإن وجدتها وإلا فالأصل الإباحة فافعلها .

فقال له إبراهيم الباجي : أرشدني إلى ما يفتقر إلى عمر طويل وعلم جليل ، لأنه يفتقر إلى فهم الكتاب ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، ومؤوله وظاهره ، ومنصوصه ، ومطلقه ومقيده وعمومه وخصوصه :

إلى غير ذلك من أحكامه ، ويفتقر أيضاً إلى حفظ الأحاديث ، ومعرفة
صحيحها من سقيمها ، ومسندها ، ومرسلها ومعضلها ، وتأويل مشتبها
وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، إلى غير ذلك ، ويفتقر إلى معرفة
مسائل الإجماع وتتبعها في جميع أقطار الإسلام ، وقل من يحيط
بهذا . ٥١ .

وقد قال الإمام أبو بكر بن العربي في حق هذه الطائفة في « التواصم
والعواصم » : إنها أمة سخيصة تسورت مرتبة ليست لها ، وتكلمت
بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على - رضى
الله عنه - يوم صفين ، فقالوا : لا حكم إلا لله . وما أدري أيهما
أجهل وأخطر : أطائفة الباطنية أم طائفة الظاهرية ؟

هذا وإنى ألفت نظرك إلم بما أتى به الخوارج والروافض والمعتزلة
والظاهرية والوهابية مما تقشعر منه الأبدان وتتبرأ منه الأديان بناء على
اجتهادهم المبني على الوهم دون الفهم .

ولنقهر النلم على ترك الجولان في هذا الميدان ، إشفافاً على
القارىء . وربما عدنا إليه مرة أخرى .

طريقة عمليّة تفضي على عمل البشريين^{١١} في أيام معدودة قضاءً امبرماً

إن هذا الخطر الداهم لا يكفي في القضاء عليه أن نضيع كثيراً من الزمن في رسم الخطط لدفعه و سن النظم والقواعد لدرئه ، فإنه كالنار تجب المبادرة إلى إخمادها بكل سرعة ونشاط ، أو كالسم إن توانينا في معالجته سعياً وراء التفكير فيما يجب له من أنواع المعالجة اللازمة حالا ومالا استفحل أمره واشتد ضرره ، وسرى في جميع أجزاء الجسم فأفسده وأفسد على الطبيب كل علاج .

فالمبشرون جادون في إفساد تلك الفرائس التي سقطت بين مخالبهم وهم متيقظون مراقبون لحركاتنا ، فلا بد أن يعملوا على إبعاد هؤلاء المساكين إلى حيث لا يعلم لهم مقر ، ولا يوقف لهم على أثر ، قبل أن يتم العلاج ، وتنفيذ الخطط ، وإن كانت حكيمة في غاياتها ومقاصدها ، فالساعة رهيبية ، والأمر يوجب العمل المجد السريع .
لذلك أرى ما يأتي :

واجب الفائزين بأحباط سمعى المبشرين

من العلماء والعظماء

(أولاً) : يختار العدد الكافى من ذوى الكفاية الدينية والعلمية والوطنية ونرسلهم إلى البلاد التى تقوم بها معاهد التبشير، يتجولون ويتصلون بأبء التلاميذ الذين هم بتلك المدارس ، ويبينون لأهل تلك البلاد الخطر المترتب على وجود هذه المدارس ، والشئ الناجم عن إدخال أبنائهم فيها ، ويجب عليهم أن يحملوهم على إخراج أولادهم حالاً منها ، وليتكلموا لهم لكل ما يطلبونه من تعليم واستشفاء .

(ثانياً) : عليهم أن يجمعوا الناس بوجه عام ويبينوا لهم المضار الدينية والخاتمية والقومية من إدخال أبنائهم وبناتهم فى تلك المباني المشنومة ، التى تقام باسم التعليم والرحمة وهى من ذلك براء ، ويجب عليهم أن يبصروهم بتلك العواقب الوخيمة التى تعود عليهم وعلى قومهم من تلك المعاهد، ويغرسوا فى نفوسهم روح الكرامية فى القائمين بها ، بحيث لا يعاملونهم ولا يخالطونهم بل ولا يحادثونهم ، حتى إذا ما وجدوا أنفسهم منبوذين مقاطعين وألقوا معاهدهم خالوا من أبناء المسلمين اضطروا إلى مغادرة البلاد فاستراح العباد من ويلاتهم وطهر الجو من أرجاسهم وعاشت الأمة آمنة على دينها وقوميتها ووحدها .

(ثالثاً) : إذا أعوز القائمين بمقاومة التبشير وجود العدد الكافى من ذوى الغيرة والعلم ، فأمامها جماعة الوعاظ والمرشدين والموظفين فى

معظم جهات القطر ، يكلفهم فضيلة شيخ الجامع الأزهر بالقيام بأعباء هذا العمل وهو من أخص أعمالهم ، فيقومون بتحذير الناس ووعظهم في المساجد والبيوت والشوارع وفي كل مكان ، ويوزعون النشرات على نحو ما يفعل المبشرون بحيث يستنهضون الهمم ، ويحفظون العزائم ، حفظاً لأبناء المسلمين من المضلين الدجالين الذين يفسدون عقائدهم ، ويخرجونهم من دينهم ويوقعون العداوة والبغضاء بينهم وبين أمتهم ووطنهم .

(رابعاً): الاكتتاب ، يجب الإسراع بتأليف لجان فرعية في مختلف نواحي القطر ، يكون أعضاؤها من ذوى العلم والدراية والمكانة الذين يعرفون أن هذا العمل جهاد في سبيل الله فأجر التعب والجد والسهر منخور عند الله تعالى فيكون عملهم مضاعفاً متواصلاً مقروناً بالإخلاص والموعظة الحسنة والإرشاد النافع المقبول ، حتى يتسنى لهم جمع ما يمكن جمعه من الأمة كل على قدر ما آتاه الله . ولو قرشاً واحداً على نحو ما كانوا يفعلون في مشروع القرش .

(خامساً): يجب أن ينتفع المعوزون وذوو الحاجات من هذا المال أولاً فأولاً ، حتى يحسن الناس بفتح المشروع ويلمسوا فائدته ، فيطمئنوا إلى عمل اللجان ويؤمنوا بأنهم ستغنيهم عن ارتياد معاهد وملاجيء ومشافي المبشرين .

(سادساً): وما يجب على اللجان الرئيسية عمله أن تستعين - بالحكومة وذوى النفوذ من الكبراء على تنفيذ خططها ، وإخراج أبناء المسلمين من بيوت المبشرين ، وإعداد الأماكن اللازمة لمداواتهم وتعليمهم

بحيث يتم ذلك قبل السنة الدراسية المقبلة ، وأمامهم وزارة الأوقاف ، والأوقاف الملكية وغيرها . ولدى الأمة كثير من الجمعيات الخيرية فلا بأس أن تلحق هؤلاء المساكين بها وتساعدوا الحكومة من جهة واللجان بما تحمعه من جهة أخرى ، إلى أن تتسع دائرة العمل وتنشأ الأماكن المطلوبة الكافية في أنحاء القطر .

وبعد فإن ما أحدثه المبشرون قد أثار حفيظة الأمة وأجج نار الحقد والبغضاء في الصدور ونبه في النفوس عوامل الغيرة على الدين فيجب أن نبادر بالعمل وننتهز هذه الفرصة ، ونستغل هذا الظرف للدين والوطن جميعاً ، والأمة ستعاضدنا وتنصرنا ، وتنفذ كل ما نستير به عليها ، فإن ترانينا فترت العزائم ، وضعفت الهمم ، ونامت العواطف وحينئذ لا نصل إلا إلى نتيجة ضئيلة يتغلب عليها المبشرون على طول الزمان :

وربما فات قوما جل أمرهم من التآني وكان الحزم لو عجلوا

واجب الحكومة :

أما الحكومة — ودينها الرسمي الإسلام وهو دين شعبها الغالب — فيجب أن تثبت لهؤلاء المجرمين العادين الدجالين ، أن لها عيناً ساهرة على رعاياها ، وأن تقيم البرهان القاطع على أن غيرتها على عقائد أبنائها وعقول بناتها وشرفهن ، لا تقل عن غيرتها على الأمن العام والمصلحة العامة .

وأي جرم في نظر العقل أو القانون أكبر من أن جماعة مرتزقة يحتالون بكل أنواع الحيل الدنيئة السافلة على صغار أبناء الأمة

وضعفاً ، ويغرونهم بأنواع المغريات لإفساد عقائدهم وخروجهم من دينهم ، والحيلولة بينهم وبين أهلهم ، إنه والله لأكبر شين في وجه المسيحية وأفظع عار في المدنية العصرية الأوربية أن يقوم هؤلاء الجهلة الأغبياء بأمثال هذه المخزيات . ألا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الفضائح نشود الدين المسيحي شر تشويه وتظهره أمام الناس بأنه لا يقوم إلا على الإجرام والختل والحيلة والدجل .

يجب أن تقوم الحكومة بما يلزمها سواء أكان من جهة السياسة أم من جهة القضاء أم القوانين العامة .

واجب الأمة :

وإنه لمن المؤلم حقاً أن تعرف الأمة نيات هؤلاء الناس وغاياتهم من إقامة دورهم المتنوعة ، ثم تقبل عليهم وتؤمنهم على أفلاذ أكبادها ، وأعز شيء لديها ، يعبثون بهم ، ويخرجونهم من حظيرة الدين ، بل من حظيرة الأمة في الحقيقة ، لأنه باندماج أولئك الأغرار في زمرة هؤلاء المفسدين ، قد انقلبوا حرباً على الدين أولاً وعلى الأمة ثانياً . ولماذا لا يمتدى المصريون بإخوانهم الهنود في إحكام المقاطعة للمبشرين كما أحكم غاندى وأتمته مقاطعة البضائع الأوربية مع شدة حاجتهم إليها ، أفلا تقاطعون أنتم هذه العروضات الجهنمية التي عرفتم خطرها ولمستم ضررها :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

الدِّينُ وَالْعِلْمُ (١)

يتوهم بعض الناس أن العلم قد يعادى الدين ويباينه ، لأن بعض النظريات العلمية المعروفة لا تتفق هي وبعض القواعد الدينية ظاهراً . غير أن المتأمل الذى يحقق ويبحث يعلم أن كثيراً من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير ، وأن كثيراً من الآراء العلمية التى كان يرى أصحابها أنها هى الثابتة التى أفضى إليها البحث ، قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها .

من يتحقق هذا ويعلمه - وهو ما تدل كل الدلائل عليه - يجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية فى ظاهره مخالفاً للدين لا يباينه فى الواقع ونفس الأمر . وأن الصحيح فى الأمر هو ما ذهب إليه الدين . وأن الرأى العلمى هو الذى لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه . وإنما نأقلون لك كثيراً من لشواهد على ذلك ، ولكنى أحب أن أعلمك قبل كل شئ أننا لسنا من يعادى الجديد ، أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية ، والاكتشافات الحديثة فى هذا العصر . إلى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى .

ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقى بها العمران وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الإنسان ؟ ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق بعض الباحثين ، وهي في الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقى . تلك الظاهرة التي لا يكاد بعض الناس يخاض منها أو ينفك عنها ، هي تلك الكبرياء الممقوتة التي تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثًا وأحاط بها خبرًا ، فتراه - وما أوتي من العلم إلا قليلاً - يتكلم في كل شيء ويحكم على كل شيء ، حتى إنه كثيرًا ما يعتقد أن الخارج عما وصل إليه من النواميس وحدده من القوانين لا نصيب له من الصحة ، ما دام مجاوزًا دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره ، وهزىء بما كان يتبجح به من معلوماته ، مبينًا ما كان له من زلات ، وما تورط فيه من جهالات . وقد ترى ذلك الهازيء الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين وكان فوزه فيما استدركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطغى عقله فتزل قدمه .

ولو وقفوا عند ما وصلوا إليه من المعلومات الحقة التي شهد لها الحس وأقرها الامتحان وقام عليها البرهان ، ولم يتعرضوا لما سوى ذلك ، لكانوا في أمن من الزلل ، وعصمة من الخطل ، ولكن طغيان نفوسهم أبى عليهم أن يعرفوا قدرهم ، أو ينسبوا أنفسهم لجهل أو قصور .

الخلاصة :

أن من تأمل فيما يتجدد كل يوم من العلم الحديث ، ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون ، لا يشك في أن العلم البشرى

لا يزال طفلاً . وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلاً . وهذا هو مقتضى الضعف البشري : وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلقته وتكوينه . وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر : أنهم عرفوا ما يمكن وما لا يمكن ظناً منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون ، غرور يبرأ منه التحقيق العلمي ويستهزئ به النظر الواسع المدقق .

ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة :

١- لو قال قائل : إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلاسفة السابقون قائلاً بالجهل منابذاً للعلم لا يدري ما يقول : فإنهم كانوا مجتمعين على أن كلاً منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل ، وأن ما سموه علماً ولم يكن محلاً للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به في عالم الخرافات ، وإن شهد أهل زمانهم بأنهم المتخصصون في ذلك .

٢- لو واجه أولئك العلماء باحث بآن بعض الجواهر كالذهب عنصر بسيط تلقى منهم أشد الإنكار ، والعامّة تكون في جانب المنكرين لا محالة ، لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن . وقد أصبح اليوم إنكار هذا الأمر هو الجدير بآن ينكر : إلى غير ذلك من الأمور العديدة التي تجدد بها العلم .

٣- هذا الجسم الإنساني كم فيه من جزء كانوا يظنون أنه لا منفعة فيه ، ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع . وناهيك ما يقولون الآن

في الغدد ، وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص . ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)^(١) ولا يزال قوله تعالى : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٢) صادقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى تقوم الساعة .

ولا ينبغي أن ينخدع منخدع بكثرة ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر « المنظار المعظم » فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون في بعض الحيوانات التي تسبب بعض الأمراض : إنها تحت المجهر ، يريدون أن المجهر لا يزال قاصراً عن كشفها ، وإنما عرفوها بآثارها .

ولا يزال كثير من الأمراض مجهول الميكروبات إلى اليوم . رغم تقدم الأبحاث العلمية والتفنن في صناعة الآلات الكاشفة .

وكم من شيء في العقاقير الطبية يعرف تأثيره في بعض الأدوية ولا يدري لماذا يكون هذا التأثير ، ولذلك نرى الطب كل يوم في تطور ، حتى لقد قال لي بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زمناً طويلاً : إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها في المدرسة ، وكانت إذ ذاك هي العلم الذي لا يعول على غيره .

وما يدرهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم في خطأ من قبلهم ؟ وقد قرر ذلك غاية التقرير أحد

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

علماء أوروبا في مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج الجامعة
أثناء أغسطس سنة ١٩٠٤

ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ،
ولا يدرك غوره أحد ، ولا ينتهي منته إلى كل ما فيه « وأنى للمتناهي
أن يبلغ ما لا يتناهي » ؟

وإن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التي تكاد تلحق بالبدهيات
أن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشئ وبين عدم الشئ في نفسه ، وأن
الأول لا يستلزم الثاني ، وأن عدم الدليل على الشئ ليس دليلاً على
عدمه .

تعليقاتٌ وحقائقٌ كان السكوتَ خيراً لكم لو كنتم تعلمون^(١) إنَّ في البلدِ علماءً وفضلاءً ، فأتقوا الله في أنفسكم واسكتوا خيراً لكم

إن المريض إذا أحس بمرضه طلب الدواء فرجى له الشفاء ، فإذا
أعضل المرض أبطل إحساسه فكان ميؤوساً منه ، وذو الجهل المركب
لا يحس بجهله فيفعل أقبح القبيح معتقداً أنه من أحسن الحسن ،
ويأتى أبطل الباطل زاعماً أنه من أحق الحق .

جهلت وما تدري بأنك جاهل ومن لى بأن تدري بأنك لا تدري

وأكبر المصائب هو جهل الجاهل بجهله وعدم إحساس المريض
بمرضه . وقد ابتلينا ، وهي شر بلايانا بهذا الداء الوبيل وكثر بيننا
العليل والدخيل وأى داء أذوأ من الفوضى التي يتبجح فيها الجاهل
وينشط فيها الباطل .

كتبنا مقالا بمجلة الإسلام جاء فيه إن بعض الناس قال لى : من
لم يعتد أن الله فى السماء فهو كافر لأن الله يقول : (ءَأَمِنْتُمْ مَن فِى
السَّمَاءِ)^(٢) إلخ فقلت له : إن الذى يعتقد ذلك على ظاهره هو الكافر
فإن من اعتقد أن لله ظرفاً يحويه ومكاناً يستقر فيه فقد شبهه بخلقه ،

(١) مجلة الإسلام - السنة الثانية - العدد الرابع والعشرون - جمادى الآخرة - سنة

(٢) سورة الملك ، الآية ١٦

ومن شبهه بخلقه فقد كفر ، وكنت أظن أنهم سيتوارون من ذلك وأنهم لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمعون .

ولكن طاع علينا الشيخ رشيد بمقال في جريدة (السياسة) يمثل الجهل والتناقض والتشبيه والتجسيم والإلحاد والوقاحة والبذاءة بكل معانيها ، فلم نعجب لذلك وقلنا « الشيء من معدنه لا يستغرب » وإكفى ولا أكتمك الحقيقة مع سوء اعتقادي في الشيخ رشيد ما كنت أظن أن يبلغ به الجهل وضعف العقل إلى هذا الحد . فإن من بدهيات العقائد التي نلقينها أول ما جئنا الأزهر ، بل قبل أن نجىء الأزهر . أن الله مخالف للحوادث ، وأقمنا على هذه الدعوى ذلك البرهان البدهي وهو أنه لو ماثلها لكان حادثاً مثلها وذلك محال ، ولكن الشيخ لا يستطيع أن يفهم إلا المحسوسات ، وأحكام المحسوسات والماديات ، وأحكام الماديات . ولذلك حيد الرأي القائل : بأن الملائكة هي القوى الطبيعية ونقله كذباً وزوراً عن بعض المفسرين ، وقد تحديناه أن يذكر ذلك المفسر فلم يجر جواباً ، فاستعداده وتكوينه لا يقبل التنزيه ولا يعرف غير التشبيه « وكل ميسر لما خلق له » وتعالى الله عما يصفون .

وإننا نختصر الطريق فنقول :

إن كنت آمنت بظواهر الآيات فأنت مجسم ومشبه وإن صرفتها عن ظاهرها المفتضى للتشبيه . والتجسيم فلا خلاف بيننا وبينك لو كنت تعقل ، أو نفول : إذا لم تفهم من الآية أنه مستقر في السماء أو على العرش وقد أجريتها على ظاهرها كما نقول فما الذي فهمته منها ، وما

الذى آمنت به ؟ وهل تستطيع أن تؤمن بما لا تعقل أو بما تعده محالاً .
وهل يمكنك أن تفهمنا أنك تؤمن بظواهر هذه الآيات مع كونك منزهاً
فتجمع بين النقيضين أم هي كلمات قالها قائل فنقلها ناقل فاخترها
جاهل . إني لا يمكنني أن أعتقد إلا أنك أحد رجلين : رجل يلبس على
الناس ، أو رجل لا يفهم ما يقول ، وإلا فما معنى قولكم : إنه مستو
على عرشه حقيقة ، وقولكم : إننا نؤمن بذلك على ظاهره ، ثم تقولون :
إنكم غير مشبهين ولا مجسمين ، وإني أصارحك الحقيقة أننا لا نكتب
بحكم ولا نطمع في هدايتكم ، فإننا يائسون منكم ، وكيف لا نياس
من لا يتكلم بالعقل ويتناقض وهو لا يدري .

وخلاصة القول : إنك إذا كنت تفهم لها معنى آمنت به على
ظاهره كما تقول فأخبرنا عنه ، لنثبت لك أنك مشبه بالثلث ، وإن
كنت تقول : إني أنزهه عن مشابهة الحوادث وأثبت ذلك له على ما أراد
مما لا أعلم فقد وافقتنا وصرفتها عن الظاهر كما هو رأينا .

ويبقى الخلاف بيننا وبينكم في أننا نخوض في تعيين المعنى المراد :
وأنتم لا تخوضون فيه ، وليس هذا إيماناً بالظاهر كما تقولون لو كنتم
تعقلون . بل ليس خلافاً حقيقياً بيننا وبينكم ، فإننا لا نقول بتعيين
ذلك المعنى بحيث لا يصح غيره ، فلسنا نريد إلا تنزيهه تعالى عن
مشابهة الحوادث وإنما سلطنا هذه الطريقة ليقنع الذين لا يسهل عليهم
التسليم بما لا يعقلون ولا التفويض فيما لا يفهمون .

وهنا نفيديكم فائدة جليلة ، وهي أن مذهب السلف ليس كما
تفهمون أو تلبسون ، فإن مذهب السلف يشترك هو ومذهب الخلف

التنزيه المراد من الآية معروف معين ، أو ليس كذلك فالخلف يعينون على سبيل التجويز ، والسلف لا يعينون بل يفوضون . وما فعل المتأخرون ذلك إلا لكثرة المبتدعة والملحدين والزنادقة المشككين للعامه في زمانهم ، أم ما أنتم عنيه فليس مذهباً للسلف ولا للخلف ، ولا يتصور أن يكون مذهباً لمسلم يعقل ما يقول .

وقد عرفنا مبدأ لكل طائفة إلا هذه الطائفة فإنهم ليس لهم مذهب مخصوص ، ولا أصول ثابتة يرجعون إليها ، ولا قواعد محصية يعاون عليها ، فهي مؤلفة من سائر المذاهب بدون علم ولا تمحيص ، ولا أصول يستندون عليها كسائر الفرق ، فأصبحت فرقة غريبة في أهل الأهواء وإنما الجامع بينهم فساد الأفكار والاعتراض على الأئمة الأخيار ، وقد نبغوا في استعمال الوسائل المختلفة ، والتفنن في عمل (البروبجندات) لظهور أسائهم ، ولكن من لطف الله وحكمته أن الناس عرفوا ذلك فأصبحوا لا يغترون به ولا يفكرون فيه .

وإني أعجب لصاحب « المنار » كيف يكتب ما كتب رداً علينا بعد ما قلنا إن من يؤمن بهذه الآيات المتشابهة « على ظاهرها » فهو كافر ، أفلا يعقل قولنا « على ظاهرها » أم يريد أن يكتب ويهوش فحسب ، ولندع مناقشتهم من الوجهة العقلية التي هي صعبة عليهم ونتكلم معهم في نصوص الكتاب والسنة ، فإنهم يزعمون أنهم من أئمة الحديث وإن كانوا أكذب الناس في ذلك كما بيناه في مجلة الأزهر الصادرة في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ هـ . في الكلام مع الشيخ رشيد أيضاً :

فرقة تدعى الحديث ولكن لا يكادون يفقهون حديثاً

ولندع هذا كله ونسائلهم هذه الأسئلة : لم قلتم - إن الله في السماء أو على العرش بمقتضى قوله : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)^(١) وقوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)^(٢) ولم تقولوا : أنه في الأرض بمقتضى قوله : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)^(٣) أو تقولوا : إنه في جميع الأجواء والنواحي بمقتضى قوله : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)^(٤) ولماذا لم تقولوا : إنه في بيوتنا وأسواقنا بمقتضى قوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(٥) أو تقولوا : إنه في قبلة المصلى كما في الحديث الصحيح . أو تقولوا ، إنه تحت الأرض أو في باطنها بمقتضى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلِ لَهَبٍ عَلَى اللَّهِ ».

إلى غير ذلك ما دتم مؤمنين بها على ظواهرها ، وهى على حقيقتها عندكم كما تقولون ، وهل تقولون بعد ذلك إنه ذو يدين بمقتضى قوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ)^(٦) أم ذو أيد كثيرة بمقتضى قوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا)^(٧) وهل تثبتون له عيناً واحدة بمقتضى قوله : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)^(٨) أم أعيناً كثيرة بمقتضى قوله : (تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا)^(٩) . . . إلخ .

(١) سورة ، الملك ، الآية ١٦

(٢) سورة طه ، الآية ٥

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٣

(٤) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٥) سورة الحديد ، الآية ٤

(٦) سورة ص ، الآية ٧٥

(٧) سورة يس ، الآية ٧١

(٨) سورة طه ، الآية ٣٩

(٩) سورة القمر ، الآية ١٤

بل نقول والله يعلم بنيتنا واضطرارنا إلى نصيح المسلمين : هل تقولون إن لله يمينا من حجر بدليل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ » أم تؤولون بعض هذه النصوص دون بعض ترجيحاً بلا مرجح فتحلونه عاماً وتحرمونه عاماً؟ أم تؤمنون بتلك المتناقضات كلها على حقيقتها وظاهرها كما صرحتم به ؟ وإن كنتم تقولون ما لا تعقلون ثم تنسبون ذلك إلى السلف كذباً وزوراً وحمقاً وجهلاً .

وقد قلنا إن السلف يوافقون الخلف في صرف آيات الصفات وأحاديث الصفات عن ظاهرها قطعاً لأنهم منزهون لا مشبهون . وإنما لخلاف بينهم بعد ذلك في تعيين ذلك المعنى التنزيهي وعدم تعيينه .

ولا بد أن ننبه القارئ الكريم على ما يكون منهم جهلاً أو تلبساً بعد إثبات الجهة بصريح العبارة ، وقولهم إن هذه النصوص على حقيقتها وظواهرها كما قال الشيخ رشيد واعترض علينا في صرفها عن ظاهرها فجعل الكفر إيماناً والإيمان كفراً ، والجهل علماً والعلم جهلاً ، ثم تخبط بعد ذلك في الخروج من المأزق كما نبينه في مقال خاص بعد .

نقول إنهم بعد ذلك كله يتبجحون بأنهم سلفيون ومنزهون ، وقد أطنب في الرد عليهم ابن الجوزي والتقى المعنى بما لا مزيد عليه ، حتى قال ابن الجوزي في قصيدة طويلة له :

لعمري لقد أدركت منهم مشايخا وأكثر من أدركته ماله عقل

يقولون بعد هذا كله إنهم منزهون لا مشبهون ، وهم كاذبون من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

قال في كشف الظنون : « ذكر ابن تيمية في كتاب العرش أن الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش وقد أدخل مكاناً يعقد معه فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كما ذكر ذلك أبو حيان في « النهر » انتهى .

ولذلك قال قائلهم في حق الله تعالى :

فلا تنكروا أنه قاعد ولا تنكروا أنه يقعه

يريد أن الله قاعد على العرش وأنه يقعد نبيه معه . وقال السيد مرتضى الزبيدي في شرح كتاب قواعد العقائد من الإحياء عند ذكر الاستواء على العرش ما نصه : « قال التقي السبكي : وكتاب العرش من أقبح كتبه » أي ابن تيمية « ولما وقف عليه الشيخ أبو حيان مازال يلعنه حتى مات بعد أن كان يعظمه .

وقال ابن القيم وهو من كبار أئمتهم في نونيته المطبوعة المتداولة بين الناس ما تقشعر منه الأجساد وتفتت منه الأكباد « وإذا كان هؤلاء الذين بلغوا درجة الاجتهاد فيما يقولون مثل ابن تيمية وابن القيم عندما أخذوا بظواهر هذه الآيات ضلوا ضللاً بعيداً . فما بالك هؤلاء الجهال الذين ليسوا في العير ولا في النفير ، وهاك ما قال ابن القيم في نونيته المذكورة :

والفوق وصف ثابت بالذات من كل الوجود لفاطر الأكوان

وإني ألفت نظرك لقوله (بالذات) وهل قال السلف ذلك حتى يقولوه أم هم سلفيون كذابون .

ودونك ما هو أصرح من هذا :

لكن نفة فوق ما وافوا به جحدوا كمال فوق للديان
بل فسروه بأن قدر الله أعلى لا يفوق الذات للرحمان

أما هو فقد وفقه الله تعالى لاعتقاده أن الله فوق عرشه بذاته :
فسبحان المنعم المتفضل . ودونك أصرح من هذا :

الله فوق العرش فوق سمائه سبحان ذى الملكوت والسلطان
ولعرشه من أطيط مثل ما قد أطر رحل الراكب العجلان
بل عطلوا منه السموات العلا والعرش أخلوه من الرحمن

إلى أن قال :

وسيظهر المختار حقاً قاعداً معه على العرش الرفيع الشأن

وقد بلغت الجرأة أو نتمول الجهل والجنون برجل من هذه الطائفة
يسمى محمود بن أبي القاسم الدمشقي أنه ألف رسالة سماها « إثبات
الحد لله عز وجل وأنه قاعد وجالس على العرش » هذا العنوان وحده
كاف فوق الكفاية لإثبات المقصود . ولا عجب فقد سمعت قبل ذلك
إمامه ابن القيم وإمام الجميع ابن تيمية . ولابن القيم كتاب في هذا
الموضوع غير نونيته السابقة ، يرد به على الجهمية فيما يزعم ، وقد كنا

نعجب لمن يقول لا تكلمنى بالشرع ، ولم نعلم أن هناك من يقول
لا تكلمنى بالعقل .

إلا أنها الأيام قد صرنا كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وقد أكثرنا من الكتابة فى هذه الموضوعات نصيحة للمسلمين
خصوصاً من ابتلاهم الله بقراءة « المنار » وكتب صاحبه الذى عرفت
مبلغه من العلم ومنزلته من التوحيد . ولو دقت النظر لعلمت أن هؤلاء
لا يعرفون الله ولا يعبدون الله ، فإنهم يعبدون إلهاً مجسماً محدوداً
جالساً على العرش « وكل من عبد إلهاً مجسماً فهو عابد وثن لآعابد
الله عز وجل » .

وإنا يائسون من هدايتهم وقد قال الله تعالى فى حق قوم فسد
استعدادهم : (وَكَوْزُودُوا لِعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)^(١) .

ذلك بعد أن وقفوا على النار كما فى الآية قبلها وقال :

(وَإِنْ يَرَوْا كُفَّةً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)^(٢) وكيف لا نياس منهم
وقد تحجر صاحب « المنار » فى كل شىء حتى فى أبسط القواعد
الصرفية فقد قلنا له إن كلمة (القبوريين) التى يلهج بها لحن فاضح
فإن الجمع لا ينسب إلى لفظه فقال : إن القبور بين « علم » فضحكنا
منه وقلنا له إن القبور بين ايس بعلم ، ولو كان علماً ما نفعلك ذلك

(١) سورة الأنعام ، الآية ٢٨

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

شيئاً ، فإن العلمية المسوغة لذلك هي علمية المنسوب إليه لا المنسوب ،
نلم نستطع أن يقول شيئاً ، ولكننا نراه يستعملها حتى الآن ولا يستحي
من أساتذة اللغة العربية الذين يتضحكون فيما بينهم تعجباً من جهله
أو جرائته .

ولا أدري لم لم يجب عما ذكرناه في مجلة الإسلام من تلبيسه
وعدم أمانته في النقل مع بيان تلك الصحف التي دلس فيها أقبح
تدليس ، ومن العجيب أنه يسكت عن ذلك ويرمينا بأننا نقلنا عنه
أنه ينسب إلى الشيخ محمد عبده الجهل بالسنة في (منار سنة ١٣٥٠
بصحيفة ٢١) يرمينا بأننا روينا بالمعنى ولم نفهمه وأنا أوافق على
أن كلامه لا يفهم أو أنه هو لا يفهم وأنه لا يمكننا أن نتفق على معنى
واحد . وسبين أيها الجاهل الذي لا يفهم كلام غيره بل ولا كلام
نفسه في مقالنا التفصيلي بعد ، ولكن مارأيه في تلك الخيانة التي أثبتناها
عليه في تلك المسائل وذلك الكذب الذي لا يرضاه لنفسه صحفى له
شرف وذمة .

وسرى القراء ما يعرفون به حقيقة الرجل حتى لا يغتروا بكتبه
التي تحمل السم في باطنها ، والكذب في طياتها ، والجهل في ثناياها
فيتحاموها نحامى الصحيح لأنواع السموم .

ولولا أن مقاله (السياسة) كثير التناقض يحتاج إلى مقال
طويل . واثيراً ما قلنا لو علقنا على مقالات (المنار) لكان ذلك أكثر
من المنار واكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . لولا ذلك لفكهنالك بشيء
من تلك الجهالات المضحكة ولكن موعدنا قريب إن شاء الله .

غلطة دينية خطيرة .

يتمسك كثير من الناس بظواهر الآيات وهو غلط فاحش يؤدي إلى الكفر . وقد قال لى قائل : يجب اعتقاد أن الله في السماء فإنه يقول : (أَعْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)^(١) . الخ فمن لم يعتقد ذلك فهو كافر .

فقلت له إن من يعتقد ذلك على ظاهره هو الكافر ، فإنه جعل لله ظرفاً يحيط به ومكانا يستقر فيه ومن اعتقد فيه ذلك فقد شبهه بخلقه .

ومن شبهه بخلقه فهو كافر . فانظر إلى أولئك الذين يأخذون من كتاب الله على جهالة وعماية (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)^(٢) وقد كتبنا في هذا الموضوع كثيرا لمجلة الأزهر .

ولكن نريد أن نتحف القراء بشيء بديع تراه في هذا الموضوع تعرف منه مقدار السعة الإلهية والحكمة النبوية فنقول :

من بديع أمر الدين الإسلامي أنه إذا كان ذكر العلو مثلا في حق الله ذكر ما يدفع الأوهام الفاسدة من أن له جهة كالأجسام ، فيذكر مع

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٠٤

هذا أنه في قبلة المصلى . وأنكم لو دليتم بحبل في بشر لهبط على الله ،
ويقول : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)^(١) .

ويقول : (فَذَائِنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ)^(٢) ويقول : (وَهُوَ مَعَكُمْ
أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(٣) ويقول : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ
وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ)^(٤) إلى غير ذلك .

فليس اراد أنه مستقر في السماء بل المراد أنه ليس من آلهة الأرض
التي كانوا يعبدونها ، وهو كثير في الكتاب والسنة مما يفيد المراد
بطريقة واضحة ليس فيها ذلك التعقيد الفلسفي ولا تلك الملتويات
المعروفة .

فكان هذا أحسن جواب عن التشابهات مع المحافظة على ما يجب لله
من علو القبر والغلبة ومن الإحاطة التي سلب عنها صفات الأجسام
وذكر فيها ما لا يتصور أن يكون جاريا على نحو ما تعرف وتعهد : فكان
في ذلك مصالحة العامة وبغية الخاصة (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)^(٥) .

وما كان يراد بذلك كله إلا أن يأخذ قلوبهم عن الآلهة لأرضيه
إلى إله السماء الذي يباينها ، فكان محط الفرق أن المشركين لا ينزعون
إلا لتلك الآلهة السفلية وكان المؤمنون على عكسهم من التوجه إلى
السماء ، وكان العلو الحسى دليل على اعتقاد العلو المعنوى ، أو كان هذا
حال الأجسام وما يليق بها وذلك حال الأرواح وما يناسبها .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٤) سورة المجادلة ، الآية ٧

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣

(٣) سورة الحديد ، الآية ٤

(٥) سور: فصلت ، الآية ٤٢

كما أن الأجسام تتوجه في الصلاة إلى الكعبة والأرواح تتوجه إلى خالق الكعبة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)^(١) وكان الإنسان في خلقته العجيبة لا يتأتى إصلاحه إلا بهذا ولا يمكنه غير هذا ، مع ملاحظة أن محل السلطان هو السماء فإنها بمنزلة الأسباب . والأكوان السفلية بمنزلة المسببات أو نقول هي بمنزلة الفاعل ، والأرضون بمنزلة المنفعلات ففيها يتجلى اقتداره وأوهيته سبحانه وتعالى ، وكأنها بمنزلة ديوان الملك في الشاهد ، منها تصدر الأحكام وإليها تعود . والله المثل الأعلى .

ولنقف هنا ونرجىء ما نريد أن نتكلم عليه من الغلطات الدينية التي لتلك الطائفة المتهورة خصوصاً صاحب المنار الذي أتى بالمضحكات المبكيات .

ما الذي في أن الإنسان يدعو فلا يستجاب له وما فائدة الدعاء

جاءنا هذا السؤال وفيه تلك الآيات :

ماقولكم فيمن دعا	ودعا الكريم تضرعا
وبكى بدمع هائل	عاما وزادا أربعا
يدعو المغييب بحرقه	متوسلا متطلعا
حفظ لدعا وشروطه	ودعا بخير طامعا
ومضى يئى نفسه	ورجا عطاء واسعا
فإذا بنحس جاءه	واليسأس كان اللاذعا
وإذا بيأس هاله	والعسر زاد وروعا
فتجيرت، نفس الفسى	يدعو فيعكس ما دنا
وتوجعت وتساءلت	فى أمر ربي بالدعا
حزن المنهى متألا	يبكى ويندب طالعا
يشكو لحياة وذاهبا	يشكو زمانا روعا
وتأثرت من جرحه	نفس الفسى فتزعزعا
هل بالدعاء زيادة	تأتى وتبسى مرتعا

أو بالسكوت شقاوة ؟ نرجو جوابا مقنعا
كل الشواهد أيدت لاسعد يأتي بالدعا
لكن ذا متعارض بدليل ادعوا تضرعا
أفسار ربي قدرت قبل الخلائق أجمعا

عبد الظاهر العمري

بساقلته مركز أخميم مديرية جرجا

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .
(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)^(١) .

يظهر أنك يا أستاذ متشبع بأن الدعاء لا فائدة فيه ، وهو غلط
محض من وجوه عديدة :

أما (أولا) ، فلأن الإجابة لها شروط كثيرة وموانع عديدة ،
والأمر المطلق في قوله تعالى : (أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)^(٢) مقيد بما فهم
من الكتاب والسنة مثل الحديث الصحيح الذي فيه : « إِنَّ الرَّجُلَ
يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ يَارَبُّ يَارَبُّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ
حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُدِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ » وقوله - صلى
الله عليه وسلم - : « لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْلُظَنَّ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ » ، ومثل قوله

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٧

(٢) سورة غافر ، الآية ٦٠

تعالى : (أَسْنُ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)^(١) . ومثل ما بين من أوقات الإجابة وأسبابها ، ومثل ما ورد من أن الداعي يستجاب له ما لم يستعجل : يقول : دعيت الله فلم يستجب لي . فهذا كله يفيدنا أن قوله تعالى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ليس على ما تفهم من العموم الذي ينقدح في نفسك .

وأما (ثانيا) ، فلا بد في الحكمة الإلهية من أن تكون مستعدا لما دعوت به ، وقد فسر بذلك قوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُعْتَدِينَ)^(٢) . ويقول بعضهم في قوله : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) أى ادعوني بلسان الحال لا بلسان المقال . وسر ذلك أن الإمداد على قدر الاستعداد . ويقول سفيان الثوري وهو من كبار أئمة السلف وشيوخ الحديث : « إِنَّ الدَّعَاءَ هُوَ تَرَكَ الذُّنُوبَ » .

وأما (ثالثا) ، فالداعي إما أن يجاب بعين ما طلب ، وإما أن يجاب بغيره . ثم هو بعد ذلك إما أن يعجل له في الدنيا ، وإما أن يؤخر إلى الآخرة والآخرة خير وأبقى . «

فعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يفيد أن الداعي لا بد أن ينال خيرا بدعائه : فإما أن يعجل له ما دعا به في الدنيا ، وإما أن يئخر له في الآخرة ، وإما أن يكفر من ذنوبه بقدر ما دعا ، ما لم يدع بربهم أو قطيعة رحم أو يستعجل . قالوا يارسول الله : وكيف يستعجل قال : « يَقُولُ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي » .

(١) سورة النحل الآية ٦٢

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٥

ولكنك لا تريد من إجابة الدعاء إلا حصول مطلوبك أيا كان ،
مقدساً علمك ، متحكماً على ربك ، وليس هذا شأن المؤمنين الذين
يعتقدون أن الله أحكم الحاكمين . فإن لم تعرف الحكمة فقلد من يعرف
الحكمة :

يا حاكمي وحكيمي أفعالك الكل حكمة

وأما (رابعا) ، فقد أتيت في صريح كلامك بما يمنع إجابة الدعاء ،
فقد سمعت في الحديث أنه يجب للداعي ما لم يستعجل : يقول دعوت
الله فلم يستجب لي : وأنت تقول ذلك وتقرره وتكرره . وعندك مانع
آخر : فإن على الإنسان أن يدعو وهو موقن بالإجابة .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : « ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ » أخرجه الترمذى . وأما أنت
فيظهر أنك لا تدعو إلا وأنت شاك مضطرب كأنك تجرب ربك .

وأما (خامسا) : فللدعاء موانع كثيرة وآداب عديدة . ومن أكبر
موانعه أكل الحرام الذى لم يدع بيتاً إلا دخله ، ولا جوفاً إلا أصاب
من صريحه أو مشتبهه

ومن شروط الدعاء الإخلاص ، وأن لا يدعو وقلبه مشغول بغير
الدعاء ، وأن يكون المطلوب بالدعاء شيئاً لا يتعارض هو والمصلحة
الخاصة أو العامة في حكمة الله تعالى ، وأن لا يكون فيه قطيعة رحم ،
إلى غير ذلك .

وأما (سادسا) : فالأمور كلها موكولة لمشئته الله تعالى ، الذي هو أعلم بمصالح خلقه ، والذي لا يحابي أحداً في باب المصلحة التي يقتضيها العدل والنظام .

ولو فرضنا أن حكومة من الحكومات سارت مع أهواء الناس فأعطت كلا ما يطلبه من غير مراعاة الحكمة لا تختل أمرها ، وانتقض بناؤها ، وفشت ضرور الفوضى فيها . وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله ، (ولو اتَّبَعَ لِحَقِّ أَهْوَاءِهِمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) (١) .

(سابعاً) : أما تشبيك بالتقدير الأزلي فليس فيه غناء ، ولا في دفعه غناء . فإن الأسباب مقدره كالمسببات ، والعالم كله مبني على الحكمة ، ولذلك كانت الأسباب مشروعة أو واجبة . وهن إذا قلنا إن فلانا قدر له أن يلد ولدا : فهل يكون معنى ذلك أنه يلد بغير زواج وبلا سبب ؟ أو أن فلانا قدر له أن يكون من الأغنياء : فهل معنى ذلك أن غناه يتم له بلا تجارة ولا زراعة ولا صناعة ؟ إلى غير ذلك من الأسباب التي قام عليها نظام الكون ؟ لا يا أستاذ ! إن معنى ذلك أن كل شيء جعله في هذا الوجود على قدر مخصوص ، وبكيفية ، مخصوصة ، وسبب معين ، ووقت محدود إلخ . وهو يعلم ذلك أزلا . فالأشياء محاطة بتلك الحدود التي يعلمها الله تعالى لا يمكن أن تنتخطاها . وليس معنى ذلك أن الأسباب غير مفيدة أو غير مشروعة ، فإن الأسباب من المقدر أيضاً كما قلنا .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٧١

وقد قال - صلى الله عليه وسلم - لمن سأله عن الرقي هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هِيَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ » أخرجه أبو داود والحاكم . ونحوه قول عمر لأبي عبيدة : « نَفِرُ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ إِلَى قَدْرِ اللَّهِ » يشير إلى أن الأسباب مقدره ، وتوصلها إلى مسبباتها هو من قدر الله ، كما أن الأسباب مقدره بأسبابها .

وصفوة القول : أنك لا تخرج عن القدر في جميع تصرفاتك ، فإن الله يعلم ما ستفعله بعد وجودك . وما تستعمله من الأسباب التي جعلها طريقاً لمسبباتها ، ومنها الدعاء . فالكل مقدر معلوم ، ولا تعارض بينه وبين الاختيار ، ولا ما تسلكه من شتى الأسباب ، فأى منافاة بين القدر واستعمال الأسباب يا حضرة الأستاذ ؟ !

هذا وعليك أن تعرف أن الله قوانين كثيرة لا يحيط بها محيط : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) . فاتهم عقلك ، ولا تتهم ربك . ولا نبيك ، واعلم أن السعادة كلها والعلم كله والحق كله إنما هو فيما جاء به الأنبياء .

وقد ساءنى جدا قولك :

كل الشواهد أيدت لا سعد يأتى بالدعاء
ولو أنصفت لقلت :

نحن ندعو الإله فى كل كرب ثم ننسأه عند كشف الكروب
كيف نرجو إجابة للدعاء قما سدنا طريقها بالذنوب

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

وماذا تصنع يا أستاذ في قول القرآن : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ)^(١) ، وفي حق يونس : (فَنادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ . وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(٢) وفي حق نوح : (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلُوبٌ فَاغْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُبُونًا فَالتقى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)^(٣) إلى غير ذلك وهو كثير ؟

وماذا تصنع في قوله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ فَتَحَ بَابَ الدُّعَاءِ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمَا لَمْ يَنْزَلْ فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ » أخرجه الترمذى . وعن عبادة بن الصامت -- رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِي حَاجَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ » أخرجه الترمذى . وعن أبي أمامة - روى الله عنه - قال : قيل يا رسول الله : أى الدعاء أسمع ؟

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٨٣ ، ٨٤

(٢) سورة الأنبياء ، الآيات ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

(٣) سورة القمر ، الآيات ، ١٠ ، ١١ ، ١٢

قال : « جَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرِ ، وَدُبْرُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ » أخرجه الترمذى : وعن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَا مِنْ دَعْوَةٍ أَسْرَعُ إِجَابَةً مِنْ دَعْوَةِ غَائِبٍ لِغَائِبٍ » . أخرجه أبو داود والترمذى . وعن أبي الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ : وَلَكَ مِثْلُهُ » أخرجه مسلم وأبو داود . فماذا نقول فى ذلك كله ؟

ويعد : فإن الله يسوق السحاب من الأقطار البعيدة ببركة دعاء المسلمين فى الاستسقاء عند انحباس المطر . ولئن كنت جربت عدم إجابة الدعاء - والمانع منك - فقد جرب غيرك إجابة الدعاء فيما لا يحصى من الوقائع . فارجع إلى نفسك بالنوم ، وقرأ قوله تعالى : (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(١) ، وقوله : (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٢) (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)^(٣) . (قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ)^(٤) . (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)^(٥) اللهم اجعلنا ممن سمع فوعى ، وعلم فعمل ، ثم راقب فأخلص ، وأزل قساوة قلوبنا ، وأنزل علينا سكينة من عندك ، حتى نطمئن لوعدك ، ولا نفرط فى عهدك .

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٧ ، وسورة الأعراف ، الآية ١٦٠

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٦

(٣) سورة الشورى ، الآية ٣٠

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٥

(٥) سورة الرعد ، الآية ١١

هَذَا وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - : « لَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزَلُ
بِهِمُ النَّعْمُ وَتَذُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ ، فَزَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ لِيَمَانِهِمْ
وَوَلَّهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلُّ فَاسِدٍ »
ويقول : « إِنْ مِنْ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَمِرًّا فِي الْقُلُوبِ . وَمِنْهُ
مَا يَكُونُ عَوَارِثَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ » . ويقول الله
تعالى : (وَنَبِّئْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)^(١) ويقولون :
(وَلَسَبَدُونَكُمْ حَتَّى نَعْلِمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوْا أَخْبَارَكُمْ)^(٢) ،
ويقول : (أَسِيبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .
وَلَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ)^(٣) ، ويقول : (وَلَسَبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)^(٤) ويقول :
(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)^(٥) . ثم يقول في آخر الآية : (وَإِنْ تَضَيَّرُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)^(٦) إلى غير ذلك وهو كثير .

ومما له اتصال بهذا المقام قوله تعالى : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ
بِهِ مِنْ سَمَالٍ وَبُرُوقٍ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)^(٧)
ويقول : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥

(٢) سورة حمد ، الآية ٣١

(٣) سورة نعتكبريت ، الآية ٣٤٢

(٤) سورة بقره ، الآية ١٥٥

(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦

(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦

(٧) المؤمنون ، الآية ٥٦، ٥٥

إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (١). ويقول :
(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (٢)
ويقول : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) (٣) . فما أجدرنا أن نقول
لك :

أيها الإنسان صبرا إن بعد العسر يسرا
أشرب الصبر وإن كما ن من الصبر أمرا
أو نقول :

إذا أعطى فقد أرضى ولكن إذا أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا وأحمد عند منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت سرورا أم الأخرى التى أهدت ثوابا؟
أو نقول :

إن الأمور إذ التوت وتعقدت نزل القضاء من السماء فحلها
فاصبر لها فلعلمها ولعلها ولعل من عقد الأمور يحلها

ولكن :

كم قد سمعنا من الآثار والحكم
همنا بوادى المعاصى آنسين به
لكن بأذن عن الإنذار فى صمم
فالقلب من ظلمة الوادى الوخيم عمى

(١) الأنعام الآية ٤٤

(٢) سورة القلم ، الآيتان ٤٤ ، ٤٥

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٨

إنا لنعرف ، انسمو به عظما لكن أنفسنا تأبى من العظم
أدلة الحق - بالأعلام ظاهرة لكن غفلتنا تعمى عن العلم
يانفس وقتك سيف فى يدى أمل إن كنت نائمة فالموت لم ينم
جدى وكوفى عن الخيرات عاكفة وخالفى مرتع العصيان والظلم

وما أكثر مايفتح الله به للمستعد من الفيض الإلهى الذى يورث

النور ويزيل الغرور !

نسأل الله أن يعرفنا قصور عقلنا ، وضيق علمنا ، وكبير ضعفنا ،

وعظيم جهلنا منه وكرمه .

تنزيه الله عن المكان والجحمة

(٣)

جاءنا خطاب من حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد خراشي

قال فيه :

كنت بمركز ملوى فاتصل بي أن بعض المتزيين بزى أهل العلم من المرتزقة الذين يجوبون البلاد يشنع على علماء الأزهر ويذكروهم بكل سوء. وهو ينادى بإثبات الجهة الحسية لله جل عن ذلك، ويقول: إن الله يشار إليه بالإشارة الحسية، وله من الجهات الست جهة الفوق فقط، فنرجو من فضيلتكم الإفاضة في هذا الموضوع على صفحات مجلة (الأزهر) ، حرصاً على العقائد، ودفعاً لسموم تلك الطائفة التي ليس لها هم إلا إثارة الشعب ، وتشويش الأفكار .

الجواب

كان يجب ألا نقيم لتلك الطائفة وزناً، ولكننا مضطرون لتفنيد آرائهم الزائفة وأقوالهم الباطلة، لنحفظ عقائد العامة وأشباه العامة، الذين يتبعون كل ناعق ويتأثرون بكل ما يسمعون، خصوصاً عندما يتلون عليهم الآيات الكثيرة والأحاديث العديدة التي وردت في هذا الموضوع. وذكر تلك الآيات والأحاديث مجتمعة بدون تعقيب عليها

يؤثر في نفوس العامة أثيرا لا يكاد يمحي.. وقد شنع الغزالي على من يفعل ذلك غاية التشنيع في كتابه (إجماع العوام عن علم الكلام).
وإننا نختصر الطريق معهم فنقول على الإنصاف والوضوح : إن كانوا يأخذون آيات التشابهات وأحاديث الصفات على ظاهرها ويثبتون معانيها التي وضعت لها في لغة العرب ، فذلك كفر صراح ، لأنه يستلزم الجسمية والتجزؤ والتركيب . ولا يعقل غير هذا ، فإن الظرفية مثلا إذا أخذت بمعناها الحقيقي في مثل قوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)^(١) تستلزم أن يكون له مكان محيط به هو أكبر منه بالضرورة . وذلك يستلزم صفات الحوادث لا محالة .
وقل مثل ذلك في الاستواء والنزول واليد والوجه الخ .

وإن قالوا : إن ذلك ليس كاستقرارنا ولا ظرفيتنا الخ فليس له لوازم الظرفية ولا الاستواء المعروفين ، قلنا لهم : فما الذي فهمتموه من تلك الظرفية إذا كنتم تجردونها عن معناها ولوازمها؟ وما هو المعنى الحقيقي الذي تقولون إنه مراد من الاستواء مثلا؟ وبعد تسليم هذا فأنتم موافقون لنا، وأصبح قولكم إن آيات التشابه على حقيقتها لغوا من القول ، فإنه لا فرق بيننا وبينكم في المعنى حينئذ، فما هذه الطنطنة التي أصمت الآذان وهوشت الأذهان « أسمع جمعجة ولا أرى طحنا » ! .

قال بعض أئمتكم المتقدمين على ما به من علم وفلسفة ما معناه
« إن القول بأن الله لا جهة له وأنه ليس فوقاً ولا تحته الخ .

قول بأن الله غير موجود فإن هذه صفات المعدوم لا الموجود . وغاب
منه أن هذا قياس الغائب على الشاهد، وإلحاق المنزه بالمادى والخالق
بالمخلوق، فإن المادى هو الذى لا بد أن يتصف بشئ من تلك الصفات ،
أما غير المادى فترتفع عنه هذه الصفات كلها، بل كونه غير مادي
مانع من قبوله لها . وإذا كنا لا نعرف حقيقة الذات ، ويستحيل
أن نعرفها، فكيف نتكلم فى حقائق الصفات أو نقيسها على ما عرفنا
من أحوال المحسوسات وأحكام الماديات؟ وكيف نجرؤ على أن نقول :
إن النزول على حقيقته وأنه استوى على عرشه بذاته حقيقة
كما تقولون ؟ !

ونتقرب ذلك بعض التقريب فنقول: إن الإنسان مثلا لا يتصور
فيه إلا أن يكون جاهلا أو علما، ولا يتصور ارتفاع الجهل والعلم
عنه . ولكن الحجر لا يتصف بكونه عالما ولا جاهلا فهما منتفیان
عنه بل ممتنعان عليه . اعدم القابلية . وكيف يثبتون الجهة والاستواء
الحقيقى ثم ينفون ما يلزمهما؟ وهل هناك عاقل يقول بثبوت الملزوم
حقيقة مع نفي اللازم ؟

وليت شعرى بعد ذلك كله ما هذه الحقيقة التى أثبتوها؟ فإن
كانوا لا يدرون منها شيئا فماذا أثبتوا؟ وهل هناك حقائق للأشياء
عندنا غير ما وضعت له ألفاظها فى اللغة العربية ما عرفناه وحكمنا
بأنها إذا استعملت فى غيره كان مجازا يحتاج إلى علاقة وقريئة؟
فهذه هى الحقيقة فى عرف العلماء . ولكن هؤلاء القوم لا يكادون
يفقهون حديثاً .

على أنهم لو كانوا مستندين إلى ظواهر النصوص ولم يكونوا على هذا الاستعداد الغريب ما كان ينبغي أن يجمدوا على أن الله فوق عرشه حقيقة ، فإنه كما يقول مثلاً : (أَأَمَّنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)^(١) يقول : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)^(٢) . إلى غير ذلك وهو كثير . والبرهان العقلي قائم على فساد ما يقولون ونقيض ما يعتقدون

* بكل تداوينا فام يشف ما بنا *

ثم نقول لهم بعد ذلك « ولعلها من الفكاهات العلمية » : كيف تقولون : إن نزوله تعالى كل ليلة كما ورد في الحديث على حقيقته ، والليل مختلف في البلاد باختلاف المطالع والمغرب « يعلم ذلك من بحث عنه » فإذا كان ينزل لأهل كل أفق من الآفاق في ليلهم بمقتضى ما ورد في الحديث فمتى يستوى على عرشه ، والأرض في كل وقت من الأوقات بها ليل كما هو معروف ، ولا تخلو ساعة من الساعات من ذلك ، فما هو الوقت الذي يكون مستويا فيه على عرشه بذاته حقيقة كما تقولون ؟

وليت شعري بعد ذلك كله ما الحامل لهم على إثارة تلك الموضوعات بين العامة وإلقاء الشكوك في عقائدهم وأصول دينهم ، ولعلمهم لا يعرفون من ذلك إلا ما ألفوه فيما بينهم « ولكن أحمق الناس من أعطى قلبا منطبقا . ولسانا منفهقا ، فإن أراد أن يسكت لم يستطع السكوت ، وإن أراد أن يتكلم لم يحسن الكلام .

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣

وإن هؤلاء وحقك لا يستحقون المناظرة ، وكيف يناظر من يتناقض
ولا يدرى ، أو من لا يفرق بين الجائزات والمستحيالات ! وقد
رأيتهم ينقلون ما لا يفهمون ، وكثيرا ما أغنونا بذلك عن المراجعة .
ولكن لا نزال نكرر أننا نخاف على العامة الذين ابتلوا بهم واعتقدوا
فيهم . والأمر والله واضح لمن نور الله بصيرته وأراد هدايته (مَنْ
يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)^(١) .

ومن عجيب أمر هؤلاء قولهم : إن هذا هو مذهب السلف . فإن
السلف منزهون . لا مشبهون . وهل قال السلف : إن الاستواء على
حقيقته ، والنزول على حقيقته ، أو أنه استوى بذاته كما قالوا
ذلك ؟ اللهم لا ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك !

وقد قال العلماء : إنه لا خلاف في وجوب التأويل عند تعيين
شبهة لا ترتفع إلا به . وقال كثير من العلماء « وسننقل نصوصهم
بعد » ؛ إن السلف والخلف متفقون على التأويل . وهذا غير ما اشتهر
من أن السلف لا يؤولون .

والتحقيق في ذلك أننا إذا أردنا بالتأويل صرف التشابه عن
الظاهر ، فالسلف والخلف متفقون عليه بهذا المعنى ، وإن قلنا : إن
التأويل تعيين المعنى المراد الذى هو غير ما وضع له اللفظ من مجاز أو
كناية ، كان السلف غير مؤولين بهذا المعنى .

أما أخذ الآيات والأحاديث على ظاهرها والقول بأنها باقية على
حقيقتها فلا ينبغى أن يكون قولنا لأحد من المسلمين ، وإنما هو قول

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧

بعض الملل والمشبهة . وهل حقائق اليد والعين والنزول والاستواء
شيء غير م نعرفه في الماديات ونعهدده في المحسوسات ؟ فما معنى
بتائها على ظاهرها وإرادة حقائقها كما يقولون ؟ اللهم إن ذلك مجاف
للعقل والمنطق قبل أن يكون مجافيا للدين الذي جاءت به الرسل !
ولكن م الحيلة وقد ابتلينا بقوم لا يفقهون ولا يسكتون ،
وينقلون من النصوص ما يرد عليهم ولا يشعرون !

الخلاصة :

والخلاصة المختصرة المتواضعة أننا نقول لهم : إن كنتم قائلين
بالتنزيه فنحن معكم ، فإننا لا نريد من كل ما نكتب إلا إثبات
التنزيه . وإن قلتم : إنها صفات للبارى - عز وجل - ولم تقولوا إنها
باقية على حقيقتها وهي راجعة إلى كمال الله تعالى ، فنحن قائلون
بأعلى صوت : إن كل كمال يجب لله تعالى وإن كمالاته لا تتناهى .
وقد جاء في الحديث الصحيح : « أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ
بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَمْتَأَثَرْتَ
بِهِ فِي عِلْمِ الْيُسْبِ عِنْدَكَ » .

ثم نقول لكم بعد هذا : إن إثبات هذه الأشياء على ظواهرها ليس
من الكمال في شيء ، وإنما هو النقص بعينه والمحال بذاته . فإن كنتم
لا تعقلون إلا الاستواء الحسى والنزول الحسى كما يدل على ذلك
قولكم : إن المراد من الاستواء حقيقته « ولا حقيقته له عندنا إلا الحسى
المادى » فصرحوا بما انطوت عليه قلوبكم ليعرفكم الناس : وأريحونا
من هذه المداورة التي يناقض آخرها أولها وظاهرها باطنها .

أظن أن القارئ الكريم قد تبين له غاية البيان أنهم إذا نفوا عنه تعالى صفات المحدثات وأحكام الماديات فنحن معهم . ولكن ليعلموا أنهم لم يعرفوا لها بعد ذلك معنى . فلينتهوا عن قولهم : إنه فوق عرشه بذاته حقيقة وإن له جهة الفوق . . الخ ، وإلا كانوا متخبطين متناقضين .

ولو أنصفوا لتركوا الآيات والأخبار على ما جاءت من غير أن يقولوا فيها شيئاً أو يزيّدوا عليها كلمة ، ثم يكلون علم ذلك إلى الله تعالى كما فعل السلف . وحينئذ يصح قولهم إنهم سلفيون وإن هذا هو مذهب السلف . أما أن يقولوا : إنه استوى على عرشه بذاته حقيقة ويشنعوا على من لا يقول بذلك ، كما فعل ابن القيم في (نونيته) وابن تيمية في كثير من كتبه ، وكما يصرحون به الآن في كتاباتهم ودروسهم ، فغير مقبول ولا معقول .

ولنسق لك بعض النصوص استثناسا واسترواحا : قال اللقاني : أجمع الخلف - ويعبر عنهم بالمؤولة ، والسلف ويعبر عنهم بالمفوضة - على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذي دل عليه الظاهر ، وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهرة المحال ، وعلى الإيمان بأنه من عند الله تعالى جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وإنما اختلفوا في تعيين محمل له وعدم تعيينه بناء على أن الوقف على قوله تعالى : (والرأسخون في العلم)^(١) أو على قوله سبحانه : (إلا الله) . ويقال لتأويل السلف : إجمالي ، ولتأويل الخلف : تفصيلي . وقال بعضهم : إن ما عليه

القائلون بالظواهر مع نفي اللوازم هو تأويل أيضاً، لما فيه من القول بعدم اللوازم ، مع أن ظواهر الأنفاظ أنفاسها تقتضيها ، ففيه إخراج اللفظ عما تقتضيه الظاهر ، وإخراج اللفظ عن ذلك له دليل هو عين التأويل .

الكلمة الختامية

والكلمة لختامية أن من أثبت ما ورد في آيات الصفات وأحاديث الصفات ما ترك من التشبيه شيئاً. وربما عرفت بعض ذلك من مقالنا هذا.

ومن التناقض البين الذي حملهم عليه خوف العامة قولهم : إنها على حقيقتها وليست على ما نعرف ، فكأنهم يقولون : إن النزول ليس نزولاً ، والاستواء ليس استواء ، والضحك ليس ضحكاً . وهو بعد باق على حقيقته «فكأنهم أطفال أو يكلمون الأطفال» ! ولكنك ستسمع منهم كلاماً مختلطاً يرضون به العوام ، وكم لهم من تلاعب وتناقض .

وليت شعري أى فرق بينهم وبين أصحاب الملل في الاعتراض بالظواهر ؟ !

وهولاء يقولون : إن هذه النصوص على ظواهرها وحقيقتها ، وما ظاهر القدم في قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ » الحديث - إلا الجارحة ، ولا الاستواء إلا الجلوس ، ولا النزول إلا الحركة المخصوصة .

ولا شك أن من قال استوى بذاته فقد أجراه مجرى الحسيات ، وأنزل النصوص على ما يعرف من صفات المخلوقات .

ولو قالوا: «إننا نقرأ الآيات والأحاديث ثم نسكت» لما أنكر أحد عليهم ، ولكنهم يقولون إننا نحملها على ظاهرها . ولا ظاهر لها عندنا إلا ما نعرفه في مخاطباتنا ومألفاتنا ، وإذا ضايقناهم قالوا إنها على حقيقتها ، وهي غير معروفة لنا ولا تشبه شيئاً من صفاتنا .

فواعجباً كيف تكون محمولة على ظاهرها وغير معروفة لنا : أليس

ذلك تخبطاً شنيعاً ؟

ثم نقول لهم بعد ذلك : هل تثبتون لله يداً واحدة بمقتضى قوله :
(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)^(١) أم يدين بمقتضى قوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ)^(٢) أم أيدياً كثيرة بمقتضى قوله : (مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَ)^(٣) . وهل تثبتون له عيناً واحدة بمقتضى قوله : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)^(٤) أم أعينا كثيرة بمقتضى قوله : (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)^(٥) إلى غير ذلك .

ثم نقول : إذا أثبتوا كونه على العرش بمقتضى قوله : (اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ) فلماذا لا يقولون إنه في الأرض بمقتضى قوله : (وَهُوَ اللَّهُ

(١) سورة الفتح ، الآية ١٠

(٢) سورة ص الآية ٧٥

(٣) سورة يس ، الآية ٧١

(٤) سورة طه ، الآية ٣٩

(٥) سورة القمر ، الآية ١٤

فِي السَّمَوَاتِ (فِي الْأَرْضِ) وقوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(١)
وقوله : (فَآيَةً مَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ)^(٢) إلخ ؟

، ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا *

ولا نزال نكرر أن من أخذ بهذه الظواهر لم يدع من التشبيه شيئا .

هذا وقد ورد في السنة أنه تعالى خدر طينة آدم بيده ، فماذا يقولون في هذا ؟ وهل يقدمونه على قوله : (إِنَّمَا نُزُّرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٣) . أم يصرون على بقاء النص على ظاهره ؟ ولعمر الله لو تكلم بمثل هذه عامي جلف لاستفظاعناه منه ؟ فكيف به ممن يدعى العلم والمعرفة ؟ ولكن الإنسان مجمع العجائب والغرائب ، وقد نقل الإمام ابن الجوزي عن ابن حامد الحنبلي أنه قال : الاستواء بماسة وصفة لذاته والمراد به القعود .

قال : « وند ذهبت طائفة من أصحابنا إلى أن الله تعالى على عرشه أما ملاءه ، وأنه يقعد نبيه معه على العرش . فواعجبا من قلة المتقول ويا أسفاً من الخطأ في فهم المنقول ! وأما قولهم : إنه استواء لا كما نعرف بعد أن نالوا إنه على ظاهره ، وإنه باق على حقيقته فهو بمنزلة من يقول : قام فلان وما هو بقائم وقعد وما هو بقاعد . ا هـ .

(١) سورة الحديد ، الآية ٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٣) سورة يس ، الآية ٨٢

كلمة للشيخ الغزالي وأخرى للشيخ محمد عبده

ولنختم هذا المقال بعبارتين جليلتين أولاهما لحجة الإسلام الغزالي والثانية للأستاذ الشيخ محمد عبده :

قال حجة الإسلام الغزالي في قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا » : « نقول للمتشبه بظواهر الألفاظ : إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا ندائه فما أسمعنا ندائه ، فأى فائدة في نزوله ؟ ولقد كان يمكنه أن يناديها كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا ، فلا بد أن يكون ظاهر النزول غير مراد ، وأن المراد به شيء آخر غير ظاهره . وهل هذا إلا مثل من يريد وهو بالمشرق إسماع شخص في المغرب ، فتقدم إلى المغرب بخطوات معودة وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع ندائه ، فيكون نقله الأقدام عملاً باطلاً . وسعيه نحو المغرب عبثاً صرفاً لا فائدة فيه . وكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل ؟ »

وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في حاشيته على (العقائد العضدية) : « فإن قلت : إن كلام الله وكلام النبي - صلى الله عليه وسلم - مؤلف من الألفاظ العربية ، ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة فيجب الأخذ بمدلول اللفظ كائناً ما كان ، قلت حينئذ : لا يكون ناجياً إلا طائفة المجسمة الظاهريون القائلون بوجود الأخذ بجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأياً ، مع أنه لا يخفى ما في آراء هذه الطائفة من الضلال والإضلال ، مع سلوكهم طريقاً ليس يفيد اليقين بوجه ،

فإن للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها ، فلا سهيل إلا الاستدلال
العقلي وتأويله يفيد بظاهره نقصاً إلى ما يفيد الكمال . وإذا صح التأويل
للبرهان في شيء صح في بقية الأشياء حيث لا فرق بين برهان وبرهان
ولا لفظ ولفظ . وقال في قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ
مُبِينَاتٍ)^(١) إن الوحي من الله للنبي - صلى الله عليه وسلم - يسمى
تنزيلاً وإنزالاً ونزولاً لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولاً
حسباً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض . ومن الغريب أنهم يقولون
في الرد على هذا : إن علو الله على خلقه حقيقة أثبتتها لنفسه في كتابه
لا حاجة لتأويله بعلو مرتبة الربوبية . وليت شعري إذا لم يؤوله بعلو
مرتبة الألوهية فماذا نريد منه ؟ وهل بقي بعد ذلك شيء غير العلو الحسي
الذي يستلزم الجهة والتحيز ولا يمكن نفي ذلك اللازم عنه متى أردنا
به العلو الحسي ، فإن نفي التحيز عن العلو الحسي غير معقول ،
ولا معنى للاستلزام إلا هذا . أما هم فينفون اللوازم . ولا أدري كيف
تنفي اللوازم مع فرضها لوازم ؟ هذا خلف . ولكن القوم ليسوا أهل
منطق ، والمتبع كلامهم يجد فيه العبارات الصريحة في إثبات الجهة
لله تعالى ، وقد كفر العراق وغيره مثبت الجهة لله تعالى . وهو واضح ،
لأن معتقد الجهة لا يمكنه إلا أن يعتقد التحيز والجسمية . ولا يتأتى
غير هذا .

فإن سمعت منهم سوى ذلك فهو قول متناقض وكلام لا معنى له .

آبآآ تناسب المقام :

ولا بأس أن نفكهك ببعض الآبآآ اقآبسنآها من قصيدة طويلة
لابن الجوزى رحمه الله فى حق هؤلاء - قال :

لعمرى لقد أدركت منهم مشايخاً وأكثر من أدركته ماله عقل
إذا ناظروا قاموا مقام مقاتل فواعجباً والقوم كلهم عزل
موائدهم لا يلحق الخل بقلها وإن شئت لا خل عليها ولا يقل

ولنفهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، نسأل الله أن
يجعلنا ممن اتقاه فجعل له فرقاناً !

حياة الأرواح وإدراكها بعد الموت

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى فزا (دار مجلة الإسلام) بمناسبة حلول شهر رمضان المكرم فاستقبله الأستاذ منشىء المجلة وأسرته بما يليق بمقامه الجليل من الحفاوة والإجلال شاكرين ومقدرين .

وقد تكرم حفظه الله فخص مجلة الإسلام بهذا البحث القيم في (حياة الأرواح وإدراكها) بعد الموت فأماط اللثام عن موضوع علمي خطير كثر فيه الخلاف والجدل فجاء مقالة دجوية موفقة من تحقيقات الفيلسوف الإسلامى العظيم . وكم للأستاذ الدجوى من أياد بيضاء في خدمة العلم والدين قال حفظه الله وأكثر في العلماء من أمثاله :

عن لنا أن نكتب كلمة في هذا الشهر المبارك (شهر رمضان) ، أعاده الله على الإسلام والمسلمين بما يعلى أمرهم ويصلح شأنهم بمنه وكرمه . وقد رأينا أنه سيفيض كثير من الكتاب في حكمة الصوم وأسراره وما يتعلق بـ . لك فاستحسننا أن نجعل الكلمة في حياة الأرواح وشؤون الموتى ، . را-بين أن نهيج من الناس تلك الذكري التي كادت تموت في النفوس بغلبة الماديات وتراكم الظلمات ، مع ما في ذلك من مناسبة

شهر الصوم الذى هو شهر الروحانيات وموسم الطاعات والقربات فنقول
وبالله التوفيق :

الإنسان بعد الموت هو الإنسان قبل الموت فإن المحس المدرك الفاهم
العالم إنما هو الروح لا الجسد بل نقول : إن حياة الجسم ، ماجاءته
إلا من الروح فحياة الأرواح إذا ذاتية وحياة الأجسام عرضية ،
تحدث فيها من تعلق الروح بها ، فهى آتية لها من غيرها ، بخلاف
الأرواح التى خاقت للبقاء ولا تذوق طعم الفناء ، وقد قرر ذلك قدماء
الفلاسفة أتم تقرير حتى أن سقراط لم يجزع من الموت عندما شرب
السم بل كان يلاطف أصحابه ويحادثهم بعد ما شربه منتظرا الموت
بجأش ثابت وصدر رحيب ، موقناً أنه ذاهب إلى عالم أبهى من عالمه
وقوم خير من قومه وقد كان يقول لأصحابه ما معناه : إن فارقناكم فإننا
سنكون مع قوم صالحين ويعدد أساتذته الذين ماتوا قبله .

وقد ذكرنا فى بعض ما كتبنا أن بلالا كان يبتسم عند الموت ،
فقيل له فى ذلك . فقال : سنلتى الأحبة محمداً وحزبه . ومما ينسبه
بعضهم للغزالي وبعضهم ينسبه لغيره قوله فى قصيدة وجاهاها عند موته :

قل لإخوان رأوني ميتاً فبكـوني ورثـوا لى حزنا
أنظنون بئانى ميتكم ليس ذاك الميت والله أنا
أنا در قد حواه صدف لامتحانى فنفيت المحنـا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم فحييت وخاغت الكفنـا
وأنا اليوم أناجى مالا وأرى الله جهارا علـنا

قد ترحلت وخلفتمكم لست أرضى داركم لى وطننا
لا تظنوا الموت مقتاً إنه لحياة وهو غايات المني
حى ذى الدار نووم مغرق فإذا مات أطار الوثنما
لاترعهم مجمة الموت فما هو إلا نقالة من هانما
إلى آخره قال .

ومن أعجب العجب - أو نقول من آيات الله الكبرى - أن أصبح
فريق كبير من أكابر علماء أوروبا وأمريكا يعتقدون حياة الأرواح
وبقاءها بعد الموت ، وأن لها أفاعيل لا يمكنها أن تفعلها وهي فى ملابسها
الجنسانية ، حينما كانت على ظهر الأرض وهذا يوافق ما سنتسمع عن
ابن القيم وما سمعت عن الغزالي فى قوله :

كنت قبل اليوم ميتاً بينكم فحييت وخلعت الكفنا

فنسبة هذه الحياة المادية لتلك الحياة الروحية فى نظر الغزالي نسبة
الموت للحية . فأهل الدنيا فى رأيه أحق أن يسموا بالأموات من أهل
القبور الذين انطلقت أرواحهم من قيود الأبدان فرجعت إلى عالمها
الأول تسرح حيث شاءت فى عوالم الله تعالى لا فرق بين أرضه وسمائه ،
بل وعرشه وجنته ، كما ورد فى الشهداء وغيرهم من عباد الله المقربين ،
كل على حسب درجته ومرتبته .

ولنقصر عليك شيئاً مما جاء فى السنة من حياة الأرواح وشعورها
وإدراكها لعل القارىء يستفيد منها كثيراً فى دينه وعقيدته فنقول :
أروى مسلم وغيره أن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه سمع قرع نعال
المشييعين إذا انصرفوا عنه .

وروى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى أَنَّهُ لَيْسَ سَمْعُ قَرَعٍ نِعَالِهِمْ : أَتَاهُ مَلَكَانِ فَاقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ (مُحَمَّد) ؟ فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فَيَقَالُ : انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَ لَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ أَلْجَنَةِ . قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَأَاهُمَا جَمِيعًا . وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُتَنَافِقُ فَيَقُولُ لَا أَدْرَى كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيَقَالُ لَأَدْرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ » .

روى مسلم فى حديث أسماء قريباً منه .

وفى البخارى أن أبا سعيد الخدرى يقول : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ قَدَّمُونِي وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ ، وَلَوْ سَمِعَهَا لَصَبِقَ » فانظر إلى قوله - صلى الله عليه وسلم - يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان تجده يدفع ما عسى أن يتوهمه بعض المتأولين المتعسفين من أن ذلك بلسان الحال لا بلسان المقال .

وفى الصحيحين وغيرهما : مررت ليلة أُسرى بى على موسى وهو قائم فى قبره يصلى عند الكئيب الأحمر ، إلى آخر ما ذكر عن الأنبياء فى قصة المعراج المعروفة ، وهو شيء كثير ، ومنه سلام إبراهيم - عليه السلام - على أمة النبي - صلى الله عليه وسلم - وإخباره إياها على لسان نبيها أن غراس الجنة « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » .

ومنها مراجعة موسى - عليه السلام - مراراً في شأن الصلاة وقوله :
إني بلوت الماس قبلك ، وكفالة سيدنا إبراهيم لأطفال المؤمنين ، ودعاء
الأنبياء له .. صلى الله عليه وسلم - وافتخارهم في بيت المقدس بما آتاهم
الله تعالى ، لي آخر ما لعله ليس يخاف عليك .

وروى مسلم في صحيحه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى موسى
ويونس فيما بين الحرمين الشريفين محرمين ملبيين متضرعين إلى الله
تعالى .

وروى البيهقي وجمع من المحدثين مرفوعاً بأسانيد صحيحة أنه
- صلى الله عليه وسلم - قال : «الأنبياءُ أحياءُ في قبورِهِمْ يُصلُّونَ» وقوله :
(حياتي خير لكم تحدثون ويحدثك لكم ، فإذا متُّ كانت وفاتي
خيراً لكم يعرض علي أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن
وجدت شراً استغفرت لكم) وهو حديث صحيح خلافاً لمن طعن
فيه ، وقد أفاض في ذلك المناوي في شرحه الكبير على الجامع الصغير ،
وكتبنا فيه بما لامزيد عليه في (مجلة الأزهر) رداً على من أنكروه ،
فلا عجب أن تعرض عليه الأعمال فيكون منه الاستبشار أو الاستغفار .

ولماذا لا نطيل القول في حياة أرواح بعد الموت وإثبات شعورها
وإدراكها وقد أثبت ذلك - صلى الله عليه وسلم - لأرواح الكفار فضلاً
عن غيرهم . فقد ناداهم بعد أن ألقوا في قلب بئر بقوله : يَا عَمْرُؤُا بَنُ
هِشَامِ وَيَا قُلَانُ بَنُ فُلَانٍ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا فَقَالَ عُمَرُ «يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُخَاطِبُ مِنْ أَمْوَاتٍ قَدْ جِيفُوا ،

وفي رواية ماتكلم من أجساد لا أرواح فيها » فقال : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وفي رواية بِأَسْمَعَ ، أَقُولُ : مِنْهُمْ » .

وقد تواتر عذاب القبر ونعيمه على أنه يكفينا قول الله تعالى :
(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) ^(١) فَإِذَا الْعُرْضُ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا كَانَ قَبْلَ السَّاعَةِ .

ثم نقول بعد هذا جاءت الأخبار بأن الميت يعلم بزيارة الحى له ويستأنس به فقد روى ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم - : « إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ لَا يَعْرِفُهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » ورواه أيضا البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعا ، وكذا الصابوني في المائتين ، وكذا ابن القيم وابن عبد البر في الاستذكار والتمهيد عن ابن عباس ، وصححه الحافظ عبد الحق الإشبيلي وأورده ابن تيمية في كتاب (اقتفاء الصراط المستقيم بمخالفة أصحاب الجحيم) : بنحو ما سمعت وقال تلميذه ابن القيم في كتابه (الروح) أنه صحيح الإسناد .

ولا غرابة في كون الأموات يردون علينا ولا نسمع كلامهم فإن الجن يوجدون معنا يتكلمون ولا نسمع لهم حديثا ، وكذلك رد الموتى على الأحياء وحديث بعضهم مع بعض . وقد روى مسلم في صحيحه أن

(١) سورة غافر ، الآية ٤٦

النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلَا أَلَّا تَدَافِنُوا (بحذف إحدى التائين) لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسْجِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ) .

وقد كانوا يعاملون الموتى في احترامهم معاملة الأحياء ، علماً منهم أنهم ناظرون سامعون مدركون منتقدون كما يدل لذلك مارواه الإمام أحمد والحاكم عن عائشة - رضی الله عنها - قالت :

كنت أدخل البيت فأضع ثوبي وأقول إنما هو أبي وزوجي . فلما دفن معهما عمر بن الخطاب ما دخلته إلا وأنا مشدودة على ثيابي حياءً من عمر . وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح .

وفي فتاوى ابن تيمية ما نصه : « ما تقولون في الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلم الأموات بزيارتهم وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو سير قرابتهم » .

الجواب

نعم قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء عليهم فيما رواه ابن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال : « إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض انظروا أحاكم ليستريح فإيه كان في كرب شديد ، قال فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ » الحديث .

وأما علم الميت بالحي إذا زاره ففي حديث ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » . . . وقال ابن عبد البر : ثبت ذلك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وصححه عبد الحق صاحب الأحكام .

وقال ابن القيم الأحاديث والآثار تدل على أن الزائر للأموات متى جاءهم ، علم به المزور منهم وسمع كلامه وأنس به وراآه .

هذا عام في حق الشهداء وغيرهم وأنه لا توقيت في زيارتهم وهذا أصح من أثر الضحاك الدال على التوقيت بيوم الجمعة ويوم بعده ويوم قبله ، وفي مسند الإمام أحمد وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن منده أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ فَإِنْ رَأَوْا خَيْرًا اسْتَبَشَرُوا بِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا اللَّهُمَّ لَا تُحْتَمِمْ حَتَّى تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا » وفي رواية عن الطيالسي في مسنده عن جابر بن عبد الله « وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا اللَّهُمَّ أَلْهِمُهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ » .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن النعمان بن بشير قال : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « اتَّقُوا اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ » وفي رواية لابن أبي الدنيا قال : « تُعْرَضُ أَعْمَالُكُمْ عَلَى الْمَوْتَى فَإِنْ رَأَوْا حَسَنًا اسْتَبَشَرُوا وَإِنْ رَأَوْا سُوءًا قَالُوا اللَّهُمَّ رَاجِعْ بِهِمْ » .

هذا وقد قال ابن القيم في كتاب الروح : إن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه في التصرف والقوة والنفوذ والهمة وسرعة الصعود إلى العرش والتعلق به سبحانه وتعالى ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه ، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت عنه وفارقتة واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل نشأتها روحا عاية زكية كبيرة ذات هممة عالية ، فهذه لها بعد دنارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواردت الرؤى في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد الموت أفعالا لا تقدر على مثلها حال اتصالها بالبدن في هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد . والفيلق بالعدد القليل جداً ونحو ذلك .

وكم رؤى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر وعمر - رضی الله عنهما - في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم ، فإذا بجيوشهم تغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المؤمنين وقتلهم .

هذا ما قاله ابن القيم فأنت تراه هو وشيخه ابن تيمية موافقان للعلماء في هذا كل الموافقة فليس ذلك من مواضع شذوذهما . وقد أوردنا ذلك عنهما كى يعتبر مقلدوهما أرباب تلك الثرثرة الفارغة . فلنقتصر على هذا .

التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح

جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع :

فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى . السلام على فضيلتكم
ورحمة الله . وبعد :

فترجو من فضيلتكم التكرم بالإجابة عن السؤالين الآتيين :

هل هناك علاقة شرعية بين التنويم المغناطيسى وبين استحضار
الأرواح وإخبارها بما وقع ؟ وهل الروح المؤمنة التى تكون منعمة بنظرها
إلى ما أعد لها فى الآخرة من النعيم العظيم يمكن لأى كان أن يسيطر عليها
ويستحضرها ؟ مع علم فضيلتكم بأنه حصلت أشياء كثيرة مدهشة
من هذا القبيل .

وحيث إن فضيلتكم مرجعنا العظيم فى مثل هذه المباحث المهمة .
فترجو أن يكون الجواب شافيا منشورا فى مجلة (هدى الإسلام)
الغراء . وتفضلوا بقبول احترامنا .

الجواب

يحسن أن نذكر لك سر « التنويم المغناطيسى » وعجائبه ثم نجيبك
عما سألت عنه فنقول :

إن الروح خلقت من نور كالملائكة وهى بمقتضى طبيعتها يمكنها الاتصال بالملك الأعلى الذى هو عالمها الأسمى فيكشف لها شئ من المغيبات ، وترى الأشياء البعيدة جدا ، لأن بصر الروح ليس كبصر الجسم .

أو نقول كما قال الفلاسفة وبعض أهل السنة كالغزالي والحليمي إنها من المجردت فلا حيز لها ، وإذا لم يكن لها حيز استوت عندها الأحياء كلها فترى القريب والبعيد على السواء متى التفتت إليه . ولكن مادامت مشغولة بتدبير هذا الهيكل الجسماني فإنها تنحصر فيه ولا تتعداه فإنه ليس لها إلا وجهة واحدة .

فإذا تخلت عنه وأغلقت أبواب الحواس فلم تشغلها بأخبار المبصرات والمسموعات إنخ : رجعت إلى عالمها وظهرت عليها تلك الظواهر الروحانية التى تقتضيها تكوينها وخصائصها النورية .

وقد تعرف شيئا من ذلك بما تراه فى نومك من المنامات الصادقة ، وإن لم تكن رأيت ذلك فقد سمعت به سماعا مستفيضا أو متواترا . وقد جاء به القرآن فى سورة يوسف عليه السلام ففيها منام صاحبي السجن ومنام الملك ومنام يوسف مع إخوته وأبويه ، وقد قال :
(هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)^(١) .

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

فالمنوم (بكسر الواو) يحاول أن يوصل المنوم (بالفتح) إلى تلك الحالة التي تتخلى فيها الروح عن تدبير الجسم وترجع فيها إلى عالمها فتظهر عليها خصائصها الروحية .

وقد ذكروا أن المنوم لو اطلقت بجانبه المدافع الضخمة لم يسمعها ولم يتأثر بها لأن الروح في عالمها الذي لا يتأثر بهذه المؤثرات .

فهذا هو سر ما تسمعه من حوادث التنويم المغناطيسى .

أما استحضار الأرواح المسعى «بالاسبرتزم» فأمرد مشتبه وحتدل فإنه يجوز أن تتمثل الشياطين بأرواح الموتى ، ويجوز أن يكون ذلك الظهور وذلك الخوارق لأرواح الموتى أنفسهم وما يظهرونه من العجائب .

فسره هو ما شرحناه من خصائص الأرواح التي لها نواميس أخرى غير نواميس المادة والموت ليس إلا انتقالاً من دار إلى دار . بل يقولون : إن الروح إذا خرجت من البدن كانت كالسيف إذا خرج من غمده . ولكن ليس ذلك على إطلاقه فإن للأرواح بعد الموت أحكاماً كثيرة وليست كلها على السواء . بل بينها من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله -- تعالى -- .

ويجوز أن يكون بعض ما يظهر لهم هناك هو من الشياطين وبعضه من الأرواح . ولذلك يحصل تخليط . كثير وصدق وكذب . الخ .

أما الأرواح الكبيرة فليس للمستحضر سلطان عليها ولا يستطيع
أن يقسرها على الحضور ، ولكن الأمر مفوض إلى اختيارها فإن شاءت
أجابته وإن شاءت لم تلتفت إليه .

هذا ما حضرنا في الوقت وقد كتبناه على عجل وهو كاف في الجواب
عما سألت عنه إن شاء الله .

أفعال العباد

والرغبة على الجبرية والمعدلة وتحصيره الخوف في ذلك

ورد إلى إدارة المجلة أسئلة كثيرة من صاحب التوقيع نقتصر منها اليوم على هذا السؤال الذي يهم كثيراً من الناس ، وجوابه الذي أسهبنا فيه . قال السائل بعد الديباجة : نريد من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى أن يبين لنا ما هو الحق من مذهب الجبرية والمعتزلة والأشاعرة فيما يقع منا من أفعالنا ، وأن يفيض القول في ذلك إفاضة لاتدع في قلوبنا شكاً ولا في نفوسنا حيرة . فإن هذه المسألة مشككة غاية الإشكال . وكيف لا وقد ورد في القرآن الكريم آيات تفيد أن الله - سبحانه وتعالى - خلقنا وما نعمل وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ومن يضل الله فما له من هاد .

وقد ورد به أيضاً عدة آيات أخرى تفيد أن الإنسان هو الذي يشقى نفسه ، وأن الخير منه - تعالى - ، والشر من العبد .

فكيف نوفق بين هذه الآيات ؟ وإذا كان المولى سبحانه وتعالى هو مندير الأمور ومسير الخلائق حسب إرادته وأنى شاء ، فلم يعاقبهم على ما اقترعوا من السيئات التي قدرها عليهم ؟ .

عبد الرحمن عبد الفتاح

ناظر مدرسة نزلة أحمد يونس

الجواب

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

جاءتنا أسئلة كثيرة حول هذا الموضوع ، ولهذا رأينا أن نطنب

في الجواب ولا نختصر فيه ، فنقول :

مذهب أهل السنة : أن خالق أفعال العباد بعد اختيارهم وإرادتهم ،

هو الله - تعالى - ولا يصح أن يطلق اسم الخالق على غيره - عز وجل -

ولكن للعبء تدخل فيه باختياره ، وهو أحد الأسباب التي يتوقف عليها

وجوده ، بل هو أعظم حلقات سلسلة الوجود وأهمها ، على ما استسمع بعد ،

- إن شاء الله - .

وإنه ليكفي لنصرة مذهب أهل السنة وسقوط مذهب الجبرية ،

أن الجبرية قد صادموا البدئية ، وخالفوا المحسوس . فإن كل إنسان

يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ، وكل

ما صادم اضرورة وناقض البدئية فهو غير مسموع ولا مستحق للرد

عليه .

وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ولا يضربوا من ضربهم

ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الإنسان ، وأنه

مظهر المتضادات والمتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب لم يستغرب

ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الإنساني ما يضحك الثكلى ويبكي

الحليم :

فنرى المعتزلة قد غالوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل
بنفي الصفات ، وزلوا في هذه المسألة زلة لا تقال .

والمشبهة قصرها حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام . والروافض
غالوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول والقول بالعصمة في غير
الأنبياء .

والخوارج أفرطوا حتى كفروا بالذنب . والمرجئة فرطوا حتى أغروا
الناس بالمعاصي ولم يقيموا لها وزناً ، إلى غير ذلك من الحماقات
والجهالات .

وإن شئت فانظر إلى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه
على طرفي نقيض ، كالعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ،
فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا . وقال آخرون : لا يحد
لكونه من النظريات التي يصعب تحديدها . وكذلك اختلافهم في
الوجود وفي الضوء « إلى آخر ما يليكم عن أعظم المصاب وأكبر
الآعاب » .

ولاغرو فقد قال الله في حق الإنسان : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(١) .
وقال في بيان طيشه : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ)^(٢) . (وَكَانَ الْإِنْسَانُ
عَجُولًا)^(٣) . وإن من ضعفه الذي خلق عليه جهله بضعفه « ولو عرف
ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه » .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٧

(٣) سورة الإسراء الآية ١١

وقد يفسد استعداد الإنسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك . والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة . وقد قال تعالى في حق القرآن الذى هو هدى ونور: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا^(١)) .

الرد على المعتزة وبيان فساد مذهبهم :

أما المعتزة، فهم أعظم الناس جهلا وأكثرهم حجابا وأكبرهم جرأة على الله وأبعدهم عن إدراك ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله وأشدهم مصادمة لصراح النصوص ، وأكثرهم تأويلاً لها .

ولو تأملوا قليلاً لعلموا أن الموجودات تنقسم إلى ماله الوجود من ذاته ، وإلى ماله الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ، بل إذا اعتبرت ذاته من حيث هي ، كان عدما محضاً . وقد عرف في أحكام الممكن أنه ليس له شيء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة إليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب لله عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد في قبضة الحق « وهكذا يجب أن يكون العبد مع الرب الذى شملت ربوبيته كل شيء » ، ويجب له بمقتضى إلهيته أن يرجع إليه الأمر كله ، وألا يخرج عن حيطته وهيمته شيء من الأشياء « أليس من أوضح الأدلة على ذلك أنه تعالى أظهر للناس كل شيء ، وبين لهم كل طريق ؟ ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الأخروية إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لَهُمْ ، فريقتا هدى وفريقتا حق عليه الضلالة :

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦

فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدي إلى صراط مستقيم ، وكم سمعوا من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ، وكل ذلك واضح المعنى على المبني سافر المحيا غير مبرقع ولا محجوب . فهو على طرف التام للمتناول . ولكنهم يمرون به فلا يرون ضوءه المتلألئ ، ولا يسمعون نداءه العالى ، وكان في آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة . وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت في الأغبياء الذين لا يعرفون كيف يسيرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شئ بحشا ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها وأدق خوافيها ، وجميع مبادئها وغاية مراميها . فكان لسان القدرة الإلهية يقول : أوجدت كل شئ من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحة بينا على جانبي الطريق الذى تمر فيه كل يوم تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض . ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تتظللوا بشئ من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا إلى سعادتكم بشئ من تلك الوسائل التى جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكانكم لا تبصرون أو لاتعقلون . أفلا تعرفون بذلك أنكم تحت قدرتنا وإرادتنا ، ولن يمنعنا من ذلك جعل الأعلام والاضحات والطرق بينات والدلائل ناطقات ووجود الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا وأظهر في بيان تصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيكم الأبصار التى تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لاترون ذلك النور ، فلا تسلكون أو لاتستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شئ محيط ، وأنه على كل شئ قدير ، فأين تذهبون أيها المحجوبون ، سنستدرجكم من حيث لاتعلمون :

وإنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، وبيدنا ملكوت كل شيء و لينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجل فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) ^(١) .

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكننا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، أو لم يساعدنا الحظ ، إلى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .

وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله في خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، ورد كل شيء إلى مقاييسهم الفاسدة وأفكارهم الضعيفة : فاشيء من جهلهم بالله وجهلهم بأنفسهم .

فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلي يستدعي أن تدرك كنهه علاقة الخالق بال مخلوق ، وأن يكون علمك بترتيب الأشياء وأسرارها وما يجب لها وما فيها من الحكم مساوياً لعلم الله تعالى - والفكر الإنساني له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه .

وكان من خواصه أنه لا يصل إلى كنه الأشياء وحقائقها ، ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئاً وهو حسير .

فليس له من العلم بالأشياء إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها. ولذلك كانت الفلسفة في كل زمان مشار الأوهام ، ومعشش الخيالات ، ومنبع الشبهات :

قل لمن يفهم عنى ما أقول قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه فصرت والله أعزاق الفحول

سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ، لافى ذاتك ولافى صفاتك ولافى
أفعالك . وهكذا الألوهية يجب ألا يعرفها غيرها ، ولا يحيط بها
سواها .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر فى كل
مافعله أبوه ؟ ودل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون
استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمه أو قريبا منه .

ولديك الوجدانيات التى نحس بها ونحن من نوع واحد ، لا يمكن
صاحبها أن يفهمها لغيره . بل المحسوسات التى لم نعرفها ولا مايشابهها ،
لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام لم تذقه قط . ولا ذقت مايشبهه ،
ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبى لذة الوقاع ، ولا من خلق أكمه تلك
الألوان المختلفة وهكذا الأشياء كلها .

وأنت تعلم أن الحيوان البهيمى لا يبلغ بما له من الإلهام إلى تعرف
حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن
من معرفة مقدار زيادتهم عليه . فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة
الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون .

وقد انكشف لموسى - عليه السلام - وهو هو صحة ما فعل الخضر بعد القطع بطلانه .

ومما يجب الالتفات إليه أن الوهم في هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع إلى الله في إمداده بهدايته . وينبغي للإنسان في هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه ، من شدة الجهل وقلة العلم وتردده في الأمور وحيرته في أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مراراً ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه .

وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه في كتابه العزيز بأنه ظلم جهول . وقد كان ينبغي أن تعلم من التجربة المتكررة ، ومن قصة الخضر عليه السلام ، التناوت العظيم بين الخلق في معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل ؟

ولنتنزل غاية التنزل فنقول :

لو وهب الله - عز وجل - لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأوويل في النصف الآخر . فما أتى الإنسان في توهمه نفي الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجملى بحكمة ربه كاف شاف . وإن علمه بكمال ربه في جميع أسائه الحسنى وصفاته العلي ، مع نقص العبد في كل شيء وكثرة جهالاته وظلمه وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعا عن اتباع سنة إبليس حيث نازع به في حسن سجوده لآدم .

وهذه هي سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : (مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ اللَّيِّ كَانُوا عَلَيْهَا)^(١) . وقد قال سبحانه وتعالى ملائكته : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٢) .

قال علي - كرم الله وجهه - لمن سأله عن مثل هذا : اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخا .

وقد قال مالك لمن جادله : أو كلنا جاءنا رجل أجادل من رجل تركنا لجداله ما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ ولننشد هنا قول الزمخشري :

العالم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلاته يتقمم
ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

؛ إنك لتعلم الفرق بين قدرتك التي لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، وبين قدرته التي خلقت السموات والأرض ، وما لا يحصى من العوالم . فلتعلم أن الفرق بين علمك وعلمه كالفرق بين قدرتك وقدرته . وقد جاءتني هذه الأبيات عفواً :

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٢

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠

لما علمت بما للعلم من سعة وما للرب البرايا الحق من عظمه
عزلت عقلى فلم أقبل تخرصه فيما يظن لجهل أنه علمه
وعندما قد بحثنا عن حقيقته قد استبان لنا ما فيه من تهمه

وأحسن طريق عندي أن تفكر في دقائق خلقتك العجيبة ، وما أودع
في كل عضو من أعضائك من الأسرار ، وما نيظ به من الوظائف ،
وما يكتشفه علماء الفزيولوجيا من ذلك حتى الآن مما أدهشهم . وكذلك
علماء الحيوان والنبات والفلك ، حتى قال العلامة الشهير (هرشل) :
كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق
أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية لحكمته . فالجيولوجيون (علماء طبقات
الأرض) والرياضيون والطبيعون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد
صرح العلم ودو صرح عظمة الله وحده .

وقد أتينا على كثير من ذلك فيما كتبناه في هذه المجلة ، خصوصاً
في تفسير قواء تعالى : (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ)^(١)
فهل نشك في حكمته بعد ما شاهدنا ذلك وأضعافه وأضعاف أضعافه ؟
فعلى العاقل أن يملأ قلبه بالفكر في المحكم لا في المتشابه ، (فَأَمَّا الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)^(٢) .

ويعد : لانقل كما قال بعضهم :

إننا نعلم أن لنا إلهاً لا شريك له ، فيجب بمقتضى ألوهيته ألا يخرج
شيء عن حيطته كما قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ

(١) سورة الباقية ، الآية ٣

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٧

بِالنَّاسِ) ^(١) . (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) ^(٢) . ونعلم أن لنا أفعالاً اختيارية لا نشك في أنها باختيارنا . فلنؤمن بأول السلسلة وآخرها ، ولنُدع ما بينهما .

ومع كونى أطلت ، أجد في نفسى باعثاً قوياً أن أتكلم كلمة وجيزة في فعل الإنسان واختياره ، غير معرج على ما يذكره الأشاعرة في تفسير الكسب الذى أصبح مضرب الأمثال في خفائه . فيقال فى كل شىءٍ دقيق أو غير مفهوم : إنه أخفى من كسب الأشعري . فلماذا لا أريد أن أخوض بك تلك الغمرات التى قلما تخرج منها مقتنع النفس مطمئن القلب ، فأقول وبالله التوفيق .

تقريب لمذهب أهل السنة

الذى هو وسط بين مذهب المعتزلة ومذهب الجبرية بعبارة واضحة

من البدهى أننا نختار الفعل على الترك . والترك على الفعل ، فى الجزم بحريتنا واختيارنا ، وقد تعلم ما يعارض البدهى أو المحسوس يجب ألا يلتفت إليه ، ويكفى فى سقوطه مصادمته للبدية كما قلنا فى ^{*}رد مذهب الجبرية .

ولسنا نشك فى أن لنا تدخلاً فى الفعل . فإذا لنا شىء فى العمل لا محالة . وإن كنا نعتقد أن ما يسره الله كان وما لا فلا . لأننا لانستطيع أن نوجد جميع الأسباب التى يتوقف عليها وجود الفعل ،

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٦٠

(٢) سورة هود ، الآية ٥٦

فإن ذلك ، بيد الله وحده ، فهو المهيمن عليه ، والقادر على إيجادهِ وترتيبه .

وكيف لا يكون لنا تدخل والأسباب الجمادية لها تدخل في الأشياء كما هو مذنب السلف المأخوذ من القرآن ؟ قال تعالى : (يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَزَيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ)^(١) . فجعل الإنبيات به كما جعل الإحياء به في الآية الأخرى (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)^(٢) فالباء للسببية الظاهرة ، وإن كانت الأسباب غير مستقلة ولا قائمة بنفسها .

والممكنات كلها كذلك ، ولكن لها خصائص في عالم الحكمة ، وإن كان متأخرون لهم من العبارات ما يفيد سلب كل خاصة لها وفائدة ترجع إليه ، محافظة على توحيد الأفعال فيما ظنوا . ولكنهم وإن وفوا بحق لقدرة قد أحلوا بحق الحكمة التي جعلت الأشياء مراتب وقضت بالتناوت بينها ، فلم تجعل النار كالماء ، ولا السم كالترياق ، فسبحان من خلق فسوى ، وأعطى كل شئ خلقه ثم هدى ، فكيف لا يكون لنا تدخل فيما يكون منا ؟

هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار ، الذى يستطيع أن يقلب الأسباب الآلية ويسيرها فى أى طريق شاء وهو أعظم منها ، فإنها مسخرة له وهو مليكها ، فكيف لا يعطى ما أعطيته من الأحكام ، وهو أقوى الأسباب وأعظمها ؟ ولماذا يجعلون من الأسباب التى يتوقف

(١) سورة النحل ، من الآية ١١

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٦٤

عليها الفعل نظر الإنسان وإرادته واختياره وترجيحه ؟ هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل في الفعل ما ليس للعاقل المختار ؟ اللهم إن ذلك غير معقول . فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار ما للعبد من ذلك ، وهو غير ضروري للعلم الإنساني ، بل غير ممكن فإن اكتناه الأشياء كما هي غير مستطاع للإنسان ، ولا داخل في متناول قدرته . فهذا الغذاء الذي هو من أظهر الأشياء في أدواره وما يترتب عليه لا نعرف من أمره إلا الظواهر التي لا تسمن ولا تغنى .

أما كيفية انقلابه أعضاء مختلفة : فيصبح عيناً باصرة وأذناً سامعة ومخاً مدركة إلخ . فهذه أشياء لا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها : وكذلك ما تنبت الأرض من أوضح الواضحات من حيث أطواره المعروفة : ولكن كيف تكون هذا النبات من التراب ، وكيف استحال التراب أزهاراً هية وأثماراً شهية ، فذلك مما لا سبيل إلى الوصول إليه : وهكذا الأشياء كلها .

ومما يجب أن يلتفت إليه أن كل شيء نستطيع البحث فيه إلى حد محدود . فإذا تجاوزنا ذلك الحد استغلق علينا وانسدت أبواب الفهم فيه ، فأخذنا نضرب في مناهات الخيال ، ونخطب في مهامه من الظنون والأوهام ، فتضاربت الأقوال وتناقضت الآراء .

وسر ذلك أن الإنسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس ، ثم ينتزع منه ما قدر له من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده .
يحدث ويتخيل .

وقد قررنا أن الوهم كثيراً ما يغلب العقل ، وأن القنصايا الوهمية كثيراً ما تشبه بالقنصايا الضرورية . والحق الذي عرفناه بالعلم ثم بالتجربة ، أن السلطان الغالب على الناس في هذا العالم إنما هو سلطان الوهم لا سلطان العقل ، ولا يكاد يخلص من سلطان الوهم إلا القذ بعد القذ .

هذا ولا نزال نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التي يقع عليها الحس ويدركها اللمس لا يصل إليها الإنسان تماماً ، وإن كان يظن ذلك جهلاً وتجبهاً .

فالعلم بكنهه الأشياء على ما هي عليه من كل وجه ، مختص بالله تعالى - : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)^(١) . وقد خلقت على حد محدود في عقلك ، كما خلقت على حد محدود في سمعك وبصرك .

ولو عرفنا هذه الحقيقة فلم نجاوز قدرنا ولم نتعد طورنا ، نزال هذا العناء ، وذهب ذلك الشقاء . وهي حقيقة يجب أن تقرر وتكرر ، حتى تملأ الرؤوس وتثبت في النفوس .

ومن العجيب أنهم أطالوا القول في هذه المسألة (مسألة أفعال العباد) منجلدين ومتهمين ، مشرفين ومغربين ، فكانت من أعوص المسائل بين الفرق الإسلامية والمسيحية . ولو تأملوا لعرفوا أنه لا فرق بينها وبين غيرها ، فكل شيء من الأشياء عويص إذا أردنا أن نقف على كنهه وحقيقته ، فما بالنانتجاوز قدرنا ثم نكثر من الصراخ والضوضاء

(١) سورة بقرة ، من الآية ٢٥٥

ولو تركنا كلام المتأخرين في هذه المسألة ورجعنا إلى سلفنا الصالح ،
لوجدنا كلامهم أدخل في باب الحقيقة ، وأقرب إلى الذوق والافتناع .
فانظر إلى قولهم ، « أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض » يريدون أن
العبد ليس بمستقل استقلالاً تاماً ، ولا هو مجبر على ما يأتي ويذر .
وهذا شيء نحس به ولا ننكره ، وإن لم يمكننا تحديده كما قلنا .

وقد سأل الإمام علياً - كرم الله وجهه - شيخ بعد انصرافه من
صفين ، فقال : « أخبرني عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله
وقدره » فقال : « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطناً
ولا هبطنا وادياً ولا علونا قلعة إلا بقضاء الله وقدره » . فقال الشيخ :
« عند الله أحسب عنائي ما أرى لي من الأمر شيئاً » فقال له :
« مه أيها الشيخ : لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون ،
وفي منصرفكم وأنتم منصرفون . ولم تكونوا في شيء من حالاتكم
مكرهين ولا إليها مضطرين » .

فقال الشيخ : « فكيف ساقنا القضاء والقدر » ؟ قال : « ويحك ! لعلك
ظننت قضاء مجبراً وقدرًا قاسراً . لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب
والوعد والوعيد والأمر والنهي ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمداً
لمحسن ، ولما كان المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم
من المحسن . تلك مقالة جنود الشياطين وشهود الزور وأهل العمى
عن الصواب ، إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسراً ،
لم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكراً ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ،
ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا
فويل للذين كفروا من النار » .

وقال الإمام الرضا : « إن الله هو المالك لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم ، وإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً ، وإن اختاروا معصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وإن لم يحل وفعلوا فليس هو الذى أدخلهم فيه . »

أقول : وهذا كله ترى القرآن ينسب الأفعال إلى العبد تارة ، وإلى الله تارة أخرى ، نظراً للأمرين وتوفية للمقامين .

وهكذا يجب فى الشريعة الحكمة التى تعتبر الأسباب ونراعى المراتب ، ثم لا تلبس أن تلفتك إلى الحقائق وما يجب اعتقاده فى حق الخالق ، الذى تستمد جميع المخلوقات منه ، ولا غنى للممكنات عنه ، بمقتضى إلهيته الشاملة وربوبيته التى تمد كل شىء وتحيط بكل شىء .

والخلاصة أن هنا غلظتين : (الأولى) ظنهم أن علم الله بالاشياء يوجبها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار . ولا أدرى كيف يفهمون ذلك مع أن العلم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذاً يؤكد الاختيار ولا يعرضه . و (الثانية) إخراج الإرادة الإنسانية من سلسلة الأسباب وجعلها لغواً فى البين .

وقد اختصرنا لك الطريق ، وأهدينا إليك لباب التحقيق .

وبعد : فدن عرف الألوهية وعظمتها ، لم يطمع فى معرفة أسرارها ولا اكتناه حكمتها فى مخلوقاتها ، فإنه تعالى دبر العالم على حسب علمه لا على حسب علمك . وكل من عرف عظمة الربوبية لم يوجه إليها سؤالا ، ولم يتبع فى شأنها خيالاً .

وما جاءت المصائب كلها إلا من تقديس الإنسان عقله القاصر
ونفسه الجاهلة وعدم معرفة ربه. ولكن اقتضى قصور عقله أنه لا يدرك
قصور عقله ، وجهل نفسه أنه لا يدرك جهل نفسه .

كلمة ختامية :

رأينا أن نختم كلمتنا هذه بما رواه البيهقي في كتابه « الأسماء
والصفات » عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس - رضى الله عنهما - :
أنه لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم أنت رب عظيم ، ولو شئت
أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت . وأنت تحب أن
تطاع وأنت في ذلك تعصى ، فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه :
إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . فانتهى موسى .

رواه الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه إلى الطبراني ، وزاد فيه :
فلما بعث الله عزيزاً سأل الله مثل ما سأل موسى ثلاث مرات ، فقال
الله تعالى له : أتستطيع أن تصر صرة من الشمس ؟ قال : لا . قال
أتستطيع أن تجيء بكيال من الريح ؟ قال : لا ، قال : أتستطيع أن
تجيء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا ، قال فهكذا لا تقدر على
الذي سألت عنه . فقال عيسى - عليه السلام - . القدر سر الله تعالى
أفلا تتكلفوه .

وروى الطبراني عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر فقال :
وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً

أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر في شعاع الشمس : كلما زاد فيه نظرا ازداد حيرا . وقد قال تعالى : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(١) .

وسر ذلك أن الله قد خلق العوالم كلها كالشيء الواحد ، فلا يمكنك أن تحكم على شيء من الأشياء بالأحكام الصحيحة المحيطة إلا إذا أحطت خبرا بجميع العوالم وما بينها من العلاقات ، وما لها من المراتب ، وما فيها من الأسرار .

وقد تعرضنا لهذا الموضوع في رسالتنا تفسير قوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)^(٢) بغير ماقاله المفسرون . ولعلها خير ما كتب في هذا الموضوع فيما نظن ، والفضل لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولنقهر الظلم على ترك الجولان في هذا الميدان ، والموفق يكفيه القليل ، والمخول لا يقنعه الكثير .

أسأل الله أن يعرفنا قصور عقلنا وعظمة ربنا ، وأن يقينا شر الفتنة ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

(١) سورة القرة ، الآية ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٣

الشرك وعقوبته الأضروية^(١)

ورد إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر كتاب من حضرة محمد زكى عبد الوهاب العفيفى بشبرا مصر، يرجو فيه أن يجاب على سؤال له فى الشرك، فاهتم فضيلته، بالأمر وكلف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى، ومدير هذه المجلة، أن يضع كل منهما جوابا عليه، كل على حسب وجهة نظره، فصعد كل منهما بهذه الإشارة كما يراه القراء فى هذا العدد.

أما نص السؤال بعد الديباجة فهو :

قبح الله الشرك وأوعد المشرك بعدم المغفرة والخلود فى النار فلماذا؟ وما حكمة هذا العقاب الشديد، وما حكمة كونه لا يغفر، وكيف التصق بالخلق، وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرر الله ذكره ومتمته مقتناً عظيماً فى آيات كثيرة فى القرآن؟ ولماذا كان يغيظ الشرك محمدا وغيره فحملهم ذلك على أن يحاربوهم حروبا شعواء؟

وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصيح له؟

وما الفرق بين المشرك والمنافق؟

وكيف نوفق بين قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)^(٢)

وبين قوله : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)^(٣) فكيف يكون

من هو رحمة للعالمين سبباً فى عذابهم؟

(١) مجلة الأزهر - الجزء السادس - المجلد السادس - سنة ١٣٥٤

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧ (٣) سورة الإسراء، الآية ١٥

ولو فرضنا أن محمداً لم يبعث في جزيرة العرب فماذا كان يضر؟
وقد بعث ولبس بها نهر ومات ولم يحفر بها نهراً ، فما حكمة ذلك؟
هذا هو لكتاب مجرداً من حواشيه . فكان جواب فضيلة الأستاذ
الشيخ الدجون عليه ما يلي :

الجواب

إننا نعجب، كل العجب من أعماق قلوبنا لمثل هذه الأسئلة ، ولكن
لا مندوحة لنا عن جوابها . وعلى الطبيب أن يداوى كل مريض
يأتيه ، فنقوم وبالله التوفيق :

لا يعرف قبح الشرك بالله وإجرام المشرك إلا كل من يعرف عظمة
الله التي أدهشت العلماء ، حتى قال بعض الفلاسفة من فرط دهشته
بعظمة الله الذي أبدع تلك العوالم ، التي لا يأتي عليها العد ولا يحيط
بها الحد ولا يدرك كنه ما فيها من الأسرار والعجائب إلا مبدعها العليم
الحكيم ، قال ذلك الفيلسوف ، « ليت شعري من ذلك الذي اجترأ عليك
فسمك الله لأول مرة ؟! » .

وقال سبنسر الانجليزي ما ترجمته : « ليس الغرض من علم
الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف
الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء
تلك الحدود التي ينتهي إليها علم الطبيعة » .

ولا شك أن جرم من يتجرأ على العظيم أعظم من جرم من يتجرأ على غير العظيم ، وهكذا تتفاوت عظمة الجرم على حسب درجات تلك العظمة . فإذا المتجرىء على أعظم العظماء هو أعظم المجرمين .

وأما قول السائل : « وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرهه الله ومقته مقتاً شنيعاً فى آيات كثيرة من القرآن » .

فجوابه أنه يترتب عليه كل مفسدة يمجها السمع وينفر منها الطبع ، وتقوض أركان العمران وتذل نوع الإنسان ، وتذهب بالفضائل وتأتى بجميع الرذائل .

أما من عرف الإله الحق العادل الحكيم الذى يجازى المسئء بإساءته والمحسن بإحسانه ، وهو الذى يقول : (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ)^(١) . ويقول : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٢) . ويقول : (وَمَا يَغْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)^(٣) .

نقول أ: كل من يؤمن بهذا الإله الذى ذلك بعض صفاته وقابيل من كمالاته ، لا يمكنه أن يظلم أحداً أو يتعدى على أحد . . . إلخ .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٧ ؛

(٢) سورة الزلزلة ، الآية ٧

(٣) سورة يونس ، الآية ٦١

وكل ما نراه اليوم مما تضح منه الإنسانية وتصرخ منه الأخلاق وتئن له الفلاسفة والمصلحون ، فليس إلا نتيجة الشرك بالله ، والجهل بعدله وعلمه وقدرته . فما زور المزورون ولا كذب الكاذبون ، ولا تلون السياسيون النداعون ، ولا قتل القاتلون ، ولا سرقة السارقون ، ولا جار القضاء الظالمون ، ولا خان الخائنون ، ولا غضب الغاصبون ، ولا التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ، ولا استعبدتهم وتفننت ، في^١ ضروب الاستعداد لهم ، ولا ضحك الأذكىء على الأغبياء ولا المتنورون على الجهلاء ، ولا الأكابر على الأصاغر ، ولا الأقوياء على الضعفاء فلم يريدوا منهم إلا ما يريد رب الماشية من الماشية ورب الضيعة من الضيعة . . . الخ .

لم يقع ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه مما لا يخفى عليك ، ولا حاجة بنا أن نسوقه إليك ، إلا من عدم معرفة الله والإيمان بعدل الله ، وهو نتيجة من نتائج الشرك الجلي أو الخفي ، والعدول عن سنن الدين وأهل الدين ، (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (١) .

ولو رسخ الإيمان في القلوب كما يريد الأنبياء ، لتراحم الناس فيما بينهم ، ولكانوا إخوة متحابين متضامنين ، عملاً بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » بل قد يصل المؤمن من لباب ذلك إلى حد أنه يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، ويخاف من أن يؤذى هرة فضلاً عن إنسان ، لأنه يعرف ما قاله - صلى الله عليه وسلم - : « دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ » .

ثم يقول في حديث آخر : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، اَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ » . ولو عمل الناس بتعاليم الأنبياء لكانوا على غاية الصفاء والهناء ، ولعاشوا عيشة أهل الجنة في الجنة .

فهذه هي الغاية التي يريدها - صلى الله عليه وسلم - من الناس حتى جعلها شرطًا في الإيمان الكامل فقال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » . وقال : « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الَّذِي لَا يَمُنُّ بِجَارِهِ بِوَأْتِقَتِهِ » إلى غير ذلك وهو كثير .

فسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الذي جاء لإنقاذ الإنسانية المعذبة ورفعها من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة ، ولكن كل إنسان يأخذ من هذا المعين الصافي وذلك البلسم الشافي حسب ما قدر له وسمح به استعداداه .

أء ادعوى الأوربيين إنقاذ الإنسانية من شقاءها ، فهي دعوى كاذبة قصد بها التغرير وتوسيع الاستعمار ، فكانت من وسائل تعذيب الإنسانية لا إنقاذها . ولعل السياسيين هم أعرف الناس بذلك .

وسر هذا كله أن الإنسان لا يحب أولًا وبالذات إلا نفسه ، ولا يحب الأشياء إلا من أجلها . فليس له هم بمقتضى طبعه إلا ما يعود عليها بالمنفعة من قرب أو بعد ، ولا يكاد يفكر في غير هذا أو يريد شيئًا سواه ، وكل ما يوصله إلى ذلك فهو من بغيته وطالبته ، وإن خربت

البلاد وهلكت العباد ، فهو وحش ضارٍ يفترس أقرانه ويبيد بني نوعه بلا شفقة ولا رحمة : وليس لديه قانون إلا قانون المنفعة الذاتية ، ولا دستور إلا دستور المصلحة الشخصية ، فهو في نظر الفلسفة الصحيحة أحط من الحيوان وأضر من الثعبان . ولذلك أباح الدين دم الحربى ، لأنه سقط عن رتبة الإنسانية والتحق بالحيوانات المؤذية ، فكان الواجب للإنسانية تطهير الأرض منه رحمة بها وشفقة عليها ، فلا غرو أن يهدر دمه ولا تراعى كرامته ، وهو الذى أضاعها بسوء سلوكه وفساد إنسانيته (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(١) .

أما خلوده في النار فلعظم الجريمة كما قلنا . أو نقول ما قال كثير من العلماء : إنه كان ينوى الكفر بالله على التأبيد . والعبرة عند الله ليس إلا بما تكنه النفوس وتنطوى عليه القلوب « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ لَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » .

أو نقول : إن هذا الرجل دأب على مساخط الله والعمل على فنون الرذائل حتى دمارت ملكة راسخة فيه ، فالتحقت بالغرائز ، وصارت بكثرة التمرن ، استحكام العادة كأنها جزء من تكوينه الخلقى واستعداده الطبيعى ، فلا سبيل لانتزاعها منه إلا بفساد تكوينه واقتلاع غرائزه وانخرام طبيعته ، ولذلك يقول الله تعالى : (وَكَوَّزُوا رُءُوسَهُمْ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)^(٢) . من عرف تأثير العادات وتكوينها للملكات الخبيثة أو الصالحة في لنفوس ، لم يستغرب ذلك

(١) سورة نحل ، الآية ١١٨

(٢) سورة لأنعام ، الآية ٢٨

وإذا نقول : إن هذا الرجل كله خبث وقذارة روحانية هي أشد من قذارة الحسيات لدى من يدرك للروحانيات معنى أو يشم لها رائحة (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)^(١) . فكيف يدخل حضرة الله المقدسة التي لا يدخلها إلا المقدسون ؛ أو يفوز بجنته المطهرة التي لا يفوز بها إلا الروحانيون ، أو يسمع لذيذ المناجاة التي لا يظفر بشرفها إلا المقربون ؟

لعمري إن الحكمة تأبى دخوله الجنة التي أعدت للمتقين وحرمت على الكافرين ، لأنهم ليسوا لها بأهل ، وأمر الحكمة المقدسة التي تأبى أن تضع الأشياء إلا في مواضعها لو دخلوا الجنة لكان هذا في نظر الحقائق بمنزلة من يأبى بشر الدواب فيدخلها حظيرة الملك ومحل خواصه ومجلس ندمائه « وأبى عقل يسمح بوجود الحمير بحضرة الملك الكبير مع الوزير والأمير » ؟

ولا تعجب من هذا فإن الإنسان قد ينحط إلى أسفل دركات الحيوان فلا يكون إنساناً إلا بصورته وتخطيطه لا غير . وقد قال بعض الفلامنقة : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » . وليس هناك تفاوت بين أفراد نوع من الأنواع مثل التفاوت الذي بين أفراد نوع الإنسان ، الذي هو مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والتناقضات .

وقد قال تعالى في حق أولئك المشركين الجاهلين الذين عموا عن الآيات وكنفروا برب الأرض والسماوات : (إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ

هُم أَصْلُ سَبِيلًا (١) وقال : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) (٢)

فهذا قول خالقهم العالم بما خلقوا عليه وانجذبوا إليه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (٣) . وسيقولون في الآخرة : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (٤) .

هذا وللشيخ محيي الدين بن العربي وابن تيمية وابن القيم كلام في الخلود في النار شذوا فيه عن الجمهور ، فلا حاجة لسوقه هنا أو التعرّيج عليه .

وأما قون السائل : « ما الفرق بين المشرك والمنافق ؟ » فلا أدري ماذا يريد به ، فإن الفرق بينهما واضح من حيث التحديد والتعريف وكيف يشته من يظهر الكفر بمن يظهر الإيمان ؟ وإن أراد الفرق بينهما في الدار الآخرة فلا فرق في استحقاق كل منهما العذاب الأليم . وقد قال الله : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) (٥) . فلندعه وما أراد .

وأما قوله : « وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصح له ؟ » فهو عجيب ، فإننا نريد أولاً إقامة الحجّة عليه (لِئَلَّا

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤

(٢) سورة محمد ، الآية ١٢

(٣) سورة الملك ، الآية ١٤

(٤) سورة الملك ، الآية ١٠

(٥) سورة النساء ، الآية ١٤٥

يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١) . وثانياً علينا أن ندعو
الناس جميعاً إلى الخير والهدى (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَيَحْيَا
مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَا) (٢) وما أودع في استعداد الإنسان من الأسرار
لا يعلمه إلا الله تعالى . فالواجب علينا أن ننصح كل من نقدر على
نصيحته بالوسائل المختلفة ، عسى أن يكون فيه قابلية للخير « ولو في
طبقة من طبقات أرضه السابعة » . فإذا لم ينتصح كنا معذورين ،
وقامت عليه الحجة .

وأما قوله : « وكيف نوفق بين قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (٣) وبين : (وَمَا كُنَّا مَعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (٤) وكيف
من يكون رحمة للعالمين يكون سبباً في عذابهم ؟

فجوابه إن الطبيب رحمة وإن أعرض عنه المغفلون ، وأن النيل
رحمة وإن لم ينتفع به الجاهلون أو غرق فيه المجازفون . بل نقول :
إن النار رحمة كبرى ، وقد امتن الله علينا بها في قوله : (أَفَرَأَيْتُمْ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ) (٥) إلى أن قال : (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَرَحْمَةً
لِّلْمُتَّقِينَ) (٦) . ولا ينافي ذلك أنها قد تكون نعمة على بعض الناس
وهذا في غاية الوضوح .

- (١) سورة النساء ، الآية ١٦٥
- (٢) سورة الأنفال ، الآية ٤٢
- (٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧
- (٤) سورة الإسراء ، الآية ١٥
- (٥) سورة الواقعة ، الآية ٧١
- (٦) سورة الواقعة ، الآية ٧٣

وكيف لا يكون رحمة للعالمين وقد جاء بسعادة الدنيا والآخرة ؟
فأعطى الروح حظها من معرفة الله وما خلقت لأجله ، وأرشدنا إلى
ما نكون به في أعلى عليين وتصبح مع الملائكة المقربين ، وأعطى الجسم
حظه من مشتهياته التي رسم لها طريقاً يؤمن شره ويرجى خيره (كلُّوا
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي
أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتٍ مِنَ الرِّزْقِ) (١) .

وأما قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (٢) فهو
جار على مقتضى العدل والحكمة ، فإن عدل الله يأنى أن يعذب لخلق
من غير إنذار ولا دعوة للاستبصار .

وإنك لتعرف ذلك في القوانين الوضعية ، فلا عقوبة إلا بعد الأمن
القوانين وظهور التشريع ، ولكن من عارض القوانين بعد ظهورها ووقف
في وجه المصلحين وعرقل تشريع الشرعيين ، كان مستحقاً للعقوبة
لا محالة .

وليت شعري ماذا يرى السائل فيمن يخرج على الأطباء فيما
يفرضونه من الحجر الصحي ، ويث التعاليم التي تنفع المرضى وتحمي
الأصحاء ، وتعاقب كل من يقف في سبيل الصحة العامة ونشر
إعلامها بين ربوع الأمة ، حتى لا تنتشر الأوبئة الفتاكة والأمراض
المهلكة ، وهل ترى أن من أعرض عن أسباب السعادة بعد الدعوة

(١) سورة الأعراف ، الآية ٣٢

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٥

إليها وانغمس في حماسة الشقاء بعد التحذير منها ، وأخذ يقاوم دعاة الإصلاح ويقف في طريقهم ، هل تراه كمن لم تقم عليه الحجة ولم يعارض دعة المصلحين ولا أعرض عن الحق بعد ما تبين ؟

وأما قول السائل : « لماذا كان يغيظ الشرك محمدا فكان يحاوبه محاربة شعواء ؟ » فلا أرى له معنى بعدما تقدم .

وليعلم حضرة السائل أن للفضائل أقواماً يغارون عليها ويبدلون في سبيلها كل مرتخص وغال أكثر مما يحرص أهل المادة على المادة ، حتى إنهم ليهون عليهم بذل الأموال والأنفس في هذا السبيل : سبيل الله الذي من مات فيه كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ولكن أهل الدنيا لا يحسون بذلك ولا يذوقونه ، ولذلك لا يعترفون به (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) ^(١) . وما هذا والله شأن المؤمن ، فإذا لم تكن عالما فكن مقلدا .

هذا وإنى أستنكر منه ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - باسمه المجرد مع كونه في عصر تفتن أهله في تعظم الكبراء والعظماء . فلا يستطيعون أن يذكروا أسماء الأمراء إلا بلقب الإمارة ، ولا أسماء الملوك إلا بوصف الجلالة ، وإذا صدحت الموسيقى بالسلام الملكي في الحفلات الرسمية قام الناس وقوفاً إجلالاً وتعظماً ، إلى آخر ما تعرف ولا تنكر .

(١) سورة يونس ، الآية ٢٩

فإذا كان هذا شعار العصر وشعوره فكيف نذكره - صلى الله عليه وسلم - بدون أدنى تعظيم ولا توقير ، وقد قال الله تعالى : (لَاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)^(١) .

ولكنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب وأما قوله : « ولو فرضنا أن محمدا لم يبعث في جزيرة العرب فماذا كان يضر » .

فهو على ركاكته لا معنى له ، لأن الله يفعل ما يشاء ويختار من يشاء . ولو بعث من أمة أخرى لجاء هذا السؤال أيضا . فهو سؤال دوري لا قيمة له .

على أن للناس معادن كمعادن الذهب والفضة كما في الحديث الصحيح ، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل العرب ، وللعرب فضائل يعرفها من درس طباع الأمم وعاداتها .

وما لاشك فيه أن الناس متفاوتون في الاستعداد تفاوتاً لا يعلمه إلا الله تعالى . فما اجتاز لرسالته سبحانه وتعالى إلا أشرفهم نفساً وأعظمهم استعداداً كما قال : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)^(٢) .

ولديك آثار المصلحين والعظماء والملوك والفلاسفة ، فهل يستطيع أحد أن يأتى لنا بمثل تلك الآثار أو بتعاليم فيها تلك الأسرار ، التي رفعت الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ، وخرقت القوانين الطبيعية ؟

(١) سورة، النور، الآية ٢٣

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢٤

كما قال جوستاف لوبون الفرنسى فى حقهم ، وهو من أكبر فلاسفة أوربا : « إن ملكة الفنون لاتستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شد العرب فوصلوا إلى الاستقلال فى جيل واحد » .

وقال أيضا : « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » . وكل هذا بفضل التربية النبوية والتعاليم المحمدية . وقد أذكرنى ذلك قول صاحب الهمزية فى أصحابه - صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

وأما قوله : « إنه بعث بأرض الجزيرة ومات ولم يحفر بها نهرا » .

فناشئ من تغلغل حب الماديات فى نفس السائل ، فهى محمود كل فضل عنده ، وهى المبدأ والمنتهى . ولو أنصف لعرف أنه - صلى الله عليه وسلم - أجرى بها أنهر العلم الصحيح ، والعمل النافع والأدب الجم ، والدين القويم ، والتربية التى أدهشت فلاسفة أوربا .

ولو قرأ السائل (حضارة العرب) لجوستاف لوبون الفرنسى ، أو كتاب (درابر) الأمريكى ، أو أقوال غيرهما ممن لايحصى عددا ، لم يقل ما قال ، بل لخجل مما قال .

وقد قلنا ولانزال نقول : ماذا تريد منه - صلى الله عليه وسلم - بعد رفع الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ، ومن دركات النذل الذى كانت فيه العرب إلى أعلى درجات العز ، وتربيتهم بأحسن التعاليم ، وأخذهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب ، حتى صار الواحد منهم أمة (١٣)

وحده بعد أن كانوا أشبه شيء بالوحوش الضارية يأكل قوتهم ضعيفهم ،
ويئذون بناتهم ، إلى غير ذلك من الفظائع التي لاتفعلها الحيوانات ،
ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة في
أقل قليل من الزمن ، ثم ينشر ذلك النور في كل أنحاء الأرض ؟

ذلك كما ، لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على
أن مصدر ذلك كله هو مثال الخير وشخص الكمال . والفضائل لاتفيض
من الإنسان إلى غيره إلا على قدر رسوخه فيها .

إن مناط السعادة الحقة إنما هو تخليص أفراد النوع الإنساني من
مخالب الشرور التي أحاطت بهم ، وغرس مكارم الأخلاق في أعماق
نفوسهم ، مراقبة الله تعالى في سرهم وعلانيتهم ، فإن ذلك جماع
الخير وأساس السعادة

ونبيينا - صلى الله عليه وسلم - أعظم الخلق في ذلك كله ، وهو
برهان مطاع على نبوته . وأنه أكبر نصلحين لدى من يطالب البراهين
الوجدانية من ذوى الفطر السليمة . وأما غيرهم فذخيلهم على ما كان
منه من البراهين الحمسية والخوارق الكونية ، إذ لا يعرفون مقدار
الحقائق التي يدور عليها فنك السعادة من ارتفاع الإنسان إلى الأفق
الملكى ، وترقية مقام البشر إلى أعلى عليين ، ومعرفة الله تعالى ،
والكشف عن حقائق الأشياء ، ورقة الإحساسات ، وتنعيم الأرواح ،
بما تشرئب إليه من العالم الأعلى حتى تتم للإنسان المدنية الأرضية
والمدنية الساوية .

فلا برهان عند ذوى البصائر أكبر من أعمال مدعى النبوة ،
وصفاته النفسانية ، وكمالاته الخلقية ، وآثاره الخارجية التى ترقى
الأمم وتسعد الشعوب ، وتجعلهم ملوكا فى الأرض ملوكا فى السماء ،
كما كان ذلك للأمم الإسلامية حين تمسكها بدينها وشريعتها .

ولاغرو ، فقد جاء ، كما قال بعض الفضلاء ، فى باب التشريع
المصالح لكل زمان ومكان ، الكافل للعدالة بأوسع معانيها بما لا يعرف
مقداره إلا العظماء والحكماء .

ولعمري إن فلاسفة الاخلاق وعلماء النفس على شدة تبجحهم وكثرة
ماقالوا ودونوا ، لم يأتوا بعشر معشاراً مما جاء به - صلى الله عليه وسلم -
أصافيا من الأدناس ، خالصا من شوائب الأوهام ، ممتلئا رحمة وحنانا
يابناء هذا النوع الضعيف .

وهل وصلت أمة من الأمم الراقية كما يقولون إلى الديمقراطية
الحقة فسوت بين الشرق والغربى ، وقالت : لافضل لأبيض على
أسود إلا بالتقوى كما قال الإسلام ؟

ولعمر الله لو درست ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وما
يؤثر عن الفلاسفة والمصلحين لوجدت الفرق شامعا والبون بعيدا ،
فكل فيلسوف أو مصلح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال
المحيطة به ودرجة علمه فى العهد الذى كان عائشا فيه ، مما يجعل
تعاليمه تستدعى الإصلاح والتهديب إلى حدود بعيدة .

ولهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الإصلاحية ،
واستبدل الناس بها فلسفات جديدة وتعاليم من طراز حديث يلائم ماوصل
إليه الناس من الثقافة العلمية .

ولكن التعاليم المحمدية لاتزال جديدة ملائمة لكل عصر بما فيها من
المرونة ، وما تضمنته من الأسرار البديعة والإشارات الخفية ، والكليات ،
التي يفنى الزمان ، ولاتفنى عجائبها ، بل يرى فيها ما لم تنضج العقول
للعمل به واكتناه جميع أسراره ومزاياه .

ولهذا اعتقد عقلاء النوع الإنساني وعلماءهم أن الخير كل الخير
في أن تؤخذ تعاليمه — صلى الله عليه وسلم — بغير تعديل ولا تنقيح ،
ويرون أنها بالغة أقصى درجات الكمال ، إلى حد أن كل إصلاح فيها
يحط من قدرنا ويطمى من لآئها .

وما أنت ذا ترى الفرق شاسعا بين الأمم الإسلامية عندما كانت
عاملة بشريعتها وما كانت عليه من التعاطف والتراحم والعزة والرفعة
والوئام والاتحاد ، وبين ما نحن عليه اليوم من التفرق والانقسام
والضعفة والذلة والاكتفاء بالمظاهر الخلابية والظواهر الكاذبة والأقوال
الفارغة دون الأعمال النافعة ، عندما تركنا العمل بالشريعة واتبعنا
القوانين الوضعية التي لاتعنى إلا بإصلاح الظواهر دون المواطنين ،
وبالأشكال دون الحقائق ، ولا يعنىها إلا حفظ أمة الدولة وسيطرة
الحكومة دون تربية الأفراد وإصلاح النفوس . وكم عيب على الفلاسفة
فما قرروا من علم ودونوا من إصلاح ؟ .

وسنكتب مقالاً خاصاً في الفرق بين النبي والفيلسوف ، إن شاء الله تعالى .

ومن عجيب أمره - صلى الله عليه وسلم - تلك الحكمة البالغة ،
والعلم الواسع ، والنظر البعيد الذي أحاط بمصالح الدنيا والاخرة .

وما عهدنا عظيماً من العظماء إلا وقد نبغ في ناحية من النواحي
فشغلته عما عداها ، بخلافه - صلى الله عليه وسلم - مما دل على أنه خارق
للعادة مويّد من عند الله .

وقد قال المسيو (بلانتشييه) العالم الفرنسي المشهور : « إن النبي
محمدًا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال
عظيمة دفعة واحدة ، وهي أنه أحيا شعباً ، وأنشأ امبراطورية ، وأسس
ديناً » .

هذا وقد أصبحنا في دور الانحطاط الذي يقضى فيه على الأمة
شر القضاء ، فيحتقر أبنائها وأئمتها وعاداتها وآدابها ، ويحتقر بعضهم
بعضاً ، ولا تقدر إلا كلام الأجنبي الذين فنيت فيهم فعلاً ، واقتدت
بهم عملاً ، وإن تبرأت منهم قولاً :

فلنتل عليك زيادة على ماتقدم كلام بعض العظماء من أساطين
العلم والفلسفة بأوروبا في شأن نبيك الذي عرفوا عظمته وجاهلتها أنت ،
أيها الشرقي المسلم الذي لم يعرف تاريخ آباءه وأسلافه الذين كانوا
أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق :

ولو شئنا لذكرنا لك شهادة كثير من أولئك العماء مثل
(الكونت سري ديكستري) و (كاين تيلر) و (جوزف تومبسون)
و (لوازون) و (مارقس دودس) و (مودسلي) والفيلسوف
(تولستوي) وغيرهم . ولكن نقتصر لك في هذه العجالة على شهادة
من سمح المذنب بذكرهم . وإني أرى من الدواء اللازم لهذا الجيل الحاضر
والنشء الجديد أن هذه الشهادات يجب أن تقرر وتكرر حتى تملأ
الرؤوس وتستقر في النفوس ، فإنه جيل مفتون بكل ما جاء عن
الأوربيين فلا يعرف غيرهم ولا يقدر سواهم ، فنقول :

شهادة برنار. شو الانكليزي (وهو من عظماء الانكليز) :

« إنني أعتقد أن رجلاً كهـ محمد لو تسلم زمام الحكم المطلق في العالم
بأجمعه اليوم لـم النجاح في حكمه ، ولقاده إلى الخير وحل مشاكله
على وجه يحتمق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

وقال مؤلف كتاب (دراسات في تاريخ الدين) : « ينبغي أن
نذكر أن الدين الإسلامي مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة
التي تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله
قادراً على المداومة مقادرة تامة » .

وقال المسيو (لبون) في شأن القرآن الكريم :

« حسب هذا الكتاب جلاله ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت
عليه لم تستطع أن تجتف - ولو بعض الشيء - من أسلوبه الذي لا يزال
غضاً كأن عهدته بالوجود أمس » .

شهادة لامرتين الفرنسى الطائر الصيت الغنى عن التعريف :

قال : « أترون محمداً كان أخا خداع وتدليس وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين كل أولئك من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق وإذا كان قوة الصعود والمرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمناً طويلاً وتمشى فى الحياة أبادارخية . وهى لا ريب ففكرة قوية صدرت عن وجدان قوى . ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، وتروح معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحي الذى تنزل عليه ، فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وثباته وبقائه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته فى وسط أعدائه ، وبهره خصومه فى قلب مكة ونواحيها ، ومجامع أهلها ، وتقبله سخرية الساخرين وهزؤه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وثباته وتوافره عليها ، وحرابه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر وإعلاء كামته واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم وأناته وصبره حتى يحرز النصر ، وطماعيته وتطاعه إلى إعلاء الكلمة ،

وتأسيس العقيدة ، لافتح الدول وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ونجواه التي لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره مع نجاح دينه بعد موت . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل وميز ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضيء في قلبه ، وهذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة . وحجة قائمة ، ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة :

(الأولى) تدل على من هو الله .

(الثانية) تنفي ما ألصق الوثنيون به .

الأولى حسمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة . والأخرى فتحت طريقا جديدا إلى الفكر ، ومهدت سبيلا للنظر . فالفيلسوف والخطيب والرمول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفتاح أقطار الفكر وراذ الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشئ عشرين دولة في الأرض ، وبتاح دولة واحدة في السماء من ناحية الروح والقواد . فذلكم هو محمدا . فأي رجل العمر كم قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه ؟ وأي إنسان صعد هذه المراقي كلها فكان عظيما في جميعها غير هذا الرجل ؟ انتهى كلام ذلك الرجل العظيم الذي لم يأكل الحقد قلبه ولا الجهل عقله . وحقا ليس يدري العظيم غير العظيم .

فهكذا تكون معرفة العظمة الإنسانية ، وهكذا يكون تحليل النفوس
الكبيرة ، وهكذا تكون الموازين الصحيحة لوزن الرجال وعظائم الأعمال
لا حفر الترع وردم الجسور وأمثالها من أعمال الهمم الأرضية ، التي
لا تعرف إلا الماديات ، ولا تعيش إلا في الظلمات .

وقد جاءتني هذه الأبيات عفواً وما أنا بشاعر ، فقلت أناخاطب
النبي - صلى الله عليه وسلم :

إنى أجمل مزايا	بهن قد صرت فردا
وسيرة تتلالا	تفوق مسكا وزدا
إن سمار غيرك هزلا	تراك قد صرت جدا
في حكمة واعتدال	فما تجاوزت حدا
لكن سواك وإن كا	ن أعظم الناس مجدا
في جل ما يرتثيه	لابد أن يتعدى
من يدعى غير هذا	فإني أتحدى

هذا ولا يفوتني أن أقول لحضرة السائل : إنك جاهل بجزيرة
العرب وما هي عليه ، ولا سبيا في ذلك التاريخ ، فإن طبيعتها خصوصا
قبل الاتصال بالممالك الأخرى كانت تأتي كل الإباء أن تحفر فيها
الأنهار . فكان من العبث أن يحاول ذلك فيها وهي في ذلك العهد على
ما علم المؤرخون والجغرافيون . ولذلك بقيت حتى الآن وقد مضى
أربعة عشر قرنا وهي متأخرة في المشروعات الأرضية التي يريد السائل
غاية التأخر ولو شئنا لأطلنا .

وبعد : فقد أرسل - صلى الله عليه وسلم - بما هو سبب لسعادة الدارين ومصحة النشأتين ، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض بفساد استعداده عن هذه السعادات إلى تلك المهالك .

ويكفي أذى الناس قد وقفوا بسبب إرساله - صلى الله عليه وسلم - على علوم جمة وأسرار عالية وفضائل سامية ، مما أودع في كتابه الذي فيه بيان ما كان وما يكون عبارة وإشارة ، ثم ما جاء في سنته - صلى الله عليه وسلم - ما عجز عنه علماء النفس وأساتذة الاجتماع . وأى سعادة أعظم من التحلي بزينة العلم ؟

وعلى الجملة لولا النبوات لم يكن في العالم نافع البتة ، ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشة ، ولا قوام للملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض .

وكل خير في العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع في العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فيما بين الناس .

والعالم - جسده روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه : ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ولم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة ، انشقت سماءه ، وانتشرت كواكبه ، وكورت شمسها وحسفت قمره ، ونسفت جباله ، وزلزلت أرضه ، وأهلك من عليها . فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة .

ولو نظرت إلى ما دونه علماء شريعته من العلوم التي تنوع بها السفن فضلا عن الإبل وما أنجبته تعاليمه من الفلاسفة التي يقدها الأوربيون

« وإيهم لأعرف هناك بعلمائنا منا هنا » لو عرفت ذلك لم تقل ما قلت ،
ولم تكتب ما كتبت .

ولنتل هنا قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ
مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)^(١) .

هذا ولنا مقال يتصل ببعض هذا الموضوع في بيان مذهب المعتزلة
والأشاعرة والجبرية ، فراجعه .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُلْهِمَنَا الرُّشْدَ ، وَيُقَيِّنَا شَرَّ الْفِتْنَةِ ، وَيُرْزُقَنَا الْعِلْمَ
الصَّحِيحَ ، وَالنَّظَرَ الْوَاسِعَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧

سَوَاحٍ وَنَصَائِحٍ (١)

١- المجادلات لا توصل إلى الحق ، والكلام لا ينتهى ولا يفرغ مهما كان الحق واضحاً لمن أراد أن يشاغب . وأنتك لتعلم أن إبليس لم يخضع للأمر الإلهي ، بل جادل كل المجادلة في سجوده لآدم ولم يقتنع بشيء مع كين خصمه هو الله . وقد قال تعالى في حق قوم من المعاندين : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيْبِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) (٢) . وقال : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (٣) . وقال في المعتنين أيضاً : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) (٤) إلى آخر ما جاء في القرآن وهو كثير . ومن درس استعداد الإنسان عرف أنه مجمع العجائب والغرائب ومظهر المتضادات والمتناقضات .

٢- المحجة ، أو نقول العواطف والأميال تجعلك عمياً عن كل شيء إلا ما يوافق هواك ونزعاتك . وقد قال الله في حق قوم : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) (٥) فإذا كان هذا في القرآن لذي هو آيات بينات فكيف بغيره .

(١) مجل الأزمهر - الجزء الثالث - المجلد السابع - ربيع الأول سنة ١٣٥٥

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ (٣) سورة الحجر ، الآيات ١٤ - ١٥

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١١ (٥) سورة الأنعام ٢٥ والاسراء ٤٦ الآيات

٣- عرفتنا الحوادث السياسية بعد الحوادث التاريخية كيف
تضل الأمم في الواضحات ولا تدرك الجليات . وبهذا عرفنا مقدار الأنبياء
وقوة استشعارهم بالحق حتى لم يؤثر فيهم الوسط الذي هم فيه ،
ولم يرعهم إجماع البيئة التي نشئوا فيها ، ولم تشككهم مخالفة
جميع الناس لهم ، ولا أوحشهم انفرادهم في طريق الهدى ، والناس
مطبقون على الضلال يسيرون على غير هدى ولا بصيرة كأنهم
لا يبصرون ولا يعقلون .

فانظر كيف لم تتسرب الوسوس إلى نفوسهم عليهم السلام
مع كونهم يرون إطباق الناس على الباطل بل اعتقدوا بقوة نور
بصيرتهم أن الناس سائرون في الظلمات : فهم مساكين يرثي لهم
وجهة يبكي عليهم ، حيث أنهم يجهلون ولا يعلمون أنهم يجهلون .

فليت شعري ما مقدار ذلك النور الذي لم ترثر فيه تلك الظلمات
ولا أظلماته عواصف الشكوك والشبهات ولا قوة المخاضات والمجادلات
ولا كثرة الوجدانات والاعتقادات ، وكانهم يرون الغيب شهادة
وما وراء الطبيعة محسوسا حتى قبل الرسالة والوحي بفضل ما أوتوا
من استعداد رفيع وطهارة ذاتية (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (١) .
فحاذر أن يغرك إجماع ذوى الجهالات وإطباق ذوى الظلمات واعرف
استعداد الإنسان واعتقد أنه قابل لكل شئ من الحق والباطل والضلال
والهدى الخ .

فلا تحترمهم في السياسات ولا في الطبيعيات ، ولا في شئ من
الأشياء إلا بالبرهان الساطع وسل الله التأييد والتسديد .

٤- يمكنك أن تعيش في عصر السلف الأول بل في عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك بقصرك نفسك على كتب الدين وسيرة الصالحين . ويمكنك أن تعيش في أى عصر من العصور بتلك الوسيلة فإن الإنسان ليس إلا عبارة عما ينقش في نفسه ، وما يصدر منه إنما هو مقتضى تلك النقوش .

٥- لا عبرة بغير الأشياء العملية : واكتساب العلم الصحيح وتكوين ملكته في النفوس لا يكون بغير العمل . ولا قيمة لتلك النظريات وإن تبعها كثير من التشدق والثرثرة ، وما الإنسان إلا صورة مما يحيط به وينقشه في نفسه . فمن الغلط البين اختراع كثير من الناس بالعلوم النظرية حتى يظن ذووها أنهم اتصفوا بها وفازوا بشهرتها . مع أن هذا الصنف من الناس في علمه ذو بمنزلة من قال الله فيهم : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا أَلَيْسَ لِمَنْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا لَمَّا يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾^(١) . وقد قالوا : العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل . فذوق العلم وتكليف النفس به لا يكون إلا بالعمل وإلا كان شقشقة في العلماء تشبه لنفاق في المؤمنين وكان ممن حق عليهم قول الله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٢)

وقد أذكرني هذا لمناسبة ما يحكى من أن الشيخ محيي الدين ابن العربي رأى جنازة الفيلسوف ابن رشد ، ومولفاته محملة أمامه فسأل عنه فقيل إنه الإمام ابن رشد وهذه كتبه ، فقال :

هذا الإمام وهذه أعماله ياليت لشعري لاهل أتت آماله

(٢) سورة الصف ، الآيات ٢٤٢

(١) سورة الحرات ، الآية ١٤

يريد بذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين العلم العملي الذى يسيطر على القلوب وتكليف به الأذواق وتنصبغ به النفوس وبين العلم النظرى الذى تؤدبه الألسنة ويبرع فيه المشتدقون : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)^(١) .

ومن ذلك الوادى ما يزعمه كثير من الجهلة أو من ذوى الأغراض الخبيثة من تحبيذ السمنور والاختلاط ، خصوصاً فى المتعلمات اعتماداً على ما تلقنه فى تعليمهن من تلك النظريات التى لا تسمن ولا تغنى .

وهؤلاء المغرورون كأنهم ليسوا فى الوجود فلم يعتبروا بالتجربة والمشاهدة والنتائج السيئة التى نراها كل يوم من جراء ذلك الاختلاط فقد جهلوا الفلسفة والدين فإن الأمر طبيعى شديد له أكبر سلطان على النفوس بمقتضى الغريزة ، والنظريات لا تقاوم الطبيعيات . ولكن ما لهم ولتلك التحليلات الفلسفية وهم أرباب شهوات وأهواء لا دين وفلسفة . ولهذا لم يكتب الله تعالى بالعظات النيرات والزواجر البالغات بل شرع الحدود والتعذيرات ، علما منه بما جبلت عليه النفوس البشرية (أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٢) . وقد كان عندنا وظيفة تسمى وظيفة الحسبة ولعلنا نكتب فيها بعد .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِينَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَلَّا يَكِلُنَا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ بِمَنْهَ وَكَرِهَ .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤

(٢) سورة الملك ، الآية ١٤

سوانح ومقتبسات^(١)

قرأت للدكتور الفاضل صاحب العزة عبد العزيز بك إسماعيل مقالا نشر هذه المجلة يقول فيه : « فالإنسان الذي لا يعرف من الغيب إلا بقدر ما يعرف من سنن طبيعية يسمى جاهلا مهما عرف لأن قوانين السنن الطبيعية لا حد لها » . فهيج من قابي شعورا بتلك السوانح فكان مبدأ الإلهام بها ، والاستعداد لها .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشكر ذلك الدكتور الذي جمع من نواحي الكمال ، ما لا يكاد يوجد إلا في أفذاذ الرجال . فأبان لنا من أسرار القرآن اطبية ما يعد آية الآيات ومعجزة المعجزات .

وقد أذكر في ذلك ما كان يفعله المرحوم الدكتور (توفيق صدقي) في آيات القرآن الفلكية وما فيها من الأسرار . « وهكذا لا يزال القرآن معجزة المعجزات وآية الآيات على مر العصور والأوقات » .

أسأل الله أن يديم عليه هذا التوفيق في دينه القويم وعلمه الواسع وفضله الكبير وأن يطيل حياته للعلم والدين . وأن يكثر من أمثاله بمنه وكرمه وهذا ، هي السوانح :

١ - الفضيلة تستحيل رذيلة في النفوس الخبيثة كما تستحيل الأغذية الطيبة إلى فساد في المعدة الضعيفة . « ومعدن الكبريت يقلب ما يحل فيه من الماء الزلال إلى طبعه » .

(١) مجلة الأزهر - الجزء السادس - المجلد السابع - جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥

٢- إن النواميس كثيرة لا تكاد تحصى فللأبدان نواميس وللأرواح نواميس وللعوالم الغيبية نواميس ، في كل واحد منها مالا يعلمه إلا الله تعالى . بل في عالمنا هذا من النواميس مالا يأتى عليه العد . وإن شئت فانظر إلى ما لا يحصى من أنواع الحيوان نجد نواميس الحيوانات الدنيا غير نواميس الحيوانات العليا ، وناواميس حيوانات الهواء غير نواميس حيوانات الماء المخ . فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . ولا يمكن مخلوقا من المخلوقات أن يسلك غير ما رسم له من الطرق ، ولأن يعرف غير ما هو مستعد له من المعلومات . فليعلم الإنسان أنه لا يمكنه أن يتكلم في علم من العلوم ولا صنعة من الصنائع ولا حرفة من الحرف إلا إذا كان راسخا فيها تمام الرسوخ .

وبودى لو عرف الناس تلك الحقيقة وعرفوا أن الرسوخ لازم في كل شيء وأن بين التعلم السطحي والرسوخ في الأشياء ما بين السماء والأرض وأن هناك أشياء لم تخطر لنا على بال وهى ذات نواميس واسعة وأحكام كبيرة . ولو عرف الناس سعة العلم وجهل النفوس وضعف البشرية لاستراح العالم من منازعة بعضهم بعضا . وقد اذكرنى هذا قول الرئيس ابن سينا « إن البلاهة أو الغباوة خير من الفطنة البتراء » .

٣- قال بعض المحققين : « إن معرفة الله ضرورية من حيث العقل دون الحس والتذكير بها كالتذكير بالضرريات كالموت » . لكن ضرورة الحس ليست كضرورة العقل فإن ضرورة الحس فيها جذب وقسر وإكراه . وأما ضرورة العقل فهى لطيفة جدا والحس ينازعه فيما لا يعرفه . وقد تقع الشبهة في ذلك للعقل فيختلط عليه

الحال ولا يدري التفرقة بين ما علم وما جهل ، فإن شئت فقل هو مستندل عليه وإن شئت فقل هو يديهى على حسب غلبة العقل أو الحس . من يستأل يترقى من الجزئيات إلى الكليات ومن الأدنى إلى الأعلى ، وهناك من تقدم في نفسه الكليات فينحدر منها إلى الجزئيات - وقليل ما هم .

٤- لا بد من تقليد الأنبياء في بعض ما جاءوا به لقصور الأفهام عن مغزى كثير من الشرائع . والطفل الذى يعطى الحرية فى الكلام عن الحقائق ولا يكون عنده مبدأ التقليد يستحيل تكسيه ، لأنه بمقتضى قصوره الطبيعى لا يمكنه إدراك الحقائق على ما هى عليه وبمقتضى حريته المفروسة لا يقتنع إلا بما عرف ولا يمتثل إلا لما أدرك .

والناس بجانب الأنبياء أو نقول بجانب ما أودع فى العوالم من القوانين الروحانية والجسمانية والنواميس التى لا يحيط بها محيط والعلوم التى لا يحصى عددها إلا الله والأسرار التى اعترف الفلاسفة التحديثون واسابقون بقصورهم أمامها أقل من الطفل بجانب الرجل . وإذا كان الناس لا يصدقون إلا بالبرهان فى كل مسألة دينية لم يمكن أن يكونوا متدينين إذ يستحيل الوصول إلى برهان تام فى كل مسألة إذا كان التصديق موقوفاً على البحث فى كل مسألة كما هو شأن المتفهمين اليوم . والإنسان لا يمكنه أن يصل إلى مدينة تامة ما لم يكن هناك أسس صالحة لذلك .

[[أما إذا كان محتاجاً إلى الملبس الضرورى والمسكن الضرورى والمأكل الضرورى ولا يرجع ذلك كله إلا إلى نفسه ولا يقبل من أحد شيئاً

فما أجدر هذا أن يموت قبل أن يستنبت ما يأكله وما يلبسه وتقبل أن يصنع الآلات اللازمة لذلك .

وما أعجز الإنسان أن يشيد دنيا طويلة عريضة من العدم فكذلك لا يمكنك أن تشيد لإنسان غير مسلم لك ولا واثق بك ولا مقلد بيك ولا عنده شيء من أصول الخير دينا ينازعك في الصغير منه والكبير ، ويريد على جهله وسذاجته أن يكون رسولا من الرسل أو نبيا من الأنبياء . « وإلا فأنت بمنزلة من أراد أن ينشئ ديناً من العدم » .

٥- ينبغي أن يكون الإنسان مجتهداً ومقلداً فيكون مجتهداً فيما هو راسخ فيه متمكن منه ويكون مقلداً غيره فيما عداه ، ولا بد من ذلك وإلا لم ينتظم العالم ولم يصل أحد إلى سعادته وليعلم أنه لا يوثق بعلمه ما لم يصل إلى ذلك الرسوخ ولا يمكنه أن يصل إلى تلك الدرجة إلا في بعض الأشياء فقط وهو في حجاب عما عدا ذلك لا يكاد يعرف حقيقته وروحه . فيجب عليه أن يكون مقلداً في غير هذا الذي رسخ فيه مسلماً لأهل الرسوخ من ذويه لأنه لا يمكنه الرسوخ في كل شيء كما قلنا . ومن طلب غير ذلك فقد سعى في افساد النظام وادعى معرفة كل شيء وذلك من خصائص الألوهية .

٦- فلسفة القرآن فوق كل فلسفة . وليست هذه الأشياء الروحانية والحقائق العالية التي فيه إلا فلسفة علت عن كل فلسفة حتى إن كثيراً من الناس عدها خرافة لبعدها ما بينه وبينها . وما عرف حقائقها - إلا الراسخون في العلم وانظر إلى مثل قوله تعالى : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ^(١) وقوله : (وَجَحَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ)^(٢) وقوله : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ)^(٣) .
إلى غير ذلك ، واستجل ما فيها من أسرار وأنوار .

أما سياسته في مخاطبة الخلق وذكر تلك الحقائق العالية بما يناسب
ظاهره العامة وباطنه الخاصة فهو محل الإعجاز ولا يمكن ان فيلسوف
أن يقف أمام ذلك إلا باهتا مدهوشا لا يستطيع سلوك تلك المسالك ،
وغاية ما يمكنه إن كان راسخا في فلسفته ذا بصيرة تامة أن يعرف فلسفة
القرآن وييسل إلى مراميه ، أما انتهاجه بهج القرآن فخارج عن
طوق البشر .

٧- نبي الناس الان في الأمور العملية والمخترعات المادية ونشئهم
لهم بهذا . ولكن ما أجهلهم في النظريات ومعرفة البراهين والملازمات :
فكثيراً ما يشتهب عليهم المصاحب بالملازم والمعد بالفاعل والشرطة
بالمفوض . وعلى الجملة فهم بريئون من الفلسفة والمنطق وما أكثر
غلطهم في الاستدلال غلطا كان يضحك من مثله الأولون .

فلئن جهل الأقدمون كثيراً مما أوصل إليه العمل فما أجهل هؤلاء
بطرق الاستدلال وشروط البرهان ، وما أبعدهم عما يقوى العقول ويمتدح
الأرواح ويزج بالإنسان في عالم الروحانيات ويبعده عن عالم الظلمات
والآفات فما أضعف دولة العقل وحظ الفلسفة اليوم على الرغم من دعاوى
المدعين وفيهتمة المتفسيهقين .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة النمل ، الآية ١٤ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩ .

٨- قال في الأسفار : إن المادة لا تفعل في شيء إلا إذا كانت على وضع خاص منه . فلا يمكن أن تفعل في نفسها ولا في قواها الطبيعية لأنها ليست ذات وضع بالنسبة إلى ما فيها من القوى . فلا يمكن أن تخرج الكامن فيها من القوة إلى الفعل ، بل لا بد له من شيء آخر يخرجها لأن ما بالقوة لا وجود له وما لا وجود له لا يعطى الوجود. فمفيض الوجود هو باريء الصور المصور القادر .

وأما هذه الأشياء فهي معدات وشروط لا فاعلة ومفيدة ، ولا معنى لأن تهب الصور ولا لأن تكون فاعلة فإن كيمييات المادة هي من جنس الحرارة والبرودة فلا تفعل إلا ما تفعله الحرارة والبرودة . . . إلخ .
وأما إفاضة الصور وحفظ الأجزاء بالإمداد عليها وتعويضها كل ما فقدت من أجزائها وحفظ الاتصال بين أجزائها على الصورة الخاصة مع ما فيه من دقائق الصنع فمحال أن يكون من فعل المادة . ثم نقول إنها لا تفعل إلا بما فيها من القوى الطبيعية ، ولا يمكن أن توجد في نفسها تلك القوى الطبيعية لأنها بدونها خالية من كل قوة فكيف توجد في نفسها وهي لا تكون هي هي إلا بوجودها فيها ، إلى آخر ما لعلنا نفيض فيه بعد ، إن شاء الله .

كلمة مع مقدسي النواميس الطبيعية و بيان عظمة العلم وضعف الانسان

تكلم معى بعض الناس فى النواميس الطبيعية . وقال : إنه يستحيل خرقها وأن يوجد شىء على خلافها . يريد بذلك أن ما ينسب إلى الأنبياء من المعجزات للتقديسين من الكرامات لا يمكنه التسليم به لأنه غير صحيح ولا ممكن .

فرأيت أن أجعل مثال اليوم مع أولئك الماديين الذين وقضوا عند الظواهر ولم يصلوا إلى رتبة التحقيق فى الأشياء حتى فى علم الطبيعة نفسه الذى يدعون أنهم علماءه وبيدهم نواؤه . مع أن أساطين علم الطبيعة بأوروبا لا يقدمون النواميس الطبيعية هذا التقديس . وستسمع شيئاً من كلامهم بعد فكأننا عاشرنا فى القرن السابع عشر لا القرن العشرين .

وهكذا الحركات كلها عندنا فى الشرق تأخذ شكلاً غريباً تستوحيه من الطيش والجهل . فهى معكوسة عكساً سار بنا إلى الاضمحلال الذى إذا لم نستأصله فسيجعلنا فى أخريات الأمم أو على حافة العدم .

فتقول و بانه التوفيق :

إن فريق الماديين الذين جمدوا على القشور وظنوا أنهم عرفوا كل شىء ووصلوا إلى كل شىء قد أنكروا المعجزات الحسية للأنبياء^ص .

والكرامات المتواترة للأولياء ، لأنها تناقض النواميس الطبيعية المقدسة التي لا يجوز خرقها ، وهي أزلية أبدية على ما يزعمون .

دعاوى خيالية لم يعضدها الحس ولا قام عليها البرهان ، ولكنها نزعات نفوس حمقاء ، وأوهام رؤوس طائشة لم تستمد من الوجود ولا استندت إلى البرهان ، وإنما استمدت من عقول أربابها المنحرفة واستندت إلى ما في نفوسهم الطفلية من خيالات وجهالات .

وإننا نقول لهم : أولاً : هل أحظتم بكل النواميس ؟ أليس من الجائز بل الواقع أن يكون هناك ناموس أو نواميس لم تحلموا بها ؟ ألم يكن من قبلكم من علماء القرن السابع عشر والثامن عشر يتبجحون تبجحكم ويدعون دعاويكم ؟ بل نقول : ألم يكن الأقدمون يزعمون أن العناصر أربعة وأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة ، وكانوا يحلون بذلك كل شيء في الوجود . وما كان يدور بخلدكم أن العناصر تصل إلى السبعين أو الثمانين « ومن يدري ما يجيء به المستقبل فلعلها تصل إلى المئات أو الألوف » .

وما كانوا يظنون أن نظرية الجوهر الفرد ستصبح في حيز الهزء والسخرية وأن ستحل محلها نظرية الألكترونيات الجديدة؟ وعلى كل حال من ذا يستطيع أن يدعى أنه أحاط علماً بكل نواميس الكون وما فيه ، ولو كان كذلك لوقف الاكتشاف والبحث ولم يتقدم العلم الذي يبدي لنا كل يوم شيئاً جديداً ويبرهن على أنه لا آخر له ؟ ومن ذا الذي يدرهم أن قدرة الفاعل المختار تقف عند ذلك الحد ولا تتعداه ، مع أنهم يعتقدون أن في الطبيعة قوى لا تحد ولا تعد ؟

فعلی أى شیء یعتمدون فی إنكار معجزات الأنبیاء؟ وهب أنهم عرفوا شیئاً مما شاهدوه فی تلك الأرض التي هی من أصغر العوالم، ألم یبق مما لم یعرفوه الشیء الكثير الذی لا نهاية له؟ فإن العوالم لا یدرون لها نهاية « باعترافهم » .

وقد ذكر، وَا في سیر النور وسرعته وأنه مع تلك السرعة المدهشة لا یصل إلینا من بعض الكواكب إلا بعد مئات السنين أو ألوف السنين، ما یوجب الهاش الكلی والقبوع التام فی إحدى زوايا تلك الأرض الصغیرة التي هی أقل من جحور الحشرات والديدان بالنسبة لهذا العالم الذی لا یعلمه غیر خالقه .

ولماذا لا یقولون ما یقول (اسحق نیوتن) الانكليزى مكتشف الجاذبية وأحد أساطین العالم فی الفلك : « لسنا إلا كالأطفال فی جزيرة علی شاطئ بحر العلم نلتقط ما یقذفه البحر من القواقع ، علی حين أن الجواهر النفیسة فی قعر ذلك البحر » ولكن الأمر علی ما یقول الفلیسوف شوبنهاور : « كلما انحط الإنسان فی القوة العقلية قلت مساتیر الوجد في نظره فكل شیء عنده یحمل معه تفسیراً لكيفية وجوده وسبب حدوثه » .

وقد قال المسیو (لوسیان بوانكاريه) : « إنه لا توجد لدينا نظریات كبرى الآن یمكن قبولها قبولاً تاماً ویجمع علیها المجربون إجماعاً عاماً بل یسود الیوم علی عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى » وقال الفلیسوف الشهیر (جوستاف لبون) : « الوجود مفعم بمجهولات

لا نراها ، والحجاب الذى يحجبه عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد ، العلم الرسمى) .

وقال الفيلسوف (إدوار لوروا) : (العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهر الثبوت . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم . فالعلم لا يستطيع وحالته هذه أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة وكل ما ينتظر منه أن يخذ منا كقاعدة للعمل) .

وقال الفيلسوف الكبير (وليم كروكس) فى خطبة له : « إن عدم اعتمادى على رأس مالى العلمى قد بلغ حداً بعيداً جداً ، فقد تقبض هذا النسيج العنكبوتى للعلم كما عبر عنه بعض المؤلفين حتى لم يبق منه إلا كرية حقيرة تكاد لا تدرك » .

وقال الفيلسوف الطائر الصيت (هنرى بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (قيمة العلم) « إذا نظرنا فى ناموس خاص أيا كان فإننا نستطيع أن نتأكد من أنه لا يمكن أن يكون إلا تقريبياً » وقال أيضاً : « كثيراً ما يقال من الذى يدرى ما إذا كانت النواميس لا تتطور وأنها لم تكن فى العهد الفحوى على ما هى عليه اليوم ؟ » ولهذا كله قال بعضهم : « إن الفرق بيننا وبين آباءنا أنهم كانوا يعتقدون أنهم علماء أما نحن فنعتقد أننا جهلاء » .

إلى آخر ما اعترف به المنصفون من أكابر علماء الطبيعة المخلصين الذين ليسوا فيه زعانف ولا مقلدين .

رَبِّهِمْ فَبَشِّرْهُمْ

جاءني -عطاب من حضرة الفاضل كمال لاشين يقول فيه: «إنه ناظر مبشراً من المبشرين قطع على القرآن بأنه من كلام الجن، وأن النبي أجبرهم على ألا يخبروا أحداً بذلك، كما طعن عليه بأنه لم ينزل آية جملة واحدة» إلى آخر سخافات وجهالاته التي لا نرى داعياً لذكرها بنصها، وقد طلب منا ذلك الأستاذ أن نكتب كلمة في ذلك.

ونقول له: إن أمثال هذا الكلام أسقط من أن يرد عليه، وأحقق من أن يلتفت إليه، فإن الإنس أفصح من الجن - وخاصة الجن هي الخوارق المادية المعروفة لا الفصاحة والبلاغة، على أن وجود إعجاز القرآن ليست منحصرة في الفصاحة والبلاغة كما هو معروف.

وما في لقرآن من البينات والهدى وذكر مجامع السعادات، والإخبار عن المغيبات، وشرح ما يجب للإله الحق، وما انطوت عليه النفوس وأآنته القلوب، والأخذ عن الدنيا والترغيب في العقبى، إلى آخر مالا يمكننا شرحه في هذه العجالة يستحيل أن يكون من إنس أو جن، «ولو جاء به جنى لكان أعظم الأنبياء على الإطلاق ولاستحال عليه الغش و لكذب فضلا عن أن يكذب على الله».

وقد قال (سديو) الفرنسى : لو وجدنا المصحف فى فلاة - لقلنا إنه كلام الله . إلى غير ذلك من كلام أكابر الأوربيين المنصفين « الذين ليسوا مخرفين ولا مستأجرين » مثل الكونت (هنرى) والفيلسوف (كارليل) ، والفيلسوف (كاين تيلر) ، والفيلسوف (برنارد شو) والفيلسوف (جوزف تومبسون) والفيلسوف (درابر) الأمريكى ، والفيلسوف (لوازون) ، وغيرهم مما نشر فى الجرائد والمجلات ، وإن الإسلام بوضوح حقيقته ، ونصوح براهينه ، وسمو تعاليمه ليدعو لنفسه بنفسه لدى العظماء والكبراء الذين نرى أسماءهم على صفحات الجرائد من حين لآخر . على حين أن المبشرين الماجورين الذين جاسوا خلال الديار الإسلامية كلها لم يظفروا إلا ببعض السفلة الساقطين الذين يعدونهم ويمنونهم (وما يعدُّهم الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)^(١) فيوافقونهم ظاهراً لا باطناً إجابة لداعى الأغراض والأمراض .

وليت شعرى بعد ذلك كله ما هو الطريق الذى يلزم الجن والشياطين الذين هم أعداء بنى آدم ومضلوهم بمقتضى تلك العداوة الأصلية التى شهد بها الإنجيل والتوراة وجميع كتب الأنبياء أن يكتموا ما فعلوه وما جاءوا به ولو بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - فهل أسلموا عن آخرهم حتى امتثلوا أمره - صلى الله عليه وسلم - . وكيف يتصور الإسلام والامتثال وهم أصل ذلك كله ومختلقوه على رأى ذلك المخرف ؟ وهل يمكن الجن أن يعلموا المغيبات التى جاء بها القرآن وهى كثيرة ؟ وهل يمكنهم أن يأتوا بتلك السعادات والهدايات التى اشتمل عليها القرآن ؟ وهل يمكنهم أن يأتوا بتلك المعجزات التى ظهرت على يديه

(١) سورة الإسراء من الآية ٦٤

- صلى الله عليه وسلم - حتى انشقاق القمر؟ وهل تتفق سيرة الكذاب الذى يتلقى عن الشياطين وسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - « هلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَرَّةٍ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ » ^(١) وهل يكون للكذاب المشعوذ تلك الآثار التى ملأت الدنبا نوراً ، وبهرت أساطين المؤرخين كما كان له - صلى الله عليه وسلم - ؟ وهل إذا حللنا نفسيته - صلى الله عليه وسلم - وشجاعته وثقته بالله نجدها نفس غشاش خداع يريد الدنيا ؟ والغشاش والخداع جبان حتى عند نفسه ، والكذاب المتلون يستحيل عليه أن تكون له آثار جليلة أو تاريخ مجيد .

وقد أنبأنا التاريخ أنه - عليه السلام - كان يسمى بالأمين قبل النبوة ، ولكز ما لهذا الغمر الذى يريد أن يؤدى وظيفته التى برتزق منها وهذه الحقائق التى لا يعرفها إلا أساتذة علم النفس وكبار علماء الاجتماع .

وأما نزول القرآن على التدرىج فهو مما توجبه الحكمة ، فإنه لا يصح فى العزل أن يدعوهم إلى الصلاة والزكاة وبقية أحكام الإسلام إلا بعد أن ينعهم بوجود الله وعظمته ووحدانيته وصفات كماله وجلاله ، وكيف يصح أن نقول فى مقام المناضلة عن التوحيد وبطلان عبادة الأوثان أن الخمر حرام والميسر من عمل الشيطان ، أليس من قواعد التربية وأصول علم النفس ألا نذكر شيئاً للمتعلمين إلا إذا سمح به استعدادهم وتقاضته قابليتهم؟ وإلا كان الأستاذ خابطاً خبط

(١) سورة الشعراء ، الآيات (٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤) .

عشواء ، فكيف يليق ذلك بحكمة الحكيم العليم (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(١) . ولكن ماذا نقول للجهلاء الأغبياء . لا نقول
لهم إلا ما قال الله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ
تَأْوِيلُهُ)^(٢) . (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)^(٣) .
(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي
الْقُلُوبِ بِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)^(٤)
أولفت نظرك بوجه خاص إلى قوله تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا
مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ
بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولَئِكَ
يُكْفَرُ لَهُمُ الْغَافِلُونَ)^(٥) وإني أنصح للأستاذ السائل وأمثاله إذا ابتلوا بمثل
هذا المخرف المأجور أن مهاجموه في دينه المخرف الذي لا يستطيع العاقل
أن يتصوره فضلا عن أن يصدق به .

وقد قال الإمام ابن حزم : لو لم نر هؤلاء بأعيننا لم نصدق أن
فريقاً من النوع الإنساني ينحط إلى هذه الدركات أو يتفوه بهذه
الترهات .

ومن ذا الذي يؤله إنساناً مثله كان يأكل الطعام ويخرجه . . ؟
وليتهم بعد ما ألوهه حافظوا على ذلك ولم يقولوا إن هذا الإله أهين
بأفظة الإهانات ثم صلب مع اللصوص والمجرمين فأى إله هذا غير إله

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٣٩ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية ١١ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

أولئك المجابين الذين يجعلون الثلاثة واحداً ، ويقولون إن الإله رضى
أن يشفق نفسه من أجل عبده ، أما كان أسهل عليه أن يغفر لهم
ولا يشفق نفسه . . ولكن الإنسان مجمع العجائب والغرائب ومظهر
التضادات والمتناقضات ، وإذا فسدت فطرته كان أحط من الحيوان
ولم يبق له شئ من الإنسانية على الحقيقة :

من كل إنسان إذا خاطبته لم تلق إلا صورة الإنسان

ولنستق لك حكاية على سبيل الفكاهة ، وقد ذكرها العلامة أحمد
ابن المبارك من كبار علماء المالكية ، وهى : أن بنتاً من البنات النصارى
نظرت إلى القمر فقالت لأبيها من خلق هذا القمر وأمسكه فى علوه ،
فقال لها : هذا وأشار إلى الصليب فرفعت الصليب إلى صدرها ثم تركته
فسقط على الأرض فقالت لأبيها إذا لم يمكنه أن يمسك نفسه فى هذا
القدر الضئيل فكيف يمسك القمر فى سمائه ؟ فبهت أبوها ولم يحر
جواباً .

والدليل كله لا تجد عاقلاً من عملائهم إلا تبرأ من هذه العقيدة

غير المعقولة

وبعد فمد شفاه القرآن علماءهم وأكابرهم بأنهم يجدونه مكتوباً
عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم
فهم يعجزون أحدهم أن يكذبه فى ذلك .

وليس يخفى عليك أنه ليس من المعقول أن يعرف أنه كاذب فى
ذلك الشئ ثم يشافهم بذلك ، فبهم أمثال عبد الله بن سلام الذى

صار من أكابر المسلمين بعد ما تبين له الحق (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (١).

ولا بأس أن نتنزل فنقول : لو كان سياسياً كما يقول هؤلاء
المبشرون لما أمكن أن يدعى أنه منصوص عليه في التوراة والإنجيل
وهو يعلم كذب نفسه ، والتوراة والإنجيل بين أيديهم وما كان أهون
عليهم إذ ذاك أن يبرزوهما على رؤوس الأشهاد . وهل يتصور أن أحداً
يعسد إلى أكبر برهان محسوس يثبت كذبه ، وينقض دعواه وينصر
متبعيه ، وينصر منتقديه ، فيجعله حجة له ودليلاً على صدقه ، اللهم
إن هذا غير معقول ولا مقبول ... إلى آخر ما لا تسعه هذه العجالة :
ولو تأملت لعلمت أنه خاتم الأنبياء حقاً وأعظم الرسل صدقاً ، ولو كان
موسى حياً ما وسعه إلا اتباعه كما في حديث البخارى وغيره .

إنك إذا نظرت في التوراة لم تجد ما معنية إلا بالأمر المادية
والسعادة الجسمانية ، وإذا نظرت في الإنجيل الذى حرفوه لم تجده معنياً
إلا بالروحانيات دون الماديات ، فهو منافر كل المنافرة للطباع البشرية
حتى قال « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » وما أشبه
ذلك بتعاليم بعض أرباب الطرق ل دراويشهم ، ومحال أن ترقى بذلك
أمة من الأمم . . .

أما القرآن فيقول : (فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ
مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ)^(١) ثم يقول : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)^(٢) . (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)^(٣) .

ولذلك سربت أوروبا بهذه التعاليم الكهنوتية عرض الحائط ،
ولو لم تفعل ذلك لحدث أذل الأمم على الإطلاق وأحقرها على الإطلاق ،
ولكنك تجد القرآن جاء بمصالح الدنيا والآخرة ، وسعادة الأبدان
والأرواح وإصلاح الظواهر والبواطن ، كما تلمح ذلك في بعض
ما ذكرناه لك . ولا بأس أن نحينك على كتبنا : (الجواب المنيف)
و (سبيل السعادة) و (وسائل السلام) . ولا أزال أوصي كل من
يريد مناظرتهم أن يكون مهاجماً لا مدافعاً ، وسيلقى في معتقدتهم ما يقصم
الظهور ويفرى الأوداج . (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)^(٤) .

(١) سورة لبقرة ، الآية ١٩٤ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٤) سورة الحج الآية ٤٠ .

مَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

ذكرنا في مقال سابق تفسير قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض) إلخ كلمة عن سعة الملك الإلهي الذي يبهر العقل ما فيه من عجائب المصنوعات وبدائع المخلوقات :

إن آيات ربنا بيّنة ما يمارى فيهن إلا الكفور

وقد وعدنا القارئ الكريم أن نكتب كلمة تشير محبة الله من القلوب فإننا نرى القرآن قد تعرض عقيب تلك الآية التي ذكر فيها دلائل التوحيد لذكر تلك المحبة حيث يقول :

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) ، وكأنه يشير إلى أن محبة المؤمنين تنسب على معرفة الآيات والدلائل ، بخلاف محبة غيره فإنها مبنية على تقليد الآباء واتباع الأوهام والأهواء .

ولنخص بك غمار الموضوع فنقول :

بادر لدرك الذي قد فات من عمرك ولتتخذ زادك التوحيد في سفرك
أيا ملوك الورى يا منتهى أملى ما أشوق السر والمعنى إلى خبرك
ما ظل لى أمل فى غير مشهدكم ولا قرأت كتاباً ليس فى سيرك

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثانى - المجلد الثامن - صفر سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

إذا كنت تحب أحداً لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فاحب الله تعالى الذى أتقن كل العوالم ، وأودع فيها من الأسرار ما أدهش دلامفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسهِ . حتى قال (سبنسر) الإنجليزى ما ترجمته : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » .

ويكيفك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الاعضاء مما بهر علماء الفيزيولوجيا فطاطوا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعيشو الخفاش أمام الشمس .

وإن كنت تحب أحداً لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره من القادة الساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم السموات والأرضين ورب العالمين ، ومدبر الخلق أجمعين ، من أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه فى باب الفضل والمكارم ، فأحب منبع النعم ومعدن الكرم . وأين كل ما تتخيله إذا قسته بنظرة من بحار فضله ؟ وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرده عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة فى الوجود ، وأنه رب الكرم والجود ؟ (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٍ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(١) .

ولعمر الإنصاف أن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام ،
وتخرس فيه الألسن ، فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعمه .

وانظر إن شئت لنعمة الهواء التي يتوقف عليها وجود كل حي إلى
آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها وإن شئت فانظر إلى نعمة الضياء
أو الماء ، وما أودعه في الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم
تدبيره ، (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(١) . (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَأْتِحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)^(٢) .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائق على كل
من في الوجود ، ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود
الفيلسوف (لينه) الفزيولوجي الفرنسي الذي كان يدعو وجدانه
فيجيبه ويناجيه شعوره الحي فلا يتغافل عنه - وهو عندي مؤمن
لامحالة - قال :

« إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شيء قد تجلى لي ببديع صنائعه
حتى صرت مدهوشا مبهورا . فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه
مصنوعات يده لافرق بين أصغر الأشياء وأكبرها . إن المنافع التي
نستمددها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذي سخرها لنا ،
كما أن جمالها وتناسقها ينبي بوسع حكمته ، وكذلك حفظها عن
التلاشي وتجددتها يشعير بجلالاته وعظمته . » .

(١) سورة يس ، من الآية ٣٨ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكمالها ، فأحب من أوجدها في أحسن
تقويم ، وشق سمعها وبصرها وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، ولم
يقتصر كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من
الكماليات ما تتنوع به لذتك وتنم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن
تعرض عنه وقد غمرتك نعمائه ، وأشرق عليك ضياؤه . وعذب لك
ماؤه ولطف هواؤه وأنعشتك بدائع أكوانه : من رياض غناء ، وصحار فيحاء ،
وأثمار شسية ، وألوان بهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب
إلى حضرة علام الغيوب ، من شمس وأقمار ، وأطيار وأزهار ، وليل
ونهار .

أما يجب أن نقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات ، والدلائل
الناطقات ، والنعم الفائضات ، ما قال ذلك البدوي الذي لم تشغله
المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديث لبه حيث
يقول :

هاج للقلب من هواه اذكار	وليال خلا لهن نهار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم تلوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشمس مضيئة للبرايا	في نهار وفي الدجى أقمار
ورياح تهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير	جل رباً وجلت الآثار
والى قد ذكرت دل على الله	نفوسا لها هدى واعتبار

أو نقول كما قال غيره مخاطباً نفسه مستحثاً لها على العبرة
وإطالة الفكرة حيث يقول :

تبصر حيث كان نكّ التبصر وفي ذات الإله دع التفكير
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات أصول من لجين زاهرات
على أغصانها ذهب سبيك

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لاهعات
بطول الدهر دوماً سابحات إلى مالست أدرى طائرات
يطير بها له الجرم السميك

رياض مونقات منعشات وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرك ناضرات على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

أو يقول وقد امتلأت نفسه بالوجود الحق . الذي ظهر في جميع
الأشياء ، وتجلي نوره في عوالم الأرض والسماء ، وإن غاب عن الأبصار
وجل أن يدرك بالأنظار :

ظهر الوجود الحق في الأشياء متجلياً جهراً بغير خفاء
إن الوجود عن البصائر غائب من حيث ما هو ظاهر للرائي
والقبيء يكشف أن ثمة شاخصاً متحكماً فيهما بغير مرء
فرأيته من حيث لم تعلم به وعلمته في رتبة الأسماء
والشمس لا تستطيع رؤية ذاتها لتألق فيهما وفرط ضياء

أو يقول ما قال ذلك الرجل الذي رآه ظاهراً في آثاره ظهور الشمس،

وإن تعالی بحقيقته عن العقول :

حسن ترائى فى المسرائى وبه تحسیر كل راء
والكائنات جميعها موج على صفحات ماء
والأمر أمر واحد فيه التقارب والتنائى
والكون عرس زينت ذى الارض فيه مع السماء
بكبواكب ومواكب والنجم خفاق اللواء
والطبال أجسام الملا والزمر أرواح الفضء
وصدا جميع الكائنا ت أخى من أشهى الغناء
هو باطن هو ظاهر فاحذره من وجه الخفاء
واطلبه من وجه الظهو ر تجده فى كل المرائى
شمس وكل الخلق فى أنوارها مثل البهاء
لكن إذا أنكرتها أصبحت من حمق الخلائق لامن العقلاء^(١)
ياقزم كيف عقولنا لاتضحل من البهاء

أو يقول عندما يرى الأشجار تنهادى فى حلل الأوراق والأزهار

معجباً برؤيتها متعجباً من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبا لملايس قد حاكها من لم يد لها يدا

فقل لى بعيشك هل من الحياء ، والحياء خلق كل كريم ، أن
تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإمساء ، وما أوجد لك
من بديع الأشياء وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على

(١) هذا اليبس لا يتفق مع وزن القصيدة ، فلعله عدل عن العروض والضرب . إلى
عروض وضرب آخرين . ولعله كان فى الأصل اضطراب .

مايقول عز وجل : « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »^(١) ثم لا تؤدى شكره ولا تعرف قدره .

إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً من فرط لطفك ربى كيف ينساك
فإن كان لا يؤثر فى نفسك فائض إنعامه ، ومزيد إحسانه
ولما هو عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها الواصفون ،
وعلم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وحكمة أتقن بها
جميع الأثمياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجلال
وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك سلطان الحسن الذى
تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك
أو يتصل به لمسك فإنما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق الذى
يجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من
مظاهره إلا بعض سريره . ولا تمثل لك أى مرآة من مراياه
إلا بعض مزاياه . وأنى يسهل المحسود من لا يقبل التحديد . وكيف
لا يضيق المقيد ممن لا يدخل فى سجن التقييد .

إن قلت هذا فإن الحد يحصره أو قلت ذا فكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الطرف يطلبه والطرف حق ولكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجوداً لست أدريه إلا الذى أنا معنى من معانيه
فطوبى لمن شم عرف شذاه أو شام برق سناه . وهنيئاً لمن شرب قليلاً
من مدامه ولو مزجاً ، أو نظر إليه ولو شذراً . فإذا لم يدر ما هو نائق
إليه ومتهلف عليه قال :

شئ به فتن الورى وهو الذى يدعى الجمال ولست أدري ما هو

(١) سورة لقمان ، من الآية ٢٠ .

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاؤون إلى الله ،
أندرون لماذا لأنهم يتوقون إلى إصلاح لا يتناهى وجمال لا يتناهى
وكمال لا يتنهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع إلى سلامة فطرتك ، وصدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك
الجمال الإلهي الذي تجلى على صفات الموجودات ، واقرأه بين سطور
تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله إلى أي حد انتهيت .

ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور ، قوى الإحساس
بالجمال ، إلا وقد وصلت إلى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن ، إذ تجدك
أحسست بجمال لا يتناهى ، وغرقت في بحر من الجلال لا يحده
ولا يأتى عليه التعبير :

فطوراً في الجلال على التناذ وطوراً في التناذ بالجمال

وعند ذلك ينطق لسان حالك منشدا :

عجبت لعقل في الناس أضحى يرى هذا الجمال ولا يهيم

ويترنم بلبل روحك مغردا :

لعبرك كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن إلا جماله

فاستجل هذا الحسن رعاك الله في كل شيء تراه من العلويات
أو السفليات :

إن شئت في فك أو شئت في ملك أو شئت في مدر أو شئت في حجر

فالكل ينطمئن أن الله خالقه ، وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهى أظهر ما علمت ، وأظهر ما رأيت ، وأجمل ما وقع عليه البصر ، وأبهى ما وصل إليه النظر ، إلا أثر من آثاره ونور من أنواره قد كتب عليها سطور البهاء والجمال والعزة والجلال ، فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالا يذوقه الوجدان ، وإن كان لا يكيفه ، فتمتلئ به النفوس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : (تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)^(١) . وحقه وما أكبر حقه ، لو تفرغت من الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئا لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عنى كل جارحة فى كل معنى لطيف رائق نهج
وفى مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى برد الأصائل والأصباح فى البلج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا أهدى إلى سحيرا أطيب الأرج

عظم والله البرهان وامتلا الوجدان ووصل الأهر إلى حد العيان وليس
بعد العيان بيان ، ولكن قويت الأنوار فغشيت الأبصار . وكل
ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن عظم
نفعه ، ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخلد إلى الأرض
من الغافلين والجامدين .

خليلى قد طال المقام على القذى وحال على ذا الحال يا قوم أحوال
عمر زمانى بالأمانى وينقضى على غير ما أبغى ربيع وشوال

(١) سورة المؤمنون ، من الآية ١٤ .

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت . فإن كنت تحبّ أحداً لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب فأحبّ الملائكة الأعلى سكان ملكوت الله تعالى فإن فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (١) .

وليس غناء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء والهناء ، ولا أمنيته إلا الإطلاق من جميع التقييدات ، والاطلاع على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيبت عالمك الأول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسماني الذي لا بد له من الفناء ، فأنسيت بالظلمات وتمزنت على احتمال الآفات :

من يهن بسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إسلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصته التي هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول : (أَوْ مِنْ كَانَتْ مِيتَةً فَاحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (٢) .

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم البهجة والبهاء ، وصرت لا تعرفه ولا تحس به ، وإنه لموطن روحك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها . وأما مطلبها الذاتي وغداؤها الأصلي فهو الأسرار والأنوار .

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٨٥ .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية ١٢٢ .

ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ما هى مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو فى الحقيقة نسيان لنفسها (نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)^(١) فكأن لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها
التي أضعفت منها تلك الحاسة العليا ، التي هى مناط لذتها الكبرى ،
وشرفها الأعلى وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء
الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه ، إنه على ما يشاء
قدير ، وبالإجابة جدير .

(١) سورة الحشر ، من الآية ١٩

حاجة الإنسان إلى الشريعة ورضى من آيات الله وعظمته

إن النفوس الإنسانية تمرض كما تمرض الأبدان ، بل هي متعددة لذلك أكثر منها بمقتضى لطافتها وشدة تأثرها بكل ما تراه وتسمعها ، وبقوة انفعالها بأميالها وشهواتها .

وإن أمراضها لأكثر من أمراض البدن على كثرتها . وقد يصل بها المرض إلى حد الموت الروحاني بإبطال خاصة الإنسانية من العلوم والمعارف والأسرار والأنوار ، وإذاً لا ينفعها الإرشاد ، ولا يجديها التعليم ، ولذلك يقول القرآن - يريد النبي عليه السلام - : (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا)^(٢) . وقد سمى الجاهل الضال ميتاً فقال : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَاحْيِيْنَاهُ)^(٣) ، ويقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)^(٤) كما أثبت لها المرض في آيات كثيرة .

وكل ضلال في العالم وكل شر على وجه الأرض ليس منشؤه إلا مرضاً من أمراض النفوس . وقد أرسل الله الأنبياء - عليهم السلام - أطباء لتلك الأمراض : يعالجونها بأنواع العلاج ، ويرسمون لها

(١) مجلة الأهر - الجزء الرابع - المجلد الثامن - ربيع الآخر سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة يس ، الآية ٧٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٢٤ .

قانون حفظ الصحة إن كانت موجودة بالحماية عن دنس الاخلاق
ورذائل العادات وتعديل الأميال ، ومراقبة النزعات والأهواء وردھا
إن كانت مفقودة .

ومعلوم أن الإنسان مركب من جزءٍ علوى سماوى ، وجزءٍ سفلى
أرضى ، أو نقول من جزءٍ روحانى ، وجزءٍ جسمانى ، وأن الإنسان
لايسعى لمطالب الجزء الجسمانى من المطعم والمشرب ، وإتقاء الحر والبرد
إلى غير ذلك إلا من حيث أنه حيوان إلا إنسان فإن ذلك مشترك بينه
وبين غيره من الحيوانات ، وإن كان هو أوسع منها تفننا يستحق
أن يسمى به سيد الحيوانات : وتعلم - رعاك الله - أنه لا قيمة لما
تشارك فيه الحيوانات ، وأن الإنسان لا يكون إنساناً على الحقيقة
إلا إذا وجدت فيه خاصة نوعه . وإلا كان إنساناً بظاهره وصورته
لا بباطنه ومعناه . ولذلك يقون القرآن فى حق قوم فسدت فطرتهم :
(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)^(١) .

فلهذا جاءت الشرائع الإلهية ترقيقك من حضيض الحيوانية
إلى أوج الإنسانية ، وتذيقك شيئاً من حلاوة ذلك العالم الروحانى :
عالم البهاء والصفاء ، وتمتعك برياضه المونقة وحياضه المتدفقة وتنزهك
فى جمال الملك والملكوت والعظمة والجبروت ، فتنتفتح عين بصيرتك
لاستطلاع ذلك الجمال الإلهى الذى ظهر على صفحات الموجودات ،
وتجلى بأروع ما يكون فى مرايا تلك المبدعات .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤ .

فتارة تقرأ في خلال تلك السطور من العزة القعساء والعظمة والكبرياء ما تنشرح له الصدور وتبتهج به النفوس ، وتارة تطالع من حكمته تعالى في خلقه وأسراره في أرضه وسائه ، ما تتحير فيه العقول وتجزر لعظمته ساميات الأفكار ، وتارة تجول في سعة الملك وعظمة الملكوت فتعرف أن أرضنا هذه جزء من ألف ألف جزء وأربعمئة ألف جزء تقريبا بالنسبة للشمس ، وأن الشعري أكبر من الشمس بأضعاف مضاعفة ، وأن نور الشمس جزء من خمسين جزءا من نور الشعري ، وأن المشتري يقطع في الساعة الواحدة ثلاثين ألف ميل ، وزحل يسير في الساعة ستين ألف ميل ، وأن الآلات الحديثة والنظارات المقربة قد أضمحلت وتلاشت في جنب ذلك الملك العظيم ، والاكتشافات الحديثة - عن عظمتها وكبرياتها خرت ساجدة تنادى بالعجز والقصور أمام تلك العالمة القاهرة والقدرة الباهرة .

ويعلم الله ما وراء الشعري من العوالم والنيرات - سبحانه ما عرفناك حق معرفتك ولا يزال استطلاع الأسرار واستفاضة الأنوار ، ومطالعة الجمال غير المتناهي يستولى على قلوب بعض عباد الله المستعدين لذلك ، حتى إنهم ليصلون به إلى حد التوله في محبة ذلك المبدع العظيم ، والتدله بما يبهرهم من جمال ذلك القادر الحكيم .

ولا يسارعن إلى إنكار ذلك بعض من تراكمت عليه الظلمات وأحاطت به الآفات ، فليس من الإنصاف أن ينكر الإنسان كل ما لم يصل إليه ، بحجة أنه لم يصل إليه .

فما أضعف ذلك احتجاجاً ، وأسمجه برهانا ، فكم من أشياء كنا نجهلها غاية الجهل كالميكروبات وغيرها، ثم تبين أنها عالم لا غاية له (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)^(١) . فكيف يكون الجهل دليلاً عن عدم الوجود ، ولعل هناك خاصة أخرى باطنية لم تخلق فيك وفي أمثالك .

لعمرك ما هذا هزء وإنما حديث غريب من بديع الغرائب

فاعرف قدرك أيها الانسان ، فما أنت إلا مخلوق ضئيل في مخلوقاته وكائن صغير في جانب مكوناته . وإذ كنت لست إلا عالماً من عوالم هذه الأرض الكثيرة العدد ، وأرضك - بكل ما فيها - ليست إلا شيئاً يسيراً بجانب الشمس ، وليست الشمس إلا شيئاً يسيراً بجانب الشعري ، وليس ذلك كله إلا شيئاً يسيراً بجانب بقية العوالم التي لم نعرف لها نهاية ، ولا وقفنا لها على غاية .

وقد جاء في بعض الكتب الحديثة والمجلات العلمية ، أن أقرب كوكب لنا بعد نظامنا الشمسي يبعد عنا أكثر من ٢٥٠ مليوناً من الأميال ، ومن الكواكب ما يكون بعيداً جداً حتى إن النور الذي يقطع في الثانية الواحدة ١٨٦٣٠٠ ميل يحتاج إلى الآلاف من السنين حتى يجيء من الكواكب إلى أعيننا ، والمنظور بالعين المجردة في السماء ست آلاف نجمة . منها ثلاثة آلاف ظاهرة وثلاثة آلاف خفية . ويرى بالمنظار المقرب (التلسكوب) مائة مليون من النجوم .

(١) سورة المدثر ، الآية ٣١ .

أليس من المدهش أن نرى كوكبا بأعيننا وضوءه لا يصل إلينا إلا بعد مائة سنة أو أكثر؟ وقد عرفت سرعة سيره وأنه يسير في الثانية الواحدة ١٨٦٣٠٠ ميل ، فتأمل هذه المسافات العظيمة التي لا تستطيع أن تحسبها ، وانظر إلى تلك الكواكب التي لا يعلم عددها إلا الله كيف قدرت ، وبأى طريق خلقت ، وبأى علم نظمت ؟ وهل يعقل أن هذه النظمات العجيبة والآيات البديعة تخالق سدى وتذهب شعاعا ، وتكون باطلا (رَبِّمَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(١) .

وقالوا إن محاسن المنظار المقرب (التلسكوب) : إنه يرينا نحو ١٠٠ مليون من النجوم ولكن المنظر الطيفي أظهر ملايين الملايين . ثم قالوا : إن كثيرا من النجوم ضئيلة النور لفرط بعدها عنا ، فلا قبل لنا بؤيتها حتى بالمقرب . وإن الشعري اليمانية تبعد عن الشمس مليون ضعف بعدها عنا ، وهي تسير في الدقيقة ألف ميل ، وإن ثلاثا من بنات نعش (مايا) ، (الكثرى) (السيون) يفضحن الشمس ، ويفقنها نوراً ونارا ، الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية بأربعمائة وثمانين ، والثالثة بألف ضعف .

أما (سهيل) فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة ، و (السماك الرامح) أسطع منها بمائتين ألف مرة .

فعلى الحقيقة ليست الشمس أم نظامنا السيارى ، وما هى إلا نجمة صغيرة بالنسبة لتلك الشموس وكم حسبها الناس أكبر الأجرام السماوية وأسفلها .

(١) سور آل عمران ، الآية ١٩١

أما «السمك الرامح» فهو على حد علمنا ، أسرع النجوم سيرا وأشدها تألقا وأكبرها حجما ، تقدر سرعته بثلاثمائة ميل وكسور في الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس وحجمه ثمانون ضعف حجمها .

أما بعدد عنا فتخيله لنفسك عندما تعلم أن نوره لا يصلنا في بضع دقائق كنور الشمس وهي على بعد ٩٢ مليون و ٥٠٠ ألف ميل منا ، بل في سنين كثيرة لا تقل عن مئتين من السنين .

وأما (الشعري) فنورها الواصل إلينا بعد سفرة طويلة مقدارها ١٦ سنة ، ضئيل جدا بالنسبة إلى نورها وما هو إلا جزء من ألي مليون من نورها الحقيقي .

وأن النجمة المعروفة بعدد ١٨٣٠ (غرومبروج) تسير ١٢٠٠٠ ألف ميل في الدقيقة و (السمك الرامح) ٢٢٠٠٠ ميل تقريبا في مثل هذا الوقت القصير .

وهناك نجوم بعيدة عنا جدا بحيث تمر آلاف السنين ولا يكاد يظهر أدنى تغيير في منظر القبة الزرقاء .

فلنقل ما قال (اللورد أوفبرى) في كتابه (محاسن الطبيعة) :
(ليكسر الحاسب قامه ، وليضرب التاريخي بيراعه عرض الحائط ، وليقف الذهن كليلا والعقل مخبولا . وليطلق الخيال في هذا المجال ، ولا أخاله إلا رائدا مردودا) . ولذلك كله قال بعض فلاسفة الأوربيين من عظمة ذلك الملك : (ياالله ما أعظمك وأجلك

وما أبهر قدرتك وأوسع علمك . لبت شعري من ذلك المجنون الذى
اجترأ فسماك لأول مرة . الله ؟) .

فماذا تكون نسبتك أيها الانسان الشامخ بأنفه ، الجاهل بقدره ،
بجانب تلك المخلوقات . وعلام تتبجح كبيراً وتيها وأنت الصغير
(وكبير عليك اسم الصغير) أمام عظمة رب الأرض والسماوات ؟

ولبت شعري ، بعد هذا ، ما شأن ذلك العرش الذى يصفه القرآن
بالعظمة ولم تقف له على عين ولا أثر لا بأبصارنا ولا بنظاراتنا .
وناهيك أمر يعظمه القرآن .

الله أكبر هذ البحر قد زحرا وهيج الرياح موجايقذف الدررا
سبحانك ، ما عرفناك حق معرفتك ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما
أثنيت على نفسك .

إِنْ لَمْ تَرْضُوا حُكْمَ الشَّرِيعَةِ^(١) فَعَالُوا نَحْمًا كَمَا إِلَى الْعَقْلِ

مقدمة :

ليس يخفى على القارئ الكريم ما وصلنا إليه من اختلال الأحوال ، وضياع الأموال ، وانتهاك الحرمات ، واقتراف المنكرات ، وإصلاح الظواهر وفساد البواطن ، وفقد الإخلاص ، وذيوع الأغراض ، واستحكام الأمراض ، والمواطأة على القبائح ، وعدم انفعال النفوس لارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة الغطاء على العقول ، حتى أصبحت تنكر اليقينيات : ولا تعترف بالبدهيات ، وكأنما انقلبت الرؤوس ، وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر ، وفسدت الفطار ، وعميت القلوب . وأعضل الداء فعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التعبير ، ولم تتسع له أودية التحرير ، فإننا في عصر أولئك الذين تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، من ذوى الألسنة الثرثارة ، والقلوب الخوارة ، والشهوات القاهرة ، والنفوس الفاجرة ، والأفكار الخيالية . والنزعات الشيطانية . وما أجدرهم بما قلناه منذ زمن بعيد :

كل شيءٍ نخاف منه الآن	قد مضى من يراقب الديانا
ليس إلا شقاشق وكلام	نمقوه كى يخذعوا الانسانا
وأهمور شكلية ونبوع	في رياءٍ يا هول ما قد دهانا
من درى الناس شك في كل شيءٍ	قد بدا منهم كائننا من كانا

(١) مجلة الإسلام - السنة السادسة - العدد الثالث عشر - ربيع الآخر - سنة ١٣٥٦ .

وقد جاءتني هذه الأبيات عفواً :

لقد ظهرت حـوادث لا تطاق
فأموال تبعثر في فساد
وكم ظلم تسربل ثوب عدل
وكم فضل يداس ولا يراعى
وكم أدب أضيع وكم فتاة
فهل حرية الحيوان نبغى
تعداى الدين لكن تدعيه
وعندك بدره فيه المحاق

ومما قلناه في هذا الباب أيضاً :

ألا أخلص لربك كل شئ
بلونا الناس في عسر ويسر
وقد عرف النساء بنقض عهد
ويكفرن اعشير لغير شئ
ولكن الرجال غدوا نساء
فلا تركز لهذا أو لهذا
ولو شئنا توسعنا كثيراً
تقارض بعضهم أزياء بعض
نساء كالرجال بلا حياء
فما لسواد عهد أو وفاء
فلم يك منهمو إلا البلاء
فليس لهن منا أصـدقاء
فما لودادهن يرى بقاء
كلا الصنفين في هذا سواء
فأخلاق الجميع هي الهباء
وما فيما نعدده وراء
بأشكال هي الداء العيـاء
وشبان كأنهم نساء

وقد قيل قديماً :

زمان كل حب فيه خب
له سـرق بضاعته نفاق
وظعم الخل خل لا يذاق
فناق فالنفاق له نفاق

وقيل أيضاً :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم نحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وليت شعرى إذا قيل هذا فى تلك الأزمنة التى كان يغلب خيرها شرها ، ومصالحتها مفسدتها فما بالك بزماننا الذى أصبح فيه المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، قد ائتمن فيه الخائن ، وخون فيه الأمين . وكذب فيه الصادق ، وصدق فيه الكاذب ، وتكلم فيه الرويبضة^(١) وقبع الأَكابر فى البيوت ، وألجموا فيه إلى التزام السكوت ، وعلت فيه ضروءُ العامة ، وخفتت فيه أصوات الخاصة .

وإياك أن تظن هذا تزيدياً فى القول أو مبالغة فى الوصف ، فالأمر وحقق فوق ذلك كله . فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيعيين . ولنذكر لك قليلاً من كثير ، ولا نهيلك إلا على ما تشاهده بالعيان (وليس بعد العيان بيان) .

الشواهد المحسوسة

ليس يخفى عليك أن حوادث القتل والسرقات والإحراق قد وصلت الآن فى بلادنا المصرية إلى حد أنها ترتكب نهراً جهاراً ، فإذا وصلت إلى رجال الضبط فقد وصلت « فى كثير من الأحيان » . إلى مغمضى أعينهم عن اللصوص والمجرمين ، ومطبقى أجفانهم على القذى ، ولا بأس

(١) الرجل التافه الخفير .

عليهم بعد أن يكتبوا في محاضرهم ما ينقذ الموقف ويخفي معالم الجريمة أو يحيلها على القضاء والقدر ، فإن لم يكنهم ذلك أمكن وكلاء النيابة الذين هم أقدر منهم على التخلص من تلك المضايق ، وأبرع في تطبيق القوانين « بسبب شبهة تنقذ في نفوسهم ، أو تأويل يدور بخيالهم » ولوبواسطة بعض أولئك الذين اتخذوا المجرمين عدة يصلون بها على من شاءوا ، ويصلون بها إلى ما أرادوا من دفع الأخطار عن أنفسهم ، أو جلب الأضرار إلى من سواهم ، فإن لم يفلتوا من أيدي النيابة بتلك الوسائل أمكنهم أن ينفلتوا من يد القضاء الحر بفضل أولئك المحامين المعروفين ، أو نقول بفضل أولئك القضاة الذين لا يأخذون إلا بالبرهان القاطع ، وليت شعري من أين يجيء ذلك البرهان القاطع مع تشكيك المحامين وإبداء الاحتمالات العقلية التي لا تنقطع ولا تقف عند حد ، مع عدم أخذ القضاة بالقرائن التي يأخذون بها وباقل منها مثلاً في الاتهام بالحشيش ، فيحكمون على من اتهم به بالسنين ، أما القاتل فقد يبرئونه أو يحكمون عليه نظراً لهذه الشبهة « وعدم توفر الأدلة » ببضعة أشهر وكأن القاضي غير عايش بيننا ولا محس بما يجري في البلاد من الحوادث التي عجت فيها الأرض من دماء الأبرياء ، وصرخت فيها السماء من دعاء المظلومين .

وإن شئت فوجه نظرك وجهة أخرى تجد شرب الخمر قد فعل بالأمة الأفاعيل .

وليس بعيداً منا ما فعله ذلك المجرم بينته عندما كان في سكر يجيزه القانون وتقتضيه المدنية الفاسقة ، وليت شعري لماذا لا تمنعه

الحكومة الرشيدة المسلمة ولو اقتداء بأمريكا المسيحية عندما منعه
لانتشار أضراره وكثرة مفاسده ؟ ..

أفلا تمنعونه أيها الكبراء والوزراء والنواب والشيوخ ولو محافظة
على دستوركم الإسلامى الذى يصرح بأن مصر دولة إسلامية ؟ أم أنتم
من الذين يقولون مالا يفعلون ؟ ويكتفون بالأسماء دون الحقائق .

فإن لم يكن لديكم وازع من دين ، فليكن لديكم وازع من الإشفاق
على أبناء أمتكم ، والخوف عليها من ضياع مصالح الدنيا ، فضلاً عن
الدين الذى جعل الخمر أم الخبائث وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السفور
والفجور تجدها تدمى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها إلى حد
الحيوانات بل أشد وأنكى ، ومن أين للحيوان تفنن الإنسان ،
وامتداده الغريب ، ومن المخزيات المبكيات أنا نرى كل يوم من
تلك الحوادث ما يندى له جبين الحياء ، ولا نغكر فى شئ يرضى
النخوة والرجولة ، ولا نضفى لصراخ الدين أو صوت الضمير ،
ولا نلتفت لما توجهه الآداب العامة ولو على سبيل النفاق ؟ .

ومن أعجب العجب أن الآباء لا يمتعضون ، والأزواج لا يتألمون ،
والإخوة لا ينطقون . بل نرى من الناس من يدافعون ويحبذون . على
الرغم من تلك الحوادث المشاهدة التى تطالعنا بها الجرائد كل يوم .

وما أمر بنات المعارف يوم حفلتها الرسمية من القراء ببعيد ،
وقد ذكرت الجرائد أن البنات عندما خرجن من الملعب بعد أن لعبن
بالعقول واتين بغير المعقول هجم عليهن الشبان ولسان حالهم يقول .
ونحن بنو الدنيا وهن بناتها وحظ بنى الدنيا لقاء بناتها

وليت شعري هل صحة الأجسام التي يعملون لها مقدمة على صحة
النفوس التي غفلوا عنها ، وقد قال (شيشرون) أحد الفلاسفة
العظام : « من فقد صحة الجسم فهو مريض ، ومن فقد صحة النفس
فهو مجنون » .

ولا بأس أن نقول لك : إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانوناً طبيعياً
يتبع مقتضيات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانوناً أدبياً يُمليه عليك
ضميرك وتؤنّبك عليه نفسك - إن كانت ظاهرة ومستقيمة - وقانوناً
شرعياً يكمل به الإرشاد وتم به السعادة ، وهو القانون الذي بعث
الله به الأنبياء .

وبكل أسف نقول : إننا خالفنا القوانين الثلاثة ، فلم نصغ
لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرعنا ، ولا نظرنا لمقتضيات الحقائق
ولوازمها ، وإلا فمن ذا الذي يقول إن اختلاط الجنسين وحرية الحركات
في الروحات والغدوات لا تجلب أفضع الويلات وأكبر المحظورات ؟
وهل ذلك التعليم السطحي القليل الضئيل المتلوى المعوج في البنات والبنين
يمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعي الذي هو أعلق شيء بالنفوس ؟
وأكبر ما رأيت وما سمعت سلطاناً على الطباع البشرية كما يشهد به

العقل والحس والشرع والفلسفة . وما كنا نظن أن أحدا يجادل في الحسيات أو يمارى في المشاهدات . ولكن الإنسان هو الإنسان ، إلى آخر ما لا يأتى عليه القول ولا تسمح به الآداب .

أما كان يجب على الحكومة ونواب الأمة وشيوخها أن ينظروا في تلك المسائل التي ستهوى بالأمة إلى مكان سمحيق : فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمة ، ويحقق مصلحتها ، ويمنع تلك الأوبئة القتالة ، وإلا فما فائدة النيابة عن الأمة . وما معنى الحكومة والزعامة . وقد قال - صلى الله عليه وسلم - « كَلِّكُمْ رَاعٍ وَكَلِّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

وأظن أن من الواجب القانوني ألا نسترسل في هذا الموضوع أكثر من هذا ، ونقهر القام على ترك الجولان في هذا الميدان ، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة في الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم فلنقف عند هذا الحد .

وبعد فستان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجبولة على الجهل والضعف والهوى الذي يضل عن سبيل الله ، وبين القوانين التي هي تنزيل من حكيم حميد .

تلك القوانين التي تبيح الحرام : بل تبيح الكفر العلني ، وتحمي معتنقيه محافظة على تلك الحرية التي تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فأنت لا تمنعه محافظة على حرته فيما يريد . فهل تراك أحسنت إليه ؟ تلك القوانين التي تجعل دروس الدين في المدارس أمراً ثانوياً لا يترتب عليه نجاح ولا سقوط .

فأول ما تغرس في نفوس النشء بهذا العمل أن الدين في محل الإهمال ولا ينبغي أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهي طريقة عملية في التربية ، تترك في نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين وأوهن عقيدة فيه . وهذا ينجلي لك سر تهاون كبرائنا وعظمائنا ومتعلمينا بالدين وأهل الدين :

وليل طام بالأنكساد حتى ظننت الليل ليس له نهار
لما لا . والتقى حلت عراه وبان على بنيهِ الإنكسار
ليبك معى على الدين البواكى فقد أضحى مواطنه قفار

والخلاصة أن تعاليم الدين الإسلامى أنفع لل عمران ، وأجدى على بنى الإنسان من كل القوانين الوضعية والتعاليم البشرية .

وانظر كيف فعل الدين بالعرب عندما اعتنقوه بصدق وإخلاص ومحبة ، فقد نقلهم من الظلم والوحشية وسفك الدماء ووأد البنات وفعل المنكرات إلى التسابق في ميادين الخيرات ، واكتساب القربات ، ومراقبة خالق الأرض والسموات . وبذلك كانوا ملوكاً في الأرض ملوكاً في السماء بعد تلك الهمجية التي كانوا بها أخط. الأمم على الإطلاق .

ونقول بكل أسف : قد فرطنا في تعاليم ديننا حتى كدنا معشر المسلمين نكون أول الأمم على الإطلاق يطمع فينا كل طامع . رهزأ بنا كل قوى .

كلمة ختامية للزعماء

أزى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ،
وعلى الأمم الإسلامية أن تحيي رابطة الأخوة التي جعلها الله بين المسلمين
وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد الواحد إذا تألم
منه عضو تألم له سائر الجسد بالسهر والحمى كما علمهم نبيهم .

ووالله لو اتحدوا هذا الاتحاد لحسبت لهم أوروبا ألف حساب ،
ولأمكنهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلاً عن القوة المعنوية ، وكان
يمكنهم إذ ذاك إنشاء المعامل والمصانع وإعداد أنواع القوة كلها وجمع
الأموال اللازمة لذلك وهم أغنياء والحمد لله وفيهم ممالك مستقلة ،
فكانوا يستطيعون العمل سراً وجهراً ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططاً
حكيمه ويسنون قوانين معروفة ، إلى آخر ما لا نرى الإفاضة فيه ،
ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم
غيروا الوجهة ولم يقولوا مثلاً نحن مصريون قبل كل شيء « وكان
الواجب عليهم أن يقولوا نحن مسلمون قبل كل شيء » .

ولو اتحدت آسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم دولة
في الوجود .

أسأل الله أن يصلح شؤوننا كلها وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين
بمنه وكرمه .

الفرق بين الإنسان المادى^(١) والإنسان الروحانى

يتجلى لك الفرق جلياً إذا نظرت فى أوصاف كل منهما التى توجبها نزغته وعقيدته ونفسيته . فانظر إلى ما يتحلى به الإنسان الروحانى من تلك الأوصاف الفاضلة كالعزة والرحمة والإيثار والرفعة وعمل الخير ، وإلى ذلك الإنسان الطبيعى الذى يقول فيه (بخنر) : « إنه ليس بذلك الكائن الذى يصفه الأخلاقيون » اغتراراً بما له من الأحكام الجسمانية التى لا ننكرها وغفلة عما فيه من السر الروحانى الذى يرقى به إلى الملاء الأعلى حتى يجلس فى أعلى عليين بين الملائكة المقربين . وانظر رعاك الله كيف يتسفل ذلك الإنسان بما يصفه الماديون ، وذكره إمامهم (بخنر) كما سمعت ، وإلى أى حضيض ينزل ذلك الكائن الأرضى المسكين الذى ليس فيه شئ سماوى عندهم .

وإن شئت أن تمتلىء عجباً حتى تصفق بيديك من قلب الحقائق فاعجب . بعد هذا من قولهم : إن الديانات تتسفل بالإنسان ولا تجعله يستقر على شئ ولا يثق بقوة ، بل يكون من أخطأ المخلوقات وأسفل الكائنات ، ثم ينزلون . هم بعد ذلك بصريح القول إلى هوة ليس لها قرار . ثم تفكر بعد ذلك ، إذا يكون ذلك الإنسان الذى وصفه بخنر عند ما يريه ،

(١) : مجلة الإسلام - السنة السادسة - العدد الحادى والعشرون - جمادى الأولى - سنة ١٣٥٦

مطلباً من المطالب الشهوانية التي يعتقد أنها لذته التي لا لذة له في سواها ،
وسعادته التي لا سعادة وراءها .

لاشك أنها تكون هي وكل وسيلة إليها معبوده الوحيد الذي يكون
أمامه من أذل الأذلاء وأخس الأخساء متجرداً عن معنى الإنسانية إذ
ذاك بالكلية « بل قد تجردوا عن ذلك المعنى من أول الأمر ووطنوا
نفوسهم عليه والله الحمد » .

فمقارن بين الإنسان المؤمن الذي يعتمد على قوة تخضع لها السموات
والأرض ويترفع بنفسه إلى الملاء الأعلى معتقداً أن لاشئ يساويه من
هذه العوالم الظينية وأنه من نوع آخر أعلى منها قيمة وأرفع قدراً ،
ربين ذلك الإنسان المالمحد الذي لاشئ أمامه غير قوته المحدودة .
ووسائله المحدودة ، وضعفه المستولى عليه ، وقصوره المحيط به الذي
يجعله يذل لكل شئ في الوجود متدهوراً إلى أحط دركات الخسة من
أجل ما يأكل وما يشرب فضلاً عما سوى ذلك من الشرور التي تبيد
العباد وتخرب البلاد .

يفعل ذلك كله لأجل تحصيل شهوة من شهواته ولذة من لذاته التي
لا يرى السعادة في غيرها ، ولا يعتقد حساباً ولا عقاباً في الوصول إليها بآية
وسيلة من الوسائل ، فأين هذا من ذلك المؤمن الذي أحس بعزة نفسه
وشرف روحه وقوة إيمانه بمعبوده الذي يقول: للشئ كن فيكون فتاه على
جميع المخلوقات تعززا برب الأرض والسموات ثم أنشأ يقول :

أتية فلا أدري من التيه من أنا سوى مايقول الناس في وفي جنسي
أتية على جن البلاد وإنسها فإن لم أجد شخصاً أتية على نفسي

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ^(١) وَلِلْمُؤْمِنِينَ).

هذا مايقول المؤمن الذي يتيه بما وصل إليه من العزة والحرية والفرح بمولاه الذي علم أنه على كل شيء قدير، وأنه أرحم الراحمين ، وأنه هو الذي قال : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)^(٢) وهو الذي قال : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)^(٣) وهو الذي قال : (فَسُبْحَانَ الَّذِينَ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٤) ثم يقول : (مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٥) ثم يقول في الحديث القدسي : (اسْتَنْصِرُونِي أَنْصُرْكُمْ) وفي القرآن العزيز : (إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)^(٦) الخ .

فقل لي بعينك إلى أي حد تصل الشجاعة والثبات والعزة والاطمئنان بمن هذا حاله ، ولذلك نرى القرآن قد جعل الشرك سببا للضعف والخور فقال : (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ)^(٧) وقال : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ)^(٨) (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)^(٩) .

(١) سورة المنافقون الآية ٨

(٢) سورة الطلاق ، الآية ٣

(٣) سورة الشرح ، الآيتان ٥ ، ٦

(٤) سورة يس ، الآية ٨٣

(٥) سورة فاطر ، الآية ٢

(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠

(٧) سورة آل عمران ، الآية ١٥١

(٨) سورة الأنفال ، الآية ٦٥

(٩) سورة محمد ، الآية ١١

التوحيد

رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الأزهر مناقشة جرت بيننا وبين بعض متعلمى العصر الحاضر لما فيها من الفوائد الجمّة والمسائل المهمة .

قال ذلك العصرى :

أريد أن أسألك عن مشكلة التوحيد ، وأحب أن توسع صدرك وتسمح لى أن أقول كل ما عندى ثم تنزيل شبهتى ببيان يقبله العقل وينشرح له الصدر ، وإلا فهى شبهة الشبه ومشكلة المشكلات .

فقلت له : هات ما عندك بلا خوف ولا وجل ، وقل لى ما هى

مشكلة التوحيد ؟

فقال : مشكلة التوحيد التى لم أجد لها جوابا فى كتاب من الكتب هى أنكم تقولون : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات . ومن كان ذلك كان معدوما لا موجودا ، فإن كل موجود لابد أن يتصف بأحد المتقابلات ، ولا بد أن يكون فى جهة من الجهات ، ولا ترتفع كلها إلا عن التعدوم .

فقلت له : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء : فإن ما ذكرت صحيح فى الماديات لافى غير الماديات « وأكثر العقول لاتعرف إلا أحكام الماديات ولا تكاد تترفع عنها إلى ما وراءها » .

والتقابلات أو الجهات التي حبسك الوهم في محيطها ، وظننت أنه لا بد من أحدها لكل موجود ، ذلك الحكم فيها مشروط بشرط القابلية لمعروض تلك المتقابلات ، فإذا لم توجد القابلية ارتفعت تلك المتقابلات بل كانت مستحيلة .

ولنقرب لك ذلك بمثال واضح :

تعلم أن الجهل والعلم مثلا متقابلان ، ولا يمكن أن يوجد إنسان إلا وهو متصف بأحدهما ، ولكنك تجدهما مرتفعين جميعا عن الحجر ، فلا يتصف بجهل ولا علم لعدم القابلية . فكذلك نقول : إن غير المادى ترتفع عنه الجهات كلها لعدم القابلية ، إذ هي من خصائص الماديات المتحيزات .

وأما ما لم يكن ماديا متحيزا فيستحيل عليه أن يكون في جهة . وإذا كانت الفلاسفة تثبت ذلك للجواهر المجردة التي منها الملائكة والنفوس والعقول عندهم لأن لها أحكاما تضاد أحكام المتحيزات - ومن الذى يعطى الأجسام أحكام الأرواح - فما بالك بالبارى عز وجل الذى هو خالق كل شئ وليس كمثل شئ !

ومن الجبل الفاضح أن يعتقد الإنسان أن كل شئ خاضع لسلطان عقده وأن ما لم يدركه بعقله فهو خارج عن دائرة الوجود

بل نقول : إن مقتضى العقل السليم أن يكون الله منزها عن مشابهة الأشياء ، متعاليا عن إدراك العقول ، وإلا لم يصح أن يكون آلهها

﴿إِذَا لَابِتْغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾^(١) . فهو محجوب عن العقول كما أنه محجوب عن الأبصار .

وقد قلنا في بعض ما كتبناه منذ زمان بعيد : (إذا كان الملحد لا يؤمن إلا بالله يقع عليه بصره أو يدركه عقله ، فأنا لا أؤمن بالله يخضع لسultan عقلي ، أو يدخل في دائرة محسوساتي ، أو ألسه بيدي أو أصل إليه برجلي ، أو يمزقه مدفعي ، أو تعلق إليه طياري .. إلخ . إلخ ..

فإن هذا لا يصح أن يكون إلها ، بل يجب أن يكون مخلوقا محتاجا لمن يديره ويركب أجزائه ويضعها في مواضعها المخصوصة ويقوم بحاجاته ويدفع عنه سلطان النواميس التي تجرى على المركبات كلها حتى يتمتع بالوجود ، مع أنك فرضته إلها - هذا خلف) .

وانظر ما ذكره القرآن في وصفه عز وجل : هل تراه منطبقا على الأجسام أو متصورا فيها ؟

يقول عز وجل : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)^(٢) .

ويقول : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢ ؛

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٩

بِنِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ (١)
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (١) .

ويقول : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (٢) .

ويقول : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ
إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) (٣)
إلى آخر ما يطول ذكره .

فهل يتصور عاقل أن من هذه صفاته يكون جسما من الأجسام ،
ويقاس على أحد من الأنام ، أو يدخل تحت سلطان العقول والأوهام ؟
وهل هذه الصفات العلية تنطبق عليها نواميس الجسمانيات
أو أحكام الماديات ؟

ولكن لا بد لنا أن نقول : إنه مع هذا التعالى أظهر من الشمس
وأوضح من الحسن ، فإن كل ذرة من ذرات مخلوقاته آية من آياته
باطقة ببديع حكمته وعظيم قدرته :

وفي كل شيء له آية تبدل على أنه الواحد

(١) سورة يونس ، الآية ٦١

(٢) سورة ق ، الآية ١٦

(٣) سورة المجادلة ، الآية ٧

ولولا ما نؤمن به من قدرته الباهرة لعجبنا كل العجب ممن ينكره
وهو أبده البدهيات وأوضح الواضحات (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ)^(١) .

وهل يصدق عقل أن هناك أثراً بلا مؤثر ، أو نظاماً بلا منظم ،
أو حكمة بلا حكيم ؟ إن هذا لدى العقل السليم يساوى قولنا : الكل
أصغر من الجزء ، والواحد ربع الإثنين . وقد يكون أوضح من ذلك .

فإن الحيوان الأعجم إذا ضرب التفت لينظر الضارب لأنه لا يصدق
أن هناك أثراً بلا مؤثر ! فمَنكر الإله إذا هو أخط رتبة من الحمار !

فسبحان من احتجب بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بعظيم
إشراق نوره ! ولولا احتجابه بسبعين حجاً من نوره لأحرقت سبحات
وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته .

ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العمول ودهشت القلوب ،
وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء . ولو ركبت القلوب من الحجارة
والحديد لأصبحت تحت مبادئ أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق
ليكنه نور الشمس أبصار الخفافيش (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ
دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)^(٢) ولا يقدح في هذا الوضوح جهلك لحقيقته ،
فإنك إذا كنت في مكان مظلم وسمعت صوت رصاصة قوية لم يكن

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣

جهلك بشخص، الضارب مشككا إياك في وجوده ! ويجدر بنا في هذا المقام أن ننشد قول القائل :

تبصر حيث كان لك التبصر وفي ذات الإله دع التفكير
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر.

إلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الغلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات أصول من لجين زاهرات

على أغصانها ذهب سبيك

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات إلى ما لست أدري طائرات

يطير له بها الجرم السميك

رياض ، ونقات منعشات وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرُّك ناضرات على قضب الزبرجد شاهدات

بأن الله ليس له شريك

الخلاصة :

والخلاصة أن هنا شيئين : شيء أوضح من الشمس وهو وجود خالق برأ هذا المخلوقات ودبر الأرضين والسموات ، قام كل شيء في الوجود برمانا عليه ، وساق أرباب العقول إليه حتى توكلوا عليه ، وانطرحوا بين يديه (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(١) وعلموا أنه أقرب

(١) سورة هود ، الآية ١٢٣

إليهم من حبل الوريد ، وأن ما قام على وجوده من الأدلة لا يمكن أن يكون عليه مزيد (أفى الله شك فاطر السموات والأرض)^(١) .
سبحانك لا نحى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

أما الشيء الثانى فهو معرفة كنهه سبحانه وتعالى ، وهذا أخفى الخفيات ، كما أن الأمر الأول أوضح الواضحات . فاعرف الفرق بين المقامين .

ولا عجب في هذا فروحك أقرب الأشياء إليك ، وما أعظم إمداده لك وأثرها عليك ! ومع ذلك لا تعرف كنهها بل ولا كنه أفعالها فأنت لا تعرف كيف تدرك ولا كيف تتخيل ولا كيف تذكر ما نسيت ، بل هذا هو شأنك فيما هو أقل من ذلك ، فلسبت تدرى كيف يمثل الغذاء هذه الأضياء ، وكيف يصير عينا تبصر ومخاً يدرك ، وأذنا تسمع . إلخ . إلخ . . .

فليس لنا من الأشياء إلا ظواهرها التى ندرسها فى مدارسنا ، أو نعرفها بالتليل والتركيب فى معاملنا . فمعرفة الحقائق على ما هى عليه مما اختص به الحق سبحانه وتعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)^(٢) .

وعلم الطبيعة معترف بأنه لا يعرف كنه الأشياء ولا أوائلها ولا مصيرها ، وإنما عرف ظواهرها بواسطة التجربة المتكررة . هكذا

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٠

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥

قال المنصفون واعترف المحققون . وإيّاك أن تصغى لزعانف علم الطبيعة
! الذين لا يقيم لهم وزن بجانب أساطين علم الطبيعة الذين دهشوا
من عظمة الخلق العظيم والمبدع الحكيم !

وقد قال باكون : من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدًا ،
ومن شربه عبًّا أوصله إلى الخالق .

وقال سبسر : ليس المقصود من دراسة علم الطبيعة معرفة تلك
الظواهر التي يرفها تلامذة المدارس وإنما الغرض الأقصى من علم الطبيعة
هو أن نقف على ذلك الجسر الذي نستشرف منه ما وراء الطبيعة .

وقال هرزل وهو من كبار أساتذة علم الطبيعة : كلما اتسع نطاق
العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزل لا حد لقدرة
ولا نهاية .

فعلماء طبقات الأرض والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا
على تشييد صرح العلم ، وهو صرح عظمة الله وحده . والله در القائل :

تاه الانام بسكرهم فلذلك صاحى القوم عربداً

تالله لا موسى الكليم ولا المسيح ولا محمد

كلا ولا جبريل وهو إلى محل القدس يصعد

علموا ولا النفس البسيطة لا ولا العقل المجرد

من كنه ذاتك غير أنك أوحدى الذات سرمد

فليخسب الحكماء عن حرم له الأملاك سجود
من أنت يارسطو ومن أفلاط. قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفـرا ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

وربما عدنا للموضوع مرة ثانية . والله يتولى هداانا جميعاً بمنه وكرمه .

(١) حدث جليل لا يمكن الصبر عليه

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

بلغنى أنه ظهر في عالم المطبوعات كتاب سخييف يدعو إلى الإلحاد علناً بكل أنواع الدعاية ، ويقول : إن هناك جماعة منظمة لبث هذه الدعوة ، ولها فروع . وقد أخذ صاحبه يرسله إلى الصحف والمجلات .

وما أدرى كيف يكون ذلك في عهد حكومة إسلامية دينها الرسمي هو الإسلام ! فإن كان كاتبه مغترباً بحرية الاعتقاد التي كفلها الدستور ، فليعلم أنه أخطأ في فهم الدستور كما أنه أخطأ في فهم الدين والعلم .

فإن الدستور كفل له أن يعتقد ما شاء في خاصة نفسه ، لا أن يدعو الناس إلى الكفر والخروج على دين الدولة الرسمي ، وانتهاك مقدساتها ونشر الفساد وإثارة الفتن التي لا يعلم مدى غايتها إلا الله تعالى ، خصوصاً في مثل تلك العقيدة الفطرية المتأصلة في النفوس تأصلاً لا يزعزعه شيء ، بل هو يأتي على كل شيء .

وأمامك تاريخ العصور والأمم وأقوال الفلاسفة القدماء والمحدثين في ذلك حتى قال ديكارت الفيلسوف الشهير الذي جعل أساس فلسفته اليقين ثم انتهى بعد إلى اليقين البالغ ، يقول :

« إن عندي شعوراً بوجود ذات كاملة لا يفترق في الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا أي، مثلث تساوى زاويتين قائمتين ، إذا فالله موجود »

ويقول في بيان تمجيد الله الذى ملأ قلبه : « إن لفظة الله إن لفظت بها فإِنما أعنى بها ذاتاً لا نهاية لها أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شىء وقادرة على كل شىء ، وإني أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها وناشئة منها » .

ولا بأس أن نعجل بذكر شىء من أقوال فلاسفة أوروبا الذين هم أساطين العلم الطبيعى الذى يستند إليه أولئك الزعانف الذين ليسوا فى العير ولا فى النفير ، فإن علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه وافتروه عليه ، كما سنبين ذلك بعد أتم بيان .

وخذ الآن ما قاله أحد الفلاسفة العظام فى الاستدلال على الله ، يقول :

« لو كان الوجود كله مكوناً من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك ، فمن أين نشأ للإنسان ، الذى خلق من مواد لا عقل لها ، ذلك العقل والإدراك ، وفاقد الشىء لا يعطيه !

إذاً فلا بد أن يكون فى الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له . ولا مناص لنا من تقرير تلك الحقيقة وهو أنه يوجد فى العالم شىء موجود بذاته أبدي لا يدركه تحول ولا يعتره تبدل ، لأننا إذا فرضنا أنه كان هناك وقت ليس فيه شىء مطلقاً أى لا شىء قائم بغيره ولا شىء قائم بنفسه من القدم لزم ألا يكون غير العدم ، والعدم لا يصلح لإيجاد شىء ، فلا بد أن تكون تلك الحقائق الأبدية التى تدرك بالنظر فى الوجود جارية على سنن معينة بلا تحول ولا تبدل هى صادرة من الله » .

ويقول الفيلسوف (ليبتنز) الألماني :

« إن الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له مشاعرنا ، وهو من الممكنات ، أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد أولا يوجد ، وليس فى أحدها شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالى . إذاً يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة ، يجب البحث عنها فى الذات التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأزلية .

(يجب أن تكون هذه العلة عاقلة ، لأن الكون الموجود لما كان ممكنا أى قد يكون ولا يكون وفى الإمكان حدوث دنياوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطة بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من أحداث دنيا جديدة فيه . ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولا شيء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التى لها) .

(هذه العلة الحكيمة يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كما لا مطلقا من حيث القدرة والحكمة والرحمة ، ولما كان الوجود كله مرتبطا بعبئه ببعض ومفرغا فى قالب واحد فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها) .

إلى آخر آرائهم الفلسفية التى سنلم بكثير منها ومن غيرها بعد ،

إن شاء الله .

وما رأيت أمراً أعجب مما نحن فيه ، فإن الناس يأخذون في كل صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف على يدي من ليس يحسنها ولا هو مستعد لها . فترى كل إنسان ملتزماً حده غير مدع ولا متبجح . ولكنك تراه في العلوم العقلية والموضوعات الدينية ينطلق انطلاق الحيوان بلا عقل ولا روية بمقتضى الحرية المقوتة .

وليعلم أولو الأمر وزعماء الأمم أن فوضى العلم والدين والأخلاق أضراً على الناس من فوضى الصنائع والحرف . ولا شيء أسقط للأمم من تشيوع الإلحاد فيها . ولا أدعى لتدهورها من ضياع الأخلاق وعدم فهم الحرية على وجهها الصحيح . وانظر إلى حال الأمة الإسلامية أيام كانت متمسكة بدينها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولم تكن قوالة لا فعالة ، وإلى حالها اليوم وليس لها من العزة والكرامة إلا دعاوى لسانية وأمانى خيالية اكتفوا بها اكتفاء الضعيف بالخيالات والأوهام .

فنسأل الله أن يرشدنا إلى الفهم الصحيح ، والإخلاص الصحيح ، حتى لا نسير في تكوين الأمة على غير المعقول ، فنبنى الدور الرابع من الحريات المتطرفة قبل الدور الأول من التربية الصحيحة ، واحترام الدين والاداب . وقد قال تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ : ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . ترى كثيراً

مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَيَبْئُسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (١)

وقال صلى الله عليه وسلم : (لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَآكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) . ويقول عليه السلام : (لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ فَيَدْعُوْكُمْ خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ) إلى آخره ما ورد في الكتاب والسنة ، وهو كثير .

ولنقل اليوم كلمة موجزة في مقدمة الكلام على هذا الموضوع الذي سنفيض القول فيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، فنقول :

من أنكرو وجود الله لم يزد على أن قال عن نفسه إنه مجنون ، فإننا إذا رأينا كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم نستطع أن نقول إنها مكتوبة من غير كاتب . فما بالك بهذا الكون الباهر بسمائه وأرضه ونجومه وأقماره وشمسه وكل عجائبه ! ولكن من عرف أن الإنسان مستعد لكل شيء حتى أفضع أنواع الجنون لم يستغرب ذلك منه .

وقد قلنا في كلمتنا السابقة «مشكاة التوحيد» : إن الحمار إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد ضرب بلا ضارب ، فمن تصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ونظام بلا منظم وأشياء متقنة كل الاتقان بلا صانع حكيم ، فهو أجهل من الحمار . ولكننا نتنزل فنسمى هذا الصنف من الناس بحمير البشر . وقد أنشدوا قديماً :

قال حمار الحكيم يوماً لو أنصف الدهر كنت أركب
فإنى جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب

وليس هناك غرابة في كل ما تراه من الإنسان أو تسمعه عنه فقد قرأنا في تاريخه أن فريقاً من الناس أنكروا المحسوسات بالمرّة وهم (السوفسطائية) والمحسوسات هي وضوحا وجلاء . وقرأنا أن من الناس من قال في كل شيء : لا أدري وهم (اللاأدرية) . ومعنى ذلك أنهم غير معترفين بوجود شيء حتى أنفسهم ، وشاكون في كل شيء حتى في شكهم .

أما الأولون فجازمون بإنكار المحسوسات وعدم تحققها وقيمون البرهان على ذلك . ولا أدري كيف لا يجعلون إقامة البرهان منهم برهاناً على وجود الأشياء . ولكن من عرف الإنسان لم يعجب من جهله وتناقضه . وكم في تاريخ الإنسانية من المضحكات والمبكميات ،

ولنتل عليك بعض ما قال الله فيه : يقول الله - عز وجل - مبيناً لما جبل عليه : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(١) فجعله جهولاً ولم يجعله جاهلاً ، وجعله ظلوماً ولم يجعله ظالماً (إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)^(٢)

(٢) سورة لقمان ، الآية ١٣

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

ويقول : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)^(١) . وعندى أن ضعفه العقل أكبر من ضعفه الجسمي إلا من أیده الله بنور من عنده . ويقول في حق فريق من الناس : (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)^(٢) . ويقول : (وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)^(٣) .

وكيف لا تعجب من جهله وقد وصل من معاداة البرهان ومصادمة العيان إلى حد ما قال الله فيه : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)^(٤) . ويقول في الآية الأخرى : (وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)^(٥) .

فانظر إلى ذلك التصلب في الجهل والعناد أمام آيات الله وأنبياءه الله ، مع استعداده في الوقت نفسه لأن يضحك عليه بعض المضلين ويلعب به بعض المشعوذين . فكيف لا نقول إن نوع الإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات ! .

وبعد : فإياك أن تظن أن إلحاد الملحدين لضعف في دلالة الآيات أو قوة فيما لديهم من الشبهات ، كيف وقد وصلت الآيات إلى حد

(١) سورة النساء ، الآية ٢٨

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٦

(٤) سورة الحجر ، الآيتان ١٤ ، ١٥

(٥) سورة الأنعام ، ١١١

الحس ، وصارت أبهى لدى العقلاء من نور الشمس ، وقام عليها ألوف البراهين ، ولا شيء أجلى منها لدى من هو مستعد لأنوار اليقين :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (١)

فليس تلكؤ من تلكأ فيها لشبهة يعتد بها أو يعول عليها ، ولكن لقصور في استعداده وخلل في عقله ، ومزيد سلطان الوهم لديه ، وتسلب جميع الآفات النفسية عليه !

وقد قرروا في الفلسفة أن للوهم سلطاناً قوياً للغاية ، حتى إنه لينازع العقل في البدهيات ويسلم المقدمات ثم ينازع في النتيجة . إلى هذا الحد وصل سلطان الوهم على النفوس ، وإلى هذا الحد أثر في الأدمغة البشرية !

عرفنا ذلك كله فيما قرأناه من الفلسفة ، فلا نستغرب شيئاً من هذا النوع المذبذب الذي هو أعجوبة المخلوقات .

ولكن الواجب أن نحذف هذا الفريق المصاب بأفطع أنواع الجنون من سجل الإنسانية وحساب العقلاء . وإذا التفتنا إليه وجب أن نعتبره عضواً فاسداً يجب بتره وإهماله مع الاحتياط الواجب لصيانة جسم الإنسانية من إصابة عدواه التي هي شر من عدوى الطاعون . وأن من

الأعضاء الفاسدة ما لا يفرز إلا قيحا وصديدا ، فيجب الابتعاد عنه وعدم القرب منه ، وقد عرفت أن القرآن جعلهم أخط من الحيوان فقال : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)^(١) .

فإذا لا غرابة بعد أن علمنا أن الإنسان مستعد لأن يكون أشرف المخلوقات على الإطلاق وأخطها على الإطلاق ، في أن نرى فريقاً ينكر وجود الله وهو أَرَضَح من حسه وأقرب إليه من نفسه : (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(٢) . ولكنه ليس فيه استعداد الفهم البراهين ولا للتحلي بحلية اليقين ، فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، كما بينه الحكيم العليم . وهذا الفريق جدير بنا أن نسميه حمير البشر كما قانا . وقد قال بعض الفلاسفة : (إِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ تَفْسِدُ إِنْسَانِيَّتَهُ فَيَصْبِحُ غَيْرَ إِنْسَانٍ) .

ولعل المقدمة لا تحتاج من البيان إلى أكثر من هذا ، وستسمع ما يشفيك ويكفيك إن شاء الله .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤ :

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠

(١) حدث جليل لا يمكن الصبر عليه

(٢)

أبنا فيما كتبناه قبلا أن منكر وجود الله مصاب بأفطع أنواع الجنون ، وأن الواجب حذفه من سجل الإنسانية ، ويجب أن نتحاماها كما نتحامي المصاب بالجذام ، ولا نغتر بصورته الظاهرية فإنه في الحقيقة غير إنسان . وقد قال تعالى في حق أولئك الذين يشبهون الإنسان وليسوا منه في شيء : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ) (١) . (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) (٢)

ولنف بما وعدنا به في مقالنا السابق فنقول :

إن وجود الله ضروري عند كل عاقل ، فإنك إذا رأيت بناء شاهدا على أحسن وضع وأتم نظام ، قد نسقت أشجاره ودبرت أنواره وهيئت مساكنه على ماتقتضيه الحكمة وتوجيه الحاجة ، فهل يمكنك أن تصدق أن هذا البناء بلا بان ، وذلك النظام بلا منظم ؟ فإذا جوزت أن يوجد بناء بلا بان ونظام بلا منظم خرجت من زهرة الاعتلاء وسقطت عن رتبة الخطاب والمكاملة .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثامن - المجلد الثامن - شعبان سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٩٨ .

وقد قلنا إن الحيوان إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ، ولكن الإنسان قد يفسد حتى ينحط عن درجة الحيوان ، فيكون في أسفل سافلين من الانحطاط الذي لا يشاركه فيه مخلوق ، وقد خلق مستعداً لذلك كما أبناه في مقالنا السابق .

ولو سلك علماء الكلام مسلك القرآن في الاستدلال على الله تعالى لتقربوا الطريق ، وهزوا القلوب بما أودع في الفطر وغرس في النفوس حتى التحق بالبدهيات التي لا تحتاج إلا إلى الالتفات إليها وانتباه النفس لها .

وانظر إلى قوله تعالى : (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(١) .

أدمج كل ما أطلوا به في قوله : (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهو في غاية الجلاء ونهاية الوضوح . ويقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ لَهُمْ الْخَالِقُونَ) ^(٢) ويقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ^(٣) . (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) ^(٤) . (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَآشَاءِ رَبِّكَ) ^(٥) . (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(٦) . (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) ^(٧)

(١) سورة إبراهيم ، من الآية ١٠ .

(٢) سورة طور ، الآية ٣٥ .

(٣) سورة انفطار ، الآيات ١٧ - ٢٠ .

(٤) سورة طارق ، الآية ٥ .

(٥) سورة الانفطار ، الآية ٨ .

(٦) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

(٧) سورة النمل ، من الآية ٦٣ .

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَابِي ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) .

إلى آخر ماجاء في القرآن مما يتملك النفوس ، ويستولى على القلوب . وهكذا شأن القرآن الكريم ، لا يتعسف في التعبير ولا يتفلسف في الاستدلال . وإن شئت فانظر في حججه على البعث وإعادة الخلق مرة أخرى حيث يقول بأوجز عبارة وأوضح قياس : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)^(٢) . (قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(٣) . إلى آخر ما يبهر العقول ، للمشاعر .

ولتعلم أن الاستدلال يختلف باختلاف الناس ، فمنهم من يكفيه أقل شيء لسلامة فطرته وعدم فسادها . ولذلك يروى عن الأئمة وغيرهم شيء كثير من هذا ، حتى إن بعض العارفين لما قيل له : إن الإمام الرازي أقام على وجود الله ألف دليل ، قال : ومتى أغاب حتى يستدل عليه ؟ فهذا مشاهد أغناه العيان عن البرهان

ومن ذلك قول الإمام على كرم الله وجهه : (لو كشف عني الغطاء ما زددت يقينا) .

(١) سورة النمل ، الآيتان ٦٠ ، ٦١ .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية ٢٩ .

(٣) سورة يس ، من الآية ٧٩ .

ومن ذلك قول بعضهم : إن الله قد تجلى لى فى كل شىء ، فليت شعرى كيف يكون تجليه فى القيامة عندما ينكشف الحجاب عن البصائر ! وهل بقى شىء من الظهور حتى يتجلى به هناك ! وقد قيل لبعضهم : بيم عرفت الله ؟ فقال : عرفت الله بفسخ العزائم ، وحل العقود .
ومن الاستدلال الطريف قول أبى حنيفة - رضى الله عنه - لمن تكلم معه من الملحدين :

ما تقولون فى رجل بقولكم : إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال ، قد احتوشتها أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ، وليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شىء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة ، ياسبحان الله إذا لم يجوز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟! فأقروا جميعا وقالوا : صدقت .

وسئل - رضى الله عنه - مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس ، فدل ذلك على الصانع .

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل حيث يقول : (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١) .

ومنها تمسك أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - بقلعة حصينة
ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المسذابة وباطنها كالذهب
الإبريز ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير ،
فلا بد من الفاعل . (عنى بالقلعة) البيضة ، وبالحيوان (الفرخ) .

ومنها أن هارون الرشيد سأل مالكا - رضى الله عنه - عن ذلك
فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات ، وتفاوت اللغات . ويشير
إلى ذلك قوله تعالى : (ومن آياته خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ
اللِّسَانِ وَالْوَالِدَاتِ وَالْوَالِدَاتِ) (١) .

وسئل أعرابي عن الدليل فقال : (البعرة تدل على البعير ، وآثار
الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار
ذات أمواج ، أفلا تدل على الصانع الحكيم العليم القدير) ؟ .

وقال آخر :

عرفته بنحلة ، فأحد طرفيها يعسل ، والآخر يلسع - والعسل
مقلوب اللسع .

ويروى أن واحدا قال عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - :
إني أتعجب من أمر الشطرنج : فإن رقعته ذراع في ذراع ، ولو لعب
الإنسان ألف مرة فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد .

فقال سيدنا عمر - رضى الله عنه - ؛ ها هنا ما هو أعجب من
هذا ، وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر ، ثم إن مواضع الأعضاء

(١) سورة الروم ، من الآية ٢٢ .

التي فيه كالحاجبين والعينين والأنف والقدم لا تتغير البتة ، ثم إنك لا تجد شخصين في الشرق والغرب يشتبهان في الصورة . فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التي لا حد لها :

وروى عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال في بعض خطبه :

(سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم)

ويقول بعضهم في الاستدلال على الله :

إن غرائز الفطرة لا تدعو إلى باطل . وقد وجدنا فيها شعورا لا تمتته المميدات ينطق بوجود الخالق : (ولكن الضرر في أن العوالم السفلية تطلب أن تكيفه لأنها لا تعرف غير المكيف المحدود ويجب أن لا تعرفه لأنه مباين لها كل المباينة وغير متناه وهي متناهية) .

ومنهم من يقول بسعة رزق الغني دون الذكي ، فإنه ضيق رزقه ؛ إلى آخر الاستدلالات التي لا يأتى عليها العد . ولذلك قالوا : لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق .

ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - لبعضهم : كم لك من إله ؟ فقال لي في الأرض آلهة كثيرة ، وولي في السماء إله واحد فقال : من تعده لشدتك ، وتضرع إليه عند النوائب ؟ فقال : إله السماء ، قال : فاعبده ولا تشرك به شيئاً . فاقنع الرجل وأسلم

ومن ذلك ما قاله جعفر الصادق - رضى الله عنه - لذلك الغريق الذى نجا : هل كنت يائسا من النجاة عندما انكسرت بك السفينة ؟ فقال لا بل كنت أرجو النجاة . فقال له : إن الذى كنت ترجوه فى باطنك لنجاتك ولا تعرفه هو الله المحيط بكل شئ القادر على كل شئ .

فآمن الرجل عندما أيقظ منه ذلك الوجدان وحرك ما كان كامنا فى فطرته . وكم فى القطرة من كنوز تحتاج إلى من يستشيرها حتى تخرج من الكمون إلى الظهور ، ولكن الناس عنها غافلون بها جاهلون .

ولنختم هذا المقال بقول القائل^(١) :

يقولون أين الله أين عجائبه	وذا الكون سفر واضح وهو كتابه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم	ويبدون ماتلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجوى يرسل طرفه	إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده	وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربي فى الأنام عظيمة	ولكن جهل المرء لا شك غالبه

(١) كثير من الشعر غير المعزوم الذى فى هذه المقالات هو للمؤلف الشيخ الدجوى

حدث جليل لا يمكن الصبر عليه (٢١)

(٣)

كثرة البراهين على وجود الله

لعلك عرفت مما كتبناه ردا على ذلك الملحد أن وجود الله لدى العقل السليم أوضح الواضحات ، فإن الأثماء الثابتة في الوجود يمكنك أن تقيم عليها دليلا أو دليلين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة ، ولكن وجود الحق سبحانه لا تقف الأدلة عليه عند حد ، فلا يقال إن له مائة دليل أو ألف دليل أو عشرين ألف دليل ، فإن كل شيء في الوجود دليل عليه وموصل إليه .

وقد قال أبو العتاهية :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقال بعض العلماء في قوله تعالى : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢) :
إن عليا هنا بمعنى معلوم ، فيكون المعنى : إن الله معلوم بكل شيء من الأشياء ، فإن كل شيء يعطيك العلم به والدلالة عليه . وإذا كان وجوده تعالى أوضح الواضحات ، وكانت براهينه قد ملأت الأرضين والسموات فخرجت عن الحد والعد ، كان منكر وجوده أعظم المجانين ، وأحط المساكين ، يرثى له ويبكى عليه ، فإن من صادم برهانا واضحا حكمننا عليه بالاختلال والإعتلال ، فكيف

(١) مجلة الأزهر - الجزء التاسع - المجلد الثامن - رمضان سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٩ .

من خالف مالا يحصى من البراهين ، فضلا عما تنادى به فطرته
التي أحمده صوتها وأمات ضميرها ؟

يشكون والإيمان ملء قلوبهم ويبدون ماتلك القلوب تكذبه

(أَفَبَى اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(١) . (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . ولكن هؤلاء محبسون في
في سجن الماديات قد أحاطت بهم الظلمات ، فلا يعرفون إلا المكيفات ،
ولا يعترفون إلا بالمحسوسات وكان عليهم أن ينكروا أرواحهم فإنها
ليست بمحسوسة ، ولا يصدقوا عقولهم فإنها ليست بمحسوسة ، وكل
مالم يقع عليه الحس عندهم فليس بوجود .

فلا أدري كيف يناضلوننا بما لا وجود له عندهم ، وكيف يشقون
بتلك العقول وهي لا تنتمي إلى المادة بنسب ولا تمت إليها بسبب !
فإن المادة في ذاتها بريئة من الحياة فضلا عن العقل والإدراك ،
وفاقد الشيء لا يعطيه . فمن أين جاء العقل والإدراك وليس هناك
إلا المادة الصماء البكماء العمياء على ما يزعمون ؟

ولقد صدق باكون أحد أساطين علم الطبيعية حيث يقول :
من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شر به عبأ
أوصله إلى الخالق .

(١) سورة إبراهيم ، من الآية ١٠ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ٣ .

فهل يصح بعد ما يقول العلم كلمته في تكوين هذا العالم الفسيح من قوى كهربائية قهرها الله بقوته العالية، فاتخذت ما اتخذت من أشكال وألوان . وحملت ما حملت من خواص كان لها أثرها في الحياة العالية نباتها وحيوانها وإنسانها ، هل يصح بعد ذلك كله وبعد نظر الإنسان في نفسه وما ركب فيه من أعضاء نيطة بكل عضو منها ووظيفة خاصة « تمت له بها الحياة العالية حتى صار أرقى المخلوقات » ومما فيه من الكريات البيضاء والحمراء ، وما لها من عمل في جسم الإنسان . وما فيه من غدد أبان العلم الحديث ما لها من آثار وما فيها من أسرار . إلى آخر ما في هذا الكون الباهر من ليل ونهار وشمس وأقمار ، وأرض وسما ، وماء وهواء . هل يمكن من ينظر نظرة بسيطة في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، أن ينكر قدرة خالقه العظيم ، أو حكمة صانعه الحكيم ؟

انظر إلى وقوف الأرض في نقطتها المخصوصة ، ولو جعلها بعيدة من الشمس بعدها من بنات نعش مثلا لما انتفعت بضوئها وحرارتها ، وهما ضروريان للنمو والحياة ، ولو جعلها قريبة منها جدا لاحترق كل ما عليها من نبات وحيوان ، ولأصبحت طبقة من طبقات جهنم . فسبحان الحكيم العليم . إلى آخر ما لا يحصيه العد ولا يتأني عليه البيان . ألا إن طريق الحق قد بانته معالمه واضحة جلية ، وهل بعد الحق إلا الضلال ، وبعد الرشد إلا الخيال !

إني لأعجب والله كل العجب كيف يسوغ لإنسان فيه ذرة من العقل أن ينكر وجود الله الذي خلق الأكسجين والأيدروجين ثم ألف بينهما بقوته العالية فصير منهما ماء ملاً به ثلاثة أرباع الكرة الأرضية .

وليت شعري هل يستطيع أحد أن يقدر القوة التي أتت بهذا العمل الذي كان من نتائجه هذه المحيطات الهائلة وهذه السحب التي نراها فيه كل حين وفي كل صقع تنزل وتحيي موات هذا الكون الفسيح !

نى أعجب والله ، لولا إيماني بالقدرة الباهرة ، كيف تسنى لعقول قوم من بني آدم أن تقبل إنكار وجود الله وما هو إلا إنكار أنفسهم بل إنكار كل شيء في الوجود !

أيصح إنكار الله الذي كون الأحياء من الأرض الميتة ، ثم كون الهواء والماء لعلمه أنه لا بد للأحياء منهما ؟

أينكر الله الذي يدبر الأرض في حركة يومية وسنوية ، وينقل القمر من المشرق للمغرب ، ويمسك الكواكب أن تقع على الأرض . هل في إمكان العقل تقدير تلك القوة التي فعلت ذلك كله ، وتلك الحكمة التي نظمتها على مر الملايين من السنين .

وكأني بلسان الحضرة الإلهية يقول لأولئك الملحددين ، إنني سخرت لكم الأرض وذللت لكم البقر تحرثون وتزرعون ، فإذا فرغتم منه ورفعتم أيديكم عنه توليته دونكم وأنتم قيام تنظرون ، فمرة أنميه بالحر ومرة بالبرد حتى أبلغه أوان حصاده ، وسخرت لكم الحديد لتحصدوه به ، والرياح تذرونه به ، ولو أمسكته عنكم فضلاً عن غيره لتحيرتم وما صنعتم شيئاً . فكيف تكفرون ولا تشكرون !

أنظر إلى ملايين النجوم وما بينها من الأبعاد الشاسعة ، وما لها من الأجرام الكبيرة التي تدهش العقل ، وما قدر لها من الدوران العجيب

أمره الخفى سره ، وما بينها من الاختلاف فى الأضواء والخواص ، تعالى الله عن أن يحيط أحد علماً بكمالاته ، أو يصل إلى تحديد كنه صفاته .

لعمر العلم إن الأمر لأوضح من الشمس وأظهر من الحس . ولكن الذى يتكلم بغير عقل ولا علم لا يصلح لهذايته أحد ولا ينفع فيه أى برهان (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً)^(١) .

والإنسان مجمع العجائب والغرائب . فليفر من الميدان خجلاً أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى بعد أن أماتوا ضمائرهم وضغطوا على شعورهم حتى ذهب منهم كل وجدان ، فأصبحوا وقد وجب إسقاطهم من سجل نوع الإنسان (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كائنات عميان بل هم أضل سبيلاً)^(٢) .

وما أشبههم بالخفاش الذى لا يستطيع أن يحلق فى نور الشمس لما فى أعصابه من ضعف وفى بصره من خلل ! وإلا فهذه آثار ناطقة بعظمة لا تدرى العقول ولا تصل إليها الأوهام ، ولكن الإنسان كما يبتلى بأفطع الأمراض الحسية كذلك هو قابل لأن يبتلى بأفطع الأمراض العقلية . ولعمري إن الجاهل يمكنه أن يفهم أكبر فيلسوف من الملحدين بما رآه من حوادث العفاريث المتواترة عند من لا يمكن تكذيبهم ولا الشك فى خبرهم ، وهى تحرق كل نواميس المادة التى عبدوها ولم

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٤ .

يعرفوا شيئاً سواها . ولعلنا نعرض لشيء مما شاهده علماء الاسترنزم
(استحضار الأرواح) وهم من أكبر أساتذة أوربا وعلمائها .

أما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء فلا نعرض لها لعدم إيمان
الملحدين بها ، وإن كانت متواترة ، والمتواترات لا سبيل إلى تكذيبها ،
ولكن هؤلاء قدسوا نواميس المادة التي عرفوها ، وخرقوا نواميس العقل
والمنطق التي جهلواها .

والخلاصة أنه تعالى أظهر من كل شيء لدى العقول ، ولكن لما كانت
النفوس مجبولة على الجهل لأنها لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تفرح
فيما تريد إلا لما علمته من طريق الحواس ، خفي عليها ما لا تحسه ،
ولكنها جهلت أن الإله يجب ألا يقاس على ما تعرف من المحسوسات ،
وإلا وجب تطبيق النواميس الطبيعية عليه .

ثم نقول باختصار لأولئك الملحدين : هل الموجودات كلها
انحصرت فيما تعلمون وصارت قاصرة على ما تحسون ؟ إن كنتم تعتقدون
أنه لا موجود إلا ما أحسستم ، ولا شيء عرف العلم إلا ما عاينتم ، فإنتم
أجهل الجهلاء وأحمق الحمقى .

ولنختم هذا المقال بقول من قال يخاطب الحضرة الإلهية :

صوت المشاعر والمداد	رك عن معارج كبرياتك
يا حي يا قيوم قد	بهر العقول سنا بهاتك
أثني عليك بما علم	ت فأين علمي من ثنائك
فظهرت بالآثار فالـ	برهان باد في جلائك

عجبا خفاؤك من ظهورك أم ظهورك من خفائك
ما الكون إلا ظلمة قيس الأشعة من ضيائك
وجميع مسافى الكون فان مستمد من بقائك
بل كل ما فيهه فقـ ير مستميح من عطائك
مسافى العوالم ذرة في جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتها إليه ك بالافتقار إلى غنائك

حدث جليل لا يمكن الصبر عليه^(١)

رجاء للحكومة لمصلحة الحكومة

لنرجىء الكلام في أدلة التوحيد مؤقتاً ، وسننميط القول فيه بعد .
أعلى أن مسألة ثبوت الصانع جلت قدرته كادت من وضوحها أن تخفى :
وأوشكت من مزيد حضورها أن تغيب . ليس لدى منكريها سوى المكافحة
بالوهم والخيال ، ومقابلة اليقين بالاحتمال « معارضة الشراب بالسراب »
وكل من تكلم في هذه المسألة التي هي أظهر من الشمس وأوضح
من الحسن بالإنكار ، فقد أحمى جهله ، وأمات عقله ، وقتل وجدانه :
وأحمد إحساسه ، وخنق شعوره . فهي لدى المعتلاء من أوضح الواضحات
وإن خفيت على أنهمام البشر الذين يجب إسقاطهم من سجل الإنسانية
وضمهم إلى صفوف البهائم : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)^(٢) .

ولنوجه كلمتنا اليوم لحكومتنا الإسلامية ، وما يجب أن تعرفه
من حال الملحدين وتقويضهم لبناء العمران ، وأثر دعايتهم على بني
الإنسان . فما وجدوا في أمة إلا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ،
وصاعقة مجتاحة لخير أممهم ، وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم ، يمتنون
القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم في الأرواح بآرائهم ، ويزعزعون
راسخ النظام بمساعيهم . فما رزئت بهم أمة ولا منى أبشرهم جيل

(١) مجلة الأزهر - الجزء العاشر - المجلد الثامن - شوال سنة ١٣٥٦ هـ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٢ .

إلا أنتكث فتله ، وسقط عرشه حين تبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها .

وكيف لا وهذه الطائفة الملعونة تحمل في طيات تعاليمها وثنايا مبادئها الإجرام الخلقى ، والتهتك العلني ، والمطاعن الهوجاء في الديانات ، والسخرية الجهرية بخالق الأرض والسماوات ، ولز المعتقدات المقدسات .

إن الحكومة تعاقب من يتكلم في الوزارة بما يمس شرفها ، أو ينقص من كرامة أشخاصها ، أو يمس القانون والدستور ، فما لها لا تهتم هذا الاهتمام ، أو شيئاً من هذا الاهتمام ، بحماية دين الدولة من طعن الطاعنين وسفه الجاهلين ؟ ! وهل حماية الدستور أعظم في نفوس الأمة من حماية دينها ؟ وهل الطعن في الدستور آلم لعواطفها وأدى لقلوبها من إهانة الدين ، والكلام في نبي المسلمين ورب العالمين ؟ ولسنا نقول لا تحمظور الدستور ولكن نقول : احمظوروا الدين أيضاً كما تحمظورون الدستور الذي تمتخرون بصيانتته فليس الدستور أضمن لسعادة الأمة من الدين .

يأيها الزعماء العظام والوزراء الفخام : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدينناكم ، فإن الملحدين الطاعنين على الأديان ما ظهروا في أمة من الأمم إلا أفسدوا أخلاقها ، وأوقعوا الخلل في عقولها ، وتخطنوا قلوب آحادها بأنواع من الحيل ، وألوان من التاييس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أسامها ، وتفتط بناؤها واغتالتها رذائل الأخلاق ؛ من الأثرة وعبادة الشهوات ، والجرأة على ارتكاب الخيانات ، ولا يزال

الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عليها الذلة والصغار ، ويخذل أبناؤها في الفقر والعبودية .

وانظروا إلى الأمة الإسلامية أيام تمسكها بدينها كيف كان مجدها ورفعتها ، ثم انظروا حالها اليوم عندما ظهر فيها الماديون ، وكثر فيها الجاهلون الملحدون ، وقل فيها المخلصون ، إلى آخر ما لا يمكننا شرحه في هذه العجالة .

هل لا تحمون تلك العقائد المقدسة التي يسهل على ذويها أن يبذلوا وجودهم في سبيلها ؟ ! عمائد هي أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية ، وأمضى الأسباب إلى طلب العلوم والتوسع في الفنون والإبداع في الصنائع . وإنما لأبلغ في سوق الأمم إلى منازل العلا ومقامات الشرف من اكل شيء سواها (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(١) .

أما هؤلاء الملحدون الداعون لمحو الأديان فما مقصدهم إلا وضع أساس الإباحة والاشترار في الأموال والأبضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا في السعي إليه ، وتلونوا لذلك في ألوان مختلطة ، وتقلبوا في مظاهر متعددة ، وكلما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها وأنزلوها من علياء مجدها إلى حضيض الذلة والمهانة ، حيث يكونون بالحيوان أشبه منهم بالإنسان .

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٩ .

ولهذا كله اجتمعت جميع الدول على مطاردة الشيوعيين ، علماً بما تؤول إليه مبادئهم من الفساد الذى تبأه سنن الله فى خليقته ، وتمقته الشرائع السماوية كلها ، ويقضى العقل بمجافاته للحق ومنافرته للصواب .

ولنقل مرة أخرى لزعمائنا وحكامنا : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم .

أما حرية الأديان والمعتقدات التى يستند إليها الجاهلون فمعناها أن كل أحد يعتقد ما شاء ويتدين بما أراد ، لأنه يجرح القلوب ، ويطعن فى العقائد ، ويسفه الأحلام ، وينشر النشرات ، ويؤلف المؤلفات ، ويهين الجمعيات والدعائيات كما فعل إسما عيل أدهم المعترف بذلك كله فى كتابه . فأين هذا من ذلك يارجال القانون ؟ !

وإن شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون بشيء ، ولا يقولون بحلال ولا حرام ، ولا حساب ولا عقاب ، ولا رب ولا كتاب . بل يظنون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات جده القرود أو الكلب . ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنيا والردائل ، وإلى أى حد تصل بهم الشرور ، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية والأذواق الوجدانية والمقامات الروحانية .

وبعد : فهذا الدين الذى نطالبكم بحمايته ، ويطلبكم الدستور أيضاً بحمايته ، هو الدين الذى فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس ،

وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفس صريح الحق في أى فضيلة ،
وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ،
ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على
قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير . فالناس في نظره إنما يتفاضلون
بالعقل والفضيلة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)^(١) (لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ
عَلَىٰ عَجْمِيٍّ وَلَا أَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ) .

والخلاصة :

أن من أشربت هذه العقيدة عقيدة التوحيد قلبه ، ينبعث بحكمها
وينساق بنورها وقوة روحها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف النصافية
فلا يهبط به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبه ، ثم ينصرف همه
لإبراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة
باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلى كماله من عالم الكون إلى عالم
الظهور ، ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته في
هذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يناله التقصير في تقويم
ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة ، متنكباً
عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضاً عن أبواب الرشوة ،
مترفعاً عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى الذى لا يعرف هؤلاء غيره ،
ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق ، وعلى الوجه الذى ينبغى ،
وبالتقدير الذى ينبغى ، لا يأتى فيه باطلا ، ولا يغفل حقاً عاماً أو خاصاً ،
يعمل لذيهاه كأنه يعيش أبداً . ولاخرته كأنه يموت غداً .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣

فهذه العقيدة أحكم مرشد ، وأهدى قائد للإنسان إلى المدنية المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التي لا إعماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم .

هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ، إذ لا عقد سألها إلا مراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات .

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسائلة ، فإن المسائلة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة . وهى غراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيها من متآثره الشقاء وتعاسة الجد ، وترفعه إلى غرف المدينة الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة ، فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق ، وحيل وخداع ، ورشوة واختلاس ، كما نشاهد ذلك فى كثير من مسلمينا الآن ! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاعتتيال وهضم الحقوق والجدال ! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وغشوة عن نور المعرفة !

وإن مسألتنا مسألة نشر ما يثير الفساد ويوجب الأحقاد ، ويحقق دين الدولة الذى يحترمه الدستور وتقده الأمة .

لا يردع هؤلاء الطغمة إلا العقاب الصارم الذى يخرس ألسنتهم
ويأخذ على أيديهم :

تمادوا فى الضلال بلا متاب ولو سمعوا صليل السيف تابوا

ولكننا فى زمان يضيق التعبير عن وصفه وبيان عقلية أهله :

ألا إنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولا يزال لنا بقية أمل فى القائمين بالأمر ، أن يشفقوا على أمتهم
من عبث العابثين وإفساد المفسدين ، وأن يحفظوا الأمانة التى جعلها
الله فى أعناقهم للدين والوطن .

سأل الله أن يرزقنا الرشد والبصيرة ، حتى لا نأتى ما يضحك
الشكلى ، ويبكى الحليم ، بمنه وكرمه .

التوسل

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الشيخ يوسف الدجوى:

السلام عليكم ورحمة الله وبعد ؛

عرضت مسائل رأيت أنه لا بد من استفتائكم فيها ، و آمل إجابتي على صفحات الإسلام . أما المسائل فأولها : هل في الدين من وسيلة ؟ وهل يضر طلب المعونة من نبي أو ولي على أنهما سببان عاديان كسائر الأسباب العادية المخلوقة لله عز وجل ؟ وهل هناك من حاجة إلى الوسيلة ؟ إلى آخر الأسئلة التي نرجو الإجابة عنها في أعداد مقبلة ثم قال في آخر خطابه : أرجو الإجابة بإطناب فإنني متشوق إلى تصحيح عقيدتي في هذه المسائل ولكم منا الشكر ومن الله الأجر .

عبد الرحمن خليل موسى الشريف

طالب بمعهد أسيوط

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد :
فقد جاءني هذا الخطاب منذ زمان وكنت نسيت ، فلما عرض على مع أوراق أخرى على غير قصد رأيت أن أجيب عنه إجابة مختصرة ، وأرجو أن يكون فيه مقنع وكفاية فأقول وبالله التوفيق :

إن التوسل جائز وواقع بأوسع معنى الكلمة ، ولا يجافيه عقل ولا نقل
وليس ذلك إلا من قبيل الأسباب والمسببات ، وقد جعل الله الناس
على مراتب مختلفة لحكم سامية ، وأسرار عالية ، فمنهم الغنى والفقير ،
والقوى والضعيف ، والعالم والجاهل ، والرئيس والمرؤوس ، والملوك
والسوقة ، إلى ما لا يحصى عد ولا يضبط. حد .

ولا بد أن يكون لصاحب المرتبة العليا ما ليس لصاحب المرتبة الدنيا
« ولا فرق في ذلك بين أمور الدين والدنيا » فالتجاء الصغير إلى الكبير
في كل ذلك لا شيء فيه . بل هو مراد الحق من خلقه المتفاوتين في
الاستعداد والنعم والمواهب ولذلك خلقهم .

أما الشرك فهو أن تطلب من غير الله على أنه إله مع الله يعطى ويمنع
بغير إذنه « ولا يتصور أن يكون ذلك من أحد من المؤمنين »
فإن طلبت منه على أنه لا يفعل شيئاً إلا بإذن الله تعالى ، ولا يتصرف
إلا بإقداره إياه ، معتقداً أنه ما مملك إلا بنمليكه ، ولا تصرف
إلا بإرادته ، لم يكن عليك بأس ولا في ذلك حرج ، بل هو الواقع
الذى جبلت عليه الفطر ، وجاءت به الشرائع والديانات ، وقد أسند
الله لإحياء الموتى وهو أكبر شئ إلى سيدنا عيسى وكان - عليه السلام -
يسنده إلى نفسه فيقول : (وَأَخْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) (١) .

ولا شك أن من استغاث بالولي أو النبي لم يستغث به على أنه
شريك لله أو يفعل بغير إذن الله .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٩ .

حتى لو فرضنا أن ذلك لم يكن حاضراً في نفسه فهو كما من غيرها
بمقتضى قوله : (لا إله إلا الله) فهو بمنزلةك إذ أخرجت وزيراً أو أميراً
أن يفعل لك شيئاً غير مستحضر ما يقتضيه التوحيد من كون الله خالق
كل شيء وإليه يرجع الأمر كله ، وهذا الوزير أو الأمير لا تفك لنفسه
- فضلاً عن غيره - زعماً ولا ضماً .

فلا تجعل ذلك منك شركاً بوجه من الوجوه تعويلاً على الكامن
في نفسك من انفرادة تعالى بالملك والملكوت في الحقيقة ، وأن الذي
ترجوه إنما هو متصرف بتصرف الله تعالى وأن الله هو الذي ملكه
ما يتصرف فيه .

ولحكمة ما جعل العباد مراتب محتاجاً بعضهم لبعض كما قلنا ،
فلماذا تجعل الطالب من الأنبياء والأولياء شركاً ، ولا تجعله مشركاً
عندما يطلب من الوزير والأمير ، بل من الفاجر والكافر ؟ والمدرك
فيهما واحد ، فإن الله لا شريك له في أمور الدنيا ولا في أمور الآخرة ،
فإما أن تعتبر لظاهر وتجعله شركاً فيها ، وإما أن تعتبر الباطن وتجعل
ذلك من باب الأسباب والمسببات التي هي نظام العالم ، وسنة الله في
خلقه على ما شرحناه .

فإن كان لديك من صريح التوحيد ما يثبت الأسباب من نظرك
بالكلية ويجعلك تتجىء إلى الله مباشرة بلا توسط أحد كان لك ذلك
« ولكنها مرتبة مخصوصة لقوم مخصوصين » وقد جاء الدين للناس
جميعاً مراعيًا استعدادهم مكتفياً بما تكنه ضائرتهم من التوحيد ، بل
عرفنا أن هناك مقربين وغير مقربين وهناك من تجاب دعوته وترجى

شفاعته ومن ليس كذلك . ولهذا كان - صلى الله عليه وسلم - الشفيع الأعظم في الآخرة ، وبعده الأنبياء والأولياء والعلماء كما جاء في السنة الصحيحة .

ثم نقول بعد ذلك : إن المتوسل إلى الله بالنبي والولي معترف بمقتضى توسله - أن المعطى والمانع إنما هو الله تعالى ولكن يقول : إن الولي أو النبي أقرب إلى الله مني ، وله عند الله جاد وحرمة وذلك حتى لا نزاع فيه « ولذلك يشفع النبي - صلى الله عليه وسلم - للخلائق يوم القيامة وكذلك الأنبياء والأولياء والصالحون على ما شرحنا » .

وفي إمكان روح الولي أن تدعو له وتطلب من الله قضاء حاجته .

والأرواح عند المسلمين باقية بعد الموت ولها أفعال وأقوال في البرزخ ، وطالما جاءت في المنام فأرشدت المسترشدين وأغااثت الملهوفين مما لا يمكننا الخوض فيه الآن لسعة فجاجه ، وتلاطم أمواجه .

وإن شئت فانظر ما كتبناه في (حياة الأنبياء) بمجلة الأزهر ص ١١٦ من الجزء الثاني من السنة الثالثة ، ومن ذلك كلمة وجيزة بمجلة الإسلام ص ١٤ من العدد ٤٢ من السنة السادسة .

ولا نزال نقول : ما الفرق بين الطلب من الأنبياء وغيرهم من أهل الدنيا ، وهناك فرق بين أمور الدنيا وأمور الآخرة ، وبين الأحياء والأموات عند المسلمين الذين يعتقدون بقاء الأرواح وعدم فناها بمقتضى ما دلت عليه الأحاديث المتواترة ، عذاب القبر ونعيجه وفي حياة الأنبياء ،

ويكفيك ما ورد في حديث الإسراء والمعراج إن كنت لم تطلع على غيره فقد جاء فيه عن موسى و آدم وإبراهيم عليهم السلام ما فيه متنع وكفاية ، بل جاء في كلام الفلاسفة الأقدمين من قبل الميلاد المسيحي ما يشفي ويكفي . وقبيح والله بالموثن أن ييأس كما يئس الكفار من أصحاب القبور .

وإن شيئا اعترف به الفلاسفة غير المسلمين ووصلوا إليه بعقولهم السليمة قبل إخبار الرسل به ، قبيح على من تزيا بالإسلام وسمع ما جاءت به الرسل أن ينكر ما اعترف به غير المسلمين .

ولنسق لك بعد ذلك كله حديث صحيحا هو نص في الموضوع إلا عند من سلب العقل أو حرم نعمة الإنصاف . أخرج النسائي في سننه ، والترمذي في صحيحه ، وابن ماجه ، وغيرهم . « أَنْ أَعْمَى أَتَى إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنِّي أُصِبتُ فِي بَصْرِي ، فَأَدْعُ اللَّهَ لِي فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَسْتَشْفِعُ بِكَ فِي رَدِّ بَصْرِي اللَّهُمَّ شَفِّعْ النَّبِيَّ فِيَّ وَقَالَ : فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهُ » .

ولنقتصر اليوم على هذا ونؤخر الجواب عن بقية الأسئلة إلى فرصة أخرى نسأل الله التوفيق والرشد والمعونة بمنه وكرمه

التوسل^(١)

— حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الإمام مفتي الأنام ومرجع العلماء الأعلام الشيخ يوسف الدجوى من جماعة كبار علماء الأزهر الشريف حفظه الله تعالى وأدامه آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد : فنظرا لثقتنا بفضيلتكم وبقيننا بأنكم مرجع المسلمين جعلنا مولعين ببيانكم للأحكام الدينية وإفتائكم الوضاء للأمر الشرعية ، فأرفع لفضيلتكم السؤال الآتى راجيا التكرم بمسرة الإجابة عليه ولكم الشكر العظيم .

أهل التوسل جائز أم غير جائز؟ وهل هذا الحديث الآتى صحيح يجوز العمل به أم لا؟ وهو « توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم » تفضلوا بالجواب لازلم المنهل العذب والينبوع الفياض يهتدى بهديكم ويرجع إليكم .

عبد الحفيظ ابراهيم اللازقى

بيروت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

وبعد فقد جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع .

وقد كتبنا فى التوسل بعدة مجلات ، أما اليوم فلا يمكننا أن نكتب فيه إلا كلمة موجزة للغاية فنقول : إن العقل والنقل متفقان على أن

التوسل جائز ونافع ، أما النقل فيكفي فيه الحديث الثابت عند المحدثين
(حتى الشوكاني الذي هو من أئمة ما نعى الوسيلة) وهو حديث عثمان
ابن حنيف الذي تشفع فيه ذلك الضرير بالنبي - صلى الله عليه وسلم -
ثم دخل عليهم قبل أن يتفرقوا وقد رُدَّ إليه بصره .

ومانعوا الوسيلة لا يخجلون ولا يتورعون من نسبة المسلمين كافة
في عصور الإسلام المختلفة إلى الشرك ، ولو كان التوسل شركا لكان
عمر بن الخطاب عندما قال : « اللهم إنا نتوسل إليك بالعباس »
مشركا .

ولا أدري كيف يتصور الإشراك والمتوسل معترف بأن انفاعل هو الله
وإنما يتوسل إليه بحبيبه لمزيد قربيه ورفعة منزلته ، وهذا مما لا شك فيه ،
أو ليدعو له فإنه حتى تعرض عليه أعمالنا ويستغفر لنا كما بينا ذلك
أتم بيان في بعض ما كتبناه .

والعجب أنهم يقيسون التوسل على عابد الوثن ، ويصرحون أن
تعبور الأنبياء والأولياء والصالحين أصنام وطواغيت يعبدونها المتوسلون
ويشركونها مع الله في العبادة .

وقد أفاض ابن القيم وهو من أئمتهم في (كتاب الروح) في عمل
الأرواح حتى قال : « إن الروح الكبيرة كروح أبي بكر تهزم جيشاء ،
بأسره » وهل يعتقد أحد من المؤمنين أن مع الله إلها آخر ، وكيف
يكون ذلك مع إقراره بالوحدانية واعتماده اعتقادا جازما أن الله واحد
لا شريك له ، وإذا كان يعتقد أن المتوسل به إنما يدعو له أو يشفع له

كما يشفع لنا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وكما يستغفر لنا الان ، ويرد علينا السلام « بل كما ترد الأموات كلها السلام » فأى ضرر عليه في ذلك .

بل نقول : لو فرضنا أنه يفعل لنا شيئاً بنفسه فإنما يريد أنه يفعلها بإذن الله على سبيل التسبب بما أعطاه الله من المواهب التي ليست عندنا كما يفعل الحي ذلك بإذن الله على سبيل التسبب أيضاً .

ونحن نعتقد أن الحياة الروحية البرزخية أقوى من الحياة الروحية المادية ، ولا فرق عندنا بين حياة مادية وحياة روحية وإلا فلماذا يلتجئون إلى المخلوقات في أمورهم ، فهل اعتقدوا أنهم آلهة مع الله يفعلون بغير إذنه أليست أمور الدنيا والآخرة كلها لله وحده « أم معه آلهة أخرى في الدنيا دون أمور الآخرة » فإن كان كل طالب من غير الله على أى وجه من الوجوه مشرکاً فهم أول المشركين وإن كان لا يكون مشرکاً إلا إذا اعتقد أنه يفعل بغير إذن الله فالجميع مؤمنون بأن هذه العقيدة المكفرة ليست عند أحد من المستغيثين بالإنجليز فضلاً عن المستغيثين بأحباب الله فليختاروا لأنفسهم ما شاءوا .

والخلاصة بأن هؤلاء قوم جاهلون مجازفون بتكفير المؤمنين والتكفير شيئاً عظيم لو كانوا يعلمون :

وقد أثبت الشوكاني التبرك بالآثار في شرح نيل الأوطار ، ولا بن لقيم وهما من أئمتهم في ذلك العجب العجاب ، ولكنهم ماديون بنظرتهم لا يؤمنون بعمل الأرواح ولا حياتها على الرغم من التواتر في ذلك كما ينس الكفار من أصحاب القبور :

ولاننكر أن بعضهم قد قرأ شيئاً من السنة وزاول بعض كتب العلم ولكنه كان كالمريض الذي يأكل ولا يهضم فكان الأكل ضرراً عليه أو سبباً نهلاكه «والعلم كالبحر فمن لا يحسن السباحة فلا بد أن يغرق»

أما حديث «توسلوا بجاهي» المذكور في السؤال فستكلم فيه ولسنا في حاجة لإثباته على أن حديث عثمان بن حنيف الذي أشرنا إليه يفيد هذا المعنى كل الإفادة ، وفيه أمره - صلى الله عليه وسلم - بأن يقول : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ إِلَى آخِرِهِ» فماذا بقى بعد تعليمه - صلى الله عليه وسلم - وأمره بعد العمل بذلك في حياته وبحضرتة - صلى الله عليه وسلم -

ولا يفترنا أن نقول : إن القرآن تارة يسند الأفعال إلى أسبابها والقائمين بها ، وتارة يسندها إلى مسبب الأسباب الذي إليه يرجع الأمر كله سبحانه وتعالى ، فتارة يقول : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) ^(١) وتارة يقول : (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ) ^(٢) ويقول : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) ^(٣) إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

(١) سورة الزمر ، من الآية ٤٢ .

(٢) سورة السجدة ، من الآية ١١ .

(٣) سورة النحل ، من الآية ٢٨ ، ٣٢ .

الغيرة على الدين بمناسبة كتاب الدارمي وما فيه من التجسيم

بمناسبة ما هو منظور الآن بين يدي جماعة كبار العلماء من البحث في كتاب الدارمي المسمى ، «رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد» وما صدره الشيخ حامد من تلك المقدمة المجسمة التي تدعو إليه وتحمل على الحرص عليه . رأيت أن أكتب هذه الكلمة ليتبين أمر الكتاب :

إن كتاب الدارمي المذكور هو شر الكتب ولا يجوز نشره بين الناس فإن فيه من العقائد الضالة ما استسمعه .

ولكن منينا بطائفة ليس لهم شغل في دروسهم ومساجدهم وما يختارون من الكتب والمطبوعات إلا ما يفسد عقائد العامة ويحدث القلق والتفريق ؛

وقد نشروا قبل ذلك «كتاب العلو للذهبي» مع ما يكتبون من تلك المقدمات المرغبة المشوقة على نهج ما يفعل المشرون .

ولست أدري أذلك لقصد إضعاف العقائد وإفساد القلوب . أم ذلك للجهل المركب والمادية التي غرقوا فيها ولم يعرفوا شيئاً سواها ؟ وإنه لمن أول الواجب على العلماء أن يعرفوا الناس ضرر هذه الكتب ولندع هذا وقد كتبنا فيه مرارا . ولنخض غمار الموضوع حتى يعاين كل إنسان الكتاب بنفسه ثم يرجع إلى عقله وحسه .

مواضع من كتاب الدارمي :

يقول في «صفحة ٤» رداً على بشر المريسي مانصه : «إنه يجهل مكان واحده» يعنى الله سبحانه وتعالى ويقول (في ص ٢٠) : «الحى القيوم يتحرك إذا شاء وينزل ويرتفع إذا شاء ويقبض ويبسط إذا شاء ويقدم ويجلس إذا شاء لأن أماره ما بين الحى والميت التحرك ، كل حى متحرك لامحالة » . هذا نص كتاب الدارمي ، وقد غاب عنه أن ذلك من أحكام الأجسام وهو مستحيل على المنزه الذى ليس كمثله شئ

ويقول . في (ص ٢٣) : والله تعالى له حد ولكانه - أيضاً - حد ، وهو على عرشه فوق سمواته ، وهذان حدان اثنان وكل أحد بالله وبمكانه أعلم من الجهمية . وهذا نص كلامه ويتكرر فى الكتاب مرات ، وهو كلام لا يدع مجالاً لتبرئة قائله من التجسيم . وما التجسيم إلا وثنية صريحة . فتباً لمن يحاول هندسة معبوده هكذا بالذراع والباع .

ويقول فى (ص ٢٥) فى آدم-عليه السلام- : خلق آدم بيده مسيساً ويتكرر هذا أيضاً فى الكتاب فتراه يحمل خلقه تعالى لآدم على مزاوله الطين بالجارحة . وهذا جهل فاضح وكفر مكشوف وذوئة . سخيف لا يرضاه من يزاول الطين من الصناع والفعلة .

ويقول فى (ص ٧٤) : إنه ليقعد على الكرسي فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع .

ويقول فى (ص ٧٩) مخاطباً لبشر المريسي : وأما قولك غير بائن باعتزال ولا بفرجة بينه وبين خلقه فقد كذبت فيه فضللت عن

سموات السبيل بل هو بائن من خلقه فوق عرشه بفرجة كبيرة ، والسموات السبع فيما بينه وبين خلقه الذين في الأرض .

ويقول في^١ (ص ٨٠) مامحصله : إن الله تمدح بانه يعلم غيب السموات والأرض وما يكون من نجوى أحد مع أحد إلا يعلمها ثم ينبئنا يوم القيامة بما كان منا ، ولولا أنه بعيد عنا بتلك المسافات لما كان في ذلك مدح ولا ثناء .

ويقول في (ص ٨٥) : ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم .

ويقول في (ص ٩١) : إذا غضب الله فاول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش وسرادقات العرش يجلدونه يثقل عليهم فيسبحة الذين يحملون العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة .

ويقول في (ص ١٠٠) لما قال الميرسي : ألا ترى أن من صعد على الجبل لا يقال إنه أقرب إلى الله مانصه : يقال لهذا المعارض المدعى .الا علم له به من أنباك إن رأس الجبل ليس بأقرب إلى الله من أسفله ويقول عن إسحاق بن المبارك من غير سند : إن رأس المغارة أقرب إلى الله من أسفلها .

ويقول في (ص ١٢١) : قد أجمعنا واتفقنا على أن الحركة والنزول والمشى والهرولة والاستواء على العرش وإلى السماء قديم .

وهل يقام لمن يتكلم بمثل هذا الكلام وزن . ولا أدري كيف يتصور أن الحركة قديمة وهي الانتقال من حيز إلى حيز .

ويقول في (ص ١٤٨) ردا على من قال في قوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ^(١)) أن المراد مجيء أمره فإن المجيء من مكان إلى مكان صفة المخلوق ، فقال له الدارمي : إننا نقول لهذا المعارض المغترى على الله قد فسرت هذه الآية على خلاف ما عني الله :

ويقول في (ص ١٨٢) : ويقال لهذا المعارض لجلجت بها حتى صرحت بأن الله ليس على العرش وإنما عليه آلاؤه ونعماءه .

ثم قال الدارمي : وملك إذا لم يكن بزعمك على العرش إلا آلاؤه ونعماءه وأمره فما بال العرش يئط من الآلاء والنعماء وكأنها عندك أعكام الحجارة والصخور والحديد فيئط منها العرش . فانظر إلى جهل هذا الجاهل وقلة ذوقه حتى يرى أن العرش لا يئط إلا من ثقل الله تعالى . ونقول له أيضا : كانه عندك أعكام الحجارة والصخور والحديد مثل ما قلت في النعماء والآلاء .

ولنغتنم هذه الفرصة فنقول : إن ابن عساكر له مؤلف خاص في رد حديث الأطيظ وأنه رواية محمد بن اسحاق المدلس الذي لا تقبل عنعنته كما في حديث الأطيظ الذي رواه بالنعنة . ومن اعتبر حديث الأطيظ قال : إن المراد خضوع العرش لله تعالى لا ثقل الحق عز وجل كما يقول هولاء الاغبياء .

وقد تنعتهم تلك الطائفة التي هي من حمير البشر كما بيناه في بعض ما كتبناه تحت هذا العنوان ، إلى غير ذلك وهو كثير .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٠ .

فماذا تكون حال من يرتضى هذا الكتاب أو يوصى به أشد الوصية
أو يطبعه للدعوة بما فيه . وإجمال القول : إن دنا هو توحيدهم الذى
يدعون إليه ويحرصون عليه .

ولنضم إلى هذا ما هو آية فى قلة ذوقهم وبرهان واضح على عظيم
جهلهم ، ذلك أن الدارمى يعبر عن^٣ «بشر الميسى» «بالمافون» فيعبرون
عندما يصلون إلى تلك الكلمة «بالمابون» ويكررون ذلك مرارا عديدة .
وإني أدع لك شرح هذه العقلية وهذا الوجدان وهذه الضمائر ، ولكن
لاغرابة فهم من غريب البشر كما قلنا من قبل .

ولنختم كلمتنا هذه بأن كتاب الدارمى الذى هو موضوع اليوم مملوء
بصنوف الزيغ والإلحاد ، والواجب على أولى الأمر أن يقوموا فى
وجه ناشريه ومحبيذيه المعتقدين ما فيه ويعاملوهم بما يوجبه عليهم التنزيه
غيرة لدين الله ومحافظه على عقائد المسلمين .

أسأل الله أن يتدارك الأمة المصرية بلطفه ويوقظ رؤساءها لما يصلح
أمرها فى الدين والدنيا بمنه وكرمه

التفكر أسُّ السَّعادة^(١)

رأيت أن أجعل موضوع اليوم الكلام في التفكر وفائدته ونتائجه وبيان أن سعادة الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالتفكر الصحيح .

ولذلك حث الله عليه وناط الخير كله به في الآيات العديدة .

وقد قال زين العابدين بن الحسين - رضى الله عنهما - «عجبت أن يرى مخلوقات الله وما فيها من العجائب ثم يشك فيه ، وعجبت لمن يرى النشأة الأولى ثم يشك في النشأة الآخرة ، وعجبت لمن يرى الدنيا وفنائها ثم يؤثرها على الآخرة مع صفائها وبقائها» أو كما قال .

ورأيت أن سبب ذلك كله هو الغفلة وعدم التفكر ، مع أن الأمر في غاية الوضوح : فالسماوات شاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورها في طلوعها وغروبها ، والأرض شاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها ، وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها : وأمطارها وثلوجها ورعداها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

ولا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولانبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها ، وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة . وكل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية

يدال على جلاله وكبريائه وحكمته «فسبحان الذى بيده ملكوت كل
شئء وإليه ترجعون» (١).

وقد حث القرآن على التفكير فى هذه الآيات بأبلاغ ما يكون وأقصى
مبتصور ، مثل قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (٢) إلى غير ذلك من الآيات .
(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ) (٣) ومع ذلك فنظرك فيك يكفيك ، ففبك من العجائب
الدالة على عظمة الله تعالى . وما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر
عشيرته وأنت غافل عنه . ولا يزالون يكتشفون من أسرار ما أودع
الإنسان من العجائب حتى الآن وإلى ماشاء الله ، مثل الغدد وأعمالها
ومثل المخ ونقطه التى نيط . بكل منها وظيفة مخصوصة مما يحير اللب
ويهيج القلب .

فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك
وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : (وَفِي
أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٤) وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال :
(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ *
ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) (٥) ويقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

(١) سورة يس ، الآية ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥ .

(٤) سورة الفارجات ، الآية ٢١ .

(٥) سورة عبس ، الآيات ١٧ - ٢٠ .

إِذَا أَنْتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَشِرُونَ^(١) ويقول : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى
ثُمَّ كَانَ عَنَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)^(٢)
ويقول : (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)^(٣) .

وقد رأيت منذ زمان بعيد أن بعض الفلاسفة الأوربيين قال :
« يكفيني في الدلالة على الله تعالى وجود الأنثى بجانب الذكر » وذلك
ما أشار إليه القرآن العزيز في قوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ)^(٤) .

فانظر أيديك الله إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت
ساعة ليضرها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب
من الصلب والثرائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى ، وألقى الألفة
والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع
وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم
الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق المولود من
النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل
النطفة وهي بيضاء مشرقة علقه حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم
كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب
والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب

(١) سورة الروم الآية ٢٠

(٢) سورة القيامة ، الآيات ٣٧ - ٣٩ .

(٣) سورة المرسلات الآية ٢٠ .

(٤) سورة الروم ، الآية ٢١ .

والعروق والأعضاء الظاهرة : فدور الرأس وشق السمع ، والبصر ،
والأنف ، والفم ، وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها
بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة
من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ،
كل واحد على شكل مخصوص ، ومقدار مخصوص ، لعمل مخصوص ،
ثم كيف ركب كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب
العين في سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ، وهيئة مخصوصة ،
لو فقدت طبقة منها ، أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن
الإبصار .

فلو ذهبنا إلى أن نصف مائى آحاد هذه الأعضاء من العجائب
والآيات لا نقضت فيها الأعمار .

أدلة القرآن

وأدلة العلماء على وجود الله

رأينا أن نقارن بين ما جاء في القرآن الشريف من الأدلة وما يذكره العلماء من الاستدلال على وجود الله تعالى ، ليظهر ما بينها من لفرق ، فنقول :

إن القرآن إذا أراد أن يستدل على شيء سلك أوضح الطرق وأسهل لناهج حتى يريك الأمر محسوساً ، والحجة واضحة جلية ، مع غاية لإيجاز والإعجاز . وانظر إن شئت إلى استدلاله على البعث ورد كلام المنكرين في قوله تعالى : (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)^(٢) فأجاب بقوله تعالى : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)^(٣) فأتى بذلك القياس الجلي أو الأولوى مع الاختصار التام ، ورد ما عسى أن يكون من الشبه فقال : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

وقد قال ابن سينا : « كنت أشتهى أن يطلع ارستطاليس على هذا الاستدلال البديع » . وما أكثر هذا في القرآن الكريم .

وانظر إن شئت إلى الرد المنفحم والاستدلال البالغ على وجود الحق سبحانه وتعالى حيث يقول إلزاماً للمنكرين : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ

(١) مجلة الأهر - المجلد الرابع عشر - الجزء الثاني - سنة ١٣٦٢ .

(٢) سورة يس . الآية ٧٨ .

(٣) سورة يس ، الآية ٧٩ .

شَيْءٌ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ^(١))
 ويقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
 رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ^(٢)
 ويبين حال أولئك المنكرين بقوله : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ
 إِلَّا يَخْرُصُونَ) ^(٣) . وما أبدع ما يقول عز وجل : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ
 لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ^(٤) .

وإن شئت فاستحضر الوجدان ، وتأمل في هذا البيان الذي يصور
 الأمر أوضح من الحس ، وأجلى من الشمس في قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ
 الْأَرْضُ الَّتِي بَدَعْنَا خَلْقًا أُولَئِكَ نَفَعْنَا مِنْهَا غُرُبَاتِهِمْ وَأَرْحَابَهُمْ وَأَلْجَأْنَا
 بِهَا الْبَاطِلَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَلْجَأْنَا الْبَاطِلَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَلْجَأْنَا الْبَاطِلَ إِلَى
 الْبَاطِلِ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) ^(٥) . ثم ينزله الله تعالى
 ذاته بما ينطق بالوحيته وعظمته فيقول : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
 كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) ^(٦) . ثم يعمد
 إلى نوع آخر من الأدلة فيقول : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ
 فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) ^(٧) . وقد أتى في الآية الأخرى بما هو أوسع من
 ذلك فقال :

(١) سورة الطور ، الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآيات ١٧ ، ٢٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٦ وسورة يونس الآية ٦٦ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٤١ .

(٥) سورة يس ، الآيتان ٣٣ - ٣٤ .

(٦) سورة يس ، الآية ٣٦ .

(٧) سورة يس ، الآية ٣٧ .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ
تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(١) . ويقول في بيان القدرة القاهرة
والحكمة الباهرة : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ)^(٢) إلى أن يقول : (لا الشَّمْسُ
يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ)^(٣) . ولا ندرى كيف تجرى ، ولا كيف رتبت ونظمت
في مداراتها بحيث لا يبغي بعضها على بعض إلى آخر ما يبهز العقل
ويدهش اللب (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)^(٤) .

وما أراد الله بذلك كله إلا أن يلفت نظرك إلى أسرار العوالم ،
وما احتوت عليه من أدلة وبراهين لو تأملها الإنسان حق التأمل لأصبح
مبهوتاً من تلك القدرة ، ولصار فانيا في تلك العظمة التي لا تحيط بها
العقول فيقول بلسان حاله أو لسان مقاله : سبحانك ، لا نحصى ثناء
عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك، وإن شئت فانظر لمثل قوله
تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَّلَكَ . نَبِيَّ أَى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)^(٥) . ويقول : (أَيْحَسِبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً

(١) سورة القصص ، الآيتان ٧١ . ٧٢ .

(٢) سورة يس ، الآيتان ٣٨ - ٣٩ .

(٣) سورة يس ، الآية ٤٠ .

(٤) سورة الزمر ، الآية ٦٧ .

(٥) سورة الانفطار ، الآيات ٦ - ٨ .

فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) (١) .

ولعمر الحق ، أن من يتأمل في صورته وتركيبه وأصل خلقته لا بد أن يأخذ العجب منه كل مأخذ ، حيث يرى الوظائف مفرقة على الأعضاء ، لكل وظيفة عضو خلق لها وقام بأدائها . كل ذلك في نطفة قدرة لا يخفى حالها عليك . فانظر إلى وظائف المعدة والأمعاء والكبد والرئتين والفم والعينين والأذنين واليدين والرجلين والمخ والمخيخ ، إلى آخر ما أودعه الله فيك . (وفي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٢) . وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل ، ولولا ذلك لخرب العالم » وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ) (٣) . وقال فيلسوف آخر : « يكفيني في الدلالة على الله (هدب العين) فضلا عن تركيبها العجيب وطبقاتها لبديعة » ، والله در الغزالي حيث يقول :

قل لمن يفهم عنى ما أقول قصر القول فذا شرح يطول

إلى أن قال :

أنت أكل الخبز لا تعرفه كيف يجرى منك أم كيف تبول

(١) سورة القيامة ، الآيات ٣٦ - ٤٠ .

(٢) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(٣) سورة الروم ، الآية ٢١ .

وأقسم بحياة العقل و قدسية العلم ، أن أمر السبيلين في الإنسان
لمن أعجب الأشياء التي توجب شكر خالق الأرض والسماء . فسبحان
العظيم القدير اللطيف الخبير من إليه يرجع الأمر كله وبيده ملكوت
كل شيء وإليه ترجعون (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ
عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١) .

ولقد يكفيك هاتان الآيتان الجليلتان : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ،
تَوْتَى الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ ،
وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ،
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٢) . وإن
نشئت فاقراً قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا
أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)^(٣) . فبقارن بين
ذلك وبين ما يسلكه العلماء من طرق الاستدلال مع الله تعالى من ذكر
لمطالب السبعة : « زيد ما قام ما انتقل ما انفك » إلى آخر ما تراه
في تلك الكتب ، وإني أعيدك من تلك التشكيكات التي يذكرونها
في مسألة البعث وإعادة الأجسام غافلين عن جهلهم الكبير وقدرة
ربهم العظيم :

(١) سورة الصافات الآيات : ١٨٠ ، ١٨٢

(٢) سورة آل عمران ، الآيات ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة يس ، الآيات ٧١ - ٧٣ .

من أنت يارسطو ومن أفلاط قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفراش رأى السراج وقد توقد
ذنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعد

أو نقول :

دعوا الدعوى فإن العلم بحر وما أوتيتمو إلا قليلا

ولنختم كلمتنا هذه بذلك الدعاء النبوى

اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته
في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب
عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء
حزني ، وذهاب همي وغمي . وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

الجزء الثاني

النُّبُوءَات

نبوتنا صلى الله عليه وسلم

معجزاته الحسية

نريد أن نتكلم في مقالنا هذا عن المعجزات الحسية التي هي من طرق إثبات النبوة على ما ذكرنا في مقالنا المنشور في العدد الأول. وأن خصومنا اليوم فريقان : فريق الماديين الذين وقفوا عند الظواهر ولم يصلوا إلى رتبة التحقيق في الأشياء حتى في علم الطبيعة نفسه الذي يدعون أنهم علماءؤه وبيدهم لواؤه .

والفريق الثاني : هو شرذمة تنتمي لعلماء الدين ، وما هم منهم في كثير ولا قليل ، يريدون أن يُعرفوا بالتجديد وعدم الجمود على ما يزعمون فيتظاهرون بأنهم عرفوا ما يقول العصريون ، فتراهم يلهجون بذكر ما يلوكة الماديون على غير علم ولا بصيرة من ذكر النواميس وأنه لا يمكن خرقها ، ويزيدون على ذلك ما لم يحسنوا فهمه من نصوص القرآن الشريف مثل قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)^(٢) فذكر أنها عند الله ولم يقل إنه جاء بها « وستعلم الجواب عن ذلك » .

(١) مجلة الأزهر - العدد السابع - المجلد الأول - رجب سنة ١٣٤٩

(١٧)

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٠

وقد قلدوا في هذا جهلة المبشرين الذين يرددون ذلك في جميع كتبهم التي يلبسون بها على ضعفاء العامة ، فهم في هذه النزعة وهذا الاستدلال مقلدون للمبشرين من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، كما كانوا في تلك مقلدين لجهلة الطبيعيين حياً في الظهور وطلباً للشهرة ، فهم غريقون في التقليد لشر الطوائف من حيث يظنون أنهم يجتهدون أو مجددون .

وهكذا الحركات كلها عندنا في الشرق معكوسة عكساً سار بنا إلى الاضمحلال الذي جعلنا في أخريات الأمم أو على حافة العدم .

الفريق الأول

أما الفريق الأول ، وهو فريق الماديين الذين جمدوا على القشور وظنوا أنهم عرفوا كل شيء ووصلوا إلى كل شيء ، فقد أنكروا المعجزات الحسية لأنها تناقض النواميس الطبيعية المقدسة التي لا يجوز خرقها وهي أزلية أبدية على ما يزعمون ، دعاوى خيالية لم يعضدها الحس ولا قام عليها البرهان ، ولكنها نزعات نفوس حمقاء وخيالات رغووس طائشة لم تستمد من الوجود ولا استندت إلى البرهان ، وإنما استمدت من عقول أربابها المنحرفة ، واستندت إلى ما يخيله استعدادهم الناقص ، لأنهم لا يأخذون معلوماتهم إلا مما شاهدوه وألفوه ، وإذا تخيلوا كان خيالهم مرتكزاً على تلك المعلومات التي انتزعوها من الحس ويعجبني قول بعضهم : « ان الخنفساء لو تخيلت خالقها لتخيلته خنفساء كبيرة » .

ولنا نقول لهم أولاً هل أحظتم بكل النواميس علماً؟ أليس من الجائز بل النواقح أن يكون هناك ناموس أو نواميس لم تحملوا بها؟ ألم يكن من قبلكم من علماء القرن السابع عشر والثامن عشر يتبجحون بتبجحكم ويدعون دعاويكم غير حاسبين للمكتشفات التي اكتشفت بعدهم وما أكثرها حساباً، بل نقول: ألم يكن الأقدمون يزعمون أن العناصر أربعة وأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة، وكانوا يحلون بذلك كل شيء في الوجود.

وما كان يدور بخلدكم أن العناصر تصل إلى السبعين أو الثمانين، ومن يدري ما يجيء به المستقبل؟ فلعلها تصل بعد إلى أكثر من ذلك بكثير، وما كانوا يظنون أن نظرية الجواهر الفرد ستكون موضع الهزؤ والسخرية في القرن العشرين وأنه ستحل محلها نظرية الالكترونات الجديدة.

وعلى كل حال فمن ذا يستطيع أن يدعى أنه أحاط علماً بكل نواميس الكون وما فيه، ولو كان كذلك لبطل الاكتشاف والبحث ووقف تقدم العلم الذي لا آخر له.

ولماذا لا يقولون ما يقول «نيوتن» مكتشف الجاذبية وأحد أساطين العالم في الفلك: «لسنا إلا كالأطفال في جزيرة على شاطئ بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من الصدف والقواقع على حين أن الجواهر النفسية في قعر ذلك البحر». أو ما يقول غيره ممن عرفوا قدر العلم: «الفرق بيننا وبين آباؤنا أنهم كانوا يعتقدون أنهم علماء، أما نحن فنعتقد أننا جهلاء» إلى آخر ما اعترف به المنصفون

من أكابر علماء الطبيعة المخلصين الذين ليسوا فيه زعانف ولا مقلدين ولا يريدون أن يغشوا أنفسهم أو يغشوا الناس وربما أفردنا لذلك مقالا خاصاً — إن شاء الله .

ثم نقول لهم : من أين لكم أن النواميس هو المؤثرة في هذا العالم وما شاهدتم إلا حدوث بعض الأشياء عقيب بعض ، أفيدل ذلك على لتأثير والفاعلية ؟ أم هذه مقارنة أو معاقبة لا غير ؟ أما العلة الصحيحة أو الفاعل الحقيقي فشيء وراء ذلك كله . وما تلك النواميس الا قوانين قد وضعها الخالق في مخلوقاته لتسير عليها حتى يتم ما أراد منها ، ولا يعقل تقدمها على الأشياء حتى توجد ، ولا قيامها بنفسها حتى تكون فاعلة فيها . وقد يحسون بذلك فيعبرون بكلمة السنن بدل النواميس ، وستسمع كلام أكابرهم بعد في مقال آخر ، فما الذى يدرهم أن قوة الفاعل المختار تقف عند ذلك الحد ولا تتعداه مع أنهم يعتقدون أن في الطبيعة قوى لا تحد ولا تعد . ويحسن في هذا المقام أن نورد لك تلك الحادثة التى لو ذكرها أحد الشرقيين لقالوا إنها خرافة . وهاك ما جاء بدائرة المعارف البريطانية :

كريستيان هينسريس هينيكين

طفل عجيب ولد في ٦ فبراير سنة ١٧٢١ بمدينة لوبره^(١) استطاع الكلام في سن عشرة أشهر ، ولما بلغ من العمر عاماً واحداً حفظ قصص البنتاتوش^(٢) عن ظهر قلب ، وفي سن سنتين أتقن التاريخ

(١) مدينة لوبره بشمال ألمانيا بمقاطعة لوبره المتاخمة لهولشتين .

(٢) البنتاتوش اسم للأجزاء الخمسة الأولى من التوراة .

المقدس ، وفي سن ثلاث سنين أجاد معرفة التاريخ والجغرافيا القديم منها والحديث الدينى والدنيوى فضلاً عن تكلم الفرنسية واللاتينية ، وفي سن الرابعة أخذ في دراسة الدين والتاريخ الكنسى ، وقد هرع الناس أفواجاً إلى لوبره لرؤية هذا الطفل العجيب الذى يباحث في مختلف العلوم التى درسها . ولكنه مات في ٢٢ يونية سنة ١٧٢٥ في سن الرابعة من عمره ^(١)

فعلى أى شىء ينكرون المعجزات ؟ !! ، وهب أنهم عرفوا شيئاً مما شاهدوه في تلك الأرض التى هى من أصغر العوالم ، ألم يبق مما أَلِم يعرفوه الشىء الكثير أو الذى لا نهاية له ؟

فإن العوالم لا يدرون لها نهاية «باعترافهم» وقد ذكروا في سير النور وسرعته - وأنه مع تلك السرعة المدهشة لا يصل إلينا من بعض الكواكب إلا بعد مئات السنين أو ألوف السنين - ما يوجب الدهش الكلى والقبوع التام في إحدى زوايا تلك الأرض الصغيرة التى هى أقل من جحران الحشرات والديدان بالنسبة لهذا العالم الذى لا يعلمه غير خالقه .

أفلا يجوز بل يجب أن يكون قد فاتهم من العلم ما يناسب حفاتهم المتناهية وعظمة ذلك الكون غير المتناهى على ما يقولون هم أنفسهم .

(١) ويشبه هذا ما ذكر في جرائدنا المصرية منذ ستين تقريباً من أن غلاماً في تركيا طلب أن يتزوج ، وبعد فحص الأطباء سمح له بذلك على خلاف القانون التركى . وما وجدوه في ذلك الغلام خارقاً للعادة أن قلبه كان في الجهة اليمنى وكبدته كانت بالجهة اليسرى مما حير الأطباء هناك .

على أن علماء الأرواح بأوربة اليرم أصبحوا لا يعباون بتلك
الطنطنة الكاذبة ويثبتون من خوارق العادات ما يقلل من غلوائهم
ويقضى على كبرياتهم .

وفي أهل الهند من وصلوا بالرياضة إلى خوارق العادات والتفنن
في أنواع المدهشات ، لأن الأرواح الإنسانية كلها مخلوقة من عالم
آخر له حكم آخر ، ولا تشبه أحكامه هذا العالم المادى وأن كان بين
الأرواح الكاملة والأرواح الناقصة أبعد مما بين السماء والأرض .

وبين المعجزات وتلك الخوارق فروق من وجوه عديدة ، وإنما
نريد بهذا عندما نتكلم مع الماديين الذين لا يقولون إلا بالمادة ونواميسها
أن نفل من سلاحهم ونسفه من أحلامهم حتى ينتفض بناؤهم من
أساسه بقول من يجلوونهم ولا يخرجون عليهم .

ولنكتف من الكلام مع هذا الفريق اليوم بهذا . ولنا إليه عودة
ثم عودة - إن شاء الله - .

الكلام مع الفريق الثانى

أما الفريق الثانى - وهو فريق المجتهدين من إخواننا المجددين
العصريين المتشبهين بالماديين الذين يتذبذبون بين علماء القرن
السابع والقرن العشرين وبين نصوص الدين ونزعات الماديين ، فلا
إلى هؤلاء - ولا إلى هؤلاء فلنا معهم فى الرد طريق آخر يزيد على
ما رددنا به على الماديين .

فَنَقُولُ لَهُمْ وَهُمْ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ !
 إِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ النُّوَامِيْسَ مَقْدِسَةً لَا يَجُوزُ خَرْقُهَا رِضَاءً بِنَا قَالِ
 الطَّبِيعِيَّوْنَ أَوْ تَقْلِيداً لَهُمْ فَالْقُرْآنَ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ يَرِدُ عَلَيْكُمْ فِي مِثْلِ
 تِلْكَ الْآيَاتِ (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِيْنَ وَيُرِيكُمْ
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)^(١) (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ
 مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا)^(٢) (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ
 بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)^(٣) (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
 مُّبِينٌ)^(٤) (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ
 وَالنَّارَ لَهُ الْحَاقِدِينَ)^(٥) (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)^(٦)
 وَيَقُولُ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي
 فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ
 تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)^(٧) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ لِحَضْرَاتِكُمْ ، فَإِنْ
 أَنْكَرْتُمُوهُ فَقَدْ أَنْكَرْتُمْ صَرِيحَ الْقُرْآنِ .

وَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ بِهِ وَقَلْتُمْ إِنْ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي نَفْسِهِ وَلَكِنْ لَمْ يَقْعْ لِنَبِينَا
 —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— وَفَرَقْتُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ— وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ
 عَلَى غَيْرِ مَعْنَى مَعْقُولٍ وَلَا نَصٍ مَنقُولٍ .

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٣

(٢) سورة البقرة ، الآية ٦٥

(٣) سورة النمل ، الآية ٤٥

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٠٧

(٥) سورة سبأ ، الآية ١٥

(٦) سورة سبأ ، الآية ١٢

(٧) سورة المائدة ، من الآية ١١٥

قلنا لكم : إن معجزاته - صلى الله عليه وسلم - ثابتة بالتواتر الحقيقي أو المعنوي في مجموعها بل في كثير من آحادها ، ولا معنى لأزّ تسلّموا ذلك في حق الأنبياء ثم تتوقفوا فيه بالنسبة لنبينا - صلى الله عليه وسلم - .

وإذا رددتم ما في صحاح كتب السنة من ذلك بعد اعترافكم بجواز الوقوع وبحصوله للأنبياء السابقين على ما ينطق به القرآن وهو فرق لا نعقله .

قلنا لكم إن تلك النزعة توجب عدم الثقة بما رواه أولئك الأكابر ، وذلك يفتح باب فساد كبير وشر مستطير بل يوجب الخروج من الشريعة جماعاً وإبطال كل ما جاء عن الرسول من الأوامر والنواهي ، وهو انفلات من الدين كله .

فإننا إذا طعنا في البخارى مثلاً ولم نشق بمروياته - وهو أصح الكتب لزم ألا نشق بمن هو أقل منه ، وما وصلتنا الشريعة إلا على يد هؤلاء حتى عدد الركعات وكيفية الصلوات فيكون الدين كله غير موثوق به ، وهي نزعة من شر النزعات وجناية من أكبر الجنایات التي فتح بابها المبشرون ونخشى أن تتممها المجددون المجتهدون العصريون .

وأى فرق بين هؤلاء وبين الباطنية الذين أرادوا أن يخرجوا الناس من دين الله بتأويلاتهم وتشكيكاتهم ، فكلاهما رد الشريعة ، أولئك في

معناها وهو لاء في نصوصها . على أننا لا نأبى طريق سلفنا الصالح من علماء الحديث في النقد والتمحيص والتعديل والتجريح . ولكن الذى تمقته هو تلك النزعة الحمقاء وذلك الميزان المقلوب الذى لا يحركه سوى النزعات الضالة ولا يرجح إحدى كفتيه غير الأهواء الفاسدة . الى يجازف أربابها على غير علم صحيح ولا أبصيرة نيرة إن

على أن القرآن نفسه أثبت تلك الخوارق له - صلى الله عليه وسلم - فى مثل قوله : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ كَيْدًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) (١) وقوله : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) (٢) وقوله : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (٣) وقوله : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) (٤) إلخ إلخ . فلم يبق إلا الاحتمالات السوفسطائية . وستسمع فيها ما يكفى المنصف ويخجل المتعسف ، فكيف يتسنى بعد ذلك إنكار الخوارق له - صلى الله عليه وسلم -

والقول بأنه ليس له فيها غير القرآن تمسكاً بما تمسك به المبشرون تلبيساً وتضليلاً من مثل قوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّهَا آيَاتُ عِندَ اللَّهِ) (٥) مما ورود فى الآيات المقترحة التى جرت

(١) سورة الاسراء ، الآية ١

(٢) سورة القمر ، الآية ١

(٣) سورة الانفال ، من الآية ١٧

(٤) سورة النجم ، الآيتان ١٤ ، ١٥

(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٥٠

سنة الله في خلقه أن يهلك من اقترحوها إذا لم يؤمنوا بها ، والله لا يريد ذلك بالأمة المحمدية .

على أن أولئك المقترحين لو أرادوا الإيمان لوجدوا عليه دلائل نيرة وآيات باهرة ولكنهم متعنتون في كفرهم ، فلا ينفع معهم شيء . وقد قال الله تعالى في حقهم : (وَأِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) ^(١) فمثل هؤلاء لا تنفعهم الآيات المقترحات وإنما توجب استئصالهم وعلاكهم ، والله لا يريد ذلك ، فعسى أن يؤمنوا أو تؤمن ذريتهم . فلم يبق بعد ذلك إلا المكابرة المقوتة أو الاحتمالات الفارغة التي تفسد كل معقول ومنقول .

وقد متينا اليوم بمن يبدي من الاحتمالات ما يعقل وما لا يعقل دفاعاً عن نزعاته الخاصة وأهوائه المتغلبة . وكثيراً ما رأينا أرباب تلك النزعات عندما تقام الحجة لا يصغون إليها ولا يعرضونها على العقل والمنطق ، وإنما يفكرون فيما يقاومون به تلك الحجة ويدحضون به ذلك البرهان بمثل تلك الاحتمالات السخيفة . فهذه وجهتهم التي يترجهون إليها لا معرفة الحق ولا الإذعان له « ومن لا يقنعه إلا أن لا يقتنع فلا سبيل لأن يقنعه » .

وانقل كلمة عن تلك الاحتمالات الزائفة التي راج سوقها وعز سلطانها بنمضل غلبة الأهواء وكثرة الجهلاء ، فنقول :

(١) سورة القمر ، الآية ٢

الاحتمالات وأثرها المقوت

إننا لو استرسلنا في الاحتمالات التعصبية لما أمكن أن نصدق بخبر ملك من الملوك ولا نبي من الأنبياء ولا حديث واقعة من الوقائع ، ولبطل التاريخ واختلت المصالح والنظم بناءً على تلك الاحتمالات .

على أن مسألة المعجزات متواترة تواتراً يستحيل معه الاجتماع على الكذب من تلك الألوف المؤلفة شرقاً وغرباً ممن لا يعقل تواطؤهم على الكذب مع تباين أممهم وبلادهم ، ولو فرضنا أن كل واحد منهم ذكر خارقة من الخوارق فهناك أمر مشترك وقع عليه الاجتماع من تلك الطوائف كلها ، وهو أنه ظهر على يديه عليه السلام خوارق على الجملة بقطع النظر عن أعيانها ، مع ملاحظة أن كثيراً من المعجزات قد رواها العدول الثقات عن العدول الثقات المجمع على حفظهم وضبطهم وأمانتهم مما لو انفرد بروايته طريق واحد من تلك الطرق الصحيحة لوجب قبوله ، فكيف وقد تعاضدت وتضافرت كلها على شيء واحد حتى بلغت مبلغ التواتر الذي لا يمكن رده ولا الشك فيه كما بينته كتب الصحيح في دلائل النبوة .

ومن يتتبع الاحتمالات ويسترسل فيها مع الشك فقلما يصل إلى إيمان أو يظفر بإيقان .

وقد أنكروا الملحدون وجود الله تعالى بناءً على تلك الاحتمالات وهو (جلّ وعزّ أصل كل شيء وأظهر من كل شيء ولا يعقل بدونه وجود شيء

وفي الناس فريق يطعن في المحسوسات وهي هي . ويقول إنها لا تنفيذ العلم بناءً على أن الحسّ كثيراً ما يغلط ، فانك إذا كنت في الباخرة رأيت الشاطئ جارياً وترى حبة العنب في الماء كبيرة . إلى أمثال ذلك من غلط الحسّ ، وفي الناس فريق آخر أنكروا وجود كل شيء ، وقال إن الأشياء لا حقيقة لها بل هي خيالات ، وقد تعرض علمائنا للرد عليهم في كتب الكلام .

ومنهم من اختلط عليه الأمر وكثرت عليه الاحتمالات فقال في كل شيء « لا أدري » ويسمون عندنا باللا أدريّة . ولو أُتيح لك أن تطلع على كتب المذاهب والآراء لرأيت أنه قد احتدم الجدل وعظم النزاع في حقيقة العلم وهو المعلوم بذاته الذي يعلم به ما سواه ، ولكنه لما دخلته الاحتمالات واعبت الوسوس بنفوس الناظرين فيه كثر القيل والقال ، حتى أصبح الناس فيه على طرفي نقيض ، فقائل يقول : هو بدهي لا يحتاج إلى تعريف ، وقائل لا يمكن تعريفه لصعوبته وبعد حقيقته ، وفريق يقول : إنه هو المعلوم بعينه ، فالعلم بالنار هو عين النار ، والعلم بالماء هو عين الماء ، ولكن إذا حلت في الدهن كان لها أحكام أخرى ، وكذلك الخلاف في الوجود والوجود ، إلى غير ذلك مما منى به هذا النوع الإنساني بناءً على هذه الاحتمالات التي أوجبها الاسترسال مع الشكوك والأوهام مما يضحك الشكلي ويبكى الحليم بل مما يسلب العقل الإنساني خاصته والفترة البشرية صفاءها :

وقد قال بعض الحكماء : (إن من الناس من تفسد إنسانيته
فيصبح غير إنسان) وإذا لا تكون له فطرة سليمة يرجع لها ولا وجدان
صحيح يتحاكم إليه .

وإني أناشدك الله « وأرجو ألا تسأم » : لو قال لك قائل : أنا لا أتق
بخبير من الأخبار لأنه يجوز أن يكون المخبر كاذباً ويجوز أن يكون
قد اعتقد خلاف الواقع ويجوز أن يكون قد سها فقال غير ما يريد ،
ويجوز أن يكون قد تجوز فأراد غير الحقيقة ، إلى غير ذلك ولا وثوق
مع وجود تلك الاحتمالات التي يجوزها العقل ، بل لو قال أنا لا أتق
بشيء من تلك القواعد العلمية مثل علم النحو واللغة والصرف وأمثالها
لأن نقلتها عن واضعيها رجال معبودون يجوز عليهم الكذب والخطأ
والنسيان ، وهكذا نسبة كل قول إلى قائله وكل رأى إلى مرتبئه ،
فماذا يكون خطابك إياه ؟ وماذا يكون جوابك له ؟ وهل ترجو لمثل هذا
فلاحاً أو تنتظر له صلاحاً ؟ وماذا يكون الحال إذا أجرينا تلك الاحتمالات
في الأمور الحربية والمسائل التجارية والأحوال الإدارية والأنظمة -
الاجتماعية ؟ بل أسألك - ولا أحسبك إلا محباً لتحقيق الحق -
لو كنت في حال يقظتك وعلى غاية ما يكون من صحتك وكانت الشمس
على أتم ما يكون من ضيائها وبهاها وأنت تراها بعيني رأسك ولا تستطيع
أن تحدد النظر فيها لعظيم ما يبهرك منها فجاءك سوفسطائي فقال لك :
هل تستطيع أن تقيم دليلاً على صحة ما تدعيه من طلوع الشمس ووجود
النهار فأخذت تصيح إنى أراها وأنت تراها وكل الناس ينظرون إليها
وهي أظهر من كل دليل يقام عليها ، فأخذ يقول لك يحتمل : أنك نائم

وإن تلك الرؤية منامية وإن اجتماعى بك ومجادلتى إياك وكل ما يحيط بنا من شجر وحجر وماءٍ وضياءٍ كله حلم فى حلم وخيال فى خيال ، محتججاً عليك بأن النائم قد يرى فى منامه أكثر من هذا وهو لا يشك فى نومه أنه حق لا مرية فيه حتى إنه يرى أنه قد رأى مناماً ثم تيقظ. ثم قصه على بعض المعبرين ، إلى غير ذلك مما يراه النائمون ولا يشكون فى نومهم أنهم متيقظون^(١) فلعل حالك هو حال هذا النائم واعتقادك اعتقاده وأنت فى منام لا يقظة ، يقول لك ذلك كله بغير تهييب ولا خجل .

فقل لى (رعاك الله) ماذا يكون حالك مع هذا السوفسطائى صاحب الترهات وحليف الاحتمالات ، ألا يصعب عليك جداً إقناعه مع كونك قاطعاً بفساد ما يبديه من هذه الاحتمالات ، ولئن كان العقل يقول بجوازها فإوجدان قاطع بعدمها : ولو اعتمد الناس على التجویزات العقلية فى أمورهم لاختل نظامهم وفسد حالهم ، وكان الحيوان إذ ذاك أقرب إلى الرشده من الإنسان . وقد أشار الله إلى قوم هذا شأنهم بقوله : (وَكَوْا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)^(٢) ، فبين أنهم كانوا يدفعون تلك الآيه الكبرى التى شاهدوها باحتمال أنه حصل خلل فى أبصارهم أو سحر فى عقولهم .

(١) أذكر بهذه المناسبة ما سمعته من بعض أصحابى أنه رأى فى منامه أن بعض الأعراب عليه قد مات فإثاء بقصيدة غراء مطلعها :

شج قلبى فلم أجد لعرأى غير دمع مزجته بدمائى

(٢) سورة الحجر ، الآيتين ١٥٤ ، ١٥٥

وإنه ليقع في قلبي أن الله خلق أقواماً ليس فيهم استعداد لليقين ولا خلقت فيهم حاسته عموماً أو خصوصاً ، فلا يمكنك أن توصلهم إليه مهما بذلت من الوسع وأفرغت من الجهد وكنت كمن يكلف فاقد السمع سماع أصوات المدافع الضخمة أو فاقد البصر رؤية الأضواء المتألقة ولذلك سجل الله عليهم بقاء الشك وعدم الإيقان بقوله : (وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ^(١)) ويقول : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) ^(٢) إلى آخر ما ورد في حقهم . والله في خلقه شئون .

ولعلنا نتكلم في بعض المعجزات على التفصيل بعد - إن شاء الله - .

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١١١

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

المعراج^(١)

س : هل كان المعراج للرسول عليه الصلاة والسلام بالروح والجسد الشريف أو بالروح فقط ، وإذا كان الأول فما الدليل على ذلك ؟

« مصطفى محمد خضير »

ج : المعراج كان بالروح والجسد جميعاً ، فإن الله يقول : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) ^(٢) ، وقد كان المعراج والإسراء في ليلة واحدة ، والعبد إنما هو الروح والجسد جميعاً ، والذي يصحح أن يجعل آية من الآيات ويؤمن به ذلك الامتتان إنما هو الإسراء بالروح والجسد ، وأما رؤيا ذلك في المنام فبعيد عن أن يكون من الآيات أو المعجزات ، ولا معنى لأن تتعلق به الفتنة ، فإن من الجائز أن يقع ذلك للعامة فضلاً عن الخاصة .

ولهذا نقول : إن من الأدلة أيضاً قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) ^(٣) على ما يقول جمهور المفسرين ، فإنها لو كانت رؤيا منامية لم يفتتن بها أحد ، وأي افتتان في أن يرى الإنسان في منامه أنه ذهب إلى الشام أو إلى الهند وأنه رأى كذا وكذا ، ولو كان الأمر على ما يزعم الزاعمون أنها منامية ما كان لإنكار قريش

(١) مجلة الأزهر - العدد التاسع - المجلد الأول - رمضان ١٣٤٩

(٢) سورة الإسراء ، الآية (١)

(٣) سورة الإسراء ، من الآية ٦٠

إياها معنى ولا لسؤالهم رسول الله عن المسجد الأقصى وصفته ، بل عن غير لهم كانت في طريق الشام للتجارة معنى معقول ، ولم يكن لافتتان بعضهم ورجوعه عن الإيمان سر مفهوم ، فيأني إذا قلت لك « رأيت في منامى أنى ذهبت إلى الحج ورأيت هناك ما يراه النائم في منامه » لم يكن من الآيات فى شىء ولا من الاستبعاد والإنكار فى كثير ولا قليل .

فإذن لا يمكن أن تكون مناقشة قريش للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولا رجوع من رجوع منهم عن إيمانه إلا إذا كانت دعواه عليه السلام أنه ذهب إلى بيت المقدس بجسده لا بروحه فقط. ثم عاد إلى مكة قبل طلوع الفجر ، ولذلك كانوا يقولون له : نحن نضرب أكباد الابل إلى الشام شهراً وأنت تزعم أنك ذهبت إلى بيت المقدس ، رجعت إلى مكة فى ليلة واحدة ثم أصبحت بين أظهرنا ؟ !

أما التمسك بأن الرؤيا بالألف لا تكون إلا منامية فهو تمسك واه ، فإنها قد تكون لما فى اليقظة أيضاً كالرؤية بالتاء كما حققه العلماء ، على أن جعلها فتنة للناس كافٍ فى بيان المراد منها ، وإلا فلا معنى لجعلها فتنة على ما شرحنا .

وكذلك قوله تعالى فى سورة النجم : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)^(١) إلى قوله : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)^(١) ، فإن مثل ذلك لا يقال فيما يكون مناماً لدى من عنده أدنى ذوق سليم . . .

هذا ومن اطلع على أحاديث الإسراء والمعراج لم يشك فى أن ذلك كان يقظة لا مناماً .

(١) سورة النجم ، الآية ١٤ ، ١٧

وأما الكلام على ذلك من حيث إمكانه وعدم مصادمته لشيء من
النواميس الطبيعية التي يستندون إليها ويتبجحون بها ، فسنفرد له مقالاً
خاصاً - إن شاء الله تعالى - .

وكثير من الناس من لا يفرق بين الاستبعاد المبني على عدم الإلف
والعادة ، وبين الاستحالة العقلية ، لكونهم لم يرتاضوا بالمنطق وصناعة
البرهان ، ولم يزاولوا من العلم إلا ما ضرره أقرب من نفعه ، وخطوئه
أدنى من صوابه ، وسنفيض القول في ذلك بعد في عدد آخر - إن شاء الله -
ويكفي ذلك الآن ، ولنتفرغ لغيره .

كرامات الأولياء

س : هل لنا أن نعتقد أن المدفونين في الأضرحة أولياء « وأن نصدق مانسمع من الملائة عن الآيات التي أظهروها في حياتهم من مدة ٦٠٠ سنة أو أكثر أو أقل » . « وأرجو أن ترسموا لنا حداً يبين لنا الولي وغيره » . وهل للأولياء شفاعاة عند الله بمعنى أنهم يقومون بدور رجاء؟ وهل يقبل الله رجاءهم على أنه قال تبارك وتعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(٢) ؟

وجاءنا مثله أيضا .

ج : الولي هو العارف بالله وصفاته ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات وان كانت من المباحات ، هكذا عرفوه ، ولا داعى للاطالة فيه ، ويكفيينا قول الله تعالى في بيان الأولياء (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(٣) .
أو نقول : هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، أو نقول : هم الذين أشار اليهم قوله تعالى : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ ءَآمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ)^(٤) .

(١) مجلة الأزهر - العدد العاشر - المجلد الأول - شوال سنة ١٣٤٩

(٢) سورة ق ، الآية ١٦ (٣) سورة يونس ، الآية ٦٣

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧٧

أما الكرامات فهي جائزة لاشك فيها، وقد تواترت في المعنى -
وان كانت التفاصيل آحادا - كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم
من الصالحين وهي ثابتة بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة كما ستقف
عليه . ولا ينكرها الا أهل البدع، وليس إنكارهم إياها بعجيب
منهم ، فإنهم كما قال بعض العلماء لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم ولم
يسمعوا به من رؤسائهم مع اجتهادهم في العبادات غير عالمين أن المسألة
مسألة قلوب لا أبدان وصفاء أرواح لا تعب أشباح، وقوة يقين
وتمكين لا شدة مجاهدات وكثرة عبادات « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ
وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » . أخرجه مسلم .

وقد ثبت حديث « إِنَّ بُدْلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِكَثِيرٍ صِيَامٍ
وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِسَلَامَةِ الصُّدُورِ وَمَخَاوَةِ الْأَنْفُسِ » .

وقد جاء في الحديث المتفق عليه « إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي الْأُمَّةِ أَقْوَامٌ
يَحْقِرُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُمْ وَصِيَامَهُمْ فِي
جَنْبِ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ
الرَّمِيَّةِ » .

نقول : إن الكرامات منح إلهية يعطيها الله من يشاء ويمنعها من
يشاء، ولا فرق بين العطايا الحسية والعطايا المعنوية ولا بين الأرزاق
الجسمانية التي قال الله فيها : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا)^(١) . ولا بين المواهب الروحية التي قال فيها : (يَخْتَصُّ

بِرَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ»^(١) . فسيحان من قسم الحظوظ في البابين ومنح
ماشاء من شاء من الفريقين ، فكما أن الناس متفاوتون في الصحة
الجسمية هم أيضا متفاوتون في الصحة الروحية، ولذلك تفاوتوا في
الآخرة كما تفاوتوا في الدنيا أو أشد (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)^(٢) .

ولنقرب لك الأمر تمام التقريب حتى يكون على طرف الثام ، فقد
كثر فيه القيل والقال جموداً على الرأي وتعصباً للهوى فنقول : إن
الفاعل هو الله لا الولي ولا النبي ، ولكنه يكرم من يشاء بما شاء وهو
على كل شيء قدير ، فأى مانع من أن يخرق الله العادة إكراماً لبعض
عبادة الصالحين حياً كان أو ميتاً ، فيرزقه رغيماً في مفازة أو شربة
ماء في صحراء أو يكرم زائريه ومحبيه ، مثل ما فعل بسفينة مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضل الطريق ، فتعرض له الأسد
فقال له : أنا سفينة مولى رسول الله ، فبصبص له وسار بجانبه يهديه
الطريق :

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها نجم

إلى آخر ما ورد عن الصحابة وغيرهم ويستسمع شيئاً منه ، وأى
قيمة لذلك بجانب ما أعطاهم الله من شرف معرفته ومحبته والقرب
منه ، حتى قال في الحديث القدسي الذي رواه البخاري : « مَنْ عَادَى
لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » . إلى أن قال : « وَلَا يَزَالُ عَبْدِي

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧٤

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢١

يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ « الخ .

فانظر إلى قوله : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وإلى قوله كنت سمعه وبصره ، فالى أى حد تكون منزلة ذلك الولى عند الله تعالى حتى يحارب من يعاديه ، وكيف يكون بصره الذى استضاء بنور معرفته عز وجل ، وإلى ماذا يصل سمعه الذى له ذلك الشرف الأعلى .

ولاغرو فعاملة الله تعالى تأنى بالعجائب والغرائب وهو الرحيم الودود ، رزقنا الله الأدب معه والتوكل عليه .

وانظر إلى قوله تعالى : (وَهُوَ يَمَوَّلُ الصَّالِحِينَ)^(١) وقوله فى الحديث القدسى : « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا » . إلى آخر الحديث . وقوله عز وجل فى الحديث القدسى أيضا « مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْدِنِي . فَيَقُولُ الْعَبْدُ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ مَرِضٌ عَبْدِي فَلَا نُفْلَانُ فَلَمْ تُعِدَّهُ وَلَوْ عِدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ » إلى آخر الحديث .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رَبُّ أَشْعَتَ أَغْبَرَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ » ولم يفرق بين شىء وشىء ، وانى ألفت نظرك إلى تلك المنزلة السامية التى كادت تخرجه من ذل العبودية وجعلته يقسم على الله قسماً يستتبع الإجابة . وهذا يشبه قوله تعالى : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)^(٢) .

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٩٦

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٤ ،

فهل بعد ذلك التنزل الإلهي والعطف الرباني الذي سمعته يستبعد
أن يخرق لهم العادات أو يمن عليهم بماشاء من الكرامات . فلا بدع
أن يكون دعاؤهم أقرب إلى الإجابة من دعائك لأن منزلتهم عنده
أعظم من منزلتك .

أما قوله : (وَكَانَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(١) . الذي اشتبهه
على السائل فهو وصفه لا وصفنا ، فانه يعلم مخلوقاته كلها على السواء
لانتفاوت بينها في علمه واحاطته ، ولكن هناك تفاوت كبير بين منازل
عباده قربا وبعدا بحسب انقيادهم له وإقبالهم عليه ومحبتهم اياه
أو انصرافهم عنه وإقبالهم على غيره .

«ولست في حاجة أن أعرفك أن القرب معنوى والبعد كذلك فإن
الله متعال عن قرب المسافات وبعدها» .

ومن ذا يستطيع أن يقول إن للفاسق من القرب وحسن المعاملة من
الله ما للصالح المطيع (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ
كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)^(٢) .

ولنذكر لك شيئا مما جاء في القرآن والسنة مما يفيد الوقوع
فضلاً عن الامكان فنقول :

١- قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم أحياء سالمين عن
الآفات مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، وانه تعالى كان يعصمهم من

(١) سورة ق ، الآية ١٦

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢١

حر الشمس كما قال : (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ)^(١) . إلى أن قال : (وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)^(٢) إلى أن قال : (وَكَيْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)^(٣) .

٢- قصة مريم وحملها بعيسى عليه السلام من غير أب على ما قصه الله علينا في آيات العديدة .

٣- إثمار الجذع اليابس الذي أمرها الله بهزه وعرفها أنها ستجد منه ما لم يكن لها في حسابان .

٤- ما قص الله علينا من أن زكريا عليه السلام كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله .

٥- ما قص الله علينا من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار على يد الخضر الذى علمه الله من لدنه علما على ما هو مبين بالتفصيل في سورة الكهف . وهى ثلاث كرامات ، ولكن نسامحك فى أن تعدها واحدة « وليس الخضر نبياً على الصحيح » .

٦- قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام ، على ما قاله جمهور المفسرين فى قوله تعالى : (قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٨

(٣) سورة الكهف ، الآية ٢٥

أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (١). فاجاء بعرش بلقيس
من اليمن قبل ارتداد الطرف .

وأما السنة الصحيحة فقد جاء فيها شيء كثير من هذا :
أولا - قصة جريج العابد .

ثانيا - قصة الغلام الذي تكلم في المهد .

ثالثا - قصة عباد بن بشر وأمسيد بن حضير .

رابعا - قصة أبي بكر مع أضيافه .

خامسا - إكرامة خبيب بمكة .

سادسا - إكرامة عمر بن الخطاب وهو على منب المدينة . فهذه ستة
براهين من كتب السنة الصحيحة ومثلها من القرآن العزيز ، وماذا
يقول القائلون بعد الكتاب والسنة . ولنذكر لك ما أشرنا إليه :

أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (أُمَّ يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ :
عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَبِيٌّ فِي زَمَنِ جُرَيْجِ النَّاسِكِ ، وَصَبِيٌّ
آخَرٌ ، أَمَّا عِيسَى فَقَدْ عَرَفْتُمُوهُ ، وَأَمَّا جُرَيْجٌ فَكَانَ رَجُلًا عَابِدًا بِبَنِي
إِسْرَائِيلَ وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ فَكَانَ يَوْمًا يُصَلِّي إِذْ اشْتَاقَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ ، فَقَالَتْ
يَا جُرَيْجُ : فَقَالَ يَا رَبِّ الصَّلَاةُ خَيْرٌ أُمَّ أُمَّيْ ثُمَّ صَلَّى ، فَدَعَتْهُ ثَانِيًا فَقَالَ

مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَكَانَ يُصَلِّي وَيَدْعُهَا ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى
أُمِّهِ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تُحْمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُؤْمِسَاتِ ، وَكَانَتْ زَانِيَةً هُنَاكَ
فَقَالَتْ لَهُمْ : أَنَا أَفْتِنُ جُرَيْجًا حَتَّى يَزْنِيَ . فَأَتَتْهُ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى ثَمِيٍّ ،
وَكَانَ هُنَاكَ رَاعٍ يَأْوِي بِاللَّيْلِ إِلَى أَصْلِ صَوْمَعْتِهِ فَلَمَّا أَعْيَاهَا رَاوَدَتْ
الرَّاعِيَّ عَنْ نَفْسِهَا فَاتَّاهَا فَوَلَدَتْ ثُمَّ قَالَتْ : هَذَا وَلَدِي مِنْ جُرَيْجٍ ،
فَاتَّاهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَكَسَرُوا صَوْمَعْتَهُ ، فَصَلَّى وَدَعَا ثُمَّ نَحَسَ الْعَلَامَ ،
قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كَانِي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ
بِيَدِهِ : يَا عَلَامُ مَنْ أَبُوكَ ؟ فَقَالَ : الرَّاعِي ، فَندِمَ الْقَوْمُ عَلَى مَا كَانَ
مِنْهُمْ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا نَبِيَّ صَوْمَعَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ : فَأَبَى
عَلَيْهِمْ وَبَنَاهَا كَمَا كَانَتْ ، وَأَمَّا الصَّبِيُّ الْآخِرُ فَإِنَّ امْرَأَةً كَانَ مَعَهَا
صَبِيٌّ لَهَا تُرَضِعُهُ إِذْ مَرَّ بِهَا شَابٌّ جَمِيلٌ ذُو شَارَةِ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ
اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا . فَقَالَ الصَّبِيُّ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، ثُمَّ مَرَّتْ
بِهَا امْرَأَةٌ ذَكَرُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ وَزَنَتْ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ
هَذِهِ ، فَقَالَ الصَّبِيُّ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا . فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ فِي ذَلِكَ ،
فَقَالَ : إِنَّ السَّابَّ كَانَ جَبَّارًا مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَكَّرِهْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ ،
وَإِنَّ هَذِهِ قَبِيلٌ إِنَّهَا زَنَتْ وَلَمْ تَزِنْ وَقَبِيلٌ إِنَّهَا سَرَقَتْ وَلَمْ تَسْرِقْ وَهِيَ
تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ .

وأخرج الحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم وابن سعد وهو في البخاري
من غير تسمية الرجلين « أَنَّ أَسِيدَ بْنَ حُضَيْرٍ وَعَبَادَ بْنَ بَشْرٍ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمَا كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ حَتَّى ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةٌ وَهِيَ لَيْلَةٌ شَدِيدَةٌ الظُّلْمَةِ ، خَرَجَا وَبِيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ بِنَهُمَا عَصَا فَأَضَاعَتْ لَهُمَا عَصَا أَحَدِهِمَا فَمَشِيَا فِي ضَوْئِهَا حَتَّى إِذَا افْتَرَقَتْ بِهِمَا الطَّرِيقُ أَضَاعَتْ لِأَخْرٍ عَصَاهُ فَمَشَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي ضَوْءِ عَصَاهُ حَتَّى بَلَغَ أَهْلَهُ .

وأخرج البخارى « أَنَّ خُبَيْبًا كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ بَنِي الْحَارِثِ بِمَكَّةَ » في قصة طويلة ومنها « أَنَّ بِنْتَ الْحَارِثِ كَانَتْ تَقُولُ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ فَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ وَمَا لِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ وَإِنَّهُ لَمَوْثِقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقًا رَزَقَهُ اللَّهُ » .

وأخرج البخارى أيضًا « إِنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ عِنْدَهُ أَضْيَافٌ فَقَدَّمَ لَهُمُ الطَّعَامَ ، فَكَلَّمَا أَكَلُوا مِنْهُ رَبَا مِنْ أَسْفَلِهِ حَتَّى إِذَا شَبِعُوا قَالَ لِامْرَأَتِهِ يَا أُخْتِ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا ؟ قَالَتْ وَقَرَّةٌ عَيْنِي لَهِي - تَعْنِي الْقِصْعَةَ - أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَأْكُلُوا » إلى آخر القصة .

وقد صح أن عمر بن الخطاب كان له جيش (بنهاوند) من بلاد العجم وكان سارية رضى الله عنه أميراً عليهم ، وكان للعدو كمين في أصل الجبل لا يعلم به جيش المسلمين . فنادى عمر وهو على المنبر يخضب الناس يوم الجمعة « يَا سَارِيَّةُ : الْجَبَلُ الْجَبَلُ » فَسَمِعُوا صَوْتَهُ بِنَهَاوَنْدَ وَنَجَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِرَكَتِهِ ، وفي ذلك كرامتان : الكشف عن حالة الجيش وحال العدو ، ووصول صوته من المدينة إلى نهاوند .

وأخرج الترمذى : أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ ضَرَبَ خِيَابَهُ عَلَى قَبْرِ ،
وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَسَمِعَ مِنْ دَاخِلِ الْقَبْرِ رَجُلًا يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ
(الْمَلِكُ) فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ :
(هِيَ الْمَانِعَةُ ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنَجِّي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
وهو كثير .

وقبل الختام لا بد أن نقول إنه لا فرق عندنا بين الحي والميت
حيث إن الله، هو الفاعل لا الحي ولا الميت ، ولا فرق في فعله تعالى بين
أن يتولاه هو إكراماً لوليه من غير أن يكون للولى دخل فيه أو علم
به وبين أن يجريه على يديه أو يقوى روحه حتى تفعل ما لا يستطيع
غيرها كما يقوى بعض الأجسام فيكون له من الأثر ما ليس لغيره ،
ولا فرق في التحقيق بين أن يفعل لك أو يفعل بك فإنه الفاعل على
كل حال .

على أن الأرواح بينها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله تعالى ،
فلا يصح أن تقاس الروح الضعيفة على الروح القوية ولا الروح الحرة
على الروح النذلة ، ولكل مرتبة من مراتب الأرواح خصائص تناسب
تلك المرتبة .

وللأرواح من القوانين ما يباين قوانين الأجسام ، ولذلك ترى
الحاسد يؤثر في المحسود من بُعدٍ ، مع أن القوانين المادية تقضى بعدم
التأثير إلا إذا حصلت مجاورة أو مماسة .

ثم نقول إن الأرواح إذا صفت صح أن تطلع على الغيب لأنها من عالم الملكوت .

فأى بُعد بعد هذا فيما ينسب للكاملين من أولياء الله المقربين الذين أرواحهم أكمل الأرواح وأقواها ، ولهم من عناية الله وفضله ما ليس لغيرهم ؟؟

وقبل إلقاء القلم لا بد أن نقول إن كثيراً من الناس كاذبون في دعوى الولاية مفترون على الله فيها ولكن هذا لا يضر الموضوع شيئاً ، فكل طائفة فيها الصادق والكاذب سنة الله ولن تجد لسنة تبديلاً .

وقد عرفناك الولى بصفاته الجميلة ونعوته الجليلة ، أما التطبيق فنكله إليك ونلقى تبعته عليك .

ويكفى هذا اليوم وربما عدنا للموضوع مرة أخرى إذا أراد الله .

ذكر قصص الأنبياء في القرآن^(١)

(١)

قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)^(٢) .

يقول تعالى : إنه يقص علينا قصص الأنبياء وما كان منهم وما حصل لهم لنعبر بما فيها من حكم جليلة ، وفوائد رفيعة ، وتعاليم إلهية ، وإرشادات ربانية ، تنير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة في الدارين ، بحيث تكون للناس نبراساً يستضيئون به في كلتا الحياتين ، وقد قال تعالى : (فَإِذَا مَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٣) أي لا يخافون من أمر مستقبل ولا يحزنون على أمر فائت .

فطوبى لمن يتلو القرآن حق تلاوته ، ويتدبر ما فيه حق تدبره ، ولا يهذه^(٤) هذ الشعر أو ينثره نثر الدقل ، فمثل هذا نصيبه منه قليل ، وحظه من معين علمه ضئيل ، وأن للقرآن ظهراً وباطناً ، وقد اغترف من بحاره العلماء كل على قدر ما آتاه الله ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسراره ما ابتهج به علماء الاجتماع ، ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق :

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثالث ، المجلد الثالث - ربيع الأول ١٣٥١ هـ

(٢) سورة يوسف ، من الآية ١١١

(٣) سورة البقرة ، الآية ٣٨

(٤) الهذ والهناذ : بفتح الهاء سرعة القراءة ، والدقل : الرديء من الثمر أو النخل الذي لا يعرف له جنس . وأصل هذا ما ورد في حديث ابن مسعود حذيفة في القراءة (هذا كهذ الشعر ونثر أكثر الدقل) أي كما يتساقط الرطب اليابس من العذق إذا هز .

ولا غرو فهو الكتاب الذى لا تخلق جدته ، ولا تنقضى عجائبه
(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)^(١) وهو الصراط
المستقيم الذى ارتفع به سلف الأمة إلى أوج العز والفخار ، فكانوا أرفع
الأمم على الإطلاق ، وأعزها على الإطلاق ، بما أفادهم من تعاليم أورثتهم
عزة الملوك وطهارة الملائكة (وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) فكانوا يخشون الله ولا يخشون أحداً سواه ،
مطهرين من أدناس الدنيا التى تسقط الأمم وتذل الشعوب ، متحابين
فيما بينهم على مقتضى ما رسم لهم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(٣) .

فما أشبههم بأهل الجنة فى الجنة ، نزع ما فى صدورهم من غل ،
قائلين دائماً : (وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
رَعُوفٌ رَحِيمٌ)^(٤) مشفقين من أنفسهم ، عالمين أنها أمانة بالسوء ،
ذاكرين قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٥) .

وقد أخبرنا عز وجل أن الناس مختلفون جد الاختلاف فى فهم
القرآن على حسب استعدادهم - والإمداد على قدر الاستعداد - فقال :
(يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)^(٦)

(١) سورة محمد ، الآية ٢٤

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٤) سورة الحشر ، الآية ١٠

(٥) سورة النازعات ، الآية ٤٥

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٦

وقال : (وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ يُكُفِّرُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)^(١) .

وإن من النفوس ما لا تعرف إلا الشر ولا تفهم إلا الشر ، فهي تقلب كل شيء إليه ، كالإناء الخبيث الذي اتخذ من معدن خبيث ، فإنه يقلب كل ما يوضع فيه من الماء الصافي إلى طبعه الخبيث ، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون .

ولنقص عليك شيئاً مما تضمنته قصة آدم عليه السلام مما ستعلم أنه يكفل سعادة الدنيا والآخرة لمن عرفه وتمسك بما فيه ، وكان الله يشير إلى ذلك بقوله :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)^(٢) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم .

ثم نتلو عليك بعد ذلك بعض ما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من حكم جليئة وأسرار نبيلة ، فنقول وبالله التوفيق :

ما يؤخذ من قصة آدم عليه السلام من الفوائد والاشارات على طريق الإيجاز :

١ - يؤخذ من اعلامكم أيها العقلاء بتلك القصة وجعل الله إياكم خلفاء في الأرض أن الله تعالى ما عرفكم أنكم خلفاء عنه الا لتعرفوا

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٤

(٢) سورة يوسف الآية ١١١

مافيكم من الاستعداد العظيم ، حتى تعملوا بمقتضى تلك الخلافة ، فتهيئوا أنفسكم لهذا المنصب الشريف وتحكموا بالعدل ، فلا تفسدوا في الأرض ، ولا تسفكوا الدماء ، فإن ذلك كان مظنوناً فيكم . ومترقباً منكم ، فلا تحققوا ذلك الظن .

٢ - يؤخذ من عرض الله تعالى على الملائكة ما يريد أن يحدثه في الأرض ، وما كان منهم معه تعالى من المحاوراة والمقاولة أن من الحكمة استخراج ما هو كامن في النفوس حتى لا يكون فيها اعتراض ولا منازعة خفية ، وهو ضرب من سياسة الحاكم مع المحكومين ، وفن من فنون تربيتهم واصلاحهم .

٣ - يؤخذ من محاوراة آدم عليه السلام مع الملائكة وعرض الأشياء عليهم وسؤالهم عنها سؤالاً يعرفهم أن دعواهم تفوقهم على من عداهم من المخلوقات دعوى غير صحيحة ، أنه لا بد من البرهنة على الدعوى ولو كانت من أكبر كبير ، حتى تملك العقول بالحق لا بالاستبداد الذى تبقى الشبهة فيه كالنار خلل الرماد يوشك أن يكون له ضرام .

٤ - يؤخذ من كونه تعالى علم آدم الأسماء كلها ولم يعلمها الملائكة أننا معشر بنى آدم مستعدون لما هو أعلى من تناول الملائكة ، ولعلم أن الملك ليس له إلا وجهة واحدة ، فليس مستعداً إلا لأن يكون مظهراً لبعض آثار الأسماء الالهية أما الإنسان فهو مستعد لأن يكون مجلى لجميع الآثار وظهور جميع الأسرار ، فهو صالح للمتقابلات ومستعد لجميع المتضادات ، فهو أعلى المظاهر التى تتجلى فيها آثار الأسماء

الإلهية ، وأنوار الصفات الربانية ، وما من شيء في هذه العوالم السفلية والعلوية على اختلاف أنواعها واتساع أصنافها إلا وفيك نموذج منه ، ولسان فصيح يعبر عنه . وما ينسب للإمام على كرم الله تعالى وجهه قوله :

دواؤك فيك وما تشعر ودأوك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
ولهذا شرح طويل لا يمكننا أن نأتي عليه اليوم .

٥ - نستنبط من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾^(١) أنه ينبغي لمن يريد إقامة الحجّة على خصمه أن يأتى له بما يفيد اليقين بحيث تمتلئ به نفسه ، حتى يصل الأمر عنده إلى حد المحسوس الذى لا مرية فيه .

٦ - يأتى من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾^(٢) أنه يجب الاعتذار لصاحب الحق ، ويتختم الشكر لصاحب النعمة ، فإنهم ماسجدوا لآدم عليه السلام إلا شكراً لتعليمه إيادهم ما لم يعلموا ، واعترافاً بفضله عليهم وارتفاع مقامه على مقامهم .

٧ - يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٣) أن الكبر أساس الفساد كلها ، وموجب لاقرار ما يستلزم الهلاك الأبدي ، ويفوت أعظم السعادات ، ويجلب أكبر الآفات ، ويجر صاحبه إلى رد الحق مهما كان قائله ، ويبين أن الرجوع

(١) سورة البقرة ، الآية ٣١

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١١

(٣) سورة البقرة ، الآية ٣٤

إلى القياس والأنظار العقلية كقول إبليس: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قد يكون سبباً للضلال ، وموجباً لغاية الخبال ، والواجب ترك ذلك مع من يجب طاعته والتسليم له ، وأن ذلك لم ينشأ إلا من عدم الاعتراف لله تعالى بالحكمة والعظمة وسعة العلم ، فضلاً عن كونه قادحاً في المحبة التي تقتضي الإذعان وعدم السؤال .

٨ - ويؤخذ من قوله تعالى : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَازَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)^(١) أن فيك غريزة من الحرص لا تدع شيئاً إلا أتت عليه ، فإما أن تنسيك ، أو تطغيك ، مع بيان أن الشيطان لا يتمكن منك إلا بواسطتها ، فيتحتم عليك ملاحظتها وتقويم اعوجاجها ، والاحتراس منها .

٩ - يؤخذ من محاوراة الشيطان لآدم وحواء واحتياله عليهما بقوله : (مَا نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)^(٢) ولم يكتمه ذلك القول حتى أقسم لهما عليه أنه لمن الناصحين ، ويؤخذ من ذلك كله أن لكم عدواً لا يألو جهداً في الكيد لكم ، والاحتتيال عليكم ، حتى تهلكوا كما هلك ، وقد أقسم ليغوينكم أجمعين ، وليأتينكم من بين أيديكم ومن خلفكم ، وعن أيمانكم وعن شمائلكم (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)^(٣) ولذلك كله ختم الله كتابه العزيز بالاستعاذة

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٦

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٢٠

(٣) سورة فاطر ، الآية ٦

من ذلك العدو المبين ، الذى يؤثر فيك من حيث لا تشعر . ويأتيك من حيث لا تعلم ، ويعرف موضع الضعف منك ، فأمرك أن تستعيد بربك الملك العظيم ، والإله الذى هو فوق الملوك ، من شر ذلك انوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ، فإن من وفى شره فقد وفى الشر كله ونال الخير كله .

ولعل نفسك التى بين جنبيك أول من يدخل فى الموسوس من الناس أو هى المرادة منهم ، فإنها أعدى أعدائك ، وما أرسل الأنبياء جميعاً إلا لتخليص الناس من شر النفس والشيطان ، فهذا هو الغاية القصوى من جميع الشرائع والغرض الأسمى من كل ما جاء به الأنبياء ، فالخلوص منهما هو السعادة الكبرى لمن فاز به فى الدنيا والآخرة ، فكأنه تعالى أرشدك فى آخر كتابه إلى فداك ما فى القرآن كله ، وخلاصة ماتضمنته آياته ، فهى النتيجة المختصرة ، والغاية التى ليس وراءها غاية ، وهو الحقيقة التى ترمى إليها جميع العنوم ، والزبدة التى تمخضت عنها جميع الفهوم ، فهى نتيجة تغنيك عما امتلأت به كتب الأولين والآخرين من علم العلماء وحكمة الحكماء .

هذا ولعله يرشدك إلى أن المراد من الناس قبل كل شئ هو نفسك التى بين جنبيك ، أو أنها تدخل فى الناس دخولاً أولياً . إن الوسوسة تعتمد الخفاء وليس أخفى من وسوسة النفوس فى الصدور ، أما تأثير شياطين الإنس فلا ننكره ، ولكنه بعيد عن معنى الوسوسة بعداً ما ، وإن كان مما يصل إلى القلوب فى لطف وخفاء ، وقد جرت المناسبة لهذا ، ولعله مفيد فى الموضوع أو غير بعيد منه .

١٠- بيان أن من اقترف ذنباً فله طريق إلى الخلاص منه بالتوبة ، والإرشاد إلى ما تداوون به أنفسكم مما عسى أن يكون منكم بمقتضى تلك الغريزة ، وأن الحكمة في أن تتداركوا الخطأ الذى ربما وقعتم فيه بموجب الجبلية البشرية ، لا في أن تستسلموا لليأس من روح الله ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون .

١١- بيان أن الانتباه بعد الخطأ واليقظة بعد الغفلة ربما كان سبباً في بلوغ الدرجات العلا والترقى الباهر : فإن آدم بعد ما كان منه أدام الملاحظة لجلال ربه والاحتراس من عدوه ومراقبته نفسه ، بعد ما عرف أن هناك عقوبات مقررة وسنناً لا تتبدل ، عرف بها من كمال الآلهية وجلالها وحكمتها وعظمتها ما لم يكن يعلمه قبل ، شأن من تربى في النعمة التي لا يتأتى أن تكون معها المعرفة الصحيحة ولا الرجولة التامة ولا الصبر والثبات ولا التطلع إلى الكمال ولا معرفة وجه المخرج من المضايق فالتجربة والمحنة والبلية أكبر المعلمين وأعظم المؤدبين ، ومن لم تهذبه نيران الامتحان لا يثبت أمام حوادث الحدثنان ، بل يندرج في سلك النساء والصبيان .

١٢- بيان أن السعادة والفوز والفلاح والأمن من الخوف ليس له إلا طريق واحد (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ أَفَلَاحًا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ^(١) واتباع الناس والنفوس يضل عن سبيل الله ، فان الإنسان ظلوم جهول (وإن تطلع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) ^(٢) فإنهم إنما

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨

(٢) سورة الانعام ، الآية ١١٦

يتبعون الظن ، والأنبياء أعلم والله أرحم وأحكم (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) ^(١) .

١٣- ويؤخذ من القصة بعد ذلك أن من السنن الإلهية الامتحان ، وهو ضرب من ضروب الترقية ، وفيه أيضا إزالة طغيان النفس التي ترجع بصاحبها إلى غاية النقص بعد غاية الكمال .

وبعد فنتعلم أن الأخلاق الذميمة كلها ترجع إلى الكبر والحسد والحرص ، وسنفصل ذلك ، وهذه الثلاثة التي هي جماع الشرور وأصون المفسد ومثار الشقاء والبلاء مأخوذة من هذه القصة (قصة آدم عليه السلام) فكأن الحق سبحانه وتعالى يكررها عليك المرة بعد المرة تحريراً لك من هذه الخصال الذميمة ، وتذكيراً إياك بما ينشأ عنها . أما الحرص الداخلى فى تكوينك الآخذ بجماع قلبك وهو فى أصل جبلتك وعنصر من عناصر طبيعتك فقد نبهك عليه كى تحذره حذرَكَ الأفاعى بما قص عليك من كونه أباح لآدم الجنة كلها إلا شجرة واحدة ، فأبى عليه حرصه الغريزى وتكوينه البشرى أن يدعها ويستغنى عنها بكل ما عداها .

وأما الكبر والحسد وما ترتب عليهما من الطرد الأبدى واللعن السرمدى لإبليس ، فقد بينهما بما قص علينا من قول إبليس : (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) ^(٢) وقوله : (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) ^(٣) إلى آخر ما جاء فى

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١٥٣

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٦٢

(٣) سورة الإسراء ، من الآية ٦١

القصة مما يبين حسده البالغ ، وكبره الذى رد به أمر الله وطعن فى حكمته ، فأصبح من الكافرين ، واستوجب اللعنة إلى يوم الدين .

ويلتحق بذلك ما ذكره الله فى قصة ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر إجابة لداعى الحسد ، وامثالاً لغريزة الحرص اللذين هما سبب كل بلاء ، وأساس كل شقاء .

ولن فصل لك ما يتفرع عن تلك الخصال الثلاث من شعبها الكثيرة التى أتت على سعادة الدنيا والآخرة ، ولولاها لكان الناس فى سرور وحبور فى هذه الحياة وتلك الحياة ، ولعلك لاتستطيل القول فنقول :

إن الأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول : الكبر ، والحرص ، والحسد ، فهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبائث والمعاصى . وبيان ذلك أن الكبر من آثاره التى تنشأ عنه عجب المرء برأى نفسه ، والأنفة عن قبول الحق ، وترك الإقرار به ، والتعدى على الغير ، والظلم والجور عند القدرة ، وترك الإنصاف فى المعاملة ، والتهاون فى الواجبات والإعراض عن أداء الحقوق ، والقحة وصلابة الوجه فى دفع الحق ، والفحش والسفاهة فى الخطاب ، والجدال واللجاج فى الخصومات ، والنزق فى العشرة ، والحدة والبطش فى التصرف ، واحتقار الناس والاستطالة عليهم ، والافتخار بما يزعمه من المواهب ، والإنكار لفضل من فضل عليه ، والبغى والعدوان وما شابه ذلك . هذه فروع الكبر ولوازمه .

أما الحرص وهو الخصلة الثانية ، فمن آثاره التي تترتب عليه الطمع الكاذب ، وشدة الرغبة ، والطلب الحثيث ، والعجلة في السعي ، وتعيب البدن ، وعناء النفس ، وكد الروح في الجمع والادخار ، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر ، والبخل والمنع والشح ، والغش والمكر في المعاملة ، واللؤم ، وما يتبعها من الشؤم والخذلان ، وقلة الانتفاع بالموجود ، والحرمان من المدخر ، والمضايقة في المعاملة ، والمناقشة في الحساب ، وسوء الظن بالأميين ، والتهمة للثقات المؤمنين ، والخيانة في الأمانة ، وطلب الحرام ، وهتك الحرم ، وارتكاب الفحشاء والكذب ، وكثرة الحيل في البيع والشراء ، وقلة النصيحة ، واليمين الكاذبة ، وأقاويل الزور في أسباب الخصومات ، والعداوة الناشئة من التعدي في الحدود ، وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأعمال السيئة . هذه فروع الحرص ونتائجه .

أما الخصلة الثالثة وهي الحسد ، فمن آثاره الحقد والغل والدغل ، وهذه تدعو إلى المكاشفة بالعداوة والبغضاء ، والبغى والغضب ، والتعدي والعدوان ، وقساوة القلب وقلة الرحمة ، والفظاظة والغلظة ، والطعن واللغو والفحشاء .

وطالما كانت هذه الخصال سبباً للخصومة والشر والحرب والقتال إن أمكن جهراً ، وإلا كان بالحيل والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب والمداهنة والتفاق والرياء وتشيتت الشمل وقطيعة الرحم والبعدين الإخسوان ومفارقة الأليف

وخراب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن والغم ، وألم القلب وهموم
النفوس وعذاب الأرواح ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب وخسران
الدنيا والآخره ، نعوذ بالله من ذلك كله .

وبعد فنقول : ذكر علماء الأخلاق أن القوى التي هي منشأ الخير
والشر ثلاثة : وهي القوة العَصَبِيَّة ، والقوة الشهوية ، والقوة العقلية ،
فأشير إلى القوة العَصَبِيَّة بما كان من إبليس ، وإلى القوة الشهوية بما
كان من آدم في قريان الشجرة ، وإلى القوة العقلية بما كان من رجوعه
إلى الله وتوبته ، إلى آخر ما أوجب له الاصطفاء والارتقاء ، ويلتحق
بذلك تعليمه الأسماء كلها .

أليس من أعجب العجب أن تشتمل هذه القصة على علم الأخلاق
بحذافيره إذ هو راجع بكل فروعه إلى هذه القوى الثلاثة كما هو معروف
ولنتتصر اليوم على هذا .

ذكر قصص الأنبياء في القرآن ^(١)

(٢)

قصة يوسف عليه السلام وما يؤخذ منها

(نقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) ^(٢)

بيننا فيما كتبناه في قصة آدم عليه السلام أن الله يريد بما يقصه علينا من قصص الأنبياء أن نعتبر بما فيها من حكم جليلة وفوائد رفيعة وتعليم إلهي وإرشاد رباني، ينير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة في الدارين . بحيث يكون للناس نبراسا يستضيئون به في كلتا الحياتين ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسرار القرآن مما ابتهج به علماء الاجتماع ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق .

والقرآن هو الصراط المستقيم الذي ارتفع به سلف الأمة إلى أوج العز والفخار ، فكانوا أرفع الأمم وأعزها على الإطلاق بما أفادهم من تعاليم أورثتهم عزة الملوك وطهارة الملائكة .

ولنقص عيبك اليوم شيئاً مما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من علم جم وحكمة عالية وسنن كونية وأسرار روحانية . ولتعلم أن الناس مختلفون جد الاختلاف في فهم القرآن على حسب استعدادهم « والإمداد على قدر الاستعداد » وأن من النفوس من لا يعرف إلا الشر ولا يفهم إلا الشر ، فهي تقلب كل شيء إلى الشر كالإناء الخبيث الذي اتخذ من

(١) مجلة الأزهر - المجلد الثالث - شوال ١٣٥١

(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١

معدن خبيث فإنه يقلب كل ما يوضع فيه من الماء الصافي إلى تبعه الخبيث (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَصْرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ) ^(١) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وكان الله يشير إلى ذلك بقوله : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم .

فوائد القصة وما يؤخذ منها :

١ - يؤخذ من عموم القصة بالإجمال أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم المثوبات ، وفي ذلك الحث على انتهاز سبيل المتوكلين والاعتداء بزهد الزاهدين ، والدلالة على الانقطاع إلى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد ، كما يؤخذ منها الكشف عن أحوال الخائنين وقبح طرائق الكاذبين ، وابتلاء الخواص بأنواع المحن ، وتبديلها بأنواع الألفاف والمنن ، مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك وحالهم مع رعيتهم ، إلى غير ذلك .

٢ - يؤخذ من قوله تعالى : (إِذْ قَالَ يُرْسِفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) ^(٢) التنبيه على مال الأرواح الإنسانية من الاستعداد للاطلاع على عالم المغيبات وما يكون في المستقبل بواسطة مالها من الصفاء الذاتي والفيض القدسي والإلهام الرباني .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٣ ،

(٢) سورة يوسف ، الآية ٤

وقد ذكروا أن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات ، فإذا قوى الحال
تصير الرؤيا كشفا ، فيكون عليه السلام قد سلك به نحو ماسلك
برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ - (قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ
كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (١) :

يؤخذ منه ، أن الحسد متأعمل في الإنسان ، فهو غريزة لا يكاد يخلص
منها أحد حتى الصالحون ، وأن الشيطان واقف للإنسان بالمرصاد ،
فمتى وجد نفسه تحركت بمقتضى غريزة من غرائز الشر تجده يخب
ويضع ويسرع في كل ما يوقد النار ويجلب الدمار .

٤ - ثم نأخذ من القصة وما صنعوه من الكيد الذي تفننوا فيه
وما كان بعد ذلك من العاقبة الحميدة ليوسف عليه السلام أن ما أبرمه
الله تعالى لا بد منه فقد ذهب كيدهم هباء ، وتم له من الرتب القعساء
ما جعلهم يخضعون له خجلين معتذرين .

٥ - (وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) (٢) يؤخذ منه عظيم احتيال
الإنسان على ما يريد ، فإنهم جاءوا عشاءً لئلا يظهر أنه تباك كاذب
وليس بكاءً حقيقياً . فكانوا أجراً في الظلمة على الاعتذار لأبيهم
ليوهموه أن ذلك بكاء حقيقي لتبائك ، فانهم لو جاءوا ضحى لافتضحوا .
فلنحذر من أفراد نوع الإنسان الذي يتلون تلون الحرباء ، ويتفنن
في أنواع المكر والدهاء .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٦

٦ - يعلمنا قوله تعالى: (فَصَبِرْ جَمِيلًا)^(١) حكاية عن يعقوب عليه السلام أنه يلزم الإنسان السكون تحت مجارى الأقدار سرا وعلنا وإن فذح الخطب وعظم المصاب ، تسليماً لله وثقة بحكمته وخضوعاً لربوبيته .

٧ - (وَرَأَيْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)^(٢) : يؤخذ منه وجوب اليتمة والاحتياط في خلطة الرجال بالنساء ، ولزوم تنبيه السادة لبيوتهم وخدمهم ، وفيه تنبيه على أن الخلطة غير مأمونة ، وأن من النساء من لا يحتفظن العهود ولو كان لزوجها من النعم عليها ما يجعلها في أكرم منزلة «أنهن يكفرن العشير» .

هذا ويؤخذ من امتناع يوسف عليه السلام وهو شاب له من قوة الشباب ما للشبن ، وأمامه امرأة حسناء مهدت له السبيل ، فغدت تطلبه لنفسها وتلمح عليه وهى فى محل السيادة والعز ، وقد استعملت معه كل أنواع الترهيب والترغيب والوعد والوعيد ثم يمتنع منها ويفر هارباً إلى الباب - ما يعرفنا مبلغ النفوس الشريفة من الطهر ورفعة الإحساس ، وما تنمره التقوى لذويها من مخافة الله فى الخلوات والجلوات ، ففي القصة حثنا على الاقتداء به عليه السلام ، وإرشادنا إلى الاحتياط فى أمر النساء ، وبيان مكرهن وكيدهن ، ووصول الأمر إلى غايته فيهن مهما كان حالهن .

فلاتحسباً هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨ ، ٨٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٣

وبعد : فمن الآثار السيئة للمدنية قلة البغيرة ، وقد كانت الحضارة في مصر بالغة حداها ، فكان للنساء فيها شأن وخطر ، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتوكريس وغيرها ، وكل أمة تساوى رجالها بنسائها في جميع الشؤون فلا بد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزناً كبيراً ، فهذا من مساوى المدنيات القديمة والحديثة ، حيث يسود الترف وينغمس أهلها في الشهوات واللذائذ . وإنك لتلاحظ في غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير لإسلامية أثرها الخبيث ، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم ، كما هو مشاهد الآن في أولئك المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة .

الخلاصة :

وخلاصة المقام أن محبة الرجال للنساء والنساء للرجال أمر غريزي متغلغل في طبيعة تكوين الفريقيين ، لأمر اقتضته حكمة الحكيم العليم : من بقاء النوع ، وسوق كل منهما بذلك السائق القاهر إلى الازدواج ، وتحمل ما يترتب على ذلك الازدواج من أثقال يطول شرحها وأعباء ينوء المرء الشديد بحملها ، ولا يكاد يضبط نفسه عند ثوران ذلك الميل الغريزي القوى السلطان إلا من عصم الله وقليل ما هم .

ولهذا حرمت الشريعة الغراء خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية وسدت هذا الباب سداً محكماً ، علماً منه تعالى بما جبلت عليه النفوس (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (١) .

ومع هذا فلا ننكر أن أفاضل الرجال وفضليات النساء لا يستطيع سلطان ذلك الميل مهما كان قوياً أن يستعبدهم ، فالحكم لدى أرباب الكمال من الجنسين إنما هو للدين والعقل والآداب .

وانظر إلى السيدة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وما كان منها مع ذلك الجبار الذى أراد منها السوء فارتد خاسئاً يكاد يتميز من الغيظ ، وقد وهب لها السيدة هاجر إذعاناً بفضلها وكمالها .

وانظر إلى السيدة مريم حيث تقول : (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)^(١) . وقد قالت السيدة هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان : « هذا شيء نَسْتَقْبِحه حلالاً أَفْنَعُله حراماً » ؟ فما أرفع ذلك الإحساس وما أرق ذلك الوجدان ! فكلامنا السابق إنما هو فى تقرير قواعد عامة نريد أن يأخذ بها الجمهور الذى ينتقاد لسلطان النفوس ويخضع لسيطرة الشهوات .

وأما أولئك الذين تربوا فى حجر الآداب العالية والفضائل السامية وفى حمى الشريعة الغراء من أرباب العقول الكبيرة وذوى النفوس الفاضلة ، فهم فى محل الاستثناء من الرجال والنساء ، وكم من سيدة بذت الرجال ووصلت إلى محل الكمال حتى قيل :

ولو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال

٨ - يؤخذ من قوله (لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)^(٢) أن الإنسان

لا يثق إلا بمن كان مراقباً لله عارفاً بالله خائفاً من الله ، وأما سواد فيجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٤

(١) سورة مريم ، الآية ١٨

٩ - (وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ) ^(١) : يؤخذ منه أنه يجب الفرار من محل الخطر ومواطن الهلكة ، فلا يتريث ولا يقتصر على المدافعة النفسية وإقامة الأدلة النظرية والبراهين المنطقية ، فإن ذلك لا يفيد عند ثوران الشهوة الطبيعية واستحكام الأهواء البشرية ، فلا بد من الفرار الحسى وعدم الاقتصار على الحوار النفسى .

١٠ - (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ^(٢) إلى قوله (إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ) ^(٣) .

يؤخذ منه شدة حرصهن على ما يردن من الرجال واحتيالهن فى هذا الموضوع بكل ضروب الحيلة ، فإنهن إذا ابتلن بالحب أظهرن ما يعجز عنه إبليس ، مع مساعدة الطبيعة للميل إليهن ، وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن ، كما يشير إليه قوله تعالى (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ^(٤) ، فما فى العالم فتنة أضر على الرجال من النساء ، فلنعرف ذلك ولنحذر منه .

١١ - (وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) ^(٥) : يؤخذ منه أن الإنسان قد يصل من المحبة إلى مقام لا يحس فيه بألم ، استغراقاً فى المحبة ، فلنعذر من تلك المحبة التى تصيرنا عبداً ، ولنجتهد فى محبة الله ورسوله التى تصيرنا ملائكة أطهاراً .

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٥

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٥

(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٨

(٤) سورة النساء ، الآية ١

(٥) سورة يوسف ، الآية ٣١

١٢ - (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)^(١) :

يعلمنا سبحانه وتعالى أن طريقة عباد الله المخلصين الذين ينزهنا
الافتداء بهم تعظيم أمر الله ، والتضحية بكل شيء في سبيله . ولو
أدّى ذلك إلى السجن والهوان .

وقوله : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ
الْجَاهِلِينَ)^(٢) يغرس فينا ملكة الرجوع إلى الله في كل شيء . موقنين
أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ،
الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين بربهم وإحاطته التي لا يخرج عنها شيء .

١٣ - (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ)^(٣) : يؤخذ منه أن
أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنة لا تحت
ظل العمل والسعي .

١٤ - (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ)^(٤) :

دعوة للتوحيد على أتم وجه وأحسن أسلوب ، فعلينا أن نسلك
ذلك في الإرشاد والدعوة وإقامة الأدلة .

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٣

(٣) سورة يوسف ، الآية ٣٨

(٤) سورة يوسف ، الآية ٢٩

١٥ - (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ : ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالَ
النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) (١) :

يعلمنا التائي في الأمور وعدم العجلة فيها مهما كان أمرها ، فإنه
عليه السلام لم يحمله الفرع بطلب خروجه من السجن الذي لبث
فيه بضع سنين أن يبادر إلى ذلك قبل أن تظهر مداعته على أتم الوجوه
حتى لا يكون هناك شك ولا ريبة .

١٦ - (إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) (٢) :

إشارة إلى أن النفس بطبعها كثيرة الميل إلى الشهوات ، وقد
قال بعضهم : النفس ظلمة كلها وسراجها التوفيق .

١٧ - وبعد : فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى ، وهي
امتحان من يريد اصطفاؤهم واجتباؤهم حتى يخلصهم من ضرر النفوس
وظلمة الهوى الذي يضل عن سبيل الله وينحرف بهم عنه إلى ما سواه ،
فإنه يريد منهم أن يلتجئوا إليه ولا يعولوا إلا عليه ، وقد قال بعض
عشاق الجمال الطبيعي :

أبي القلب إلا حب ليلى فبغضت إلى نساء ما لهن ذنوب

، فما بالك بناولئك الروحانيين الذين محبتهم أرق وأصنى ،
ومحبوبهم أعلى وأسمى ! وقد قالوا : إن النعيم الروحاني يفوق النعيم
الجسماني ، كما أن العذاب الروحاني أشق من العذاب الجسماني ،

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٠

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥٣

١٨ - (إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) ^(١) :

يعلمنا أن الإنسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفرغ إلى الكبير المتعال ، وألا يعول على شيء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عداه ، كما يشير إليه الإتيان بأداة الحصر ، فكل من انقطع إليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه ، وما أحسن قول بعضهم : فإن رحالنا حطت رضاءً بحكمك عن حلول وارتحال وقول الآخر :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمعنا

١٩ - (لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) ^(٢) : يعطينا درساً من مكارم

الأخلاق ، فالكريم إذا قدر عفا والعدو عند كرام الناس مقبول قال بعض المحققين : من نظر إلى الخلق بعين الحق لم يعبأ بما يكون منهم ومن نظر إليهم بغير ذلك أفنى أيامه في مخاصمتهم ، ألا ترى يوسف عليه السلام - لما علم مجارى القضاء كيف عذر إخوته وقيل : لا تثريب عليكم !

٢٠ - (أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا) ^(٣)

يفيد أن أمدرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفاً فيها على تلك

(١) سورة يوسف ، من الآية ٨٦

(٢) سورة يوسف ، من الآية ٩٢

(٣) سورة يوسف ، من الآية ٩٣

النواميس المادية التي فدمسها الجاهلون ووقف عندها الجامدون ، وكيف يعلم ذلك أو يفهمه أولئك المشدقون الواقفون عند الظواهر وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة والأرواح اللطيفة ، فهو يفتح لنا باباً من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

٢١- (قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون)^(١) :

الأصفياء تارة يكشف لهم عن اللوح المحفوظ ، وتارة لا يعرفون ما تحت أقدامهم ، وانظر كيف وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة أيام ولم يجد ذلك عندما كان في الجب وليس بينه وبينه الا ساعة من نهار ، لكن المسألة موقوفة على الإذن الإلهي والحكمة الربانية .

٢٢- (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)^(٢) :

نعلمنا أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عارفاً بطريق الهدى وسبيل السعادة ، ونعرف من هذا حال أولئك الجاهلين المشدقين الذين هم في ضلالة مدلهمة ومهامه يحار فيها الخريت وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وربما عدنا إلى القصة مرة ثانية - إن شاء الله - فإن فيها عبرا وحكما تنفع في الدين والدنيا ، لما فيها من سير الملوك والماليك والعلماء ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، وحسن التجاوز عنهم بعد القدرة عليهم ، وغير ذلك مما سمعت وستسمع .

(١) سورة يوسف ، من الآية ٩٤ (٢) سورة يوسف ، من الآية ١٠٨

٢٣- وفيها فوق ذلك كله بيان كثير من الأسرار الروحانية التي لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة : منام يوسف عليه السلام ، ومنام صاحبي السجن ، ومنام الملك ، ومثل وجدان ريح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، وردّ بصر يعقوب بإلقاء القميص على وجهه .

وما أجدرها أن توصف بأنها سورة الروحانيات ، أو سورة الصبر والتقوى . ونرجو أن نوفق لبيان ذلك على ما نحب ويحب القارئ الكريم - إن شاء الله -

حياة الأنبياء ومديت «حياتي خير لكم»

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا المحقق الشيخ يوسف الدجوى و
السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فعيننا جماعة متهوسون ينكرون
حياة الأنبياء مستندين لقوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »^(٢)
كما يردون حديث « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا مت
كانت وفاتي خيراً لكم تعرض على أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدت الله
وإن وجدت شراً استغفرت لكم) فنرجو من فضيلتكم تحقيق ذلك ولكم
مزيد الشكر . ورجاؤنا أن تفيضوا القول في هذا الموضوع الخطير
فإن الأمر جليل ، أدامك الله سيفاً للدين وقامعاً للملحدين .

عبد الرحمن محمد

مدرس بالمدارس الابتدائية

الجواب

الأنبياء أحياء في قبورهم قطعاً ، وهم أولى بذلك من الشهداء الذين
وردَ فيهم النص القرآني في قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون)^(٣) بل الحياة ثابتة

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثاني المجلد الثالث - صفر ١٣٥١ هـ

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٠

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩

لجميع من فارق الدنيا ولو كفاراً ، كما يدل عليه حديث أهل القليب الذى فى البخارى ، وجاء فى الصحيح أيضاً أن الميت بعد دفنه يسمع قرع نعال المشيعين ، وأن الروح تنادى حامل الجنازة ، وأنه يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان ، ولو سمعه لصعق .

وقد رأى صلى الله عليه وسلم فى ليلة الإسراء والمعراج موسى عليه السلام - يصلى فى قبره ، كما رآه فى السماء السادسة وقد راجعه مراراً فى أمر الصلاة ، وقد وضع البيهقى رسالة فى حياة الأنبياء ، وللسيوطى أيضاً رسالة تسمى : (إنباء الأذكىاء بحياة الأنبياء)

أما قوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) فمعناه أن روحك ستفارق بدنك وتدخل فى عالم آخر ، فلا تشتغل بتدبير الجسم ، ولا تسرى عليها أحكام هذا العالم ونواميسه ، والا فقد ثبتت حياة الأموات كلهم فضلاً عن الأنبياء كما قلنا ، وإن كانت الحياة مقولة بالتشكيك ، وبين درجاتها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله ، وما أنت ذا تشاهد فى هذا العالم من مراتب الحياة المتفاوتة بين أنواع الحيوانات وأصنافها إلى أن تصل إلى أعلاها ما يجعل الأمر لديك فى غاية الجلاء والوضوح .

ولنقص عليك شيئاً من أدلة حياة الأنبياء وكلام العلماء فى ذلك :

أما الكتاب فيكفنيك منه الآيات المتعددة فى حياة الشهداء ، والإجماع على أن الأنبياء أرفع درجة من الشهداء . قال ابن حزم فى المحلى بعد ذكره الآيات الواردة فى حياة الشهداء ما نصه : ولا خلاف

بين المسلمين في أن الأنبياء عليهم السلام - أرفع قدراً ودرجة ، وأتم فضيلة عند الله عز وجل ، وأعلى كرامة من كل من دونهم ، ومن خالف في هذا فليس مسلماً اه .

وأما السنة ففيها شيء كثير من الأدلة على حياتهم ، فمن ذلك الحديث « الأنبياء أحياء في قبورهم يُصلون » رواه أبو يعلى والبيهقي من طرق متعددة من حديث أنس بن مالك ، قال المناوي في شرح الجامع الصغير : رجاله ثقات وصححه البيهقي اه ومثل ذلك للحافظ السخاوي في القول البديع ، ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقي في (حياة الأنبياء) وبها يصير من الصحيح المتفق عليه .

ومنها حديث الإسراء الذي فيه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم . وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرطبي في (التذكرة) وابن القيم في (كتاب الروح) والحافظ السيوطي في غير ما كتاب من كتبه ، على أن أحاديث حياة الأنبياء في قبورهم متواترة ، قال السيوطي في (مرقاة الصعود) : تواترت بها الأخبار ، وقال في (إنباء الأذكىء بحياة الأنبياء) ما نصه : حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علماً قطعياً ، لما قام عندنا من الأدلة في ذلك ، وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك . اه .

وقال ابن القيم في (كتاب الروح) نقلاً عن أبي عبد الله القرطبي : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس

وفي السماء ، خصوصاً بنوسى وقد أخبره بأنّه ما من مسلم يسلم عليه إلّا ردّ عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأنّ موت الأنبياء إنّما هو راجع إلى أنّهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم وإن كانوا موجودين أحياء . وذلك كالحال في الملائكة ، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم .

وقد نقل كلام القرطبي هذا أيضاً ، وأقره الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في شرحه لعقيدة أهل السنة ، ونص عبارته : قال أبو عبد الله القرطبي قال شيخنا أحمد بن عمر إن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أنّ الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذا كان هذا في غير الأنبياء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنّه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء ، خصوصاً بنوسى عليه وعليهم السلام ، وقد أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنّه من ما مسلم يسلم عليه إلّا ردّ عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأنّ موت الأنبياء إنّما هو راجع إلى أنّهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء . وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم . ١ هـ .

ويحقق ما ذكره هؤلاء الأئمة من تواتر الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء أنّ حديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم واستغفاره لأمتّه . وسلامه على من يسلم عليه . ورد من نحو عشرين طريقاً ،

وحديث الإسراء ورد من طريق خمسة وأربعين صحابياً ، وقد نص الحاكم والحافظ السيوطي على أن حديث الإسراء متواتر .

قال بعضهم : لا شك أنه يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم حتى على الدوام ، وذلك أنه محال عادة أن يخلوا الوجود كله من واحد يسلم عليه في ليل أو نهار .

وبعد فنحن نؤمن أنه - صلى الله عليه وسلم - حتى يرزق في قبره ، وأن جسده الشريف لاتأكله الأرض ، والإجماع على هذا ، وزاد بعض العلماء «الشهداء والمؤذنين» وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا أنهم لم تتغير أجسامهم ، والأنبياء أفضل من الشهداء .
أما حديث : « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ » فهو صحيح محتج به في هذا المقام وفي غيره بلا مرية . ولننقل لك ما قال المحدثون فيه فتقول : هذا الحديث رواد بن سعد في الطبقات من حديث بكر بن عبد الله المزني مرسلأ بسند صحيح كما نص عليه غير واحد من الحفاظ ، وقال بعضهم : إنه حسن نظراً لإرساله ، وقد نازع بعضهم في الاحتجاج به من حيث إرساله لا من حيث سنده ، ولكن فاته أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلأ أو موصولأ ولو ضعيفأ صار حجة عند جميع الطوائف من أهل الأصول والفقه والحديث ، كما نص عليه ابن الصلاح في علوم الحديث والنووي في التقريب وفي مقدمة شرح مسلم وغيرهما من كتبه وكذا الحافظ ابن حجر في النخبة والعراقي في الألفية والسخاوي وشيخ الإسلام زكريا في شرحهما عليها والسيوطي في ألفيته وفي شرحه لتقريب النووي .

إذا تقرر هذا عرف أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلًا أو مسندًا صحيحاً أو ضعيفاً كما صرحوا به كان حجة قطعاً . بل اشترط جمع من أهل الحديث والأصول كونه ضعيفاً لتقوم الحجة بالمجموع « المسلسل والمسند » وإلا كان المسند الصحيح كافياً في الاحتجاج .

ولتعلم أن هذا الحديث ورد من طريقين آخرين موصولين : أحدهما إسناده جيد والآخر ضعيف ، فالأول من حديث عبد الله بن مسعود أخرجه البزار ونص الزرقاني في شرح المواهب اللدنية على أن إسناده جيد ، وكذا الشهاب الخفاجي في (شرح الشفا) على أن إسناده صحيح ، وكذا نص ملاً على قارى في شرح الشفا على أن إسناده صحيح .

والطريق الثاني للحديث المذكور عن أنس بن مالك كما عزاه له السخاوى في القول البديع ، والسيوطى في الجامع الصغير ، إلا أنه أورد مختصراً ، وقال المناوى : إن إسناده ضعيف . فلو لم يرد إلا حديث أنس الضعيف لكان مرسل بكر بن عبد الله المزني حجة على رأى الجميع بانضمام حديث أنس إليه ، فكيف وقد انضم حديث ابن مسعود الصحيح إليهما ؟ .

بل نقول : عندنا في الحديث ما هو أكبر من ذلك كله ، وهو أن الحديث متواتر تواتراً معنوياً لورود معناه من حديث جماعة من الصحابة يبلغ عددهم حد التواتر ، وهم عبد الله بن مسعود ، ولحديثه طرق تزيد على الخمسة ، وأنس بن مالك ولحديثه طرق تزيد على الستة ،

وأبو هريرة ولحديثه طرق تزيد على العشرة ؛ وعمار بن ياسر وأبو أمامة
وعلي بن أبي طالب وابنه الحسن وابن عباس وأبو بكر الصديق وأوس
ابن أوس الثقفي وأبو الدرداء وأبو مسعود البدرى الأنصارى وعمر بن
الخطاب وابنه عبد الله بن عمر .

وروى مره لا عن جماعة من التابعين ؛ منهم بكر بن عبد الله المزني
والحسن البصرى وخالد بن معدان وابن شهاب الزهري ويزيد الرقاشي
وأيوب السختياني ، وفي الباب غير المذكورين من الصحابة والتابعين .

وهذا القدر كاف في إثبات التواتر خصوصاً على رأى من يثبتته
بسبعة أو عشرة ، وهو الذى رجحه الحافظ السيوطى فى ألفيته حيث
قال :

وما رواه عدد جم يجب إحالة اجتماعهم على الكذب
فمتواتر وقوم حددوا بعشرة وهو لدى أجود

ومشى عليه فى كتابه (الفوائد المتكاثرة) ومختصره (الأزهار
المتناثرة) فحكم بتواتر أحاديث لا تزيد طرقها على العشرة ، وهناك
من يكتفى فى التواتر بأقل من ذلك كما هو مبين بكتب الأصول وغيرها ،
وقد ذكرنا لك ما يزيد على العشرين وقد حكم جماعة من الأقدمين
بالتواتر فى الخمسة والأربعة ، ومنهم ابن حزم فى (المحلى) و (الأحكام)
والطحاوى فى شرح معانى الآثار ، والقاضى أبو الطيب الطبرى وغيرهم .

أما حديثنا فمتواتر على جميع الاصلطلاحات ، نوجود ما يزيد
على العشرين فى كل طبقة من طبقات رواته ، ولسنا ندهى تواتر لفظ
هذا الحديث بل تواتر معناه ، فإياك وتلبيس المغالطين أو غلط الجاهلين .

ثم نقول بعد هذا : إنه تقرر في كتب الفقه والأصول والكلام أن منكر المتواتر بعد قيام الحجة عليه يكفر ، فأياك والإنكار أو الإصغاء لأولئك الجاهلين المتفيهقين ، فإنهم على شفا جرف هار .

وقد أطلنا في هذا المقام ليقتنع أولئك الثرثارون ، أو ليحذرهم الناس ، وليعلموا أنهم على خطر عظيم ، وأنهم من أولئك الدعاة الواقفين على أبواب جهنم ، فمن أجابهم إليها قذفوه فيها ، كما في الحديث الصحيح . أسألكم الله أن يقرنا بشر الفتنة . وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين . بمنه وكرمه .

(١) هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء

جاءنا هذا السؤال من الموقنين أدناه ، ونصه بعد الديهاجة :

الذي نعتقد ونعتقد أن كل موحد صادق يعتقد أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، واليوم وقع في يدنا (مجلة المنار) فوجدنا صاحبها يقول : إن أجساد الأنبياء تبلى ، ويجتهد في تضعيف الحديث الوارد في ذلك ، ولا يجب إعتقاد أن أجساد الأنبياء لا تبلى ، ويقول : إن هذه المسألة من مسائل الإيمان بعالم الغيب ، فهي اعتقادية ، وما يجب اعتقاده والإيمان به لا يثبت إلا بالنصوص القطعية الرواية والدلالة ، وليس فيها نص ظني راجح فضلاً عن القاطع ، ويقول : إنها من مسائل المناقب والفضائل التي يقبلون فيها الروايات الظنية ولا يابون إثباتها بما دونها من الضعاف ، وبهذا النظر قيل بعض ما روى فيها وإن كان معلولاً ، إلى أن يقول : إن التسليم بهذه الخرافات وعدم إنكار العلماء لها قد كان فتنة للعقلاء المستقلين ، منفراً لهم عن الدين ، إلى أن يقول : وقد نبش بعض رجال الحكومة التركية اللادينية الحاضرة بعض قبور الأولياء المعتمدين ، عند العامة أمام الجماهير منهم فأروهم بأعينهم أنه ليس فيها إلا عظام نخرة .

هذا ما قال ، فنرجو من فضيلتكم بيان الحق في ذلك - حتى نطمئن
على عقيدتنا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الحميد محمد بيومي أحمد سلمان عثمان التجاني
المدرس بمدرسة الزواهل مدرس بمدرسة الكفر القديم
فوزي السيد خالد التجاني

مدرس

عبد الرحيم مصطفى التجاني محمد محمد غالي التجاني وآخرين
مدرس بمدرسة الجوسق الالزامية مدرس بمدرسة العدلية

الجواب

أحضرنا المجلة المذكورة فقرأنا ما فيها خاصةً بذلك الموضوع . وإن
نرى قبل كل شيء أن نبين ما في هذه المجلة من التناقض الذي يدل
على الضعف العلمي وعدم الرسومخ في القوانين المنطقية : ثم المجازفات
الشيعة التي لا يقدم عليها محتاط لدينه ولا مثبت في علمه ، فنقول :

أقال الشيخ رشيد : إن هذه المسألة من المسائل الاعتقادية التي
يجب أن تكون أدلتها قطعية ، ثم قال بعد ذلك : إنها من مسائل
الفضائل التي يتساهلون فيها . وكفى بذلك تناقضاً وجهلاً .

ثم نقول له ثانياً : إن الاعتقادات التي يجب فيها القطع هي
التي تكون من أصول الدين ، وليست كل مسألة غير عملية يلزم فيها
القطع ، بدليل ما ذكرته أنت من أن الفضائل يتساهل فيها ، وليس
معنى كون المسألة اعتقادية أن فيها اعتقاداً كما توهمه صاحب المنار .
فإن المسائل العملية نعتقد صحتها ووجوبها أو مسيئتها . إلخ . ولا نقدها

على شيء من الأمور العملية إلا بعد أن نصدق بأنه شرع الله ورد به خطابه المتعلقة بفعّال المكلفين ، وإذ لم نعتقد ذلك لم يكن حكماً شرعياً عندنا .

فإذا لابد من الاعتقاد في مسائل الحلال والحرام والفروع العملية كلها ، كما أن من الاعتقادات الاعتقاد بأن أبا بكر أفضل الصحابة مثلاً . وأنه أحسن بالخلافة منهم ، وأن عمر أفضل من عثمان ، وأن المسجد الحرام أفضل من المسجد الأقصى . إلخ إلخ . . وهذه كلها لا عمل فيها وإنما فيها الاعتقاد ، أفيرى الشيخ أنه لابد فيها من الدليل القاطع كما يقول ، أم يسهل عليه أن نفيده أن الاعتقادات التي سمع العلماء يقولون فيها : أن دليلها قاطع هي أصول الدين التي لابد منها في كون الشخص مسلماً ؟ !

والخلاصة أن الاعتقادات التي يجب أن تكون أدلتها قطعية هي ما يكفر جاحدها لا كل ما فيه اعتقاد ، أو ما ليس فيه عمل كما ظن حضرته ، فلا نطلق الاعتقادات إلا على ما أوجب الدين اعتقاده وجعله من الأصول لا من الفروع ، والأصول كلها اعتقادية ، فصارت هذه العبارة متعاقبة بينهم في ذلك ، كما لا يخفى على من مارس العلم أو تلقاه عن العلماء .

ثم نقول : كيف يكرر الشيخ أن المسألة ليست قطعية ولا ظنية مع ورود الأحاديث الصحيحة فيها على ما ذكره بعد ، ويصف القائلين بذلك أنهم خرافيون ! وهذه جراءة غريبة ، فإن الأحاديث في ذلك صحيحة

لا شك فيها ، وقد خرجها الثقات من أئمة الحديث وصححوها
كما ستسمع .

أما ما يقوله من أن الأتراك نبشوا قبور الأولياء فوجدوها عظاماً
تخرة ، فلا يستدل به إلا من ليس له علم ، ومن أين جاءه أن الولي دفن
في هذه القبور ؟ وهل ثبت عند ذلك من طريق صحيح وهو يطعن
في الطريق الصحيحة إذا كان فيها فضل الأنبياء وشرفهم ونحو ذلك
بما لا يوافق نزعتهم ، ويصدق كل ما يقال واو كان أوهى من بيت
العنكبوت إذا صادف هوى في نفسه أو جاء عن الأوربيين ، وإذا يؤول
له الآيات القرآنية .

ثم نقول بعد ذلك : ما لنا وللأولياء ؟ وأين هذا من كلام السائل
الذي سأل عن الأنبياء الذين وردت فيهم الأحاديث الصحيحة ،
لا في الأولياء الذين يجوز عليهم كل شيء حيث لم يكونوا معصومين ؟
فلو ثبت ما قاله لصح أن نقول : إن الولي قد تغير حاله واقترف من
الكبائر ما جعله في زمرة الفاسقين ، فذاك جائز عليهم ، كما يجوز
الغلط في اعتقاد أنهم أولياء .

ولماذا يذكر ما رآه الكماليون ولا يذكر ما ذكرته الجرائد المصرية
في ظروف كثيرة من ذلك عندما كانت الحكومة تريد أن تنقل بعض
الأولياء من أماكنهم لأمر ما « كآبي نواز - بينها » وأحد الصحابة
بالعراق ، وقد حضر نقل جثمانه جمهور عظيم وعلى رأسه جلالة الملك
فيصل كما ذكرته الجرائد من عهد قريب ! وغير ذلك كثير لا يحضرني
الآن ، ووزارة الأوقاف تعرف كثيراً منه .

وفي (موطأ الإمام مالك) وغيره أن معاوية لما أراد أن يجرى النهر الذي يمر في قبور الشهداء بأحد ، وجدوا عمرو بن الجموح لم يغير ، وكذلك غيره ، حتى قال بعضهم : لا ينكر بعد هذا منكر . وكان بين غزوة أحد وخنزير النهر ست وأربعون سنة ، وفي مثل هذا آثار كثيرة ، فلماذا يعدل عما في الموطأ وغيره إلى ما روى عن الأثران ولو كان صحيحاً كما يقول !

الكلام على الحديث :

ورد في هذا الموضوع أحاديث كثيرة : منها حديث « **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ** » وهو حديث صحيح في نهاية الصحة لا غبار عليه ، صححه من الأئمة من لا يحصى عددهم ، منهم ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقره الذهبي (صفحة ٢٧٨ جزء أول من المستدرک) ، و صححه أيضاً النووي في الأذكار ، والحافظ عبد الغنى بن سعيد المقدسى والإمام القرطبي في التذكرة ، والحافظ ابن يحيى وقال : إنه صحيح محفوظ ينقله العدل عن العدل ، وحسنه ابن العربي المالكي فيما نقله عنه الثعالبي في العلوم الفاخرة ، وحسنه أيضاً المنذرى فيما نقله عنه السخاوى ، و صدره في الترغيب والترهيب بعن ، وهى علامة الصحيح والحسن عنده .

ومع تصحيح هؤلاء الحفاظ الأعلام ، وفيهم الذين لا يعرف لهم تساهل فيه كـ الذهبي والمنذرى ، وابن العربي المالكي ، فإننا نتكلم على الحديث من جهة الصنعة الحديثية فنقول : الحديث أخرجه سعيد ابن منصور : وابن أبي شيبه وأحمد فى مسنده ، وابن أبى عاصم فى

الصلاة له ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم ، والطبراني في معجمه ، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في صحاحهم ، والبيهقي في حياة الأنبياء وشعب الإيمان وغيرهما من تصانيفه ، كلهم من طريق حسين بن علي الجعفي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس الثمقي قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَفْضَلُ أَيَّامِكُمُ الْجُمُعَةُ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ . قَالُوا : وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ - يَقُولُونَ بَلَيْتَ - قَالَ : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » .

رجاله كلهم ثقات على شرط الصحيح : أبو الأشعث الصنعاني اسمه شراحيل بن أدة ، روى له مسلم ووثقه العجلي ، وذكره ابن حبان في الثقات . وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر روى له البخاري ومسلم ، ووثقه ابن معين والعجلي ، وابن سعد والذسائي ويعقوب بن سفيان وأبو داود وغيرهم . والحسين بن علي الجعفي روى له البخاري ومسلم ، ثقة باتفاق ، قال عثمان بن أبي شيبة : يخ بع ثقة صدوق ، وبه تم الاسناد ، فإن حسين بن علي شيخ جماعة ممن أخرجوا الحديث : فهذا برهان ما حكم به أولئك الحفاظ من الصحة لهذا الحديث .

ثم إن له طريقاً آخر أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي الدرداء مرفوعاً : « أَكْثَرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ يَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ وَإِنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إِلَّا عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلَاتُهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا » .

قَالَ : قُلْتُ : وَبَعْدَ الْمَوْتِ ؟ قَالَ : « وَبَعْدَ الْمَوْتِ ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى ۱۱
الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » . قال الحافظ المنذرى فى الترغيب
والترهيب : إيمانه جيد ، وكذا قال العلامة السمهودى فى وفاء الوفا
(صفحة ٤٠٦ : جزء ثانى) وقال السخاوى فى القول البديع والحافظ
البوصيرى فى زوائد ابن ماجه : رجاله ثقات ، إلا أن فيه انقطاعاً .
قلت : انقطاعاً ، لا يضر ، لأن الحديث الأول الصحيح شاهد له .

وله طريق ثالث عن ابن شهاب درسلًا : « أَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ
فِي اللَّيْلَةِ الْغُرَاءِ وَالْيَوْمِ الْأَزْهَرِ ، وَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ »
أخرجه التميمى والطبرانى كما ذكره السخاوى فى القول البديع . وله
طريق رابع أخرجه ابن ماجه من حديث شداد بن أوس بلفظ حديث
أوس بن أوس . وله طرق أخرى ذكر الحافظ المنذرى فى اختصار السنن
لأبى داود أنه جمعها فى جزء خاص . فلا يرتاب مع هذه الطرق والشواهد
فى صحة هذا الحديث إلا متعصب جاهل أو معاند مضل .

ويلاحظ بذلك الموضوع ما يحسن أن نتمم به هذا المقام ، وهو
حديث : « الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِى قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ » رواه أبو يعلى والبيهقى
من طرق متعددة من حديث أنس بن مالك ، قال المناوى فى شرح
الجامع الصغير قال السمهودى : رجاله ثقات ، وصححه البيهقى .
انتهى . قلت : والسمهودى ذكر ذلك فى وفاء الوفا (صفحة ٤٠٥ جزء
ثانى) ، وسبقته إلى ذلك الحافظ السخاوى فقال فى القول البديع
(صفحة ١٢٦) : رجاله ثقات ، وصححه البيهقى .

ولنبين ذلك من طريق الصنائة الحديدية حتى ينقطع لسان كل
مكابره ، فنقول : قال أبه يعلى : حدثنا أبو الجهم بن على ، حدثنا
يعحي بن أنى بكير ، حدثنا المستم بيزر سعيده عن الحجاج بن الأسود
عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءُ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ » رجاله كلهم ثقات - ثابت :
هو البنائى ، لا يسمأل عنه لإمامته وجلالته ، ثقة باتفاق ، من رجال
البخارى ومسلم . والحجاج بن الأسود قال أحمد : ثقة ، رجل صالح .
وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم : صالح الحديث ، وذكر
ابن حبان فى الثقات ، ولم يعرفه الذهبى فقال : إنه غير معروف ، ورد
ذلك الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان بأنه معروف ، روى عن ثابت
وجابر بن زيد وأبى نضرة وجماعة ، وعنه جرير بن حزم وحماد بن سلمة
وروح بن عباد وآخرون : ثم ذكر عن الأئمة توثيقه الذى قدمنا ،
والراوى عنه مسلم بن سعيده من رجال الأربنية ، قال أحمد : شيخ
ثقة ، من أهل واسط قليل الحديث ، وقال النسائى : ليس به بأس ،
وذكره ابن حبان فى الثقات . ويعحي بن أبى بكير ثقة ، من رجال
البخارى ومسلم ، وثقه ابن معين والعجلي وقال أبو حاتم : صدوق .
وقال على بن المدينى : ثقة ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وأبو الجهم
روى له البخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم فى صحيحه وذكره ابن حبان
فى الثقات .

فحال رجال هذا الإسناد كما ترى : كلهم ثقات ، فهو صحيح
على رأى ابن حبان والحاكم وأمثالهما ، حسن على رأى البخارى وأمثاله .

ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقي في حياة الأنبياء، وبها يرتفع إلى درجة الصحيح المتفق عليه ، منها حديث الإسراء الذي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم .

وقد نص كثير من الأئمة وانحناظ كالقرطبي في التذكرة ، وابن القيم في كتاب الروح ، والحافظ السيوطي في غير ما كتاب من كتبه على أن أحاديث حياة الأنبياء في قبورهم متواترة .

وقال ابن القيم في كتاب الروح نقلاً عن أبي عبد الله القرطبي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء خصوصاً موسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام .

إلى غير ذلك مما يحصل من جماته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون لا نراهم . انتهى .

وقد نقل كلام القرطبي هذا أيضاً وأقره الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في شرحه لعقيدة أهل السنة ، إلى آخر ما كتبناه في حياة الأنبياء بشهر صفر من هذه السنة .

وقد نص الحاكم والحافظ السيوطي على أن حديث الإسراء متواتر أيضاً .

وحديث « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ »
ورد من طرق متعددة كما قدمناه ، وقد صرح أنه كشف عن غير واحد
من العلماء والشهداء فوجدوا لم تتغير أجسامهم ، والأنبياء أفضل
من الشهداء . ٥١ .

فصاحب المنار خرق إجماع المسلمين ، وعارض ما نقل عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وثبت عنه بالدليل القاطع .

مناقشة الشيخ رشيد في عباراته المتهافته :

وبعد هذا يحسن أن نتلو عليك شيئاً من عباراته لتعلم ما فيها
من جهل وتناقض فنقول :

قال تمهيداً لاستنتاجه الفاسد ، « إِنَّ سَنَةَ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ وَاحِدَةٌ
فِي حَيَاتِهِمْ وَمَوْتِهِمْ » .

ونحن نقول له : إِنَّ سَنَةَ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولِينَ لَيْسَتْ كَسَنَّتِهِ
فِي غَيْرِهِمْ ، بَلْ سَنَةُ اللَّهِ فِي الصَّالِحِينَ لَيْسَتْ كَسَنَّتِهِ فِي الطَّالِحِينَ ،
ولهذا أظهر المعجزات على يد الأنبياء ، والكرامات على يد الصالحين ،
وخصهم بخصائص ليست لغيرهم في الحياة وبعد الممات ، وهل من سنة
الله أن يسمع من في المدينة من يكون ببلاد فارس ، كما حصل لعمر مع
سارية رضى الله عنهما . وهل من سنة الله أن تضىء العصا لصاحبها كما
حصل لاسيد بن حفصير وعباد بن بشر لما خرجا من عند رسول الله
في ليلة مظلمة ، وهو في البخارى وغيره .

بل نقول : وهل من سنة الله الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى ثم الرجوع في ليلة واحدة ، بل العروج إلى السموات العلا

وإلى سدرة المنتهى . إلخ . إلخ ؟ أم هو كلام قائله قائل فاعتبر به جاهل ، قياساً على الأعراض البشرية من المرض والقتل والحياة والموت . إلخ ؟ ولماذا لم يسلموا السحر مع صحة حديثه وهو من الأعراض البشرية ؟ أم يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ؟ وقد قال تعالى في حق الشهداء ، أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، والأنبياء أفضل من الشهداء بإجماع ، فهل يرى أن كل ميزة للأنبياء والشهداء هي مشتركة بينهم وبين غيرهم تحقيقاً لما قاله من أن سنة الله في البشر واحدة في حياتهم ومماتهم ، وإذا لا تكون ميزة ، فهل يعقلون هذا ؟ !

ثم انظر إلى قول الشيخ رشيد الأمين الثقة بعد ذلك : أنه ورد في غير الصحاح أن أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض وما أدرى كيف يحل له أن يقول بعد ما سمعته في تصحيح الحديث ، أن ذلك ورد في غير الصحاح .

ثم قال حصرته : وأمثلة ما ورد في ذلك حديث أوس بن أوس في فضل يوم الجمعة الذي فيه أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تُعْرَضُ عَلَيْهِ ، قَالَ أَوْسٌ : قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ ؟ يَعْنِي بَلِيَّتَ - قَالَ : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ . رواه أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي والبيهقي في الشعب ، وفي رسالته حياة الأنبياء وغيرهم ، وقد صححه بعضهم وحسنه آخرون ، منهم المنذرى .

هذا كلامه ، فانظر لذكره هؤلاء الأئمة الذين خرجوا الحديث ثم صححوه أو حسنوه ، ثم انظر إلى ما سبق له وإلى ما يذكره من أن الذي تمسك بهذا هم المخرفون !

ثم قال بعد ذلك طاعناً في الحديث ما خلاصته : أن أبا حاتم جزم بأن في الحديث علة خفية ، وهي أن راوية حسينا الجعفي غلط في اسم جد شيخه عبد الرحمن بن يزيد فسماه جابراً ، وإنما هو تميم ، وابن تميم منكر الحديث ، فالحديث منكر لهذه العلة .

هذا محصل عبارته على تحريف وغلط فيها .

ثم قال : لكن هذه العلة ردها الدار قطنى وقال ، أن سماع حسين من جابر « وصوابه من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر » ثابت . وإلى هذا جنح الخطيب ، والعلم عند الله تعالى . وهناك أحاديث أخرى تقويه وتشهد له . ٥١ .

ونقول له : كيف يحل لك بعد ما ذكرت كثيراً من أولئك الأئمة الذين صححوه ، وبعد ما ذكرت أنت أن الدار قطنى رد هذه العلة وقال : أن سماع حسين الجعفي من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثابت ووافقه الخطيب .

نقول : كيف يحل لك بعد ذلك كله أن تجعل القائلين بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء مخرفين ! أفلا تعقل يا أستاذ ما تكتب ؟ أما كان ينبغي لك أن تقول في المقدمات غير ما قلت ، أو لا تكتب في النتيجة غير ما كتبت ؟ ولكن لا غرابة ، فلست من أهل هذا الشأن ، وليس فيك استعداد لأن تكون من أهل المنطق .

وبعد فنقول : أن الدار قطنى أثبت في هذا الشأن من أبي حاتم ،
ولا أدري كيف يتجه هذا الطعن والحديث في سنن أبي داود والنسائى
وغيرهما ، وفيه التصريح بأن عبد الرحمن هو ابن يزيد بن جابر
لا ابن تميم ؟

ولنذكر لك شيئاً مما ذكره علماء المصطلح عن أبي حاتم الذى قدمه
الشيخ رشيد على أولئك الأئمة الذين صححوا الحديث جميعاً : قال
في شرح التقريب :

١ - « أحمد » عن عاصم البلخى : جهله أبو حاتم لأنه لم يخبر
حاله ، ووثقه ابن حبان .

٢ - « أبو اليسع » : جهله أبو حاتم وعرفه البخارى .

٣ - « بيان بن عمرو » : جهله أبو حاتم ووثقه المدينى وابن حبان
وابن عدى ، وروى عنه البخارى وأبو زرعة وعبد الله بن أبي واصل .

٤ - « الحسين بن الحسن بن يسار » : جهله أبو حاتم ووثقه
أحمد وغيره .

٥ - « الحكم بن عبد الله المقبرى » : جهله أبو حاتم ووثقه الذهبى
وروى عنه الثقات .

٦ - « عباس بن الحسين القنطرى » : جهله أبو حاتم ووثقه
أحمد وابنه وروى عنه البخارى والحسن بن على المعمرى ، وموسى
بن هارون الحمال ، وغيرهم .

٧ - « محمد بن الحكم المروزى » : جهله أبو حاتم ووثقه
ابن حبان ، وروى عنه البخارى .

وبعد فما أدرى كيف يطعنون في هذا الحديث بتلك العلة التي لا معنى لها بعد أن صرح حسين الجعفي بأنه راو عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لا عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، وليس من شأنه أن يروى عن الضعاف ، ولا يعقل أن يخفى ذلك عليه ، ولا أن يغلطة في شيخه .

ولنذكر لك شيئاً من ترجمته زيادة على ما تقدم فنقول : هو حسين بن علي الجعفي مقرئ الكوفة وعابدها ومحدثها ، وشيخ أحمد وابن راهوية وابن معين وغيرهم ، وثقه العجلي وابن معين وابن حبان وغيرهم ، وكان في الورع آية ، وقد خرج له الشينخان وأصحاب السنن الأربعة ، فلن يجد المتطلب معجزاً فيه .

أون آخر :

وقبل إلقاء القلم نتحلفك بشيء طريف يدل على علم الشيخ رشيد وتحريه وسعة اطلاعه ، ونقول : على عقله الكبير وعامه الغزير :
جاء في تفسير ابن كثير الذي طبعه الشيخ رشيد هذا الحديث الذي رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِي عَلَى ثَلَاثٍ ؟ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِّ مَا حَرَّمَ رَبُّهُمُ عَلَيْكُمْ)^(١) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ . إلخ . قال الحاكم : صحيح على شرط البخاري ومسلم ، ولم يخرجاه .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥١

فعلق عليه الشيخ رشيد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا
خمسة لا ثلاث .

ولم يبين حضرته في الحديث علة تقدح في صحته غير ما أبداه
من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هي الوصايا ، والنبي صلى الله
عليه وسلم يريد بها الآيات لا الوصايا ، وقد جاء التصريح بذلك ،
في رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى وابن المنذر وابن أبي حاتم
والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت وفيه :
« أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِي عَلَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ » ثم تلا ، (قُلْ تَعَالَوْا) إلى
ثلاث آيات .

فانظر إلى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائماً على شفا جرف
هار ! وكم له ولأتباعه من أمثال هذه التعليقات الحمقاء . فرحم الله
امراً عرف قدره ، فلم يتعد طوره .

ولعلنا نذكر للقارىء ما يبين خطأه في المحسوس ، ومقدار أمانته
في النقل بما لا يستطيع أن يمارى فيه . ولعمر الله ما قرأت عدداً من أعداد
(المنار) إلا وجدت فيه من الجهل والتناقض وقلة الذوق وسخافة
التعبير ما لو أردت أن أكتب فيه لكان كثيراً وخطيراً ، ولكان التعليق
على المنار أكثر من المنار ، ولكن نريك نماذج منها على سبيل الفكاهة ،
وهي تنبئ عما وراءها .

شَقُّ صَدْرِهِ^(١) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جاء في كتب السنة ورواه جميع أرباب السير وأخرجه مسلم في صحيحه : أَنَّ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةَ الَّتِي أَرْضَعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : بَيْنَمَا هُوَ وَأَخُوهُ - أَيُّ مِنَ الرَّضَاعِ - يَوْمًا خَلَفَ الْبُيُوتَ يَرْعِيَانِ بِهِمَا^(٢) لَنَا ، إِذْ جَاءَ أَخُوهُ يَشْتَدُّ - أَيُّ يُسْبِرُغُ فِي مَشْيِهِ - فَقَالَ لِي وَوَلَّابِيهِ : أَدْرَكَا أَخِي الْقُرْشِيُّ قَدْ جَاءَ رَجُلَانِ فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّ بَطْنَهُ ، فَخَرَجْنَا فَاثْتَهَيْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ^(٣) قَالَتْ حَلِيمَةُ : فَاعْتَنَقَهُ أَبُوهُ وَاعْتَنَقْتُهُ ، وَقُلْنَا : أَيُّ بَنِي ، مَا لَكَ ؟ قَالَ : أَتَانِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضٌ فَأَضْجَعَانِي ثُمَّ شَقَّ بَطْنِي « أَيُّ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِهِ إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِهِ كَمَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ » وَفِي رِوَايَةٍ : فَأَقْبَلَا يَبْتَذِرَانِ فَأَضْجَعَانِي فَشَقَّ بَطْنِي فَالْتَمَسَا فِيهِ شَيْئًا فَوَجَدَاهُ فَأَخَذَاهُ فَطَرَحَاهُ . وَفِي رِوَايَةٍ : فَأَخَذَانِي فَشَقَّ بَطْنِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلْمَةً سَوْدَاءَ ، وَقِيلَ هَذَا حِظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ يَا حَبِيبَ اللهِ^(٤) . قَالَ : ثُمَّ عَسَلَا قَلْبِي حَتَّى أَنْقِيَاهُ وَمَلَأَهُ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّكَ لَوْ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ .

(١) مجلة الأزهر الجزء الثاني المجلد الرابع - صفر ١٣٥٢

(٢) البهم : صغار الغنم .

(٣) بنون وقاف مفتوحة كما صرح به صاحب القاموس واقتصر عليه الشاوي في سيرته أو مكسورة كما يفيد المصباح . أي متغير كلون النقع أي الغبار من فزع أو حزن . ومثله . يتقع بالموحدة وبتقع بالميم ، وهو أجود .

(٤) المراد بكونها حظ الشيطان منه أنها مطعمه لأن مثلها من البشر هو محل وسوسته .

وأما رواية مسلم في صحيحه : فعن أنس رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ ،
فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَهُ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً
فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَمَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ثُمَّ
أَعَادَهُ إِلَى مَكَابِهِ ، وَجَاءَ الْعِلْمَانُ يَسْأَلُونَ إِلَى أُمَّهِ - يَعْنِي ظَنَرَهُ - فَقَالُوا :
إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ .

وروى أبو نعيم في الدلائل وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد مسند
أبيه : أَنَّ أَحَدَهُمَا قَالَ لِصَاحِبِهِ : أَخْرِجِ الْعُلَّ وَالْحَسَدَ مِنْهُ ، فَأَخْرَجَ
شِبَهَ الْعَلَقَةِ فَنَبَدَ بِهِ ثُمَّ قَالَ : أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ قَلْبَهُ ، فَأَدْخَلَ
شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْفِرْصَةِ ، ثُمَّ نَقَرَ إِبْهَامِي ، ثُمَّ قَالَ : أَعْدُدْ ، فَرَجَعْتُ بِمَا
لَمْ أَعْدُدْ بِهِ مِنْ رَحْمَتِي لِلصَّغِيرِ وَرَأْفَتِي بِالْكَبِيرِ .

وقد بلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم أن كسروا رباعيته يوم
أحد فلم يدع عليهم بل كان يقول : اللَّهُمَّ أَذْفَرُ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
وجاءه ملك العيال وقد أدموا قدميه يريد أن يطبق عليهم الأخشيين^(١)
فلم يرض صلى الله عليه وسلم بذلك بعد ما فعلوا به الأفاعيل ، إلى غير
ذلك مما هو معروف . وهذا مما لا يكاد يدخل تحت سلطان البشرية بعد
ذلك الإيذاء الشديد .

أما استبعاد ذلك فإنما هو من بنات الوهم والوقوف مع المعروف من
العادات ، وليس ذلك إلا من قياس الملائكة على الحدادين كما يقولون .

(١) هما جدد مكة وضواحيها .

على أن الطب قد أتى الآن بالأعاجيب ، وهو في تقدم باهر ورفى مطرد . وقد قالت الملائكة لامرأة إبراهيم عليه السلام عندما قالت إن هذا الشيء عجيب وقوفا مع العادة : (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)^(١) .

على أنها سنة الله في الأنبياء : يخرق لهم العادة تمهيداً لما يراد منهم ، وتنبيهها على أن لهم شأناً غير شأن الكافة ، كما حصل لسيدنا عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، وهو المسمى بالإرهاصات في عرف العلماء .

على أنك إذا حللت نفسية من ينكر أمثال هذه الخوارق وجدت منبع هذا الإنكار وسر ذلك الاستبعاد هو الشك في قدرة الله تعالى وحصر مقدراته فيما علمنا من النواميس التي ما عرفناها إلا بالحس والمشاهدة ، ومن يعتقد أن كل شيء راجع إلى ما علم ومنحصر فيما شاهد ، فما أعظم جهله وأقل علمه ! وهو بعد ذلك غير مؤمن بقوله تعالى : (إِنَّهَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٢) ولا بقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٣) ولا بقوله : (وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(٤) إلى غير ذلك ، بل هو جاهل بقدر نفسه وقدر العلم الذي لانهاية له ، فرحم الله امرأ عرف قدره ، فلم يتعد طوره .

أما حكمة خلقه صلى الله عليه وسلم بهذه العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان من الإنسان ، فهي أنه بشر في تكوينه ، وإنسان في

(١) سورة هود ، الآية ٧٣

(٢) سورة يس ، الآية ٨٢

(٣) سورة الطلاق ، الآية ١٢

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

خلقته وطبيعته ، وإن كان التفاوت بين أفراد الانسان على مراتب لا يحصيها العد ولا يأتى عليها البيان .

وليس هناك نوع من الأنواع تتفاوت أفراده كما تتفاوت أفراد نوع الإنسان ، والكامل من كمله الله تعالى ، .

فأراد الله أن يجعل نبيه صلى الله عليه وسلم أكمل نوع الإنسان - حتى يتم ما أريد منه من الغايات السامية ، فأرسل إليه ملائكته ليظهرود من نقائص البشرية وقابلية الشر والانقياد للشهوات الدنيئة والأدواء المضلة .

وأيضا لو خلق سليما من العلقة السوداء لم يقع الاطلاع على ذلك ، وهو أيضا أدل على مزيد العناية ، فكان في ذلك إظهار لكماله الرفيع وإعلان لعناية الله الخاصة به صلى الله عليه وسلم .

ولنرجع إلى الموضوع فنقول :

الخلاصة :

إن الله يريد أن يطهره من عوارض البشرية ، وظلمات الأنانية وسلطان الشهوات وجميع الآفات ، حتى يخلص من رعونات النفوس التي توقع صاحبها في الإفراط أو التفريط ، ليكون مستعداً للتحلى بمكارم الأخلاق ومراقبة الواحد الخلاق في كل ما يأتى ويذر .

وقد كان صلى الله عليه وسلم معروفاً بمكارم الأخلاق ، حتى كان يسمى عندهم قبل النبوة بالأمين . وكان يكره ما كانوا عليه من عادات .

رعبادات ، وما كان يلهو به الشباب ، كما هو معروف من سيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم .

وقد كان يخلو بغار حراء قبل النبوة ، اعتزالاً لهمم وبغضاً لما كانوا عليه من عبادة الأوثان وعدم توحيد الواحد الديان ، فإن نفسه الشريفة لا تطيق ذلك ولا تصبر عليه (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) (١) .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر شيئاً من شمائل هذا الرسول الأعظم الذي طهر الله قلبه وهو طفيل من حظ الشيطان تتميماً للفائدة فنقول : من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من مصادرها الصحيحة دراسة مدققة ، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة كاملة . لا يمتحهم صدره أدنى ريب في أنه واسطة عقد الكمال ، ويتمين حكمة العلي الأعلى سبحانه وتعالى في اختياره عليه الصلاة والسلام على السابقين واللاحقين ، ووضعه بالمحل الأعلى سيداً للخلق أجمعين ، ويعلم علماً تسوق إليه البراهين الناصعة وتنطلق به الأدلة القاطعة أن من أراد استقصاء ما أفرغ الله عليه من الكمالات في أي نحو من أنحاء حياته ، فإنما يحاول جمع ما في البحار من درر ، أو حصر ما في الفضاء السماوي الذي لا يعلم مداه إلا الله من شمس و كواكب .

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بضم

فأوسع الناس علماً ، وأفصحهم بياناً وأبلغهم علماً ، إذا تكلم عن هذه

النفس العلية القدسية في أى نوع من أنواع كمالها ، فإنه واقف دون الغاية ومنبت قبل الأمد :

ولكن تریخذ الأحكام منه على قدر القرائح والفهوم

ینطق المواتر من سيرته أنه المثل الأعلى ناشئاً وشاباً وكهلاً ، عزباً ومتزوجاً ، مبرداً للآزواج أو معدداً لهن . قال النضر بن الحارث للكمثر قريش : « إن محمداً كان فيكم رصيناً أميناً صادقاً وهو شاب ، حتى إذا ظهر به النيب قلم : إنه كاذب وساحر ! »

وهذا يشبه ما جاء في الحديث الصحيح أن هرقل سأل أبا سفيان : هل كان يكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله . وقد كان يلقب قبل النبوة بالأمين لعظم منزلته عندهم ، وقد حكموه في أمرهم عندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود عند ما بنت قريش الكعبة قبل النبوة ، فكانوا بحكمه راضين مغتبطين .

وأما حاله بعد النبوة فيكفينا فيه قول عائشة رضى الله عنها وقد مثلت عن خلقه فقالت : كان خلقه القرآن^(١) (قد أفدح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون)^(٢) إلى آخره . وناول أنس رضى الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وأنا غلام صغير لا أكون على ما يشتهي صاحبي ،

(١) وقول السيدة خديجة : والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتحمل الكل وتصل الرحم وتكسب المولود وتعين على نوائب الحق الخ .

(٢) سور المؤمنون ، الآيات من ١-٣

فَمَا قَالَ لِي أَفْ قَط. ، وَلَا لَيْسَ فِعَلْتُهُ لَمْ فَعَلْتَهُ ؟ وَلَا لَيْسَ تَرَكْتُهُ لَمْ تَرَكْتَهُ ؟ وَكَانَ إِذَا أُرْسِلَنِي إِلَى الْحَاجَةِ فَأَبْضَأْتُ وَلَمْ تُقْضَ فَيُرِيدُ أَهْلُ الْبَيْتِ أَنْ يُعَنِّفُونِي فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ ، دَعُوهُ لَوْ قَدِرَ لَكَانَ .

فصل

كان صلى الله عليه وسلم أقوم الخلق بعبادة ربه ، قالت إحدى أمهات المؤمنين : كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُنَا فَإِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ قَامَ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا ، وَكَانَ يَضْطَجِعُ مَعَهُنَّ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ كَادَ قَامَ إِلَى رَبِّهِ فَصَلَّى فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ حَتَّى تَوَرَّهَتْ قَدَمَاهُ . فَكَانَ يُقَالُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَيَقُولُ : أَوَّلًا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا !

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى فَأَطَالَ السُّجُودَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ قُبِضَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُمْتُ حَتَّى حَرَكْتُ إِبْهَامَهُ فَتَحَرَّكَ ، فَرَجَعْتُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ : أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ : وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ^(١) لَا أَحْصِي نَدَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ وَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ يَا عَائِشَةُ أَوْ يَا حُمَيْرُكَ : أَظَنَنْتِ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ خَاسَ بِكَ ؟ قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَكِنْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قُبِضْتَ لِطَوْلِ سُجُودِكَ . « يُقَالُ خَاسَ بِهِ إِذَا غَدَرَهُ وَلَمْ يُوْفِهِ حَقَّهُ » .

(١) أبلغاً إليك واعتمد بك من البلاء الذى تعذب به من تشاء من عبادك : وغيره قوله تعالى . (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) - سورة التوبة ، الآية ١١٨

وقد بلغ من رفقه أنه كان يتلطف إذا قام من نومه حتى لا يزعج أهله ، ويتوضأ بنفسه لا يوقظها ، ولا الخادم لتسكب عليه وضوءه .

فصل

كان أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس . حمل إليه صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها . قال : وجاءه رجل فقال : ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناها ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تحف من ذي العرش إقلالاً ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه .

كان أبغض الأخلاق إليه الكذب ، كان إذا رأى علي أحد من أهل بيته كذبة لم يزل معرضاً عنه حتى يحدث توبة ، كان يجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف ، ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم علي من هو أفضل منهم ، لا يحقد علي أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه . كان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي ، كان يقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . كان لا يشبع صلى الله عليه وسلم من خبز قط ولا لحم إلا على ضئف . قال مالك : سألت رجلاً من أهل البادية : ما الضئف ؟ قال : أن يتناول مع الناس .

كَانَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ قَالَ : هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ ؟ فَإِنْ قِيلَ ، لَا ، قَالَ : إِنِّي صَائِمٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ إِلَّا الْخَلُّ ، قَالَ : نِعْمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ . كَانَ يَمِيلُ الْإِنَاءَ لِلهَرَّةِ فَتَشْرَبُ مِنْهُ .

تتمة

من عجيب أمره صلى الله عليه وسلم أنه أخذ القلوب إلى الله تعالى ، ودلاً النفوس رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه ، ومع ذلك رغب في العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التي أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التي ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة .

كما قال للذين خدموا إخوانهم في السفر في يوم شديد الحر : أَنَّهُمْ فَازُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ لِلصَّائِمِينَ الْمُتَعَبِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَقَدْ وَرَدَ مَوْقُوفاً أَيْ مَرْفُوعاً : « اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » وقال تعالى : (فَأَهْمُوا فِي مَا كَبِهْتُمْ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)^(١) وقال : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)^(٢) .

ولكنه بحكمته البالغة حول كل شيء من أمور الدنيا والآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شيء عند المسلمين طاعة وعبادة بهذا الطريق ، بل أصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا بذلك بين مصالحة الدنيا والآخرة

(١) سورة الدخان ، الآية ١٦

(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

على أتم الوجوه ، وفي الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ودناب
الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان
يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له ، إن لم
يكن ذلك في الدنيا كان في الآخرة . ولهذا شرح طويل لا تسعه
هذه المجالة .

ولنقتصر من ذلك البحر على هذه الدرر التي يطيب بها الحديث
وتتعطر بها المجالس :

محمد ما أحلى شائاه وهـ | ألد حديثاً فيه ذكر محمد
محمد كل الحسن من بعض | وما حاز^(١) كل الحسن غير محمد

(١) في الأصل (وماحسن) بدل (وماحاز) .

قصة يوسف عليه السلام وما يؤخذ منها (١)

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (٢)

(٣)

كتبنا في هذه القصة بالعام الماضي ، ولكن لم نستكمل ما فيها من حكم وأمرار . وقد وعدنا القارئ الكريم أن نعود إليها مرة ثانية فشمغلتنا الشواغل وكثرة الفتاوى . واليوم ننجز ما وعدنا فنقول ، وقد يكون فيما نقول بعض تكرار مقصود لزيادة الفائدة وتأكيد العائدة :

بيننا في مقالنا السابق أنه يؤخذ من قصة يوسف عليه السلام أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم المثوبات : (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (٣) .

وقد صبر يوسف على ما كان من إخوته إذ ألقوه في غيابة الجب ، وعلى بيعه واستعباده ، وما لاقى بعد ذلك من الفتنة وكيد النساء ، وسجنه بضع سنين ، ثم كان عاقبة ذلك العز والملك والتمكين في الأرض . ومثل ذلك ما كان من يعقوب من بئس حزنه ثم تفويضه إلى الله ففرج الله همه وغمه ، فرد بصره عليه ، وجمعه مع يوسف في صفاء وبهجة بعد ما كان من حزن طويل (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (٤) .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الخامس - المجلد الخامس - سنة ١٣٥٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩٠

(٤) سورة يوسف ، الآية ٨٧

وفي ذلك لحث على سلوك سبيل المتوكلين ، والدلالة على الانقطاع إلى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد .

كما أن في القصة الدلالة على أن اصطفاء المصطفين أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بمعنى سماع ولا إرادة مريد ، ولهذا كان ليوسف في صمده ولم يكن لإخوته في كبرهم .

وإن من أراد الله به خيراً لم يكن لأحد دفعه ، ومن عصمه الله لم يكن لأحد رمية بسوء ولا قصده بشر ، وأن كيد الشيطان وإغواءه لا يأمن منه أحد حتى الأصفياء ، فينبغي أن نكون منه على حذر .

كما أن فيها الكشف عن أحوال الخائبين ، وقبح طرائق الكاذبين وابتلاء الخواص بأنواع المحن ، وتبديلها بأنواع الألفاظ والمدن ، مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك الحكيمة وحالهم مع رعيتهم ، كما كان يوسف عليه السلام .

كما أنه يؤخذ منها أن الحسد متأصل في الإنسان ، فهو غريزة لا يكاد يخلص منها أحد .

ويؤخذ من القصة أن حب الدنيا والتنافس فيها متغلغل في طباع البشر تغلغلاً يقطع الأرحام ، ويطغى على الرحمة التي تكون بين ذوى القربى ولو كانوا إخوة .

فعلى العائل أن يحترس منها ، فإنها رأس كل خطيئة ، وحبها هو الذى أثار الحسد في نفوس إخوة يوسف . والحسد هو جماع المفسد والشور ، وقد أداهم إلى قطيعة الرحم وعدم الرأفة بالصغير

الذى لا ذنب له ، وترك العهد وخلف الوعد الذى وعدوه ،^(١) والهم
بارتكاب أكبر الجرائم . ولا غرو فالحسد هو الذى طرد إبليس^(٢)
من رحمة الله وأورثه الشقاء الأبدى والخذلان السرمدى .

ويؤخذ من ذلك أن أبناء العلات لا يكادون يتفقون ولو كانوا
أولاد خالة ، أو كان أبهم من أكابر الأنبياء^(٣) كما في هذه
القصة .

هذا ويؤخذ من قول يوسف عليه السلام : (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ)^(١)
أن المعروف يقابل بالمعروف ، والإحسان لا يكافئ إلا بالإحسان فحيث
أن العزيز أكرمه لا ينبغي أن يخونه وإن لقي ما لقي في هذه السبيل
على ما فصل في القصة ؛

ويعلمنا قوله تعالى : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)^(٢) حكاية عن يعقوب عليه
السلام ، أنه يلزمنا فيما لا مناص منه السكون تحت مجارى الأقدار
سراً وعلناً ، وإن فدح الخطب وعظم المصاب ، تسليماً لله وثقة بحكمته
وخضوعاً لربوبيته .

كما يؤخذ من قوله تعالى : (لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)^(٣) إن
الإنسان لا يثق إلا بمن كان مراقباً لله ، عارفاً بالله ، خائفاً من الله ،
وسواه يجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٨ و ٨٣

(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٤

ويؤخذ من قوله : (السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)^(١)
أن طريقة عباد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظيم أمر الله
والتضحية بكل شيء .

وقوله : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ)^(٢) يفرس فينا ملكة التوحيد بالرجوع إلى الله في كل شيء
موقنين أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا هوشان العارفين
بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين برهم وإحاطته
التي لا يخرج عنها شيء .

ويؤخذ من قوله تعالى : (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ
لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّى حِينٍ)^(٣) أن كثيراً من الناس لا تؤثر فيهم العظات ،
ولا تفيد فيهم الآيات والبراهين الواضحات ، ولا تنههم الزواجر
عما تشير به الأغراض وتسوق إليه الشهوات .

ويؤخذ من قوله تعالى : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)^(٤)
الإشارة إلى أن النفس بطبيعتها كثيرة الميل إلى الشهوات والدعوة
إلى التورط في الهلكات . وقد قال بعض العلماء : « النفس ظلمة
كلها وإنما سراجها التوفيق » . وقال بعض آخر : « من صحب نفسه
صحب العجب والخيلاء ، ومن صحب الصالحين وفق لطاعة الله

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٣

(٣) سورة يوسف ، الآية ٣٥

(٤) سورة يوسف ، الآية ٥٣

والقرب من الله ، ومن صحب أهل الدنيا سلكوا به طريق جهنم ،
ومن صحب أهل اللسان والتشدد بغضوه في خيار الناس وحسبوه في شرارهم)
ومما ينبغي أن يعرف في هذا المقام أن الإنسان في مقام النفس لا
يمكنه أن يدرك علوم القلب الإلهامية ، وأسرار الروح الربانية ، على
ما فصله العلماء الربانيون (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ)^(١) .

وليلاحظ بعد هذا أن كل دور من أدوار الإنسان وكل حال من أحواله
له علوم تخصه لا يتعداها ما دام في ذلك الدور . فالإنسان في دور
الصغر مثلاً لا يمكنه أن يدرك الحقائق على ما هي عليه ، وفي حالة
الشهوة كذلك ، وهكذا جميع الأدوار والأحوال ، فكل إنسان في
سجن مرتبته التي هو فيها ، والحيوان لا يمكنه أن يرتقى إلى رتبة الإنسان .

وحبذا لو كانت التربية بتعليم النشء ما جبل عليه الانسان من
من الغرائز المهلكة ، وأن الكمال إنما هو في التخلص منها ، وبيان أن القوة
الغضبية إذا هاجت حجبت العقل عن كل فهم ، والبصيرة عن كل خير ،
وكذلك القوة الشهوية ، وأن لهما سياسات يجب تعليمها ، وقوانين
ينحتم معرفتها ، وإلا كان الإنسان حيواناً أعجم بل وحشاً ضارياً .

ولا أرى للتربية معنى إلا هذا ، وهي الآن على عكس على خط
مستقيم ، لأنها مبنية على تقديس النفوس وغرس الأنانية فيها ،
وذلك أساس كل شر وجماع كل بلاء . وقد قال بعض الحكماء :
من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢) .

ولا يد لأبعد من الرجوع إلى الله في كل شيء حتى يلهمه الرشيد فيما يأتي ويذر ، فإن العقل ليس له إلا قبول إفاضة العلم لا إيجاد الاستعداد ورفع الحجاب بينه وبين الحقائق على ما هي عليه . وقد قالوا ، إن العالم هو الذي يعلم ، والحكيم هم الذي يعمل .

وبعد ، فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى وهي انحنان من يريد اصطفاؤهم واجتباؤهم ، حتى يخلصهم من وضر النعوس وظلمة الهوى الذي يضل عن سبيل الله ، وينحرف بصاحبه عنه إلى ما سواه ، فإن لله يريد منهم أن يتأشوا إليه ولا يعولوا إلا عليه .

ويؤخذ من قوله تعالى : (لا تدخلوا من باب واحد ^(١)) أنه لا بد من الأبواب التي اقتضتها الحكمة الإلهية ، ولا بد مع هذا من اعتقاد أنها لا تغنى شيئاً ولا تنافي التوكل .

وقول يعقوب : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) ^(٢) يعلمنا أن لإنسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفزع إلى الكبير المتعال ، وألا يعول على شيء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عداه ، كما يشير إليه الإتيان بأداة الحصر ، فكل من انقطع إليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه . وما أحسن قول بعضهم في هذا المقام :

فإن رحلنا حطت رضاه بحكمك عن حلول وارتحال

وقول الآخر

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة و تمنيت أن أشكو إليه فيسما
من حط ثقل حموله في باب مالكة استراح

(٢) سورة يوسف ، الآية ٨٦

(١) سورة يوسف ، الآية ٦٧

ويؤخذ من قول أولاد يعقوب في حق أبيهم : (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(١) : أن الجهل قديصل بصاحبه إلى حد أن يعد أعلم العلماء جاهلا ، وأهدى المهديين ضالا ، وكلما زاد البعد بين المراتب زاد الجهل بها وإنكار ذويها .

ويؤخذ من قوله تعالى : (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا)^(٢) أن أسرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفاً فيها على تلك النواميس المادية التي قدسها الجاهلون ، ووقف عندها الجامدون ، وكيف يعلل ذلك أو يفهمه أولئك المتشدقون الواقفون عند الظواهر ، وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة والأرواح اللطيفة . فهو يفتح لنا باباً من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

كما أن قول يعقوب : (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٣) يعرفنا أن من عباد الله خواص يعرفون من قوانينه وحسن معاملته مع من تصدق عبوديته ما لا يعرفه غيرهم ، فسنن الله كثيرة ، ولا يعرف أكثر الخلق منها إلا النزر اليسير ، وهناك ما اختص به الأنبياء وورثتهم ، وهذا ما جعلهم يتحملون أعظم البلايا ولا يضعفون ، ويحملون جبال الشدائد ولا يتزلزلون

رزقنا الله ذلك العلم الواسع ، والنور الساطع ، واليقين التام ، حتى لانعبأ بشدائد الدنيا ، والنار لم تنطفىء لإبراهيم إلا بقوة نوره وسمو

(٢) سورة يوسف ، الآية ٩٣

(١) سورة يوسف ، الآية ٨

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٦

يقينه ، وسلطان الروح أعظم من سلطان المادة (وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) . وقد جاء في حديث أن النار تقول للمؤمن : « جُزْ يَا مُؤْمِنُ ، فَتَمَّذْ أَطْفَاءَ نَارِكَ لَهْبِي » :

ويلتحق بذلك ما عرفناه من تلك السورة الشريفة من أن المنامات منها ما هو صادق كمنام يوسف عليه السلام ، وقد صدقه أبوه ، ولم يشك فيما رأى ، ولذلك قال له : (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)^(١) وقال : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)^(٢) إلى آخر الآية ، وفيها منام صاحب السجن ورؤيا الملك ابقرات ، وتأويل ذلك كله ، ففيه الرد على أصحاب النزعة الجديدة الذين لا يعرفون إلا أضغاث الأحلام ، وقد جاء في الحديث : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ »^(٣) وورد « الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ »^(٤) .

وإجمال القول أن في هذه السورة الشريفة كثيراً من الأمراء الروحانية التي لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة كما المنا ، ومثل وجدان ربح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، وَرَدَّ بَصْرَ يَعْقُوبَ بِالِقَاءِ الْقَمِيصِ عَلَىٰ وَجْهِهِ كَمَا شَرَحْنَا .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٦ .

(٣) رواه الشيخان ، وغيرهما .

(٤) رمز له في زيادة الجامع الصغير ، وحديث الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان .

ولا يفوتنا أن نقول : إن من الآداب التي نستفيدها من القصة أنه قال بعد القدرة : (لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)^(١) . وقد قالوا : إن من يرجع الأمر إلى الله لا يزال مستريحاً ، ومن اهتم بما يكون من الناس لا يزال في تعب وعناء ، وقال : (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)^(٢) ولم يذكر من إحسانه تعالى أنه أخرجه من الجب ثلاثاً .
يخجل إخوته بذكر ما فعلوا .

فالتعلم هذه الآداب العالية ، والأخلاق السامية ، كما أنه يمكننا أن نستفيد منها أن الرجل الطيب القلب يقدم حسن الظن ويقبل المذرة ، ونستفيد منها أيضاً أن تدبير الله لا يحيط به أحد ، وأنه لا يراعى الأهواء والأميالي ، ولا يعبأ بنالم المتألمين وجزع الجازعين ما دام موصلاً إلى غايات سامية ، وعاقبة حميدة في علم الله تعالى ، فإن قصة بنيامين هي التي كانت السبب في اجتماعهم بيوسف مسرورين مغتبطين . فعلى العبد أن يسلم لله وإن لم يعرف الحكمة .

يا حاكمي وحكيمي أفعالك الكليل حكمة

وإن في قصة زليخا ويوسف ما ينبه على اقتدار النساء على قاب الحقائق ، والتحويل على إصااق الإجرام بالبريء ، وتصوير ذلك بصورة الواجب الذي لا بد منه ، والتأثير في السامع بما يهيج عواطفه ويثير حميته ، وهن أعرف بمواضع الضعف من الرجال ، وأخبر بقرع الوتر الحساس من القلوب .

(١) سورة يوسف ، الآية ٩٢

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

وإن شئت فانظر قولها : (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(١) كيف أخرجته هذا المخرج وأنت به على سبيل الخبر المسلم الذي لا ينازع فيه ، وخالط الحق بالباطل تلبساً وتغريباً ، فإن من أراد بأهله سوءاً استحق العذاب الأليم كما تقول ولكن آدمجت في ذلك باطلاً ، وهو أن يوسف عليه السلام أراد السوء ، وجعلت ذلك مسلماً غير منازع فيه ، إلى آخر ما يرشدك إليه ذوقك وعلمك ، مع ملاحظة أن زوج المرأة كان في هذه الحالة مدهوشاً مدهوشاً لما رآه عند الباب مع زوجته ، فهي تفهمه أن الإجماع مفروغ منه ، والتفكير إنما هو في الجزاء الذي يجب إيقاعه على المجرم .

وبعد : فمن عوارض الحضارة والمدنية قلة الغيرة . وكانت الحضارة في مصر بالغة حدها ، فكان للنساء فيها شأن وخطر ، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتو كريس .

وكل أمم تساوى رجالها بنسائها فلا بد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزناً كبيراً ، فهذا من مساوىء المدنيات القديمة والحديثة . وأنتك لتلاحظ في غالب الأحوال الخذوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير الإسلامية أثرها الممقوت ، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم ، كما هو مشاهد الآن في أوائل المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة .

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٥

خاتمة

رأينا أن نتعم هذا الموضوع بفوائد لها مناجاة بالقصة ، وهي مفيدة
في نفسها أكبر فائدة فنقول :

١- روى أن يوسف عليه السلام دعا بهذا الدعاء وهو في الجب ،
ففرج الله كربته ، وهو هذا :

يا صريخ المستصرخين ، ويا غوث المستغيثين ، ويا مفرج كرب
المكروبين ، قد ترى مكاني وتعلم حالي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري .
يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب :
اجعل لي فرجاً مما أنا فيه .

٢- يقولون : إن أعظم الناس فراسة ثلاثة : العزيز حيث قال :
(أَكْرَمِي مَثْوَاهُ)^(١) ، وبنو شعيب حيث قالت لأبيها في حق موسى
عليه السلام : (إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)^(٢) ، وأبو بكر
حيث استخلف عمر .

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يجعلنا ممن دعا إلى الله
على بصيرة ، وألا يكانا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك بمنه
وكرمه :

(١) سورة يوسف ، الآية ٢١

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٦

الإسراء والمعراج^(١)

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الكبير الشيخ الدجوى ؛
السلام عليكم ورحمة الله . وبعدها فريقتنا من أساتذة المدارس
ينكرون المعراج ويقولون : ان ذلك غير ممكن . والمتدين منهم الأقرب
إلى الاعتدال يقول : إن الإسراء بالروح دون الجسد .

فندرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع بالبراهين المقنعة حتى ينقطع
الجدال والمراء . وها نحن أولاء في انتظار ما يدبجه يراعك البليغ
وبيانك الواسع كما هي عادتك .

واقبل فائق احترامى وإجلالى لشخصك المحبوب .

عبد الرحمن محمد

مدرس بمدرسة شيبين

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
إن الناس اليوم يقدمون عقولهم ، ويسيروا وراء ما يميله عليهم
علمهم القاصر ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ووزن ماجاء
عن الرسول يميزان فكره فقلما يؤمن إيماناً صحيحاً . وإذا راقك منه
ما يشقشق به في بعض الأحيان لم تلبث أن يسوءك منه ما يهذى به في

وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الإنسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلم من صفاتها الذاتية وأعراضها اللازمة .

وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله وبلغته حدود علمه ، فليس مؤمناً بالرسول على الحقيقة ، وإنما هو مؤمن بعقله « لا بالرسول » . وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا عما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه العقول التي لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات ، وما تنتزعه منها من المعقولات الثانية مما هو راجع إليها ومتوقف عليها ، ومقدورات الله لا نهاية لها ، وعوالمه لا حد لها ، ولكل عالم ناموس يخصه .

ومن الغلط البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر . وإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش إلا في الماء ، ومن بعضها ما لو مكث في البحر مات ، ومن بعضها ما يقتله الكربون كالإنسان ، ومنها ما يقتله الأكسجين ككثير من الحيوانات الدنيا . ولعلنا كنا لا نصدق بذلك قياساً على أنفسنا لولا مشاهدتنا إياه « فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم الأخرى التي تحس والتي لا تحس ؟

وإني لأعجب لهم كيف يتبجحون هذا التبجح ويحكمون في كل شيء بالأحكام الجازمة اعتماداً على بضع نواميس وصلوا إلى ظواهرها من نواميس هذا الكون التي لا يحصيها إلا الله ولا بدرى كتبها غير مبدعها الذي لا حد لقدرة ولا نهاية لعلمه !

وليت شعري بعد ذلك كله أي عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع : أهو عقل الأفراد أو عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط إذا اختلفت

العقول ، وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت فيما بين أفراد
مثل نوع الإنسان الذى هو مظهر المتناقضات ومجمع العجائب والغرائب؟
وقد خاطب الله الخلق جميعاً بقوله : (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١)
ويقول فى حق الإنسان : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(٢) . ولقد نرى فى
تخبطه وتناقضه وارتبأكه فى أحواله واضطرابه فى أعماله الدليل الساطع
على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والقصور . فعلام تلك
الكبرياء وهو من الضعف بحيث يرثى له ويشفق عليه ؟ !

الموضوع :

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلى ، وقياس الشاهد
على الغائب - وإرجاع ما لم يعلموا إلى ما علموا ، والجاهل لا يعرف
قدر نفسه ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فهو
فى دائرة العدم (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(٣)
ومن الغريب الذى يؤسف له أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد
الوصول إلى القمر ويفكر فى إعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم ماكن
بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب والاكتشاف
يأتى بالغرائب . ولكن إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء قامت
فيامتهم ، وندرت شقاشقهم ، وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من
خبث وإلحاد .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩

وستنكلمهم بما يخضعون له إذا سمعوه عن ساداتهم الأوربيين
« الذين لم يعلموا علمهم ولا أحسنوا تقليدهم »

أما الكلام في الموضوع من الجهة النقلية فأظن أنه لا يعينهم كثيراً ،
ولا يقنعهم لا كثيراً ولا قليلاً . ومع هذا فنقول فيه كلمة موجزة من
أجل الفريق الثاني الذي ينتسب للعلم ولا يمكنه الخروج عن الكتاب
والسنة ، ولكنه يؤول ويعرف اغتراراً ببعض الروايات ، إجابة لنزعة
عنده وعقيدة لديه لا تبعد كثيراً عن عقيدة الماديين ، وإن كان مذبذباً
بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فنقول :

إن من أقوالهم : إن الإسراء بالروح تمسك ببعض روايات مطعون فيها ،
كالرواية عن عائشة التي ردها الحفاظ وقالوا إنها غير صحيحة من وجوه
عديدة لا نطيل بها : وكرواية شريك بن أبي نمر التي طعن فيها الحفاظ
بما يطول شرحه .

وليس الغرض إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة يعرفها ذلك
الفريق من إخواننا المتفهمين من النشيوخ . والعالم كل العالم من
لا يتأثر بكل ما رآه ، أو يتشوش بكل ما رواه ، بل العالم كل
العالم من يعرف المقبول والمردود والضعيف والصحيح ، ومن يجمع
بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع . أو يرجح الراجح ويسقط
المرجوح إذا تعذر التوفيق .

وما أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح بعد
ما يقول الله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(١) .

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت « بسبحان » المشعر باستعظام ما كان من الأمر والتعجيب منه لجلالته ، وهو لا يصح موقعه ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم الا إذا كان ذلك أمراً غير معهود ولا مقدور لأحد من البشر .

ولو كان هذا الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجيب ، إذ لاخطورة في إراءة النبي صلى الله عليه وسلم آيات ربه في منامه ، فإن هذا أمر عادي يجوز أن يقع لكل أحد ، بل قد يرى الإنسان في منامه رب العزة الذى هو أكبر من كل شئ ، وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : أن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول : (أسرى) وهو لا يقال فى النوم كما قال التاضى عياض . لأن ما يقع فى النوم انما هو تخييل وضرب مثل لاغير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وانما يحسن ذلك إذا أسرى به ، ليلاً سيراً حسياً على ما هو المعهود المعروف .

ثم يقول : (بعبده) وهو نص قاطع فى الموضوع ، لأن العبد لا يطاق دوماً تعرفه العرب إلا على الشخص بجملته المكون من الروح والجسد ، ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط ، فهم

(١) سورة الإسراء ، الآية ١

لا يعرفون من العبد الا الشخص المحسوس المنظور ، كما في قوله تعالى :
(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى)^(١) وقوله : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدٌ
اللَّهُ يَدْعُوهُ)^(٢) إلى غير ذلك .

ثم يقول : (لِئَن يَرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) ويقول في سورة النجم : (أَفَتُمَارُونَهُ
عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ، عِنْدَهَا جَنَّةُ
الْمَأْوَىٰ ، إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ، لَقَدْ
رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ)^(٣) .

ولاشك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن
النبي - صلى الله عليه وسلم - أسرى به إلى بيت المقدس ، وأنه عرج به إلى
السموات العليا بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى ،
وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

واني أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك أن تنظر معي لقوله :
(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ) ثم قل لي بعد ذلك ماذا ترى : أفيسهل عليك
أن تسلم أن المرء والجدال كانا في رؤية منامية ؟ وهل يكون في رؤية
الروح وحدها في المنام جمود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل أو
السامع حتى تذكر فيه تلك الآيات ، وتحصل به تلك الحركات
والمجادلات ، وينود بشأنه في القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد
مثل ذلك في الرؤى المنامية ، وهل ينكرون على أنفسهم ذلك حتى
ينكروه عليه صلى الله عليه وسلم ؟

(٢) سورة الجن ، الآية ١٩

(١) سورة العلق ، الآية ٩

(٣) سورة النجم ، الآيات ١٢-١٨

لاشك أن منكرتهم ومجادلتهم ما كانت الا لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لامناما ، فهذا هو محل الاستبعاد والاستنكار ، فإنه غير معهود لديهم . ولامن تناول قدرتهم .

أما منامات الأرواح فيجوز أن تقع لكل أحد حتى المشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : (أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى) ويقرعههم على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم على أن صاحبهم ماضل وما غوى ، ويقول : أنه رأى ولا يليق أن تماروه فيما رآه ، هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول : (وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) وينوّه بأمر هذه الرؤية ويقول إنها عند سدرة المنتهى ويجعلها مرة أخرى لرؤيا منام ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤية جبريل في المرة الأولى التي جاءت في الحديث الصحيح حين رآه صلى الله عليه وسلم بحراء على صورته التي خلقه الله عليها قد سد الأفق ، هل يقولون أن ذلك كان مناماً أيضاً ، أم يفرقون بينهما والقرآن لم يفرق وجعل الرؤية في المرة الأخرى عند سدرة المنتهى كالرؤية الأولى في الأرض بلا فرق ؟

فهل يتال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين في المنام والأخرى في اليقظة ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير في قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى) لروح النبي دون جسده وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه صلى الله عليه وسلم لاعلى روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول : إنها رؤيا منامية مع قوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) ؟ وهل يقال ذلك في أحلام النائمين ؟ اللهم إن ذلك لا يقال إلا في أوهام الواهين .

وهل يقال في الرؤيا المنامية : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)^(١) ؟ ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ؟ فإن كل إنسان يرى بروحه من الكون ما شاء الله أن يرى ، فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ (الرؤيا) دون (الرؤية) فقد رده أهل اللغة واستشهدوا عليه :

* ورؤياك أحلى في الجفون من الغمض *

على أنه جاء في القصة ما هو قاطع في الموضوع : فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بذلك هاج هائبهم وقامت قيامتهم ، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، ومنهم القائل له : لقد كان أمرك أمما «أى قريبا» قبل هذا . حتى ورد أنه إرتد بعض من دخل في الإسلام . فهل ترى - أيدك الله - أن ذلك كله كان من أجل رؤيا منامية ؟

بل في القصة ما هو أكثر من هذا . وهو أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن غيرهم التي كان فيها تجارتهم ، فأجابهم صلى الله عليه وسلم بأنه مر بها ، وقد ندد منها بغير فانكسر ، وأنه مر بغير أخرى قد ضلوا ناقة لهم ، وكان معهم قدح من الماء فشربه صلى الله عليه وسلم . وقد سألوهم عندما قدموا مكة فصدقوا ذلك كله . وفي القصة أكثر من هذا .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦٠

فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح؟ وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن غيرهم وعن بيت المقدس وأبوابه وكل مايتعلق به إذا كانت الرؤيا منامية؟ وأي علاقة بين رؤيا المنام وبين غيرهم التي تجيء من الشام، وقد رأى لهم عدة قوافل من تجارهم وأخبرهم عنها؟

ولانزال نقول: أي معنى لقصة قدح الماء إذا كانت الرؤيا منامية وأظن أن هذا القدر كاف للمنصف. ولو شئنا لأطنا.

الفريق الأول الذي يتمسك بالشبه العقلية:

يقول هذا الفريق: إنه يستحيل العروج إلى السماء لأن بيننا وبينها كرة نارية كما قرره الفلاسفة الأقدمون. ونقول له: أن ذلك خيال لم يتم عليه برهان، والفلاسفة العصريون ينفون ذلك بتاتا. فهذا كاف في إسقاط ذلك الزعم. وستسمع عن ذلك جوابا آخر مشتركا دافعا للشبه كلها.

ويقول العصريون في استحالة ذلك؛ إن الهواء يرتفع عن الأرض مقدار بضعة آلاف من الأمتار، فإذا وصل الإنسان إلى ذلك الحد لم يمكنه أن يعيش، لأنه لا يجد من الهواء مايتنفس به، فلابد أن يموت، وقد وصلوا بطياراتهم إلى مايقرب من ذلك فخرج الدم منهم بهيئة منكبة لفقد الضغط الجوى.

ونقول في دفع هذه الشبهة: إن ذلك مسلم ولا نمارى فيه، ولكن هناك قوانين أخرى لا يعرفها الماديون، ومحال أن يصل إليها الطبيعيون، ذلك أن الأرواح الإنسانية من عالم آخر لاتسرى عليه قوانين هذا

العالم ، فإذا غلبت على الإنسان روحانيته كان الحكم الروح لا للجسد ، فكان السائد عليه هو النواميس الروحانية لا الجسدية .

ومتى ساد سلطان الروح سـلطان البدن كان الحكم للروح لا للبدن ، فيمكنه أن يطوى المسافات البعيدة في لحظة قصيرة ، ويمكنه أن يرى المغيبات على حد محدود ، ويمكنه أن يخترق الجدران ويقتحم المهالك من غير أن يحصل له ضرر أو يلحقه ألم .

ومن هنا جاءت كرامات الأولياء . وإذا كنا نصدق بذلك في الجن ، وأرواح النوع الإنساني أعظم لطافة وأقوى نفوذاً وأشد قرباً من الملائة الأعلى ، فلماذا نستبعد ذلك في خواص البشر الذين غلبت عليهم الروحانية حتى صاروا كأنهم من الملائة الأعلى ، وبذلك تنخرق لهم العادات ولا تحكم عليهم نواميس المادة ؟

براهين عصرية على ذلك :

وما لنا نذكر كرامات الأولياء أو معجزات الأنبياء ، وبعض العصريين لا يقتنعون بذلك ، ولعلمهم يعدونه من الخرافات والترهات ؟ فلنسق لك ما هو أقرب إلى إقناعهم وأليق باستعدادهم فنقول : قد ثبت ثبوتاً لا شك فيه أن المنوم تنوياً مغناطيسياً يسأل عما في البلاد البعيدة فيجيب عنها بأجوبة صحيحة ، فهل يمكن تعليل ذلك بالتعالييل المادية ؟

وقد قالوا : إن المنوم (بصيغة اسم الفاعل) إذا أمر المنوم «بصيغة اسم المفعول» أن يخوض النار وأفهمه أنها ليست ناراً ، خاضها ولم

تؤثر فيه ، لأنه تحت سلطان الروح فله حكمها ، والأرواح لا تؤثر فيها النيران ولا تحكم عليها هذه النواميس «وسلطان الروح فوق سلطان المادة» .

وقد قالوا : أنهم جاءوا للمنوم بالنوشادر المركز الذي إذا شمه أحد مات لوقته فلم يؤثر فيه أدنى تأثير ، فقام بعض الأطباء ، وقال : أن ذلك غش وخداع ، فأخذ النوشادر المركز وشمه فخر ميتا . وأعاجيب التنويم المغناطيسى أصبحت لمس اليد ورأى العين . وسرها ما ذكرنا من أن سلطان الروح فوق سلطان المادة .

وإذا ثبت هذا فلتعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم عند العروج كان على غاية ما يكون من الروحانية ، بل كانت روحانية إذ ذاك فوق روحانية جبريل عليه السلام ، ولذلك ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدرة المنتهى وقال له : لو تقدمت أنملة لاحترقت .

فإذا وعمل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الحد الذي يتخلخل فيه الهواء أو ينقطع بالكلية ، وقد غلبت عليه الروحانية من كل جهته ، لم يكن لذلك تأثير فيه ولا ضرر عليه لما قررناه .

ويمكن أن نستشهد على ذلك بما أصبح معروفاً لا ينكر ، وهو أن بعض الهنود يوضع في صندوق باختياره أو يدفن في موضع من الأرض عشرين يوماً وثلاثين يوماً أو أكثر من ذلك ، ثم يخرج ويعمل له ما يرجعه إلى حسه ولا تفارقه الحياة مع أنه كان لا يتنفس أصلاً في تلك المدة . فكيف مثل ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وهو سيد الروحانية وأفضل المخلوق أجمعين ؟

وهذا تنزل يقتضيه الحال وقوانين الجدال ، وإلا فلست أدري كيف يقيسون عالم الملكوت على عالم الملك ، وأحكام الأرواح على أحكام الأشباح مع أنهم لم يتقنوا علومهم المادية ، وكثيراً ما تخبطوا فيها فنقضوا ما أبرموا . وهو شأن هذا النوع الضعيف منذ خلقه الله إلى أن تقوم الساعة !

ولقد أقام العالم ثمانية عشر قرناً يدين بنظرية « بطليموس » صاحب كتاب « الماجسطي » في الأرض والشمس وأدورتها ، وغير ذلك من النظريات الفلكية ، حتى جاء دور الانقلاب العلمي في القرن السادس عشر ونادى العلامتان (كوبرنيك) و (كبلر) الألمانيان والبحاث (غاليلي) الإيطالي بعكس نظرية السابقين ، وأثبتوا فرضاً مخالفاً لفروضهم ، ثم جاء (ابنشتين) في عصرنا هذا فرد عليهم وقلب نظرياتهم رأساً على عقب . ولا ندري ماذا يجيء به الغد . وقد بين ذلك رئيس وزراء انجلترا المسيو بلفور منذ زمان بعيد حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج في شهر أغسطس سنة ١٩٠٤ وأطال في ذلك حتى قضى به على معرفة كنه المادة ، وأن منتهى علمها مبتدأ جهلها ، كما يقول الشاعر العربي :
كأن الحب دائرة بقلبي فحيث الابتداء الانتهاء

الخلاصة :

والخلاصة أن الإسراء لو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولا استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتمنوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر .

ويؤكد ذلك مجيء جبريل له بالبراق ، وخبر المعراج ، واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد ، ولقاؤه الأنبياء فيها وترحيبهم به ، وخطبهم في بيت المقدس ورده عليهم ، وصلاتهم وراءه ، وتعيين محل كل واحد منهم والأخبار عنه بخبر خاص ، وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى في ذلك ، وقوله : « ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » وأنه وصل إلى سدرة المنتهى . إلى غير ذلك مما جاء في القصة .

وهل عهد مثل ذلك في رؤيا المنام ؟ وهل يقال في رؤيا المنام : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) أو بشأنها هذا التنويه كله ؟ وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة وهي عمود الإسلام في المنام على حين أن غيرها كان في اليقظة !؟

ولست أفهم إلا أن هذا إنكار لقدرة الله ، وإذا فتش عن إيمان ذلك المذکر وجد ضعيفا به خلل وفيه دخل . وما درى ماذا يصنع في مثل قوله تعالى (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ) « أى عرش بلقيس » قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » ^(١) وقوله : (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ^(٢) وقوله : (فَخَذْنَا مِنْهُمُ اجْتِهَادًا مِنْ الطَّيْرِ فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) ^(٣) إلى غير ذلك من

(١) سورة نحل ، الآية ٤٠

(٢) سورة بقرة ، الآية ٧٣

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٠

الآيات والمعجزات ؟ ! وإن الإيمان بذلك كله سهل لدى من يعتقد أن الله على كل شيء قدير ، وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً .

ولنرجع للموضوع فنقول بالاختصار :

لو كان مناماً لم يكن فيه آية ، مع أن الله يقول : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) ، ولو كان المعراج في النوم عند عائشة رضي الله عنها كما يزعمه بعضهم لما أنكرت رؤيته صلى الله عليه وسلم أوسلم ربه . فهي لم تنكرها إلا لفهمها أن ذلك كان يقظة لا مناماً ، لأن رؤية المنام لا تنكر من عائشة ولا من غيرها .

وبعد : فقد عرج به صلى الله عليه وسلم ليستبين بذلك العروج أن مقامه فوق مقامات الأنبياء ، حيث ارتفع^ص عليهم جميعاً حتى سمع صريف الأقلام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلاء^ص على غير ميعاد ولا رياضة سابقة لكمال استعداده صلى الله عليه وسلم ، ليعلم ما بينه وبين غيره من الفرق في التقريب والاصطفاء .

وكان العلو الحسى مستتبع للعلو المعنوى . فكلما ارتقى في درجات السموات وما فوقها كان يرتقى في درجات الروحانية والاستغراق في جلال الله وعظمته . ولا غرو فالأماكن لها خصائص ومميزات . وانظري الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات حتى استحقت أن تسمى بيت الله الحرام .

ولتعلم أن قصة الإسراء والمعراج قد وردت عن كثير من الصحابة
عد منهم في المذاهب اللدنية ستة وعشرين .

ولنفهر التلم على الوقوف عند هذا الحد ففيه مقنع وكفاية
لمن أراد الله هدايته .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم عليهم
من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ،
بمنه وكرمه .

الفيلسوف والنبي^(١)

جاءنا هذا السؤال من صاحب الإيضاء ، قال بعد الديباجة :
إننا نرى حكما عالية وقوانين صالحة للاجتماع وال عمران لفلاسفة
اليونان وغيرهم ، ونرى لهم بجانب ذلك معرفة بالله وثناء على الله
وقد جاء عن سقراط وأفلاطون وغيرهما شيء كثير من ذلك ، وقد
كانوا قبل المسيح ، فلماذا لا نعتبرهم أنبياء ، وقد أسسوا مدينة
فاضلة وتلاميذ صالحين ؟

نرجو من إفضيائكم بيان ذلك والإسهاب فيه كما هي عادتكم ،
أبقاكم الله للعلم والدين ، وحفظكم للإسلام والمسلمين آمين وكرمه :

عبد الرحمن محمد

مدرس بالمدارس الابتدائية

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معدن
الأسرار ومنبع الأنوار ، أعرف خلق الله بالله ، وعلى آله وصحبه
أجمعين .

أما بعد : فقد سئلت مثل هذا السؤال منذ زمان بعيد من عظيم من
عظماء المصريين ، فأجبت بما اقتنع به إذ ذاك واليوم نذكر لك خلاصة

ذلك الجواب ثم نفيض في الموضوع إفاضة لا تدع في النفس شكاً ،
ولا في الأمر ريباً ، فنقول وبالله التوفيق :

قلنا لذلك الباشا عندما سألنا عن ذلك : أن هناك فروقاً كثيرة بين
النهي والفليسوف ، منها أن الفيلسوف إذا نزلت به نازلة أو سئل
عن معضلة ، فزع إلى فكره فشحذه وإلى نفسه فأيقظها ، وإلى معلوماته
فاستعرضها ، عسى أن يعثر فيها على حل أو يظفر منها بجواب .
أما النبي فإنه على العكس من ذلك يعتمد إلى نفسه فيسكن من
حركتها ، إلى أفكاره فيهدىء من ثورانها ، وإلى حواسه فيقلل من
تعلقاتها ويبعدها عن محسوساتها ^(١) ، ثم ينتظر الوحي من الله والتلقي
عن الملأ الأعلى .

فإذا نزل عليه الوحي من عند الله صدع بذلك في وضوح
لا يمازجه تعقيد ، ولا يشوبه التواء عن المقصد ، ولا تحير في الغاية ،
ولا تحيل على إصابة الصواب ولا استعانة بتجربة أو التجاء إلى
مقدمات طويلة كثيراً ما تنحرف بالناس أو ينحرف فيها صاحبها
عن المنهج التويمي والصرائط المستقيم ، فيعدل به نظره القاصد وضعفه
البشرى عن الحق ، وقد يوقعه في شقاء بالغ من حيث لا يشعر .

(١) اشتهر الآن استعمال الحسات وتخطئة من يعبر بالمحسوسات . وهو خطأ بين كما
أوضح ذلك كل الإيضاح صاحب الجاسوس . ولصاحب المخصص ما يفيد ذلك أيضاً (راجع
الجاسوس على التماموس) .

فالنبي يروى عن رب المخلوقات المحيط بها ، العالم بأسرارها
(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ولم يعشه عنها سواطع أنوارها
رأى حكمة قدسية لا يشوبها شوائب أنظار وأدناس وأفكار

فالسبيل المأمونة والجادة الواضحة ، إنما هي سبيل الأنبياء ،
والمرسلين لا سبيل الفلاسفة التي ترمى بك في ظلمات الأوهام البشرية ،
وشبهات التخيلات النفسية ، على ما ستسمع اليوم ، إن شاء الله .

ثم قلت لذلك العظم : أن الفلاسفة أنفسهم لم يدعوا النبوة ،
وربما كانوا غير قائلين بها ، فكيف ندعيها لهم وهم لم يدعوها لأنفسهم

ثم ان للنبوة آيات لا بد منها : من صفات ذاتية ، ومعجزات
حسية ومعنوية ، ونفوس جاوزت أطار البشرية ، واستقرت في تلك
العوالم القدسية ، فهي لا تعرف غير الله ، ولا تحدث عما سوى الله
إلا بما جاءها عن الله ، قد اتسع نظرها ، وتم نورها ، فعلمت من
حقائق الأشياء ما لا يعلمه غيرها ، وعرفت من جلال الله ما لا يعرفه
سواها . إلى آخر ما قلت لذلك الباشا في ذلك العهد .

ولنبين ذلك الإجمال ، ونذكر لك شيئاً من صفات النبوة
وخصائصها التي جبل عليها الأنبياء ، فنقول :

إن ما في ذات النبي نوراً خلقياً في أصل تكوينه اقتضته درجة
روحه الشريفة « وبين الأرواح من التفاوت في الدرجات واختلاف
الاستعدادات ما لا يعلمه إلا الله تعالى » .

وبذلك النور لا يمكن تلك الذات التي خلقت على هذا الوجه إلا أن تكون على أكمل الفضائل . فهي مثلاً تقول الحق وتقدسه ولو كان فيه حتفها وهلاكها . فإن ذلك من سجيتها وطبيعتها .

وقد طلب المشركون منه صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله وراودوه على ذلك بكل حيلة ، فأبى وامتنع ثم نصبوا له العداوة ورموه عن قوس واحدة ، فما زاده ذلك إلا تثبتاً ورسوخاً ، لأن الذات الشريفة مطبوعة على قول الحق لا يتصور منها غيره .

ومن تلك الصفات التي جبل عليها النبي الرحمة بجميع المخلوقات حتى الحيوان الأعجم ، ولذلك جاء صلى الله عليه وسلم في باب التحذير من القسوة بما تعجب له ، وأبان من جزاء الشفقة على خلق الله ما لا غاية ورائه . فذكر في الحديث الصحيح أن امرأة دخلت النار في هرة عذبتها . وجاء في الصحاح أيضاً أن رجلاً مسرفاً على نفسه وجد كلباً يلهث من العطش فسمّاه حتى أرواه فشكر الله له ذلك فغفر له . إلى غير ذلك مما ينبئك عما كانت تمتلىء به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرأفة بجميع المخلوقات .

وهكذا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فهم أبر الناس بالناس وأنفع الناس للناس . وأعظمهم في ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، حتى أن ما تراه من شدته صلى الله عليه وسلم على الكفار والمشركين فممنشؤه إنما هو رحمته بهم وشفقته عليهم أن تجتالهم الشياطين فتأخذهم عن السعادة الأبدية إلى الشقاء الأبدي . فيشققون وتشقى بهم الإنسانية

فكان حربه صلى الله عليه وسلم في الحقيقة حرباً لجند الشيطان الذي يريد أن يسلب الإنسان سعادته . إلى آخر ما لا يسع المقام تفصيله وبيان أسرارهِ .

ومما يجب أن نبينه هنا أن للأنبياء أذواقاً في الأشياء لا يعرفها إلا الخواص من عباد الله ، فإن أكثر من في الأرض لا يذوقون إلا الحسيات ، ولا ذوق لهم في المعنويات وما أودع في الأشياء من لطائف وأسرار . وقد يقرب إليك ذلك بعض التقريب ما ترى أو تسمع من عشق أرباب النفوس الطاهرة لمعالى الأشياء ، وإيثارهم العلم والمعرفة على كل شيء ، لأنهم يذوقون من ذلك لذة تفوق كل لذة مادية ، وقد قال قائلهم :

سهرى لتنقيح العلوم أذلى ^١ من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة ^٢ أشهى من التغمات للعشاق
وألد من نقر الفتاة لدفها ^٣ نقرى لألقى الرمل عن أوراق
ولعلك ذقت من هذا شيئاً ، فلا نطيل فيه .

ولا بد لنا في هذا المقام من أن نشير إلى أن أرواح الأنبياء من طراز آخر في علمها وقوتها وكل صفاتها ، ولذلك تظهر عليها خوارق العادات ، من كشف المغيبات وظهور الآيات ، مثل ما حصل له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج ^٤ .

ومن ذلك ما يقال إن عيسى عليه السلام كان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ^٥ . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (أبيت عند ربى

يطعمنى ويستقيني) فهو لا يحس بتلك المؤلمات إلا إذا رجع إلى هذا العالم وسادت عليه أحكامه وقوانينه ، أما ما دام عند ربه فهو أرفع من أن تؤثر فيه تلك النواميس المعروفة ، أو تسيطر عليه هاتيك القوانين المشاهدة . إلى غير ذلك من المعجزات المأثورة ، والخوارق المشهورة .

أما علمهم بحقائق الأثميا وما غيب عنا من أمور الآخرة وما يكون فيها فهو علم يشبه علمنا بالمبصرات بالبصر والمسموعات بالسمع ، بل حواسنا قد تخطئ ويقع الغلط والاشتباه في مدركاتها ، بخلاف علمهم وما ينكشف لبصائرهم من الحقائق والمغيبات .

ثم نلفتك بعد ذلك إلى ما تعرفه من تفاوت الناس في العلم : وأن ما يكون قطعياً لبعض الناس يكون ظنياً لبعض آخر ، بل قد ينكره كل الإنكار لبعده ما بينه وبينه حتى لا يتأتى له أن يفهمه أو يسلمه .

وبالجملة فاستعداد الرسول أشرف استعداد ، وتكوينه أجل تكوين ، وهذا كان مهيباً للرسالة والتلقى عن الملائ الأعلى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)^(١) . فليس قلبه كبقية القلوب ، وإنما هو قلب امتلاً بنور الله ، لكونه غارقاً في عظمة الله ، مفعماً بجلاله معرضاً عما سواه .

وأيّن للفلاسفة ذلك النور الذى كان يرى به صلى الله عليه وسلم كما فى الحديث الصحيح - أصحابه فى الصلاة وهم خلقه كما يراهم أمامه ، وفيه أنه رأى بيت المقدس عياناً وهو بمكة ، ورأى قصور الشام

وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو يحفر خندق المدينة ، ورأى النجاثى
بالحبشة حين مات وهو صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فخرج إلى المصلى
فصلى عليه ، إلى غير ذلك .

ذلك كله من أجل ما أودع فيه من النور الساطع والاستعداد الرفيع
الذى أهله لخرق العادات بطريقة لا يكاد يعرفها الماديون ولا يعقلها
غير الروحانيين . وكيف يدركون ببشريتهم الظلمانية أسرار
ملكاته النورانية ؟

ولنقرب لك الأمر بعض التقريب فنقول :

إن الروح من عالم آخر له نواميس أخرى يستوى فيها القريب
والبعيد والظاهر والخفي . على أننا رأينا في عالم الماديات من العجائب
ما يسهل عليك التصديق بذلك عن بصيرة واقتناع بعد ما ورد في
دينك وشريعتك :

فإن أشعة (روتنجن) تحول الأجسام الكثيفة المعتمة إلى أجسام
لطيفة شفافة ، وتظهر ما يتخللها من العظام وغيرها ، وأشعة (اف)
التي بواسطتها يمكن كشف المعادن في باطن الأرض وإحراق البارود
في باطن البواخر ومكامن الحصون .

فما بالك بأشعة الله الذى خلق أشعة روتنجن ، واف ، وعلم
الانسان ما لم يعلم ؟

فلا بد أن تعرف أن للأنبياء قوى روحانية اختصوا بها فلا توجد
في غيرهم . ولذلك سمع سليمان عليه السلام كلام النملة ، فما سمعه

إلا بسمع الروح لا بسمع الجسم الطبيعي . « وكيف نستغرب ذلك وعلماء الحيوان الآن يثبتون للنحل وغيره حاسة لا توجد فينا ويدكرون من أفاعيل النمل ما يعجب له الإنسان العاقل ؟ » .

وقد قال يعقوب عليه السلام : إني لأجد ربح يوسف ، فأحص بها وشمها من مسيرة أيام . فكيف يقاسون على غيرهم في شيء من الإحساس والعلم والإدراك؟ ولا غرو فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي في حق عبده الذي تقرب إليه : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » . . . إلخ .

وإجمال القول أن نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صنف مخالف لسائر النفوس في قواها الظاهرة والباطنة ، فنعوتهم وصفاتهم التابعة لها يجب أن تكون مخالفة لسائر النوع والصفات التي في غيرهم ، ومتى كان الروح الفاعل والجسم القابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء .

ولذا قيل إن صفات الأنبياء وقواهم الذاتية من خوارق العادات ، وأنه لو أمكن الناس أن يقفوا على كمال تلك النفوس لما احتاجوا في التصديق برسالتهم إلى معجزة ، فإن فضيلة الصدق والأمانة مثلاً إذا بلغت حد الكمال والإعجاز لا يقع معها كذب أو خيانة .

وقد آمن كثير من الصحابة وغيرهم « حتى من الأوربيين » بمعجزة النوع غير ملتفتين لتلك الخوارق والمعجزات الظاهرة التي لا يعول عليها في إيمانه إلا العامة وقد قال قائلهم في حقه صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت خلأته تنبيك بالخبر

وقد ذكر فيلسوف الإسلام العلامة ابن خلدون في مقدمته : إن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني ، فينقطع منحنياً إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية ، وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية الفكرية ، وهذا في الأغلب هو من أن الإدراك البشري الجسماني إليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم .

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني وإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما خلق فيه من الاستعداد فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات ويسرح في قضايا المشاهدات الباطنة . وكلها وجدانات لا حدود لها . وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ .

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة إلى الملكية من الأفق الأعلى ، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقه وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة .

وهؤلاء هم الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة . فإذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقوا من الملأ الأعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية فتنزلوا به إلى قواها لحكمة التبليغ اهـ .

وبهذا كله نعرف سر ما نوجبه لهم في علم التوحيد من أمهات الفضائل : كالامانة ، والصدق والتبليغ والفظانة وما نحيله عليهم من السفساف والذنبا التي تجوز على غيرهم .

وبعد : فهنا طريق قريب يعرفك ما بين الأنبياء والفلاسفة من الفرق الشاسع والبون البعيد وهو أن تقارن بين ماسمعه عنهم وماسمعه عن الفلاسفة ، ثم تحكم بعد ذلك . فانظر مثلاً إلى مثل ما جاء في القرآن في تقرير علمه تعالى بكل شيء مثل قوله : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)^(١) الخ . (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ)^(٢) الخ ، (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ)^(٣) الخ . ثم لقول الفلاسفة إنه لا يعلم الجزئيات ، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى كتاب كبير .

الفلاسفة :

أما الفلاسفة فليست لهم هذه المراتب العالية ولا ذلك الاستعداد الرفيع الذي يؤهلهم للأخذ من الملأ الأعلى ، فهم يقولون بأفكارهم وعقولهم ، ولهذا قد تجد لهم من الخطأ الشائن والهفوات المزرية ما يسقط الإنسان العادي فضلاً عن الفيلسوف .

ولسنا ننكر أن لهم حكماً بليغة إلا أن ذلك غير مقصور على من اشتهروا بالفلسفة فكثيراً ما نجد للمجربين وذوى النفوس الكبيرة في كل عصر ما يوازي حكمة أرسطو وأفلاطون . ولعلماء الأمة المحمدية

(١) سورة أنعام ، الآية ٥٩

(٢) سورة يونس ، الآية ٦١

(٣) سورة المجادلة ، الآية ٧

ووصلحائها من ذلك ما لا تسعه الدفاتر . ولعلنا نورد شيئاً منه ومن كلام
الفلاسفة ونقارن بينهما في عدد آخر :

وفلسفة هذا شأنها غير مأمونة ولا معصومة فإنها تعتمد اللباقة في
التعبير والإغراب في التفكير ، وبهذا تعد فلسفة ولو كانت مستمدة
من منبع الشهوات والأهواء كفلسفة أبيقور وأتباعه . ولعلنا نذكر
شيئاً منها بعد .

ولنفكهمك الآن بشيء من فكاهاتهم أو ترهاتهم ، فنقول :

شيء من ترهات الفلاسفة وفكاهاتهم :

إن (فيثاغورس) من أكبر فلاسفة اليونان وله أشياء نفيسة ومع
هذا فقد كان يقول : « إن ذنب من يقتل الذبابة أو الزنبور أو غيرها
من الهوام ؛ مثل ذنب من يقتل إنساناً » . ويزعم (انكسפורاس) أن
السماء صنعت من حجارة كهذه الحجارة . وسبب ظنه ذلك أنه قد اتفق
ذات يوم أن حجراً سقط من جهة السماء فظن انكسפורاس أن السماء
مصنوعة من حجارة ثم أخذ يفكر في علة لبقائها أبد الآباد فقال :
« إن دوران الفلك أوجب بقاء تلك الصنعة بلا خلل بحيث لو اختل
الدوران لحظة لفسد نظام السموات والأرض » فانظر إلى ذلك الخيال
الواسع ومجاراته إلى حيث يريد .

ويذكر عن أرسطيبي الفيلسوف أن الملك بصق في وجهه يوماً من
الأيام ، فعيب عليه في ذلك فقال بفلسفته الحمقاء : « إن الصياد
يتحمل مشقة الصيد حتى يبتل بالبحر لصيد سمكة صغيرة ، فكيف
لا أتحمّل ريق الملك لصيد الحوت الكبير » واتفق أيضاً أنه ترجى

الملك ديلنسى لبعض أصدقائه فرده الملك ولم يقبل رجاءه فخر أرسنيب على قدمى الملك وقبلهما ، فاستقبح ذلك بعض من كان فى المجلس فقال أرسنيب : (لا لوم فى ذلك على إنما اللوم على الملك حيث وضع أذنيه فى قدميه .

ومن كلامه الذى لا أدرى أتمت حسنه أم تستقبحه قوله : « إن الحكيم لا ينبغى له أن يلتقى بيديه إلى التهلكة لأجل حفظ وطنه فإن الدنيا كلها وطنه فليس من الإنصاف أن يخاطر بنفسه لأجل حماية المجانين » .

وأكسينوقراط كان من عاداته التى اقتضتها فلسفته تعطير أقدامه فسئل عن ذلك فقال : إن رائحة العطر الذى يوضع فى الرأس تطير فى الهواء بخلاف ما إذا عطرت الأقدام فإن الروائح تصعد إلى الأفق .

وذكروا فى تاريخ الفلاسفة أن أرسنيب سافر إلى مدينة فورنته وركب البحر فصادفته ريح عاصفة أحدثت الرعب فيه إلى حد مموت إشفاقاً من الهلاك فسخر منه إخوانه فى السفينة ولاموه وقالوا له : كيف نحن مع جهلنا لم يصادف قلوبنا ما صادف قلبك من الفزع والخوف وأنت من عظماء الفلاسفة ؟ فما هذا الوجع وما هذا الاضطراب ؟ فجأبهم بقوله : إن أنفسكم ونفسى ليسوا فى درجة واحدة بل شتان ما بين الذى أخسره وبين ما تخسرون . فانظر إلى تلك الفلسفة المعكوسة التى تشقى صاحبها بلا شفقة ولا رحمة . لا جرم أن الجهل خير من تلك الفلسفة .

ثم انظر بعد ذلك إلى ما جاء به الأنبياء من تعظيم الحياة الأخرى وما فيها من السعادة الأبدية وتحقير هذه الحياة الدنيا حتى جعلها القرآن متاعاً وقتياً وجعل الآخرة هي دار القرار حقرها صلى الله عليه وسلم حتى جعلها لا تساوي جناح بعوضة ، إلى آخر ما جاء في الكتاب والسنة وهو كثير .

ومما يجدر التنبيه عليه أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فيما جاءوا به من العلم في غير الأحكام الجزئية التي يقتضيها اختلاف العصور وتباين الاستعداد . أما الفلاسفة فلا يكادون يثبتون على رأى واحد بل يتخالفون ويتناقضون .

وقد كانت فلسفة أرسطو مقدسة عند الأوربيين حتى جاء الفيلسوف (راموس) فنقضها فقتلوه في وقعة (سان برسلمي سنة ١٥٧٢ م) وهى الواقعة التي قتل فيها كاثوليك فرنسا البروتستانت .

كلمة افلاطون في اصناف الناس :

ولنختم موضوعنا هذا بما روى عن أفلاطون كبير فلاسفة اليونان ورئيس الحكماء الإشرائيين فنقول : قسم أفلاطون الناس إلى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) الجنود (٣) الصناع وأهل المهن . قال :

أما الأولون فهم المخلوقون للسيادة دون غيرهم ، وسماهم الصنف الذهبي . أما الجنود فهم حراس المملكة . وأطلق عليهم الصنف الفضي . وأما الصناع فهم المخلوقون للصناعة العمياء . ودعاهم الصنف الحديدي .

أما العبيد فتمال عنهم أنهم ماشية الأمة مثلهم كممثل البهائم السائمة فانظر إلى هذا وقارن بينه وبين من أوجب قتل الإنسان إذا قتل الذبابة وما بينهما من التناقض ، فان أحدهما يحترم كل ذى روح ولو كان من أحقق الأشياء والآخر على العكس من ذلك في أشرف نوع وأعلاه وهو نوع الإنسان ولهذا كانت الفلسفة في كل عصر مثار الشكوك والأوهام ومبعث الاختلاف والتنازع حتى قيل :

نهاية أقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال^(١)
ولم نستغمد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

حتى حرم بعضهم النظر في كتب الفلسفة لأن ضررها أقرب من نفعها وشكها أكثر من يقينها . ثم قارن بعد ذلك كله بين كلام أفلاطون آله الذى يدعى بأفلاطون الإلهي « والذى أحترمه وأجله وبين ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من احترام أفراد النوع الإنساني وعقد المساواة بينهم وبث الديمقراطية الحققة في الناس جميعاً فلم يجعل لأحد فضلاً على أحد إلا بالتقوى وقد جاء في القرآن الكريم ؛ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ^(٢)) وقد سمع صلى الله عليه وسلم أبا ذر يقول لعبدده : « يا ابن السرداء » فنقم عليه ذلك وقال له : « إنك امرؤ فيك جاهلية »

(١) كان بعض أشياخنا يقرأ (العالمين) في البيت المذكور بكسر اللام لا يفتحها

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣

فأعتقه أبو ذر وصار من ذلك اليوم يسوى خادمه بنفسه حتى أنه إذا لبس حلة ألبسه مثلها . وقد جاء في تعظيم سلمان الفارسي وبلال وغيرهما شئ كثير . ومن ينظر في التاريخ يجد الموالى في الإسلام قد اعتلوا من المناصب السامية والمنازل العالية مالا يسامى .

ولعلنا نعود لمعالجة هذا الموضوع مرة أخرى إن شاء الله تعالى .

بعض معجزاته عليه الصَّلَاة والسَّلَام^(١)

فيها دلالة على كرامته على رَّبِّهِ

عرفت إن أفاضل الكتاب سيكتبون في الهجرة الشريفة ما يكفي ويشفي وسيفيضون القول فيها بما لا يدع قولاً لقائل : فتركت لهم^(٢) تلك النواحي كلها التي سيبرزون فيها ويأتون على الغاية منها .

وقد عن لي أن أقف القراء الكرام على شيء من معجزاته صلى الله عليه وسلم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وعلماء إلى علمهم فيزدادوا محبة له ومعرفة بقدره .

وقد أخذنا على أنفسنا إلا نذكر من تلك المعجزات إلا ما جاء في الأحاديث الصحيحة فأقول وبالله التوفيق :

أخبره بالفييات :

في القرآن من ذلك النوع شيء كثير كقوله تعالى (سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ)^(٣) وقوله : (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللَّهِ)^(٤) وقوله : (لَتَدْخُلَنَّ النَّسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)^(٥) وقوله : (وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)^(٥) وقوله : (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ

(١) مجلة الإسلام - السنة الخامسة - العدد ١ - المحرم - سنة ١٣٥٥ .

(٢) سورة القمر ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة لروم ، الآيات من ٣ - ٥ .

(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٩٥ .

تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ^(١)) وقوله : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)^(٢) .

إلى غير ذلك مما لا نطيل به فوقع كل ما قال على نحو ما قال لم يتبر منه حرف واحد ، ولكننا نريد في هذه العجالة أن نذكر لك بعض ما جاء في السنة من أخباره التي جاءت مثل فلق الصبح كما أخبر .

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ فَاَسْتَوْصُوا بِأَعْلِيهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا » أخرجه مسلم . وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ . فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفِقَنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى » أخرجه الشيخان . وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « هَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْمَاطٍ ؟ » قُلْتُ : « وَأَنْتَى تَكُونُ لَنَا الْأَنْمَاطُ ؟ » قَالَ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فَكَانَتْ كَمَا قَالَ . فَأَنَا أَقُولُ لَهَا (يَعْنِي إِمْرَأَتَهُ) أُخْرَى عَنَّا أَنْمَاطُكَ فَتَقُولُ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَتَكُونُ لَكُمْ أَنْمَاطُ فَاذْعُهَا » أخرجه الشيخان وأصحاب السنن .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : « قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامًا فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ حَفِظَهُ مِنْ حَفِظَهُ ، وَنَسِيَهُ مِنْ نَسِيَهُ ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَوْلًا ،

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة النور ، الآية ٥٥ .

(٣) هي ضرب من البسط له حمل رقيق ، كما في النهاية .

وإنه ليكونُ ونه الشئُ مُقدّمٌ نسبيتهُ فأراهُ فأذُكرهُ كما يذكُرُ الرجلُ وجهه
الرجلُ إذا غابَ عنهُ ثمَّ إذا رآهُ عرفهُ . أخرجه الشيخانُ وأبو داود .
وعنه رضى الله عنه قال « أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا
هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنْهُ إِلَّا أَنِّي لَمْ
أَسْأَلْهُ مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ » أخرجه مسلم .

وعن عمرو بن أخطب الأنصاري رضى الله عنه قال : صلى بنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الفجرَ وصعدَ المنبرَ فخطبنا حتى
حَضَرَتِ الظُّهُرُ فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ
فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأَخْبَرَنَا بِمَا هُوَ
كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَعْلَمْنَا أَحْقَظْنَا . أخرجه مسلم .

تكليم الجمادات له صلى الله عليه وسلم :

عن علي رضى الله عنه قال : « كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَسَلِّمَ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ وَلَا جَبَلٌ
إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . أخرجه الترمذى فى صحيحه
وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، « إِنَّ بِمَكَّةَ حَجْرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ لِيَالِي بُعِثْتُ ، إِنْ أَعْرِفُهُ
الآنَ » أخرجه مسلم والترمذى فى صحيحه ، وعن ابن عباس رضى الله
عنهما قال « جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ
بِمَا أَعْرِفُ أَذْكَرُ لُحْمًا؟ قَالَ أَنْ أَدْعُو هَذَا الْعِدْقَ مِنَ النَّخْلَةِ فَيَشْهَدُ
لِي أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَدَعَاهُ فَجَعَلَ الْعِدْقُ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ حَتَّى سَقَطَ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ
لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْجِعْ إِلَى مَوْضِعِكَ فَعَادَ إِلَى مَوْضِعِهِ

والتأم ، فأسلم الأعرابي « أخرجه الترمذى فى صحيحه وعن أنس
رضى الله عنه قال « خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَذَعٍ
فَلَمَّا سَمِعُوا لَهُ الْمُنْبِرَ فَخَطَبَ عَلَيْهِ حَنَّ الْجَذَعُ حَيْنَ النَّاقَةِ فَنَزَلَ ص
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَّهُ فَسَكَنَ » أخرجه الترمذى فى صحيحه .

تكميل الماء والطعام معجزة له صلى الله عليه وسلم :

عن أنس رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى صلى الله
عليه وسلم بوضوء فوضع يده فيه وأمر الناس أن يتوضؤوا منه ، قال
فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ، فتوضأ الناس عن آخرهم .
أخرجه الستة إلا أبداود .

وعن جابر رضى الله عنه قال وعطش الناس يوم الحديبية فأتوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه ركوة وقالوا ليس عندنا
ما نتوضأ به ولا نشرب إلا ما فى ركوتك ، فوضع صلى الله عليه وسلم
يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال الميون
فتوضأنا وشربنا ، قيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : لو كنا
مائة ألف لكاننا كنا خمس عشرة مائة . أخرجه الشيخان .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كنا نعد الآيات ببركة وأنتم
تعدونها تخويفا . كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء
فقال : « اطلبوا فضلة من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فادخل يده
فيه ثم قال : « حى على الطهور المبارك والبركة من الله تعالى » ذلكم
رأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام
وهو يأكله » أخرجه البخارى والترمذى والنسائى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ فَتَنَفَّدَتْ أَزْوَاجُ الْقَوْمِ حَتَّى هَمُّوا بِنَحْرِ بَعْضِ إِبِلِهِمْ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ جَمَعْتَ مَا بَقِيَ مِنْ أَزْوَاجِ الْقَوْمِ فَدَعَوْتَ اللهُ عَلَيْهَا ، فَفَعَلَ ، فَجَاءَ ذُو الْبُرِّ بِبُرِّهِ ، وَذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ ، وَذُو لَثْوَى بِنَوَاهِ ، قِيلَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ بِاللَّيْلِ ؟ قَالَ كَانُوا يَمْصُونَهُ وَيُشْرَبُونَ عَلَيْهِ ، فَدَعَا عَلَيْهَا حَتَّى مَلَأَ الْقَوْمُ مَزَاوِدَهُمْ . ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ : أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ لَا يَلْقَى اللهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » أخرجه مسلم .

وعن أبي هريرة فِيهِمَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمَى بِتَمْرَاتٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ فِيهِنَّ بِالْبَرَكَاتِ ، فَضَمَّهِنَّ ثُمَّ قَالَ : « خُذْنِ فَاجْعَلُنَّ فِي مِزْوَدِكَ هَذَا ، وَكَلِّمَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ سَيْئِمًا أَدْخُلْ يَدَكَ فِيهِ وَخُذْهُ وَلَا تَنْثُرْهُ نَثْرًا » فَفَعَلْتُ فَلَقَدْ حَمَلْتُ مِنْهُ نَدَاً وَكَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَكُنَّا نَأْكُلُ مِنْهُ وَنُطْعِمُ حَتَّى كَانَ يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَسَقَطَ فَحَانَتْ عَلَيْهِ . » أخرجه الترمذى فى صحيحه .

اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال أبو جهل : هل يصلى محمد لربه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطآن على رقبته أو لأعفرن وجهه فى التراب ، ثم إنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ليطأ على رقبته ، قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، فقيل له ملاك ؟

قَالَ إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَجُنْحَةً : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ دَنَا لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ) (١) إِلَى قَوْلِهِ : (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ .

وهذا بحر لا ساحل له . وقد ألفت العلماء في دلائل النبوة كتباً كثيرة فلنقتصر على هذا - ولنفسح المجال لغيرنا - سائلين الله أن يجعله عاماً مباركاً يعلو فيه شأن الإسلام والمسلمين بمنه وكرمه .

بمناجاة الإسراء والمعراج^(١)

من المعلوم أن الله تعالى منزّه عن الجهات وعن صفات المخلوقات ، وقد أولع بعض الناس الآن بذكر آيات التشابهات للعامّة التي لا ينبغي أن يتكلم بها إلا في مجالس الخاصّة من العلماء عند الاقتضاء .

ومن ذلك ما ورد في الإسراء والمعراج . فرأينا أن نكتب كلمة في ذلك راجين من أولئك المتفهمين أن يتقوا الله ولا يذكروا للعامّة إلا ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، فإنهم لا يعرفون من الأشياء إلا ظواهرها ، فنقول وبالله التوفيق .

يدل على التنزيه في قصة الإسراء والمعراج وأنه ما كان لقطع المسافات فيما بينه صلى الله عليه وسلم وبين الله تعالى أو لكونه على عرشه كما في عبارات كثيرة لابن تيمية وابن القيم وأتباعهما دلائل كثيرة نقلية لمن تبصر فضلاً عن البرهان العقلي الذي يوجب له التنزيه ونفي التشبيه .

فمن ذلك افتتاح السورة بـ (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى)^(٢) المقتضى

للتنزيه تنبيهاً على عدم تحيزه ونفي اختصاصه بجهة .

الثاني : قوله (أسرى بعبده) فأتى بالباء المفيدة للمصاحبة تنبيهاً على مصاحبته تعالى له في حالة إسرائه وأنه ليس نائياً ولا بعيداً عنه

(١) مجلة الإسلام - السنة الخامسة - العدد ٢٩ - رجب - سنة ١٣٥٥ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١ .

فيحتاج في قربه إلى قطع مسافة مكانية . وقد قال صلى الله عليه وسلم
«اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ» .

الثالث : قوله (بعبده) تنبيهاً على أنه على حسب التحقق بخضوع
العبودية يكون الترقى إلى حضرة الربوبية لا بقطع المسافات أو كثرة
الحركات .

الرابع ، قوله (ليلاً) كان لفظ الإسراء مفيداً لذلك تنبيهاً على أن
كل ما تضمنه الإسراء كان خارجاً عن العادة في مثله .

فإنه جعل العلة فيه أن يريه من آياته والإراءة العادية سلطانها النهار
فقال : (ليلاً) ليعلم أن الرؤية المقصودة ليست عادية بل هي رؤية
أرهبها بنور رباني سلطان موسمها الليل دون النهار .

الخامس : قوله (من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) تنبيه
على أن الإسراء لو كان للضرورة رؤية ربه لكونه مخصوصاً بجهة العلولم
تكن حاجة بالذهاب إلى المسجد الأقصى ولأمكن الترقى من مكة إلى
السماء . فدل على أن الإسراء والترقى من مكان إلى مكان لحكمة وراء
ما زعم مثبت الجهة من المشبهة وأذيال المشبهة .

وفي ذلك إشارة إلى أن العبد لا يصل إلى الله تعالى إلا فرداً تحقيقاً
لقوله (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)^(١) ولا تتحقق له الفردية
إلا بعد مفارقة الحوادث وتجرده عنها . فهناك يصل إلى حضرته تعا

(١) سورة مريم ، الآية ٩٥ .

وصولاً لا يشبهه وصول الأجسام وقد جاء الكتاب العزيز بالتنبيه على أن حضرة عنديته وراء دوائر السموات والأرض حيث قال تعال : (ومن عنده) فعطف (من عنده) على من في السموات والأرض والعطف يقتضى المغايرة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لو دلى أحدكم بحبل فى بئر لوقع على الله^(١)» فنبه صلى الله عليه وسلم على عدم تمييزه فى السماء وأنه ليس مختصاً بجهة .

هنا وإذا أردت مزيد التبصر فى أن الإسماء وعروج الملائكة ورفع عيسى وإدريس صلى الله عليهم وسلم إلى السماء لا يدل على أن الله تعالى مخصوص بجهة السماء فاعتبر فرض الحج على العباد إلى البيت الحرام وأمر الله تعالى إلينا بالتوجه إليه من جميع الجهات وجعل سكانه جيران الله تعالى وحجاجه وفده وضيوفه ، والحجر الأسود يمينه ، فماذا تفهم من كون الكعبة بيت الله وكون الحجر الأسود يمينه ، بخ ؟

ظنك لاتعدو به التمثيل وبيان الاعتناء بزائريه الذين جعلهم ضيوفه وطلب منهم تقبيل الحجر ليكون بمنزلة تقبيل يمين الملك .

إلى آخر ما لا تسعه هذه العجالة ، ثم انظر إلى مثل قوله تعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ^(٢) . وقد قال (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ^(٣) . ولكن إذا كان المقصود بالسياق

(١) كما فى سنن الترمذى . (٢) سورة الزخرف ، الآية ٨٤

(٣) سورة النحل ، الآية ٥١

تحذير أهل الأرض وتفخيم الأمر جاء التعبير بمن في السماء فإن مظاهره
السموية هي المشاهدة بالبصر وهي أجل وأعظم في النفوس من مظاهر
الأرض .

وأما تنزيل التدبير وعروجه المشار إليه بمثل قوله : (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ
بَيْنَهُنَّ) ^(١) فتكون السماء محل التصريف والفعل ، والأرض محل
القابلية والانفعال ، فهو كما قال بعض العارفين (عروج روحاني وسر رحمانى
وكشف عرفانى) . أسأل الله أن يلهمنا الرشد فى كل شىء وأن يعرفنا
أسرار كتابه ولطائف خطابه .

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢

عظمته صلى الله عليه وسلم^(١) ووجوب محبته

(١)

رأينا أن نكتب كلمة في هذا الموضوع الخطير بمناسبة ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم ، وقد جاءني هذان البيتان عفواً بهذه المناسبة :

أحب رسول الله تحظ بما تشا فإن جميع الخير في ذلك الحب
وكن راضياً بالله مولى وسيداً وأخرج جميع الكائنات من القلب

فنقول : لاشك أنه يأخذ منك العجب كل مأخذ ، ويمضى بك اليقين بعظمته صلى الله عليه وسلم إلى أعلى غياته ، إذا تأملت في نظره إلى بواطن الخلق وظهرهم وتربيتهم بما هيأهم لأعلى الدرجات وأسمى الغايات .

فانظر إلى سياسته العامة والخاصة ، وحسن سيرته مع الجميع ، وما نقل عنه من مكارم الأخلاق ومحاسن التعاليم وأحكام الشرائع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب . إذ هو النبي الأمي الذي جبل على أفضل الغرائز تهيئة له من خالقه عز وجل كى يكون رسولاً لجميع الأمم في جميع الأزمان إلى يوم القيامة .

ولا غرو ؛ فشريعته جاءت بكل ما يحتاج إليه نوع الإنسان في كل عصر وجيل إلى يوم البعث والنشور ، مما كان برهانا ساطعاً على نبوته ، وأنه خاتم المرسلين ، وأن كتابه تنزيل من رب العالمين .

وعندى أن معجزاته المعنوية أكثر وأبر من معجزاته الحسية لدى
أرباب العقل والبصيرة . وقد قال وهب بن منبه : قرأت في واحد
وسبعين كتابا أن النبي صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم
رأياً . وقد قال جبريل عليه السلام للبراق لما استصعب عليه ليلة
الإسراء : (مَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَفْضَلُ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) . ولعمري
أن ذلك لثابت بشهادة العقل والنقل . ومن كرامته على ربه أنه نوه به
في كتب الرسل السابقين والأنبياء المتقدمين (يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ : وَيُحِلُّ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(١) .

ومن كرامته على ربه أنه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أنهم يرْمنون
به وينصرونه إذا أدركوه ، وأكد ذلك غاية التأكيد ، اعتناءً وإشادة
بشرفه وعظمته فقال : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ
مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلتَنْصُرُنَّهُ . قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي . قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ
فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)^(٢) . فانظر إلى هذا التأكيد وهذه
العناية العجيبة حيث يقول : (أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي .
قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨١

وانظر إلى ثناء الله عليه في الآيات الأخرى حتى أصبح قرآنا يتلى
 كى لا يغيب عن الأذهان ، فتراه يقول : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ
 أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ . حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
 رَحِيمٌ)^(١) . فقد أعطاه في هذه الآية كما قال بعضهم اسمين من أسمائه
 تعالى حيث سماه رءوفا رحيفا . ويقول : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
 شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)^(٢) . فانظر
 إلى ذلك الثناء العاطر ، والتنويه الباهر ، وما زاد في مدح الشمس على
 أنها سراج . ولا غرو فهو صلى الله عليه وسلم شمس الوجود ، ومظهر
 الفضل والجلود . ويقول في حق أمته : (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
 ، يُكْفِنُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)^(٣) .

ثم انظر إلى ما يبهر عقلك ، ويدهش لبك ، ولا يستسيغه إيمانك
 حيث يغمس تعالى بحبائه فيقول له ملاطفًا معظماً : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ
 لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(٤) . ويقول في بيان صفاته الكريمة وأخلاقه
 العظيمة : (إِنَّكَ الْعَلِيُّ خُلِقَ عَظِيمًا)^(٥) . وناهيك بأمر يعظمه الله
 في علاه ، ويثنى عليه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
 ولا من خلفه . ويقول له : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ . وَلَوْ كُنْتَ
 فَظًّا غَلِيظًا لَفُضِّضُوا مِنْ حَوْلِكَ)^(٦) .

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

(٤) سورة الحجر الآية ٧٢ .

(٥) سورة القلم الآية ٤ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

ويعلمنا الأدب في مخاطبته صلى الله عليه وسلم فيقول : (لَا تَجْعَلُوا
دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)^(١) . ويقول : (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)^(٢) .

ولا أدرى مبالغة أكثر من هذا ، حيث كان رفع الصوت فوق
صوته صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْأَدَبَ مَعَهُ كَمَا يَحِبُّ وَيَرْضَى .

ويقول : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)^(٣) إلى آخر ما جاء
في الكتاب العزيز من تعظيم قدره والتذويه بذكره : فماذا يمدح المادحون ،
وماذا يكتب الكاتبون ؟

إذا الله أثني بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الوري
ولله در من قال :

محمد كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن إلا محمد

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يعلمنى حقيقته

إلا ربى » أو كما قال :

وانختم كامتنا هذه بقول الله تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

(١) سورة النور الآية ٦٣

(٢) سورة الحجرات الآية ٢

(٣) سورة النساء الآية ٨٠

كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ. (١)

فكفى بهذا حضا وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها عليه السلام ، إذ قرع تعالى من كان ما له وولده وأهله أحب إليه من الله ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى : (فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) ، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم بأنهم ممن ضل ولم يهده الله تعالى :

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ تَمَلَأَ قُلُوبَنَا بِمَحَبَّتِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خِدَامِ شَرِيعَتِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

عظّمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) وَسُئِيَ مِنْ سِيرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَأَيَاتِهِ الظَّاهِرَةِ

(٢)

تعرف عظمة الرجل بتحليل نفسيته الكبيرة ، وأخلاقه الرفيعة ، ثم بآثاره الخالدة . ولا نجد نفسية أعظم من نفسيته عليه السلام ولا آثاراً كآثاره . وكل من تتبع شريف أحواله زما اشتملت عليه سيرة حياته ، وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سياسته ولطف دعوته ، ورفيع حكمته ، وعلمه بمجامع السعادات ، وسوقه إليها بالوسائل المختلفة والطرق العجيبة التي تفوق كل ما جاء في حكمة الحكماء وسير العلماء ، وما تم له من سيااسة الخلق وتقرير الشرائع وتاصيل الآداب الكريمة والشيم الحميدة ، إلى فنون العلوم المختلفة دون تعليم ولا مدرسة ، ولا مطالعة كتب من تقدم ، ولا الجلوس إلى العلماء والحكماء بل هو نبي أي لم يعرف شيئاً من ذلك .

حتى شرح الله صدره وأبان أمره ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً ، وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِّلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)^(٢) . (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثالث - المجلد الثامن ربيع الأول سنة ١٣٥٦

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

مِنْ عِبَادِنَا . وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١) . (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٢) . (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (٣) .

نقول : كل من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم دراسة مدققة ، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة تامة ، لم يخالجه أقل ريب في نه واسطة عقده الكمال ، وأنه سيد الأولين والآخرين ، وأفضل الخلق أجمعين .

على أن من يريد بيان كماله واستقصاء أحواله فإنما يحاول عد ما في البحر من درر ، أو استقصاء ما في السماء من نجوم :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بضم

ولنقرب لك ذلك بعض التقريب ، ولنفضله شيئاً من التفصيل ، فنقول : إن أيما أتى به من الأوامر الحكيمة التي تكفل مصالح الدنيا والآخرة ، وفي إرشاده إلى ما يكفل سعادة الأبد وراحة المجتمع وشفاء العيش ، وفيما بينه من الحقائق وهدى الخلائق ، وفيما أتى به مما يعرفه العقل جملة وعجز عنه تفصيلاً - ما يعلم به المنصف البصير أنه من العلم والمعرفة ولخبرة في الغاية التي باين بها الخلق ، فكل ما يعلم الناس أنه حق وأنه خير فهو أعلم منهم به . وهو بعد ذلك أنصح الخلق للخلق ، وأبر الناس بالناس ، وأصدقهم فيما ية ول ، وأقومهم فيما يفعل .

(١) سورة شورى ، الآية ٥٢ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية ٢ .

(٣) سورة الجمعة ، الآية ٤ .

وبعبارة أخرى نقول ، أنه جمع مالم يجتمع لأحد ، ولم يعهد مثله في السنن الطبيعية للإنسان ، فان من نظر إلى تدبيره الحروب . مثلاً وعرف أنه أتى فيها بأحسن الخطط ، قال إنه رجل حرب وجه كل همه وفكره لمجالدة الأعداء ورسم خطط الحروب ، ومن كان كذلك لا يكاد يحسن غير ذلك .

فإذا نظرت إلى زهده وعبادته حتى تورمت قدماه ، وكان يسمع صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء في الصلاة ، وكان يطيل المسجود حتى تظن عائشة أنه قد مات ، تقول إنه رجل ترك الدنيا وما فيها ، فهو جاهل بها لا يحسن تدبيرها ولا العمل لها بوجه من الوجود ، فضلاً عن إعداد الوسائل لقوم جهال متفرقين متوحشين لأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، تغلب ولا تغلب ، وتقهّر ولا تُقهّر ، مادامت متمسكة بما جاء به .

وإذا نظرت إلى وعظه الذي يأخذ بمجامع القلوب ، قلت إنه لا يحسن غير ذلك .

وإذا نظرت إلى حسن تربيته وتعليمه الذي جعل السيدة عائشة تكون من أعلم العلماء ، بحيث تجرؤ على أن تخطيء عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وهم من أكبر الصحابة وأعلمهم ، وقد مات عنها وهي بنت ثمانى عشرة سنة ، وقد صار بفضل هذه التربية الحكيمة وتلك الأساليب العجيبة أبو هريرة أكبر من روينا عنه الشريعة في أربع سنين .

إذا نظوت إلى ذلك كله قلت إنه من أكبر أساتذة علم النفس ،
حيث جاء بتلك النتائج الباهرة التي لم تعرف لأحد من علماء التربية
وأساتذة علم الاجتماع حتى الآن .

بل نقول : كان يجيئه الأعرابي فلا يمكث معه إلا قليلا من الزمن
حتى يرجع عاما في نفسه معلما لقومه .

وإذا صادك التأييد ونظرت إلى ما كان من تأثيره في الأمة العربية ،
رأيت العجب العجاب فقد تبدلت طبائع العرب على اختلاف قبائلهم
ونزعاتهم بهديته صلى الله عليه وسلم ، من الظلم إلى العدل ، ومن الجهل
إلى العلم ، ومن الفسق الفاحش إلى العدل العظيم الذي لم يبلغه أعظم
الفلاسفة ، وتدأسقطوا كلهم أولهم وآخرهم بفضل تعاليمه صلى
الله عليه وسلم طلب الثأر ، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى
الناس له ، صحبة الأخوة المتحابين دون خوف يجمعهم ، ولا رياسة
ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم . ولا مال يتعجلونه .

وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما .
وليس يغيب عنك أن جمهور أتباعه غرباء من غير قومه ، لم يمنهم
بدنيا ولا وعدهم بملك ، بل بايعهم على ألا ينازعوا الأمر أهله ، وأن
يوطنوا أنفسهم على الأثرة عليهم ، ولم يفعل ذلك لأقاربه أنفسهم
ولا ترك لهم ميراثا يورث عنه . « وهذا لا ينكره أحد من الناس » .

وخلاصة القول أنه صلى الله عليه وسلم لم يشغله ظاهر عن باطن ،
ولا إصلاح الدنيا عن إصلاح الآخرة ، ولا ما بهم النفوس والأبدان

عما يمتع الأرواح والأسرار ، ولا موجبات الغضب عن استعمال الحكمة
« ولا غرو فهو ينظر في الأشياء بنظر الله فسيان حربه وسلمه » .

ثم انظر بعد ذلك إلى ما جاء به من مجامع السعادة للفرد والمجتمع ،
فتراه أوصاك بخاصتك من أهل بيتك وأقاربك ، ثم أوصاك بجيرانك
والأباعد عنك ، ثم على المسلمين وأهل الذمة ، ثم أوصى الرئيس أن
يرحم المرءوس . والمرءوس أن يطيع الرئيس .

ومما ينبغي أن نعرفه من حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعمل
الشدّة في موضعها والرحمة في موضعها ، ولكنه متخلق بأخلاق الله
القائل : « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » .

إلى غير ذلك مما ينبغي أن يوضع فيه كتاب مخصوص .

وهذه أنظار واسعة لا يتأتى في العادة أن يحيط بها إنسان ، وحكمة
عالية تضع الأشياء في مواضعها بموازين القسط الدقيقة ، وأكثر الحكماء
إن أصابوا التشريع لم يمكنهم استعمال الحكمة ولا القدرة عليها عند
التنفيذ والتطبيق ، فقلما يطابق العلم العمل ، وقلما يطابق العمل
الصواب ، وقلما يستطيع الإنسان الضغط على نفسه في ظروف كثيرة ،
وقلما ينجو العقل من تلبيس الهوى وجهل النفس وسلطان الشهوة
التي تزين القبيح حتى تغطي العقل بغطاء كثيف لا يكاد ينفذ منه
بصره إلى الحقيقة « حبك الشيء يعمي ويصم » .

وإذا لا يستمد العقل إلا من العاطفة ، وتكون هي المسيطرة عليه
المملية له ، فلا ينظر إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها . ولديك أرياب
العواطف من الأحزاب المختلفة في الدين والدنيا .

وبالجملة فسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقضى بتصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله حقا ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته عليه السلام لكفى . فإنه صلى الله عليه وسلم نشأ في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ، ولا خرج عن تلك البلاد إلا خرجتين : إحداهما إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ثم رجع ، والأخرى أيضا إلى أول أرض الشام ولم يطل بها البقاء ، بل رجع بشهادة حبر من أحبار أهل الكتاب بنبوته عليه السلام وهو «بحيرا» الراهب ، وحبر آخر وهو «نسطورا» الراهب كما هو معروف .

وناهيك ما وصلت إليه أمته بفضل تلك التربية ، حتى إنها في أقل من عشر سنين بعد وفاته فتحت أعظم ممالك الأرض إذ ذاك «مملكة الفرس ومملكة الرومان» .

وفي أقل من قرن وصلت من آسيا إلى الهند والصين ، ومن إفريقيا إلى أرض مراكش ثم تخطتها إلى أوروبا فأسست بها تلك المملكة الفيحاء «مملكة الأندلس» ، ووصلت إلى برد ومن أرض فرنسا ، إلى غير ذلك مما دهش له التاريخ وعجب له فلاسفة أوروبا ، وكل ذلك بفضل تلك التربية النبوية الحكيمة .

وقد قال جوستاف لوبون الفرنسي في حقهم وهو من أعظم فلاسفة أوروبا (أن ملكة الفنون لاتستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال ، وقد شد العرب فوصلوا إلى الاستقلال في جيل واحد » . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب » .

وقد أذكرني ذلك قول صاحب الهمزية في أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

ثم نقول بعد ذلك :

أن قوانين العالم المتمدين إلى الآن لم تصل إلى تلك الغايات السامية ، ولا أتت بتلك السعادة المنشودة ، ولا أورثتنا هذاء ولا صفاء .

بل يمكننا أن نقول :

إن تلك القوانين وهاتيك المذنيات الفاسقة ما زادت العالم إلا شقاء وبلاء .

على أن سبب نهضتهم من كبريتهم واستيقاظهم من نومهم وإنقاذهم من جهالتهم إنما هو علم المسلمين والاحتكاك بهم كما هو معروف من تاريخ الأندلس وتاريخ الكنيسة وتاريخ الحروب الصليبية ، فكانت القرون الوسطى أو القرون المظلمة على ما يقولون في ذلك العهد عندهم لا عندنا ، وإن كان شباننا بكل أسف لا يعرفون ذلك لأنهم جهلوا تاريخ آباؤهم ونبغوا فيما جاء عن الأجانب فناه فيهم وافتتاننا بهم .

فإن مدينتهم لاتعنى إلا بالماديات . فمحورها الذي تدور عليه هو المادة ، فمنها يبدعون وإليها ينتهون . أما إصلاح النفوس وسعادة الإنسانية ، وراحة القلوب وهدوء الأفكار ، والتنعم بتلك الإحساسات الشريفة والملكات الفاضلة ، فهم بمعزل عنها ، بل سرت عدواهم إلينا ، فاقفرت نفوسنا من فضائل ديننا وآداب أسلافنا ، ولم تصل أيدينا

إلى مثل دنياهم وقوتهم واتحادهم ونشاطهم ، فأصبحنا مستعبدين وقد كنا السادة وجاهلين وقد كنا العلماء ، وأذلة وقد كنا الأعزاء .

وقد شط بنا القلم ، ولكنها نغمة مصدر ، فنرجع إلى ما كنا فيه ، فنقول :

إن تشريع ، - صلى الله عليه وسلم - لم يصل إليه تشريع إلى الآن وقد مضى عليه أربعة عشر قرناً تقريباً. ذلك التشريع الذي تكفل بإصلاح النفوس والأبدان ، وضمن سعادة الدنيا والآخرة ، وحرم على أبنائه أن يكونوا أذلاء فقال : (وَاللَّهِ الْعِزَّةُ لِيُرْسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ^(١) وقال في وصفهم أيضاً : (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) ^(٢) ، وقال لهم بعد ما سلحهم بتلك الأسلحة وحلهم بهاتيك المكارم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلدُّنْيَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) ^(٣) . وقد قال في آية أخرى في وصفهم : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) ^(٤)

وما أهر هذه الآية في نفسى فإنها تشير على ماها من إيجاز إلى مايجب أن تكون عليه الأمة مع أعدائها ، وقد أشير إلى ذلك بقوله : «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» ، وإلى مايجب أن يكون قانونها الداخلى بين

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤ زه

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

أَبْنَاءَهَا . وقد أشير إلى ذلك بقوله : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » ، وإلى ما يجب أن يكون بينهم وبين الله ، وقد أشير إلى ذلك بقوله ، « تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا »

فماذا بقي بعد هذا أصلح ظواهرهم وبواطنهم ، ثم أرشدهم إلى ما يجب أن يعملوا مع أعدائهم ، وما يجب أن يكونوا عليه فيما بينهم ، وما يجب أن يتحلوا به أمام خالقهم . وكم للقرآن من إيجاز وإعجاز ! وقد أذكرني ذلك قبل سديو الفرتسي : « لو وجد المصحف في خلافة لقلنا إنه كلام الله » . وكم للمنصفين منهم من شهادات لدين الإسلام ونبي الإسلام !

ويلتحق بذلك معجزات طبية وعلمية لا يمكننا أن نشير إليها إلا إشارة وجيزة^(١) . فإن الذي حرمه كلحم الخنزير مثلا تبين أن فيه ضرراً كبيراً . فقد عرفوا الآن أن فيه ديدانا كثيرة ، وأنه يولد الدودة الوحيدة . ووراء ذلك شيء كثير كالخمر الذي حرّمته أمريكا لما عرفت أضراره الكثيرة^(٢) (والخمر نكّفت عندنا بأمر الخبائث)

ومن تلك الآيات العلية قول القرآن : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ)^(١) وما عرف تلقيح الرياح للأشجار إلا من عهد قريب . وقوله : (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)^(٢) . ولم يكن في ذلك العهد شيء أصغر من الذرة وإن كانت الميكروبات التي عرفناها أخيراً هي أصغر من الذرة .

(٢) سورة يونس ، الآية ٦١ .

(١) سورة الحجر ، الآية ٢٢ .

وكقوله : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)^(١) ولم يعرف أن في النباتات ذكرٌ وأنثى إلا منذ عهد قريب : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)^(٢)

وبعد ، ففي القرآن من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه العجيب ، حيث يعبر بالنباتات التي تساير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ في تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لا لها : ووجدت هي أكثر انطباقاً على ما قضى به العلم المدحصى والاكتشاف الجديد ، مما يدهش اللب وينطق بأنه ما أنزله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض .

أفلا يحق له أن يقول بعد ذلك : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)^(٣) .

وإني أستحلفك بعلمك وإنصافك أن تنظر في هذه الآية نظر الباحث المدقق حتى تعلم أن مثل ذلك التحدى لا يجوز أن يكون إلا من الله تعالى العالم بكافة الأشياء وما عليه عباده من القوى والقدر . ولا يتصور أن يقول ذلك مخلوق ولا يتحدى جميع الخلق يمثل هذا عاقل ، فإن العاقل لا يعرض نفسه للهزاء والسخرية بتحدى الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

(١) سورة الداريات ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة يس ، الآية ٣٩ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ .

وإن هذا التبجيل في الدلالة على صحة دعوته وصدق رسالته قوله تعالى :
(يَعْرِفُونَهُ مَكَتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) ^(١) ، وقوله في حق
أهل الكتاب : (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ) ^(٢) .

وليس يعقل أن يعتقد مثل «عبدالله بن سلام» وهو من أكبر علماء
التوراة كذب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ثم يؤمن به ، أو يعتقد
نصارى نجران كذبه ثم لا يجيبوه إلى المباحلة ، بل ليس من المعقول
أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهاناً على كذبه فيخطبهم والتوراة بين
أيديهم بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوبخهم ويقرعهم ويشافهمهم بأنهم
يجدون فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون آبائهم . وليس من المتصور
أن يجترىء على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، إلى غير ذلك مما ينفرهم
غاية التنفير ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم (والكاذب ضعيف حتى
عند نفسه) . ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول
السفهاء وأكبر الجهلاء ولطمعت فيه أعداؤه ، وما أسرع ما كان ينتقض
بناؤه .

إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه :

(وَمَا نُزِّيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) ^(٣)

ومن عجيب أمره وبديع حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يأخذ
القلوب إلى الله تعالى ، ويملاً النفوس رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه ،

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة ، ١٤٦ ، الأنعام ٢٠ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ٤٨ .

ومع ذلك يرغب في العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التي أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التي ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة .

كما قال في حق الذين خدموا إخوانهم في السفر في يوم شديد الحر : أنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يجعل ذلك للصائمين المتعبدين في ذلك اليوم . وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) . وقال تعالى : (فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ)^(١) وقال عز وجل : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ)^(٢) .

ولكنه مع هذا حول كل شيء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شيء عند المسلمين طاعة بفضيل هذا التعليم العالى ، وأصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا صلى الله عليه وسلم بذلك بين مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة على أتم الوجوه . وفي الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ، ودنايا الخصل ، بفضيل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له إن لم يكن ذلك في الدنيا كان في الآخرة .

(١) سورة الملك ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠ .

وقد أذكرني هذا قول بعض العلماء: لم يبق بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلاق فاسدة أصلاً، لأنه صلى الله عليه وسلم أبان لنا عن مصارفها كلها: من حرص وحسد، وشر وبخل وخوف، وكل صفة مذمومة. فمن أجراها على تلك المصارف عادت كلها مكارم أخلاق وزال عنها اسم الدم.

فإذا صرفت ما فيك من الحرص والطمع إلى اكتساب الدرجات وفعل الطاعات، وما فيك من الحسد والمنافسة إلى النبوغ في العلم والحكمة وإحراز الزلفى عند الله تعالى، وما فيك من الغضب ومحبة الانتقام إلى أعداء الله وبذل الوسع في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وما فيك من شهوة السرف إلى صلة الأرحام وإغاثة الملهوف ومواساة الجيران والإخوان الخ الخ، كنت شخصاً الفضل ومثال الكمال، وعادت هذه الرذائل فضائل، وتلك المنكرات وسيلة لأعظم انطاعات وعظيم الدرجات.

وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم لمن ركع دون الصف « زَاكَ اللهُ حِرْصاً وَلَا تَعُدُّ ». فعرفك بذلك فضيلة الحرص وأمان مصرفه لذى ينمى أن يكون فيه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلْكَتِهِ فِي الْخَيْرِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَهُوَ يَسْأَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ). فانظر كيف وجه من فيه غريزة الحسد إلى أي ناحية وصرفه عن بقرية النواحي .

وغريزة الغيبة التي يذكرها العلماء في شرح هذا الحديث هي بعينها غريزة الحسد ، وإنما غايرتها بصرفها لغير مصرفها ، وتوجيهها إلى غير وجهتها .

هذا وقد حثنا صلى الله عليه وسلم على التزام نقطة الوسط التي هي نقطة الكمال وحذرنا من الانحراف عنها إلى الإفراط أو التفريط يقول القرآن : (والذين إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)^(١) وفيه : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)^(٢) (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)^(٣) ، ويقول صلى الله عليه وسلم « ان الدينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرْفَقٍ » ويقول : « إِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا يَظْهَرُ أَبْنَى » ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه العجالة .

وبعد : فإنَّ الأمم التي يسمونها راقية لم تاتنا في باب العدل والمساواة والحرية التي يمدحون بها إلا بدعاوى مجردة وقضايا كاذبة .

وليس العهد ببعيد من تلك الطنطنة التي كانت لشروط الدكتور (ولسن) وما سارت عليه بعد ذلك جمعية الأمم التي تمثل خمسمائة وسبعين دولة ، وما يعانیه العالم من جراء عدالتها وإنصافها .

فانظر ذلك وقارن بينه وبين ما يقول القرآن : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ)^(٤) :

(١) سورة البرقان ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة الأعراف الآية / ٣١ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٥ .

وقوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ^(١) وقوله تعالى: (وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) ^(٢) وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ^(٣) ... الخ .

وانظر إلى قصة عمرو بن العاص وولده عندما ضرب رجلاً نصر من السوق فشكاه لعمرو بن الخطاب وقال : إنه ضربني ، ثم قال : اذهب وأنا ابن الأكرمين . فأعطاه عمر الدرقة وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين . فقارن بين هذا وبين ما تراه وتسمعه .

وقد قال جوستاف لوبون : (لم يعرف التاريخ فاتحاً أعبد ولا أرحم من العرب) كما قدمنا .

ويعجبنى قول غاندى : (ان أوربا اليوم لا تمثل روح الله ولاروح المسيحية : ولكنها تمثل روح الشيطان ، وإنما يفلح الشيطان أكثر ما يفلح حينما تنوك شفها اسم الله ، وأن أوربا اليوم مسيحية بالاسم ، وفي الحقيقة لا إله عندها إلا إله المال) .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

هذا وقد تعرف أن للفقراء نصيباً من الزكاة يأخذونه من الأغنياء قهراً بسيف الشريعة الإسلامية يقابل هذا أن للأغنياء نصيباً من الربا في مال الفقراء يأخذونه قهراً بسيف القوانين الأوربية .

فقدارن بين الأمرين ، ووازن بين الطريقتين !

ولعمري أن خروج هذا النبي الكريم الذي أتى بتلك السعادات كلها من تلك البيئة ، وهى على أسوأ الخلال ، معجزة كبرى ، وآية عظيمة لدى العظماء والحكماء

ومن عجيب أمره وشريف خلاله التى خرقت السنن المعروفة ، أنك ترى النفوس تتكبر وتتعاظم بأقل الأشياء ، وتراه صلى الله عليه وسلم مع ذلك كله يتواضع شكراً لله ، ومعرفة بعظمة الله ، واعتراضاً بفضله عليه . لقد كان يطأطأ برأسه يوم فتح مكة تواضعاً لله ، حتى أن رأسه ليكاد يمس رجلاه . وكانت العجوز من نساء المدينة تكلمه فى الطريق فيقف لها حتى تقضى ما أرادت منه ، وربما انطلقت به إلى حيث تريد . وكان ذلك من دلائل نبوته عند عدى بن حاتم ، فإن ذلك من شأن الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً (بخلاف الملوك وأهل الدنيا)

آية أخرى هى عجب من كل ماسمعت :

ومن عجيب أمره الذى يدهش الباحثين أنه يشير إلى الأسرار الغامضة والعلوم العالية بما لا ينفر منه العامة ، بل ينتفعون بظواهره وجهاً من الانتساع ، ويعرفه الخاصة .

وربما كان خفياً لا يكشف إلا بعد زمن طويل كهذه المسائل التى كثرتمها العلم - نديثاً مما أشرنا إلى بعضه ، فوجدناها لا تنافى القرآن

ولا تجافى ما جاء فيه ، بل وجدناه أشار لها إشارة خفية أو ظاهرة
ولا نجد في مسألة من تلك المسائل صرح فيها بنص يقوم الدليل
على خلافه .

مع أن كل عالم وفيلسوف إذا أراد أن يبين ما في نفسه لم يمكنه
أن يسلك هذه الطريقة التي تنفع العامة والخاصة جميعاً ، ولا يتسنى
له أن يظفر بهذه العبارات التي لا تعجها أذواق العامة ولا تصادها
العلوم الفلسفية ولا المكتشفات المستقبلية .

ومن ذا الذي يكون فرحاً بنتائج فكره وولائد عقله ثم لا يفصح
عنه إفصاح المبتهجين به المتبجحين بالوصول إليه ، فيكون محصوراً
في حدود ضيقة لا يتخطاها بوجه من الوجوه ، اللهم أن هذا هو
المعهود في البشر المعروف في نوع الإنسان .»

أما ذلك الذي ينطبق على ما يقرره العلم بعد مئات السنين ، وهو
في الوقت نفسه مشتمل على ما ينفع العامة ويفيدهم تطهيراً وتنويراً ،
فلا يعقل إلا من العليم الحكيم . ولعمري أنها آية كبرى لمن كان له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن عجيب أمره أنه نص على أن في القرآن محكما ومتشابهاً ،
وأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . وقد أمرنا
أن نتمسك بالمحكم ولا نتعرض للمتشابه ، فأدى بذلك حق العلم
من جهة ، وحفظنا أن نقع في الزيغ من جهة أخرى ، وماذا علينا
أن نتوسع في المتشابه أكثر مما قالوا . وبالضرورة لم ينزل ذلك المتشابه

في القرآن عيناً ، وحاشاه من العيث (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)^(١) .

فَمِنْ أَكْبَرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ كَانَ فِيهِ الْمَحْكَمَاتُ وَالْمُتَشَابِهَاتُ ،
لأنه لو جاء على غير هذا الوجه لم يناسب من الأزمان إلا زمنا واحدا ،
وقد جاء للأزمنة ان كلها وللناس كلهم .

وقد فتح بذلك فوق هذا كله باب التكفير والتأويل والأخذ
والرد ، فارتقوا من العلم إلى أسمى درجة ، ومن المنطق والحجة إلى
أرقى مكان ، فكأنه لما أراد أن يعدهم إلى هذه الغاية السامية وتلك
الذروة الرفيعة ، كان الأمر على ما ذكرنا .

وكم له من آية في الحث على الفكر والنظر بما لا نظيل بذكره ،

الخلاصة :

والخلاصة أن شريعته صلى الله عليه وسلم تشتمل على دعوة الخواص
والعوام ، لأن المراد منها هداية كل منهما وانتفاعه بها على قدر
استعداده (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)^(٢)
وهي بعد ذلك بحر لا ساحل له .

ولو جمعنا ما كتبه العلماء في فقه الشريعة المحمدية ، وما قاله
صلى الله عليه وسلم في الآداب ومكارم الأخلاق ، وما كتبوه في أصول
الفقه وأصول الدين ، وما رووه عنه من أحاديث وما كتبوه في سيرته ،

(١) سورة فصلت ، الآية من ٤١ - ٤٢ .

(٢) سورة مجادلة ، الآية ١١ .

وما دونوه في علم الحديث دراية ورواية ، وما صنّفوه ، فيما يتعلق
بِالقرآن الكريم من تفسير وتأويل وما يلتحق بذلك كانه ، للملأ
الوهاد والنجاد ، ولناعت به السفن فضلا عن الأبل ، وأظنك تعرف
ذلك ولا تنكره .

ولا بأس أن نسوق لك هنا شهادة الفيلسوف برنارد شو الانكليزي
في حقه صلى الله عليه وسلم :

شهادة برنارد شو الانكليزي :

قال الكاتب الكبير برنارد شو :

« كنت في كل الأحيان ولا زلت أتناول دين محمد فأقدره
تقديرا عظيما ، وذلك لروحيته العجيبة وحيويته العظيمة . إنه الدين
الوحيد الذي يملك القدرة على هداية الغير وملاءمة الأزمنة ، فهو
حرى لأن يكون دين الجميع في كل دور وطور . ويجب على العالم
دون شك أن يقدر ويعلق أهمية عظمى على ذلك .

لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا وملائما لأوربا في
الوقت الحاضر . أن قساوسة القرون الوسطى إما لجهلهم المطبق وإما
لتعصبهم الأعمى قد رسموا الدين الإسلامي بألوان سوداء مظلمة ،
وكانوا في الحقيقة قد تطبعوا على كره محمد ومقت دينه الحنيف ،
لأن محمداً كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية . أما أنا فقد درست الدين
الإسلامي وشخصية محمد تلك الشخصية العظيمة اللامعة ، فوجدت
محمداً بعيداً عما يلحقونه به من التهم . ويجب أن يسمى في الحقيقة
مخلص الإنسانية ومنقذها .

إني أعتقد أن رجلاً مثله لو أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة وكان حاكماً مطلقاً ، لتمكن أن يقود العالم أحسن القيادة ، ولتمكن من تسيير العالم نحو طريق السعادة ، وتمشيته نحو شاطئ العدل والسلام .

إن أوروبا الآن ابتدأت تحسن بحكمة محمد ، وأنها بادئة في عشق دينه وفلسفته ، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا في القرون الوسطى . سيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه العالم دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل العضلات وفك المشاكل والعقد . إن كثيراً من مواطنى ومن الأوربيين يقدسون تعاليم محمد ، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول : إن بوادى العصر الإسلامى الأوروبى قريبة لا محالة .

الكلمة الختامية :

وآخر القول أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم ، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه ، وسياسته لأصناف الخلق ، وهدايته إلى ضبطهم ، وتآلفه أصناف بنى الإنسان وقوده إياهم إلى طاعته ، مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة ، وبدائع تدابيره فى مصالح الخلق ، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز العلماء عن إدراك دقائقها فى طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة لبشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس .

بل كانت شوائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه ، حتى إن العربي القح كان يراه فيقول : والله ما هذا بوجه كذاب ! فكان يشهد له بالصدق بمجرد مشاهدته ، فكيف من عرف أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده لا سيما وقد علم أنه أُمي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طاب العلم فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحي

ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك . فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية . فما أعظم غباوة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ثم في أفعاله ثم في أخلاقه ، ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم ، ثم يمارى بعد ذلك في صدقه وعلو منصبه الذي لم يصل إليه فيلسوف ولا نبي من أول تاريخ العالم إلى الآن . وأمامك تواريخ العظماء والحكماء فاستعرضها واحداً واحداً :

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ما ورد وصدور !

ولنجعل آخر كلمتنا هذه الحديث الذي روى عن عائشة رضى

الله عنها :

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن ،

فانظر إلى مثل قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) ^(١) . (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ^(٢) . (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) ^(٣) الخ . (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ^(٤) . (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ^(٥) « أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » ^(٦) . (وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ^(٧) . « لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ » ^(٨) . (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) ^(٩) .

(١) سورة المومنون ، الآية ١ - ٤ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٧ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ٤٣ .

(٥) سورة النور ، الآية ٢٢ .

(٦) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٧) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤ .

(٨) سورة الحجرات الآية ١١ .

(٩) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

ولنقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان عملاً بمقتضى الحال
ونظراً إلى ضيق المجال ، ولندع القرآن يثنى عليه في مثل قوله :
(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلْدِي عَظِيمٌ) ^(١) . (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ لِاعْظِيمًا) ^(٢) .
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) ^(٣) . (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ^(٤) .

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

أسأل الله أن يجعلنا من عارفى قدره ، المتمسكين بسنته ، المشرفين

||

بعظيم محبته بمنه وكرمه !

(١) سورة القلم ، الآية ٤ .

(٢) سورة النساء الآية ١١٣ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

عظمته صلى الله عليه وسلم^(١)

ماذا نقول في بيان عظمته صلى الله عليه وسلم بعد ما أثنى عليه الله عز وجل لثناء لم يشنه على أحد من خلقه ، ولو تتبعنا آيات القرآن العزيز التي نوهت بشأنه ، وأبانت فضله ومنزله عند ربه لرأيت العجب العجاب ولا غرو فهو أعظم خلق الله أثراً وأبعدهم نظراً وأعرفهم بعظمة الله ، وأكثرهم حشاً على التأمل في آيات الله والتحقق بعبودية الله ، ثم هو بعد ذلك أوضحهم طريقاً وأهداهم سبيلاً ، إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فهو الرحمة الكبرى لجميع العالمين والمنة العظمى لسائر الخلق أجمعين .

وإن شئت أن تعرف منزلته عند ربه فاقرأ ما قال الله في كتابه تنوياً بشأنه وتبييناً لفضله ، حيث يقول : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَسَأَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ)^(٢) ثم أكد ذلك الميثاق تأكيداً لا مزيد عليه فقال : (أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)^(٣)

(١) مجلة الإسلام - السنة التاسعة - العدد ٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .

ثم نظر إلى اقسامه بحياته حيث يقول (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي مَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) ^(١). ولعمر الحق إن هذا تشریف يأتي عليه البيان ولا تبلغه فصاحة اللسان ولا مقدرة الإنسان ، ثم انظر إلى قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ^(٢).

ثم إلى قوله (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) ^(٣) فانظر إلى هذا التأديب والإجلال الذي لا نعرفه لأحد سواه ثم إلى قوله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ^(٤) ثم إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ وَدَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ^(٥).

ولا يمكننا في هذه العجالة أن نبين ما تشير إليه الآية من عظمة ورفعة . وناهيك بشيء يتولاه الكبير المتعال وملائكته ، الذين هم أكثر العوالم عددًا ، وأكثرهم مددًا ، وإلى آخر ما يمليه عليك إيمانك ويرشدك إليه وجدانك .

- (١) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .
- (٢) سورة الحجرات ، الآية ٢ .
- (٣) سورة النور ، الآية ٦٣ .
- (٤) سورة النساء ، الآية ٦٥ .
- (٥) سورة الأحزاب ، الآية ٥٦ .

ثم ألفت نظرك بعد ذلك إلى تعبير القرآن في حقه بالرسول والنبى
ومناداته كذلك بالرسالة والنبوة فيقول : (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، يا أَيُّهَا
النَّبِيُّ) وينادى غيره من الأنبياء فيقول : (يَا دَاوُدُ ، يَا إِبْرَاهِيمُ ،
يَا يَحْيَى يَا نُوحُ يَا صَالِحُ ، إِيخ إِيخ . وفي غير النداء يقول : (إِنَّ أَوْلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَدُنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ)^(١) فلم يقل «محمد» . وأما
تصريحه باسمه في بعض الآيات فلحكمة بديعة تخص تلك المقامات ،
فماذا يقول القائلون بعد قول الله ؟ وماذا يمدح المادحون بعد كلام الله ؟
إذا الله أننى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وإجمال القول أنك إذا تصفحت تاريخ البشر من أوله إلى آخره لم
تجد فيه فيلسوفاً من الفلاسفة ولا مشرعاً من المشرعين ولا اجتماعياً من
كبار علماء النفس ولا قائداً ممن دوخوا العالم إِيخ إِيخ . مثل محمد
صلى الله عليه ، وسلم .

فإن ما أتى به من العلوم والمعارف ورسم الخطط لنيل سعادة الدنيا
والآخرة ونجاحه في كل النواحي ، وتكوينه أمة لم ير التاريخ مثلها
ولا نعرف لأحد من أبناء آدم في القديم ولا في الحديث ، وها نحن
نتحدى من يعارضنا في هذه الدعوى .

وبعد فدع عنك تلك المظاهر المادية ، ووجه نظرك وجهة أخرى إلى
ما ألعنا إليه مما جاء به صلى الله عليه وسلم من الإصلاح الاجتماعى وترقية
النفوس والأرواح وبث مكارم الأخلاق وتنعيم القلوب بما لا عين رأت

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٨ .

ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من معرفة الله تعالى ، وبيان
عظمته وشرح آياته وشمول إحاطته وسعة علمه وسمو حكيمته وشرح
ما للمؤمن على المؤمن حتى قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ
مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُوْمِنُوا حَتَّى
تَحَابُّوا » ولا غرو فقد عقد الأخوة بين جميع المؤمنين على تنائى ديارهم
وتباين أصنافهم فقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(١) .

وَمَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِيهِ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ سَيُورِثُهُ ، بَلْ جَاءَ بِأَكْثَرَ
مِنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرْنَا أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ مِنْ أَجْلِ دَرَّةٍ حَبَسَتْهَا وَإِنْ رَجُلًا
دَخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أَجْلِ كَلْبٍ سَقَاهُ ، فَقُلْتُ لِي بِرَبِّكَ هَلْ تَرَى شَيْئًا أَحْتِ
عَلَى الْعَدْلِ وَأَمْنَعُ لِلظُّلْمِ وَأَحْضُ عَلَى الرَّحْمَةِ بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ ذَلِكَ .
وَاللَّهُ دَرٌّ مِنْ قَالَ :

أَنْعَمَ بِسِرِّ شَرَعَةِ الرَّسُولِ مِنْ جَاءَ بِالتَّحْرِيرِ لِلْعَقُولِ

أَطْلَقَهَا بِمَحْكَمِ التَّنْزِيلِ مِنْ سَجْنِهَا وَشَرَكِهَا الْمَرْذُولِ

فِي ظَلِّ ظَلَمِهَا وَذَلِّ الْأَسْرِ

حَضَارَةُ الدُّنْيَا غَدَتِ مَدِينَةً مَدِينَةً لِصَاحِبِ الْمَدِينَةِ

وَإِنَّا حِينَ نَمْدِينُ دِينَهُ تَنْزُلُ فِي قُلُوبِنَا السَّكِينَةَ

مِثْلَ سَفِينَةٍ رَسَتْ فِي الْبَرِّ

فَدِينُهُ لِأَهْلِهِ أَطْمَئِنَّانِ وَدِينُهُ الرَّحْمَةَ وَالْحَنَانَ

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

والصفح والرأفة والغفران والأمن والعزة والإحسان
وأن يعيش المرء حر الفكر
يأمر بالعدل وبالإحسان ينهى عى الفحشاء والكفران
يدعو إلى عبادة الديان وقلبه بالوحى والقرآن
أنواره تضىء كل قطر
قد غير الأمر وجه الأرض وساد بين طولها والعرض
منارة من سنة وفرض تنقى دواماً والقرون تضى
مسرعة فى كرها والفر

ولا بأس بعد أن أسلفنا ما تقدم أن تذكر طرفاً من أقوال علماء
أوروبا وحكمائها الذين عرضوا لذكر ناحية من نواحي عظمته صلى الله
عليه وسلم كتقول يرنارد شو « لو كان فى العالم رجل كهـ حمد لحل مشاكله
وقاده إلى السعادة والسلام » وقول اللورد هدى « عجب للأوروبيين
يبحثون عن أحسن المآكل والمشارب والمساكن ولا يبحثون عن أحسن
الأديان » هذا هو لسان الحق وقول الصديق جرى على أسنة هؤلاء الحكماء
والمفكرين ولا بأس أن ننشد هنا قول من قال :

محمد كل الحسن من بعض حسنة وما حسن كل الحسن إلا محمد

هَيَاةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ^(١)

جاءنا هذا الخطاب من حضرة الاستاذ الفاضل صاحب التوقيع
وهذا نصه :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العارف بالله سيدي ومولاي الشيخ
يوسف الدجوي حفظه الله ونفعنا بعلمه إنه سميع الدعاء .

(أما بعد) فأخبر فضيلتكم بأنه مرسل طي خطابنا هذا قصيدة
لسيدي ومولاي الإمام شهاب الدين بن شمس الدين بن علي نور الدين
ابن حجر الهيتمي الشافعي المكي فأرجو من فضيلتكم الاطلاع على
هذه القصيدة وفحصها بكل دقة وخصوصا هذا البيت :

يصلى في الضريح صلاة خمس دواما لا يميل ولا يميل

فرجاؤنا من فضيلتكم تعريفنا عن هذه القصيدة وخصوصا البيت
المذكور هل ماجاء فيه صحيح أم لا ؟ فإن هنا خلافا كبيرا بيننا وبين
جملة مشايخ بخصوص هذا الموضوع فالرجاء من فضيلتكم سرعة
الإفادة بمجلة الإسلام .

ونحن نتضرع إلى الله سبحانه وتعالى صباح مساء بأن يكثر من
أمثال فضيلتكم ، وأن ينفع بفضيلتكم العباد والبلاد إنه على كل شيء
قدير .

على الزكي

شيخ الطريقة الشاذلية المدنية ببورسعيد

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
وبعد فلنتكلم عن هذا الموضوع كلمة واسعة مقنعة لمن أراد الله
هدايته فنقول : الأنبياء أحياء في قبورهم قطعاً وهم أولى بذلك من
الشهداء الذين ورد فيهم النص القرآني في قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ^(١) بل الحياة
ثابتة لجميع من فارق الدنيا ولو كفاراً كما يدل عليه حديث أهل
القليب الذي في البخارى وجاء في الصحيح أيضاً أن الميت بعد دفنه
يسمع قرع نعال المشيعين ، وأن الروح تنادى حامل الجنازة وأنه
يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق .

وقد رأى صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج موسى عليه السلام
يصلى في قبره ، كما رآه في السماء السادسة وقد راجعه راراً في أمر
الصلاة .

وقد وضع البيهقي رسالة في حياة الأنبياء ونلسيوطى أيضاً رسالة
تسمى (إنشاء الأذكياء بحياة الأنبياء) أدا قوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ
وإنَّهُمْ مَيِّتُونَ) ^(٢) فمعناه ان روحك ستفارق بدنك وتدخل في عالم آخر ،
فلا تشتغل بتدبير الجسم ولا تسرى عليها أحكام هذا العالم ونواميسه
وإلا فقد ثمتت حياة الأموات كلهم فضلاً عن الأنبياء كما قلنا وإن
كانت الحياة مقولة بالتشكيك، وبين درجاتها من التفاوت ما لا يعلمه
إلا الله .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .

وها أنت ذاتشاهد في هذا العالم من مراتب الحياة المتفاوتة بين أنواع الحيوانات وأصنافها إلى أن تصل إلى أعلاها ما يجعل الأمر لديك في غاية الجلاء والوضوح .

ولنقص عليك شيئاً من أدلة حياة الأنبياء وكلام العلماء في ذلك .
أما الكتاب فيكفيك منه الآيات المتعددة في حياة الشهداء والإجماع على أن الأنبياء أرفع درجة من الشهداء .

قال ابن حزم في المحلى بعد ذكره الآيات الواردة في حياة الشهداء مانصه : (ولا خلاف بين المسلمين في أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قدراً ودرجة وأتم فضيلة عند الله عز وجل ، وأعلى كرامة من كل من دونهم ، ومن خالف في هذا فليس مسلماً) . ٥١ .

وأما السنة ففيها شيء كثير من الأدلة على حياتهم فمن ذلك حديث :
(الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) رواه أبو يعلى والبيهقي من طرق متعددة من حديث أنس بن مالك ، قال المناوي في شرح الجامع الصغير رجاله ثقات وصححه البيهقي اه . ومثل ذلك للحافظ السخاوي في القول البديع ، ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقي في حياة الأنبياء ، وبها يصير من الصحيح المتفق عليه .

ومنها حديث الإسراء الذي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائماً يصلي في قبره وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم .

وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرظي في التذكرة وابن القيم في كتاب الروح والحافظ السيوطي في غير ما كتاب من كتبه .
على أن أحاديث حياة الأنبياء في قبورهم متواترة .

قال السيوطي في (مرقاة الصعود) : تواترت بها الأخبار : وقال في « إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء » مانصه :
حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا لما قام عندنا من الأدلة في ذلك وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك ا ه .

وقال ابن القيم في كتاب الروح نقلا عن أبي عبد الله القرطبي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لاتأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء خصوصا بموسى . وقد أخبر بأنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لانراهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون ولا نراهم . ا ه .

وقد نقل كلام القرطبي هذا أيضا وأقره الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في شرحه لعقيدة أهل السنة . ونص عبارته : قال أبو عبد الله القرطبي قال شيخنا أحمد بن عمر . إن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال . ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم أو قتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين . وهذه صفة الأحياء في الدنيا . وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى . مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لاتأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء خصوصا بموسى عليه وعليهم السلام وقد

أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم : أنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لاندر كهم وإن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم . هـ .

ويحقق ما ذكره هؤلاء الأئمة من تواتر الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء أن حديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم واستغفاره لأئمة وسلامه على من يسلم عليه ورد من نحو عشرين طريقا ، وحديث الإسراء ورد من طريق خمسة وأربعين صحابيا .

وقد نص الحاكم والحافظ السيوطي على أن حديث الإسراء متواتر قال بعضهم : لاشك أنه يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم حي على الدوام وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه في ليل أو نهار .

وبعد فنحن نؤمن أنه صلى الله عليه وسلم حي يرزق في قبره وأن جسده الشريف لا تآكله الأرض . والإجماع على هذا ، وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤذنين .

وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا أنهم لم تتغير أجسامهم . والأنبياء أفضل من الشهداء .

أما حديث « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ » فهو صحيح محتج به في هذا المقام وفي غيره بلا مرية . ولنقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان والله يتولى هداانا جميعا بمنه وكرمه .

هجرة صلى الله عليه وسلم

ماذا نقول في حادثة الهجرة تلك الحادثة التي لانجد لها مثيلاً في الحديث ولا في القديم، فمهما قلبت صفحات التاريخ على طوله لا تظفر بحادثة ترتب عليها ما ترتب على الهجرة من الآثار الجليلة والإصلاح الاجتماعي وترقية النفوس والأرواح وبت مكارم الأخلاق وتنعيم القلوب بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من معرفة الله تعالى وبيان عظمته وشرح آياته وشمول إحاطته وسعة علمه وسمو حكيمته .

وشرح ما لمؤمن على المؤمن حتى قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » .

ولا غرو فقد عقد الأخوة بين جميع المؤمنين على تنائي ديارهم وتباين أصنافهم فقال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وما زال يوصى بالجار حتى ظن أنه سيورثه ، بل جاء بأكثر من ذلك فأخبرنا أن امرأة دخلت النار من أجل هرة حبستها ، وأن أخرى دخلت الجنة من أجل كلب سقته . فقل لي بربك هل ترى شيئاً أبحث على العدل وأمنع للظلم وأحض على الرحمة بجميع المخلوقات من هذا ؟ علمتنا هجرته صلى الله عليه وسلم

أن نطلب العز ولا نقيم على الذل (وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)^(١)
علمتنا الهجرة أن نمقت الباطل وأهل الباطل وأن نجاهد في سبيل الحق
بكل ما يمكننا من الوسائل علمتنا أنه يجب علينا في تلك السبيل أن
نضحى بكل مرتخص وغال ، حتى أننا نخرج من الأوطان التي تربينا
فيها وأشربنا حبها في قلوبنا .

وقد قرن الله الخروج من الديار بقتل الأنفس فقال : (وَكُوْنَا كَتَبِنَا
عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ
مِنْهُمْ)^(٢) ولا غرو فقد قال عاين السلام : « علو الهمة من الإيمان ،
وعلمنا أن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها .

عملنا أن نتوكل على الله الذي لا يعجزه شيء ، وأن نتشجع في
الحق حتى لا نخاف في الله لومة لائم وأن نخشى الله ولا نخشى أحدا
سواه .

علمنا أن نرتقي بأرواحنا إلى الملاء الأعلى ، وأن تحتقر المادة
وعشاق المادة .

وأتى في شرح حقارة الدنيا التي استعبدت الناس وأذلتهم وألهتهم عن
ربهم ومالك أمرهم حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم أتى في ذلك بالعجب
العجاب فقال : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى
الْكَافِرُ مِنْهَا جُرْعَةً مَاءٍ » وهذا أبلغ شيء في ذمها وتحقيرها .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٦ .

فهل من ممتد برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أوجب على المؤمنين أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً وأن يكون أميرهم كواحد منهم .
وألزهم أن يأمرُوا بالمعروف ويتناهاوا عن المنكر حتى قال « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَذَعُوا خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ » .

وقد وقعنا بكل أسف في هذا الوعيد الشديد : فأصبحت المنكرات تفعل أمام أعيننا نهاراً جهاراً فلا نحرك لها ساكناً ولا ينبض منا عرق لأجلها بل أكثر من ذلك اعتقدنا أنها من آثار النهضة الجديدة ومظاهر الحرية السامية . وليت شعري هل انقلبت الرعوس وانتكست النفوس حتى أصبحنا لا نفرق بين حرية الإنسان وحرية الحيوان ، وهل ضاعت مكارم الأخلاق التي بها رقى الأفراد والأمم فوصلنا من الختم على القلوب إلى حد أننا لا نحس بها ولا نفقه لها معنى ولا نعرف لها غاية :
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

* * *

وقد جاءني خطاب من بعض أجلاء اليمن يسألني عن قوله تعالى :
(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) ^(١) .

ويقول كيف هذا مع ما نراه من سلطان الكافرين على المسلمين في أكثر بلاد الإسلام إلى كلام طويل يذيب القلوب ويدهم العيون - ولعله

لا يخفى عليك ولعلنا نسوقه في بعض الظروف إليك - وقد نسى ذلك
الفاضل أن ذلك الوعد إنما هو للمؤمنين الذين حققوا إيمانهم واتبعوا
نبيهم فقاموا بتعاليمه الحكيمة التي تكفل لهم سعادة الدنيا والاخرة
فإنه جعل ذلك للمؤمنين وتعليق الحكم « بالمشق » يؤذن بعلمية ما منه
الاشتقاق فيكون لهم السلطان الكامل إذ ذاك ويقدر ما ينقص من إيمانهم
ينقص من سلطانهم .

ويظهر أننا أصبحنا في آخر الدرجات وأسفل الدرجات ، فلهذا
كاد يتقلص عنا ظل العزة الإسلامية .

وإن شئت فقل فقارن بين حال المسلمين اليوم وحالهم عندما كانوا
متمسكين بدينهم مقتدين بنبيهم ، فقد كانوا أعز الأمم على الإطلاق
وأرفعها على الإطلاق وكانوا إذ ذاك أساتيد العالم كله .

وما ارتقت أوروبا ولا نهضت من كبوتها التي كانت فيها إلا بفضل
التعاليم التي أخذتها عن المسلمين عندما كانوا بالأندلس ، وقد قالوا
إن أول كلية أسست بأوروبا هي كلية (قرطبة) وما مثلها مما أحدثه
المسلمون هناك .

وأن أهل أوروبا ليقدمون ابن رشد والغزالي وابن خلدون وغيرهم
من علمائنا الذين نسينا فضلهم وجهلنا طريقهم فنزلنا إلى أسفل سافلين
وعرفهم الأوروبيون فأصبحوا رؤوس الناس وسادة العالم ووصاؤا من
إذلال المسلمين إلى انتهاك حرمة المسجد الأقصى وهو ثالث المساجد
المقدسة وإلى اضطهاد المسلمين على مرأى ومسمع من المسلمين الذين أمره
الله أن يكونوا جميعاً كالبنيان يشد بعضه بعضاً كما قلنا .

فتمارن بين هذا وبين حال المسمين عندما تغلغوا في أوروبا ووصلوا منها
إني (بر دو) في أرض فرنسا إلى آخر ما يمليه عليك تاريخ أسلافك .
يا جاهلاً بتاريخ أسلافك .

هذا وإنما نرى الفرصة سانحة لأن نسدى النصح لجميع المسلمين في
مشرق الأرض ومغربها ونرى ذلك فرضاً علينا ونرجو أن يصل صوتنا
إني آذانهم ثم إلى قلوبهم فهو أنجح دواء فيما نراه : نرى أنه يجب على
جميع الأمم الإسلامية أن يتضامنوا تضامناً فعلياً وأن يكون لهم مجلس
يضم جميع زعماء المسلمين وملوكهم وأن يكون بينهم محالفة عامة
وخزينة كبرى يساهم فيها كل بلاد الإسلام على مبادئ وقوانين
يضعونها ويتفتمون عليها ، وتكون مع هذا كل أمة مستقلة في بلادها
تعمل ما شاءت من غير أن يتدخل في شؤونها أحد من سواها .

وإنما هذه المحالفة العامة تكون ضد الأجنبي عندما يتحرش بأمة من
أمم الإسلام وبهذا تحفظ عزتهم وتبقى منعتهم ويعود لهم بعض
مجدهم السابق .

وفي اعتقدي أنهم لو فعلوا ذلك لحسبت لهم أوروبا ألف حساب
وكان يمكنهم إذ ذاك أن يكونوا القوة الحسية فضلاً عن المنيوية ،
ففيهم والحمد لله مالك مستقلة تمام الاستقلال فمن السهل عليهم أن
يعملوا فيها العامل ويتفتموا فيها كما تفتمت أوروبا في المخترعات
الجديدة والألمحة الحديثة ، إلى آخر ما يمكننا أن نتوسع فيه أو نصل
إني خوافيه : فطوبى لمن يفكر في ذلك من ملوك المسلمين ثم يدعوهم

جميعاً في مؤتمر عام تمحّص فيه تلك المسائل وتوضح فيه الشروط:
والمبادئ لتلك الغايات السامية مع استقلال كل واحد منهم في بلاده
كما قلنا: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)^(١) وسيدكرهم
أهل الأرض والسماء أطيب الذكرى وقد قال القائل :

وما الناس إلا واحد بقبيلة يعد وألف لا تعد بوحد

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَأَنْ يَجْمَعَ
كَلِمَتَهُمْ وَيُصَلِّحَ شُئُونَهُمْ جَمِيعاً وَلَا يَكْلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ
بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

(١) سورة الواقعة ، الآية ١٠ - ١١ .

كرامات الأولياء^(١)

جاءنا خطاب من حضرة الفاضل الشيخ عبد الغنى عوض بميت يزيد غربية - من العلماء وإمام وخطيب - لآعن كثير من أهل تلك الناحية ، يقول فيه إنه يرجو بياناً شافياً وقدرأ كافياً من الأدلة التى تثبت كرامات الأولياء ، وما ورد فى ذلك ، ملحقاً داعياً ، فرأينا أن نحقق رجاءه مسائلين الله أن يتقبل دعاءه .

ولنتصر على الإشارة الوجيزة إلى ما ورد فى ذلك ، علماً بأن الكلام مع أهل العلم الذين يسهل عليهم الاطلاع والمراجعة تغنى فيه الإشارة المختصرة عن العبارة المطولة فنقول وبالله التوفيق :

كرامات الأولياء ثابتة وبالأدلة القطعية التى لامرية فيها وبالتواتر الذى لا ينكره إلا جاهل أو معاند من الضالين المضلين ، فمن ذلك فى القرآن العظيم ما أخبر الله به تعالى عن مريم رضوان الله عليها بقوله عز وجل : (كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)^(٢) وكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء كما ذكره المفسرون والآية واضحة فى أن رزقها كان يأتيتها من غير الطرق المعروفة .

(١) مجلة الإسلام - السنة الثامنة - العدد التاسع والثلاثون - سنة ١٣٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٧ .

ومنها لبث أهل الكهف في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، ومنها إلهام أم موسى عليه السلام أن تقذفه في اليم ، ومنها مجئ عرش بلقيس بدعاء آصف بن برخيا . ومنها ما أخبر الله به عن الخضر عليه السلام من الوقائع وهو ليس بنبي عند جمهور العلماء المحققين إلى غير ذلك مما لا نطيل به ويدل له من السنة حديث جريح الراهب الذي كلمه الطفل وهو حديث صحيح أخرجاه في الصحيحين وحديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ثم انفجرت عنهم وهو حديث متفق على صحته ومنها الحديث المشهور المتفق على صحته وهو في الصحيحين في أبي بكر رضى الله عنه مع ضيفه وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات وكذلك ما اشتهر عن أبي بكر رضى الله عنه أنه أخبر أن حمل امرأته أنثى فكان كذلك .

وحديث الصحيحين المتفق على صحته في عمر رضى الله عنه أنه كان من المحدثين - بفتح الدال المشددة - وكذلك ما صح عنه رضى الله عنه أنه قال : (يا سارية الجبل) في حال خطبته في يوم الجمعة فبلغ صوته إلى سارية فكان لعمر رضى الله عنه كرامتان إحداهما ما كشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدو ، والثانية بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة .

والحديثان المتفق على صحتهما في سعد وسعيد رضى الله عنهما في إجابة دعوة كل واحد منهما .

والحديث الصحيح في البخارى في خبيب رضى الله عنه في قطف العنب الذى وجد في يده وهو أسير بمكة يأكله في غير أوان الثمار .

والحديث الصحيح حديث البخارى أيضاً في أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضى الله عنهما اللذين خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباح في عصا أحدهما فلما افترقا بهما الطريق أضاعت لكل منهما عصاه .

والحديث الصحيح حديث الرجل الذى سمع صوتا في السجاب يقول : اسق حديقة فلان ، وما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه في غزوة فحال بينهم وبين الموضع الذى يقصدونه قطعة من البحر فدعا الله باسمه الأعظم ومشوا على الماء .

وكذلك ما اشتهر أن عمران بن حصين كان يسمع تسليم الملائكة عليه حتى اکتوى فأنحبس عنه ذلك .

وبالجملة فقد ورد عن السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ العارفين الفقراء الصادقين وسائر الأولياء ، والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين من الكرامات المستفيضات ، الصادرات عن النعيان والمشاهدات ما طبق الآفاق وملاً جميع البلاد وعجزت الدفاتر عن اليسير منه حصراً وتعداداً .

ولو لم يرد في هذا إلا قوله صلى الله عليه وسلم (رَبِّ اشْعَثْ أَعْبَرَ ذِي طَمْرَيْنٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ) لكان كافياً لكل ذى قلب سليم وفهم مستقيم .

وأما ثبوت الأبدال فيكفي فيه ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده
عن علي رضي الله عنه أنه ذكر أهل الشام عنده وهو بالعراق فقالوا
العهنهم يا أمير المؤمنين ، قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول (الأبدالُ بالشَّامِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ
رَجُلًا يُسْتَقَى بِهِمُ الْغَيْثُ وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ
الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ) رجاله رجال الصحيح غير شريح بن عبيد وهو
ثقة . وفي حديث أخرجه ابن أبي الدنيا عن علي وفيه أنه قال (يَا رَسُولَ
اللَّهِ صِفْتُهُمْ لِي قَالَ : لَيْسُوا بِالْمُتَنَطِّعِينَ وَلَا بِالْمُبْتَدِئِينَ وَلَا بِالْمُتَعَمِّقِينَ
لَمْ يَنَالُوا مَا نَالُوا بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنْ بِسَخَاءِ
الْأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ الْقُلُوبِ وَالنَّصِيحَةِ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ) أخرجه الخلال
في كرامات الأولياء .

وفي هذا القدر كفاية ، وللسيوطي رسالة في ذلك سماها « الخبر
الدال على وجود القطب والإبدال » فليرجع إليها من شاء .

اسأل الله أن يحشرنا في زمرة المصدقين بهم المحبين لهم بمنه وكرمه .

حكم الصلاة الكمالية»

جاءنا هذا الخطاب من أحد قراء مجلة الإسلام بمنيا القمح وطلب
منا الجواب على صفحاتها ، ونص الخطاب :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا وأستاذنا الشيخ يوسف الدجوى .
بعد تقبيل يديكم الكريمة نرجو التكرم بإفادتنا في مجلة الإسلام
في العدد القادم إذ شاء الله عما ياتى ، ولفضيلتكم الشكر والثواب :
منذ حوالى الأربعين سنة وأنا أحضر مع إخوانى نختم الصلوات
بحضور علماء أعلام بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالصيغة
الآتية :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال
الله وكما يليق بكماله » وكنا نختم بها في يوم الجمعة الماضى عقب
الصلاة إذ اعترض على ذلك أحد الحاضرين الذى ينكر الصلاة بهذه
الصيغة وقال إنها لم ترد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة
رضوان الله عليهم أجمعين . لذلك نرجو التكرم بإفادتنا عن الحقيقة .
هل وارد بشأنها أحاديث صحيحة وما هى تلك الأحاديث ليقتنع بها
منكر الصيغة المذكورة . وإنا لقول فضيلتكم الفصل فى ذلك لمنتظرون
والسلام عليكم ورحمة الله .

م . غ . أحد قراء مجلة الإسلام بمنيا القمح

ونقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه عدد كمال الله وكما يليق بكماله أن الإتيان بهذه الصيغة لا بأس بها ، ولا يتوقف جوازها على ورودها عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلزمنا الله ولا رسوله بصيغة مخصوصة عند ما قال تعالى (صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(١) وكذلك رسوله عندما قال « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا » إلى آخر ما لا نطيل به .

وقد قال الشيخ الصاوي في (شرح الصلوات الدرديرية) أن هذه الصيغة هي المشهورة عند أهل الطريق بالصيغة الكمالية وهي من أورادهم المهمة التي تقال عقب كل صلاة عشراً ، وتقال في غير ذلك مائة فأكثر وثوابها لا نهاية له لأن الثواب على قدر المطلوب . وذكر بعضهم أنها بأربعة عشر ألف صلاة ، فلذلك اختارها أهل الطريق .

إلى أن قال ومعنى كونها أنها (عدد كمال الله) أنها لا نهاية لها ، ومعنى عددها أن الله يحصيها بعلمه ويعلم أنها لا تنتهي ، إلى آخر ما قال .

ومعلوم أن الشيخ الصاوي من أجل علماء المالكية وأعظم فقهائهم ومن أكابر السادة الصوفية الذين جمعوا بين العلم والعمل فهو ممن يدعو إلى الله على بصيرة نيرة وعلم تام . وقد جاء ذكر العدد في حديث جويرية الصحيح (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ) (وجاء) (سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ مِثْلَ مَا خَلَقَ وَعَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَمِثْلَهُ)

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٦ .

ما فى الأرض والسماء وعدد كل شىء ومثل كل شىء وعدد ما أحصاه
كتابه ومثل ما أحصاه كتابه . بل التسبيح المشهور (سبحان الله
ويحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) ، ومعلوم
أن كلمات الله لا نهاية لها . (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي
لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي)^(١) إلخ .

ولو شئنا لأملنا . وعلى كل حال فالشريعة لا تعرف هذا التحجير
الذى شغف به بعض الناس ، بل هى طريقة تضاد طريقة رسول الله
صلى الله عليه وسلم على خط مستقيم . وما هؤلاء عندى إلا كأهل الكوفة
الذين سألوا عبد الله بن عمر عن قتل المحرم الذباب فقال لهم عجبا لكم
يا أهل الكوفة تبتلون الحسين ابن بنت رسول الله (فى جيش يزيد)
وتسألون عن قتل الذباب .

ولو أنصف هذا الفريق لصرف هذه الجهود إلى تلك المنكرات
الفاشية المجمع عليها التى من شأنها أن تأتى على بنيان الأمة من القواعد
وقد قلت فيهم وفى أمثالهم :

أفتتركون المنكرات سبهـمـللا وتحاسبون على اقتراف الذرة
أفتصلحون البيت من شرفاته ما أنتمو إلا كأهل الكوفة

(١) سورة الكيف ، الآية ١٠٩ .

كلمة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)

رأينا أن نذكر للقارىء الكريم بعض ما ذكره العلماء مما يعدبرهنا
على صدقه وعلو منزلته ، فنقول : قال الإمام أبو محمد على بن أحمد
بن حزم : « وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف أحد في
مشرق الأرض ومغربها أنه عليه السلام أتى إلى قوم جهل لا يقرون بملك ،
ولا يطيعون لأحد ولا ينقادون لرئيس ، نشأ على هذا آباؤهم ،
وأجدادهم وأسلافهم منذ مئات من الأعوام ، قد سرى الفخر والعز
والنخوة والكبر والظلم والأنفة في طباعهم ، وهم أعداد عظيمة قد
ملؤا جزيرة العرب وقد صارت طباعهم طباع السباع ، وهم ألوف
الألوف ، قبائل وعشائر ، يتعصب بعضهم لبعض .

فدعاهم بلا مال ولا أتباع ، بل خذله قومه وأبوا أن ينحطوا من
ذلك العز إلى غم الزكاة ، ومن الحرية والظلم إلى جرى الأحكام عليهم ،
ومن طول الأيدي بقتل من أحبوا إلى القصاص من النفس ، وقطع
الأعضاء ، ومن اللطمة من أجل من فيهم لأقل رجل غريب دخل فيهم ،
وإلى إسقاط الأنفة والفخر إلى ضرب الظهر بالسياط والنعال أن
شربوا خمراً أو قذفوا إنساناً ، وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة
إلى أن يموتوا إن زنوا .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول من المجلد الرابع عشر - سنة ١٣٦٢ .

فانقباد أكثرهم لكل ذلك طوعا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف ما منهم
أحد أخذ بغلبة إلا مكة ، وخبير ، فقط وما غزا غزوة يقاتل فيها إلا
تسمع غزوات بعضها عليه وبعضها له . فصح ضرورة أنهم آمنوا به
طوعا وكره ، وتبدلت طبائعهم بقدره الله من الظلم إلى العدل ، ومن
الجهل إلى العلم ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم الذي لم يبلغه
أكابر الفلاسفة ، وأسقطوا كلهم أولهم عن آخرهم طلب الثأر ،
وصحب الرجل منهم « قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له » صحبة
الأخوة المتحابين ، دون خوف يجمعهم ، ولا رياسة ينفردون بها دون
من أسلم من غيرهم ، ولا مال يتعجلونه :

وقد عم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما
وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء . فهل هذا إلا بغلبة
من الله تعالى على نفوسهم ، وقسره عز وجل لطباعهم ، كما قال
تعالى : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ) (١) .

ثم بقى عليه السلام كذلك بين أظهرهم بلا حارس ، ولا ديوان
جند ولا بيت مال محروسا معصوما . وهكذا نقلت آياته ومعجزاته ،
فأى شيء يصح من أعلام الأنبياء . فأعظم منه ما نقل عنه عليه السلام
بصحة الطريق إليه وارتفاع دواعي الكذب والعصية جملة عن أتباعه
فيه ، فجمهورهم غرباء من غير قومه ، لم يمنهم بدنيا ، ولا وعدهم
بملك . وهذا لا ينكره أحد من الناس :

وأيضاً فإن سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضى تصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً . فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى وذلك أنه عليه السلام نشأ كما قلنا في بلاد الجبل لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يخرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتین : إحداهما إلى الشام ، وهو صبي مع عمه أن طالب إلى أول أرض الشام ورجع ، والأخرى أيضاً إلى أول الشام ، ولم يطل بها البقاء ، ولا فارق قومه قط . ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلها . فلم تتغير نفسه ، ولا حالت سيرته ، إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله « أصواع ليست بالكثير »

لم يبيت قط في ملكه دينار ولا درهم . وكان يأكل على الأرض ما وجد ، ويؤثر على نفسه . وقتل رجل من أفاضل أصحابه بين أظهر أعدائه من اليهود ، فلم يتسبب إلى أذى أعدائه بذلك ولا توصل بذلك إلى دمارهم ، بل فداد من عند نفسه بمائة ناقة ، وهو في تلك الحال محتاج إلى بغير واحد يتقوى به . وهذا أمر لا تسمح به نفس ملك من ملوك الأرض وأهل الدنيا من أصحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه . فصح يقينا لاشك فيه أنه إنما كان متبعاً ما أمره به ربه عز وجل . سواء أكان ذلك مضراً به غاية الإضرار أم كان غير مضراً به . وهذا عجيب لمن تدبره .

ثم حضرته المنية ، وله عم أخو أبيه هو أحب الناس إليه ، وابن عم هو من أخص الناس به ، وهو أيضاً زوج ابنته التي لا ولد له غيرها ، وله منها ابنان ذكران ، وكلا الرجلين المذكورين عمه وابن عمه ،

عنده من الفضل والدين والسياسة في الدنيا ، والبأس والحلم وخلال
الخير ما يجعل كل واحد منهما حقيقاً بسياسة العالم كله ، فلم يحابهما ،
وهما من أشد الناس دفاعاً عنه ومحبة فيه ، وهو من أحب الناس فيهما ،
إذ كان غيرهما متقدماً لهما في الفضل ، وأن كان بعيد النسب منه ،
بل فوض الأهر إليه قاصداً إلى الحق واتباع ما أمر به .

ولم يورث ورثته ابنته ونساءه وعمه ، فلما واحداً ، وهم كلهم
أحب الناس إليه ، وأطوعهم له . وهذه أمور لمن تأملها كافية مغنية
في أنه إنما تصرف بأمر الله تعالى له لا بسيادة ولا مهوى ، ولا مقتضى
طبيعة .

فوضح بما ذكرنا والله الحمد أن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
حق ، وأن شريعته التي أتى بها هي التي وضحت براهينها ، واضطرت
دلالتها إلى تسديقها ، والقطع على أنها الحق الذي لا حق سواه ، وأنها
دين الله تعالى الذي لا دين له في العالم غيره . والحمد لله رب العالمين .

نبوت صلى الله عليه وسلم

(١)

الكلام في النبوة في مفاصل :

المقام الأول :

إمكان النبوة وتصوير كيفية الوحي وأنه لا بعد فيه . وبيان أنهم الآن في أوربة أصبحوا يعترفون به أو بما هو من جنسه .

المقام الثاني :

ثبوت نبوته (صلى الله عليه وسلم) بالبراهين القاطعة :

امكان النبوة :

تعلم أن في كل شيء من الأشياء وصنعة من الصنائع وعلم من العلوم وخلق من الأخلاق مثلاً أعلى ، لأن الناس في كل ذلك متفاوتون وليس هناك تفاوت يشبه تفاوت أفراد نوع الإنسان ، حتى أن من في الدرجة الدنيا يجهد علوم من في الدرجة العليا تمام الجهل فلا يعرف ذلك إلا بالتوقيف . وربما كان البعد بينهما شاسعاً فلا يعرفه بالتوقيف أيضاً .

وإذا كان ذلك معقولاً في العلوم والصنائع والسياسات فهو في باب الفضائل والكمالات وطهارة النفوس وعلو الفطرة ورفعة الاستعداد أوضح وأظهر ، حتى أنك لتجد في هذا النوع الرجل الغبي الذي لا يفرق بين الحق والباطل ولا يكاد يعرف الضار من النافع ولا المهلك من المنجى

أو تجده شريراً قد تناهى شره فلا يلذ له إلا النقائص والموبقات ،
وهؤلاء الشريريون هم عقارب نوع الإنسان ، ومنهم من ينقذح في نفسه
الأمر على غير وجهها ولا يكاد يحكم فيها حكماً صحيحاً ، ومنهم
الذكي الذي ينظر في الأمر نظرة صادقة فيعرف بواطنه وخفاياه ويعلم
ما سيكون له من أثر وما يترتب عليه من غاية ، ويتفرس فلا تخطئ
فراسته وكأن يرى من وراء حجب الغيب ما قد خفي على غيره ، كما
قيل .

الأمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع - ١

فهذا هو المحدث والملهم أو الذكي ، والأولى أن تقول هو الطاهر
النفس الصافي الذهن الرفيع الاستعداد القوى الحدس ، فهذه الصفة
أو الميزة أو الدرجة التي تعرفونها في بعض الناس قد تترقى حتى يكون
صاحبها مستعداً للتلقى من الملأ الأعلى ، وأهل أوربة لا ينكرون
الأخذ عن الأرواح الآن (وسنفيض في ذلك بعد) فمثل هذا باستعداده
الشريف يكاد يعرف جليلة الأمر قبل أن ينزل عليه الوحي ، فنفسه
الطاهرة كشجرة مباركة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار .

فإذا جاءه الوحي كان نوراً على نور ، والوحي لا ينزل إلا على
صاحب الاستعداد الرفيع الذي يحب الفضائل حباً جما ويبغض النقائص
بغضاً شديداً لأنه يبأينها وتبأينه ، فتراه يمقت الظلم والشرك والفساد
ويكرها كراهية ذاتية ، وبالاختصار يحب الحق حباً بالغاً من أعماق
قلبه ويكره الباطل كرهاً بليغاً من أعماق قلبه كذلك . فعده ذاتي ،
وشفقته لي خلق الله ذاتية ، ومحبته لمكارم الأخلاق ذاتية ، ومعرفته

بأنه آخذة بكل قلبه ومستولية على جميع مشاعره ، لا يشغله عن ذلك شيء ولا يخالجه فيه شك ولا هم ، ولا يعتريه انهزام ولا تردد ولو انفردت سالفته ^(١) فليس كل إنسان صالحاً للرسالة ولا مستعداً للنبوة ، وإنما المستعد إليها هو الفرد الكامل والمثل الأعلى من ذلك النوع كما قال عز وجل : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ^(٢) .

أما الوحي الذي يجهله كثير من الناس أو لا يكاد يصدق به لعدم تصوره إياه ، حتى قال لى بعض الكبراء : لو انحلت مشكلة الوحي لزال عقبات كثيرة تعترضنا في سبيل التصديق بالنبوة ، فإنه لا يمكننا أو لا يمكن أبناء هذا العصر الحاضر أن يصدقوا بما لم يفهموا

* * *

نقول : أما الوحي الذي بلغ من الصعوبة في بعض العقول هذا المبلغ فأمره واضح إلا عند من يتقف مع ما ألف ولا يؤمن إلا بما عرف . فإن الوحي عبارة عن إلقاء الملك في الروح ^(٣) شيئاً من الأشياء . ومن ذا ينكر الإلهام الذي يقع في القلوب المستعدة بغير نظر وفكر في كل الطبقات من أفراد هذا النوع حتى الطبقات الدنيا منها فما هو مستعد له ، فضلاً عن العليا :

وقد أثبت ذلك المناطقة وسموه حدساً ، وقالوا : إن الحدس ليس فيه ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى أمر مجهول كما هو شأن النظريات :

(١) السالفة أعلى العنق أو صفحته وهما سالفتان ، وكنتى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت . وفي الحديث (لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى) .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .
(٣) الروح : القلب .

ثم نقول من ذا الذى يجعل المعارف الإنسانية كلها قصراً على ما ينتجه الفكر والنظر بعد ما أثبت علماء التنويم المغايسى بالأدلة المحسوسة التى يمكن كل إنسان أن يشاهدها أن المنوم بعد أن يبطل حسه وتتخدر أعصابه -تخدراً تاماً فلا يمكنه أن ينظر أو يفكر حتى إنه لا يسمع أصوات المدافع ولا يتأثر بشيء من الأشياء، يأتى فى هذا الحال بما لا يصل إليه فكر ولا نظر، وقد أصبح الجدل فى ذلك جدالاً فى المحسوس فلا حاجة للإطالة فيه والاستدلال عليه بل نقول : من ذا الذى ينكر الرؤيا الصادقة وقد وجدت فى كل أمة وأثبتها علماء كل ملة بعد التجربة والمعينة ، والمقام لا يحتمل كثرة الاستشهاد .

وليس غرضنا فى هذه العجالة أن نلم بكل ما يتطلبه الموضوع فى كل نقطة من نقطه ، فإن ذلك يحتاج إلى مقالات عديدة ، ولعلنا نوفيها حقها على ما نحب وتحب إن شاء الله ، على أن من لا ينفعه القليل لا يفيد الكثير .

ولا بأس أن نقول للمؤمنين بالقرآن : إن سورة يوسف فيها من الرؤيا الصادقة « رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك » وإن شئت فقل : رؤيا صاحبي السجن ، وعلماء الأرواح الآن يشبثون ما هو أكثر من هذا « وإن شئت أفردنا ذلك بمقال ضاف » .

أما الملك الذى ينزل بالوحى ويكلم الأرواح فلا معنى لإنكاره والحكم بعدم وجوده ، فإن الحججة فى ذلك الإنكار إنما هو كون العلم يشبثه

« كما يقولون » وهل كل ما لم يصل إليه العلم غير موجود « اللهم إن العلم يكذب ذلك » فقد كنا نجعل الميكروبات منذ زمان قريب ، أفكان جهلنا بها موجباً لعدم وجودها أم كانت موجودة في الواقع على الرغم من هذا الجهل ، وأى معنى للبحث والتنقيب الذى يتقدم به العلم يوماً فيوماً إذا كان كان الأمر على ما ظنوا .

ومن ذلك الجاهل الذى يزعم أنه أحاط بكل العوالم وعرف ما فى الوجود ،

ألم يقرر العلماء والفلاسفة أن عدم الدليل ليس دليلاً على عدم المدلول ، على أن علماء الاسبرتزم « استحضار الأرواح » الذين اشتغلوا بالمسائل الروحية أثبتوا بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة أن هناك عالماً وراء عالم الطبيعة قد حرق لهم كل نواميس المادة وما قرروه من ذلك ، وقد أصبح ذلك عندهم لمس اليد ورأى العين .

« وستعرف أن علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه وافتروه عليه » وسنبين أن له دائرة خاصة لا يتعدها وأنه هو نفسه يكذب هؤلاء المتفيهقين الجاهلين . فإذا كان ذلك معقولاً بل محسوساً فى غير الأنبياء فما بالك بالأنبياء وهم المثل الأعلى لذلك النوع .

هذا وقد ذكر علماءنا للوحى كصفات كثيرة ، ولكن نقتصر منها على كفتين ذكرهما الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى ، وهما فى غاية الوضوح لكل من يريد الحق لا التعصب والعناد : أحدهما أن يرتفع النبى (صلى الله عليه وسلم) عن المستوى

البشرى إلى المستوى الملكي « وروحه الشريفة مستعدة لذلك تمام الاستعداد ،
فإن علاقتها بالملأ الأعلى أكثر وأتم من علاقتها بعالم المحسوسات » .

والروح في أصل خلقتها مناسبة لخلقها الملك ، وربما كانت أرفع
منه قدراً وأعظم منه سرا ، والملك إذ ذاك يكون على حالته الملكية ،
ونكن يصح أن يراه الرسول وهو على هذا الحال ، لأنه إنما ينظر
إليه ببصر الروح عند تجرده عن الغواشى البدنية ومفارقته للعوالم
المادية .

وأما جلساؤه فلا يرونه لأنهم لم يتجردوا من ملابسهم الطبيعية
ومحيطاتهم لكونية ، ويقرب هذا بعض التقريب ما نشاهد من
أحوال النوم تنوياً مغناطيسياً فإنه يرى ما لا يراه الحاضرون لأن
السلطان فيه للروح فهو يرى بحواسها لا بحواس البدن ، وأما حاضروه
فالمستولى عليهم فهو سلطان الجسم لا سلطان الروح .

ونقربه من وجه آخر فنقول : لا بدع في تغيير الأحكام بتغير
الآطوار والأحوال ، حتى تصل إلى حد التباين ، فإن الثلج إذا كان
جامداً كان له حكم الجامدات ، فإذا أذبناه بقليل من الحرارة كان
له حكم السوائل ، فإذا صيرناه غازاً كان له حكم الغازات . وإذا
فما الذى يستنكر من تغيير الأحكام بتغير الأحوال ويكفى هذا لمن
أنصف ولم يتعسف .

أما الكيفية الثانية للوحى فهى أن يتنزل الملك من سماء الملكية
إلى أرض البشرية ، فيتمثل رجلاً فيكلم النبي بلسان الأشباح

لابلداً الأرواح ، وفي هذه الحال يراه كل من حضر ويكون النبي على حالته العادية وصفاته البشرية « كما في حديث الإسلام والإيمان والاحسان »^(١)

وقد أعطى الملك القدرة على هذا التمثل ، ولا معنى لأن تنكر ذلك قياساً على ما تعلمه من نفسك فإنك لا تعرف إلا أحكام عالمك ، ومن الغلط البين أو الجهل الشائن أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر . ويحسن بنا أن نقتصر اليوم من هذا المقام على ما ذكرناه لننتقل للمقام الثاني :

ثبوت النبوة

لنا في إثبات النبوة طرق كثيرة ، وهي في إجمالها ترجع إلى ثلاثة أشياء :

١- ما جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) من المعجزات .

٢- النظر في حياته عليه السلام ودراسة سيرته الشريفة وآثاره الجليلة .

٣- القرآن .

وكل واحد من هذه الطرق الثلاثة مترامى الأطراف بعيد الأكناف يحتاج إلى عدة مقالات . ولكن رأينا أن نمر بك اليوم على جميعها لتحيط خبراً بإجمالها ومناحي القول فيها :

(١) محصل ذلك الحديث أن سيدنا جبريل جاء في صورة أعرابي فجلس أمام النبي (صلى الله عليه وسلم) فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة وأمارتها ، فأجابته عن كل ذلك .

المعجزات

إن المعجزات، ثابتة بالتواتر وأن لم يعرفها الجاهلون أو لم يعترف بها الملحدون ، وقد نعلم أن أبواب كل فن وصنعة قد يكون عندهم من الأمور المتفق عيها فيما بينهم والتي لا يمكن الشك فيها ، وقد التحقت عندهم بالبدهيات ما لا يعرفه غيرهم ، وقد تعرف الأمة من أحوال بعض رجالها ما يجهاه سواها ، وقد يحتف بالرجل أو الخبير قرائن لا تدع للشك في صدقته مجالاً . فمن عرف مالكا أو الشافعي أو أبا حنيفة أو ابن حنبل و البخارى فإنه لا يشك في صدقهم ولا فيما يروونه . فما بالك إذا جتمع من أمثالهم العدد العديد وبلغ الأمر مبلغ التواتر في آحاد المعجزات أو جملةتها .

وبالاختصار فأخباره صلى الله عليه وسلم وما ظهر على يديه أظهر عندنا وأثبت من أخبار (أرسطو) (وأفلاطون) (وجالينوس) (وأقليدس) (وهوميروس) (ولويس الرابع عشر) (ونابليون) (وجان دارك) (ورينان) (وأنتول فرنس) . ونقله الأخبار الإسلامية أظهر وأكمل وأكثر من نقله الأخبار عن هؤلاء ، ومن يردّها فهو جاهل أو معاند . ولا فرق بين ما يحدثه التواتر من اليقين في النفوس وبين ما يحدثه الحس من ذلك ، فإن وجود أمريكا « وإن لم نردّها » مساو عندنا لأكبر ما نحس به ، اللهم إلا أن تضل

العقول أو تفسد الفطرت^١، وقد قال الشاعر العربي الذي لم تفسد فطرتَه
ولا انعكست فكرته :

تأوَّبني هم من الليل ناصب وجاء من الأخبار ما لا يكذب
تظاهرن حتى لم يكن لي ريبة ولم يك فيها للنهي متعصّب

ومع هذا فلا نسير بك في هذا الطريق وإن كان لنا فيه مجال واسع
« فقد قال الإمام النووي : إن المعجزات ألف ومائتان . »

ولكن عندنا ما يغني عنه ولعلك أعرف به من هذا ، ولكل قوم
طريق هو عليهم أقرب ولهم أجذب ، فنقول :

الطريق الثاني

إن حال الصادق لا يشبه بحال الكاذب في الأمور الصغيرة فكيف
يشبه في الأمور الكبيرة . الكاذب لا يكون إلا جباناً ، والجبان لا يأتي
بجلائل الأعمال وعظائم الأمور .

الكاذب يظهر في قوله وفعله وحركاته وسكناته ومعاملاته . ومن
الأمثال قولهم « تخبر عن مجهوله مرآته ^(١) » أي يخبر ظاهره عن
باطنه . ومما سار سير الأمثال قول القائل : * ضمائر قلب المرء تبدو
بوجهه * ويقول الشاعر الجاهلي :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم

(١) المرأى والمرأة : المنظر ، يقال فلان حسن في مرآه وفي مرآته أي منظره .

فمن عرف الرسول وصدقته ووفاءه ومطابقتة قوله لعمله ، وما كان عليه في جميع أحواله وسيرته طوال حياته وما أحدثه من الانقلاب الهائل في العالم كله لم يشك في أمره .

ولا أجد في هذا المقام أبلغ وأروع مما قاله ذلك الرجل الكبير لامارتين الفرنسي الطائر الصيت الغنى عن التعريف ، قال ^(١) :
(أترون محمداً كان أنا خداع وتدليس وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته فإن الخداع والتدليس والباطل والمين ، كل أولئك من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، كما أن ليس للكذب قوة الصدق .

وإذا كانت قوة الصعود والمرمى في علم الطبيعة والحركات الآلية هي المقياس الصحيح لقوة المصدر الذي تنفذ منه الرمية ويظهر في الأفق من القذيفة فإن العمل والفعل الذي يحدثه المحدث في علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التي تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمناً طويلاً ، وتمشى في الحياة أبداً رخيّة ، وهي لا ريب فكرة قوية ، صدرت من جنان قوى .

ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغي أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلتها الأكبر الحق والصدق ، وتروح معقولة يقبلها اللب ، ويعتمدها الذهن :

(١) نقل ذلك صاحب مجلة البيان في عددها الثالث من السنة السابعة ، صحيفة رقم ١٤٠

ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحي الذي تنزل عليه . فإن حياته وقوة تأملته وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجرأته وبأسه في لقاء مالقيه من عبدة الأوثان وثباته وبقائه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته في وسط أعدائه ومهرة خصومه في قلب مكة ونواحيها ومجامع أهلها ، وتقبله سخرية الساخرين ، ودهزه جزء الهازئين وحميته في نشر رسالته ، وثباته وتوفره عليها ، وحروبه التي كان جيشه فيها أقل نفيراً من عدوه ، ووثوقه بالنجاح ، وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، واطمئنانه ورباطة جأشته في الهزائم ، وأنانه وصبره حتى يحرز النصر ، وطماعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة وتأسيس العقيدة لالفتح الدول وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ، ونجواه التي لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره ونجاح دينه بعد موته .

كل أولئك أدلة على أنه لم يكن يضمّر خداعاً أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضيء في قلبه . وهذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة :

الأولى : تدل على من هو الله :

والثانية : تنفي ما ألصق الوثنيون به .

والأولى حطمت آلهة كاذبة ، ونكست معبودات باطلة .

والأخرى فتحت طريقاً جديداً إلى الفكر ، ومهدت سبيلاً طريفة

للنظر .

فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب
وفاتح أقطار المكر ، وراد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة
الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات
ومنشئ عشرين دولة في الأرض ، وفاتح دولة واحدة في السماء من ناحية
الروح والقواد فذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه
المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه وأى إنسان
صعد هذه المراتى كلها فكان عظيماً في جميعها غير هذا الرجل :

انتهى كلام الرجل العظيم الذى لم يأكل المحقد قلبه ولا الجهل عقله .
وحقاً (ليس يسرى العظيم غير العظيم) .

ولنقتصر اليوم من هذا الطريق على هذا ، ولو شئنا لذكرنا من
شأئله ورفيع دلائله ما ياتحق بمدرجات الحس ويخضع له أساطين علماء
النفوس ، ولنا إليه عودة إن شاء الله ، فلننتقل بك إلى القرآن .

الطريق الثالث

القرآن

وما أدراك ما القرآن ! وليت شعرى أنعمه معجزة واحدة أم نتجاوز
به كل عد ويتخطى به كل حد ، فلو نظرت إلى ما فيه من العلوم
والمعارف وما اشتمل عليه من الحقائق والدقائق لعرفت أنه المعجزة
الكبرى والآية العظمى . وقد قال سديو الفرنسى « لو وجدنا القرآن
في فلاة ولم نعرف من جاء به لعلمنا أنه من عند الله » ،

وقال الكونت هنرى دى كستري ما هو مثل هذا أو أعظم منه :
وربما نقلنا كلامه فى غير هذه العجالة . ولو نظرت إلى مافيه من
الشرائع التى تطهر النفوس وتأخذ الناس إلى السعادة من كل باب
وتطلعهم على عظمة الله وجلاله بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور وتسنب
لهم السنن التى عجز عنها أرسطو وأفلاطون لعرفت أنها الآفة الباهرة
والحجة القاهرة ، خصوصاً من مثل ذلك الأذى الذى لم يتل كتاباً
ولا خطه بيمينه .

ولو نظرت إلى فصاحته وبلاغته لاستولى عليك الدهش ولم تستطع
أن تكيف ما خالغ ضميرك وملاً قلبك ، روح غير معروفه لأنها من
السماء لا من الأرض ، وأسلوب أعجز الفصحاء من العرب العرباء فلم
يستطيعوا منفردين ولا مجتمعين أن يعارضوه أو يأتوا بسورة من
مثله .

ولندع ذلك كله ونتحدث معك اليوم فى ناحية من نواحي إعجازه
غير ماسمعت ، وهى إخباره بالمغيبات التى وقعت على نحو ما أخبر ولم
يتخلف منها شىء : فمن ذلك قوله (عَلَيْتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الْأَرْضِ
وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ
بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ : بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ . وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) (١)

وإنى أستحلفك بحق العلم وشرف الإنصاف أن تنظر فى هذه
الآيات نظرة صادقة لترى كيف ذكر ذلك الوعد على سبيل الجزم وكيف

أكدّه بتلك العبارة البالغة حيث يقول : (وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) وكيف ذكر أنه يكون في بضع سنين ، وهل يستطيع الذي يقول من عند نفسه أن يؤكّد ويحدد ، وهو إخبار عن أمّتين عظيمتين بعيدتين لا يدرى حالهما ومآلهما إلا الله تعالى ، خصوصاً في مثل ذلك العصر وهل ذلك إلا تعرض للخطر وإلقاء بالنفس إلى التهلكة لولا وثوقه بالله عن الله ، ولقد كان في غنى عن ذلك وأنه لا حزم من أن يخاطر بمستقبله بالإخبار عن مستقبل غيره بهذا التحديد والتأكيد ، حتى جعله في بضع سنين ثم قال : (وعد الله لا يخلف الله وعده)

ولنتقل بك إلى آيات المغيبات الأخرى ولا نطيل القول فيها :
يقول الله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)^(١) . وهم يومئذ قليلون ذليلون مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس ، فكانوا بعد ذلك خلفاء وعظماء ، وصدق الله ورسوله : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)^(٢) فهزموا وولوا . ويقول في حق اليهود : (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُكَلِّمُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيَّمَا تُقِفُوا)^(٣) .

وفي هذا إخبار بثلاثة مغيبات^(٤) (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ)^(٥) فكانت لهم يوم بدر . (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ

(١) سورة النور ، الآية ٥٥ . (٢) سورة القمر ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١١١ ، ١١٢ .

(٤) الأول لا يضرّونهم إلا أذى باللسان فقط ، والثاني أنهم يهزمونهم إذا قاتلوه ، والثالث أنهم يكونون أذلاء تحت سلطان غيرهم .

(٥) سورة الأنفال ، الآية ٧ .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا^(١) فكان كل ذلك
« وقد عبر بإذا التي للتحقق كما هو معروف » (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ)^(٢) (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ)^(٣) (ولن
تفعلوا) . فما فعلوا .

ويقول : (وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا وَأُخْرَى
لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا)^(٤) . ويقول (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا
نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)^(٥) ويقول : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ)^(٦)
فغلبوا كما أخبر . ويقول : (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)^(٧)

ولو لم يكن هذا كلاماً إلهياً لكان ذكره سفهاً موقعاً له في الورطات
والهلكات ، وقد جاءه أعرابيٌّ وهو نائمٌ فاختَرَطَ سَيْفَهُ وَقَالَ : مَنْ
يُنْجِيكَ مِنِّي ، فَقَالَ : اللَّهُ ، فَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِ الْأَعْرَابِيِّ . وقد كان
يوم حنين على بغلة لاتصلح للطلب ولا تنفع في الهرب ، وقد فر عنه
أصحابه وهو ينادى بأعلى صوته : (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ) (أَنَا ابْنُ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) .

(١) سورة النصر ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٤ .

(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٠ ، ٢١ .

(٥) سورة الصف ، الآية ١٣ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٢ .

(٧) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

وقبائل هوازن إذ ذاك بقضيتها وقضيضها ، فهل يتصور مثل هذا من غير من تكفل الله له بالعصمة من الناس فوثق بكفالاته فلم يبال بأحد سواه .

ويقول : (سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ) ^(١) ويقول : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(٢) ويقول : (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) ^(٣) . فرده إلى مكة عام الفتح .

ومن ذلك إخباره بما كان اللانبياء السابقين ، وهو أُمى نشأ بين أميين كما قال بعد قصة نوح عليه السلام : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) ^(٤) .

وقال بعد قصة مريم عليها السلام : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) ^(٥) وقال في قصة موسى صلى الله عليه وسلم (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) ^(٦) (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) ^(٧) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥١ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٨٥ .

(٤) سورة هود ، الآية ٤٩ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٤٤ .

(٦) سورة القصص ، الآية ٤٤ .

(٧) سورة القصص ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

وقال بعد قصة سيدنا يوسف وإخوته : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)^(١) .

ولم يمكن أهل الكتاب أن يكذبوه في شيء من ذلك ، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه ، وكانت هذه الأخبار عندهم مكتومة يتواصون فيما بينهم بكتامها ، ولذلك يقول لهم الله تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ)^(٢) وينعى عليهم كتامهم ما في كتبهم .

كما قال : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)^(٣) وكثيراً ما تحدوه بتلك المغيبات فسألوه عن أهل الكهف وعن ذى القرنين ، إلى آخر ما يعرفه العلماء وقد سمعه الجهلاء .

مما يناسب ذلك أن القرآن وهو المتواتر الذى لا شك في تواتره ذكر معجزات أخرى مثل قوله : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)^(٤) (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)^(٥) .

وقدامتحنوه صبيحة ليلة الإسراء امتحان المتعنتين ، فلم تهن عزيمة ولا دحضت حجته . إلى غير ذلك مما يطول فيه القول ولا يأتي عليه

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٥٩ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ١٧ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ١ .

البيان . وقد قال له الله وهو العليم بحال خلقه : (قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)^(١)

ولعلك تلاحظ. بذهنك الثاقب ما في هذه الآية من تحدى الجن
والإنس ومناوأة الجميع وما تشير إليه من يقينه البالغ الذي يستحيل
أن يكون من كاذب فيما يدعيه أو مرتاب فيما يقوله ، وما تحثويه
من الثقة بالله التي لا يبالي صاحبها بجن ولا إنس ، إلى آخر ما يمليه
عليك ذوقك السليم وطبعك المستقيم .

ولنسق لك دليلاً آخر لا يمارى فيه إلا الجاهلون ، ولا يتصلب
أمام حجته الذصعة إلا الجامدون. ذلك الدليل القاطع والبرهان الساطع
هو قوله تعالى : (يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ)^(٢)
أفتراه وهو من أعقل العقلاء وأسوس العالم باتفاق الجميع وشهادة
آثاره التي بهرت العالم بأني إلى أمره المحتمل فيفضحه وإلى بنائه الذي
كاد يكمله فينقضه حيث يعمد إلى كتبهم التي في بيوتهم - وهم يضمنون
بها كل الضن على غيرهم - فيخاطب جميعهم قائلاً لهم أنكم تجدونني
فيها بنعتي ونعت أصحابي بل بذكر اسمي وأمتي كما قال : (ذَلِكَ
مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ
فَاَنْتَعَلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ)^(٣) . ويقول على لسان المسيح (ومُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)^(٤) .

(١) سورة لإسراء ، الآية ٨٨ . (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٣) سورة الفتح الآية ٢٩ . (٤) سورة النصف ، الآية ٦ .

فلم يستطع أهل الكتابين أن يكذبوه ، وكان من السهل أن يجمعوا الخاصة والعمامة ويقفوهم على ما يهدم دعواه هذه الصريحة التي لا تحتل ولا يستطيع أن يدافع عنها لو كان كاذباً فيها .

فقل لي بعيشك هل يخاطر عاقل يعلن من نفسه الكذب مهما كان أمره هذه المخاطرة التي لا معنى لها ولا داعى إليها ، ثم يسكت اليهود بعد ذلك وهم من ألد أعدائه بل يؤمن الكثير منهم مثل عبد الله بن سلام وأضرابه حتى قال تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)^(١) .

ويقول في حق قوم من النصارى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَلَفُوا مِنَ الْحَقِّ)^(٢) ويطلبهم للمباهلة فيمتنعون ويقبلون الجزية ولا يباهلون ، ويذكر عنهم جميعاً أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويكرر ذلك بدون خوف ولا وجل ، اللهم إن ذلك غير مقبول ولا معقول .

ولنختم مقالنا هذا بقول الله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ)^(٣)

ولعلك تلاحظ ما في هذه الآية الكريمة التي تعطيك مقاصد الشريعة المحمدية إجمالاً ، فقد بينت للأمة ما يجب عليها مع الخارجين عنها

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

(١) سورة الرعد ، الآية ٤٣ .

(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

من أعدائها فقالت : (أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ) وما يجب عليها في داخليتها
مع أبنائها فقالت : (رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ) وما يجب عليها فيما بينها وبين
الله تعالى فقال : (تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) .

ولنقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان فإنه عميق الغور بعيد
المدى ، وليس ذلك إلا إجمالاً يطول تفصيله ويدق تحليله .

ولعلنا نحلى بعض مقالاتنا المقبلة بشذور من فضائله ونماذج من
شئله إن شاء الله .

ما إن مدحت محمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

نبوتنا صلى الله عليه وسلم

(٢)

نريد أن نتكلم اليوم في براهين عقلية ودلائل وجدانية ، وسنتكلم بعد في معجزاته الحسية ، فنقول :

إن من نظر بعقله السليم ورجع إلى وجدانه الصحيح ، علم أن رفع الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ومن دركات الذل الذي كانت فيه إلى أعلى درجات العز ، وتربيتهم بأحسن التعاليم ، وأخذهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب ، حتى صار الواحد منهم أمة وحده بعد أن كانوا أشبه شيء بالوحوش الضارية ، يأكل قوتهم ضعيفهم ويثدون بناتهم ، إلى غير ذلك من الفظائع التي لا تفعلها الحيوانات^(٢) ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة في أقل قليل من الزمن ، ثم ينشر ذلك النور في كل أنحاء المعمورة ، ذلك كله لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على أن مصدره هو مثال الخير وشخص الكمال ، والفضائل لا تفيض من الإنسان على غير ذلك إلا على قدر رسوخه فيها وتوافرها لديه .

إن مرمى الأديان الإلهية كلها إنما هو تخليص أفراد النوع الإنساني من مخالب الشرور التي أحاطت بهم ، وغرس مكارم الأخلاق في أعماق

(١) مجلة الأزهر - العدد السادس - المجلد الأول - جمادى الآخرة ١٣٤٩ .

(٢) لا يهولنك ما اشتهر من منع جمع الحيوان وأمثاله بالألف والناء ، فقد صرح الشهاب شرح الشفاء بجوازه في كل ما لا يعقل ما لم يكسر .

نفوسهم ومراقبة الله تعالى في سرهم وعلانيتهم ، فإن ذلك جماع الخير وأساس السعادة ، ونبيينا صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء في ذلك كله ، وهو برهان ساطع على نبوته لدى من يطلب البراهين العقلية الوجدانية من ذوى الفطر السليمة والقرائح النيرة ، وأما غيرهم فنحيلهم على البراهين الحسية والخوارق الكونية ، إذ لا يعرفون مقدار الحقائق المعنوية التي يدور عليها فلك السعادة من ارتفاع الإنيمان إلى الأفق الملئ وترقية تمام البشر إلى أعلى عليين ومعرفة الله تعالى والكشف عن حقائق الأشياء ورقة الأحسامات وتنعيم الأرواح بما تشرئب إليه من العالم الأعلى ، حتى تتم للإنسان المدنية الأرضية والمدنية السماوية .

فلا برهان عند ذوى البصائر أكبر من أعمال مدعى النبوة وصفاته النفسانية وكمالاته الخلقية وآثاره الخارجية التي ترقى الأمم وتبعد الشعوب وتجعلهم ملوكاً في الأرض ملوكاً في السماء ، كما كان ذلك في الأمة الإسلامية حين تمسكها بدينها وشريعته

لا شك أن هذه الآثار الجليلة يستحيل أن تكون عن غير قوة مماوية ، وقد رأينا تاريخ الفلاسفة وغيرهم من أرباب القوة البشرية ، فلم نجد فيه ما يماثل هذا أو يقاربه ، فضلاً عن كون النبي صلى الله عليه وسلم قد نشأ بين قبائل العرب المتوحشة وطوائفها الجاهلة مما يكفي دليلاً وحده على أن الأمر ليس عادياً ولا بشرياً :

كفاك بالعالم في الأُمِّي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليمِّ

إنه لا يتأتى الكذب من مثل تلك النفس الكاملة التي فاض منها الكمال حتى عم العال شرفاً وغرباً، وقد بعث صلى الله عليه وسلم ليتم مكارم الأخلاق .

وإن مثل هذه النفس التي فاض منها الخير حتى عم العالم بأسره يستحيل أن تكون معدناً للشر أو محلاً للكذب على الله تعالى ، والكذب كما تعلم أشد الأخلاق إفساداً للنفوس ودلالة على سقوطها ونقصها ومن المقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه ، وأن الطباع لا بد أن تظهر مقتضياتها طوعاً أو كرها ، وأن نفس كل إنسان تتجلى للبصائر في أفعاله وأقواله وحرركاته وسكناته ، كما تتجلى الألوان للأبصار ، على صفحات الوجوه .

وقد قال بعض العرب عندما رأى آثار ذلك الكمال الذي امتلأ به باطنه ففاض على ظاهرة : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » ثم آمن به على مقتضى ذلك ، وكان بودى لولا ضيق المقام أن أسهب في أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم قبل نبوته إلى حيث سمته قریش بالأمين « وما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله كما قال هرقل قيصر الرومان » وأن أقيم الدليل على أنه لم يعرف في السنن الإلهية أن الله بويد الكاذبين في دعوى النبوة ، بل يستحيل على عدالة الله تعالى وحكمته أن ينصر المبطلين في ذلك لما يترتب عليه من الضرر العظيم ، وقد قال عيسى عليه السلام « سيظهر

لبعدي أنبياء كذبة ، ففويل : فما علامتهم ؟ فقال علامتهم أن الله لا يؤيدهم . وقال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ^(١))

وقد علمت أنه تعالى نصر نبينا عليه السلام بما لم يكن مثله لأحد من المرسلين ، فإن الانقلاب الذي حدث من بعثته صلى الله عليه وسلم لا يعرف له مثل في تاريخ الأنبياء السابقين ، فمن ظن أن الله نصره وأيده مع كونه مطلقاً كاذباً فقد جهل ما يليق بصفات الله تعالى وسنته في خلقه ، وأساء الظن بعدالته وحكمته إساءة كبرى .

إن الغاش الكاذب لا يستطيع أن يخفي حاله جميع حياته على كل الناس حتى على أخص أصحابه ، وأنه يستحيل أن لا يزول الستار عن ذلك الغش ونلك المراعاة ، وللصدق خاصية لا تكون للرياء أبداً ، فإن الرياء طلاء كاذب لا يلبث أن يذهب بنيران حوادث الأيام ، ولا سيما من له أعداء أشداء وخصماء ألداء ، مثل النبي صلى الله عليه وسلم .

على أن تاريخ أصحابه مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من أممطين الأمة أدل دليل على رفعة حاله وعظم كماله ، فإن النفوس لا تتفق إلا على قدر ما بينها من التناسب ، وأن الطباع تسرق من الطباع ، لا سيما التابع من التبوع ، وخصوصاً مع المحبة الكاملة ، هذا : مع ماله من الخوارق الحمسية التي نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة بل بالتواتر . ومنخوض فيها بعد إن شاء الله .

(١) سورة الحانة ، الآية ٤٤ - ٤٦ .

ولو أنصف المبشرون الجاهلون المتعنتون لعلموا صدق القرآن الذى
يكرر فى الايات العديدة قوله : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ
كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ)^(١) ويقول مخبراً عنهم : (يَعِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ)^(٢) ويقول مخاطباً لهم (تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ^(٣)
فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)^(٤) ثم لم ينبسوا ببنت شفة « وما
أقوى الصادق وأضعف الكاذب » .

وكان ذلك من البراهين عند منصفيهم فآمن كثير من أكابرهم
وأخبارهم ، مثل عبد الله بن سلام وأضرابه .

وليس يعقل أن يعتقد مثل ابن سلام - وهو من علماء التوراة
كذب النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك ثم يؤمن به أو يعتقد نصارى
نجران كذبه ثم لا يجيبوه إلى المباهلة ، بل ليس من المعقول كما قلنا
فى مقالنا السابق أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهاناً على كذبه فيخطبهم
والتوراة^(٥) بين أيديهم - بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوبخهم ويقرعهم
ويشافهم^(٦) بأنهم يجدونه فيها وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ولا
من المتصور أن يجترىء على ذلك وهو يعلم كذب نفسه مما ينفرهم منه
غاية التنفير ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم . « والكاذب ضعيف
حتى عند نفسه »

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٦ وسورة الأنعام ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٣) الابتهاال هو التضرع وقد روى أن أخبارهم قالوا لهم : تعلمون نبوته وأنه ما باهل

قوم نبياً إلا هلكوا فوادعوا الرجل وانصرفوا ففعلوا ذلك وجمعوا له الجزية .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٦١ .

وهو إذا لم يكن نبياً في زعمهم فهو أكبر سياسي باعتبارهم ، ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول السفهاء وأكبر الجهلاء ولطعت فيه أعداؤه وما أسرع ما كان ينتقض بناؤه .

وقد ذكرنا في العدد الأول من هذه المجلة من آيات الإخبار بالغيب ما لا يدع رية لمرتاب مثل قوله تعالى : (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) ولفتنا نظرك إلى ما في هذه الآية من الجزم الذي يستحيل أن يكون من كاذب ، وإلى تقليل المدة وتحديدها في قوله (فِي بَضْعِ سِنِينَ) وإلى تأكيد ذلك في قوله (وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ) وكذا قوله (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) مما يستحيل أن يكون من عند نفسه أو بذات حدسه ولا يتصور أن تصدر هذه المبالغة وصاحبها ليس على يقين من أمر ، ولا مستند فيه إلى وحى من ربه إلا من أحقق الحسنى الذي لا يستطيع أن يسوس نفسه فضلاً عن أن يسوس أمة دهش لها التاريخ . وقد راهن أبو بكر رضى الله عنه أبي بن خلف على مائة قلوص^(٢) وأشد القلائص من ورثته عندما نصرت الروم على فارس .

وبعد فمن نظر في أحواله صلى الله عليه وسلم وجدده غريقاً في بحر التوحيد ناظراً إلى الله تعالى في كل شيء ، قد امتزج خوفه من الله

(٢) القلوص : الناقة الثمينة .

(١) سورة روم ، الآيات ٢-٦ .

ومراقبته إياه بلحمه ودمه مما يستحيل أن يكون من رجل تلعب به
الشهوات أو تحيط به الظلمات .

فإذا صادفك الرشد وبحثت في أحواله عليه السلام وجدته رجاءً
إلى الله في كل شيء « شأن الأنبياء والمرسلين » فكان يقول إذا جاءه أمر
يحببه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ » وإذا جاءه أمر
يكرهه قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ » وإن أراد أمراً قال « اللَّهُمَّ خِرْ
لِي وَاخْتَرْ لِي » وإن أراد سفراً إلى قوم قال « اللَّهُمَّ بِكَ أَصُولٌ وَبِكَ
أَجْرٌ » وإن أراد نوماً قال « اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِاسْمِكَ
أَرْفَعُهُ » وإن استيقظ قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ
النُّشُورُ » وإن لبس ثوباً جديداً قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مَا أَتَجَمَّلُ
بِهِ فِي حَيَاتِي » وإن أكل قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا
مُسْلِمِينَ » وإن شرب قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْمَاءَ عَذْبًا فُرَاتًا
بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا » وإذا أفطر قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَعَانَنِي فَصُمْتُ وَرَزَقَنِي فَأَفْطَرْتُ » وإذا انقلب من الليل في
فراشه قال « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » وإذا هب من نومه ليلاً قال « رَبُّ اغْفِرْ وَارْحَمْ
وَاهْدِ لِسَبِيلِ الْأَقْوَامِ » وإذا خاف قوماً قال « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي
نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ » وإذا خرج من بيته قال « بِسْمِ
اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضِلَّ أَوْ أَذِلَّ أَوْ أُذِلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» وإذا رأى الهلال قال « هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٌ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ » وإذا رفع بصره إلى السماء قال « يَأْمُرُ صَرْفَ الْقُلُوبِ ثَبَّتَ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ » وإذا حلف قال (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ) . وإذا عصفت الريح قال « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ » .

وهكذا في سُنَّته كله كان غريقاً في النظر إلى الله والاستمداد من الله والالتجاء إلى الله . لا يرى لنفسه ولا لغيره حولاً ولا قوة ولذلك كان يقول إذا أصابه هم « حَسْبِيَ الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ » ، حَسْبِيَ الرَّازِقُ مِنَ الْمَرْزُوقِينَ ، حَسْبِيَ الَّذِي هُوَ حَسْبِي ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

ولنختم هذه الكلمة بكلام جليل في هذا الموضوع للكونت دسرى دى كستري افرنسي ، وهو يشتمل على أحد عشر وجهاً يشهد بها الذوق السليم ولطبع المستقيم ، قال :

(١) لسنا نحتاج في إثبات صدق النبي محمد إلى أكثر من إثبات أنه كان موقناً في نفسه بصدق رسالته ، وما الغرض من رسالته إلا إقامة عبادة إله واحد مقام عبادة الأوثان التي كانت عليها قبيلته في ابتداء ظهوره

(٢) لما كانت نفس ذلك النبي مفضولة على التشبيح بالدين تكيف هذا المذهب في وجدانه حتى صار عقيدة لم تصل إليها نفس قبله ، وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي أحدث انقلاباً كلياً في النوع البشري .

(٣) كان محمد « عليه الصلاة والسلام » لا يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً ، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ، فلم يقرأ كتاباً ولم يسترشد في دينه بمشرد متقدم عليه .

(٤) لقد نعلم أنه مرت به متاعب كثيرة وقاسى آلاماً نفسية كبرى لأن الله خلقه ذا نفس تمحضت للدين ، من أجل ذلك احتاج للعزلة عن الناس لكي يهرب من الأوثان ومن مذهب تعدد الآلهة ، وكان هذان المذهبان أشبه بإبرة في جسمه صلوات الله عليه ، ولكي ينفرد بما أنزل عليه من توحيد الله اعتكف في غار حراء .

(٥) العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات (القرآن) عن رجل أمي ، وهي آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها ، وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة (مريم) وما جاء في (يحيى) فلما كان اليوم الثاني أشار عليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل . واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه ، ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر : إن الفرق بين ماسمعنا به منك الآن وبين ما تقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن ممك هذا القضيب ، وأقول : قد قوى ذلك القضيب فمنع الحبشة من الإسلام وجعلها مسيحية إلى الآن .

(٦) من الصعب أن يظن الإنسان أن الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير ، كيف وهي فصاحة تصدر بغير ضعف أبداً ، وتتجدد

رفيعة معجزة يقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء فهي
إلهية .

(٧) أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته ، وهذا القرآن
لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التي لا يقدر أحد على فك طلاسمها
ولن يسير سرها المكنون إلا من صدق بأذنه منزل من عند الله ، سواء
توصلنا إلى معرفة الوحي وحقيقته أم لا .

(٨) لا ينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل ، لأن
النبوة من حيث هي عبارة عن قيام رجل من الناس بأمر ربه ، وأن
يعتقد أن ما يقوله من عند ربه حق فمحمد « صلى الله عليه وسلم »
يعتقد أن روحاً من الله استولت على لبه فلم يعد يعتقد أن له فكراً
خاصاً بل إنه أوتيته من عند ربه ، واختفت في نظره ذاتيته . ومن
الصعب أن تقف على معرفة سماعه للصوت الإلهي هل كان في الحلم أو
في غيبته عن عالم التصورات . والصدق حاصل على كل حال .

(٩) كانت الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعض
الموثنيين أن به جنة ، وهو ظن باطل لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ،
ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اختلال في الجسم ولا أدنى ضعف في
القوة المادية ، وليس في الناس من عرف الناس جميع أحواله في حياته
كلها مثل النبي محمد « صلى الله عليه وسلم » فقد وصل المحدثون عنه
إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته ، ولو أنه كان مريضاً
لما خفي مرضه « ولا أمكن أن تكون له تلك الآثار الباهرة » فليست
حالة محمد في انفعالاته وتأثيراته حالة ذى جنة :

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحايين للكتاب . نعم
مرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض مواضع إلا أن سببه ميسور
المعرفة ، إذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع خصوصاً
إذا لاحظنا أن القرآن جاء متمماً كما جاء النبي خاتماً لا سيما ونفس
محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل ،
وكان يعبد الله الذي يعبدونه ، فلا عجب إذا تشابهت ألفاظ التصرفات
وتجانست أصوات الدعاة .

(١٠) ما كان محمد يميل إلى الزخارف ، ولم يكن مستكبراً
ولا شحيحاً ، بل كان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ، ويجلس على
التراب ، وكان قنوعاً ، خرج من هذه الدار ولم يشيع من خبز الشعير
مرة في عمره ، ولم تكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً ، قد
احتقر المال ، وقد بلغ من السلطان منتهاه ولم يكن له من علامة الملك
سوى قضيب .

(١١) أتى محمد صلى الله عليه وسلم فهدم الوثنية بعزم واحد
طول الحياة ، ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد .
وإيمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام لم تفتّر حميته فقد انتهى كما بدأ .
لم يرغب طول حياته في المال بل كان كلما جمع إليه شيء منه أنفقه في
الصدقات ، ولقد أعطى عائشة زوجته مالاً يسيراً لتحفظه ، فلما
حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته ، فلما وزع عليهم قال

الان استراح قلبي لأني كنت أخشى أن ألقى ربي وأن أملك هذا
المال) ولقد خطب في أمته قائلاً : أيها الذين يسمعون قولي إن كنت
ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري ، وإن كنت أسأت سمعة
أحد فلينتقم من سمعتي، وإن كنت سلبت أحداً ماله فدونه مالي وهو
في حل من غضبي فإن الغل بعيد عن قلبي :

انتهى كلام هذا المنصف الكبير . ولنقتصر اليوم على هذا
وانا إليه عوداً إن شاء الله :

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
مهندس/ رجاء الهادي محمد عناره

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨١/٢١٦٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

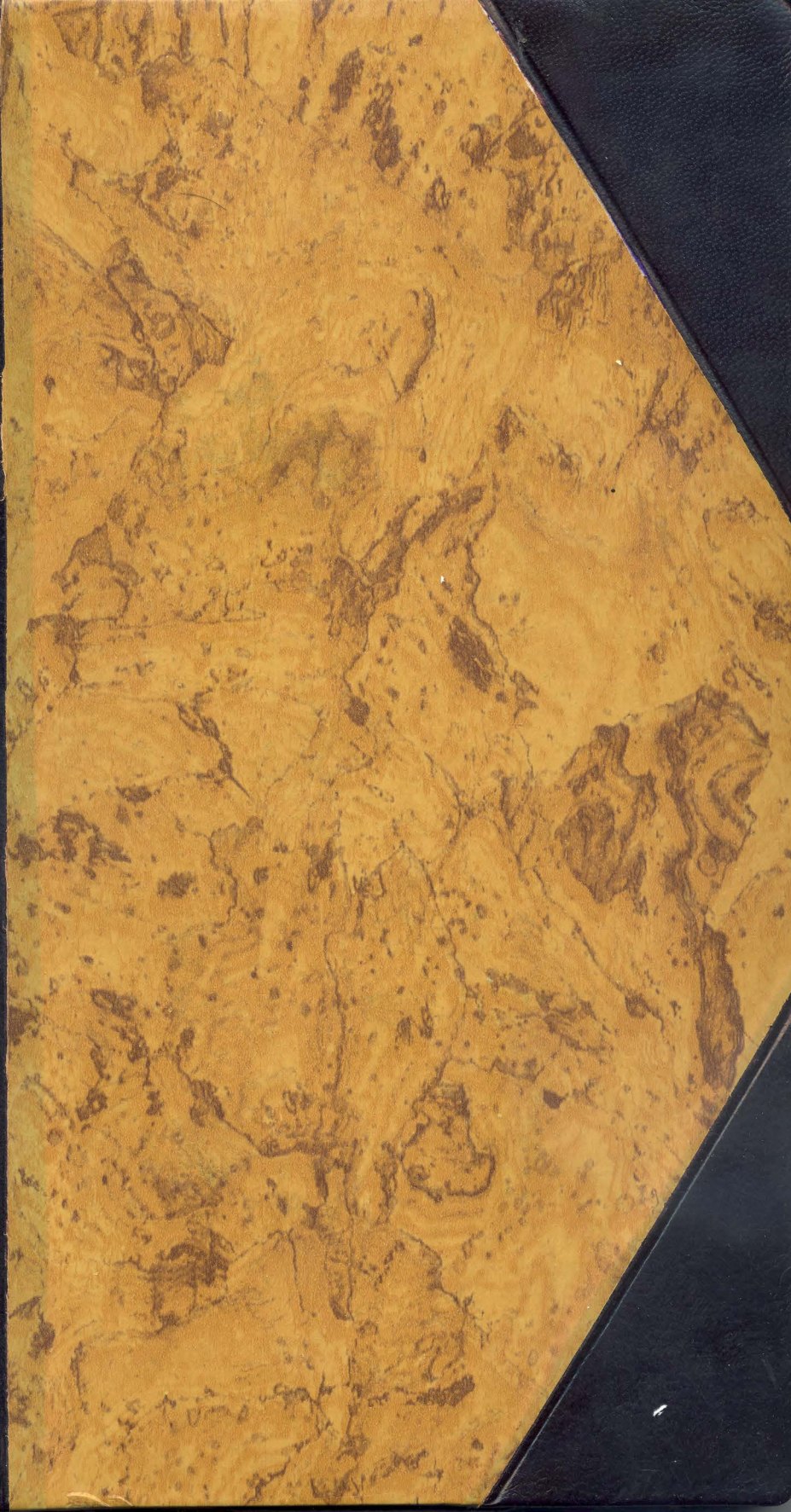
٥٠٠٢-١٩٨٠٥١٢١٤

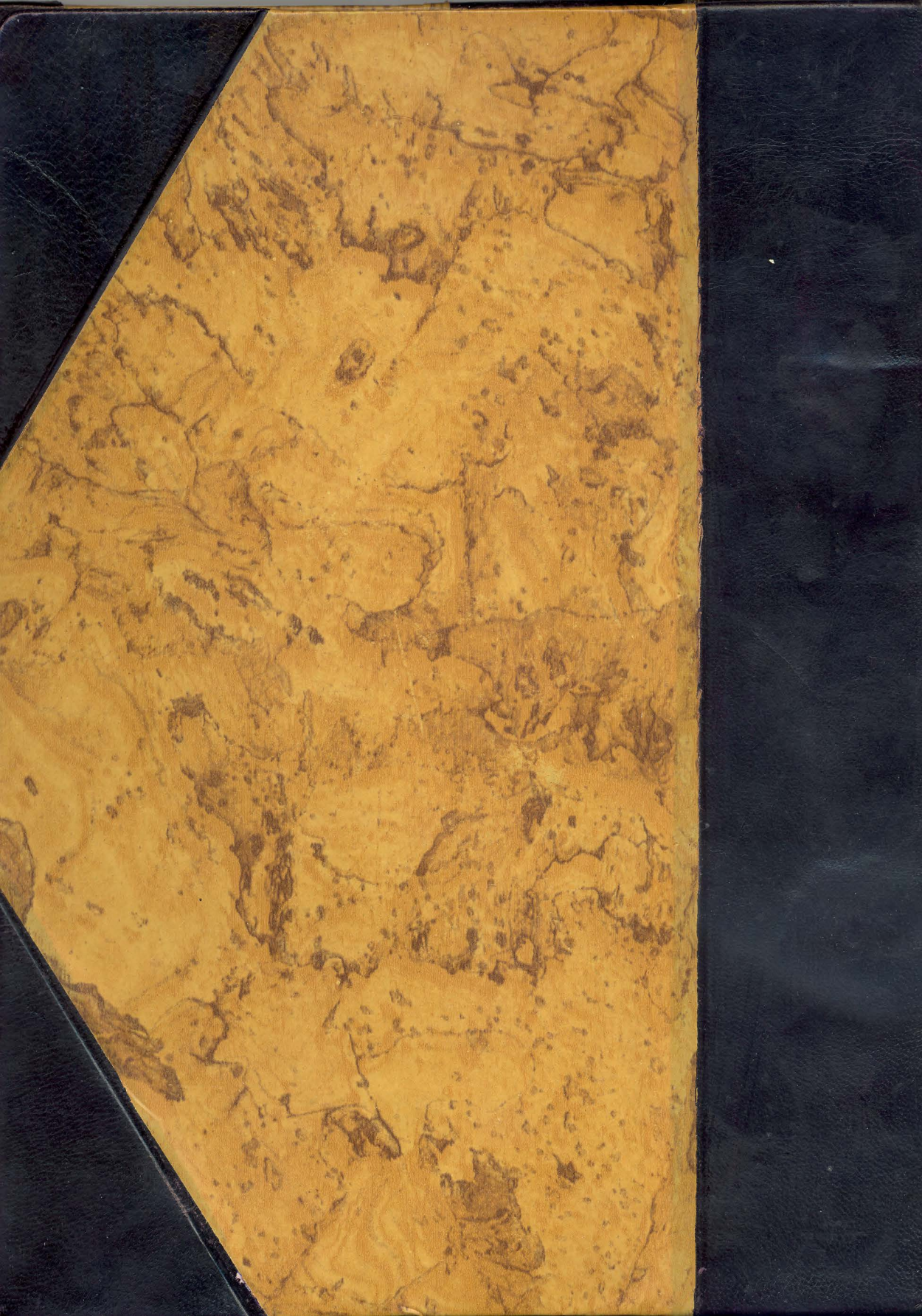


مقالات
و فتاوی



یوسف الدجوی







سید محمد طویل القوی

مفاهیم اسلامیة

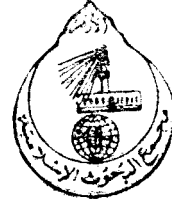
مقالات وفتاویٰ

السید یوسف القوی

عضو جماعة كبار العلماء

المجلد الثاني

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية



مفاهيم اسلامية

مقالات وفتاوى

الشيخ يوسف القرضاوي

عضو جماعة كبار العلماء

المجلد الثاني

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

الطبعة

التي تم طباعتها في المطبعات الإسلامية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م





الجزء الثالث

التفسير



وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۗ

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ
أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (١) .

معنى الآية من يتق الله فيما يأتي ويذر يجعل له مخرجاً ، أى مخلصاً
من هموم الدنيا وغمومها وشدائد الآخرة وأهوالها (ويرزقه من حيث
لا يحتسب) أى من وجه لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه (ومن
يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيته في جميع أموره (إن الله بالغ
أمره) ممضيه ومنفذه ، فلا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب . (قد
جعل الله لكل شىء قدرًا) أى تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً ، وهو بيان
لما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه : فإن الإنسان إذا علم أن
كل شىء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى لم يكن منه
إلا التسليم المقدر . والتوكل عليه عز وجل - هذا هو إجمال التفسير .

ثم نقول بتوسع : كل من يتق الله يكون بمنجاة من كل شر ،
فإن الله مع المتقين ، ومن كان الله معه فلا خوف عليه في الدنيا ولا في

(١) مجلة الأزهر - العدد العاشر - المجلد الأول - شوال ١٣٤٩

(٢) سورة الطلاق : الآية ٢ - ٣

الآخرة ، فقد أصبح من الذين تولاهم الله تعالى بفضله وهو يتولى الصالحين ، بن من أولياء الله الذين قال الله فيهم : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(١) . ثم بينهم بقوله : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(٢) .

ثم ذكر أنهم مكفولون بعنايته مشمولون برعايته في الدارين ، فقال : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(٣) ثم أكد ذلك بقوله : (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٤) .

وستقول الملائكة لأولئك المتقين : (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)^(٥) : (نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)^(٦) .

ومن كان في ولاية الملائكة في الدنيا والآخرة كيف يلحقه شر أو يعتريه كرب .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسير هذه الآية . « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » . أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم والديلمي ، وأخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، والبيهقي عن أبي ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة يونس ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٦٣ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٦٤ .

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٠ .

(٥) سورة فصلت ، الآية ٢١ .

يتلو هذه الآية : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

فجعل يرددها حتى نسيت ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكَفَّتْهُمْ » .

والتقوى هي : الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وإذا تدبرت أحوال الناس وجدت كل شدة ومحنة وهم وغم ، إنما جاءهم من تخطى الحدود التي أمرهم الله ألا يتعدوها ، والانحراف عن صراط الله المستقيم الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم : اتباعاً للهوى وانقيادا للشهوات ، وقد قال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(١) وقال : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)^(٢) .

وأمرنا أن نطلب منه في كل صلاة بل في كل ركعة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط من أنعم عليهم ، وعرفنا أن المنحرف عن ذلك الصراط معضوب عليه إن كان يعرفه ، وهو من الضالين إن كان لا يعرفه .

وجدير بمن ينحرف عن الصراط المستقيم أن يلتقى كل خيال ووبال في الدنيا والآخرة ، فليس هناك إلا سبيل الله وسبيل الشيطان (وَمَنْ يَتَّخِذِ

(١) سورة ص ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الانعام ، الآية ١٥٣ .



الشَّيْطَانِ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مَبِينًا. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١).

وما أرسلت الأنبياء إلا لتخلصنا من حبائل الشيطان وشباك النفوس
الأمارة بالسوء لتي توقعنا في كل شر وتبعدنا عن كل خير .

ولو بحثت عن مصائب العالم كلها لوجدتها مسببة عن تورط
الأفراد ، أو الجماعات فيما تصبو إليه النفوس من الشهوات ويزينه
الشيطان من الآفات ، وقد بين الله ذلك حيث يقول : (وَمَا أَصَابَكُمْ
مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) (٢) ويقول : (أَوْلَمَّا
أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ) (٣) . ويقول : (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) (٤)

وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : لا ينزل بلاء إلا بذنب ،
ولا يرتفع إلا بتوبة ، وقال بعض السلف وأظنه سفيان الثوري : انى
إذا عصيت الله وجدت أثر ذلك فى خلق حمارى وزوجتى . ولعل هذه
معاملة خاصة يؤدب الله بها بعض من يحبهم من عباده حتى لا يخافوا
غيره ولا يعولوا على شىء سواه .

ثم نرجع إلى حديثنا فنقول : لا عاصم من نزوات النفوس التى
لا تعرف الاعتدال ، وإنما تعرف الإفراط أو التفريط ، ولا حافظ من

(١) سورة النساء ، الآية ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٥ .

نزغات الشيطان الذى يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير إلا تقوى الله فى السر والعلانية فإذا اتقيت الله تعالى حفظك من مسايرة الأهواء ومتابعة الشهوات .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « احفظ الله يحفظك » ، وإن نابتك نائبة ، وأملت بك ملمة - على ما هو سنة الله فى هذا العالم - جعل لك فرجاً ومخرجاً . والأمر كله بيده ، ومتى تعرفت له فى الرخاء عرفك فى الشدة .

وقد قال بعض العارفين : إذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فاعرف قدره عندك ، فعلى قدره عندك يكون قدرك عنده ، وعلى قدر ذكرك له يكون ذكرك لك (فَأَذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ)^(١) ، وعلى قدر عنايتك بطاعته تكون عنايته برحمتك .

هذا ومما وعد الله به المتقين جزاءً على تقواهم أيضاً أنه يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، أى من حيث لا يدبرون ولا يعرفون ، وهو القادر الذى يصرف الأمور على ما يريد ، ويسخر الجن والإنس والملائكة فيما يشاء . فيكونون أعواناً أو مسخرين فى خدمتك ، ولا بدع فى ذلك . فالأرض أرضه والسماء سماؤه والملك ملكه : (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٢) .

وقد قيل لبعض الصالحين المنقطعين إلى الله تعالى : إننا لا نراك تشتغل بشئٍ فمن أين ترزق ؟ أمن السماء يأتيك رزقك ؟ فقال : إن

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .

(٢) سورة يس ، الآية ٨٣ .



كانت الأرض ليست له رزقني من السماء ، ومن ذلك ما يحكى أن رجلا من أهل هذا المنام كان منقطعاً لله في مسجد من المساجد ولا يعرف له سبب ظاهر ، فقال له إمام المسجد يوماً : من أين تأكل ؟ فقال له : أنتظر حتى أعيد ما صليت وراءك .

بيان أن الشريعة جاءت بتعاطي الأسباب الدنيوية

وليس معنى ذلك كله أننا لا نتعاطى الأسباب الدنيوية ، فإن ذلك يخالف القرآن نفسه في مثل قوله : (فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)^(١) ، وقوله : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)^(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وينافى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم في سنته العملية ، وما ورد عنه من سنته القولية في مثل قوله صلى الله عليه وسلم ، (إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) .

ومن رمى الشريعة بأنها شريعة التواكل والتكاسل فقد جنى على الشريعة جناية كبرى ، فإن دين الإسلام دين العمل لا دين الكسل . ودين الرقي والتقدم في كل شأن من شؤون الحياتين الجسمية والروحية . لا دين الجمود والتأخر ، ويكفيه أنه حرم على ذويه أن يكونوا عالة على غيرهم في أصغر الأشياء وأحقرها ، وأوجب عليهم أن يكونوا بالذروة العليا من العزة القعساء والاستقلال التام ، حتى يكونوا أربيع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

(١) سورة الملك : الآية ١٥ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١) ، (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (٢) . (وَ اللَّهِ
الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (٣) .

ولو كان الإسلام على ما ظنوا لما ارتقى أهله في الصدر الأول على
جميع سكان المعمورة ، ولما وضع رجلاً بالهند ورجلاً بمراكش أو نقول
بالأندلس ، وتغلغل في أحشاء أوربة حتى وصل إلى « بردوا » من أرض
فرنسة في أقل من قرن مما عجب له العالم ودهش له التاريخ .

ولعلنا نفيض القول في ذلك بعد . ولكن إذا سرت معي على
الإنصاف ، وكانت وجهتك تحقيق الحق ، ولم تكن محبوساً في سجن
العادات ، ولا مقيداً بقيود الظواهر ، وكنت ممن يعلم أن العلم لا آخر
له ، وأن قوانين الله في هذا العالم ليست محصورة فيما تعقل ولا مقصورة
على ما تتخيل ، إذا وافقتني على ذلك وغلب عليك الإيمان والإيقان ،
أمكنني أن أقول لك إن شؤون الله كبيرة وقوانينه كثيرة ، وعلمه
لا يحيط به محيط ، وقدرته لا تصل إليها الأوهام ، سبحانه لا نحصى
ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

فلتعلم أن لله قوانين جسمانية وقوانين روحانية ، وأن القوانين
الجسمانية التي بنيت على الأسباب الظاهرة والمسببات المعتادة ، هي التي
خوطف بها السموات الأعظم ؛ لأنه لا يكاد يعرف غيرها ولا يستطيع أن



(١) سورة النساء ، الآية ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

يتموم بشيء سواها ، لكونه يحتاج إلى استعداد خاص أو عمل شاق أو شرط مجهول .

وعالمنا هذا هو عالم الأسباب والمسببات ، وهو مظهر الحكمة الإلهية والقدرة الربانية بعد ذلك شئون أخرى وتصرفات لا تحصرها تلك الحدود المعروفة ولا تحكّم عليها تلك النواميس المقررة « أو نقول التي وصلنا إليها ، والشريعة جاءت بكلا الأمرين وأشارت إلى كل من القانونيين لجهاني والروحي . فجاءت بالأسباب الظاهرة وحثت عليها بل أوجبتها في قانونها العام الذي لا يعلو على استعداد أكثر الناس ، وحظرت عليهم ترك تلك الأسباب لأنهم من أهلها ولا يصلحون إلا لها ، ولكن حاطتهم بما يدفع سمومها ويحفظ من الشرك فيها . فقالت لهم : كونوا في الأسباب ولا تغفلوا عن مسببها واعلموا أن زمامها بيده . فإن شاء أنجحها . وإن شاء لم ينجحها . وإن شاء أرشدك . وإن شاء أضالك ، وإن شاء سهل لك من الأسباب الخفية ما يقرب إليك الغاية ، وهياً لك من الوسائل التي لا تقدر عليها ما يحتمق لك البغية . فليكن شعارك الاستعانة بالله والاتجاء إلى الله ، وهجيراك في كل حال « لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله » .

عرفنا الدين ذلك كله كى نكون متوكلين في الأسباب فتكون قلوبنا معه لا مع الأسباب .

وأما من ظن أن التوكل ينافي التسبب فقد غلط غلطاً كبيراً . فإن الله يقول : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ^(١) فجعل التوكل بعد العزم

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

ويقول عليه السلام : « أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » فنحن مأورون بالتوكل في كل أحوالنا وجميع أعمالنا .

والتوكل عمل الباطن والتسبب عمل الظاهر ، ولا منافاة بين عمل الباطن وعمل الظاهر . والتوكل لازم من لوازم الإيمان ، كما قال تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . فكيف يفارقه في حال من الأحوال .

ولنعد إلى صدر الموضوع فنقول :

هذا الفريق جعله الدين في الأسباب الظاهرة ، وأمره بها بعد أن أدخله في حصن التوحيد وسلحه بسلاح المعرفة .

بيان ان الشريعة جاءت بالقوانين الروحية

ولكن من نظر في الشريعة وجدها لم تقتصر على ذلك بل جاءت بقانون آخر من قوانين الله تعالى ، وأشارت إلى ذويه فقالت : يقول الله تعالى في الحديث القدسي : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي » ويقول تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ^(١)) . ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » ولاداعي للعدول عما يتبادر منه .

ويلحق بهذا قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^(٢) . وقوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا

(١) سورة الطلاق الآيات ٢ ، ٣

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٩٦



مَنْ فَوْقَهُمْ وَبِنِ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» (١)

ومما يتحقق به أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ» ويمت إلى ذلك بشيء من المناسبة قوله تعالى في الحديث القدسي «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» .

ومن كان الله سمعه وبصره لم يكن رجلاً عادياً ولا الأمور بالنسبة إليه على نحو ما يعرفه الناس . ومن لهذا الوادي على قرب أو بعد قوله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُجَدِّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَعَمْرُؤٌ» وقد ورد أبيض هذا اللفظ .

والخلاصة في هذا المقام أن هناك قوماً انقطعوا إلى الله تعالى بظواهرهم وباطنهم ، فلم يبق فيهم متسع لغيره ، فهؤلاء لهم من الله تعالى عناية خاصة ومعاملة لا يقاس عليها ، فأمرهم غير جار على تلك القوانين العامة ، بل لهم قانون يختص بهم ولا يتعداهم إلى من ليس في درجتهم من اليقين ولا منزلتهم من الثقة بالله . .

هؤلاء تنخرق لهم العادات فيأتيهم رزقهم عفواً من غير أن يشتغلوا بالأسباب المعروفة ، أو يكادحوا كدح العامة ، بل يتولى الله ذلك عنهم فيرزقهم من حيث لا يحتسبون .

وقد قلنا إن الأمور كلها بيد الله يصرفها كيف شاء ، والخلق كلهم عبيده يستخروهم فيما يشاء ، والسموات والأرض تحت حكمه يفعل فيهما ما يريد .

ولله في خلقه قوانين لا يعرفها كثير من الناس ، فمن ظن أنه لا يرزق إلا بالأسباب كما هو حال العامة لم يرزق إلا بالأسباب ، وهؤلاء هم الذين أمروا بأن ينتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، وأن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه .

ومن سقطت الأسباب من نظره وغلب عليه الركون إلى الله والثقة بالله ، كان من الفريق الثاني الذي يرزقه الله من حيث لا يحتسب لأنه بلغ من اليقين ما تنفعل به الأشياء .

ولنقل بتوسع - وما أجدر هذا المقام بالتوسع - إن لله قوانين كثيرة والناس يجهلونها تمام الجهل :
أما المسلمون فقد جهلوا اليوم قوانين الله الدينية والدينية والروحانية والجهانية .

وأما الأوربيون فقد جهلوا قوانينه الروحية والدينية وان كانوا أعلم الخلق بقوانينه الدنيوية ، لأن القوانين الروحية لا تؤخذ إلا عن الأنبياء والمرسلين في مثل قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)^(١) وقوله : (أَدْعُونِي أَجْتَجِبْ لَكُمْ)^(٢) .

ولعل قارئاً يقول : نرى كثيراً من الناس يدعون فلا يستجاب لهم ، ونرى من المشاهدات أن الذي لا يأخذ في الأسباب

(١) سورة الطلاق : الآية ٣

(٢) سورة غافر ، الآية ٦٠

ولا يتعاطاها لا يصل إلى المسببات ، فهل فيما يقول النبي صلى الله عليه وسلم خلف؟ وهل فيم يقول الله تعالى ريب ؟ ! كلا ، أمر الله لا ينخرم ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم لا يتخلف ، ولكن هذه الأسباب الروحانية غير المعروفة مشروطة بشرط لم نحققها تمام التحقيق ولو حققناها شروطها لترتبت عليها غاياتها .

فضعيف اليقين لا يمكن أن يرزق إلا بالأسباب . ولا يصل إلى شئ إلا بوسائله المعروفة ، وربما عمل أسبابا كثيرة فشتتها الله له فغشلت ولم تنجح ، فالأوربي مثلاً ومن على شاكلته إذا قال : إن الذى لا يعمل كذا لا يحصل له كذا ، ويعد حديث التوكل والتقوى من الخرافات معذور فيما يقول . لأن الأسباب الروحانية كما قررنا مشروطة بشروط وهم لا يعرفونها ، وزادهم رسوخاً فيما يعتقدون أنهم نظروا في أهل الأسباب فوجدوهم متفاوتين على حسب تفاوتهم في إتقانها والتفهن فيها ، فكل من كان أعظم إتقاناً للأسباب وأشد تعلقاً بها كان أقرب إلى تحصيل نتائجها . وكل من كان أعظم تفريطاً في الأسباب كان بعيداً عن تحصيل الغايات منها « هو الإمداد على قدر الاستعداد » فأولئك هم أرباب الأسباب حقيقة ولو تركوها ناتوا « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا » .

ثم نظروا من جهة أخرى فوجدوا أهل البطالة من هذا الفريق الذى يجب عليه تعاطى الأسباب ولا عيش له إلا بها ، نظروا إليهم فوجدوهم من أسوأ الناس حالاً وأنكداهم عيشاً ، ولم يعلموا أن هناك

قوما آخرين ليسوا من هؤلاء ولكن لهم شرط. صعب المركب ، وهو أنه لا بد أن يبلغوا من اليقين كما قلنا إلى درجة يسقط معها في نظرهم كل منى إلا الله تعالى ، فهؤلاء بمقتضى ذلك اليقين التام يجوز أن تنحرق لهم الأسباب فيسخر الله لهم الخلائق ويسهل لهم الأمور من حيث لا يحتسبون ولا يدبرون ، فإن الأسباب لاتحكم على الله تعالى ، بل هو الحاكم عليها وإنما هي ناموس من نواميسه عز وجل ومظهر من مظاهر قدرته وإبداعه الحكيم وتصرفه الواسع ، فالله تعالى يفعل في الأسباب والنتائج ما يشاء .

فالمسألة بالنسبة للخاصة هي أنه يجوز أن يخرق لهم العادات . وبالنسبة له تعالى هي أنه يفعل ما يشاء ، وقد قيل لبعضهم إن بعض الأولياء مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء وسر هذا هي مسألة اليقين الصحيح وقوته . وكان بعض الصالحين يقول كانت تختلف أحوالى فجئت مرة إلى الماء فخذتني نفسى أن أسير عليه فقلت فى نفسى أيمكننى أن أسير على الماء أم لا ؟ فوضعت رجلى فكادت أغرق ، والسبب فى ذلك واضح لأن الشك داخل نفسه ، ومتى داخله الشك زال اليقين .

وأن القارئ الكريم ليعرف من معجزات الأنبياء ما هو أكثر من هذا وأعظم . وهذه القوانين لا يصدقها المادى ولا يقول بها ، ويعجب كيف ينبى على هذه الاعتادات الغايات العجيبة ولا يمكن أن يفهمها ، لأنها كما قلنا لا تتلقى إلا عن الأنبياء ، وهؤلاء الخاصة أرباب هذا المقام لهم حكم خاص لا يخاطب به العامة لأنهم لا يعرفونه أو لا يقدرون عليه وإن كان ثابتاً فى نفس الأمر تابعاً لناموس آخر مجهول لدى السموات الأعظم ، ولا داعى لأن نتوسع أكثر من هذا .

تكميل يقتضية المقام

ذكر كثير من المفسرين في سبب نزول الآية ، أن عوف بن مالك أمر المشركون ابناً له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتمال : أسر ابني ، وشكا إليه الفاقة ، فقال له : « اتق الله ، واصبر ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله » . فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإياك أن نستكثر من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فقالت : نعم ما أمرنا به ، فجعلوا يقولان ذلك ، فبينا هو في بيته . إذ قرع ابنه الباب ومعه سرح من الغنم غفل عنه العدو فاستاقه ، فنزلت هذه الآية .

هذا : ولهم عبارات في تفسير التقوى ، فقال بعضهم : هي ألا يراك حيمت نباك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، وقال آخر : هي التبري من الحول والقوة . وقال غيره : هي التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق ، حتى قال قائلهم :

ولو خطرت لي في سواك إرادته
على خاطري سهوا حكمت بردتي

وهذه المرتبة أر ما يقرب منها هي التي قال فيها القائل :

خل الذنوب كبيرها وصغيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذاراً مما به بأس » أخرجه الترمذى ، ولعل

هذه المرتبة هي التي تراد من الآية وإلا فالتقوى من الوقاية . وهي مراتب باعتبار ما يتقى من المضار ، فهي متفاوتة تفاوت الأضرار التي تتميها ، ولذلك تراهم في بعض المقامات يقسمونها إلى درجات ثلاث : التوقى عن الشرك وهي لعامة المؤمنين ، والتوقى عن الكبائر « ومنها الإصرار على الصغائر » وهو لصالحاء المؤمنين ، والدرجة الثالثة وهي المرتبة العليا وهي ما سبق الكلام فيها ، وقد أشار إليها حديث الترمذى الذى ذكرناه ، ولعل هذه المرتبة هي التي ينبغى أن تفسر بها الآية الشريفة كما قلنا ، ولنقف هنا فقد طال بنا الكلام .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ فِي الدِّينِ ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَاللِّتِجَاءَ إِلَيْهِ مِنْهُ وَكِرْمَهُ .



لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ^(١)

قال الله تعالى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

مقدمة :

قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل ، ودلتنا أسراره التي أودعها في مخلوقاته على علمه الذي لا يتناهى وحكمته التي لا تحيط بها العقول ، ويمكنك أن تتعرف ذلك من نفسك بما أودع فيك من ريتين للتنفس وأسنان للطحن ، ومعدة للهضم . وكبد لإفراز الصفراء ، وكليتين لإفراز البول ، ومسام جلدية لإفراز العرق ، ومخ للإدراك ، وما نظمه فيك من شرايين وأوردة وعصب وعضل وعضم وكرات بيضاء وكرات حمراء . ومن أعين تبصر بها وآذان تسمع بها . إلى آخر الحواس الخمس ، إلى غير ذلك مما لا يأتي عليه العد ولا يفي به البيان .

وكل ذلك لغايات جليلة أدهشت العلماء وحيرت الباحثين . ثم انظر بعد ذلك ما أودعه في العالم من نبات وحيوان وهوائٍ وماءٍ وأرضٍ وسماٍ وما في ذلك من أسرار باهرة وحكم عالية ، كل ذلك يدلنا دلالة قطعية على أنه العليم الحكيم ، القادر . العظيم فضلا عما يمليه علينا الإيمان بما جاءت به الرسل الإلهية

(١) مجلة الأزهر - الجزء السادس - المجلد الثاني - جمادى الآخرة ١٣٥٠

والآية من سورة الأنبياء ، ٢٣

والآتية السماوية ، من أسماؤه الحسنی وصفاته العليا ، فإذا رأيت مثلاً - عالماً مجروماً ، وجاهلاً مرزوقاً . أو فاجراً معافى يمرح كما يشاء وصالحاً قد أحاطت به أنواع البلاء إلى آخره ولم ينفذ نظرك المقصور على الظواهر إلى إدراك سر ذلك ، ولم تعرف الحكمة فيه أوجب عليك الدليل القاطع أن تثبت العجز عن معرفة الحكمة إلى نفسك لا أن تشك في حكمة الحكيم عز وجل .

وإني ألفت نظرك إلى أن طلب لمة الأفعال والبحث عن علمها موجب للشرك والكفر ؛ لأن العقول البشرية قاصرة عن إدراك حكمة الله في مخلوقاته .

[وما كفر المانوية والثانوية إلا بخوضهم في مثل ذلك] فلما حكموا عقولهم الضعيفة وآراءهم الفاسدة قالوا : إن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ؛ لأن إله الخير لا يكون مصدراً للشر ، وإله الشر لا يكون محلاً للخير ، وقد غفلوا عن أن الحكمة الإلهية لا يحيط بها محيط وأن الشر قد يستتبع الخير ، وقد يكون وجود الشر الجزئي واجباً في نظر الحكمة وأن المراعى في ذلك هو النظام العام لا خصوص الأشخاص وأعيان الجزئيات ، ولم يفتنوا إلى كمنون الشر في الخير ولا إلى أن الشر قد يكون شراً في نظرهم لا في الواقع (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١) .

هذا واعلم أن، تفسير العلماء خصوصاً الأشاعرة في هذه الآية يرجع إلى أن المالك يتصرف في ملكه كيف يشاء ، ولا بد أن يدور بنفسك عندما تسمع ذلك-حديث طويل وإن كنت لا تجرؤ على إظهاره فتسكت أمامهم مقتنعاً بما حدثوك به فيما يظهر منك ، وأما باطنك فيكون فيه من المحاورات والمنازعات ما لا تظمن معه نفسك ولا يسكن له جأشك ، وقد قال لي بعض العصريين: هذا يمكن أن يكون جواباً عن الملوك المستبدين وما يفعلونه مع رعاياهم ، فأرشدته إلى ما اقتنع به واستحسنه جنداً ، وإنه لحسن فيما أراه . والفضل لله .

وإني أعم أنك تارة يشرق قلبك بما يفاض عليه من نور سماء روحك فتعجب به كل الإعجاب ، وتارة تنزل إلى أرض طبيعتك الكثيفة التي يمكن دوائرها أن تمسك تلك المعاني السيالة ولا يتاق أن تنتعش تلك العلوم اللطيفة في تلك الأرض الكثيفة ، ولا أن يزن ميزان أحجارها تلك الأسرار لمزيد رقتها ، وعند ذلك يلزمك أن لا نذهب إلى تلك الأرض إلا وبيدك معول البراهين الكثيفة حتى تستطيع أن تؤثر في أحجارها أيديك الله .

ذكر احتمالات قريبة في الآية :

أقدم لك ههنا في بيان المراد من الآية ما يقرب تناوله ويطيب جناه ثم نتبعه بشرح ذلك السر الذي نوهنا عنه إن شاء الله .

يمكنك أن تقول : إن المراد تقرير كونه تعالى حكماً بالغ الحكمة

فلا يسأل عما يفعل ، ثقة بحمته بحيث لا يصح أن يرتاب
فيما يفعل ولا يتهم فيما يحكم ، فإن قولك لم فعلت يشعر بتهمة وريبة ،
فيريد الحق تعالى أن يكون عبده ممتليء القلب بالعلم بحكمته ، فائض
النفوس باعتقاد رحمته ، فيكون غارقاً في التسليم له والتفويض إليه ،
فلا تتحرك نفسه مع تلك العقيدة بسؤال ولا يلم بها أدنى خيال :
يا حاكمى وحكىمى أفعالك الكلال حكمة

وكان كثيراً ما يقول بعض العارفين : (إذا كنت لا تعرف
الحكمة فقلد من يعرف الحكمة) .

وكم رمت أمراً خرت لى فى انصرافه فلازلت بى منى أبر وأرحما

أو تقول : إن المراد تقرير العظمة ، وأن الآلهية بحيث يجب
لنعوتها العليا أن لا يجرو على سؤالها أحد لا من حيث أنها تعمل عمل
المستبدين من السفهاء وأرباب الأهواء ، بل من حيث إنه يجب
لعظمتها التلاشى والاضمحلال والقيام بأجل آداب العبودية :

أما تراك - أيدك الله - تستقبح من عبدك بل خادمك أن يسألك
عن وجه ما فعلت وسر ما قضيت ، وتعتبر ذلك من سمات عدم الوثوق
بك أو الجراءة عليك أو الريبة فيك أو عدم الحياء منك ، وأن واجب
العبودية الانقياد والامتثال ، ثقة بحكمتك وبعد نظرك وقياماً
بما يجب لعظمتك وسيادتك ، وأنه أقل من أن يفتش على ما تنويه
أو يراقب ما تقضيه ، بل يجب عليه بعد هذا الامتثال الظاهرى أن

يكون خاضع القلب مطمئن النفس هادىء السر ، علماً بما لك من صفات الكمال التي لا يبلغ نظره مداها ويحسر بصره دون غايتها ؟

وقد قيل في (عيينة بن حصن الفزارى) : إنه إذا فزع بسيفه فزع معه مائة ألف سيف لا يسألونه عما دعاه إلى ذلك . أفترى هذا إلا قياماً بواجب عظمته ، أو ثقة برأيه وبعد نظره ؟ ولا تزال العرب تمدح بمثل ذلك ، وقد قال الفرزدق في زين العابدين رضى الله عنه مادحاً له :
يغضى حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم
وقال بعض المدنيين في مالك رضى الله عنه :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والحاضرون نواكس الأذقان
إلى غير ذلك . فما بالك برب الأرباب ، ومالك الرقاب ، كيف يختليج في نفس عبده يخاطر وقد علم أنه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .
ورب العالمين يستحيل عليه العبث والخطأ ويتنزه عن كل نقص ويجب له كل كمال . قال بعض الأجلاء : (كيف يستغرب ذلك وفي القوانين الحربيسة أنه لا يباح للمأمور أن يتباطأ في امتثال الأمر ، وأنه لو قال له لم ؟ لكان جوابه إطلال دمه) وليس معنى ذلك أن القائد يفعل ما يشاء على ما يقتضيه العبث أو تشير به الأدواء بل لمعان أخرى ووجوه يجب أن تعتبر في الحكمة وواجبات المقام .

ويمعنا أن نقول بعبارة أخرى : إن هذا يراد به تعليمنا حسن الأدب مع الله تعالى حتى نقلده في كل شئ ، فنطمئن في كل ما يأمر ونذعن لكل ما يريد فنعمل الأعمال كلها بالإذعان والاطمئنان ، وإذا تربت فينا تلك الملكة فسارعنا إلى الامتثال ولم نتباطأ فيما

يأمرنا به من الأعمال ، سعدنا سعادة كبرى وكنا كالأطفال الذين وثقوا بأبيهم الحكيم وعلّموا أنه لا يريد بهم إلا الخير ، وقد عمل هو على تمكين ذلك من نفوسهم فأصبحوا «لا يبحثون وراءه عن شيء» ، عالمين حسن نيته وبعد حكمته ومزيد رحمته . فليس هناك شك يعوقهم عما يريد منهم . ولا بحث يؤخرهم عن استغراغ همهم وأوقاتهم فيما ينويه من سعادتهم ، ولو أنه أرجعهم إلى البحث عن أسرار الأمور وخفايا المقاصد ودخائل الأشياء لكان قد أعدهم لقلق النفوس وحرج الصدور والتباطؤ في بعض الأعمال تارة والامتناع عنها تارة أخرى ، فكان من مصلحتهم وموجبات سعادتهم أن يريهم على أن لا يراجعوه فيما يأمر ولا يسألوه عما يريد إلا إذا تبرع هو - وله النظر الأعلى - ببيان الحكمة . وإلا فهو أعلم منهم وأرحم بهم عالماً أن في هذا قضاء حقه وحقهم معا .

وليس يغيب عنك سبب الخذلان الأبدي لإبليس وأنه ليس إلا ما كان من اتهامه لحكمة الحَإِم وجراءته على ربه العظيم ورجوعه إلى استحسانه لإي إيمانه وإيقانه وتعويله على قياسه الفاسد ونظره الكاسد .

ويمكنك أن تقول : إن المراد بالسؤال المنفي سؤال التسلط والاستيلاء فلا يسألّه تعالى أحد بطريق الاستيلاء عليه ، بخلافهم فانهم يسألون عن كل ما يفعلون من قبله تعالى ، فإنه الحاكم عليهم والمتصرف فيهم تصرف السيد في عبده والمالك في ملكه ، فكأنه يقول : إن له العزة ، ولَم الذلة .

فهذه احتمالات قريبة في الآيه يمكنك أن تكوني بها وتطمئن إليها .

ولا بأس أن نلتمت نظرك بعد ذلك إلى أمر بديع : وهو أن من الحكمة أن تنظر في حال السائل الذى يطلب منك الجواب قبل أن تجيبه حتى إذا كان يناسبه الجواب ولا يعلو عن استعداده أقررتَه على السؤال وشفيت غلته بما يريد من الجواب ، وإذا كان لا يمكنه أن يفهمه وكان من علوم طبقة أخرى غير طبقتَه كان ذكره عبثا . وربما كان ضررا كبيرا عليه .

وقد عرفنا صلى الله عليه وسلم أنه « مَأْمِنٌ رَجُلٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِغَيْرِ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ عُمُومُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » وقد قال الإمام مالك رضى الله عنه فى حق من سأله عن قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) : « أخرجوا عنى هذا المبتدع فإنه شيطان . »

ولو سألك ابنك الصغير عن مسألة عالية فى العلم تتعلق بفروع كثيرة ولو ذكرتها له أضر ذلك بعقله أو عقيدته وكان كالمريض الذى يأكل الأطعمة الدسمة التى لا يستطيع هضمها ، فليس من الحكمة أن تذكر له جواب تلك المسألة ، بل من الحكمة أن لا تدعه يقرع باب السؤال فى مثل ما سأل فيه .

ومن المعامير أن فعل كل أحد يصدر منه على قدر علمه حتى أننا نستدل بإتقان الصنعة وحسن تنميقها على مزيد علم الصانع .
فإذا فعله تعالى على قدر علمه ، وعلمه على قدر ذاته ، وذاته ^{لل} تحييط بها العقول ، فكذلك علمه ، فكذلك فعله .

فنحن فى حجاب عن الكل ، ونزידك ههنا أن الوجود كله سلسلة واحدة تتجاذب أجزاؤها وترتبط بحكمها وأسرارها على وجه لا يحيط.

به إلا الله الذى لا تتناهى كمالاته ولا تنحصر معلوماته ولا تفهم أسرارَه فى مخلوقاته ، لأنها مترابطة وغير متناهية ، فلم يمكن إدراكها على التحقيق إلا له تعالى ، والفعل الإلهى الذى أتقن بالعلم الإلهى كيف يمكن أن يصل إليه علم البشر القاصر الضعيف .

وإذا رأيت صنعة متقنة فلا يمكن أن تعرف كل ما فيها من الأسرار والدقائق حتى يصير علمك مثل علم صانعها ، وإلا فهناك ما لم تعلمه ، وعلمك إنما خلق على قدر أفعالك التى تراد منك لا على قدر أفعاله تعالى ، فإن ذلك يعلو عن استعدادك ولا يناسب درجة علمك ، ولكون أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض وهى غير متناهية كانت العلوم لا تقف عند حد أصلا ولا تزال تخرج من شئ ويزداد الأول بالثانى وضوحا لما بينهما من المناسبة ، والثانى بالثالث انكشافا ، وهكذا حتى يلوح للناظر فى بعض الأوقات ذلك السر البديع وهو أن الأشياء مدبرة معاً وأنها ترجع إلى قانون واحد سار فى كل المخلوقات .

يلوح له ذلك البرق فيجده قد قذف به فى بحر لا ساحل له وعلوم لانهاية لها ، يثابلك موجها وتتوالى بروقها ثم تشرق عليه كراكبها فيعشى بصره وسط تلك الأضواء ويدهش لبه من مظاهر تلك الحضرة القعساء ، فبينما هو مبهور فى ذلك الملكوت إذ سمع صوتا كأنه سلسلة على صفوان وإذا بمناد ينادى من وراء حجب الجبروت :
(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا^(١) فلما تجلّت له تلك العظمة
صار جبل عنقه دكاً وخر كل شيء فيه صعقاً، فإذا أفاق من غشيته
وتنبه من دهشته (قال مُبْحَانُكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٢).
ثم أنشد :

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم في دوران الفلك
فلا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

فعلم إذ ذاك أنه وصل إلى سدرة المنتهى وأنه أو تقدم أئمة لفرق
في بحار الأعوار واحترق بسبحات الواحد القهار فقال انفسه : « ليس
وراء عبادان قرية » فههنا ينتهى علم الملائكة المقربين وأرواح الصالحين
من المؤمنين فرجع أدراجه يطوى السماء طياً ، وقد عزم أن يُنْتَبِذَ
من أهل بيئته مكاناً شرقياً ، وعلم أنهم إنما ينظرون إلى الحلقة
الأخيرة من سلسلة الوجود ، وإن تخطوها فيلبي حد محدود ، يقف
بصرهم الكليل وعقلهم الضئيل فينقطعون أثناء الطريق لا محالة
« وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

ثم لا يزال ذلك الروحاني الكريم ينزل من ماء إلى سماء ويشاهد
من عوالم الملك والملكوت ما يعرف وما لا يعرف حتى إذا صار بين الروح
والجسد يريد أن يقرع باب الفؤاد من ذلك العالم إذ لاحت منه
التفتاة وهو في ذلك المقام إلى ما بين سماء المعاني وأرض المحسوسات
فوجد تلك الآية مكتوبة وسط الهواء بحروف من نور تمتد صاعدة

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ (٢) سورة الاعراف ، الآية ١٤٣

إِنِّي السَّمَاءَ وَنَازَاةً إِلَى قَرَارِ الْمَاءِ : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)^(١) فَادَّهَشَهُ مَا رَأَاهُ وَعَرَفَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ .

ثم وجد نفسه تشتاق إلى عالم الكثافة عندما كاد يقضى عليها جمال عالم اللطافة ، فاشتد في قرع باب الفؤاد ودخل في سجن عالم الأجساد وقد اضمحل وتلاشى ، ثم رجع إلى حده من العلم ومركزه من النهم فوقف عند الظواهر وما تعداها ، بل اقتنع بما وصل إليه من رشاش ذلك البحر وقد نقش على صفحات قلبه ذلك الخطاب الإلهي : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(٢) .

الخلاصة :

فالخلاصة أن الآية مسوقة لبيان عظمة الألوهية في سعة علمها وعدم تنهاى أمرارها ، وأن ذلك يعلو عن حد الإدراك ويرتفع عن متناول الطاقة البشرية ، فإن للإلهية شأنًا آخر لا تدركه العقول ولا تصل إليه الأفهام ، فإنها مقصورة على إدراك شؤون الحوادث التي تماثلها ولا تتعدانا إلى شؤون الربوبية ، فذلك يتوقف على تناسب في الصفات وتماثل في الحالات ، وإن نسبة علمك إلى علمه كنسبة قدرتك إلى قدرته ، ونسبة ذاتك إلى ذاته ، فله في كل شيء من باطن العلم سر ، والسر ما ليس لنبي مرسل ولا ملك مقرب مما يناسبه ويكون على قدره وهو الكبير المتعال .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢

فليس لك من العلم بالأشياء إلا درجة تناسبك وتقف بك عند
ظاهرها ، وفوق درجتك درجة من فوقك من الخواص ، إلى أن تصل
إلى درجة في العلم مختصة به تعاكس تناسب الإلهية لا يشاركه فيها أحد
(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ^(١)) وهو من لوازم الإلهية التي تجب لها
الوحدانية في كل شيء .

وقد نهينا عن الخوض في سر القلب علماً منه صلى الله عليه وسلم
بأن النفوس لا تقف عند الظاهر بالنسبة إليه ، ولا تزال تتطلع للوقوف
على باطن الأمر فيه ، وهي لا تطيقه لأنه فوق رتبته ، فوقها عليه
بالسلام عند حدها وحظر عليها أن تسير في تلك الغياهب لئلا تضل
بضلالاً مبيناً .

وقد خلقت العقول على حد محدود كالحواس ، فكما لا يصح أن
تجهد بصرها كي يرى الهواء الذي يدق ويلطف عن رؤية الأبصار :
كذلك لا يصح أن تطمع في أن تكنته أسرار الأفعال الإلهية كما هي
لدى الحضرة العلية .

فسره فما يقتضيه وحكمته فيما يفعله على الوجه التام مما يختص
بالألوهية ، فلا بد أن تعرف قدرك ولا تتعدى طورك :

من أنت يارسطو ومن	أفلاط. قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ	ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفرا	ش رأى السراج وقد ترقد
فدنا فأحرق نفسه	ولو اهتدى رشداً لأبعار.

وقد قيل لإيَّاس - وهو الذى تضرب بذكائه الأمثال : « ما رأيك فى القدر » ؟ فقال : « رأيى رأى ابنتى » وإنك لتلمس من كلمته هذه كلمة الرجل الساذج الذى لا يزيد علمه على علم ابنته برهاناً ساطعاً على ذكائه حيث لم يتعد طوره ، ورحم الله امرئاً عرف قدره .

هنا مع العلم بأن الفعل فى حجاب عن العقول كالذات والصفة : فكما لا تعرف كنه ذاته لا يمكن أن تعرف كنه صفاته ولا كنه أفعاله وهى لوازم مرتبة ، ومع العلم بأن أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض على تدبير عجيب وأسلوب غريب وأنها لا تتناهى ، فإذا لا يمكنك أن تعرف ما هو الفعل ولا كيف يكون الفعل ؛ لأن ذلك من الخفاء فكان الصفات ورتبة الذات على ما حققناه ، ولا أن تعرف سر الفعل على التحقيق ؛ لما عرفت من أن درجتك لا تسمح لك بذلك ، وأن اكتناه لأشياء بما لا غاية وراءه من خصائص الألوهية ، ولما علمت أيضاً من أن أسرار الوجود متجاذبة وغير متناهية ، ولا قدرة لك على ما لا يتناهى هذا . ولك أن تجعل الآية واردة فى خصوص سر القضاء والقدر الذى سبق لك ذكره ، فهو لا يسأل عما يفعل لا لمزيد القهر والاستيلاء ولا لوجود العيب وعدم الحكمة ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عَلُوًّا كَبِيرًا ﴾ بل لرحمته بك كى تقف عند حدك حيث لم تكن مستعداً لفهم الجواب والوصول إلى ما تتوق إليه نفسك التى تريد أن تتجاوز درجتها وتتعدى غايتها .

هل السموات هي الكواكب؟

س : ورد إلى إدارة المجلة هذا السؤال من حضرة صاحب الإمضاء .
وعبارته بعد اللدباجة : وبعد فنرجو نشر ما يأتي مع جواب فضيلتكم
عليه في مجلة الأزهر الغراء ليكون النفع عاماً والفائدة شاملة : يقول
بعض الناس : إن السموات السبع هي الكواكب السبعة السيارة .
ونظن ذلك بعيداً لما يأتي :

معلوم أن هذه الكواكب بينها فروج ، والقرآن الكريم يقول :
(وما لها من فُروج)^(٢) . والقرآن الكريم يقول : (ولقد زيننا السماء
الدنيا بمصابيح)^(٣) أي : بالكواكب ، وما به الزينة غير ماله الزينة قطعاً ،
وإلا كانا شيئاً واحداً . وقال تعالى : (وجعل القمر فيهن نوراً وجعل
الشمس سراجاً)^(٤) . ومن المعلوم أن المجعول غير المجعول فيه .

نرجو من فضيلتكم تحقيق المقام بأوسع ما يمكن ، والإجابة على
ما تقدم بما يعارض ذلك الرأي ، ونسأل فضيلتكم : هل تعتقدون
ما يعتقده هؤلاء ؟

وما مقصودنا من ذلك كله إلا معرفة ما يجب أن ندين الله به معرفة
تامة لا تشوبها شائبة ، وفقكم الله وحفظكم .

عبد السلام احمد

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثامن - المجلد الثاني - رجب ١٣٥٠ .

(٢) سورة ق ، الآية ٦ (٣) سورة الملك ، الآية .

(٤) سورة نوح ، الآية ١٦

الجواب

مقدمة :

ينبغي أن يعلم قبل كل شيء أن هؤلاء الناس كثيراً ما يسارعون إلى الأحكام الجازمة من غير دليل ولا برهان ، ولهذا تراهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ، حتى قال بعض علمائهم : إن هذه العلوم التي نتبجح بها الآن قد يظهر بطلانها بعد مائة سنة ، فيرموننا بالخرف كما رمينا من قبلنا بالتخريف .

وقد صرح رئيس وزراء إنجلترا سابقاً المسيو بلفور حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بجامعة كامبردج في أغسطس سنة ١٩٠٤ بما يفيد قصور علمهم وكثرة ما يرد عليه من الخطأ والاشتباه . فلا يحسن بالعاقل أن يغتر بكل ما يسمعه عنهم « وإن روجوا وبهرجوا وقعقوا وجمعجوا » فإن غالب كلامهم خصوصاً في العلويات غير مبرهن ، وللظنون والتخيلات فيه مجال كبير ، ومنهم من يأتى على نظرياته بحجج على سبيل الجدل فيظن أنها براهين لجهله بطريق البرهان ومقدماته .

ومما يزيد الأمر خطورة ويملاً القلوب أسفاً أن كثيراً من أبنائنا أصبحوا يقلدون الغربيين في كل ما ينقل عنهم من غير بحث ولا نظر ولا تحليل ولا تمحيص ، ويكثيهم برهاناً على صحته أنهم قالوا ، مع أنه عند قائله ربما كان في محل الظن والتخمين ، وربما كان فرضاً وجدوه أقرب من غيره من الفروض ، فتقالوا به حتى يتبين لهم خلافه فيرجعون عنه .

ولكن المفتونين بهم عندنا جعلوهم في محل التقديس فلا يباحثون فيما جاء عنهم كائناً ما كان ، وليس هذا شأن المنطق ولا الفلسفة ولا الدين ، فهي على رأى بعض علمائنا كلمات قالها قائل ، فنقلها ناقل ، فقمبها قبايل ، فاغتر بها جاهل لا قدرة له على النظر .

وبعد ، فالسموات جاءت بها الديانات كلها ، وعندنا من الأدلة على وجودها ما لا يحصى : فمن ذلك ما ذكره السائل ، ونزيد على ما ذكره قوه تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)^(١) فجعل الكواكب غير السماء ، ويقول : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)^(٢) ثم يقول بعد ذلك : (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)^(٣) . إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة . ومن يقرأ مثل قوله تعالى : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)^(٤) وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ)^(٥) وقوله سبحانه : (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)^(٦) وقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)^(٧) لم يشك في أن السموات غير الشمس والقمر والكواكب .

(١) سورة الانفطار ، الآيات ١ ، ٢

(٢) سورة التكوير ، الآيات ١ ، ٢

(٣) سورة التكوير ، الآية ١١

(٤) سورة فصلت ، الآية ١٢

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٣٢

(٦) سورة الصافات ، الآية ٦

(٧) سورة الأنبياء ، الآية ٣٣

وفي السنة من ذلك شيء كثير أيضاً لا داعي للإطالة به ، وليعلم قبل كل شيء أننا نثبت السماء كما أثبتها القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، ولكن لا نتعرض لبيان جواهرها وتحليل عناصرها وشرح ما يكتنفها ، فإن النصوص عندنا لم تتعرض لذلك .

وأما ما يذكره (بعض الإخباريين) من أن السماء الأولى من فضة والثانية من ذهب إلى آخره ، فهي أخبار إسرائيلية لا يعول عليها **وإلا رايثفت إليها** .

ولا غرو فالديانات لم تجيء لشرح الأكوان شرحاً طبيعياً ، ولم تتعرض لبيان ما فيها من الجواهر والأعراض والعناصر والظواهر ، وإنما تتعرض لها من حيث ما فيها من الدلائل على قدرة الله وعظمته ، وما تشتمل عليه من إتقان تدبيره وجميل صنعه وما ترشد إليه من آثار رحمته وعظيم نعمته ومزيد حكمته ، أما الأبحاث الطبيعية فقد تركتها للعقول ولم تمنع منها ، بل ندبت إليها وحثت عليها .

ثم لتعلم أن المقرر عندنا أنه إذا عارض العقل النقل ، أولنا النقل ، لأن الظن في العقل طعن في النقل كما هو مبين في محله « والتأويل عندنا أوسع من السموات » فلننظر بعد هذا فيما عند هؤلاء المتفهمين الذين ينفون السموات نفيّاً باتاً تقديساً لشيء سمعوه عن أوروبا ولم يترشوا قليلاً تقديساً للقرآن والسنة . ولو ثبت ذلك ببرهان صحيح لكننا أول المؤلفين لما جاء في الشريعة من ذلك .

ولغة العرب أوسع اللغات تصرفاً في باب المجاز والكناية وأكثرها ألفاظاً مشتركة . حتى أن اللفظ فيها قد يوضع لعشرات المعاني كما ذكره

في العين والخال ، ولكننا لا نطرق باب التأويل أو نلجأ إلى القول بالمجاز أو الكناية أو نبحث في معاجم اللغة عن وضع المشتركات إلا إذا اضطررنا لذلك .

وقد نظرنا فلم نجد عند القوم على نفي السموات دليلاً ولا شبه دليل ، فإنه ليس عندهم أكثر من أنهم لم يروها بأنظارهم ولا منظارهم أو ببقية آلائهم ، وليس في ذلك متمسك لمن يعرف المنطق الصحيح ، فإننا لا نعرف العناصر التي خلقت منها السموات ، وما يذكر في ذلك فهو كذب ، لا أصل له كما قلنا .

فيجوز أن تكون السموات شفافة ، بل هذا هو الذي يقرره الأقدمون فيقولون : إننا نرى كواكب الفلك الثامن « وهو فلك الثوابت » عندهم « فيصلنا ضوء تلك الكواكب لكون السموات شفافة ، فإذا يصح أن نقول : إنه يرى ما وراءها ولا ترى هي ، شأن كل شفاف مع غيره ، ويجوز أن تكون بعيدة عنا بعداً يمنع من رؤيتها ، مع ملاحظ أن السماء تطلق بإطلاقات كثيرة على معان عديدة : فتطلق على الأفلاك ، وتطلق على السحاب ، كما قال تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)^(١) على رأى كثير من المفسرين ، وتطلق على كل ما علاك كما هو معروف .

وقد قل كثير من العلماء : أن الكواكب ليست مغروزة في السماء ولا مماسة لها ، وإنما هي بين السماء والارض ، فتكون السماء من البعد

(١) سورة الزمر ، الآية ٢١

بمنزلة ما لا يروونه من النجوم ، وقد قال الإمام أبو بكر بن العربي
من أئمة المالكية : إن السماء التي هي إحدى الأفلاك غير مرئية لنا ،
« وهي مشتركة كما قلنا » وهؤلاء النافون لا يستطيعون أن يقولوا
أنهم رأوا كل ما في العالم العلوي ، بل هم معترفون بالقصور عن ذلك
تمام الاعتراف. (١)

وقد بين عظمة العالم السماوي اللانهائي اللورد أفيري الإنجليزى
أتم البيان في كتابه « محاسن الطبيعة » فانظره إن شئت ، ويجوز
أن يكون لديهم اشتباه كثير في ذلك العالم الذى لا يعلمه إلا الله ،
وكم اختلطت عليهم الأمور والتبست لديهم الحقائق واشتبهت عليهم
الأحكام في العالم الأرضى فضلا عن العالم السماوى ، وكم بين المتقدمين
والتأخرين من علماء الهيئة من خلاف ، وكم للمفريقين من خبط
ونخلط .

وبعد هذا كله فمن يستطيع أن يقول إن عدم رؤية الأشياء دليل
على عدمها في الواقع ؟ أما كانوا ينكرون المكروبات لعدم رؤيتهم إياها ،
فهل كان ذلك دليلا على عدمها في نفس الأمر .

والمؤمنون من الأمم كلها وأرباب الديانات جمعاء يشبتون العرش
ولم يروه استناداً لما جاءت به الأنبياء وقررت الشرائع التي تقول لنا :
إنكم ما أوليتم من العلم إلا قليلا ، وتقول (مَا أَشْهَلَتْهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ)^(١) وتقول في الإنسان : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(٢) وتنعى

(١) سورة الكهف ، الآية ٥١

(٢) سورة الأنزاب ، الآية ٧٢

على قوم سوء حالهم فتقول : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحَيِّطُوا بِعِلْمِهِ وَلَكَمَا
يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١) .

ونقول في حق المتظننين الذين يسارعون لتصديق ما يلقيه الخيال
وتلمية الأهواء والجهالات (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)^(٢) .

ومن العجيب أن هؤلاء ينفون السموات التي هي الأفلاك ،
والأقدمون من الفلاسفة يشبثون الأفلاك ويقولون : إنها أمتن من كل شيء ،
حتى قالوا إنه يستحيل عليها الخرق والانتثام . فانظر إلى تنافي الرأيين
وتباعد ما بين المذهبين لتعلم أن طوائف البشر قد يصلون من الخبط
والخلط إلى حد أنهما يكونان على طرفي نقيض : وكل منهما يظن أنه
الفيلسوف المحقق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
فرحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتبجح تبجح الجهال وأرباب الخيال .

ولو شئنا لترسعنا أكثر من هذا ، ولعل فيه مقنعاً وكفاية ، ولانزال
نكرر أنه لا مانع عندنا من التأويل واتباع الدليل ، ولكن القوم لم
تتميموا على ما يزعمون برهاناً ولا شبه برهان ، ولا يمكننا أن نعدل عن
تلك الظواهر لأجل قول يقال أو مجرد وهم أو خيال .

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة يونس ، الآية ٦٦ ، وسورة الأنعام ، الآية ١١٦

شبهةٌ لِحَدِّ (١)

ورد إلى مجلة الأزهر هذا الخطاب :

حضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر الغراء :

أرجو تبليغ تلك الشبهة إلى صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوى ونشر ذلك المقال بأول عدد يصدر من مجلتكم نظراً للأهمية :

يا صاحب الفضيلة ! بينما أنا جالس في المسجد قرب صلاة العصر أعظ الحاضرين وأذكّرهم بالكثير من أحكام الدين حسب قوتي ، إذ حضر رجل في أثناء ذلك وقال : أيها الشاب ! فسّر قول الله : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » (٢) فقلت له : يخرج الحي وهو الإنسان ، من الميت وهي النطفة ، فقال : أربك يكذب ؟ فقلت : حاش لله ، فقال : وما تعمل إذا ظهر كذب تفسير هذه الآية ؟ فقلت له : أنا رأيت ذلك التفسير في كتاب الجلالين وغيره من كتب التفسير ، فقال : ليس هذا بكلام الله وإنما هو من افتراء نبيكم محمد .

فاقشعرت يا صاحب الفضيلة أجسامنا عند سماع تلك الكلمة وهذه الأهانة لنبينا في أثناء وجودنا في بيت من بيوت ربنا ، وتصيب العرق من

(١) مجلة الأزهر - الجزء السابع - المجلد الثالث - رجب ١٣٥١

(٢) سورة الروم ، الآية ١٩

وجوهنا عند سماع تلك الإهانة من رجل كنا نعتقد حسب ادعائه مسلماً .
وعمدنا إلى ضربه وأردنا إخراجَه بالقوة من المسجد ، ولكن كان
معه رجل آخر قال لنا انتظروا فسيُفسر لكم أخى محمد تلك الآية
تفسيراً متقناً ، وقال له : يا محمد قم وبين لهم هذه الآية فقال :
إختراني ! من منكم يخدم الإنسانية ويتبرع بإحضار نطفته ويأخذ مبلغ
خمسین قرناً ، وأعطى ذلك المبلغ إلى رجل ، وقام الأخير وغاب مدة
وجيزة وحضر بالنطفة فوضعها محمد هذا في كأس نظيف غسلناه
بأيدينا وطهره بالكحول وأخرج من بين ملبسه منظاراً معظماً ونظر
النطفة في الكأس ، ثم أخذنا المنظار ونظرنا فيه فوجدنا في الكأس
دوداً يسبح في النطفة . فدهشنا أي دهش عند سماعنا من هذا الملحد
عبارات التكذيب لقانوننا السماوي .

والحق أن الحظ ساعده لعدم وجود أمثالهم بالمسجد حتى يفسر
له الآية تفسيراً يلائم أفكاره . ولم يعثر على مناقش أثناء ذلك إلا
من طالب في الابتدائي بمعهد طنطا ، فتشكك الحاضرون في المسجد ،
وعهدوا إلى أن أبلغ هذا الحادث إلى أكبر عالم يجيد الإفتاء ، فوقع
اختيارنا على فضيلتكم نظراً لما عرفتم به من أصالة الرأي وحسن الدراية
والقيام بالواجب نحو الإسلام ، فأرجو أن تتفضل بالرد في أول عدد
يصدر من (مجلة الأزهر) . والإسلام يا صاحب الفضيلة يرجوك
الرد حالاً .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

السيد محمد متولى حمادة
بمعهد طنطا

(الجواب)

يحزننا كثيرا انتشار أولئك الملحددين الذين تزيوا بزى الإسلام وماهم منه في قليل ولا كثير ، وأكبر ظنى أن هذا الغمر الوقح من المبشرين الذين افتنوا في وسائل التبشير ، وإن لم يكن منهم فهو صنيعتهم .
يحزننا أن يعيشوا في الأرض فسادا بلا زاجر من حياء ولا احترام للأمة التي يعيشون بين أظهرها ، ولا خوف من الحكومة التي دينها الإسلام .

وإنى أعتب كل العتب على أولئك المسلمين الذين كانوا مجتمعين عندما قال كلمته الشنعاء أمامهم ، محتقرا إياهم ، هازئا بدينهم مكذبا لنبيهم ، ولو كان للدين في تلك النفوس الضعيفة الخوارة ما للوطنية أو الحزبية ، لكان منهم ما يجمع أمثال أولئك المارقين الذين أصبحوا يهاجمونهم في مساجدهم طمعا فيهم واستهانة بهم ، مع أن القانون يحظر ذلك ويعاقب عليه لو أبلغوا ذلك لأولى الأمر ، ولكن ما تفعل القوانين إذا فسدت النفوس ، وضعفت القلوب ، وقصرت العقول ، وتفككت عرا الوحدة الإسلامية ! ولعمر الله لقد ذهب أولئك الذين يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وخلف من بعدهم خلف كغشاء السيل أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين ! ولندع هذا كله آسفين باكين !

وايل طال بالأنكاد حتى ظننت الليل ليس له نهار
لما لا ؟ والتقى حلت عراه وبان على بنيه الانكسار
لتبك معى على الدين البواكى فقد أضحت مواطنه قفار

ولنشره في الجواب مستعينين بالله فنقول : إن هذا الملحد من
أجهل الجاهلين ، فإن الحي لا بد أن يخرج من الميت بالبرهان العقلي ؛
لأن أول حي قد خرج من الميت لا محالة ، وإلا لم يكن أول حي
وقد فرضناه أول حي (هذا خلف) . أو نقول : لو كان كل حي
خارجا من حي للزم الدور أو التسلسل ، وهما محالان كما هو
معروف .

وقد كان ذلك العالم الطبيعي الذي يقول : « إن الحياة فلتة
من فلتات الطبيعة ، ولا بد أن يرد الحي الى أصله الميت » أعقل
من هذا الأحمق ، فإنه لم يسهل عليه أن يقول بالتسلسل إلى غير
النهاية ، بل جعل لها أولا هو ذلك الأصل الميت ، فلم يقل بالتسلسل
غير المعقول ، وإن كان ما قاله أيضاً فلتة من فلتات العلم .

ثم نقول إن صح ما زعمه هذا الملحد في الإنسان « مع أنه غير
صحيح في الإنسان الأول كما عرفت ، ولا في الإنسان المتولد من
من النطفة كما ستعرف » ، فماذا يصنع في حبة القمح أو نواة النخلة
والنخل أقرب أنواع النبات إلى الحيوان ، بل كاد يصل الى أفقه
فهل يقول : إن فيها شيئاً حياً يرى بالميكروسكوب فيه خصائص
الحياة ومميزاتهما ؟ وإني أخشى أن يقول كما قال بعضهم : إن الحبة
أو النواة حية بالقوة ، فليعلم هو وأمثاله أن معنى الحياة بالقوة هو
الاستعداد للحياة ، وأن الحي بالقوة ميت بالفعل كما قرره العلماء
وأن الاستعداد للشيء والاعداد له ينتهيان بوجود ذلك الشيء ، فهذا
طور وذاك طور آخر .

ومن الذى تشبته عليه الوسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة؟ فهذا ما يقرره العلم ويقتضيه العقل ، فلا بقاء للوسيلة مع الغاية ، ولا وجود للغاية مع الوسيلة ، فإن قال : إن النواة مستعدة للحياة التى ستحلها وتخرج منها شجرة حية وثمره شهية ، كان ذلك صحيحا ، وليست تحل الحياة إلا فيما هو مهيا لها ومستعد لظهور آثارها ، وإن قال : إن النواة حية أو فيها شئ حى بالفعل ، كان ذلك جهلا وكذبا .

ثم نقول بعد ذلك : إن ما زعمه من أن الإنسان هو من الحيوان المنوى الحى الذى يرى فى منى الرجل ، باطل من وجوه عديدة :
أولا - أن ذلك الحيوان الذى اغتر به لا بد أن يرجع إلى أصل ميت ، وإلا لزم الدور أو التسلسل كما قلنا .

ثانيا - أن هذا الحيوان لا بد أن يموت قبل خلق الإنسان ، فالإنسان إذا ما خرج إلا من ميت ؛ وذلك أنهم صرحوا بأن التلقيح إنما يكون برأس الحيوان فقط ؛ وهو لا يبق حيا عند انفصال رأسه ، فسنة الحيوان جارية فيه ، فمضى انفصل رأسه مات ، وقد حصل المقصود من حياته وحركته وهو الوصول إلى البويضة التى يلقحها ذلك الرأس عند وصوله إليها .

ثالثا - أنه يمتزج بهذه البويضة امتزاجاً يجعلهما شيئاً واحداً ، فلا معنى لبقائه حياً تلك الحياة الحيوانية مع هذا الامتزاج والاتحاد .

رابعا - أن هذه البويضة قد يتولد منها جنينان أو أكثر ، والمرأة لا تفرز إلا بيضة واحدة فى كل شهر ، والمعروف أن التلقيح إنما يكون

بحيوان واحد ، وقد صرح بذلك بعض الاختصاصيين : فكيف يكون الحيوان حياً باقياً على حالته المرئية التي شبه بها الملحد على الناس ، ثم يتولد منه جنينان أو أكثر ؟ وكأن ذلك الجاهل يظن أن هذا الحيوان المنوى قد كبر ونما حتى صار إنسانا ، وما أجهل من يظن ذلك وما أغباه !

خامسا - على أن الإنسان لم يخلق من هذا الحيوان فقط ، بل خلق من أشياء كثيرة ، وتغذى بأشياء كثيرة يعسر تبيينها على الحقيقة ، وقد قال بعضهم : إن علم الأجنة لا يزال جنيناً حتى الآن ، ولا يزال سبب انقطاع الحيض زمن الحمل مجهولا ، وإن كانوا يتكلمون في غايته لافي سببه ، ولذلك ترى كثيراً منهم يعدون الثديين من أعضاء التناسل ، ويقولون : إذا قطع ثديا المرأة لم تلد ، ولا يستطيعون أن يعللوا ذلك تعليلاً شافيا ، إلى غير ذلك مما لا يمكننا شرحه ولا الإفاضة فيه ، فليرجع إلى الاختصاصيين المبرزين في هذا .

فإن اعتبر الاستعداد للحياة والتهيؤ لها حياة ، كان الخلاف بيننا وبينه لفظياً ، وكذلك النمو والانقسام ، فإننا لانعتبر الحياة إلا بالحس والحركة ، ولا فرق عندنا بين كلمة حي وكلمة حيوان ، والحيوان هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة ، فإن اعتبر الحياة أوسع من ذلك كان اصطلاحاً ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، فيكون الخلاف بيننا وبينه في العبارة لا غير .

وإن شئت قلت : إنها حياة تشبه حياة النبات ، ونحن نريد الحياة الحيوانية لا النباتية ، ولو أخرج الله من الشجرة إنسانا لقلنا

إنه أخرج الحي من الميت ، وليس يقل ما بين الإنسان والشجر من الفرق عما بين الشجر والحجر من الفرق ، وقد رأينا المعادن تتربى وتنمو في بطن الأرض ولها مدد مختلفة في نموها وتربيتها ، فالملح والشب والكبريت لا تحتاج إلا لمدة سنة أو أقل ، والحديد والرصاص والفضة تحتاج إلى مدة طويلة ، والعميق والياقوت يحتاجان إلى مدة أطول من ذلك كله ، مع أنها لا تعتبر أحياءً بذلك النمو ، فإن قالوا : إن هذه حياة ، كانت تسمية اصطلاحية ، وكلامنا معهم في معان لا في ألفاظ .

وبعد فالأمر واضح لامرية فيه ، ولكنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ، اللهم فانصر دينك ، وقوّ حزبك ، واكبت أعدائك الضالين المضلين ، فإنك على ذلك قدير ! اللهم إنا نعلم أن ذلك لا يضرك شيئاً ، ولكن نسألك أن تخذلهم بقوتك القاهرة رحمة بنا يا أرحم الراحمين !

الخلاصة :

١ - والخلاصة أن لك أن تقول : إن المراد الحي الأول ، والحي الأول خارج من الميت لا محاله ، ولا بد أن تنتهي الأحياء ، وإلا لزم الدور أو التسلسل .

٢ - ولك أن تقول : إذا شاهدنا الحيوان المنوى في المني فإننا لم نشاهد شيئاً حياً في النواة مع خروج النخلة منها ، وهم يعترفون بحياتها لا محالة ، فقد خرج الحي من الميت لا محالة .

٣ - ولك أن تقول : إن المراد في الآية الإنسان المتولد من النطفة ، وما تخلق الإنسان من ذلك الحيوان المنوى إلا بعد انفصال

وكثير من الناس عندنا لم يأخذوا من العلم إلا قشوره ، ولا من الأشياء إلا ظواهرها ، بلا بحث ولا تمحيص ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويسيروا وراء كل داع ، ولو دعا إلى خيال أو خيال ! ولسنا في اضطراب بعد ما سمعت ذلك كله إلى أن نقول ما يقول بعض المجددين : إن المراد بالحى : العالم ، أو الميت : الجاهل ، إلى أمثال تلك التأويلات التى هى شعبة من شعب المادية .

وبهذه المناسبة نقول لمن يريد من (مجلة الأزهر) أن تترك خطتها فتؤول ما ورد فى الكتاب والسنة من النصوص الصريحة لأقل هيئة تسمعها ممن خرف فى الغرب أو الشرق : لاسبيل إلى هذا ، والمجلة لا تنفك تصدع بالحق حتى يرجع الناس إلى دينهم الصحيح الذى بدله هؤلاء المتشددون اتباعاً لأهوائهم ، ومن اتبع هواه ضل عن سبيل الله وكل ميسر لما خلق له .

وما أنشئت المجلة إلا لمحاربة هؤلاء وأمثالهم ، فكيف توافق آراءهم أو تتابع أهواءهم ، وفى الحديث «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَكَلَّمَ الرَّوْبِيضَةُ»^(١) وقد وطننا أنفسنا على ذلك عالمين به من يوم إنشاء المجلة ، ومحال أن يجتمع الضدان ، أو يتفق التقيضان ، فليكتب الجاهل ماشاء ، أو فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيب ؟ !

وأكبر ظنى أن هؤلاء لا يؤمنون بحياة الأنبياء ولا بما ورد فى عالم البرزخ ، وإلا لم يكونوا عصريين ولا مجددين ، فإن التجديد

(١) الروبيضة : الرجل التافه الحقير يتكلم فى أمر العادة .

عندهم هو رد ماجاء في الشريعة إلى ماتعرفه العلوم الطبيعية ، ولكنهم يخافون من الإنكار الصحيح فيدورون هذا الدوران .

وإني أستحلفهم بشرفهم الذي زعموه لأنفسهم ، وحریتهم التي يتبجحون به أن يصارحونا القول فيما يعتقدون من حقائق ما ورد في عالم البرزخ وعالم الآخرة ، حتى نشهد لهم بالشجاعة والصراحة ، وإلا فلا يغشوا الناس ولا يلبسوا عليهم بهذه الشقايق الباطلة وذلك العلم المزيف (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعد بالله إنه هو السميع البصير)^(١) .

حقائق وتعليقات^(١)

صاحب المنار شيخ الجامدين بالبرهان ، وستوافقني على ذلك

مقدمة :

صاحب المنار لايسهل عليه أن يؤمن بغير مايقع عليه الحس ، وإن رأيت منه غير ذلك ، فهو مضطر إليه ، ومرغم عليه لأمر ما يعرفه عارفوه ، وربما قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وسر ذلك ، أنه يقدر كل مايسمع عن الأوربيين ، وليس عنده من الدين وثبات اليقين ولا من احترام الأئمة وإجماع المسلمين ، ولا من العقل الواسع ، والمنطق الصحيح والتحليل الفلسفي مايعرف به صحيح الآراء من فاسدها ولاغشها من سمينها ، وربما كانت عند الأوربيين أنفسهم في محل الظن أو الفرض والتخمين ، فيؤول لها الآيات ، وصحيح الأحاديث لعظمتهم في نفسه ، وهو أن أمة المسلمين لديه :

ومن العجيب أنه يطعن في أحاديث الإمام البخارى ، إذا لم توافق هواه أو كان بينها وبين تلك النظريات التخمينية شبه تعارض بل رأيناه استدلل على أن الأرض تأكل أجساد الأنبياء؛ بأن الأتراك قد نبشوا قبور الأولياء والصالحين ، فلم يجدوا فيها شيئاً ، وهذا الدليل كما تراه بينه وبين المدعى ، مثل ما بين السماء والأرض ثم هو يعتمد على ذلك من غير بحث في ذلك السند التركى ، ولاتفتيش

عن صحة الخبر ، مع كونه يطعن في أسانيد البخارى لأقل شبهة تعرض لعقله الضعيف ، شأن المفتونين بالأوربيين ومن حذا حذوهم مع أن بقاء أجساد الأنبياء قد وردت فيها الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة ، ولأن الشيخ إمام في تأويلها وفي ردّها (لأنها ليست عن الأوربيين) .

فلنسق له هنا ما ذكره المقطم في ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣ تحت هذا العنوان :

اكتشاف جثث عربية من عهد الفتح الإسلامي قال مكاتبنا الفلسائني :

من أخبار السلطة في شرقي الأردن أنه بينما كان بعض العمال يحفرون في خان مجاور لمسجد سيدنا جعفر الواقع في قرية المزار التابعة للكرك ، والتي جرت فيها معركة (مؤتة) ، بدت لهم نافذة تتصل بحجرة واسعة سقفها معقود بالحجر ، وفيها ما يقرب من مائة جثة والمظنون أن أصحابها من شهداء واقعة مؤتة المشهورة في الفتح الإسلامي وقد وجدت على رؤوس أصحاب الجثث عمائم ، وبعضهم في أكفان والبعض الآخر بملابسهم . وفيهم جرحى لاتزال آثار الجروح في أجسادهم ، وقد أخف سمو الأمير عبد الله لمشاهدة المكان المكتشف والجثث ، فإذا ثبت أنهم من شهداء مؤتة صدرت الأوامر بتشييد ضريح فخيم لهم . ينقلون إليه بكل احترام ،

وهناك حادثة أخرى تشبه هذه ، ذكرتها الجرائد وذكرناها في الرد عليه في مجلة نور الإسلام الأزهر الصادرة في جمادى الآخرة من هذه السنة وقد حضر تلك الحادثة جمع كبير على رأسهم الملك فيصل

وعندنا بمصر حوادث كثيرة من هذا القبيل ، ذكرتها الجرائد في حينها ، ولكن الأنبياء والأولياء ليس لهم ميزة ما عند صاحب المنار ؛ ولهذا مقام آخر نذكره فيه .

وقد رأيت في مقالاتنا ، كيف قال إن الملائكة هي القوى الطبيعية واستبعد ما قاله المسلمون ، وأفام على بطلانه ذلك الدليل الفاسد ، من أنك لانحدد أمكنتها ، ولا ترسم مساكنها وإنك لا ترى من يكون منهم عن يمينك ، ومن يكون عن يسارك ، وقد شنعنا عليه بأنه لا يلزم من عدم رؤيتهم عدم وجودهم لأننا لا نرى الله عز وجل .

ونحن موقنون بوجوده . أو نقول شيئاً آخر ربما كان أكثر موافقة لعمله : إن المكروبات كانت غير مرئية ، حتى ظهر الميكروسكوب (المجهر العظيم) وكذلك غيرها ، فهل كانت غير موجودة في الواقع ؟

وقد سمينا هذا المنطق الذى انتحاه الشيخ فى استدلاله ، بمنطق النعامة ، التى إذا رأت ما يخيئفها جعلت وجهها فى الرمل ، اعتقاداً منها أن كل ما غاب عن البصر فقد غاب عن الوجود .

ولا ينبغى أن نتشدد فى مناقشة الشيخ ، بعد أن عرفنا أن منطقته الذى يسير عليه فى استدلاله ، إنما هو منطق النعامة ، وكثير من الناس من لا يعرف إلا هذا المنطق .

وإذا عرفت ذلك ، لم تستغرب ما نتلوه عليك اليوم ، من ترهات الشيخ وأضاليه ، التى نكل الحكم فيها إليك ، بعد تبين مواضعها من (المنار) مجلداً وصحيفة : وما لا ينبغى إغفاله فى هذا المقام :

أن صاحب المنار يقول في التنصّل ، مما أخرجناه به ، إنه وإن ذكر الباطل في موضع ، فقد ذكر الحق في موضع آخر فعلى قارئ المنار (إذا بناء على هذا المبدأ) ألا يثق بشيء رآه فيه حتى يطالع الثلاثة والثلاثين مجلدا ، ثم ننصح له ، أن يفتش بعد ذلك كله عما يريد أن يأخذ من تلك المجلدات فإن الشيخ غير موثوق بنقله ، ولا بفهمه كما قلنا في مقالنا الأول ، والمتناقض لا يصح أن يعتمد عليه في شيء من الأشياء ، والكاذب لا تصدقه في كذبه ، ولا في صدقه ، ولنتقصر في المقدمة على هذا ، ونذكر لك تلك المخازي فنقول :

شيء من بلايا صاحب المنار ومخازيه

في المنار المجلد العشرين للملاحظات الآتية :

- ١ - ٧٩ و ٨٠ و ٨١ فيها تجهيل لمن يقولون في اللوح المحفوظ ، والقلم والكتابة والكاتبين ونحوها بما هو مقرر في كتب العقائد .
- ٢ - وفيها تأويل اللوح المحفوظ بلوح الوجود ، والواقع الذي لاحق لإلما وافق ، فليس مخلوقا مستقلا كما يقول علماء المسلمين .
- ٣ - ٩٠ و ٩١ فيها أن كتابة الأعمال هي تأثير الأعمال في النفس أو حفظ صورها وآثارها في النفس وأن ذلك أمثل ما أولت به إلا كتابة الأعمال ، وهو خرق لإجماع المسلمين وكلام لا يعرفه إلا الباطنية ، وهو بعد ذلك إنكار للكاتبين على الرغم من صريح القرآن الشريف .
- ٤ - ٢١٤ فيها أن اسم الجن والشياطين - يطلق في لغة العرب على بعض الحشرات والحيوانات الضارة أو القبيحة ، وعلى ما يؤثر

عن أهل الكتاب وغيرهم من الدنالم الروحي الغيبي وقد ذكر بعض خصائصه
ثم قال بعد ذلك ، والأكاذيب عن جميع الأمم في ذلك كثيرة والشبهات
غير قليلة ولكن قل المصدقون بها في بلاد العلم والمدنية يريد أن يشكك
القارئ فيما يعرفه من دين الإسلام عن الجن .

وانظر إلى أي حد بلغ افتتان الشيخ بالأوروبيين الذين يعبر عنهم
أرباب العلم والمدنية أي وأما نحن فأرباب الجهل والبهيمية . ومن
ذا يبلغ الشيخ أن علمهم إنما يوثق به في الماديات والطبيعية ، لا فيما
وراء الطبيعة ، فهم أجهل الناس به وأبعدهم منه وكل معلوماتهم إنما
تدور على الحس والمشاهدة .

وقد قلنا في بعض ما كتبناه أن هذه مرتبة الحيوان الذي لا يصدق
إلا ما شاهده بعينه ، ولا يعرف إلا ما وقع عليه حسه ، بخلاف الإنسان
الذي متعه الله بمواهب عقلية وخصائص روحانية يعرف بها ما لم يصل
إليه الحس ، ولا وقع عليه البصر .

ولكن الشيخ يريد أن يكون مجددا عصريا . فلما فاتته التجديد في
الماديات كالأوروبيين شرع يجدد في الدين يرمى ذويه بالخرف على
نحو ما فعل الأوروبيون مع الفلاسفة الأقدمين ، ولكن فاته أن الأوروبيين
فعلوا ذلك في الحسيات ، التي قام عليها برهان الانتحان ، ودليل
التجربة ، أما غير الحسيات من عوالم ما وراء الطبيعة : فالأوروبيون
فيه مخرفون جاهلون ، لا علماء محققون .

ثم نقول لصاحب المنار : ألا تتقى الله في تلك الأمة المسكينة ، التي
كاد يقضى عليها تقليد الأوروبيين وتقديسهم ، حتى اختل أمرهم ،
وضاع رشدهم ، أفتريد أن تزيدهم فناء في الأوروبيين كي يقلدوهم
في كل شيء ، حتى في أمور الدين ، ومسائل اليقين عند المسلمين .

ولنتقل إلى خزية أخرى فنقول :

٥ - ٢٣٠ وبعدها فيها تكفير المتبركين بالآثار ، والمتوسلين
بالصالحين ، وأنهم مشركون إشراك قوم إبراهيم عليه السلام .

٦ - ١٧٩١ فيها شك وتشكيك في نبوة آدم ، ورسالته عليه
السلام . فقد عرفنا من ذلك ، أن إنكار أبي زيد لنبوة سيدنا آدم في
حادثته المشهورة ، كان مأخوذاً من المنار ، فصدق حدسنا أن كل ما قاله
أبو زيد الذي كان يرد عليه الشيخ رشيد ، ويسميه ملحد دونهور ،
كان مأخوذاً من المنار ، وما هو إلا قليل من كثير وربما بينا ذلك بعد .

٧ - ١٨٦ و ٢٦١ و ٣٣١ فيها كلام في الشفاعة ، تلمح فيه
اعتقاده في أحاديث الشفاعة فكأنه يريد أن ينكرها ، أو يشكك فيها ،
فلا نطيل في ذلك الآن .

وفي الجزء الثامن من المجلد الثاني والثلاثين يلاحظ الآتي :

٨ - ٥٦٥ و ٥٦٧ فيها تشنيع وافتراء على معتقدي الولاية
والكرامة والوسية ، وأنهم عبدة القبور واتهام من لا يكفرهم من العلماء ،
بأنهم يغرون الناس بعبادة القبور . ثم نقول ، وأن إفساد هؤلاء

الخرافيين للبنر ، لأشد من إفساد المنكرين للآيات المكذبتين بها ،
بناء على مزاعم باطلة يتهمهم بها .

ونحو ذلك في صحيفة ٥٧٤ و٥٧٥ تحت عنوان (سبب عبادة
المسيح وبعض الصالحين) والشيخ لا يعرف معنى العبادة ، كأنه
يظن أنها التعظيم ، فهو يقول تعظيم غير الله عبادة ، وكل عبادة لغير الله
شرك ، مع أننا رأينا إخوة يوسف قد سجدوا ليوسف ، وليس هناك
تعظيم أبلغ من السجود ، ورأينا الملائكة سجدت لآدم .

ولو كان للتعظيم شركا ، ما أمر الله به ، لأن الله لا يأمر بما هو
من جنس الشرك في شريعة من الشرائع ، على أن تعظيمنا إياهم إنما
هو لكونهم أخصياء الله المقربين ، فالتعظيم في الحقيقة ليس إلا لله
وقد قلنا في بعض ما كتبناه أن الخلف بيننا وبين الوهابية ، الذين
يدافع عنهم اشيخ رشيد ، إنما هو في كون الأرواح بعد الموت لها
شعور وإدراك ، وعمل ودعاء ، كالأحياء . أم ليس لها ذلك فنحن
نقول بثبوت هذه الأشياء للكاملين غير المشغولين بأنفسهم ،
وهم يقولون : إنهم ليسوا كذلك ، ولا فرق بينهم وبين الجنادات
أو المعدومات عندهم ، وعلى كل حال فالخلف في ذلك لا يوجب كفراً
ولا فسقاً فيما معنى تكذيب المسلمين بذلك واستباحة دماهم من أجله ؟
ولسنا نحتم على الوهابين أن يعتقدوا أن للآموات شعورا وإدراكا وأنه
يمكنهم الدعاء بالتوسل إلى الله . كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث
لأعرض الأعمال (وَإِنْ وَجَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ) لا نحتم
عليهم ذلك وإن نطقت به الأحاديث الصحيحة ، بل المتواترة ،

وانعقد عليه إجماع الأمة قبل ظهور هذه الفرقة . ولكن الذى نريد منهم أن يمتثلوا ما شاءوا أو يتركوا الناس يعتقدون ما شاءوا ، ولا يكفروهم ولا يستبيحون دماءهم لخيال فاسد ، لا يوجد إلا فى رؤوسهم ، وشبهة فارغة لا تنقدح إلا فى نفوسهم ، يرتكبون بها أكبر الجرائم ، وأعظم المآثم .

وما نريد بذلك كله إلا حقن دماء المسلمين وعدم تفكيرهم بتلك الكلمات الفارغة .

والخلاصة أنه لا بد أن يَـأَـنَـونَ هناك فصل آخر فى العبادة ، لا تتحقق حقيقتها إلا به ، حتى تكون مختصة بالله ، ويكون فعلها لغيره شركا . ولعل الشيخ يعقل هذا فهذا ما نريده من الوهابية . وإن كان الشيخ لا يعرف محل النزاع ، ولا مثار الخلاف بيننا وبينهم ، والشيخ متى قال شيئا ، فمحال أن يرجع عنه ، ولو أقمت له ألف برهان ، ومن ذلك أننا خطأناه فى التعبير بالقبوريين وقتلنا له إن الجمع لا ينسب إليه ، وإنما ينسب إلى الواحد ، فقال إن القبوريين علم فقلنا له أنه ليس بعلم عند أحد شم رائحة العلم .

وقد قال ابن مالك ،

والواحد الذكر ناسبا للجمع ما لم يشابه واحدا بالوضع

أي ما لم يشابه الجمع المنسوب إليه ، كما هو واضح ، ولكن الشيخ يصر على خطئه ، ولا يرجع عنه ، وكأنه على نهج أولئك التكبريين الذين قال الله فيهم : (سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا^(١)

ومن ذلك قوله في إبليس : إنه القوة الشريرة التي (تعيق)
الإنسان عن بلوغ درجات الكمال ، والواجب أن يقول (تعوق)
ومن ذلك تعرف أن للشيخ نحوًا خاصًا ، وصرفًا خاصًا : كما أن
له منطقتا خاصًا ، أسميناه بمنطق النعامة ، أو المنطق القلموني ،
فلنسم هذا المنحو بالنحو القلموني أيضًا :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
ولنقف هنا رحمة بالشيخ ، وإشفاقًا على القارئ ، فإلى اللقاء
قريبًا إن شاء الله .^(٢) ومتعرف أن الشيخ موافق للطائفة الأحمدية
القاديانية فيما نتلوه عليك بعد .

(١) الأعراف الآية : ١٤٦

إلى شيخ الديار وصاحب الديار عن نفسه

ليست العبرة بكثرة الهديان إنما العبرة بقوة البرهان
هذى كثيرا فقلنا لا نرد على هاذفأضحى ينادى أنه بطل

بيننا ما صرح به صاحب (المنار) في تفسيره عند قوله: (وإذ
قلنا الملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) (صحيفة ٢٦٧
وما بعدها إلى ٢٧٦) من أن الملائكة هي القوى الطبيعية، وأن إبليس
هو القوة الشريرة المودعة في نفس الإنسان التي لا يمكن إخضاعها
ولا تذليلها وأن ما يسميه الماديون قوى طبيعية هو ما يسميه المسلمون
ملائكة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات أي فالأسماء
مختلفة والمسمى واحد.

وقد استتابع من النصوص الدالة على ذلك من كلامه وعلقنا عليها وعجبنا
أجد العجب من إنكاره ذلك ورميه إيانا بالافتراء والبهتان بعد تلك
العبارات الصريحة التي أطال فيها ثم حصنها من جميع نواحيها
بدفع الشبه عنها والرد على مخالفيها، كما أنه جعل قصة آدم
وحواء قصة خيالية تمثيلية فليس هناك جنة دخلها آدم لأرضية ولا
مماوية ولا شجرة تمنى عنها، إلى آخر ما سطره في صحيفة ٢٨١ وما
بعدها من الجزء الأول من تفسير المنار مما لو جوزناه لارتفعت الثقة

بكل ما جاء في الدين أصولا وفروعا ، ولم يكن القرآن عربيا مبينا ، بل كان رموزا وألغازا ، أو على الأقل مجازات بلا قرينة .

ومن العجيب وليس من صاحب المنار عجيب أنه يبقى النزول على حقيقته في حديث النزول ، والاستواء على حقيقته في آية الاستواء ولا يخجل مناجاة في الملائكة على حقيقته تقريبا للماديين واستعظاما لهم . وإذا لم يكن صاحب المنار سلفيا ماديا فمن ذا يكون؟ وإذا لم يكن يعرف حدود الإمكان وما ينتهي إليه الممكن وما يستحيل وما يجوز فمن ذا يعرف غيره؟ ولو جرينا على طريقته من جواز التأويل والتمثيل في معاملاتنا ومخاطباتنا لفسد العالم كله . وقد قلنا إن هذا هو ما أراده الباطنية قبل صاحب المنار، وما أشبه طريقته بطريقه فإنه يذكر الحق بعبارة موهمة أو محتملة ، ثم يكر عليها بتحبيد الرأي المادى وإيراد الشبه على غير الرأي المادى حتى يخيل للقارئ أن هذا هو لباب العلم الذى قلما يظفر به في غير المنار .

وفي طى هذا وصية له بالاحتفاظ به والحرص عليه ، وقد يذكر من كلمات الصوفية ما يجعل القارئ يظن أنه من أولياء الله المقربين أو ملائكة المطهرين على نحو ما يفعل صاحب كتاب إخوان الصفا .

وهأنذا أهدى لك بقية تشكيكه فيما يعتقد المسلمون من أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل . فبعد ما أورد عليه الشبه التى سمعتها فى مقالنا السابق أراد أن يقتلع تلك العقيدة من النفوس حتى لايبقى لها ظل ولا أثر فى القلوب . وقد رأى أن يؤثر على القارئ

بأسلوب شعري يحرك الخيال فقال وكأنه من علماء وحدة الوجود^(١)
« ولو علموا أن العالم بأسره فإن في نفسه وأن ليس في الكون باق
كان أو يكون إلا وجه الكريم . وأما ما كشف من الكون وما لطف
وما ظهر منه وما بطن إنما هو فيض من جوده ونسبة إلى وجوده » إلى
كلام طويل استمدته من كلام الصوفية ثم قال « لو عرفوا ذلك كله
لأطلقوا لأنفسهم أن تجول في تلك الشؤون حتى تصل إلى مستقر
الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم ولا توجد
طائفا من الخوف » .

ونقول إن نفوسنا قد وصلت إلى مستقر الطمأنينة وليس فيها
أدنى خوف ولا شك ، بل نعجب كيف يجيء الخوف والشك والأمر
في غاية البضوح . فإن إثبات الملائكة على ما يفهم المسلمون
ليس فيه إلا إثبات عالم آخر له أحكام أخرى ، وقد متعه الله
بمواهب وخصائص لا توجد في غيره ممن أين يجيء القلق ولماذا
تذهب الظمأنينة وتحل الحيرة محلها ؟ ألم يخلق الله الهواء على
مانع من الطافة ؟ فما المانع أن يخلق الله خلقا ألطف من الهواء ويمتعه
بقدره وإرادة واختيار ويعطيه من التصرف ماشاء . ومن ذا الذي أحاط

(١) هذه الجارات التي علقنا عليها في هذا المقال وماتله هي من صحيفة ٢٧٠ - ٢٧٣
من الجزء الأول من تفسير المنار .

بجميع العوالم خيرا وقد قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) ^(١)
 (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ^(٢). (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
 كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) ^(٣)

إنى اعجب جد العجب ممن يتوقف في ذلك ويجعل هذا محلا للحيرة
 وعدم الطمأنينة ويظن أن الإيمان به متعسر أو متعذر . ثم نقول
 للأستاذ أنجمع بين المتضادات فتكلم في تقرير مذهب الماديين
 بلسان الصوفية يا أستاذ أعجمى وعربى؟ إن هذا لشيء عجاب. ولكن
 هذه طرق معروفة لتلك الطوائف والغرض منها معروف لنا ولغيرنا.

ثم نقول بعد كل تنزل ما معنى هذا الاستدلال وأى ارتباط
 بينه وبين ما يدعيه؟ فهل كون العالم فانيا فى نفسه وكونه فيضا
 من جوده تعالى ينتج ما يريده من أن الملائكة هى القوى الطبيعية
 وأى علاقة بين هذا وذاك .

ثم يقول بعد ذلك لتجعله— إن كنت سليم القلب— من الروحانيين
 أو الملائكة المقربين (على رأى المسلمين) مانصه ، أليست هذه
 القوى أشعة من ضياء الحق . أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه
 ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ،

(١) سورة المدثر ٣١

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٣) سورة يس ، الآية ٣٦

ألا يجوز أن يشمر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها
لا ندرك كنهه لاحتجابه عنا بما نتصور من حياتنا واختيارنا ،
ألا تراها توافي بأسرارها من ينظر في آثارها ويوفيهها حق النظر في
نظامها يستكثر من الخير بما يقف عليه من شئونها ومعرفة الطريق
إلى استدرار مآفعها .

وأقول : لماذا كل هذا الأجل أن نجعلها هي الملائكة ولا نستبعد
أن يكون فيها حياة وشعور الخ ؟ : أليس إثبات عالم آخر نسميه
ملائكة أهون من ذلك كله ؟ ، أليس اتباع المعقول والمنقول أولى من
نلك الخيالات النارعة التي تشبه خيالات المحمومين ، اللهم إن
هذا افتنان بما ظهر في عالم المسادة وما أحدثوه فيها من مدهشات
وعجائب ولكن الشئون الآلهية فوق ذلك كله (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَانَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ^(١) وقد أذكرني ذلك قولهم «كن يهوديا حقا
وإلا فلا تلعب بالبدرة» . ونحن نقول له «كن مسلما حقا وإلا فلا
تلعب بالقرآن» . أليس هذا الخيال أشبه بـ «بخيال ذلك الملحد
الذي جعل الأثير إلها وتخييل فيه سمعا وبصرا حيث يقول :

فلعل الأثير خير سميع ولعل الأثير خير بصير

ولعل الأثير خير إله ولعل الأثير خير نصير

ثم نقول بعد ذلك كله : أى لاقه بين هذا الدليل وتلك الدعوى
على نحو ما أوضحته فيما قبله ؟

(١) سورة النحل ، الآية ٧٤

ثم أراد زيادة التشكيك فقال : « أفلا تزعم أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك ، هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ، فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفه سلفك وبالعبارات تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها . أفلا يكون ذلك أروح لنفسك وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟) .

وأقول ما هكذا ينبغي أن يكون العلماء ولا أهل الدين يعبر بالزعم فيما جاء عن النبي متواتراً من أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء ، ثم يطعن في ذلك بأنك لا تعرف أين هي في الأرض ، وأنت لا تحدد أمكنتها ولا ترسم مساكنها ، وأنت لا تعرف من يكون منهم عن يمينك ، ومن يكون عن يسارك إلى آخر ما قال : وإني آسف أشد الأسف إذ يصدر ذلك ممن يزعم أنه أحد شيوخ المسلمين وهل عدم تحديد أمكنتها ومعرفة مساكنها يدل على عدم وجودها ؟ ومن الذي يستدل بعدم رؤية الشيء على عدم الشيء ؟ أفلا يجوز أن تكون من اللطافة بحيث تخفى عنك ، أو تكون أنت من قصور البصر بحيث لا تراها وهل ننكر الكرام الكاتبين وقد صرح القرآن بهم من أجل أننا لا نرى من نرى .

يا مننا ومن على يسارنا ، اللهم إن هذا من أجل لأهل الدين بل لأهل المنطق وإن لم يكونوا من ذوى الدين .

فإننا أو قطعنا النظر عما جاء في الدين من المتواترات لكان الدليل الذى زعموه غير صحيح أمام العقل والمنطق . ولكنك عرفت أن للنبيخ منطقاً خاصاً لا يعرفه غيره . ومن العجيب أنه يرمينا بعد ذلك بالجمود .

فليت شعرى أينما الجامد؟! أنحن الذين عرفنا عظمة العلم وسعة القدرة الإلهية أم هو الذى وقف عند الظواهر ولم يجاوز دائرة الحس؟ (رمتنى بدما وانسلت) - (هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ)^(١) .

ومن أعجب العجب أنه يقول: إن هذا الإصلاح الذى قام به يتوقف عليه حفظ الدين ، وما أدرى أهذا يحفظ الدين أم يهدمه؟ وليت شعرى ، ماذا يصنعون فى الإيمان بالله تعالى؟ أيقولون فيه ما قالوه فى الملائكة أم ماذا؟ فإن حقيقته تعالى أخفى من حقيقة الملائكة بلا مرأ فىمكنهم أن يقولوا فى قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)^(٢) (فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)^(٣) إلى أمثالها من الآيات الخ ، إنها القوى المنبثة فىما حولك وعن يمينك وعن شمالك وأن هذه القوى يتخيل الإنسان فىها - شعوراً وعقلاً ، إلى آخر ما قالوه فى الملائكة . وبذلك ينقطع عرق الخلاف بيننا وبين الماديين فى كل شىء حتى فى وجود الله عز وجل ، وإذن يكون الإصلاح أتم والوفيق أعم . فكل ما ذكره فى الملائكة يمكنهم أن يذكروه فى تلك الآيات بآتم معانيه ، فإن كان عدم رؤية الشىء دليلاً على عدوه فى الواقع وعدم رسم مساكن الأشياء وتحديد

(٢) - سورة الحديد الآية رقم ٤

(١) سورة المائد ، الآية ٥٩

(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٥

أمكننتها مقتضيا عدمها ودليلا على انتفائها . نقول لو تم هذا الأساس لما قام هذا الدليل بعينه في حق الله عز وجل فإنك لا تراه ولا تحدد له مكانا ولا ترسم له مسكنا الخ الخ . فماذا نقول لهؤلاء ، وبماذا تخاطبهم .

وما أصيب شيء من الأشياء مثل ما أصيب به المنطق في هذا العصر من أولئك الأغبياء أ، ولنصطلح على تسمية هذا المنطق الفاسد بالمنطق القلموني ، أو منطق النعمة ، فقد ذكروا أن النعمة إذا رأت الصياد جعلت وجهها في الحائط كي لا تراه ، وتظن لمزيد غباوتها أنه إذا غاب عن نظرها فقد غاب عن الوجود . وهذا مبني لدى النعمة على الأساس الذي بنى عليه الشيخ رشيد استدلالة من أن عدم رؤية الشيء دليل على عدمه في الواقع ، فليكن موسوما عندنا وعندكم بمنطق النعمة أو المنطق القلموني .

ولا داعي لأن تعلق على قوله إن الله ذكرها لك بما كان يعرفه سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم الخ . فإن الأمر فيها أظهر من الشمس وأوضح من الحسن ، وهل هناك فرق بين هذا وبين ما قاله رؤساء الإلحاد في أمثاله من أن القرآن يذكر الأساطير ،

وقد تعبت من التعليق فلنقتصر على هذا وفيه مقنع وكفاية ، وأظنك بعد هذا في عجب شديد من صاحب المنار كيف يذكر ذلك ويقول إننا افترينا عليه بعد ما قرره غاية التقرير وكرره غاية التكرير ، فأينما المفترى ؟! وأنى آخذ بيدك مرة أخرى فأضعها على ما افتراه تلبيسا وتدليسا على نحو ما يفعل المبشرون سموا بسواء ، فإنه نسب ذلك - الرأى الفاسد إلى بعض المفسرين كما قلنا ولا زلت

أكرر أتي أنجده أن يبين لنا ذلك المفسر الذي ذكر تلك الخرافة ،
وإلا فلست مفتريا كما يقول ، بل هو المفترى على الله بذكر ما لم
يرده في كلامه وعلى الرسول في مخالفة ما عرف من الدين بالضرورة
وعلى العلماء في الافتراء عليهم ونسبة ما لم يقواه إليهم غشا وتدليسا
وبعد فيصعب علينا أن نقول أنه متخبط لا يدري ما يقول ،
أو أنه غير ثابت على عقيدة واحدة أو أنه يلبس على الناس بذكر
الحق والباطل شأن ذوى الأغراض السيئة . ولكن نكّل الحكم إليك
بعد ما قصصناه عليك ويكفي هذا التعليق اليوم .

وأما ما نسبته للشيخ الغزالي فسنبين خطأه فيه أو سوء قصده
بأوضح الأدلة إن قدر لنا أن نكتب في الموضوع بعد ، ولتكن هذه
فرية ثالثة على الغزالي أيضا . ولكن نبادر فنقول للقراء إنه يستحيل
أن يقول الشيخ الغزالي أن الملائكة هي القوى الطبيعية والشيخ
لأيفهم الأشياء بالعقل وإنما يفهمها بالهوى . ومن أضل ممن اتبع هواه
بغير هدى من الله .

أسأل الله أن لا يجعلنا ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ولا ممن يدعون
إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء ، بمنه وكرمه :
قد أضاء الصبح للناس طرا ليس بعد الحق إلا الضلال

حديث الغرائق^(١)

ورد من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد عبد الحميد
قاضي مديرية دارفور سؤال يتلخص فيما يأتي :

إن مما ندين الله عليه تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل
ما جاء به ، وأنه من عند الله : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
يُوحَىٰ)^(٢) .

وقد جاء في بعض الكتب أن سبب نزول قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ)^(٣)
أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ في قراءة سورة النجم قوله تعالى :
(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ)^(٤) ألقى الشيطان على
لسانه : « تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » .

فكيف يتفق جريان مثل هذا على لسانه صلى الله عليه وسلم مع
قوله تعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ومع اعتقادنا
بالعصمة ، وأنه النبي المعصوم ، وهو المقتدى به في أقواله وأفعاله ؟

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثامن - المجلد الرابع سنة ١٣٥٢

(٢) سورة النجم ، الآيتان ٣ ، ٤ ،

(٣) سورة الحج ، الآية ٥٢ .

(٤) سورة النجم ، الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

وقد بعثنا إلى فضيلته جواباً مفصلاً تلخيصه فيما يأتي :

الجواب

الذي نعتقه ويجب أن يعتقده كل مسلم أن هذه القصة باطلة
لموضوعة ، فإن المسألة من أصول العقائد التي لا تكفي فيها أخبار
الأحاد ، بل هي من القطعيات لا من الظنيات ، وأن البرهان العقلي
لقائم على كذبتها . ولنسق لك شيئاً مما قاله أئمة النقل والعقل في
المسألة :

قال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . وقال القاضي
عياض في الشفاء : يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرج به أحد
من أهل الصحنه ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل .

وفي « البحر لأبي حيان » أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد
ابن إسحاق جامع السيرة النبوية ، فقال : هذا من وضع الزنادقة ،
وصنف في ذلك كتاباً . وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي : الصواب
أن قوله : « تلك الغرائق العلى » من جملة إيهام الشيطان إلى أوليائه
من الزنادقة : حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين الشبه ليرتابوا
في صحة الدين .

الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية . ويلزم على هذه الرواية أمور
كثيرة كل منها باطل وغير معقول :

١ - منها تسلط الشيطان عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله
عليه وسلم بالإجماع معصوم من الشيطان ، ولا سيما في مثل هذا من

أُمُورِ الْوَحْيِ وَالتَّبَايُغِ وَالْإِعْتِقَادِ . وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ^(١) وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ^(٢) فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ، فَكَيْفَ بِسَيِّدِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ؟ .

٢- ومنها زيادته صلى الله عليه وسلم في القرآن ما ليس منه ، وذلك مما يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم لمكان العصمة .

٣- ومنها اعتقاد النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه متناقضاً مع ما ذكر معه من الآيات غاية التناقض ، فإنه ذم الأصنام بما لا يزيد عليه في هذه السورة ، فقال : (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) ^(٣) وَقَالَ فِي حَقِّ عَابِدِيهَا : (إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِدَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى) ^(٤) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

فكيف يقال إنهم فرحوا بمدح أصنامهم ، وسجدوا معه في آخر السورة ؟ وكيف ينسب ذلك التناقض الشنيع والخطأ الفظيع له صلى الله عليه وسلم !

(١) سورة الحجر ٤٢ ، وسورة الإسراء ٦٥ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٩٩ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٢٣ .

(٤) سورة النجم ، الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

٤- ومنها أنه إما أن يكون معتقداً ما فهموه من مدح آلهم ، وهو محال عليه صلى الله عليه وسلم ، أو غير معتقد فيكون مُقِرّاً لهم على الباطل ، بل على الكفر .

٥- ومنها كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه الملك ، وهو يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم على غير بصيرة فيما يوحى إليه .

٦- ومنها أن هذا يجوز تصور الشيطان بصورة الملك ملبساً على النبي ، ولا يصح ذلك كما أوضحه القاضي عياض في الشفاء . وقال أبو بكر بن العربي : تصور الشيطان في صورة الملك ملبساً على النبي كتصوره في صورة النبي ملبساً على الخلق ، وتسليط الله له على ذلك كتسليطه في هذا ، فكيف يسوغ في لب سليم استعجازه ذلك !

والحاصل أن حديث الغرائيق مخالف للقواطع ، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعنى قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا)^(١) . الخ . لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة . وسنسمعك شيئاً في ذلك . وكون الشيطان ألقى ذلك على لسان بعض الرواة أقرب في العقل من كونه ألقاه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك كله يلزم على ما ذكره أن يكون للشيطان تسلط على وحى كل رسول وكل نبي زيادة على تسليطه على القرآن العزيز ، لقوله تعالى : (... مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي

(١) سورة الحج ، الآية ٥٢

أُمْنِيَّتِهِ (١) فَإِنَّ الْآيَةَ تَقْتَضِي عَلَى تَفْسِيرِهِمْ أَنَّ هَذِهِ عَادَةُ الشَّيْطَانِ مَعَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَصِفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ جَمِيعًا ، إِذِ الضَّمِيرُ فِي (تَمْنَى) يَعُودُ إِلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الرَّسُولِ الْعَامِّ ، إِذْ هُوَ نَكْرَةٌ وَاقِعَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، وَقَدْ اقْتَرَنْتَ بِمِنِ الْاسْتِغْرَاقِيَّةِ ، وَهِيَ حِينَمَا تُكُونُ نَصًّا فِي الْعَمُومِ .

وَلَا نَزَالَ نَكْرَرُ أَنَّ « الْعَصْمَةَ » مِنَ الْعَقَائِدِ الَّتِي يُطَلَبُ فِيهَا الْيَقِينُ ، فَالْحَدِيثُ الَّذِي يُفِيدُ خَرْمَهَا وَنَقْضَهَا لَا يَقْبَلُ عَلَى أَى وَجْهٍ جَاءَ . وَقَدْ قَدَمْنَا لَكَ أَنَّ الْأَصُولِيِّينَ عَدُوا الْخَبِيرِ الَّذِي يَكُونُ عَلَى تِلْكَ الصَّفَةِ مِنَ الْخَبِيرِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَ بِكَذِبِهِ .

وَقَدْ عَلِمَ مَا لِلنَّاسِ فِي ابْنِ أَبِي صَالِحٍ كَاتِبِ اللَّيْثِ وَأَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى تَضْعِيفِهِ ، وَلَا نَطِيلَ فِي ذَلِكَ ، وَيَكْفِينَا قَوْلُ الْبَيْهَقِيِّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أُنْمَةِ الْحَدِيثِ فَضْلًا عَنْ تِلْكَ الْحَجَجِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّهُ تَكَلَّمَ بِذَلِكَ سَاهِيًّا أَوْ نَاعَسًا فَيُورِدُهُ مَا قَرَّرُوهُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّمُ حَالَ عَدَمِ الشُّعُورِ إِلَّا بِمَا يَكُونُ مُسْتَقَرًّا فِي نَفْسِهِ ، مُنْتَقِشًا فِي قَلْبِهِ مُسْتَوَلِيًّا عَلَى لَبِّهِ ، فَيُظْهِرُ حِينَمَا عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رُويَةٍ . وَهَلْ يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ إِنْ مَدَحَ الْأَصْنَامَ كَانَ فِي نَفْسِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَظْهِرَ عَلَى لِسَانِهِ سَاهِيًّا أَوْ نَاعَسًا ؟ اللَّهُمَّ إِنْ ذَلِكَ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَلَا مَقْبُولٍ !

تفسير الآية على سبيل الاجمال :

المراد من الآية على سبيل الاختصار أن الله تعالى ما أرسل رسولاً من الرسل ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول

يتمنى الإيمان لأُمَّته^(١) ، ويحب لهم ويرغب فيه ، ويحرص عليه كل الحرص ، ويعالجهم عليه أشد المعالجة^(٢) ، وفي جملتهم نبينا صلى الله عليه وسلم الذي قال له الرب سبحانه وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ^(٣) أَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا^(٤)) وقال تعالى : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ^(٥)) وقال تعالى : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٦)) وقال : (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ^(٧)) إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى .

ثم الأمة تختلف كما قال تعالى : (وَلَكِنِ ائْتَلَفُوا فِيهَا لِيُبْنِىَ وَبُنِيَتٍ مُّؤْمِنِينَ وَرُوِيَ لَهُمْ فِيهَا رِزْقٌ ذَرِيرًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فِيهَا لِيُبْنِىَ وَبُنِيَتٍ مُّؤْمِنِينَ وَرُوِيَ لَهُمْ فِيهَا رِزْقٌ ذَرِيرًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فِيهَا لِيُبْنِىَ وَبُنِيَتٍ مُّؤْمِنِينَ وَرُوِيَ لَهُمْ فِيهَا رِزْقٌ ذَرِيرًا مِّنْ لَّدُنَّا)^(٨) فآما من كفر فقد ألقى الشيطان في نفسه الوسواس القاذحة في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضا لا يخلو من وسواس ، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب ، وإن كانت تختلف في الناس بالشدة والضعف ، والقلة والكثرة ، فمعنى (تمنى) : أنه يتمنى الإيمان لأُمَّته ، ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح . فهذه أمنية كل رسول ونبي ، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقى في قلوب أمة الدعوة من الوسواس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيهم الآيات الدالة على الوجدانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به .

(١) سورة الكهف ، الآية ٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٣

(٣) سورة يونس ، الآية ٩٩

(٤) سورة فاطر ، الآية ٨

(٥) سورة القرة ، الآية ٢٥٣

فتحصل من هذا أن الوسواس تلقى أولاً في قلوب الفريقتين معاً ،
غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين .

وصفوة القول : أن التفسير الصحيح لهذه الآية هو الذى يجمع
بين أمور ثلاثة : العموم الذى فى أولها ، والتعليل الذى فى آخرها
من قوله تعالى : (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ)^(١) (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)^(٢) ، مع
كونه يعطى للرسالة حقها .

وقد سعت القول الفاصل فى ذلك ، وليس يخفى عليك ما سواه ،
والله يتولى هدايتنا جميعاً بمنه وكرمه .

(١) سورة الحج ، الآية ٥٣

(٢) سورة الحج ، الآية ٥٤

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيُ مِنَ الْحَقِّ^(١)

صاحب النار يخطيء في المعقول
ويدلس في المنقول واليك البرهان

أما خطؤه في المعقول فيكفي في إثباته ما ادعاه في تفسيره من أن الملائكة هي القرى الطبيعية كالحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية والجاذبية « ولعلها من الملائكة المقربين » وقد نقل ذلك عن بعض المفسرين ، وإني أتحداه أن يذكر لنا ذلك المفسر ، ولو سلمنا صحة ذلك النقل « مع قطعنا بكذبه » لكان تسليمه إياه وعدم تعليقه عليه التزاماً لصحته . بل الأمر لم يقتصر على هذا فإنه حبه غاية التحبيذ ورد على مخالفيه القائلين إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكيل .

❑ واستدل على عدم وجود الملائكة بأنك لا تحدد أمكنتهم ولا تعرف مساكنهم ولا ترى من يكون منهم على يمينك ومن يكون منهم على شمالك وإنهم لا يسيرون لك في الظلام ، إلى آخر ما تهكم به على القائلين بأنهم أجسام نورانية ، وقد قلنا له إن عدم رؤية الشيء لا يدل على عدم وجوده ، ولو كان عدم رؤية الشيء دليلاً على عدم وجوده ما كان هناك من يؤمن بالله عز وجل فإنه لم يره أحد .

(١) مجلة الإسلام - السنة الثمانية - العدد العشرون - جمادى الأولى - سنة ١٣٥٢

وهناك فرق كبير بين عدم الدليل على الشيء والدليل على عدمه ،
مع أن قول المعصوم عندنا هو أكبر دليل ، وما معنى الإيمان بالغيب إذا
كننا لا نؤمن إلا بما رأينا .

وما الفرق إذاً بيننا وبين الماديين ، وقد قلنا له : إن هذا الاستدلال
مخجل لأهل المنطق ولو لم يكونوا أهل الدين ، وقد تخيل أن في هذه
القوى إدراكاً وشعوراً وإن لم يكن من جنس إدراكنا وشعورنا . ولكن
لايسهل عليه أن يقول مثل ذلك في سجود الشمس لله تعالى كما في
الحديث ، إلى كلام طويل عريض له مقال خاص إن شاء الله .

أما ما يقوله الماديون ويلهج به الأوربيون فهو على العين والرأس
لا يقبل رداً ولا تأويلاً .

بل يؤول له صريح القرآن ليقال إنه عصرى ومجدد .

ثم يزعم بعد ذلك أنه أراد بذلك هداية الماديين .

وما أدرى أهذا هداية للماديين أم ضلال للمسلمين وفتنة للجاهلين ؟
« فقد أراد أن يأخذهم فأخذوه وأن يهديهم فأضلوه » .

وقد قلنا له أى فرق بينك وقد تخيلت في هذه القوى الطبيعية
شعوراً وإدراكاً وبين ذلك الملحد الذى تخيل في الأثير مثل ما تخيلت
حيث يقول :

فعل الأثير خير سميع ولعل الأثير خير بصير

ولعل الأثير خير إله ولعل الأثير خير نصير

ومن العجيب أنه يرمى غيره بالجمود ولا أدرى من الجامد ،
أذلك الذى يقول إن العوالم كثيرة لا يعلمها إلا الله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ
إِلَّا هُوَ)^(١) وأن العلم لا غاية له (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(٢)
« ولذلك أمرنا أن نؤمن بالغيب ولا نقتصر على الحس » أم ذلك الذى
لا يعرف إلا المحسوس ولا يمكنه أن يخرج من تلك الدائرة الضيقة
التي يشاركه فيها الحيوان الأعجم الذى لا يؤمن إلا بما وقع عليه بصره
وأدركه حسه .

وقد دافع الشيخ رشيد عن نفسه بأنه وافق المسلمين في أن الملائكة
عالم نورانى مستعمل في موضع آخر غير تفسير البقرة ، ولم يدر أن
هذا معناه أنه متخبط أو متلون .

يوافق المسلمين في موضع والماديين في موضع آخر ، ولكن :

إذا لم تكن إلا الأسننة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

وقد طال بين القوم في هذا على غير قصد منا . وعسى أن يتبين به
مقدار منطق الشيخ ونبوغه في صناعة الاستدلال والبرهان .

وأما تدليسه في النقل وعدم تحريره فيه فقد قال في (منار ذى الحججة
سنة ١٣٥٠ هـ) إن حديث توسل آدم عليه السلام بنبينا صلى الله عليه
وسلم قد ذكره القاضى عياض في الباب الأول من الجزء الأول من الشفاء ،
فرجعنا إليه فلم نجد لذلك أثرا ولا خبرا وأمامك (المنار) المذكور
فارجع إليه ، ثم إلى كتاب الشفاء في الباب المذكور .

(١) سورة المدثر الآية ١٣

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

وقال في الجزء الأول من المجلد الثاني والثلاثين من المنار أن ابن حزم توفي في القرن السادس، مع أنه توفي سنة ٤٥٦ هـ . أى في منتصف الخامس تقريباً .

وقال رداً على الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الرحمن الجمجموني وأعد ما اعترض عليه في التشنيع على كعب الأخبار وقال له : إن البخارى وغيره يروون عنه . فكتب عبارته هذه في (الجزء الأول من المجلد السادس والعشرين بصحيفة ٧٣) ثم رد عليها وأراد أن يلبس على القراء بأن البخارى لم يرو عن كعب الأخبار فقال في صحيفة ٧٧ ما نصه : « وقد صرح الحافظ الذهبي في الطبقات ، بأنه ليس له شيء في صحيح البخارى وغيره » وأنت إذا راجعت « طبقات الحفظ للذهبي » وجدت ترجمة كعب الأخبار بالجزء الأول بصحيفة ٤٥ وفيها ما نصه حرفياً : (وله - أى كعب الأخبار - شيء في صحيح البخارى وغيره) . فانظر كيف دس في كلام الذهبي كلمة (ليس) لتقلب الكلام من الإثبات إلى النفي . فهل رأيت في أمانة النقل أعظم من هذه الأمانة التي تقلب الشيء إلى ضده ؟

وقد كان يظن أن « طبقات الحفظ للذهبي » لا توجد عند كثير من الناس ، فلما عرف أن الأمر قد اتضح وأن تلبيسه هذا قد عرف وهدد بنشر ذلك في الجرائد خاف أن يفتضح أمره ويظهر سره ، فاعتذر باعتذارا غير مفهوم ولا معقول في قصة يطول شرحها ولعلنا نعود إليها .

وفي الجزء الثاني من المجلد ٣٣ استشهد على رأيه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بعبارة المقریزی الذي أنكر على الطبندي الذي كان محتسباً بمصر .

وقد كان من الأمانة أن يبين أن هذا الإنكار من المقریزی كان سببه المنافسة التي كانت بينه وبين الطبندي في وظيفة الحسبة . إذا كان المقریزی يرى أن الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بدعة مذمومة فما باله لم يأمر بإبطالها وقد كان بيده الأمر عندما عاد لوظيفته الحسبة مرارا لغاية سنة ٨١٠ ، ولو كان الأمر على غير هذا ولم يأمر بإبطالها عنده كان محتسباً مع كونه يعتقد أنها منكر لكان ملوماً أكثر من الطبندي الذي أمر بها وهو يعتقد أنها غير منهي عنها ، وكان عليه أن يذكر مع ذلك أنه كان في ذلك العصر من كبار العلماء من تعنوا لهم الوجوه مثل السلقيني المتوفى ٨٠٥ وقد كان ممن بلغ درجة الاجتهاد على ما يقول السيوطي وغيره ومثل الحافظ العراقي وتلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني وغيرهم ، لم ينقل عنهم أنهم أنكروا ذلك ولو كان منكر ما أقروه ولا سكتوا عليه خصوصاً البلقيني فإنه كان مسموع اللمة وكان يحضر مجلس تولية السلاطين كما في « حسن المحاضرة » . فكان مقتضى الأمانة أن يذكر ذلك كله ولا يكتف من الحقيقة شيئاً .

وبعد هذا كله فكتب الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة بين أيدينا وأقوالهم معروفة فضلا عن الأدلة الواضحة التي ذكرنا كثيرا

منها في مجلة الأزهر ولو فرضنا أن هناك خلافاً لم يكن هناك وجه
للإنكار على فاعليها فإن المنكر لا ينكر على فاعله إلا إذا كان مجمعاً
على إنكاره ، ولكنهم بهت لا يطلبون الحق ولا يستطيعون الإنصاف ،
وسترى بعد هذا من أمانتهم وعقليتهم ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم .
وسنحاكمهم أمام العقل والنقل . وإن كان القوم يخطئون في المعقول
ويدلسون في المنقول . وسترى من ذلك شيئاً كثيراً إن شاء الله .

تعليقات :

تعالوا نتحاكم الى العقل والمنطق^(١)

والدعوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أديعاه

إلى جميع المسلمين شرقاً وغرباً :

نريد أن سبين جلية الحق للقراء فيما كان بيننا وبين الشيخ رشيد بما لعلهم عرفوا مداه ، أو سمعوا صدهاء (و ليعلم الشيخ رشيد أننا في أول المعركة) إن صاحب (المنار) قرر في تفسير قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)^(٢) من سورة البقرة صحيفة ٢٦٧ جزء أول من تفسير (المنار) أن (الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية) وستسمع ذلك " غاية التفصيل ، فشنعنا عليه في (مجلة الأزهر) الصادرة في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥١ بأن ذلك يخرق الإجماع ، ويصادم الكتاب والسنة مع شنائع أخرى نأتى عليها بعد . فقامت قيامة الشيخ رشيد وملاً الدنيا صرخاً وعويلاً وكتب في ذلك كثيراً - وكثيراً جداً كما يتعمرون - وقد شتم كثيراً واقدح كثيراً ولكن لا يهمننا ذلك . فكيف شتمت (الحمامة) الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بل كم قالوا في رسول الله

(١) مجلة الإسلام - السنة الأولى - العدد ٥٠ - شوال - سنة ١٣٥١

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠

صلى الله عليه وسلم. (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللَّهِ تَبْدِيلًا) (١) وما أحسن قول من قال :

ما كل شيء له جواب جواب ما يكره السكوت .

ونحن نلخص لك ما كتب تلخيصاً وجيزاً ، ثم نرد عليه فنقول :

يلمس القارىء من كتابات الشيخ المتضاربة التي يقول فيها بعضهم :
أنا لا أدري أيريد الشيخ من كتاباته الطويلة التي توجب الدوران أن يثبت
أم يريد أن ينفي ؟ نقول يلمس القارىء من تلك الكتابات أنه في حيرة
شديدة وارتباك بالغ ، ولا بد للمرتبك أن يتذبذب هنا وهناك . ولا يثبت
على حال واحد . (والمبطل لا بد أن يتناقض شاء أم أبى) .

وخاص تلك الكتابات على ما فيها من طول وفضول أجوبة ثلاثة ،
وأظن الشيخ لا يحس بذلك أو لا يعرفه .

(الجواب الأول) أيريد إثبات افتراءنا عليه وكذبنا فيما رويناه به
من أنه ذكر ذلك في سورة البقرة فيجيب عنه بأنه ذكر في سورة النساء ،
أن الملائكة عالم غيبي مستقل . فهل يرى أحد شم رائحة العلم أن ذلك
يثبت افتراءنا عليه وأى علاقة بين هذا البرهان وتلك الدعوى ؟ وسترى
من ذلك شيئاً كثيراً . وقد قلنا إن هذا أشبه شيء بمن ضبط متلبساً بجريمة
السرقه فأخذ يدافع عن نفسه بأنه تبرع بكذا وكذا لبعض الجمعيات
الخيرية . ومن الذى يبلغ الشيخ أن هذا فرار من الجواب لا تقرير له
أو نقول إن هذا مثبت للتهمة لا ناف لها .

فهو إلى الآن لم يجب عما آتهمناه به بحرف واحد . وأين سورة
البقرة من سورة النساء ؟ ولكن الشيخ يستدل بالجزئى على الكلى

أو بالشيء على ما يباينه عكس ما يوجبه المنطق الصحيح . فهو يقول :
سورة النساء ليس فيها إلا عقيدة المسلمين وإذن فكل سورة كذلك .
أفلا تعجب من هذا المنطق القلموني ^(١) .

(الجواب الثاني) إنه يتحركك بشيخنا وشيخه الشيخ محمد عبده
وكان يجب عليه أن يقيه بنفسه من ذلك الذي يقول فيه إنه كفر رميناه
به . ونقول له بعد ذلك (والله لا يستحي من الحق) (والتصريح لا بد
منه في هذا المقام مقام المحاكمة) إننا لا نصدق نقلك ولا نثق بفهمك
وقد أخبرني بعض كبار الشيوخ أنه كان يحرف في النقل ويخطيء
في الفهم . وكان الأستاذ الإمام يتألم من ذلك كثيراً . ولكن لأمر ما
كان يعطف عليه . ثم نقول : إن المسألة من أصول الدين ولا ينبغي
أن يكون الحكم فيها لغير الدليل والبرهان ، والشيخ رشيد يتمدح دائماً
بالاستقلال ويكثر من ذكر الأحرار المستقلين في المفهم . فما باله لا يرى
لنفسه وجوداً الآن .

بغياً وجبناً وإسفافاً وثرثرة لا يستوى الخصلتان الجبن والصلف
وقد قالوا قديماً : « كن ممن يعرف الرجال بالحق ولا تكن ممن يعرف
الحق بالرجال » وبعد هذا كله فلماذا لم يعلق عليه إذا كان غير صحيح
في نظره ؟ بل أقره وحبذه . أليس هذا غشاً للمسلمين أو سلوكاً
لطريق المبشرين ؟ ولا بأس أن نقول لصاحب المنار (ولا أدري أي عرفه
أم لا) ما قاله علماء البحث والمناظرة أنه متى التزم صحة المنقول كان
قائلاً به . ومتى كان قائلاً به كان محاسباً عليه . فليختر ما شاء من

(١) القلمون : من أعمال طرابلس الشام ، على ماني (الأعلام للأستاذ الزركلي رحمه الله).

جواب المنع وجواب التسليم ، ولعله يفهم هذا . وقد رجونه مرارا ورجونا القراء أن يرجوه معنا في ألا يتحركك بالأستاذ الإمام فإن ذلك لا ينفعه ولا يفيدده . ولا نعرف للأستاذ الإمام شيئاً صححت نسبته إليه في التفسير غير جزء (عم) أما ما عدا ذلك فهو بنقل الشيخ رشيد وهو غير مأمون عندنا لا في النقل ولا في الفهم .

(الجواب الثالث) إنكاره ما نسبناه إليه وادعأؤه أننا افترينا عليه وهو موضوع اليوم . وستعرف جليلة الحق فيما نتلوه عليك . وأرجو ألا تسأم فقد جعلتك قاضياً فيجب أن تدرس القضية درساً يمكنك من الحكم الصحيح وإن أعجب له كيف ينكر ما يمكن القارئ أن يطلع عليه فيراه بعينيه ويلمسه بيديه ؟ ولكن :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فلا يسمع المضطر إلا ركوبها وإليك بيان ذلك . يقول الشيخ رشيد تمهيدا لما يريد في تفسير قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ^(١)) . الخ : إن القصة التي وردت في هذه الآيات من باب التشابه فإما أن يلتزم التفويض كما هو مذهب السلف . أو التأويل كما هو مذهب الخلف . ثم نقل عن بعض المفسرين (ولا ندري) من هو ولعله من الباطنية إن صح أن يكون له وجود) إن القصة من باب التمثيل . وأن المراد من الملائكة القوى الطبيعية . وأطال في ذلك جداً (من صحيفة ٢٦٧ إلى ٢٧٥ من الجزء الأول من تفسير المنار) ثم حيد ذلك غاية التحديد ، وأورد شبيها كثيرة على اعتقاد أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل . وستسمع شيئاً من ذلك ، ثم قرب ما يقول بما استطاع من التقريب .

فمن ذلك تسميته تلك القوى الطبيعية أرواحاً وأن الإنسان قد يتخيل فيها حياة وشعوراً . وإذا كانت كذلك فلا مانع من تسميتها ملائكة . ويقول العاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات فما يسميه الماديون قوى طبيعية هو ما يسميه غيرهم ملائكة . وقد عبر القرآن عنها بالملائكة موافقة لما كانوا يسمونه من آباهم الأقدمين . ويقول إن المراد من سجود تلك الملائكة لادم عليه السلام هو تسخيرها له وانقيادها لطاعته . وأن المراد من إبليس هو تلك القوة الشريرة المودعة في نفوسنا التي لا يمكننا إخضاعها وتذليلها . إلى كلام طويل يجب أن يكون في رسالة خاصة مع بيان ما فيه .

وله في قصة آدم وجنته ما يقرب من ذلك حيث يقول (في صحيفة ٢٨١ إلى آخر ٢٨٣ من الجزء المذكور) إنه يصح أن تكون قصة تمثيلية وأن المراد من آدم هو الفرع الإنساني كله . وأن المراد من الجنة هو دور الطفولة ، آذى لا تعب يفقه ولا نصب ولا هم ولا غم . إلى آخر ما يجعله قصة خيالية ليس لاشخاصها وجود في الخارج . على نحو ما فعل الباطنية والبابية في القرآن حتى مرقوا من الدين كله بتلك التأويلات الفاسدة التي لا يصح أن تكون كلامنا فضلاً عن كلام الله تعالى ، أو نقول : على نحو ما فعل أبو زيد الذي كان يرد عليه الشيخ رشيد ويسميه ملحد دمنهور ولو جوزنا هذا التأويلات في مخاطباتنا ومعاملتنا لفسد العالم كله .

ولننتق لك شيئاً من عباراته بنصها ثم نعلق عليها (مناقشة في كلامه) ؛ يقول في الرد على المنكرين عليه إن الملائكة هي القوى

الطبيعية ما نصه : (لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذى يتخيلونه من لفظ قوة) ثم قال : (أوليست القوة هى ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له فإذا سُمى الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحاً فهل يضر ذلك بالدين أو ينقص معتقده شيئاً من اليقين) هذا كلامه . (وأقول أولاً : لا أدرى كيف يذكر ذلك لبيان براعته مع أنها تثبت التهمة عليه غاية الإثبات . ولعله أراد أن يكون مادياً صريحاً بالبرهان الذى يبرر ماديته ، ثم نقول ليس الكلام فى تسميته تلك القوة روحاً للطافتها أو خفاء حقيقتها إلخ : فإسماء لا حجر فيها ولا مشاحة فى أن يصطلح كل إنسان على ما شاء . ولكن الكلام فى أن هذا المراد من الملائكة التى ذكرها القرآن ، وقال إنها سجدت لآدم إلا إبليس وأنها حاورت ربه وأن هؤلاء الملائكة هم الذين قال لهم الله (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ^(١) وأن آدم قال لهم (أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ^(٢) إلخ . إلخ .

فالذى نعتقده أنها ذوات عاقلة يتأتى منها السجود والحوار والتعليم والتعليم إلى غير ذلك ، ونعتقد أنها ليست جزءاً من المادة الصماء ، البكماء ، العمياء . ولا قوة منطبعة فيها . ومن اعتقد ذلك لم يكن مؤمناً بالملائكة التى آمن بها المسلمون . ثم أراد أن يشكك الناس فيما يعتقدونه من أمر الملائكة فقال : ﴿ ولو أن مسكيناً من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكراً وأذربهم لساناً أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكيل ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نورانية الأجسام وهل

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣١

النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر .
ثم ينعكس عنه كذباً المصباح أو سلك الكهرباء ، وما معنى قابلية
التشكيل ؟ وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور
مختلفة حسب ما يريد ؟ وكيف يكون ذلك ألا يقع في حيرة . ولو سئل
عما يعتقد من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله .

وقال في ذيل الصحيفة في قولهم إنها أجسام نورانية : هذا هو
التعريف المشهور في كتب الكلام وغيرها . وأول ما يعترض به عليه
أنه لا يصح فيه معنى الجسم في اللغة ولأنه صار متأرفاً وإن لم يكن
مفهوماً هـ .

فانظر إن هذه الصرائح ثم إلى إنكاره لتعجب كثيراً ، ثم نقول :
إن القرآن نطق بأن الملائكة تتشكّل كما قال العلماء . قال عز وجل
في قصة مريم : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)^(١) وجاءت له السنة
الصحيحة : ففي الحديث المتفق عليه في بيان صفة الوحي : أن الملك
كان يتمثل له صلى الله عليه وسلم رجلاً فيكلمه فيعنى ما يقول . وفيه
أيضاً أنه كان يجيئه في صورة دحية الكلبي ، وقد جاءه في صورة
أعرابي في حديث الإيمان والإسلام والإحسان . وفي الصحيح أيضاً أنه
رآه على كرسى بين السماء والأرض ، وفيه أنه رآه قد سد الأفق .
فكيف غاب ذلك كله وأضعافه وأضعافه عن محدثنا الكبير
الشيخ رشيد ؟

ومن العجيب قوله : (وهل النور وحده له قوام يكون به ممتازاً . . . إلخ)
فإننا لم نقل إنه نور كهذا النور الذى نشاهده . وإنما قلنا إنه نورانى .
وشتان ما بين العبارتين ومن الذى ينكر أن فى الاجسام ما هو ظلمانى
ونورانى . ولطيف وكنيف . ومعتم ومشع . وهل يستطيع أحد أن يسوى
بين الراديوم والفسفور أو الأوكسجين وبين غيرها . فلو فرضنا أن الله
خلق من الراديوم أو الفسفور أو الكهرباء مخلوقاً كما خلق الجن من
النار ، أفلا يكون نورانياً ممتازاً عن غيره وقد كانوا يقولون إن العناصر
أربعة لكل منها أحكام خاصة تباين أحكام غيره ، وقد أصبحوا يقولون
إنها نحو الثمانين . وبالضرورة لكل واحد منها ظواهر تباين ظواهر
الآخر وما يدرينا أنها عند الله ألوف مؤلفة ولكل واحد منها ظواهر
تخصه . وهل هذا إلا حصر لمقدورات الله تعالى التى لا تتناهى فيما
عرفنا ، على أن ذلك غير صحيح بالنسبة إلى ما عرفنا أيضاً كما قلنا .
هذا وقد قال كثير من العلماء إن الله يخلق الذوات من المعانى وهو
على كل شىء قدير .

وقد خلق الأشياء من العدم وأخرج الضد من الضد مستندين فى
ذلك إلى ما ورد من وزن الأعمال وذبح الموت بين الجنة والنار ومجىء
مورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان تحاججان عن صاحبهما .
ومن قيام الأمانة والرحم على جانبي الصراط يمنة ويسرة ، وكل ذلك
فى الأحاديث الصحيحة . وقد جاء فى السنة من ذلك شىء كثير :
(كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ. إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (١)

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٧

فما معنى تلك الطنطنة وهاتيك الجمجمة ؟ وأما قوله إن كون الملك جسماً غير مفهوم فهو غير مفهوم ، فما المانع من أن الله يركبه من عناصر لطيفة نورانية كما قلنا أو يخلقه من عنصر واحد بسيط ، وأى مانع في العنق يمنع من ذلك .

ولا بأس أن نتمم هذا الموضوع بما ثقل عن علماء الأرواح مما يزيل استبعاد تشكل الملك . فقد سألوا الأرواح أو العن التي يستحضرونها عن ملابسها وصورها التي تظهر بها من أين تأخذها فأجابت أنها تأخذها من الأثير الذي هو مألئ الكون كله فبواسطته يمكنها أن تظهر بكل مظهر وتتشكل بكل شكل ومن العار أن يعترف علماء الاسبرتزم (استحضار الأرواح) بذلك ويعرفوه ويؤمنوا به ونحن هنا نذكره : وقد جاء في كتابنا وسنة نبينا بل لم يتم الوحي الذي هو أصل الدين كله إلا به ، وأما ما يقرره الفلاسفة من أنها جواهر مجردة فلا يفهمه الشيخ ولا بالتفهم ولا نفيض فيه .

وبعد هذا فما لنا ولمعرفة كنه الأشياء وحقائقها ؟ فليس النزاع في ذلك وإنما النزاع في وجود شيء خارج عن المادة وقواها يسمى ملائكة وفي أن الإيمان بكل ما في المادة من تنصائصها وظواهرها لا يعد إيماناً بالملائكة التي أرادها الله . ولا ينبغي أن يروغ الشيخ عن محل النزاع إلى هنا وهناك فإن الأمر معروض على الخاصة لا على العامة . وأهل الجهل يمكنه الملائكة يدعوا إلى ذلك كله ؟

أم الحق أنها أهواء معها براءة في التلبس ونبوغ في التلبس ومع هذا فالشيخ يدعي أنه سلق لا يرى غير مذهب السلف الذين

يفوضون ولا يؤولون . ولكن المبطل لا بد أن يفتضح أمره ويظهر سره
مهما حاول كتابه أو تمق بيانه .

وليعلم بعد هذا أننا لم ندرك كنه أنفسنا بل ولا كنه شيء من
الأشياء التي يقع عليها حسنا وإنما نعرف منها ظواهرها لا غير -
وأما حقيقتها وكنهها ولماذا كانت تلك الظواهر وكيف تكونت هذه
الأشياء وما أوائلها فلا سهيل إلى معرفته . وقد نقلنا ذلك عن أساطين
علم الطبيعة بأوروبية في مقالاتنا التي رددنا بها على الطبيعيين في مجلة
الأزهر من سنتها الأولى ، خصوصاً العدد الثاني من تلك السنة ، فليس
الجهل بالكنه خاصاً بالملائكة؛ بل هو عام في كل شيء . وبعد هذا
فلو كان الإيمان متوقفاً على معرفة الكنه لم يكن أحد مؤمناً بالله عز وجل .

ثم قال مفرعاً على ما ذكره من تلك التشكيكات : (فليرجع
هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف
لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة) ونقول له إنها علوم بلغت عندنا
أعلى مراتب اليقين والله الحمد . وما ذكرته من الشبه هو أوهى من
بيت العنكبوت .

ثم نقول لك ولمن هو على مذهبك : ارجعوا إلى أنفسكم فإن الذي
وقر فيها هو مذهب الماديين لا مذهب المسلمين . فإن الله لا يريد أن
نؤمن بتلك القوى التي نعرفها في المادة ولو كان الأمر على ما زعتم
لكان الماديون أرسخ قدماً منا في الإيمان بالملائكة ، وليت شعري ما فائدة
ذلك العناء فيأتي أراه عبثاً صرفاً لا ينفعنا ولا ينفع الماديين فإن ذلك
غير كاف في الإيمان بالملائكة .

والحقيقة أنكم وافقتم الماديين ولم يوافقوكم وأردتم أن تأخذوهم
فأخذوكم .

أسأل الله ألا يجعلنا من كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم
تأويله ولا من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعاً . ولا من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه
وهو ألد الخصام . وموعدنا ببقية التعليقات المقال الآتي وسترى فيه
أعجب من هذا .

تفسير قوله تعالى :
إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ
ذبيان بعض آيات الله في مخلوقاته

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)^(٢)

اعلم أن الله أمرنا بالتفكير في مخلوقاته وما أودعه فيها من الأسرار الناطقة
بوحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ، وذكر لنا نماذج من تلك
الآيات في كتابه العزيز فقال : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)^(٣) وقال : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)^(٤) وقال : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)^(٥) (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)^(٦) .

وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : « يكفيني في الدلالة على الله
وإبطال قول الماديين وجود الأنثى بجانب الذكر ، فمن الذى أشعر
المادة الصماء العمياء أن بقماء نوع الإنسان يتوقف على وجود المرأة بجانب

(١) مجلة الازهر - الجزء الثانى - المجلد الخامس - سنة ١٣٥٣

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٣ ، ٤ (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٧

(٥) سورة الروم ، الآية ٢٠ . (٦) سورة الروم ، الآية ٢١

الرجل . فأوجدت له الأنثى وامتعتها بكل ما يوجب ميل النفس إليها ،
وفرقت بينها وبينه في الخصائص والمميزات حتى في صوتها ؛ الخ .

وقال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ
الَّذِينَ فِيكُمْ) (١) (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ
مِنْ قُضِيِّهِ) (٢) (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (٣) (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) (٤) وقال تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي
أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٥) وقال : (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ
أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ : مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ : ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) (٦) وقال
عز من قبائل : (أَلَمْ نَحْمِلْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ : فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .
إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا نَدَاءً فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ) (٧) وقال : (أَوَلَمْ يَرِ
الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (٨) وقال : (أَرَيْحَسِبُ
الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَنِيٍّ يُعْتَبَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) (٩) وقال : (أَوَلَمْ
يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) (١٠)

(١) سورة الروم ، الآية ٢٢ (٢) سورة الروم ، الآية ٢٣

(٣) سورة الروم الآية ٢٤

(٤) سورة الروم ، الآية ٢٥ (٥) سورة الذاريات ، الآية ٢١

(٦) سورة عبس ، الآية ١٧ ، ٢١ ، ١٩

(٧) سورة المسلات ، الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ (٨) سورة يس ، الآية ٧٧

(٩) سورة القامعة ، الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ (١٠) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

وقال : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) . وقال :
(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)^(٢) .
وقال : (وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ)^(٣) . إلى آخر ما جاء في الكتاب العزيز مما لا يكاد يحصى .

وقد روى : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . بل جاء في بعض
الروايات : « خير من ستين سنة » . وفي بعضها « خير من ثمانين سنة » .
ولكنها قد تكلم فيها وهي صحيحة المعنى .

فرب فكرة توصلك من محض الإيمان وصريح الإيقان . وتعرفك
من عظمة الله وجلاله ما لا تنفع فيه عبادة السنين المتطاولة ولا الجهود
الشاقة . وأنى لعبادة الظواهر أن تصل من تطهير القلوب إلى ما تصل
إليه الفكرة في بديع صنع الله الذي يملأ قلبك هيبة وخشوعاً وسرك عظمة
وإجلالا .

وعن عطاء بن أبي رباح قال : « انطلقت أنا وعبيد بن عمير بن
قتادة الليثي قاضي أهل مكة إلى عائشة رضي الله عنها وبيننا وبينها
حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « زر غيباً تزدد حُباً » قال ابن عمير : فاخبرينا

(١) سورة الرمز ، الآية ٩

(٢) سورة المجادلة ، الآية ١١

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبكت
وقالت : « كس أمره كان عجباً : أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم
قال : ذريني أتعبد لربي عز وجل ، فقام إلى القربة فتوضأً منها ، ثم
قام يصلي ، فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم
اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يا رسول
الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال :
وَيَحْكُ يَا بِلَالُ مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ (إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (١)
ثم قال : « وَيَلُّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » .

رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في
التفكير وابن عساكر ، كلهم عن عطاء .

وفي بعض الروايات « ثم قام فصلى فبكى حتى سالت دموعه على
صدره ، ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم
يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة » ويعجبني كثيراً قول من قال :

تبصر حيث كان لك التبصر وفي ذات الإله دع التفكير

وإن ترد الهيمن حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر

إلى آثار ما صنع المليك

إلى أن قال :

شموس في البرية طالعـات زجـوم في الـدياجـى مشـرقـات
عيون من لجين شـاخـصـات على قـضـيب الـزـبرجـد شـاهـدات

بأن الله ليس له شريك

وكان سفيان الثوري كثيراً ما ينشد :

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وليسـت دلائـل الـوحدانـية وآيـات الـقدرـة مـختصـة بشـيءٍ دون، شـيءٍ ،
بل هـى في الصـغـير كـما هـى في الـكـبـير ، وفي الـحيـوان كـما هـى في الـإنـسان ،
وفي الـبر كـما هـى في الـبـحـر ، وفي الـأرـض كـما هـى في الـسـماء ، ولله در
أبي العتاهية حيث يقول :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ويقول أمية بن أبي الصلت :

عـاج لـقـلب مـن هـواه أـدكار وليـال خـلالهـن نـهار
وجـبال شـوامـخ راسـيات وعيون مـياهن غـزار
ونـجوم تـلوح في كل فـج مشـرقـات وفي الـدجـى أقـمار

إلى أن قال :

والذي قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدى واعتبار

وقبل الخوض في تفاصيل بعض الجزئيات نذكر كلمة وجيزة عن
سعة الكون وعظمته فنقول :

كنا نقول فيما رويناه عن سلفنا الصالح أن الأرض بالنسبة إلى السماء
الأولى كحلقة ملقاة في فلاة ، والسماء الأولى بالنسبة إلى الثانية كحلقة
ملقاة في فلاة ، وهكذا إلى أن نقول : إن السموات السبع بالنسبة إلى
الكرسى كحلقة ملقاة في فلاة ، وكذلك نسبة هذه العوالم كلها إلى العرش ..

ونقول عند الرفع من الركوع : « ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً
طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض وملء بينهما وملء ما شئت
من شيء بعد » .

فاسمع الآن ما يقوله أرباب العلوم الحديثة الذين لا يروون عن رسول
ولا يقولون بالروايات والأخبار ، ولكن بالمشاهدات التي أوصلتهم إليها
آلاتهم الحديثة مثل التلسكوب « المنظار المقرب » والشعاع الطيفي
الذي جعل ما كان مغيباً خفياً مشاهداً محسوساً .

وقد اصطلاحنا في بيان المسافات البعيدة على ذلك المقياس الذي
نعرفه في عبارتنا العصرية أعني الكيلو متر ، ولكنهم رأوا أن ذلك
المقياس ضئيل جداً لا يغني فتياً في موضوع بيان سعة العوالم وبينان
أبعادها . فماذا جعلوا من المقاييس ؟ جعلوا المقياس لذلك شيئاً يسمى
برسكا ، وما البرسك ؟

هو مقدار سير النور مدة ثلاث سنوات وسدس ، وما مقدار ما يسيره النور في سنة؟ أو نقول : وما هي السنة النورية؟ .

السنة النورية أمر يفوق الوصف ولا يكاد يصدقه العقل ، فإن النور يسير في الثانية ٣٠٠ ألف كيلومتر . وإياك أن تقول أن ذلك في الدقيقة وإنما هو في الثانية التي هي جزء من ستين جزءاً من الدقيقة . فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس ، وهو ما جعلناه مقياساً . فانظر الآن ما يكتبونه عن بعض السدم البعيدة عنا .

يقولون إن سدِيم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك ، أي نحو ١١٠ ألف سنة نورية ، وإن السدم التي تمكن العلم من قياسها هي كما يأتي :

١ - ستة سدم تبعد عنا ٦٥ برسكا ، أي نحو ٢٠٧ سنة إذا سرنا إليها بسرعة النور .

٢ - ثلاثة نجوم سدِيمية معروفة باسم (نوبا) تبعد عنا ١٧٥ برسكا ، أي نحو ٤٣٥ سنة نورية .

٣ - خمسون سدِيماً مظلاماً ونيراً تبعد عنا ٣٢٠ برسكا أي نحو ١٠١٤ سنة نورية .

٤ - سبعون سدِيماً تبعد عنا ٩٠٠ برسكا . وندع الحساب إليك فلا تطيل به .

٥ - تسعة وستون سدِيماً تبعد عنا ٢٣ ألف برسك .

٦ - سدیمان حلزونیان علی بعد ٢٠٠ ألف برسك .

وهذا البيان مأخوذ من تقرير رفع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا
فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ .

وقد قال بعضهم عندما أدهشته سعة العوالم : إن هذه العوالم
لا نهاية لها . وقد وقفت آلاتهم الحديثة على عظمتها وشدة التفنن فيها
أثناء تلك العوالم ولا يدرون ما وراء ما اكتشفوه . ألا يعرفنا ذلك صغرننا
وضالة أمرنا ويفهمنا معنى قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)^(١) وقوله :
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)^(٢) وَقَوْلُهُ : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٣) .
وقوله صلى الله عليه وسلم « سبحانك لانحصى ثناءً عليك أنت كما
أثنيت على نفسك » .

ويعجبنى قول اللورد (أوفبرى) الإنجليزى فى كتابه (محاسن
الطبيعة) عندما ذكر شيئاً من سعة العوالم التى لا تكاد تتناهى :
« فليكسر الحسّاب أرقامهم وليطووا أوراقهم ، فإن الأمر فوق العد
والحساب .

وقد ذكروا أن أرضنا هذه أصغر من الشمس بألف وأربعمائة مرة .
وذكروا أن الشعرى أضواً من شمسنا هذه بنحو خمسين مرة ، وأن
بنات نعش أضواً منها بنحو ثلاثمائة مرة ، وأن السماكين أضواً منها
بنحو ستمائة مرة ، ولكن بعدها الشاسع جعلنا منها إلا الضوء الضئيل .

(١) سورة يس ، الآية ٣٦

(٢) سورة المدثر ، الآية ٣١

(٣) سورة النحل ، الآية ٨

أما شمسنا هذه فهي قريبة منا قريباً نسبياً ، فإن الضوء ياتينا منها في مدة ثمانى دقائق وثمانى عشرة ثانية .

وقد اقتضت حكمة الحكيم أن يجعل الأرض على هذا البعد : لأنه لو جعلها بعيدة جداً لم ننتفع بحرارة الشمس ولا ضوءها هذا الانتفاع . وإذا لا يكون على الأرض نبات ولا حيوان . ولو جعلها قريبة من الشمس جداً لكانت كمنار جهنم ، فلم يعيش عليها حيوان ولا إنسان . فسبحان الحكيم العليم .

وإني أود أن تتخيل الأرض حينما كانت كتلة نارية كما هو باطنها لأن أو أشد ، وقد ذكروا أنه يصهر الصخور . فقل لي بعيشك كيف صارت بعد ذلك محل العجائب والغرائب ؟ فقد جعلها الله مخزناً لكل ما نحتاج إليه من مساكن وملابس وغاز ووداء ، بل من رجال ونساء ، فإننا خلقنا منها (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)^(١)

فكم يكون دهشك إذا قارنت ذلك كله وأضعافه وأضعافه إلى حالتها الأولى عندما كانت كتلة نارية ، وهل يشتمل الشيء على ضده ؟ وهل يكمن فيه ما يباينه؟ وهل يكون من عناصره ما يتناقى هو وحقيقته ؟ وماذا عسى أن تكون تلك ؟ النار التي اشتملت على تلك ؟ العجائب والأسرار حتى أصبحنا نطلب منها ما نأكل وما نشرب وما نلبس وما نسكن وما ننكح . إلخ ؟

فسبحان من لا يعرف قدره غيره ، ولا يبلغ الواصفون صفته
(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَانِّي
تُؤْفِكُونَ) (١).

ولا بأس أن نقول بعد هذا كلمة صغيرة عن السلسلة الحيوانية
التي تبتدىء بتلك المكروبات المتناهية في الصغر :

فقد ذكروا أن آلاف الآلاف منها تعيش في نقطة ماء صغيرة وتنمو
هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر في القنار . ويقولون : إن
هذه الحيوانات لا يساوى هيكل الواحد منها جزءا من ١٨٧ مليون جزء من
القمحة . ومع هذا الصغر المتناهي لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها
ما يهضم به طعامه وما تتم به حياته من الأعضاء الباطنة والظاهرة ،
فإذا تناهى حيوان في الصغر فماذا عسى أن تكون تلك الأعضاء .

وقد كما نمثل بالذرة لأصغر الأشياء ونؤمن تقليدا للقرآن بأن
هناك أشياء أصغر من الذرة حيث أشار إليه في بعض آياته ، ونقول
ليتنا نعرف ما هي تلك الأشياء التي تكون أصغر من الذرة : فإن الله
يقول في بين سعة علمه المحيط بكل شيء : (وما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ
مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (٢) حتى أبانت لنا الاكتشافات الحديثة أمر
المكروبات أن صغرها ، وأسمعتنا غريب حديثها ، فقلنا عن عيان
ووجدان : صدق الله العظيم حيث يقول : (وما أَوْفَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٥

(٢) سورة يونس ، الآية ٦١

إِلَّا قَلِيلًا) ^(١) (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ^(٢) .

ثم تترقى في سلسلة الحيوان من تلك الحيوانات الدنيا إلى أن تصل
إلى نوع الحيوانات العليا كالفيل بل ما هو أعظم من الفيل مثل الهيئة
التي تزيد على الفيل خمس مرات . ثم من حيوانات البحر ما يكبر جدا
حتى يظن أنه جزيرة في البحر .

وفي البخارى أن المسلمين وقعت لهم سمكة « من البحر الأحمر »
أكلوا منها شهرا ، وكان أطول رجل فيهم يركب على جمل ويعر من
تحت أنحناء ضلع من أضلاعها . أو كما ورد .

فانظر رعاك الله إلى هذه السلسلة العجيبة التي لا تتقيد بقيد
ولا تنضب بحال . فإن قلنا : لا بد لها من فقار كالبقر والطيور
والضفادع والسمك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو
أسفل منها كالعنكبوت والحشرات الدنيا . وإن قلنا إن الحياة لا بد
فيها من قشور في ظاهر الحيوان ، رأينا الحيوانات الهلامية لا قشور
فيها . وإن قلنا إنه لا بد من رؤوس ، كذبتنا الحيوانات التي ليس لها
رؤوس . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلب الجسم . ورد علينا
النقاعيات والاسفنجيات ، إلى آخر ما لا يمكننا شرحه .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة فصلت الآيات ٤١ ، ٤٢

فها أنت ذات ترى الحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال
فلا يصد عنها بر ولا بحر ولا هواء ولا رخاوة في الجسم ولا عدم
الرأس ولا فقد الفقرات ، ولا قلة الحواس .

ثم انظر بعد هذا تجد حيوانات يقتلها الأكسوجين وتعيش
نحت التراب ، أو نقول لا يمكنها أن تعيش في الهواء العاصف ،
وحيوانات لا تعيش إلا في الهواء كالطيور ، وحيوانات لا تعيش إلا
في البر كالإنسان ، وأخرى لا تعيش إلا في الماء كالأسماك .

فسبحان القادر على كل شيء (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)^(١)
(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)^(٢) (مَا تَرَى فِي
خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ
الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)^(٣) (وَمَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)^(٤) «سُبْحَانَكَ لَأَنْحَضِيَ ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ
نَفْسِكَ» .

وان شئت أقرب من ذلك كله فانظر إلى نفسك وما فيها من
عجائب الصنع وبدائع الخلقه ، وما اشتملت عليه من الأسرار الظاهرة
والباطنة وقد قالوا قديما : « نظرك فيك يكفيك » .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢

(٢) سورة السجدة ، الآية ٧

(٣) سورة الملك ، الآية ٣

(٤) سورة الأندام ، الآية ٩١

ولنقل كلمة إجمالية جدا عن بعض ما في الانسان :

إن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي عظم ، ولكل منها شكل مخصوص يناسب ما نيط به وما خلق لاجله ، واولا ذلك لتمطت حركاتنا التي نأتيها كل وقت وساعة . ثم انظر كيف خلق لك الكبد والمعدة والرئتين والكليةتين الخ . الخ ، وكيف ناط. كل واحد منها يعمل مخصوص ، ثم أوجد لك الفم وأنبت فيه الأسنان المختلفة ليضع بها الهضم الأول ، ثم جعل لك غطاء يغطي مجرى النفس عند البلع ، وجعل لك مجرى مخصوصاً للطعام والشراب ، وآخر للنفس ، وجعل للمعدة بابين للدخول والخروج ، وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة ، ثم جعل سبيلين بعد ذلك لإخراج الفضلات التي لو بقيت في الإنسان لأهلكته .

ثم انظر بعد ذلك إلى مافيك من المفاصل وتركيبها العجيب ، ولولا ذلك لاختلت أحوالك ووقفت أعمالك ، وكنت إذا أردت أن تدام وقعت على الأرض دفعة واحدة كالشجرة حين تقع ، أو الحائط عندما تسقط .

ثم انظر إلى العين وتركيبها الذي يدهش الأنظار ويه الأفكار .

فانظر إلى ما اختير لها من وضعها في الحجج ، وجعلها أمام البدن لتكون حارسه للأعضاء الشريفة التي غطاها. ضعيف كالبدن والوجه إلى أسرار أخرى .

وأيضاً الأعضاء الخارجية كاليدين والرجلين من الأمام ، فتكون العين مشاهدة لأعماله . وماذا يكون الحال لو وضعها في رأسك أو في رجلك .

ثم انظر كيف كان الجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الإنفال ، والأهداب تمنع الغبار ، وتدخل الضوء عند الحاجة إليه كما في أوقات هبوب الرياح . وقد قال بعض الفلاسفة : «يكفيني هدب العين في دلالة على الله » .

ثم انظر كيف ركبت العين من ست طبقات بديعة الصنع غريبة الترتيب وهى : القرنية والعنبية والعنكبوتية والشبكية والمشيمية والصلبة . وهذا شرح طويل لا يسعه هذا المقال . ثم انظر كيف جعل داخل الأذن مصفاة تقمك ما عسى أن يكون من غبار يعكر عليك صفوك وكدر منك أنفاسك .

ولاً ، كدنا أن نسير بك في بحر تلك العجائب التي لا يدري الناظر فيها أيها أعجب .

ولو شرحت لك عجائب الأذن لكان عجبك أكثر ودهشك أشد . ولو ذكرنا لك ما للكرات البيضاء والحمراء من الوظائف ، وما يذكرونه الآن عن الغدد التي اكتشفوها حديثاً وما لها من الوظائف التي هي أعجب من كل عجيب ، لطال القول واتسع المجال .

ولو ذكرنا ما وراء ذلك من أسرار الباطنة كالشعور والإدراك والتذكر والتخيل ، إلى غير ذلك ، لوقعنا من الروحانيات في بحر

لَا يَعْرِفُ لَهُ سَاحِلٌ وَلَا يَدْرِكُ لَهُ قَرَارٌ (وَمَا نُزِّيهِمْ مِنْ عَمَاءٍ إِلَّا هِيَ
أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا)^(١) .

وإجمال القول أننا غارقون في الآيات ، ولكننا لانلتفت إليها
لكثرتها وتكررها ، حتى أصبحت مألوفاً معتادة ، وكل ما تكررت
مشاهدته سقط وقعه . وها هي ذى النجوم تطلع كل ليلة ، والشمس
تشرق كل نهار ، ولا نكاد نلتفت إليها أو نفكر فيها ، اكوننا
نراها كل يوم وكل ليلة .

وقد كنا ننظر إلى الطيارات أول ما ظهرت ، فلما تكررت رؤيتها
سقط وقعها فلم ترفع النفس بها فلا نكاد نلتفت إليها الآن .

ولو قال لك قائل : أنه رأى نقطة ماء قدرة لا يعبأ بها . ثم رأى
رجلاً سمياً بصير مناضلاً مجادلاً فياسه وفأ قد خرج من تلك النقطة
الحتيرة ، لعادته مصابياً في عقله أو هازئاً بك غير محترم لعقلك .
ولكنك تشاهد ذلك الذى عدده خرافة أو جنوناً كل يوم ، فما
ذلك الشجاع الباسل ، ولا ذلك العالم المتفنن ، ولا تلك الغوانى
القاتنات ، إلا من نقطة ماء قدرة تعافها النفس وينفر منها الطبع
نقلتها القدرة الالهية في تلك الأطوار العجيبة حتى جعلتها من نوع
البشر ذى السمع والبصر ، فسبحان القادر الذى لا تحد قدرته ولا
تتناهى عظمته (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)^(٢) .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٨

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

وقبل إلقاء لقمه نضحك كما ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : روى أن واحدا قال له : إني أتعجب من أمر الشطرنج ، فإن رقعته ذراع في ذراع ، ولو لعب الإنسان ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد . فقال عمر رضى الله عنه : هنا ما هو أعجب من ذلك وهو أن مقدار اوجه شبرا في شبرا ، ثم إن مواضع الأعضاء التي آفیه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا تتغير البتة . ثم إنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب لا يشتبهان في الصورة اشتباهاً يوجب أن لا يتميذا ، بل سمعت من بعض المبرزين في الطب أننا لو قارنا بين أنفيز فضلا عن الوجهين لم نجدهما يماثلان من كل وجه . فسبحان المطيف الخبير .

وقد قالوا من الذين كل إنسان هيئة خاصة لا تماثلها هيئة بنان إنسان آخر من كل وجه . ولهد تراهم يلزمون الأئمة الذي لا يقرأ ولا يكتب أن يوقع ببهمة في الامور برسمية علماء منهم أن إهامه لا يماثله إهام شخص آخر ولا يمكنه فيه ادعاء التزوير .

ولعل القرآن خص البنان بالذكر في قوله تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانا)^(١) لهذه الحكمة ، ولعل فيه حكماً أخرى ، ولقد تعرض المفسرون لشيء منها

ولا بأس أن نذكر لك هنا ما يروى عن أبي حنيفة مما يناسب هذا المقام : يقال إنه جاء جماعة من الدهرية لأبي حنيفة رضى الله عنه أ

(١) سورة القيامة ، الآية ٤

وطلبوا منه ليلاً على وجود الله عز وجل ، فقال : ما تقولون في خشب قطع من الأنجار بلا نجار ، واجتمع من تلقاء نفسه ثم كون سفينة تجرى في البحر ، وهي مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال ، فقد احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهي مع ذلك كله تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يرعاها؟! فهل يبرز ذلك في العقل؟ قالوا: لا ، هذا شيء لا يقبله العقل. فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله ! إذا لم يجز في العقل سفينة تجرى في البحر مستوية من غير متعهد يرعاها ولا ربان يدبر أمرها ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وشدة أعمالها وسعة أطرافها وتباين أركانها من غير صانع يكلؤها وحكيم يدبرها؟! فاعرفوا جميعاً وقالوا : صدقت .

وقد أذير إلى هذا الدليل الذي يذكر عن أبي حنيفة في القرآن الشريف حيث يقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)^(١) ولنختم مقالنا هذا بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْنَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)^(٢) وا

ولنقف اليوم عند هذا الحد ، ولعلنا نعود إليه في رصة أخرى .
إن شاء الله .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٣

(١) سورة الروم ، الآية ٢٥ .

(١)

خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(٢) :

رأينا أن نفسر لك الآية الكريمة تفسيراً يوضح معناها ويبين مغزاها وإن كان موجزاً ، ثم نذكر لك بعد ذلك متممات فيها فوائد بديعة وأنظار رفيعة ، فنقول :

(إن في خلق السموات والأرض) وما فيهما من الآيات البينات والبدائع المدهشات التي ستسمع بعضها ، وتخصيصها بخصائصها التي كان يجوز عليها ألا تكونها ، وأن تتصف بأضدادها .
(واختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما وكون كل منهما خلفاً للآخر ، أو اختلاف كل منهما في نفسه ازدياداً وانتقاصاً أو ظلمة ونوراً .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول - المجلد الثامن - المحرم سنة ١٣٥٦

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤ .

(وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) من التجارات المختلفة وتبادل المنافع بين الأمم ، فيأخذ الشرق ما نبت في الغرب ، ويأخذ الغربي ما نبت في الشرق .

الفلوك يستعمل مفرداً كقوله تعالى : (فِي الْفُلُوكِ الْمَشْحُونِ)^(١) وجمعاً كما في قوله : (فِي الْفُلُوكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ)^(٢) . أما الاستدلال به فمن حيث أن إلهام صنعته من الله تعالى ، وكذا العلم بكيفية إجرائه وتسخير الريح والبحر لذلك ، أو أنه سبب الاطلاع على البحر وعجائبه وعلى كل حال فمادة الفلوك والبحر والريح وفعل الإنسان وإصلاح أمره كله من خلق الله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)^(٣) (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ)^(٤) .

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) بتهييج قواها النامية ، وإظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والأزهار والأشجار (بَعْدَ مَوْتِهَا) باستيلاء اليبس عليها حسبما تقتضيه طبيعتها .

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) : معنى بث الدواب تكثيرها بالتوالد والتولد .

(وَتَصْرِيْفِ الرِّيَّاحِ) أي تقليب الله تعالى لها جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبوراً ، حارةً وباردة ، وعاصفةً وليئة ، وعميقاً وملقحة ،

(١) سورة الشعراء ، الآية ، ١١٩ وسورة يس ، الآية ٤١

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢

(٣) سورة الصافات ، الآية ٩٦ .

(٤) سورة هود ، الآية ١٢٣

مرة بالرحمة ومرة بالعذاب. وليس يخفى ما في التصريف الرياح من تربية
النبات وبقاء حياة الحيوانات التي تدب على وجه الأرض .

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : معنى تسخير السحاب :
أن الله يمسكها بين السماء والأرض ، مع أن الطبع يقتضى صعوده
إن كان لطيفاً وهبوطه إن كان كثيفاً ، ثم يسوقه إلى ما شاء من بلد
ميت فيحيي به الأرض بعد موتها .

(لَا يَاتِ) أى : آيات عظيمة كثيرة دلالة على القدرة القاهرة
والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : فيه تعريض بأن من لم يتفكر فى آيات الله
فهو معزل عن العقل .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ
مَثْوًى لَهُمْ) (١) (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) (٢) الخ .

هذا وقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضى الله
عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : « وَيَلْ لِمَنْ
قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » .

وإنما قيل آيات بصيغة الجمع نظراً إلى المذكورات كلها ، ويصح
أن يراد كل واحد منها على حدته ، فإن من تأمل أى هذه الآيات وجد
كل واحدة منها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى

(١) سورة محمد ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

ووحداً نيته وسائر صفاته الكمالية ، إذ كل منها قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده ، فضلا عن وجوده على الوجه الخاص المستتبع لتلك الآثار الجليلة وهاتيك المنافع الجميلة .

وبعد : ففي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية ، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة .

﴿ ١٠٧ ﴾

متممات :

١ - إذا نظرت إلى النهار والليل في السنة كلها وجدتهما يتساويان . أى أن ساعات أحدهما في السنة تساوى ساعات الآخر .

٢ - اختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية يدعو إلى اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فتسرى الأمطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين للدوران الأفلاك وسير الشمس في البروج . وبذلك الترتيب البديع تنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان . أما الرياح فتذهب فتسير السفن كما تسير السحب ، فلا يتحرك السحاب إلا بالرياح ، وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية .

ولا شك أن هذا العالم على هذا لنسق يحتاج أدناه إلى أعلاه ، والأعلى مفيد للأسفل ، والأسفل مستمد من الأعلى ومستفيد منه ، وعليه أصبح هذا العالم كجسم واحد .

ومادورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس أو الأعمار
إلا كدورة الدم في أجسامنا . ولاجرم أن الجسم الواحد مديره واحد
فارتباط العوالم واستمداها يدل دلالة واضحة على أن مدبرها واحد
لاشريك له . وقد جعل الحكماء من أدلة التوحيد وحدة النظام :
(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا^(١)) . (إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)^(٢) .

فهذه الآية دليل على ما نطقت به الآية السابقة في قوله تعالى :
(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)^(٣) . فارتباطها بما قبلها كارتباط الدليل
بالدعوى . وإذا نظرت إلى ما فيها من النعم الكبرى والرحمة
العظمى وجدتهم مشيرة لمحبة الله عز وجل من أعماق القلوب : « أَحِبُّوا اللَّهَ
لَمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمِهِ » ولذلك عقبها بقوله تعالى : « وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَا إِذَا يُجِيبُونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ »^(٤)
فما أعظم هذا لتناسق ، وما أبدع هذا الارتباط . وبهذا تعلم أن ارتباطها
بما بعدها كارتباط السبب بالمسبب والمقدمات بالنتيجة التي هي
غاية الغايات ونهاية النهايات ، وهي محبة الله تعالى التي هي حياة
القلوب وألذ من كل مطلوب . وربما أطلنا الحديث معك فيها بعد إن
شاء الله .

وحدثني ياسعد عنهم فردتني شجوناً فزدني من حديثك ياسعد
هواهم هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

(١) سورة الأبياء ، الآية ٢٢

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٢٢

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

٣- لو جعل الله الأرض على غاية القرب من الشمس لم يعش عليها نبات ولا حيوان ، فإنها على ذلك الفرض تكون قطعة من جهنم . ولو جعلها على غاية البعد لم يعش عليها نبات ولا حيوان ، لأن الشمس ضرورة للحيوان والنبات .

فانظر إلى تلك الحكمة الباهرة والنعمة الظاهرة .

وإذا نظرت إلى أن الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها على ما يقررونه الآن ، أخذ منك العجب كل مأخذ من تلك الأرض التي أودع الله فيها بذور الحياة لكل نبات وحيوان وإنسان مع كونها قطعة من الشمس التي هي نار ملتهبة وليت شعري ما للنار وبذور الحياة- ثم جعلها مخزناً لكل ما تريد .

فسبحان من جعلها كنزاً ثمينا نستخرج منه كل ما نحتاج إليه من الدواء والغذاء والفواكه الشهية والرياض البهية وكل ما نشاء (حتى الرجال والنساء) لأن النطفة من الغذاء ، والغذاء من النبات والنبات من الأرض (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)^(١) أليس من العجب العاجب أن تكون في الأرض هذه العجائب كلها التي لا يعرف لها أول ولا آخر : أما جنس الحيوان والنبات ففيهما من العجائب ما لا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهوراً وأجيالاً . وانظر إلى ما قالوه إن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش في نقطة (ماء) صغيرة وتنمو هناك وتتكاثر كما تعيش حيوانات البر في القفار .

فانظر رعاك الله إلى مسألة الحياة : تجد أمراً مدهشاً ، ونبأً محيراً .
متجدد أنها لا تتوقف على حال من الأحوال فإن قلنا لا بد لها من فقار
كالبقر والطيور والضفادع والسماك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار
فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات والشبث وأمثالها . وإن قلنا
إن الحياة لا بد فيها من قشور في ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية
لا قشر لها . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلباً وجدنا النقايعات
والإسفنجيات ليست كذلك .

ثم انظر نظرة بسيطة في جسم الإنسان تجد فيه العجائب الناطقة
يحكمة مبدعة وقدرة خالقه . فإن في الجسم الإنساني أكثر من مائتي
عظم ، ولكل منها شكل مخصوص ، ولولا ما فيها من الإتقان والحكمة
لعاقت حركاتنا التي نأتيها كل وقت كما نشاء .

ثم انظر إلى ما هو أدق من هذا تجد الخالق الحكيم قد جعل لأجل
وصول الأصوات إليك عجائب وغرائب من صيوان وصماخ وطبلة
وثلاث أعظيات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية ، وسائل ورمالات
حافظات للصوت ، وعصى وشعرات في القوقعة ، وأعصاب سمعية ،
إلى آخر ما لا يمكننا تفصيله . والعين في تركيبها وطبقاتها وفائدة كل
طبقة منها أعجب وأغرب . فسبحان الحكيم العليم القادر العظيم .

وهي أمور لا يسعنا إلا الإلماع إليها والدلالة عليها ، أما تفصيلها
فلا تنى به المجلدات . وهل العلوم على كثرتها والكتب على تنوع ما فيها
من يوم خلق الله العالم إلى أن تقدم الساعة ، والمكتشفات التي برز فيها
المبرزون وسيرون منها أكثر مما يتخيلون ، هل كل ذلك إلا شرح لتلك
العوالم التي أشارت إليها الآية الكريمة ؟

وحاصل القول : إننا غارقون في الآيات البيئات ، والنعم الفائضات من مبدع الأرض والسماوات ولكن لاعتيادها وعدم انقطاعها لا نلتفت إليها ، لأن كل مبدول لا تأبه له النفس ولا ينفعل به القلب .

وقد رأينا أن نختم هذا المقال بشيء عن اللورد أفبرى الإنكليزي الفيلسوف الشهير فنقول :

كلام اللورد أفبرى :

« تتالت العصور ، وتوالت الدهور لها ، والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتناولون إلى إدراكها بالخيال ، ويستنزفونها إلى الأرض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ويخبروا من خبرها إلا بما هو مشوب بالأوهام وشبيه بالأحلام . »

إلى أن قال في الكلام على الشمس :

« إنها محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهي التي تبخر مياه البحر وترفعها غيوما في الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى غرسنا ، وتثير الرياح وتهيج الأنواء فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب في عباب المحيط . » إلى أن قال :

« أما عدد النجوم فمضرب المثل لما لا يحصى ولا يحصر ، وقولنا أن كنجوم السماء ورمال البحر عدا ، مالوف متداول . والحقيقة أن النجوم التي ترمى بالعين المجردة معدودة محصورة ، وهي نحو ٣٠٠٠ فقط ،

« ولنعلم أيضا أن في السماء غير العوالم التي تبدو للعيان ما لا يعد ولا يحصر من الأجرام الخفية ، إما لفرط بعدها أو صغر حجمها أو ضعف نورها » . إلى أن قال :

« وقد اتخذ الفلكيون سرعة النور مقياسا عليه وأساسا لتقدير تلك تلك المسافات العظيمة فقالوا مثلا : إن سرعة النور ١٨٠٠٠٠٠ ميل في الثانية ، ومئات من السنين تمضي وتمر قبلما ينتهي إلينا نور نرى به مصدره السديم » . إلى أن قال :

« ولئن أخذتنا الحيرة واستولى علينا الدهول لدى تأمل أبعاد الأجرام السماوية وضخامة أحجامها وعظمة تلك العوالم التي لا تعرف لها نهاية . فكف عسى أن نحير أذهانا ونذهل عقولنا إذا بحثنا في الوقت الذي انطوى دون وجودها والزمان الذي مضى عليه » . إلى أن قال :

« هنا ليكسر الحساب قلمه ، وليضرب التاريخ بيراة عرض الحائط ، وليقف الذهن كلبلا والعقل مخبولا ، وليطلق الخيال في هذا المجال ولا أخاله إلا رائدا مردودا يؤثر الاحتباس تحت القبة الزرقاء المشهودة يخبط خبط عشواء في ظلمات الأزل الشديدة » اه . ولنقهر العلم على ترك الجولان في هذا الميدان فهو بحر لا ساحل له ،

وسنعود إليه إن شاء الله .

ولنتل هنا قوله تعالى : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير)^(١) .

(١) سورة الملك ، الآية :

في ترجمة معاني القرآن^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيراً الأخذ والرد هذه الأيام في مسألة (ترجمة القرآن) . وقد تجاوز كثير من الكتاب حدود الأدب في الانتصار لرأيه (على أنني أعتقد حسن النية من الفريقين) . ولكن آفتنا فيما نرتثيه الإفراط أو التفريط ، وعيبنا هو الاندفاع بالعاطفة بلا تدقيق ولا تمحيص . وأكثر ما يقع بين الناس من الخلاف لو استعمل فيه المنطق الصحيح وأوروعى جانب الإنصاف ولم يتمسك كل فريق بظواهر الألفاظ التي قد تبدو من مخالفة في الرأي ولم تغلب فيه الحدة على ائرفق والأناة . لكان تدارك ذلك الخلاف هينا ولأمكن الاتفاق فيه على نقطة الوسط التي شط عنها الفريقان بحمية الدفاع عن النفس والأنفة من الانهزام (وقل أن ينجو من حكم العاطفة أو سلطان الأناية ومجبة التغلب والظهور) .

ويعجبني قول بعضهم : (أقبح الكلام إكثار تنبسط حواشيه وتنقبض معانيه فلا يرى له أمد ولا ينتفع به أحد) وأقرب ما نستشهد به على هذا مسألة اليوم التي تبارت فيها الأقلام ، واشتد فيها الخصام مع كونها من أوضح الواضحات وأول الجليات . فإن (ترجمة القرآن) بالمعنى المعروف في التراجم بحيث تقوم الترجمة مقام الأصل من كل

(١) مجلة الإسلام - السنة الخامسة - العدد العاشر - ربيع الأول - سنة ١٣٥٥

وجه ، وتعطى أحكامه بكل اعتبار غير جائزة ، بل غير ممكنة باتفاق الفريقين . وتفسير القرآن بأى لغة من اللغات جائز باتفاق الفريقين ولا يستطيع أحد أن يمنعه . وقد وقع بالفعل من علمائنا منذ زمان بعيد . فإنه كلام بشرى يجوز ترجمته لكل لغة .

ولا فرق بين أمور الدين والدنيا في هذا ، فإن كل إنسان حر في اختيار اللسان الذى يريد أن يعبر به عما في ضميره سواء كان كلامه أم كلام غيره وتبعة ذلك عليه ، وخطؤه أو صوابه ليس راجعاً إلا إليه . وقد اجتمعت جماعة كبار العلماء ومحصت الموضوع وقبلته بعد تلك التحفظات التى تجعله تفسيراً لا مرأى فيه ، وقد جاء فى ملخص تلك التحفظات فى أهرام الأربعاء ٨ أبريل ما يفيد ذلك صريحاً (وما فى القرار أوسع مما فى الأهرام) .

غير أن لنا كلمة يجب أن نسجلها لنخلص بها أمام الله والناس إنما عسى أن يكون عمداً أو خطأ .

ذلك إننا نرى طرح كلمة (ترجمة) بالكلية ، فإنها تثير الشكوك والأوهام من القارئ والسامعين ، كما أنها بعد تمام المشروع قد ترفع فى روع كثير من جهلة المسلمين والأوربيين إن هذه الترجمة التى أشرفت عليها أكبر هيئة علمية هى القرآن بعينه وأن لها جميع أحكامه . حتى إذا وجد فيها خطأً من اللجنة الأولى التى فسرت القرآن أو فيما أترجم عنها لبعض اللغات الأخرى كان منسوباً للقرآن ، وربما تعددت الترجمات فكانت الأخطاء فى النهاية كثيرة خطيرة ، أما المقدمة التى سنضعها للترجمة فلا نأمن بها من ذلك الخطر .

فإن ذوى الأغراض الذين يكدون للإسلام يمكنهم أن يحذفوها عندما يطبعون تلك الترجمة توصلًا بذلك إلى ما يريدون ومن الجائز القريب كما قلنا أن يقع الخطأ منا معشر المسلمين : (وَكَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْ جَدُّوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)^(١) فضلًا عما يكون من الأخطاء الأخرى المقصودة أو غير المقصودة .

وعلى كل حال فما في القرآن من أسرار ومقاصد لا يمكن أن يأتي عليه البشر ، كيف وللقرآن ظهر وبطن وحد ومطلع ، وفيه كليات يدخل تحتها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ومتشابهات لا يصل إلى إكتمها غيره عز وجل مما وقف أمامه العلماء مفرضين أو مؤولين ، وفيه من التعبير عن لحقائق ما تقضى منه العجب حيث يعبر بالعبارات التي تسائر كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ في تفسيرها بمقضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لا لها ووجدت هي أكثر انطباقًا على ما قضى به العلم المحصن والاكتشاف الجديد مما يدهش اللب وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

12

وقد عد السيوطى مما يحتاج إليه المفسر (علم الموهبة) . قال وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم .

وإليه الإشارة بالحديث : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) إلى آخر ما قال . ويقول الألوسى بعد ذلك : أما من صرف عمره

بوساوس أرسططاليس واختار شوك القنفاذ على ريش الطواويس فهو معزل عن فهم غوامض الكتاب وإدراك ما تضمنه من العجب العجاب .

وقال ابن عباس : (القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقض عجائبه ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال ، وحرام وحلال وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء) . فكيف تأتي عليه التراجم وهو خارج عن طوق البشر في نظمه وأسلوبه ومعانيه ، وأساراه وإشاراته ، وقد قال تعالى : (مَا فِرطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)^(١) فهو الذي لا تخلق جدته على كثرة الرد ولا تنقض عجائبه كما في الحديث المرفوع والموقوف .

وخلاصة القول : إننا نلح كل الإلحاح في أن لا يسمى ذلك البيان ترجمة وإنما يسمى (تفسير القرآن بلغة كذا) وإذا لا نجد معارضا ولا مرتابا .

فإن أحدا لا يستطيع أن يمنع ترجمة كلام الرازي أو الزمخشري أو ابن جرير . . . إلخ إلخ . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) وإذا ينطق هذا العنوان نفسه بأنه شيء آخر غير القرآن ولا يمثله بأى وجه من الوجوه فلا يغتر بتلك التسمية أحد . ولا يجد مبشر يكيده للإسلام منفذا ينفذ منه لما عسى أن يكون من مقاصده الخبيثة وشباكه التي يتفنن فيها ولا يألوا جهدا في نسجها

من خيوط العنكبوت كما هو معروف ، وقد عرض هذا الاقتراح على فضيلة الشيخ المراغى فى جلسة كبار العلماء . فقال إذا اتفقنا على المعنى بعد تمحيص الموضوع فلا تهم الألفاظ وقد اتفقنا على المعنى والله الحمد ، فنطالب فضيلته وجميع القائمين بالأمر أن يدعوا كلمة (الترجمة) ويطرحوها ظهرياً ولا يعبروا إلا بكلمة (التفسير) .

وأرى من الواجب التشدد فى ذلك وعدم التساهل فيه . فيجب أن نحتاط ذلك الاحتياط ، وأن ننتقى لوضع التفسير الذى يراد ترجمته علماء موثقاً بدينهم وعلمهم وورعهم وتحريمهم ، ونعدل عن أولئك المجددين المتشدين الذين أولعوا بكل جديد من الآراء من غير بحث ولا تمحيص (مع أن ذلك الرأى عند ذويه قد يكون فى محل الظن أو التخمين على نحو ما يفترضون من الفروض العلمية التى قد توصلهم بعد إلى حقائق يقينية فيكون عندنا محل الجزم وهو عندهم لم يجاوز حدود الفروض .

إذا نحن عدلنا عن هؤلاء واحتطنا فى انتقاء من يضع ذلك التفسير من العلماء الذين يعرفون قدر العلم ولا يحترمون إلا البرهان - حيثما وجدوه (يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) لا فرق عندهم بين قديم وحديث فهم أصلب عوداً من أن يتأثروا بكل ما سمعوه وأكبر عقلاً من أن يخدعوا بزخارف الأقوال أو ينقادوا لكل ذى رأى مهما كان من عظماء الرجال - نكون قد أدينا الواجب وخرجنا من العهدة إن شاء الله .

ومن الغريب أن عندنا من يتبجح على أئمة المسلمين وسادات المتقدمين وينقادوا انقياد الأطفال لما ينقل عن الأوربيين ، وهذا

شر ما ابتلينا به في ديننا ودياننا فصرنا ننفر من القديم ونرحب بالجديد
ونحتقر الحكماء من أسلافنا ونقلد السفهاء من الأوربيين وأذبال
الأوربيين .

وبعد ذلك كله أرى أن الأفضل في الدعاية إلى الإسلام والأجدي
عليه إنما هو عمل رسائل تبين فيها محاسن الإسلام وأحكامه ومزاياه
التي انفرد بها ورسائل يرد فيها على الطاعنين ويبين بها خطأ المترجمين
وتعصب المتعصبين ونحو ذلك .

وإذا اقتضى الحال تفسير آية من الآيات أو حديث من الأحاديث
بإغلا بأس أن نعمل على نحو ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في
كتابه إلى هرقل ثم نقتصر على هذا . مع ملاحظة أن الأحكام التكليفية
مثل الطهارة والصلاة والزكاة والحج مجملة في القرآن غاية الإجمال .

ولا حاجة بنا في الدعاية إلى الإسلام إلى تفسير القرآن كله . وهذه
الرسائل أخف على المؤلفين والمترجمين والقارئ والسماعين وأبعد من
إثارة الشكوك والأوهام والشبه التي قد يؤدي إليها القصور في فهم
بعض آيات القرآن .

هذا - ما نراه خيراً للإسلام وأكفل للمغاية المطلوبة من الدعاية إليه
وانتفاع الناس بعملنا الجديد .

أسأل الله أن يقينا شر الفتنة ، وأن يرشدنا إلى ما فيه سعادة الدنيا
والآخرة بمنه وكرمه .

سورة الأعلى^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا وقد أسند إلينا تحرير فصل التفسير لهذه المجلة أن نبدأ
بتفسير (سورة الأعلى) لما فيها من الأسرار التي تأخذ بمجامع القلوب .
فإن فيها أموراً أربعة هي مجامع السعادات كلها :

(أولها) : الإلهيات . وقد أُشير إلى ذلك بقوله تعالى : (سَبِّحْ
اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي
أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى .

ثانيها) : ما يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . وقد أُشير إلى
ذلك بقوله : (سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى . إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ
وَمَا يَخْفَى . وَنُنسِرُكَ لِالْيُسْرَى) . وفى ذلك من التوحيد ورجع الأمر
كله إليه تعالى ما لا يخفى .

(ثالثها) : انقسام المستمعين إلى من ينتفع بإرشاد الأنبياء وإلى
من لا ينتفع به ، وبيان أحوال كل واحد من هذين القسمين . وقد
أُشير إلى ذلك بقوله : (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى . سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى ،
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَى) .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول - المجلد التاسع - المحرم سنة ١٣٥٧

(رابعها) : التنبيه على أن خيرات الآخرة أفضل وأبقى من خيرات هذه الدنيا ، والأفضل الأبقى أولى بالتحصيل له والحرص عليه ، مع بيان ما يوصل إلى ذلك من تزكية النفوس وعبادة القُدوس عز وجل بقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وبذلك يتم كل ما يحتاج الإنسان إليه من معرفة الله عز وجل ، ومعرفة ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة أحوال الناس واختلافهم في الاستعداد ، ومعرفة الآخرة وما فيها من نعم جسيمة ونار أليمة .

ثم ختم السورة بقوله : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) تنبيها على أن كل ما جاء من الأنبياء ممن أنزل الله عليه كتاباً أو صحيفة ليس المقصود منه إلا هذه الأشياء الأربعة ، فإنها لم تدع شيئاً من مسائل السعادة والفوز في الدنيا والآخرة إلا بينته .

ومن وقف على أسرار هذه السورة الشريفة امتلاً لإيماننا وإيقاننا بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً »^(١) ، وعلم حقاً أنه لا هداية إلا باتباع نهجه القويم وصراطه المستقيم . فسيحان من خلق الخلق وعلم استعدادهم ومراتبهم ، وما جبلوا عليه من الأحوال المتباينة والنزعات المتضادة « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »^(٢) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦

(٢) سورة الملك ، الآية ١٤

البيان التفصيلي لعنى السورة الشريفة :

« سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » : التسبيح : التنزيه . وتنزيه الاسم الكريم هو ألا تبقيه على ظاهره إذا كان ما وضع له فيما تعرف بين الناس مما لا يليق به تعالى ، وألا تطلقه على غيره إذا كان مختصاً به تعالى كالاسم الجليل ، أو على وجه يشعر بأنه تعالى هو وغيره فيه سواءً إن لم يكن مختصاً . ومن تنزيه الاسم أن تصونه عن الابتذال ، فلا تتلفظ به في محل لا يليق به كبيت الخلاء ، ولا تذكره إلا مع الخشوع والتعظيم .

ومن تعظيمه ما حكى عن إمامنا مالك رضى الله عنه : أنه كان إذا لم يجد ما يعطى السائل يقول : ما عندي ما أعطيك ، أو ائتنى في وقت آخر ، ونحو ذلك ، ولا يقول نحو ما يقول الناس : يرزقك الله أو يعطيك الله . فسئل عن ذلك فقال : إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسئول له ما يفيد رده وحرمانه ، فأنا أجل اسم الله سبحانه أن أذكره أن يكره سماعه ولو في ضمن جملة ! وهذا منه - رضى الله عنه - غاية في الورع والدقة .

وذلك أن تعبيراً لفعل الاسم مقحماً ، فكأنه قال : سبح ربك . والإقحام في لغة العرب قد يكون لضرب من التعظيم . فإن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه ويمجد ذكره ، كما يقال : سلام على المجلس العالى والأعتاب السنية ، ونحو ذلك . فالعنى : نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف .

واستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم
عن عقبه بن عامر الجهني قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكََ
الْعَظِيمِ »^(١) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم ،
فلما نزلت « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكََ الْأَعْلَى » قال : اجعلوها في سجودكم .
ومن المعلوم أن المَجْعول فيهما سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى .

وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبرانى والبيهقى فى سننه عن
ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ « سَبِّحْ اسْمَ
رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : سبحان ربى الأعلى . وهو استدلال قوى من السنة .

وفى الكشف أن المراد بتسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح
فيه من المعانى التى هى إلحاد فى أسمائه سبحانه كالتشبيه مثلا ، وأن
يصان عن الابتذال والذكر ، لا على وجه الخشوع والتعظيم .

الخلاصة :

أنه يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص ، ويجب
تنزيه الألفاظ الموضوعه لذلك عن سوء الأدب والذهاب بها مذهب
المجسمة والمشبهة .

وإجمال القول أنه إن كان « سَبِّح » بمعنى نزه ، فكلا الأمرين
من كون « اسم » مقحما وكونه غير مقحّم ، وتعلق التسبيح به على
الوجه الذى سمعت - محتمل غير بعيد . وإذا كان معناه قل « سبحان »
فكونه مقحما متعين . وقد علمت ما يدل له .

(١) سورة الواقعة ، الآية ٧٤ ، ٩٦

و «الأعلى» صفة الرب والمراد بالعلو العلو: بالقهر والافتدال، لا بالمكان والجهة، لتنزهه عن ذلك. وهذا العلو واجب لله في ذاته وصفاته وأفعاله: فأما في ذاته فبأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والإعراض، وأما في صفاته فبأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا مناهية، وأما في أفعاله فبأن تعتقد أنه مالك مطلق عليم حكيم، فلا اعتراض لأحد عليه. في مر من الأمور، سواء علمت بالحكمة أو جهلتها. ولا معنى لذلك بعد إيمانك بأنه حكيم عليم:

دع الاعتراض فما الأمرك ولا الحكم في دوران الملك

ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

وقد كتبنا توسع في هذا الموضوع برسالتنا: تفسير قوله تعالى:

«لَا يُسْأَلُ عَمَّا فَعَلَ»^(١)

وبالجملة فهو أعلى من كل ما يصفه به الواصفون، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون. فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا، وأنواع حقوقه على من طاعنا وأعمالنا.

ويحسن بنا أن نلفت نظرك إلى أن السياق يدل دلالة واضحة على أن المراد بالعلو: علو الافتدال والعظمة والملك، لا علو المكان والجهة، لأن العلو الحسي عبارة عن كونه تعالى في غاية البعد عنا. وهذا لا يناسب استحقاق التسييح والثناء والتعظيم. أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالخلق والإبداع فيناسب ذلك. والسورة هنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم.

ثم تراه بعد ذلك أردف قوله « سبح اسم ربك الأعلى » بقوله :
« الذى خلق فسوى » . والخالقية والتسوية المبنية على الحكمة تناسبان
العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .

واعلم أن السلف قائلون باستحالة العلو المكاني عليه تعالى ، خلافا
لبعض الجهلة الذين يخبطون خبط عشواء في هذا المقام ، فإن السلف
والخلف متفقان على التنزيه .

والفرق بين مذهبيهما أن الخلف يعينون المعنى التنزيهى المراد ،
والسلف ينزهون ولا يعينون فيقتصرون على صرف اللفظ عن ظاهره ،
ويكفلون المعنى المراد لله تعالى .

وكل ما ورد في آيات الصفات وأحاديث الصفات من التشابهات
فهو مصروف عن ظاهره عند السلف والخلف (فإياك والغلط) . فإن
الله تعالى لم يشارك الخلق في شئ من الأشياء ، وإن وقعت المشاركة
في الأسماء . فانظر إلى العلم مثلا ، وهو مما وصف به الخالق والمخلوق ،
تجده في القديم مبائنا له في الحوادث كل المباينة ، فإن علمنا مستفاد
من الحواس أو من التفكير والنظر ، وهو انتقاش وانفعال . وعلم الله
تعالى منزّه عن ذلك كله .

وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء . فإذا كان
هذا التباين واقعا بين الحوادث فما بالك به بين الخالق والمخلوق ؟

وقد نص المحققون على أن كل عالم من العوالم له أحكام تخصه .
ومن الغلط البين قياس عالم على عالم آخر في أحكامه وما ينسب إليه .

وأين عالم الأجسام من عالم النفوس ، وعالم النفوس من عالم العقول على ما بينته الفلسفة وأطال فيه القدماء؟ ولكن الشارع قد يتنزل في التعبير إلى مستوى العقول المحجوبة بالحس رحمة بالجمهور . ثم لا يدع ذلك حتى يزيل ما عسى أن يعلق بالأوهام من ظاهره ، فيقول : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)^(١) .

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)^(٢) . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)^(٣) إلى غير ذلك من التنزيه ، فيشعر قلوبنا أن المقصود مما جاء في آيات الصفات وأحادين الصفات مما يوهم التشبيه أو نسبة الحوادث إليه تعالى بمقتضى تلك التعبيرات التنزلية إنما هو أرواحها لا ظواهرها ، بشهادة النصيب الأخرى الدالة على التنزيه الذي قامت عليه البراهين العقلية . وهذا إجماع من السلف والخلف كما عرفت . ولكن كثر الجاهلون وتفسيق الثرثارون^(٤) .

وقد نرى من المفيد للجمهور أن نطيل في هذه المقامات ، ونكرر تلك البيانات . فهذا هو مقتضى الحال الذي عرفناه من الاستفتاءات الكثيرة ، وبلغناه عن دروس بعض الحمقى الذين قرءوا في الكتب ما لا يستطيعون هضمه ولا يعرفون مغزاه .

(١) سورة شورى ، الآية ١١

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩١ .

(٣) سورة الإخلاص ، الآية ٤

(٤) الذين يزعمون أنهم أهل سنة وحديث :

ولا بأس ، والمقام مقام إطناب ، وتصحيح العقيدة بتخليصها من شوائب الأوهام يحتاج إلى كثرة تذكير ومزيد تكرير - أن تلفت نظرك إلى ما جرى بيننا وبين بعض المتعلمين العصريين ، فما أجدره بالذكر في هذا المقام لكثرة فوائده ومزيد عوائده ، قال حضرته :

ما تقول في مشكلة التوحيد ؟ فقلت له : وما مشكلة التوحيد ؟ فقال : قول العلماء : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا في جهة من الجهات ، مع أن الذى لا يكون فوق ولا تحت ولا في جهة من الجهات يكون معدوما . فقلت له : ما أهونها مشكلة ! فقال : مشكلة المشكلات ومعضلة المعضلات وقد رأيتها في كتاب لبعض العلماء ولم يجب عنها وسماها مشكلة التوحيد !

فقلت له : إني أُجيب عنها وأنا نائم ، فإن ما ذكرتموه إنما هو أحكام الماديات والله منزه عن المادة وعلائقها ، ولو كان ماديا ما صح أن يكون إلها . وما تخيلتموه من أنه لا بد من أحد المتقابلين ولا يصح ارتفاعهما جميعا فهو مشروط بالقابلية ، وإلا ارتفع المتقابلان معا ، بل يكونان محالين عند عدم القابلية . ألا ترى أن الإنسان لا بد له من أن يكون علما أو جاهلا ولا يصح ارتفاعهما عنه ، ولكن الحجر لا يقال له عالم أو جاهل لعدم القابلية ؟ فكذلك الحق عز وجل لكونه غير مادي لا يجوز أن يتصف بشيء من هذه المتقابلات ، فإن القابل

إنما هو المادة . بل الفلاسفة يحيلون تلك المتقابلات على جميع المجردات كالأرواح والملائكة . وهذا يرتفع الإشكال الذي تصور أولئك الحمقى أنه لا يرتفع وسموه مشكلة التوحيد .

فعندما وصلنا إلى ذلك الحد قال ذلك السائل : فكيف هو ذلك الإله وكيف تصل العقول إليه ؟

فقلت له : إن هنا مقامين : مقام الاستدلال على وجود الله تعالى ، ومقام معرفته بالكنه والحقيقة .

أما وجده والاستدلال عليه فأظهر من الشمس وأوضح من الحس . فإن كل شيء من الأشياء وكل ذرة في الأرض والسماء تدل عليه وتشير إليه : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)^(١) . فوجودها ناطق بوجوده ، وإمكانها ناطق بوجوده ، وما فيها من سر عجيب وترتيب غريب ناطق بعظيم قدرته وبديع حكمته وسعة علمه وإتقان تدبيره وعدم نهاية كمالاته وعلو أسمائه وصفاته : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ نَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)^(٢) . (أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)^(٣) . (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالتَّأُنثَى)^(٤) . (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة الطارق ، الآية ٥ - ٧ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٦٧

(٤) سورة القيامة ، الآية ٣٧ - ٣٩ .

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا^(١)) إِنْخِ إِنْخِ .
وقد قالوا قديما : (نظرك فيك يكفيك) .

ولعمري لقد أودع في الإنسان من الأسرار والعجائب ما يدهش
الناظر ويبهر المفكر . وقد دهش الناظرون في الإنسان من علماء
الفزيولوجيا . هل كل علم من العلوم إذا تعمق فيه صاحبه رأى
من الآيات البيّنات والدلائل الواضحات والبراهين القاهرات ما يجعله
يقول بلسان حاله أو مقاله : سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما
أثنيت على نفسك . فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . وقد قيل
قديما :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)^(٢) .

أما المقام الثاني وهو الوصول إلى كنهه تعالى فأمره أيضاً في غاية
الجلال والوضوح . فإن إله العالمين الذي ليس كمثلته شيء يجب
أن يكون متعالياً عن العقول ، ويستحيل أن يخضع لمحدثات الأفكار
ومبتدعات الأنظار ، بماله من قواهر الأنوار ومدهشات الأسرار ، ولو لم
يكن كذلك ما صح أن يكون رب العالمين .

ومن أين لدى الألوّاث البشرية والأدناس الطبيعية أن يدرك القدوس
الأعلى الذي تقدست ذاته عن أن تراها العيون أو تدنو منها الظنون ؟ !

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ ؛

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٧ .

وقد قلت في بعض ما كتبتة : أنا لا أومن بإله محدد يصل إليه عقلي ، أو يمكنني أن ألمسه بيدي ، أو أصل إليه برجلي ، فإنه إذاً يكون مادياً تسرى عليه نواميس المادة لا محالة . أما الهى الذى أومن به فهو فوق الحدود والقيود ، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير . فكيف تطبق عليه النواميس وهو قاهرها ؟ أم كيف يقاس بالماديات وهو مصورها ؟ !

وقد شط بنا القلم ، ولكن إلى ما دعت إليه الحاجة وأوجبته الضرورة واقتضاه جهل كثير من الناس في هذا العهد الذى تراكمت ظلماته وتعاضمت آفاته ، وتكاثر مدعوه وقل منصفوه . فيألى الله المشتكى وبه لمستعان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) :

عرفت مما كتبناه قبلا أن المراد من تسبيح الاسم تنزيهه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة ، وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه ، وعن ذكره لأعلى وجه الإعظام والإجلال . أو أن المراد سبِّح ربك الأعلى ، وكلمة الاسم مقحمة كما يدل عليه . ماورد من قوله صلى الله عليه وسلم لما « اجعلوها في سجودكم » ، نزلت : والذي يقال في السجود هو « سبحان ربى الأعلى » إلى آخر ما ذكرناه .

أما قوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) فهو صفة أخرى للرب ، أو خبير لمبتدئ محذوف ، أو منصوب على التعظيم . وقد قصد بذلك الشناء على الله وبيان صفاته الجليلة وآياته البديعة التي هي برهان على أنه الرب الأعلى ، الذى تجلت قدرته فى مخلوقاته ، وبهرت حكمته فى بديع مصنوعاته . والمراد : أنه سبحانه وتعالى خلق كل شئ فوسوى خلقه بإعطائه ما به يكون كماله ويتيسر معاشه ويتم بقاؤه .

أما قوله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) فالمراد به : أنه تعالى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)^(١) . ثم وجه سبحانه وتعالى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له طبعاً أو اختياراً ، ويسره لما خلقه به بخلق الميول والإلهامات ، وإيداعه من القوى ما يعينه على ما أريد منه .

ولو تشبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ماتحار فيه العقول وتضييق عنه دفاتر النقول .

ومن التسوية أن جعل قامة الإنسان مستوية معتدلة ، وخلقته حسنة ، على ما قال : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)^(٢) . وقد أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، على حسب معيشتة وحيته التي قدرت له ، وانظر إلى حال الحيرانات الدنيا والعليا والبرية والبحرية والهوائية والبحرية وما بينها من الاختلاف ، حتى أن بعضها يعيش في التراب ويقتله الأكسوجين ، وبعضها بالعكس من ذلك . ولكل طريق مرسوم وخطة ينتهجها يكون بها صلاحه وبقاؤه (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)^(٣) . إلى آخر ما دهش له علماء الحيوان .

ولانتزال الاكتشافات تظهر من أسرار الله ماتحار فيه الأفكار ولاتحيط بدقائقه ساميات الأنظار . ولعلك سمعت ما اكتشفوه الآن من الغدد وم نيط بها من الغايات وبديع الآيات .

(١) سورة القمر ، الآية ٤٩

(٢) سور التين ، الآية ٤

(٣) سورة طه ، الآية ٥٠

وبالجملة : فقد جعل الله تعالى جميع الأشياء مستوية في الأحكام والإتقان « لا أنه سبحانه أتقن بعضها دون بعض » . وفي ذلك من الاستدلال على وجوده تعالى وحكمته ما لا يخفى . فإن الإنسان إذا نظر إلى شئ محسوس فرآه قد وضح بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، وكان موافقا في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشئ المحسوس والغاية المطلوبة ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل أو بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم تجد فيه تلك المنفعة - علم على القطع أن لذلك الشئ صانعا صنعه ، ولذلك وافق شكله ووضع وقدره تلك المنفعة .

قال ابن رشد : لاشئ أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصنعة في الأحكام .

وقد تبين من هذا أن من أجل الطرق التي نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق ومصنوع هي ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيه على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وبخاصة الإنسان ، وهي طريقة نسبتها في الظهور إلى العقل نسبة الشمس في الظهور إلى الحس .

وحيث انجر بنا القول إلى هذا فلنذكر لك شيئا مما في خلقه الإنسان الذي أودعه الله من الخصائص والأسرار في صورته ومعناه ما يعجز عنه لسان البيان . وطالما كان يدور بنفسه أن أعمل رسالة في تفسير قوله تعالى : ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ وقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

[الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ] (على نحو رسالتنا في تفسير قوله تعالى :
(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) .

وقد قالوا قديما : نظرك فيك يكفيك . وقال تعالى : (وَفِي
الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(١) .

فلننتهز هذه الفرصة ونذكر شيئا قليلا من بدائع "خلقة الإنسان" ،
فنقول : انظر كيف دور سبحانه الرأس ، وشق فيه السمع والبصر ،
والأنف والقم ، وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر .

قال الغزالي : ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز
عن شرح سره أعلم العلماء وأكبر الأطباء . وانظر كيف ركب هذه العين
من سبع طبقات : القرنية ، العنابية ، العنكبوتية ، الشبكية ، المشيمية ،
الصلبية ، المتحمة . ولكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة ، ولو فقدت
طبقة منها لتطلت عن الإبصار . وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط
بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها
من غبار وغيره . فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق
في غير وقتها .

وقد أذكرني ذلك قول بعض الفلاسفة من الأوربيين : يكفيني
هدب العين في الدلالة على الله .

ولابأس أن نذكر لك قول الآخر : يكفيني في الدلالة على الله خلق الأُنثى بجانب الذكر ، فمن أعلم الطبيعة العمياء الصماء أن بقاء النوع لا يكون إلا بخلن الذكر والأُنثى .

ولاغرو : فهي آية تسترعى الأنظار ، وتستهوئ العقول والأفكار ، حيث خلق لك أنثى من نوعك تماثلك صورة وشكلا ، وتخالفك ترتيبا ومعنى ، وهياً تلاماً منكما لما يراد منه وإن خلقتما جميعا من ماء مهين ، ولا فرق بينكما في عناصر التكوين ، ولكن يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وقد امتن علينا سبحانه وتعالى بذلك مبينا أنها من الآيات البينات والدلائل الواضحات فقال عز من قائل : (وَوَن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(١) .

ومما يحسن ذكره ها هنا قول فكتور هوجو : « إن القول بأن العين لم تخلق للإبصار وإنما وجدت هكذا فكان بها الإبصار ، لمن أظفح أنواع الجنون لتي تلم بالعقل الإنساني » . ثم قال الغزالي : ولما كان المقصود من الأنفجار جمال العين والوجه ، جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ، ولا ينقص نقصا يضر بها .

وأستلقت نظرك بعد هذا كيف خلق في مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف ما يقع في العين لاحد الجانبين .

ثم انظر إلى الفم واللسان وما في ذلك من الحكم ، وكيف جعل الشفتين سترًا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوهت الخلقة ، ومع ذلك هم معينان على الكلام ، وبعض الحروف يتوقف عليهما ولا يكون إلا بهما . وكيف جعل اللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان ، فضلا عن تقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع .

ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا . فإن أصاب بعضها نلّم انتفع بالباقي . وقد جمع فيها بين النفع والجمال . وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لمزيد الحاجة إليها . واقتضت الحكمة أن جعل الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام مع كونها جمالا للفم : فأحكم أصولها ، وحدد رُؤوسها ، وبيض لونها مع حمرة ماحولها ، وجعلها متساوية الرأس ، متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم .

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة محبوسة لاتظهر إلا في وقت الحاجة إليها . وهى «الريق» ولو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للإنسان . وحكمتها أن يبيل بها ما يوضع من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم .

فإذا فقد الأكل عدمت تلك الندوة الزائدة التي خلقت للترطيب
وبقي منها مايبس اللهوات والحلق ، لتصوير الكلام ، ولئلا يجف ،
فإن جنافه يجلب للإنسان أعظم الضرر .

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للأكل لذة الأكل : فجعل
الذوق في اللسان وجميع أجزاء الفم ، ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه
من الملوذ . فوجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى
تناوله ، وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه ، ويعرف بذلك حد ما تصل
الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ووج الهواء ، وذلك سر
لا يعلم حقيقته إلا البارئ سبحانه . وقد جعل في الأنف حاسة الشم
ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ، ليتنعم بالروائح
العطرة ويجتنب الخبائث . وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه
وترويحاً لحرارة باطنه .

ثم انظر إلى الأذن كيف جعل فيها انحرافات واعوجاجات لتطول
المسافة قليلاً فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة
واحدة فيؤذيها ، ولكي يعرقل سير ماعسى أن يدخل إليها من الدبيب
والحشرات . فإذا دخل إلى المعوج من تلك الانعطافات وقف هناك
فسهل إخراجه .

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه ، لأن العين محل
الملاحظة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذي يمشى بين يدي الإنسان .

وأيضاً كان جعلهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن يساره سواء ، فتأتى المسموعات إليهما على نسبة واحدة ، وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء ، وهذا في غاية الحكمة ، إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرض لإثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ماتراه العين فإنه أجسام وأعراض لا تزول أثناء كشف الغطاء .

ثم انظر إلى بقية الاعضاء الظاهرة كاليدين والرجلين ، ثم الباطنة كالمعدة والقلب والكبد والرئتين والأمعاء والكليتين (ولاتنس السبيلين) وما فيك من لقوى المختلفة من الغذائية والنامية والجاذبة والدافعة والمصورة وما نبط بكل من الوظائف والأعمال . حتى أنك تجد في الحلق منفذين : منفذاً للنفس ، ومجرى آخر بجانبه للطعام والشراب . وقد اقتضت الحكمة أن تجعل هناك غطاءً يغطي مجرى النفس عند بلع الطعام ، وهو المسمى بلسان المزمار ، لئلا تدخل فيه اللقمة التي قد تسبب الموت . وما أسرع ما ينفتح ويعود حال الأكل . إلى آخر ما لا يمكن تفصيله في عجلة كهذه .

فلنقل كما قال على رضى الله عنه : سبحان من بصر بشحم وأنطق بلحم ، وأسمع بعظم . (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) ^(١) . (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ

(١) سورة النارق، الآية هـ

الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (١) . (خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ
رَكَّبَكَ) (٢) (أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (٣) .

وبعد هذا كله إذا نظرت إلى الإنسان من حيث روحه وتفكره
وإدراكه وتحيله وما أعطى من القدرة على التفنن فيما يريد ، والوصول
إلى أسرار الملك والملكوت ، وجدت باطنه أعجب من ظاهره ، وروحه
أسمى من جسمه .

وبالجملة : فالإنسان إذا تفكر في نفسه استنارت عنده آيات
الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك
والريب ، وانقضت عنه ظلمات الجهل . فإنه إذا نظر في نفسه
وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات
شاهدة لمديرة ، دالة عليه ، مرشدة إليه .

ولنقف هنا اليوم إشفاقا على القارئ أن يمل . ولندع مجالاً
لحضرات الكتاب الفضلاء سائلين الله أن ينور بصائرنا ، ويصلح
سرائرنا ، ويعرفنا نفوسنا ، فإن من عرف نفسه عرف ربه .

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٣٧ - ٣٩

(٢) سورة الانفطار ، الآية ٧ ، ٨

(٣) سورة الطور ، الآية ٣٥

سورة الأعلى (١)

قال الله تعالى : (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى . سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى . إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ . إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) :

ذكرنا لك طرفا من تقدير الله تعالى المبني على العلم والحكمة في
خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، ونذكر لك اليوم نماذج صغيرة في خلق بعض العوالم
فنقول :

من تقديره تعالى المنظور على الأسرار العجيبة والحكم الغريبة
التي لا يحيط بها إلا رب العالمين ، أن فوات بين أشكال الكواكب
ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأما كنهها ومداراتها ، فجعل منها
الكبير ، والصغير ، والمتوسط ، والأبيض والأحمر ، إلى غير ذلك .

ثم جعلها مختلفة المنازل : فمنها ما يتوسط قبة الفلك ومنها ما يكون
في جوانبها ، ثم خالف بينها في الحركة التي تقطع بها البروج :
فمنها ما يقطع الفلك في شهر ، ومنها ما يقطعه في عام ، ومنها
ما يقطعه في ثلاثين عاما ، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك .

ثم أنها دائبة الحركة لا تفتقر ولا تنى على مر الدهور وكر
العصور :

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياتجى لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات إلى ما لست أدرى طائرات
يطير له بها الجرم السميك

فسبحان من قدرها أحكم تقدير ، ودبرها أحسن تدبير .

ثم انظر بعد ذلك إلى كثرتها التي تفوق الحصر ، وإلى اختلاف
طدوعها وغروبها ، فبينما ترى كوكبا يأخذ في الغروب إذ كوكب
آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر في
الربع الشرق ، وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد
مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب وكأنه رقيبته ينتظر
بطلوعه غيبته ، إلى آخر ما لا يأتي عليه البيان . وقد ذكرنا منه جملة
في بعض ما كتبناه عن اللورد أوفبرى وغيره .

ويحسن بنا هنا أن ننشد قول القائل :

عجياً للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحاً
ويرينا علم النجوم الذي يو جب للدين أن يكون صريحاً

ثم لننتقل إلى ما في الأرض من التقدير البديع ، فترى الحق
سبحانه وتعالى جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومسكن الإنسان
وجعلها ذالولا تطوُّها الأقدام ، وتنبت فيها الزروع ويعمل منها اللبن
وتبنى فيها الأبنية ، ولو جعلها من حجر أو حديد لم تمكن

المعيشة عليها للإنسان ولا حيوان ، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وهي له كفات ، في حياته ومماته .

و بالجمله فقد هيأها لكل ما يراد منها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وجعل فيها كل ما يحتاج إليه من على ظهرها من النباتات والأقوات ، والفواكه والثمار ، والورود والأزهار ، فلك فيها كل ما تميل إليه نفسك ويصبو إليه حسك ، من منظور ومسموع ، ومشموم وملموس ، وما تحتاج إليه من الغذاء والدواء ، بل أوجد منها الرجال والنساء :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) (١) .
فليت شعري ما هذه الأرض التي أخرجت لنا جميع الأشياء حتى الرجال والنساء ، وماذا أودع فيها حتى آتتنا كل ما نحتاج إليه مما يكون وجودنا متوقفا عليه .

ومن آيات الأرض التي اقتضتها عناية الحكيم تعالى أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، فهذه سهلة وهذه حزنة ، وهذه تنبت وتلاصقها أرض لا تنبت وهذه خصبة وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ويلبها رخوة ، وهذه سوداء ويلبها أرض بيضاء ، وهذه تصلح لنبات كذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره « ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، وليكون ذلك سببا في التآلف والتعارف » إلى غير ذلك من الأسرار . ويكفيك في هذا قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى

بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفِضْلُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١)

فاشكر الهيك الذي نوعها هذا التنوع ، وفرق أجزاءها هذا التفريق
وخص كل قطعة منها بما خصها به ، وألقى عليها رواسيها . وفتح
فيها السبل ، وأخرج الماء والمرعى ، وأمسكها عن الزوال ، وبارك
فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ووضع فيها
معانزها وجواهرها ومنافعها .

وهيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، وجعلها ذلولا غير مستصعبة
ولا ممتنعة ، ووطأ منها كبتها وذل مسالكها ، ووسع مخارجها ،
وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها ، وصدعها عن النبات
وأودع فيها جميع الأقوات ، وبسطها وفرشها ومهدا وطحاها ودحاها
وجعل ما عليها زينة لها .

وهو الذي يمسكها أن تتحرك الحركات المهلكة فيسقط ما عليها
من بناء ، ويموت ما عليها من حيوان وإنسان . وهو الذي أنشأ
منها النوع الإنساني الذي هو أبداع المخلوقات وأحسن المصنوعات
وجعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والمعادن والأرزاق والحيوان
والذي جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو
زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر . فتعطلت
المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في

القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات .

وهو الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ، وجعل باطنها بيوتاً للأموات ، وظهرها بيوتاً للأحياء . وهو الذى يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ في الحمل بما يتخلق في بطنها ، فإذا كان وقت الولادة وجاءها المخاض اهتزت وأنبئت من كل زوج بهيج . فحرارة الربيع للإخراج ، وحرارة الصيف للإنضاج ، وبالجملة لو لم يكن هذا التدبير العجيب لاختلت مصالح العالم وفسد نظام الكون .

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه ، ولعلك حريص عليه ، أن الأرض فيما اثبتته الاكتشافات الجديدة ، وهو مذهب قديم أيضاً كما في كتب الفلاسفة القديمة ، إن لها حركتين : حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، وأنها تسمير بغاية السرعة ونحن عليها لا نحس بشيء من ذلك . فأى تدبير أحكم هذا الصنع ، وأى علم أتقن هذا الإبداع ، وأى قدرة نفذته وأحكمت تلك العلاقات التي بين الأرض والشمس ، بل بين عالم الأرض وعالم السماء ؟ وأمر الشمس في جريانها وتدبيرها مع توابعها من السيارات أعجب من ذلك كله .

ولنتل هنا قوله تعالى : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،
وَكُلٌّ فِي فِلْكَ يَسْبَحُونَ ^(١) .

فيا لك من آيات حق لو اهتدى بهن مرید الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة فليست وإن أصغت تجيب المناديا

والخلاصة الوجيزة : أن المراد بالتقدير والتسوية أنه تعالى خلق
ما أراد على وفق ما أراد ، موصوفاً بوصف الأحكام والإتقان ، مبرأ
عن الاضطراب والتشويش .

والهداية قد تكون هداية فكر وتعقل كما في هداية الإنسان إلى
كثير من مصالحه وقد تكون هداية جبلية بالإلهام كما في الحيوان .
« وإيداع تلك القوى الطبيعية في الأشياء هو نوع من الهداية والتسخير »
وقولهم إن كذا طبيعي معناه أنه الهى لا تعمل فيه . وكل ما كان جبلياً
لا دخل لصاحبه فيه قيل له طبيعي ، إشارة إلى أنه على غاية ما يكون
من الإتقان ، لأنه الهى محض لا دخل لعمل الفكر فيه . فإذا قولنا :
طبيعي ، مرادف لقولنا : إلهى .

أما قوله تعالى : (والذى أخرج المرعى) فاعلم أنه سبحانه
لما بين ما يختص به الناس أو هو ظاهر فيهم ، أتبعه بذكر ما يختص
به غير الناس من النعم ، فقال : (والذى أخرج المرعى) أى هو
الذى أنبت العشب ، فلا ينبغى أن يعبد غيره من الأصنام التى يعبدها
المشركون . والمرعى : ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزرورع
والحشيش . وروى عن ابن عباس أنه الكلاء الأخضر .

(١) سورة يس ، الآية : ٣٨ - ٤٠

أما الغشاء : فهو ما يبس من النبات فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح .

وأما الأحوى : فهو الأسود . وقال بعضهم : الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد . وقال الفراء وأبو عبيدة : الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل مدهامتان ، أى سوداوان لشدة خضرتهما .

وهذه الأوصاف يتضمن كل منها التدرج ، ففى الوصف بها تحقيق لمعنى التربية ، وهى تبليغ الشئ كما له شيئاً فشيئاً ، وفى نقل الأشياء من طور إلى طور ومن حال إلى حال دليل على تصرف القادر العظيم والإله الحكيم ، كما قال بعد أن بين أطوار الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة ثم نفخ الروح فيه (فتبارك الله أحسن الخالقين)^(١) وكما قال (مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)^(٢) وقد أفاض علماء التوحيد فى تغير العالم ودلالته على الحدوث ، والبرهنة بذلك على وجوده تعالى وقدرته ومشيبته وحكمته

أما قوله : (سنقرئك فلا تنسى) فهو بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته ، وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحي وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين . ويستبين منه التسبيح الذى ينزه به ربه المأمور به فى أول السورة . فإن تنزيهه تعالى وما يليق به من جلاله وكمال يجب أن يؤخذ من الوحي الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٤

(٢) سورة نوح ، الآيات ١٣ ، ١٤

ولا من خلفه ، لا من كلام أرباب العقول الذين يصيبون ويخطئون .
والسمن للتنفيس أو التأكيد .

أما قوله : (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) ففيه احتمالان : أحدهما أن يقال :
هذا الاستثناء غير حاصل في الحقيقة ، وأنه عليه السلام لم ينس بعد
ذلك شيئاً . قال الكلبي : أنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه
الآية شيئاً . وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله : (إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ) أحد أمور :

١ - التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى : (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(١) . وكأنه تعالى يقول : أنا
مع أي عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لا أخبر
عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة ، تبيننا لكون الأشياء
كلها مرتبطة بمشيئتنا ، وتعلما لكم أن ترجعوا كل شيء إلينا ، فعليكم
أن تقولوها في كل شيء ، وأن تلاحظوها عند كل عمل .

٢ - قال الفراء : أنه تعالى ما شاء أن ينسى محمداً عليه السلام
شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد
أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه كما قال : (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)^(٢) ، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك .
وقال لمحمد عليه السلام : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)^(٣) مع
أنه عليه السلام ما أشرك البتة ، فهي من هذا القبيل .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ، ٢٤ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٦

(٣) سورة الزمر ، الآية ٦٥ .

^٦ وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته . فكأن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاؤه عليه السلام على التيقظ في جميع الأحوال .

٣- يصبح أو يكون الغرض من قوله (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله ، ولا يقصد استثناء شيء .

٤- قال مقتل : إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء هاهنا نسخته كما قال : (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا)^(١) فيكون المعنى : إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها فبأمرك ألا تقرأه ولا تصلى به ، فيصير ذلك سبباً لنسيانه وزواله عن الصدور .

أما قوله تعالى : (إنه يعلم الجهر وما يخفى) ففيه وجهان : أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ مع جبريل عند الوحي مخافة النسيان ، فقتيل له : إن الله عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذى فى قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه . ويكون مثل قوله : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)^(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٦

(٢) سورة القمّة ، الآيات من ١٦ - ١٨

والثانى : أن يكون المعنى فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ فيانه
أعلم بمصالح العبيد فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ .
أما قوله تعالى : (وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى) فاليسرى هي أعمال الخير
التي تؤدى إلى اليسر .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه :
أحدها أن المعنى سنقرئك فلا تنسى ونوفئك للطريقة التي هي
أسهل وأيسر يعنى فى حفظ القرآن .

وثانيها : قال ابن مسعود : اليسرى الجنة . والمعنى نيسرك للعمل
المؤدى إليها .

وثالثها : نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به .

ورابعها : نوفئك للشرعية وهي الحنيفية السمحة السهلة .

واللفظ محتمل لذلك كله ، فالأولى أن يراد ذلك كله ، فهو تعالى

ييسره لكل ما هو خير وسعادة .

وقد قال (وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى ^(١)) بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى
إدالة على عظمة العطاء . وقد دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه
من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره . وكيف
لا وقد كان صبيا لا أب له ولا أم ، نشأ في قوم جهال ثم إنه تعالى
جعله فى أفعاله وأقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلق أجمعين : حتى استحق
أن يقال له : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ^(٢) بل أن يقسم الحق بحياته
حيث يقول : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) ^(٣) .

(١) الأعلى آية ٨

(٢) سورة القلم ، الآية ٤

(٣) سورة الحجر ، الآية ٧٢

ثم يقول له

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) (١) . فسبحان من حباه وأعطاه ، وجعله أشرف خلق الله . نسأل الله أن يجعلنا من محبيه ومحبيه بمنه وكرمه .

وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام ، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة الفاعل كما في قوله تعالى (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) (٢) ، للإيدان بقوة تمكنه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها ، بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عاينها . وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وبالجملة فالعنى : نوفقك توفيقاً مطرداً لاصعوبة فيه ، ولا مشقة تعثره ، في كل باب من أبواب الدين ، علماً وتعلماً ، واهتداءً وهداية ، فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية ، مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل سيره ، كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى : (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى) .

هذا واعلم أن عادة القرآن أن يرجع الأمور كلها إلى الله تعالى ، مبيناً أنه لا شيء يخرج عن مشيئته وإحاطته ، فيقول : (وَإِذْ قُلْنَا لِلَّهِ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) (٣) ويقول : (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) (٤)

(١) سورة الضحى ، الآية ٥

(٢) سورة طه ، الآية ٢٦

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٦٠

(٤) سورة الكهف ، الآية ١٧

ويقول : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(١) . ويقول : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)^(٢) . ويقول : (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ)^(٣) . ويقول : (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٤) . ويقول : (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٥) . ويقول : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(٦) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : (كُلُّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) . ويقول في تفسير الإيمان (وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرٌ وَشَرٌّ) .

إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة مما يثبت إحاطة الربوبية ، وببين أن الله هو مسبب الأسباب وفاتح كل باب .

وهكذا يجب أن يكون رب العالمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، ولكن ينبغي أن تعلم أنك من الأسباب أيضا ، وقد خلقت خلقة عجيبة ، فجعل فيك من العلم والاختيار والاستعداد لقبول ما جاءت به الرسل ، ومن العقل والفكر ما يعرفك النجدين ، ويهديك إلى سعادة الدارين ، ما لم يجعله لغيرك ، وإن كان ذلك كله على حد محدود وقدر مألوم لا يخرجك عن إحاطته أو يجعلك مستطعا لمخالفة مشيئته

(١) سورة التكوير ، الآية ٢٩

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٠

(٤) سورة فاطر ، الآية ٢

(٥) سورة يس ، الآية ٨٣

(٦) سورة هود ، الآية ١٢٣

أر منازعة ربوبيته ، مع ملاحظة أن النظام العام للعالم قد يمتضى بوجود الشر القليل لما يترتب عليه من الخير الكثير . وقد قالت الفلامنفة : أن ترك الخير الكثير من أجل شر قليل شر كثير .

ولتلاحظ مع هذا أن الإمكان حدودا ، وللممكن استعدادا خاصاً يمتضى أحكاماً خاصة . والإمداد إنما يكون على قدر الاستعداد ، وما وراء هذا لا يكون . وبعد ذلك كله سر القدر والحكمة التي اختصها تعالى ، والعلم الذي كان به نظام المكونات وتدبير المخلوقات ، ذلك النظام الذي روعى فيه حال الممكنات كلها لا شخصك الضئيل . وقد قال تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) . (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٢) .

فاعرف قدرك ، وقف عندما جاء به الشرع ، وإياك أن تتعداء ، واتهم عتلك وقلدس رسولك ، واعرف سمعة العلم وعظمة الربوبية .

وقد دلتك على ما يسعدك في الدنيا والآخرة ، وما يجب للضعيف مثلك مع من لا يعلم عظمته إلا هو . والله يتولى هداك .

قال تعالى (فَذَكِّرْهُ إِنَّ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)^(٣) :

اعلم أن كمال حال الإنسان في أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه ، وقد ورد « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ » .

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

(٣) سورة الأعلى ، آية ٩

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملا في نفسه بمقتضى قوله تعالى :
(وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى) أمر بأن يكمل غيره ليكون تاما وفوق التام فقليل
له : (فذكر) لأن التذكير يقتضى تكميل الناقصين وهداية الجاهلين.
ومن كان كذلك كان فياضا للكمال ، فكان تاما وفوق التام .

والمراد بتعليق الأمر بالتذكير على الانتفاع به ، العث على التأمّل
والنظر حتى ينتفعوا بالتذكر ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له
الحق : «قد أوضحت لك السبيل إن كنت تعقل» . فيكون مراده
العث على القبول والانتفاع به . أو نقول : إن هذا التعليق يجرى
مجرى تنبيه الرسول أنه لاتنفعهم الذكرى ، كما يقال للرجل : «ادع
فلانا إن أجابك» وكأنك قلت : «ما أراه يجيبك» . ولك أن تقول :
ان التذكير واجب في أول الأمر ، فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء
حصول المقصود .

على أن المالكية صرحوا بأنه لايجب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر إلا إذا ظنت الإفادة . وقد أنكر عليهم بعض الشافعية . ولكن
هذا هو المعقول ، فإن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها ولو على
سبيل الظن لم تشرع ، وأفعال العقلاء تصان عن العبث .

وللمالكية أن يتمسكوا بظاهر هذه الآية ، وبمثل قوله تعالى في
الآية الأخرى : (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)^(١) . وعلى كل حال
فعلى المؤمن أن يكون حكيما في كل ما يأتى ويذر . والشريعة لاتعرف إلا
الحكمة . ولك : لابد أن ننبه مع هذا على أن الناس الآن قد تهاونوا في

(١) سورة ق ، الآية ٥٥؛

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى وصلنا إلى مانحن فيه من شيوع المنكرات واقتراح جميع المحظورات . وفي رأي أن العلماء لو تضافروا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعرفوا الناس أن ذلك واجب عليهم لافرق بين صغير وكبير ، لخف الأمر ودب الحياة في النفوس من الناس إن لم يكن من الله . ولكننا على ما قال الأولون : « افتضحنا فاصطلحنا » .

ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى فقال (سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى) . والخشية إما حاصلة بالفعل ، وإما حاصلة بالقوة محتاجة لمن يثيرها من القلوب ، وإما غير حاصلة بالفعل ولا بالقوة فلا مطمع فيها . فالأول حال الخاصة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(١) . والثاني حال العامة . والثالث حال المتكبرين والمعاندين ، فإنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)^(٢) .

وقد سمي الله ذلك تذكيرا لقوة الدلائل وظهورها ، فكان العلم بالحق حاصلا ثم زال أو نقول : إن كل مولود يولد على الفطرة ، ففيه أصول الخير والإحساس بالحق والدين ، ولكن تفسد فطرته ، باتباع الشهوات واقتراح المنكرات ، وصحبة الفاسقين والجاهلين والمعاندين ، كما تفسد العين الصحيحة لعدم حفظها من الآفات وقلة تعهدتها بما ينفع النظر ويجلو البصر .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٧

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

والأرواح محتاجة إلى الرياضة بعلوم الدين ، ومذاكرة الكتاب والسنة ، وكتب المواظ كإحياء علوم الدين وغيره . كما أن الأجسام محتاجة للرياضة البدنية .

أما قوله : (وَتَجَنَّبْهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى)^(١)

فنجيئك فيه على ما بيّناه قبلاً من أن أصناف الخلق ثلاثة : العارفون والمتوقفون ، والمعاندون . فالقسمان الأولان لا بد أن يكون لهما خوف وخشية بالفعل أو القوة . وصاحب تلك الخشية لا بد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها ، فيكون الأشقى هو المعاند الذي لا يستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها . فلهذا قال تعالى (وَتَجَنَّبْهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى) .

وقد تفسد نفس الإنسان بالكبر والعناد حتى لا ينفع عنده برهان ولا يوثر فيه بيان . وقد قال الله تعالى في حق قوم هذا شأنهم : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)^(٢) .

فانظر إلى أي حد وصلوا من التصلب في العناد ومجافاة الحق حتى أنكروا المحسوس . ونظير ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)^(٣) . ويقول في الآية الأخرى : (وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا

(١) سورة الأعلى ، الآيتان ١١ ، ١٢

(٢) سورة الحجر . الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٧ .

لِيُؤْمِنُوا^(١). ويقول : (وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكِتَابٍ آيَةٌ مَا تَبِعُوا قِبَلَتِكَ^(٢)) إلى غير ذلك مما بيّن لنا أنّ الفطرة قد تصل إلى حد من الفساد لا مطمع فيه .

وعلى كل حال فالإنسان مجمع العجائب والغرائب ، فقد يلطف حتى يكون أطف من الهواء وأسلس من الماء ، وقد يكثف حتى يكون كالحجارة أو أشد قسوة .

ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام أنّ هذه الخصال المقوتة : من الكبر والعنصر والحسد ونحوها ، إنما خلقت في الإنسان لحكم بليغة ، وقد جعل لها الحق سبحانه وتعالى مصارف لو صرفت فيها لكانت فضائل لا رذائل ، وكان هذا موضع الابتلاء والامتحان . ولنقص عليك شيئاً من ذلك فنقول : مثلاً خلق فيك الحسد لتصرفه في المناسفة في فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة إليه ، وخلق فيك غريزة الكبر لتستعملها في التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يختال بين الصفيين في الحرب « هَذِهِ مَشِيَّةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ » وقال فيمن فرط في بعض آداب الصلاة حرصاً عليها : « زادك الله حرصاً ولا تعد » . وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه فقال : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ^(٣) وقال (وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً^(٤)) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١١

(٢) سورة البقرة . الآية ١٤٥

(٣) سورة التوبة ٧٣ والتحرير ٩

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٣

وخلق فيك غريزة الحرص لتصرفها فيما ينفع ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « احرص على ما ينفعك ولا تعجز » . وخلق فيك الشهوة القوية لتقوم بما جعله لك من التزوج بأربعة والتسرى بما شئت ليحفظ بذلك بقاء النوع ويكثر من أفراده ، وهو أحب مخلوقاته إليه « ولذلك علمه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته » .

وجعل فيك غريزة حب المال لتنفقه في مرضاته ، وتتزود منه لمعاده . وجعل فيك غريزة حب الجاه لتصرفه في تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله . وهكذا جميع القوى التي ركب فيك جعل لها مصرفا ، وقد أودعها الله فيك لمصالح اقتضتها حكمته ، فليس المطلوب تعطيلها ، وإنما المطلوب صرفها في مجاريها ، واستعمالها في موضع دون موضع ومحل دون محل على حسب ما يقضيه الشرع والعقل والحكمة ، وهو موضع الابتلاء وسلم الارتقاء ، وميدان العقل والذكاء ، إلى آخر ما يرشدك إليه قلبك الطاهر ونفسك الزكية .

واعلم أن الكبير من أعظم الآفات بل هو أسها وجماعها . وهو الداء العضال الذي لا تنفع معه موعظة ولا يفيد فيه دواء . وإذا عجز الرسل وهم أعظم أطباء النفوس عن هداية المتكبرين ، ففيرهم بالأولى . وقد قال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) (١) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

وماذا نرجو من انتحل لنفسه خاصة الآلهية والآلهية تأبى المشاركة فكيف تسبح نفسه الجاهلة المتألهة أن تكون سامعة لغيرها أو تابعة لمن سواها؟ فإذا ترسخ ذلك الخاق الذميمة في النفس اعتقد صاحبه أنه أسمى من غيره ، وأن كل من عداه دونه .

وقد قال الإمام الغزالي : إنَّ في النفس غريزة الترفع على الغير ، وهى تريد أن تقول : « أنا ربُّكم الأعلى » كما قال فرعون ، إلا أن فرعون ، وجد من يقبل منه ذلك ولا يعارضه ، فكيف مع هذا يقبل المتكبر النصح من غيره ، أو يصغى للحق من نبي أو رسول ؟ وكيف لا يحق ، على غيره إذا رأى فيه فضيلة ترفعه عليه وهو لا يرى إنساناً أحق بالتبجيل والتعظيم منه ؟

فلا غرو إذاً أن يدفعه كبره إلى كل رذيلة ، ويحول بينه وبين كل فضيلة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، لأن الكبر كما عرفت ، يورط صاحبه في الأخلاق التي تورثه المقت في الدنيا والآخرة .

وبالجملة فالمتكبر لا يرجى له فلاح ولا ينتظر منه صلاح (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا)^(١) .

وانظر إن شئت إلى ما حكاه الله عن أولئك المتكبرين في قوله (أَنْوْمُنُ

(١) سورة غافر ، الآية ٣٥

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) (١). (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) (٢) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ
بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ) (٣).

فانظر إلى ذلك المنطق الغريب ، بل الضلال البعيد الذى خيل
لهم أن من كان مثلهم فى البشرية يجب أن يكون مثلهم فى كل شىء
« وهكذا تكون فلسفة المتكبرين وعلوم الجاهلين » .

والخلاصة أن هؤلاء ما منعهم عن اتباع الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، إلا جهلهم وتكبرهم وأنفتهم من أن يكونوا تابعين لغيرهم ،
وإلا فبراهين صدقه ، صلى الله عليه وسلم أو ضح من الشمس وأجلى من
الحس . ومن نظر فى هذا القرآن وما فيه من العلوم والمعارف وأصول
السعادات ومجامع الخيرات ولم يشك فى أنه تنزيل من حكيم
حميد .

فإن كان النلاسفة الأولين والمحدثين لم يصلوا من الاصلاح العلمى
والعملى ، ولا من الآثار التى ظهرت فى الوجود وبقيت على ممر العصور ، إلى
إلى عشر معشار ما جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من الإصلاح
الروحى والجسدى والاجتماعى والفردى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٤) . وقال برنارد شو المعاصر لنا :

« إن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه
اليوم ، لثم النجاح فى حكمه ، ولقاده إلى الخير وحل مشاكله بوجه
يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٤٧

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٣٤

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

ولو نظرت في حال الأمة العربية في همجيتها أيام الجاهلية ، ثم نظرت في -نالها بعد الإسلام ماديًا وأدبيًا ، لعرفت تلك المعجزة الكبرى التي أتى بها ذلك الرسول الأُمى الذى ما قرأ كتاباً ولا خطه بيمينه .

ولعمري إنها لأكبر الآيات وأبهر المعجزات . وهذه المعجزات المعونة في نلر المتبصرين أكبر من المعجزات الحسية التي أفاضت فيها كتب السير وامتلات بها أسفار المؤرخين .

كفالك بالعم في الأُمى معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

فإذا نظرت مع هذا إلى أن ما جاء به ، صلى الله عليه وسلم ، من التوحيد وأصول الدين قد شهدت به العمول السليمة والفطر الطاهرة ، ووافقه عليه أربعة وعشرون ألفاً ومائة ألف نبي كلهم جاءوا بالتوحيد وإثبات الصانع عز وجل ، وادعوا الوحي وأقاموا على ذلك البراهمين ، وهو عدد يحين العقل نواطوهم على الكذب ، ثم نظرت في حالهم فوجدتهم على خلاف أهل الدنيا فلا يتنافسون ولا يتحاسدون ولا يتكاذبون ، ولو كانوا في عصر واحد وصقع واحد كإبراهيم ولوط مثلاً . ثم انظر إلى من تعرف من المتزاحمين على الدنيا في الصغير والكبير حتى العلماء .

ثم ألقت نظرك بعد ذلك كله إلى زهده صلى الله عليه وسلم ، في الدنيا ونعيمها ، وعدم طلبه أجراً على أعماله الشاقة ، وما كان عليه من الشرائع الشريفة والأخلاق الكريمة ، واستواء الشريف والوضيع

عنده في الحق ، واعتراف السحرة والكهان فيما مضى ، والفلاسفة اليوم بقصصور ما عندهم عما عنده ، فضلا عن كونه كان مجاب الدعوة وكان يخبر بالمغيبات الكثيرة فتقع كما أخبر .

وفي القرآن من ذلك شيء كثير . وكذلك فيه تنويه ببعض معجزاته الحسية خلافا لمن جهل ذلك ؛ وذلك مثل قوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ »^(١) وقوله : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقُّ الْقَمَرُ)^(٢) . إلى غير ذلك ، ثم بقاء دينه وقرآنه وآثاره وأنصاره حتى اليوم . ونحن نعلم ذلك كله إما بالمشاهدة وإما بالتواتر ، وهما يوجبان العلم الضروري ، كما بين في محله .

أقول : من نظر في ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه كان صدق الرسول عنده من أوضح الواضحات وأول الضروريات بشهادة العقل والنقل والوجدان والبرهان والحدس والحس ، إلا عند من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وانقهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان الفسيخ ، ولندع تفصيله إلى لسان حاله الفصيح : ولنرجع إلى التفسير فنقول :

أما النار الكبرى فإما أن يراد بها نار جهنم فتكون الصغرى نار الدنيا . وإما أن تكون الصغرى والكبرى في الآخرة فإن فيها نيرانا مختلفة ودركات متفاوتة ، كما أن في الدنيا ذنوبا ومعاصي متفاوتة ، فكما أن الكافر الذي كذب بالحق وتولى عن قبوله هو أعظم المجرمين كذلك هو أعظم المعذبين في الآخرة ويصلى أعظم النيران .

(١) سورة الأنفال ، الآية ١٧

(٢) سورة القمر ، الآية ١

هذا والآية نزلت على ما قيل في الوليد المخزومي وعتبة بن ربيعة وأبي بن خلف ، وهي منطبقة على كل من شاكلهم في كبره وتعنته في كفره . وقد أفادت الآية أن هناك من يصلى أقل من النار الكبرى فانها بينت أن الذي يصلها هو الأشقى ، فيكون للشقى ناراً أخف منها فتكون الأقسام ثلاثة :

المتقى الذي يخشى ربه ، والأشقى الذي كذب وتولى ، وبينهما أرباب المعاصي والذنوب التي لم تصل إلى ذلك الحد .

أما قوله : (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ^(١)) فالمراد أنه لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال : (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) ^(٢) . وهذا على مذهب العرب : تقول للمبتلى بالبلاء الشديد : لا هو حي ولا هو ميت .

وقد قالت سليمة زوجة صخر أنحى الخنساء لمن سألها عنه :

لا هو حي فبرجى ولا هو ميت فيبكي . فسمعها صخر فانشأ قصيدته المشهورة التي أولها :

أرى أم صخر لا تملُّ عيادتي وملَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي

لعمري لقد نبهت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذنان

فماي أمرئ ساوى بأأم جليلة فلا عاش إلا في شقي وهوان

وإنما قيل (ثم) للإشارة إلى أن هذه الحالة أفضع وأعظم من

الصلى ، فهو متراخ عنه في مراتب الشدة . وفيه إشارة إلى أن العذاب

(١) سورة الأعلى ، الآية ١٣

(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٦

الروحاني أشد من العذاب الجسماني وقد يصل إلى حالة يهون عندها كل شيء. وليس أوضح في بيان هذا من قوله تعالى في حق الكافر: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (١) .

وكذلك النعيم الروحاني أعظم وألذ من النعيم الجسماني ، بل هو النعيم على الحقيقة (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (٢) .

أسأل الله أن يديم علينا نعمة الإيمان ، وأن يمتتنا على الإيقان والإحسان بمنه وكرمه .

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) : أى فاز من كان عمله زاكياً ، وذلك إنما يكون إذا تطهر من الشرك والمعاصي . ومن اقتصر من المفسرين على التطهر من الشرك فلكون ذلك هو الأهم ، ولكونه أنسب بما تقدم في الآيات قبلا .

وعلى كل حال فالتزكية على درجات متفاوتة جدا فهى مقولة بالتشكيك المختلف المراتب البعيدة .

وقيل (تزكى) : أى استكثر من التقوى ، مأخوذ من الزكاء وهو النماء . ومعلوم أن التقوى درجات متفاوتة ، وكلها زكاء ونماء لدى النظر الصحيح .

هذا ويمكنك أن تأخذ تفصيل التزكى الذى نيط به الفلاح من بيان القرآن نفسه ، حيث يقول : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٧

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٧

فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (١) إِلَى آخِرِهِ .
ومن ذلك البيان قوله : (فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (٢) ، ثم قال بعد تلك الأوصاف
(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٣) .

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (٤)) : أى تذكر ما لربه من العظمة والجلال ،
وأنه سيقف بين يديه وسيجزيه بكل ما عمل . (فصلى) أى صلى
الصلوات الخمس امتثالاً لأمره وقياماً بواجب ربوبيته .

ويجوز أن يكون قوله (تزكى) إشارة إلى التصديق بالجنان ،
(وذكر اسم ربه) إلى النطق باللسان ، و (صلى) إلى العمل بالأركان
لما أن الصلاة عماء الدين ، وأفضل الأعمال البدنية ، ونهاية عن الفحشاء
والمنكر ، فلا بدع أن تذكر ويراد جميع الأعمال البدنية . ويجوز أن
يكون قد اقتصر على ذكر الصلاة لأن الفرائض والواجبات البدنية
لم تكن تامة يوم نزول السورة .

ومن البعيد غير الظاهر قول بعضهم : إن المراد من (تزكى)
أخرج الزكاة مطلقاً ، أو زكاة العيد ، لأن المعتاد في التعبير عن إخراج
المال أن يقال : زكى ، ولا يقال : تزكى ، وإن كانت تزكية النفوس
إنما تكون بفعل كل محمرد وترك كل مذموم فيدخل فيها إخراج
الزكاة ، بل عدم التفريط في واجب من الواجبات . وبالجملة :
المتزكى يتحلى بكل فضيلة ، ويبتعد عن كل رذيلة .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١ - ٢ (٢) سورة البقرة ، الآية ٢ - ٣

(٣) سورة البقرة ، الآية ٥ (٤) سورة الأعلى ، الآية ١٥

ولا يسهل علينا أن نترك هذا المقام من غير أن نقول كلمة في التربية وما فيها من نقص عندنا :

معلوم أن التزكى الذى حث عليه القرآن وناط به الفلاح فى قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) وقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)^(١) إلى غير ذلك إنما هو نتيجة حسن التربية والتعليم ، وليس أجدى على الإنسانية ولا أضمن لسعادتها من تعاليم الدين ، وغرس مراقبة الله تعالى فى النفوس ، مع بيان محاسن الأخلاق التى يجب التحلى بها ، وبيان مساوئها التى يجب البعد عنها ، إلى آخر ما جاء فى الشريعة المطهرة . ولا تكون التزكية الصحيحة إلا بهذا .

وعلى المرء أن يعرف التلاميذ أنه لابد فى نيل السعادة من الضغط على النفوس وكبح جماحها ، وقمع هواها ، وعدم الاسترسال مع شهواتها ، وبيان أن لها أخلاقاً غريزية يجب مراقبتها والاحتراس منها ، فإنها مجبولة عليها ، فلا بد من محاربتها بسلطان العقل وسلاح الدين والعلم ، وذلك مثل الكبر ، وسوء الظن ، والترفع على الخلق ، ومثل الحسد وحب الاستئثار ، والتفرد بكل نعمة ، والعلو على كل أحد حتى قال الغزالي : « إن فى كل نفس ربوبية كامنة ، فهى تشتهى أن تقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قال فرعون » ولكن ظروفها لا تسمح لها بذلك . ومثل محبة المال غير المعتدلة التى أتعبت الناس وكانت أس البلاء

(١) سورة الشمس ، الآية ٩

ومنبع الشقاء ، وإن حب الدنيا رأس كل خطيئة . ومثل محبة النساء ، تلك المحبة التي كادت تطغى على كل شيء ، والتي فعلت الأفاعيل بالبنيات والبنين ، خصوصاً في هذا العصر الخليع . ومثل محبة العجاء المفرطة ، مع بيان جهل الذنوس الغريزي في الإنسان ، كما قال تعالى في حقه : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(١) .

ولا تنس قول الله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢) (وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٣) . (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)^(٤) .
إلى آخر ماجاء في الكتاب والسنة وهو كثير .

ثم العناية بغرس مكارم الأخلاق في النفوس : مثل الشجاعة ، والحلم ، والكرم ، والرحمة بالضعيف ، ومواساة المحتاج والشفقة على كل ذي روح ، والمحبة لعموم المسلمين ، وبيان أن الإيمان لا يتم إلا بذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُوْمِنُوا ، وَلَا تُوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » ، . وكما قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ، أَوْ يُحِبَّ لِنَفْسِهِ » .

ولعمر الله لو تمت المحبة بين الناس لكانوا في أبهج عيش لا يماثلها ، إلا عيش أهل الجنة . إلى آخر ما لا تسعه هذه العجالة . ولعلنا نعرض له في فرصة أخرى .

(٢) سورة ص ، الآية ٢٦

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٤) سورة يوسف ، الآية ٥٣

(٣) سورة النازعات ، الآية ٤٠ - ٤١

أما التربية عندنا فهي عبارة عن تلقين بعض نظريات ناقصة ،
ولا فائدة لنظريات في تربية الملكات وتكوين الأخلاق ، بل لا بد من
العمل وتكرار العمل ، والمراقبة التامة للعاملين ، والقدوة الحسنة في
المعلمين .

وبكل أسف نقول : إن غالب الأساتذة عندنا إنما يقومون بما يفرضه
عليهم البرنامج الذي يسألون عنه «والذي يجب تعديله وإطالة النظر فيه»
بل الأمر عندنا أشد وأنكى من ذلك كله ، خصوصاً في تربية البنات
واختلاطهن بالبنين ، وغرامهن بروايات الغرام ، مما جعل التعليم الذي
يقصد به تزكية النفوس وسيلة من أكبر وسائل الفساد (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ) .

ومسألة التربية من أول ما يجب على الحكومة إصلاحه والتفكير
فيه ، فإن سعادة الأمة مرتبطة بتربيتها وتهذيبها ، وعلى قدر ما يكون
لها من صلاح التربية وفسادها يكون حظها من السعادة أو الشقاوة .

وقد يقول قائل : إن كثيراً من الأوربيين على حظ كبير من
الأخلاق : فنقول له : إن الأوربيين درسوا علم النفس دراسة صحيحة ،
وعرفوا منابع الأخلاق وغرائز النفوس ، فاهتدوا إلى مصلح دنياهم
علماء وعملاً ، أما نحن فقد درسنا ذلك العلم دراسة نظرية لا عملية ،
مع أن الإسلام لا يقيم وزناً لغير العمليات . وكم تطالعنا الجرائد كل يوم
بما يندى له جبين الحياء وتبكي له عين الدين ، مما لا يمكننا أن نذكر
شيئاً منه هنا .

ولندع هذا الموضوع ، ولنعد إلى التفسير فنقول :

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : ولكن أنتم لاتزكون أنفسكم بل تؤثرون . وأما قوله : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) فهي جملة في محل النصب على الحال من فاعل تؤثرون ، مؤكدة للتوبيخ والعتاب ، أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها ، كما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة والبهجة خالص من جميع الشوائب والمنغصات ، مع كونه أبدياً لا انصرام له . ولله در القائل :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

قال ابن مسعود لأصحابه يوماً : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ فقالوا : لا ، قال : « لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولداتها وبهجتها ، وأن الآخرة زويت عنا ، فأحببنا العاجل ونركنا الآجل » . وذلك مصداق قوله تعالى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)^(١) . وأى قدر للدنيا التى يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفي مرجوها بمخوفها ، إن أحسنت مرة أساءت مراراً ، سلامتها مقدمة السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها الزائل لا يثمر إلا الحسرة والندم ، إن أعطت واحداً من بنيتها جميع ما طلعت عليه الشمس ، جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس تمنى أصحابها سروراً ، وتعدهم غروراً ، حتى يأملون كثيراً ، ويبنون

(١) سورة انقيامة ، الآية ٢٠ - ٢١

قصوراً ، فتصبح دورهم بعد القصور قبوراً ، وجمعهم بوراً ، وسعيهم هباءً منثوراً .

أفان بباق تشتريه سفاهة وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت عدو أم صديق لنفسه فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فيا عاملاً للنار جسمك لين فجر به مرّات بحر الظهيرة

وأبلغ من ذلك كله قول الله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ
حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ
عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .
كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) . وألفت نظرك إلى التعبير بدار
السلام وما فيه من التعريض بدار الآفات .

ويقول صلى الله عليه وسلم نصيحة لنا وخوفا علينا : « وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ
أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بَسَطَتْ
عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ »
وكتفوله صلى الله عليه وسلم : « مَا رَفَعَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا
إِلَّا وَضَعَهُ » .

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ - ٢٥

وأبلغ وصف لها ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُمْ وَتَفَاخُرُهُمْ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا . وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (١) .

وكيف يؤثر العاقل الدنيا على الآخرة مع كون الآخرة مشتملة على السعادة لجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، والدنيا بعد ذلك ممتزج خيرها بشرها ونعيمها بألمها ، ومع تلك العيوب كلها فالدنيا فانية : الآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني بالضرورة .

ثم قال تعالى : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) : يعنى أن فلاح من تزكى ... إلخ . منصوب عليه في صحف إبراهيم وموسى . وقيل : إن الإشارة راجعة لكل ما في السورة . والظاهر أنها راجعة لقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) ... إلخ . وبديل له بعض ما ورد في كتب السنة .

هذا وقد روى عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله : ما كانت صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : « كانت عبرا كلها ، عجيبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجيبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجيبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجيبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجيبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل » أخرجه ابن الأثير في جامعه .

وكانت صحيف إبراهيم عشرة ، وكذا صحيف موسى عليه السلام ، والمراد بها ما عدا التوراة . وفي حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن عساکر وغيره : أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شِيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

وقد ذكروا أن مما في صحيف إبراهيم : « على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانہ ، فإن من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث : « لتمة لمعاشه ، أو تزود لمعاده ، أو تلمذ في غير محرم » . وما أحسن قول من قال :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

قال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والاخرة من خزف
يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد
اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى . فأصبحنا على ما قال القائل :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله به وجاد بدنياه لما يتوقع

وبعد : فما في هذه الآيات كاف في نيل كل سعادة ، والبعد عن
الآكل شقاء ، لأن قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) إشارة إلى تطهير
النفس عن آكل ما لا ينبغي ، أما في الأمور النظرية فعن جميع العقائد

الفسادة ، وأم في القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذميمة . وقوله :
(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى .
وأمأ قوله : (فَصَلَّى) فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة
الله تعالى .

وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع . ولهذا قال :
(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى) .

وقد روى عن أبي ذر أنه قال : هل أنزل عليك يا رسول الله شيء
مما في صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا أبا ذر :
(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) . ولعل هذا هو السر فيما روى عن ابن عباس
من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك
الأعلى . كما أخرجه الترمذى وغيره . وقد سئلت عائشة : بأي شيء
كان يوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : « كان يقرأ في الأولى
بسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الثانية بقل يا أيها الكافرون ، وفي الثالثة
بقل هو الله أحد والمعوذتين » . أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى .

فكان صلى الله عليه وسلم يختم عمله بالوتر المشتمل على هذه السورة
التي تحث على تسبيح الله وتنزيهه ، وتذكير من يخشى ، وبيان أن
طريق الفلاح إما هو تزكية النفوس بامتثال أوامر الله تعالى ، والبحث
على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة التي هي خير وأبقى ،
وأن ذلك مندوب إليه محثوث عليه في صحف إبراهيم وموسى .

ولا بد أن ننبه هنا على أن الدين لا يريد من الناس أن يتركوا

الدنيا ولا يدعوها تستقر في أيديهم ، أو لا يطلبوا أن يكونوا أرفع أممها وأعز بنيتها ، كيف وهو يقول : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ^(١) ويقول : (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ) ^(٢) ؟ إلى غير ذلك . فما أراد من المؤمنين إلا أن يصيروا أحراراً فيها غير مستعبدين لها . فما أحب لهم إلا أن يكونوا أَعْزَاءَ لا أَدْلَاءَ ، ملوكاً لا عبيداً ، فهو يريد منهم أن يجعلوها وسيلة لا مقصداً ، عالماً أنهم إذا قاموا بتعاليم دينهم جاءتهم الدنيا وهى راغمة ، فكانت في أيديهم لا في قلوبهم ، وكانوا ملوكاً في الأرض ملوكاً في السماء ، يضعون كل شئ في موضعه ، شأن الحكيم الذى عمل بتعاليم سيده ، فأخذ منها ولم تأخذ منه ، وبعد عنها ولم تبعده عنه .

وقد عجلنا بذكر هذه الكلمة خوفاً من ذوى الجهالات وأرباب الغايات ، ممن لا يهضمون الحقائق ولا يعرفون غير الأهواء .

ولنختم هذا المقال بقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ^(٣) ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ . ذَلِكَ خَيْرٌ

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨

(٢) سورة محمد ، الآية ٣٥

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(١) ، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(٢) .

أَسأل الله أن يجعلنا من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، وأن يعرفنا قدر الدنيا التي حقرها صلى الله عليه وسلم غاية التحقير حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، كي لا نغتر بها ولا نطمئن إليها بمنه وكرمه .

(٢) سورة القصص الآية ٨٣

(١) سورة الصنف ، الآية ١٠ - ١١

سورة العَصْرِ^(١)

رأينا أن نفسر هذه السورة الكريمة لما فيها من عظيم الفوائد وجميل العوائد على إيجازها واختصارها ، حتى قال الشافعي رضى الله عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لكففتهم . كيف لا وقد أرشدتهم إلى أن سبيل السعادة إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذى يعود عليك وعلى بنى نوعك . وليس يكفيك أن تعمل ذلك فى خاصة نفسك ، بل عليك أن توعد أخاك بانتهاج الحق والتزام الصبر على ما عسى أن يتلقاه فى هذه السبيل ، مع بيان أنك إذا لم تفعل ذلك أحاط بك الخسر من كل جانب ، كما تدل عليه كلمة (فى) المفيدة للظرفية المحيطة ، مع الإقسام على ذلك ، إلى آخر ما سيتضح له فى تفسير السورة .

ولهذا كله روى الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب : أن الرجلين من أصحاب رسول الله كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر إلى آخرها ، ثم يتفارقان . وكانهما يقصدان بذلك القيام بالتواصى بالحق والصبر عند الفراق : وكانها وضعت بجانب سورة التكاثر للإشارة إلى أن من ألهاهم التكاثر فى خسر ، وأن من لم يلههم التكاثر هم الرابحون الفائزون ، وليسوا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

(١) مجلة الأزهر الجزء السادس - المجلد التاسع - جمادى الآخرة سنة ٣٥٧

وبالجدلة : ففي السورة من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن
المعكر ، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، مالا يخفى .

البيان التفصيلي :

المراد بالعصر : الدهر ، وقد قرأ على فيما يروى عنه : والعصر
ونوائب الدهر . وهو تفسير للمراد بالعصر ، وليس قرآنا ، فهو نظير
(حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى)^(١) وهي صلاة العصر .

وقد أقسم به ، تعالى لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة
الله تعالى وسعة نصره ، وعظيم سلطانه ، الذي يصرفك كما يشاء ،
فينقلك من صحة لمرض ، ومن فقر لغنى ، ومن ذل لعز : ومن حياة
لموت . إلى آخره .

ومن لطيف ما قيل : إن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلير ضيعت
مائة سنة ثم تهبت في اللمحة الأخيرة من العمر ، بقيت في الجنة أبد
الآباد ، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة التي
تبت فيها ، فكان الدهر من أكثر النعم لديك وأجداها عليك .

فلذلك أقسم به لتعلم أن ما يمر من الليل والنهار فرصة ثمينة يجب
أن لا تضيعها أو تفرط في شيء منها : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)^(٢) . فيا خسارة من ضيع

(١) سورة البقره ، الآية ٢٣٨

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٢

عمره الذى يمكنه أن يربح فيه السعادة الأبدية ويفوز بالنعيم المقيم الذى لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال :

إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج : كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن ، ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن . فقلت : هذا معنى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) : يمر به الزمن فيمضى عمره ولا يكتسب فيه شيئاً .

ويصح أن يراد بالعصر : أحد طرفى النهار ، وهو الوقت المعروف ، فيكون تعالى أقسم بالعصر كما أقسم بالضحى والفجر ، إلى آخره ، لما فى ذلك من دلائل القدرة ، وكأنه إشارة إلى أنه ينبغي لك أن تتذكر بمضى النهار ومجىء العصر خراب الدنيا ومضى الأجل ، وأن الإنسان الذى يغفل عن ذلك فى خسر .

ويصح أن يكون تعالى قد أقسم بذلك الوقت لتعظيمه ، لأن الصلاة فيه هى الصلاة الوسطى على ما هو المشهور ، وقد ورد تعظيمه فى السنة من وجوه كثيرة ، والقرآن يقول : (وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(١) وفى الحديث : « مَنْ فَاتَهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَانَ مَمَّا وَتَرَ أَهْلُهُ وَمَالَهُ » . وإن شئت فاقصر على أن المراد الدهر ، فهو أقرب وأظهر .

أما قوله : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)^(٢) فال فيه للاستغراق بدليل الاستثناء . والمراد بالخسر : النقصان . وإن شئت قلت : الهلاك

(١) سورة الإنسان ، الآية ٢٥

(٢) سورة العصر ، الآية ٢

وذهاب العمر في غير فائدة . وإن شئت قلت : إنه في ضلال مبين
 وجهالة عمياء . وأى خسر أعظم من ضياع السعادة الأبدية بحقير لا يبت
 في يدك منه شيء البتة : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ
 مَا كَانُوا يَوْمَعُدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)^(١) . خسر يجعل
 الكافر يقول : (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)^(٢) : وليته مع ذلك يبلغ
 في حياته الدنيا ما يؤمل ، أو يصل إلى ما يقصد ، هيهات هيهات ! .
 وإنما هي أو نام خادعة وأمانى باطلة ، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن
 ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

ألم تر أن المرء طول حياته يحاول أمراً لا يزال يعالجه
 يدور كدود القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هوناسجه

الخلاصة

أن الناس - إلا من استثني الله - في خسران : في متاجرهم ومسايعهم ،
 وصرف أعمارهم في مباحيهم الدنيوية ، وشهواتهم البشرية . ولك أن
 تقر خسر الإنسان بأن روحه علوية ربانية هبطت إليك كما قال
 ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورفقاء ذات تعزز وتمنع

إلى أن نال في بيان قصر هذه الحياة وسرعة انقضائها :

فكأنه برق تالَّق بالحمى ثم انطفأ فكأنه لم يلمع

وقد كنت واصلاً من الشرف والرفعة إلى أن الله جعلك خليفة في
 الأرض ، وأسجد لك ملائكته . وقد كان يمكنك بهذا الاستعداد الذي

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٠٥ - ٢٠٧

(٢) سورة النبا ، الآية ٤٠

أودعه الله فيك . وذلك السر الذى أشير إليه بقوله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله خلق آدم على صورته » أن جعله قادراً مريداً ، عالماً مسيماً
بصيراً ، إلى غير ذلك من النعوت الجليلة والصفات الجميلة .

ويقول الله للإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ﴾ (١)
فانظر إلى ذلك التشريف الذى يسير إلى غاية العناية بالإنسان ، حيث
خلق باليدين جديعاً ، بخلاف غيره من المخلوقات . ثم انظر كيف
نزل من أوج ذلك العز الشامخ الذى كان به فى أعلى عليين مع الأنبياء
والمرسلين ، إلى حضيض الحيوانات ، يرتع فى الظلمات ، ويتقلب
فى صنوف الآفات ، لمقتضى شهواته البهيمية ، وانهماكه فى مطالبه
البدنية . والله در أحد أئمة الشافعية حيث يقول :

إلى كم تمادى فى غرور وغفلة
وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
أترضى من العيش اللذيد تعيشه
مع الملاء الأعلى بعيش البهيمة
تقد ضاع عمر ساعة منه تشتري
بملء السما والأرض أية ضيعة
نيادرة بين الزابل
أرميت
أفان بباق تشتريه
سفاهة
أأنت عدو أم صديقي لنفسه
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما
فيا عاملا للنار جسمك لين
رجريه فى لسع الزنانير تجتري
على لسع حيات هناك عظيمة

إلى آخر ما قال .

وبالجملة : فما أشد خسر الإنسان ، وما أعظم الفرق بين حاله إذا نظر إلى حياته العنصرية وطاعته لسلطان الهوى والشهوة ، وانقياده لنفسه الأمامة بالسوء ، وإلى ما كان عليه حال حياته الروحية قبل تعلق الروح بالبدن عندما كانت تسرح بين أفراد الملائة الأعلى ، وتسبح في ذلك العالم الذى يبعد كل البعد عن ملابسة الأدناس والألوات .

وعلى كل حال فليس الشأن أن تكون إنساناً حيوانياً ، بل الشأن أن تكون إنساناً روحانياً ولا تكون كذلك إلا إذا سافرت من ظاهره إلى باطنك ، وهناك تعرف ما حجب عنك من شرفك وعلو قدرك الذى جعل الملائكة تسجد لك قبل أن تنزل إلى حضيض حيوانيتك كما قلنا ، فكن ممن عرف نفسه فعرف ربه ، ولا تكن ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ومن العريب أن الإنسان هو الحيوان الناطق ، وأن روح الإنسانية هو ذلك النطق المراد به الإدراك والتفكير ، فإنه المعنى الخاص بالإنسان ، وأما الحيوانية فأمر مشترك بينه وبين الحشرات وجميع الحيوانات ، ومع ذلك لا نجد من أكثر أفراد هذا النوع إلا الحيوانية المشتركة ، لا النطق والتفكير الذى هو ميزتك وروح إنسانيتك .

واختصار الموضوع : أن خسر الإنسان إنما نشأ من ظنه أنه إنسان بجسمه ، غافلاً عما أودع فيه من الأسرار التى تجعله (فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)^(١) .

(١) سورة القمر ، الآية ٥٥

ولتعلم أن رأس مال العبد قلبه ، وبضاعته عمره ، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله فهو مغبون ، فاجتهد فيما ينفعك قدر الاستطاعة ، واستغفر من ذنبك وتقصيرك .

وأيقن أن كل لحظة يحضر فيها قلبك أو يذكر فيها لسانك أو يتعظه فيها عقلك ، فهي كنز ثمين ، فاستكثر من الخيرات بقدر ما يمكنك وتباعد عن الغفلات بقدر ما تستطيع ، وسل الله التأييد والتسديد ، ولا تكن ممن قيده عالم الشهادة عن عالم الغيب . وأعلم أن من غفل عن الله ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك قال تعالى : (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (١)

ولا يفوتك أن سلاح الشيطان إنما هو الشهوات ، فإذا أغلقت بابها لم يجد الشيطان مدخلا إلى قلبك ، وإذا تأملت علمت . فإذا أعدى عدوك نفسك التي هي مركز شهواتك التي يوقد الشيطان بها ناره في قلبك ، وقد قالوا : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره . فإن كنت تحبها فأحسن إليها بمخالفتها وسياستها ، واشغلها بمرضى الله ، فإنك إن لم تشغلها شغلتك : (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) (٢) .

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه : أنه أتى سبحانه وتعالى بمؤكدات كثيرة : فأقسم بالعصر ، وأتى بإن واللام ، وإسمية الجملة ، ثم ذكر (في) التي للظرفية ، التي تنميد أن الخسر محيط بالإنسان من كل

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥٣

جهاته . وسر الإتيان بتلك المؤكدات أن الإنسان يجهل خسارته وينكره ولا يكاد يدركه ما دام لا يشعر بحقيقته العلوية وروحه السماوية . ومن أين له أن يدرك ذلك وهو مكبل بشهواته ، مسجون في سجن طبيعته ؟
واجمال القول : أن الآية تشير إلى أن الإنسان في غاية الخسران ، كما يرشد إبه تنوين التعظيم ، مع أنه لا يشعر بشيء من ذلك الخسران ، بمازين له من سوء عمله وتحكم شهواته : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(١) ويقول تعالى في الآية الأخرى : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾^(٢) (وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ)^(٣) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (٣) .

ولنختم لملتنا اليوم بما ينسب للإمام علي كرم الله وجهه ، قال :

دواؤك فيك وما تشعر ودأوك منك وما تبصر
وتزعم نك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أسأل الله أن يعرفنا أسرار إنسانيتنا ، ولا يحرمنا من أنوار روحانيتنا وأن يخلصنا من نفوسنا الأمارة ، حتى نلقاه آمنين مطمئنين ، راضيين مرضيين ، بمنه وكرمه .

(١) سورة فاطر ، الآية ٨

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

(١) تفسیر سُورَةِ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) : ١ : ٤

ذكرنا أن القرآن يدل على أن الإنسان محيطة به الخسر من كل جوانبه ، كما تشير إليه كلمة (في) ، فكأن الخسر ظرف له يتقلب فيه ولا يخرج عن محيطه (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) الخ .

وقد قال بعض الحكماء : إذا فسد الإنسان فلا تسلم عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان أو فساد أو عناد ، فإنه مستعد للشر لانهائية له كما أنه مستعد للخير لانهائية له ، فإن سار في طريق الشر أفيض عليه من وسائله والترقي فيه ما لا يعلمه إلا الله ، وإن سار في طريق الخير أفيض عليه من وسائله والترقي فيه ما تغيبه عليه الملائكة .

وبالجملة فلإنسان محل الابتلاء والاختيار بين تيارات متعاكسة وعواطف متخالفة ، وأهواء متضادة ، ولا نجاة له من ذلك إلا بالالتجاء إلى الله ، والتزام مارسم له من خطط ومناهج : بامثال أوامره واجتناب نواهيه .

وقد قال على كرم الله وجهه مبيناً لضعف الإنسان وخلقته العجيبة :
« أعجب ما في الإنسان قلبه : له مواد من الحكمة وأصداد من الطيش
والسفه ، إن سنج له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الغضب اشتد
به الغيظ ، وإن أسعف بما يهوى نسي التحفظ وإن ناله الخوف فضحه
الجزع ، وإن استفاد مالا أطعاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله الفقر ،
وإن جهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط في الشبع أضرت البطنة ،
وكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد . وهو لا يكاد يدخل من
إفراط أو تفريط .

وكل هذا يشرح لنا قوله تعالى : (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا)^(١) ،
وقوله عز وجل : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)^(٢) .

وقد جاءت الشرائع لترشده إلى طريق الخير والصلاح ،
وتهديه الصراط المستقيم الذي يوصله إلى الفوز الدائم والسعادة الأبدية
وما حقرت في نظره الدنيا وقالت له : إن الآخرة هي دار القرار ،
إلا لتريحه من همومها وغمومها ، فإنها منبع البلاء وأس الشقاء ،
ولا ينجو من شباكها وارتباكها (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

يريد الله بهذا الاستثناء وهذه الأوصاف أنهم آمنوا بقلوبهم
وعملوا الصالحات بجوارحهم (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) وهو أداء الطاعات
وترك المحرمات (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) على المصائب والأقدار ،

(١) سورة النساء ، الآية ٢٨

(٢) سورة البلد ، الآية ٤

وماعسى أن يكون من أذى من يؤذيهما عندما يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

فإنهم لشدة محبتهم للصلحاء وقوة حذبهم على أبناء جنسهم ومزيد رحمتهم بإخوانهم لا يقتصر على ما يخصهم ، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ، ليكملوا في أنفسهم ، وليكونوا بعد ذلك سببا لكمال غيرهم ، فإن ذلك شأن أهل الدين وورثة المرسلين . وقد قال الله تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)^(١) وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)^(٢) وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

ويكفيينا في هذا الموضوع أن القرآن يخبرنا عن سبب لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم أنهم : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مَنكَرٍ فَعَلُوهُ)^(٤) .

والتواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما هو مطلوب واجتناب ما هو منهى عنه ، إذ الإقدام على ما تكرهه النفس والإحجام عما تحبه صعب شديد ، ولا سبيل إلى ذلك كله إلا ، بالصبر .

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٢) سورة التحريم ، الآية ٦

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٤) سورة المائدة ، الآية ٧٩

ولا بد أن يكون لاح لك مما قدمناه أن في هذه السورة الجليلة وعيداً شديداً يجب الانتباه له والالتفات إليه ، فإنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان متصفاً بهذه الأشياء الأربعة : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

فكما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه دعاء غيره إلى الدين ، والعمل الصالح والأمر ، المعروف والنهي عن المنكر ، وبذل النصيحة بقدر المستطاع . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم ، فإن المؤمن يجب لأخيه ما يجب لنفسه .

وقد كرر تعالى التواصي للحض على الدعاء إلى الله ، ثم الثبات عليه بحيث لا يضر ولا ينجس ، وعلى المؤمن أن يقبل الموعدة الحسنة ولا ينفر منها ، فإن ذلك ملاك سعادته . وقد قال عمر بن الخطاب : « رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبى » .

وبالجملة : فهذه السورة تنبئنا أن الناس كلهم في غفلة عما يراد بهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم في تجارة لن تبور ، حيث باعوا الفاني الخسيس واشتروا الباقي النفيس ، وقدموا الباقيات الصالحات على الغايات الرائحات ، فيألفها من صفقة ما أربحها ، وبغية ما أنجحها .

هذا ويدخل في عموم الصبر : الصبر عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية ، والصبر على الطاعات التي يشق على

النفوس أداؤها ، والصبر على ما يبتلى الله عز وجل به عباد من البلائ
والمصائب

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، الصبر على ثلاثة أوجه : صبر
على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة ، وصبر على البعد عن
محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة
الأولى فله تسعمائة درجة .

وقد قالوا : إن الصبر على البلاء بضاعة الصديقين : ويروى عن
داود عليه السلام أنه قال : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن
التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما
قد فات .

ويقول بعض العارفين : إن أجر الصابرين فيما فاتهم مما كانوا
يريدون : أعظم من النعمة عليهم فيما يعطونه من محبوباتهم فعلى
الإنسان أن يدفع الجزع عن نفسه بالتفكير فيما سيناله من الثواب
الباقى والنعم الدائم .

وتأمل كثيرا فى قوله تعالى : (إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ)^(١) فقد جعل الله تعالى كل شىء بحساب إلا أجر الصابرين فإنه
بغير حساب) والله در من قال :

عطيته إذا أعطى سرور وإن أخذ الذى أعطى أثابا

(١) سورة الزمر ، الآية ١٠

فَأَيُّ النَّعْمَتَيْنِ أَحَقُّ شُكْرًا وَأَحْمَدُ عِنْدَ مَنْقَلَبٍ إِيبَابَا
أَنْعَمْتَهُ الَّتِي أَهَدَتْ سُرُورًا أَمْ الْأُخْرَى الَّتِي أَهَدَتْ ثَوَابًا

الخلاصة :

أن الناجين من هذا النوع الإنساني هم الذين آمنوا بشرف الفضيلة وخسة الرذيلة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى)^(١) وهم الذين آمنوا بالجزاء وجميع ما جاء به الرسل ثم عملوا الصالحات بان يكون كل إنسان نافعاً لنفسه وأهله ولقومه وللناس أجمعين ، بعيداً من أن يضر أحداً « إلاكف ضرر أعظم منه » ، ثم يدأب على التواصي بالحق والصبر ، فان التواصي بالحق والصبر -حفاظ كل خير ، ورأس كل أمر .

فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويكنود من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه بأن يدعو كل صاحبه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التي لا يندزع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل ، وأز، يبعدوا بأنفسهم عن الأوهام والخيالات التي لا دليل عليها ولا فطرة تهدي إليها .

ومعلوم أن رأس الأعمال الصالحة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَ كُفْرٍ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ »

(١) سورة المیل ، الآیة ٦

ويقول الله تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) ^(١)
(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) ^(٢) ومن الذين ظلموا ،
الذين لا ينهاون عن السوء كما هو واضح من الآية ، فإنه مانعنا إلا الذين
ينهاون عن السوء.

هذا وأظنك في غنى عن أن أقول لك : إن ذكر الصبر بعد الحق
مع دخوله فيه لكمال الاعتناء به ، أو نقول : أن الأول عبارة عن رتبة
العبادة التي هي فعل ما يرضى الله تعالى : والثاني رتبة العبودية التي
هي الرضا بما فعل الله تعالى .

ولنتقف هنا اليوم ، ونرجو أن يكون لنا جولة نتمم بها هذا المقام
إن شاء الله .

ذكر الله تعالى التواصي بالصبر بعد التواصي بالحق مع كونه
داخلا فيه ، تنويها بشأنه ، وتنبيها على رفعة قدره . أو تقول : لما
كانت هذه الخصال أعنى قول الحق وملازمة الحق والتواصي بالحق
في الغالب تجلب لصاحبها من الأذى ما قد تكرهه نفسه ، ذكر تعالى
التواصي بالصبر وإن كان ذلك من الحق ، اعتناء به وحسن عليه ،
فإن من لم يتذرع بالصبر قل أن يثبت في مقام الدعوة إلى الله عز وجل .
وقد قال لقمان لابنه في وصيته : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٦٥

وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^(١) يعني أن ذلك من خصال دوى العزم . وقال تعالى حكاية عن الرسول : ﴿ (وَلَنَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)^(٢) .

وقال تعالى : (وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْجُرْهُمْ هَجْرًا جَبِيلًا)^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)^(٤) . وكان بعض

السلف يقول : ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى .

وبالجملة : فالدين الإسلامى لا يرضى من بنيه إلا أن يكونوا من

الشجاعة فى الذروة العليا ، ومن الثبات بالمحل الأقصى . وانظر إلى

تشجيع المسلمين بمدح الخيل الى تعدو ضبيحا ، فتورى قدحا ، فتغير

صبيحاً ، إلى تحره . وليس أحض على الشجاعة من هذا . فليت شعرى

ماذا أصاب لمسلمين حتى أصبحوا أجبن الجبناء ، وأذل الأذلاء ،

يداهنون فى دين الله ، ولا يبالون امتثال أوامر الله ، « ينفرون من

الذل ويمدون أيديهم إلى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون

على أبوابه »

ولا غرو من فرط فى تعاليم ربه ، وجهل سنته فى خلقه ، فلا بد

أن يكون ذليلاً عليلاً ، وكيف لا يذلون وقد أمرهم الله أن يكونوا

كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى

(١) سورة لقان ، الآية ١٧

(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٢

(٣) سورة المزمل ، الآية ١٠

(٤) سورة الاحزاب ، الآية ٤٨

له سائره ، فأصبحوا متفرقين لا يملؤى بعضهم على بعض ، بل منقسمين متنازعين ، فما أجدرهم بالذل والمهانة .

وإذا فسد الإنسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان ، وما يحيط به من بلاء وشقاء .

وإن شئت فانظر إلى الأمة الإسلامية حينما كانت متمسكة بدينها عاملة بتعاليم نبيها لم تتفرق بها السبل ، ولا زاغت بها الأهواء ، كيف امتد ملكها في كل ناحية من نواحي المعمورة ، وكيف عمروا البلاد وأصلحوا العباد ، وكيف أخرجوهم من الظلمات إلى النور باعتراف أساتذة أوربا المبرزون ، مثل جوستاف لويون الفرنسي الذي يقول : « ما رأى التاريخ فاتحاً أعدل ولا أعظم من العرب » ومثل توماس كرليل الانكليزي في كتاب الأبطال ، ومثل دراير الأمريكي وغيرهم .

وبالجملة فقد كان المسلمون إذ ذاك أعز الأمم على الإطلاق ، وأرفعها على الإطلاق ، فكانوا ملوكا في الأرض ملوكا في السماء ، ثم انظر إلى حالهم اليوم وقد أصبحوا بحيث يطمع فيهم كل طامع ، ويهزأ بهم كل قوى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » . ويقول عليه السلام : « توشك الأمم أن تتداعى لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال كما تتداعى الآكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل » . « أي لقلة

شجاعتكم ودناءة قلوبكم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم . ثم قال
في آخر الحديث : « ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ،
وليقتلن في قلوبكم الوهن » رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة .

وذلك من معجزاته الباهرة صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى :
(وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)^(١) وأى ظلم أكبر
من ترك التعاون بين أفراد المؤمنين ، وقد قال الله فيهم : (إِنَّكُمْ
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(٢) . أى ظلم أكبر من ترك الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر حتى من العلماء والوزراء والأمراء .

وقد روى الترمذي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه لما
وقعت بنو سرائيل في المعاصي نياهم علماءهم فلم ينتهوا . فبالسوء
في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ،
واعينهم على نسان داود وعيسى بن مريم : ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .
ويقول صلى الله عليه وسلم : « إذا هابت أمتي أن تقول للظالم إنك
ظالم ، فقد بؤدع منهم » .

وقال : - بيّني هو وأى - « لا تقدر أمة لا تقول للظالم إنك
ظالم » أو كما ورد .

لقد أصبحنا والله في خسر عظيم ، وشر جسيم ، ودرنا أعظم تفسيراً
لقوله :

(إِنَّ الْأَسَانَ لَفِي خَسِرٍ) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٠

وليس يخفى على القارىء الكريم ما وصلنا إليه من اختلال الأحوال
وضياع الأموال وانتهاك الحرمات واقتراف المنكرات ، وإصلاح
الظواهر وفساد البواطن ، وفقد الإخلاص ، وذيوع الأغراض
واستحكام الأمراض ، والمواطأة على القبائح ، وعدم إنفعال النفوس
بارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة الغطاء على العتول حتى
أصبحت تنكر اليتيميات ولا تعترف بالبدهيات وكأنا انقلبنا إلى الرعوس
وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر وفسدت القطر ، وعميت
القلوب ، وأعضل الداء فعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التعبير ولم
تسع له أودية التحذير ، فإنا في عصر أولئك الذين تعجبك أجسامهم
وإن يقولوا تسمع لقلوبهم ، من ذوى الألسنة الشرارة والقلوب الخوارة ،
والشهوات انقاهرة والنفوس الفاجرة ، والأفكار الخيالية والنزغات
الشیطانية ، وما أجدرهم بما قلناه منذ زمان بعيد (١) :

كل شيء يخاف منه الآن	قد مضى من يراقب الديانا
ليس إلا شقاشق وكلام	نمقوه كى يخدع الإنسانا
وأمر شكليّة ونبرغ	فى رياء يا هول ما قد دهانا
من درى الناس شك فى كل شيء	قد بدا منهم كائنا ما كانا

وليس يخفى عليك أن حوادث القتل والسرقات ، وإحراق الزروع
الآن فى بلادنا المصرية ، وصلت إلى حد أنها ترنكب جهازاً نهراً .

(١) هذا يؤيد أن بعض الشعراء الموجود في هذه المقالات هو من نظم الشيخ يوسف
الدجوى رضى الله عنه .

وإن شئت فاضطر إلى الخمر التي فعلت الأفاعيل بالناس ، وليت شعري لماذا لا تمنعها الحكومة الرشيدة المسلمة ولو اقتداءً بأمريكا المسيحية عندما نعتها لانتشار أضرارها وكثرة مفسادها ! ؟ .
أفلا تمنعوها أيها الكبراء والوزراء والنواب ولو محافظة على دستوركم الإسلامى الذى يصرح بأن مصر دولة إسلامية ، أم أنتم من الذين يتقاون ما لا يفعلون ، ويكتفون بالأسماء دون الحقائق ، فإن لم يكن لديكم وازع من دين فليكن لديكم وازع من الإشفاق على أبناء أمتكم .
والخوف عليهم من ضياع مصالح الدنيا فضلاً عن الدين الذى جعل الخمر أم الخبائث ، وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السفور والفجور ، تجدها تدمى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها إلى حد الحيوانات بل أشد وأنكى ، ومن أين للحيوان تفنن الإنسان واستعداده الغريب .

ومن المخزيات المبكيات أننا نرى كل يوم من تلك الحوادث ما يندى له جبين احياء ، ولا نفكر فى شيء يرضى النخوة والرجولة ، ولا نصغى لصراخ الدين أو صوت الضمير ، ولا نلتفت لما توجبه الآداب العامة « ول على سبيل النفاق » .

ولا بدأس أن نزول لك : إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانوناً طبيعياً يتبع ممتضميات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانوناً أدبياً يمليه عليك ضميرك وتؤنبك عليه نفسك ، وقانوناً شرعياً يكمل به الإرشاد وتمم به السعادة ، وهو اتمانون الذى بعث الله به الأنبياء .

لأربكل أسف نقول : إننا خالفنا القوانين الثلاثة : فلم نصنع لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرعنا ، ولا نظرنا لمقتضيات الحقائق ولوازمها ، وإلا فمن ذا الذى يقول إن اختلاط البنين والبنات وحرية الحركات فى الروحاح والغدوات لا تجلب أفضع الولايات وأكبر المحظورات ؟ وهل ذلك التعليم السطحى القليل الضئيل الملتوى المعوج فى البنات والبنين يمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعى الذى هو أعلق شىء بالنفوس ، وأكبر ما رأيت وما سمعت سلطانا على الطبائع البشرية كما يشهد به العقل والحس والشرع والفلسفة ؟ وما كنا نظن أن أحداً يجادل فى الحسيات أو ينزع فيما يرى من المشهدات ، ولكن الإنسان هو الإنسان .

أما كان يجب على الحكومة ونواب الأمة أن يفكروا فى تلك المسائل التى ستهوى بالأمة إلى مكان سحيق فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمة ويحقق مصالحتها ، ويمنع عنها تلك الأوبئة القتالة ، وإلا فما فائدة النيابة عن الأمة ، وما معنى الحكومة والزعامة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وأظن أن من الواجب القانونى ألا نسترسل فى هذا الموضوع أكثر من هذا . فلنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة فى الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم ، فلنقف عند هذا الحد .

وبعد - فشتان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجبولة على الجهل والضعف والهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وبين القوانين التى تنزىل من حكيم حميد .

تلك القوانين الوضعية التي تبيح الزنى رسمياً وتحمى فاعليه وفاعلاته . ولبيت شعري لماذا لا يمنعونه رسمياً ولو اقتداءً بالإنجليز ، بل تلك القوانين التي تبيح الكفر العلني وتحمى معتنقيه محافظة على تلك الحرية التي تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حرите ، فهل تراك أحسنت إليه ؟ تلك القوانين التي تجعل دروس الدين في المدارس أمراً ثانوياً لا يترتب عليه نجاح ولا سقوط . فأول ما تنفوس في نفوس النشء هذا العمل أن الدين في محل الإهمال ولا ينبغي أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهي طريقة عملية في التربية تترك في نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين وأهون عقيدة فيه .

وها هي ذى أمامنا حوادث فلسطين التي تدمي العيون وتذيب القلوب ، وكان يجب أن يصرخ لها المسلمون في كل بقاع الأرض ، ولكنهم متفرقون متخاذلون « وهو ما أسقطهم في نظر الأجانب » فصاروا لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة حتى أن الإنكليز غيروا ما هو المعروف من سياستهم استهانة بالمسلمين واحتقاراً لهم ، فقد كان المعروف من سياستهم أنهم يحترمون شعور المسلمين ويأبون أن يثيروا الاحتقاد والضغائن ، أو يهيجوا الكامن في النفوس ، محافظة على ما يمتنع وبين الأمم الإسلامية من العلاقات والروابط .

ولكنهم في حوادث فلسطين غيروا خطتهم وخالفوا سياستهم ، كأن المسلمين لا وجود لهم ، وإلا فكيف يرتكبون ذلك الظلم الصارخ الذي لا مبرر له بين سمع المسلمين وبصرهم من أجل اليهود الذين هم

أدل أمة في الوجود ، ولماذا لا ينتصرون لهم أمام إيطاليا وألمانيا ؟ ولكن ضعف المسلمين وعدم اتحادهم هو الذى أدى إلى ذلك كله .

ووالله إن لم يتحدوا فسيرون أضعاف ذلك وقد أهاب بهم جماعة كبار العلماء فى جلستهم التى انعقدت فى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٨ ونصحوا لهم جميعاً بأبلغ النصيحة ، فعسى أن يثوبوا لرشدكم ، ويعملوا على نصرة إخوانهم التى هى واجبة عليهم بمقتضى الدين والسياسة والإنسانية .

كلمة ختامية للزعماء :

أرى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ، وعلى الأمم الإسلامية أن تحيي رابطة الأخوة التى جعلها الله بين المؤمنين ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضاً ، أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، كما علمهم نبيهم .

فوالله لو اتحدوا تمام الاتحاد لحسبت لهم أوربا ألف حساب ، ولأمكنهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلاً عن القوة المعنوية ، وكان يمكنهم إذ ذاك إنشاء المعامل والمصانع ، وإعداد أنواع القوى كلها ، وجمع الأموال اللازمة لذلك وهم أغنياء والحمد لله ، وفيهم ممالك مستقلة فكانوا يستطيعون العمل سراً وجهراً ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططاً حكيمة ، ويسنون قوانين معروفة ، إلى آخر ما لا نرى الإفاضة فيه ، ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم

غيروا الوجهة ، ولم يقولوا مثلاً نحن مصريون قبل كل شيء : « وكان
الواجب عليهم أن يقولوا نحن مسلمون قبل كل شيء » ولو اتحدت
آسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم دولة في الوجود .

أسأل الله أن يصلح شؤوننا كلها وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة
عين بمنه وكرمه .

سورة الإخلاص^(١)

رأينا أن نتحف القراء بتفسير سورة (قل هو الله أحد) لما ورد
أنها تعدل ثلث القرآن على ما تسمع إن شاء الله .

ونبدأ بما قيل في أسائها الدالة على مزيد شرفها فنقول :

هذه السورة تسمى سورة الإخلاص ، وسميت بها لما فيها من التوحيد
ولذا سميت أيضاً بالأماس ، فإن التوحيد أصل لسائر أمور الدين .
وروى الزمخشري عن أنس مرفوعاً أن هذه السورة أسست عليها
السموات السبع والأرضون السبع . والصحيح أن ذلك غير مرفوع .
والمراد أنه ما خلقت السموات والأرضون إلا لتكون دلائل على توحيد
الله تعالى ومعرفة صفاته التي تضمنتها هذه السورة . ولك أن تقول :
إن مصحح إيجادهما ، أي بعد إمكانهما الذاتي ، ما أشارت إليه السورة
من وحدته عز وجل ، واستحالة أن يكون له سبحانه شريك ، إذ لولا
ذلك لم يمكن وجودهما لإمكان التمانع ، كما هو معروف في علم التوحيد ،
وكما يشير إليه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)^(٢) .

وتسمى أيضاً سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة النجاة ،
وسورة المعرفة ، لأن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة ما فيها . وفي بعض

(١) مجلة الأزهر - المجلد التاسع - الصفحة ٦٢٢ سنة ١٣٥٧

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢

الاثار أن رجلاً صلى فقرأ (قل هو الله أحد) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هذا عبد عرف ربه » .

وسورة النسيب : لورودها جواباً لمن قال : انسب لنا ربك ، عن ماستسمعه .

وسورة الصمد ، وسورة المعوذة ، لما أخرج النسائي والبخاري وابن مردويه بسند صحيح عن عبد الله بن أنيس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يدي على صدرى ثم قال : قل ، فلم أدر ما أقول ، ثم قال : (قل هو الله أحد) فقلت حتى فرغت منها ، ثم قال : (قل أعوذُ بِرَبِّ الْمَلَكِ بِرَبِّ شَرِّ مَا خَلَقَ) فقلت حتى فرغت منها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هكذا فتعوذ ، وماتعوذ المشعوذون بمثلهن قَطَط » .

وتسمى أيضاً سورة البراءة ، قيل : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يتمرؤها فقال : « أما هذا فقد برئ من الشرك . وقد روى الترمذي عن أنس : من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ (قل هو الله أحد) ، مائة مرة كتب الله تعالى له براءة من النار .

وسورة الإيمان ، لأنه لا يتم بدون ما تضمنته من التوحيد .

إلى آخر ما ذكره المفسرون ، وهي جديرة بذلك كله كما لا يخفى . ولا يهنا تصحيح كل ما قيل من حيث الرواية ، فإن هذه الأسماء التي ذكرها مأخوذة مما تضمنته هذه السورة من أسمائه العليا وأوصافه السنية ، فكلها حق بشهادة معناها وفصيح مبناها .

وهي مكية ، وقيل مدنية ، وقيل تكرر نزولها جواباً للمشركين
عمكة وللإهود بالمدينة . وبهذا تعرف ما في قول بعضهم أنها مكية باتفاق .
وآياها خمس في المصحف المكي والشامي ، أربع في غيرهما ، بجعل (لَمْ
يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) آية واحدة ، وهو المشهور بين القراء .

وقد قرن بين هذه السورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) في صلوات كثيرة
لأنهما مقشقتان : أي مبرثتان من الشرك .

أما الصلوات التي يقرأ فيها هاتان السورتان ، فمثل ركعتي الفجر
عند غالب العلماء ، وركعتي الطواف وسنة المغرب . وزاد بعضهم وصبح
المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

هذا وقد جاء فيها أخبار كثيرة تدل على مزيد فضلها ، منها ما تقدم
آنفاً . وقد روى عن أنس أن رجلاً قال : يارسول الله إني أحب هذه
السورة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة . وقد
أخرج ذلك الإمام أحمد في المسند عن أبي النضر عن مبارك بن
فضالة عن أنس . وذكر البخاري أن حبها يوجب دخول الجنة ، تعليقا .

وروى مالك عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : سمعت أبا هريرة
يقول : أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ (قُلْ هُوَ
اللهُ أَحَدٌ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت ، قلت : وما
وجبت ؟ قال : الجنة . وأخرجه الترمذي والنسائي وقال حديث صحيح .
وأخرج أبو داود وابن ماجه والترمذي عن بريدة أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت

الله لا آله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفراً
أحد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لقد سأل
الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . »
وقد قالوا : إن هذا أصح حديث ورد في اسم الله الأعظم .

وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا در برجل
قد قضى صلاته وهو يتشهد ويقول : إني أسألك يا الله الواحد الأحد
الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفراً أحد أن تغفر لي ذنوبي
أنت الغفور الرحيم . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : قد غفر له ،
قد غفر له ، قد غفر له . ثلاث مرات .

وأخرج البخاري ومالك وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد أن رجلاً
سمع رجلاً يقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يرددّها ، فلما أصبح جاء إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . وكان الرجل يتقائلها ، أي
يعدها قليلاً نظراً لقلة ألفاظها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« والذي نفسي بيده أنها تعدل ثلث القرآن » .

وأخرج أحمد والنسائي في اليوم والليلة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن .

وبالجملة فقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن في عدة أخبار مرفوعة
وموقوفة . واحتلف في المراد بذلك ، فقول : المراد أنها باعتبار معناها
ثلث من القرآن المجزأ إلى ثلاثة أجزاء . وقد اختلفوا في بيان ذلك .
فقيل : أن القرآن يشتمل على قصص وعقائد ، وهي كلها مما يتعلق
بالعقائد ، فكانت ثلثاً بذلك الاعتبار .

وقال الغزالي في كتابه «جواهر القرآن» ما حاصله : أنها عدل
ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة التي هي أمهات القرآن ، وهي علم
المبدأ ، وعلم المعاد ، وعلم ما بينهما . وقال بعضهم : المطالب التي في
القرآن معظمها الأصول الثلاثة التي بها يصح الإسلام ويحصل الإيمان ،
وهي معرفة الله تعالى ، والاعتراف بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ،
واعتماد القيام بين يديه . وهذه السورة تفيد الأصل الأول ، فهي
ثلثه من هذا الوجه .

وفي الكشاف أنها تعدل القرآن كله . وهذا إن صح يقال فيه .
أنها عدل القرآن باعتبار أن المقصود هو التوحيد وما عداه ذرائع له
ورسائل إليه وفرع عنه . وقيل : المراد تعدل الثلث من حيث الثواب
لظواهر الأحاديث .

وضعف ذلك بعضهم قائلا : لا يجوز أن يكون المعنى : فله أجر
ثلث القرآن ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل
حرف عشر حسنات » فيكون ثواب قراءة القرآن بتمامه أضعافا مضاعفة
بالنسبة لثواب قراءة هذه السورة .

وقد أجاب الدواني عن ذلك بأن للقارئ ثوابين تفصيليا بحسب
قراءة الحروف ، وإجماليا بسبب ختمه القرآن ، فثواب (قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ) يعدل ثلث ثواب الختم الإجمالي لاغيره . ونظير ذلك ما إذا
عين الإنسان أحدا يبني له دارا وله في كل يوم أربعة دنانير ، وعين
له إذا أتمه جائزة أخرى غير أجرته اليومية .

وفي شرح البخارى للكرمانى مانصبه : « فإن قلت : المشقة في قراءة الثلث منها في قراءتها فكيف يكون حكمة حكمها قلت : يكون ثواب قراءة الثلث بعشر ، وثواب قراءتها بقدر ثواب مرة منها ، لأن التشبيه في الأصل دون الزوائد » .

ولك أن تقول : لآمانع من أن يخص الله عز وجل بعض العبادات التي ليس فيها كثير مشقة بثواب أكثر من ثواب ما هو من جنسها وأشق منها أضعاف مضاعفة ، وهو سبحانه الذي لاحجر عليه ، ولا يتناهى بوده وكرمه وسعة تصرفه ، فلا يبعد أن يتفضل جل وعلا على قارئ القرآن بكل حرف عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أضعافاً مضاعفة جداً لقارئ الإخلاص بحيث يعدل ثوابه ثواب قارئ ثلث منه غير مشتمل على تلك السورة ، ونفوض الحكمة التخصيص إلى علمه سبحانه . وكذا يقال في أمثال ذلك .

وهذا مراد من جعل ذلك من التشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وليس هذا بأبعد من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة المتحدة الماهية بأن للعبادة فيه ولو قليلة من الثواب ما يزيد أضعافاً مضاعفة على ثواب العبادة في مجاوره مثلاً ولو كثيرة ، بل قد خص سبحانه بعض الأزمنة والأمكنة بوجوب العبادة فيه ، وبعضها بحرمتها فيه ، وله سبحانه في كل ذلك من الحكم ما هو به أعلم .

وقد روي في فضلها أحاديث ضعيفة وموضوعة ، والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تكفي في فضلها ، بل قيل لذلك أنها أفضل سورة في القرآن . ومنهم من استدل عليه بما روي الدارمي في مسنده عن

المغيرة عن صفوان الكلاعي قال : أقال رجل : يا رسول الله أي سور القرآن أعظم ؟ قال : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) . (وفي المسند من طريق معاذ بن رفاعه وأسيد بن عبد الرحمن عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزيور والقرآن العظيم ؟ قلت : بلى : قال : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثم قال : يا عقبة لاتنساها ولاتبت ليلة حتى تقرأهن .

وهذا وأمثاله يدل على أنها أفضل سور القرآن مطلقاً ، بل على أنها من الأفضل .

وقال ابن الحصاد : العجب ممن ينكر الاختلاف في الفضل مع كثرة النصوص الواردة فيه .

واختلف القائلون بالتفضيل ، فقال بعضهم : الفضل راجع إلى عظم الثواب ومضاعفة الأجر بحسب انفعال النفس وخشيتها ، وتدبرها وقال بعضهم وهو وجهه : أن الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته والدلالة على عظمته عز وجل بمعنى أنها أسنى وأجل قدراً مما لاتشتمل على ذلك .

وقيل : إن معنى الأفضلية أن القارئ يتعجل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، ويتأدى منه بتلاوتها عبادة ، كآية الكرسي والإخلاص والمعوذتين ، فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراس مما يخشى ، بما فيها من الاعتصام بالله تعالى : مع ما فيها من العبادة لله تعالى ،

فإن فيها ذكره عزوجل باسمائه الحسنی وصفاته العليا ، فيذكرها القارئ على سبيل الاعتقاد بها وسكون النفس إلى فضل ذلك الذكر وبركته ، وأما آيات الأحكام فلا يقع بنفسها تلاوتها إقامة حكم وإنما يقع بها علم

وبالجملة فالانفضيل بأحد هذه الاعتبارات لا ينافي كون الكل كلام الله عز وجل ، و نه متحد النسبة سبحانه كما لا يخفى .

ولنقف هنا اليوم :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » :

إنما قال : « قل » اعتناء بالأمر واهتماما به ، وإشارة إلى أن كل من ابتلى بالمبطلين فعليه ألا يخاف في الله لومة لائم ، مع لفت النظر إلى أن هذا من عند الله لا من عند الرسول . ولك أن تقول أتى بها تذكيرا برسالته ، وإعلانا بأنه مأمور بالتبليغ من عند الله تعالى وعلى كل حال فهو من جملة ما نزل به جبريل عليه السلام ، وكل ما نزل به فهو قرآن ، والقرآن مأمور بتبليغه كما نزل .

(صو)

ثم أتى بضمير الشأن للتنبية من أول الأمر على فخامة القصة ، كقولك : هو الأسير قد ركب . كأنه قيل : الشأن هذا ، وهو الله واحد لا ثاني له . مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير فإن الضمير لا يفهم منه إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقي الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده فضل تمكن .

ولك أن تتمول : إن هذا الضمير يؤتى به ، وإن لم يسبق له مرجع للإيدان بأن ذلك الشأن له من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وعليه يعود كل ضمير . ويجوز أن يكون هو ضمير المسئول عنه والمطلوب صفته ونسبته ، وهو إله محمد صلى الله عليه وسلم الذي سأله عنه ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في تاريخه والترمذي ، والبخاري في معجمه وابن عاصم في السنة ، والحاكم وصححه ، عن أبي بن كعب : إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وضح رجوع الضمير إلى ذلك المسئول عنه للعلم به من السؤال . والضمير على هذا الوجه مبتدأ أو الاسم الجليل خبره وأحد خبر بعد خبر وأجاز الزمخشري أن يكون بدلاً من الاسم الجليل على ما هو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو أحد . وأجاز أبو البقاء أن يكون الاسم الأعظم بدلاً من « هو » و« أحد » خبره .

هذا ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، و« أحد » همزته مبدلة من الواو ، وقد قالوا : أن أحداً إذا استعمل وصفا لم يكن إلا لله تعالى . والمراد أنه تعالى منزله الذات عن جميع أنحاء التركيب والتعدد خارجاً وذهناً ، وعن كل ما يستلزم الجسمية ولوازمها ، أو يقتضي المشاركة فيما اختص به تعالى كوجوب الوجود والقدرة الذاتية التي لا نهاية لها ، والحكمة التامة التي تجب للألوهية . فسبحانك لا نحصى ثناء عليك ولو اجتهدنا ، أنت كما أثنيت على نفسك .

هذا وقد ذكرنا فروقا بين أحد وواحد ، فقالوا: إن همزة أحد
الذى لا يستعمل إلا بعد النفي كما في قوله صلى الله عليه وسلم « أحلت
لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » أصلية ، لأنه ليس بمعنى واحد ، فإنك
إذا قلت : ما فى النار واحد ، صح أن تقول : بل اثنان ، بخلاف
ما إذا قلت : ما فى نادر أحد ، فإنه للنفي العام .

وفرقوا بينهما أيضاً بأن أحداً لا يبنى عليه العدد ، فلا يقال : أحداً
وإثنان كما يقال واحد وإثنان ، ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل
واحد ، بل هو مخصص به تعالى كما علمت .

والدليل على أنه سبحانه وتعالى واحداً من جهة العقل : أن الواحد
إما أن يكون كافياً فى خلق العالم وتدبيره أولاً ، فان كان كافياً كان
الآخر ضائعاً غير محتاج إليه ، وان لم يكن كافياً فهو ناقص والناقص
لا يكون إلهاً . على أن ما وراء الواحد ليس عدد فيه أولى من عدد ،
فيكون وجود أى عدد من ذلك ترجيحاً بلا مرجح .

والك أن تقول : إن أحدهما إذا فعل شيئاً فقد سد باب الفعل
على الآخر فلا يمكن نفوذ قدرته فيه ، والإله لا يمكن أن يمنع نفوذ
قدرته غيره وإلا لم يكن إلهاً . إلى آخر ما فرره علماء الكلام فى علم
التوحيد .

ويحتمل بنا فى هذا المقام أن نجيب داعى الروح فنذكر لك هنا
ما يشير محبتك لله وتعلقك به ومعرفتك لعظمته ، فإن هذا هو السعادة
الأبدية التى يرى فيها الإنسان مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر ، فنقول ، ونرجو أن تكون من الذين رق ذوقهم
ولطف وجدانهم :

إذا كنت تحب أحداً لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء
الأمم ، فاحب الله تعالى الذي أتمن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها
من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوروبا إشراق شعاع من نور شمسه ،
حتى قال سبنسر الإنجليزي ما ترجمته « ليس الغرض من علم الطبيعة
معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان
على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك
الحدود التي ينتهي إليها علم الطبيعة » .

ويكنميك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة التي تكفل
بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفزيولوجيا .
فطأطؤا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعشوا الخفاش أمام الشموس .
وإن كنت تحب أحداً لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره
من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين وقيوم
السماوات والأرضين ، ورب العالمين ، ومدبر الخلق أجمعين ، من
أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه في باب
الفضل والمكارم ، فأحب منبع النعم ، ومعدن الكرم . وأين كل
ما تخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله ؟ .

وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت
أنه المفيض لكل نعمة في الوجود ، وأنه رب الكرم والجدود : ﴿ مَا يَفْتَحِ

اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)

ولعمر الإصاف إن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام وتخرس فيه الألسن ، فلن تطبق شرح نعمة واحدة من نعمه . وانظر إن شئت لنعمة الهواء التي يتوقف عليها وجود كل حي ، إلى آخرها يتفرع منها ويتشعب عنها .

وان شئت، فانظر إلى نعمة الضمياء أو الماء وما أودعه في الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (٢)

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (٣) .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل من في الوجود تلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود: الفيلسوف لينه الفزيولوجي الفرنسي الذي كان يدعو وجلائه فيجيبه ويناجيه شعوره فلا يتغافل عنه ، قال : « ان الله الأزلى الكبير العالم بكل شئ قد تجلى لي ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا ، فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها . إن المنافع التي نستمدتها من هذه الكائنات نشهد بعظيم رحمة الله الذي سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبىء بواسع حكمته ، وكذلك حنظلها عن التلاشى وتجدهما يقر بجلائته وعظيمته . »

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٦

(١) سورة فطر ، الآية ٢

(٣) سورة اراهيم ، الآية ٣٤

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك و كما لها فأحب من أوجدها في أحسن تمويم
وشق سمعها وبصرها ، وأسبغ عليها نعمة ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر
كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات
ما تتنوع به لذتك وتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه
وقد غمرتك نعمائوه ، وأشرق عليك ضيائوه ، وعذب لك مأوه ،
ولطف هواؤه وأنعمتكم بدائع أكوانه : من رياض غناء ، وصحار
فيحاء ، وأثمار شهية ، وألوان بهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير
بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب : من شمس وأقمار ، وأطياف
وأزهار ، وليل ونهار .

أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل
الناطقات والنعم الفائضات ، ما قال ذلك البدوي الذي لم تشغله
المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديث لبه حيث
يقول :

هاج للقلب من هواه ادك	سار وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غـزار
ونجوم تلوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشمس مضيئة للبرايا	في نهار وفي الدجى أقمار
ورياح تهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير	جل ربا وجلت الآثار
والذي قد ذكرت دل على	الله نفوساً لها هدى واعتبار

أو تقول كما قال ذلك القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه وذا الكون سفر واضح وهو كتابه
يَشْكُونَ وَالْإِيمَانَ مِلءُ قُلُوبِهِمْ وَيُبَدُونَ مَا تَلِكِ الْقُلُوبُ تَكْذِبَهُ
فَأَيُّ امْرِئٍ فِي الْجَوِّ يَرْسِلُ طَرْفَهُ إِذَا مَا بَدَتْ أَقْمَارُهُ وَكَوَاكِبُهُ
وليس يقول: الله في عرش مجده وهذي حواشيه وهذي مواكبه
وَأَيُّ امْرِئٍ مَا سَبَّحَ اللَّهَ مَرَّةً إِذَا رَاقِبَ الْأَزْهَارَ وَهِيَ تَرَاقِبُهُ
عجائب ربي في الأنام كثيرة ولكن جهل المرء لاشك غالبه
أو يقول: عندما يرى الأشجار تنهادى في حلال الأوراق والأزهار
أمعجباً برؤيتها متعجباً من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبنا للملابس قد حاكها من لم يمد لها يدا

فقل لي بعيشك هل من الحياء والحياء خلق كل كريم أن تتمتع
بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإمساء : وما أوجد لك من
بديع الأشياء وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على ما يقول
عز وجل : (أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) ^(١) ثم لا تتؤدى شكره
ولا تعرف قدره ؟

إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً من أفرط لطفك ربي كيف ينساكا

فإن كان لا يؤثر في نفسك فائض أنعامه ومزيد إحسانه ولا
ما هو عليه من قدرة يتخير فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٠

الواصفون ، وعلم لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء
وحكمة أتقن بها جميع الأشياء ، ^{ما} ولا هو متصف به عز وجل من
نعوت الجلال وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا
سلطان الحسن الذى تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل
جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لسك فإنما هو ظل من ظلال
ذلك الجمال المطلق يعجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس
يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا بعض سرائه ، ولا تمثل لك أى
مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه ، وأنى يسمع المحدود من لا يقبل
التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد بمن لا يدخل فى سجن التقييد ؟

إن قلت هذا فإن الحد يحصره أو قلت إذا فكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الظرف يطلبه والظرف حق ولكن ليس يحويه
ما أنظر رأيت وجودا لست أدريه إلا الذى أنا معنى من معانيه

فطوبى لمن شم عرف شذاه ، أو شام برق سناه ، وهنيئا لمن
شرب قليلا من مدامه ولو مزجا أو نظر إليه ولو شرزا ، فإذا لم يدر
ما هو تائق إليه ومتلهف عليه قال :

شئ به فتن الورى وهو الذى يدعى الجمال ولست أدري ماهو

وقد قال بعض الحكماء نلامينه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى
الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون إلى إصلاح لا يتناهى ، وجمال
لا يتناهى وكمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع إلى سلامة فطرتك ، وصدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك
الجمال الإلهى الذى تجلى على صمحات الموجودات ، واقراء بين

سطور تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله إلى أي حد انتهيت ، ولا
أظنك إلا كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الإحساس بالجمال
إلا وقد وصلت إلى معنى يبصر بجانبه اسم الحسن عندما تحسن
بجمال لا يتناهى ، وغرقت في بحر من الجلال لا يحلم ولا يأتي
عليه التعبير . عند ذلك ينطبق لسان حانك منشدا :

عجبت لعاقل في الناس أضحى يرى هذا الجمال ولا يهيم
فاستجل هذا الجمال رعاك الله في كل شيء تراد من العلويات والسفليات
ان شئت في ذلك أو شئت في ملك أو شئت في مدر أو شئت في حجر
إفالك ينطق أن الله خالقه وهو المليك ورب النعم والضرر

وهل الشمس وهي أظهر ما علمت ، وأبهر ما رأيت ، وأجمل
ما وقع عابه البصر ، وأبهى ما وصل إليه النظر ، إلا أثر من آثاره ،
ونور من أنواره ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ، والعزة
والجلال ؟ فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نتف أمامها
مبهوتين ، وجمالا يذوقه الوجدان ، وإن كان لا يكفيه ، وتمتليء
به النفس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين
بلسان النساكرين . تبارك الله أحسن الخالقين ! . وحقه وما أكبر
حقه لو تفرغت من الشواغل التي أخذتك ولم تدع منك شيئا
لعشقت لذقت فنطقت فقلت :

تراه ، غاب عنى كل جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
وفي بساط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار منتسج

وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا أهدي إلى صحير~~ة~~ أطيب الأرج

عظم الله والبرهان وامتلاءً الوجدان ، ووصل الأمر إلى حد العيان ،
وليس بعد العيان بيان ! ، ولكن قويت الأنوار فغشيت الأبصار ،
وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن
عظم نفسه . ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخذ
إلى الأرض من الغافلين الجامدين :

خليلي قد طال المقام على القذا وحال على ذا الحال يا قوم أحوال
يمر زمانى بالأمانى وينقضسى على غير ما أبغى ربيع وشوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت ،
فإن كنت تحب أحدا لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب ،
فأحب الملا الأعلى سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك ما يشاكلهم
تمام المشاكلة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (١) .

وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا
الصفاء ، ولا أمنيته إلا الاطلاق من جميع التقييدات ، والاطلاع
على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك
نسيت عالمك الأول منذ فارقتة واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسماني
الذي لا بد له من الفناء فأنست بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت ، لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصيته التي هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول :
(أَوْ مَنْ كَذَّبَ مِيتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)^(١) .

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم البهجة والبهاء وصرت لا تعرفه ولا تحسن به وإنه لموطن ربك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما مطلبها الذاتي وذاورها الأصلي فهو الأسرار والألوار ، ولما طاب بها العهد وهي في سجن الظلمات ومحل الآفات نسبت ما هي مستعدة له ومخلوفة لأجله ، وهو في الحقيقة نسيان لنفسه (تَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)^(٢) فكان لم يكن لها عهد بالصنشاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بيز الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التي أضعفت منها تلك الحامية العليا ، التي هي مناط لذتها الكبرى ، وشرفها الأعلى ، وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

أما قوله تعالى : (اللَّهُ الصَّمَدُ) فهو مبتدأ وخبر . وقيل : الصمد نعت والخبر ما بعده . وليس بشيء . والصمد في تفسيره عبارات

كثيره : قال ابن الأنباري : لاختلاف بين أهل اللغة أنه السيد
الذي ليس فوقه أحد ، وهو من يصمد إليه الناس في حوائجهم
وأمورهم . وقال الزجاج : هو الذي ينتهي إليه السؤدد ويقصده
كل شيء ، وأنشد :

لقد بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وكذلك قول الآخر :

علوته بحسام ثم قلت له خذها خزيت فإنت السيد الصمد
وهوتهكم من ذلك القائل .

ويقول ابن عباس : إنه السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف
الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته ، والحكيم
الذي كمل في حكمته . وعن أبي هريرة أنه المستغنى عن كل أحد ،
المحتاج إليه كل أحد . وعن ابن جبير : هو الكامل في صفاته
وأفعاله . وعن الربيع : هو الذي لا تعتريه الآفات . وعن مقاتل
ابن حيان : هو الذي لا عيب فيه . وعن قتادة : هو الباقي بعد خلقه .
ونحوه قول معمر : هو الدائم . وقال مرة الهمداني : هو الذي لا يبلى
ولا يفنى . وعنه أيضاً : هو الذي يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء
لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . وعن الحسن البصري ومجاهد
وغيرهما أنه : الذي لا جوف له . وعن ابن مسعود : الصمد :
الذي ليس له أحشاء . وهو رواية عن ابن عباس .

وليس يخفى عليك أن أكثر هذه التفاسير منظور فيها لما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بالصمد ، وإلا فهو في لغة العرب لا يفسر بهذه الأوصاف التي لا تنطبق إلا على الله عز وجل كما عرفته من الشعر السابق .

الخلاصة :

أن المختار من تلك الأقوال التي ذكرناها والتي لم نذكرها أنه السيد الذي يصمد إليه الخلق، وهو بمعنى المفعول : أى المصمود إليه ، يقال : صمده وصمد إليه : أى قصده والتجأ إليه . وإطلاق الصمد بمعنى السيد عليه تعالى مما لاخلاف فيه ، وإن كان في السيد نفسه خلاف الصحيح إطلانه عليه عز وجل .

هذا وقصد المخلوقات إياه تعالى بالحوائج أعم من القصد الإرادى والقصد الطبيعى ، وهو القصد بحسب الاستعداد الأصيل الثابت لجميع الماهيات ، إذ هي كلها متوجهة إليه تعالى في طلب كمالها منه عز وجل . وتعريف « الصمد » دون « أحد » في الجملة السابقة ، قيل لعلمهم بصمديته تعالى دون أحديته . والأولى أن يقال : أن التعريف لإفادة الحصر ، كقولك : زيد الرجل . ولا حاجة إليه في الجملة السابقة ، فإن مفهوم أحد يقتضى التنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقاً ، إلى آخر ما بيناه سابقاً ، مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى ولا يعترفون بها ، فلا محل لتعريف .

ولك أن تقول : إن أحداً في غير النفي والعدد لا يطلق على غيره تعالى فلم يحتاج إلى تعريفه ، بخلاف الصمد فإنه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل ، أى كما في البيتين السابقين .

وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير ، قيل : للإشعار بأن من لم يتصف بالصِّمْدِيَّة لَمْ يَسْتَحِقَّ الأُلُوْهِيَّةَ ، وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين المحصر ، فإذا قلت : السلطان العادل أشعربان من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة . وإذا كانت الصمديَّة لازمة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها . ولم يكتف بمسند واحد بأن يقال : الله الأحد الصمد ، للتنبيه على أن كلاً من الوصفين مستقل في تعيين الذات والاختصاص بها .

وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل على ما قبلها ، فإن من كان غنياً لذاته محتاجاً إليه جميع ما سواه ، لا يكون إلا واحداً وما سواه لا يكون إلا ممكناً محتاجاً إليه .

والقرآن له عناية بالغة بذكر الأدلة في باب التوحيد تلويحاً وتصريحاً كما لا يخفى على المتأمل البصير .

وهذه المناسبة نقول : إن قول ذلك الفيلسوف الذي نقلته مجلة الأزهر في عددها الثامن من السنة الماضية : « إن أدلة القرآن على توحيد الله تعالى إجمالية » غير صحيح وكأنه اغتر بما يراه في كتب المتكلمين من العبارات الطويلة والأسئلة والأجوبة ، إلى آخر ما تعرفه من كلامهم . ولو تبصر قليلاً لعرف أن طريقة القرآن أصح وأوضح وأقرب من تلك الطرق كلها ، وهي نافعة للخاصة والعامة ، بخلاف طريقة المتكلمين والمتفلسفين .

والقرآن يبين في وضوح أن كل شيء آية من آياته ، ودليل على وجوده وعظيم صفاته . وكان بودى أن أبسط الكلام على ما في

القرآن من البراهين والايات التي لم يصل إليها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون ، ويعلم الله أن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع :

وإن شئت فانظر إلى الاستدلال البديع الذي في نهاية الإيجاز والإعجاز في قوله تعالى : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ »^(١) وقوله : « أَفَبَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٢) .

وقد أذكر هنا ما قاله بعض فلاسفة المتكلمين ، وأظنه ابن سينا : « كنت أشتبه أن يرى أرسطو ذلك الدليل البديع على البعث في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »^(٣) .

أما الاستدلال على قدرته وحكمته في القرآن الشريف فأكثر من أن يحصى ، وأكثر من أن يستقصى في مثل قوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »^(٤) ويتمول : « فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »^(٥) . « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ »^(٦) ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٠

(٣) سورة س ، الآية ٧٨ ، ٧٩

(٤) سورة طارق ، الآية ٥ - ٧ .

(٥) سورة لانفطار ، الآية ٨

(٦) سورة البلد ، الآية ٨ - ٩

سُطِحَتْ» ^(١) ويقول : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » ^(٢) إلى آخر تلك الآيات التي أخذتموها بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقَوْمَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِأَمْرِهِ » ^(٣) .

وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الاستدلال على الله وجود الأنتى بجانب الذكر » . وبمقوله تعالى : « أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ . بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَمَرَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » ^(٤) . ويقول تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ^(٥) .

(١) سورة الغاشية ، الآيات : ١٧ - ٢٠

(٢) سورة الروم ، الآيات : ٢٠ - ٢٢

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٥

(٤) سورة النازعات ، الآيات : ٢٧ - ٣٣

(٥) سورة القصص ، الآيات : ٧١ - ٧٢

ويقول تعالى مخبراً عن الإنسان مستلفتاً نظره إلى تلك الآيات
البيانات : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنَى يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى .
فَجَعَلَ مِنْهُ الْبَشَرِ الْوَجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » ^(١) . ويقول : « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ
لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَعْزِزْ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلَى هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » ^(٢) إلى آخر
الآيات التي جاءت في تلك السورة .

ومن عجيب تصرف القرآن في الاستدلال على الله ما يسلكه في
كثير من الأمور من تلك الطريقة البديعة فيقسم بأشياء تستلفت
الأنظار ، وتستهوى الأفكار ، لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو
شاهد ، فيقول تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنُوسِ . وَاللَّيْلِ
إِذَا عَسَفَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » ^(٣) . ويقول : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا
وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ
وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » ^(٤) . ويقول :
« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ
عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِئْسَ حَلِيبٌ بَعْدَهُ يَوْمُونُونَ » ^(٥) .

ولعله لا يغيب عنك ما ذكره في الاستدلال على البعث . وهو
استدلال على وجوده تعالى وقدرته ورحمته : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ

(١) سورة نبيمة ، الآية ٣٧ - ٣٩

(٢) سورة نحل الآية ٦٠

(٣) سورة نكوير ، الآية ١٥ .

(٤) سورة شمس ، الآية ١ - ٧

(٥) سورة أعراف ، الآية ١٨٥

فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ، ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن
عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ
مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ،
وَمِنْكُمْ مَّن يَتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ
عِلْمِ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَبِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِرَأْيِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ،
وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا . وَأَنَّ اللَّهَ
يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ^(١) . وَيَقُولُ : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ .
وَفِي أَنفُسِكُمْ . أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ^(٢) ويقول تعالى : « وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ^(٣) .

ولتعلم أن من عادة القرآن التفنن في ذكر الآيات ، علماً منه بما
جبلت عليه النفوس من الجهل والغلظة كما قال في حق الإنسان :
« إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » ^(٤) ، ويقول : « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ .
مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ . ثُمَّ
أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ! . كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ . فَلْيَنْظُرِ
الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا .
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَيْنًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غَلِيًّا .
وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ » ^(٥) . ويقول : « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ

(١) سورة الحج ، الآية ٥ - ٧

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢٠ - ٢١

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٥) سورة عبس ، الآية ١٧ - ٣٢

الْحَبُّ وَالنَّوَى يُخْرَجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرَجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . ذَلِكُمْ
اللَّهُ فَاَنَّى تُزْفِكُونَ . فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
حُسْبَانًا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ
لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .
وَهُوَ الَّذِي نَسَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ
كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا . وَمِنَ النَّخْلِ مِن
طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مُمْتَثِلِينَ وَغَيْرِ
مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ « (١) . إلى آخر ما جاء في القرآن الشريف من ذلك وهو
كثير : « اذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَاَنَّى
تُصْرَفُونَ « (٢) .

وما أجدرنا أن يقول كل منا كما علمنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء
حزني ، وذهاب همي وغمي ! »

فقل لي بأبيك أين هذا من تلك العبارات المظلمات التي تراها
مختلطة بتلك الشبهات وهاتيك التشكيكات من التهافت وتهافت
التهافت مما يشير الأوهام ويفسد الأحلام ؟ ! « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ
مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بَحْفِيفٍ « (٣) .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢ .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٥ - ٩٩

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٠٤

سورة الاخلاص (١)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« قُلْ هُوَ اللّٰهُ اَحَدٌ . اللّٰهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
اِكْفُوًا اَحَدٌ » :

سبق لك في تفسير الصمد آراء كثيرة ، ومنها أنه هو الذي لا جوف له ، ومنها أنه الذي لا يخرج منه شيء ، ومنها أنه الذي لم يلد ولم يولد ، فعلى هذا يكون قوله : « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » لازماً لكونه صمداً ، أو تفسيراً له .

على كل حال فمعلوم أن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يتتضى التركيب المنافى للصمدية والأحدية الحقيقية ، على ما سبق بيانه ، لأن الولد من جنس أبيه ، والأحد لا يجانسه أحد .

أما نفي المولودية عنه تعالى فواضح جداً ، لاقتضائها أنه مادي منفصل عن غيره ، ولا شك أن هذا يقتضى التركيب^٣ ، والتجزى ، وسبق العدم ، والمجانسة المستحيلة على واجب الوجود .

وقدم نفي الولادة على نفي المولودية ، لأن فريقاً كبيراً من البشر

توهموا أن له والدًا . وكأنه سبحانه يريد أن يسوى بينهما فيقول :
إن نفي الوالدية ونفي المولودية متساويان لدى العقل الصحيح ، واستحالتهما
عليه أظهر من الشمس وأوضح من الحس .

ولا يمكننا أن نعقل ما يقوله المسيحيون في هذا المقام من أن هناك
ثلاثة هي : «الأب ، والإبن ، وروح القدس» ، وهي جواهر ثلاثة يستقل
كل واحد منها عن أخويه ، ومع ذلك فهي إله واحد ، كما يقول
قائلهم في المسيح عليه السلام :

فهو الإله ابن الإله وروحه فثلاثة هي واحد لم تقسم

ولا ندري كيف تكون الثلاثة واحدًا والواحد ثلاثًا ! وإن قلنا تبعًا
لما تفديده بعض عباراتهم : إن الإبن وروح القدس صفتان للأب ودما
عبارة عن العلم والحياة ، عجزنا عن فهم كون الصفة إلهًا ، ولم يمكننا
أن نفهم الاستقلال الذي يزعمونه .

ومع هذا وأضعافه وأضعافه يقولون : كل ذلك مما يجب
الإيمان به ولو كان فوق طور العقل . وليت شعري كيف يؤمن الإنسان
بما يعتقد استحالته ، والديانات يصح أن تجيء بما لا يفهم العقل
كنهم وحقيقتهم أنه يجهل تفصيله ، ولكنها لا تجيء بما تحيله العقول
وتعتقد عدم إمكانه ! « فإن كنت ترى فيها شيئًا من المحارات ،
فلست ترى فيها شيئًا من المحالات »

وليس الأمر عندهم قاصرًا على هذا ، فكم لهم من أشياء غير معقولة
ولا مقبولة ، مثل قولهم : ﴿ إِنَّ الْمَسِيحَ أَطْعَمَ يَوْمًا الْحَوَارِيِّينَ خَبْزًا ﴾

وسمّاهم خمراً ثم قال لهم : أكلتم لحمي وشربتم دمي فاتخذتم معي وأنا متحد مع الأب « وإلى الآن يعمل القسيس مثل هذا العمل ويسميه « العشاء الرباني ! ». والقوم يعتقدون أنه دم المسيح ولحمه .

وإن شئت فانظر إلى رنات أخرى لا تقل غرابة عما سمعت : وذلك مثل قولهم : « إن الله غضب على آدم وذريته من أجل ثمرة أخذها من الشجرة أشد الغضب : وأنه يلحق بهم كل هوان وعذاب في الآخرة من أجل تلك الثمرة التي تناولها من الشجرة ، ثم سعى إليه أو إلى ابنه الساعون من اليهود بالقتل - وهي جريمة فوق الأكل من الشجرة مليون مرة - غفر لهم ما تقدم من ذنبهم ورضى عنهم » .

وليت شعري كيف ذهب عند القتل ما يجب للإله من القوة القاهرة والجبروت والبطش الشديد ؟ ! هذا لعمرى من منطق المجانين الذين لا يمتهمون ما يقولون !

ومما يذكر في هذا المقام أن بعض المسلمين قال لبعض القسوس : إن بعض الناس أخبرني أن رئيس الملائكة قدمات ، فقال له القسيس : إن ذلك كذب لأن الملائكة خالدون لا يموتون ، فقال له المسلم : وكيف وأنت تتول الآن في وعظك : إن الإله قدمات على خشبة الصليب ، فكيف يموت الإله وتخلد الملائكة ، فبهت القسيس ولم يجر جواباً .

ولا نزال نقول : إذا كان الإله يقتل على خشبة الصليب فلمن تكون القوة والجبروت ؟ ومن هو ذلك القاهر فوق عباده الذي بيده أرواح اليهود وغير اليهود ، ومن يحيى ويميت ، ومن يجيب المضطر

إذا دعاه ، ومن ينشئ السحاب الثقيل ، وتندك من هيبتة الجبال
كما اندك جبل موسى عند تجليه تعالى له كما في التوراة التي بين
أيديهم؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

ولله در القائل :

عجباً للمسيح بين النصرارى	وإلى الله والدأ نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صلبوه
فلئن كان ما يقولون حقاً	فسلوهم فأين كان أبوه
فإذا كان راضياً بأذاهم	فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساطعاً غير راض	فاعبـدوهم لأنهم غلبوه

ثم نقول : إذا حلت ذات الإله في المسيح أفلا تكون معها الصفات؟
وهل يمكن أن تفارق الصفات الذات الموصوفة بها؟ وإذا فما معنى :
أقنوم العلم ، وأقنوم الحياة ؟ وما معنى جعلهما مستقلين؟ وليت شعري
لماذا خصوا العلم بالحياة ؟ أليست الصفات كلها يجب أن تكون مع
الموصوفها ، أم الملازم له المنتقل إلى المسيح إنما هو العلم والحياة فقط ،
وأما بقية الصفات فلم تنتقل إليه ؟ ولا أدرى كيف بقيت بعد انتقال
الذات والعلم والحياة ؟ وهل قامت بنفسها فتكون صفات بلا موصوف ،
أو قامت بذات أخرى غير الذات المقدسة ؟ وما أدرى كيف تسبيغ
عقولهم إن الصفة تقوم بنفسها كالجواهر مع فرضها صفة ؟ (هذا
خلف) فالصفة صفة والجوهر جوهر لدى كل إنسان عنده مستكة
من العقل .

ولعمر العقل والرشد أننا لو لم نبصرهم بأعيننا ونسمعهم بأذاننا لم نصدق أن من العقلاء من يعتقد تلك العقيدة التي يردّها الأطفال ، ولا يساعدها إلا الخيال أو الخبال . ولو تجرد المبشرون من التعصب وتبرؤوا من التقليد الذي صار حجاباً على عقولهم ، لخرجوا غاية الخجل من معتقدتهم الذي لا يكاد يتصور ، فضلاً عن أن يصدق به أو يقام عليه البرهان . وكثيراً ما رده أطفال المسلمين في مدارسهم عندما رأوه يناقض الفطرة وينافي الضرورة .

وقد أخبرني بعض أصحابي أن بنته كانت ببعض المدارس الأمريكية فقيل لها : إن الإله يسوع المسيح قد أخذ اليهود وصلبوه وألبسوه تاجاً من الشوك وصاروا يبصقون في وجهه ، إلى آخره ، فقالت عندما سمعت ذلك على البدئية : إن إلهنا يميت الناس ، وإلهكم تقتله اليهود ويبصقون في وجهه . والله در البوصيرى حيث يقول في لاميته :

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
أسمعت أن الإله له حاجة	يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذي لم يستطع	صرفاً له عنه ولا تحويلا
ياليت شعري حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد ، بنفسه	وأراه كان القاتل المقتولا
أيجوز قول منزه لإلهه	سبحان قاتل نفسه فاقولا
أوجل من جعل اليهود بزعمكم	الشوك القتاد لرأسه إكليلا

ومضى لحبل صليبه مستسلما الموت مكتوف اليدين ذليلا
ضل النصرارى فى المسيح وأقسموا لايهدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اهدوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر وأضلهم رأوا القبيح جميلا
ولو شئنا لأصلنا ، فليعلم المبشرون ذلك ، وليكفوا عن إرسال
الرسائل إلينا . وإذا نظرت فيها لم تجد إلا السفاهة والجهالة . وكنا
نود أن ينصفوا من أنفسهم ، وينظروا بعقولهم إلى مايقولون ولا يغشوا
الناس بتلك الترمعات وهاتيك الخرافات .

وعار والله على أبناء القرن العشرين الذين يزعمون حرية التفكير
أن يعتنقوا ديننا وضعه رهبان الكنائس ، كى يستعبدوا به البشر ،
ويذلوا به النفوس لسلطانهم الذى امتد إلى الجنة والنار ، حتى صاروا
يبيعونها لمن شاءوا بما شاءوا (ولا غرو فبيدهم غفران الذنوب وزمام
القلوب) (اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح
ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو . سبحانه عما
يُشركون) (١) .

ولابأس أن نذكر هنا ماجاء فى بعض المجلات ، وهذه عبارة
المجلة « قبل الحرب الكبرى كان موسولينى يعد كتابا عن «جون هوس»
المفكر البوهيمى اعروف الذى أحرقه رجال الكنيسة عقابا له على
ماأذاع من آراء اعتبرت إذ ذاك إلحاداً وخروجاً على الدين ، فقال فى

(١) سورة التوبة ، الآية ٣١

مقدمته : « وإني لأرجو وأنا أتقدم بهذا الكتاب إلى جمهور القارئين أن أثير في نفوسهم كل عواطف الكراهية والاحتقار للاستبداد .^(١) والمستبدين . »

ويقول اللورد هدى : « عجباً للأوروبيين يبحثون عن أحسن المآكل والمشارب والملابس والمساكن ولا يبحثون عن أحسن الأديان . وكم للإسلام من شهادات عالية من كبار فلاسفة أوروبا وأمريكا .

ونلفت نظر إخواننا المسيحيين إلى ما كتبه «جوستاف لوبون الفرنسي ودرابر الأمريكي وتوماس كرليل الإنكليزي وغيرهم . وفي اعتقادي أنهم لو قرأوا ذلك بإمعان أو قارنوا بين الإسلام والنصرانية بتبصر وإنصاف لاعتنقوا الإسلام فرحين مستبشرين ، ولأصبح الدين كله لله ، ولأمسى الناس عبيد الله لا عبيد المسيح ولا خلفائه الكاذبين من الأقباط والرهبان .

ونقول هذا نصيحة لإخواننا في الإنسانية ، وإخلاصاً لهم وحباً لسعادتهم في الدنيا والآخرة وليعلموا أنهم مسئولون ومحاسبون وإن العالم لم يخلق سدى ولم يترك هملاً (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)^(١) (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)^(٢) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٧

(٢) سورة الكهف ، الآية ١١٠

تَعَالَى إِلَى كَلِمَةٍ نَمَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا
وَلَا نَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١)

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرِيْنَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ ، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا وَأَنْ
يَرْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ ، - تَتَى نَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَوْلَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ .

وصلنا بك أيها القارئ الكريم من سورة الإخلاص إلى قوله :
(وَكَمْ يَكُنْ لَهُ - نَفْوًا أَحَدٌ) ونقول اليوم في الكلام على هذه الآية
الشريفة :

إنه تعالى لما بين أنه المصمود إليه في قضاء الحوائج ، ونفى الوسائط
من البين بقوله (أَمْ يَلِدُ وَكَمْ يُؤَلِّدُ) على ما بيناه ، ختم السورة بأنه
ليس هناك شيء من الموجودات مساوٍ له في شيء من صفات الجلال
والعظمة .

وبيان ذلك : أن وجوده تعالى من مقتضيات حقيقته ، فإنه واجب
لذاته لا بشيء خارج عنه ، لأن حقيقته غير قابلة للعدم ، وأما صفاته
فلا مناسبة بينها وبين صفات المخلوقين ولا اشتراك بينهما إلا في الأسماء .

وانظر إلى علمه مثلا تجده لا يتصور فيه مساواة أصلا ، لأنه ليس
بضروري ولا استدلال ، فليس مستفادا من الحسن ولا من الرؤية

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٤

بترتيب المقدمات والنظر في شرائط الإنتاج ولا من مخبر أو معلم . ويستحيل عليه أن يكون في معرض الغلط أو الزوال ، إلى آخر ما يرشدك إليه العقل السليم والفهم المستقيم ، بخلاف علوم المحدثات فإنها ليست كذلك في كل ذلك وهو بعد ذلك لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وأما القدرة التي أبدعت السماوات والأرضين فأمرها أوضح من الشمس وأجلى من الحس وكذا بقية صفاته جل وعز من الرحمة والوجود والعدل والفضل والإحسان والحكمة التي اتقن بها جميع العوالم العلوية والسفلية ، وقد بهرت الناظرين فيها والمتتبعين لخوافيها : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)^(١) إلى آخر صفاته التي لا تحد ولا يأتى عليها العد ، فسبحان من لا تتناهى كمالاته العليا وأسماؤه الحسنى .

هذا وأما تقديم الخبر وما يتعلق به من الجار والمجرور ، فلكون هذا الكلام سيق لنفى المكافأة عن ذات الله فتقديم ما يفيد ذلك المقصود المسوق له الكلام أولى .

والكفاء : المثل والنظير . قال عطاء في تفسير الآية : لم يكن له مثل ولا عدل . وقال مجاهد : لم يكن له صاحبة . وكأنه تعالى يقول لم يكن أحد كفوًا له فيصاهره ردا على من حكى الله عنهم أنهم قالوا : ولد الله وأن الملائكة بنات الله ، وأن المسيح ابن الله . فكأنها دليل لقوله

(١) سورة الملك ، الآيتان ٣ ، ٤

(لَمْ يَلِدْ) ولكننا لا نخصصها بهذا وإن كان ما قاله مجاهد داخلاً في ذلك دخولاً أولياً .

الخلاصة

أن هذه السورة الشريفة يستفاد منها تلك المطالب العالية المبينة لكمال الله وعظمة شأنه . فقوله : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يدل على أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله (اللهُ الصَّمَدُ) يدل على أنه كريمٌ رحيمٌ لأنه لا يصمد إليه في جميع الحوائج إلا إذا كان محسناً غاية الإحسان جواداً لا أحد لهجوده .

وقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يدل على أنه الغني على الإطلاق وأنه منزّه عن التغيرات ، ويلزم ذلك أنه لا يبخل بشيء أصلاً ولا يمكن أن يكون جوده لأجل اجر نفع أو دفع ضرر ، بل بمحض الإحسان والإيثار يمكن الغنى المطلق .

وقوله : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات ، وما يستحيل في حقه من المشاركات .

وإجمال القول : أنه نفي عن ذاته أنواع الكثرة بقوله (أَحَدٌ) ونفي النقص والبخل والعجز بلفظ (الصَّمَدُ) ونفي العلية والمعلومية بقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) ونفي الأضداد والأنداد بقوله : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

ثم نقول بعد ذلك : إنها أبطلت مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، كما أبطلت مذهب الصابئين في الأفلاك والكواكب التي يعبدونها ويعتقدون أنها المؤثرة في هذا العالم .

وليس يخفى عليك أن كونه صمدا يبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان مضموداً إليه في جميع الحاجات على ما تقدم في تفسير الصمد .

وقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يبطل مذهب بعض اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح والمشركين في أن الملائكة بنات الله .

وقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) يبطل مذهب الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى . فسبحان من أودع في كلامه ما يدهش الأنظار ويملأ الأفكار من عظمة الواحد القهار .

واعلم أن للقرآن عناية كبرى ببيان عظمة الله وتوحيده وإن كان معنياً بالترغيب والترهيب وغيرهما من المقامات التي أفاض فيها القرآن إلا أنه يمزج ذلك كله ببيان العظمة والجلال ، وكان ذلك هو العنصر السارى في كل شيء ، والأساس الذي يبني عليه كل شيء ، فإن من امتلأ قلبه بعظمة الله لم يفرط في شيء من أوامر الله .

ولتعلم أن القرآن يرى أن كل شيء آية يجب التفكير فيها ، وحقاً هي آية ، فإن كل شيء يوصل إلى الله تعالى . « ومن البدهى أن كل صنعة تدل على صانعها وما هو عليه من علم وحكمة .

ولا شك أن كل ما في الوجود أثر من آثاره ، وفائض من أشعة أنواره ، فالو-عود كله مرآة يتجلى فيها جمال مبدعه الذى يبهر العقول ويملأ النفوس .

فإن شئت فاقرأ في كتاب الكائنات التى خلقها الله بديع صفاته وعظيم آياته فليست تخلو صحيفة من صحائفه ولا درة من ذراته إلا وفيها آية من آياته ، ودليل ساطع على وحدانية ذاته .
ورق الغصون لدى الرياض صحائف مشحونة بأدلة التوحيد بل كل شئ في الوجود فيه تلك الأدلة على مبدعه الحكيم وصانعه القديم .

ومن عجيب أمر القرآن فوق ذلك ، أنه كثيراً ما ينبه على أمور مستقبلية تحقق وقوعها بعد ، مثل قوله تعالى : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(١) وقد خلق ما نشاهده من المخترعات التى هى آيات بينات على ما أودعه رب الأرض والسموات من الأسرار فى جميع الكائنات .

ولندكر لك بعض تلك الإشارات التى بينتها العلوم الحديثة والاكتشافات الجديدة فكانت آية من آيات القرآن ، ومعجزة لسيد ولد عدان ، فمنها ما اكتشفوه من أن فى كل نبات ذكر وأنثى . فلنحمله عليه قوله تعالى : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)^(٢) ولنجعله فى تفسيره ، ومن ذلك ما اكتشفوه من أن الرياح تلتفح الأشجار . فلنجعلها فى تفسير قوله تعالى : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ)^(٣) .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٤٩

(١) سورة نحل ، الآية ٨

(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٢

ومن ذلك ما ذكرناه في كتابنا « رسائل السلام » من أن المفسرين
ذكروا في قوله : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ
وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)^(١) ما ينبو عنه الذوق السليم والنهم
المستقيم من أن المراد بالفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام ،
وأن المراد بذريتهم آباؤهم الذين كانوا في السفينة ، وأن المراد بمثله
في قوله (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) هو الإبل ، وقلنا : أنه
سبحانه وتعالى أشار بتلك الآيات وما يماثلها إلى ما سيوجد من تلك
المحدثات والمخترعات ، نبيه سبحانه وتعالى إلى أنه سيخلق في المستقبل
ما لم يخطر لنا على بال ، علما منه تعالى بما سيوجد من بواخر تمخر عباب
الماء ، ومناطيد تخترق الهواء وتذهب سابحة في جو السماء ، وقد أشار
صلى الله عليه وسلم إلى تلك البواخر بأشكالها الأنيقة كما في الحديث،
الصحيح الذي رواه البخارى حين قام يضحك من النوم فقيل له :
ما يضحكك يا رسول الله ؟

فقال ما معناه : (عرضت على طائفة من أمتي يركبون ثبيج البحر
على الأسرة كأنهم ملوك) .

ولماذا لا نفهم من قوله : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ
الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) أن ذلك المثل إنما هو تلك
المناطيد التي تسبح في الهواء كما يسبح الفلك المشحون في المطر
ويكون الضمير في قوله (لَهُمْ) عائداً على الذرية باقية على معناها الظاهر

(١) سورة يس الآية ٤١

منها ، غير معمول بها إلى ما يذكره المفسرون من تلك التأويلات البعيدة .

أو ليس هذا أولى من جعل مثل الفلك المشحون هو تلك الإبل التي من عادة القرآن أن يعبر عنها بلفظها ؟ وسيأتي التنبيه عليها في السورة نفسها في قوله : (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) (١) .

أليس يشبهه مراكب الهواء بمراكب الماء طيراناً في ذلك الغاز السهل ، وجولاناً في ذلك السيال النهل أتم من شبه الإبل بالسفن ، مع أنه لا داعي إلى العدول عن ذكرها بأسمائها ، ولا لصرف الذرية عن معناها الظاهر منها ، ويكون ذلك آية من آيات القرآن المستقبلية ؟ اللهم أن ذلك سديد وليس ببعيد .

وعندي أن العقل يوجب أن يكون في القرآن متشابهات تحت طي أستارها رموز وكنوز ، ولا تزال يتجلى منها الشيء بعد الشيء على ممر الأعصار وكر الليل والنهار ، ولا يتم اتضاحها إلا بالدخول في عالم الآخرة وشاهدة ما سيكون فيه .

ولا يسهل علينا أن نلقى القلم قبل أن نلفت نظر القارئ إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى كثير مما سيحدث بعده ، وهي من معجزاته الباقية التي تتجدد شيئاً فشيئاً إلى يوم القيامة .

(١) سورة يس ، آية ٧٢

وقد جاء عنه في هذا الباب شيء كثير أفرده العلماء بالتأليف ، ومن ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أن الساعة لا تقوم حتى يكلم الرجل سوطه . ولماذا لا نطبق هذا على المذياع (الراديو) الذى أصبح يكلم الناس في كل مكان حتى في السيارات والطرق ؟

ولنتف هنا اليوم منتظرين الفرص التى تمكننا من اقتحام تلك الموضوعات التى تبين عظمة القرآن وفضل سيد الأكوان ، صلى الله عليه وسلم .

* * *

رأينا بعد تفسير هذه السورة الشريفة بما يسره الله تعالى أن نجيب داعى المقام وننتهز هذه الفرصة فنذكر للقارئ الكريم بعض ماجاء عن فلاسفة أوروبا مما يناسب ما نحن فيه علما بأن كثيراً من أبناء هذا العصر يتأثرون بذلك فضل تأثر . وعلى كل حال فقد قالوا قديما :

« والفضل ما شهدت به الأعداء » .

ذكرنا لك في بعض ما كتبناه أن العقيدة بالله فطرية ضرورية لا يلهيك عنها إلا الغفلات المترابكة ، أو الجهل الذى يفوق جهل الحيوان ، فإن الحمار مثلا إذا ضرب التفت ليعرف الضارب ، لأنه لا يتصور أن هناك ضرباً بلا ضارب أو أثراً بلا مؤثر . فمن رأى هذا الوجود وما اشتمل عليه من حكم وأسرار وآيات تدهش الأنظار

وتحير الأفكار ، ثم لم ينتقل منها إلى الإحساس بعظمة الواحد النهار المتكبر الجبار ، هز أجهول من ذلك الجبار ببل أخط رتبة من الأسيار التي تسبح خالق الليل والنهار : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)^(١) فسبحانه من إله عظيم ، ورب حكيم .

وبالجملة فإن يتأمل في هذا العالم وما هو عليه من الرضع المنظم والترتيب المحكم الذي وضعه البارئ الحكيم لكيفية التوالد وتكاثر الأجناس مع تباينها ، وتشابه أفراد الأنواع مع مزيد كثرتها وتضامن جميع المخلوقات علويها وسفليها وصغيرها وكبيرها مع ما فيها من الحكم المدهشات ، وترتيب أنواع الكائنات ، وارتباط العال بالمعالوات ، وضرورة خدمة بعضها لبعض وما أودع فيها من القوى المختلفة والأسباب المتباينة ، وما تشاهده كل وقت من إخراج الحي من الميت والميت من الحي .

من نظر في ذلك كله علم أن جميع الكائنات معجزات إلهية تفوق المدارك البشرية ، وتنطق بعظمة الله الذي ليس كمثلها شيء وهو السميع البصير (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَبَاتٍ وَتَضْرِيحِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(٢) (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (١).
(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ اٰنْصَلْبِ
وَالْتَرَائِبِ) (٢) (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا
تُبْصِرُونَ) (٣) وَكَأَيِّنُّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٤) .

إلى آخر ما جاء في القرآن وقام عليه البرهان . ولندع ذلك فهو
معلوم للقارئ أو لجميع المؤمنين .

ولنتل عليك من كلام الفلاسفة الأوربيين في تعظيم الله وبيان
كبريائه فنقول :

قال الفيلسوف باسكال : « إذا أردنا أن نقرب لك أمر الخالق
عز وجل فتصور كرة لا نهاية لها مركزها في كل مكان ومحيطها ليس
له مكان » . وهنا يحسن أن نقراً قوله تعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَفِي الْأَرْضِ) (٥) . (فَأَيُّ مِمَّا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (٦) . (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا
كُنْتُمْ) (٧) (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) (٨) .

(١) سورة الغاشية ، الآيات من ١٧ - ٢٠

(٢) سورة الطارق ، الآيات من ٥ - ٧

(٣) سورة الذاريات ، الآيات ٢٠ ، ٢١

(٤) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٣

(٦) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٧) سورة الحديد ، الآية ٤

(٨) سورة المجادلة ، الآية ٧

وقال النيلسوف اليونانى ابيكتيت : (العقيدة بالله باستحضار
عظمته يجب أن تكون مستمرة كاستمرار التنفس) .

وقال شوتانريان : « لم يتجرأ على نكران الله غير الإنسان » .
وقال ش . جوتيه : « الله هو الكائن الذى لا يدرك ولا يوصف ومع
هذا فهو ضرورى » . ويقول : « إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود
الله قبل أن تكتشفه لنا عقولنا » .

وقال لامارتين : « أن ضميراً خالياً من الله كالمحكمة الخالية
من القاضى » .

أقول وأقر المحاكم الآن خالية من ذلك القاضى . وقد أذكرنى
هذا قول اقمائل :

عندى ضمير لست أرضى بيعه بجميع ما فى الأرض من أموال
وهنا ضمائر لو أردت شرائها لأخذت أغلاها بربيع ريال
وقال بيلوتان : « الله هو الحياة العامة فهى الأصل والمرجع لكل
حياة »

وبعد : فيحسن أن نورد براهين أشهر الفلاسفة من القدماء
والمحدثين على وجود الخالق عز وجل فنقول :

قال المسيو بوسيت في كتابه المسمى « التذكرة » فى تاريخ
البرهان على وجود الخالق « اعتقاد الأفراد والنوع الانسانى بأسره فى
الخالق اعتقاد اضطرارى قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على
وجوده ومهما صعد الإنسان بذكريته فى تاريخ طفولته فلا يستطيع أن

يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق تلك العقيدة التي نشأت صامته وصار لها أكبر الآثار في حياته فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ، ففي الحالة الأولى يرينا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافضة للعالم وحاكمة بين الناس بالعدل تكافئ على الحسنه والسيئة سواء في هذه الدنيا أو في الحياة المستقبلية . وقد قرأنا بحثا كتبه الفيلسوف الكبير «مومنيه» يثبت به وجود الخالق قال : إن افترضنا بطريقة تعلق عن متناول العقل أن الكون خلق بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل ، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكون كائنا آخر مماثلا له تماما في الشكل الظاهري ومباينا له في التركيب الداخلي وهو المرأة ، لأجل عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيهما]» ثم قال : « أليس يدل على هذا وحدة على أن في الوجود خالقا مريدا مختارا أبداع الكائنات ونوع بينها وعرز في كل نوع غرائز وتمعن بمواهب يقوم بها أمره ويرتقى عليها نوعه » ؟

أقول : أشار القرآن إلى ذلك بما يعلو تلك البراهين المنطقية والأساليب الجدلية ، فذكر ذلك البرهان في قالب يستهوي المدارك والأرواح معا ، فهو أملك للوجدان من كل برهان ، وبين أنها آية تسترعى الأنظار وتستهوي العقول والأفكار ، فقال : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ^(١) . ولاتنس أن للقرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى مايفوق كل دليل ، وله في

ذلك سبيل ذو أوضح من كل سبيل ، مثل قوله تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ
غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)^(١) وكقوله : (أَلَيْسَ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ)^(٢) إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك .

وقد قلنا : إن القرآن ينطوى على شيء كثير مما يعمل في النفوس
أكثر مما تعمل البراهين المنطقية والمحاولات الجدلية .

ويحسن بنا وقد تصدينا للنقل عن الفلاسفة أن نذكر لك هنا
المحادثة التي حدث بها سقراط أرسطوديم بخصوص الألوهية ، وذلك
أنه علم أن أرسطوديم هذا ينكر الألوهية إنكارا باتا وقد غلا في ذلك ،
فقال له :

قال لي يا أرسطوديم : « أیوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم وجمال
صنائعهم » ؟

أرسطوديم : نعم

سقراط : أخبرني عن أسمائهم

أرسطوديم : أعجب في الشعر الروائي « جهومير » وفي صناعة التماثيل
ببوليكتيت ، وفي التصوير بزوكسيس .

سقراط : أي الصناعات في نظرك أولى بالإعجاب : الذي يصور
صوراً بلا عقل ولا حراك أم الذي يبدع كائنات ذات

عقل وحياة ؟

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠

أرسطوديم : وحق «جوبتير»-يريد الزهرة - أن أولاهما بالإعجاب هو الذى يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياء إذا لم تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق .

سقراط : ولكن أى الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج الاتفاق أو من نتائج الإدراك التى غايتها ظاهرة ، أم التى منافعها مشكوك فيها ؟

أرسطوديم : من العدل أن أقول : إن الكائنات ذات النفع هى أولى بأن تنسب إلى عمل الإدراك .

سقراط : ألا ترى أن الذى فطر الناس قد أعطاهم مألدهم من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم الأعين للنظر والآذان للسمع ؟ وماذا كانت تجدينا الروائح إن لم تكن لنا أنوف ، وهل كنا نشعر بمرارة المر ، وحلاوة الحلوى إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيلة أن تكون الأعين لرقبتها وسهولة تأثيرها قد تمتعت بالأجناف التى تقفل وتفتح بالإرادة وتنسدل على العينين وقت النعاس وقد حليت أطرافها بأشبه شئ بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وأن الحواجب قد وضعت لتمنع تساقطاً العرق . إليها ، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الأصوات بدون أن تمتلىء قط . - إلى أن قال : كل هذه

الأعمال تدل على تبصر واحتياط إلى أى شىء تعزوها :
للاتفاق أم للإدراك ؟

أرستوديم : لا وحق «جوبتير» يريد الزهرة - هذه الأعمال إذا
نظر إليها الإنسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب
الكائنات الحية .

سقراط : وماذا تقول فى الميل المودع فى النفوس للتناسل ، وفى
الحنان المخلوق فى قلوب الأمهات للهيمنة على فلذات
أكبادهن ، وفى الخوف الموجود فى تلك الكائنات من
العطب ؟

أرستوديم : لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن قرر
خلق الحيوان على ماتقتضيه الحكمة .

سقراط : أتعتقد أنك قد تحليت بعقل وإدراك وأنت كما تعلم
لاتقارن بشىء من الوجود وأن هذه المخلوقات كلها
التمتعة بإدراك مثلك لاتحتاج لعقل يرتب علاقاتها
ويقيم أمرها على قاعدة النظام ؟

أرستوديم : أنا أنكر ذلك وحق «جوبتير» فإنى لا أرى ذلك الصانع
كما أرى الصانع من الناس .

سقراط : إنك لاترى كذلك روحك التى تتسلط على أعضائك ،
فهل تستطيع أن تقول إن جميع أفعالك صادرة بلا عقل
ولا إدراك ولكن بالاتفاق ؟ .

كانت نتيجة هذه المجادلة اعتراف أرستوديم بوجود الصانع .

ذكرنا لك كلام سقراط مع ارسطوديم في البرهنة على وجوده تعالى ، واليوم نذكر لك شيئاً من براهين غيره من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين لما في ذلك من الفوائد لأولئك الذين قلدوا سفهاء أوربا بلا عقل ولا روية ، فنقول :

قال أفلاطون : « من البدهى أن كل حادث له سبب أحدثه لولاه لبقى في العدم ولم يخرج إلى الوجود ، ولا يعقل حدوث شيء بلا سبب (لأنه لا يعقل إيجاد نفسه) .

ومن العلوم بالضرورة أن العالم حادث ، لأنك تشاهد وجود الأشياء بعد عدمها ، ولأنك تعلم أن هذا العالم ممكن وكل ممكن يجوز عليه الوجود والعدم ، فلا يتأتى إلا بمرجح يرجح وجوده على عدمه ، وهذا بدهى في الممكن ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان واجبا والواجب لا يسبته عدم ، ولا يجوز أن يطرأ عليه عدم ، فإذا يجب أن تكون هذه الموجودات البديعة لها سبب هو أكمل الأسباب كلها .

براهين أرسطو : واضح المنطق ويلقب بالعلم الأول :

قال : « إنا وجدنا المتحركات تتحرك ، ولا بد لكل متحرك من محرك ، ولا يجوز أن يذهب إلى غير النهاية لامتناع التسلسل ، فلا بد أن يستند إلى محرك غير متحرك ، ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة ، فإنه لو كان كذلك لاحتاج إلى شيء يخرج من القوة إلى الفعل ، فالفعل إذا سبق على ما بالقوة وكل جائز وجوده ففي طبيعته معنى ما بالقوة وهو الإمكان والجواز فيحتاج إلى واجب به يجب حتى يظهر إلى الوجود ، فكل متحرك

يحتاج إلى محرك لا محالة ، لأن جوائز الوجود ليس له في نفسه إلا الإمكان والقبالية .

وقال في إثبات الوجدانية : « محرك العالم واحد لأن العالم واحد ولو كان كثيراً لحمل على واجب الوجود ما حمل على غيره بالتواؤ فيشمّلها جنساً وينفصل أحدهما عن الآخر نوعاً فتتركب ذاته من جنس وفصل ، فتسبق أجزاء المركّب على المركّب سبقاً بالذات . فلا يكون وجباً بذاته . »

ثم قال : « إن واجب الوجود لا يتغير ، لأن انتقاله عن حالته يكون إلى أشرف لا إلى الخير ، لأن كل رتبة هي دون رتبته وكل شيء يناله هو دون نفسه الكاملة . »

ولنقتصر من براهين الفلاسفة الأقدمين على هذا .

ولنذكر لك من براهين فلاسفة أوروبا المحدثين ما تيسر ، لما في ذلك من الفائدة التي تعود على كثير من القراء إن شاء الله ، فنقول :

قال الفيلسوف الشهير الصيت «ديكارت» الفرنسي :

«إني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت ذاته بوجود وجود ذات كاملة ، وأراني مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهي «الله» .

ثم قال (وهو وجه آخر من وجوه الاستدلال) : «إني لم أخلق ذاتي بنفسي ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها إذا أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزاً

جميع صفات الكمال ، وإلا اضطرت أن أطبق عليها التعليل الذى
الذى طبقتة على نفسى .

ثم قال : « إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة لا يفترق فى
الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا المثلث تساوى زاويتين
فائمتين . إذا فالله موجود . »

ولا بأس أن نقول لك : إن ديكارت كان ممعناً فى الشك فى كل
شياء ، وما كان يريد بذلك الشك إلا التوصل للحقيقة ناصعة خالصة
من كل تقليد ، فهو أشبه شئ بالرأى الذى يذكر عندنا فى كتب
الكلام من أن أول واجب هو الشك . فاعرف ذلك ، وإياك وتقليد
بعض الجاهلين الملحدين .

وما يناسب موضوعنا الذى نحن فيه قوله : « إن فى هذه الشكوك
كلها شيئاً لا يتناوله الشك أبداً وهو « أنا » ، وقد كنت مقتنعا
بأنى لست بموجود ، ولكنى فى الواقع كنت موجوداً ، إذا استطعت
أن أعتقد أو على الأقل أن أتفكر فى شئ ، فإذا أنا موجود ،
ولا يوجد شئ يمكنه أن يقنعنى بأنى لست بموجود مادمت أتفكر ،
فقولى : « أنا موجود إذا » ، هو حقيقة ثابتة لا شك فيها ، كلما قلتها
أو تصورتها فى ذهنى .

هنا تمكن « ديكارت » ، أن يحل نفسه من قيود الشك ، فخرج
بعقيدة صريحة واضحة لا تقبل الجدل ، وهى أنه موجود ، ومنها
تمكن من اكتشاف حقيقة أخرى جلية القدر وهى أنه يتوجد ذات
متصفة بجميع صفات الكمال .

قال : « إن هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتي ، وقد ولدت حاملا أمانتها في ثنايا ضميري لأنه كيف يعقل أن أدرك أنني شك وأناي راغب ؟ أي أنه ينقصني شيء ، ولم أكن بالغاً نهاية الكمال إذا لم يكن مغروزا في طبيعتي إدراك وجود ذات أكمل من ذاتي » .

ثم قال : إن لفظه (الله) إن لفظت بها فإنما أعنى بها هيرولي لا نهاية لها ، أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شيء وقادرة على كل شيء ، وإني أنا و-جميع العوالم الموجودة مخلوقة ما ، وهذه معارف جملة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقاداً بأنني لم أستنبط الشعور بوجود الله من ذاتي وحدها ، وعليه فيجب أن أستنتج من ذلك أن الله وجوداً مستقلاً ، وأن شهورى بوجود هيرولي غير متناهية لا يمكن أن يكون أصله من ذاتي أنا ذلك الكائن المتناهي بل غرست في ذاتي تلك العقيدة من قبل هيرولي نير متناهية في الحقيقة » .

براهين فنيلون :

وهو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « لست موجودا من ذاتي ، وكل شيء من هذه العوالم كذلك ، لأنه يجب للموجود من ذاته أن يكون أولاً ثابتاً فإنه يكون حاصلًا من ذاته على علة وجوده ، ولا يكون محتاجاً لشيء من الخارج عنه ، فكل ما يمكن أن يأتيه من الخارج لا يعقل أن يتحد به ولا أن يكمله ، لأن الحادث المتغير لا يمكن أن يتحد مع الموجود بذاته الذي لا يقبل التغير ، فإن الفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لانهاية له ، إذا فلا يمكنهما أن يؤلفا مجموعاً حقيقياً ، إننا ذا الموجود بذاته

لا يمكن أن يزداد شيء على حقيقته ، ولا على رحمته ، ولا على كماله فهو في ذاته كل ما يمكن أن يكون ، ولا يجوز عليه أن يكون أقل مما هو عليه فالموجود على هذه الصفة هو أرقى درجات الوجود» .

برهان بوسويت :

هو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « ليس علينا إلا أن ننظر إلى أنفسنا لنتحقق أننا صادرون من أصل رفيع ، نرى أنفسنا أهلاً لأن نفهم الأشياء وندرك الموجودات ، وأنا قد نجعل بعضها فنشك فيها ، أو نرى الأحوط ألا نحكم عليها بحكم حتى نصل منها إلى حقيقة ما ، وما ذلك إلا لأننا نعتقد أن بنفوسنا نقصاً يمنعها الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وإذا كان في الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل وهو مع ذلك موجود ، فمن باب أولى يكون موجوداً فيه عقل كامل ليس عقلنا منه إلا قطرة من بحر أو شعاعاً من شمس ، لأنه مما لا يعقل أن نكون نحن وحدنا المتمتعين بعقل وإدراك ، ويكون الوجود العظيم كله خالياً منهما ، إذ يقال أنه إذا كان الوجود كله مكوناً من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك فمن أين نشأ للإنسان هذا العقل والإدراك ؟ (وفاقد الشيء لا يعطيه كما هو معلوم) إذاً فلا بد أن يكون في الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له . »

برهان ليبنتز :

وهو من أشهر فلاسفة الألمان : « الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومنتاه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له

مشاعرنا ، هو من الممكنات ، أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد ، وقد لا يوجد ، وليس فى أحدها شىء يوجب له الوجود بذاته والزمان والمكان بالمادة المتحددة فيما بينها أن تستطيع أن تقبل حركات وصوراً من نوع آخر غير النوع الحالى ، إذاً يجب البحث عن الأولوية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة . يجب البحث عنها فى الهيولى التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأرلية .

يجب أن تكون هذه العلة عاقلة لأن الكون الموجود لما كان يمكننا أى قد يكون ولا يكون ، ومن الإمكان حدوث ديناوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود ومحيطه بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة ، ويكون تحنيد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولا شىء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التى لهذه العلة الحكيمة ، يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كما أماً مطلقاً من حيث القدرة والحكمة . ولما كان الوجود كله مرتبطاً بعضه ببعض ومسرغاً فى قالب واحد ، فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها .

هذا بعض ما قاله أولئك الفلاسفة . وما أجدنا فى هذا القام

أن نقول :

جلالك يا قدوس ليس له حد كذلك صفات القدس ليس لها حد
تعاليت عن وصف الخليفة كلها ومن وصف عليك الطهارة والمجد

إنا قضاؤك محتوم وأمرك نافذ وما شئت من شيء فليس له رد
لك المثل الأعلى وكل معبد كنفه اعتزازاً أن يقال هو العبد
إنا ولنكتف اليوم بهذا المقدار مخافة السامة . وقد نقلنا من تلك
الشهادات للدين الإسلامي شيئاً كثيراً في كتابنا (الجواب المنيف)
علماً بأن الإلحاد قد طم سيله ، وعم ويله ، وظن أربابه أنهم وصلوا
من العلم إلى ما لم يصل الأولون (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ . أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)^(١) وقد بين الله حقيقتهم ومبلغهم من الإنسانية
فقال وهو أصدق القائلين : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ
وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ،
وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ
هُمُ الْعَافِيُونَ)^(٢) (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَّا يُبْصِرُونَ)^(٣) .

غير أن هنا كلاماً مهماً لكاتبة أمريكية عن الإسلام يحسن
أن نذكره لحضرات القراء في هذه الفرصة : نشرت مجلة بوستن التي تصدر
بأمريكا مقالاً طويلاً لكاتبة أمريكية بعنوان (لا دين أعلى من الحق)
استهلتها بوصف جامع وثناء عاطر على النبي صلى الله عليه وسلم ، وما
أحدثته رسالته في العالم ، وما كان لبعثته من أثر في أخلاق الأمم
وتطور العقائد من الحضيض إلى الأوج ، إلى غير ذلك من الإصلاح

(١) سورة المجادلة : الآية ١٨

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٩

(٣) سورة الأعراف : ١٩٨

الاجتماعى الذى لاحد له ، ثم أهابت بالناس جميعا ألا يغفلوا عن تعاليمه ، وأن يوجهوا كل همتهم إليها ، ففيها الخير العميم ، وفيها المنافع الكثيرة . فمن قولها فى هذا المقال : « إن مقاييس الإصلاحات الإنسانية هو الخير الذى يمكن أن يصل إلى نوع الإنسان عن طريق ذلك الإصلاح ؛ وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم قاموس محيط لأرقى مزايا الإصلاحات وأعمها نفعاً للبشرية .

فمن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم : أن كل عمل طيب صدقة وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة ، وتوجيه النصيحة إليه بمثابة هدية غالية ، وهداية الحائر إلى الطريق يعد إحسانا ، ورفع الحجر والشوك ونحوهما من الطريق كفى لا يتعثر فيهما السارى فى الظلام صدقة وبر عظيم . « أطعموا الجائعين ، واسقوا العطاش ، وعودوا المرضى ، وحرروا الأسارى ، وأعتقوا العبيد وساعدوا كل إنسان » . هذه من أقوال محمد ونصيحته . وكذلك قوله : أسعدوا القلب الحزين ، وأنقذوا المكروبين وخلصوا الغريم من عبء الدين الثقيل لأن من أخرج المكروب من ضيقه يفرج الله عنه فى يوم القيامة الذى يحقق الله فيه العدل ، وينجز وعده بالجزاء .

وفى ذلك اليوم تمر على الإنسان ذكريات دنياه ليقدّم عنها الحساب فبشرى للذين يعاونون إخوانهم فى أوقات ضيقهم ، ويرفعونهم من كبواتهم ، أوائلك يساعدهم الله يوم الفزع الأكبر .

تلك وصايا محمد وعظاته البالغة التى تدفعنا لنحمل نور الفرح إلى القلوب التى تراكمت عليها ظلمات الهموم ونور الهداية إلى النفوس التى أغرقتها ظلمات المعاصى .

إن محمداً يبين لنا أن أحب مخلوق إلى الله هو الذي يصدر منه الخير لمخلوقاته ، لأن جميع الناس سواء عند الله ، أفضلهم من سما بالفضل فيهم ، وتعاليم محمد لا تعتبر الإنسان كاملاً عند الله بمحض ألفاظه وكلماته . فالكمال في الإسلام قائم على الصدق الذي يبدو في ثلاثة مظاهر من الحياة الإنسانية : الصدق في القول ، والطهارة في النية ، وظهور الإيمان في الحياة العملية .

« قل الصدق إذا نطقت ، أدُّ الشهادة على وجهها ولو على نفسك ، أنجز إذا وعدت » .

أد الأمانة لمن ائتمنتك ولا تخن من خانك^١ . خالف نفسك في هواها إذا مالت إلى شيء يغضب الله ، لا تحمل في قلبك غلاً ولا حقداً لأحد ، واغسل يديك من أدران الأذى والاعتداء .

وهذا الدين يحرم على أهله أن يفشى المسلم عيوب غيره ، أو ينقل بين الأصدقاء حديثاً يفرق بينهم ، أو أن يتتبع المرء عورات أخيه ويخفي محاسنه ومزاياه .

وهنالك حقيقة عظيمة يكاد الإسلام يمتاز بها : وهي أن الإنسان ينبغي أن يعيش من كسب يده : من التجارة ، أو من الصناعة وغيرهما ، وأن الله جلت قدرته يبارك للمجتهدين في أرزاقهم ، ويعطيهم ثواب العباد ، ويمنحهم أجر الذين جاهدوا في نصرة الدين .

نصح محمد لرجل سائل أن يجمع الحطب من الجبال والغابات
ويبيعها لكي لا يقع تحت ذل المنة عليه من الناس .

وينصح محمد بأسمى فضائل الأخلاق ، ويدعو إلى أن تصل
من قطعك ، وتحسن إلى من أساء إليك ، وأن لا تتكلم إلا بخير ،
وإذا سكت فليكن صمتك تفكيراً في الله ومصنوعاته .

أما تعليم العلم وتعلمه : فإن العلم مدين كثير المحمد الذي يعلم
أتباعه أن ساعة من الليل في مذاكرة العلوم أفضل من قضاء الليل
كله في العبادة . ويعتبر الإسلام أن من اجتهد في العلم وأصاب
الصواب كان له أجران عند الله : أجر نجاحه ، وأجر اجتهاده ،
وأن من أخطأ فله أجر اجتهاده . فأى تشجيع على التعليم أسمى
من هذا ؟

إن محمداً يعتبر اقتناء العلوم جهاداً ، والتكلم بها ذكراً ، والبحث
عنها فنوتاً . وتعليمها تصدقاً وإحساناً ، لأن العلم هو المنقذ من
الحيرة ، والنور الكاشف للظلمة ، وهو صلة الأرض بالسماء .
وطريق الإنسان إلى الله . العلم هو صديقنا في صحراء الحياة المجردة
وأنيسنا في وحشتها ، ومساعدنا عند فقد الأصدقاء ، ومرشدنا إلى
السعادة ، ودو الذي ينقذنا من البؤس ويكسبنا زينة مع الفقر ،
سلاحنا ضد أعدائنا . ولطالما رفع العلم الخاملين وسأبهم إلى معاشر
الملوك .

تلك هي أقوال الإسلام وتعاليم محمد نقلنا خلاصة منها في هذه
الأقوال الموجزة المجملّة غاية الإجمال .

ولقد نشر أصحاب محمد لواء العلم في كل مكان ، ويظن بعض من يجهل الحق أو يتجاهله أن الإسلام كان دين غزو وفتح . هو قول بلغ أقصى غايات البعد عن الحق المبين .

«حقا إن المسلمين فتحوا ممالك وشادوا امبراطوريات ولكنهم لم يحملوا سيوفا فمقط ، بل حملوا عدلا ، ونشروا علما وفنا تجلى في عبقرية المجتهدين الذين نشطوا بين القرن الثامن والرابع عشر نشاطا لم يعرف التاريخ مثله شيذوا مدارس وجامعات في مصر وبغداد وقرطبة في غرب أسبانيا وما ازدهرت الحضارة في الدنيا كما ازدهرت في نزل أتباع محمد» .

« إن المسيحيين في أوروبا لا ينكرون ما اقتبسوه من الأندلس من العلوم والفنون التي كانت حياتهم بعيدة كل البعد عنها فتعلموا الفلك والرياضيات من المسلمين الذين كانوا يترجمون ثم يحققون فتبدو شخصيتهم العلمية والفنية وعليها من الإسلام طابع واضح يشهد بالفضل لتربية محمد صلى الله عليه وسلم التي أثرت في الدنيا كلها » .

هذه أقوال سيدة منصفة تحب الحق وتجوهر به . وإنا نتمنى أن يرشد الله أبنائنا المتعلمين أن يبحثوا عن الحقيقة التي جهلواها حتى يعرفوا أسرار دينهم التي غفلوا عنها ، حتى يعود إليهم مجدهم الذي كانوا فيه عندما كانوا مسلمين حقا .

أسأل الله أن يعرفنا مزايا الإسلام وعظمة نبي الإسلام بمنه وكرمه .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ) :

رأينا أن نوفي هذه الفرصة الثمينة حقها ، فنكثر من البراهين
الدالة عليه تعالى بقدر ما نستطيع ، علماً بأن العقائد قد اعتبرت
الشكوك ، والندوس قد لعبت بها الأوهام .

وقد أكثرنا بنوح خاص من أقوال فلاسفة أوروبا ، لما في ذلك
من التأثير البالغ في نفوس شبابنا الذين أصبحوا يتهمون أئمة
المسلمين ويقدسون أساتذة الأوربيين ، والله في خلقه شئون .

ومما نقصده أيضاً من نقل تلك الآراء والأفكار أن نعرف القارىء
أن الطرق الموصلة إلى الله تعالى لا تنحصر . وقد قالوا قديماً : إن الله
طرائق بعدد أنفاس الخلائق . وقد وصل الأمر من الوضوح عند بعض
أرباب الوجدان من المسلمين أن سمع قائلاً يقول : إن الفخر الرازى
أقام على وجود الله ألف دليل ، فقال « ومتى غاب حتى يستدل
عليه » ؟

ولنسق لك بعض تلك البراهين ، ولعلها أليق ببعض الاستعدادات
فنقول :

قال « نيوتن الإنجليزي » وهو أكبر علماء الفلك في عصره
ومكتشف قانون الجاذبية العالمة وقد سأله الناس من كل مكان أن
يأتيهم بدليل على وجود الخالق يكون في درجة المحسوسات ، فأجابهم
قائلاً : « لا تشكوا في الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة
وحدها هي القائدة للوجود والمنظمة له ، لأن ضرورة عمياء متجانسة

في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أولى له حكمة تامة وإرادة نافذة .

أقول : أكثر « نيوتن » من كلمة الضرورة ، لأن الملحد يذكرونها كثيرا كلما أخرجوا . وإني ولا أخفى عليك وقد حاولت كثيرا أن أفهم ذلك فلم أستطع . . . وليت شعري ما هي الضرورة التي توجد وتخلق ، وترتب وتضع الأشياء في مواضعها ؟ وما حقيقتها وما صفاتها التي أتت بهذا الإبداع المدهش ؟ وإذا كانت الضروة تفعل ذلك كله ، فما بالناس في هذا الضيق وهذه المصائب فهل اعتراضها الوهن أم أدركتها ؟ ثم تبين لي أن للأوهام والخيالات مدركات لا يتأتى للعقول أن تدركها لأنها لا تدرك إلا بواسطة وهم فاسد أو خيال كاسد ، ولذلك يقول (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) ^(١) . والأنعام لها قوة الوهم لا قوة التفكير .

ولنرجع إلى كلام نيوتن . قال بعد ما سبق : « من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبة العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها » .

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٧٩)

ثم قال : « ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة على مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها المختلفة بالنسبة للشمس ، ولما كثر الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلاجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد . وقارن بين كميات المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وتوابعها ، وبين جربتيير « المشترى » . والأرض ، وقور السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها . إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الالتفات بين أجزائه . كل هذا يشهد بوجود وجود « سبب » لا أعمى إلا حادث بالاتفاق « كما يزعّم المحدثون الجاهلون » على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

ثم قال : « ليس هذا كل ما في المسألة ، فإن الله ضروري لإدارة هذه الأجرام بعضها على بعض ، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يكون من مجرد قوة الجاذبة أو لتحديد وجهة هذه الدورات كما يرى ذلك في الشمس وتوابعها ، بينما ذوات الأذنان تدور في كل وجهة على السواء .

ثم قال : « وغير هذا انظر تكون الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين : القسم المضيء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأحرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم يجتمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له » .

أليس هذا موافقاً لما نقوله من أن معلومات الله لا تتناهى وكمالاته لا تتناهى .

ثم قال : « انظر كيف كونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه والأذن بدون إلمام بقانون الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات » .

إلى أن قال : « وهذه الكائنات كلها في قيامها على إبداع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حتى حكيم ، يرى حقيقة كل شيء ويدركه أكمل إدراك ؟ » .

قد أطلنا في هذا البرهان ، ولعل في ذلك التطويل فائدة لكثير من القراء .

وقد كان عمدة « نيوتن » في استدلاله ببيان الأشياء التي لا يمكن تعليلها بغير فعل القادر الحكيم .

وأقول : إن نظر علمائنا في هذا الموضوع أبعد غوراً من غيرهم ، فإنهم إذا ظفروا بعلل الأشياء وأسبابها جعلوا ذلك من براهين حكمة الحكيم ودلائل وجوده ، فإن هذه العلة ليس لها وجود من نفسها ، لأن دلائل الإمكان فيها واضحة ، وكل ما ليس بواجب الوجود فلا بد له من واجب الوجود .

ثم نقول : ما الذى متعها بتلك الخصائص التى جعلتها عللاً وأسباباً ؟ فقد كان يجوز أن تكون بصفات أخرى وقوى أخرى ، فإنها قابلة لذلك كله بمقتضى إمكانها وبغيرها الذى نشاهده ، فكان وجودها بعد عدم وتمتعها بتلك القوى المخصوصة من أكبر الأدلة وأعظم البراهين . وليت شعرى لماذا عدد الله العناصر المختلفة حتى جعلها تزيد على السبعين أو الثمانين ، ثم جعل لكل منها خصائص لا توجد في غيره ، بل قد تكون متضاده ، كالأكسوجين ، والأزت ، والكربون .

فمن ذا أوجدها كلها وتمتعها بهذه الخصائص حتى تتعاون على هذا النظام البديع ؟ وليت شعرى ما الذى أوقفها عند هذا الحد فلم تنقص عنه ولم تزد عليه ، غير مشيئة الله الذى علم كل شئ ودبر كل شئ فسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

والحق أقول : إني لم أر في هذا الوجود على سعة أكنافه وتباعد أطرافه وكثرة تنوعاته وتشعب مبدعاته ، أجن من أولئك الملحدين :
(الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعًا) (١) . (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (٢) . ويكفيينا ما قال الله فيهم : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا) (٣) .

ولا يصح أن يذكروا في عداد العلماء ، فإن الله يقول : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (٤) : فكل من لم يشهد بذلك فليس من أولى العلم .

وقد قال « سبنسر » وهو من أكابر علماء الإنجليز : ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التي عرفها أبناء المدارس ، وإنما الغرض من علم الطبيعة أن نقف على ذلك الجسر الذي ننظر منه إلى ما وراء الطبيعة .

وقال « باكون » وهو من أشهر مشاهير علماء الطبيعة : من أخذ علم الطبيعة بأطراف الشفاه كان ملحدًا ومن شربه عبا أوصله إلى الخالق .

براهين كلارك : وهو من أشهر فلاسفة الانجليز :

قال : « لا بد لنا من فرض أن شيئًا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن ، وهذا الفرض حقيقة لا شك فيها لأن كل موجود من

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٤

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٤

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٨

هذه الممكنات يجب أن يكون هناك سبب أوجده أى أصل قام عليه وجوده ، وهذه الأشياء إما موجودة بذاتها فهى إذن قديمة أزلية ، وهو ما لا سبيل إليه لما نرى فيها من دلائل التغير والحدوث الدالة على أنه ليس لها شئ واجب لذاتها ، وإما أن تكون موجودة بموجد تقدم عليها فيكون هو القديم الأزلى .

ثم قال كلارك ما ملخصه :

« لا يمكن أن يكون هذا الوجود المادى مستقلاً بنفسه ولا أبدياً إلا إذا كان هو واجب الوجود بذاته ، ولكن مما لا شك فيه أن الوجود المنظور ليس هو واجب الوجود ، لأنه سواء أتاملت فى شكله الظاهرى مع قابلية أجزائه لحركاتها المختلفة ، أم اعتبرت مادته التى هو مكون منها بدون التفات إلى شكلها الذى هى ظاهرة به الآن ، فلا أرى فيها إلا آثار إرادة واختيار ، فمجموعها فى جملته وكل واحد من أجزائها فى موضعه وحركته ومادته وشكله .

وبالجملة كل ما فيه متعلق بغيره غير مستقل وغير معقول أن يكون موجوداً بذاته . وإنى أصرح بأن الوجود لأجل أن يكون صالحاً يجب أن تكون أجزاؤه على الترتيب الذى هو عليه اليوم .

ومما أعده هذيانا القول بأن ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية ، وهى الضرورة التى يستند عليها الملحدون ويدافعون عنها . وقد سبق لك أن ذلك لا معنى له إلا فى رؤوس المجانين .

براهين لوك ، وهو من كبار فلاسفة الانجليز :

قال : « إنا نعلم ببداهة العقل أن العدم لا ينتج مطلقاً كائناً حقيقياً . ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلى وبأسلوب رياضى أنه لا بد من

أن يكون قد وجد شيء في الوجود من الأزل ، لأن كل ما له بداية يجب أن يكون ناتجاً من شيء تقدمه .

وما لا ريب فيه أن كل كائن يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات . إذن فالينبوع الأزلي الذي تستمد منه جميع الكائنات يجب أن يكون ذو أصل جميع قواها ووجوده ، فهو إذن قادرٌ على كل شيء ، وغير ذلك فإن الإنسان يرى في نفسه قوة على العلم ، فيجب أن يكون الأصل الأزلي الذي نتج منه الإنسان عالماً ، لأنه لا يعقل أن ذلك الأصل يكون مجرداً عن العلم وتنتج منه كائنات عاقله . ومما يناقض البداهة أن المادة المجردة من الحس تمتع نفسها بعقل لم يكن لها من قبل ، فيجب بالبداهة أن لا يكون أصل الكون عاقلاً - بل لا حد لعقله وهو الله تعالى :

ولنقف دنا اليوم ، واننشد قول أمية بن الصلت ، ذلك البدوي الذي لم تشغله المدنية وزخرها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديثه به حيث يقول :

أهـاج للقلب من هواه إِدْكار	وليال خلالهن نهـار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم تلوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا	في نهـار وفي الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير	جل رباً وجلت الآثار
والذي قد ذكرت دل على الله	نفوساً لها هدى واعتبار

ذكرنا له شيئاً من كلام الفلاسفة الأقدمين والمحدثين في الاستدلال على وجود الله تعالى ، وقد رأينا أن نضرب معهم ، بسهم في ذلك الموضوع الرفيع بأسلوب بديع ، وقد وجدت من نفسي سائقاً قوياً لأعمال التريجة في ذلك واستخدام القلم فيما هنا لك ، علماً بأن ذلك مطلب الأرواح وهو المقصد الأسمى من بعثة الرسل عليهم السلام . وأى سورة أحق بهذا من سورة لإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بنص الحديث الشريف . ولو كتبنا أسفاراً في بيان صمديته تعالى أو أحديته عز وجل لم نبلغ إلا أقل القليل من دلائل قدرته وآيات عظمته (سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) .

وبالجملة فقد جاءني هذا الإلهام القوي والذي لا يمكنني أن أخالف سلطانه ، أو أدع بيانه ، وهو فيما أعتقد أجل ما ينفع القراء ويبتهج به أهل الذكاء ، فأقول متوخياً طريقة القرآن من وضوح البيان واستثارة الوجدان ، وبالله التوفيق :

١ - إن نسبة الإلحاد إلى علم الطبيعة افتراءً على علم الطبيعة ، فإنه لا علاقة له بأوائل الأشياء ولا أواخرها ، وليس في قدرته أن يعرف من أين جاءت ولا إلى أين تذهب ، ولا ذلك من أبحاثه وأنه لينطق بعجزه عما وراء الطبيعة ، ولكنه يقدر بهأسراره البديعة ، ذلك الفاعل المستتر بكنهه الظاهر بآثاره ، الذي دق عن رؤية الأبصار وجل عن أن يقع تحت الحس ، ولكنه معروف للعقول مرئياً للبصائر فهو كالروح وجودها بدهى في الفطر ولكنها مجهولة عند إرادة التكليف والتجديد لأنها تعلو عن ذلك بمقتضى طبيعتها بعد النورانية عن الظلمانيات ، فتتكربها عوالمك السفلية الكثيفة التي لاتعرف غير المحدود .

٢- ينطق بوجوده تعالى وعظمته وسعته علمه وباهر ألوهيته ما أودعه في الأنبياء من الحكم التي اقتضت أن يوجد لك كبداً تفرز الصفراء ، وغدداً تفرز الريق ، ومجرى للطعام ، ومجرى للنفس ، ومصفاة في الأنف للهواء ، وسدادات تفتح من جانب واحد بغاية الإحكام في الأذنين والبطين والشرايين والأوردة . وانظر كيف جعل لك منفذاً للفضلات وبجانب قناة البول قناة أخرى للمنى بعد عمل حوض للبول يجتمع فيه وكليتين تفرزانه من الدم ، ثم جعل لك أنثى ، وهياً لها يراد منها فخلق فيها رحماً وثدياً . إلخ .

وانظر إلى حكمة : الأصابع والأظافر واليدين والرجلين والمفاصل وطبقات العين وخلق اللسان في الفم ، إلى غير ذلك مما يبهرك إن كنت ذا وجدان صحيح .

٣- من المقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه ، فكيف تعطينا المادة الجاهلة الميتة الحياة والعلم والإدراك ؟ وهل لتلك العناصر المادية كالكبريت والفسفور والأكسوجين والأدروجين^(١) والذهب والزنبيق إلى غير ذلك من عناصر المادة خير من ذلك أو إثارة من حياة أو علم أو إدراك . وهل إذا اجتمعت الجمادات كونت حياة وإذا انضمت الجهالات كونت علماً عالياً وإدراكاً سامياً . هل كان يمكن للمادة الجاهلة التي تجتمع كيفما اتفق أن تكون معدة وأعضاء ورثتين وكليتين ، وأن تتخلق في المعدة ما تحتاج إليه من العصارة المعدنية وبجانبها العصارة البنكرياسية

(١) اهيدروجين .

ثم تخلق جهزاً للتناسل وتعلم أن ذلك وحده غير كاف فتخلق خلقاً
آخر من جنس الخاق الأول وتخلق فيه جهازاً للتناسل يخالف الجهاز
الأول ليكون الأول فاعلاً والثاني قابلاً . ثم تخلق فيه محلاً للجنين وتدبر
له كيفية غذائه مادام في الرحم وتخرج له ثدياً يغذيه بعد خروجه
وتهيئ له لبناً يجرى فيه يناسب حاله وضعفه في طفولته ويجعل الرجل
مجرداً عن ذلك وقد أتى على كل منهما الشهوة الشديدة إلى الآخر
لينساقا إلى ما خلقا له وليحفظ النوع من الفناء والذئور .

بل نقول : هل علمت المادة الصماء العمياء أن الكلبة ستلد أجراًء
كثيرة ، فجعلت لها أئداء كثيرة وحلمات عديدة رحمة بأولادها التي
ستكون بعد ، وهل علمت أن العقاب سيمتغذى باللحم فكونت في البيضة
التي يتخلق منها منائر يقطع بها اللحم كما علمت أن بعض الطيور تأكل
النبات وأن بهضمها يحتاج إلى حويصلة فلم تكون ذلك في بيضتها ؟

٤- إن أعمال الله تعالى لا تتناهى ولا تدخل تحت حصر مما ينبيء
عن الاختيار والإرادة فإن الأعمال الطبيعية يجب أن تكون متشابهة بل
متحدة . فإن لطبيعة لا تعمل إلا عملاً واحداً ووجود الأعمال المنوعة
من خصائص الاختيار والإرادة وليس الاختلاف الذي نشاهده ولا يدخل
تحت حصر قسراً على الأنواع المتباينة بل أفراد النوع الواحد لا تكاد
تدخل تحت الحصر مباينة وإختلافاً (يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ^(١) وإن شئت فانظر إلى الأشجار المتجاورة

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦

التي تضرب عروقها في بقعة واحدة وفروعها في هواء واحد ، بل انظر إلى أوراق الشجرة الواحدة تجدهما لا توافق ورقة منها ورقة أخرى ، فإن حاولت أن ترجع ذلك إلى أسباب ومقتضيات فقل لي من الذي نوع تلك الأسباب، وخالف بين تلك المقتضيات إلخ .

٥- وإن شئت فانظر إلى تعاضد العوالم وخدمة بعضها بعضاً وتوجيهها كلها لغاية واحدة مما لا يتصور مثله للمادة العاجزة التي ليس لها خبر عما يجاورها فضلاً عن البعيد عنها فانظر إلى خدمة العالم العلوى للعالم السفلى .

٦- وإلى وضع الأرض وغيرها من العوالم العلوية على الأبعاد المناسبة حتى ينتفع بعضها ببعض ، وحتى لا تختل حركة الجاذبية العامة ، ولو جعلت الأرض قريبة من الشمس جداً لاحترق كل ما عليها بحرارة الشمس ، ولو جعلها بعيدة عنها جداً لم يعيش عليها نبات ولا حيوان فسبحان العالم الحكيم .

ومن المدهش كون أوضاعها على نسبة تحفظ بها قوانين الجاذبية في الجميع بالنسبة لما على يمين الكوكب وما على شماله وما فوقه وما تحته ، إلى آخر ما يحير الحاسبين ويدهش الناظرين .

٧- وإن شئت فانظر إلى الأرواح والجن وأفاعيلها التي خرفت كل نراهيس المادة . وتلك الخوارق يعرفها المسلمون في أوليائهم بالكرامات وأنبيائهم بالمعجزات ، وقد اعترف بها الآن فلاسفة الأوربيين وأساتذتهم بواسطة استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي الذي أتى بما لا يمكن تعليله بالعلل المادية كما هو معروف ، إلى آخر ما لا يتسع له هذا المقام .

٨- وإني لأعجب كيف تنسب هذه القدرة الباهرة التي أوجدت هذا الملك العظيم الذي لا يحيط به محيط في اتساعه وكثرة أنواعه من هواء وماء وأرض وسماء ونجوم وأقمار ، ورياض وأزهار وجبال وبحار إلخ .

عجبت كيف تسبغ العقول ذلك أم كيف تسبغ أن تنسب إلى المادة الجاهلية تلك العلاقات المنظمة التي بين الأشياء والترتيب الغريب المسيطر عليها والحكم السامية المودعة فيها التي اقتضت أن يكون (الأزوت) في الهواء على نسبة ٩٩ في المائة (والأكسوجين) في الهواء على نسبة ٢١ في المائة ، حتى يتأتى أن يتنفسه الإنسان والحيوان وتصلح به الأشياء .

تلك الحكم التي أوجدت فيك المخ والمخيخ والرئتين وصورت لك فكين وأوجدت بينهما لساناً وعلى طرفيهما أسنانا . ولم تكتف بذلك حتى أوجدت لك غدداً في ذلك المحل تفرز الريق . إلى آخر ما لا يسعنا إلا أن نلمع إليه ، لا أن نأتى عليه .

٩- عجبت كيف لا يدهشه هذا الإبداع وكثرة الأنواع ، بل اختلاف الصور والأشكال في النوع الواحد .

وانظر إلى ذرة المكروب من نوع الحيوان إلى أن تصل إلى ما طوله عشرات الأمتار كما في حيوانات البحر ، وإلى ماله حويصلة ومعدة ومعدتان وثلاثة ، وإني آكلة النبات وآكلة اللحوم وإلى ماله عيون تزيد على عشرات المئات ، إلى آخر ما بينه علماء الحيوان .

ثم انظر إلى النبات كيف تزيد أنواعه على مائتي ألف نوع إلخ إلخ .
ثم انظر إلى سعة العوالم العلوية وانتظامها وسرعة حركاتها وما قرره
فيها المكتشفون .

فيا ليت شعري ما الذي عرف هذه الاختلافات وتلك التنوعات
وهذه النظمات وهذا الإبداع وذلك الاختراع .

١٠- أم كيف أوجدته المادة التي لا تستطيع أن توجد نفسها .
وألقت نظارك إلى هذا الغذاء الذي نأكله كل يوم ولاندرى بشهادة
علماء الطبيعة أنفسهم كيف يكون العين والمخ والمخيخ إلى آخر
أجزاء البدن ، أم كيف يكون العلف والتبن عينا في رأس الحصان ودماً
في جسمه ولحمياً في عظمه وربما سمعت شهادة فلاسفة أوروبا في ذلك .
فيا ليت شعري أي قدرة عملت هذه ، وأي علم نظمه وأي سر أودع فيه ،
وأي كيفية تم بها .

١١- فإن كان لا يدهشك أصل وجود الأشياء من العدم فليدهشك
ما فيها من الأسرار وتنوعاتها وكيفية تأثيرها التي لا نعلمها ولا نحسن
منها إلا بقدره تعلو عن العقول . ولست أدري أي سر أودع في بذرة
التوت حتى أوجدت لك الشجرة الضخمة ونرعت أوراقها وثمارها دون
شجرة الفول الذي هو أكبر من بذرة التوت بأضعاف كثيرة ، وأي
سر أودع في المعدة حتى صيرت تلك الأشياء الجامدة الغليظة الميتة
دماً حياً يجري في مجاريه المختلفة إلى القلب ثم يرجع إلى أطراف البدن
ست عشرة مرة في الدقيقة .

ولئن عرفنا تركيب الأشياء فلا ندرى كيف تألفت ولا كيف
أثرت . ولا كيف تظهر عنها نتائجها . أفلا تدهشك تلك الأسرار

فتستدل بها على قادر عظيم لا ندرى ما هي الأسرار التي أودعها ونوعها ولا نعلم كيف يفعل . فكما تنزهه في ذاته أن تدركه العقول كذلك تنزهه في فعله عن أن نعلم كيف يكون ، فهل أودعت الأشياء هذه الأسرار في أنفسها ، وكيف ذلك ! ؟ وهل نوعتها إلى تلك الأنواع التي لا يحيط بها محيط وباينمت بينها وخصصت كلاً بكل . الخ الخ ؟ وليت شعري كيف ذلك وهي الصماء البكماء بل الجماد الميت .

١٢ - بل نقول : كيف نعقل وجود المادة ، هل ترى - أيديك الله - أنها وجدت من غير شيء وأودعت تلك الأسرار المتنوعة التي تخرج عن نطاق العد ؛ بل التي لانهاية لها من غير شيء اللهم إن ذلك كانه باطل بالبداعة ولا يتجرعه ولا يكاد يسيغه إلا مجنون فسد عقله أو بطلت إنسانيته وضاعت فطرته التي فطر الله الناس عليها . أن نقول إن ذلك كانه قد وجد بأصله وأسارده وحكمه ونظامه بالصدفة كما يقول أولئك المجانين .

وأنت لا تجيز إذا رأيت قصراً مشيداً مشتملاً على ترتيب عجيب ونظام غريب كل شيء فيه لغرض من الأغراض وسر من الأسرار أن يكون قد وجد بالصدفة . بل لا تجيز أن يوجد أقل شيء بالصدفة . بل نرجع بك إلى أصل وجرد الأشياء من العدم فإن كنت تجيز الصدفة في ذلك كله ويهضم ذلك عقلك فقد سقطت مكالمتك .

وبعد : فتباً لمن عمى عن رؤية شمسهِ تعالى المشرقة على جميع الموجودات وباهر آياته التي ملأت الأرضين والسموات ثم ينسب ذلك لعلم الطبيعة زوراً وهتاناً .

وقد قال « باكون » وهو من أساطين علم الطبيعة : من أخذ علم الطبيعة
رشفاً بأطراف الشنمأه ألحد ومن شربه عبأً أو صله إلى الخالتي .

وقال الفيلسوف الكبير « سبنسر الإنجليزى » : ليس الغرض من
علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التي يعرفها تلاميذ المدارس ؛ بل الغرض
أن يوقفنا على ذلك الجسر الذي نستشرف منه ما وراء الطبيعة ، وما أجدنا
في هذا المقام أن ننشر قول القائل :

يامن تفلسف كى يؤيد كفره مع أنه لم يدركنه وجوده
خسرت بسوق الفضل صنفقة جاهل تخذ العلوم ذريعة لوجوده
أو نقول ما قال غيره :

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كنه
أن من يعرف شيئاً يدعى أكثر منه
ولنقف هنا اليوم :

* * *

أسمعناك من دلائل الإلهية وآيات الربوبية ما يندرج به الصدر ،
ويتضح به الأمر ، على نهج ما تفنن فيه كبار الفلاسفة قديماً وحديثاً
سالكين في ذلك طريقة القرآن من الوضوح والبيان ، وسنسمعك اليوم
ما يزيد به إيمانك ، ويتم به إيقانك ، إن شاء الله .

ولا غرو فهو أجل المطالب وأعظم الرغائب ، فأقول وبالله التوفيق :
إن رقيق الوجدان كلما لمس شيئاً أو نظر إلى شىء أحسن بوجوده
الله عز وجل ، وكان شيئاً يضرب على أوتار قلبه الحساسة فتشاهده

روحه من وراء ستر ذلك المنظور أو الملموس فاعله الذى أثر فيه ، ومبدعه الذى تجلى بين خوافيه ، لأن الروح الإنسانية لا تعقل أثراً بلا مؤثر ، ولا نظاماً بلا منظم ولا حكمة بلا حكيم ، ولا سرّاً بلا عليم ، بل وجود الله عز وجل عند الإنسان الذى لم تفسد إنسانيته من أول ما غرس فيه ، فهو أوضح بدهياته ، وأول أولياته ، متى أحس بروحه أحس به ، لأنه لا يعقل وجوده بنفسه ، فهو مقترن بوجوده ، والإحساس به ملازم للإحساس بنفسه ، ولا يمكن أن ينطوى ذلك منه وإن كان ينفل عنه « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » (١) . « أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْمُخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِلَا لَآيُوقِنُونَ » (٢) . « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » (٣) .

إحساس بين أعماق القلوب وطوايا النفوس ، أقرب إليها من الإحساس بأجسامها لأنها أجنبية عنها يجوز ألا تحس بوجودها كما لا يحس الأجنبي بالأجنبي ، وأما وجودها فلا يمكن أن تغفل عنه ، ومع وجودها وجوده ، وفي أعماقها فيضه وجوده ، وفي أحداقها النظر إليه ، ومركزه في طبيعتها التعويل عليه حتى من الكافرين : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا » (٤) . « وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا » (٥) . وسر ذلك أن طبيعتها معجونة

(١) سورة لقمان : آية ٢٥

(٢) سورة الطور : آية ٣٥ ، ٣٦

(٣) سورة آل عمران : آية ١٩٠

(٤) سورة يونس : آية ١٢

(٥) سورة الإسراء : آية ٦٧

بمعرفة واللبجاء إليه ، والإحساس به مفاض عليها من نوره بحيث يجعلها تذهل عن نفسها ولا تذهل عنه ، فحياتها في الحقيقة بأنسه ، وفرحها ليس إلا بنور قدسه ، فلا يمكن أن يفارقها إحساسه ، أو يزاولها إيناسه ، ولكن الناس نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فبقهره وعظمة قدرته أذهلهم عنه وأبعدهم منه ، فسبحان من يحول بين المرء وقلبه ، ويضع الحجاب بينه وبين ربه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد . غاية الأمر أن الأوهام البشرية والخيالات الجسمانية التي لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تتصور غير المكيفات ، ولا تعقل غير المحدودات ، ولا تفهم غير المتشكلات المحصورات ، أرادت أن تعرفه على نحو ما عرفت به مألوفاتها ، وهي لا تعرف إلا ما كان محددًا مقيدًا ، وهو يعلو عن التحديد والتقييد ، فأرادت أن تحصره وهو لا ينحصر ، وأن تكيفه وهو لا يتكيف ، وأن تقيده وهو لا يتقيد ، وأن تنهيه وهو لا يتناهى ، فنخر منها وبعد عنها ، فلم تقع عليه ولم تصل إليه ، ونادى منادى العزة : إنك أيتها العوالم السفلية قاصرة عن درك علاه ، أو بلوغ أسنائه ، أو معرفة مداه ، فليس فيك صلاحية لذلك ، ولا خلقت قابلة للمألوهنالك ، فلك حد مرسوم ، ومقام معلوم ، فكما أن العين لا تدرك الهواء وهي واقفة مع رقتها على ما حد لها من درجتها ، كذلك الخيال لا يرتفع عن درجة المحسوسات ، ولا يعلو إلى أفق الروحانيات ، أو مجال عليه ، أن يعرف رب الأرض والسموات ، الذي جل عن الكيفيات أو علا عن القياس وتنزه عن إدراك الحواس .

ولكن فيها أيها الإنسان علماً يعرف التنزيه ، ولا يقف عند التشبيه ؛
فيمكنه أن يستلمع شعاع تلك الأنوار ، ويرى عظمة سرادقات الملك
القهار ، ويلمح بوارق تلك الحضرات ، ويكتحل بججمال تلك
الإشراقات .

وأما أنت أيتها العوالم السفلية فليس مقرك إلا عالم التحديد ؛
وليس لك من هذا المقام إلا صفة العجز والتقليد ؛ فقلدى الروح فيما
توحيه إليك وتلقيه عليك ، فهى التى تعرف وتتعرف ؛ وتسجد
وتقترب ؛ فليعرف كل عالم من عوالمك قدره ولا يتجاوز طوره ؛ فإن
طلبت أن تعرف عوالمك السفلية فقد طلبت أن تحدده ، والمحدود
لا يكون إلَّهَ للأشياء ، بل يكون له ما لها ، وعليه ما عليها ، وما هى
إلا نزعة عباد الأصنام وإسراء الأوهام .

ولعمري لو رجعت إلى نفسك ، ولم تتقيد بمآلوفات حسك ،
لوجدتها أول البدييات ، وأوضح الواضحات ، لا تحس بوجودك
إلا أحسست بوجوده ، غير أنك لا تعرف التحديد ولا تقع عليه
بالتكليف وإلَّهَ يجب أن يكون كذلك ، وإلا لم يكن إلَّهَ كما قلنا ،
بل أقرب لك الأمر بأن روحك وهى التى أمدتك بكل شئ ، وأفاضت
عليك كل شئ ، ولست شيئاً إلا بها بل ما أنت إلا هى ، ومع ذلك
لا تعرفها ولا تحيط بها لمزيد لطافتها ، وخروجها عن عالم التقيد
والتكليف : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ
مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

فما بالك تطمع في إدراك اللطيف القدوس الذى فوق كل شيء
وما يمثله شيء؟ جل أن تشببه الملائكة أو تماثله الروح « سبوح قدوس
رب الملائكة والروح » ، بل أنزل بك إلى ما هو أقرب من هذا ، فإنه
لا يمكنك أن تعرف عالم الجن فإنك لا تستطيع أن تعرفه ، بل لديك
من الماديات التى بين يديك وتحت أمرك وتصرفك ما لم تصل إليه
ولم تعرف كنهه . مثل الكهرباء والسر المودع فى المغناطيس إلى غير
ذلك من أسرار الطبيعة التى أودعها الله فى المادة ولم يعرفوا إلا ظواهرها ،
لا حقائقها ، بل لم يعرفوا حتى الآن ما هى المادة وما حقيقتها ، إلى
آخر ما قرره العلماء من مواقف العقول التى خروا لها ساجدين ، وظلموا
أمامها مبهورين ، مع كونها من العالم الكثيف لا من العالم اللطيف ومن
الماديات لا من الروحانيات ، فما أجدرنى أن أنشد قول الغزالي :

قل لمن يفهم عنى ما أقول قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه قصرت والله أعناق الفحول

هذا وما تدركه القلوب وتشاهده البصائر أكبر من كل ما يقال ،
ومن ذاق نور الوجود الحق بوجوده وأدرك الأمر من أصله فهو غنى
عن البيان ، ومن وصل إلى حد العيان فلا حاجة به إلى البرهان .

وعلى كل حال فنطاق التعبير قصير مهما بالغ صاحبه ، فارجع
إلى نفسك تجد الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحسن ، وإذا
عرفت الأمر من نفسك وجدت كل شيء بعد ذلك أكثف من ذلك
الوجدان ولا معنى لأن تطلب شيئاً تجده فى نفسك وتحس به فى أعماق
قلبك ، ومن كان فى أصل الشجرة فلا معنى لأن يستدل بأوراقها

عليها ، بل يعرف أوراقها وعضونها وثمارها وخواصها التي هي ظلها
ومستمدة منها ، ولا قوام لها إلا بها ، مما يشاهده عياناً ووجداناً من
أصل تلك الشجرة التي يحس بها مغروسة في نفسه وبين أعماق قلبه ،
وإذا كان الشيء أقرب الأشياء إليك وأخذت تبحث عنه من بعيد كان
ذلك سبباً في عدم وصولك إليه لا في عشورك عليه .

ولا بأس أن نذكرك بما قلناه في بعض ما كتبناه : إن الحمار إذا
ضربه ضارب ، التفت لينظر الضارب لأنه لا يجوز أن يوجد ضرب
بلا ضارب . فمن أنكرو وجود الله وهو يشاهد آثار صنعته ومظاهر
قدرته وبدائع حكمته ، فهو أجهل من الحمار ، الذي لا ينكر المؤثر
مع وجود الآثار .

وقد قال لي يوماً بعض أذبيال الماديين : بماذا تردون على الطبيعيين
الذين لا يقولون بشيء وراء المادة ؟ فقلت له : إن الرجل العاى المسلم
يمكنه أن يفهم أساطين الماديين فضلاً عن العلماء والفلاسفة من الموحدين
فإن ما يشاهده ذلك العاى من حوادث الجن التي يعرفها حق المعرفة ،
وقد شاهدها مراراً تخرق كل نواميس المادة التي يقدها الماديون
ولا يشبتون شيئاً وراءها .

وقد جاء في أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه العبارة :
« ليست الفكرة الواحدة إلا اتحاداً يشبه اتحاد حمض « الفوسفوريك »
والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذي هو في تركيب المخ . فرد عليها
العلامة الشهير « كاميل فلاريون » قائلاً : من أخبركم بذلك

يا حضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلمكم يعلمونكم هذه الهديانات مع أن الأمر بخلاف ذلك ، لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباءً منثوراً . على أنى لا أدرى أى الأمرين يستحق أن يتعجب منه أكثر : أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم ، أم من سخافة ادعاءاتهم ؟ « إن نيوتن كان يقول : « يظهر لى » وديكرت كان يقول : إني استنزل حلمكم فى هذه الفروض ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت ، نحن ننكر ، هذا موجود ، هذا غير موجود ، العلم قد حكم ، العلم قد أقر ، العلم أدهض ، مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى . إالى أن يقال : إنكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل ، ولئن سمعكم العلم أيها السادة لقد حق له أن يضحك استهزاءً من غروركم ، إلى آخر ما قال .

ولنختم كلمتنا هذه بقول الله عز وجل : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(٢) . فانظر لنفسك وأشفق عليها ، فإن الأمر والله جليل (إِنَّ أَحْسَنَتْكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)^(٣) .

ولنقل من كل قلوبنا : اللهم يا من ليس فى السماء من قطرات ، ولا فى الأرض من حبات ، ولا فى هبوب الرياح من ولجات ،

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة ق ، الآية ١٦

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٧

ولا في قلوب الخلق من خطرات ، ولا في أعضائهم من حركات ،
ولا في أعينهم من لحظات ، إلا وهى لك شهادات ، وعليك دلالات ،
وبربوبيتك معترفات ، وفي قدرتك متحيرات . فأسألك يا الله بالقدرة
التي تحير بها من في الأرض والسموات ، أن تملأ قلوبنا يقينا ، وأن
ترزقنا حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربنا إلى حبك وأن لا تكلنا
إلى أنفسنا ظرفة عين بمنك وكرمك .

* * *

رأينا بمناسبة نشاط المبشرين في هذه الأيام ببلادنا المصرية ،
أن نناقشهم مناقشة منطقية في معتقداتهم أولا ، ثم ندخل معهم فيما
شأنوا من الأبحاث بعد ذلك ، ولم نر أنسب لذلك من تفسير سورة
الإخلاص ، إذ هي سورة التوحيد التي ترد عليهم رداً صريحاً يؤيده
العقل والمنطق ، مبينة أنه تعالى (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ) . أما المسيحيون فيقولون : إن ابن الله نزل جنينا إلى بطن
امرأة آدمية ، وجرت عليه الأحداث البشرية والكوارث الذنوبية ،
ثم صلب أخيراً .

ولندع محاورتهم اليوم في هذا وهو من البداهة بمكان ، ولكن
نرد عليهم بما جاء في الإنجيل نفسه من النصوص الصريحة التي تنطق
بإنسانية المسيح ، حتى يعلموا أنهم خالفوا المعقول والمنقول .

فنقول وبالله التوفيق : قد أوجبتم الأبوة الإلهية للمسيح لكونه
لا أب له من البشر ، فلم لم توجبوها لآدم مع أنه ليس له أب ولا أم

كما يصرح به التوراة والإنجيل؟ أليس من الواضح عند ذوى العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابناً لله تعالى، لزم بالأولى ألا يكون عيسى ابناً لله تعالى لعدم الأب فقط؟ أليس هذا مصادمة للقياس الأولوى عند كل عاقل؟

ولندع هذا الآن ولنقل: ألم يبلغكم - وهو في إنجيل لوقا - أنه قال: «إنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف يقبلونى؟» فصرح بأنه من الأنبياء عليهم السلام. وفي إنجيل متى: أن رجلاً أقبل على المسيح وقال له: أيها المعلم الصالح: أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة؟ فقال المسيح «لم قلت لى صالحاً؟ إنما الصالح هو الله وحده». وإذا كان لم يرض أن يلقب صالحاً فهل يسوغ المنطق أنه يرضى أن يلقب إلهاً مع تصريحه بأنه غيره؟

وفي الإنجيل أيضاً: أن اليهود لما أرادت القبض عليه رفع بصره إلى السماء وقال: «قد دنا الوقت يا إلهى فشرفى إليك واجعل لى مبيلاً». وفي إنجيل لوقا: أنه حينما أحيا الميت بمدينة «ثائم» عندما رحم أمه أشد حزنها عليه فقالوا: أن هذا نبي عظيم. وهو تصريح بنبوته لا يقبل الجدل. وفي إنجيل يوحنا: أن عيسى قال لليهود: «لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئاً لكننى أحكم بما أسمع لأنى لست أنفذ إرادتى بل إرادة الذى بعثنى».

فهل ترى أصرح من ذلك فى الاعتراف بأنه عبد مربوب قد بعث من قبل سيده؟ وفي إنجيل يوحنا: أنه أعلن صوته فى الهيكل وقال

لليهود « إنني لم آت من ذاتي ، ولكن بعثني الحق وأنتم تجهلونني ، وأنا أعلم أني مند وقد بعثني » .

فها هو ذا قد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود ، وقال إنه لم يأت من نفسه ولكن الله بعثه ، فما زاد في دعواه شيئاً على ما ادعاه غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وفي إنجيل يوحنا : أنه قال لليهود :

« إن كنتم بنى إبراهيم فاقفوا أثره ولا تريدوا قتلي ، وما قلت لكم إلا الحق الذي سمعته من الله » .

قالوا : لدينا أولاد زنا إنما نحن أبناء الله ، فقال : « لو كنتم أبناء الله لحنظتموني لأني رسول منه خرجت مقبلاً ولم أقبل من ذاتي ولكن هو بعثني لكنكم لا تقبلون وصيتي وتعجزون عن سماع كلامي إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته » .

وفي إنجيل يوحنا : « أنه كان يمشى في ديوان سليمان فأحاطت به اليهود وقالوا له : إلى متى تخفي أمرك ؟ إن كنت المسيح الذي ننتظره فأعلمنا بذلك » .

ولم يقولوا : إن كنت الله . لأنهم لم يعلموا من دعواه ذلك .
أولاً اختلاف عند اليهود أن الذي ينتظروه هو انسان نبي وليس بإله كما تزعمون .

وفي انجيل يوحنا : أن اليهود قالوا لكبير من أحبارهم (نقودمسي) : اكشف الكتاب تر أنه لايجي من الجليل نبي «فما قالت

اليهود ذلك إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبي فقط . ولو علمت منه ادعائه الألوهية لشنعوا عليه وهاجوا عليه العامة تقبيحا له وتحريضا على قتله .

وفي إنجيل يوحنا : الإصحاح ٨ العدد ٤٠ « ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله » . فاعترف بأنه إنسان يسمع من الله ، ولم يقل أنه هو الله . ورسالة تيموثاوس الأولى الإصحاح الثاني العدد ٥ : « لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح » .

وفي انجيل يوحنا أيضا : « لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني » .

وفي انجيل متى : « ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم وقال لإيلي إيلي لم شبقتني ؟ أي إلهي إلهي لما تركتني » . وفي صحيفة ٥٠ أيضا « صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح » .

وفي انجيل لوقا مانصه : « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال : يا آبتاه في يدك أستودع روحي » . وكثير من هذا في الأناجيل يطول ذكره . ولو تتبعنا كل ماجاء في ذلك لطال المقال واتسع المجال .

ولست تشك في أن هذه النصوص تنفي ألوهية المسيح رأسا وتفتلح جذور تلك العقيدة اقتلاعا ، فإنه لا ريب أنك إن سمحت نفسك بالانقياد إلى الحق وخلعت لباس الهوى أيها المسيحي المنصف ، علمت أن ذلك من أول البدهيات وأوضح الواضحات .

ويمكننا بعد هذا أن نناقشكم معشر النصارى فى عقيدة الصلب
أيضا مستندين إلى النقل من كتبكم ، محتكمين إلى مايقضى به
الدليل الواضح بالمنطق الصحيح فنقول :

جاء فى انجيل لوقا : « أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل
الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا ، فبينما هو يصلى إذ تغير منظره عما
كان عليه ، و ابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ، وإذا بموسى بن
عمران وإلياذ قد ظهرا له وجاءت سحابة فاظلتهم ، فوقع النوم على
الذين معه » : فإى مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع فى اليوم
الذى طلبته فيه ليهود ، ولكن اختلافتم فى نقلها كما اختلافتم فى نقل
غيرها ؟ وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم
على التلاميذ ، يكون حينئذ دليلا واضحا على الرفع إلى السماء وعدم
الصلب ، وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات .

وثانيها ما فى انجيل متى : « أن المصلوب قد استسقى فأعطوه خلا
ممزوجا بمر فداقه ولم يشربه ، فنادى إلهى إلهى لم خذلتنى » ؟ مع أن
الأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوما
وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ : إن لى طعاما لستم تعرفونه . ومن يصبر
على العطش والجوع أربعين يوما وأربعين ليلة ، لا يظهر الحاجة للماء
بسبب عطش يوم واحد .

وقد جاء فى التوراة أن الله خلق جميع ما للحية فى عصا موسى عليه
السلام ، وذلك أعظم من القاء شبه انسان على انسان آخر .

وانى أعجب لمن يصدق أن الله قلب العصا حية تسعى ، وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، إلى غير ذلك من خوارق العادات التي كانت للأنبياء ، كما في التوراة والإنجيل كقلب الماء خمرا مثلا ، كيف لا يصدق أن الله ألقى شبه عيسى على غيره بعد أن رفعه إلى السماء ؟

ولاشك أن الالتباس الذي وقع لليهود عند أخذه حتى دلهم عليه أحد تلاميذه وقال لهم : الرجل الذي أقبله فامسكوه ، وقال له رئيس الكهنة : أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟ لاشك أن هذا الالتباس العظيم مع تلك الشهرة العظيمة نحو ثلاثين سنة في المحاورات العظيمة والمجادلات العنيفة كلها تدل على وقوع الشبه قطعاً ، خصوصاً أن في الإنجيل أنه أخذ في حندس من الليل مظلم من بستان ، فشوهت صورته ، وغيرت محاسنه ، بالضرب والسحب وأنواع النكال .

ومثل هذه الحالة توجب الالتباس قطعاً ، فمن أين لكم أو لليهود القاطع بأن المصلوب هو عين عيسى عليه السلام ؟ والحق الذي لامرية فيه هو أن الأمر على ما قال الله تعالى : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً) ^(١) . وفي الإنجيل أيضاً أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود في صلبه فخرج اليهم عليه السلام وقال لهم : من تريدون ؟ قالوا : يسوع ، وقد خفي شخصه عنهم ، ففعل ذلك مرتين ، إلى آخر ما لانطيل به .

(١) سورة النساء ، الآية ١٥٧

سُورَةُ الشَّمْسِ ﴿١﴾

رأينا بعد تفسير سورة الإخلاص أن نشرع في تفسير (الشَّمْسِ) وُضَحَاهَا) تكون هذه الآيات الكونية التي ذكرت فيها كالدليل لما ذكر في سورة الإخلاص من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أً-ند ، مع بيان ما اشتملت عليه من الفوائد الجليلة ، من طلب تزكية النفوس ، والتحذير من سلوك طريق المكذبين لرسولهم « كشمود » إلى آخر ما سنقف عليه إن شاء الله تعالى .

ولنقدم قبل ذلك مقدمة ينتفع بها القارئ ويخضع لها السامع فنقول : ادلم أن القرآن هو البحر المحيط الذي يتشعب منه علوم الأولين والآخريين إلا أن سر القرآن الأصفى ومقصده الأسمى ، هو دعوة العباد إلى اجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى ، وما بينهما وما تحت الثرى .

وإذا نظرت بنور البصيرة التي لم تتراكم عليها الظلمات ولا أفسدتها الآفات ، لم تر في الوجود غير الله وأفعاله ، التي تقرأ فيها حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، ورحمة ليس لها غاية ، وأسراراً ليس لها نهاية .

وقد أكثر القرآن من لفت نظرك إلى تلك الآيات التي امتلأت بها الأرضون ولسموات ، وقد تفنن فيها القرآن تفنناً يستولى على

العقول ويأخذ بمجامع القلوب ، فتارة يأمرك بالنظر فيها على سبيل الإجمال فيقول : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ^(١) ، ويقول (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ^(٢) . وليس يخفى عليك أن الآية الكريمة تشير إلى أن من لم يتفكر في ذلك فليس من قوم يعقلون .

وتارة يلفت الأنظار بالثناء على المتفكرين فيها ، فيجعلهم من أولى الألباب الذين أُمِر لهم ذلك التفكير ذكر الله في جميع أحوالهم ، فيقول : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(٣) .

وتارة يلفت الأنظار إليها بالإقسام بها فيقول : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا...) إلى آخره .

وتارة يبين بها ما لله تعالى من عظمة ورحمة وكرم وعناية بخلقه ، وفي الوقت نفسه هي دلائل واضحات وآيات بينات تقسر القلوب على الالتجاء إليه ، والتوكل عليه ، والغرق في توحيده وتمجيده .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠، ١٩١

ولا بأس أن نتلو عليك بعض ما جاء في ذلك حتى تعرف الفرق بين تلك الأدلة المظلمة التي تعرفها في كتب الفلاسفة والمتكلمين من المتقدمين والمتأخرين ، حتى تقول بلسان حالك ومقالك : هذا كتاب لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد فانظر إن شئت إلى مثل قوله : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)^(١) ونوله : (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)^(٢) وقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)^(٣)

واعلم أن القرآن من عادته زيادة التقرير والتكرير ، علماً بما عليه الإنسا، من الجهل العميق والحجاب الغليظ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٤) فتراه يكرر ما تقدم بأسلوب آخر مع زيادة بيان وتوسع في البرهان فيقول : (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . ذَلِكَمُ اللَّهُ فَانَّى تُوفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١

(٤) سورة الملك ، الآية ١٤

يفقهون . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ .
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا . وَوَنَ النَّخْلَ مِنْ طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ . وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ . وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ . انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ : إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ^(١) إِلَى أَنْ قَالَ : (ذَلِكَُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ فاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ^(٢)) .

ثم يقول في السورة نفسها : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ
وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ)^(٣) . . . إلخ . ويقول : (إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ
النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا . وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ . تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)^(٤) ويقول : (وَهُوَ
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ)^(٥) . . . إلخ . ويقول : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ
ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)^(٦) إِلَى
أَنْ قَالَ : (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)^(٧) . ويقول : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ . وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
الْبَطْنِ)^(٨) .

(١) سورة الأنعام ، الآيات من ٩٥ إلى ٩٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٤١

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٤

(٥) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٦) سورة يونس ، الآية ٥

(٧) سورة يونس ، الآية ٦

الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ . وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .
فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (١) .

ولما كانت هذه الدلائل واضحات يتعجب معها من كفر الكافرين
وجحود الجاحدين ، أزال ذلك ببيان سره الراجع إلى تقديره الذي
لا يغالب فقال : (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ) (٢) .

ولنرجع إلى ذكر آيات التوحيد ودلائله فنقول : (اللَّهُ الَّذِي
رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ . وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْهَارًا . وَمِنَ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنَيْنِ . يُغْشَى اللَّيْلَ
النَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٣) . (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) (٤) (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ
لِوَاقِحٍ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) (٥)
ويقول : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَالْأَنْعَامَ

(١) سورة يونس ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٢) سورة يونس ، الآية ٣٣

(٣) سورة الرعد ، الآيتان : ٢ ، ٣

(٤) سورة الحجر ، الآية ١٩

(٥) سورة الحجر ، الآية ٢٢

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ^(١) . إِلَىٰ أَنْ قَالَ :
(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٢) .

إلى أن قال : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ
شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ . إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)^(٣) ويقول : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةً . نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا
لِّلشَّارِبِينَ)^(٤) . ويقول : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوِنَا آيَةَ
اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السَّنِينَ وَالْحِسَابَ)^(٥) (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ . قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي
أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ)^(٦) إلى أن قال في وصفه تعالى :
(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا . وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ)^(٧) . ويقول : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً . إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)^(٨) .

(١) سورة النحل ، الآيات ٥٤٤ (٢) سورة النحل ، الآية ٨

(٣) سورة النحل ، الآيات من ١٠ إلى ١٣

(٤) سورة النحل ، الآية ٦٦

(٥) سورة الاسراء ، الآية ١٢

(٦) سورة طه ، الآيات ٤٩ ، ٥٠

(٧) سورة طه ، الآيات ٥٣ ، ٥٤ (٨) سورة الحج ، الآية ٦٣

ويقول : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً . فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً . فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِطَافًا . فَكَسَوْنَا الْعِطَافَ لَحْمًا . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)^(١) . ويقول : (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)^(٢) . ويقول : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)^(٣) .

إلى أن قال : (وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)^(٤) ويقول : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)^(٥) . ويقول : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ بَعْدٍ فَفِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)^(٦) . (وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)^(٧) . (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ - وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ

(١) سورة المؤمنون الآيات من ١٢ - ١٤

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥٣

(٣) سورة فاطر الآية ٢٧

(٤) سورة فاطر ، الآية ٢٨

(٥) سورييس ، الآيات من ٧١ - ٧٣

(٦) سورة الزمر ، الآية ٦

(٧) سورة الشورى ، الآية ٢٨

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ^(١). (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
 وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)^(٢). (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ .
 وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(٣). (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا
 فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ
 آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)^(٤) . ويقول : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ
 السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)^(٥) . (أَلَمْ تَرَوْا
 كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ
 الشَّمْسَ سِرَاجًا)^(٦) . (أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ
 نُطْفَةً مِّن مَّنًى يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ
 الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)^(٧) .

وقد ذكر في سورة الروم عدة آيات واضحة فقال : (يُخْرِجُ
 الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
 إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا)^(٨) . ثم قال : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِذَافُ
 السِّنِّيَّتِكُمْ وَالْوَالِيَّتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ

(١) سورة الجاثية ، الآية ٤٣ ،

(٢) سورة ق ، الآية ٦

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٠ ، ٢١

(٤) سورة الرحمن ، الآية ١٠ - ١٣

(٥) سورة المؤمنون الآية ٧٨

(٦) سورة نوح ، الآية ١٥ ، ١٦

(٧) سورة القيامة ، الآية ٣٦ - ٣٩

(٨) سورة الروم ، الآية ١٩ - ٢١

مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ^(١). (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ
الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا)^(٢). (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)^(٣)
(أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ)^(٤) الخ الخ .

ولنقتصر على هذا وهو قليل من كثير . وقد قال بعض فلاسفة
أوروبا : يكفيني من آيات الله أنه خلق الأنثى بجانب الذكر ،
ومتعها بخصائص ليست فيه ليم ما أراد منها . (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٥) . فقارن
بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان .

عظم والله البرهان ، وامتلاً الوجدان ووصل إلى حد العيان ،
وليس بعد العيان بيان .

وقد رأينا أن من المناسب جداً لهذا المقام أن نذكر لك شيئاً
مما قاله المتخصصين عن سعة العالم لتعرف بذلك شيئاً من عظمة الله تعالى
وتقول ما قاله صلى الله عليه وسلم : « سبحانك لانحصى ثناءً عليك
أنت كما أثنيت على نفسك » .

ولنسمعك بعض ما قال أساطين علم الطبيعة بأوروبا في ذلك الموضوع

(١) سورة الروم ، الآية ٢٢، ٢٣

(٢) سورة الروم ، الآية ٢٤

(٣) سورة الروم الآية ٢٥

(٤) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٦

حتى تعرف أن الملحدّين ببلاذنا كذبوا على علم الطبيعة الذى لم يأخذوا منه إلا قشوراً ، فتشددوا بها وكانوا قوماً بوراً .

ولنبداً بقول باكون : « من أخذ علم الطبيعة رشفاً بالشفاه كان ملحداً ، ومن شربه عبياً أوصله إلى الخالق » .

وقول سبنسر : « ليس الغرض من علم الطبيعة أن نعرف تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس ، بل الغرض الأسمى أن نقف على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة » .

ولقد صدق ، فالأرض مملوءة بالآيات ، فانظر ترى الأرض يابسة فما أسرع أن تكسى جلابيب سندسية ، وتفرش أنماطاً ملونة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون وتعطيكم مابه تتداوون ، ثم هى مهاد لكم عليها تنامون ، وجمال لكم فى رياضها تتنزهون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء به تستشفون ، وجعل السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان والهواء بينهما يحمل الأضواء ييزجى السحاب ، (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)^(١) . (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٢) .

ولعمر الحق أن هذا النظام البديع ليدل على قدرة باهرة أوجدته ، وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

أما سعة العوالم فنقرّبها إليك ببيان سير النور وما يقطعه من المسافات بالنسبة إلى الكواكب المختلفة ، فنقول : إن النور يسير فى الثانية

(١) سورة النور ، الآية ٤٣

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢

الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، فاضربه في الدقيقة ثم في الساعة ثم في السنة إلى آخر ما تستمع ، فهذا النور الذى عرفت سيره السريع يصل إلينا من الشمس في ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض إلى الشمس ليلاً ونهاراً لم يتمكن من وصوله إليها في أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة ، فماذا تقول إن قلنا لك : أن الشعري العبرر لا يصل ضوءها إلينا إلا في ٩ سنين نورية ، والنسر الطائر لا يصل ضوءه إلينا إلا في ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع في ٣٠ سنة ، والعيوق في ٣٢ سنة ، والسمك الرامح في ٥٠ سنة ، إلى أن يصل خمسمائة سنة وألف سنة ، وأكثر من ذلك على ما بينوه .

ولذلك يذهب بعضهم إلى أن العوالم لانهاية لها ، وإن كان علماءنا لا يقولون بذلك بناءً على أدلتهم العقلية التى تراها فى كتب التوحيد الفلسفية .

ومجموع الذى علمه نوع الإنسان إلى الآن ٢٢٤ مليوناً من النجوم على ما يقولون .

ولتعلم أن من النجوم ما هو أشهر من شمسنا بكثير . حتى قالوا إن الشعري تفوقه بخمسين مرة ، وبنات نعش تفوقها بنحو ثلاثمائة مرة ، والساكين يسوقانها بنحو ستمائة مرة ، وإنما يظهر نور هذه النجوم لنا ضئيلاً لشدة بعدها عنا ، وقد عرفت ما يقطعه النور فى الثانية الواحدة فماذا عسى أن يكون ما يقطعه النور بسيره السريع فى تلك المدد المتطاولة التى يحتاج إليها فى وصوله إلينا ؟ .

فسبحان الكبير المتعال الذى تقصر العقول عن درك كماله ، وتخضع السموات ومن فيهن لعظمة جلاله .

ذكرنا لك أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الأنفس والآفاق
علوية وسفلية ، وأنه يتمنن في ذلك تفنناً عجيباً ، فتارة يقول : (إِنَّ فِي
اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ) (١) ، وتارة يقول : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (٢) ، وتارة يقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ
إِلَى الْإِبْرِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (٣) .

وتارة يقسم بتلك العجائب التي غفل الناس عن النظر فيها والتأمل
في خوافيها ، فهم يمرّون عليها وهم معرضون كما في الآية الكريمة .
ولو تأمل الإنسان في ذلك قليلاً لامتلاً قلبه إيماناً ونفسه إيقاناً ،
ولو وجد من ذلك لذة صافية لا تشبهها لذة ، ونعيم روحانيا لا يقاربه
نعيم ، ولكن الناس محبوبسون في سجن الماديات هائمون في أودية
الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون (وَإِنْ تَطَّعْ
أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (٤) .

وقد رأيت كلاماً ممتعاً في هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين
نظروا وفكروا ، نسوقه إليك لتعرف الفرق بينهم وبيننا معشر
المسلمين الذين ينادى كتابنا بأن في الأرض آيات للموقنين ، ويصل

(١) سورة يونس ، الآية ٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٣) سورة العاشية ، الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

من تعظيمها ولقت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك
أرباب النفوس الجامحة ، والعقول النائمة ، والقلوب القاسية التي
هي كالحجارة أو أشد قسوة ، فنقول :

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطباً لذلك الإنسان
الغافل عن عجائب الكون : « إنك أيها الإنسان لذاهل عن جمال القبة
الزرقاء ، فلم تراقب شفقاً ، ولا ساهرت بداراً ولا ساررت نجوماً ،
هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحيا ؟ وهل
اتفق لك أن جعت فاشتبهت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله
وآلائه بما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلال ومرعى ؟
ألا فاحمد ربك الذي برأك من لا شيء ، وأتى بك من العدم وأخرجك
من الظلمة إلى النور .

ويقول غيره : « ما الأرض إلا جنة أنزلت فيها آيات الجمال ،
ومجرد وجودنا عليها بينة البيّنات . ألا يذكرك ذلك قوله تعالى :
(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) (١) ،
وقوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الشَّمْرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٢) .

فأين ذلك الإنسان الرقيق الوجدان الذي يهيج حبه لله ، النظر
في آيات الله ، وما يقع عليه بصره من مخلوقات الله مما يثير عواطفه

(١) سورة الروم ، الآية ٢٠

(٢) سورة النحل ، الآية ١٠

ويهبج لواعجه . والنظر في آيات الله يوصل إلى معرفة عظمة الله ،
ويبعث على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحبور . وأن ذلك
ليسبغ علينا من آلاء الأفكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلي ،
ما يفوق كل ما تصبو إليه النفس من بهجة الدنيا وزخرفها . وشتان
ما بين لذة جسمانية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتحييه ، والبدر يطلع
ليناجيه ، والعصافير تغرد لتشجيه ، يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم
له ثغورها ، وتحدثه حديث تنويرها وتفتيحها ، وبالأشجار فتضحك له
أغصانها ، وترقص له أفنانها ، وتسرد على سمعه أنسابها وفصائلها
وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلانا عرف أطوارهم
وأخلاقهم ، فهي تضي وتحتفظ لها في نفسه تذكارات جميلة حتى تعود
إليه في أدوارها وأوانها العام التالي » إلى أن يقول :

« ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما ،
حوادث نادرة الطروء ، لأصبحنا مسحورين بجمال الفجر إذ تطفر
الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأمسينا مأخوذين بسناء الشفق
إذ تتوارى خلف البحار وحقا أن تلك الأشعة الذهبية التي تنبثق من
جبين الأفق صباحاً ومساءً ، كنز ثمين يفوق كنوز النضار ، وثروة
طائلة تسمو على ثروة الذهب الأبريز .

هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويعيشوا في أحشاء الأرض على
أوفر ما يكون من السعة والحبوحة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون
أرضاً مترامية الأطراف ، وخضماً متسع النطاق ، وفضاءً لا نهاية له ،
وغيوما متلبدة ، وسحاباً ممطراً ، ورياحاً عاصفة ، وبروقاً وامضة ،

ورعوداً قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة إلى مليكة النهار فيأخذهم
سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم عظمتها طالعة من أفق الشروق ،
فصاعدة في قبة الفضاء ، فمائلة إلى أفق الغروب ، إذ يمجون
لها مصباحاً واحداً ينير الفضاء على اتساعه ، ثم تنسدل سجوف الظلام
وتتراخي عليهم ستائره وحجبه فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الجاهل
ما سيكون : وإذا بنجوم وأقمار ظاهرة بعد الخفاء ، بادية بعد
الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متنقلة في أبراجها ،
جادة في سيرها حسباً تشاء نظاماتها ونواميسها التي رتبها حكمة
الحكيم العليم .

لامرأة أنهم يوقنون لساعتهم بوجود إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون
وطيدا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدي ذلك الإله
الخفي الأسرار ، العظيم الاقتدار ، الذي كان قد أتاهم نبؤه من قبل .

وإذا أطلنا هذه النظرة إلى الإنسان والطبيعة وما يكون فيهما من
العجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول النباتات والأوراق والأزهار
والأثمار والبزور خبزاً ولبناً وعسلاً . . . إلى آخر ما قال أولئك
الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا يتيسر استقصاؤه .

ولعلك عرفت بذلك كله سر الإقسام بالشمس والقمر ، وفهمت
عظمة ذلك التسم على ما يشير إليه قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ
النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (١)

ويحسن بعد هذه المقدمة التي هي لب المقصود ، أن نشرع في التفسير ، فنقول :

الواو في قوله : (وَالشَّمْسِ) واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ، على ما ستسمع . والمراد بضحائها ضروؤها مطلقاً ، أو وقت الضحى الذي يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لمعانها . وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى .

هذا وقد قال بعض المفسرين : إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضحاها وقد علمت أنه لا داعى لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بآرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسرارهِ ولاح لك قليل من أنواره ، على أنه سيقسم به تعالى في قوله : (وَمَا بَنَاهَا) الخ . وهو لا يلتئم مع هذا التقدير كما هو ظاهر .

ولا نزال نقول : إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التي لا نطبق لها شكراً ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فإن الناس بدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فإن كل شئ في هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لا بد له من الشمس .

وإن شئت فانظر إلى الناس في الليل نائمين وكأهم أموات ، فإذا ظهر أثر الصبح من المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة في الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل حتى تصل إلى كمالها وقت الضحوة .

وقد رأينا أن ننقل لك ما قاله اللورد « افبرى » فى هذا الموضوع ، فنقول : « الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا فنحو ٩٢٥٠٠٠٠٠ ميل ، هذا وإن هى إلا نجمة وليست هى فى عداد النجوم الكبرى .

وهناك مشكلة أخرى أعيا حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تنزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تفسن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لكفأها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفذ حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا و نارنا فقط ، بل هى محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضاً ، فهى التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوماً فى الجو ، وتنزلها أمطاراً على الأرض ، حيث تجرى جداول وأنهاراً تروى زرعنا ، وتنمى أغراسنا ، وتشير الرياح ، وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط ، وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما إلى ذلك . الفحم الحجرى إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تنتعش بحرارتها ، والأطيار تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحاً ، وبحرارتها وأنوارها تبرز النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار

وتنضج الأثمار ، فنحن مدينون للشمس بما أكلنا ومشربنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض .

ولنعرف هنا تالين قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا
مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(١) . وقوله تعالى :
(إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ
مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ
السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)^(٢) . (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَا)^(٣) .

* * *

سبق الكلام على قوله تعالى (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) . أما قوله
تعالى (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا) فنقول فيه : اختلف المفسرون في تلو
القمر للشمس على أقوال، وأظهرها ما قيل من أن المراد ظهوره عقيب
غروبها وذلك عندما يكون بدرًا ليلة أربعة عشر . وأقسم به في هذا
الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائع ، وحسنه البارع

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ ، ١٩١

(٢) سورة الجاثية ، الآيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة محمد ، الآية ٢٤

ولك أن تقول : إنه تلاها في الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك فكأنه شمس يلية تجلت بعد غروب الشمس النهارية . ويقول قائلون إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بعد الشمس من الكواكب ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس في عام كامل ، كذلك القمر يدور حول الأرض في كل شهر مرة . أما ظهوره هلالاً ناقصاً فبدرًا كاملاً ، فلكون نوره مستفاداً من نور الشمس وليس ذاتياً له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبه إليها قريباً وبعداً ولذلك ينكسف بالكلية عندما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف . والقمر من أكبر النعم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التي تيرث البهجة والسرور .

ثم قال تعالى : (وَالنَّهَارُ إِذَا جَآءَهَا) : يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نبرها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس في النهار ، فالإسناد مجابى كصام نهاره . وقيل إن الضمير يعود على الأرض ، أى جلى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بظلمة الليل فالضمير عائد على معلوم غير مجهول . ومثل ذلك قول من قال إن الضمير يعود على الدنيا . وقيل إن الضمير يعود على الظلمة المعلومة من المقام .

والمراد بتجليتها على هذا القول إزالتها . والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر ، ووز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر في

جلاها عائداً عليه تعالى ، كأنه قيل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس
فيه فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار في أكمل حالاته ولكنه بعيد
غير متبادر . ثم قال تعالى : (وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا) :

أى الشمس ، أو يغطي ضوءها . والكلام في الضمير المنصوب
على نحو ما سمعت في سابقه ، والأولى عوده إلى الشمس لا للأرض
ولا للدنيا على ما علمت . وجئ بصيغة المضارع في (يَغْشَاهَا)
إحضاراً للصورة العجيبة التي تأخذ بمجامع القلوب ، وتطير بالنفوس
إلى علام الغيوب . وحقا أن غشيان الليل المنهار لمن أبهر الآيات
وأعظم النعم المتواترات ، وكذلك مجئ النهار بعده . فسبحان الحكيم
العليم .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلَيَالٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (١) .

وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من في القبور .
وما أشبه حالهم عند الانتباه ووقت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم
(فَهَلْ مِنْ مَّدْكَرٍ) .

ولا بأس أن نقول لك : إن الأولى في (إذا) أن تكون منصوبة على
الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مضاف مقدر بعد واو

(١) سورة القصص ، الآيات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

القسم ، وكأنه قيل : أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلي برهانه .

ثم قال تعالى : (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا) : أى من بناها . وإيثار (ما) على (من) لإرادة وصف العظمة فى من بناها ، والجلال فى من سواها . وإذا أُريد ذلك كان المقام لما ، لا لمن ، كما هو مقرر فى محله ، فكأنه قيل : والقادر العظيم الذى بناها : على أن (ما) قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيراً . والمراد ببنائها إيجادها .

هذا ثم نقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملاً فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى ^١ إلا ويغض إجلالا وإعظاما .

انقضت العصور وتوالت الدهور والبشر معجبون مسحورون بجمال ^٢ القبة الزرقاء وجلالها ، يتطاولون إلى إدراكها بالخيال ، ويستنزلونها إلى الأرض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئاً إلا مشوباً بالأوهام ، وشبهها بالأحلام . والفضل الأكبر فى تقديرها ^٣ قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة فى شأنها ، إنما هو فضل ^٤ علم الفلك الذى عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الألوف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة وأكثر من سرعة النور الذى يسير فى الدقيقة ٩٢ مليوناً من الأميال . فهو الذى عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التى نوه بشأنها عز وجل فى مواضع كثيرة من القرآن .

ولنتل هنا قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(١). (أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ افْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)^(٢). (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)^(٣).

ولنقف هنا سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل :

يا خالق الخلق يا من لا شريك له طوبى لمن عاش بين الناس يهوا كما
والله ما أنست روحى ولا فرحت فى الدهر ما بقيت إلا بذكر كما
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا من فرط لطفك ربى كيف ينسا كما

* * *

(وَالشَّمْسُ وَضُمَّانَا ، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها ، وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ،
وَاللَّيْلُ إِذَا يَعْتَمَاهَا) :

قانا فيما سبق : إن القرآن له عناية كبرى بلفت الأنظار إلى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومزيد حكمته فتراه يقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)^(٤) ، ويقول

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٩٠ ، ١٩١ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٧

(٣) سورة يونس ، الآية ٦

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) ^(١)
ويقول : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي
فَلَكَ يَسَبِّحُ حُونَ) ^(٢) ، ويقول : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مَبْجُرًا) ^(٣) . وهذا كثير جداً في القرآن الشريف .

يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقدتها وينبه العقول من
غفلتها إلى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى
أدنى إلى الإنسان من النفس .

ولنذكر لك بعض ما قال العلماء في هذا المقام ، نحاول بذلك
تثبيت إيمانك ، وتتميم إيقانك ، فنقول : انظر إلى هاتين الآيتين
(اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) وما تضمنتا من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته
كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغطي العالم ، فتمسكن فيه الحركات
وتأوى إليه الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، لتستجم
فيه وتستريح من كد السعي والتعب ، حتى إذا أخذت النفوس
راحتها وسباتها ، واستعدت إلى معايشها وتصرفها ، جاء فائق الإصباح
سبحانه وتعالى بلنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة
ومزقها تمزيقاً . وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر
الحيوان ، وتصرف الإنسان في معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور
من أوكارها . فيأله من تدبير حكيم ، وعمل عظيم ولكن تكرر كل
يوم أسقط وقعه في القلوب فلم تنفعل به النفوس ، لأن كل ما كثرت

(١) سورة الفرقان الآية ٧ ؛ (٢) سورة الانبياء، الآية ٣٣

(٣) سورة غافر ، الآية ٦١

شاهدته ضعف التأثير به والالتفات إليه ، فسبحان من لا ضعف في قدرته ، ولا قصور في حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

بل نقول : إن من آياته الباهرة أن يعمى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الإنسان في الماء إلى حلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش » .

ثم تأمل بعد ذلك - رعاك الله - حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ، ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنئون بالعيش مع فقد النور ؟ ثم تأمل الحكمة في غروبهما ، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا فرار مع فرط الحاجة إلى النوم ، وجمود الحواس .

ومن البين أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم كما ينطفئ السراج عندما تذهب الحاجة إلى نوره ليقروا ويهدئوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم .

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى منبها عليه ، لافتا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ
اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ^(١) . وقال في السورة الأخرى :
(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا .
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا)^(٢) . فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يخلف الآخر ،
بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه أيضاً .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس في انخفاضها
وارتفاعها لإقامة الفصول الأربعة ، وما فيها من المصالح والحكم ، إذ
لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالِح الفصول الباقية
فيه ، فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع الشتاء ، ولو كان شتاءً لفاتت
منافع الصيف ، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ، ففي
الشتاء تختبئ الحرارة في بطن الأرض وأجواف الأشياء ، فتتولد
مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويستكثف الهواء ، ويكثر
السحاب والمطر والثلج والبرد ، وبذلك حياة الأرض وأهلها ، واشتداد
أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف
أما حللته حرارة الصيف من الأبدان :

وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيظهر
النور والزهر بالشجر ، ويتحرك الحيوان للتناسل . وفي الصيف يمتد
الهواء ويسخن جداً ، فتنضج الثمار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط

(١) سورة القصص ، الآيات ٧٢، ٧١ (٢) سورة الفرقان ، الآيات ٦١، ٦٢

التي انعقدت في الشتاء، وتغيب البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون ، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه .

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان، ووصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء ، لثلاث تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيعظم أذاه ، أما إذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

وتأمل حكمته تعالى في سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فإنه لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، ويكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء وهؤلاء . فاقترضت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ، ثم لاتزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها في أول النهار ، فيختلف عندهم الليل

والنهار فتنتظم مصالحيهم . ولنقف هنا والمقام مقام إطناب ، سالكين
في ذلك مسلك القرآن ، منشدين قول القائل :

وحدثني باسعد عنهم فزدتني شجوناً فزدني من حديثك ياسعد
مواهم هوى لا يعرف القاب غيرد فليس له قبل وليس له بعد

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاهَا
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) :

قدم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من
ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات إلى الله تعالى ، والاعتراف
بإمقدرته وعظمته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والتقدمات
على النتيجة وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق إلى جذب
العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء
كبرياء الصمدية .

وفي قوله : (وَمَا بَنَاهَا) إشارة إلى حدوث السماء وكل ما فيها ،
ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر
وتدبير مدبر .

هذا ، وعبر (بما) للإشارة إلى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم
يفعلون ذلك إذا كان الوصف عجيبي يريدون لفت النظر إليه . وكأنه
قيل والقادر العظيم الشأن الذي بناها ودل على وجوده وكمال قدرته
بناؤها والمراد ببناها إيجادها

وكذا الكلام في قوله تعالى (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاها) أى بسطها .
هذا وفي السماء آيات بينات ، وعجائب مدهشات . ويكفيك منها
أنها واقفة في الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا
عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفعها من تحتها
ومن البدهى أنه لا بد لها من مخصص يخصصها بجزء مخصوص
وسمك مخصوص ، لا بد لذلك من مخصص قادر حكيم عليم .

فإن قلت : إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبيعتها
وجبلتها على ما يقول الطبيعيون . قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم
فيه : من الذى طبيعتها على ذلك وأعطائها تلك الخصائص ؟ لاشك
أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل
دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شيء ثم هداه وهدى إليه
أفلا يجوز في العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن
إلا نحو الثمانين ؟ فمن الذى أوصلها إلى ذلك الحد ومتعها بتلك
الخصائص ؟

ولنعد إلى الكلام في السماء فنقول :

إن هذه الأجسام إنما وقفت في الجو العالى بقدره الله تعالى
وعظيم تدبيره . وإياك أن تصغى لحديث الجاذبية الذى يتشدد
كثير من العصريين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه المتخصصون
وعلى فرض تسليمها فخلقها في الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ،
لأن الممكن ليس له شيء من نفسه كما هو مقرر في محله ، فلا بد
أن يرجع الأمر أخيرا إلى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب

الأسباب (إليه يرجع الأمر كله) . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام في ذاتها قابلة للحركة والسكون، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بدله من فاعل مختار، فضلا عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها إلى حيز مخصوص . وليس يخفى عليك بعد ذلك أن قطعها الفلك في مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجائب الذي لا يمكن تعليله بسبب . وليت شعري ما الذي أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية وبعضها إلى الشمال وبعضها إلى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطيء .

وإجمال القول أنك إذا نظرت في اختصاص كل شيء من هذه العوالم الفدائنة الحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ونعته ، وخصائصه ومقتضياته ، وجدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن (يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) .

ثم انظر بعد ذلك في الأرض لتعلم أن زيادتها ونقصها عما هي عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التي فيها أمر جائز . أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التي تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإثباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العليم والقادر العظيم ؟

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بضوئها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جدا عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جدا من الشمس لم يعيش عليها إنسان ولا حيوان . أليس كل ذلك من الآيات الباهرة والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر إلى الجبال التي جعلها الله أوتاد الأرض وفيها من المنافع ما لا يأتي عليه البيان . ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التي تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة . وانتفعنا بالجبال في نعمة المياه والأمطار غنى عن البيان . ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال في كثير من الآيات كقوله : (رَوَّابِي شَامِيخَاتٍ ، وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) ^(١) .

وإن شئت بعد ذلك فانظر إلى ما تنبته الأرض من النباتات التي لا تحصى عدداً ، وفيها من النافع والأسرار ما يدهش العقول ويملا النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد أنعامه . وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ^(٢)

ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون نوراً ^(٣) وبعضها ثمراً ، وبعضها ورقاً ، وبعضها خشباً ، إلى آخر ما يرشدك

(٢) سورة الرعد ، الآية ٤

(١) سورة المرسلات ، الآية ٢٧

(٣) بفتح النون : يعنى زهرا .

إليه الوجدان البرهان. أليس ذلك كله برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً
على تقدير العزيز العليم؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن
بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة، والثاني في
غاية السواد، مع كون نسبته إلى الشمس والهواء والماء والتربة واحدة.

ولننشد في هذا المقام قول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه	وذا الكون سفر واضح وهو كتيبه
يشكّون والإيمان ملء قلوبهم	ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ في الجو يرسل طرفه	إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده	وهذى حواشيه وبذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربي في الأنام كثيرة	ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو نقول ما قاله ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها
عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديث لبه ، حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار	وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم ملوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا	في نهار وفي الدجا أقمار
ورياح نهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار

إِنَّ شَأْنَ الإِلهِ شَأْنٌ كَبِيرٌ جَلُّ رَبِّاً وَجَلَّتْ الآثَارُ
والذى قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدى واعتبار

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاهَا) : يقال طحَّاهَا ودحَّاهَا ، أى بسطها
وأوسعها . والمادة تدل على ذلك ، حتى فى قول الشاعر :

طحَّابك قلباً فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

فكأنه يقول : ذهب القلب كل مذهب فلم تضق به النواحي
ولم ينحصر فى مذهب واحد ، يقال طحَّاهَا يطحو وطحَّاهَا يطحَّى ،
فهو من ذوات الواو والياء .

وكأن القرآن يرد قول من قال من المبطلين بقدم السماء والأرض
وأنهما غير محتاجين لمن يوجدتهما فذكر بيانها وطاحيها هو الله
عز وجل .

هذا ، ومن عادة القرآن أن يذكر الناس بآياته الأفقية والنفسية
وقد قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ)^(١) .

وآيات الأرض كثيرة : منها أنها ممكنة يجوزُ عليها الوجود والعدم ،
فلا بد لها إذا من موجد يرجح وجودها على عدمها . ولا شك أن
من أكبر الآيات البينات وجودها بصفاتنا المشاهدة ، وقد كان يجوز
عليها غيرها . وتخصيصها بما ينفعنا فى كل ما نحتاج إليه على ما
ستسمع آية كبرى .

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

ومن آياتها بروز جانب منها عن الماء ووجود البحار في جانب آخر على ذلك النمط البديع الذي وصل غاية الإبداع . وقد انتفعنا به غاية الانتفاع .

ومنها سعتها ، على ما أشارت إليه الآية هنا .

ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّحَتْ)^(١) ، ولا ينافي ذلك كونها كروية فإنها كبيرة ذات سطح واسع يستقر عليه الإنسان والحيوان .

ومنها أنه مهدها وجعلها فراشاً وذلولاً كي تستقر عليها الحيوانات ولا يتألم ما عليها من المخلوقات ولولا أنه ذللها لما استطاعت أن تطأها الأقدام ، ولا أن نستعمل فيها الفأس والمعول لدورنا وزروعنا ، فهي ذلول مسخرة لما يريد الإنسان منها . فسبحان من جعلها كفاتاً للأحياء تحملهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها ، وسبحان من طحاها فمدها وبسطها ووسعها وهيأها لما يريد منها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وثنق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل الفجاج . وقد جعلها الله ساكنة ليهدأ من عليها ولا ينزعج بحركتها .

وإن ذهبت مع الداهيين إلى أنها متحركة سريعة جدا ، كما هو الرأي الجديد ، فالأمر أعجب فإن تلك الحركة التي لا نحس بها ولا نعرف لها سببا معقولا ، لا من ذاتها ولا من غيرها ، لهي العجب كله ، ولعلك لم تنس ما قلناه في الجاذبية وأن أدلتها لم تتم إلى

(١) سورة الفاشية ، الآية ٢٠

الآن . وئلك أن تختصر الطريق وتقول لهم : ما الذى أمسك العوالم كلها فى الفضاء الذى لانهاية له غير قدرة من يقول للشيء كن فيكون ؟

وبعد : فلو شاء لجعلها فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فكان لا يمكن حفرها ولا ثنقها ولا البناء فيها ولاغرسها ، ولو كانت رخوة غير متماسكة لم يمكن ذلك أيضا ، فإنه لا يستقر إذاعليها الحيوان ولا بقية الأجسام .

فاقتضت حكمته أن تكون بين الصلابة المفرطة ، والدمانة المفرطة . ولو فرضنا أن الأرض كلها من الذهب والفضة أو بقية الجواهر لفاتت مصالح الإنسان والحيوان ، وتعطلت المنافع التى تتراد منها فى سائر ضروب المصالح .

لهذاقال بعض الفلاسفة : إن التراب أشرف من الذهب والفضة . ويكنى أنك خلقت من التراب « وإلى الآن تخلق من التراب » ، فإن النطفة من الغذاء ، وهو إما لحوم الحيوانات أو النباتات ، ولحوم الحيوانات من النبات ، والنبات من التراب ، فأنت من التراب حتى الآن . فسبحان الحكيم الخبير ، العليم القدير .

وما كان للذهب تلك المنزلة الرفيعة إلا لقلته وعزته ، بخلاف التراب ، بناء على ما سمعته من القاعدة المطردة فى مخلوقات الله تعالى . وانظر إلى الهواء وحاجة الناس إليه ، ولكن لما كان ملء الوجود لم نأبه ولم ناتفقت إليه .

ولا بأس أن نشير إلى حكمة كبرى من حكم الله تعالى التي نوهنا عنها فنقول : إنه سبحانه جعل كثرة الأشياء وسهولتها على قدر الاحتياج إليها ، فلما كان الهواء يحتاج إليه كل أحد في كل نفس من أنفاسه جعله مائلاً للوجود كله ، ولما كانت حاجة الناس إلى الماء أقل من حاجتهم إلى الهواء لم يجعله في السهولة كالهواء ، ولكنه جعله كثيراً متيسراً لاحتياج الإنسان في حصوله عليه إلى ثمن ولا مشقة فعزة الأشياء لازمة لقلتها لا للاحتياج إليها . وقد قال القائل :

سبحان من خص القليل بعزة والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل من في الكون محتاج إلى أنفاسه

وإنرجع إلى بقية الكلام على الأرض وآياتها فنقول :

لم يجعلها سبحانه وتعالى شفافة لأن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور ، وما كان كذلك لا يقبل السخونة فيبقى في غاية البرودة فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأق في إنبات النبات ، لأن ذلك كله بفضل قبولها لأشعة الشمس التي لولاها لم يكن على الأرض نبات ولا حيوان : (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(١) .

وكذلك لم يجعلها صقيلة بראה لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف عليه ، فاقتضت حكمته أن يجعلها كثيفة غبراء ، فصلاحت أن تكون مستقرة للإنسان والحيوان والنبات .

ومن آياته أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، مع أنها قطع متجاورة متلاصقة ، فهذه تصلح لنبات كذا ، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره ، ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، وينتفع بعضهم من بعض . وهذه سبيخة مالحة ، وهذه بضدها : إلى آخر صفاتها الكثيرة وأحوالها المتنوعة .

فسلها من نزعها هذا التنويع ، ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ، ومن أمسكها عن الزوال ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها حتى كان منها الدواء والغذاء « بل الرجال والنساء » ، ومن هبأها مسكنا ومستقراً للأنام ، ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة ، ومن وطأ مناكبها ، وذل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ، ومن صدعها عن النبات وأودع فيها جميع الأقوات ومن بسطها وفرشها ومهداها ، وذلله وطحاها ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ، ومن الذى يسكها أن تترزق فيستقط ما عليها من دور وقصور ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور .

ومن الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبداع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمداً - صلى الله عليه وسلم - عليهم أجمعين ، وأنشأ

منها أوليائه وأحباءه وعباده الصالحين ، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان ، ومن جعل بينها وبين الشمس هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات . وبالجمله كانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم :

فإن شئت بعد ذلك فانظر إلى تلك البذرة الصغيرة كبذرة التوت مثلاً كيف توضع في الأرض فتخرج منها شجرة ذات فروع وأغصان تظلل العدد العديد من الناس .

فياللأرض من آية تكفي وحدها برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله ! ولا بأس أن نلفت نظرك إلى وجود هذه العناصر المختلفة المتعددة وما أودع فيها من الخصائص والمنافع إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافية :

وصلنا من تفسير سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) إلى قوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت نظر عباده إلى أنفسهم وما فيها من العجائب والغرائب ، فقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : أي خلقها مستتوية في أحسن صورة من الصور في ظاهرها وباطنها . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ،

وفي صحيح مسلم : « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء .
فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

وعلى كل حال فأقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، فينبغي أن يتفكر فيها ، وكيف خلق من قطرة ماء مهين فصار إنسانا عاقلاً يتيه على المخلوقات . وحقاً إذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شهادات لمدبره دالة عليه مرشدة إليه ، إذ يجده مكوناً من قطرة ماء مهين صارت لحوماً منضدة ، وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشدودة بحبال العروق ، والأعصاب قد شدت وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ، على ما يقول الكثير من علماء التشريح الأولين ، ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وقد شدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، لأجل مختلف الصنائع التي تراد منها .

وجعل فيه تسعة أبواب ، فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التي يؤدي احتباسها إلى الأضرار البليغة ، وجعل داخله بابي

السمع ممراً قاتلاً للحشرات لثلاً يلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ،
وجعل داخل بابي البصر مالحة لثلاً تذيب الحرارة الدائمة ما هناك
من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب مهياً لإساغة ما يأكله
وما يشربه . جعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء ، مركبين
في أعلى مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه طليعة له ، وركب
هذا النور في جزءٍ صغير جداً يبصر به السماء والأرض وما بينهما ،
وجعل العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض ،
حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل عليها غلقاً بمصراعين أعلى وأسفل ،
وركب في ذيل المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالاً .

وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحفظان العين من العرق
النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك . وجعل سبحانه لكل
طبقة من العين وظيفة مخصوصة ، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً
مخصوصاً لو زاد على ذلك أو نقص عنه لاختلت المنافع وضاعت المصالح
المطلوبة .

وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ، ثم أظهر في تلك العدسة
صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوي
والسفلي مع اتساع أطرافه وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته أن جعل
فيها سبحانه بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة في السواد ؛ وجعل
البياض مستقراً لها ومسكناً ، وزين كلا منهما بالآخر ، وجعل الحدقة
مصنونة بالأجنان والحواجب ، وجعلها سوداً ، إذ لو كانت بيضاً

لتفرق النور الباصر فضعف الإدراك فإن السواد يجمع البصر ويمنع من تفرق النور ، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه الأجفان متحركة بغاية السهولة في الانطباق والانفتاح بلا تكالف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً لانزال نراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات .

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيوصلانه إليه جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر والبلادة والفطنة والزيغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة . فالعين مرآة للقلب وطلیعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من أطف الأعضاء وأبعدها تتأثراً بالحر والبرد . وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان ، فإنها ولو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك مع أنها من الأعضاء اللطيفة .

هذا بعض ما ذكره علماؤنا الأقدمون ، وللأطباء العصريين ما هو أعجب وأغرب . ولعلك اطلعت على بعض ما اكتشفوه من أسرار الغدد التي كانت مجهولة . وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : يكفيني هدب العين في الدلالة على الله . إلى آخر كلامهم في هذا .

قال الله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا .
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

ذكرنا لك بعض ما اشتملت عليه خلقة الإنسان من الحكم العالية والأسرار السامية ، والأمر أكبر من أن نأتى على تفصيله . وعلى كل حال فمن نظر إلى وظائف الأعضاء كالكبد والمعدة والأمعاء والرئتين ، ثم تهيئة السبيلين ، وما أودعه الله العينين والأذنين واليدين والرجلين إلخ ، أخذ منه الدهش كل مأخذ وامتلاً قلبه بعظمة الله تعالى وعظيم حكمته ومختلف نعمته ، فنطق لسانه قائلاً : سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وقد رأيت أن أذكر لك في هذا المقال بعض مافي الفم واللسان والريق والأسنان من اللطائف التي من علينا بها اللطيف الخبير ، فنقول :

جعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه ، وجعله حلواً لا مالحاً كما في العين ، ولا مرراً كالذي في الأذن ، ولا عفناً كالذي في الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ، حكمة بالغة . فإن الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذي يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء فلولا أنه حلوا لما التذ إنسان بل ولا حيوان بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا على كره وتنغيص . ولما كان كثير من الطعام لا يمكن إحالته إلا بعد طبخه ، جعل الرب - تعالى - آلة لتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن فجعل آلة القطع وهي الثنايا وما يليها حادة الرءوس ليسهل بها القطع ، وجعل النواجذ وما يليها من الأضراس

مسطحة الرئوس عريضة ليتأتى بها الطحن ، وجعلها في أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ليتأتى بها القطع والطحن ، وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر إذ ربما كلت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عرض فينتقل إلى الآلة الأخرى .

وأيضاً أو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يتعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابته كما ينبت الزرع في الأرض ولم يكسها سبحانه لحماً كسائر العظام سواها إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة . ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها الحر والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها ، وجعلت هي المكتسبية العارية لتمام المنفعة بذلك ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته كسائر عظامه لعدم حاجته إليها ، خلac عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع وأعطيها وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهي أنه لو نشأ معه من حين يولد لأضرت بحلمة الثدي ، إذ لا عقل له يمنع عن عضها فكانت الأم تمتنع عن رضاعه .

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالة التي بينها وبين المعدة فإنه يسلم إليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه ، ثم يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وتطبخه ، ثم ترسله المعدة إلى الأمعاء ليتم هضمه فيها ، ويميز هناك الخبيث المؤذى من الطيب النافع فترسله إلى الكبد فيفرز الصفراء ثم يرسله إلى القلب . وبعد

عملية الأذنين والبطين وملاقاة الهواء في الرئتين يرسل إلى الأهر^(١) ،
ثم يتفرع منه إلى جميع أنحاء البدن فيعطى كل عضو ما يناسبه والمقدار
الذي يليق به ، فسبحان الحكيم العليم .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا عجز من قطع شيء وطحنه عجزت
المعدة عن إنضاجه وطبخه ، فإذا كلت الأسنان كلت المعدة ، إذا ضعفت
ضعفت ، إلى آخر ما يطول القول فيه ، ولا يمكننا أن نصل إلى خوافيه .
وإن شئت فانظر في أهون شيء عليك وأيسره لديك ، وهو الشعر ،
وكيف خلا منه جسد المرأة التي تحسن بها الرقة والنعومة ، بخلاف الرجل .

ولنلتفت نظرك إلى شعر الرأس وما فيه من الحكم والمنافع . فمنها
وقايته عن الحر والبرد وما عسى أن يكون عند الاصطدام ، فضلاً عما فيه
من الحسن . أما السبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن
فهو أن البخار من شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ . وكان هذا
الشعر نامياً على الدوام لأن البخار يتصاعد إلى الرأس أبداً وهو مادة
الشعر ، فكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد ، وزيادة لوقايته وغطائه .

وأما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين
مما ينحدر من الرأس وجعل هذا المقدار ، فلو نقص عنه لزال منفعة الجمال
والوقاية ، ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه
ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً ، وأن يكون
باقياً على عدد واحد في مقدار واحد ، جعل منبت الشعر في جرم صلب

(١) هو الأورطى .

شبيهه بالغضروف يمتد في طول الجفن لثلاث بطول وينمو . وهكذا كما
نشاهد النبات الذي ينبت في الأرض الرخوة اللينة كيف يطول
ويزداد ، والذي ينبت في الأرض الصخرية لا ينمو إلا نمواً يسيراً ،
فكذلك الشعر النابت في الأعضاء اللينة . الرطبة فإنه سريع النمو كشعر
الرأس .

وأما شعر اللحية ففيه منافع ، منها الزينة والوقار والهيبة ولهذا
لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحي
من الرجال .

ثم انظر كيف هيأ المرأة لما يراد منها فخلقها قابلة للتلقيح والحبل
والولادة وتربية الطفل بلبن ثدييها وشدة عطفها ، كما هيأ الرجل
لما يراد منه . وقد قلنا إن بعض فلاسفة الأوربيين قال : « يكفيني في
الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل لبقاء النوع واستمرار وجوده » .
هذا بعض ما قاله العلماء .

ولنختم كالمتنا هذه بقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ
الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (١) .

* * *

قال الله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) . . . إلخ :
نرى وقد طال بك العهد أن نذكر لك ملخصاً بسيطاً عن هذه الآية
التي سمعت بعض ما قيل فيها قبل تلك الفترة فنقول : يصح أن نحمل

(١) سورة الانفطار ، الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

النفس في الآية الشريفة على الجسد ، ويكون المراد بتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وجعل كل عضو ذا وظيفة خاصة كما بينه علم الفزيولوجيا .

وإن حملناها على الروح المدبّرة ، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة ، كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكرة ، إلى آخر ما قرره علماء النفس . هذا ويصح أن يراد بالنفس نفس خاصة من بين النفوس وهي النفس المحمدية .

وقد قرروا أن كل كثرة لا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس . فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان ، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان والإنسان أصناف ورئيس النوع كله النبي صلى الله عليه وسلم . وقد كان الأنبياء كثيرين ، فلا بد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق . فقوله : (وَنَفْسٌ) إشارة إلى تلك النفس التي هي رئيسة العالم المركبات .

ويصح أن يراد كل نفس ، فإن النفوس كلها ذات عجائب وغرائب ، ولذلك يقول الله في الآية الأخرى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْئَلًا تُبْصِرُونَ)^(١) ، فتكون الآية شاملة لجميع النفوس كما في قوله تعالى : (عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتُ)^(٢) وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله ، كما قال بعد ذكر بعض الحيوانات : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٣) . ولكل نوع نفس مخصصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته والخواص اللازمة لذلك الفصل .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٢١

(٢) سورة التكاوير ، الآية ١٤ (٣) سورة النحل ، الآية ٨

ومن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعض
فضلاً عن المترغل فى بحار أسرار الله سبحانه .

أما قوله تعالى : (فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فللسلف فيه عبارات
متقاربة يرجع غالبها إلى أنه أَلْهَمَ الْمُؤْمِنَ الْمُتَّقِيَ تَقْوَاهُ وَأَلْهَمَ الْكَافِرَ فَجُورَهُ
بخلقهما مستعدين لذلك . قال سعيد بن جبير : أَلْزَمَهَا فَجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا . وقال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى
وخذلانه إياها بالفجور . واختار الزجاج والواحدى ذلك .

والإلهام هو أن يوقع الله فى قلب العبد شيئاً . وأصل معنى الإلهام
من قولهم : لهم الشيء والتهمه إذا ابتلعه . وقد استعمل ذلك
فيما يقذفه الله تعالى فى قلب العبد لما بينهما من المشابهة . وقال ابن زيد :
إن الله تعالى خلق فى المؤمن تقواه وفى الكافر فجوره .

وقد ذكرت هذه الآيات للدلالة على أن الله تعالى مدبّر للأجسام
العلوية والسفلية البسيطة والمركبة وللنفوس الإنسانية على ما هو الظاهر
(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(١) .

هذا وقد بقى شيء واحد يختلج فى القلب : أنه هل هو بقضائه
وقدره ، وكيف يكون ذلك مع سؤاله عنه وتعذيبه عليه ، وهو الأفعال
الإنسانية الاختيارية ؟ فنبه سبحانه بقوله : (فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا) على ذلك أيضاً ، وأنه منه وبه ، وأن كل شيء بقضائه
وقدره ، وقد ثبت بالأدلة المعقولة والمنقولة أن كل شيء واقِع بقضائه

(١) سورة هود ، الآية ١٢٣

وقدره ، وداخل تحت إيجاده وتصرفه . أما مذهب المعتزلة فهو أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدره خلقها الله فيه ، وهو مذهب مردود بالبراهين المذكورة في كتب الكلام . وأما قولهم: لو كانت أفعال العبد بخلق الله لما عذبه عليها فهو اعتراض على الله تعالى ، وهو الذى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)^(١) . وكل شئ قضاءه فهو لحكمة يعلمها هر ، وإن لم نطلع عليها :

حكم حارت البرية فيها و جدير بأنها تحتار

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

هذا ، وبعضهم يقول : إن إرادتك صالحة للأميرين ، فأنت مسئول عن توجيهها لأحدهما بخصوصه إلى آخر ما قالوه . ولنا رسالة في تفسير قوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) بغير ما قاله المفسرون يحسن الاطلاع عليها . وما أحسن قول القائل :

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم في دوران الفلك

ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة ببحر هلك

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ . وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)^(٢) .

* * *

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

تقدم الكلام على النفس وإنه يصح أن يراد بها كل نفس ويصح

أن يراد بها نفس آدم عليه السلام . والمعنى : لقد أفلح من زكَّاهَا :

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧

(١) سورة الانبياء ، الآية ٢٣

أى فازت وسعدت نفس زكاها الله ، أى أصلحتها وطهرها من الذنوب ،
ووفقتها للطاعة . (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) : أى خابت وخسرت نفس
أضلها الله تعالى وأفسدها . وأصله من دس الشيء إذا أخفاه ، وهو
جواب القسم على ما هو الظاهر . فكأنه سبحانه وتعالى أقسم بأشرف
مخلوقاته على فلاح من طهره وزكاه ، وخسارة من خذله وأضاه .

عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :
« اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها
ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ،
ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

فاطلب التقوى من الله فى كل وقت ، فإن الله تعالى قد ندبك إليها
فقال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(١) .
وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)^(٢) . وقال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إني ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله
فى اليوم سبعين مرة » .

فإن أردت التوبة فينبغى لك ألا تدخل من التفكير طول عمرك ،
فتفكر فيما صنعت فى نهارك ، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن
وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك واستغفر الله وتب إليه فإنه
لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك ، ولا توبخها
وأنت ضاحك فرح ، بل وبخها وأنت جاد صادق مظهر للعبوسة ،

(١) سور النور ، الآية ٣١

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢

حزين القلب منكسر ذليل فإن فعلت ذلك أبدلك الله بالحزن فرحاً ،
وبالذل عزاً ، وبالظلمة نوراً ، وبالحجاب كشفاً .

وعن الشيخ مكين الدين الأسمر ، رحمه الله تعالى ، وكان من
السبعة الأبدان قال : كنت في ابتداء أمرى أخيط وأتقوت من ذلك ،
وكنت أعد كلامى بالنهار فإذا جاء المساء حاسبت نفسى فأجد
كلامى قليلاً ، فما وجدت فيه من خير حمدت الله وشكرته عليه
وما وجدت فيه من غير ذلك تبت إلى الله واستغفرته . إلى أن صار
بدلاً ، رضى الله عنه . واعلم أنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه
ويحاققها فأنت لا تحاسبه لمحاسبته نفسه ، وإن كان غير محاقق
لنفسه فأنت تحاسبه وتبالغ في محاسبته . فينبغى أن يكون عمالك
كله لله تعالى . ولا تظن أنك تفعل فعلاً والله تعالى لا يحاسبك
ولا يحاققك عليه .

واعلم أنه إذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة ، فمثال المعصية
كالنار ، والظلمة ، دخانها كمن أوقد في بيت خمسين سنة ألا تراه
يسود ؟ فكذلك القلب يسود بالمعصية ولا يظهر إلا بالتوبة إلى الله .
فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب . ولا يدخل عليك الإهمال
إلا بإهمالك متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

ولا تحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي - صلى الله
عليه وسلم - . والمتابعة له عليه الصلاة والسلام على قسمين : جليلة وخفية ،
فالجليلة كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك ، والخفية
أن تصل إلى الجمع - في صلاتك - على الله تعالى ، والتدبر في قراءتك

وحضور قلبك وصفاء ذهنك . فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعاً ولا تدبراً فاعلم أن بك مرضاً باطنياً من كبر أو عجب أو غير ذلك . قال الله تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)^(١) فيكون مثالك كالمحموم الذي يجد في فمه السكر مرة .

واعلم أن المعصية مع الذل والافتقار خير من الطاعة مع العز والاستكبار . قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)^(٢) ومفهوم هذا أن من لم يتبعه فليس منه . وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)^(٣) فأجابه سبحانه بقوله تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)^(٤) . فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبياً كسلمان الفارسي -رضى الله عنه- لقوله صلى الله عليه وسلم : « سَلَّمَانٌ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ » ومعلوم أن سلمان من أهل فارس . ولكن بالمتابعة قال عنه صلى الله عليه وسلم ما قال تعليماً وإرشاداً لمزية المحبة والمتابعة . وكما أن المتابعة تثبت الاتصال ، كذلك عدمها يثبت الانفصال . وقد جمع الله الخير كله في بيت وجعل مفتاحه متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم- . فتابعه بالقناعة بما رزقك الله تعالى ، والزهد المتابعة فذلك دليل على محبة الله له .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٦

(٣) سورة هود ، الآية ٤٥

(٤) سورة هود ، الآية ٤٦

قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(١) .
وإذا طلبت الخير كله فقل : اللهم إني أسألك المتابعة لرسولك صلى الله
عليه وسلم في الأقوال والأفعال والنيات . ومن أراد ذلك فعليه بعدم
الظلم لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم .
نسأل الله أن يوفقنا لما يرضيه ، ويرزقنا متابعة نبيه صلى الله
عليه وسلم بمنه وكرمه .

* * *

قال الله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا . فَدمدمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ بِانْتِهَابِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) : الأظهر أنه كلام مستأنف جيء به
ليبين أنه من دس نفسه اتي الويال والخسران كما كان لثمود وأمثالهم .
وقيل إنه جواب القسم ، أو كلام سيق للدلالة على جواب القسم ،
فكانه قيل : وحق هذه المذكورات وتلك الآيات البينات لينتقم الله
من كذبوك ولم يؤمنوا برسالتك ، فإن ذلك شأنه مع أعداء رسله .

وإن شئت قلت : ليدمدن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً
عليه السلام . وأما حذف اللام من جواب القسم فهو كثير ، لا سيما
مع الطول كما هنا .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١

هذا ، والطغوى مصدر من الطغيان بمعنى تجاوز الحد في العصيان ، وقد فرقوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء فقلبوا الياء وأواً في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا في الصفة امرأة صدياً وخزياً ، وفي الاسم تقوى وطغوى . ومنهم من قال : إن طغى واوى ويأتى فيقال طغوت وطغيت طغواناً وطغياناً . والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها على الله تعالى . ويصح أن يراد بالطغوى العذاب الذى جاوز الحد ، فتكون الباء للتعدية كما فى قوله تعالى : (فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)^(١) .

(إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا) : متعلق بكذبت أو بطغوى . وانبعث مطاوع بعثه بمعنى أرسله ، والمراد إذ ذهب لعقر الناقة (أَشْقَاهَا) : أى أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف [وقدار بوزن غلام] أو هو ومن تصدى معه لعقرها من الأشقياء ، وهما اثنان على ما قال الفراء ، أو أكثر على ما قال غيره . وأفعل التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث . وقد جعلوا أشقى قبيلة ثمود لمباشرتهم العقر مع إشراك الكل فى الرضا به مع ما يعلمه الله فيهم من بقية الخباياث .

(فَقَالَ لَهُمْ) أى لثمود أو لأولئك الأشقياء بناء على أنهم جمع . (رَسُولُ اللَّهِ) هو صالح عليه السلام ، وعبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجود طاعته وبيانا لغالية عتوهم وتماديهم فى الطغيان ، وهو السر فى

إضافة الناقة إليه تعالى في قوله . (نَاقَةَ اللَّهِ) وهو منصوب على التحذير بفعل محذوف وجوباً كما قال ابن مالك :
إياك والشرك ونحوه نصب محذر بما استتاره وجب
والكلام على حذف مضاف أى احذروا عقر ناقة الله . والمعنى على ذلك وان لم يقدر فى نظم الكلام .

(وَسُقِيَّاهَا) أى واحذروا سقياها فلا تتعرضوا بمنعها عنها .

(فَكَذَّبُوهُ) أى فى وعيده إياهم كما قال تعالى (وَلَا تَمْسُوْهَا ، يَسُوْهُ)
فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١) . والمراد أنهم كذبوه فى خبر حلول العذاب بهم
إن فعلوا ما حذرهم منه (فَعَقَرُوْهَا) أى فنحروها أو فقتلوا ، وضمير
الجمع للأشقي ، وجمعه على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله .

(فَادْمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ) : أى فبأطبق عليهم العذاب . وقان فى
القاموس معناه أتم العذاب عليهم . وإن شئت قلت كما قال بعضهم :
الدمدمة إهلاك بامتئصال (بِذُنُوبِهِمْ) بسبب ذنبهم المحكى . والتصريح
بذلك مع دلالة الفاء عليه للإيدان بعاقبة الذنب ليعتبر به كل
مذنب

(فَسَوَّاهَا) الضمير للدمدمة المفهومة من دمدم ، أى فجعل الدمدمة
سواءً بينهم فلم ينج منهم أحد . ولك أن تقول إنه عائد على ثمود
والتأنيث باعتبار القبيلة كما فى طفواها وأشقاها ، والمعنى أنه سواها
بالأرض .

(وَلَا يَخَافُ) أى الرب عز وجل (عُقْبَاهَا) أى عاقبتها وتبعتها
كما يخاف الإنسان عاقبة مايفعله وتبعته ، وهو عبارة عن إهانتهم
وأَنهم أَذْلَاءُ عند الله تعالى . والواو للحال أو للاستئناف .

هذا ، وثمرود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز
والشام . وسميت باسم أبئهم الأَكْبَرُ ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن
نوح . وقال عمرو بن العلاء : إِنَّمَا سَمُوا بِذَلِكَ لِقَلَّةِ مَائِهِمْ ، فهو من ثمد
الماء إِذا قل . والتمد الماء القليل

هذا ويجوز فى ثمود الصرف وعدمه باعتبار الحى أو القبيلة .
والله أعلم .

تفسير سورة الانشراح (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ
ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) :

يريد سبحانه وتعالى أن يذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- بنعمه عليه ، وفي هذه السورة وما قبلها كبريات النعم وأصولها ، ولا تنس الآيات الأخرى التي أثنى الله فيها على نبيه -صلى الله عليه وسلم- منها بما أعطاه من الآيات الكبيرة ، والفضائل الغزيرة ، مثل قوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)^(٢) وناهيك بشئ يعظمه الله تعالى ، ومثل قوله تعالى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ)^(٣) وقوله : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)^(٤) ، وقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)^(٥) ، ومخاطبته له بالرسول نحو : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)^(٦) . على حين أنه ينادى الأنبياء بأسمائهم ، نحو :

(١) مجلة الأزهر - الجزء الرابع - المجلد الرابع عشر - ربيع الآخر - سنة ١٣٦٢

(٢) سورة القم ، الآية ٤

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

(٤) سورة النور ، الآية ٦٣

(٥) سورة الحجرات ، الآية ٢

(٦) سورة المائدة ، الآية ٦٧

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)^(١) ، (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)^(٢) ، (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)^(٣) إلى غير ذلك . وهو كثير .

ومما جاء في ذلك وهو من أبلغها ، إقسام الله بحياته - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(٤) إلى ما لا يكاد يحصى ، (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)^(٥) ، وفي هذه السورة أنه رفع له ذكره . وفي الحديث « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع » الخ

أسأل الله أن يجعلنا ن عارفيه وأول محبيه بمنه وكرمه ه

ولنرجع إلى التفسير فنقول : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) هذا الاستفهام إنكارى أو تقريرى ، وهو يتضمن إثبات الشرح ، والإنكار على من ينفيه ، وكأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك ، ولذلك عطف عليه بطريق الإثبات قوله : (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) الخ . والمعنى أننا وسعناه بما أودعنا فيه من العلوم والحكم حتى وسع شئون النبوة والرسالة وما يلزم لذلك من دعوة العالم للدين الحق فإزلنا عنه الضيق والحرَج وعن الحسن : ملأناه حكمة وعلمًا .

(١) سورة ص ، الآية ٢٦

(٢) سورة مريم ، الآية ١٢

(٣) سورة مريم ، الآية ٧

(٤) سورة الحجر ، الآية ٧٢

(٥) سورة الاحزاب ، الآية ٤٦

أما قوله : (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) فمعناه أننا خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بواجبها .

ومما يحسن أن ننبه عليه أن الأنبياء قد يعاتبون على ترك الأفضل وإن أتوا بالفاضل . وهذا في الحقيقة نوع من التعليم والإرشاد . ووضع الوزر عنه غفره له أو حمايته من ارتكابه أو تخفيف ما كان يشق عليه - صلى الله عليه وسلم - من دعوة المشركين وتصلب المعاندين . والوزر في اللغة : الحمل الثقيل .

أما قوله تعالى : (الْأَسْدَى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) فمعناه أثقل الظهر حتى سمع منه صوت الانتقاض . وأما رفع ذكره فمما لا يأتي عليه البيان . وانظر إن شئت إلى الأذان الذي قرن فيه اسمه باسم الله تعالى ، وكذلك في الإقامة ، وعند إرادة الدخول في الإسلام .

وانظر إلى القرآن في ذلك حيث يقول : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)^(١) ، (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ)^(٢) ، (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)^(٣) (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)^(٤) الخ . وفي الآخرة آدم فمن دونه تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، وكل نبي يقول يومئذ : نفسى نفسى عند ما يطلب للشفاعة ، أما هو فيقول أنا لها أنا لها .

(١) سورة النور ، الآية ٥٤

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩

(٣) سورة التوبة ، الآية ٦٢

(٤) سورة النساء ، الآية ٨٠

أما قوله: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) فمعناه إن مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة إبلاء المشركين إظهارك عليهم . وقيل كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر ، فقيل له خولناك ما خولناك وسنتم نعمتنا عليك وعلى من معك .

وجئ بلفظة (مع) للتنبية على شدة قربه : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(١) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم عندما نزلت : لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ . ومعنى ذلك إن العسر معرفة وليس نكرة ، ومن القواعد إن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عيناً ، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت إكناً غيراً .

ثم قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) أي إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء . وتقديم الجار والمجرور يفيد أن الرغبة لا تكون إلا فيما عند الله عز وجل ، وأن القلب لا ينبغي أن يكون مشغولاً إلا به ولا معولاً إلا عليه . وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

تفسير سورة الزلزلة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَالَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ
النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ،
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .)

هذه السورة مكية على الأصح . وقد جاء عن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » أخرجه الترمذى .

والمراد أن الأرض تتحرك حركة شديدة ، ولك عند قيام الساعة حتى ينكسر كل ما عليها من شدة الزلزلة ولا تسكن حتى تلتقى ما على ظهرها من جبل وشجر وبناء

وفي وقت هذه الزلزلة قولان : أحدهما وهو قول الأكثرين أنها في الدنيا ، وهي من أشراط الساعة وهي التي يموت فيها جميع الخلائق ، والثانى أنها زلزلة يوم القيامة .

وقوله تعالى : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) اختلف فيه : فمن قال إن الزلزلة تكون في الدنيا فال : أثقالها كنوزها وما فى بطنها من الدفائن ولأموال فتلقبها على ظهرها . ويدل على هذا ما روى عن

أبى هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة فيجىء
القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول في هذا قطعت
رحمى ، ويجىء السارق فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه
فلا يأخذون شيئاً » . أخرجه مسلم . وأفلاذ الكبد جمع فلذة ، شبه
ما يخرج من بطنها بقطع الكبد واستعمار التواء للإخراج ومن قال
إن الزلزلة تكون يوم القيامة قال : أثقالها الموتى ، فتخرجهم إلى
ظهورها .

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا) أى مالها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة
ولفظت مافي بطنها ؟ وفي الإنسان وجهان : أحدهما أنه اسم جنس
يعم المسلم والكافر ، وهذا على رأى من جعل الزلزلة من أشراط الساعة
فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك ، والثانى أنه الكافر خاصة لأن المؤمن
عارف بها فلا يسأل عنها والكافر جاهل لها فإذا وقعت سأل عنها .

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) فيقول الإنسان مالها . والمعنى أن
الأرض تحدث بكل ما عمل على ظهرها من خير أو شر ، فنشكر
العاصى وتشهد عليه ، وتشكر الطائع وتشهد له . عن أبى هريرة رضى
الله عنه قال : فرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (يَوْمَئِذٍ
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) . فقال : أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم
قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها ،
تقول عمل كنا يوم كنا وكنا ، فهذه أخبارها . أخرجه الترمذى
وقال : حديث حسن صحيح .

(بَانَ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) أى أمرها بالكلام ، وأذن لها أن تخبر بكل ما عمل عليها . قال ابن عباس : أوحى إليها ، قيل إن الله تعالى يخلق فى الأرض الحياة والعقل والنطق حتى تخبر بكل ما عمله الإنسان .

قرله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ) أى عن موقف الحساب بعد العرض (أَشْتَاتَا) أى متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم . وقيل معناه ليروا صحائف أعمالهم التى فيها الخير والشر فيعرفوا ما يستحقونه من الثواب والعقاب .

أما قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) أى وزن نملة صغيرة (خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) قال ابن عباس : ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً فى الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة . وقال محمد بن كعب القرظى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) من كافر يرى ثوابه فى الدنيا فى نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ، (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر .

وقيل نزلت هذه الآية فى رجلين ، وذلك أنه لما نزلت (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)^(١) وكان أحدهما يأتية السائل فيستقل أن يطعمه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك ويقول

(١) سورة الإنان ، الآية ٨

هذا ليس بشيء يؤجر عليه إنما يرؤجر على مانعطيه ونحن نحبه ، وكان الآخر يتهاون في الذنب الصغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول : إنما وعد الله النار على الكبائر ، وليس في هذا إثم ، فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ويبين لهم أن الذنب الصغير يكون في عين صاحبه مثل الجبل العظيم يوم القيامة .

قال ابن مسعود : أحكم آية في القرآن (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقد سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الجامعة الفاذة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقد تصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل واحد منهما بحبة عنب وقالوا فيها مثاقيل كثيرة . قلت إنما كان غرضهما تعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة رضى الله عنهم . وقال الربيع بن خيثم : مر رجل بالحسن وهو يقرأ السورة فلما بلغ آخرها قال : حسبي قد انتهت الموعظة . وقد قال الإمام الشافعي رضى الله عنه : لو لم ينزل على الناس إلا سورة العصر لكفتهم ونحن نقول أيضا : لو لم ينزل على الناس إلا هذه الآية لكفتهم .

أسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا بمنه وكرمه .

تفسير سورة العاديات (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ
ضُبْحًا ، فَانَّثُرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ،
وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ
مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) .

أقسم الله تعالى بهذا القسم البديع على أن الانسان كفور غير شكور ،
فقال : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) أى الخيل التى تعدو فى الجهاد فتصبح
ضبحا . فقوله (ضبحا) مفعول مطلق لفعل محذوف أو هو حال مؤول
باسم الفاعل أى والعاديات ضابحة الخ . والضبح هو أصواتها عند عدوها .
ومن بدائع القرآن ترغيب الناس فى الجهاد بتعظيم كل شىء يمت إليه
بصلة حتى الخيل التى تستعمل فيه . وإذا كانت تلك المنزلة من
التعظيم للخيل فما بالك بفضل المجاهدين .

ولاعجب فقد قارنا بين طريق القرآن فى البرهنة وطريق العلماء فى
أدلة التوحيد ، وذكرنا ما بينهما من الفرق ، فالقرآن يعتمد إلى ما هو
المعروف المحسوس بطريقة تأخذ بالقلوب فيقول مثلا (أَفَلَا يَنْظُرُونَ
إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ^(٢) ويقول : (أَمْ خُلِقُوا مِن

(١) مجلة الأزهر الجزء السادس - المجلد الرابع عشر - جمادى الآخرة - سنة ١٣٦٢

(٢) سورة الفاشية ، الآية ١٧ - ٢٠

غَبِرَ شَيْءٌ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»^(١) . ويقول في الاستدلال على البعث حين قال المنكر : (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ : قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(٢) على حين أن العلماء يسلكون في أمثال ذلك تلك الطرق المتوعرة التي لانخفي عليك . وقد قال ابن سينا في برهان البعث الذي ذكره القرآن : كنت أشتهى أن يراه ارسطاطا ليس . أى ليعرف الفرق بين أدلة القرآن وأدلة الفلاسفة ، فسبحانه من حكيم عليم . اللهم إنا نسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزنا ، وذهاب همنا وغمنا ، وأن تجيزنا من الفتن المضلة مظهر منها وما بطن ، بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين .

ثم قال تعالى : (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) : الإبراء : إخراج النار ، والقدهج : الصك . يقال قدهج فأورى . أى فالتى تورى النار من حوافرها عند قدهجها الأحجار فى جريها . وانتصاب قدهجاً كانتصاب ضبحاً .

(فَالْمُغِيرَاتِ) : أسند الإغارة التى هى مباغطة العدو للنهب أو للقتل أو للأسر إلى الخيل لا إلى أهلها إذاناً بانأها العمدة فى إغارتهم . (صُبْحًا) أى فى وقت الصبح ، وهو المعتاد فى الغارات ، فإنهم يعدون نزالاً ليلاً يشعرون بهم العدو ويهجمون عليهم صباحاً ليروا مايتأتون وما يتدرون .

أما قوله تعالى : (فَاتَّزَنَ بِهِ) فهو عطف على اسم الفاعل المتقدم . وقد قال ابن مالك :

* واعطف على اسم شبه فعل فعلا *

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥ (٢) سورة يس ، الآية ٧٨ - ٧٩

وإن شئت فقل عطف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل ، إذ
المعنى : واللاقى عدون فأورين فأغرن فأثرن ، أى فتهيجن بذلك الوقت
(نَقَعًا) أى غباراً . وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لا يثور أو لا يظهر
ثورانه بالليل . وقيل النقع : الصياح والجلبة ، وقرىء (فَأَثَرَنَ)
بالتشديد بمعنى فأظهروا به غباراً لأن التأثير فيه معنى الإظهار .

(فَوَسَطْنَ بِهِ) أى توسطن بذلك الوقت . ويصح أن يكون الضمير
راجعاً للنقع ، أى توسطن ملتبسات بالنقع . (جَمْعًا) من جموع
الأعداء . والفاءات للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبله ،
فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على
الإبراء ، المترتب على العدو .

وقوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) أى لكفور ، مأخوذ من كند
النعمة كنوداً ، وهو جواب القسم . والمراد بالإنسان بعض أفراده ،
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أناس من بنى كنانة
سرية واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري وكان أحد الثقباء
فأبطاء عليه صلى الله عليه وسلم خبرها شهراً ، فقال المنافقون : إنهم
قتلوا ، فنزلت السورة إخباراً للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها ،
وبشارة له بإغارتها ، ونعياً على المرجفين فى حقهم ما هم فيه من الكنود .
ولك أن تقول : فيه إشارة إلى أن الإنسان كنود بطبعه ما لم يهتد به الدين
والعلم : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) (١) .

هذا ، وفي تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة مالا مزيد عليه ، كأنه قيل : وخيل الغزاة التي فعلت كذا وكذا وقد أرجف هؤلاء في حق أربابها ما أرجفوا إنهم لمبالغون في الكفران .

(وَأِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ أَدَّبَ) أي وإن الإنسان على كنوده (لَشَّهِيدٌ) يشهد على نفسه بالكنود بلسان حاله لظهور أثره عليه .

(وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ) أي المال ، كما في قوله تعالى (إِن تَرَكَ خَيْرًا) ^(١) (لَشَّهِيدٌ) أي قوى مطبق مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه . يقال : هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطبقاً له . وقيل الشديد البخيل ، أي إنه لأجل حُب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسك ، فاللام إذن للتعليل . ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود ، للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال لأنهم بما يظهرون من النفاق يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيباً .

وقوله تعالى : (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ) الخ : تهديد ووعيد . والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي يتأدى في جهله فلا يعلم حاله إذا بعثر من في القبور من الموتى . وإيراد (ما) لتكونهم إذ ذاك بعزل عن رتبة العقلاء .

(وَحُصِّلَ) أي جمع محصلاً ، أو ميز خيره من شره (مَا فِي الصُّدُورِ) من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي فضلاً عن الأعمال الجليلة .

(إِنَّ رَبَّهُمْ) أى المبعوثين ، كنى عنهم بعد الإحياء الثانى بضمير العقلاء بعد ما عبر عنهم قبل ذلك (بما) التى لغير العقلاء بناءً على تفاوت ما بين الحالين ، (بِهِمْ) بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها . (يَوْمَئِذٍ) يوم إذ يكون ما ذكر من بعث ما فى القبور وتحصيل ما فى الصدور (لَخَبِيرٌ) أى عالم بظواهر ماعملوا وبواطنه علماً موجباً للجزاء الحق متصلًا به ، كما ينبنى عنه تقييده بذلك اليوم ، وإلا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون ، ولا اختصاص له بذلك اليوم ، وقوله تعالى : (بِهِمْ) وُ (يَوْمَئِذٍ) متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل ، والله أعلم .

تفسير سورة القارعة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ . يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ . فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارٌ حَامِيَةٌ) .

(الْقَارِعَةُ) : أصل القرع الصوت الشديد ومنه قوارع الدهر أى شدائده . والقارعة من أسماء القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأحوالها وشدائدها ، وقيل سميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته .

أما قوله : (مَا الْقَارِعَةُ) : فهو استفهام يراد به التهويل والتعظيم ، لأنها فاقت القوارع في الهول والشدة . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) : معناه لا أعلم لك بكنهها لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم ولا يصل إليها وهم ، وكيفما قدرت أمرها فهي أعظم من ذلك .

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) : الفراش هذا الحيوان الذى تراه يتهافت في النار ، سميت بذلك لفرشها وانتشارها . وإنما شبه الخلق عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى فدل بهذا التشبيه

على أن الخلق في البعث يتفرقون فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر .
والمبثوث : المتفرق . وقد قال في الآية الأخرى : « كَانَهُمْ جَرَادٌ
مُنْتَشِرٌ » ^(١) ، وإنما شبههم بذلك لكثرتهم وعدم توجههم إلى جهة
واحدة لحيرتهم ومزيد دهشتهم .

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) : أى كالصوف المندوف ،
وذلك لأنها تتفرق أجزاءها في ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير
عند الندف . وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال كأنه تعالى نبه
على تأثير تلك القارعة في الجبال العظيمة الصلادة الصلبة حتى تصير
كالعهن المنفوش فكيف حال الإنسان الضعيف عند سماع صوت انقارعة ؟

ثم لما ذكر حال القيامة قسم الخلق على قسمين فقال تعالى :
(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : يعنى رجحت موازين حسناته ويصبح
أن يكون جمع موزون فيكون المراد به العمل الذى له قدر وخطر عند
الله تعالى ، وأن يكون جمع ميزان وهو الذى له لسان وكفتان توزن فيه
الأعمال فيؤتى بالحسنة فى أحسن صورة فتوضع فى كفة الميزان فإن
يرجحت فله الجنة ، ويؤتى بالسيئات فى أقبح صورة فلا يكون لها
وزن . هذا ، وقد قيل إنما توزن أعمال المؤمنين ، فمن ثقلت حسناته
على سيئاته دخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار
ففيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها فيدخل الجنة ، أو يعفو الله عنه
بفضله وكرمه .

وأما الكافرون فقد قال في حقهم : (فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَزَنًّا)^(١) وقال كثير من العلماء إن معنى الآية أننا لا نقيم لهم وزناً
نافعاً . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إنما ثقلت موازين من
ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا مع ثقله عليهم ،
وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً وإنما خفت موازين من خفت
موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحق
لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً .

أما قوله تعالى : (فَهَوَّ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ) : أى مرضية في الجنة
فيكون اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقيل إنها بمعنى عيشة ذات رضا
يرضاها صاحبها ، فالمراد بها النسب « كلابن وتامر » .

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) : أى رجحت سيئاته على حسناته
(فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ) : أى مسكنه النار ، سمي المسكن أمماً ، لأن الأصل
في السكون الأممات . وقيل معناد فأم رأسه هاوية في النار ، والهاوية
اسم من أسماء النار والمراد أنها مهواة لا يدرك قعرها فيهبون فيها على
رؤوسهم .

(وَمَا أَذْرَاكَ مَاهِيَةٌ) : يعنى الهاوية ، يريد أنك لا تدرك كنفها
وحقيقتها فهي فوق ما يقدر المقدرين ويتوهم المتوهمون . ثم فسرها
فقال : (نَارٌ حَامِيَةٌ) : أى حارة قد انتهى حرها .

ويكفيك قول الله في حقها : (نَارٌ حَامِيَةٌ) . نعوذ بالله وعظمته .
منها والله سبحانه وتعالى أعلم .

تفسير سورة التكاثر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ .
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

قوله عز وجل : (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) : أى شغلتكم المفاخرة والمباهاة
والمكاثرة بكثرة المال والعدد والمناقب عن طاعة الله ربكم واشتغالكم
بما ينجيكم من سيخطه :

ومعلوم أن من اشتغل بشيء أعرض عن غيره ، فينبغي للمؤمن
العاقل أن يكون سعيه وشغله فى تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه
عز وجل ، فالتناخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأحسن
المراتب ، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السعادة
الأخروية التى هى سعادة الأبد .

ويدل على أن المكاثرة والمفاخرة بالمال مذمومة ، ما روى عن مطرف
ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) فقال : يقول
ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت ،
أو أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ؟ . أخرجه الترمذى وقال

حدِيثِ حَسَنٍ . وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ : يَتَّبِعُهُ مَالُهُ (كَالْعَبِيدِ) وَأَهْلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ : وَيَبْقَى عَمَلُهُ » .

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) : أَى حَتَّى مَتَمَّ وَدَفَنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ : فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ مَاتَ : زَارَ قَبْرَهُ وَزَارَ رَمْسَهُ فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ : أَلْهَاكُمْ حِرْصَكُمْ عَلَى تَكْثِيرِ أَمْوَالِكُمْ عَنْ طَاعَةِ رَبِّكُمْ حَتَّى أَتَاكُمْ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَى ذَلِكَ .

هَذَا ، وَقَدْ قِيلَ إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ ، قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي فُلَانٍ وَبَنُو فُلَانٍ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي فُلَانٍ ، فَشَغَلَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى مَاتُوا ضَلَالًا . وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي حَيِّينَ مِنْ قَرِيْشٍ وَهُمْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنُو سَهْمِ ابْنِ عَمْرٍو ، كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاخُرٌ فَتَعَادَوْا الْقَادَةَ وَالْأَشْرَافَ ، فَقَالَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ : نَحْنُ أَكْثَرُ سَيِّدًا وَأَعَزُّ عَزِيْزًا وَأَعْظَمُ نَفْرًا ، وَأَكْثَرُ عِدْدًا ، وَقَالَ بَنُو سَهْمٍ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَكَثَرَهُمْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ، ثُمَّ قَالُوا : نَعُدُّ مَوْتَانَا وَذَوَى الشَّرْفِ مِنَّا ، فَعَدُّوا الْمَوْتِ حَتَّى زَارُوا الْقُبُورَ فَعَدُّوا مِنْ فِيهَا ، فَقَالُوا هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ وَهَذَا قَبْرُ فُلَانٍ ، فَكَثَرَهُمْ بَنُو سَهْمٍ بِثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَكْثَرَ عِدْدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَهَذَا أَصَحُّ . وَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَعْجَبُهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَقُولُ : هَبُوا أَنْكُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ عِدْدًا فَمَاذَا يَنْفَعُكُمْ ؟

ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فَقَالَ (كَلَّا) أَى لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَتَوَهَّمُ هَوْلًا وَبِالتَّكَاثُرِ وَالتَّفَاخُرِ . وَقِيلَ الْمَعْنَى : حَقًّا ، فَإِنَّ (كَلَّا) تَسْتَعْمَلُ

للردع والزجر ، وتستعمل أيضاً بمعنى حقاً ، وهى صالحة هنا للمعنيين ،
(سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وعيد لهم .

(ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) كرره تأكيداً . والمعنى سوف تعلمون
عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت . فهو وعيد بعد وعيد .

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أى علماً يقينياً . وجواب لو محذوف
والمعنى لو تعلمون علماً يقينياً لشغلكم ماتعلمون عن التكاثر والتفاخر .

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم
لتوكيد الوعيد وأن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا ريب . والمعنى
لا بد أن تروا الجحيم بأبصاركم بعد الموت .

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا) يعنى مشاهدة بعد مشاهدة (عَيْنَ الْيَقِينِ) . وإنما
كرر الرؤية لتوكيد الوعيد .

(ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) : يعنى أن كفار مكة كانوا
فى الدنيا فى الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا
فيه لأنهم لم يشكروه حيث عبدوا غيره ، ثم يعذبون على ذلك .
وذلك أن الكفار لما ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها
عن طاعة الله والاشتغال بشكركه سألهم عن ذلك .

وقيل إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن ، وهو الأولى لكن سؤال
الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه ، والمؤمن
يسأل سؤال تشریف لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه . ويدل
على ذلك ما روى عن الزبير قال : ﴿ لَمَّا نَزَلَتْ ﴾ (ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ

أ عن النعيم) قال الزبير : يارسول الله وأى نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال : أما أنه سيكون» أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

واختلفوا فى النعيم الذى يسأل العبد عنه ، فروى عن ابن مسعود رفعه قال : لتسألن يومئذ عن النعيم قال : الأمن والصحة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نصح لك جـ . مك ونروك من الماء البارد ؟ » أخرجه الترمذى .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو ببأبى بكر وعمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يارسول الله ، قال : وأنا ، والذى نفسى بيده لقد أخرجنى الذى أخرجكما فقوموا ، فقاموا معه ، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً . فقال لها - رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان - يريد أبا طلحة صاحب البيت قالت ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيفاً منى . قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا ، وأخذ المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة : فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : والذى نفسى بيده

لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .

وأخرجه الترمذى بآطول من هذا ، وفيه : ظل بارد ورطب طيب وماء بارد . وروى عن ابن عباس قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العبيد فيم استعملوها والله أعلم بذلك منهم . وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال . وأخرج البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وقيل الذى يسأل عنه العبد هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه فإنه لا بد لكل أحد من مطعم ومشراب وملبس ومسكن . وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ويسأل عن الإسلام فإنه أكبر النعم . وقيل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنقذكم من الضلال إلى الهدى ، وأخرجكم من الظلمات إلى النور وامتن به عليكم .

تفسير سورة الهزرة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيَلُّ لَكُلُّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُرْقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) .

(وَيَلُّ) : مبتدأ خبره (لَكُلُّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) وساغ الابتداء به مع كونه ذكراً لأنه دعاء عليهم بالهلكة . والهمز الكسر ، واللمز الطعن . وقال مجاهد : الهمز باليد والعين ، واللمز باللسان . وقد شاعا في الطعن في أعراض الناس . وبناءً فُعلة يدل على أن ذلك عادة مستمرة قد ضمرى بها وقبرىء (لَكُلُّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) بسكون الميم . وهو الذي يأتي بالأضاحيك .

قيل نزلت في الأخنس بن شريق فإنه كان مشغولاً بالغيبة والوقبعة . وقيل في أمية بن خلف . وقيل في الوليد بن المغيرة .

واختصاص السبب لا يستدعى خصوص الوعيد بهم ، بل كل من تصف بوصفهم القبيح فله ذنوب كبرى مثل ذنوبهم . (الَّذِي جَمَعَ مَالًا) . ذكر المال لتفخيم والتكشير كما يدل عليه قوله (وَعَدَّدَهُ) أى جمع بعضه على بعض وأحصى عدده ، وهو مثل قوله تعالى (وَجَمَعَ فَأَوْعَى)^(٢)

(١) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر - الصفحة ٢٣٠ - سنة ١٣٦٣

(٢) سورة المعارج ، الآية ١٨

قال السدى وابن جرير: الهاه جمع ماله بالنهار، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة .

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ) أى يعمل عمل من يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار .

أو نقول : طول المال أمّله ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمّله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت . وقد قيل إن هذا تعريض بالعمل الصالح والزهد في الدنيا ، وأنه هو الذى أخلد صاحبه في الحياة الأبدية والنعيم المقيم . أما المال فليس بخالد ولا بمخلد ، والجمعة مستأنفة ، أو حال من فاعل (جَمَعَ) .

(كَلَّا) ردع له عن ذلك الحسبان الباطل (لَيُنَبِّدَنَّ) الجملة جواب قسم مقدر ، وهى استئناف مبين لعللة الردع ، أى والله ليطرحن بسبب تعاطيه لما ذكر (فِي الْأُحْطَمَةِ) أى فى النار التى من شأنها أن تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها كما أنه كان شأنه كسر أعراض الناس والطنع فيهم .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْأُحْطَمَةُ) لتهزيل أمرها ببيان أنها ليست من الأمور التى تنالها عقول الخلق .

(نَارُ اللَّهِ) خبر مبتدئ محذوف ، والجملة لبيان شأن المسئول عنها أى هى نار الله (الموقدة) بأمر الله عز سلطانه (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) أى تعلق أوساط القلوب وتغشاها . وتخصيصها بالذكر لِمَا أَنَّ

الفؤاد أطف ماني الجسد وأشده تالماً بأدنى أذى يمسه ، أو لأنه محل
العقائد الزائغة ، والنيات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة .

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ) أى مطبقة من أوصدت الباب وآصدته أى
أطبقته .

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) أى موثمين فيها بأن توَّصد عليهم الأبواب ،
وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق .

هذا ، ومن تأمل في هذه السورة ظهر له العجب العجاب من
التناسب ، فإنه لما بولغ في الوصف في قوله تعالى (هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ) قيل
الحطمة للتعادل ، ولما أفاد ذلك كسر الأعراض قوبل بكسر الأضلاع
المدلول عليه بالحطمة ، وجيء بالنبذ المنبذ عن الاحتقار في مقابله ماظن
الهامز اللامز بنفسه من الكرامة . ولما كان منشأ جمع المال استيلاءً
حبه على القلب جيء في مقابله بقوله (تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) . ولما كان من
شأن جامع المال المحب له أن يوَّصد عليه قيل في مقابله (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ
مُؤَصَّدَةٌ) ولما تضمن ذلك طول الأمل قيل (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) .

وقد رأيت أن أثبت هنا بيتين من نظمنا القديم لِمَا لهما من
المناسبة وهما :

تضي علينا ليال ثم يعقبها أيام لهو بها أيامنا صرمت
نلهو ونلعب والأعمار ذاهبة والموت يفجؤنا والنفس ما تعظت

تفسير سورة قريش (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ).

قوله عز وجل : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) اختلفوا في هذه اللام : فقيل هي متعلقة بما قبلها ، وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بأصحاب الفيل حيث قال :

(فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش) أى أهلك أصحاب الفيل لتبقي قريش ومألفوا من رحلة الشتاء والصيف .

وقد اختلفوا في هذه اللام من وجه آخر : فقيل هي لام لتعجب ، أى أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت . فكأنه قال تعجبوا للسامعين أعجبوا لذلك . وقيل هي متعلقة بما بعدها ، أى فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، وليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة . والمعنى لإيلاف قريش هاتين الرحلتين بلا خوف ولا وجل .

وقريش هم ولد النضر بن كنانة . عن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة

واصطمنى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وقد ورد عن سعيد بن زيد « من أراد هوان قريش أهانه الله » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب . وسميت قريش من القرش والتقرش وهو الجمع والتكسب ، وذلك لأن قريشاً كانوا تجاراً وعلى جمع المال حراصاً .

وقوله تنالى : (لإيلافهم) هو بدل من الأول تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظم المنة فيه . (رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال ابن عباس : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف . وقال الأكثرون : كانت لهم رحلتان فى كل عام للتجارة : رحلة فى الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ ، ورحلة فى الصيف إلى الشام ، وكان الحرم مجديباً لازرع فيه ولاضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتهن ورحلتهم ، وكانوا لايتعرض لهم أحد بسوء ، وكانوا يقولون : قريش سكان حرم الله وولاية بيته ، فكانت العرب تكرمهم وتعظمهم لذلك ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ، ولولا الأمن بسبب جوار البيت لم يقدروا على التصرف رشح عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام .

قال ابن عباس : كانوا فى ضرر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين ، فكانوا يقسمون ربحهم بين الغنى والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم . وقال الكلبي : كان أول من حمل السمراء ، يعنى القمح إلى الشام ، ورحل إليها الإبل : هاشم بن عبد مناف ، وفيه يقول الشاعر :

قل للذى طلب السماحة والندى هلا وردت بأل عبد مناف
الرائشين وليس يوجد رائش والمائلين هلم للأضياف

والخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
والقائمين بكل وعد صادق والراحلين برحلة الإيلاف
سافرين سنهما له ولقومه سفر الشتاء ورحلة الأصياف

قوله عز وجل (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) يعني الكعبة وذلك أن
الإِنعام على قسمين دفع ضرره وهو ما ذكره في سورة الفيل ، والثاني جلب
نفع وهو ما ذكره في هذه السورة ، ولما رفع الله عنهم الضر وجلب لهم
النفع ، وهما نعمتان عظيمتان ، أمرهم بالعبودية وأداء الشكر .
أو نقول أنه تعالى لما كفاهم أمر الرحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب
هذا البيت ، فإنه هو الذي (أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) .

ومعنى الذي أطعمهم من جوع ، أى من بعد جوع بحمل
الميرة إليهم من البلاد في البر والبحر وقيل في معنى الآية : أنهم
لما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : اللهم اجعلها
عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجوع
فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون ، فدعا رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط
فذلك قوله تعالى (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) أى
بالحرم وكونهم من أهل مكة فلم يتعرض لهم أحد في رحلتهم . وقيل
آمنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالإسلام . والله اعلم .

ومن نظر في طريقة استدلال القرآن يرى العجب العجائب
ولا يكفيه إلا أن يضع يدك فيما يريد الاستدلال عليه بطريقة محسوسة

جاعلا في كل يء آية ، وتمهيد الطريق إليها نعمة [حتى رحلة الشتاء والصيف] بخلاف طريقتنا في كتب العقائد التي نذكر فيها الشبه والمعميات .

وإن شئت فانظر إلى مثل قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)^(١) . ثم يقول : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) . ثم يلفت نظرك إلى بعض آياته الأخرى فيقول . (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)^(٣) . ويزيدك بيانا فيقول (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)^(٤) .

ثم انظر كيف يلفت نظرك إلى الشمس والقمر وعجيب أمرهما وإتقان نظامهما فيقول :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)^(٥) .

(١) سورة يس ، الآية ٣٣

(٢) سورة يس ، الآية ٣٦

(٣) سورة يس ، الآية ٣٧

(٤) سورة القصص الآيات ٧٢ ، ٧٢

(٥) سورة يس ، الآيات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

ومن هذا القبيل قوله (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)^(١) .

هذا ، وألفت نظرك إلى هذا الاستدلال الواضح المختصر حيث يقول في الاستدلال على الله :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ)^(٢) ويقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)^(٣) ويقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)^(٤) ويقول في تعليمه لرسوله صلى الله عليه وسلم النظر في آياته ومخاطبته تعالى بها (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَيِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٥) . وهكذا كله آيات بينات وحكم بالغات .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وجلاء أحزاننا وذهاب همنا وغمنا ، برحمتك يا أرحم الرحمين .

(١) سورة يس ، الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٤ (٢) سورة الطور ، الآيات ٣٥، ٣٦

(٣) سورة النشأة ، الآيات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ (٤) سورة فاطر ، الآيات ٢٧، ٢٨

(٥) سورة آن عمران ، الآية ٢٧

تفسير سورة الماعون (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ .
وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) . هي مكية ، وقد
نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وقيل في غيره . ومعنى الآية :
هل عرفت الذي يكذب بيوم الجزاء والحساب ؟ فإن لم تعرفه (فذلك
الذي يدع اليتيم) .

وافظ (أَرَأَيْتَ) إستفهام والمراد به المبالغة في التعجب من حال
هذا المكذب بالدين . وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . وقيل
هو خطاب لكل أحد ، والمعنى : أَرَأَيْتَ الإنسان أو يأيها العاقل هذا
الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ؟ (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)
أى يقهره ويدفعه عن حقه . والدع : الدفع بعنف وجفوة . والمعنى
أنه يدفعه عن حقه وماله بالظلم ، وقيل بترك المواساة له وإن لم تكن
المواساة واجبة . وقيل يزجره ويضربه ويستخف به . وقرئ يدعو
بالتخفيف أى يدعو له لخدمته قهرا .

(وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) : أى لا يطعمه ولا يأمر
بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ، وهذا غاية البخل لأنه يبخل بماله
وبمال غيره فلا يأمر غيره بالإطعام .

قواه تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) يعنى المنافقين ، ثم نعتهم فقال
تعالى : (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) . روى البغوى بسنده
عن سعد قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين هم
عن صلاتهم ساهون ، فقال : المراد بذلك إضاعة الوقت .

وقال ابن عباس : هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن
الناس ويصلون فى العلانية إذا حضروا معهم لقوله تعالى : (الَّذِينَ
هُمْ يِرَاعُونَ) وقال تعالى فى وصف المنافقين : (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ
قَامُوا كُسَالَى يُرَاعُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)^(١)
وقيل ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل .

وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا . ولا يخافون عليها عقاباً
إن تركوا .

وقيل هم الذين إن صلوها صلوها رياءً ، وإن فاتتهم لم يندموا عنها .
وقيل هم الذين لا يصلونها لوقتها ولا يتمون ركوعها ولا سجودها .
وقيل لما قال تعالى : (عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) بلفظة (عن) ،
علم أنها فى المنافقين ، والمؤمن قد يسهو فى صلاته ، والفرق بين
السهوين أن سهو المنافق ألا يتذكرها ويكون فارغاً عنها والمؤمن إذا
سهوا فى صلاته تداركه فى الحال وجبره بسجود السهو .

وقيل السهو عن الصلاة هو أن يبتى ناسياً لذكر الله فى جميع
أجزاء الصلاة ، وهذا لا يصدر إلا من المنافق الذى يعتقد أنه لافائدة

في الصلاة ، فأما المؤمن الذي يعتقد فائدة صلاته وأنها عليه واجبة ويرجو الثواب على فعلها ويخاف العقاب على تركها فقد يحصل له سهو في الصلاة ، يعني أنه يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة بسبب وارد عليه بوسوسة الشيطان أو بسبب حديث النفس وذلك لا يكاد يخلو منه أحد ، فثبت بهذا الفرق أن السهو عن الصلاة من صفات المنافق والسهو في الصلاة من صفات المؤمن .

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) يعني يتركون الصلاة في السر ويصلونها في العلانية . والفرق بين المنافق والمرائي أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والمرائي يظهر الأعمال مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدين والصلاح . أما من يظهر النوافل ليقتردي به ويأمن على نفسه الرياء فلا بأس به .

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) روى عن علي أنه قال هي الزكاة ، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك . ووجه ذلك أن الله تعالى ذكرها بعد الصلاة فذهبهم على ترك الصلاة ومنع الزكاة .

وقال ابن مسعود : الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك ، وهي رواية عن ابن عباس .

وقال مجاهد : الماعون العارية . وقال عكرمة الماعون أعلاه الزكاة المفروضة وأدناه عارية المتاع .

وقال محمد بن كعب القرظي : الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم . وقيل الماعون الماء والملح والنار : ويلتحق بذلك البئر والتنور في البيت ، فلا يمنع جيرانه من الانتفاع بهما . ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيمة : فإن البخل بها في نهاية القبح . قال العلماء : ويستحب أن يستنكر الرجل في بيته ما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم بهذه الأشياء ولا يقتصر على الواجب . والله أعلم .

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (١)

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

يمدح الله تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأنه اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، وقد ورد في الحديث أنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء .

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبي فليح عن واثلة يعني ابن الأسقع ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضيئ من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن للأربع وعشرين خلت من رمضان) .

وقد روى من حديث جابر بن عبد الله أن الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان ، والإنجيل لثاني عشرة ، والباقي كما تقدم . رواه ابن مردويه .

(١) مجلة الأزهر - المجلد السادس عشر - الصفحة ٢٩٣ - السنة ١٣٦٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٥

وأما انصحف والتوارة والينجيل فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة . وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، كما قال تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)^(١) وقال : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ)^(٢) ثم نزل بعده مفترقا على حسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم . هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس .

وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل الله القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزة ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين ليلة منة نجواب كلام الناس . وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة ، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ، ولا يعجى المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه ، وذلك قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلَا يَأْتُوتَكَ بِمِثْلِ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)^(٣) .

أما قوله (هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) فهو مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه . (وَبَيِّنَاتٍ) أى ودلائل وحججا بيينة واضحة جليلة لمن فهمها وتدبرها ،

(٢) سورة الدخان ، الآية ٣

(١) سورة القدر ، الآية ١

(٣) سورة الفرقان ، الآيتان ٣٢، ٣٣

دالة على ما جاء به من الهدى المنافي للضلال ، والرشد المنافي للغى ،
ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) هذا إيجاب حتم على من شهد
استهلال الشهر إن كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو
صحيح في بدنه أن يصوم لامحالة . ونسخت هذه الآية الإباحة
المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدى ، وبإطعام مسكين
عن كل يوم كما في الآية المتقدمة .

(وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : معناه من
كان به مرض في بدنه بحيث يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان
على سفر فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من
الأيام ، ولهذا قال (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) أي إنما
رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر في حق المقيم الصحيح
تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

وها هنا مسائل تتعلق بهذه الآية ، إحداها : أنه قد ذهب طائفة
من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه
فليس له الإفطار لعذر السفر والحالة هذه لقوله (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ
الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر .

وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى عن
جماعة من الصحابة والتابعين . وفيما حكاه عنهم نظر ، فإنه قد ثبتت
السنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه خرج في شهر رمضان

لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبها الصحيحين .

الثانية : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان فمنهم الصائم ومنهم المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام. بل الذي ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين.

عن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان في حر شديد حتى أن كان أحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله ابن رواحة .

الثالثة : قالت طائفة منهم الشافعي أن الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- كما تقدم ، وقالت طائفة بيل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل عن الصوم في السفر فقال : « من أفطر فحسن ، ومن صام فلا جناح عليه » وقال في حديث آخر « عليكم برخصة الله التي رخص لكم » . وقيل إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال ما هذا ؟ .

قالوا صائم . فقال : « ليس من البر الصيام في السفر » أخرجاه

في الصحيحين .

الرابعة : القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق ؟ فيه

قولان : أحدهما أنه يجب المتتابع لأن القضاء يحكى الأداة . والثاني

لا يجب المتتابع بل إن شاء تابع . وهذا قول جمهور السلف والخلف

وعليه ثبتت الدلائل ، لأن المتتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه

في الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام عدة ما أفطر ، ولهذا

قال تعالى : (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) . والله أعلم .

تفسير سورة الكوثر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَر . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَر)

هى مكية على مذهب الجمهور. قوله عز وجل (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) الكوثر نهر فى الجنة أعطاه الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - . وقيل الكوثر القرآن العظيم . وقيل هو النبوة والكتاب والحكمة . وقيل هو كثرة أتباعه وأُمَّته . وقيل الكوثر الخير الكثير كما فسره ابن عباس . وهو ظاهر بدخول كل ما ذكر فيه . روى البخارى عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : إن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه .

والكوثر فوعل من الكثرة . والعرب تسمى كل شىء كثير فى العدد أو كثير القدر كوثرًا . وبعضهم يقول : الكوثر الفضائل الكثيرة التى فضل بها على جميع الخلق .

فكل ما جاء فى تفسير الكوثر قد أعطيه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، أعطى النبوة والكتاب والعلم والحكمة والشفاعة ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الأتباع والإسلام وإظهاره على الأديان كلها ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوح فى زمنه وبعده إلى يوم القيامة .

وأولى الأفاويل في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء أنه نهر في الجنة ، عن أنس قال : بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يارسول الله ؟ قال « أنزلت على أنفا سورة الكوثر » ثم قرأها ، قال أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتي ، فيقول ما تدرى ما أحدث بعدك .

وللبخارى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لما عرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طينته مسك أزفر .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما الكوثر ؟ قال نهر أعطانيه الله ، يعنى في الجنة ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجوزور ، قال عمر : إن هذه لناعمة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكلتها أنعم منها . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأشد بياضاً من الثلج . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وأخرج البخاري عن عامر بن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما- قال : سألت عائشة عن قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) فقالت : الكوثر نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم شاطئاه در مجوف آنيته كعدد نجوم السماء .

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « حوضي مسيرة شهر مأوه أبيض من الزبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبداً » .

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) معناه أن ناسا كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يصل له وينح له متقرباً إلى ربه بذلك . وقيل معناه : فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانح نسكك . وقيل معناه فصل الصلاة المفروضة بجمع وانح البدن بمنى . ومعنى الآية قد أعطيتك ما لا نهاية لكثرة من خير الدارين ، وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك ، فاعبد ربك الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل والخير الكثير ، وأعزك وشرفك على كافة الخلق ورفع منزلتك فوقهم ، فصل له واشكره على إنعامه عليك ، وانح البدن متقرباً إليه .

(إِنَّ شَأْنِيكَ) يعني عدوك ومبغضك (هُوَ الْأَبْتَرُ) يعني هو الأذل المنقطع دابره .

نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وذلك أنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- خارجا من المسجد وهو داخل فالتقيا عند باب بنى سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تتحدث معه ؟ فقال ذلك الأبتري ، يعني به النبي -صلى الله عليه وسلم- . وكان قد توفي ابن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من خديجة .

وقيل إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال دعوه فإنه رجل أبتري لآعقب له فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ورد عليهم اشنع رد ، فقال : إن شأنك يا محمد هو الأبتري الضعيف الوحيد الحقير ، وأنت الأعز الأشرف الأعظم . والله أعلم .

تفسير سورة الكافرون (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

تسمى المشقة أى المبرئة من الشرك والنفاق ، وتسمى أيضاً
سورة العبادة ، وكذا تسمى سورة الإخلاص . وهى عند ابن عباس
والجمهور مكية ، وآيها ست بلا خلاف ، وفيها إعلان ما فهم مما
قبلها فى قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ،
الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) ويكفى ذلك فى المناسبة بينهما .

أخرج أبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس مرفوعاً : « ألا أدلكم
على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تعالى ؟ تقرءون (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)
عند منامكم . وروى الديلمى قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« المنافق لا يصلى الضحى ولا يقرأ قل يا أيها الكافرون » . ويسن
قراءتها مع سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فى ركعتى سنة الفجر التى هى
عند الأكثرين أفضل السنن الرواتب ، وكذا فى الركعتين بعد المغرب .
وعند المالكية يقتصر على قراءة الفاتحة فى سنة الفجر . وهذه السورة
تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه وتعالى ، فصارت بهذا الاعتبار
ربع القرآن .

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) : قال أجلة المفسرين ؛ المراد بهم كفره من قريش مخصوصون قد علم الله أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبداً .
أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن سعيد مولى أبي البحتري قال لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود ابن عبد المطلب وأمّية بن خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا : يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا . فأنزل الله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) الخ .

وفي رواية أن رهطا من عتاة قريش قالوا له -صلى الله عليه وسلم- : هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آل هتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فقال عليه الصلاة والسلام : معاذ الله أن أشرك به سبحانه غيره . فقالوا فاستلم بعض آل هتنا نصدقك ونعبد إلهك . فنزلت . فغدا صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش فقام عليه الصلاة والسلام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا .

ولعل نداءهم (بيا) للمبالغة في طلب إقبالهم لئلا ينسوتهم شيء مما يلقي إليهم ، وبالكافرون دون الذين كفروا لأن الكفر كان دينهم القديم ، أو لأن الخطاب مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر فهو كاللازم لهم .

وفي ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك في ناديم ومكان بسطة أيديهم دليل على عدم اكتراثه صلى الله عليه وسلم بهم ، إذ المعنى قل يا محمد للكافرين : يا أيها الكافرون . (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون

ما أعبد ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . يترأى أن فيه تكراراً للتأكيد ، فالجملة الثالثة المنفية تؤكد للأولى على وجه أبلغ لاسمية المؤكدة . والرابعة تؤكد للثانية ، وهو الذي اختاره الطيبي وذهب إليه الفراء وقال إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عاداتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام ، فيقول المجيب : بلى بلى ، والممتنع لا لا ، وعليه قوله تعالى « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » .
وقول الشاعر :

هـ لا سأل جموع كذبة يوم ولوا أين أيننا

وهو كثير نظماً ونشراً، وفائدة التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقق أنهم باقون على الكفر أبداً . هذا ، والمعنى : لأفعل في المستقبل ما تطلبونه من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلمون فيه ما أطلب من عبادة إلهي ، وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه ، وما عبدتم في وقت ما ما أنا على عبادته .

ونفي عبادتهم في الحال أو الاستقبال معبوده عليه الصلاة والسلام بناءً على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإثراء المحيط لها رجعها هباءً منثوراً :

إذا صافي صديقك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلام

(لَكُمْ دِينُكُمْ) هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) كما أن قوله تعالى (وَلِي دِينِ) عندهم تقرير لقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) . والمعنى أن دينكم وهو

الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول إلى
كما نظاميون فيه فلا تعلقوا أمانكم الفارغة فإن ذلك من المحالات ،
وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه
إلى الحصول لكم لأن الله تعالى قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم ،
أو لأنكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي لها .
والله أعلم .

الجزء الرابع
الفتاوى

تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ

جاءنا هذا السؤال من أحد تجار الفردقة :

عندنا رجل كلما ذكر بمجلسه تعليم القرآن يقول : هذا الزمن ليس زمن القرآن وليس في تعليم القرآن فائدة ، إنما الفائدة كلها في تعليم المدارس . وكلما اجتمع بمن له ابن في المكتب الذي يعلم القرآن يقول له هذا خطأ منك لأن القرآن ليس فيه فائدة ، والاشتغال به تضييع زمن على الأولاد ، فنرجو أن تبينوا ماذا عليه شرعاً في النهي عن تعليم القرآن .

حسن مدني أحمد
التاجر بالفردقة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .
هذا الرجل الذي ينهى عن تعليم القرآن ويذم من يتعلمه قد ارتكب إثماً عظيماً واقتترف ذنباً كبيراً هو من أكبر الكبائر ، وفي الوقت نفسه غاش للامة غير ناصح لها حتى في دنياها ، فإن الأمة ما تدهورت هذا التدهور الأدبي والمادي إلا بالتفريط في دينها وتضييع العمل بكتابها وسنة نبيها والقضاء عليه بسبب تلك التعاليم الإلهادية .

وأما قوله : إن الفائدة كلها في المدارس . فقول باطل ورأى جاهل .
فإن الدين يغرس في قلبك الصدق في القول والعمل ، والاستقامة والإخلاص

ومراقبة الله عز وجل في كل شيء . وغير خاف عليك ما يترتب على ذلك من تقدم التجر في تجارته ، والزراع في زراعته والصانع في صناعته ، وتعلم القرآن يحث على تعلم العلوم النافعة ، وعلى الأخذ بكل مفيد صالح من الصنائع والفنون فالدين هو أكسير الحياة الطيبة . ومنبع القوة الروحية ، والبهجة النفسية .

وقد قال تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً)^(١) . ولم يدع مفهوم ذلك من سوء الحياة ومرارة العيش لمن لم يكن كذلك ، بل صرح ، به في سورة أخرى فقال : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)^(٢) وأتى بمن التي هي من صيغ لعموم تنبيهاً على أنه لا سبيل إلى الراحة ، ولا وسيلة [للسعادة غير الدين . فإن السعادة الحقيقية ليست إلا في النفوس ، ولا يصلح النفوس وينتقيها من أضرارها التي تشتملها وتتعبها غير الدين .

ولنسق لك بعض ما جاء في السنة مما يناسب هذا الموضوع :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَلْيَ لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرَبِ » رواه الترمذى : الحاكم . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَصْغَرَ الْبُيُوتِ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ كِتَابِ اللَّهِ » رواه الحاكم موقوفاً وقال : رفعه بعضهم .

(١) سورة النمل ، الآية ٩٧

(٢) سورة ، الآية ١٢٤

وعن عثمان بن عفان -رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال :
« خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » رواه البخارى ومسلم وأبو داود
والترمذى والنسائى وابن ماجه . وعن أبى أمامة الباهلى -رضى الله عنه-
قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ
يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ » الحديث . رواد مسلم . وعن سهل
ابن معاذ عن أبيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « مَنْ قَرَأَ
الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ أَلَيْسَ وَالِدَاهُ تاجاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ
الشمسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِ » رواه أبو داود
والحاكم . وعن عبد الله بن عمرو -رضى الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- قال : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ ،
غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ ، لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ
وَجِدَ وَلَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ جَهَلَ وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللَّهِ » رواه الحاكم وقال :
صحيح الإسناد .

وعن أنس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« إِنَّ لِلَّهِ أَهْلَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، قالوا : مَنْ هُمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال :
« أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمَ أَهْلُهُ وَخَاصَّتُهُ » رواه النسائى وابن ماجه والحاكم .
وعن أبى ذر -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَعُدُّوا فَتَعَلَّمُوا آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ
مِائَةَ رُكْعَةٍ ، ولأن تَعُدُّوا فَتَعَلَّمُوا بَاباً مِنَ الْعِلْمِ عَمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ
مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رُكْعَةٍ » . رواد ابن ماجه بإسناد حسن .

وعن علي - رضی اللہ عنہ - قال : أما إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « أما إنها ستكُونُ فِتْنَةً ، قلت : فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِ أَضْلُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ حَسْبُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْأَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ إِذْ مِمَعَتُهُ حَتَّى قَالُوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ » (١)

مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . « أخرجہ الترمذی .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِينَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَيَحْفَظَنَا مِنْ مَضَلَاتِ الْفِتَنِ
بِمَنَّةِ وَكَرَمِهِ .

هل تم شرب الدخان في مجالس القرآن

جاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

.... نرجوا أن تفتونا في حكم شرب الدخان في مجالس القرآن على صفحات نور الإسلام) ولكم منا الشكر ومن الله جزيل الثواب .

محمد عبد الرحمن

مدرس بدمنهور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه . أما بعد فقد سألت عن حكم الدخان في مجالس القرآن ، ولنذكر قبل ذلك حكم الدخان في نفسه ثم نتبعه بما سألت عنه ، فنقول : إن الدخان من الأشياء المستخدمة التي لم تكن معروفة في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا في عهد السلف الصالح والمتقدمين من الأئمة المجتهدين وأتباعهم ، وإنما ظهر في آخر القرن العاشر الهجري كما نص عليه اللقاني في رسالة وضعها فيه .

لهذا لم يكن لتناوله حكم منصوص في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما هو الشأن في كثير من الرقائق

المعروفة في عهد الوحي والتنزيل ، ولم يستنبط الأئمة المجتهدون ولا المتقدمون من أصحابهم حكمه من الكتاب والسنة كما هو شأنهم في تعريف أحكام الجزئيات التي عرضت مما لم ينص عليه لعدم وجوده إذ ذاك .

وقد وقع للمتأخرين خلاف في حكم تناوله ، فمنهم من قال بحله ومنهم من قال بحرمته . والحق في ذلك أنه لا ينبغي إطلاق القول بالحل والحرمه فإن الحكم بأحد الأمرين على الإطلاق لا يخلو عن إفراط أو تفريط . ، فإذاً يجب النظر لحال شاربِه وما يترتب على شربه ، فمن كان يضره شرب الدخان ويؤثر في صحته حرم عليه شربه للإجماع على تحريم ما يؤذى البدن ، فإن حفظ البدن من الكليات التي أجمعت الشرائع على وجوبه ومن لا يضره شربه ولكن يحتاج لثمنه في ضرورياته المعيشية سواءً أكان ذلك لنفسه أم لمن تجب عليه نفقته كزوجته وذوى قرابته حرم عليه شربه أيضاً ، وإن لم يكن هناك ضرر بدني أو مالي فلا وجه للحرمه . ويمكن الرجوع في تعرف الضرر البدني إلى الأطباء ، وأما الضرر المالي فأمراً يعرفه الإنسان من نفسه .

ومن الناس من يزعم أن شرب الدخان حرام على الإطلاق مستنداً في ذلك إلى كونه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، وهو في ذلك مخطئ ، فإن البدعة المنهى عنها شرعاً هي الأمر المحدث الذي لم يشهد بجواز أصل من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس ، إلى آخر ما قرره العلماء ، وكيف يسوغ القول بأن كل محدث محرّم ، وكثير من الملابس والأزياء وغيرها لم يكن معروفاً في عهد النبي -صلى الله عليه

وسلم-ولا في عهد الصحابة والتابعين ، ولا يصح الحكم عليه بالتحريم
لمجرد كونه محدثاً .

هذا حكم الدخان في ذاته .

أما شربه في مجالس القرآن فهو حرام ، فإن المطلوب شرعاً من
حاضر مجلس القرآن الإصغاء إليه والتدبر لمعانيه ، قال تعالى :
(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (١) .
وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (٢) . ومعلوم أن زيادة الإيمان بسماع ما يتلى
من القرآن إنما يكون بالإصغاء إليه والتدبر لمعانيه ، ولا يتم مع التلهي
بشرب الدخان .

على أنك تعرف ما في شربه من الإخلال بالتوقير والإجلال ، وهو
لا يشرب في حضرة الأمراء والعظماء إجلالاً لهم ، فكتاب الله أحق
بالإجلال والتوقير ، مع ما في شربه من الإيذاء لغير من يشربه من
الحاضرين ، فإن له رائحة كريهة يتضرر بها من لم يتعود شربه نظير
ما قالوه في حرمة حضور المجمع والمجالس لمن أكل ثوماً أو بصلاً ولم يجد
ما يزيل به رائحته ، حتى أباحوا له التخلف عن الجمعة نظراً لما يترتب
على ذلك من تآذي الناس وضررهم ، فضلاً عن تآذي الملائكة الذين
يحضرون مجالس الخير التي من أفضلها مجالس القرآن .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢

والمخالصة أن شرب الدخان في مجلس القرآن محرم للإيذاء ومناف
للأدب المطلوب من الحاضرين والتدبير لسماع الذكر الحكيم .

وأما شرب، في غير ذلك فقد يكون محرماً وقد لا يكون ، إلا أنه
لا يصل إلى الإباحة الصرفة على مايقول بعضهم ، فتركه حينئذ من
الورع . وقد قال صلى الله عليه وسلم « دَعَّ مَا يُرِيْمُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ »

حكم شرب الدخان في المساجد

وجاءتنا من حضرة السائل ما نصه :

س : أفيدونا على صفحات مجلة الأزهر (نور الإسلام) عن حكم شرب الدخان في المساجد زادكم الله علماً . والسلام عليكم ورحمة الله .

حسن عمران
العلاقة شرقية

الجواب

ج : صرح علماء المالكية بأن أكل البصل والثوم ونحوهما في المسجد حرام ، وكذا دخول آكلهما ، حتى جعلوا من أسباب التخلف عن صلاة الجمعة أن يأكل شيئاً من ذلك ولا يجد ما يزيله ، وسر ذلك عندهم هو تأذى الناس المجتمعين للجمعة ، وكذلك الملائكة الذين يحضرون مشاهد الخير مع المؤمنين . فإن ثبت أن للدخان رائحة كريهة يتضرر منها الناس والملائكة على نحو ما ذكرنا كان شربه في المسجد حراماً كما كل البصل والثوم .

ونرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيها الأنظار ، وإذا رجحنا فيها شيئاً

فإننا نكتب عن رأينا وعن رأى فريق من علمائنا، والخير كله في
التوسط والابتدال، والشر كله في الإفراط والتفريط، وكثيراً ما نلاحظ
في المسائل ما يترتب عليها، وما عسى أن تجر إليه.

ولنقتصر اليوم على هذا. وموعدنا في بقية المسائل العدد المقبل
إن شاء الله.

حديث: لا يبيع حاضر لباد»

ورد إلى إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

جاء في مجلة (الأزهر) في (العدد الخامس من المجلد الرابع) صفحة ٢٤٥ في بعض فتاويكم في البيع بالزيادة الفاحشة حديث استدلتكم به ، وهو « لا يبيع حاضر لباد ، دَعُوا النَّاسَ فِي غَفَلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » . ونريد أن نعرف من خرج هذا الحديث ، وهل هو صحيح أم لا ؟ ثم إن الجملة الأولى في الحديث تفيد النهى عن بيع الحاضر للباد ، والجملة التي تليها وهي : « دَعُوا النَّاسَ فِي غَفَلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » تفيد عدم النهى عن البيع .

|| فظاهر الحديث يفيد التناقض ، وكذا يفيد عدم النصح للناس بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ . ||

فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع ، وإثبات أيهما أصح ، وأيها يوافق الشريعة الغراء . والسلام عليكم ورحمة الله .

أحمد إبراهيم محمود

بقنا

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

الحديث صحيح لا شك فيه ، وقد أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما كما ستعرف ، غير أن لفظه (فى غفلاتهم) مدرجة من بعض الرواة ، وهو هكذا فى كتب الفقه بهذا الإدراج ، والفقهاء كثيراً ما يكون ما يذكرونه مثل هذا الإدراج ، كثيراً ما يروون الحديث بالمعنى ، وهو جائز على الأصح عند المحدثين للعالم العارف بالمعنى المقصود .

أما قولك : إن فيه تناقضاً بين قوله : « لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ » وقوله : « دَعَا النَّاسَ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » فغير واضح ، لأن المعنى أن الحاضر العارف بأثمان السوق لا يكون سمساراً للبادى الذى يجهلها ، فلتدع من جاء من البادية يبيع باجتهاده ، ويأخذ منه المشتري باجتهاده .

والبيع والشراء مبنيان على الغالبة والاجتهاد من كل من البائع والمشتري . فالجملة الثانية وهى قوله : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » مؤكدة لما يستفاد من الأولى وهى قوله : « لا يبيع حاضر لباد » لامتناقضها لها كما تقول .

وأما قولك : إن فى ذلك عدم النصح فغير واضح أيضاً ، لأننا لم نعمل عملاً يسمى غشاً ، ولا قلنا قولاً يخالف الحنيفة أو يعد كذباً ، وليس فى المسألة إلا ترك البائع يبيع كما يشاء ، والمشتري يشتري كما يشاء . وسنة البيع والشراء مبنية على أن الصفقة تكون رابحة للمشتري مرة وللبائع أخرى ، ولا شىء فى ذلك ما لم يوجد غش

أو كذب أو تلبيس ، وكل ذلك منفي في موضوعنا هذا . وأظن أن الأمر صار واضحاً لا شبهة فيه .

أما الحديث المذكور فهو صحيح ، رواه كثير من المحدثين تارة باللفظ وتارة بالمعنى :

فعن جابر رضى الله عنه قال : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، وَدَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ »
أخرجه مسلم في صحيحه ، وأبو داود في سننه ، والترمذى في جامعه ،
والنسائى في صحيحه .

وفي أخرى للبخارى ومسلم وأبي داود والنسائى عن أنس : « نَهَى عَنْ بَيْعِ حَاضِرٍ لِبَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمَّهُ » . وفي أخرى لأبي داود والنسائى « وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ أَوْ أَبَاهُ » ، إلى غير ذلك ، والله أعلم .

الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» بعد المغرب

وورد أيضًا من حضرة صاحب التوقيع هذا السؤال :

مولاي : كثير من الناس يصلى على النبي بعد السلام من صلاة المغرب بصيغة « اللهم صل عليه » مائة مرة ، فهذا جعلنى غير مستريح الخاطر من جهة هذه الصلاة ، فلذا اضطررت للكتابة إلى فضيلتكم فى هذا الصدد ، راجياً التكرم بالرد على صفحات (مجلة الأزهر) حتى يتميز الحق من الباطل . وأبتهل إلى الله تعالى بالدعاء أن يعلى شأنكم ويطيل عمركم .

وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

عبد المجيد أبو بكر عزت

مدرس بمدرسة الحوطة الغربية الالزامية

الجواب

الاستغفار والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - والدعاء عقب كل صلاة مفروضة مندوب مرغّب فيه . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أَنْ رَفَعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ » . ولا فرق بين كون ذلك من واحد أو من جماعة ، غير أن رفع الصوت إذا أدى إلى التشويش على المتلبسين بعبادة أخرى من صلاة أو تفكير ونحو ذلك ، منع ، لعارض التشويش ، وعليك بالاعتدال ، وإياك والإفراط فى كل ما تأتى وتذر .

وأما الصيغة التي يصلى بها على النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو مخير فيها وكذلك العدد الذي يشاؤه ، وكلما أكثر ازداد من الخير . غير أنه يطلب منه ألا يقتصر على الصلاة ، بل يضم إليها السلام ، ويذكر الآل أيضًا ، فهذا هو الأكمل والأفضل . وربما أفضنا في بيان فضل الصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - في فرصة أخرى إن شاء الله .

الرضاع^(١)

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

يوجد ببيدة الحمامولى التابعة لمركز أبشواى بمديرية الفيوم رجل عالم تلقى العلم بمعهد طنطا من زمن ، يفتى لأهل بلده وضواحيها بأن الداية التى تولد النساء وترضع البنين والبنات بمجرد وضع الحمل لمدة يومين وثلاثة حتى ينزل اللبن بثدى المرأة التى وضعت حملها لا يحرم زواج بعضهم لبعض . وكذا الغزيرة التى ترضع أطفال البلد الذكور والإناث ، فإنهم كمنفعة عامة ، فهن لا يحرمن أحداً على أحد . ومثلهن المستأجرة التى ترضع ابن هذا وبنت ذاك . ثم قال : إن الجارة إذا أرضعت أولاد الغير لا يحرم بعضهم على بعض ، والحرمة لا تكون إلا للمرضعة نفسها ولأصولها وفروعها فقط ، لمن أرضعته ، سواء أكانت غزيرة أو داية أو جارة أو مستأجرة .

فألتبس من مكارم فضيلتكم الإجابة الشافية عن هذا الموضوع ، جعلكم الله نوراً وهدى للناس فى الدارين .

الفضيلى ابراهيم عوض

رئيس مدرسة الحمامولى الانزامية - فيوم

الجواب

كل من أرضعتهم القابلة من أطفال النساء بعد الولادة يصيرون إخوة من الرضاع لا يجوز بعضهم لبعض . وكذلك جميع من أرضعته المرأة المستأجرة من أولاد الناس يصيرون إخوة بالرضاع : لا يجوز

نكاح الذكر منهم للأُنثى : وأيضاً جميع من أرضعته المرأة المغنية المشهورة بالغزية من أطفال الناس عند جوبها بالبلاد إخوة من الرضاع لا يجوز نكاح بعضهم لبعض .

قال الله تعالى في بيان المحرمات : (وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ) (١) .

وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وقد حكى بعضهم الإجماع على أن الرضاع يحرم كالنسب إلا في مسائل ليست هذه منها .

(١) سورة النساء ، الآية ٢٣

النشوق في رمضان - الزنى

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤالان الآتيان :

قال السائل بعد الديباجة :

١ - هل للنشوق مباح في رمضان أم لا ؟ أرجو شرح حكمه بالبيان

الشافى .

٢ - زنى رجل بامرأة فهل يجوز له أن يتزوج ابنتها ؟ أرجو أن

تفتونا في ذلك بحكم الشرع الشريف حتى يتبين الرشد من الغي . جزاكم
الله عنا خير الجزاء .

محمد محمد عمر شاهين

مدرس بمدرسة بركة الرطلى الالزامية

الجواب

١ - يمنع النشوق وشرب الدخان . ومتى وصل النشوق أو الدخان
للحلق أدى إلى الفطر ووجب القضاء . ويكره مضغ شيء كاللادن أو
التمر يمضغ لإطعام صبي مثلا ، فإن تحلل منه شيء ووصل إلى الحلق
أفطر الصائم ووجب عليه القضاء ، وإلا فلا .

٢ - الأرجح من مذهب مالك أن من زنى بامرأة جاز له أن يتزوج
ابنتها التي لم تتخلق من مائه ، لأن الزنى لا قيمة له في نظر الشارع
في مثل هذا ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلا ينشر الحرمة ،
والمقابل يقول بالتحريم . أما بنت الزنى التي تتخلق من مائه فلا يجوز
له التزوج بها ، خلافا للشافعية ، ويوافقهم ابن الماجشون من المالكية .

وقد قال في أقرب المسالك : «ولا يحرم الزنى على الأرجح» .
قال الشارح : «فمن زنى بامرأة جاز له أن يتزوج بأصولها وفروعها ،
وجازت هي لأصوله وفروعه» وقال في الرسالة : «ولا يحرم بالزنى
حلال» .

وقال في متن الدردير أيضا : «وحرم الأصل والفرع وإن من زنى» .
أي يحرم على الشخص نكاح أصله كأمه وجدته ، كما يحرم عليه
نكاح فرعه ، سواء أنشأ عن نكاح أم عن سفاح كالبنات التي
تخلقت من مائه ، والله أعلم .

الصَّلَاةُ خَلْفَ الْمَخَالِفِ

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقييع دايئتي :

١ - رجل مالكي المذهب صلى الظهر خلف إمام شافعي ، وبعد تمامها أعاد الإمام صلاته مع جماعة أخرى ، فهل صلاة المالكي صحيحة أم لا ؟

٢ - رجل مالكي المذهب صلى إماماً لشافعية ، وبعد الصلاة أعادوا صلاتهم خلف غيره ، فماذا يكون الحكم : هل صلاته صحيحة أم لا ؟

زيدان سعد راجب الطحاري

الجواب

صلاة المالكي في الضورتين صحيحة . أما في الأولى فلأنها فرض خلف فرض ، وإعادة الشافعي لها لا يودي إلى كون صلاته الأولى وقعت نافلة حتى تبطل صلاة المالكي خلفه . فهذا هو الذي ينبغي التعويل عليه ولا يلتفت لخلافه .

وأما في الثانية فلأن الإمام المالكي أدى صلاته مستوفية لشروطها وأركانها ، فلا يؤثر فيها إعادة المأموم الشافعي بعد الفراغ ولو تكررت مرارا ، والله أعلم .

الأيمان غير المعتبرة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

إمام مسجد تفوهه بالأفاظ تجعله في عداد الفقراء غير الصابرين ،
فسمع هذا القول رجل يحقده على الإمام فقال : « أكون على غير دين
الإسلام إن صليت خلف هذا الإمام » . ومن هذا اليوم ترك الصلاة
خلف الإمام حتى فريضة الجمعة ، فهل يعتبر ذلك يمينا يجب التكفير
عنه ؟ أرجو الإيضاح ولفضيلتكم أجمل الشكر .

استبان ابراهيم منصور مساعد

الجواب

من قال : هو يهودى أو نصرانى إن فعل كذا ، لا يلزمه غير
الاستغفار ولو فعل المحلوف عليه . قال الشيخ العدوى في حاشية
أبى الحسن بعد كلام : « ولو قال إن فعل كذا يكون مرتدا أو على غير ملة
الإسلام فكذلك » يريد لاشيء عليه غير الاستغفار ، لأن هذه الألفاظ
لا تعتمد بها يمين . واليمين إنما تكون بالحلف بالله أو صفة من أضافته ،
والله أعلم .

يوسف الدجوى المالكي

الكراء

وورد من حضرة صاحب التوقيع سؤال قال فيه بعد الديباجة :

إن إنسانا اكترى حانوتا من آخر بخمسة وسبعين فرنكا في كل شهر ، فإذا انقضى الشهر أعطى صاحب الحانوت ما ذكر ، ولا زالا على ذلك مدة تتفق عن سنتين ، ثم إن المكري قال للمكترى : عجل لي كراء ثلاثة أشهر وأكرها لك بستين فرنكا . وعقدة الكراء الأول لازالت على حالها بحيث إذا تمت الثلاثة الأشهر رجعا للكراء الأول ، وهو خمسة وسبعون فرنكا . فهل هذه المسألة تجوز أم لا تجوز؟ فذهب الفقير وهو كاتب الحروف لفضيلتكم إلى الجواز ، لأن مسألة ضع وتعجل المنصوص عليها بالمنع عند الفقهاء لا تجيء منا لعدم الدين بالكلية في ذمة المكترى .

وذهب الغير من حذاق بلدنا إلى المنع متمسكا بتلك القاعدة ، لأنه إذا انتزعى الأجل يتبعض من نفسه لنفسه تلك الزيادة وهي خمسة عشر فرنكا ، وقد قرروا أن من عجل ما أجل عد مسلفا ، فيكون سلفا جر نفعاً ، فقلت له : إنما يظهر ذلك لو كان المكترى ذمته عامرة بالدين ، وحيث أنه لا دين عليه بالكلية فأى شيء يضعه حتى يحكم على هذه الصورة بالمنع ، وتكون حينئذ من مشمولات ضع وتعجل ؟ فصمم على المنع .

أؤمن أجل هذا الاضطراب كاتبت فضيلتكم قاصداً تبين ما هو الحق في المسألة - : أهو الجواز أم المنع ؟

ابن فقرون أحمد بن الحاج القربى المالكي

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فجوابنا عما سألت عنه هو أن صورة الحل التي لاشك فيها هي ألا يكون المكري والمكترى متمسكين بالعقد الأول ، ولا متفقين على ما فيه . ولهما بعد الأشهر الثلاثة أن يرجعا إليه إن شاءا ، وأما ما دام الاتفاق بينهما على أن العقد الأول باق كما في نص السؤال ، فالحيلة واضحة ، ونقص الأجرة إنما هو للتعجيل . فإن العقد الأول لم ينفسخ ، وسيرجعان للعمل به بعد تلك المدة بناءً على ما بينهما من الاتفاق ، وهنا ظاهر جدا في أنه لم يبطل أثره ، وأن النقص إنما هو للتعجيل ، والعقد على ما هو عليه . وقد يكون هذا في أثناء الشهر .

والعمل على أن الشهر متى حل لزم الأجرة المكترى ، بل تسليم المفاتيح وتمكينه من الانتفاع يعد قبولا والتزاما لأجرة الشهر في العرف .

وبهذا الاتفاق القولي أو العرفي الجاري مجرى المعاطاة في البيع صارت ذمته مشغولة بأجرة هذا الشهر على مقتضى العقد الأول ، فإذا عجل له ستين فرنكا عد مسلفا وقد انتفع بالخمسة عشر الباقية ، ولا مناص من ذلك في الشهر الأول الذي حصل فيه الاتفاق على النقص والتعجيل . على أن ذلك إن كان في آخر الشهر وقبل حلول الشهر الذي

يليه فلا يجدي أيضا ، لاتفاقهما على بقاء العقد الأول كما هو مصرح به في نص السؤال .

هذا هو مقتضى قواعد مذهب مالك الذي مبناه على منع الحيل وسد الذرائع .

فالمخلص ألا يكون بينهما اتفاق أصلا ، وأن يخرجنا من الاتفاق الأول الذي كان في العقد الأول إلى اتفاق جديد ساكتين عما وراء ذلك . ولهما بعد انقضاء المدة أن يرجعا للعقد الأول إن شاء . أما الاتفاق على بقاء العقد كما هو صريح السؤال فلا ينبغي أن يفعله من يستبرئ لدينه وعرضه . وملاك الدين الورع :

ولايسهل على وأنا مالكي عمري أن أفتي بغير هذا ، والله يتولى
هانانا جميعا بمنه وكرمه .

القراءة على الأموات^(١) وكون الله في السماء

جاءنا خطاب مطول من الأستاذ محمود علي أحمد المدرس بمدرسة المنتزه ، تكلم فيه عن التوسل وأنه يجب أن يكون قاصراً على الأعمال ، وعن القراءة للميت . ويرى حضرته أنه لافائدة فيها للأموات ، وعن كون الله في السماء . ويرى وجوب ذلك وأن القرآن يدل عليه وكذا السنة .

أما التوسل بالأعمال فهو مشروع ، به ورد الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخارى وغيره ، ولكن التوسل ليس مقصوراً على هذا وإنما هو نوع من أنواعه ، فإن سر التوسل أن تسأل الله بما أحب من الأعمال الصالحة أو غيرها : كأن تسأله بصفاته العليا وأسمائه الحسنی ، أو بمن أحب : كأن تسأله بأنبيائه وأصفیائه . ولا وجه لقصره على الأعمال كما يرى حضرته بل كل محبوب لله يصح التوسل به سواء كان عبداً أو غيره ، والنبي أشد حباً لله من جميع مخلوقاته لا يوازيه في ذلك عمل ولا غير عمل .

وقد أوسعنا الكلام في ذلك بما يشفى ويكفى : فارجع إليه إن شئت . ولاداعي لأن نطيل بذكر كلام السائل في هذا .
القراءة على الميت :

كتب السائل كثيراً نقتصر منه على المهم . والكاتب يرى أن القراءة بدعة لافائدة فيها للميت .

(١) مجلة الأزهر - العدد الأول - المجلد الثاني - المحرم سنة ١٣٥٠

قال العلامة ابن عابدين في شفاء العليل : « وظهر في هذه السنة الإيضاء بدراهم تدفع لقراءة الصمدية » وتاريخ الفراغ من تأليف هذه الرسالة سنة ١٢٢٩ أى أنها بدعة منذ ١٢٠ سنة .

وقال العلامة الذروي في شرحه لصحيح مسلم : « وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها للميت فذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أنها لا تلاحق بالميت ، وقال الإمام البركزي في خطبة له : « والصلاة والسلام على حبيبه الذي نهي أمته عن الأكل بالقرآن والدين » وقال الإمام الفيروزبادي : « ولم يكن من عادة السلف أن يجتمعوا للميت ويقرءوا له القرآن الخ » .

ثم قال السائل مفرعا على ذلك : « فكل ما لم يكن مشروعاً منع التعبد به وهو مردود على صاحبه ، وإذا كان كذلك فما وجه التعبد فيما لافائدة فيه لميت ؟ ويستفاد من ذلك أن قراءة القرآن لم تشرع للآموات ، وسوء كانت القراءة بسورة (الإخلاص) أو غيرها من القرآن فلم تشرع البتة . وأما حديث « اقرءوا على موتاكم يس » فقد نقل عن الدارقطني أنه قال : « هذا حديث مضطرب الإسناد مجهول المتن ولا يصح » ووافق على ذلك الإمام الرازي في شرحه للجوامع الصغير . هذه عيون ما كتب السائل في موضوع القراءة .

ونحن نقول له :

(أولا) إننا إذا كتبنا عن شيء سئلنا عنه فإنما نذكر ما نرجحه من آراء العلماء في المسألة ، وليس معنى ذلك أنه لا خلاف فيها ، بل معناه

أن المختار هو ما ذكره ، وقلما تجد مسألة مما يسأل عنه السائلون لاختلاف فيها . ولهذا ننصح لكل مشفق على دينه محتاط في أمره أن يكون أحد رجلين : فإما باحثاً منقبا عن كل مقال العلماء غير مقتصر على بعض الآراء ، ولا مغتر بما يزينه كثير من أرباب الأهواء ، ويكون مع ذلك فيه أهلية المقارنة بين الأقوال ، والموازنة بين الأدلة ، قد جرد نفسه من النزعات الخفية قدر الاستطاعة بحيث يكون متهماً لنفسه غير مسارع للحكم بما يراه أول وهلة : شأن أئمة الهدى وعلماء السلف الذين كانوا يحتاطون لدينهم ويخافون على أنفسهم ، وسيرتهم في ذلك معروفة مشهورة . هذا أحد الرجلين .

أما الرجل الثاني فهو رجل نظر لنفسه بالإنصاف فرآها قاصرة عن بلوغ ذلك المدى ، ورأى الأدلة متشعبة والأمر واسعاً يحتاج إلى فهم دقيق وعلم غزير يحيط بالأدلة وما يعارضها ، وبالعمومات وما يخصصها وبالملقات وما يقيدها ، وبالنصوص وما ينسخها ، وبالظواهر وما يقدم عليها ، وبالضعيف وما يرجح عليه ، إلى آخر ذلك البحر الزخار ، فعرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فاختار ما عليه السواد الأعظم من المسلمين ، ولم يشذ عنهم في قليل ولا كثير ، عالماً أن الذئب إنما يأخذ الشاة القاصية .

ويكفي أن نستشهد في هذا الموضوع بأن الكاتب حفظه الله نظر في كتب أعرفها أنا ويعرفها هو فخرج منها بعقيدة أن الله في السماء ،

وسنفيض القول فيها . ولنرجع إلى مناقشة الأستاذ في بعض ما قال
فنقول :

إن الذى نقله عن ابن عابدين إنما يفيد كون الإيصاء هو الذى
حدث فى السنة التى ذكرها للقراءة التى هى محل النزاع . ثم ليسمح
لنا أن نسأله : لماذا لم ينقل عن الرسالة المذكورة إلا هذه العبارة ،
وفىها كثير مما يؤيد رأينا من وصول القراءة للأموات ؟ ! وكذا عبارة
صاحب القاموس لا تفيد غير أن الاجتماع للقراءة على نحو مخصوص
بدعة ، وليس هذا محل النزاع . على أن فى « سفر السعادة » أشياء
كثيرة أخذت عليه .

أما عبارة البركوى فهى ناطقة بأن النهى إنما هو عن الأكل
بالقرآن والدين . وأين هذا مما نحن فيه ؟ والعجب كل العجب بعد
ذلك من نتيجتك التى استخلصتها من تلك النصوص حيث تقول :
فالقراءة على الأموات لم تشرع البتة وقد أغفلت آراء محترمة لعلماء
محترمين من أئمة الهدى لم تقم لها وزنًا ، وليس هذا من شأن من
خلا من العصبية وتجرد عن الأهواء ودعا للحق والهدى بنزاهة وإخلاص .
ولا أدل على أن هناك شهوة خفية مما ذكرته حضرتك فى حديث
« اقرءوا يس على موتاكم » عن الدارقطنى ، وكان الواجب أن تذكر
ما قاله غيره فى الحديث أيضًا .

قال فى (نيل الأوطار الجزء الرابع ص ٥٢) : « اقرءوا يس على
موتاكم » أخرجه أبو داود وأحمد فى مسنده والنسائى وابن حبان
وصححه . وقال أحمد فى المسند : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان

أن المشيخة كانوا يقولون إذا قرأت - « يعني يس » - لميت خفف عنه بها . وأسنده صاحب مسند الفردوس ، وقال الطبري في الحديث : « إن المراد الميت الذي فارقت روحه . وحمله على المحتضر قول بلا دليل » أو نقول : مجاز بلا قرينة ، وقد ذكر شراح الكنز في مذهب الحنفية أن كل عمل صالح يصل ثوابه إلى الميت سواء كان قراءة أو غيرها . فلينظر حضرة الكاتب هذا مع ما استنبطه من عبارة ابن عابد بن الحنفى . وأما ما نقله عن الإمام النووي في شرح مسلم فلا أجد عنه جراباً أحسن من أن أنقل لك نصوص الشافعية أنفسهم :

قال في (شرح الروض في كتاب الإجارة) : فرغ الإجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدرها معلوماً جائزة للانتفاع بنزول الرحمة حيث يقرأ القرآن كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن ويكون الميت كالحى الحاضر سواء أعقب القراءة بالدعاء أو جعل أجر قراءته له أم لا ، فتعود منفعة القراءة إلى الميت فى ذلك ، ولأن الدعاء يلحقه ، وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بركة ، ولأنه إذا جعل أجره الحاصل بقراءته للميت فهو دعاء بحصول الأجر له فينتفع به . فقول الشافعى « إن القراءة لا تصل إليه » محمول على غير ذلك .

بل قال السبكي تبعاً لابن الرفعة بعد حمله كلامهم على ما إذا نوى القارئ أن يكون ثواب قراءته للميت بغير دعاء : على أن الذى دل عليه الخبر بالاستنباط . أن القرآن إذا قصد به نفع الميت نفعه ، إذ قد ثبت أن القارئ لما قصد بقراءته نفع المملوغ نفعته ، وأقر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « وما يدريك أنها رقية » وإذا نفعت الحى بالقصد كان نفع الميت بها أولى لأنه يقع عنه من العبادات

بغير إذنه ما لا يقع عن الحي . وفي (الرملى على المنهاج) فى باب
الوصايا أن الدعاء بوصول ثواب القراءة للميت مقبول قطعاً ، فإنه
إذا كان مقبولاً بما لا يحق فيه للداعى فكيف بما له فيه حق وعمل .
أى فهو مقبول من باب أولى .

وقال ابن الصلاح : وينبغى العزم بنفع قوله : اللهم أوصل ثواب
ما قرأناه ، لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعى فماله أولى ، ويجرى
هذا فى سائر الأعمال .

وقال الثميراملى على الرملى : إنه إن نوى ثواب قراءته أو دعا
عقبها بوصول ثوابها للميت أو قرأ عند قبره حصل له مثل ثواب
قراءته وحصل للقارىء أيضاً الثواب ، فإذا سقط ثواب القارىء لمسقط .
كأن غلب الباعث الدنيوى فينبغى ألا يسقط مثله بالنسبة للميت
فما إذا كانت القراءة بأجرة ، وينبغى أن تكفى نية القارىء الثواب
للميت ولو لم يدع ، واختار السبكى وابن حجر والرملى وغيرهم جواز
إهداء ثواب القراءة للنبي - صلى الله عليه وسلم - قياساً على الصلاة عليه .

نصوص المالكية :

قال فى الشرح الكبير : إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل
السلف الصالح ، لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر
وجعل ثوابه للميت ، ويحصل له الأجر إن شاء الله ، وهو مذهب
الصالحين من أهل الكشف . وقال فى التوضيح فى باب الحج : والمذهب
أن القراءة لا تصل للميت ، حكاه القرافي فى قواعدده والشيخ ابن حمزة

وفيهما ثلاثة أقوال : تصل مطلقاً ، لا تصل مطلقاً ، والثالث : إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا .

وفي آخر نوازل ابن رشد في السؤال عن قوله تعالى : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)^(١) قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره . وقال ابن هلال في نوازله : الذي أفتى به ابن رشد وذهب إليه غير واحد من أئمتنا بالأندلس أن الميت ينتفع بقراءة القرآن ويصل إليه نفعه ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له . وبه جرى عمل المسلمين شرقاً وغرباً ، ووقفوا على ذلك أوقافاً ، واستمر عليه الأمر منذ أزمان سالفه .

ومن اللطائف أن عز الدين بن عبد السلام الشافعي رثى في المنام بعد موته فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟ فقال : هيهات ، وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن .

وفي الخطاب والخرشي أجازها ابن حبيب الخبير « اقرءوا يس على موتاكم » وهذا مقابل لقول مالك بعدم الوصول ، ولعل ذلك لم يصح عن مالك ، سلمنا صحته فتحمل الكراهة على فعله استئناً . ونقل ابن الفرات في باب الحجج عن القرافي : الذي يتجه أنه يحصل لهم بركة القرآن كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم . والقراءة للميت وإن حصل الخلاف فيها لا ينبغي إهمالها فلعل الحق

(١) سورة النجم ، الآية ٢٩

الوصول ، فإن هذه الأمور مغيبة عنا وليس الخلاف في حكم شرعى إنما هو في أمر هل يقع كذلك ، وكذا عادة التهليل اليوم ، ويعتمد في ذلك على فضل الله تعالى .

وقال في المدخل : من أراد ثواب وصول القراءة فلا نزاع ، فليجعل ذلك دعاءً بأن يقول : اللهم أوصل ثواب ما أقرؤه إلى والدى مثلاً ، وفي مجموع الأمر ما يؤيد ذلك .

هذه نصيرص العلماء سردناها عليك ، ووكلنا الحكم فيها إليك ، فكيف يحل مع هذه النصوص أن تقطع بعدم نفع الميت بالقراءة (البتة) ؟

هذا ومعوم أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال مع أن في الباب غير الضعيف كما بيناه في كتابتنا الأولى ، وقد قلنا أن الضعيف إذا عمل به المسلمون التحق بالصحیح لأنه يصير كالمجمع عليه ، ولا فرق بين الإجماع القولى والإجماع العملى ، وقلنا أيضاً إن القياس يقتضيه ، وقد وردت الأحاديث التى لا شك فيها بوصول ثواب غيره من الصدقة والصلاة والصوم والحج ، فكيف التقطع بعد ذلك بأنه لا فائدة فيها للميت البتة .

إني أحب من أهل الدين والعلم أن يعلموا أن من أدلة الدين شيئاً غير ما يتشبهشون به من النصوص التى جمدوا عليها يسمى القياس وهناك أنواع أخرى من الاستدلال عول عليها العلماء في كثير من المسائل . ويعجبني في هذا الموضوع قول من قال من المالكية : لا ينبغى

ترك القراءة للآموات فإنه خلاف في الواقع المغيب عنا ، فلعل الواقع
الوصول . وغير خاف عليك بعد ذلك أن مماثل الفقه ظنية ، ولعلنا
نحرم الميت من ثواب كثير بترك القراءة له . هذا ما نراه ولا نفتى
بغيره ، ويكفي هذا في موضوع القراءة .

أما ما ذكر السائل من كون الله في السماء ، تلك العقيدة التي
تصادم البراهين العقلية كل المصادمة فنرجئ الكلام فيه لعدد آخر
فإن الكلام في ذلك طويل وجليل^(١) .

(١) تقدم في (مقالات التوحيد والمعائد) ذلك ببسط وتفصيل .

حكم ترجمة الخطبة بغير العربية بعد تلاوتها بالعربية

ورد إلى مجلة الأزهر السؤال الآتي :

س : إن في بلدتنا بمباي التي هي من أشهر بلاد الهند مسجدا جامعا هو أكبر المساجد فيها ، وهو مبنى على طبقتين : العليا والسفلى ومقام الإمام إنما يكون في الدرجة التحتانية دائما ، وفي خارج بناء الطبقتين بجانب الشرق عرصة واسعة وخمسة سطوح مختصة بالصلاة وفي المسجد والفناء والأسطح سعة عظيمة تكفي لسبعة آلاف رجل مع هذا في صلاة العيدين . المسجد مع المواضع الملحقة المذكورة لا يسع كثرة المصلين بل يحتاج الأمر إلى مزيد الاعتناء والاهتمام لنحو ثلاثة آلاف رجل على الشوارع العامة في الجنوب والشرق خارج المسجد وأهل الدرجة العليا والدرجة السفلى من المسجد ، وأهل الملحقات المسجد والمصلون بالشوارع كلهم يصلون في الفطر والأضحى خلف إمام واحد شافعي يخطب بالعربية فقط ويقتدون به ، فالمؤمنون وإن كانوا في أماكن متعددة لكن الصلاة إنما تكون خلف إمام واحد .

ولما كان لا يبلغ ما يقول الخطيب إلى آذانهم لأجل البعد فيما بينهم وبينه كانوا لعدم سماع خطبته لا يعتنون بها ، فكأنوا يرجعون بعد صلاة العيدين بمجرد تمام الصلاة إلى بيوتهم ولا ينتظرون استماع الخطبة ، لأجل هذا رأينا في السنة الماضية أن ننصب في الدرجة

العلما وجميع الأمّاكن المذكورة حتى الشوارع رجالا آخرين غير الإمام يخطبون بالعربية ، وبعد تمام الخطبتين بالعربية يترجمون لهم بالأردو (لسان الهند) فهل تعيين هؤلاء الرجال للاستماع ، والترجمة بعد الخطبة العربية على النهج المذكور لتعليم الأحكام يجوز في مذهب الإمام الشافعي أم لا ؟ وهل يجوز للخطيب يوم الجمعة أن يخطب بالعربي ثم يترجمها بالأردو قبل الصلاة أم لا ؟ وأنا المفتقر الى الله تعالى .

عبد القادر لهي

الناظر للمسجد المذكور وأوقافه

الجواب

يشترط لصحة صلاة الجماعة شروط : منها أن لا يتقدم المأموم على الإمام ، ومنها أن يعلم المأموم بانتقالات الإمام كانتقاله من القيام إلى الركوع ومن الركوع إلى الاعتدال ومن الاعتدال إلى السجود وغير ذلك ، حتى يتمكن من متابعتها فيما يفعل ، فحتى علم بانتقالات الإمام ولو بسماع صوت مبلغ وتابعه صحت الصلاة وانعقدت جماعة ولا يضر كون المأموم مرتفعاً عن الإمام أو عكسه في مذهب الشافعية فإن ذلك مكروه فقط. إلا عند الضرورة وهي موجودة عندكم ، فالكراهة منتغية أيضاً والله الحمد ، فلو صلى الإمام بالمسجد والمأموم بسطحه أو كان المسجد طبقتين والإمام بالطبقة السفلى والمأموم بالعليا كما هو في مسجدكم صحت الصلاة .

وكل ماتقدم شرط في صحة صلاة الجماعة سواء كانت الصلاة فرضاً أو نفلاً طلبت فيه الجماعة كصلاة العيد والتراويح .

هذا : أما ما سألتكم عنه من إقامة رجال يترجمون الخطبة بالأردو للحاضرين من المسلمين ، فجوابه أنه جائز في الفطر والأضحى ، سواء كان المترجم واحداً أو متعدداً ، وسواء كان مرة واحدة أو مرارا كثيرة ، فكل ذلك جائز لاشئ فيه ، وليعلم أن سماع الخطبة في العيدين ليس واجبا وإنما هو سنة .

أما خطبة الجمعة فيجب أن تكون باللغة العربية في المشهور من مذهب الشافعية ، ويجب أن يسمعها أربعون من أهل الجهة وإن لم يعرفوا لغة الخطيب أو لم يفهموا معنى الخطبة ، فإنه لا يشترط فهم معناها ، فإن شئتم اقتصرتم على إلقائها بالعربية ، ولا يضر سماع غير الأربعة ، وإن شئتم ترجمتها للمسلمين بلغتهم فافعلوا ذلك بعد الصلاة لا قبلها ، محافظة على الموالاة بين الخطبة والصلاة فليتنبه لذلك ، وأنتم وما تريدون بعد الصلاة ، فلكم إن شئتم تجعلوها خطبة بالأردو ، ولكم أن تجعلوها درسا واحداً أو متعدداً .

ولا أدري لماذا يعيدها المعيدون بالعربية ثم يترجمونها على ما يقول السائل .

والخلاصة أنكم إذا اقتصرتم على الخطبة العربية صح وإن لم يسمعها جميع الحاضرين أو لم يفهموها ، فإنه لا يشترط سماع الجميع ولا فهمهم للخطبة ، وأما بعد الصلاة فللإمام أن يترجمها وكذلك لغيره منفردا أو متعدداً ، وإن عملتم دروساً بعد الصلاة تلتق في نواحي المسجد وما اتصل به يبين فيها موضوع الخطبة أو غيره كان ذلك حسناً ومفيداً . والله يتولى هدى الجميع .

الشريعة مَنبِج السَّعادة

سرّ معي على ما أحب عسى أن تجد ما تحب ، وإياك والرعونة
فظالما حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق ، فحرك
معي الفكر أيدك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع في مرآة
قلبك عن تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان .

وإذا غلب عليك الإنصاف وصادفك الرشد وفعلت ما اتفقنا عليه
وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعا ، والإنسان
كما تعلم مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى أرضى ، وإنك
لا تسعى وراء مطالب الأبدان وما تحتاج إليه إلا من حيث إنك حيوان
لا من حيث إنك إنسان ، وتعلم أن كل حيوان يطلب المطاعم
والمشارب وما يقيه من الحر والبرد إلى غير ذلك ، وأنه لا قيمة لما
يشاركك فيه الحيوانات وإن كنت في طلبه أوسع تدبيرا وأتقن
صنعا وأعظم تفننا ، واستحققت بذلك أن تكون سيد الحيوانات .

ولكن الوصف الذى صيرك إنساناً وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت
نفساً شريفة تشا كل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله
تعالى وجماله ما لا يعرفه غيرك ، ويمكنك أن تترقى فى الكمالات
دائما وتنخرط فى سلك العالم الأعلى الذى لا يلحقه ألم ولا يشوبه نقص

وَأَنْ تَفَارِقَ عَالَمَ الْحَيَوَانِ الَّذِي تُؤْذِيكَ فِيهِ الْبِعُوضَةُ وَيَسْتَقِمُّكَ فِيهِ
الْحَرُّ وَالْبَرْدُ ، وَتَزْعَجُكَ الْأَحْلَامُ وَتُخَيِّفُكَ الْأَوْهَامُ .

وَبِمَقْتَضَى ذَلِكَ الْجِزْءِ الرُّوحَانِيِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَدٌّ مَحْدُودٌ فِي التَّرْقِي
فِي الْكَمَالَاتِ « وَعَلَى قَدَرِهَا تَكُونُ اللَّذَّةُ وَالنَّعِيمُ » كَانَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ
الْحَيَوَانِيَّةُ غَيْرَ كَافِيَةٍ لِرُوحِكَ وَلَا مُوفِيَةً حَقَّ اسْتِعْدَادِكَ ، فَكَانَ لَكَ
بِمَقْتَضَى حِكْمَةِ الْحَكِيمِ حَيَاةٌ أُخْرَى لَا تَنْفَدُ حَتَّى يَتَمَّأَنَّ لَكَ فِيهَا أَنْ
تَأْخُذَ كُلَّ مَا يَقْتَضِيهِ اسْتِعْدَادُكَ وَتُوجِبُهُ حَقِيقَةُ ذَاتِكَ مِمَّا لَمْ يَخْلُقْ لَهُ
الْحَيَوَانُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ غَيْرُكَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ
أَسْعَدَ مِنْكَ حَالًا وَأَنْعَمَ مِنْكَ بِالَا ، وَلَكَانَ إِيجَادُكَ عَلَى هَذَا الرَّجْهِ مِنَ السَّفْهِ
بِمَكَانٍ : تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا (أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنْتُمْ كَالَّذِينَ لَا تَرْجِعُونَ)^(١) .

إِنَّ لَذَّةَ هَذَا الْجِزْءِ الرُّوحَانِيِّ إِنَّمَا هِيَ بِالْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَنْوَارِ
وَالْأَسْرَارِ ، وَإِنَّهُ قَدْ يَصِلُ إِلَى حَدٍّ تَنْفَعُ عَنْهُ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا وَيَكُونُ
فِي نَعِيمٍ بِلَا كَدٍّ وَصَفَاءٍ بِلَا تَشْوِيْشٍ^(٢) وَقَدْ جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ تَعَالَجُكَ
مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكَ ، وَتَحَاوَلُ أَنْ تُوَصِّلَكَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ
وَتُظْهِرُ فِيكَ خَاصَّةَ الْإِنْسَانِيَّةِ .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٢) قد ورد تشويش والتشويش جميعا ، خلافا للحريرى الذى جعل التشويش لحنا .

ولا تعجل على - يرحمك الله - فأني معترف معك بأنّها جاءت
تحت على مصالح الأبدان ومعادتها أيضا ، فإذا قد جاءت الشريعة
بسعادة الأبدان والأرواح ، وإن شئت فقل بسعادة الدنيا والاخرة
فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل إلى قلبك من الأنوار وتذكرك
عن العظمة الإلهية ماتوفى به قسط الروح ومايجلو مرآة القلب مما
تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صدأ . وما تنتفع به في مصالح
الأبدان أيضا ، فإنه إذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه الحق حقا والباطل
باطلا ، وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد والحسد والطمع
والشره وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد وسلامة الصدر
إلى آخر الفضائل والرذائل ، وتقوى عقلك بذلك المدد النوراني ،
فاجتنبت مايشينك وتحليت بما يزينك فطاب عيشك وتم سرورك .

والإحتمت عليك الكلمة وأحاطت بك الشئرة ، ولم تنفعك أموالك
ولا أولادك ، متى كنت فيها على غير تأييد إلهي ونور رباني (فلأ
تُعجِبِكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا)^(١) فيضيع منك
طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)^(٢) بصرك الله في أمرك
وهذاك إلى رشدك ، ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، بمنه
وكرمه .

(٢) سورة ضه ، الآية ١٢٤

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٥

(١) حكم الانتفاع بالمرهون من أرض وغيرها

جاءنا هذا لخطاب من صاحب الإضاء :

سيدى المحترم صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف
اللدجوى :

تحية وسلاماً . وبعد ، فهأنذا أكتب إليكم اليوم متطوعاً لذكركم
القبس الذى بددتكم به ظلام الباطل ، فطالما أتيتم بحججكم الباهرة على
أضاليل المغررين ، وأظهرتم الحق واضحاً جلياً لذى عينين ومن كان
له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أريد أن أتطلع رأى فضيلتكم فى نوع من المعاملات جرى التعامل
به بين الناس واشتهر أمره فيما بين الخاص والعام ، ذلك النوع من
المعاملة هو أن يعطى شخص شخصاً آخر مائة جنية مثلاً ، فى نظير أن
يجبس قطعة من الأرض على سبيل الرهن ، ويكون للمرتهن بمجرد العقد
أن يتصرف فى الرهن كيف شاء ، فإما أن يؤجرها إلى الراهن ويضم
قيمة الإيجار إلى المبلغ الأصيل ، وبذلك تزداد المائة باطراد كل سنة ،
وإما أن يؤجرها إلى غير الراهن ويأخذ قيمة الإيجار لنفسه بدون أن
يخصمها من أصل المبلغ ، وإما أن يزرعها هو ويأخذ الزرع من غير أن
يكون للراهن أى نصيب فيه ، وفى جميع الحالات تبقى الأرض تحت
يده على سبيل الرهن ، فهل هذا يجوز ؟

أرجو أن تجيبوا عن هذا السؤال على صفحات مجلة نور الإسلام
إحقيقاً للحق ولكم جزيل الأجر وخالص الشكر .

ع ٠ ح بالبريجات

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد ، فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على تحريم الربا
بسائر أقسامه ، واتفق العلماء من السلف والخلف على أن منها ربا
بالقرض ، وقد اشتهر في ذلك قولهم : « كُلُّ قَرْضٍ جَرٌّ نَفْعًا فَهُوَ رِبَا »
بحيث صار كالضرورة بين أهل العلم ،

وهذا النوع من المعاملة الوارد بالسؤال وهو أن يعطى شخص شخصاً
آخر مائة جنيه مثلاً في نظير أن يجبس قطعة من الأرض على سبيل
الرهن ويكون للمرتهن بمجرد العقد الانتفاع بالمرهون بوجه من الوجود
التي ذكرها حضرة السائل فيه ربا القرض من غير شك .

ومما يوضح ذلك أن شرط الانتفاع بالمرهون شرط باطل ينافي
مقتضى القرض ، إذ هو تملك مال على أن يرد مثله فقط ابتغاء الثواب
الأخروي طلباً لمرضاة الله تعالى ، وينافي أيضاً بمقتضى الرهن ، إذ هو
شريعاً جعل عين متمولة تحت يد الدائن بدينه يستوفى منها عند تعذر
الوفاء ، وإذاً فلا سبيل لحل انتفاع المقرض المرتهن بالمرهون فهو حرام
لمكان الزيادة التي لاحق له فيها .

والربا في الأصل الزيادة . وقد تقرر بالاتفاق التحريم لكل قرض
اشترط فيه أن تكون منفعة المرهون للمقرض مطلقاً من غير تفصيل ،
إلا ما يذكر عن الشافعية من أن محل التحريم وقوع الشرط الباطل
في صلب العقد ، ولكن من المقرر عندهم أيضاً أن المجلس حريم العقد
فله حكمه ، فإن تواطأ المتعاقدان على ذلك قبل العقد ، فلا حرمة ،
على ما يراه كثير منهم ، لكن قال محققون منهم أيضاً : هذا من حيث
المظاهر ، وأما من حيث الباطن فحرام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا
لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى » .

هذا وقول الحنفية : نماء المرهون يتبعه ، ليس معناه أن المرتهن
يستحقه ملكاً كما قد يتوهم بعض الناس ، بل المعنى أن النماء يكون
مرهوناً كالأصل ، فالدائن المرتهن لا يستحق شيئاً من المنفعة ولا يحل
له ذلك ، حيث إن الزيادة لا يقابلها شيء من المقرض .

ولكن هل لنا حالة يمكن أن يكون للمرتهن فيها حق الانتفاع باعتبار
آخر ؟ يتضح لك جواب هذا السؤال مما يأتي :

قال الإمام ابن رشد في بداية المجتهد : « والجمهور على أن ليس
للمرتهن أن ينتفع بشيء من الرهن » وقال قوم : إذا كان الرهن حيواناً
فللمرتهن أن يحلبه ويركبه بقدر ما يعلفه وينفق عليه . وهو قول أحمد
واسحاق بما روه أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :
« الرَّهْنُ مَحْلُوبٌ وَمَرْكُوبٌ » انتهت عبارته .

وهذا الحديث روى أيضاً بغير هذا اللفظ : قال صلى الله عليه
وسلم : « الظَّهْرُ يُرَكَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا ، وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ

بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرَهُونًا ، وَعَلَى الَّذِي يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةَ » أخرجه الدارقطني والحاكم والبيهقي وابن حبان .

ورأى الجمهور أنه يخالف أصولاً مجمعاً عليها وآثاراً ثابتة لا يختلف في صحتها (كما في شروح البخارى ونيل الأوطار وغيرها) فتمال بعضهم : إنه منسوخ ، ويدل لذلك حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - عن البخارى وغيره : « لَا تُحَلَبُ مَا شِئَءُ امْرِئٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِ » وتعتب بآن التاريخ لا يعرف حتى يقال بالنسخ ، لذلك ذهب الأكثر إلى التأويل فيتعين حمل الحديث على ما إذا امتنع الراهن من الإنفاق على المرهون ، فيباح حينئذ للمرتهن ، وهو قول الأوزاعى والليث وأبى ثور رحمهم الله تعالى .

ومما يدل للجمهور أيضاً حديث أبى هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « لَا يَغْلُقُ^(١) الرَّهْنُ مِنْ صَاحِبِهِ الَّذِي رَهْنَهُ : لَهُ غَنَمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ » قال فى (منتقى الأخبار) : رواه الشافعى والدارقطنى ، وقال : إسناده حسن متصل ، وقال شارحه : إنه رواه أيضاً الحاكم وابن حبان فى صحيحه ، وإنه روى من طرق مختلفة : منها صحيح ومنها ضعيف ، وإنه روى مرفوعاً وموقوفاً ومرسلاً . ومن هنا يظهر أنه صالح للاحتجاج به للجمهور ، بل الحديث إذا روى من طريق صحيح وآخر ضعيف كان أقوى مما إذا روى من طريق صحيح فقط .

(١) غلق الرهن كفتح : استحققه المرتهن . فعنى لا يغلق الرهن : لا يملكه صاحب الدين بدينه بل هو لصاحبه فإن تعذر الوفاء بيع واستوفى منه . ومعنى له غنمه وعليه غرمه أن له زباده ونمائه وإذا نقص أو تلف فعليه .

الغلاصة

أن التحريم متفق عليه في غير مسألة المركوب والمحلوب ، ونقول في غير مسألة المرهون إذا كان حيواناً محتاجاً للنفقة ، أما فيها فتمد قيل بالحل . ولكن الجمهور على خلافه ، ولا شك أن الأرض المرهونة ليست كالحيوان حتى تقاس عليه ، فلا يجوز أن يكون القرض على رهنها سبباً في الانتفاع بها اتفاقاً ، فإن محل الخلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو الحيوان كما علمت .

وبعد فالمدمن ينظر لنفسه ويستفتى قلبه وإن أفتاه المفتون . ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ولذلك لم نخرج على ما عسى أن تكون قدراً سمعت مما يخالف ما كتبناه ، والله يتولى هدى الجميع .

حكم الصلّاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد الأذان

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة المرشد الأكبر سيدى الشيخ يوسف
الدجوى المحترم .

بعد الاحترام والتحية لنا سؤال نرجو من فضل سيادتكم التكرم
بإجابتنا عنه فإننا لا نثق إلا بكم ، أما أولئك المتشدقون فلا نثق
بهم ولا نأخذ ديننا عنهم : ذلك أن لنا جامعاً منسوباً إلينا ، ولنا مؤذن
يؤذن الأذان الشرعى على المئذنة ويعقبه الصلّاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -
فاعترضه آخر قائله له : لا بد أن تستغفر الله لأنك أتيت جرماً بصلّاتك
على النبي بعد الأذان الشرعى .

ونحن متعطشون لفتواكم فهي لنا بمثابة نور يسطع وسط الظلمات
فيبديدها ، حتى نكون بعد ذلك على طمأنينة بمعرفة أننا على الحق ،
وحاشا أن نكون في ليل دامس مادام فينا الشيخ الدجوى وأمثاله .
ونحن لجوابكم منتظرون وفتواكم سامعون ، أدامكم الله قوة للدين
ونبراساً للحائرين .

يوسف محمد صقر

الجواب

الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الأذان لا بأس بها ،
وحاشا أن تكون جرماً ، فقد نص العلماء على أنها بدعة حسنة حدثت
زمن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٧٨١ وقد استحسنتها
العلماء على اختلاف مذاهبهم ولم يمنعوا منها ، فقول القائل للمؤذن أنك
أتيت جرماً بصلاتك بعد الأذان كذب وجهل ، وما أتى بالجرم غيره .

وقبل أن نتكلم في المسألة من الوجهة العلمية بما يناسب الخاصة
ننصح للامة قبل ذلك ألا يجادلوا تلك الطائفة ولا يخوضوا معهم
في البحث ، فإنهم يلبسون عليهم بما يذكرونه من كلمات مموهة أو أحاديث
لم يدروا لها معنى ولم يعرفوا لها مغزى ، وأين هم من الاستنباط والأخذ
من السنة والقرآن ؟ فذلك بحر لا ساحل له اضطرب فيه العلماء الأعلام
والأئمة العظام .

وليعلم القارئ الكريم أن المجتهد الذي يأخذ من الكتاب والسنة
لا بد أن يكون عارفاً بمواقع العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ،
مقدماً الخاص على العام والمقيد على المطلق ، عالماً بتاريخ النصوص حتى
يعلم الناسخ والمنسوخ ، محيطاً بمواردها ، عارفاً درجة كل حديث ،
باحثاً عما عسى أن يكون فيه من علة خفية لا يعرفها إلا حذاق الحفاظ .
عالماً بطرق الترجيح حتى يقدم بعضها على بعض عند التعارض ،
غير خاف عليه مواقع الإجماع والاختلاف ..

وليعلم أن للعلماء اختلافاً كثيراً فيما بنوا عليه مذاهبهم وفيما يقدم من الأدلة وما لا يقدم منها كعمل أهل المدينة عند مالك مثلاً إلخ إلخ . ولا بد بعد ذلك أن يكون فيه استعداد للاستنباط من الكتاب والسنة ، محيطاً بكل ما يتوقف عليه ذلك مما بينه علماء الأصول . وليعلم أن العلم وحده غير كاف في الاجتهاد ما لم يصحبه الاستعداد الرفيع وذلك النور الذي يسطع في قلب من شاء الله من خاصة عباده ، ولذلك كان كبار المحدثين وعظماء الحفاظ مقلدين لا مجتهدين ، علماء منهم أن سعة الاطلاع لا تكفي وحدها في الاجتهاد .

وربما كان بعض الحفاظ المقلدين أكثر حديثاً من بعض الأئمة المجتهدين ، ولكن هؤلاء الحفاظ كانوا يقلدون أولئك الأئمة اتِّمَاماً لنفوسهم واستقصاراً لمداركهم واحتياطاً لدينهم ، ومعرفة بأقدار أولئك المتبوعين ، علماء منهم أن لهم من معرفة روح الشريعة ومن الذوق الخاص في أسرارها والحدس الذي يعرفون به ما لا يعرفه غيرهم من خفايا الدقائق ما ليس لأئمة المقلدين وإن كانوا حفاظاً متقنين .

وقد قالوا : إن المحدث كالصيدلي والمجتهد كالطبيب . ولا شك أن الصيدلي إذا جعل نفسه طبيباً قتل من المرضى أكثر ممن صادف دواؤه الداء فيهم فكأن هؤلاء الحفاظ هم المشار إليهم في حديث البخاري بذكر الأجداب من الأرض التي أمسكت الماء فانتفع الناس وشمقوا وزرعوا. وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وَرُبَّ حَامِلٍ فِتْنَةٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ » .

ثم نقول بعد هذا : أنه قد وصل بعض المتمسكين بظواهر الأحاديث إلى حد التشبيه والتجسيم في حقه تعالى اغتراراً بآيات الصفات وأحاديث

الصفات ، ولو قد غيره من أئمة الدين لنجا من ورطة التشبيه والتجسيم ولكنه أراد أن يستقل وهو غير أهل للاستقلال فضلاً من حيث لا يشعر ، فالذى نريده من العامة وننصح لهم به ألا يصغوا لألئك المهوشين الذين لا يلبسون عليهم بذكر الآيات والأحاديث ولكن يقولون لهم : أنهم مقلدون والمقلد يازمه أن يتبع الجمهور لا من شذ عنهم .

وقد اجتمعت ببعض من يحبذ آراء ابن تيمية ويدعو إلى اتباعه فقلت له : « أنا لا أتبع ابن تيمية مطلقاً لأنى إن كنت قد بلغت درجة الاجتهاد فلا أتبع غيرى ، وإن لم أبلغ درجة الاجتهاد كنت مع الجمهور لأمع من شذ عنهم ، فذلك أحوط . فى الدين وأقرب إلى العقل والنقل » .

بل نقول : إننا إذا وازنا بين أولئك المتشدقين وبين إمام واحد من الأئمة كالشافعى أو مالك مثلاً ، لم نجد نسبة بينهما ، وما لنا نذكر مالكا والشافعى ونحن إذا وازنا بينهم وبين أتباع أئمة الهدى بل كبار علماء العصر وجدنا البون شاسعاً والفرق عظيماً .

فكيف يحل للمقلد أن يترك أولئك العظماء المشهود لهم بالدين والفضل ويتبع أولئك المتشدقين الذين شذوا عن السواد الأعظم ، وأوقعوا الفرقة بين المسلمين ، وتحكموا فى دين الله فأرادوا أن يلزموهوا الناس بمذهبهم الخاص ، مع أننا لا نعترف لهم بإمامة ولا اجتهاد ، بل لا نعترف لهم بنظر دقيق ولا فهم صحيح ؟ فأين هم من درجة الاجتهاد وبينهم وبينها أبعد مما بين السماء والأرض (ومن لى بأن تدرى ؟
بأنك لاتدرى) ؟

على أنهم لو كانوا مجتهدين حقاً ما صحح أن يلزموا الناس مذهبهم ،
فإن مسائل الفروع يكفي فيها الظن ، وقد جاء في الحديث « أَنْ مَنْ
اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ ، وَمَنْ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ » .
فالمدار على أن يكون الحامل له على العمل امتثال أمر الشارع حتى لا يكون
خارجاً على الله ورسوله .

وقد كان أئمة الهدى يقلد بعضهم بعضاً ويثنى بعضهم على بعض
ولا يرون بأساً باتباع غيرهم ، وها هو ذا الإمام مالك لم يرض من
الخليفة العباسي أن يحمل الناس قسراً على موثئة - وهو هو عند مالك -
احتراماً لرأى غيره من العلماء واتهاماً لنفسه التي يجوز عليها الخطأ ،
وعلماً بأن مسائل الفقه ظنية يكفي فيها الظن ، بل بعض أئمة الهدى
قلد غيره في بعض المسائل كآبي يوسف الذي قال : « نقلد إخواننا
الحجازيين » عندما أخبروه بأن البئر التي توضع منها وقعت فيها
فأرة : إلى آخر ما لا يسعه هذا المقال .

فالخلاصة أن المقلد لبعض الأئمة كالشافعي مثلاً يلزمه ألا يخوض
مع أولئك المتحذلقين في الأدلة ، وإنما يقول لهم : إن أماني أعظم في
نفسى منكم ، ولا يحل لي أن أترك الفاضل وأتبع المفضول ، ولا أدع
العالم وأتبع الجاهل . هذه هي النصيحة التي أردنا أن نسديها
للعمامة .

ولنقل كلمة في الموضوع تناسب الخاصة :

لا شك أن الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أعظم القرب ، وقد طلبها منا القرآن العزيز والسنة الشريفة ، ولا داعي للإطالة في هذا .

وقد جاء في خصوص الصلاة بعد الأذان أحاديث صحيحة : منها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » رواد مسلم في صحيحه .

ونقول : على فرض أن ذلك الحديث لم يرد وصلينا عليه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لم يكن هناك بأس ، وحصل لنا الثواب العظيم بذلك ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمرنا بالصلاة عليه ولم يلزمنا بوقت مخصوص ولا كيفية مخصوصة فلنا أن نصلي عليه في أي وقت شئنا وبأي كيفية أردنا حيث إنه لم يرد نهي عن شيء خاص ولا أمر بشيء خاص بل وكل ذلك إلى اختيارنا ، وليس هذا إلا استعمالا للمطلق في بعض جزئياته (وهو بالضرورة لا بد أن يستعمل في بعض جزئياته وهي كلها فيه على السواء) .

وقد قال البيانيون : إن استعمال الكلي في بعض جزئياته من حيث

تحقيقه فيه ليس مجازا بل حقيقة .

فإذا صلينا على الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد الأذان بمقتضى ذلك الإطلاق بآى كيفية من الكيفيات ، كان طاعة يثاب عليها فاعلمها الذى أتى بها على أنها من أفراد ذلك المطلق غير معتقد سنوية تخصيصها بذلك الحال أوتلك الكيفية خلافاً للمشددين أو المتشدقين . وليس يخفى عليك الفرق بين من يأتى بها بمقتضى الأمر العام ومن يأتى بها لأجل كون تلك الكيفية الخاصة سنة أو لكون ذلك الوقت مطلوباً من حيث خصوصه ، فكيف وقد ورد الحديث الصحيح بالصلاة عقب الأذان؟ وقد ترك تلك الكيفيات الخاصة إينا -صلى الله عليه وسلم- نختار منها ما شئنا .

فيجوز لسامع الأذان المطلوب منه ذلك أن يصلى سراً أو جهراً كما يشاء ، فأصل الصلاة مطلوبة وكيفيتها مباحة فكذلك المؤذن يطلب منه الصلاة بعد الأذان ويباح له أن يصلى سراً أو جهراً كما يشاء ، لأننا لم نلزم فيها بكيفية خاصة ، ولا نعتقد أن الكيفية المخصوصة سنة من حيث خصوصها ، بل نقول إنها من تلك الحيشية مباحة .

ولهذا كله قال العلماء المحققون غير الجامدين : إنها بدعة مستحسنة ولم يروا بأساً برفع الصوت بها بعد الأذان . على أن فى الجهر بها فائدة جلية وهى تذكير السامعين بها ، فيكون وسيلة لإتيانهم بما ورد فى ذلك الحديث المتقدم متى سمعوا ذكر الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وبدون ذلك قلما يأتون بها ، بل كثير منهم لا يعرف ذلك الحديث الذى طلبها منا بعد الأذان .

وليت شعري هل يقول أولئك الجامدون : أنه لا بد من تحرى
الكيفية التي كان عليها الناس زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما
كانوا يصلون عقب الأذان ، فلا يجوز أن نرفع صوتنا أكثر مما كانوا
يرفعون ، أو نخفضه أكثر مما كانوا يخفضون ، وإذا كانوا قد أتوا
بها في « ثانية » مثلاً أو ثانيتين أن نخالفهم في ذلك فنجعلها في ثلاث
أو أربع مثلاً ، إذا أتوا بها قائمين لم نأت بها قاعدين إلى غير ذلك ،^١
أم هو الجمود الذي يبرأ منه الإسلام خصوصاً إذا أحدث فتنة قد
توقع في الكبائر من أجل مسألة غاية أمرها أن تكون خلاف الأولى
لو تنزلنا وسلمنا لهم وجهة نظرهم ، مع أن الأمر فيها على خلاف
ما ظنوا ؟

وليعلم أن البدعة المنهى عنها التي لا ترجع إلى دليل من أدلة الشرع^٢
فلا يقبلها كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ، أما ما يكون داخلياً في
عمومات الكتاب أو السنة أو يمكن استنباطه بوجه من الوجود ، فليس
من البدعة المنهى عنها وإن لم يكن في زمنه - صلى الله عليه وسلم - ولا زمن
أصحابه .

ويكفي هذا الإيجاز ، والمنصف يكفيه القليل ، والمتعسف لا ينفعه

الكثير .

عبد الله بن سلام^(١) وكعب الأضبار - ووهب بن منبه

ورد إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف
الدجوى حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قرأت بإلحدي المجلات الجملة الآتية :

« تظاهر جماعة من أحبار اليهود بالدخول في الإسلام ليصيبوه
في مقاتله إذ عجزوا عن هذمه بمنأواته وجهاً لوجه ، وقد نالوا بعض
بغيتهم بتسميم العقول وبت الأضاليل في النفوس ، وهكذا فتنوا
الناس بالخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ورأس هؤلاء الذين
اندسوا بين المسلمين لإفساد عقائدهم ثلاثة : « كعب الأحيار ،
ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام » .

فهل هؤلاء الثلاثة كما ذكر الكاتب ؟ أرجو بيان الجواب على
صفحات مجلة الأزهر حيث أن هذه الجملة تخالف عقيدة كثيرين من
المسلمين . أسأل الله أن يلهمنا الصواب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود الشربيني

بغارسكور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
أما بعد فإن كثيراً من الناس يجازف فيما يكتب ولا يتحرى
الصواب فيما يحرر ، وقد رأينا بعض المشهورين بالأدب والتاريخ
من كبار الكتاب بمصر يقرن عبد الله بن سلام الصحابي الجليل بعبد
الله بن سبأ اليهودي الخبيث الذي نفي مراراً ، وأضل الناس بدعوتهم
إلى التغالي في حب علي - كرم الله وجهه - ، وبغض عثمان - رضی الله عنه -
كيداً للإسلام والمسلمين ، فأين هذا من ذلك . ولكننا في عصر أصبح
الناس فيه فوضى في كل شيء حتى العلم والدين .

ولنقص عليك بعض ما قال العلماء في عبد الله بن سلام وكعب
الأخبار ووهب بن منبه فنقول : جاء في (تذكرة الحفاظ للحافظ
الذهبي) ما نصه :

عبد الله بن سلام

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الحبر أبو يوسف الإسرائيلي
حليف الأنصار ، أسلم وقت مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة ،
وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله (عبد الله) وشهد له بالجنة ،
وفيه نزلت « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ^(١) » وقوله تعالى :
« وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ^(٢) » وكان عبد الله من علماء أهل الكتاب

(١) سورة الأحقاف الآية ١٠

(٢) سورة الرعد ، الآية ٤٣

وأفاضلهم في زمانه بالمدينة ، روى عدة أحاديث ، حدث عنه أنس بن مالك و زرارة بن أوفى قاضي البصرة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو يوسف المقبري ، وأبو بردة بن أبي موسى ، وابناه يوسف ومحمد ابنا عبد الله وآخرون .

روى معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن يزيد بن عميرة قال : لما احتضر معاذ قيل له : أوصنا ، قال : إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدتهما ، فالتمسوا العلم عند أبي الدرداء أو سلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّهُ عَاشِرَ عَشْرَةٍ فِي الْجَنَّةِ » أخرجه الترمذي . وروى مالك عن سالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد إنك في الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) متفق عليه .

روى عاصم بن بهدلة عن مصعب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَدْخُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فدخل ابن سلام ، ومن غير وجه أن ابن سلام رأى رؤيا فقصها على رسول الله فقال له : « تَمُوتُ وَأَنْتَ مُسْتَمْسِكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » .

وعنه أنه مر يحمل حزمة حطب فقبل له : أليس قد أغناك الله عن هذا ؟ فقال : بلى ولكي أردت أن أقمع الكبير . واتفقوا على موته سنة ثلاث وأربعين هـ .

كعب الأخبار

هو كعب بن ماع الحميدى ، من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب ، أسلم في زمن أبي بكر ، وقدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلًا ، وله شيء في صحيح البخارى وغيره . ا هـ .

(وهب بن منبه)

هو الحافظ أبو عبد الله الصنعانى عالم أهل اليمن ، ولد سنة أربع وثلاثين ، روى عن أبي هريرة كثيرًا ، وعن عبد الله بن عمر وابن عباس وأبي سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم ، وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير ، فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ ، وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همام ، ولهمام عن أبي هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى المسحاح رواها عنه معمر ، وقد طال عمر همام وعاش إلى سنة نيف وثلاثين ومائة ، وحدث عن وهب ابن أخيه عبد الصمد وأقاربه ، وسمرو بن دينار وإسرائيل أبو موسى ، وسماك بن الفضل وعوف الأعرابي وآخرون ، وكان ثقة واسع العلم مثل كعب الأخبار فى زمانه .

قال العجلي : كان وهب ثقة تابعيا ، وكان على قضاء صنعاء .

وقيل كان والده من أهل هراة ممن بعثهم كسرى لأخذ اليمن ، وأسلم فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم . وعن وهب قال : يقولون عبد الله

ابن سَلامَ أعلم أهل زمانه وكعب أعلم أهل زمانه ، أفرأيت من جمع علمهما ؟ يعنى نفسه . قال مثنى بن الصباح : لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والفجر وضوءًا . ولو هب ترجمة طويلة في تاريخ دمشق :

فها أنت ذا ترى (عبد الله بن سَلام) من أكابر الصحابة قد نزل في حقّه قرآن مثل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّه من أهل الجنة . فكيف يسوى بعبد الله بن سبأ الضال المضل ؟ وهل هذا إلا خلط يحرمه الدين والعلم جميعاً ، ويسمخر منه التاريخ لدى عارفيه ؟

وأما كعب الأخبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات . وقد سمعت أن وهباً كان يصلى الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة ، وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأخبار ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة .

وأما ما يرويه هو ووهب بن منبه رضى الله عنهما فلم يسنداه إلى الرسول ولم يكذبا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانا يرويانه على أنه من الإسرائيليات ، ولست مكلفاً بتصديقه ولا الإيمان به .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نلفت نظرك إلى أن ابن جرير النظيرى وغيره من المفسرين قد يذكرون أشياء غير صحيحة ، ولكن عذرهم في ذلك أنهم يذكرون السند ، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند

(١٥)

فقد خرجوا من العهدة ، فإن أحوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول ، وبذلك يعرف ما يروونه من ضعف وصحة .

ولكن نحات العناية الآن بذلك العلم ، فعلى من يشتبهه في شيء مما يذكرونه أن يبحث عن رجال السند الذي ذكره ، ليعرف ما عسى أن يكون من راو ضعيف أو وضاع ، ولينظر مع هذا أهو إسلامي أم إسرائيلي . وليعط كلا حكمه ، فإن لم يفعل فليست التبعة عليهم بل عليه .

أسأل الله أن يرزقنا الأدب في حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي حق سلفنا الصالح ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفه عين بمنه وكرمه .

صاحب المنار والصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد الأذان

رحم الله أمراء عرف قدره

كتبنا في الجزء الأول الصادر في شهر المحرم من هذه السنة جواباً عن سؤال ورد إلينا يقول كاتبه : إن بعض الناس قال لمن أتى بالصلاة عقب الأذان : إنك أتيت جرماً ، فقلنا له : إن ذلك ليس جرماً وحاشا أن يكون جرماً فإن العلماء صرحوا بأنها بدعة حسنة ، ويصرح الشافعية بأنها سنة عقب الأذان من المؤذن وغيره ، وروينا في ذلك ما جاء في صحيح مسلم : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ » الحديث .

ثم قلنا ما ملخصه : إن المؤذن ممن سمع الأذان ، وكل من سمع الأذان طلب منه الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى هذا الحديث الصحيح ، ثم هو مخير بعد ذلك ، فإن شاء ذكرها سرا وإن شاء ذكرها جهرا ، فكل ذلك محصل لامتنال الأمر النبوي ، فإنه لم يلزمنا صلى الله عليه وسلم ، في ذلك كيفية مخصوصة ، فأصلها مطلوب بالأمر العام الذي ورد به القرآن ، وهى بعد الأذان مطلوبة طلباً خاصاً . مقتضى هذا الحديث . أما الكيفية فهى موكولة إلى اختيارنا ، ولو كانت الكيفية المخصوصة لازمة للزمنا أن نبحث عن درجة جهرهم

وأسرارهم وسرعتهم في النطق بها وإبطائهم في ذلك ، إلى آخر ما قلناه في تلك المسألة .

ثم قلنا : لا يصح أن يرمى من أتى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالإجماع ، ومن فهم أنها داخلة في البدعة التي هي ضلالة فهو جاهل وجامد لا ينبغي أن يعد في سلك العلماء .

والخلاف بين من يقسم البدعة إلى حسنة ، وغيرها ، وبين من يرى أن البدعة لا تكون حسنة ، وهو خلاف لفظي في الحقيقة ، فإن الأول أورد البدعة اللغوية ، والثاني أراد البدعة الشرعية ، وقد نقل ذلك التسميم عن الإمام الشافعي نفسه - الذي ليس من علماء القرون الوسطى - بل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة سيئة » يوافق هذا التقسيم الذي لم يفهمه الشيخ ، فشنع عليه اغتراراً بكلام من لا يرى التقسيم .^{٢٧}

وقد قلنا : إن من فوائدها بعد الأذان تذكير الناس بالعمل بالحديث المتقدم ، بل الخروج من الإثم الذي يراه بعض العلماء في ترك الصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - عند ذكره ، وقد سمعوا ذكره في الأذان فوجب عليهم أن يصلوا عليه - صلى الله عليه وسلم - وإلا أثموا على هذا الرأي ، فلو لم يكن إلا تذكيرهم^{٢٨} بهذه السنة أو بهذا الواجب لكفى .

فقامت نيامة الأستاذ الشيخ رشيد من أجل ذلك ، فكتب في
(مناره) ما أكمل الحكم فيه إليك بعد أن أتلوه عليك :

قال : « إنها بدعة فشت هي وأمثالها في أمصار المسلمين بجهل
المعممين أذعيء العلم بالسنة » إلى أن يقول : وإننا لنعجب أشد العجب
إذ نرى بعض كبار علماء الأزهر يفتون الناس ببدعة الزيادة في الأذان
ويزعمون أنها حسنة ، إلى أن يقول : إن لهم إذاً أن يزيدوا في
الصلاة ركعات أو سجادات ، وهل يوجد دليل على امتناع ذلك وأمثاله
غير كونه مخالفاً للمأثور ؟ وما الفرق إذاً بين الأذان وغيره ؟ أما
إنه لو فعل هذا كثير من العوام لأفتاهم باستحسانها مفتى مجلة نور
الإسلام (يعني الشيخ الدجوى) .

وأرجوك كل الرجاء أن لا تسأم من الأخذ والرد مع الشيخ حتى لا
تعرف منزلته من العلم ومكانه من المنطق ، ثم نذكر لك بعد ذلك مقدار
تصلبه في الدين ، واحتياطه للكتاب والسنة ، وهو اكتشاف غريب
وتفككة لذيذة .

١ - فنقول لفضيلة الأستاذ : ليس هذا زيادة في الأذان ، وإنما
هو شيء فعل بعد انتهاء الأذان ، فأين هذا من ذلك ! وليس هناك
من يجعل الزيادة من الأذان ، بدليل أنها تترك في أذان المغرب ،
وبدليل أنهم ترة يطيلون وتارة يقصرون ، وبدليل ما ذكره هو أنهم
قد ينادون شيخ العرب (السيد البدوي) فهل يفهم أن ذلك كله
من الأذان ؟ بل قد يذكرون شيئاً من القصائد في مديحه صلى الله عليه

وسلم بعد الأذان ، فهل يعتبر ذلك كله من الأذان ؟ اللهم إن الأمر واضح حتى عند العوام .

٢- أما قياسه ذلك على زيادة ركعة أو سجدة في الصلاة فهو قياس ينبغي أن نتعجب منه أشد العجب ، فإننا لم نجعل ذلك من أجزاء الأذان ، لا أدخلناه فيه ، فهو بمنزلة الذكر بعد الصلاة ، أو بمنزلة الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد الفراغ منها ، على أن الأذان لا يسمح أن يقاس على الصلاة من كل وجه .

٣- وإني لأعجب أشد العجب من مجتهدنا الجديد الذي برز في علم الأصول . وقتل المنطق بحثاً حيث يقول : ما الفرق بين الأذان وغيره . مع كون الفرق في هذا القياس الذي أراد أن يجعله برهانه الساطع ودليله القاطع أوضح من الصبح عند صغار الطلبة . ومن الذي لا يفرق بين الزيادة في الشيء والزيادة عليه بعد الفراغ منه ؟ ولا بأس بأن نفككهك بشيء من علم الشيخ وذوقه الرفيع .

يقول : إن هولاء القبوريين يدعون البدوى وأمثاله من دون « الله أي فهُم كفرة » فانظروا أولاً لسوء عقيدة الشيخ في المسلمين ، وثانياً إلى خطئه في التطبيق ، وثالثاً إلى ذوقه في الإتيان بما لا علاقة له بالتمام ، بل نداء السيد البدوى مما يرد عليه لو كان يدرى ، ورابعاً إلى خطئه النعوى في قوله القبوريين ، وابن مالك يقول : « الواحد اذكر ناسباً لاجمع » .

ولكن الشيخ أرفع من أن يقلد ابن مالك أو سيبويه . ومن لطائفه أنه يعبر عن عصور النور والعلم عندنا بالقرون الوسطى تقليداً للأوربيين .

٤- ثم نقول : ألا يكفي ذلك كله في أن تكون المسألة محل نظر يصح الاجتهاد فيها لهذه الوجوه كلها ، فلا يضيق صدر الشيخ ممن يخالفه فيها ، وغاية أمرها بعد كل تنزل أن تكون خلاف الأولى بالكيفية المخصوصة لو سلمنا وجهة نظرهم ؟ ! .

٥- ألم يقرر العلماء أن الأمر لا يكون منكراً يجب النهي عنه إلا إذا كان مجعماً على إنكاره ، أو كان فاعله يرى أنه منكر ؟

٦- وبعد هذا يحسن بنا أن نناقش الشيخ مناقشة خفيفة في عباراته البليغة .

يدعى أنه لا يوافق على هذه البدعة وأمثالها إلا أدعياء العلم المعمون الجاهلون ؟ فليت شعري أيجهل الأستاذ أن ذلك مذكور في كل مذهب من المذاهب الأربعة ، وربما كان في كل كتاب من كتبه ، أم يرى أولئك المعممين كلهم بالجهل والغباوة ؟

٧- ولماذا يعجب أشد العجب من فتوى بعض كبار العلماء باستحسان هذه البدعة ؟ أليس موافقاً لغيره ممن لا يحصى كثرة من علماء المذاهب ؟ وهل هناك محل للعجب بعد ما امتلأت الكتب بذلك ؟

٨- بل ذكر حضرته قبل ذلك بقليل أن علماء القرون الوسطى قسموا البدعة إلى حسنة وغير حسنة ، وقال : إن المعممين أفتوا باستحسانها ، فأى معنى لأن يعجب أشد العجب لمفتى مجلة نور الإسلام عندما يقول ذلك ؟ .

٩- ألم يكن فيما قاله هو ما يجعله يحس بما فى كلامه من تناقض أو شبه تناقض ، حيث دهش غاية الدهش مما ذكر هو أنه كان معروفاً لدى علماء القرون الوسطى ؟ فما الموجب للعجب ولأشد العجب حينئذ ؟ ولكن الشيخ لا يحس بما يقول .

١٠- ألم يبلغ الشيخ أن بعض تلك الطائفة التى بذروا فيها تلك البذور الخبيثة قد أثاروا بسبب ذلك شراً كبيراً فى كثير من البلدان ، ووصل الأمر فيها إلى حد سفك الدماء ، وإبطال صلاة الجمعة . وإفساد أمر البلد كلها بما حصل بينهم من التشاحن والتباغض ؟ أليسوا بمنزلة من يبنى قصراً ويهدم مصرًا لو فرضنا أنهم بانون !

خلاصة المقام

١١- والخلاصة التى ينتفع بها القارئ فى هذا المقام أنه قد خفى الفرق بين الزيادة على الأذان والزيادة فيه على مجتهد آخر الزمان الشيخ رشيد ، ولذلك استباح نفسه أن يقول إن مفتى مجلة نور الإسلام لو سئل عن زيادة ركعة فى الصلاة لأفتى باستحسانها .

ونقول زيادة فى الإيضاح واهتماماً بالموضوع : إن أمر الصلاة والسلام على النبى -صلى الله عليه وسلم- بعد الأذان هين جداً ، وهن العجرام أن يسمى بترجمة ، ولسنا أول من قال إنها بدعة مستحسنة ، بل علماء

المذاهب الأربعة مصرحون بذلك ، وليس كل مالم يفعل على عهدہ صلى الله عليه وسلم يكون بدعة سيئة ، ومن فهم أن ذلك داخل في قوله في الحديث : « وكل بدعة ضلالة » فهو من أقل الناس علماً ، وأضيقهم عقلاً ، كما أنه ليس ذلك زيادة في الأذان حتى يشبهه بركنة في الصلاة ، أو يقول إنه زيادة في العبادة المشروعة ! بل هو عبادة مستقلة ، كما إذا قرأنا القرآن مثلاً بعد الصلوات ، أو صلينا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكذلك الصلاة والسلام بعد الأذان سواء بسواء ، ولكن شيخ المنار ليس من أهل المنطق ولا الأصول ، ولا صلة له بصناعة البرهان ، فهو يرخى لقلمه العنان : فيما يجول برأسه بلا ميزان يضبطه ، أو أصل يرجع إليه ، شأن من يأخذ علمه عن الأوراق لا عن العلماء .

ولا نزال نقول له : أترمى علماء المذاهب كلها بهذا ، فإنهم قائلون باستحسانها ، فتقول إنهم لو سئلوا عن زيادة ركعة في الصلاة لأفتوا باستحسانها كما قلت ذلك لمفتى (مجلة الأزهر) ، أم ذلك خاص بنا لغير معنى معقول ؟ وليس يبعد على الشيخ أن يرمى من شاء بما شاء أو يرجع بلا مرجع ، ولهذا لم يتعرض لما ذكرناه في مقالنا من التوجيه والاستدلال ، لأنه لا صبر له على الحوار المنطقي ولا الجدل العلمي ، وكأنه من قسم العامة الذين أشرنا إليهم في صدر ذلك المقال ، لا من الخاصة الذين تكلمنا معهم في آخره .

وقد سقنا لهم من الأدلة الصحيحة ما يقنع المنصف ، وقلنا : إن الصلاة مطلوبة وكيفية مباحة ، ولو كان استعمال العام في بعض أفراده يخصصه ، أو المطلق في بعض جزئياته يقيدده ، لكان كل عام

مخصصا ، وكل مطلق مقيداً ، لأن العام أو المطلق حين استعمل لم يكن إلا في بعض جزئياته ، ولكن الشيخ لا يعرف هذا ولا يحسنه ، ولذلك عدل عن الكلام فيه ، ونحن لا نستطيع أن نحاور إلا أهل البرهان وأرباب المنطق .

ألم يكن أجدبهم أن يقتنعوا أو ينصفوا فيقيموا لأولئك العلماء وزناً ، أو يقولوا : إن المسألة محل نظر فيصح فيها الاجتهاد ، وما يصح فيه الاجتهاد لا يتصلب فيه أهل العلم هذا التصلب ، ولا يجمدون فيه هذا الجمود ؟

مضحكات أو مبكيات

١٢ - هذا ، ثم نقول لحضرة العلامة المجتهد : مالك نأني بالمتناقضات فتنب الغارة على مسألة يصح فيها اختلاف النظر والأمر فيها واسع ، ولا تحتاط هذا الاحتياط في مسألة الربا المجمع على تحريمه ، وتبيح الانتفاع بالأرض المرهونة قياساً على ما قال بعض العلماء في الانتفاع بالحيوان المرهون الذي يركب ويحلب بنفقته ، كما في الحديث ، وهو قياس مع الفارق الواضح ، إن كنت تعرفه أو سمعت به ؟ !

١٣ - بل رينا منك ما هو أطم وأدهى أيها المحتاط في ترك الصلاة على النبي عقب الأذان ، رأيناك لم تحتط في (تفسيرك) هذا الاحتياط عند ذكر الملائكة في سورة البقرة ، فأخذت تتقرب من الماديين لتكون

مجدداً وعصرياً بتأويل كتاب الله على غير ما أراد الله ، بما يخرق الإجماع ، بل يصادم المعقول والمنقول . فقررت أن الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية .

وليت شعري هل تلك القوى الطبيعية هي التي وقع الحوار بينها وبين الله تعالى بقولها : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١)
وهل تلك القوى الطبيعية هي التي أوجب الله علينا الإيمان بها وقال في حقها : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (٢) إلى آخر ما جاء في الكتاب العزيز مما لا يعلم ثأويله إلا شيخ المنار والراسخون في علم المادة !

١٤ - ومثل ذلك ما قرره في المكروبات عند ذكر الجن في القرآن .

وليت شعري هل هذه المكروبات الجنية هي التي كانت تعمل لسليمان ما يشاء من محاريب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ؟ وهل هي التي قال عفريت منها لسليمان عليه السلام : أنا آتيتك به « بعرش بلقيس » قبل أن تقوم من مقاهك وإني عليه لتوى أمين ؟ وهل هي التي قالت لقومها : إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . إِنْخِ إِنْخِ ؟

١٥ - ومثل ذلك ما قاله في مذهب دَرَوْنٍ في أول تفسيره لسورة النساء ، وأنه يجوز تطبيق القرآن عليه . وما أدري كيف يفعل في قوله

(٢) سورة النساء ، الآية ١٣٦

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠

تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)^(١) إلى آخر ماجاء في الكتاب والسنة ، مع أن كثيراً من الأوربيين أنفسهم لا يأتون هذا المذهب كل الإباء .

وهل يبقى مع تلك التأويلات وثوق بكتاب الله الذي أصبح تابلاً لكل تأويل ، وأصبح المراد منه غير معروف حتى في أصول الدين ، كالإيمان بملائكة الله تعالى ؟ فمرحى مرحى أو برحى برحى .

فأى خدمة أعظم من هذه الخدمة لدين الله وكتاب الله ، وأى إصلاح أكبر من هذا الإصلاح «الدينى والمدنى والسيامى» وأى اجتهاد أجل من هذا الاجتهاد الذى يفوق اجتهاد الإسماعيليه والبابية ؟ .

وهل هناك فرق بين هذا وبين تأويل الملاحدة من الباطنية الذين أطنّب الشيخ فى الرد عليهم والتشهير بهم ، ونسى أن له من الترهات ما يفوق ترهاتهم حتى صدق عليه قول القائل : رِق حتى اتقطع ، وحلق حتى وقع :

أُمُور تَضْحَكُ السَّفَهَاءُ مِنْهَا وَيَبْكِي مِنْ عَوَاقِبِهَا اللَّيِّيبُ

١٦٧٧ - وهل نسى الشيخ ما كنا نكتبه تحت عنوان «صاحب المنار وآدم عليه السلام» حتى تدخل بيننا السيد عبد القادر التلمسانى رحمه الله حينما جمعنا لأجل الصلح ببیت السيوفه الاتفاق على مايرضى الله ورسوله ؟

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٩

١٧- وهل نسيت يا حضرة الغيور على دين الله ما كان منك من
نأبين رؤساء الإلحاد مما أفضى إلى التقاضى أمام مجدى باشا عليه رحمة
الله؟ وأن الشيخ ليعلم أن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان، بل
أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله كما في الحديث الشريف
الذى لا يجهره الأستاذ «ومن ذاق حلاوة الإيمان يحب المرء لا يحبه إلا الله»
ويقول الله في كتابه العزيز: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(١) فهذا كلام الله ورسوله،
ولكن الشيخ لا تحكم عليه سنة ولا كتاب ولا منطق، وكل ذلك تحت
سلطانه وتصرفه وبديع تأويله.

ولقد كتبنا في هذه المجلة كلمة عن إنكار الملائكة، ورأينا أن
نستر عليه فلم نصرح باسمه، ولكن أبى عليه ذوقه وعقله إلا أن يضطرنا
للتصريح، ولعله أنفع للقارىء وأبلغ في النصيحة.

١٨- وهل نسى الشيخ ما أفتى به من حل صلاة التلاميذ المسلمين
مع النصرارى بالكنيسة، ليغرس في قلوبهم الخالية النقية تلك الطقوس
النصرانية، وينقش في نفوسهم الساذجة ما يسمعونه من القسوس
والمبشرين هناك.

(١) سورة المجادلة، الآية ٢٢

عظيمة العظائم

بل وصل الأمر من اجتهاد مجتهدنا « الذى يبحث فى جميع شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى » كما يقول فى مناره - أن اجترأ على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم عن أبى ذر من أن الشمس تسجد تحت العرش ، وقال : إن الأنبياء لا تعرف هذه العلوم ، ولو كان رشيداً لم يضق صدره بذلك ولو سعه إيمانه بالغيب ، فإن لم يسعه إيمانه بالغيب فكان ينبغى أن يسعه علمه بسعة لغة العرب وكثرة مذاهب البيان فيها . فإن ضاق علمه كما ضاق إيمانه فما كاد ينبغى أن تضيق سياسته وهى التى وسعت الشرق والغرب .

وبيان ذلك أنه كان يستطيع أن يقرر فى الحديث ما قرره العلماء فى قوله تعالى حكاية عن الأرض والسياء : (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)^(١) وقوله تعالى (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢) وقوله تعالى : (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ)^(٣) وقوله تعالى : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَفِى السَّمَوَاتِ وَمَفِى الْأَرْضِ)^(٤) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)^(٥) حتى قال كثير من العلماء : إنه بلسان المقال لا بلسان الحال ، بدليل قوله : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فإننا نعرف ما يدل عليه حالها ، فالذى

(١) سورة: فصلت ، الآية ١

(٢) سورة النور ، الآية ٢٤

(٣) سورة: الملك ، الآية ٨

(٤) سورة الحشر ، الآية ١ ، وسورة الصف ، الآية ١

(٥) سورة: الإسراء ، الآية ٤٤

لانفقهم إذا هو مقالها لا حالها ، وقد سبح الحصن في كفه صلى الله عليه وسلم .

وإن لم يتسع صدره ولا إيمانه لذلك فكان عليه أن يخرج ذلك على وجه من وجوه المجاز أو الكناية ، ووجوه المخارج كثيرة ، وما أوسع لغة العرب لدى من يعرفها ، وكان ينبغي إذ لم يتسع صدره ولا إيمانه ولا علمه لشيء من ذلك أن تتسع سياسته لحسن المخرج منه بآية وسيلة غير تجهيل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أن يرمى البخارى أو غيره من رواة الحديث بالخطأ والكذب ، ولا يتعرض للرسول الله ، فقد كان تكذيبهم أهون من تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، فما أضيق دينه وعلمه وسياسته ، وإن كان يبحث في شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى .

وإني أحسن منك بامتعاظ شديد غيرة على المقام النبوى ، ولعلك تستبعد صدور ذلك من الشيخ أو لاتصدقه ، فلننقل لك عبارته بنصها وفصها وما طعن به على أحاديث كثيرة فى البخارى غير هذا الحديث ، ثم ترقى من تكذيب الرواة فى تلك الأحاديث إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث :

قال فى منارده الصادر فى آخر رمضان سنة ١٣٢٧ صفحة ٦٩٧ من مجلد السنة المذكورة ما نعرض عليك محصله لتحكم فيه ، وليتضح به الموضوع الذى نحن فيه « فإنه كالمقدمة له : رد الأحاديث التى فى البخارى وغيره الناطقة بآن آية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » كانت قرآناً يتلى ، وأن عمر فال ذلك بمجمع من الصحابة ولم

ينكر عليه أحد ، وهو معروف لا مرأء فيه ، ويستند حضرته في ذلك الرد إلى ما تعرف منه مقدار علم الشيخ وتفكيره ، يقول إن ذلك لو تم لكان يشبهه على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعدم ضياع شئ منه !

ولم يفرق الشيخ بين النسخ الذى يكون من قبل الشارع ولا يعرف إلا من جهته ولا يكون إلا فى زمنه بإرشاده وتبيينه ، وبين التفریط فى القرآن وضىاع شئ منه .

ثم رد الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، رد ذلك بتمويهات وخيالات لا تطيل بها .

ومن المعلوم أن الأنبياء تجوز عليهم الأمراض البدنية والأعراض البشرية ولا فرق بين السحر الذى يؤذيه فى بدنه ولا تسلط له على الوحي وبين كسر رباعيته يوم أحد . وكان عليه وهو المحدث الكبير - فيما يزعم - أن يطن على سند الحديث ويجرح أحد رجاله ، أو يبين أن فيه علة خفية كما يصنع أرباب هذا الشأن ، وقد طعن فى أحاديث أخرى يطول فيها القول . ثم قال بعد ذلك كله مترقياً من رد روايات البخارى إلى رد كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى جرأة لا يصح أن تكون من مسلم يؤمن بالله ورسوله .

قال مانصه : « ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع المشاهد كرواية لسؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب والجواب عنه بأنها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالطلوع . إلخ . » إلى أن قال :

« فالشمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علماً قطعياً لا شبهة فيه » أى فكلام النبي كذب لا شبهة فيه !! إلى أن قال : « والأنبياء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمر المخلوقات على حقيقتها » إلى آخر ما قال ، أى فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف ما عرفه الشيخ رشيد ، بل لم يدرك المشاهد المحسوس .

وليت شعري ما الداعي إذاً له صلى الله عليه وسلم أن يدخل في شيء لا يعرفه ولا سئل عنه ، بل هو الذى لفت نظر أبي ذر إليه وقال له حيث غربت الشمس : « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ إِلَخَ » . أما الشيخ رشيد فلا يقول : الله ورسوله أعلم ، بل يقول : أنا أعلم ! ، وإن جوزنا عليه الخطأ في المشاهد المحسوس كما هو رأى الشيخ ، فكيف نشق به فيما أخبر به من المغيبات التي هي وزراء الحسن والمشاهدة !

هذا ولتلاحظ أن الشيخ رشيد يوول لنظريات الأوربيين التخمينية كتاب الله بما لا يخطر لأحد على بال . وإن نظرت في منار شعبان من تلك السنة أيضاً وجدت من السخافات ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم .

وبعد فلا بد أن يكون الشيخ مكذباً لله أيضاً في قوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)^(١) الخ ، فإنه أثبت السجود للشمس ، كما أثبت الرسول

(١) سورة الحج ، الآية ١٨

صلى الله عليه وسلم ، ولا فرق بينهما ، فما ثبت لأحد المثليين يثبت
للآخر ، فالشيخ إذا مخطئ لله ورسوله ، مكذب للقرآن والسنة .
وإن شئت فقل مجهل لهما ! .

ولولا ضيق المقام لسردنا على القارىء الكريم ما يلهمه عن أكبر
المصاب ، أو يئيه عن أعظم الألعاب . ويكفى هذا اليوم ، ونصوص
المنار عندنا إذا أرادها القارىء ، وإني لأعلم أن الشيخ سيكيل لنا من
السب والأقذار ما يعرفه منه القراء ، ولكن هناك فرق بين قول
باللسان وكلام شبه الهديان ، وبين ما يشهد له الوجدان ويقام عليه
البرهان .

الرضاع (١)

ما قولكم دام فضلکم فی رجلین تزوجا ورزقهما الله بولدين يكبر
أحدهما عن الآخر بسنة^١، ورزق الله هذين الرجلين بنات ، ويريد
الولد الصغير أن يتزوج بأخت الكبير الصغيرة ولكن أم الولد الكبير
التي هي أم للصغيرة قالت إنها أرضعت الولد الصغير ليلة كاملة مع
ابنها الكبير^٢، مع العلم بأن في الدار معها ناساً من أقربائها لا يعلمون
بهذا الرضاع أصلاً وينكرونه على تلك المرأة التي هي أم الولد الكبير
وأم البنت الصغيرة . فما هو الحكم الشرعي مفصلاً في هذا الباب ؟ .
أحد القراء

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد
المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الرضاع يحرم ما حرم النسب^٣، قال صلى الله عليه
وسلم « يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » . والرضاع عند
المالكية يتحقق بوصول لبن المرضعة لجوف الرضيع ولو مصصة إذا كان
في مدة الحولين من ولادته ، قال تعالى (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ^٤)
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ) .

(١) مجلة الأزهر - الجزء التاسع - المجلد الثالث - رمضان ١٣٥١ .

ثمدة الرضاع الكامل سنتان ، وألحق المالكية بهما شهرين من السنة الثالثة لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه .

ومن أرضعت ولداً فبناتها وبنات زوجها ما تقدم وما تأخر أخوات له ، وثبت الرضاع عندهم بإقرار أم الولد غير الرشيد ذكراً كان أو أُنثى على الراجح في المذهب إذا كان إقرارها بالرضاع قبل العقد . وعلى ذلك فإقرار أم البنت في الحادثة المسئول عنها معتبر عند المالكية متى كانت البنت غير رشيدة بأن كانت صغيرة أو سفیهة ، فإن كانت رشيدة؛ فإقرار الأم بالرضاع لا يحرمها على من يريد تزوجها . نعم يندب له أن لا يتزوجها احتياطاً وتورعا ، كما أنها إذا أقرت بالرضاع ثم رجعت عنه فلا عبرة بإقرارها . والله ولي التوفيق .

الصَّلَاةُ خَلْفَ جِزَارٍ^(١)

ورد إلى المجلة السؤال الآتي :

ما حكم صلاة من صلى خلف جزار يزاول المهنة بيده ويقوم بعلف البهائم وخدمتها فيصيبه رشاش الدم وفلذات الدهن وقذارة الأرواث سويتصاعد من مجموعها رائحة كريهة تؤذي القريب منه والبعيد؟ وهل يصلى بالناس من يجهل مع حضور من يعلم؟ وهل يصلى بالناس من يبغضه الناس؟ إنا منتظرون إماطة اللثام عن حكم من نصب مثل هذا الرجل إماماً :

محمد الشريف كساب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فاعلم أيها المستفتي أن الجزار ونحوه من أصحاب المهن التي لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعنى عما يصيب ثيابهم منها متى كانوا يجتهدون في درئها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى :
(وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » .

(١) مجلة الأزهر - الجزء التاسع - المجلد الثالث - رمضان - ١٣٥١

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨

ويستحب إعداد ثوب خاص للصلاة به . وعلى ذلك فصلاة
الجزار بثيابه التي يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها .
وأما إمامته فذكروها لمن ليس مثله .

أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره
أن يكون إماماً له .

وأما رائحة ثيابه فهي مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى
غيره ، فعليه أن يخلعها قبل الذهاب إلى المسجد وإلا حرم عليه دخوله
فضلاً عن أن يكون إماماً للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :
« لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » .

وأما إمامة الجاهل ففيها تفصيل : فإن كان جهله يؤثر في صحة
صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو
الاعتسال من الجنابة ، أو ترك فرضاً من فروض الصلاة كالطمأنينة
فصلاته باطية فضلاً عن إمامته ، وإن كان جهله لا يؤثر في صحة
الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا
كان يعتقد أن في الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه
وسلم : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » فحتى كانت الصلاة مستوفية
لجميع ما يعبر في صحتها شرعاً فهي صحيحة والاعتداء أيضاً صحيح .
نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذي تصح إمامته .

وأما إمامة من يكرهه أهل بلده ففيها تفصيل أيضاً : فإن كانت الكراهة لأمر ديني فإمامته مكروهة حيث كرهه النفر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم ، فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا ، حرمت إمامته لقوله صلى الله عليه وسلم : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ » والله أعلم .

صَلَاةُ جَارِ الْمَسْجِدِ فِي بَيْتِهِ مَعَ زَوْجِهِ

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

رجل بجوار المسجد يتخلف عن صلاة الجماعة مكتفياً بأنه يصلي في بيته مع زوجته جماعة ، فهل عليه في تخلفه شيء « إمام أن جماعته في بيته كجماعته في مسجده » ؟ نرجو من فضيلتكم التكرم بالجواب ولكم الشكر وبن الله الأجر .

سعد السيد الدمهورى

الجواب

أن صلاة الرجل مع زوجته يحصل بها فضل الجماعة الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بسبع وعشرين درجة » وأقل الجماعة اثنان ولو رجلاً وامرأة ، ولذلك نص المالكية على أن من صلى إماماً لامرأة فلا يطلب منه إعادة الصلاة في جماعة لحصول فضلها بصلاته مع المرأة . (١)

نعم صلاة الفرائض في المساجد أفضل ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصلاة صلاة تُكْمَلُ في بيوتكم إلا المكتوبة » يعني الفريضة ، وما كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتركون الجماعة في المساجد اكتفاءً بالصلاة مع أزواجهم .

العقيقة - سرُّ الختان في الدين الإسلامي

سيدي الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله .

تلقيت بيد الشكر ببحثكم القيم الجليل في بيان الفطرة وما خلقه الله فيها ، فقد وصلنا بما بينتموه في حديث الفطرة إلى أن دينه الحنيف مركز في النفوس وفي الطبائع ، وأن طبيعة الطفل من ناحية علم النفس تأنى إلا أن تتقبله ، وهي معودة إليه بالطبع . ولقد تعلمون خطورة بحثي إذا عرفتم أنني أقوم به في بلاد لا أثر لدين الله فيها ، وأن هم علمائها موجه إلى إثبات منابع الأخلاق من ناحية الطبيعة . وسأكون في الطرف الثاني من التناقض لآرائهم ، وبتعبير آخر : « سأكون أول من يقيم الدين في مالطة » إن سمحت لي أن أخطبك هذا المثل الملمى ، والله الموفق والمعين ، إليه غايتمنا وعليه توفيقنا .

ولقد يسرك جداً أن آراءك هنا عرفت قيمتها ، ورجح وزنها ، وكانوا معجبين بك إذ وصلت إلى ما لم يصلوا إليه إلا بالتجاريب والبحث المادى والعلمى ، وفقك الله ووفقني إلى نصره الدين .

هذا وأرجو إذا سمح لكم وقتكم إمدادى بشئٍ عن المسائل الآتية :

١- رأى الدين في العقيقة التي تعمل بمناسبة ولادة الطفل .

٢- رأيه في الختان :

٣- رأيه في حادث شق صدر^(١) النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعده ربه من صغره لتلقى وحيه الجليل . وحسبكم مني أن أكون إلى جانبكم كالمقاتل الشريف في نصره دين الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم سلامة

مفتش بالمعارف وعضو بعثتها بفرنسا

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما العقيدة ، وهي ما يذبح سابع ولادة المولود مما يصح أن يكون ضحية ، ففيها أسرار بديعة ومصالح كثيرة راجعة إلى المصلحة المالية والمدنية والنفسية ، وقد كانوا يفعلونها في الجاهلية ، فاستبقاها النبي صلى الله عليه وسلم ، ورجب الناس فيها بعد إصلاح مقاصدهم ، مع مخالفة أهل الجاهلية في بعض المسائل كما ستعرفه .

فمن تلك المصالح - ولعله أقلها - التلطف بإشاعة نسب الولد ، إذ لا بد من إشاعته لئلا يقال فيه ما لا يحبه ، وكثيرا ما يكون لذلك داع كبير في القضايا كما هو معروف ، ولا يحسن أن يدور في -

(١) تقدم في القسم الذي يتعلق بالمقاتل الخاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الطرقات فينادى أنه ولد له ولد ، فكانت العقيقة أفضل وسيلة لهذا الغرض .

ومنها إثماء ملكة السخاء وعصيان داعية الشح الذي أحضرته النفوس . ومنها أن النصراني كان إذا ولد لهم ولد صبغوه بماء مخصوص يسمونه المعمودية ليكون نصرانياً حقاً ، وفي مشاكلة ذلك نزل قوله تعالى : (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)^(١) فاستحب أن يكون للمسلمين فعل بإزاء فعلهم ذلك ، يشعر بكون الولد حنيفياً تابعاً للملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وأشهر الأفعال المختصة بهما المتوارثة في ذريتهما : ما وقع له عليه السلام من همه بذبح ولده ، ثم نعمة الله عليه أن فداه بذبح عظيم . وأشهر شرائعهما الحج الذي فيه الحلق والذبح ، فيكون الذبح عن المولود تشبهاً بهما ، وتنوياً بملتهما ، وإعلاناً بأن الولد تابع لهما وعلى دينهما ، إذ فعل ما هو من أعمال هذه الملة الحنيفية .

ومنها أن هذا الفعل في بدء ولادته يخيل إليه أنه هم ببذل ولده في سبيل الله ثم فداه كما فعل إبراهيم عليه السلام ، وفي ذلك تحريك سلسلة الإحساس بالانقياد والخضوع . وقد حث على ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله : « مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه » .

وقد كان أهل الجاهلية يقدمون تلك الذبائح لأصنامهم ، فجاء الإسلام بتقدمها لله تعالى وذكر اسمه عليها بدل الأوثان . وكانوا

يكرهون كسر عظامها ، فجاء الإسلام بباباحة ذلك ، مخالفة لهم ،
وإبعادا للمسلمين عن التطير والتشاؤم ، وتخليصا لهم من اتباع -
الأوهام والنوسوس .

هذا وفي العقيقة أيضا شكر لتلك النعمة التي أنعم الله بها عليهم ،
ولذلك استحب لهم أيضا أن يتصدقوا بشيء قليل من الفضة يوم
السابع شكرا للنعمة . ويلتحق بما ذكرناه من التنويه بشأن الدين ما يفعله
من الأذان في أذن المولود ، فإن الأذان في الأذن من شعائر الإسلام وأعلام الدين
المحمدي . ومن المقاصد الشرعية أن يدخل ذكر الله في تضاعيف الأعمال
ليكون كل ذلك السنة تدعو إلى الحق وإلى دين الله . ومن ذلك أنه
يستحب أن يختار للمولود بعض الأسماء التي تشعر بذلك : كعبد الرحمن ،
وعبد الله ، ومحمد ، وأحمد . وقد جاء الترغيب في ذلك : ففي صحيح
مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ » وفي مسند
أبي داود والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سَمَوْا
بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ » الحديث . فذلك كله تنويه بالدين ، وكنائه إقرار
بأنه من أهله .

الختان

الختان سنة من سنن الدين^٣ ، وهو من الكلمات التي ابتلى الله بها
خليله إبراهيم فآتمهن ، وكان عليه العرب قبل الإسلام اتباعا لأبيهم
إبراهيم عليه السلام .

وأما حكمته فهي المبالغة في تنظيف البدن من الأذناس والأرجاس بقدر الإمكان . وللدين الإسلامي عناية كبرى بالنظافة والمحذ عليها . ومن ذلك طلبه قص الشارب ، وتنظيف الإبط ، وإزالة الأظفار ، وإيجاد الطهارة للصلاة . ولا شك أن إزالة القلفة أضمن لذلك وأعون عليه

وفي نظافة الظاهر إشعار بالحث على نظافة الباطن ، وإشارة إلى أن في النفوس أشياء من مساوئ الأخلاق تجب إزالتها والتنزه عنها ، فكما تزيل شعث ظاهره يجب أن تزيل شعث باطنك وإن كان خلقياً جبلياً تعاني في إزالته آلاماً ومشاق وتحتاج فيه إلى صبر ومجاهدة ، وهو موضع الابتلاء والاختبار ، فإنك لم تخلق كاملاً ، ولكن خلقت قابلاً للكمال مكلفاً به مأموراً بتحصيله . وهذا هو الفرق بينك وبين الملائكة والحيوان الأعجم . وفي الختان أيضاً من الفوائد ما يمكنك أن تقف عليه من حذاق الأطباء مما لا يحسن أن نفيض فيه .

هذا والختان شريعة التوراة أيضاً .

فضل الصلّاة وبيان أسرارها

وشرح حديث شريف

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ أَفَبُئِيَ ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ؟ قَالُوا : لَا يُبْقَى ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا . قُل : فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ : يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وفى لفظ آخر : « إِنَّمَا مِثْلُ الصَّلَاةِ كَمِثْلِ نَهْرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ » . أخرجه مالك فى الموطأ من حديث طويى . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزِبَهُ أَمْرٌ فَرَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ » .

أخرجه أبو داود . وفى رواية : « حَزَنَهُ » بالنون ، والمراد نزل به وأهمه . إلى غير ذلك وهو كثير .

فا علم أن لصلّاة أعظم العبادات شأنًا وأرضحها برهانًا وأكبرها أثرًا فى تطهير القلوب والنفوس ، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية ، حتى قال : « من ترك الصلّاة فقد كفر » وقال : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلّاة » .

وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد ، فكفر تارك الصلاة ، ووافقه على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية . وكانهم رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التي إذا فقدت حكم يفقده لقوة الملابس بينها وبينه ، فإن الصلاة هي المحققة لمعنى إسلام الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبوأ من الإسلام إلا لا يعبأ به .

وبالجملة فهي في نظر الشارع أعظم شعائر الدين . ولذلك أوصى بها الصغار والكبار ، وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها ، لتكون ملكة راسخة في النفوس ، بحيث تكون صبغة لها متمكنة منها مسيطرة عليها ، حتى تمنعها من اقتراف الذنوب بسלטانها القاهر وما تورثه في النفس من الخشية والمراقبة ، ولذلك يقول الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(١) ويقول : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢) وسنشرح ذلك تمام الشرح . ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه خلائقه وملكانه التي انصبغت بها نفسه ، وانتعش بها قلبه .

ولتلك الحكمة البالغة أمرنا أن نعلم الصبي الصلاة لسبع ، ونضربه عليها لعشر ، حتى نصادف منه قلباً خالياً قبل أن تفرقه الأهواء التي نجعل النفس شعاعاً والقلب أوزاعاً .

(١) سورة التكوير ، الآية ٤٥

(٢) سورة المارج ، الآيات ١٩ - ٢٣

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسيلة تقرب العبد من مولاه وتمنعه من التردى في أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس ، حتى ترتفع بها إلى عالم الملكوت .

والمصلى إذا قصد من الصلوات أرواحها لا أشباحها ومعانيها لا صورها ، فلا بد أن يخوض في لجة عظيمة من الرحمة . وكأنه بدخوله في الصلاة قد اندرج في سلك الملائكة ، وخرج من هذا العالم بالكلية ، ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنها تطرح عنهم أثقالهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَرِحْنَا بِهَا يَا لَيْلُ » ويقول : « وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ، لما كان يحس فيها من الرحمات والفيوضات ، والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق في عظمة رب الأرض والسموات .

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثني وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة ، فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة تطير بها إلى الله تعالى مثني وثلاث ورباع . كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التي تفرقت في صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والساجد والتائم والمسبح ، فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح والركوع والسجود والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها وتذوق من تلك الحضرات ما قدر لك .

ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين ، وقررة عين الواصلين ، حتى أنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا : السلام عليكم ،

يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين . وكأنهم يقولون لهم :
إننا كنا مع الله تعالى لا معكم ، ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع
أحد حتى الملائكة المقربين .

والخلاصة أن المصلي قد خضع لله بقلبه ، وذكر الله بلسانه ، وعظمه
غاية التعظيم بجسده ، فقام بين يديه يناجيه ويضرع له ، ثم تدرج
في التعظيم وترقى في الإجلال فنأتى بالركوع ثم بالسجود الذي هو أكبر
مظهر للعبودية .

ولما كان الحق متعالياً عن الجهة أقام التوجه إلى بيته مقام التوجه

إليه :

كلمة تفصيلية عن بعض ما في الصلاة من الأسرار :

إذا قام المسلم إلى الصلاة قال قبل الدخول فيها تلك الكلمات
المعروفة في الأذان والإقامة . وكأنه يريد بذلك أن يشعر نفسه بأن الله
أكبر من كل شيء . وقد أراد أن يدخل حضرته ويشغل بمناجاته ،
فعلية ألا يشغل قلبه بشيء سواه ، ثم يشعرها بعقد الإيمان الذي ربط
قلبه عليه ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم
يخاطب نفسه آمراً إياها بالإقبال على الصلاة والقيام بواجباتها قائلاً
لها : يا نفس أقبلي على الصلاة ، يا نفس أقبلي على الفلاح ، فإن
« حى » في لغة العرب تستعمل لطلب الإقبال ، فكأنه يقول لنفسه :
إن هذا هو فلاحك فأقبلي عليه ولا تعدلى عنه ، فالعاقل لا يعدل عما
فيه فوزه وفلاحه ، ثم يؤكد ذلك ببقية كلمات الإقامة ، مما يملأ النفس
خشوعاً وهيبه وتنبهاً ويقظة ، لما هي مقبلة عليه ومتوجهة إليه .

ثم يرفع يديه عند الدخول في الصلاة ، وكأنه يشير بذلك إلى
طرح الدنيا وراء ظهره ، قائلاً لنفسه : الله أكبر من كل شيء ،
فلا تعول إلا عليه ، ولا تلتفتي إلا إليه ، ثم يقول : إني وجهت وجهي
للذي فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين .

أو يقول : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ،
لا شريك له .

أو يقول : تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، إلى آخر
ما هو معروف .

يقول ذلك لأجل أن يحرك من نفسه الإحساس بعظمة الله تعالى
ويوقظها للإخلاص في عملها والحضور في صلاتها .

وإذا كان لإنسان بحضرة الملك لا يفكر في غير مناجاته وما يليق
بعظمته ، فكيف بحضرة الله عز وجل وهو يخاطبه بقوله : (إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ^(١) . ثم إنه يقرأ الفاتحة بعد ذلك ، فيثني على
الله تعالى الثناء الواجب تقديمه بين يدي الدعاء ، فيقرع به باب الكرم
ويحرك به سلسلة الإجابة ، ويقضى به واجب التعظيم وآداب المواجهة ،
قائلاً : (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ^(٢) أي أن كل حمد في الحقيقة إنما هو لله عز وجل
لأنه هو المنعم لا غيره . فكل نعمة صادرة منه وراجعة إليه (ما بفتح
الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسكك فلا مرسل له من
بيده) ^(٣) (فَسُدْحَانَ اللَّيْلِ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) ^(٤) .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٢

(٤) سورة يس ، الآية ٨٣

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٥

(٣) سورة فالر ، الآية ٢

ثم يشعر نفسه . وجب ذلك الحمد من التربية العامة لجميع العوالم بقوله : (رَبُّ الْعَالَمِينَ)^(١) .

وانظر ماذا يخالج قلبه من عظمته تعالى عندما يتصور سعة العوالم وعظمتها ، وما اشتملت عليه من العلويات والسفليات التي أصبحوا يقولون إنها لانهاية لها ، وإنما خلق الله من النجوم والشموس والكواكب المختلفة الأحوال والأشكال ما لا يعلمه إلا الله الذى قدرها أحسن تقدير ، ودبرها أحكم تدبير ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وفى كل أرض ما يحفظها ، لأنه الرحمن الرحيم .

ثم ينتقل من ذلك إلى أنه مع تلك الرحمة البالغة يجب أن نرهب منه غاية الرهبة ، وأن نستقيم على السنن السوى ، فإنه لا بد من الجزاء على ما عملنا من خير وشر ، فى يوم يدان فيه كل عامل بعمله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٢) فيعرف نفسه أن ذلك الإله العظيم الذى لا حد لعظمته هو مالك يوم الدين .

وعندما يمتلئ قلب المصلئ بنعوته الجلالية والجمالية يقول : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) لأنه لا يستحق العبادة غيرك ، ولا يملك المعونة إلا على الحقيقة أحد سواك ، ثم يطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى يعلمه هو ، ولا نعلمه إلا بتعليمه تعالى وهدايته سبحانه ، وهو

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٢

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ ، ٨

صراط المنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، غير
المغضوب عليهم ولا الضالين .

وكأنه وهو العليم الحكيم يقول لنا : إن الناس منقسمون إلى هذه
الفرق الثلاث ، فإن شئت فكن من المنعم عليهم ، أو من الضالين
الذين جهلوا طريق السعادة وما رسمه الله لعباده من سبل الهداية ، و
المغضوب عليهم الذين عرفوا طريق الهدى فتنكبوه ، وسبيل الرشاد
فعدلوا عنه ، فهو يحذرنا من الانحراف عن الصراط المستقيم ، فإن
من انحرف عنه كان من إحدى الطائفتين لامحالة .

ولو تراءى المصلى سبحانه وتعالى ولم يعلمه هذا الدعاء الكلى الجامع ،
لدعا بالأدعية الجزئية ، ولم يسأل غير المطالب المحدودة التي تملئها
عليه شهواته ، وترشده إليها نزعاته .

والقول المختصر في ذلك أن الله أنزل الفاتحة يعلم الناس فيها كيف
يحمدونه ويشنون عليه ، ويقرون له بتخصيص العبادة والاستعانة به
تعالى ، على ما يقتضيه التقديم في قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين)
ويعلمهم سبحانه كيف يسألونه الطريقة الجامعة لأنواع الخير ،
ويتعوذون به من طريقة المغضوب عليهم والضالين .

ولا يسمع المقام غير هذا التلميح ، فلننتقل إلى ما بعد ذلك ، فنقول :
إن المصلى بعد أن يقرأ الفاتحة يقرأ في الركعتين الأولىين من القرآن ما
يزيد ذلك إلى وقر في قلبه تأكيداً وتشبيهاً ويملاً نفسه إيماناً ونوحيداً ،

فيقرأ مثلاً قوله تعالى : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ)^(١) أو سورة الإخلاص ، أو بعض آيات الوعظ ، أو سور الزجر ، فيزيد ناد خشوعاً وخضوعاً ، فلا غرو أن يركع لتلك العظمة قائلاً في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » .

ثم يرى أن ذلك غير كاف في التعظيم ، فيختر ساجداً لله تعالى إبرازاً للعبودية في أعظم مظاهرها . ولما كان أعظم ما يحبه الله تعالى هو التواضع ، لأنه أخص أوصاف العبودية ، وما خلقنا الله تعالى إلا لنتصّف بالعبودية ، ونقوم بحق الربوبية التي أخص أوصافها العظمة والكبرياء ، كرر المصلي السجود إظهاراً لما امتلأ به قلبه من عظمة الربوبية وذل العبودية . وقد ورد « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

وسر ذلك ، أن بعد العبد من ربه على قدر ما فيه من الأنانية والكبرياء وقربه منه على قدر ما فيه من تواضع وخشوع .

ثم يكرر ذلك كله في كل ركعة من صلاته ، فإذا أراد الخروج من الصلاة كان نزلة من يريد الانصراف من حضرة الملك ، فيثنى عليه أبلغ الثناء ، ويحديه أفضل التحيات ، ثم يطلب منه ما شاء من المطالب ، فكذلك المصلي عند ما يريد الانصراف من حضرته تعالى يقول : إن كل تحية وتعظيم ليستحيتها في الحقيقة إلا الله ، فكل تحية زاكية مباركة طيبة ليست إلا لله عز وجل .

وهذه الصلوات التي نقيمها لا ينبغي أن تكون إلا لرب العالمين لا للمريوبين المقهورين .

ثم أمرنا بالسلام على النبي تنويماً بذكره ، وإظهاراً للإقرار برسالته ، وأداءً لبعض حقه ، ثم يعمم المصلي بقوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فإذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السموات والأرض ، ثم يأتي بالتشهد بعد ذلك لأنه أعظم الأذكار ، وهو بعد تجديد لعقد الإيمان أمام الله قبل الانصراف من حضرته ، ثم يختار من الدعاء بعد الصلاة على النبي التي هي مقدمة ووسيلة لإجابته أعجب الأدعية إليه .

وسر الدعاء في ذلك المقام أن المصلي عند ما يصل إلى آخر الصلاة يكون قد خاض في بحر من الرحمة ، وكاد ينسلخ من عالم الحس ويلتحق بعالم القدس « أو تم له ذلك إن كان من أهله » وحينئذ لا يسقط له مطلب ولا يرد له دعاء ، ثم ينصرف من الصلاة مسلماً على من معه من الملائكة والمؤمنين ، لأنه لم يكن معهم ، بل هو راجع من الملاء الأعلى ، أو نقول من معية الله عز وجل كما أشرنا إليه .

فهل ترى أن من صلى هذه الصلاة يبقى عليه شيء من دنس الطباع أو ظلمات النفوس ؟

وقد علم الله أنه لا بد لنا من الاشتغال بأمور الدنيا ومقارفة ما نتلوث به أثناء اشتغالنا بأمورها ، فأمرنا بتكرير الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ، فهي بمنزلة الدواء الذي نكرره كلما خفنا من صولة

المرض أو خشينا من تحركه ، فإذا غشيتنا بعض الظلمات ، ولعبت بنا بعض الشهوات ، تداركنا الله بالصلاة الأخرى ، فآزالت ما لحقنا من آفات وما وقعنا فيه من زلات ، فجددت لنا تنبه النفس ويقظة القلب ، فزالت عنا الغفلة وعاودتنا المراقبة ، فسبحان الحكيم العليم اللطيف الخبير .

وأظن أنك بعد ذلك لا تشك في أن الصلاة بمنزلة ذلك النهار الذي يكون على باب أحدنا ، فكلما أحسنا بشئ ٍ يدنسنا تطهرنا به ، فزالت الأدناس وذهبت الألوات ، كما سبق في الحديث الشريف الذي صدرنا به المقال ، وكما قال تعالى : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)^(١) .

الخلاصة

أن المصلين يسيرون فيما بين الصلاتين بذلك النور الذي اكتسبوه منها ، حتى إذا كاد ينمحي بسبب المعاملات الدنيوية والدخول في مضايقتها وظلماتها ، تداركهم الله بالوقت الثاني ، فقاموا للصلاة يستدركون ما عسى أن يكون قد فرط منهم فيما بين الصلاتين .

ولا شك أن من حافظ على الصلوات لا يزال معه بقية من نورها فلو فرضنا أن اقتترف بعض الهنات والهفوات لم تصل ظلمة الخطايا والغفلات إلى جذر القلوب . فتكون تلك الهفوات كغبار مر على ظاهر

(١) سورة هود ، الآية ١١٤ .

العين ثم أزيل قبل أن يستقر فيها بفضل الصلاة التي تليها : وهذا تبين غاية البيان سر قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(١) وقوله : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢) وهذا هو الدوام المتيسر عندما امتنع الدوام الحقيقي . ولنقف هنا ، ولعل لنا عودة .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة المارج ، الآيات من ١٩ - ٢٣

مسائل تتعلق بصلاة الجمعة

جاءتنا أسئلة كثيرة في هذا الموضوع نقتصر منها على سؤالين ،
وفي الجواب عنهما جواب عن كل ما ورد إلينا في هذا الموضوع :

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير مولانا الشيخ يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فنرجو الجواب عن مسألة ،
شرحها : أن هناك بلدة قاضيها الشرعى واحد ، وسوقها واحد ، وحاكمها
واحد ، تشتمل على قرى متعددة لا تبعد الواحدة عن الأخرى بميل ،
وبين بعضها بساتين ليست مسكونة ، وكل قرية مستقلة بمنافعها
الخاصة كجامع الجمعة وغيره . فهل والحالة هذه إذا حضرت صلاة
الجمعة في قرية ولم يوجد من أهلها إلا اثنا عشر رجلاً وكان فيها من
القرية الأخرى ما يفي بالعدد المذكور نتمم بهم العدد ، نظرا إلى أنهم
من بلد واحد ، أم لا ، نظرا إلى أنهم من قرية مستقلة ونصليها ظهرا ؟

جاءنا هذا السؤال وطلب منا مرسلوه أن نعرضه على فضيلتكم ،
ولكم لشكر ومن الله الأجر .

سليمان الربى

برواق المغاربة بالأزهر الشريف

نحن أهالي ناحية الجرفية مركز قنا ومديرية قنا ، نظرا لما يلحق
بعضنا من المنقة للذهاب إلى بلدة الشيخ عيسى لصلاة الجمعة فقد
أقمنا جمعة في بلدتنا التي يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نفس تقريبا ،
وتبعد عن قرية الشيخ عيسى بألفي متر تقريبا ، فتقبل لنا إن صلاة
الجمعة لا تصح في بلدتكم لأنها تابعة لبلدة الشيخ عيسى . فآفتونا
صل تصح الجمعة في بلدتنا أم لا تصح ؟ ولكم من الله الأجر والثواب .
محمد الراوى أحمد ومحمود جوده الجرفي

الجواب

يجب لتوضيح الموضوع أن نجعل الكلام في مقامين :

المقام الأول : صحة الجمعة في كل قرية من هذه القرى . وعدم
صحتها إلا في قرية واحدة منها .

المقام الثاني : انعقادها من ليسوا متوطنين بقريتها وعدم انعقادها

٣٢٠

المقام الأول :

القرى المتاربة يجب على أهلها جميعاً أن يؤدوا جمعة واحدة في
المسجد العتيق ، وهو الذي أقيمت الجمعة فيه أولاً ، أى قبل إقامتها
في غيره ، وإلا تأخر أداؤها فيه عن غيره فيما عدا الجمعة الأولى .

فكل من كانت قريته خارجة عن قرية المسجد العتيق بما لا يزيد
عن ثلاثة أميال وثلاث يجب عليهم السعي لأدائها في العتيق ، فإن
جمعوا في غيره فجمعتهم باطلة ، إلا إن كان إحداث الجمعة عندهم

لضيق العتيق مع عدم إمكان توسعته ، أو لعداوة بينهم وبين أهل القرية التي فيها العتيق بحيث يخشى من حضورهم معهم في مسجد واحد حدوث فتنة ، فإذا تكون جمعهم في مسجدهم صحيحة .

وكذا إن حكم حاكم بصحتها في غير العتيق صحت الجمعة .

ومن كانت قريته تبعد عن قرية العتيق بثلاثة أميال وثلاث فجمعهم في مسجدهم صحيحة ، ولا يجب عليهم السعي لأدائها في العتيق .

المقام الثاني :

من شرط صحة الجمعة أن يحضرها اثنا عشر رجلاً سوى الامام أحرار متوطنون بقريتها ، أي مقيمون بها بنية التأييد .

أما المقيم بقرية خارجة عنها وهو ممن يجب عليه السعي لها كما قدمناه فإن الجمعة تجب عليه تبعاً لأهل القرية ولا تنعقد به ، فلا يعد من الاثني عشر .

وحيث إن القرى المسئول عنها كل منها مستقل بمرافقه عن الأخرى ، فلا تعد كقرية واحدة ، ولا يعتبر المتوطن بقرية خارجة عن قرية الجمعة متوطناً بقريتها .

فإذا لم يحضر من المتوطنين بقرية الجمعة الاثنا عشر فلا تصح الجمعة . وإذا حضر العدد صحت إقامتها إلى ما قبل غروب الشمس بزمن يسع ركعة من العصر ، وإن حرم تأخيرها عن آخر وقت الظهر المختار ، وهو ما قبل دخول وقت العصر بزمن يسع ركعة من الجمعة . والله يتولى هدى الجميع .

ثبوت شهر رمضان بواسطة التلغراف ونحوه

حضرة الأجل الفاضل العالم العلامة الشيخ يوسف الدجوى المحترم ،
حفظه الله تعالى علاه ، ولطف به وتولاه ، آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإننا لكم من المحبين ،
ولقد اطلعنا على بعض مقالات لكم مدرجة في (مجلة الأزهر) ،
فسررنا بها غاية السرور ، سائلين المولى أن يمتع الإسلام بحياتكم .

هذا وإننا نحب أخذ رأيكم في مسألة العمل بالبرقيات التي ترد لنا
عن ثبوت الأهلة، بما تقتضيه القواعد الشرعية ، لا سيما على مذهب
الإمامين الجليلين : مالك والشافعي رضی الله عنهما ، بما هو مشروح
في السؤال وهو هنا :

ما قولكم دام فضلکم فيما إذا وردت برقية من الحجاز أو الشام
مثلاً إلى البحرين برؤية هلال شهر رمضان أو شوال ، مع ما هو
معلوم من مباشر عمل البرقية غالباً ، وتغاير حكومة المحلين المذكورين ،
فهل يعمل بالبرقية المذكورة في مسألة الإمساك والإفطار أم لا ؟ وإذا
قلتم بالعمل بها فما وجهه ؟ وإن قلتم بعدمه فما السبب في ذلك ؟ بينوا
لنا ما يلزم في ذلك بالتحقيق ، ولكم من الله الأجر ومنا الشكر ،
والسلام عليكم ورحمة الله .

من محبيكم قضاة محكمة الشرع بالبحرين :

الجواب

قد نص في مذهب مالك رضی الله عنه على أنه إذا ثبت شهر الصوم
لدى حاكم وإن لم يحكم به ، ونقل ذلك الثبوت إلى جهة أخرى بواسطة

رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم بمضمونه أو الظن لقريب منه ، أو بواسطة رجل واحد عدل ، فإن الشهر يثبت في حق أهل الجهة المنقول إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك الخبر ، فإن المسألة من باب الرواية التي يكفي فيها خبر العدل الواحد ، وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لا بد فيه من عدلين رأيا الهلال أو جماعة مستفيضة .

ولا عبرة باختلاف المطالع عنده ، فيجب الصوم سواء اختلف مطلع الهلال في الجهتين المنقول منها وإليها أم اتحد ، وسواء تقاربت الجهتان أم بعدتا ، إلا إذا كان البعد بينهما شاسعا جداً فلا يثبت لحكم بالنسبة لأهل إحدى الجهتين بثبوت الشهر في الجهة الأخرى . ومثل ذلك البعد الشاسع ما بين خراسان (بالمشرق) والأندلس (بالمغرب) .

ونص المالكية أيضاً على أنه يعتمد في الصوم والفطر على القرائن ندالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع ، وإضاءة المآذن ، كما يعتمد على صوت المؤذن في معرفة وقت الصلاة ، لتجربى العادة بتوجيه الإنكار الشديد إليه من جماعة المسلمين لو كذب .

ونص مولانا الشيخ عليش في فتاويه على أنه يعمل بالإشارات التلغرافية في الصوم ، لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين .

وعلى أن من أفطر في رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولاً بأن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التي لا تعتبر في ثبوت الشهر شرعاً ، فإنه يجب عليه الكفارة « فضلاً عن القضاء » لأنه متأول تأويلاً بعيداً لجهله وسوء ظنه ، فلا عبرة بتأويله « وألفت نظرك لجعله ذلك جهلاً وسوء ظن » .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم في رمضان ، والفطر أول شوال ، على الظن الغالب بثبوت شهر الصوم أو الفطر .

وحيث إن الغالب في الأخبار التي ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلوكية أو اللاسلكية إنما هو الصدق في المسائل الدينية كصوم رمضان ، فنرى أنه يجب صوم رمضان والفطر أول شوال بناءً على الإخبار بهما من هذا الطريق ، إلا إذا تباعدت الجهتان جدا كما تقدم ، وإن كان عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعاً . أو اختلفت حكومة الجهتين المنقول منها وإليها ، فذلك لا يمنع غلبة الظن التي هي مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية ، كأحكام الصوم والصلاة وما إليهما من المعاملات ، فإن الشارع جلت حكمته لم يكلفنا في العمل بالقطع واليقين دفعاً للحرَج (وما جعلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)^(١) .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨

ومعلوم أن الأحكام العملية يكفي فيها الظن ، وأنه لا يجب فيها اليقين وقد قالوا : إن غلبة الظن في دخول وقت الصلاة كافية ، وقالوا : وإن المجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه ظنه .

وإن المسائل القطعية ليست من مباحث الفقه . ولا يعقل في الملة الحنيفية السمحة التي تقول : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (١) .
وتقول : « إن هذا الدين يُسرُّ » إلا هذا .

ولو قلنا : إن أخبار البرقيات السلوكية واللاسلكية لا يعول عليها بناءً على هذه الاحتمالات لوصمنا الدين الإسلامي البعيد النظر الواسع بالحكمة بالجمود الذي يبرأ منه وينعاه على أهله ، ولصيرناه مضغة في أفواه أعداء الدين ، وسخرية بين الزنادقة والملحدين .

ولو فرضنا أن عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم لم يضر ذلك شيئاً ، لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأمور بتوصيله إلى الجهة المعنية ، فهو كالبريد الذي يحمل الرسائل .

وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت رمضان بأي وسيلة من الوسائل التي تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة الظن ثم يصبح مفطراً بعد ذلك . ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة في هذا العصر لم تكن معروفة في العصور الأولى . والمدار في كل ذلك على حصول المقصود الذي هو الظن الغالب ، والحكم يدور مع

علته وجودا وعدما « وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة بل كانت مقصدا » ،
وقد فرضناها وسيلة والشارع لم ينط. الأحكام إلا بحصول الظن الغالب ،
فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع ، حتى يكون دين العصور كلها
والأمم كلها ، وتكون حجته قائمة على المخالفين في كل زمان ومكان .

نعم : بعض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال وقيام الشبهة ،
كوجوب القصاص في الجناية على النفس ، ولكن ذلك لدليل خاص
كقوله صلى الله عليه وسلم : « ادْرءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ » وذلك
لخطر القصاص . هذا ما نقول به ولا نفتى بشيء سواه .

نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويمنعنا من الخطل ، وأن يلهمنا
الرشد في العلم والعمل ، ولا يكلنا لأنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

مسألة تتعلق بالبيع والدين والربا

قال السائل بعد الديباجة :

نرجو الإفادة عن مسألة صورتها : رجل تداين من آخر بضاعة معلومة بثمن قدره ألف فرنك مثلاً إلى أجل معين ، وعند انتهاء الأجل طلب صاحب الدين من المدين دينه ، فقال المدين : لا أملك شيئاً أدفعه لك إلا أن تبيني بضاعة أخرى تساوى ألف فرنك نقداً بألف ومائة مؤجلة لتبيعها الآن بألف وندفع لك الألف السابق ، فوافقه صاحب الدين على ذلك ، وأخذ البضاعة وباعها ودفع السابق . فهل العقدة الثانية ممنوعة شرعاً ، وما جعلت إلا للتخلص من المطالبة بالدين السابق مع زيادة مائة فيه ، أم هي عقدة جديدة منفصلة عن الأولى ، وحينئذ تكون جائزة شرعاً وليس فيها فسخ دين في دين ولا شيء من الموانع ؟

سليمان الزوي

بروان المغاربة بالأزهر الشريف

الجواب

قرر العلماء أنه يحرم فسخ الدين في الدين . ومن صورته تأخير الدين الذي حل أجله إلى أجل آخر مع زيادة فيه ، كأن يكون لشخص على آخر عشرة جنيهاً مؤجلة إلى أجل معين فيعجز المدين عن قضائها عند الأجل ، فيتفق مع دائنه على تأخيرها إلى أجل آخر نظير زيادة اثنين ، فتكون العشرة إثني عشر ، وهذا هو ربا الجاهلية بعينه ، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع .

وقالوا ايضاً : إن كل عقد حلال في ظاهره ولكن قصد به التحايل على أمر ممنوع شرعاً ، يكون محرماً متى كان ذلك الممنوع يكثر قصده للمتعاقدين بحسب العادة . ولذلك أمثلة مبسطة في كتب الفقه .

وحيث إن أغلب المعاملات الواقعة بين الناس في هذا الزمان لا تخلو من ربا ، إما صراحة أو ضمناً ، نظراً لاستحكام حب المال في النفوس ، والميل إلى مجارة غير المتدينين في استثمار الأموال ، والحصول على ربح فيها من أى طريق كان .

وحيث إن العقد الواقع بين المتدينين لا يقصد منه إلا الاحتيال لى تأخير الألف الذى فى ذمة المدين إلى أجل آخر فى نظير زيادة المائة وجعل الدين ألفاً ومائة ، وذلك مما يكثر قصده للمتبايعين وأمثالهما نظراً لحالة المعاملات الآن كما قدمناه ، فنرى إن ذلك العقد محترم ، ويجب فسخه ورد المبيع إلى بائعه ، ولكن حيث أن المبيع قد فات بخروجه عن ملك المشتري فلا سبيل إلى رده للبائع الآن ، إنما الواجب الآن الغاء المائة الزائدة وإبقاء الدين ألفاً فقط كما كان .

ولا يحل الدائن أخذها ، ولا للمدين إعطاؤها (وَإِنْ تَبَيْتُمْ فَلَكُمْ رُغُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ)^(١) نسأل الله التوفيق والتأييد .

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٢٧٩، ٢٨٠

سنة الجمعة القبلية

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

اطلعنا على مقال مسهب في بعض المجلات تحت عنوان « الصلاة قبل الجمعة وبعدها » تعرض فيه كاتبه للركعتين اللتين قبل الجمعة ، وقال : إنهما بدعة لا ينبغي فعلهما ، وأطال في ذلك .

وقد تعرض للحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه من أن النبي صلى صلى الله عليه وسلم كان يركع قبل الجمعة ، وطعن فيه ، مع أن مذهب الشافعي رضي الله عنه يرى طلبهما وسنيتهما .

والآن وقد وقفنا بين بين ، نرجو من قادة الدين أن يقولوا القول المفاصل في ذلك لنعرف ما هو الحق ، ونقف على دليل الشافعي إن كان له دليل . نرجو الإفادة قطعاً للشك ، وتحقيقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

ولفضيلتكم جزيل الشكر ، ودمتم للدين .

عبد الله العرابي

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه :
قبل أن نخوض بك في غمرات البحث والاستدلال ، يجب أن

تعرف أن هنا شيئاً ينبغى التنبيه له ، وهو أن المسائل الاجتهادية الفرعية يكفي فيها الظن ولا ينبغى فيها التنازع .

وكل من طلب فيها الدليل القطعي فهو إما جاهل لا ينبغى أن يكون في عداد العلماء ، وإما سيء القصد لا يريد إلا الظهور بأية وسيلة ، وإن لبس على المسلمين ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، وهذا هو الغالب على تلك الطائفة . ولذلك تراهم متناقضين ، فترى الواحد منهم تارة من الظاهرية ، وطوراً من الباطنية ، وحيناً يدعى الاجتهاد المطلق فيخرج على الأئمة الأربعة ، زاعماً لنفسه درجة هو أبعد الناس منها ، وتارة تراه غريقاً في تقليد ابن تيمية من فرقه إلى قدمه ، والمبطل لا بد أن يتناقض شاء أم أبى ، ولسان حاله يقول :

طوراً يمان إذ لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعذلاني

ولو عقلوا لترفوا أن الناس لا يتركون أئمتهم المشهود لهم بالخير والدين والعلم والتبريز في كل فضيلة ، ويتبعوا هؤلاء المشهود لهم بما لانطيل القول فيه ، وهو غنى عن البيان .

هؤلاء يجازنون في كل ما يعن لهم ، ولا يباليون بخرق الإجماع ، لهذا أنكروا شد الرحال لزيارته - صلى الله عليه وسلم - وهو مجمع عليه ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم سلفيون أهل كتاب وسنة .

وأى شيء يريدون بعد أن عرفنا صلى الله عليه وسلم أن « المخطيء له أجر والمصيب ، نه أجرين » فلم يكتف برفع الوزر عن المخطيء بل جعل له أجراً . وقد عرف ذلك العلماء من أئمة الهدى ، حتى ذهب

كثير منهم إلى أن الحق يتعدد تبعاً لظن المجتهد ، فإن الله لم يكلفه إلا بما أداه إليه اجتهاده ، فكأن الحق بالنسبة إليه هو ما اعتقده ، وليس المقصود من التكليف إلا تحقيق العبودية ، وعدم الخروج على الله ورسوله ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقد قالوا : إن المجتهد يجب عليه اتباع ظنه ، ويحرم عليه التقليد . فأى شيء بقي بعد ذلك ؟ ولكنهم ملبسون يريدون التهويش حياً في الظهور ، أو جاهلون لا يمكنهم التعمق في البحث ولا الوقوف على منازع الأئمة ، ولا ما أصله العلماء في ذلك .

وإن من أكبر بلايانا التي نئن منها ولا ندرى منتهاها وجود طائفة بيننا لا تفهم ولا تقلد من يفهم (إن في صدورهم إلا كبر ما هم بباليغية فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير)^(١) . ولو كان عندهم أدنى شفقة على المسلمين أو إخلاص لهم لعرفوا أن الدين النصيحة ، وأنه ليس من الدين ولا من العقل أن نعرض العامة للخوض في الأدلة والموازنة بين المجتهدين ، فذلك ليس من شأنهم ولا هو في متناول قدرتهم ، ولا نتيجة له إلا ضعف الثقة بآئمتهم وتشكيكهم في دينهم وعقيدتهم .

على أن أولئك المهوشين ليسوا في العير ولا في النفير ، ولا من العلماء في قليل ولا بكثير ، فليس من المعقول كما قلنا أن يترك الناس ما عرفوه من مذاهب الأئمة المشهود لهم بالخير والصلاح والدين والورع

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦

أو البحث والتحري ، إلى هؤلاء الذين يسرون وراء الخيال وليس يعينهم
إلا أن يقال .

والآن نذكر لك مما استدل به الشافعي - رضي الله عنه - على سنة
الجمعة ما يكفي بعضه للاجتهاد المعقول المقبول .

ولا نزال نكرر أن الظن كاف في هذا الباب ولا يطلب غيره ،
وأنه متى وصل إليه المجتهد وجب عليه اتباعه والقول به . وهاك قليلاً
من كثير :

فمن ذلك ما رواه عبد الله بن الزبير عند ابن حبان في صحيحه
والدارقطني والطبراني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ
صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ إِلَّا وَبَيْنَ يَدَيْهَا رَكْعَتَانِ » ومن ذلك ما رواه الطبراني في
الأوسط « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصَلِّي قَبْلَ الْجُمُعَةِ أَرْبَعًا
وَبَعْدَهَا أَرْبَعًا » ذكره عيني في (عمدة القاري) ولم يعلق عليه ، وقد
ساقه للاستدلال .

وقال في الذبح : روى الطبراني في الأوسط عن علي « أَنَّ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصَلِّي قَبْلَ الْجُمُعَةِ أَرْبَعًا وَبَعْدَهَا أَرْبَعًا » وعلق
عليه بقوله : وفيه محمد بن عبد الرحمن السهمي ، وهو ضعيف عند
البخاري وغيره . ولكن هذا الطعن الذي ذكره الفتح لا يمنع الاستدلال
به ، لا لأن الجرح غير مفسر كما قال بعضهم ، بل لأن الطعن غير
متفق عليه ، فإن البخاري ضعفه ، ولكن إماماً آخر من أئمة الحديث
وثقه وهو ابن عدي ، فيصح أن نقول : إن هذا مثل عكرمة الذي وثقه
البخاري واحتج به ، وضعفه غيره ، ومثل سويد بن سعيد الذي احتج

به مسلم وقد اشتهر الطعن فيه . وبالجملة فحديثنا هذا غير متفق على تجريح رواته ، فيصح الاحتجاج به عند من لا يرى تجريح محمد بن عبد الرحمن السهمي المذكور .

وعن ابن عمر أنه كان يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلي بعدها ركعتين ، ويحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك . رواه أبو داود . وقال العراقي : إسناده صحيح .

وقال المنذرى : أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من وجه آخر بمعناه . وروى الترمذى : « مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ : أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ » . ونحوه في مسلم من حديث أم حبيبة ، غير أنه لم يذكر هذا التفصيل . وفي رواية عن أم حبيبة بنت أبي سفيان : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ تَوَضَّأَ فَأَتَمَّ بِعِشَاءِ الرُّضْوَى ثُمَّ صَلَّى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ » .

أفتري أن ذلك مطلوب كل يوم إلا يوم الجمعة الذي تتأكد فيه

الطاعة ، ويزداد فيه الحرص على العبادة وعمل الخير ؟ !

وقد صرح الحديث بالتعميم فقال : كل يوم ، كما سمعت . وفصل الترمذى في روايته المتقدمة هذه الركعات غاية التفصيل . ورواية الترمذى وإن لم يذكر فيها لفظ كل يوم ففيها ذكر النكرة في سياق الشرط وهو يفيد العموم ، ولا معنى لإخراج يوم الجمعة الذي هو أفضل الأيام وأولها بالصلاة والعبادة .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال - :
« مَنْ اغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَصَلَّى مَا قَدَّرَ لَهُ ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرَغَ
الْإِمَامُ مِنْ خُصْبَتِهِ ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى »
الحديث . رواه مسلم . وجاء في بعض الروايات عند الإمام أحمد بلفظ :
« فَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْإِمَامَ خَرَجَ صَلَّى مَا بَدَأَ لَهُ ، وَإِنْ وَجَدَ الْإِمَامَ قَدْ خَرَجَ ،
جَلَسَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ حَتَّى يَقْضَى الْإِمَامُ جَمْعَتَهُ » الحديث .

فجعل الغاية خروج الإمام وهو لا يخرج إلا بعد الزوال . وقال
أبو عيسى الترمذى : إن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - كان يصلى
قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً . وإليه ذهب سفيان الثوري وابن المبارك .
وروى الشافعى عن ثعلبة بن أبي مالك عن إمامة الصحابة أنهم كانوا
يصلون نصت النهار يوم الجمعة : إلى غير ذلك وهو كثير . وبعض
هذا كاف للاستدلال على ما ذهب إليه الشافعى رضى الله عنه .

وهنا روايات ضعيفة لا بأس أن نسمعك شيئاً منها وليس التعويل
عليها ، فإن عندنا غيرها على ما سمعت . ولا شك أن كثرة الروايات
تفيد قوة الدالن ويؤكد بعضها بعضاً . ولا داعى لأن نقول أن الحديث
الضعيف يعدل به فى فضائل الأعمال ، فالأمر هنا أعظم من ذلك ، ولو لم
يكن للشافعى إلا قياس الجمعة على الظهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم :
« بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ فَرِيضَةٍ صَلَاةٌ » وقد أخرجه ابن حبان فى صحيحه
وغيره لكنى رثنى ، وقضى على تلك الجمعة الحمقاء .

وهناك بعض الروايات الضعيفة التي وردت في الموضوع :

روى الشافعي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة ولكن في إسناده إبراهيم بن أبي يحيى وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، وهما ضعيفان . ورواه البيهقي من طريق أبي خالد الأحمر عن عبد الله - شيخ من أهل المدينة - عن سعيد عن أبي هريرة رضى الله عنه . ورواه الأثرم بسند فيه الواقدي وهو متروك . ورواه البيهقي أيضاً بسند فيه عطاء بن عجلان وهو متروك أيضاً . وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال : « إِنَّ جَهَنَّمَ تُسَجَّرُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ » . وفيها ليث بن أبي سليم وهو ضعيف . ومن ذلك حديث ابن ماجة الذي فيه بقرية بن الوليد وغيره من الضعاف . فهذه الروايات الكثيرة يقوى بعضها بعضاً وإن كان فيها مقال . وقد تقدم لك ما يصح الاعتماد عليه من غير هذه الروايات .

والخلاصة أن الصلاة قبل الجمعة مرغوب فيها عموماً وخصوصاً . وقد قال بعض العلماء : لم يتمسك المانع من الصلاة قبل الجمعة إلا بحديث النهى عن الصلاة وقت الزوال ، وهو مع كون عمومه مخصصاً بيوم الجمعة ليس فيه ما يدل على المنع من الصلاة قبل الجمعة على الإطلاق ، فإن غاية ما فيه المنع في وقت الزوال وهو غير محل النزاع .

وعلى كل حال فما تقدم كاف للمنصف ، ولا حاجة للإطالة فيه .

وبعد : فهؤلاء الناس إنما يقصدون التلبيس على المسلمين وإيقاع الشقاق فيما بينهم بتفريق كلمتهم وفصم عرى وحدتهم ، حباً في الظهور . فعلى ولاية الأمر أن يردعوهم عن ذلك بالزجر البليغ والتأديب الشديد ، كما كان يفعله الحكام في العصور الأولى ، وكما تفعله الحقانية الآن مع من يحكم برأى ، ويقضى بمذهبه الخاص .

فعلى الوعاظ وأئمة المساجد ألا يتعرضوا لمن يقلد إماماً من الأئمة الأربعة ، ويدعوا وما اختار لنفسه من تلك المذاهب التي تلقاها المسلمون بالقبول ، وقامت البراهين على أنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله . وإني مالكي ، المالكية لا يرون سنة الجمعة . ولكني لأحب الخروج على أئمة الهدى وورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسائل الاجتهادية يكفي فيها هذا وقل من هذا على ما شرحنا لك . وما من أمة لا تعظم أئمتها ولا تحترق علماءها وعظماؤها إلا ذهب ريحها وحق القول عليها . نسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن ، ومزالق الأهواء بمنه وكرمه .

وقوع الذباب في الطعام (١)

والحديث الوارد في ذلك

س : حضرة صاحب الفضيلة أستاذي الجليل الشيخ يوسف الدجوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فقد أمر الأطباء بمحاربة الذباب وإبادة جراثيمه لما يشاهد في وقوعه على القاذورات فيحمل منها ثم ينتقل بعد، ويقع على الوجوه والأعضاء . وفوق هذا فإنه سبب لنقل العدوى من الأجسام المصابة بالحمى إلى الأجسام السليمة ، وقد ورد في الحديث الصحيح (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاءً وفي الآخر داءٌ) .

فأكتب إلى فضيلتكم راجياً بيان التوفيق بين ما يرشد إليه هذا الحديث ، وبين ما يقرره الأطباء في خطر الذباب ، ونحن بصفتنا الإسلامية نقبل ونطيع لهذا الحديث .

وأرجو أن تتفضلوا بنشر هذا البيان على صفحات مجلة الإسلام ودمتم للفضل والعلم .

محمد حمدي حسن

الواعظ الديني بواحة سيوه

وقد جاءنا سؤال آخر يسأل مرسله فوق هذا عن عدم ننجيس الطعام بذلك الذباب .
وأقول مستعيناً بالله :

الجواب

قبل كل شيء نذكر لك هذا الجواب المختصر ، وهو يعتبر قاعدة عامة تنفع في هذا الموضوع وفي غيره :

« سئلت منذ زمان بعيد عن هذا الحديث فقلت للسائل (ببساطة) : الأمر في مثل هذا سهل جدا ، فالحديث الذي فيه الشبهة لا يدخل إما أن يكون فيه - شمال للمصدق أو لا ، فإن كان فيه احتمال للمصدق ولا مانع من تحقق ما ناه ، وليس هناك قاذح فيه من المحس أو العقل فهو على العين والرأس ، وكلام الرسول مقدم على كل شيء . »

وإن قام البرهان الحسي أو العقلي على كذبه حكمنا بأن الحديث مختلق على النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه لم يقله . وقد بين ذلك في علم الأصول (غيره غاية البيان ، وجعلوا ذلك من علامات وضع الحديث . فأبى وقفة تقي بعد ذلك فيما يكون من هذا القبيل . (هذا ما قلته للسائل في ذلك الوقت) . أما اليوم فنخوض بك غمرات التفصيل والتجليل وليكن ذلك جواباً بالتسليم وهذا جواباً بالمتع ، فنقول :

مقدمة :

يتوهم بعض الناس أن العلم قد يعادى الدين ويباينه لأن بعض النظريات العمية المعروفة لا تتفق هي وبعض النصوص الدينية ظاهرا .

غير أن المتأمل الذي يحقق ويبحث يعلم أن كثيرا من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير . وأن كثيرا من الآراء العلمية التي كان يرى أصحابها أنها هي الثابتة والتي أفضى إليها البحث قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها .

من يتحقق هذا ويعلمه ، وهو ما تدل كل الدلائل عليه ، يعجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية في ظاهره مخالفاً للدين لا يباينه في الواقع ونفس الأمر ، وأن الصحيح في الأمر هو ما ذهب إليه الدين وأن الرأي العلمي هو الذي لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه . وإنا نأقولون لك كثيرا من الشواهد على ذلك .

ولكني أحب أن أعلمك قبل كل شيء أننا لسنا ممن يعادى الجديد أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية والمكتشفات الحديثة في هذا العصر إلى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى . ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقي بها العمران ، وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الإنسان .

ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق كثيرا من الباحثين وهي في الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقى . تلك الظاهرة التي لا يكاد الباحث يخلص منها أو ينفك عنها ، هي تلك الكبرياء المقوتة التي تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثاً وأحاط بها خبراً . فتراه (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ^(١) يتكلم في كل شيء ويحكم على كل شيء ،

حتى أنه كثيراً ما يعتقد أن الخارج عما وصل إليه من النواميس وحدده من القوانين لا تصيب له من الصحة ، مادام مجاوزاً دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره وهزى بما كان يتبجح به من معلوماته ، مبيناً ما كان له من زلات وما تورط فيه من جهالات . وقد ترى ذلك الهازئ الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين وكان فوزه فيما استبركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطغى عقوله فتناً ، قدمه .

ولو وقفوا عندهما وصلوا إليه من المعلومات الحققة التي تشهد لها الحس وأقرها الامتحان . قام عليها البرهان ولم يتعرضوا للمأسوى ذلك لكانوا في أمن الزلل وعمسة من الخطل ولكن طغيان نفوسهم أبل عليهم أن يعرفوا قدرهم أو ينسبوا أنفسهم لجهل أو قصور .

الخلاصة

إن من تتأمل فيما يتجدد لكل يوم من العلم الحديث ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون لا يشك في أن العلم البشرى لا يزال أطفالاً وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلاً ، وهذا هو مقتضى الضعف البشرى ، وهو لازم من لوازم وجوده ، بموجب خلقاته وتكوينه . وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر أنهم عرفوا ما يمكن ، وما لا يمكن ظناً منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون غروراً يبرأ منه التحقيق العلمى ويهزى به النظر الواسع المادق ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة .

١- لو قال قائل إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلسفة السابقون

قائلا بالجهل منابذاً للعلم لا يدري ما يقول فإنهم كانوا مجمعين على أن كلا منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين الملموسة من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل وأن ماسموه علماً ولم يكن محلاً للشك ليس بعلم ، وجددير أن يتخذ به في عالم الميتولوجيا وإن شهد أهل زمانهم بأنهم المتخصصون في ذلك .

٢- لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الفلزات كالذهب عنصر بسيط ، للقى منهم أشد الإنكار والعمامة تكون في جانب المنكرين لامحالة لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن وقد أصبح اليوم إنكار هذا الأمر هو الجددير بأن ينكر ، إلى غير ذلك من الأمور العديدة التي تجددها العلم .

هذا الجسم الإنساني كم فيه من جزء كانوا يظنون إنه لا منفعة فيه . ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع وناهيك ما يقولون الآن في الغدد وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص .

ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)^(١) ولا يزال قوله تعالى : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٢) صادقا (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)^(٣) حتى تقوم الساعة . ولا ينبغي أن ينخدع منخدع بكثرة

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٢

ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر (المنظار المعظم) فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون في بعض الحيوانات التي تسبب بعض الأمراض أنها تحت المجهر . يريدون أن المجهر لا يزال قاصراً عن كشفها وإنما عرفوها بآثارها ، ولا يزال كثير من الأمراض مجهول الميكروبات إلى اليوم رغم تقدم الأبحاث العلمية والتفنن في صناعة الآلات الكاشفة . وكم من شيء في العقاقير الطبية يعرف تأثيره في بعض الأدوية ولا يدري لماذا يكون هذا التأثير . ولذلك نرى الطب كل يوم في تطور حتى لقد قال لي بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زمناً طويلاً : إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها في المدرسة وكانت إذ ذاك هي العلم الذي لا يعول على غيره . وما يدرهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم في خطأ من قبلهم ، وقد قرر ذلك غاية التقرير وزير خارجية إنجلترا سابقاً المسيو بلفور عندما رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج الجامعة في أغسطس سنة ١٩٠٤ م . ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ، ولا يدرك غوره أحد ، ولا ينتهي مُنتَه إلى كل ما فيه ، وأنى للمتناهى أن يبلغ ما لا يتناهى .

هذا وأن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التي تكاد تلحق بالبدهييات أن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشئ وبين عدم الشئ في نفسه وأن الأول لا يستلزم الثاني ، وإن عدم الدليل على الشئ ليس دليلاً على عدمه .

وبعد فإذا عرفت ما أسلفناه حق المعرفة وهو الحق الذى لا مرية فيه أمكنك أن نضع يدك على الجواب الجملى ، ومع هذا فلا بأس أن نتكلم بشئ من التفصيل المتعلق بنقط السؤال :

الجواب التفصيلى عما جاء فى السؤال

كيف يأمر النبى- صلى الله عليه وسلم- بغمس الذباب فى الإناء إذا وقع فيه مع أنهم يقولون إنه خلق من القاذورات وأنه ينقل عدوى كثير من الأمراض ؟

جوابه : إن كون الشئ من القاذورات لا يمنع أن يكون دواءً لبعض الأدواء ، بل قد يكون نفس المستقذر هو الدواء النافع للمرض الذى يداوى به وكيف يستبعد ذلك وكثير من الأمراض يتداوى منها بها ، أو يكون طريق الوقاية منها بالحقن ، وهل عملية التلقيح للوقاية من الجدري إلا بالمادة المعروفة (وقد استبان حديثاً إن من أنجع الأدوية للأمراض المستعصية الحقن بمادة المرض نفسها فيأخذون دواء من السائل المخاطى ومن الدم ومن المدة... إلخ) أفلا يكون فى ذلك ما يكفى .

وكثير من هذه الأدوية ليست من القاذورات فحسب بل هى القاذورات نفسها ، وقد يكون فيها الجرائم للأمراض الكثيرة . أفيسلم ذلك للأطباء ، وينكر على سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام فلينصف المنصفون ، ومن المجرب أن لسعة الزنبور تفيد كثيراً فى بعض الأوجاع الروماتزمية ، وقد رأينا من استفاد منها . وأى قدر أقدر من دم الكلب وهو الدواء المعروف الآن للشفاء من الكلب حتى لقد أنشدنا بعض ظرفاء الأطباء قول ذلك الأديب الخليع :

* وداونى بالتى كانت هى الداء *

(وأما الجواب عن السؤال الثانى) فإنه لا غرابة فى أن يكون الشىء بعضه سم والبعض الآخر ترياق ، وعدم وقوف الأطباء على ذلك لا يقتضى عدم وجوده ، وهذه مسألة ليس مرجعها إلى علم التشريح فإنه إنما يتكلم على بعض الوظائف للأعضاء بحسب ما ظهر لأصحابه وهو قليل من كثير . وقد قال بعضهم : الفرق بيننا وبين آباءنا اعتقادنا أننا جهلاء واعتقاد آباءنا أنهم علماء ، فليكن هذا من ذلك الخفى .

وقد أسلفنا أن عدم العلم بثبوت الشىء لا يقتضى نفيه .

ومن ادعى إحاطة العلم بكل ما فى الأشياء من الخواص فقد كذب على العلم وحمله ما هو منه برىء . والخالق الذى جمع فى جسم الحيوان بين القوى المتضادات والعناصر المختلفة قادر أن يجعل فى أحد الجناحين سما وفى الآخر ترياقا .

والأطباء صادقون فى دعوى أنهم لم يعلموا ولكن لا يضر ذلك شيئاً كما أوضحناه ، على أن المكتشفات الجديدة قد أيدت الحديث تمام التأييد . وستسمع شيئاً من ذلك بعد فانتظر .

(وأما الجواب عن السؤال الثالث) فمذهب الشافعى - رضى الله عنه - أنها إذا ماتت فى الإناء لسبب غمسها وهى حية فيه فإنها لا تنجسه أخذاً من هذا الحديث الشريف فإنه قال رضى الله عنه إن الأمر بغمسها فى الإناء قد يفضى إلى موتها فى الإناء فلو كانت تنجسه ما أمر بغمسها

فيه . وأما لو تعمد طرحها فيه وهو غير مأمور به فإنها تنجسه حينئذ ،
لأن النص إنما هو فيما لو وقعت بنفسها ، فغمسها حينئذ من التداوى
الذى لا بد منه كما ستعرف ذلك .

الطب الحديث وما يقوله في الموضوع بخصوصه

(وهو آية من آيات النبوة ومعجزة من معجزات الدين الإسلامى)
أنا رأينا بحثاً ممتعاً لحضرة الأستاذ الفاضل إبراهيم أفندى مصطفى
عبده معيد فى الصيدلة وتركيب العقاقير بكلية الطب . ألقاه فى جمعية
الهداية الإسلامية يوم الخميس ٢٩ من شوال سنة ١٣٤٩ - ١٩ مارس
سنة ١٩٣١ م وهى محاضرة طويلة نقتطف منها ما يأتى :

قال بعد أن ذكر الحديث الذى فى سؤال السائل ما نصه :

وقع كثير فى خطأ تكذيب هذا الحديث زاعمين عدم مطابقته
للحقيقة ، وذلك قبل أن تدحض افترياتهم الأبحاث العلمية الجديدة
منذ بضع سنين وتكشف عما تضمنه من بليغ الحكمة .

ولو أنهم جاروا السلف الصالح فى التصديق لكان خيراً لهم .

ويحق لنا أن نضم هذا الحديث إلى المعجزات العديدة التى جاء بها
خاتم المرسلين منذ أكثر من ثلاثة عشرة قرناً . وأن ما يقدمه الذباب
للناس من المنافع لآية عظيمة على وجود الخالق وقدرته . كما أنها توضح
الحكمة فى ضربه مثلاً فى القرآن الكريم لتعجيز الكافرين .

ومعلوم أن الذباب يقع على العفونات والمواد القذرة المملوءة بالجراثيم
التي تولد الأمراض المختلفة ، أتدرون ما هو العمل الجليل الذى خص به
الذباب وسخر له .

فكما أن الذباب ينقل بعض الجراثيم بلامسته مصدرها فإنه أيضاً يأكل منها أكثر مما ينقل .

وليس كل واجبه تقليل نسبة وجود الجراثيم فحسب ، بل إن ما يتناوله منها في فمه يتحول داخل جسمه إلى ما سماه علماء الطب بالبكتريوفاج . أو (مبهد البكتريا) الذي ينتصر على كثير من جراثيم الأمراض فيبيدها على بكرة أبيها . ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى أو يكون لها أى تأثير في جسم الإنسان في حالة وجود البكتريوفاج . فسبحان الخلاق العظيم .

والآن أسمعكم ما جاء بمجلة التجارب الطبية الإنجليزية عدد ١٠٣٧ عام ١٩٢٧ قالت :

لقد أظعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الأمراض ، وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم واختفى أثرها وتكونت في الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى (بكتريوفاج) ولو عملت خلاصة من الذباب في محلول ملحي لاحتوت على البكتريوفاج التي يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوفاج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع أخرى من الجراثيم هـ .

وقد برهن على ذلك أيضاً الأستاذ الدكتور دريل مندوب الصحة البحرية والكورينتينات المصرية في الهند للبحث عن ظهور الكوليرا بها وأنجع الطرق لمقاومتها وقدم تقريراً مفصلاً في ديسمبر سنة ١٩٢٧ م

عما أجراه مع زملائه من الأبحاث الفنية والتجارب العلمية . فقد ذكر في تقريره أن البكتريوفاج أجسام حية صغيرة الحجم جداً أمكن تكوينها ورؤيتها بترسيب ذرات الفضة عليها وأنه حصل على البكتريوفاج وتمكن من زرعه وتنميته وإذابته في الماء وإعطاء محلوله إلى المرضى بنسب مخصوصة ، وبزيادة الجرع وتنظيم تناولها كان المريض ينال الشفاء في يومين أو ثلاثة ، وتمكن أيضاً من استخراج البكتريوفاج من براز الناقلين واستعماله لنفس الغرض وكان يضع من زرع البكتريوفاج في بئر القرية فإذا شرب منه أهلها زالت عنهم أعراض الكوليرا .

وبذلك برهن على أن الذباب ينقل البكتريوفاج من براز الناقلين إلى آبار الماء فيشربه الأهالي ويتناولون الأطعمة التي ينقل الذباب إليها البكتريوناج ، فسرعان ماتخف عنهم وطأة الكوليرا ثم نزول .

وأجريت مثل تجارب الأستاذ دريل في البرازيل عن الدوسنتريا الحادة ، واستعمل البكتريوفاج في إيطاليا في علاج الحمى التيفودية وكذلك ضد جراثيم الاستافيلوكوك فأفاد .

واطلعت على تفصيل قوة البكتريوفاج في مقاومة وإبادة الجراثيم في كتاب باللغة الانجليزية اسمه (تمهيد البكتريولوجى العملى) الذى يدرس في كلية الطب المصرية يكاد يذكر أنها غير محدودة .

فمعنى الحديث بعد ماتقدم (فليغمسه ثم لينزعه) أو حسب الرواية الأخرى (فليغمسه كله ثم ليطرحه) أن الحكمة في الغمس لإدخال البكتريوفاج في الشراب ، والبكتريوفاج يقتل الجراثيم التي

تكون منها . والمقصود بالغمس جميع جسم الذبابة ، لأن الحديث لم ينص على غمس الجناحين فقط :

وهذا يدل على أن ذكر الداء والشفاء في الجناحين لفظي لا يفهم منه قصر الضرر والمنفعة عليهما دون باقى الجسم : وبما أن الجناحين جزء من الجسم فإن الطب لا ينفى وجود ميكروب الداء وبكتريوفاج الشفاء فيهما . وبذلك تتحقق صحة الحديث ومطابقته للأبحاث الفنية .

والسبب فى التعبير بالجناحين أنهما أهم الأجزاء فى الذبابة إذ بدونهما تشمل عن الطيران ولزيادة التأكيد فى غمس الجسم كله لأن الجناحين أعلى أجزائه ولتقريب المعنى المراد إلى أفهام العرب خاصة والناس عامة .

ولعل الأبحاث الطبية فى المستقبل تكشف عن أسرار أخرى فى الذباب . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

هذا مانقله ذلك الفاضل عن تلك المجالات الأوربية ، فليت شعرى ما عسى أن يقول المتفريقهون وهى معجزة أوضح من الشمس وأظهر من الحس .

(كلمة ختامية لأبد منها) ربما يفهم بعض قاصرى النظر ١٥ قدمناه أننا نقول بعدم الاحتياط من الذباب ، وحاشا أن نقول ذلك فى الدفاع عن الحديث فإن الحديث لا يفيد ذلك ولا يقتضيه .

وغاية مايقوله الحديث هو أنك إذا فرطت فيما يجب عليك من توقي الذباب بكل مايمكنك حتى وقع في طعامك ، فالخلاص من تلك الميكروبات التي ينقلها إلى طعامك يكون يغمسه كله لذلك السر الذي شرحناه فيما تقدم وبينه أساطين العلم الطبيعي بأوروبا . وقد صرح الحديث نفسه بأن فيه داءً (والحمية رأس الدواء) فهو بمنزلة من يقول لك : إذا وصل السم إلى جوفك لسبب من الأسباب فترياقه كذا وكذا . فهل ترى أن من وصف لك دواء السم المهلك فقد أمرك بتعاطيه . والأمر أوضح من أن نطيل فيه أو يتشبهت به بعض القاصرين أو المتعنتين .

حكم شراء السماد وغيره من البنك بفوائد معلومة

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ يوسف الدجوى
إمام السنة ونور الأمة .

السلام عليكم ورحمة الله : - وبعد : فما قولكم دام فضلكم في
معاملة المزارعين مع البنك من حيث شراء السماد بالأجل على حسب نص
الاستمارة المرفقة طى الخطاب هذا . وخصوصاً بيان تفسير المادة الرابعة
من صحيفة ٢ التى تنص أن الفائدة هى من ٠.٥٪ إلى ٠.٧٪ فنرجو
من فضيلتكم الحكم الشرعى وبيان من يجيز ذلك - أفيدونا مأجورين
ثابكم الله لازتم للسنة ناصرين .

ابنكم : موسى عبد العاطى

خادم العلم الشريف بأولاد سلامة

وجاءنا سؤال آخر بهذا المعنى بتوقيع أحمد المصرى بالبلقون كفر
الدوار - بحيرة .

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه - وبعد
فإن بيع الأسمدة بالطريقة المبينة فى الاستمارة التى أرسلتموها هو
من الربا ، وهو حرام من أكبر المحرمات . وقد آذن الله من لم ينته عنه

بحرب من الله ورسوله ، ولعن رسول الله آكله وموكله وكل من له تدخل فيه وقد ذكر في الاستمارة الفوائد ثلاث مرات وخصوصا في المادة الخامسة ، ولا يغتر مغتر بتسميتها فوائدا . فكما أن تسمية الخمر بغير اسمها لا تخرجها عن كونها خمرا محرمة . فكذلك تسمية الربا بالفوائد لا تحله .

وقد أذهب الله البركة من المزروعات وترا كمت على الأمة الأزمت بشؤم الربا ومخالفة الله ورسوله ، وهكذا يستحق من يترك العمل بدين الله العالم بما يوجب الشقاوة والسعادة . وقد أرسل إلينا الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - ليقيننا مواطن الهلكة في الدنيا والآخرة . ونحن نتهافت على المعاصي تهافت الفراش على النار .

وليس هناك طريق للسعادة في الدارين إلا التزام تعاليمه - صلى الله عليه وسلم - كما قال تعالى (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيكُمْ عَنِ سَبِيلِهِ) (١) .

البيع لأجل الزيادة فيه

وهنا طريقة أخرى لو سلكها الناس لخلصوا من الربا المحرم وهي طريقة سهلة وأظن أن البنك لا يأبأها لأنها لا تضيع عليه شيئا مما يريد :

ذلك أن يشتري منه الناس السماد أو غيره لأجل مسمى وليجعلوه كما يشاؤون ، ولا بأس أن يكون الثمن في هذا المؤجل أزيد من ثمن

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢

الحاضر . فإن زيادة الثمن لأجل الأجل لاشيء فيها ، فإن الأجل له حصة من الثمن ولا يلزم أحدا ببيع المؤجل كالمعجل .

ولكن يجب أن تعرف أن العقد لا بد أن يكون هكذا من أول الأمر فيقول لك البائع : إذا دفعت الثمن الآن كان بكذا ، وإذا دفعته بعد شهرين مثلا كان بكذا ، فلك أن تختار أيهما شئت .

وليكن ذلك من أول الأمر على التعيين فتعقد البيع معه على المؤجل أو المعجل . وإذا أخذته مؤجلا ثم جاء الأجل ولم تدفع فلا يجوز أن تزيد لأجل التأخر فيلزمك أن تؤجل للأجل الذي تستطيع الدفع فيه ويكون الثمن على ما يريد البائع والمشتري .

والخلاصة أنك مخير بين أمرين إما أن تشتري نقدا وتقبضه الثمن حالا . وإما أن تشتري لأجل من أول الأمر على التعيين ولو بثمن أزيد من الحال . (فتكون عقدة البيع من أول الأمر على أخذ كذا بثمن كذا إلى أجل كذا) .

فهذا لا شيء فيه وهو طريق سهل سلوكه ولكن الناس تهاونوا في دينهم كثيرا مع سهولة الأمر ووضوح طريق الرشد :

والله يتولى هداانا جميعاً بمنه وكرمه :

الصَّلَاةُ وَالصَّيَامُ فِي السَّفَرِ

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى

حامل نوء العلم أدامه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فأرجو من فضيلتكم الإجابة بالحكم عن السؤال الآتى .

١- ما حكم الصلاة والصيام في السفر ؟ .

٢- ما مقدار المسافة التي تقصر فيها الصلاة ويفطر فيها المسافر ؟ .

٣- ما حكم من ركب قطارا أو طائرة من مصر إلى الاسكندرية

أو العكس هل تجرى عليه أحكام المسافر من قصر وإفطار أم لا ؟ .

الرجاء الإفادة بالجواب الشافى عن هذه الأحكام جعلكم الله سراجاً

لمنيرا يقتدى بكم في كشف غوامض الأمور ، وأرجو نشر ذلك في

مجلة الإسلام لأجل اطلاع الجمهور عليه ولكم الشكر وهذه الأسئلة

أحصل عنها مشاحنة بين قبائل العريان برملا الاسكندرية ومن عاداتهم

السفر واخترنا فضيلتكم حكما بيننا في ذلك .

محمود عمر الهابيين

برملا الاسكندرية

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
١- أما سؤالك عن حكم الصلاة والصيام في السفر فهو سؤال
مجمل فإن أردت وجوبها فالجواب أن الصلاة واجبة . وأما الصوم
فليس بواجب .

وإن أردت القصر في الصلاة وما هو الأفضل في الصيام فالجواب
أن قصر الصلاة سنة في السفر ، ولا يقطع حكم السفر إلا نية إقامة
أربعة أيام .

وأما الفطر فيه للقادر على الصوم بلا مشقة تلحقه فهو خلاف
الأفضل عندنا . وفي المقام أحكام وتفصيلات تكفلت بها كتب الفقه
وأظنها لا تعنى السائل .

والمراد بالسفر في كل ذلك سفر القصر وسيأتي بيانه .

٢- أما مسافة القصر فهي أربعة برد : والبرد ثلاثة فراسخ ،
والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل معروف لديكم ، وكانوا يقدرونها بالمسافة
التي بين مصر ومحلة روح .

٣- حكم من ركب القطار أو الطائرة أنه يفطر إن شاء ويقصر
الصلاة ، فإن السفر مظنة المشقة على كل حال والدين لم ينط القصر
إلا بالسفر لا بالمشقة . فسفر الملوك الأزمنة الأولى أو هذه الأزمنة
لا تعب فيه أصلاً بل يصح أن تقول إنه رياضة لذينة بها كل وسائل
الراحة .

! ولكن علمت أن السفر مظنة التعب للمسافر على كل حال ففيه مخالفة عاداته وشغل فكره وتوقع ما هو جائز مما عسى أن يكون من الحوادث إلى غير ذلك على أن التشريع دائماً إنما يعتبر حال غالب الناس وعامتهم ولا نظر له إلى ما يكون نادراً أو غير متيسر إلا للخاصة وعلى كل حال فدين الله يسر والشريعة السمحة لم تفرق بين أنواع السفر ولا ربطت الحكم بما يتخيله كثير من الناس .

هذا ما سمح به الوقت وقد كتبت على عجل وهو كاف إن شاء الله .

سؤالان وجوابهما

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد :

جاءنا هذا السؤال من حضرة صاحب التوقيع قال بعد الدياتجة :

وبعد فما قولكم دام فضلكم فيمن كان خارجاً عن بلد الجمعة بأكثر من فرسخ ودون مسافة القصر فصلى بالناس الجمعة إماماً وليس هذا بمقيم مدة تقطع حكم السفر : هل صحت صلاة الجمعة أم بطلت ؟ وما القول المشهور في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه . نرجو منكم القول الفصل في ذلك للإرشاد ، أدامكم الله ذخرًا للدين وملجأً للسائلين وهو بالإجابة جدير .

ملحوظة : الذي صلى حاكم شرعي .

السيد حمدين الحاج سليمان

تاجر بواد مدني - السوداني

الجواب

إن الإمام في الجمعة يجب أن ينوي إقامة أربعة أيام متى كان خارجاً عن ثلاثة أميال وثلاث هذا مشهور مذهب مالك^١ ، وهناك قول آخر للناصر اللقاني وبعض المالكية بأن الإمام لا يشترط فيه ذلك متى كان داخل مسافة القصر ، فإذا خرج عنها فلا بد أن ينوي إقامة أربعة أيام .

هذا ما يتموله المالكية . فصاحبك إن كانت مسافته أكثر من ثلاثة أميال
وثلاث فالجمعة غير صحيحة على مذهب جمهور المالكية وصحيحة على
قول الناصر اللقاني ، وإن كانت أقل من ذلك فهي صحيحة فإنه
يجب عليه السعي للجمعة في تلك المسافة والله أعلم .

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع . قال بعد الديباجة : نرجو
الإفادة عن زكاة الحرث على المذاهب الأربعة في (مجلة الإسلام) في
أقرب وقت لأن عندنا غلالا موقوفة لبحين رد فضيلتكم ولفضيلتكم
جزيل الشكر .

محمد أبو زيد سليمان
العلامة مركز اخميم جرجا

الجواب

إن علماء المذاهب الثلاثة : الشافعية والمالكية والحنابلة قد أجمعوا
على أن زكاة الحرث فرض عين على من ملك هذه الأراضي
أواستأجرها سواء كانت هذه الأرض خراجية أو عشرية خلافاً للحنفية
حيث قالوا : إن الأراضي الخراجية كأرض مصر لا زكاة عليها ،
ويعرف ذلك بغاية السهولة من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة والله أعلم .

حَوْلَ الْقُبُورِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه :

وبعد فقد قال العلامة خليل في باب الجنائز :

(والقبر حبس لا يمشى عليه ولا ينبش مادام به « أَى الميت »
إلا أن يشح رب كفن غضبه إلخ.) وكتب عليه شارحه الخطاب
ما يأتي :

إن العلماء قد اتفقوا على أن الموضع الذي يدفن فيه الميت وقف
عليه مادام منه شيء موجوداً فيه حتى يفنى ، فإذا فنى حينئذ يدفن
غيره فيه فإن بقي شيء من أعضائه فالحرمة قائمة بجميعه ولا يجوز أن
يحفر عليه ولا يدفن معه غيره . ولا يكشف عنه اتفاقاً إلا أن يكون
موضع قبره قد غضب :

ثم قال بعد قول خليل : (إلا أن يشح رب كفن غضبه)
أى فيجوز نبشه ليأخذ الكفن صاحبه وكذلك إذا احتاج إلى المقبرة
لمصالح المسلمين (أى فيجوز نقل ما فيها إلى مكان آخر) كما فعل
سيدنا معاوية رضي الله عنه في شهداء أحد :

عن جابر رضي الله عنه قال لما أراد معاوية إجراء العين إلى جانب
أحد أمر منادياً فنادى في المدينة : كل من له قتيل فليخرج إليه

ولينبشه وليخرجه وليحوله . قال جابر : فَأَتَيْنَاهُمْ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ
رَطَاباً يَتَشْنُونَ » ينعطف بعضهم على بعض من الرطوبة « أ ه .

في الرهوني : وأما بناء المسجد للصلاة فيه على المقبرة العافية
فلا كراهة فيه . لأن المقبرة والمسجد حسان على المسلمين لصلاتهم
ودفن موتاهم . فإذا غصت المقبرة بالقبور ولم يمكن التدافن فيها
أو استغنى عن التدافن فيها واحتيج إلى أن تتخذ مسجداً يصلى فيه
فلا بأس بذلك . لأن ما كان لله فلا بأس أن يستعان ببعض ذلك في
بعض . على ما كان النفع فيه أكثر والناس إليه أحوج .

فيتضح من ذلك أن نبش القبور ونقل ما فيها من العظام لا يجوز
إلا لمصلحة ضرورية كإجراء نهر فيها .

ومثل ذلك ما إذا احتيج لها لتوسيع الطريق أو خيف على المقبرة
الغرق .

وأما بناء المسجد على المقبرة التي درست جوائز من غير كراهة متى
اقتضه المصلحة . وإذا فنقل العظام من المقبرة المسؤول عنها بهذا
الاستفتاء يظهر أنه كان محرماً لأن اتخاذاها مسجداً كان ممكناً بدون
النقل المذكور ، غير أن هذا لا كلام فيه الآن فإنه قد وقع وانقضى
بماله وما عليه .

وإنما الكلام في المسجد الذي بنى في هذه المقبرة ، والذي نراد أن
يكمل وتقام فيه الصلاة لأن نبش القبور إخراج ما فيها من بقاياها

الموتى إنما حرم لانتهاك حرمتهم وتأذيتهم بذلك كما ورد (أن الميت ليتأذى مما يتأذى منه الحي) .

وحيث أن في إعادتهم إلى المقبرة إهانة أخرى وإيذاء جديدًا لهم فلا يجوز الإقدام على ذلك ، ولتبقى هذه العظام حيث استقرت ويغفر الله للناس إن لم يكن له وجه صحيح ، على ما بيناه . وهو ولي التوفيق وله الحمد في الأزل والآخرة .

الحمد لله

والصلاة والسلام

عَلَطَاتٌ قَلٌّ مِنْ تَيْبِنِهِمَا»

يظن كثير من الناس أننا في نهضة ، وما أدري ما الذى فعلناه وأى تقدم تقدمناه . إني بحثت طويلا فلم أر لتلك النهضة التى يزعمونها أثراً غير فساد الأخلاق فى الرجال والنساء وشيوع المحسوبية التى تقدم غير المستحق على المستحق حتى صار كل شىء مرتبطاً بها .

وظهور النزعات المختلفة التى فرقت كلمة الأمة وفصمت عرى وحدتها فزادتها ضعفا على ضعفها فما أثر هذه النهضة إلا تأخر فى الأخلاق تأخر فى الآداب ، تأخر فى العدالة ، تأخر فى الدين ، تأخر فى التجارة تأخر فى الزراعة ، تأخر فى مرافق الحياة كلها وشؤون الاقتصاد جمعاء .

أما موقفنا السياسى فلم يتقدم أئمة إلا فى خطب الخطباء وكلام الزعماء ، ولعل أكبر مظاهر هذه النهضة كثرة الحاصلين على الشهادات الذين يئنون فلا يرثى لهم ، ويصرخون فلا يلتفت إليهم . ثم شدة إقبال الأمة على المدارس بلا عقل ولا روية قياسا على أوروبا غير شاعرين بالفروق بيننا وبينها ، فالبيئة هنا غيرها هناك . والتربية العملية التى تغذيها روح العمل هناك وتنميها المظاهر المختلفة ووجود المصانع والمعامل والشركات ثم وجود المستعمرات التى تقبل العاطلين ولا ترد الجاهلين ولا تحاسب القادمين ، ثم النفسية المخصوصة التى تخالف نفسية المصرى من كل وجه فيقبل صاحبها أن يكون بالهند وبالسودان على حين أن المصرى يئن من وجوده بقنا أو بأسسيوط. إلخ إلخ .

كل هذه فروق بيننا وبينهم فقياسا عليهم هو من باب القياس الحمارى ، فقد ذكروا أن حماراً كان يحمل حملاً من الملح فاعترضه نهر في الطريق فاقتحمه ، فلما خرج منه وجد الحمل قد خف عليه ، فعندما رجع حمله صاحبه حملاً من القطن فلما وصل النهر في رجوعه اقتحمه بعنف وشدة لأنه قاس القطن على الملح ، ولم يعرف الفرق بينهما فزاد بلاؤه وتضاعف عناؤه .

وللتعليم بعد ذلك أئقال ينوء بها صاحبها فإنه يجعل لصاحبه نفسية مخصوصة ودرجة مخصوصة (في الواقع أو في زعمه) :
ويوجب عليه واجبات كثيرة (لو كان غير متعلم لم يكن في حاجة إليها ولكفاه القليل وأقنعه اليسير) فيكون لديه أزمة الوظائف وإلحاح هذه الواجبات وشدة هذه النفسية المتغترسة .

فقل لي بعيشك ماذا يكون حاله وكيف تكون حياته :

وأنكد الناس عيشاً من تكون له نفس الملوك وأرزاق المساكين

وكثير من الناس يظن أن التعليم يهذب النفوس ويملوها فضلاً ونبيلاً حتى ظنوا أن اختلاط الجنسيتين لا ضرر فيه بعد هذا التعليم ، وهو كلام فاسد ورأى آفن يكذبه العيان . فإن شر المتعلمين والمتعلمات أكثر من شر الجاهلين والجاهلات كما هو مشاهد ومعروف .

وسر ذلك أن التعليم الذى يورث النفوس خشية ومراقبة ويملوها من الفضيلة ويأخذ بها عن الرذيلة إنما هو التعليم الدينى . وقد أقفرت منه النفوس بل لا نكاد نرى الخارجيين على الدين إلا من المتعلمين هذا

التعليم المدني الذي تركوا فيه التربية الدينية وراعهم ظهرياً بل أزالوا من نفوس النشء احترامهم للدين وأهل الدين فصيروهم بذلك ماديين لا يعرفون للروحانيات معنى ولا يذوقون لما جاء في الدين طعماً ، فأقفرت نفوسهم من فضائل الإسلام التي هي سلوة لكل محزون وأنس لكل خائف ، كما أقفرت جيوبهم من المال وظواهرهم من نعيم الدنيا . وقد أحسوا بأن هذا الضرب من التعليم لا يورث النفس قداسة ولا فضيلة في الرجال ولا في النساء بل يزيدا شراً . فإذا سمعوا من خطباء الفتنة ودعاة الشيطان أن التعليم يقاوم ما في النفوس من الشهوات ويمنع ما في الاختلاط من الآفات أهاب بهم صارخ يصرخ من أعماق نفوسهم وقرارة وجدانهم أن هذا كذب صراح يكذبه العيان والبرهان ، **لولو قال قائل** : ولهذا كله أصبحت أزمة الزواج أشد من أزمة الوظائف .

إن هذه النهضة لم نر لها أثراً بارزاً غير فساد الأخلاق ، وبعبارة أخرى غير تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال ، لم يكن مبعداً كثيراً ، والنفوس لا تعرف غير ما أشربت من هواها .

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والخلاصة أن الناس لو اعتنوا بشؤونهم الاقتصادية فأصلحوها ثم أرسلوا أبنائهم إلى موارد الرزق الطبيعية وطرقه المختلفة على مقتضى

السنن الإلهية ، ثم ربوهم على الدين والقناعة ومراقبة الله تعالى وغرسوا
في قلوبهم إجلال الرسول وما جاء عنه والتصديق بأُمور الآخرة وما أُعد
فيها للمؤمنين حتى تكون عزاء لهم في الظروف الحرجة ، واقتصروا
من التعليم على ما ينفعهم في الدين والدنيا وأشربوا نفوسهم أن السعادة
كلها في النزام آداب الدين وما نقل عن سيد المرسلين . لو فعلوا ذلك
لكانوا في صفاء وهناء ولزال هذا البلاء وذاك العناء .

(١)

الخلق الكامل

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار وعلى آله وأصحابه الذين عملوا بإرشاده ففازوا بسعادة الدارين وانتشر ذكرهم فى الخافقين فكانوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة .

وبعد فإتاما يكمل الإنسان ويعظم قدره ويعلو شأنه ويعيش عيشة رغبة هنيئة بأخلاقه الفاضلة وسجاياه الطيبة وخلاله الحميدة وأعماله المجيدة ويكون نجاحه فى أعماله وفوزه فى حياته على نسبة ما يتحلى به من شتى الأخلاق ورضى الصفات ، والأمة لا يتسنى لها أن تتبوأ عرش عزها وتبنى شامخ مجدها وتوطد دعائم ملكها إلا إذا أخذت من الفضائل بأوفر نصيب

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للزركن
وما رأينا أمة ذلت بعد عز وهانت بعد كرامة وأدبرت أمورها بعد إقبال وصارت إلى التدهور والانحلال إلا بعد أن انغمست فى حماة الرذائل وتقمشت فيها أوباء الشر والفساد .

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مآتما وعويلا
ولا يغنى العلم وحده شيئا فى أمة فسدت أخلاقها وساءت طباعها
وقبحت أعمالها بل قد يكون العلم أداة للشر ووسيلة للإجرام وداعيا

إلى الافتتان في طرق التدمير والهلاك ولذلك قال بعض الحكماء « نحن
إلى قليل من الأدب أخرج منا إلى كثير من العلم » وقال حكيم الشعراء
وليس بعاصر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا
ولعل ما تضحج منه السماوات والأرض من الحوادث التي ينبوع بها
العالم في هذا لعصر وقد عيت بها حيل المفكرين أكبر دليل على ما نقول
وذلك لأن الناس وجهوا عنايتهم إلى دراسة العلوم والفنون ونشرها بكل
الوسائل الممكنة وأهملوا جانب الأخلاق .

إن الرجب لا يكون مصلحا حقا إلا إذا كانت وجهته قبل كل شيء
تقويم أخلاق الأمة وتهذيب نفوسها وغرس الأصول الطيبة والمبادئ
الصحيحة في أفئدة الناشئين منها .

وبهذا كله نعرف قيمة ما يسديه الأستاذ الجليل والمرتب القدير
(جاد المولى بك) إلى أمته من وقت لآخر بتلك المؤلفات القيمة والكتب
الخلقية العظيمة التي تهديها سواء السبيل وتسمو بها إلى الحياة الطيبة
حياة الحكمة والرشد والفضيلة والمروءة وغيرها من الخلال التي تكفل
لها السعادة والهناء وأحدث ما أشرق علينا شمس من أسفاره الجليلة
النافعة (كتب الخلق الكامل) الذي طبع منه الجزء الأول وهو كما
يدل عليه عنوانه نبراس يستضيء به المستبصرون وأقوم هاد يهتدى به
الضالون وأنصح مرشد يسترشد به الناشئون وهو يصور لنا نزعات
المؤلف وميوله أجمل تصوير وينبئنا بما طبع عليه نفسه الكريمة من حب
الدين الحنيف وشغفه ببيان أسراره ونشر مزاياه فقد جعل القرآن

رائده ونعم الرائد (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فيما ذهب إليه من آراء وما استنبطه من أخلاق ، فكان موفقا فيما حققه وبينه ولقد دل الكتاب على رسوخ مؤلفه في العلم وإحاطته بكل ماله أدنى ملابسة بالأخلاق فهو يذكر آراء العلماء القدماء والمحدثين الشرقيين منهم والغربيين ويضع الكثير منها على بساط البحث . ثم يعقب بحثه برأيه الخاص الناصح وهذه هي الطريقة المثلى في المباحث العلمية القيمة يخرج منها المطالع وقد ألم بالموضوعات إلاما حسنا وكون رأيا نافعا بل عرف خلاصة محصنة وتحقيقات مبرهنة .

وقد نهج المؤلف في كتابه خير منهج في تقويم الأخلاق المعوجة وغرس المبادئ الفاضلة الشريفة واستئصال الرذائل الذميمة بأسلوب سلس قريب المأخذ سهل التناول لا يعزب عن فكر المتعلمين ولا ينبو عنه ذوق العلماء المتضلعين ونحا في تقسيمه وتبويبه أحسن منحى ، فأوجز فيما يجب فيه الإيجاز وأطنب فيما يجب فيه الإطناب . انظر مثلا إلى ما قاله في تربية الطفل تجده قد عنى به أعظم عناية فبين ما يجب على أبويه ومن يتعهد به بالتربية من تثقيفه بالمعلومات الصحيحة النافعة وطبعه على مكارم الأخلاق وشريف العادات والحيلولة بينه وبين ما يجره إلى مهاوى الرذيلة والأعمال المقوتة وأوضح الطريق التي تتبع في تثقيفه وتهذيبه حتى يشب فاضلاً كاملاً حصيف الرأى راجح العقل راقى الشعور سليم الوجدان ناهضاً باحتمال أعباء الحياة وتكاليف الأيام طموحاً إلى العلا سباقاً إلى كل ما يرقى شأنه وشأن بلاده .

ومما راقنى منه في هذا الباب أنه جعل تعاليم الدين هي الأساس لبناء الأخلاق الفاضلة وتشبيد دعائم الإصلاح في الأمم وأفاض في بيان الذرائع التي تدرع بها الدين الإسلامي في تكوين الأخلاق وتربية النفوس والأخذ بها من كل نواحيها إلى ما يحقق هئاءها ويضمن سعادتها ، ولقد أعجبت كثيراً بما بينه المؤلف الفاضل من أسباب السعادة التي هي مطمح أنظار الناس ومنتهى ما تصبوا إليه نفوسهم وتتوق إليه أفئدتهم فجلها لهم وأوضح سبلها ومزق حجبتها وقرب مأخذها وجعلها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

وقصارى القول إن هذا السفر خير ما قرأناه في كتب الأخلاق فهو كتاب علمي جامع يشرح الموضوعات شرحاً وافياً ويفيض في بيان الطرق القويمية في تربية النفوس تربية فاضلة ولقد جاء خلاصة لما وصلت إليه آراء رجال الأخلاق إلى الآن في الشرق والغرب ونتيجة اهدت إليه عقولهم وانتهى إليه بحشهم فما أجدر الناشئين باحتذائه والكبير باقتفائه .

ولو أن هذا الكتاب ظهر في أمة تقدره قدره لسارعت إلى اقتنائه والانتفاع بما جاء فيه وأن وزارة المعارف ومعاهد التعليم لتحسن صنعا إذا قررت مضالعه ودراسته للناشئين حتى يشبوا ذوي نفوس كريمة وشيم عظيمة وهمم عالية ومبادئ سامية تتكون بما فيه من فلسفة عقلية ودينية وموازنة صحيحة بين ما جاء عن حكماء الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، فجزى الله المؤلف العظيم خير الجزاء وأكثر من أمثاله ونفع الأمة بجليل أقواله وعظيم أعماله بمنه وكرمه .

الجمع بين البنت وامرأة أبيها في عصمة من وامي

ورد إلى إدارة المجلة ما يأتي :

تزوج رجل امرأة وأنجب منها بنتاً ، فتزوجت البنت رجلاً ، ثم ماتت أمها فتزوج والدها امرأة أخرى ثم توفي ، أيحل لزواج البنت بزواج امرأة أبيها أم لا؟

زكي عبد الجواد ابراهيم

مدرس بمدرسة كفر المناش - بيا

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

يحل لزواج البنت أن يتزوج امرأة أبيها ، لأن الضابط في ذلك أننا نقدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى ، فإذا حلت الأنثى للذكر جاز الجمع بينهما ، وإلا لم يجز الجمع . ولا بد أن يكون التقدير المذكور لكل منهما ، فلا يجوز مثلاً أن يجمع بين البنت وخالتها ، لأننا لو قدرنا البنت ذكراً لم يعجر أن ينكح الأخرى لأنها خالته ، ولو قدرنا الخالة ذكراً لم يجز له أن ينكح الأخرى لأنها بنت أخته .

أما مسألتنا هذه فالتحريم فيها على هذا التقدير ليس إلا من جهة واحدة ، فإن البنت لو قدرت ذكراً لم يحل له نكاح امرأة أبيه ، ولكن

امرأة الأب لو قدرت ذكراً لجاز له نكاح الأخرى ، فإنها تكون أجنبية منه . ولا يتصور في هذا الحال أن تكون بنت زوج ، بل تكون بنت رجل أجنبي .

والمسألة واضحة لا تحتاج إلى إطناب . وقد علمت القاعدة في ذلك .

هل للحسد تأثير في المحسود ؟

وجاءنا من حضرة محمد محمد نصار بزفيتة مشتول السؤال الآتي :
هل لعين الحاسد تأثير يعود على المحسود ؟ فإن عندنا قوماً ينكرون ذلك . نرجو شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ، مع إقامة الدليل القاطع من الكتاب والسنة .

الجواب

نعم للحسد تأثير كبير . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، ويدل عليه كتاب الله أيضاً . وهو من قبيل التأثير النفساني الذي لا يتوقف على تلك القوانين المعروفة في تأثير الأجسام .

ومن الغلط البين إنكار كل ما لم يعرف سره ولم يوقف على كنهه . ومن الجهل الفاحش أن ترجع كل شيء إلى ما عرفت من نواميس المحسوسات ، وأن تقيس ما لم تعلم على ما علمت ، فإن لكل عالم من العوالم أحكاماً تخصه .

وقد أمر الله نبيه أن يستعيد من شر حاسد إذا حسد ، ووصى يعقوب صلى الله عليه وسلم بنيه عندما توجهوا إلى مصر ألا يدخلوها من باب واحد وأن يدخلوها من أبواب متفرقة خوفاً عليهم من الحسد ، كما عليه جمهور المفسرين ومحققوهم .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أَلْعَيْنُ حَقٌّ » وروى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَلْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ ثِيٌّ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » .

والنصوص صريحة في ذلك ، وهى كثيرة ، وكل شىء لا يودى إلى قلب حقيقة ولا مصادمة برهان قاطع فهو من الممكنات التى يعجزها العقل . وما أخبر الشرع بوقوعه من ذلك وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره .

وإجمال القول أن قول المنكرين مدفوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً وبما هو مشاهد في الوجود .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » . وكان يقول : « كَانَ أَبُو كُفَيْمٍ يُعُوذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ » .

وقد قالوا إن النفوس الخبيثة التي تقوى في خبيثها ويتأصل الشر فيها بسبب من الأسباب كالرياضة والمجاهدة والمثابرة على خطئها الشريرة مثلاً ، يمكنها أن تتسلط على من أرادته بالتوجه التام والعزيمة الصادقة ، إلى أن يحصل تأثره بنحو مرض وذبول جسم ، وقد يصل ذلك إلى الهلاك .

وكما يحصل تأثير جسم عنصري في جسم عنصري كالأدوية والسموم في متعاطيها ، كذلك يحصل تأثير نفس قوية في نفس أخرى . وها هي ذى نفوسنا تؤثر في أبداننا ، فإذا قويت أمكنها أن تؤثر في غير بنينا ، كما قرره فلاسفة الإسلام وغيرهم . والأشياء المحسوسة مختلطة الخواص كما هو معروف ، فكذلك النفوس مختلفة أيضاً جد الاختلاف .

الخلاصة

والخلاصة أن الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فإنها أقبل للفريض الإلهي في كل شيء . وكل ما كان من العالم الأدنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الأعلى ، دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين تأثيرات الأجسام ، فإنها تؤثر في الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة ولا مجاورة .

وحال الحاسد مع المحسود هو من هذا القبيل ، والحوادث في ذلك متواترة ، وإن شئت فقل مشاهدة محسوسة .

فإن كنت ممن لا ينكر المتواترات ولا يؤول القطعيات ، فانظر كيف يؤثر الحاسد بنفسه الشريرة في المحسود ، ولو كان من أقوى الأقوياء وأعظم الأشياء ، بمجرد توجيهه إليه وانفعال نفسه باستحسانه .
وأما تعليل الدكتور رشدي بك في كتابه في التنويم المغناطيسى لذلك بأنه من تأثير الاعتقاد ، فلا يكاد يقرب من الصواب ، فإن الحاسد يؤثر في الحيوان الأعجم ، وفي النباتات والأشجار مما لا يتأتى منه الاعتقاد . وإن أردت البرهان الحسى على ما ذكرناه من كلام أرباب العلوم الحديثة والمكتشفات الجديدة فطالع ما ينقل عن علماء الأبنوتزم « التنويم المغناطيسى » حتى تعرف مقدار ما وصلت إليه روح المنوم - بالكسر - من التأثير في المنوم - بالفتح - الذى يكون طوع إشارته في كل شئ ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار ما استطاع أن يخالف له أمراً أو يعصى له إرادة .

أبل ذكروا أغرب من هذا ، وهو أنه إذا وقع في نفسه أن يقتل أحدا بادر المنوم إلى قتله من غير أن يأمره بشئ أو يتلفظ له بكلمة . ولا بعد في هذا فإن النفوس تحس بما في النفوس ، فإذا أحست به « وقد فرضناها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لإرادتها » لم يكن ما سمعناه عنهم بدعا من العلم أصلاً .

وللتنويم المغناطيسى عجائب كثيرة تكبت للماديين وتشهد - للروحانيين ، وكلها تؤيد ما جاء في الكتاب والسنة من عمل الأرواح

التي خرقت نو ميس المادة وقضت على الماديين : (سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي
الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)^(١) .

ويمكن كل إنسان الآن أن يعرف تلك العجائب النفسية بالمشاهدة ،
فإنها أصبحت لمس اليد ورأى العين . ولا يمكننا في هذه العجالة أكثر
من هذا .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَّا يَجْعَلَكَ مِمَّنْ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بِعِلْمِهِ مِنْهُ وَكَرَمَهُ .

خروج النساء من البيوت^(١)

ور إلى إدارة المجلة من أحد مشتركيها بالفيوم السؤال الآتي :

هل يجوز خروج النساء من البيوت أو يحرم لقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)^(٢) ؟ وما رأى السادة العلماء في حال النساء الان مما هو معروف للجميع ؟

الجواب

أمر الله تعالى نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالملكث في البيوت وعدم الخروج . فقال : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) وهو أمر يدخل فيه جميع النساء^(٣) ، لأنه لا دليل على الخصوصية . بل غيرهن أولى بذلك .

وقد أخرج الترمذى والبزار عن ابن مسعود - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنْ الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » .

غير أن هذا الحكم مقيد بما إذا لم توجد ضرورة دينية أو دنيوية تقتضى خروجها ، فيجوز أن تخرج للحج مثلاً لقوله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)^(٤) ، وفي الحديث الصحيح

(١) مجلة الأزهر - الجزء الرابع - المجلد الخامس - سنة ١٣٥٣ هـ

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣

(٣) أنظر تفسير القرطبي ٥

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٩٧

أَنَّ النِّسَاءَ قَانَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « غَلَبْنَا عَلَيْكَ الرَّجَالَ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَمَقِيَهُنَّ فِيهِ ، فَوَعَّظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ فَقَالَ لَهُنَّ : مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةَ مِنْ وَلَدِيهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ . فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَيْنِ ؟ فَقَالَ : وَاثْنَيْنِ » الحديث .

فَأَنْتِ تَرَى مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ طَلَبَ مِنَ النَّاسِ الْحِجَّ ، وَهُوَ يَسْتَدْعِي الْخُرُوجَ إِلَى مَكَّةَ ، وَمِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ النِّسَاءَ طَلَبْنَ سَمَاعَ الْعِلْمِ وَتَخْصِيصَ يَوْمٍ لَهُنَّ فَاجَابَهُنَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُوَ يَسْتَدْعِي الْخُرُوجَ أَيْضًا بِلَا مَرِيَّةٍ . وَمَا حُضُورَ النِّسَاءِ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسُؤَالَهُنَّ عَنْ أَمْرِ دِينِهِنَّ بِقَلِيلٍ .

الخلاصة

إِنَّ فِي خُرُوجِ الْمَرْأَةِ تَفْصِيلاً ، حَاصِلُهُ عِنْدَنَا مَعْشَرُ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ عَجُوزًا لَا أَرْبَ لِلرِّجَالِ فِيهَا جَازَ خُرُوجُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهَا ، وَجِنَازَةِ أَهْلِهَا وَأَقْرَابِهَا ، وَمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالْوَعظِ ، وَإِنْ كَانَتْ شَابَةً غَيْرَ مَخْشِيَةِ الْفِتْنَةِ ، جَازَ خُرُوجُهَا أَيْضًا لَجِنَازَةِ أَهْلِهَا وَقَرَابَتِهَا وَقَضَاءِ حَوَائِجِهَا إِذَا لَمْ تَجِدْ مِنْ يَفْعَلُ لَهَا بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ بِشُرُوطٍ :

١- أَنْ تَلْبَسَ خَشْنَ الثِّيَابِ لَا رَقِيقَهَا .

٢- وَأَنْ لَا يَبْدُو مِنْهَا مَا يَحْرَمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ .

٣- وَأَنْ تَكُونَ الطَّرِيقَ مَأْمُونَةً .

٤- وَأَنْ لَا تَمَسَّ طَبِيبًا وَلَا تَبْدِيَ زِينَةً .

وَإِنْ كَانَتْ مَخْشِيَةِ الْفِتْنَةِ حَرَّمَ خُرُوجُهَا مُطْلَقًا .

أما كشف عنقها وصدرها وذراعيها وساقها فلا يجوز بوجه من الوجوه . وكذلك مصافحتها بلا حائل حرام ولو لم يثر فتنة ولم يحرك شهوة . فيجب على الناس أن يتنبهوا لذلك ، حتى لا تقع المصافحة بين الجنسين إلا بحائل . وقد تساهل الرجال والنساء الآن في ذلك كل التساهل .

أما إذا خشيت الفتنة ولم يؤمن الفساد ، فلا يجوز كشف وجهها ولا شيء من بدننا بحال من الأحوال عند جميع العلماء .

وللشريعة نظر واسع وحكمة بالغة ، فتراها تحرم وسائل الفساد وكل ما يفضى إليه ولو في بعض الناس سداً للذرائع ، وحسماً لمادة الشرور ، علماً منها بأحوال النفوس البشرية وما جبلت عليه . ولذلك حرمت الخلوة بالأجنبية ولو مع أصلح الصالحين وأورع الورعين . فهذا هو حكم الله ودينه .

وقد أظن القرآن في ذلك غاية الإطناب لأجل ما فيه من الشرور وما يجر إليه من المفاسد كما قلنا . وقرأ إن شئت قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ - جَلَابِيبِهِنَّ ^(١)) ، وقوله عز وجل : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩ .

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِزْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا
عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ . وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ وَنَ زِينَتُهُنَّ .
وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) ، إلى غير
ذلك من أمر الرجال والنساء بقبض الأبصار والبعد عما عسى أن يؤدي
إلى ما لا تحمد عقباه شاءوا أم أبوا . والاختلاط . أس الشقاء والحمية
رأس الدواء .

فانظر إلى أي حد وصل النساء الآن من التهتك وعدم المبالاة
وكان امرأة القرن العشرين لا تريد أن تكون كما خلقها الله ، فتراها
تخرج إلى الأسواق بلا ضرورة ، بل تغشى المجالس والمجامع بدون
حياء ولا احتشام ولا تحفظ . وهو انقلاب فظيع وفساد كبير .
وقد جعل الله لها في المجتمع وظيفة خاصة وأعمالاً تستغرق كل
أوقاتها لو أرادت أن تقوم بها على ما يجب عليها .

وليس قسطها من الواجب في تربية الأطفال وإصلاح شئون
البيت وما يوجب للرجل فراغ قلبه لمهمته الشاقة وإعداد وسائل الراحة
والهناء له ، حتى يكون البيت جنته التي يَأْوِي إليها من شقائه
ويستريح فيها من عنائه بأقل من قسط الرجل في واجبات الحياة .
والحكمة تقتضى توزيع الأعمال وتخصيص كل بما يليق به ،
بل الحق سبحانه وتعالى راعى ذلك في خلقه ، فخلقهم مختلفي الاستعداد
ليختص كل بما هو أولى به ، فسبحان الحكيم العليم .

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال
والمتشبهين من الرجال بالنساء . (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١)

وقد اعتاد الناس رؤية تلك المنكرات فصاروا لا يستنكرونها ،
ولا تنفعل نفوسهم من أجلها ، غافلين عن مقتضى الطباع وما المشهوات
البشرية من السلطان الأكبر على النفوس ، ولذلك حرم الدين لمس
المرأة بكل وجه من الوجوه ولو بلا شهوة ، ونهى أن يختل الرجل
بالمرأة ولو كانا صالحين عفيفين ، سدا للذرائع وقطعا لوسائل الفتنة
كما قلنا .

ولسنا نعلم شهوة من الشهوات لها ذلك الأثر البالغ والسلطان القاهر
في نفس الإنسان بمقتضى جبلته البشرية وتكوينه الطبيعي أعظم من
ميل الرجال إلى النساء وميل النساء إلى الرجال . وكم قد سمعنا من
الحوادث المؤلمة ما فيه مزدجر ، ورأينا من المشاهدات المخزيات
ما فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولكننا في زمان فسدت فيه النفوس ، وانقلبت فيه الرؤوس ،
فظهر التدهور والانحطاط بمظهر الرقى والنهوض ، وسيئات الأعمال
ومساوئ الأخلاق بمستطرفاتها ومحاسنها ، وشواذ الآراء وفسادات
العقائد بصورة التجديد والابتكار ، والتمسك بالفضائل والآداب
بصورة التأخر والجمود :

تشكل فينا كل شيء بشكل ما يباينه والناس عنه نيام

فإلى الله المشتكى وبه المستغاث من زمان لبست فيه الرذيلة ثوب
الفضيلة ، وتجلت فيه الفضيلة بصورة الرذيلة .

والرزية كل الرزية عدم الإحساس بذلك ، وفقد الحمية الدينية
والنخوة الإنسانية والرجولة الصحيحة ، وتتابع الناس على ذلك من
غير شعور ولا تبصر . وكيف يستحى الإنسان من الإنسان وهما سواء
فيما يقترفان ، ولا يزالان كذلك حتى يبطل منهما الإحساس بالرذيلة ،
ويسهل عليهما لقضاء على الفضيلة :

هذا الزمان الذي كنا نحاذره في قول كعب وفي قول ابن مسعود

(١)

• صلاة الجمعة لغير المستوطنين .

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :
هل تجب الجمعة على قوم أقاموا ببلدة وعمرها غير مستوطنين
لها ؟

محمود شحاته

بالفرقة

الجواب

استيطان البلد أى نية الإقامة فيه على التأييد شرط لصحة الجمعة
ووجوبها أصالة عند الملكية . فإذا عمر قوم بلداً وأقاموا به غير مستوطنين
له ، لم تجب عليهم الجمعة ولا تصح . ومع هذا لو ارتحل منهم شخص
إلى بلدة الجمعة وأقام بها أربعة أيام وجبت عليه الجمعة تبعاً
لأهل هذه البلدة . فالوجوب الأصلي يستدعى الإقامة على التأييد ،
والوجوب التبعي يستدعى إقامة أربعة أيام فقط . والله أعلم .

توسعة المسجد من المقبرة

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

هل يجوز نبش المقابر ونقل ما فيها من عظام ورفات ، وجعل
مبضأة المسجد ومراحضه مكان المقبرة عند الحاجة ؟

ابراهيم لاشين

من كفر ابرر

الجواب

صرح العلماء في باب الجمعة أن المسجد العتيق إذا ضاق يوسع من
المقبرة . وكذلك صرحوا في باب الوقف أن المسجد يوسع من المقبرة
والطريق . لكن ينبغي أن يعلم أن المسجد هو المكان المعد للصلاة ،
فليست الميضاة والمراحض من المسجد ، وإنما وضع كل منهما تسهيلاً
على الصليين في الوضوء وقضاء الحاجة . وإذا لا يجوز جعل الميضاة
والمراحض مكان المقبرة ، لأن هذا العمل ليس من توسعة المسجد في شيء .

والفرق أن إقامة الجماعة في المسجد سنة يقاتل على تركها ، بل
قيل إنها واجبة ، والوضوء من الميضاة لا فضل فيه بل الضرر في
البيت أفضل والله أعلم .

متى تجب الزكاة في النقدين والحب

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي أيضا :

متى تجب الزكاة في النقدين : الذهب والفضة ، وما مقدارها ؟
ومتى تجب فيما يخرج من الأرض العشرية أو الخراجية ، وما مقدارها
[في كل منهما ؟]

محمد محمد جمال الدين

بالساحل

الجواب

أكل من ملك نصاب النقدين وهو عشرون دينارا ذهباً أو مائتا درهم فضة ، وحال الحول على ملكه النصاب ، وجبت عليه الزكاة ، وهي ربع العشر ، فيخرج نصف دينار من العشرين ، وخمسة دراهم من المائتين ، إلا أن يكون عليه دين يساوي النصاب أو ينقصه فلا زكاة عليه . ومن خرج له من أرضه حب مقدار النصاب وجبت عليه الزكاة وهي العشر إن سقى بغير آلة كالمطر ، أو نصف العشر إن سقى بآلة كالدواليب (ومنها الوابورات) . ولا فرق في ذلك بين أن تكون الأرض خراجية أو عشرية عند مالك ، فإن ذلك لا يسقط الزكاة كما أنها لا تسقط بالدين على مالك النصاب من الحبوب التي تخرجها الأرض . والله أعلم .

البيع نقداً وبأجل

ورد إدارة لمجلة سؤال من أحد التجار يقول فيه :

إن البيع عند التجار يجرى على نوعين : فتارة يكون بالنقد ، وتارة يكون لأجل . فأمّا البيع بالنقد فمعروف أن التاجر يحدد له ثمناً بعد أن يضيف إليه ربحاً بسيطاً مراعيّاً فيه عدة عوامل : منها مزاحمة أقرانه في السوق ، ومنها أن يقبل الناس على متجره وهم واثقون برخص أثمانه ، ومنها أن يتمكن من قضاء مصالحه بالنقد الذى يبيع به . كمداد دين أو شراء بضائع بالنقد ، أو مصروفاته ومصروفات محله . الخ الخ .

ومن أجل هذه العوامل وغيرها ربما ألجأته الضرورات إلى أن يتنازل عن جزء من أرباحه أو أرباحه كلها ، بل ربما اضطر إلى ترك شيء من رأس ماله حينما يكون محتاجاً للنقد .

وتختلف هذه الحالة عند البيع بالأجل : فعند بيعه بالأجل عليه أن يراعى عوامل عديدة : منها مقدرة المشتري على كيفية السداد إن كان لميعاد قصير أو ميعاد بعيد ، ومنها تقديره لمصروفات يضطر لصرفها كسفرات ومخطبات ، ومنها انعدام بعض هذه الديون أو هلاك جزء منها .

ففي هذه الحالة يضطر التاجر أن يعمل لمثل هذه الأحوال حسابها ، ولا يمكن أن يبيع بمبيعاته لأجل بثمن واحد ، فلكل مشتر لأجل ظروف في السداد كما أسلفنا .

فلهذا نجد أن البضاعة التي يكون ثمنها نقداً مائة قرش ربما يضطر إلى بيعها لأجل مائة وعشرة ، ولمشتر آخر بمائة وعشرين أو ثلاثين .
فما رأى الشرع الشريف في هذا البيع؟ وهل للربا دخل في هذه الحالة ؟ .

الجواب

أن البيع في جميع هذه الصور التي ذكرت في السؤال حلال لاثني فيه ، فإن العلماء صرحوا بأن الأجل له حصة من الثمن . فلاغرو أن تختلف الأثمان باختلاف الآجال نظراً إلى تلك الأمور التي ذكرها المسائل . ولا يعقل في الشريعة التي هي تنزيل من حكيم حميد ألا تراعى مصالح الناس فتكلفهم أن يبيعوا المؤجل كالمعجل ، أو تجعل ما قرب أجله مثل ما بعد أجله ، فليس في ذلك شيء محرم ، إلا أن يبيع بثمن لأجل ، فإذا لم يدفع عند الأجل زيد فيه بحسب التأخير ، فهذا هو المحرم .
وأما البيع بثمن متفق عليه من أول الأمر فلا شيء فيه كائناً ما كان . فعلى التجار ألا يغشوا ولا يحلفوا ، ولهم أن يبيعوا بما يشاءون ، بشرط أن يكون ذلك معروفاً متفقاً عليه عند البيع بحيث لا يزيد ولا ينقص .

أما إذا كان بحيث كلما تأخر عن الدفع زيد عليه شيء في نظير ما يزداد على الأجل الذي حدده عند البيع ، فذلك ربا محرم كما قلنا ، وهو موجب لعنة الله تعالى ، فليحذر منه المسلم الذي يشفق على دينه ونفسه . والله يتولى هدى الجميع .

الحلف بأيمان المسلمين

وجاء من حضرة صاحب التوفيق السؤال الآتي :
ما هو اللازم في قول الشخص ، وأيمان المسلمين لا أفعل كذا
ثم فعل ، أو لأفعلن كذا ثم لم يفعل ؟ .

محمد شعبان رفاضى
خادم القرآن الكريم بالقوسية

الجواب

إيمان المسلمين من صبيغ العموم ، يتناول كل ما اعتيد الحلف به .
فلذا قال المالكية في قول الشخص : أيمان المسلمين تلزمنى : إنه يلزمه
كل ما اعتيد الحلف به من المسلمين . والمعتمد الآن في عرف مصر
الحلف بالله وبالطلاق . وحينئذ فاللازم لمن حلف بذلك كفارة يمين
وبت من يملك عصمتها . ولا يلزمه مشى إلى مكة ولا صيام ولا عتق
كما كان في العصور الأولى ، لعدم من يحلف بذلك الآن . هذا هو
المشهور في مذهب مالك ، وهو المقتى به عند المالكية .

وقد نقل بعض العلماء الخلاف في هذا اللفظ فقال : وليس لمالك
في « أيمان المسلمين » كلام ، وإنما الخلاف فيه للمتأخرين : فقال
الأبهرى : يلزمه الاستغفار فقط ، وقيل كفارة يمين ، وقيل ثلاث
كفارات « نظراً للفظ الجمع الذى أقله ثلاثة » .

وكل ذلك ما لم ينو طلاقاً . وإلا لزمه . وقيل بت من يملك
عصمتها ، وعتق من يملك رقبته ، وصدقة بثلث ماله ، ومشى بحج ،
وكفارة يمين ، وصوم سنة .

وقد قدمنا لك ما هو المشهور من مذهب مالك ، وأنه يراعى ما اعتيد
الحلف به في كل بلد من البلدان وزمن من الأزمان ، وأن المعتاد الآن
بمصر هو الحلف بالله وبالطلاق لا غير .

ومما يحسن التنبيه عليه أن الشافعية يقولون : أن من حلف بأيمان
المسلمين لا يلزمه طلاق ، وإنما يلزمه كفارة يمين . وقد تقدم لك أن
بعض المالكية يوافقونهم على ذلك . ومنهم من يقول : يستغفر الله
ولا شيء عليه . ودين الله يسر ، والحمد لله على اختلاف المذاهب .
والله أعلم .

حكم أكل الفسيخ

ورود من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :
هل يجوز أكل الفسيخ أم يحرم ؟ .

عبد ربه طه

مهندس كوبرى سنباره

الجواب

السّمك لا شك في طهارته ، ولكن الدم المسفوح نجس ، وهو
السائل عن مقره في حال الحياة بنحو الفصد أو بعد الموت ولو بعد
التذكية الشرعية من سائر الحيوانات ولو من السمك : خلافاً
للقابسي ، وتبعه ابن العربي حيث قال : إن الدم المسفوح من
السمك طاهر .

فالسّمك إذا ملح ووضع بعضه على بعض حتى صار فسيخاً ولم
يتحلل منه دم مسفوح ، يكون طاهراً على القواين يحل أكله ،
سواء أكان ذلك من الصف الأعلى أم من بقية الصفوف .

أما إذا خرج منه دم مسفوح بواسطة الضغط عليه بمثقل مثلاً ،
فقد صار نجساً لا يحل منه إلا الصف الأعلى « وليغسل قبل أكله »
دون بقية الطبقات السفلى على القول المشهور الذي به الفتوى ،
فإنها تنجست بمرور الدم عليها ، ولا يمكن تطهيرها لامتزاجها به .
ويحل أكل جميعه على ما لابن العربي والقابسي :

وعلى المشهور إن شك كونه من الصف الأعلى أو غيره أكل ،
لأن الطعام لا يطرح بالشك . هذا حكم الفسيخ على مذهب مالك .

ومذهب الحنفية : أن السمك لادم له ، والسائل منه رطوبة . فإذا
ملح حتى صار فسيخاً يحل أكله ، سواء أكان ذلك من الصف الأعلى
أم من الصف الأسفل أم من بقية الصفوف ، ما لم يخش ضرره ،
وإلا حرم للضرر لا للتنجيس . ودين الله يسر .

وبعد : فالورع تركه على كل حال .

البيع بالزيادة الفاحشة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

هل يحرم البيع بالزيادة المتفاحشة على الثمن المعتاد أو يجوز ولو كانت تلك الزيادة فوق فائدة الربا بكثير ؟ .

عبد الوهاب حسنين وهدان

بتفهما العزب

الجواب

متى علم البائع والمشتري قيمة السلعة التي تباع بها في الأسواق ، وحصل الغبن بزيادة في الثمن غير معتادة ، أو نقص فيه كذلك ، فالبيع صحيح ولا حرمة فيه ، ولو كان الربح فوق فائدة الربا بكثير . وما مثل هذا إلا كزراع وضع قليلاً من الحب في أرضه فأنبتت عشرة من الأرادب ، فالطريق مشروع ، والكسب حلال وورق ساقه الله إلى التاجر والزراع :

أما إذا جهلت قيمة السلعة ، فإن استسلم أحدهما لصاحبه بأذ أخبره بجهله واثتمنه فيما يخبره به وما يحدده من الثمن ، فقال البائع للمشتري : قيمتها في السوق عشرون ، فإذا هي عشرة ، أو قال المشتري للبائع : قيمتها في السوق عشرة ، فإذا هي عشرون فللمغبون الرد ، وعلى صاحبه المؤمن الكذوب الحرمة . فإن لم يستسلم لصاحبه مع جهل القيمة ، بل باع أو اشترى على المغالبة والمشاحة فحصل الغبن المتفاحش ، فالبيع صحيح لا رد فيه ولا حرمة على المشهور .

وقال بعضهم : إن وصل الغبن الثلث فأكثر من قيمة السلعة ، فسسخ البيع إن قام المغبون في أثناء السنة من يوم البيع . وقد أفتى به ابن عرفة والمازرى والبرزلى . ومشى عليه ابن عاصم في التحفة . لكن رده ابن رشد بقوله : أنه غير صحيح لحديث « لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، دَعُوا النَّاسَ فِي غَفَلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » .

قال في أقرب المسالك وشرحه : ولا رد بغبن ولو خالف العادة في القلة أو الكثرة ، كأن يشتري ما يساوى درهماً بعشرة أو عكسه ، إلا أن يستسلم أحد المتبايعين ، لصاحبه بأن يخبره بجهله ، كأن يقول المشتري : أنا لا أعلم قيمة هذه السلعة فبغنى كما تباع الناس ، فقال البائع : هي في العرف بعشرة ، فإذا هي بأقل . أو يقول البائع : أنا لا أعلم قيمتها فاشتر مني كما تشتري من الناس ، فقال : هي في عرفهم بعشرة ، فإذا هي بأكثر ، فالمغبون الرد على المعتمد « بل باتفاق ، ولم يخالف فيه أحد » . وإنما الخلاف في الغبن من غير استسلام ، إذا كان المغبون جاهلاً . فإن كان عارفاً فلا رجوع له اتفاقاً ، فإن استسلم الجاهل فالرد متفق عليه . والله أعلم .

بِدْعُ الذِّكْرِ^(١)

جاءتنا أمثلة كثيرة عما أحدثه الناس في مجالس الذكر من البدع التي لا يقرها عقل ولا دين ، ومما جاء فيها أن بدع الذكر قد تكاثرت بسبب عدم العناية بالتنفير عنها ، فسدلت على رفيع جلال الإسلام وبديع رونقه ستاراً أى ستار ، وأحدثت أضراراً عظيمة ومفاسد جسيمة ومن شرها مزج الذكر باللهو كالدف والشبابية ، والذكر بأصوات ساذجة مثل (ها) و (هى) ، ومثل اللهج أثناء الذكر بأصوات يخجل اللسان من ذكرها والقلم من تسطيرها .

ثم ذكر السائل شيئاً من الألفاظ التي يقولونها حال غيبتهم على ما يزعمون لا نستطيع ذكرها في المجلة .

ثم قال بعد ذلك : ومن عدلهم شهروا في وجهه السلاح بدعوى أنهم إنما يصدر عنهم ما ذكر في حال غلبة ناشئة عن الذكر ، ومن مدهشات العجائب أنه يوجد بقريه قريه منا تسمى (محلة الأمير) رجل أبوه كان أحد شيوخ طريقة تسمى الحبيبية ، وهذا الرجل يؤيد تلك البدعة التي لاحد لشناعتها ولا منتهى لفظاعتها بكل ما أوتى من قوة ، حتى خدع الناس أيما خديعة ، وصار عقبه في سبيل من يحاول تطهير ساحة الدين منها . ولا وسيلة لكف شرور مثله أو تخفيفها سوى

(١) مجلة الأزهر - الجز السادس - المجلد الخامس - سنة ١٣٥٣

فتوى تصدر في (مجلة الأزهر) التي يحترمها الجميع . ولا سيما إن عززت بفتوى من مشيخة الطرق الصوفية .

فإنشذك الله أيها المجاهد الغيور أن تسرع بما تقدر عليه من تلك الكتابة الصافية الشافية في الموضوع . وأقسم عليكم بالحق تعالى أن تغيشوا هذا الدين ، فقد تلاعب به أولئك الفجار إلى حد أشعر بخلو قلوبهم من استشعار شيء مما من عظمة الجبار ، عظمة سطوته .

انتهى المقصود من السؤال الذي جاءنا من بعض أفاضل مديرية البحيرة ، وفي غيره ما يوافق في مغزاه ومرماه .

ونحن نقول : إن الذين يعملون هذه الأعمال المذكورة داخلون فيمن قال الله فيهم : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً)^(١) ، ومن الذين اتخذوا آيات الله هزوا . وسيقال لهم : (أَلَيْسَ آيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)^(٢) ولا ندرى كيف يتكلمون بذلك الهذيان الذي تقشعر منه الجلود وتصطك الأسماع على ما جاء في سؤال السائل .

وإنه لأكبر برهان على أنهم كانوا في أحوال ظلمانية لا نورانية ، ووسوس شيطانية لا إلهامات ربانية . فإن الذكر يورث القلب أممراة وأنواراً ، فإذا تكلم صاحبه تكلم بالمعارف واللطائف لا بالبهتان والهذيان فكلامهم بالفحش على ما يقول السائل أكبر برهان على أنهم ما كانوا يتلقون إلا عن الشياطين ولا يسيرون إلا في ظلمات بعضها فوق بعض .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٥

(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٥

فما أدل الأثر على المؤثر والدخان على النار والغايات على المبادئ
والنتائج على المقدمات ! .

وإذا كان في سماع الآلات المجردة خلاف طويل عريض ، وقد أُلّف
فيه ابن حجر كتابه المسمى بكف الرعاع ، وأقام فيه البراهين على
تحريم سماعها ، فما بالك إذا كانت في مجلس يذكر فيه اسم الله تعالى ؟!

وإنه ليجب أن تخضع الأصوات للرحمن وتطرق الرؤوس وتخضع
القلوب إعظاماً لهيبته وجلاله . وكيف يتفق ذلك مع تلك الآلات
الملهية عن ذكر الله وعن الحضور مع الله كما هو المطلوب من الذاكر ؟ !
فآلات اللهو يجب تنزيه تلك المجالس الشريفة عنها .

وربما زادوا الطنبورة نغمة ، فغذوا بالخمريات التي تحبب الخمر
إلى النفوس ، ثم يقولون : إن المراد بالخمرة خمرة الأرواح لا الأشباح !
وقد يكون ذلك صحيحاً إلا أنه غير مأمون ولا معروف ، وقد أوشكت
الذنيا أن تخلو من ذويه ، وأن لا يوجد فيها أحد الآن من ذائقه ،
إلا من اصطفاهم الله بعنايته الخاصة ، وقليل ما هم . ويوشك أن يجر
ذلك إلى مالا تحمد عقباه ، خصوصاً مع الآلات والأوتار . وأين ما يفهمه
العامة مما يفهمه أهل المحبة الإلهية من قول ابن الفارض :

خفف السير واتعد يا حادى إنما أنت سائر بفؤادى

إلى أن قال :

ما شملت البشام إلا وأهدى لفؤادى تحية من معادى

أو قول غيره :

أهل الهوى تعرف قدر الهوى وإن هذى الجهال قالوا سلام

إلى غير ذلك مما يحرك النفوس إلى حمى الكئوس ، ويهيج في أرباب الشهوات ذكرى الغانيات . والسماع لا يحدث في النفوس جديداً ، وإنما يهيج منها ما استقر فيه من خير أو شر

وقد سئل مالك عن الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ، حتى لقد روى عنه أن الإنسان إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب . ومن عرف النفوس واستدراجها لصاحبها من حيث يشعر ولا يشعر ، لم يمكنها من أن تخطو خطوة واحدة في طريق يوشك أن يودها إلى الفساد ، ويسير بها إلى غير السداد .

وقد قال بعض العلماء : كيف لا يحرم سماع الآلات وهو شعار أهل الخمر والفسوق والفساد والمجون ؟ وما كان كذلك لم يربك في تحريمه ولا في تفسيق فاعله وتأثيره . ولا ينفعهم تلك التعللات الباطلة ، ولا قولهم أن المراد بالخمر خمر الأسرار ، وبالحناء حناء الحضرات ، كما بمعناه من بعضهم ، فإن ذلك كله الآن خيالات وترهات ، وماهى إلا تلبيسات من الشيطان وألوان براقعة من الهديان .

ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بما ارتكبه حتى وقعوا في حق السلف الماضين - رضی الله عنهم - ، ونسبوا إليهم اللهو واللعب : لأنهم يعتقدون أن السماع الذى يفعلونه اليوم هو الذى كان السلف - رضوان الله تعالى عليهم - يفعلونه .

وقد أذكرني ذلك قول الإمام الكبير والمحدث الشهير رزين العبدري :
ما أتى بعض المتأخرين إلا من وضعهم الأسماء على غير مسمياتها . ولهذا
شرح طويل .

ولننقل لك عبارة الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره .
حين تكلم على قصة السامري في سورة طه :

سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي - رحمه الله - : ما يقول سيدي الفقيه في
مذهب الصوفية الذين يجتمع منهم جماعة فيكثرون من ذكر الله وذكر
محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ثم أنهم يوقعون بالقضيب على شيء من
الأديم ، ويقوم بعضهم ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ، ويحضرون
شيئاً يأكلونه : هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ « ولعمري أن هؤلاء
أحسن حالاً ممن نراهم اليوم وجاء بعض وصفهم في السؤال » . أفئتنا
يرحمكم الله .

فقال في الجواب : هذه الأشياء كلها بطالة وجهالة وضلالة ، وما
الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله . وأما الرقص والتواجد فأول من
أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلًا جسداً له خوار ، فقاموا
يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعُباد العجل . وأما
التصويب دون أن اتخذ الزنادقة ليشتغلوا به المسلمين عن كتاب الله
تعالى ، وإنما كان مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه كأنهم
على رؤوسهم الطير من الوقار .

ولعل من الفائدة الكبرى في هذا المقام أن ننقل لك عبارة الإمام الكبير ابن قدامة جواباً عن مثل هذا السؤال ، قال رحمه الله : أن فاعل هذا مخطئٌ عساقط المروءة ، والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع غير مقبول القول ، فإن هذا معصية ولعب ، ذمه الله تعالى ورسوله ، وكرهه أهل العلم وسموه بدعة ، ونهوا عن فعله ، ولا يتقرب إلى الله سبحانه بمعاصيه ، ولا يطاع يارتكاب مناهيه .

ومن جعل وسيلته إلى الله - سبحانه - معصيته كان حظه الطرد والإبعاد ، ومن اتخذ اللهو واللعب ديناً كان كمن سعى في الأرض بالفساد . ومن طلب الوصول إلى الله - سبحانه - من غير طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسنته فهو بعيد من الوصول إلى المراد .

وقد كرهه الأئمة كما ترى : ولم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف والشبابات ، فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه ديناً ؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً)^(١) « المكاء : الصنير ، والتصديّة : التصفيق » .

وقال الله سبحانه لنبيه : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)^(٢) فأما فعله في المساجد فلا يجوز ، فإن المساجد لم تبن لهذا ، ويجب صونها عما هو أدنى منه ، فكيف بهذا الشأن الذي هو شعار الفساق ومنبت النفاق ؟ ؟ وقد روى عن عمر بن عبد العزيز

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٥

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٧٠

أنه قال : « إنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء » .

فما بال الواحد من هؤلاء المدعين مذهب التصوف يلتفت عن طريقة رسول الله يميناً وشمالاً ، ويطلب الوصول إلى الله - سبحانه - من سواها ، ويبتغي رضاه فيما عداها ! ؟ .

وبعد فإننا نرحب بذكر الله في كل زمان ومكان ، سرّاً وجهراً ، انفراداً واجتماعاً ، ولكن بشرط أن يراعوا آداب الذكر وما يجب له ، فلا يتخذوا آيات الله هزواً ، ولا يلحدوا في أسمائه . أسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن ، وأن يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والصالحين منه وكرمه .

سرتعد الزوجات

لسنا نذهب في تعليل ذلك إلى ما قاله المسيو (دولست) من أن الذكر من الشرقيين أكثر قوة من الغربي ولذلك قال بعض المشتغلين بالعلم طبائع الأمم : إن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة . أى فيجب في الشريعة العامة التي جاءت للأمم كلها أن تراعى ما يناسب طبائع الجميع . ولذلك قال الكونت هنرى كيستري ، أنه ليصعب جدا على الغربيين أن يقدرُوا شريعة القرآن في تعدد الزوجات حق قدرها لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلى . كما أنى لست أعلل ذلك بما يعلل به بعضهم من أن العرب كانوا يتزوجون كثيراً بلا حد . فلو جاء الإسلام بقصرهم على واحدة كان ذلك صعباً جداً على قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين اعتادوا الكثرة . كغيلان الذى أسلم على عشرة نسوة .»

ومن أعلل بذلك الكونت هنرى كيستري حيث يقول : « إن ذلك ربما أدى إلى تزعزع عقيدتهم في الدين الجديد . فهذا أباح لهم تزوج الأربع تخفيفاً للشر وتأليفاً لقلوبهم ببعض ما ألفوه . فهو لم يفعل ذلك إلا لمصاحبة الإسلام كما تقتضيه الحكمة البالغة .

ولست أقول في ذلك أيضاً ما يقوله المسيو (ريفيل) : إننا لو رجعنا إلى زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - ومكان ظهوره لما وجدنا

عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه عليه السلام فهن مدينات لنبيهن بأموور كثيرة لسنا نعلل بشيء من ذلك كله وإن كان له من النظر قسط. ومن الحق وجه ولكننا نعلم بك إلى ما هو أقرب من هذا أو أولى بالاعتماد عليه : إنك تعلم أن الرجال معرضون لأخطار الحروب المهلكة ومخاوف الأسفار في البر والبحر التي تحدث كثيراً لركاب البواخر من الغرق وغيره كحوادث الترام ومخاطر الطيران ومهاوى الجنائيات منهم على غيرهم ومن غيرهم عليهم ومعاناة الأشغال التي تكون لاستخراج المعادن من مكانها أو اللآلئ من مستقرها مما عسى أن يكون معرضاً لخطر البراكين أو غيرها وما يلتحق بذلك من أخطار السباق على الخيول ، أو المصارعة المعتادة في أوروبا وأمريكا وما يكون من بعض الطبقات الدنيا من الفظائع التي كثيراً ما تودي بحياتهم أو حياة غيرهم .

وإن شئت ضمنت إلى هذا ما تسمعه من حوادث الانتحار أو رمي الكثير بنفوسهم في البحر تخلصاً من مضايق الحياة ومتاعب العيش كما يقع ذلك كثيراً بانجلترا وغيرها مما يتناقض به الرجال تناقضاً كثيراً : ثم ألقِ ببصرك إلى ما ليس بالبعيد مما فعلته الحروب الطاحنة مثل الحرب الروسية اليابانية أو الترنسفالية الإنجليزية أو العثمانية البلقانية . وأفزع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى التي لاتزال ماثلة في الأذهان بويلاتها ومصائبها . ولو نظرت في التاريخ لوجدته يفيض أنهاراً من الدماء من كل ينابيع الشقاء قديماً وحديثاً . وقد ذكر القرآن والثوراة أن فرعون كان يذبح أبناء إسرائيل ويستحي نساءهم وأنه غرق في البحر مع أمم كثيرة يقدرها بعضهم بستمائة ألف في يوم واحد .

وأظنك لا تشتم في أن هذا كله لا يكاد يوجد في النساء حتى حوادث الانتحار الفردية (إلا على سبيل الشذوذ في ندور من الأحوال) .

وقد دلت الإحصائيات الرسمية على أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال . وأصبح ذلك مما لاشك فيه . فقل لي بعيشك : إذا حصلت هذه الحوادث وكان الرجل مقصوداً على زوجة واحدة . فماذا تصنع تلك النساء ومن ذا يقوم بإعفافهن إذا كان لا يجوز للرجل أن يتزوج إلا واحدة . بل من يؤدي واجباتهن ويقوم بحاجاتهن وهي كثيرة متوقفة على الرجال لامحالة ، فإن المرأة ضعيفة بمقتضى خلقها كما أثبت ذلك علماء التشريح ، ولئن فرضنا أن في تلك الأمة من ذوى الإحساس والهمة من يقوم بشؤونهن على ما يجب كما يردن وتريد الإنسانية (وهو فرض لا يكون ولئن كان فلن يدوم) . أفلا يلحقهن من المنة أو العار ما ينغص عيشهن ويكدر صفوهن بتلك الصدقات التي هي عنوان المذلة وبرهان الهانة ومجلبة العار لهن ولأقاربهن .

وأما إذا تزوجن كانت نفقتهن واجبة على الزوج فلا يمكنه أن يضطر فيها ولا أن يدع أمرها يوماً من الأيام لغيره بعد ما أخذ على عهده من يوم ذلك الزواج أن يزود عنها عوادي الدهر وغوائل الحياة لمكان ذلك من نفوس الأزواج وما يكون بين الزوجين من أواصر المحبة . إلى غير ذلك من الروابط التي لا يستهان بها في نظر العقل والدين والعرف وبهذا تتم السعادة والهناءة لهن مادياً وأدبياً . وفي الشريعة الإسلامية من واجباتهن على الأزواج ما يضمن لهن كل راحة وينقذهن من كل شقاء .

وإني أزيدك الأمر بياناً فأقول :

لو فرضنا - وهو فرض واقعي مشاهد - أن أمة قوية اعتدت على أمة أخرى فأبّت حميتها وتصلبها في وطنيتها واستأنتها في سبيل الذود عن استقلالها إلا أن تنتصر على ضعفها أو تموت بعزمها وشرفها . فلم تنزل تحارب حتى آخر لحظة من حياتها . فهل من المصلحة بعد تلك الحرب التي استأصلتهم وتركت نساءهم أرامل لا يجدن كفيلاً ، ولا يهتدين سبيلاً ألا يتزوجن أحداً من الأمة الظافرة التي معها نساؤها فيضيع ذلك العدد العديد من النساء ، ويسجل عليهن الشقاء والبلاء ، طلباً لراحة تلك الزوجات المنفردات ، ورغبة في هنائهن . إن المشرع الحكيم - يا حضرات المتفسيهقين نظراً واسعاً ، ومرمى بعيداً يحيط بمصالح الأمم ولا يقصر نظره على السعادة الفردية والمسائل الجزئية : كما تنظرون متوهمين أنكم تسعون في سعادة المرأة غائباً عن نظركم القاصر أنكم مجدون في شقائها من حيث لا تشعرون .

هذا ، ومن جهة أخرى تعلم أن الرجل يولد له إلى ما بعد الثمانين وأما المرأة فتملأ بعد الخمسين . فلو أوجبنا على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة لتعطل شطر كبير من أعمارهم من وجود النسل فيه . وهو ما يعود على الأمة بالقلّة (والقلّة مناط الذلّة وفقد القوّة) .

وإنا نرى الملوك يتحملون كل عناء ، ويستعملون من الوسائل ما لا يدخل تحت حصر في الحصول على التحالف أو الاتفاق مع الدول الأخرى طمعاً في أن تزداد قوتهم ، وتقوى شوكتهم ويكثر عددهم .

ويتزايد مددهم عند الحروب واشتداد الكروب . فما بالك إذا كانت الأمة غنية بأبنائها غير محتاجة إلى سواها لكثرة عددها . أفلا تكون القوة أمتن . والوصول إلى الرفعة أقرب ، والفوز في ميدان الحياة أعظم . ومن للأمم بتلك الوسيلة التي هي أضمن الوسائل لنيل الشعوب مجدها ورفعته .

وأما رقي أوروبا وارتفاع شأنها دون أمم الإسلام فهو راجع إلى أسباب أخرى لو وجدت فينا لكننا اليوم أرفع الأمم وأعظم الشعوب كما كنا كذلك بالأمس . وأن الحكومات التي تتخذ من وسائل الصحة ما يحفظ لها كثرتها وقوتها فتحارب الأوبئة الفتاكة خوفاً على نقص الأمة وضعفها ، لو اتسع نظرها لسارعت إلى غايتها المنشودة بتلك الوسيلة الإسلامية فإنها من أعظم الطرق إليها ، ولحاربت تلك الأفكار المنحرفة كما تحارب الأوبئة الفتاكة . فإن مكروهاً أقتل للأمم وأفتك بالشعوب من مكروبات الكوليرا وجراثيم الطاعون .

وإن قلة الزواج في نظر الباحث المدقق لمن قبيل تلك الأمراض التي تحاربها الحكومات بجد واجتهاد . هل من الحكمة أن نحجر على الرجل ألا يتزوج غير زوجته التي وصلت إلى سن اليأس وهو بعد لم يصل إليه . ولعله يأتي بعد بكثير من الرجال العاملين . أليس في منعه من ذلك قطع لأكبر وسائل القوة ، وسد لأعظم طرق الرفعة للأمم والشعوب . ومعلوم أنه إذا امتنع التعدد قل النسل لا محالة ، فيتناقص عدد الأمة فيقع الرعب في قلوبها واللين في قناتها ، فيطمع فيها أعداؤها . وتمتد إليها أيديهم بالسوء فتعاصى على البقاء وتنقاد إلى عوامل الفناء .

وإن كثيراً من المفكرين ليوجس خيفة من تلك الأفكار الجديدة التي أوقعت كثيراً من الفتيات في هوة العار والدمار فضلاً عما يكابدن في طلب العيش من العناء والشقاء . وانظر إلى تلك العادة المسيحية (الافتصار على واحدة) وما توجبه مع تلك المرأة التي بلغت سن اليأس ، وقارن بينها وبين تلك السنة الإسلامية التي راعت مصلحة الأمم وقدمتها على مصلحة تلك العجوز فلم تهرم الرجل بهرمها ، ولا أيأسته بيأسها . بل انظر إلى ما عسى أن يكون من تزوج الرجل بالمرأة العقيم .

فإن المسيحية توجب عليه أن يذهب ذكره من الوجود بذهاب شخصه ، وليس في ذلك فناؤه فقط بل فيه مع هذا فناء خفي تدريجي للشعب نفسه ، حيث يفقد قوة كبيرة كان يحصل عليها لو كان الرجل مسلماً يرى كثرة الزواج فيمد الأمة بعشرة أو عشرين تنتفع بهم في مصانعها ومزارعها ومتاجرها فضلاً عن حروبها وأزماتها .

وإن فرنسا لنن من قلتها الآن أننا شديدا وتريد أن تجعل الزواج جبرياً لهذا الغرض الذي شرحناه ، وقد رأيت أن بعض فلاسفة الألمان يغبط المسلمين الذين يصيرون في الزمن اليسير ذوى عدد كثير بفضل كثرة الزواج الذي جاء به نبيهم (الحكيم العظيم) ولنضرب لك مثلاً بالرجل المسيحي الذي يتزوج امرأة فيجدها عقيماً . أليس من الجائز القريب أن هذا الرجل كان يولد له عابد كثير من الأولاد كعشرة مثلاً . وأن ياد كل واحد من العشرة عشرة ، وذلك كله لا يستغرق نصف قرن . فتكون تلك الأمة قد فقدت في ذلك الزمن مائة شخص من فرد

واحد من أفرادها . كما أن السنة الإسلامية أكتسبت أُممها ذلك العدد العظيم في تلك المدة اليسيرة .

ومما يُلْتَحَقُ بذلك قول الكونت هنرى متألماً من قلة الزواج عندهم : (إن أهل الشرق لا يعرفون العزوبة وهى المصيبة التى جلبها التمددين على الغربيين) . ونعلم فوق هذا أن المرأة قد يعترها مرض تطول مدته أو يكون مزمناً أو معدياً . بل نقول : يجوز أن يباين الرجل المرأة نفساً وخلقاً وتربية وأدباً وأن تباينه فى ذلك .

فقل لى بعيشك ماذا يفعل المسيحى (أو من يريد أن يكون مسيحياً فى مسألة الزواج) لا بد له أن يفعل أحد أمرين : فإما أن يصبر ويعانى مشقة مقاومة الشهوة الطبيعية فيحصل له ضرر عظيم وإما ألا يمتنع عن تلك الزوجة فيكون الضرر أعظم والويل أشد ، وإما أن يضطر إلى الفسوق والفجور . ولعل هذا هو السبب فيما يقوله (الكونت هنرى كيسترى) : من أن ما يحصل من ذلك فى عاصمة باريس وبرلين ولندرة يزيد على ما يحصل من ذلك فى الشرق كله . إلى أن قال : (وأما ما يتعوده المراهقون من الأمر القبيح فمما لا وجود له فى الشرق إلا بطريق الاستثناء لسهولة الزواج) وقد ثبت بالإحصاء الرسمى أن أولاد الزنى فاقوا فى باريس عن ثلاثين فى المائة وفى ميونيخ عن أربعين . وفى فيينا عن خمسين وفى بروكسل عن ستين . فذلك التعدد واقع فى تلك الأمم بصورة غير مشروعة متناهية فى الفظاعة وأضراره على المرأة والنسل أشد فظاعة وأقوى قبحاً .

ولعل المشرعين والمنفذين الذين سنوا لهم تلك العادة - التي خالفوا فيها التوراة ولم يصرح بها الإنجيل - شركاؤهم في تلك الجرائم . ولعمر الحق إن هذه الأسباب تكاد تكون موجبة لكثرة الزواج لا مبيحة لها فقط .

ولنمسك عنان القلم اكتفاءً بما قدمنا ، ولو شئنا لأًطلنا .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يعرفنا مزايا ديننا القويم بحمده وكرمه .

جواز التقليد^(١) والرعى من حرمه

حضرة خادم السنة والإسلام ، وعلامة العلماء الأعلام ، صاحب
الفضيلة سيدي الشيخ يوسف الدجوى . أبقاكم الله تعالى في سعادة
وأمان ، راغمين أنف كل زائغ فتان .

وبعد : فعندنا طائفة ليس لها شغل إلا بالحط من قدر الأئمة والطعن
عليهم ، وذب مقلديهم بأقبح الذنب . حتى أن بعضهم ألف رسالة
في ذلك ، وهى رسالة إليكم . وهم ينادون بتحريم التقليد وأنه
من الكبائر . وبعضهم يجعله كفساً مثل كفر الذين اتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ويقولون : إن الواجب على العامى أن
يطلب من العالم الذى يستفتيه ذكر الدليل من الكتاب أو السنة ،
ويجب على العالم أن يذكر له ذلك وينهاه عن تقليده أو تقليد غيره ،
فانه لا يجوز اتباع آراء الرجال ، ويجب الرجوع فى كل شىء إلى
الكتاب والسنة .

فنسألكم بالله - عز وجل - أن تغيثونا ببيان الحق ، فإنهم شوشوا على
العامية وآذوا الخاصة إيذاءً بليغاً . وليس لنا إلا (الأزر الأنور)
وعلمائهم الذين يرجع إليهم فى المهمات ، وتكشف بهم جميع المعضلات .
أبقاكم الله حصناً للدين وملجأً للمسلمين - آمين .

عبد الله بن رايح بالجزائر

(١) مجلة الأزهر - الجزء العشر - المجلد الخمس - سنة ١٣٥٣ هـ .

الجواب

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

هذه نزعة من شر النزعات التي ابتلى بها المسلمون من أولئك الذين يدعون الاجتهاد ، ويشيرون في الأرض الفساد ، ويبذرون بذور الشقاق والانقسام ، ويهونون أمر سلفنا الصالح في نفوس العامة « شأن الخوارج الذين هم شر الطوائف » ويزجون بأولئك الجهال فيما لا يحسنونه ، فيعرضونهم بذلك لكل خطر وفتنة .

وهي شئشئنة نعرفها من إخوانهم عندنا بمصر (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ)^(١) . وكنا نود أن يكونوا من الذين يقولون : (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)^(٢) ولكن أخبرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سيلعن آخر هذه الأمة أولها ، وأن ذلك من علامات الساعة ، وسيتخذ الناس في آخر الزمان رؤساء جهالاً فيسألونهم فيفتنون بغير علم ، فيضلون ويضلون . وما كانوا رؤساء إلا لتلك الدعاوى الكاذبة .

وقد روى عن علي - رضي الله عنه - : « إذا أعرض الله عن العبد أورثه الإنكار على أهل الدين » . وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - « أخوف ما أخاف على أمتي كل متفیهق علم اللسان » .

أما أئمة الإسلام المتقدمون فلا يضرهم ذلك شيئاً ، لأن الأمة كلها

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦

(٢) سورة الحشر ، الآية ١٠

على توقييرهم و جلالهم ومعرفة فضلهم ، إلا تلك الشرذمة التي لو أنفق
أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه :

وسعى إلى بعيب عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها

وأما اختلاف الأئمة وما يطنظنون به حوله فهو من الرحمة الكبرى
بهذه الأمة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : « ما يسرنى أن أصحاب
محمد-صلى الله عليه وسلم-لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رحمة »
وقد قال يحيى بن سعيد وهو من كبار المحدثين من التابعين : أهل
العلم أهل توسعة ، وما برح المفتون يختلفون ، فلا يعيب هذا على هذا .
على أن الناس لو أخذوا من القرآن والسنة كما يريد هؤلاء لما وقف
بهم الاختلاف عند حد ، ولأصبحت المذاهب أربعة آلاف بدلا من أربعة
ويومئذ يكون الليل كل الويل للمسلمين . « لا أرانا الله ذلك اليوم » .

وأما دعواهم حرمة التقليد فيردها العقل والنقل « ومن العجب
العاجب أنهم يحرمون التقليد ولكن يدعون الناس إلى تقليدهم !

ولو لم نسمع تلك الأصوات المنكرة ما صدقنا أن أحداً في الوجود
يحرم التقليد ويوجب على الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت
استعدادهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة .

وأنه ليدل على فساد ما قالوا المعقول والمنقول ، فإن العامى مكلف
بالأحكام قطعا ، ولا يمكنه أن يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة قطعا
لما سنينه .

وأما النقل فقد كان الصحابة والتابعون يفتنون السائلين بالحكم ، فتارة يذكرون مأخذه إذا اقتضت الحال ذلك ، وتارة يقتصرون على ذكر الحكم ، وذلك معلوم على القطع من حالهم . ولو كان الأمر على ما زعم هؤلاء لا لتزموا ذكر الدليل لأولئك السائلين الذين كان يمكنهم أن يفهموه ولا يضلوا فيه لأنهم من أهل اللغة .

وكذلك كانت رسله - صلى الله عليه وسلم - إلى البلدان ، كما عاذا ابن جبل وأبي موسى الأشعري : يعلمون الناس الأحكام من غير التزام ذكر الدليل . بل قال معاذ للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أنه إذا لم يجد الحكم في كتاب الله ولا سنة رسول الله اجتهد رأيه ، وأقره صلى الله عليه وسلم - على ذلك . وخير عمر شريحا . في أن يجتهد رأيه فما اشتبه عليه وأن يراجعه فيه ، وإن كان ذلك أحب إلى عمر .

ويقول الله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١) أي عما اشتبه عليكم لاعن دليله . فلم يشترط القرآن غير أن يكون المسئول من أهل الذكر .

ولا شك أن الأئمة المسلمين من أهل الذكر الموثوق بأمانتهم وعدالتهم ، ودينهم وعلمهم ، وليس يسألهم المستفتي عن آرائهم البحتة بالضرورة ، وإنما يسألهم عن حكم الله المأخوذ من كتاب الله وسنة رسول الله ، لكونهم أعلم به منه ، بخلاف الأخبار والرهبان ، فإنهم كانوا يحللون ويحرمون بأهوائهم .

(١) سورة النحل ، الآية ٤٣

والمدار على أن يحصل للمستفتى ظن قوى بأن هذا هو حكم الله ،
فإذا حصل له ذلك الظن بموجب ثقته بإمامه الذى اتبعه ، وجب عليه
العمل به ولا يجوز له مخالفته بوجه من الوجوه .

وما أدرى كيف يبيحون لكل إنسان أن يأخذ دليل الحكم من
[الكتاب والسنة] .

وكيف يأخذ الحكم من الحديث مثلاً وهو لا يمكنه أن يعرف درجة
الحديث ولا ماله من معارض ولا مافيه من تخصيص عام أو تقييد
مطلق أو نسخ ناسخ ، ولا ما بينه وبين غيره من ترجيح الخ الخ . .

فإذا قالوا : أنه يسأل العالم عن ذلك كله فقد هدموا ما بنوا ،
ورجعوا إلى التقليد الذى فروا منه . فإن العالم إنما يتكلم فى ذلك كله
برأيه ، فلم يخرجوا من تقليد آراء الرجال كما يقولون .

ولو كانت الشريعة جاءت بهذا الحرج لكلفت الناس شططا . ولم
تكن شريعة سمحة تسع الأمم كلها وتصلح للأزمان كلها ، ولم يقل
الله فى شأنها : (لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ^(١) فمعجبا لأولئك الذين
يعمدون لأكبر ميزة للشريعة الإسلامية فينقمونها عليها .

وإذا تأملت بنور الله فى ذلك الموضوع بهرك ما فى تلك الشريعة من
السعة والرحمة والحكمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على
التخفيف على أمته غاية الحرص ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم . حتى أنه
لما نزل القرآن على حرف ما زال يتشفع حتى نزل على سبعة أحرف .

وكان يكره المشددين المنفرين ويغلظ القول لهم ، وينكر على من يبحث عن البواطن ، أو يشتد على عباد الله غلوا وتعمقا وجهلا بمقاصد الشريعة ، ولذلك اشتد على أسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله ، مع كون أسامة -رضى الله عنه- كان متأسلاً ، ولكن حكمته - عليه السلام - أعمى وأتم ، فإنه يكتفى من الناس بظواهرهم تأليفا لهم ورحمة بهم ، علماً بأن ذلك أليق بضعفهم وجهلهم ، وأقرب إلى إصلاحهم ، فهو يتدرج بهم بحكمته الكبرى حتى يوصلهم من الكمال إلى ما قدر لهم عن طيب نفس من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

ولو أردنا أن نبين آثار رحمته ومزيد حكمته التي اقتضت بقاء شريعته واندرج الكافة في سلك أمته لضاق المجال وطال المقال .

وانى أعجب لهؤلاء كيف لا يجيزون للعامّة أن يتدخلوا في دقائق السياسة ، ولا للجاهل بصنعة من الصنائع أن يتولاها بلا تعلم ومزاولة ، ثم يجيزون بل يوجبون عليهم أن يخوضوا في القرآن والسنة بأفهامهم وأوهامهم التي تشبه أوهام الأطفال ولا تتركز إلا على الخيال :

ولكنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وليت شعرى هل لهذا الجاهل الذى أباحوا له أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يخالف علماء المسلمين ، ويستظهر على سائر الأحكام التي ثبتت بالقياس في عهد الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين حيث يجد لها دليلاً من الكتاب والسنة على زعمه ؟ ! وما أظن أحداً من ذوى الدين والعلم يستطيع أن يقول ذلك غير تلك الفرقة المجازفة التي تخبطت صورها ولم تعرف قدرها .

وهل في الكتاب والسنة ما يدل على جميع الحوادث وأحكامها دلالة وضعية بدون حاجة إلى الاستنباط. والقياس المستلزم لمعرفة العلة وشروطها ومسالكها وقوادحها وغير ذلك ، أم يقولون إن العامى يمكنه أن يعرف ذلك ولا يخطئ فيه بدون علم ولا بصيرة ؟ !

ولعمر الله أنى لا أرى هذا الرأى إلا فتحا لباب الأهواء التى تجعل الكتاب والسنة لعبة لأولئك المتهوسين الذين هم من ذوى الجهل المركب والخيالات الفاسدة .

ومما لاشك فيه أن الأهواء تختلف جد الاختلاف ، وأن الجهال إنما يستمدون من العواطف والأوهام ، لامن العقول والأفهام . فماذا يكون الحال إذا سلطناهم على الشريعة يفهمونها بأرائهم ، ويلعبون فيها بأهوائهم ؟ !

هذا ومعلوم أن المستفتى لا يسأل العالم عن رأيه ولا ما يستحسنه بمحض هواه ، ولكن يسأله عن حكم الله فى المسألة ، وسؤاله لأهل الذكر عن حكم الواقعة إنما هو ليجيبه المسئول بما يعلمه من الكتاب والسنة ، فسؤاله عن حكم الله لاعن آراء الرجال التى لم تستند إلى كتاب أو سنة كما يتوهمون ثم يشنعون .

وكيف تجيء هذه الخيالات أو تروج تلك الترهات فيميز لا يدين إلا بقول النبى- صلى الله عليه وسلم-، ولا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله ورسوله ولا حراما إلا ما حرمه الله ورسوله ؟ لكن لما لم يكن له علم بما جاء عنه- صلى الله عليه وسلم-، ولا بطريق الجمع بين المختلفات من

كلامه ، ولا بطريق الاستنباط من دلالة الإشارة مثلا ، سأل علما راشدا ، معتقدا أنه مصيب فيما يقول : فإن خالف ما يظنه أفلح من سماعته عما أفناه به .

فكيف ينكر هذا أحد ، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزالا في المسلمين من عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ؟! ومن الذي يعتقد أن هناك فقيها أوحى الله إليه ؟ فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه الم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولولا ذلك ما قلد مؤمن مجتهدا .

وعلى كل حال فمن ذهب إلى هذه النزعة الحمقاء فقد أنكر على كل من فرق البسيطة من جميع المسلمين الذين قلدوا الأئمة وأخذوا بكتب الفروع ، وما كتب الفروع إلا شرح للكتاب والسنة ، فما الذي يوجب التنفير والتحذير مما مرجعه إلى الكتاب والسنة ؟ وهل يمكن العامة أن يفهموا الكتاب والسنة لولا ما كان من أئمة الهدى - رضى الله عنهم - ، كيف وفيهما المجل والمبين ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والمنطوق والمفهوم ، وغير ذلك ؟

وقد قال ابن عباس « إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهر وبطون ، لا ترضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته . وعرفنا - صلى الله عليه وسلم - أن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطعماً ، ولكن هؤلاء يريدون أن يطلعوا بغير مطاع ، ويجهتدوا بغير علم ، ويتكلموا بغير عقل . » . وكما سر وحكمة نبهت عليهما الإشارة ولم تبينهما العبارة .

ولعمري إن أكثر من يدعون العلم اليوم لا يفهمون وجه الدلالة ولا مدرك الأئمة ، خصوصا إذا كان الدليل ذا مقدمات يتوقف تقريرها

الاستدلال بها على أمور قلما يكون لأمثالهم إلمام بها . فما أبعد ما طوحت
بهم الطرائح ، وما أعجب ما يبلغ بهم الاعجاب .

إن الأخذ من القرآن والسنة يحتاج إلى علم واسع ونور ساطع
يفرق صاحبه به بين الحق والباطل ، فضلا عما يحتاج إليه من
لغة ونحو وصرف . ومعان وبيان وأصول الخ . وقد رأينا المعتزلة
يقولون إن القرآن يشهد لمذهبهم ، والخوارج يدعون أن القرآن
ناطق بنحوتهم ، والباطنية يزعمون أن للقرآن معنى آخر غير معناه
الظاهر ، والبابية يعتقدون أن له معنى غير ما فهمه الجميع ، إلى آخر
الفرق الضالة والنحل الزائفة . فهذه الفرق كلها كانت تستمد من
القرآن على زعمها ، فكيف ندعه بعد ما رأينا ذلك كله لأهواء الجهلاء
وآراء الأغبياء ؟

وقد كان كبار المحدثين المخاصمين يقلدون الأئمة المجتهدين ،
علما منهم بأن رواية الحديث لا تكفي في الاجتهاد . وقد قالوا :
إن المحدث بمنزلة الصيدلي والمجتهد بمنزلة الطبيب . ولقد رأينا
بعض الناس من ضل بظواهر التشابهات من القرآن والأحاديث .

الخلاصة

والخلاصة أن أقوال المجتهدين المأخوذة من الكتاب والسنة لا ضرب
من البيان والتفسير .

وقد عرفوا الاجتهاد بأنه : استنفاد الجهد بالنظر في المآخذ الشرعية
لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعي .

أما دعوى وجوب الأخذ من الكتاب والسنة لكل أحد فباطلة بإجماع الصحابة ، فإنهم كانوا يفتنون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد والنظر كما قلنا ، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم . وأيضا الإجماع منعقد على أن العامى مكلف بالأحكام ، وتكليف طلب رتبة الاجتهاد تكليف بالمحال ، فليس عليه إلا أن يعرف حكم الله بأى طريق على مقتضى ظنه . « ووجوب العمل بالحكم عند الظن معلوم لانزاع فيه » .

ومن المعلوم أن تقليد الأئمة ليس تركا للآيات والأحاديث ، بل هو عين التمسك بهما . فإن الآيات والأحاديث ما وصلت إلينا إلا بواسطتهم ، مع كونهم أعلم ممن بعدهم بصحتها وحسنها وضعفها ، ومرفوعها ومرسلها ، ومتواترها ومشهورها ، وأحاديثها وغريبها ، وتأويلها ، وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، والناسخ والمنسوخ ، وأسبابها ولغاتنا ، وسائر علومها مع تمام ضبطهم وتحريروهم لها ، وكمال إدراكهم وقوة ديانتهم ؛ واعتنائهم وورعهم ونور بصائرهم ، فتفقهوا فى القرآن والأحاديث على مقتضى قواعد العلوم التى لا بد منها فى ذلك ، واستخرجوا أسرار القرآن والأحاديث ، واستنبطوا منها فوائد وأحكامها ، وبينوا للناس ما يخفى عليهم على مقتضى العقول والمنقول ، فيسروا عليهم أمر الدين ، وأزالوا المشكلات باستخراج الفروع من الأصول ورد الفروع إليها ، فأستقر من الدين لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بسببهم الخير العميم كما قال إمام الحرمين :

كلمة ختامية

إن أمثال هؤلاء المتهورين لا يصح أن يكونوا من أئمة الهدى ولا علماء الدين ، فإن أخص أوصاف الأئمة والعظماء ، الرزاة والأناة واحترام غيرهم من العلماء والشفقة على الأمة ووراثة الرسول صاحب النظر الواسع والحكمة البالغة والسماحة المتناهية .

وينبغي أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر وموضع للاجتهد يجب ألا يتنازع فيه الناس ، فالأمر فيه واسع ، فكلم اختلاف الصحابة والتابعون وتابعوهم مع محبة بعضهم لبعض ، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعي ماله مراراً ، وقد خالفه في أشياء كثيرة وهو تلميذه . وقد قالوا : إن المنكر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعاً على إنكاره .

وإني أكرر عجبى منهم كيف يلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ويقيم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك ، بل نتنزل قليلاً ونقول لهم : أفتوجبون علينا تقليدكم وأنتم تحرمون التقليد ، أم ماذا ؟

هذا والله غض من شأن الأمة وعلمائها وأئمتها ، وهي تلك الأمة التي أدهشت التاريخ وأنظقت أعداء الاسلام بفضل الإسلام ، وقد صورتوها يا حضرات المتفهبين بصورة الأغنام التي تتبع كل ناعق ، وهي من الحكمة والفلسفة بالمحل الذي لا ينكره منصف أوربي فضلاً عن عالم إسلامي .

وأما رميكم إياهم بأنهم كانوا يتبعون أئمتهم اتباعاً لا مناقشة فيه ولا تبعية معه ولا حياة في ذويه فهو غير صحيح ، فإنهم كانوا عقلاء حكماء مخلصين على بصيرة من أمرهم فكان كلُّ يمتف عند حده ولا يتخطاه ، فإذا ظهر له الحق ، اتبعه لا محالة ، فإن المسلمين عمراً لا يريدون إلا اتباع الرسول لا غير ، وإذا اتبعوا إماماً فإنما يتبعونه في أن هذا هو سنة الرسول وشريعته فيما يعتقدون. ولا يتصور غير هذا .

أما كونه مخطئاً في الواقع أو مصيباً فذلك شيء لم يكلفهم الله به ، ولا يخلو منه مجتهد ولا مقلد ، والخطأ إلى من يجتهد وليس أهلاً للاجتهاد أقرب منه إلى من يقلد المجتهد الموثوق به المشهود له بالامامة . وهذا تنزل اقتضاه المقام ، وإلا فاجتهاد من ليس أهلاً للاجتهاد من أكبر الكبائر وأعظم الجنايات على الدين وأهله .

أعلى أن أنباغ الأئمة لم يكرنوا من تقليدهم على ما يزعم هؤلاء ، فإننا نرى أبا يوسف ومحمد كثيراً ما يخالفان أبا حنيفة ، بل لا نكاد نجد مسألة لا يذكر فيها ذلك الخلاف الذي يبين استقلالهم وشدة حرصهم على اتباع الحق متى ظهر دليله .

وها هو ذا الإمام الشافعي بقرّر في مذهبه الجديد أن المغرب لا يمتد وقتاً إلى الشفق . ولكن أصحابه عدلوا عن قوله اتباعاً للدليل . وكذلك لا يرى عموم أحد عن الميت ، وخالفه أصحابه اتباعاً للدليل . وكم لابن عبد البر وأبي بكر بن العربي المالكيين من مخالقات في مذهب مالك ، وكنا غيرهما . إلى آخر ما لا يسعه هذا المقال .

ولكن كانوا يعرفون درجاتهم ، فما يتبين لهم دليله اتبعوه وقالوا به ولو خالف الإمام ، وما لم يتبين لهم فيه شيء كانوا فيه على رأى الإمام وعلماً بأنه أعلم منهم بالسنة وأعرف بروح الشريعة .

وهكذا يجب أن يلتزم كل إنسان حده ولا يتعدى درجته . فكان لكبار الأئمة الاستقلال التام ، ولأكابر تابعيهم الاستقلال الجزئى من التضعيف والترجيح ، وللعامة الانبعاث ، فإنه لا يصح فيهم غير هذا ، وهو عين الحكمة .

ولولا ذلك لصار الدين لعبة بيد الجهال ، وهذا ما نخاف منه ونحاول القضاء عليه . وليس معنى ذلك أننا نقول بعدم جواز الاجتهاد ، أو أنه أغلق بابيه كما يقولون ، فإن أبواب فضل الله لاتغلق . وهل هذا إلا حجر على الله عز وجل - ؟ ولكن هناك فرق كبير بين إمكان الشيء ووقوعه ، وبين إسناده إلى أهله وإسناده إلى غير أهله .

وقد أصبحتنا فى زمان ضاعت فيه الحدود ، وتعدى كل إنسان طوره ، ولم يعرف قدره ، وهى أكبر مصائبنا وأعظم بلايانا التى نئن منها ولا نعلم منتهاها :

ليت شعري عواقب الأمر ماذا وإلى ما بنا المسأل يؤول

وإننا نحكم القراء الكرام بيننا وبينهم ، فنبسط وجهة نظرنا ونظرهم ، وطريقتنا وطريقتهم بالاختصار ، عسى أن ينقطع المرء والجدال :

نحن نرى أن الناس على درجات شتى فيما وهبهم الله من الاستعداد
الطبرى ، وفيما أحاط بهم من ضروب التربية المختلفة والبيئات المتنوعة
وما قدر لهم من فنون الشواغل ، وما عنوا به مما أقامهم الله فيه .

نرى أن كل طبقة لها حكم يخصصها ، فمن وصل إلى درجة الاجتهاد
وجب عليه الاجتهاد وكان آثماً بتركه ، ومن وصل إلى درجة الترجيح
وجب عليه ذلك .

ومن قعد به استعداده أو تربيته أو بيئته : أر ما أحاط به في شراغل
المعيشة أو الويلفة ، فعليه أن يقلد من يثق به ويعلم أنه غير جاهل بدين
الله ولا غاش نيه ومتى انقدح في ظنه أن هذا هو حكم الله وجب عليه
اتباعه ولا يجوز له مخالفته ، فهو مثل المجتهد سواء بسواء متى ظن
أن هذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولا يجوز أن يخالف ظنه ، بل
ذلك غير معقول ، فإنه إذا لم يكن يعتقد أن هذا هو حكم الله فكيف
يتبعه ؟ وقد قل العلماء : أن ذلك علم ويقين وإن كان في طريقه ظنون
وهذا ما في الوسع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وليس من المعقول
أن يظن أن حكم الشريعة هو كذا مثلاً ثم يعدل عنه إلى غيره .

أما إخواننا « أصحاب النهضة الحديثة والطفرة غير المعقولة »
فيرون وجوب الأخذ من الكتاب والسنة بلا مراعاة لشروط الاجتهاد ،
ولا تفرقه بين ضروب الاستعداد .

وهذا مبدأ خطر جداً ، إذا جرينا عليه عمت الفوضى وفسد أمر
الدنيا والآخرة ، فمن المحتم لصلاح المجتمع وتمام النظام أن يعرف كل

إنسان قدره ولا يتعدى طوره ، وأن توزع الأعمال ، فهذا للتجارة وهذا للزراعة ، وهذا للعلم وذاك للاجتهد ، وغيره للتقليد وهلم جرا .

وعلى هذا بناء الوجود وصلاح العالم ، والقاعدة واحدة في أمور الدين والدنيا وقد خلق الانسان ضعيفاً (وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا) (١) .
(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ) (٢) .

وإني أعجب لهؤلاء كيف يجعلون أمر الاجتهاد أقل من جميع الصنائع التي لا يجتهد صاحبها إلا إذا كان له فيها علم واسع وعمل متكرر ، حتى يعرف أسرارها ودقائقها ، ويصبح من ذوى التبريز فيها . وكأن مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهونها علينا .

وقد رأيت لبعضهم رداً يحمل سقوطه في طياته فلم أعبأ به ولم ألزمت إليه . وما قامت قيامة هذه الطائفة إلا من قولنا لهم : أنه يجب إعطاء المراتب حقاً .

ثم بالغنا في التصريح ولم نستعمل السياسة ولا المواردية فقلنا لهم : إنكم لا تصلحون للاجتهد ولا تبلغتم درجته ، واجتهدوا كم لا يأتي إلا بشر الغايات وأعظم الآفات ، فاعرفوا قدر أنفسكم واتقوا الله فيها .

ثم نقول لمزيد الإيضاح بعد ذلك كله : إن من المقرر أنه لا يجوز خرق الإجماع ، ومن الذي يستطيع ذلك إلا من عرف أقوال العلماء وأحاط بمواقع الخلاف والاتفاق ، إلى غير ذلك من المهامة الفيحاء التي تنقطع فيها أعناق المطى ويضلل فيها الخريت .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٨

(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٤

وقد ذكروا أن المرجحات التي توجب تقديم بعض الأحاديث على
بعض عند التعارض تزيد على الخمسين فكيف :لزم الناس بالاجتهاد
ونحرم عليهم التقليد بعد ذلك كله ؟

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِنصَافَ ، وَيَجْنِبَنَا الْعِتسَافَ ، وَيَجْعَلَنَا مِنْ
أَهْلِ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

الْحُرِّيَّةُ

الحرية هي أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون ، ويعمل له العاملون وهي الحياة على الحقيقة بل الموت خير من حياة لا حرية فيها ولا استقلال معها . ولست ترى قوماً سلبوا الحرية إلا ماتت فضائلهم وقضى على إنسانيتهم القضاء الأخير . وما أبعد من يكون مستتبِعاً في كل شأنه ، مستبِعداً في كل أمره من أن يكون إنساناً . ولذلك ترى الأمم أوسع ما تكون بنفوسها في سبيل حريتها . وقد جاء الدين الحنيف بالحرية والمساواة فلم يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)^(٢) . وقد قال صلى الله عليه وسلم عند ما سرقت الخثعمية : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وقال : « لافضل لعربي على عجمي ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »

إنَّ نِجَاءَ الدِّينِ بِتَرْقِيَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى حَدِّ أَنْهُ لَا يَخْذِفُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَخْشَى فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَعَرَفَهُ مَنْ كَمَالِهِ وَخِصَائِصِهِ ، مَا أَجْلَسَهُ بِهِ فَوْقَ عَرْشِ الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ ، وَجَعَلَهُ لَا يَطْأُ رَأْسَهُ لِغَيْرِ جِبَارِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَوْ كَانَ أَكْبَرُ الْعِظْمَاءِ إِلَّا عَلَى حُدُودٍ مَحْدُودَةٍ تَقْتَضِيهَا الْحِكْمَةُ فَقَطْ . وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ لُؤْزِمِ التَّوْحِيدِ .

هذا والحرية في متعارف السياسة أن تكون الأمة تحت قانون معروف يسوى بين الصغير والكبير والغني والفقير ، حتى تأمن على

(١) مجلة الإسلام - العدد ٣٧ - رمضان سنة ١٣٥٣ السنة الثالثة

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣

على حتموقها من تلاعب الأهواء ، وعلى نفوسها من استبداد الأمراء
والرؤساء .

وليسست الحرية أن تسلم نفسك لهواك يقودها حيث شاء لا تراعى
الاداب ولا تحترم الشرائع فإن ذلك همجية تفوق الحيوان ومنقصة
تزيد على منقصة الشيطان :

إذا أنت لم تعص الهوى قaddock الهوى

إلى كل ما فيه عليك مقــــــــال

ومما ينبغى التنبيه له أن النفوس مجبولة على الترفع والعظمة
واستقلال بل نتمول إن فيها ألوهية كامنة تأبى التقيد بأى شىء من
الأشياء حتى بالشرائع من أكمل الأنبياء . ولذلك قال أرباب تلك النفوس :
(أبشراً مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) ولهذا كثرت التحملات والتأويلات فى
الشرائع حباً فى الإطلاق ، وكراهة فى التقيد .

ولو تركت النفوس وما تهواه من الإطلاق والخلوص من القيود
كلها لكان ذلك هو الشقاء الأبدى والهلاك السرمدى .

وبعد هذا فلا بد أن نراعى الحكمة فلا نعطى الناس من الحرية
والإطلاق إلا على قدر ما يناسب درجتهم فى علمهم وتهذيبهم وكما لهم ،
ثم نقيدهم فيما وراء ذلك ولا نطلقهم فيه . ومن البلاء الذى عمت به
البلوى ما يفهمه الكثير من أن الحرية لآتئى إلا بخير عميم وشأوعظيم .
ولو كانت لغير من يحسن استعمالها من ذوى النزق والخرق . ولم يدر
أن إعطاء الجاهل حرته فى كل شىء إفساد له بالكلية وسبب لثمنائه
وشقاء الناس معه .

وهو بمنزلة إعطائه سلاحا لعله يقتل به نفسه أو أحد والديه .
ولا فرق بين الأمم والأفراد في ذلك فيجب التدرج في الحرية على
حسب التدرج في التربية والفضائل حتى لا تغلب عليهم الحيوانية
أو الشيطانية بمقتضى ما في الفطرة الإنسانية والجيلة البشرية . وإذا لم
يكن للإنسان وازع من دين أو قانون أو مراقبة من الكبراء والفضلاء
واتفق مع هذا أنه ليس له من الصفات والكمالات ما يردعه عن
القبیح تحركت فيه ضروب من الشهوات وفنون من الأهواء واتسعت
أمامه طرق الضلال وتفتحت له جميع أبواب الخيال . فمن الشقاء
مثلا أن نعطي أولادنا الصغار الحرية في كل شيء غافلين عما تفعله
الأهواء ، ويأتي به الاطلاق في أمثالهم : ومن الشقاء أن نعطي حرية
التشريع والتقنين لمن ليس لهم من الاستعداد الرفيع والعلم بطبائع
البشر وأحوال النفوس ما يؤهلهم لذلك .

ومن الشقاء ما منى به الدين الحنيف من حرية السخفاء الذين هم
أبعد الناس عن أسرارهم وأجهلهم بمراميه حتى صاروا يخوضون في كل
موضوع من موضوعاته ولو كان من مواقف العقول ومزال الأقدام
ويقررون خيالات كانت تدور بنفوسهم مما يناسب استعدادهم القاصر ،
فلما طال عليها الأمد ظنوها حقائق وليست من الحقائق في شيء .

ومنهم من خيل له أن أمر الاجتهاد من أيسر الأمور فأباحه لنفسه
وللناس بلا شرط ولا قيد ، وجعله أقل من جميع الصنائع التي لا يجتهد
صاحبها إلا إذا كان له فيها علم واسع وعمل متكرر حتى يعرف أسرارها
ودقائقها ويصبح من ذوى التبريز فيها .

ومما يوجب أسف المنصف الغيور أننا لانجد أحدا يجعل نفسه في عداد المجتهدين في أى فن من الفنون إلا إذا كان اختصاصيا في ذلك الفن . وقد أصبحنا اليوم في فوضى دينية علمية لاندرى إلى أى حد تصل بنا ، فلمست ترى إلا مارقا من الدين لا يعبأ به ، أو متمسكاً به على ما يزعم ، إلا أنه أعطى لنفسه الحرية في كل شيء وأحلها محل الأنمة الأعلام ، فهو يفهم على وفق ما يستمد من خياله ويؤول على طبق ما يأمره هواه ، وقد رأينا ذلك في كل الطبقات حتى في المهندسين والأطباء وكأن مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهمونها علينا .

وليس التقييد في مواطنه بأقل من الحرية في مواطنها وليس هناك أعظم ضررا من منح الحرية لغير مستحيتها ومنعها ممن تأهل لها .
ولا بأس أن نختم مقالنا هذا بكلمة صغيرة لا يعرف قدرها إلا من تأهل لها .

ذلك أن هناك حرية أخرى وهي الحرية الحقيقية التي تخلصك من رق الأشياء كلها فلا تكون عبد الدينار والدرهم ولا عبد الفراش والرياش ولا عبد المرأة الحسناء والوظيفة القعساء ، وإلا فأنت بعيد عن الحرية الحقيقية بقدر ما استعبدتك تلك الشهوات ، وأخذتك تلك الغايات ، ولا فرق بين عبودية وعبودية ، فالنتيجة واحدة وأنت عبد على كل حال ، ولبتك كنت عبداً لشيء واحد حتى تستريح بعض الراحة وتذوق شيئاً من معنى الحرية ، ولكنك عبد لما لا يحصى من المآرب والمطالب .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) (١)

فالمهمة أن تكون حراً من كل شيء حتى لا يحكم عليك شيء وإذا لا تحتاج إلى أحد - لولا تخاف من أحد فتكون من المؤمنين الكاملين الذين لا يخشون أحداً إلا الله ولا يرجون أحداً إلا الله فلم يذلوا للأمراء ولم يتواضعوا للأغنياء ، ولم يكونوا أسراء المطالب ، ولا أرقاء المآرب ، فهم يترفعون تيهها على ملوك الأرض الذين تنعمت ظواهرهم ، وشقيت بواطنهم وملكت أيديهم ، واستعبدت نفوسهم ، عالمين أنهم الملوك على الحقيقة ، ولكن أين من كملت حريته وهذه صمته ؟

أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتاي طالعة حر وقد ذكر عن بعض الأكابر - وذكر بعضهم أنه الغزالي - أنه وجد بعد موته ورقة مكتوباً فيها بخطه هذه الأبيات :

قد كنت عبداً والهوى حاكمي فصرت حراً والهوى خادمي
وصرت بالعزلة مستأنسا من شر أصناف بني آدم
بالاتمي ، تركهم جاهلاً عذري منقوش على خاتمي
ففتشوا على خاتمة فوجدوه منقوشاً فيه قوله تعالى : (وَمَا وَجَدْنَا
لَاكُتْرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (٢)

نسأل الله أن يمنحنا رضاه ، ولا يجعلنا عبداً لشيء سواه ،

بمنه وكرمه .

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٩

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٠٢

فضل الصلاة وبيان أسرارها^(١) وشرح حديث شريف

عن أبي هريرة -رضى الله عنه- قال ، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول :

« أَرَأَيْتُمْ لِي أَنْ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ أَفَبِئْسَ ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ؟ » .

قالوا : لا يبقى ذلك من درنه شيئاً . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس : « يحو الله بها الخطايا » .

أخرجه البيهقي ومسلم والترمذي والنسائي . وفي لفظ آخر :
« إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات » .

أخرجه مالك في الموطأ من حديث طويل .

وعن حذيفة -رضى الله عنه- قال :

« كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » .

أخرجه أبو داود . وفي رواية : (حزنه) بالنون ، والمراد نزل به وأهمه . إلى غير ذلك وهو كثير .

جهل الكثير من الناس أن الصلاة تذهب بالأذى الحسى والمعنوى ،
وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى وجهلوا حكمستها الحكيمه فزعموها
غلا وضع فى الأعناق وثقلا تنوء به الكواهل ، والناس - كما قيل -
أعداء ما جهلوا ، وما إلى ذلك مما حفز فضيلة مولانا أن يعنى بشرح هذا
الحديث الشريف ويحسر النقاب عن معانيه وحكمه الغالية قال
حفظه الله :

ان الصلاة اعظم العبادات شأنًا وأوضحها برهانًا وأكبرها أثرًا
فى تطهير القلوب والنفوس ، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية حتى
قال : من ترك الصلاة فقد كفر . وقال : بين العبد وبين الكفر ترك
الصلاة . وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد فكفر تارك
الصلاة ووافق على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية . وكانهم
رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التى إذا فقدت حكم
بفمقده لقوة الملايسة بينها وبينه ، فإن الصلاة هى المحققة لمعنى إسلام
الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبوء من الإسلام إلا بما
لا يعبأ به .

وبالجملة فهى فى نظر الشارع أعظم شعائر الدين ولذلك أوصى بها
الصغار والكبار وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها
لتكون ملكة راسخة فى النفوس بحيث تكون صبغة لها متمكنة منها
فى النفس من الخشية والمراقبة .

ولذلك يقول الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(١)
ويقول : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ
الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢)
وسنشرح ذلك تمام الشرح ، ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه
خلائقه وملكاته التي أنصغت بها نفسه وانتعش بها قلبه .

ولتلك الحكمة البالغة أمرنا ان نعلم الصبي الصلاة لسبع ونضربه
عليها لعشر حتى تصادف منه قلبا خاليا قبل أن تفرقة الأهواء التي تجعل
النفس شعاعا والقلب أوزاعا .

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسياسة تقرب العبد من مولاه وتمنعه من
التردى في أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس حتى
ترتفع بها إلى عالم الملكوت . والمصلي إذا قصد من الصلوات أرواحها
لأشباحتها ، ومعانيها لا صورها ، فلا بد أن يخوض في لجة عظيمة من
الرحمة . كأنه بدخوله في الصلاة قد اندرج في سلك الملائكة وخرج
من هذا العالم بالكلية .

ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنها تطرح عنهم أثقالهم وقد كان
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « أرحنا بها يا بلال » ويقول : « وجعلت
قرة عيني في الصلاة » لما كان يحس فيها من الرحمت والفيوضات ،
والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق في عظمة رب
الأرض والسموات .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة الماعج ، الآيات من ١٩ - ٢٣

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثنى وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة نظير بها إلى الله تعالى مثنى وثلاث ورباع ، كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التي تفرقت في صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والمساجد والقائم والمسيح فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح والركوع والسجود والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها وتذوق من تلك الحضرات ماقدر لك .

ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين وقرّة عين الواصلين حتى أنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا : « السلام عليكم » يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين وكأنهم يقولون لهم : إننا كنا مع الله تعالى لامعكم ، ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع أحد حتى الملائكة المقربين .

والخلاصة : أن المصلي قد خضع لله بقلبه ، وذكر الله بلسانه وعظمه غاية التعظيم بجسده ، فقام بين يديه يناجيه ويضرع له ، ثم تدرج في التعظيم وترقى في الإجلال فأتى بالركوع ثم بالسجود الذي هو أكبر مظهر للعبودية .

المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة

«لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا»

المحبة : ينبئك عنها قلبك أكثر مما تنبئك عنها الحدود والرسوم ،
والشئ إنما يحد لخفائه واستتاره كى يظهر ويتبين ، فإذا كان الشئ
ظاهراً جلياً يعرفه جميع العقلاء لم يحتج إلى حد .

المحبة : سر الله المخزون الذى تشفى به جميع الأدواء القومية ،
والترىاق الذى تذهب به سموم الأمراض الاجتماعية .

المحبة : هى أنجع وسيلة لاقتلاع الشرور من النفوس ، وإبادة
أنواع التفنن فيها من العالم البشرى . وإذا تأكدت بين قوم أحلتهم
محل الصفاء ، وسارت بهم أسرع ما يكون فى طريق الارتقاء ،
ونقلتهم إلى دائرة الأسرة الواحدة ، فكانوا كالجسم الواحد إذا تألم
منه عضو تألم له سائر الجسد .

لو تمت المحبة بين الناس لما رأيت دماً يسفك ، ولا عرضاً يهتك ،
ولا مالاً يسرق ، ولما رأيت المحاكم الأهلية كالأسواق مزدحمة بكل
أنواع القضايا ، ولا وجدت المحاكم الشرعية مكتظة بدعاوى الأقارب
لميراثهم والزوجات لنفقاتهن .

لو تمت المحبة بين الناس لبات كل إنسان بين أسرته على أتم ما يكون من الصفاء وأكبر ما يتصور من النعيم ، ولكان عيش الناس في الدنيا أشبه شيء بعيش أهل الجنة في الجنة .

وأظنك كثيرا ما تحركت منك الغبطة عندما ترى ما بين الأسرة الفقيرة من المحبة التي جعلتهم يتقبلون في الهناء^(١) ولا يحسون بالشقاء .

لو تمت المحبة بين الناس لتمت بينهم الرحمة ، فانتفع الضعيف بالقوى والفقير بالغنى والصغير بالكبير والصعلوك بالأمر ، وامتلات الأرض خيرا وبركة .

وإجمال القول في المحبة بعد ذلك كله أنه لولا الحب لم يتم نعيم لمنعم . وكيف ينعم الإنسان بغير ما يحب . ولهذا ترى المغنين لا يكادون يغنون إلا بما يكون فيه ذكر الحب والمحبين ، ولا يجد الإنسان سارة لنفسه ولا نعيماً بقلبه إلا بتلك الذكريات اللذيذة والأوقات السالفة التي قضاهما فيما يحب ومع من يحب .

(١) اشتهر في هذه الأيام التي كثر فيها الاجتهاد وشغف الناس فيها بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناء لاهناء . وهذا من قصور الاطلاع . ففي كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفيد صحة ذلك ووروده . وكذلك في كتاب الفلك المشحون ليونس المكي المتوفى في القرن الثامن صفحة ١٦٣ ما يفيد ذلك أيضا . ومثل هذا قول الأديب الكبير ابن نباتة :

هنا محاذك العزاء المقدما
فما عبس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك في حروف الزيادة ذلك البيت المشهور :

هنا وتسليم تلا يوم أنسه
نهاية مسئول أمان وتسجيل

وهو الذي قال أني قرأت صحاح الجوهري كله فلم أستفد منه غير كلمتين فقط . فأنظر إلى ذلك التشدق الذي يكثر منه أولئك المتفهمون .

وبالجمللة فراحة الإنسان وسرور نفسه وبهجة روحه لاتكون إلا
لذكر الحب وشرح الكامن في الفؤاد المثيراً لعواطف مما له سلطان فوق
العقل وسر يدق عن التعبير .

لهذا كله لم يرد في الكتاب والسنة من الحث على شيء مثل ماورد
في المحبة ، علماً منه - صلى الله عليه وسلم - بأنها أساس الخير وجماع
الفضائل حتى جعلها شرطاً في الإيمان ، فقال : « والذى نفسى بيده
لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا » . رواه مسلم .

فانظر كيف جعلها شرطاً في الإيمان ولم يكتف بذلك حتى أقسم عليه
- صلى الله عليه وسلم - .

وقد ورد في الحث على المحبة والتحذير من التشاحن والتفرق
ماليكاد يحصى . « وستسمع شيئاً من ذلك » ، وكأنه مرمى الدين
الذى لايريد غيره .

وقد جاء في الصحيح : « لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولاتدابروا
وكونوا عباد الله إخواناً » .

وقال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(١) . وقال : (وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)^(٢) . وقال مخاطباً

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣

نبيه-صلى الله عليه وسلم- مذكراً إياه تلك المنة الكبرى : (فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (١)

وقد أثنى على قوم بقوله عز وجل : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (٢) وقال : (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) (٣) وقد أمرنا بلبين الكلام وإفشاء السلام ونهينا عن الخصام فوق ثلاثة أيام .

وقد جاء كل ذلك طلباً للمحبة ومحافظة على مبادها ، رجاء أن تنتهى بالناس إلى غايتها فيزول عنهم الشقاء وتم لهم السعادة .

فإن استطعت أن تبيت وليس في قلبك بغض لأحد فافعل . أزل ما في قلبك من الحقد للناس كافة : وتودد إليهم ايمو عيشك وتعارب حياتك .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٣

(٢) سورة الخثر ، الآية ١٠

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٤

تحبب إلى جيرانك وأقاربك بقدر ما يمكنك ، وابدل الوسع في ذلك . « وأصل الحب التحابب » . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ » . أخرجه البخارى ومسلم . « وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ » . رواه البخارى ومسلم . وقال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنِ إِلَى جَارِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ » . رواه مسلم .

صالح أعدائك ، وأرح نفسك من عناء الفكر وقلبك من تدبير السوء واربأ بعمرك العزيز أن تصرفه في طرق العناد وأسباب الفساد .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَوهَا ؛ إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » رواه البخارى ومسلم .

أسباب المحبة

المحبة : مركوزة في النفوس ، ولا نعيم للقلوب إلا بها ، حتى أن من ليس له محبوب مخصوص تراه عند سماع النغمات أو هبوب النسيم يشن أنيناً ويحن حنيناً ، وربما بكى تلهفياً أو سروراً إذا كان رفيع الاستعداد رفیق الفؤاد .

وهذا النعيم الذى يجده ، وتلك اللذة التى يشعر بها ، ليس منشؤها التذاذ بالأصوات واستحساناً للنغمات ، بل من أجل أن ذلك حرك من نفسه ساكناً وهيج كامناً ، وإن كان لا يدرى إلى أى شىء يحن أولمذاذ يئن ، ولكنه مقتضى الغريزة الإنسانية والحكمة الربانية .

وليس بلازم أن نأتى على كل مافى الأمر من سر . فيمكنك أن تهيج تلك الغريزة من نفسك ، فإن أصل الحب التحابب . ولهذا ندبنا الدين الحنيف لكل ما عسى أن يكون وسيلة لذلك من زيارة بعضنا بعضاً ، ومودة بعضنا بعضاً ، وإهداء بعضنا بعضاً ، ومصافحة بعضنا بعضاً ، إلى غير ذلك مما جاء فى السنة .

وقد قالوا : إن العشق فى أول أمره يكون اختيارياً ثم يصير اضطرارياً ، فهو بمنزلة الشراب تستطيع أن تشرب وألا تشرب ، ولكن لا تستطيع بعد ألا تسكر . ولعلك عاينت من الأسباب التى استعملتها لتحبيب بعض القلوب إليك شيئاً كثيراً .

وأما الأسباب الطبيعية للمحبة ، فأقواها التناسب بين الأرواح ، فإنها جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . كما فى الحديث : وعلى قدر ذلك التناسب يكون الحب ، وما حشر المرء مع من أحب إلا لكونهما من واد واحد . ولهذا السبب قد تتعجب من محبة بعض الناس لبعض على غير معنى فيه ، غافلاً عن هذا التشاكل الروحانى الذى هو أقوى الأسباب وإن كان أخفها ، وهو السبب الذى لا يلحقه زوال ولا يعتريه اضمحلال ، وصاحبه هو المحبوب لذاته ولا علة ولا لغرض .

وأما من أحبك لإحسانك إليه ، والإحسان من أسباب المحبة - فقد تتغير محبته إذا انقطع إحسانك عنه . وربما عاداك وأضرك إذا وجد في ذلك فائدة أكبر وثمره أعظم متى كان خبيث الطبع لئيم النفس ، لأنه ما أحبك إلا لغرضه ، فهو مع الغرض حيث كان .

ومحبة الأزواج والأصحاب تارة تكون من قبيل المحبة التي للأغراض وقضاء المآرب وتبادل المنافع وكثرة الفوائد ، وهي المحبة التي لاتدوم ، وتارة تكون للمنسبة بين النفوس : فلا تزداد على مر الأيام وكثرة الحوادث إلا قوة ومثانة . وهذا مما ينبغى الالتفات إليه جداً فيما بين الزوجين حتى تكون بينهما أنفة طبيعية ومحبة ذاتية ، فلا يتطرق إليها انصداع ولا يلاحظها انقطاع ، وإلا تعاملوا معاملة التجار اللئام ، وذهبوا إلى المحاكم بعد قليل من الأيام .

ومما يلحق بسبب التشاكل الذي شرحناه ما تراه من ميل الصانع إلى الصانع ، والزراع إلى الزارع ، حتى أن السارق يرتاح للسارق ، والفاسق يرتاح إلى الفاسق ، لما بينهما من الصفات المشتركة . « شبيه الشيء منجذب إليه » ، بل ذلك في غير أفراد الانسان .

وقد قالوا : « إن الطيور على أشكالها تقع » وإن كان كثيراً مايفرق بينهم تنازع البقاء ، فيوقعهم في الشحناء والبغضاء . وأكثر الأسباب الواقعة بين الناس مادعا إليه الغرض واقتضته الحاجة ، حتى قال أبر حيان . النحرى :

لا تترجون دوام الخير من أحد فالشر طبع وفيه الخير بالعرض
ولا تظن امرأً أسدى إليك يدًا من أجل ذاتك بل أسداه للغرض

ولهذا لاتكاد ترى محبة صادقة ، غاية الأمر أن صاحب النفس الشريفة لا ينسى ودا ، ولا ينتقض عهداً ، ولكنه كثيراً ما يفعل ذلك بمقتضى إحساسه الشريف ، ومروءته الفاضلة ، لا بمقتضى الألفة والمحبة .

وأهل تلك المحبة التي غايتها المنفعة الشخصية أكثر المحبين توددا إليك وترددا عليك ومسارعة إلى امتثال أوامرك ، ولو كلفتهم نقل الصخور أو نطل البحور ، مادامت إليك حاجاتهم ولديك غاياتهم ، حتى يخيل لك في تلك الأيام أنك ظفرت بأعظم الناس نفعا وأرقهم طبعاً ، فإذا ظفروا بما أرادوه منك ولم يتوهموا لديك شيئاً يعود عليهم ، طاروا من حولك طيران الذباب إلى من يبتغون عنده حاجتهم ، حتى إذا نالوا منه بغيتهم فعلوا فعلتهم .

فأما فعلى من يريد اتخاذ الأصدقاء أن يبحث عن جوهر النفوس وما لها من الصفات الذاتية والامتدادات الطبيعية ، ولا يغتر بتلك الألوان البراقة التي يظهر بها الإنسان على حسب الحاجة ، فإنه في ذلك أبرع من الحرباء وأروع من الثعلب « والإنسان مجمع العجائب والغرائب ومظهر المتضادات والمتناقضات » .

هذا ومن أسباب المحبة الجمال الظاهري أو الباطني ، وبهذا السبب قد أحببنا الأزهار والأطيوار والصور الجميلة والنقوش البديعة .

فإن الجمال لا يختص بنوع الإنسان أو جنس اله يوان ، بل جمال كل شيء في أن يصل إلى كماله الذي يراد منه ، وغايته الممكنة له ،

والجمال محبوب بالطبع لذاته ، ولهذا السبب بعينه قد أحببنا الكرماء
والفضلاء والعلماء .

وإياك أن تكون ممن يقصر الحب على الجمال الحسى والحسن
الظاهرى ، فتنكر محبة الله تعالى حياً وجدانياً ذوقياً ، فتكون من العامة
لامن الخاصة الذين فهموا قوله تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)^(١) .
حق الفهم فلم يحتاجوا فيه إلى تجوز ولا تأويل .

على أن ذلك غريزة فى الإنسان وإن كانت تحتاج إلى التهييج فى
بعض الناس الذين لم تفسد إنسانيتهم بالكلية .

وإن الذى تجده من محبة العامة لعشرة وغيره من الشجعان .
وتذانى بعض الناس فى محبة بعض العلماء والعظماء ، وارتياح النفس
والتذاذها بسماع أخبار سيدنا عمر بن الخطاب فى عدله ، أو سيدنا
على بن أبى طالب فى شجاعته وعلمه وسرعة يدهته وقوة حجته ، أو أخبار
السموئل فى وفائه ، أو حاتم الطائى فى سخائه ، ليس إلا بمقتضى تلك
الغريزة التى تفضل الجمال المعنوى على الجمال الحسى .

هذا وقد رأينا أن نسمعك بعض ماجاء فى السنة مما يناسب هذا
الموضوع فنقول :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ لَمْ يَرْحَمْ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ
اللَّهُ » . رواه البخارى ومسلم . وعنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « لَيْسَ

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٥

مِنَّا مَنْ لَمْ يُوقِّرْ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ . رواه أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه . وقال صلى الله عليه وسلم : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَنْقِصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ ، وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَذَى الذُّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » . رواه الطبرانى .

« لَا تُنَزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » . رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ لَتَبَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيُسْرَهُ بِذَلِكَ ، سَرَّهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاء أعرابي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » . رواه البخارى ومسلم .

« دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمَهَا وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » رواه البخارى .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « دَنَا رَجُلٌ إِلَى بَيْرٍ فَنَزَلَ فَشَرِبَ مِنْهَا وَعَلَى الْبَيْرِ كَلْبٌ يَلْهَثُ ، فَرَحِمَهُ : فَنَزَعَ أَحَدَ خُفَيْهِ فَسَقَاهُ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

« مَنْ نَنَسَ عَن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً
وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » رواه مسلم .

« لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . رواه

مسلم .

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : صعد -رسول الله صلى الله عليه
وسلم- المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : « يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ
وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ : لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ،
فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ
عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ » .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : « مَا أَعْظَمَكَ وَمَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكَ .
وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ » . رواه الترمذى وابن حبان فى
صحيحه :

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- : « إِنَّ اللَّهَ لَيَعْمُرُ بِالْقَوْمِ الدِّيَارَ وَيُشْجِرُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ ، وَمَا نَظَرَ
إِلَيْهِمْ مِنْهُمُ مَنْدُ خَلْقَهُمْ يُغْضَأُ لَهُمْ . قِيلَ وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ :
بِصِلَتِهِمْ أَرْحَامَهُمْ » رواه الحاكم والطبرانى بإسناد حسن .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ : « أَوْصَانِي خَلِيلِي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - بِخَصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ : أَوْصَانِي أَلَّا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَأَنْ أَنْظُرَ

إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي ، وَأَوْصَانِي يَحُبُّ الْمَسَاكِينَ وَالِدُنُوٌّ مِنْهُمْ ، وَأَوْصَانِي أَنْ
أَصِلَ رَجِيئِي وَإِنْ أَذْبَرْتِ ، وَأَوْصَانِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأَيْمٍ ،
وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَكْثِرَ مِنْ لِحْوَلٍ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » رواه الطبراني وابن حبان
في صحيحه واللفظ له .

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« لَا تَكُونُوا إِمْعَةً : تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا وَإِنْ أَسَاءَ النَّاسُ
أَسَاءًا ، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا
أَلَّا تَظْلِمُوا » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أبي بكر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ
مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ : مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » . رواه ابن ماجه
والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وروى عن ابن عمر - رضي الله عنهما - ، رفعه ، قال : « الطَّائِعُ مُعَلِّقٌ
بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ ، فَإِذَا اشْتَكَّتِ الرَّحِمُ ، وَعُمِلَ بِالْمَعَاصِي ، وَاجْتُرِيَ عَلَى
اللَّهِ ، بَعَثَ اللَّهُ الطَّائِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقَلْبِ فَلَا يَعْقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا » .
رواه البيهقي والبزار واللفظ له .

وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - يقول : قال الله - تبارك وتعالى - : « وَجَبَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ »

فِي وَلِلْمُتَجَالِسِينَ فِي وَلِلْمُتَزَاوِرِينَ فِي وَلِلْمُتَبَاذِلِينَ فِي » . رواه مالك
بإسناد صحيح .

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : « لَا يَزَالُ اللَّهُ فِي حَاجَةِ الْعَبْدِ مَا دَامَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ » . رواه
الطبراني ورواه ثقات .

وعن أنس رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« لَا تَقَاطِعُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَلَا تَبَاغُضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ
إِحْرَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » .
رواه مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي .

وعن أبي موسى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « عَلَى كُلِّ
مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ . قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ . قَالَ : يَغْتَوِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ
نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ . قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ
الْمَلْهُوفَ . قَالَ : قِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . قَالَ : يَأْمُرُ
بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ . قَالَ : يُحْمَلُكَ عَنِ
الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ » .

رواه البخاري ومسلم .

! وسنعود للموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله .

المحبة وأنواعها^(١)

ذكرنا شيئاً عن المحبة وآثارها وفوائدها وما جاء فيها. واليوم نذكر لك أنواع المحبة ونتغلغل بك في حديثها « وأى حديث ألد من حديث المحبة ؟ » ولسنا نقول ما يقول ذلك القائل الذي يؤلمه أنه لا يجد من يطارحه حديث المحبة :

ما بالديار أخو شوق نطارحه حديث نجد ولا خل نصافيه

ولنعد إلى الموضوع فنقول :

من أنواع المحبة محبة الوالد لولده . وهي تكاد تكون لا لغرض ولا علة ، لأنها من قبيل محبة الشخص لنفسه ، فإن في بقاء ابنه نوع بقاء له . وقد ينضم إلى ذلك توهم المنفعة من الولد ، فهي طبيعية لا يشذ عنها إلا من خرج عن مقتضيات الطبيعة .

ومنها محبة الولد لوالده . وهي تكاد تكون من قبيل محبة العلل والأغراض . حتى أن من الأولاد من يفرح عند موت أبيه أو لا يتألم لما ترك وراءه من ثروة طائلة . ولعل ابن الفقير يحزن على أبيه أكثر من ابن الغنى . وأما ما تجده من احترام الأبناء للآباء والقيام بواجبهم فمرجعه في الغالب إلى مزيد أدب ، أو حسن تربية ، أو دفع معرفة وانتقاد ، أو توهم منفعة وحصول غاية . لا إلى مودة

(١) مجلة الأزهر - الجزء الثاني - المجلد السادس - صفر سنة ١٣٥٤ هـ

ومحبة . ولهذا ترى القرآن الشريف قد اعتنى بوصية الأبناء على الآباء شدة الاعتناء ، وترك الآباء ينساقون نحو الأبناء بسائق المحبة الطبيعية .

فيجب على الأولاد أن يقووا في نفوسهم محبة آبائهم . وأن يتفكروا فيما كان لهم من إحسان لايسمح به غيرهم ، فيقابلوا المحبة بالمحبة والإحسان بالإحسان ، وأن يكرروا على مسامعهم ماجاءت به الآيات والأحاديث ، وما رسمته الأخلاق والآداب في ذلك .

ويلزمنا أن نكتفي منهم بهذا الحب التكلفي ، حيث لم نظفر منهم بالحب الطبيعي ، وهو كافل للراحة وكاف في الصفاء .

ولندكر هذ ما ذكره كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى :
(واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا) ^(١) فنقول :

روى ابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : «رِضَا اللَّهِ تَعَالَى فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ وَسُخْطُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُخْطِ الْوَالِدَيْنِ» . وقد صح أن رجلا جاء يستأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجهاد معه ، فقال : «أَحَى وَالِدَاكَ؟ قَالَ : نَعَمْ» ، قَالَ : ففِيهِمَا فَجَاهِدْ . وما أحسن ما قال بعضهم :

غذوتك مولوداً ومنتك يافعا
تعل بما أجنى عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى فعيى تهمل
تخاف الردى نفسى عايك وإنما لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيها أوامل
جعلت جزائى غلظة وفضاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما العار المجاور يفعل
تراه محبا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب موكل

وكان ذلك فيما يروى بحضرة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال :
للولد « أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ » . كذا رواه البيهقى فى الدلائل ، والطبرانى
فى الأوسط والصغير فى قصة طويلة . وروى مسلم عن ابن عمر أنه
سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَالِدِ
أَهْلَ وَدُّ أَبِيهِ » فى قصة جرت له مع أعرابى كان أبوه يود عمر ابن
الخطاب .

محبة الأصدقاء :

ومنها محبة الأصدقاء . ولا بد للإنسان من صديق يأنس به ،
ويلقى عليه بعض همومه ، وقد خلق الإنسان ضعيفا ، حتى أنه لا يستطيع
أن يكتفم ما فى صدره من فرح أو ترح ، وهو على نفسه أشق من الأثقال
الحسية ، فإن هذه على جسمه وتلك على قلبه :

ولا بد من شكوى إلى ذى صداقة يسليك أو ينسبك أو يتوجع

وقد قيل لبعض الحكماء : أخوك أحب اليك أم صديقك ؟ فقال :

إنى لا أحب أخى إلا لكونه صديقى .

وكثيراً ما تسمعهم يقولون : إن الصديق محال الوجود . حتى إذا
أردت أن تبالغ في أمر قات : هو من رابع المستحيلات ، وأما الثلاثة :
فهى مقررة معروفة لانزاع فيها :

أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي
ويقول غيره :

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الأنام
وأحسبه محالاً نتموه على وجه المجاز من الكلام
وهاك شيئاً مما قالوه في هذا الموضوع ، نورده لك تفكهاً أو
تبصرة :

تغير إخوان هذا الزمان فكل خليل عراه الخلال
وكانوا قديماً على صحة وقد داخلتهم صروف العلال
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البديل

* * *

خذ من دنا وتجااف من بعدا لا تكرهن على الهوى أحدا
قد أكثر حواء ما ولدت فإذا جفا ولد فخذ ولدا

* * *

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم وطول اختبارى صاحباً بعد صاحب
فلم تُرنى الأيام خلا تسرنى مبادئه إلا ساعنى فى العواقب

* * *

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

* * *

إذا ما ضاع منك اليوم خل فلا تحزن عليه الدهر وافرح
فإن الخل عبٌّ أي عبٌّ فمهما استطعت أن تلقيه فاطرح

* * *

إذا قيل في الدنيا خليل فقل نعم خليل اسم شخصٍ لا خليل وفاء
وإن قيل في الدنيا جواد فقل نعم جواد ركوب لاجواد عطاء

إلى غير ذلك وهو كثير . وسر ذلك أن الانسان يطالب صديقا
لا يتغير بحال ولا يتصف بعيب ، يقدمك على نفسه ، ويتحملك في
كل ماتأتي به .

كما قال قائلهم :

إن أخا الإنسان من كان معه ومن يضر نفسه لينفعه
ومن إذا ريب الزمان صدعه شئت فيه شمله ليجمعه

ومن الغريب أنه يوجب ذلك على صديقه له ولا يوجهه على نفسه
لصديقه .

ولكن إذا كانت الصداقة مبنية على تشاكل في الأرواح ، وصادفت
مع هذا استعداداً حسناً ، كانت الأمنية المطلوبة والبعية المرغوبة . وإذا
تكامل إيمان المرء وجدت فيه كل ما تحب من صفات الخير وسجايا
الفضل ، حتى يقدمك على نفسه كما تحب ، فإنه إذا وصل إلى درجة

الكمال كان من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .
ولا شيء يعلى الهمة ويعظم المروءة ويورث الرحمة ويغرس في القلوب
المحبة مثل الإيمان الكامل . فإذا اشتاقت نفسك إلى ذلك الصديق فاطلبه
بين المؤمنين ، فعسى أن تجده فيهم ، فهم مظان وجوده .

على أنه يلزمك أن تكتفى من صديقك بفضيلة من الفضائل ،
وتغتفر له في جانب ذلك ما يكون منه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات :
ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب
ولا تطلب أن يكون جامعاً لكل فضل ، مبراً من كل نقص « وإذا
كان من هذه صفاته ممن يدخل في عالم الوجود فاجتهد أن تكون أنت
ذلك الإنسان » .

فبالخلاصة أنه يلزمك أن تعرف الطباع البشرية ومقتضياتها ،
ولا تطلب ما ليس في طبع الإنسان ، وأن تكتفى ممن يكون صديقك
بجهة من جهات الخير ، ثم تقبله بعد ذلك على ما فيه من عيب ،
وتتحرز منه في الجهة الأخرى « جهة الشر الذى فيه » . فإذا ظفرت
بمن يغلب خيره عن شره فقد ظفرت بالخير كله .

محبة الوطن :

حب الوطن يكاد يكون ألصق شيء بالنفوس ، حتى أنه ليلتحق
بغرائزها المعبولة عليها . وقد قرن الله الخروج من الأوطان بالقتل فقال :
(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ) ^(١) . فلولا أن حب الوطن متأصل في النفوس ما جعل الخروج من الأوطان قرين القتل . وقال في آية أخرى حكاية عن بنى إسرائيل : (وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا) ^(٢) . ولا شك أن كل إنسان يجد من نفسه حنيناً إلى وطنه الذي نشأ فيه ، وشوقاً إلى تلك المعاهد التي ربي فيها ، وميلاً طبيعياً إلى ذلك اصفاء الذي أخذ من قلبه محلاً لا تعفيه الدهور :

إذا ذكروا لأودسانهم ذكرتهمو عهداً مضت فيها فحنوا لذلك
ومحبة بلادك التي غمرتك بخيراتها ، ومحبة أمتك التي تسعد
بسعادتها وتشقى بشقائها ليست في الحقيقة إلا محبة لنفسك .

وإن الأمة لا تكون أمة تتمتع بحقوق الأمم الحية . وتأمين على
نفسها من الانحلال والفناء في الأمم الأخرى ، إلا إذا رسخت فيها
محبة الوطن :

وقد ندبك الدين الحنيف إلى محبة الناس كلهم والرحمة بهم ،
ولكن على درجات مخصوصة وحدود محدودة . والإنسان الكامل هو
من لا تختلط عليه الأمور ولا تشتبه لديه الخيرات بالشرور ، فيعرف
مراتب المخلوقات ونسبتها إليه ، ومقدار قربها وبعدها من خالقها ،
فيعطى كل مرتبة حقها ، وكل درجة قسطها ، ملاحظاً معاملة الله لهم
ورحمته بهم ، وأنهم مخلوقاته ، فلا يجهل نسبتهم ولا يظلم رتبتهم .
ومن أحب الصانع واعتقد كماله ، أحب الصنعة لا محالة .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٤٦

(١) سورة النساء ، الآية ٦٦

وللأشياء جهات وحيثيات يجب أن تراعى كلها في نظر الحكيم .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ » فمن شاركك
[في الإنسانية ، كان له عليك حق واحد وهو حق الإنسانية ، ومن شاركك
في الإيمان أيضاً فله عليك حق الإنسانية وحق الإيمان . فإن كان مع
هذا أحد من ينتمى إليك بالقرابة ، كان له عليك حق القرابة أيضاً فإن
انضم إلى ذلك كونه جاراً لك انضم إلى تلك الحقوق حق رابع . وهكذا .

وأهل تلك الدرجات متفاوتون أيضاً ، فمن كان أقرب إليك
كان أعظم حتماً عليك ، ومن كان ألتصق بك من جيرانك كان أوجب
مراعاة من غيره ، ومن صنع معك خيراً من أولئك الأقارب أو الجيران
كان حقه عليك أكد من سواه : « من صنع معكم معروفًا فكفائوه »
(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) . فإذا أهل وطنك لهم عليك حقوق
كثيرة ، وواجبات عديدة ، على حسب ما شرحنا . ولعلك من أوسع
الناس علماً بهذا الموضوع « موضوع محبة الوطن » فلنقتصر منه على هذا .

ولكن لا بأس بعد ما تقدم أن نسوق إليك فائدة أخرى : وهي أن
الإنسان إذا لم يكن بين من يميل إليهم من أشكاله فهو غريب وإن
كان في وطنه ، فإن معاشرته من ليس بينك وبينه مناسبة أثقل على
الأرواح من كل شيء . وقد قالوا : إن حمى الروح مجالسة الثقيل
الذي يباينك وتباينه ، وأنشدوا في ذلك :

وما غربة الإنسان في البعد والنوى ولكنّها في قرب من ليس من شكلي
وإني غريب بين بست^(١) وأهلها وإن كان فيها موطنى وبها أهلي

(١) بست بالفتح : واد بأرض أربل ، وبالضم بند بسجستان . كذا في القاموس .

محبة الله عز وجل :

قد سبق لك أسباب المحبة ، وأن كل سبب منها يوجب المحبة على انفراده ، وإن كان بعضها أقوى من بعض . فإذا أمكن أن تجتمع هذه الأسباب كلها في شيء واحد ، وجب أن تكون محبته أتم أنواع المحبة وآكدها وأشدّها ، ولا يتصور ذلك على الحقيقة إلا في الله تعالى ، كما ستعلم : (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) . فإذا نظرت بعين التحقيق وصادفك نور التوفيق ، وجدت كل سبب من الأسباب المتقدمة يقضى عليك بحب الله تعالى . بل إذا دقت النظر وأمعنت الفكر ، ورقت كثافة حجابك وعلوت عن أرض طبيعتك ، وترقيت عن درجة المحسوسات التي يشاركك فيها جميع الحيوانات ، إلى أفق قلبك ، وأشرقت عليك شمس بصيرتك ، وجدت المستحق للمحبة على الحقيقة إنما هو الله تعالى دون غيره .

فإذا كان الإحسان يقتضى محبة المحسن ، فلا إحسان كإحسانه تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)^(٢) . فإحسانه عليك في إفاضة وجودك ، وإعطائك ضرورياتك وحاجياتك وكماياتك : من عقلك ، وسمعك ، وبصرك ، وذوقك ، وجميع حواسك وصفاتك الظاهرة والباطنة وأنواع النعم الخارجة عن ذاتك ، مما تندفع به ضرورتك ، أو تزول حاجتك ، أو تتم به لذتك هذه الإحسانات الفائضة والمنن المتواترة ، لا تكاد تحصى أصنافها فضلاً عن جزئياتها .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٥

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤

ولو نظرت إلى نعمه المودعة في الهواء أو الماء ، أو نور الشمس والقمر وخلق الليل والنهار ، لانقطعت أثناء سيرك ولم تفز إلا بتقدير يسير منها : بل لا إحسان في الحقيقة إلا له تعالى ، فإن من أنعم عليك من الخلق بشيءٍ فإنما يقصد نفع نفسه بارتفاع الصيت وجميل الثناء أو حسن الجزاء ، فهو في الحقيقة بائع أخرج من يده شيئاً ليعتاض عنه ، ما هو أعر منه عنده عاجلاً أو آجلاً .

ولا يتصور الإحسان الحقيقي الذي لا يقصد به عوض إلا من الله تعالى . على أنه هو الذي سخر لك قلب ذلك المحسن ، وأودع فيه محبتك ، أو الشفقة عليك ، أو رجاء الخير من الله ، أو من الناس بمساعدته إياك . ولو شاء لعكس كل ذلك وصرف قلبه عنك ، وألقى في روعه ما يذمرك منك « والقلوب بين أصبغين من أصابغ الرحمن » ،

فإن كنت تحب أحداً لأجل إحسانه فاعرف المحسن الحقيقي ، ولا يكن نظرك كنظر الحيوان يحب سائسه الذي يقدم له العلف ، ولا يحب مالكة الذي أمر السائس وأعطاه على ذلك أجراً .

وإن كنت تحب وجود نفسك وبقاءها وكمالها ، فأحب من أعطاك ذلك كله من غير أن تسأله . بل كان في تدبيرك من قبل وجودك ، وقد أعطاك من كمال الخلقة الظاهرية والباطنية ما لا يمكنك أن تهتدي إليه حتى تطلبه منه .

وإن كنت تحب أحداً من أجل صفاته الجليلة ونعوته الجميلة كما تحب الملوك العاملين أو الفضلاء الكاملين وإن لم ترج خيرهم والانتفاع

هم ، فأحب خالق الكمال والجمال الذى تنزهه عن كل نقص . واتصف بكل صفات الكمال ، التى لا يصل إليها العلم ولا يحيط بها العقل ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِيكَ » .

وإن كل من تحبه لهذا السبب فإنما تحبه لصفات معدودة وكمالات محدودة . فلتكن واسع النظر ، نافذ البصيرة ، على الهمة ، عظيم العلم ، كبير الفهم ، حتى تحب من لا تعد صفاته ، ولا تنتهى كمالاته . ولا تكن كالصبيان لا يمكنهم أن يحبوا من طبقات الناس إلا أسفلها وأدناها ، دون أشرفها وأعلاها . وأنت مستعد لإدراك الجمال المعنوى والكمال الإلهى ، وهى خاصتك التى امتزت بها عن سائر الحيوان . وعلى قدر ذلك تلتحق بالملائكة ويتحقق فيك روح الإنسانية .

وكل من بطلت فيه خاصة زرعه فليس فى الحقيقة من ذلك النوع ، لأن النوع لا يوجد بدون خاصته على الحقيقة ، فهيج من نفسك الشوق إلى تلك المعارف التى هى ألد من كل شئ ، ولا تمت تلك الحاسة الباطنية التى هى أعلى حواسك وأشرف مزاياك .

فلذة العلم عند ذوبها فوق اللذائذ كلها ، لأنها لا توجد إلا فى سماء الإنسانية دون أرض الحيوانية . واللذائذ مرتبة على حسب درجات العوالم ، ولذة العلم بعد ذلك على قدر ما تدرك من شرف المعلوم . فليس علمك بأسرار الملك وشئونه فى مملكته كعلمك بأحوال رجل من السوق . فإذا يكون العلم بأشرف المعلومات ألد العلوم .

وليس هناك أجل من الله تعالى الذى لا يثنى عليه حتى ثنائه غيره ،
ولا يحيط بكماله سواه .

فظهر قلبك من أدناس الرذائل كلها ، وهيته لغرس تلك المحبة التى
هى أتم اللذات وأكبر السعادات ، وهى مطلب قلبك لو كان باقياً على
صحته ، ومأرب روحك لو لم تمتشعب بها الطرق وتظلمها الأهواء (قل
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١) . وإلا فأنت
المخاطب بقول القائل :

لديك جمال الجامدات فهم بها إذا كنت ميالاً إلى الصور الخرس

هذا ويجمل بك ما هنا أن تعرف أن المحبة أنجع وسيلة إلى تهذيب
الأخلاق وتكميل النفوس ، بل إن شئت فقل إنها تقاب الطباع وتغير
الحقائق : فتجعل الشحيح من أسخى الأسخياء ، والجبان من أشجع
الشجعان . فإذا اتفق لك أنك وصلت إلى حد الكمال فى محبة الله تعالى
ومحبة رسوله ومحبة الكاملين من أمته ، سارعت إليك الكمالات ،
وترادفت عليك الخيرات ، وانطبعت فى مرءة قلبك صفاتهم ، فتبدلت
منك الرذائل بالفضائل . وعلى قدر المحبة يكون انطباع صفات المحبوب
فى نفس المحب .

وقد عرفوا المحبة بأنها استهلاك الصفات فى الصفات ، وفناء
الإرادات فى الإرادات :

فلم تهزنى ما لم تكن فى فانيًا ولم تفن ما لم تجتل فىك صورتي

وقد عرفت أيضاً بأنها نار تحرق من قلب المحب الميل إلى ما سوى
المحبيب :

وحد القلب حبه فالتفتاني لك شرك ولا أرى إلا شراكا

وناهيك بمن وصل إلى تلك الدرجة من محبة الله تعالى ومحبة رسوله :
كيف تترادف عليه البركات ، وتغمره الفيوضات ، فيستحق من
الكرامة الا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

واذكر هنا قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .
واعرف شرف تلك المعية وما لذويها من الدرجة العلية . فالحب أكبر
وسيلة من وسائل الخير والكمال . كما أنه أعظم ذرائع انفساد أن
تعلق بغير ذلك . فهو ترياق نافع ، وسم نافع ، على حسب ما يتعلق به
من المحبوبات . ويكفيك هذا التلميح . والله يتولى هداك .

حكم الصَّرف من أموال الزكاة^(١) على المتسفيات ومخولها

حضرات الأفاضل كبار هيئة العلماء بالأزهر الشريف حرسهم الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإننا نرفع إليكم بحقائق
واقعة نرجوكم الإفتاء فيها : لازتم للمسترشدين أهلاً ، وهى :

١- إن فى عين مستشفى كبيراً هو المستشفى الأهلى تعالج فيه جميع
المرضى على اختلاف لغاتهم وأديانهم والمسلمون فيه هم الأكثرية الساحقة .
والواقع أن مرضى اليهود والمجوس والهندوس لا يعتمدون فى أقواتهم
وأسباب راحتهم على المستشفى ، بل إن جمعياتهم الخاصة تواسيهم
وتوفر لهم القوت اللازم والملابس وغير ذلك من أسباب الراحة ،
وتشتري لهم حتى الأدوية التى لا توجد فى المستشفى ، مع أن المسلمين
لا يواسيهم أحد لا بالقوت ولا الثياب ولا شئ غير ، بل لا مفر
لهم من استعماله . يقدمه المستشفى وهو قوت لا يسمن ولا يغنى . وهكذا
يذهب أكثر مرضى المسلمين ضحية الإهمال .

ومع هذا فالمستشفى يقوم بتكفين الموتى وغسلهم ودفنهم بصورة
غير مرضية ، واكفن مثلاً الذى يعطيه المستشفى يكون دائماً غير كاف
لستر الميت . وهكذا فضلاً عن الغسل والدفن .

٢- النساء من أرباب العائلات الفقيرة يفضلن الموت على المعالجة
أو التطيب فى المستشفى الأهلى بحجة أن الرواقات المعدة فى المستشفى

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول - المجلد السادس - محرم ١٣٥٤

لا تضمن لهم الراحة وحفظ التقاليد والحجاب اللازم ، حيث يحشم سوبر كل مريض بجانب الآخر . ولهذا ولما منعرضه على فضيلتكم يمكن تطبيب النساء وأرباب العائلات على أيدي الأطباء والمرضات الماهرات بدلاً عن تحمل الآلام ، والبقاء من دون علاج في بيوتهن ، وآله أودى بأرواح كثيرة وجعل النساء عرضة لدجل الدجالين والمشعوذين .

٣ - لا يوجد في عدن مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين ، ولهذا انتهزت الفرصة جمعية التبشير الدينامية وفتحت لبنات المسلمين مدرسة يتعلمن فيها القراءة والتطريز والخياطة ، وهناك يتشربن المبادئ المسيحية ويخرجن عن تعاليم الإسلام . ولهذا ترانا بحاجة ماسة إلى تأسيس مدرسة للبنات في عدن نجلب لهن المعلمات الصالحات المسلمات من الخارج ، وننقذ أمهات المستقبل من حالة إذا استمرت تقضى على العقائد الإسلامية قضاءً مبرماً .

مما ذكر يظهر لكم سادتي أن مسلمي عدن بحاجة إلى مالية يصرفون أو يواسون منها المرضى من الفقراء في المستشفى الأهلي ، ويعمرون منها بيوتاً خاصة للنساء وأرباب العائلات حول المستشفى ، تضمن لهم الراحة والسكينة ، وتحفظ لهم تقاليدهم الإسلامية ، وأيضا يقومون بتأسيس مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين اللاتي هن الآن تحت تأثير المبشرات المسيحيات .

المالية المنشودة غير متيسرة ، والأغنياء وأهل الثراء لا يتبرعون بالمال لهذه المشروعات الحيوية المهمة .

وهكذا أصبح المسلمون والمسلمات بحالة تعسة محتقرين في أعين الأجانب ، مع أن الطوائف الأخرى تقوم بكل هذه المشروعات والأعمال نحو أبناء رينات ملتهم كالإفرنج واليهود والمجوس والهندوس . بل لكل طائفة مستشفاهها ومدرستها وملاجئها الخاصة .

أما نحن ونحن أهالي البلدة فلسنا إلا كالمتشردين ومرضانا في الأزقة والمسنفيات بلا راع ولا ذى مروءة يواسيهم ، حالة والله تدمى الفؤاد وتفتت الأكباد .

لما وصلت الحالة إلى هذه الدرجة من الخذلان فكر جماعة من أدل الخير في تعيين لجنة إسلامية تؤلف من أغنيائها ووجهائها ، وقصد اللجنة هذه أن تأخذ قسطاً من أموال الزكاة المفروضة على المقتدرين من المسلمين حين تجمع المال ليصرف في مصالح الفقراء والمساكين في هذه البلاد في حدود المشروعات الثلاثة المذكورة آنفاً ولو تدريجياً .

فالرجاء من هيئة العلماء الأعلام في الأزهر الشريف أن يفتونا في المسألة . ودل يجوز أخذ الزكاة أو قسط منها لهذه الأغراض المهمة ؟ .

أرجو أن تنشروا السؤال مع الجواب على صفحات (مجلة الأزهر) التي كساها الله نوراً على نور ، لما تنشرونه فيها من الدرر الغاليات ، والجواهر المئومات ، والحكم البالغات ، وقد طهرتموها من الحشو واللغو والهدبان . جزاكم الله خيراً الجزاء ، ونفع بكم العباد ، آمين .

احمد محمد الندي

الجواب

إن حال المسلمين اليوم يذيب الفؤاد ويفتت الأكباد على ماشرحه
السائل : تخاذل وانحلال وتأخر واضمحلال واختلال واعتلال وهبوط
وسقوط وجمود وخمود الخ .

ولاغرو فقد اشتغل كل منهم بنفسه ، فلا يعنيه إلا منفعته
الذاتية ومصالحته الشخصية ، فلا يهتم بأمر أخيه المسلم ، ولا يفكر في
مصلحة أُمته ولامنفعة مواطنيه ولامجدبلادته . ضاقت الأنظار واختلت
الأفكار وذهبت الرحمة من النفوس ، وأقفرت القلوب من الإخلاص
والرعوس من التفكير .

وما كان ينبغى ذلك لقوم أمروا أن يكونوا كالبنين يشد بعضه
بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الجسد .
وقد كنا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها ، وكان الناس يدخلون في
دين الله أفواجا لما يرون فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ،
وما يتجلى فيه من ارتباط القلوب وتآلف النفوس ، فقد أورثهم
الإيمان المحبة التي جعلتهم إخوة يتراحمون عند الشدائد ، ويتعاطفون
لدى الكوارث .

و « لَا تُنَزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ » كما في الحديث الصحيح ،
فأصبحنا وقد اشتغل كل بنفسه وصار لايعنيه إلا شخصه ، فمقطعت
لروابط بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلم يشاركهم في أية مصلحة يعود
نفعها على الأمة . وقد غلبت عليه محبة الذات ، فتفتحت له طرق

الاحتميال فيما يعود على شخصه بما يحب من الشهوات مما يظنه سعادة وفلاحة ، وخیل له أن ذلك استقلال ونهضة ورقى وتقدم ، فأضاع بذلك مصلحته ومصلحة أُمته ، وقضى على مجده ومجد بنى جلدته .
أو نقول : كانت النتيجة كهذه النزعة الحمقاء استقلال الأفراد واستعباد الأمم . وأنها لفتنة مصدر ، فلنتكلم فيما يريد السائل ، فنقول :

لايسع لعارف بروح الشريعة ونظرها البعيد وحكمتها السامية إلا أن يفتى بجواز صرف الزكاة في تلك المشروعات الخيرية التي ذكرها السائل ، فإن الشارع قد راعى في مصارف الزكاة مصلحة الدين ، ومصلحة العباد ، وحاجة الفقراء والمضطرين والمحتاجين .

ولم يفت ذلك علماء الأمة وأئمتهم من السلف والخلف -رضى الله عنهم- ، فقد ذهب كثير إلى أنه يجوز أن يصرف سهم (سبيل الله) إلى الحج وإعانة الحجاج من المسلمين .

يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن . وإليه ذهب أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ، لأن الأمر على ما قال بعضهم من أن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط . وقد أجاز بعض الفقهاء صرف سهم (سبيل الله) إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك ، لأن قواه : (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١) عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠

وعى أن من ذكرهم السائل في سؤاله داخلون في الفقراء والمساكين ،
فإن أولئك المرضى الذين بين سوء حالهم وتلك السيدات اللاتي يلحقهن
من الضرر ما ذكر المستفتى هم من جملة الفقراء بلا شك . والجماعة التي
تأخذ الزكاة لتقوم بتلك المصالح وتنظيمها وتجعلها على قاعدة ثابتة
نافعة وترسم لها خطة تضمن لها البقاء والمنفعة ، هذه الجماعة كأنها
وكيلة عن أولئك الفقراء تقوم برعايتهم وإصلاح شؤونهم نيابة عنهم
حيث تعذر قيامهم بذلك لأنفسهم . ولو فرضنا أن هناك فقيراً تعذر
تسليمه الزكاة لجنونه مثلاً أو لغير ذلك لم نتوقف في جواز إعطاء الزكاة
لوليه والقائم على أمره . فهكذا هنا . والعبرة في الأمور كلها بمقاصدها
وغاياتها .

هذا ما تقتضيه روح الشريعة وترشدنا إليه مراميها التي محورها
الذي تدور عليه إنما هو الحقائق والمصالح . ولا يمكنني أن أفق بغير هذا .
غير أني قبل إلقاء القلم لا بد أن أوصي بانتقاء تلك الجماعة من
المخلصين الأتقياء الذين يخافون الله ويراقبونه في السر والعلانية مع
النظر البعيد والتدبير الحكيم . وليكن القانون في ذلك واضحاً جلياً
غير قابل لتأويل المؤولين ولا احتيال المحتالين . والله يتولى هدى
الجميع بمنه وكرمه .

حكم صلاة الجمعة في البيوت^(١) وفي المساجد المتعددة

جاء إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله :

يوجد ببلدتنا أسرتان لهما مسجد واحد تقام فيه صلاة الجمعة .
وقد حصل بين الأسرتين شقاق أدى إلى منع إحداها من أداء فريضة
الجمعة في المسجد المذكور .
فأدت الأسرة الممنوعة فريضة الجمعة في ديوان لهم جعل للضيوف .
واتفقت كلمتهم على أن يؤدوا دائماً فريضة الجمعة في هذا المكان .
فهل صلاتهم صحيحة أم باطلة ؟

محمد الليثي عيسى

الرئيس بالأقصر

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
وبعد : فدن شروط صحة الجمعة في مذهب مالك - رضي الله عنه -
المسجد ، فلا يصح عنده إقامتها في البيوت ولا في الفضاء ، ولا تقام
في البلد الواحد إلا في مسجد واحد . فلو تعددت المساجد لم تصح إلا فيما
أقيمت فيه أولاً وهو المسمى بالعتيق عند المالكية .

وقد أجاز إقامتها في مسجد آخر مع العتيق لأسباب مبسطة في
كتب المذهب ، منها خوف حدوث فتنة بين طائفتين من أهل البلد

لو اجتمعوا في المسجد العتيق ، فإذا يجوز لكل طائفة أن تصلي في مسجد على حدة ، وتصح الجمعة في المسجدين ما دامت العداوة قائمة .

الخلاصة

إن الأسرة التي منعت من إقامة الجمعة في مسجد البلد « في صورة الاستفتاء » إذا أمكنهم رد العائلة المانعة بطريق الحاكم أو بأية طريقة ودية بحيث تكون الفتنة مأمونة ، وجب عليهم سلوك هذا الطريق وصلوا معهم الجمعة . فإن عجزوا ففي المسألة تفصيل : حاصله أنهم إذا قدروا على إنشاء مسجد آخر بالبلد وجب عليهم إنشاؤه وسقطت عنهم الجمعة حتى يتموا . فإن عجزوا عن ذلك أيضاً سقطت عنهم الجمعة بتاتاً ، لأن من شرط وجوبها القدرة على المسجد .

هذا وقد علم مما قدمناه أن جمعهم التي أدوها في محل الضيوف باطلة ، ويجب عليهم قضاءؤها ظهراً ، وألا يعودوا إلى صلاتها فيه مرة أخرى ، لأن الإقدام على العبادة الباطلة لايجوز شرعاً . والله يتولى ددى الجميع بحسنه وكرمه .

الرحمة

الرحمة من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق ، وأن الله لا يحب شيئاً مثل ما يحب الرحمة والتواضع ، ولا يكره شيئاً مثل ما يكره القسوة والكبرياء .

وقد ورد في الحديث الصحيح : « ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ » . وذكر (من) التي للعاقل ها هنا لتغليب الأشرف على غيره .

وإياك أن تفهم من ذكرها أنك لست مأموراً إلا برحمة النوع الإنساني فقط ، فإنك مأمور بالرحمة لكل ذي روح .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ صَدَقَةٌ » . وإذا كانت امرأة قد دخلت النار من أجل هرة حبستها كما في الحديث الصحيح ، فلا غرو أن تدخل الجنة من أجل هرة ترحمها .

وقد ورد « إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ » ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ » ، ويقول الله تعالى في الحديث القدسي : « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » .

وليس ذلك الحنان الذي تراه في قلوب الآباء والأمهات في أفراد النوع الإنساني وسائر أنواع الحيوان مما يسوقهم سوفاً اضطرارياً إلى تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التي تجدها

من نفسك إذا رأيت مظلوماً ضعيفاً أو فقيراً بائساً؛ إلا أثراً من آثار
تلك الرحمة الإلهية .

ومواساة الإخوان والعيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من أفضل
الأعمال التي حث عليها الدين وندبت إليها الشريعة .

وكل ذلك من آثار الرحمة الإلهية التي قامت بها السموات والأرض .
ولا محل لها دناءة لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجرى البحار
وتفجير الأنهار وتيسير الأنوار وخلق الليل والنهار وإنبات النبات
وبقية الآيات وأنواع النعم المتواترات .

وقد قال تعالى : (فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا)^(١) .

وبالجملة ففيناك من الإنسانية على قدر ما فيك من الرحمة . وعلى قدر
ما فيك من التسوية يكون بعدك من الله وإنسلاخك من الإنسانية ،
فإنك لا تتكامل إلا إذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الأخلاق
المرّة بعد المرّة ؛ وعلى قدر أين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبورك لتلك
الكمالات .

وأما ذلك القلب القاسي الذي لا ينفع ولا يتأثر ، فإنه بعيد
من الكمال^{٣٣} ، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل
للنقش فيه .

(١) سورة الروم ، الآية ٥٠ .

وإن من القلوب قلوباً كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشتهت فيخرج منه الماء . ومن كان بهذه الصفة فهو شقي في الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وقد قرر الفلاسفة أن الإنسان قد ينحط إلى دركات هي أسفل من كل المراتب التي فيها أنواع الحيوان ، وإذا لا يكون إنساناً إلا في صورته .

وقد قال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان . وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)^(١) . ويقول : (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)^(٢) .

ولا يمكنك أن تصل إلى درجة الكمال إلا إذا لم تكن من ذوى القلوب القاسية والنفوس الجامحة .

الخلاصة

إنه لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين في إنسانيتهم ، فلم يفعلوا فعل الوحوش الضارية بإخوانهم وبني نوعهم .

(١) سورة التين ، الآيات : ٤، ٥، ٦

(٢) سورة العصر .

لو نمت الرحمة في النفوس لما التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ،
ولما فعلت بهم مالا تفعله أقوى الحيوانات بأضعفها . على أن الحيوان
لا يفترس أبناء نوعه مهما كانت وحشيته وشرارته .

لو نمت الرحمة في الأغنياء لما مقتتهم الفقراء ، ولو تمت الرحمة
في القضاة لما تأخرت القضايا السنين الطوال ، ولا لحق أربابها شديد
الذكال وعظيم الوبال .

ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك وأثنى عليك إخوانك . ولو
تمت الرحمة فيك لبذلت النصيح للعامة والخاصة إخلاصاً لهم وإشفاقاً
عليهم « وَالَّذِينَ النَّصِيحَةُ » . ولو تمت فيك الرحمة لأشفقت على القريب
والبعيد ، ورحمت المبتلى والمعافى والإنسان وغير الإنسان

بل نقول : لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون
على أنفسهم فلا يورطونها في الهلكات ولا يجلبون عليها أعظم الآفات ،
ويحرمونها من أفضل أنواع السعادات .

وإجمال القول : أنه إذا استقام هذا الأصل للإنسان في الدين ،
استقام له سائر ، ففاز بخيرى الدنيا والآخرة . فأزل - يرحمك الله -
من نفسك القسوة ، وكن رقيق الفؤاد ، ولا تكن من غلاظ الأكباد .
فالراحمون يرحمهم الرحمن .

وما أحسن قول ابن حجر المكي في هذا الموضوع :

إرحم عباد الله يرحمك الذى عم الخلائق جوده ونواله
فالراحمون لهم نصيب وافر من رحمة الرحمن جل جلاله

وقال الحافظ ابن عساکر :

بادر إلى الخير إذا لب مغتنما
واشكر لمولك ما أولاك من نعم
والشكر يستوجب الإقبال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعمهم
ولا تكن عن قليل الخير محتشما
فإنما يرحم الرحمن من رحما

وقال غيره :

من يرحم الخلق فالرحمن يرحمه
في صحيح البخارى جاء متصلا
ويكشف الله عنه الضر والبأسا
لا يرحم الله من لا يرحم الناسا

ولا بأس أن نذكر لك كلمة وجيزة عما جاء في السنة من الحث على

الرحمة ، فنقول :

روى البخارى في الأدب المفرد وأحمد وأبو داود والترمذى وآخرون
عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى - الله عليه وسلم - قال :
« اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ » (لك أن تقرأ
يرحمكم بالجزم جواباً للأمر ، والرفع على أنه جملة دعائية) .

وروى الشيخان هذا الحديث عن أسامة بن زيد بلفظ « إِنَّمَا يَرْحَمُ
اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحِمَاءَ » . ومن ذلك ما رواه عن أبي هريرة أنه - صلى الله
عليه وسلم - قال : « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » .

وروى أحمد عن جابر « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ ، وَمَنْ لَا يَغْفِرُ
لَا يُغْفَرُ لَهُ » .

ومنها ما رواه الشيخان عن جرير أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : « مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ » وروى الإمام أحمد وعبد

ابن حميد في مسنديهما والطبراني وغيرهم بسند جيد عن ابن عمر موقوفاً ومرفوعاً « اِرْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ ، وَيَلِّمُ لِلْمَصْرِينَ الَّذِينَ يَصْرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . وأخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « لَا تُنَزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » .

وعنه أيضاً قال : قبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الحسن بن علي -رضي الله عنهما- وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم . فنظر إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال ، « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي .

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : « لقد باع هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسك بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ » . أخرجه الشيخان في الصحيحين ومالك في الموطأ .

وعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ » (٢١)

مِنْ خَشَائِشِ^(١) الْأَرْضِ » أخرجه الشيخان . وعن عائشة - رضی الله عنها -
قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ الرَّفْقَ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ
إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا تُزْرَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن
جرير - رضی الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ
يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن أبي
موسى - رضی الله عنه - قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث
أحداً في بعض أمره قال : « بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا » .
أخرجه أبو داود .

هذا وقد رأينا لأبي السعود عند قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ
اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)^(٢) : وما النعمة إلا أثر من آثار الرحمة : عبارة
جليلة تروق ذوى الأفهام ، فأحببنا أن نذكرها لك في هذا المقام ،
لتعرف نعم الله عليك ورحمته بك ، فتجعل شكر تلك النعم التي
لاتحصى رحمة عباد الله والشفقة على خلق الله ، فكما تدين تदान ،
وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ .

وهالك عبارة أبي السعود :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ) التي أنعم بها عليكم (لَا تُحْصُوهَا)
لاتطبقوا حصرها ولو إجمالاً ، فإنها غير متناهية ، كيف لا وما من
فرد من أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنواً
بأصناف البلايا ، مبنئ بأنواع الرزايا ، فهو بحيث لو تأملته ألفيته

(١) خشائش الأرض : هوامها وحشراتهما .

(٢) سورة براهيم ، الآية ٣٤

متقلبا في نعم لاتحد ، ومنن لا تحصى ولا تعد ، كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطه الإمكان . وإن كنت في ريب من ذلك فقددر أنه ملك ، ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم ، وأذعنت لطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب العتاة ، وفاز بكل مرام ، ونال كل منال ، وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه ، بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ، قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعم ، في حالة بلغت منها نفسه الحلقوم ، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه أو شربة ترويه ، أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأملك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود إليه ؟ كلا ، بل يبذل لذلك كل ما تحويه البدان كائنا ما كان ، وليس في صفقته شائبة الخسران . فإذا تلك اللقمة والشربة خيرا مما في الدنيا بألف رتبة ، مع أنهما في طرف الثام ، ينالهما متى شاء من الليالي والأيام . أو قدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ماخرج ولاخرج منه ما ولج ، والحين قد حان ، وأتاه الموت من كل مكان ، أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد . فإذا هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها ، مع أنه قد أبيع له كل آن من آنات الليالي والأيام ، حال اليقظة والنام . هذا من الظهور والجللاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء . وإن رمت العثور على حقيقة الحق ، والوقوف على كل ماجل من السر

ودق ، فاعلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة ، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهية من العلاقة لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا في مضمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار . لكن يفرض عليه من الجناب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، في كل زمان يمضي وكل آن يمر وينقضى ، من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلم به إلا العليم الخبير .

وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداءً لا يستحقه بقاءً ، وإنما ذلك من جناب المبدئ الأول - عز وجل - فكما لا يتصور وجوده ابتداءً ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي ، لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه لطاريء ، لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي .

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك ، إذ لا استحالة في أن يكون الشيء أحد موانع غير متناهية ، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود . فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهي أعني بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كل آن من آئات وجوده ، نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاءً ، وكذلك

في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً ، وكذلك في
كمالاته التابعة لوجوده .

فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعماً لا تتناهى من وجوه شتى .
فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك ، لا تلاحظك العيون بأنظارها ،
ولا تطالعك العقول بأفكارها ، شأنك لا يضاهى وإحسانك لا يتناهى .
ونحن في معرفتك حائرون ، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون . نسألك
الهداية إلى مناهج معرفتك . والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لا نحصى
ثناءً عليك ، لا إله إلا أنت ؛ نستغفرك ونتوب إليك » . انتهى .

ولنقتصر على هذا ، ولعل فيه مقنعاً وكفاية لمن أراد أن يسعد
نفسه وتسعد به أمته . جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه
بمنه وكرمه :

(١) مسألة في القراض

جاءنا من انكويث ما صورته بعد الديباجة :
الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فما قول العلماء الأعلام ، هدى الله بهم الأنام ، فيمن
دفع كمية من الدراهم باسم القراض لعامل يعمل فيها على طريق المضاربة ،
فاستمر العامل يعمل فيها قدر أربع عشرة سنة ، وكل سنة يدفع العامل
لرب القراض قسطاً من الدراهم . وفي يوم من الأيام جاء رب القراض
للعامل وطلب منه أن يدفع له مبلغاً من رأس المال ، فقال العامل :
ليس عندي شيء أدفعه لك الآن ، فقال رب المال : أين ذهب المال ؟
فقال : عندي مال ولى على الناس ديون وللناس على أيضاً ديون ، فطلب
رب القراض من العامل أن يطلعه على الدفاتر ، فلبى العامل دعوته .
فقاما من الدكان قاصدين البيت لأجل النظر في الدفاتر ، فبينما رب
القراض يمشى أمام العامل إذ وقع بصره على ابن العامل يحمل صرة
من الدراهم ، فلما رآه أراد أن يتوارى عنه ، فأمسكه في الحال وأخذ
الصرة منه ، فقال الولد : هذه الدراهم أمانة لفلان وضعها عندنا وليست
لنا ، فلما جاء العامل قال : هذه ٨٠٠ روبية لعمرى وضعها عندنا أمانة
قبضت باسمه (عمرو) من خالد . فلما عدت وجدوها ٩٠٠ روبية ،
فسألوا العامل عن المائة الزائدة فقال : وضعتها عليها من الصندوق

حين أردت إخراجها منه . فلما كشفوا على الدفتر وجدوا مقيداً فيه :
عندى لعمرو ٨٠٠ روبية مقبوضة من خالد ، فكأن قبضها من خالد
ثابت عن الجميع : رب القراض وغيره .

ومن الغد رفع الأمر للحاكم ، فحجر عليه . وبعد الحجر عليه أقر
(العامل) أمام رجلين من التجار الذين لهم عليه بعض الطلب : إنما
هي عندى لأنتفع بها ، وهم من المعتبرين . مع أنه ينكر ذلك ويقول :
إنما كنت أقول : ما قدرت أن أنتفع بها .

هذا صورة الواقع . فهل تعيين العامل الأمانة قبل الفلاس يقبل
فيختص بها دون الغرماء ، أم لا يقبل فيكون أسوة الغرماء . مع أن
الذى وجد في يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخارجة عن
القراض ، ويكون الباقي من القراض إذا أضيف إلى الذى دفع لرب
القراض باسم المصلحة خلال السنين الماضية يزيد على رأس المال بكثير ؟
وهل إقرار العامل بعد الحجر أمام الرجلين بقوله : هي عندى أنتفع
بها ، يضر بالإقرار الأول أم لا ؟ أفنوننا مأجورين :

احمد بن محمد الفانم
الجبر الكويت خليج فارس

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
وعد : فقد نص في مذهب مالك - رضى الله عنه - في باب
القراض والفلاس على ما يأتى :

أولاً — عامس القراض أمين فيما تحث يده من المال الذي يعمل فيه ولو لم يكن أميناً في الواقع ، لأن رب المال ائتمنه عليه ، فيده يداًمانة ، فليست كيد الغصب ، ولذلك كان مصدقاً بيمين إذا ادعى تلف رأس المال أو خسارته ، إلا أن تشهد العادة بكذبه فلا يصدق .

ثانياً — من أقر بوديعة بعد تعيينها ، كأن قال : هذا المذل وديعة بعد إقراره ، فإن إقراره يقبل ويختص رب الوديعة بها فلا يحاص فيها الغرماء . وإنما يقبل إقراره هذا إن شهدت بينة بأصلها : بأن قالت : نشهد أن فلاناً عنده وديعة لفلان ، وإن لم تعينها . ولا فرق في قبول الإقرار حينئذ بين أن يكون صادراً من المقر في حال صحته أو مرضه . فإن لم تشهد بينة بأصلها ، فإن كان إقراره قبل الفلوس قبل ، سواء أكان في حال الصحة أم المرض ، وإن كان بعد الفلوس فلا يقبل ، فلا يختص بها المقر له .

ثالثاً : يعمل في مذهب مالك بالقرائن . ومن ذلك الاعتماد عايتها في حلف أولياء دم أيمان القسامة ، فإذا حلفوا استحقوا التصاص من القاتل . وقد مشوا لذلك بما إذا وجد شخص يجرى في زقاق ، ثم وجد بداخل هذا الزقاق شخص يتشخط في دمه ويقول : دمي عند فلان « يعني ذلك الهارب » . فإن قوله هذا مع وجود الهارب بهذه الحالة يعتبر لوثاً « أي قرينة » على أن ضاربه هو هذا الشخص . فإذا مات المضروب حلف أولياؤه أيمان القسامة ، معتمدين على هذه القرينة ، واستحقوا دم هذه المسمى :

ومن ذلك قولهم في اليمين « واعتمد البات على ظن قوى ». أى
أن الشخص يجرز له أن يحلف على القطع معتمداً على ظن قوى . ومدار
الظن القوى على القرائن المثيرة له .

ومن تتبع السياسة الشرعية وما فيها من الحوادث : كما يعلم
بالاطلاع على تبصرة الحكام لابن فرحون ، لا يتردد في أن القرائن
مبنى كثير من الأفضية الشرعية . ولابن القيم كتاب قيم جداً في السياسة
الشرعية أبان فيه صحة الحكم بالقرائن ، وأقام الدليل على ذلك من
من السنة .

ولا غرو فمدار الفروع على الظن الغالب ، والقرائن تفيده . والحكمة
التي تقتضيها روح الشريعة توجب مراعاة القرائن وعدم إهمالها ،
إذا لولا ذلك لضاع كثير من الحقوق واختل نظام المجتمع الإنساني .

مذا ومنه يتضح أن عامل القراض في الحادثة المشوول عنها مصدق في
إقراره بالوديعة التي العمرى وقد قبضها من يد خالد ، لأن إقراره كان قبل
الحجر عليه .

هذا هو مقتضى كون يده يد أمانة على ما قررناه ، غير أنه قد
اكتنف ذلك الإقرار أمور تكاد تقتضى عليه بالاتهام فيه . بل هذه الأمور
لاندع الفترية يتردد في أنه إقرار كاذب قصد به الإساءة إلى رب القراض
باختزال جزء من ماله لنفسه . تلك الأمور هي .

أولاً - مسارعة ولد العامل حينما أحس بأن رب القراض سيطلع على
مافى صندوق التجارة من النقود ، مسارعته إلى أخذ هذه الصرة قبل

فتح الصندوق . ولو كانت هذه الصرة لمن أقر له العامل لم يدبر هذه الحيلة ، وكان يكفيه إن كان صادقاً في أنها وديعة أن ينبه عليها بعد فتح الصندوق ، لا سيما وهي مقيدة بدفاتر التجارة .

ثانياً — محاولة الاختفاء والهرب بها حينما رآه رب المال .

ثالثاً — قول العامل بعد : « إنما هي عندي لأنتفع بها » مع ثبوت ذلك بشهادة المعتبرين كما جاء في الاستفتاء . وإنكاره صدور ذلك القول منه وتحريفه إلى قوله : « إنما قلت وما قدرت أن أنتفع بها » لا يقيده بعد شهادة المعتبرين بالعبارة الأولى .

رابعاً — وجود مافي الصرة زائداً على ما أقر به العامل ودفاعه عن ذلك بقوله : « قد وضعت عليها مائة مما في الصندوق » مما يقوى الشبهة نحوه ، لأنه ما وضع عليها ذلك إلا بقصد اختلاسه لنفسه إن كان صادقاً في أصل الوديعة .

لذلك نرى أنه إن شهدت بينة بأن هذا العامل عنده وديعة لعمره قبل إقراره واختص المقر له بها ، وإن لم تشهد بينة بهذا فلا يقبل إقراره وإن كان قبل الحجر عليه لقيام القرائن على كذبه ، وتكون كبقية المال : للغرماء غير المقر له أن يتحصوا فيها .

وقول المستفتي : أن ما بيده يزيد على المطلوب منه ، وهو ما أشار إليه بقوله : « مع أن الذي وجد في يد العامل بعد الحجر يزيد على الدين » الخ ، قوله هذا يفيد أن العامل لا يستحق الحجر عليه ، فإن مستحقه هو من أحاط الدين بماله بأن زاد على ماله أو ساواه . فهذا هو

الذى يحجر عليه في التصرف للمحافظة على حقوق الدائنين . ولا يؤثر
هذا القول في اتهام العامل في هذا الإقرار حيث لم تشهد بينة
بأصل الوديعة ، بل يقال إن هذه الوديعة إذا بطل الإقرار بها احتسبت
من مال القراض ، وكان لربه أن يستكمل منها رأس ماله وما يخصه من
الربح بعد أداء الديون التي لها علاقة بهذه التجارة .

وليعلم أنه لا عبرة بكتابة الوديعة في دفاتر التجارة بعد هذا الاتهام ،
لأنه والحالة هذه لا يبعد أن تكون الكتابة مصطنعة من العامل قصد بها
الحيلة على صحة إقراره بعد هذا .

نسأل الله أن يرزقنا الصدق في القول والعمل ، وأن يجنبنا مواقع
الزلل^١ ويجنمه وكرمه .

الشجاعة^(١)

مقدمة في مكارم الأخلاق :

لنقدم بين يدي ذلك كلمة إجمالية عن مكارم الأخلاق عموماً ،
فنقول :

مكارم الأخلاق أوساط بين الإفراط والتفريط ، فمتى جاوزت
نقطة الوسط فقد جاوزت الفضيلة . فالشجاعة مثلاً وسط بين الجبن
الذي هو تفريط ، والتهور الذي هو إفراط . والسخاء وسط بين البخل
الذي هو تفريط . والتبذير الذي هو إفراط . فإياك والزيادة فيما تظنه
فضيلة فتقع في الرذيلة « كلا طرفي كل الأمور ذميم » .

حتى أن القوّة الفكرية ، وهي أشرف القوى ومدار الإنسانية ،
إذا زادت عن حدّها ، خرجت بك إلى رذيلة الخبث والدهاء ، والمكر
والحيلة .

وليس الكفر والتهجم على مقام الألوهية واقترام تلك المخاطر
إلّا رذيلة من رذائل القوّة الفكرية . فرذائلها أقبح الرذائل ، كما أن
فضائلها أشرف الفضائل . وهكذا الحال في الفضائل والرذائل في القوّة
الشهوية والقوّة الغضبية : على قدر ما ترتفع بفضائلها تنحط برذائلها
على نسبة واحدة ، فأعظم القوى الثلاث فضائل ورذائل ، هي القوّة الفكرية
ثم القوّة الغضبية ثم القوّة الشهوية .

وكان نقطة الوسط التي نوهنا عنها هي الصراط المستقيم الذي أمرنا
تعالى بطلب الهداية على سبيل الجوب سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة :
(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (١) .

ولا بد أن تكون قد سمعت أن الصراط أرق من الشعرة وأحد من
السيف . ولعلك كنت تستغرب من ذلك وتصدق به تقليدًا من
غير أن تفهم له معنى ولا تذوق له سرًا .

فاعلم أن نقطة الوسط عسرة جدًا ، ولا يمكنك أن تقف عندها إلا
إذا رزقت المعونة ومنحت التأييد : فلا يكاد يهتدى إليها ثم يصبر عليها
إلا الأنبياء والمرسلون وكمل الرجال من ورثتهم « وقليل ما هم » .
فحقاً هي أرق من الشعرة وأحد من السيف .

وأحب منك الآن على عجل أن تصدق معي أن الصراط الأخرى
على ما سمعت ، وتعلم أن كل شيء تراه في الآخرة إنما يمثل ما كان
من أحوالك وأعمالك وأوصافك في الدنيا .

فإن الأرواح متى قوى سلطانها خفيت مقتضيات الأجسام : فكان
الحكم لها هو ما يكون في الآخرة ، كما أن الأجسام متى قوى سلطانها
ظهرت مقتضياتها وخفيت مقتضيات الأرواح كما في الدنيا .

فإذا سيرك بسرعة أو ببطء على ذلك الصراط هناك يمثل سيرك هنا
على صراط الوسط في كل شيء ، الذي هو أرق من الشعرة وأحد من

السيف ، وذاك الصراط يمثل هذا الصراط . ومتى قدرت على أن تسير عليه ها هنا أمكنتك أن تسير عليه هناك ، والعكس بالعكس . وعلى قدر ما أنت عليه اليوم يكون حالك غداً ، حتى إذا كنت من المسارعين إلى الخيرات السابقين في الفضائل والكمالات ، كنت هناك طائراً لا سائراً .

ولنرجع إلى ما تصدينا له اليوم من الكلام على الشجاعة فنقول :

الشجاعة ما هي ؟

الشجاعة : ملكة في النفوس يورثها الإقدام على الأمور الكبيرة ، والمخاوف الخطيرة ، للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة . أو نقول بعبارة أخرى : الشجاعة هي الإقدام تحت إشراف الحكمة ، للدفاع عما يجب الدفاع عنه : من نفس ، أو دين ، أو وطن ، أو غير ذلك ، وهي فضيلة من أسمى الفضائل . وإن شئت فقل إنها حارسه الفضائل كلها ، وأسس السعادة في الدنيا والآخرة . وليس يخفى عليك ما لها من الأثر في رقي الأمم وتقدم الممالك في هذه الحياة .

فكل أمة ضربت فيها بسهم وأخذت منها بأوفر نصيب ، أصبحت شامخة المجد عالية القدر فسيحة الملك ، لا يعوزها نشر العسران ، ولا يعوقها عائق عن توسيع سلطانها وتوطيد دعائمها . وما من أمة أدخلت إلى الجبن وأهملت واجبتها وفرطت في جنب ما تحتاجه من الوسائل القوية والمعدات الضرورية ، إلا صارت إلى الذل والهوان ، وباءت بالخيبة والخسران ، لا تستطيع دفع الطامع عنها ، ولا تقوى

على حفظ كيانها والذود عن حياضها ، ولا تلبث إلا ريثما يتم اتفاق
الدول القوية على التهامها ومحو صورتها من بين الأمم المستقلة .

كانت الشجاعة من المناقب التي امتاز بها العرب ، وفاقوا غيرهم
في الأخذ بناصرها والتمدح بآثارها ، والافتخار بمزاياها ، والازدهاء
بمحاسنها حتى بلغ من ذلك أن حض عليها الأمراء ، وتباهى بها الكبراء
والوضعاة في محاوراتهم وأشعارهم .

قال سيدنا أبو بكر لخالد بن الوليد : « احرص على الموت توهب
لك الحياة » .

وقال الشاعر :

محرمة أكفال خيلي على القننا ودامية لبانها ونحورها
حرام على أرامحنا قتل مدبر وتندق منها في الصدور صدورها

ويقول الآخر :

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
ولهم غير ذلك من الأخبار والشواهد ، مما يدل على أنها كانت
ألزم لهم من ظلمهم ، وأثبت عندهم من شخصهم .

ولا غرو فهي الفضيلة التي ليس بعدها فضيلة ، والمزية التي ليس
وراءها غاية . لذلك كانوا في جاهليتهم ذوى شمم وحمية ، وعزة
وأنفة ، يابون الضيم ، وينفرون من الذل .

فلما سطع نور الإسلام في بلادهم ، وخفقت أعلامه على ديارهم وأفاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله أن يفيض ، قاموا والشجاعة رائدهم ، والإسلام قائدهم ، ينشرون دين الله ، ويعززون دعوة نبيه ، فدانت لهم البلاد ، وخضعت لهم أعناق الأكاسرة فلم يمحض عليهم قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة في مملكتي الرومان والفرس ، ووطئت أقدامهم غالب آسيا وأفريقية ونحو نصف أوروبا ، وذاك نشروا علومهم التي جاء بها الإسلام ، ومعارفهم التي أتى بها القرآن ، وأصبحوا رؤساء العالم وقادة الأمم ، وأرقام مدنية وحضارة .

وهاك تاريخهم المجيد لا يزال ينبئ عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشامخ بمفضل علمهم وشجاعتهم .

وقد شهد لهم جوستاف لوبون بذلك في كتابه (حضارة العرب) وغيره من علماء الأوربيين وفلاسفتهم .

الأمة إلى الشجاعة أحوج منها إلى كثرة العدد ووفرة الأموال ، ذلك أن الأمم في اعتدائهم مستمر ، وتغالب دائم ، وتنافس شديد ، كالأشخاص ، فإذا لم يكن للأمة قسط وافر من الشجاعة وعامل قوى من الحمية والأنفة ، عرضت نفسها لالتهايم الطامعين ، فسقطت في هوة سحيقة من الذل والاستعباد .

هب أن أمة لم تأخذ من الشجاعة بقسط ، وقد جمعت القناطير المقتطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وكان

لديها العدد العديده من أبنائها : أفينغنى ذلك شيئاً عند مداهمة خطب مدلهم من جانب الأمم المغيرة والفرسان الفاتحين ؟ .

إن ماجمعه بلا شك يكون داعياً قويا وباعثاً شديداً للتوارد على ذلك المنهل العذب الذى لم يقم عليه حارس الشجاعة .

حاجة الأمة الى الشجاعة فى داخلتها :

إن الأمة كما تحتاج إلى الشجاعة فى رد الغارات ودفح الغوائل ، تحتاج إليها كذلك فى إدارة شئونها واستقامة أمورها واعتدال نظامها وتنفيذ مصالحها . فالحاكم إن كان مقدماً على تنفيذ ما يصدره من الأحكام وإقامة الحدود وما يسنه من القوانين ، خضعت الأمة لأوامره ، واطمأنت إلى أحكامه ، وسارت معه فى طريق الوفاق والوثام .

وإن آنت منه جبناً أو ظنت منه توانياً فى إقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين ، ساء رأياً فيه وملأت سخطاً عليه ، ففسدت الأحوال وعم الوبال .

الحاجة الى الشجاعة فى نصره الحق والقيام بالواجب :

ليس يخفى عليك أن العالم لا ينتفع بعلمه ، ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه بإقامة البراهين الساطعة والحجج الدامغة حتى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، إلا بالشجاعة والإقدام .

كذلك الطبيب لا يجرؤ على قطع الأعضاء الفاسدة ، وجبر العظام الكسيرة ، وتضميد الجروح الخطيرة ، وإجراء تلك الأعمال الجراحية كلها ، إلا إذا ساعده باعث الشجاعة .

وقس على هؤلاء غيرهم ممن لا يقومون بمهمهم ، ولا يسرعون إلى عمل ما يناط بهم ، إلا إذا كانت الشجاعة أول خلاصهم وأجمل أخلاقهم وأظهر سجايأهم . وعلى ذلك تكون الشجاعة أقوى الدعائم في سعادة الأمم ورفعتها وخصارتها ونعيمها كما قلنا . وهو ميدان فسيح لا يأتى عليه البيان ، ولكنه لا يغيب عن الأذهان .

وبعد : فيحسن بنا أن نذكر لك شيئاً من شجاعته - صلى الله عليه وسلم - حتى تقتدى به فتسعد سعادة لا شقاء بعدها : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (١) .

ويكفيك من ذلك أنه قام وحيداً فريداً يدعو إلى الله ، وقرش على بكرة أبيها تناوته بصنوف المناوأة ، بل العالم كله إذ ذاك كان ضد هذه الدعوة ، فلم يفل ذلك من عزمه ولا فتر من همته ، فكان يسفه أحلامهم ، ويسب آلهتهم بكل ما استطاع من قوة . وقد ذهبوا إلى عمه أبي طالب مهتدين متوعدين ، فقال له عمه : « يا بن أخي إن قومك قد جاءوني ، فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » وليس يخفى عليك أن أبا طالب إذ ذاك كان نصيره الوحيد .

فانظر إلى قوله له : « فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » فليس هناك أبلغ من هذا التهديد والتخويف من رجل لا ثقة له بغيره ، ولا تعويل على أحد من الخلق سواه . فماذا قال له - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا؟ قال له : « وَاللَّهِ يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

فِي يَمِينِي وَالْقَمَرِ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ
أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتَهُ .

ومما ورد في شجاعته - صلى الله عليه وسلم - الخارقة للعادة ، ما رواه
جابر - رضى الله عنه - إذ يقول :

« كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَاتِ الرَّقَاعِ فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى
شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكَنَاهَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَسَيْفِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعْلَقٌ بِالشَّجَرَةِ ، فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ لَهُ :
تَخَافُنِي ! فَقَالَ لَهُ : لَا : قَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّهُ » رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ لَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ سَقَطَ
السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ فَآخَذَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : كُنْ خَيْرَ
آخِذٍ . فَلَمَّا عَفَا عَنْهُ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ : جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ
خَيْرِ النَّاسِ :

ولقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ ،
لَقَدْ فَرَزَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَتَلَقَّاهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَاجِعًا عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ وَالسَّيْفُ
فِي عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ : لَنْ تُرَاعُوا » :

ومن مواقفه - صلى الله عليه وسلم - المشهورة الضخمة « وكل مواقفه
- صلى الله عليه وسلم - ضخمة » موقفه يوم حنين :

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَحَكَاهُ الْقُرْآنُ أَيْضًا أَنَّ أَصْحَابَهُ وَلَوْ أَعْنَهُ
يَوْمَئِذٍ مَدْبَرِينَ :

واتفق الشيخان على أنه صلى الله عليه وسلم كان راكباً بغلة .
ولفظ مسلم من رواية العباس رضى الله عنه : فلما التقى المسلمون
والكفار ، ولى المسلمون مدبرين ، فاتفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول
الله صلى الله عليه وسلم أكفها ألا تسرع .

ولعمر الله إن ذلك لفوق ما نعهد من شجاعة البشر ، فإن الإنسان
مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد ما فرغته
أصحابه ، وخصيصاً إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المظهمة والفرسان
المدرية . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال :
أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكأنه كان لفتهم إليه وينبهم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه
من البشر يستطيع ذلك أو قريباً منه ؟ ! ولكن لا عجب : فقد امتلأ
قلبه ثقة بالله وتوكلاً عليه ، عالماً أنه إليه يرجع الأمر كله ، وأن ما شاء
كان وما لم يشأ لم يكن : (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ
إِلَّا هُوَ . وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)^(١) .

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تعجب أمام شهوتك عندما
يشد توقانها ، ولا أمام غضبك عندما يحتد سلطانه ويتحكم شيطانه .
ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ، إِنَّمَّا
الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » . رواه الشيخان .

وإنما كان هذا هو الشديد ، لأن جمرة الغضب التي تتقد في قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بلى كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواه ، فصنابرها حتى خمدت كل الخمود ، ولم يظهر عليه شيء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه ، فلم تجمع به ولم تورطه في المهلكات .

وقد روى البيهقي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال : « أَتَحْسِبُونَ الشُّدَّةَ فِي حَمْلِ الْحِجَارَةِ ؟ إِنَّمَا الشُّدَّةُ أَنْ يَحْتَمِلِيَ الرَّجُلُ غَيْظًا ثُمَّ يَغْلِبَهُ » .

وانظر إن شئت إلى ما كان منه صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف ، فكان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

وهذا شيء لا يكاد يصدقه العقل لولا أن النبي من طراز آخر غير ما تعرف في الناس ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - في ذلك الوقت الذي حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقداره صلى الله عليه وسلم .

أوروى البخارى ومسلم والبيهقي في الأدب وأبو داود والقاضى عياض في الشفاء واللفظ له ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : « كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَلَيْهِ بُرْدٌ غَلِيظٌ الْحَاشِيَّةُ ، فَجَبَدَهُ أَعْرَابِي بَرْدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَثَرَتْ حَاشِيَةَ الْبُرْدِ فِي صَفْحَةِ عَاتِقِهِ ، ثُمَّ

قَالَ يَا مُحَمَّا : اْحْمِلْ لِي عَلَيَّ بَعِيرِي هَذَيْنِ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ
فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ . فَسَكَتَ النَّبِيُّ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ قَالَ : « الْمَالُ مَالُ اللَّهِ وَأَنَا عَبْدُهُ » ثُمَّ قَالَ :
وَيُتَمَادُ مِنْكَ يَا أُعْرَابِيُّ بِمِثْلِ مَا فَعَلْتَ بِنِي ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : لِمَ ؟
قَالَ : لِأَنَّكَ لَا تُكَافِيُّ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ . فَضَحِكَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُحْمَلَ لَهُ عَلَيَّ بِعِيرٍ شَعِيرٌ وَعَلَى الْآخِرِ تَعْرٌ . وَهُوَ فِي هَذِهِ
الْحَادِثَةِ أَيْضًا لَمْ يَعْفُ عَنْ هَذَا الْجَاهِلِ فَقَطُ : بَلْ حَمَلَ لَهُ بِعِيرَيْهِ كَمَا
طَلَبَ . فَكَانَ فِي ذَلِكَ مُمْتَثِلًا قَوْلَهُ تَعَالَى : (خُذِ الْعَقْوُ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)^(١) . وَكَمْ لَهُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وقد قالت السيدة عائشة في بيان خلقه : « كان خلقه القرآن » ثم
قرأت قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)^(٢) . إلى آخر ما لا يمكننا تفصيله في
هذه الكلمة العجلى .

* * *

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ . وَالْاِقْتِدَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِحَبْلِهِ وَكِرَمِهِ .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات من ١ - ٣ .

معاملتہ التجار وما فیہا من الربا^(١)

استفتاء موجه الى فضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

لا يخفى على فضيلتكم أن المعاملات قد تطورت حتى تركزت على حالة غير التي كانت عليها في الأزمان السالفة ، فقد كان الرجل لا يقدم على شراء شيء إلا إذا حصل على ثمنه في يديه فيشتريه ويبيت مطمئناً لا يطالبه أحد . أما الآن فقد استساغ الكل الأخذ بالآجال ، فلا زارع ولا تاجر ولا موظف ولا ذو مهنة ، إلا وقد أصبح مديناً . ومن تساهله في الدين صار يتداين فيما لا ضرورة له ، حتى صار كل واحد يئن مما عليه وهذه حال عمّت القرى والأمصار ، فلا تجد بلداً إلا وهذه حاله .

وقد نشأت هذه الحالة من وجود البنوك في جميع أنحاء العالم ، وهم يمدون المصانع بالأموال لكي تتوسع في صناعتها ، ومضى توسعت اضطرت لتصريف مصنوعاتهما . ومع كثرتها لا تجد مشتريين يشترونها نقداً ، فتبيعها بالآجال . وهكذا تفعل مع الزراعة والتجار ، حتى توسعوا في أعمالهم ، واضطروا هم أيضاً لترغيب الناس في شراء ما عندهم بالآجال ، فأصبح جميعهم مدينا ودائنا معا . ونشأت حالة لا مناص منها وهي التعامل على قاعدة الربا . وعليه صرنا في حاجة إلى فتواكم على السؤاليين الآتيين :

١ - هل ما يدفعه التاجر من الفوائد عند تأجيل دفع المستحق عليه

يعد معاملة بالربا ، ولو كان في حالة اضطرارية مرغمة له ؟

(١) مجلة الأزهر - الجزء الخامس - المجلد السادس - سنة ١٣٥٤

٢- وهل بيعه كمبيالات الدين الذى له على الناس يعد معاملة بالربا ، مع العلم بأنه يبيعها بأقل من قيمتها ، وهو إنما يضطر إلى ذلك لأنه ذو الطريق الوحيد الذى يصونه من السقوط والإفلاس والخراب المحقق ؟

نرجوكم الجواب عن ذلك ولكم من الله الأجر والثواب . والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس عوف

أحد التجار بالسكة الجديدة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه . لا يجوز تأخير الدين مع الزيادة فيه لأجل التأخير . وهو ربا الجاهلية الذى عناه النبي - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع بقوله : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

وقد ذكروا فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ^(١) فى سبب نزول الآية أن الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان دين ، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين ما يؤدى ، قال له صاحب الدين ، زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فرمما فعلوا ذلك مرارا حتى يصير الدين أضعافا مضاعفة ، فنهى الله - عز وجل - عن ذلك ، ونزلت الآية .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٠

وقد نص الفقهاء على أن هذه الزيادة ممتنعة ، سواء كانت في
القدر أو في الصفة .

بل نص الفقهاء على أنهما إذا اتفقا قبل انقضاء الأجل على أن
يؤخره أجلا ثانيا على أن يدفع له رهنا أو حميلا ، كان ذلك في
معنى الزيادة ، وكان ممنوعا ، لئلا يلزم عليه سلف جر نفعاً . بخلاف
ما إذا اتفقا عند الأجل على أخذ الرهن أو الحميل على أن يؤخره بعد
الأجل الأول ، فذلك جائز ، لأنه كابتداء سلف على رهن أو حميل .

وعلى الجملة فهي لا تجوز . وهي داخلة - كما نص الفقهاء -
في باب أنظرني أزدك .

ومسألة بيع الكمبيالات المؤجلة بأقل مما فيها محرمة أيضاً ، لأنها
داخلة في تلك القاعدة القائلة : كل سلف جر نفعاً فهو حرام . وهذا
قد أقرضه مائة مثلاً ليأخذها بعد سنة مائة وسبعة أو مائة وعشرة على
حسب الاتفاق الذي بينهما على ما بينه السائل

وليس ما ذكره من الاضطرار والإرغام بمبيخ للربا . ولو أبحناه
لأجل ذلك لكننا كمن يداوى الأمراض الحادة بالمخدرات التي تحدث
تسكيناً وقتياً ، ثم يعود الألم بعد ذلك بأشد مما كان ، مع ما يستتبع
هذا العلاج من أمراض جديدة هي أخطر من المرض الأصلي .

فالدواء الحقيقي لهذه الكوارث التي شرحها السائل وذكرها على
طولها ليكون فيها عظة وعبرة ، وإنما هو للتفكير في استئصال

هذه الأمراض من جذورها : بالرجوع إلى العمل بالشريعة وتعاليمها
الحكيمة ، التي تقى كل من اتبعها من التعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة .

فلندع ذلك البذخ الفارغ ، وذلك الظهور الكاذب ، ولنعلم أن
الضرورى للإنسان في هذه الحياة قليل لا كثير . ولكن الناس يغلطون
في هذا غلطا فاحشا ، فتشتبه عليهم الحاجيات بل الكماليات بالضروريات
ومعلوم أن الكماليات لا حد لها ، بخلاف الضروريات ، فما أقلها
وأهون أمرها !

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل يا هذا لماذا يحتمل
هون على نفسك فالدجر دول غايته الموت وإن طال الأمل

وليت شعرى ماذا صنعوا بتلك الظواهر الخلابة مع تلك الأفكار
المضنية والمؤات المبكية !

لا تغتررن بنعيمهم فحسومهم في جنة وقلوبهم في نار

وعندى أنهم لو كانوا ذوى حزم ورشد لتخلصوا من تلك الورطات
بأية طريقة ، وعملوا على تطهير أموالهم وإراحة أنفسهم من تلك
الرزايا ولو بالتصفية المؤلمة « وليتولوها طوعا قبل أن يتولاها غيرهم
قهرا » .

ولا غرو فالمرضى يرضى ببتير أحد أعضائه ليعيش مستريحا من
ألم المرض وانتشاره في جميع الأعضاء . ومدار الأمر فيما أراه على قوة
العزيمة وتوطن النفس على الرضا بالقليل ، وسلوك سبيل الاقتصاد
في كل ما يأتى ويذر .

وإذا صدقت منه العزيمة في الرجوع والتوبة مما هو فيه ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)^(١) . ولأن يؤسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، أخير من أن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار ينهار به في نار جهنم .

وكم شقاء يتصور للناس بصورة السعادة (أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(٢) . وكم أناس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وما أحسن قول من قال :

إني أرى الدنيا وليد فتنة رعناء قد كبرت عن الترتيب
قد جاء منطقها ونص كتابها بالزور من خلق ومن تهذيب
ألف التناحر نازلوها وانتهت من غير تأليف ولا تبويب^(٣)
يزداد فيها العقل عن مقدورها والعقل يدنيها من التخريب

وخلاصة القول أنه لا دواء إلا ما جاء به الشرع الشريف .
غير أن المضطر له حكم آخر فيما بينه وبين الله تعالى تقتضيه
الرحمة الإلهية ، ولكن ذلك عن حد الفتوى في تحديده وبيان مقداره .

ولعل صاحبه أدرى به من كل أحد ، ولكن عليه أن يقدر الضرورة
بقدرها ، وألا يغش نفسه ، وأن يلتجئ إلى الله تمام الالتجاء متضرعا
باكيا حتى يرشده ويعينه ، ثم ينجيه من دساتس نفسه الأمانة بالسوء
فإنها أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فليكن

(٢) سورة فاطر ، الآية ٨

(١) سورة الطلاق ، الآية ٣

منها على حذر ، وليكن رجوعه دائما إلى خالق القوى والقدر ، فإنه
يرجع الأمر كله (مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ،
وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(١) . (إن
أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)^(٢) .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْلِحَ حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَأَنْ
يَأْتِيَهُمُ الرَّجُوعُ إِلَى الْعَمَلِ بِشَرِيْعَتِهِمْ حَتَّى يَسْعَدُوا سَعَادَةً لَا شِقَاءَ
بَعْدَهَا ، بِنِعْمَةِ وَكَرَمِهِ .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٧

حكم تشريح الميت في الشريعة الإسلامية^(١)

ورد إلى المجلة سؤال من سعادة رعوف باشا سكرتير الجمعية الإسلامية الهندية بسيلان ، ملخصه استفتاء العلماء عن تشريح الميت . وقد قال فيه :

هل يسمح قانون شريعتنا الإسلامية بتشريح جثثنا أم لا ؟
ثم رجا إدارة المجلة أن نجيبه على عجل . وقد أجاب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى بما يأتي :

الجواب

ليس عندنا في كتب الفقه نصوص شافية في هذا الموضوع .
وقد يظن ظان أن ذلك محرم لا تجيزه الشريعة التي كرمت الآدمي وحثت على إكرامه وأمرت بعدم إيذائه . ولكن العارف بروح الشريعة وما تتوخاه من المصالح وترى إليه من الغايات يعلم أنها توازن دائما بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب إذاً أن يكون نظرنا بعيدا متمشيا مع المصلحة الراجحة التي تتفق وروح الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان ، الكفيلة بسعادة الدنيا والاخرة . وإذا نقول :

من نظر إلى أن التشريح قد يكون ضروريا في بعض الظروف ، كما إذا اتهم شخص بالجناية على آخر ، وقد يبرأ من التهمة عندما يظهر التشريح أن ذلك الآخر غير مجنى عليه . وقد يعنى على رجل

(١) مجلة الأزهر - الجزء السابع - المجلد السادس - رجب سنة ١٣٥٤

ثم يلقي بعد الجناية عليه في بئر بقصد إخفاء الجريمة وضياع الجناية ، إلى غير ذلك مما هو معروف . فضلا عما في التشريع من تقدم العلم الذي تنتفع به الإنسانية كلها ، وينقذ كثيرا من أمتى على الهلكة أو أحاطت به الآلام من كل نواحيه ، فهو يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت إلى غير ذلك مما لا داعي للإطالة فيه .

نقول : من نظر إلى ذلك الإجمال وما يتبعه من التفصيل لم يسعه إلا أن يفتى بالجواز تقديما للمصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة ومتى كان تشريح الميت بهذا القصد لم يكن إهانة له ولا منافيا لإكرامه . على أن هذا أولى بكثير فيما نراه مما قرره الفقهاء ونصوا عليه في كتبهم من أن الميت إذا ابتلع مالا شق بطنه لإخراجه منه ولو كان مالا قليلا ، ويقدره بعض المالكية بنصاب السرقة أى ربع دينار أو ثلاثة دراهم . وكلام الشافعية قريب من هذا . وربما كان الأمر عندهم أهون وأوسع في تقدير المال الذى يبتلعه .

فإذا قسنا ذلك المال الضئيل (على ما ذكرنا من الفوائد والمصالح) ، وجدنا الجواز ندرء تلك المفسد وتحصيل تلك المصالح أولى من الجواز لإخراج ذلك المال القليل . فهو قياس أولوى فيما نراه .

استدراك لابد منه :

غير أنا نرى أنه لابد من الاحتياط في ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة . فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير ، والله يتولى هدى الجميع .

ماذا يُراد بولد الصُّلب^(١) في عبارة الواقفين

وورد إلى إدارة المجلة ما نصه :

ماقول العلماء الأَخيار المالكية في : (وقف أهلي) محكوم بصحته ولزومه من حاكم شرعي حنفي من قضاة المسلمين ، وقفه واقف مالكي المذهب ، وشرط أن يكون النظر أولاً لنفسه مدة حياته ، ثم للأرشد فالأرشد من أولاده لصلبه ، ثم للأرشد فالأرشد من المستحقين بالفعل الخ . فمات الواقف المذكور وخلف ولدين ذكرين وتعييننا ناظرين على الوقف المذكور ، ثم مات أحدهما وخلف أولاداً ذكوراً وإناثاً . فهل يقوم أولاد الولد مقام أبيهم في نظارة الوقف المذكور مع ولد الواقف المذكور ؟ وهل يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، ولا يمنع قول الواقف : « من أولاده لصلبه » ؟ وهل قول الواقف : « من أولاده لصلبه » يشمل ولد الصلب وولد الولد معاً ، أم لا يكون ولد الولد ولداً صلبياً مع كونه من أولاد الظهور ؟ .

أفتونا بنص صريح من معتمد مذهب الإمام مالك رحمه الله
وآجركم الله آمين .

حسين ابراهيم فرج الحجاب

الجواب

الحمد لله و للصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

قد صرح الواقف بأن نظارة الوقف تكون للأرشد فالأرشد ، ورتب في الطبقات بشم ، فجعل النظارة بعده لأولاد الصلب أولاً ثم المستحقين من بعدهم ثانياً .

وحيث يجب أن يكون مراده أنه إذا وجد أولاد الصلب وتساووا في الأرشدية كنت النظارة بينهم . إذا زاد أحدهم في الأرشدية اختص بالنظارة . فإذا مات أحدهم وترك أولاداً كانت النظارة لأخوته من ولد الصلب ، ولا تنتقل لأولاده لمجرد الزيادة في الرشد .

ومن هذا يتضح أن ولد الصلب في السؤال يختص بالنظارة دون أولاد أخيه ، وأن قول الواقف : « من أولاده لصلبه » يمنعهم حيث لم يكونوا من أولاد الصلب ، فإن أولاد الصلب هم من المواقف عليهم ولادة مباشرة ، وهو معنى كونهم لصلبه . وأن مجرد زيادتهم في الرشد على ولد الصلب لا تقدمهم عليه ، لأنها إنما تعتبر بين أفراد الطبقة الواحدة كما قلنا .

بيان ذلك من كتاب الفقه كما اراد السائل :

قال الخرثي في شرح قول خليل « أو على بنيه دون بناته » : « وكذلك يبطل الوقف إذا وقفه على بنيه الذكور دون بناته الإناث » إلى أن قال : « وكلام المؤلف في بنيه وبناته لصلبه ، فيصح وقفه بنى بنيه دون بنات بنيه ، فهو لا يريد ببنيه لصلبه إلا الطبقة

الأولى من ذرية الواقف » . وقال الصاوى فى الحاشية على أقرب المسالك للدردير عند قوله « وكره على بنيه دون بناته على الأصح » بعد نقل الخلاف فى المسألة ، قال : « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته لصلبه ، وأما بنو بنيه دون بنات بنيه فيصلح وقفه اتفاقاً » فقابل أولاد الصلب بأولاد الأولاد . وهذا واضح جلى .

هذا وليلاحظ أن هذا الوقف على هذه الصورة التى ذكرها السائل لايعتبر صحيحاً (على مذهب مالك) إلا إذا حكم الحاكم بصحته ، كما فى السؤال . ولولا ذلك لكان باطلاً على مذهب مالك لشرط الواقف النظر لنفسه :

فقد نص فى المذهب على أن الوقف (يبطل بشرط النظر للواقف) . ووجهه على ماذكروا أن فى ذلك جَوْلَانٌ يده فيه وعدم حوز الموقوف عليه أو من يقوم مقامه ، ذلك الحوز الذى هو شرط فى تمام الوقف . وقد استثنوا من ذلك صوراً ، منها أن يحكم حاكم بصحته ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف كما هو معروف .

الخلاصة

أن أولاد الصلب هم أولاد الواقف مباشرة ولا يدخل فيهم أولاد أولاده . وألفاظ الواقف تحمل على العرف إلا أن يصرح الواقف بما يخالفه كما نص عليه الأمير فى حاشيته على المجموع ، والشيخ حجازى عليه أيضاً .

وحينئذ فالأولاد الأولاد لا يزاحمون أولاد الواقف مباشرة في النظر ما دام واحد منهم موجودا . ولا ينظر لتفوقهم في الرشد على أولاد الصلب ، إذ لاحق لهم فيه مع وجود واحد منهم كما تفيده عبارة الواقف . وبهذا تبين جلياً أن أولاد الأولاد لا يقومون مقام أبيهم في النظر على الوقف . وأنه لا يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، وأنه لا يشمل ولد الصلب ولد الولد .

ولعل في هذا مقنعا وكفاية .

تشریح الأموات

كتبنا سابقاً رأينا في حكم تشریح الميت ، ووازننا بين ما يترتب عليه من المصالح والمفاسد ثم رأينا أن المصلحة أرجح من المفسدة ، وكثيراً ما يكون في التشریح درء مفسدة كبرى مثل دفع تهمة اتهم بها رجل من المسلمين ظلماً فأبان التشریح أن الميت غير مجنى عليه مثلاً . إلى غير ذلك مما هو معروف ، وقلنا أن الجواز هنا أولى مما ذكرناه فيما إذا ابتلع الميت مالا حيث أجازوا شق بطنه وإخراج المال منه إذا بلغ نصاب السرقة أو نصاب الزكاة .

فجاءنا من بعض الأفاضل انتقاد على ذلك وأنه يجر إلى توسعهم في أذية الميت وإهانتة .

ونقول لحضرتة ولكل من يدور هذا الخيال بخاطره : أننا حذرنا من ذلك التوسع في آخر ما كتبناه فقلنا مستدرकिन على مقررناه ووجهناه مانصه : « غير أنا نرى أنه لابد من الاحتياط في ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة فليقتصر فيه على قدر الضرورة وليتق الله الأطباء وألو الأمر الذين يتولون ذلك وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير » .

على أننا صرحنا بأن ذلك مبني على قياسنا مسألة التشریح على مسألة المال الذي ابتاعه الميت فإن كان ذلك القياس صحيحاً فله الحمد على توفيقه وإن كان غير صحيح في نظر الفضلاء فهو مردود على مرتثيه . ولا شيء علينا بعد أن نبين أن هذا هو رأينا الخاص .

وقد احتطنا في المسألة فحذرنا من التوسع في ذلك . فإن كان هناك من لا يصغى إلى التحذير أو يخطئ في التطبيق فلا ذنب علينا وكثيراً ما أخطأ المخطبون في آيات الله وسنة رسول الله .

أما من لم يبال بما يكتبه العلماء ، فهو سادر في غلواته غير ملتفت إلا إلى آرائه . رآهوائه سواءً أمنعنا أم أبحننا كتبنا أم سكتنا ، ضيقنا أم وسعنا فإنه بمعزل عن ذلك كله .

وإننا لنكتب ماتكتب ونحن عالمون أنه لا ينتفع به إلا من وثقه الله تعالى . وقد دلنا في بعض ما كتبناه بهذه مانصه :

« إننا نرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيه الأنظار . وإذا رجحنا شيئاً فإننا نكتب عن رأينا أو رأى فريق من علمائنا والخير كله في التوسط والاعتدال والشر كله في الإفراط والتفريط . »

وبعد : فنشكر لحضرة الفاضل غيرته وإخلاصه ونوافقه على أن الأطباء الآن توسعوا غاية التوسع بلا مبالاة بكرامة الميت ولا مراقبة لله تعالى .

مع أنه قدورد عن عائشة -رضي الله عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « أن كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه مالك وأبو داود وابن ماجه

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلدته خير له

من أن يجلس على قبر » رواه مسلم وأبو داود والنسائي . وعن عمرو بن حزم قال : رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- متكئاً على قبر فقال : « لا تؤذ صاحب هذا القبر » رواه الإمام أحمد .

وسر ذلك أن الروح تدرك ما يفعل بجسدها وتتألم له ، ولكن الشريعة بعد ذلك توازن دائماً بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب ألا نكون جامدين كما يجب أن نكون محتاطين .

والله يتولى هدى الجميع

تشریح المیت

« كتبنا عن تشریح المیت وقد رأينا للشيخ العربي (بوعيد الطنجي) رداً علينا ببعض المجلات ، نقفك اليوم على أهم ما جاء فيه ، ثم نعلق عليه بما يحق الحق ويبطل الباطل إن شاء الله ، فنقول :

إن فتوانا في تشریح المیت مجملة كثيراً ، فإننا لم نعرض فيها لجزئية خاصة ولا لحادثة معينة ، ولم نطلق فيه الجواز إطلاقاً بل قيدناه بالضرورة ، وجعلناها علة الحكم الذي يدور معها وجوداً وعدمًا .

وقد حذرنا في آخر كلمتنا الأطباء وأولى الأمر من التوسع في ذلك الموضوع ، وأمرناهم أن يقتصروا على قدر الضرورة ، وقلنا لهم : « إن الناقد بصير والمهيمن قدير » . وهذا صريح في أننا نطالبهم بالاعتصار على مقدار الضرورة ولا نبيح لهم أن يتجاوزوها بحال من الأحوال ، خصوصاً في كلمتنا الثانية .

ومن المعلوم الذى لا شك فيه أن هناك من الضرورات ما يجب أن نحكم معه بجواز تشريح الميت ، كما إذا توقفت تبرئة ساحة متهم ظلماً على تشريح الميت الذى يظهر منه أنه غير مجنى عليه مثلاً .

ويقول صاحب الرد :

« معلوم أن شهادة هؤلاء المشرحين غير معتبرة شرعاً ولا مقبولة في مذهب من مذاهب الإسلام حتى تثبت عدالتهم » .

ونقول له أولاً : إن هذا حكم قاس جداً ، فإن كثيراً من الأطباء لا يشك في صلتهم وعدالتهم . على أن ذلك من باب الأخذ بالقرائن التى يعتبرها الشرع ، كما بينه ابن القيم فى (السياسة الشرعية) وصاحب معين الحكام وغيرهما من المحققين ، وستسمع شيئاً عن القرافى المالكى فى ذلك .

والدين لا يهمل الحقيقة متى ظهرت ، ولا يعدو الحق متى تبين . وهكذا يجب أن نفهم الدين وننزل الوقائع عليه . ونحن فى زمان قلما نصل فيه إلى الإثبات الشرعى من طريق واحد ، فلا يجوز أن نهمل بقرينة الطرق التى تؤدينا إليها ، بل قد تجعلها لمس اليد ورأى العين .

وقد طبقت العلماء كثيراً من تلك الجزئيات على ما جاء فى الشريعة من قواعدها العامة وكلياتها التى تسع ذلك كله على ما ستسمع ، علماً منهم أن الشريعة الإسلامية يمكن أن تطبق أصولها الكلية وروحها التى لا تعرف إلا الحق ولا تريد إلا جلب المصلحة ودرء المفسدة على كل

ما يعرض للناس من أحوال وأقضية بمقتضى نظرها السامى وحكمتها البالغة .

فروحها الذى هو تنزيل من حكيم حميد يبعث فى أحكامها العادلة كل معانى الحيوية والنمو والصلاحية لكل ما يرقى العمران ، ويعود بالخير على بنى الإنسان فى كل زمان ومكان .

فإذا أمكن أن نخلص مسلماً من المسلمين يتهم ظلماً بما هو برىء منه بئى طريق من الطرق دون أن نحتم على أنفسنا سلوك طريقة واحدة قد لا تصل بنا إلى الغاية المنشودة من إحقاق الحق وإقراره فى نصابه ، وجب ذلك وتحتم علينا أن نخلص المسلم ونحققن دمه ما أمكن ، وأن نحافظ على حقوقه ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .

وارتكاب أخف الضررين واجب بالاتفاق . وهى قاعدة من القواعد التى اتفق عليها العقل والنقل .

وأرأى مسوقاً لأن أنقل لك عبارة القرافى المالكى بطولها فى « كتاب الذخيرة » لما لها من المناسبة التامة لهذا المقام ، وما فيها من الفوائد الجمة التى تناسب حكمة الشريعة ونظرها البعيد قال رحمه الله :

واعلم أن التوسعة على الحكام فى الأحكام السياسية ليس مخالفاً للشرع بل تشهد له الأدلة المتقدمة ، وتشهد له أيضاً القواعد الشرعية من وجوه :

(أحدها) أن الفساد قد كثر وانتشر بخلاف العصر الاول ، ومقتضى ذلك اختلاف الأحكام بحيث لا تخرج عن الشرع بالكلية ،

لقوله - صلى الله عليه وسلم - : (لا ضرر ولا ضرار) وترك التوسعة التي تقتضيها السيسة الشرعية مؤد إلى الضرر لا محالة . ويؤكد ذلك جميع النصوص الواردة بنفي الحرج .

و (ثانيها) أن المصلحة المرسلة قال بها جمع من العلماء - خصوصاً المالكية - وهي المصلحة التي لم يشهد الشرع باعتبارها ولا بالغاها .

ويؤكد انعمل بالمصالح المرسلة أن الصحابة - رضى الله عنهم - عملوا أموراً كثيرة لطابق المصلحة لا لتقدم شأهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمر ولا نظير .

وكذلك : رك الخلفة شمورى بين ستة ، وتدوين الدواوين وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن وغير ذلك مما فعله عمر وغيره من الصحابة - رضى الله عنهم - ، كهدم الأبنية التي بإزاء المسجد أعنى مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - والتوسعة بها فى المسجد عند ضيقه ، وحرق المصاحف وجمعهم على مصحف واحد وتجديد أذان الجمعة بالسوق مما فعله عثمان . رضى الله عنه - ، وغير ذلك كثير جداً ، فعل لمطلق المصلحة .

و (ثالثها) أن الشرع شدد فى الشهادة أكثر من الرواية لتوهم العداوة فاشتراط العدد والحرية ووسع فى كثير من العقود للضرورة كالعرايا والمساواة والقراض وغيرها من العقود المستثناة .

وضيق فى الشهادة فى الزنى ، فلم يقبل فيه إلا أربعة يشهدون بالزنى كالمرود فى المكحلة . وقبل فى القتل اثنين ، والدماء أعظم لكن المقصود الستر ولم يحوج الزوج الملاعن إلى بينة غير أيمانه ولم يوجه عليه حد

القذف بخلاف سائر القذف لشدة الحاجة للذب عن الأنساب و صون العيال والفرش عن أسباب الارتياب .

وهذه المباينات والاختلافات كثيرة في الشرع لاختلاف الأحوال .
فلذلك ينبغي أن يراعى اختلاف الأحوال والأزمان فتكون المناسبة الواقعة في هذه القوانين السياسية مما شهدت لها القواعد بالاعتبار فلا تكون من المصالح المرسله ، بل أعلى رتبة فتلحق بالقواعد الأصلية .

و (رابعها) أن كل حكم في هذه القوانين ورد دليل يخصه أو أصل يقاس عليه : إلى أن قال : وإن لم نجد في جهة إلا غير العدول أقمنا أصلحهم وأقلهم فجوراً للشهادة عليهم ويلزم مثل ذلك في القضاة وغيرهم لثلاث تضيع المصالح وتتعلل الحقوق والأحكام .

« وما أظن أن أحدا يخالفه في هذا فإن التكليف مشروط بالإمكان » .

وإذا جاز نصب الشهود فسقة لأجل عموم الفساد جاز التوسع في الأحكام السياسية لأجل كثرة فساد الزمان وأهله .

وقد قال عمر بن عبد العزيز : سيحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من الفجور . قال القرافي : ولا نشك أن كثيراً من قضاة زماننا وشهودهم وولاتهم وأمنائهم لو كانوا في العصر الأول ما ولوا ولا عرج عليهم ، وولاية هؤلاء في مثل ذلك العصر فسوق ، فقد حسن

ما كان قبيحاً ، واتسع ما كان ضيقاً ، واختلفت الأحكام باختلاف الأزمان . إلى أن قال :

ولذلك قال الشافعي -رضي الله عنه- : ما ضاق شيء إلا اتسع . يشير إلى هذا المواطن . فكذلك إذا ضاق علينا الحال في درء المفسد اتسع كما اتسع في تلك المواطن .

و (خامسها) وهو مما يستأنس به - أن أول بدء الإنسان من زعم آدم عليه السلام كان الحال ضيقاً فأبيحت الأخت لأخيها ، وكذلك أشياء كثيرة وسع الله تعالى فيها . فلما تغير الحال وكثرت الذرية حرم ذلك في بني إسرائيل ، وحرم السبب والشحوم والإيل وأهـور كثيرة ، وجعل توبة أحدهم بالقتل لنفسه وإزالة النجاسة بقطعها إلى غير ذلك من التشديدات .

ثم جاء آخر الزمان وضعف الجسد وقل الجلد ، فلطف الله بعباده ، فأحلت تلك المحرمات وقبلت التوبات . فظهر بذلك أن الأحكام ، والشرائع قد راعى فيها الله تعالى وهو الحكيم العليم اختلاف الأزمان وذلك من لطف الله -عز وجل- وسنته الجارية في خلقه ، وظهر أن هذه القرائن لا تخرج عن أصول القواعد وليست بدعاً عما جاء به الشرع المكرم . إلى أن قال :

ومن الناس من توهموا أن السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأمة فتعدوا حدود الله وخرجوا عن الشرع إلى أنواع من الظلم والبدع في السياسة على وجه لا يجوز وسبب ذلك الجهل

بالشريعة . وقد صحح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من تمسك بالكتاب
والسنة لن يضل . انتهى كلام القرافي .

وهو نفيس جداً إلا أننا نحذر الناظر فيه من توسع الجهلاء ومراعاة
الأهواء ونحتم أن يكون ذلك من أهله العارفين بروح الشريعة المحتاطين
فما يقولون ويكتبون .

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي فنقول :

إن من الواضح جداً قياس التشريح لإنقاذ حياة مسلم مثلاً على المال
الذي قال كثير من الفقهاء إن الميت يشق بطنه لإخراج ذلك المال الذي
ابتلعه قبل موته . وقد قال الشيخ العربي في قياس تشريح الميت على
شق بطنه لإخراج مال ابتلعه على ما قرره الفقهاء : (إن هذا الفرع
باطل في نفسه فكيف يلحق به ما هو أبطل منه) ؟

ونقول أولاً : إن هذا ليس رداً علينا فقط ، بل هو أيضاً في معنى
الرد على جميع الفقهاء الذين قرروا هذا الفرع -الباطل في زعمه- . ولم
يقتصر الشيخ العربي على إبطال هذا الفرع الذي قرره الفقهاء وهو
شق بطن الميت لإخراج مال ابتلعه ، بل أنكروا أن يكون مروياً عن
الأئمة والعلماء حيث يقول : « إذ معاذ الله أن يصدر من الأئمة
المجتهدين والعلماء العاملين الموصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى
وتعظيم حرمانه القول بإباحة هتك حرمة الميت المسلم التي أمر الشارع
بحفظها ، وجواز بقر بطنه من أجل مال مقدر بنصاب السرقة
لا يسمن ولا يغني من جوع الخ » .

فأنت ترى الشيخ العربي يتوصل لإبطال القياس بأن ما قرره
الفقهاء من جاز شق بطن الميت إذا ابتلع مالا باطل في نفسه ، وأن
الأئمة المجتهدين الموصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى لم يصدر
عنهم القول بهذا الفرع .

وسيمر بك من النصوص ورواية هذا الفرع عن أئمة المذاهب
الأربعة ما تحكم معه على الشيخ العربي بأنه يرى أن أولئك الأئمة
القائلين بهذا الفرع غير موصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى .

وهذا الحكم عظيم صدوره من أمثال الشيخ العربي . ولا أدري
كيف ينكره هذا الإنكار القاطع مع أنه منصوص في كتب الفقه
وثابت عن الأئمة الأربعة وإن اختلفت فيه الأنظار وتنوعت فيه
العبارات على أنه اعترف به بعد ذلك كما يعلم من مراجعة كلامه .

ولا أدري كيف لم يلتفت إلى هذا التناقض الواضح مما يدل على
أنه كان يكتب بالعاطفة لا بالتحري « ولهذا أوصانا بالغباء كأننا
لم نكتب ما كتبناه إلا بقصد الإضرار بهم » .

هذا ومسألة المال الذي ابتلعه وشق بطنه من أجله تكلم فيها العلماء
البحول في كل المذاهب كما قلنا .

ولنسق لمقارئ الكريم بعض تلك الأقوال ، ولنبدأ منها بكلام
المالكية في أشهر كتبهم التي بين أيدينا فضلا عن غيرها . وستقضى
العجب العجاب عندما ترى تلك النصوص التي جهلها الشيخ العربي

وهو من أفاضل علماء المالكية ، والنصوص في أقرب الكتب وأشهرها
فسبحان من يتصرف فيمن يشاء كما يشاء . وهذه هي النصوص :

قال خليل « وبقر عن مال كثر ولو بشاهد ويمين » .

قال الخرشي في شرحه : « البقر عبارة عن شق جوف الميت
يعنى أن من ابتلع مالا له أو لغيره ثم مات فإنه يشق جوفه فيخرج
منه إن كان له قدر وبال بآن يكون نصاباً وهل نصاب الزكاة أو السرقة؟
قولان وقال ابن حبيب بعدم البقر . قال في التوضيح قال شيخنا :
أي ينبغي أن يكون الخلاف إذا ابتلعه لقصد صحيح كخوف
عليه أو لمداواة ، وأما إن قصد قصداً مذموماً كحرمان وارثه فلا ينبغي
أن يختلف في وجوب البقر لأنه كالغاصب . وقيده ابن بشير بما
إذا كان للميت مال يؤدي منه وإلا فلا ينبغي أن يختلف في
استخراجه . ولا فرق بين أن يشبث الابتلاع ببينة أو بشاهد ، ويحلف
المدعى لذلك معه وإليه أشار بقوله : « ولو بشاهد ويمين » .

وقال في الشرح الكبير للدردير على عبارة خليل السابقة « وبقر » :
أي شق بطن ميت « عن مال » له أو لغيره ابتلعه حياً « كثر » بآن
كان نصاباً « ولو » ثبت « بشاهد ويمين » . ومحل التقييد بالكثير
إذا ابتلعه لخوف عليه أو لمداواة أما لقصد حرمان لوارث فيبقر ولو
قل أه .

وقال الأسير في المجموع وشرحه : « وشق بطنه » أى الميت « عن كثير » نصاب زكاة « ولو بشاهد ويمين » .

وقال الشيخ حجازى فى حاشيته عليه عند قوله « نصاب الزكاة » ظاهره أنه لا يبقر عن الأقل ولو كدينار مثلا ، مع أن له بالا . ولو قيل يبقر عما له بال كان أولى . واستظهر الشيخ الأمير فى حاشيته إحالة ذلك على العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال .

ولو شئنا لنقلنا لك كثيرا من نصوص المالكية . فلنقتصر على هذا . ولننقل لك نصوص المذاهب الأخرى حتى تعلم أن المسألة معروفة مشهورة لدى أرباب المذاهب الأربعة فنقول :

قال ابن قدامة الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٠ فى « شرح المغنى » عند شق بطن الأم الميتة لإخراج الجنين منها : « ويحتمل أن يشق بطن الأم إن غلب على الظن أن الجنين يحيا وهو مذهب الشافعى لأنه اتلاف جزء من الميت لإبقاء حى فجاز كما لو خرج بعضه حيا ولم يمكن خروج بقيته إلا بشق ولأنه يشق لإخراج المال منه فلابقاء الحى أولى » . فأنت ترى أنه فى التعليل قاس مسألة الشق لإخراج الجنين على مسألة اشق لإخراج المال قياسا أولويا كما قلنا إلى أن قال ابن قدامة فى مسألة المال :

« ويحتمل أنه إن كان يسيرا ترك وإن كثرت قيمته شق بطنه وأخرج لأن فيه حفظ المال عن الضياع ونفع الورثة الذين تعلق حقهم بماله بمرضه » ومن جملة ما ذكره احتمالا أنه يشق إن كان

كثيرا للغير لأن فيه دفع الضرر عن المالك يرد ماله إليه وعن الميت
بإبراء ذمته وعن الورثة بحفظ التركة لهم .

ولننقل لك عبارته في فصل عقده في بيان ما إذا كان الميت في
بئر فيه بخار خائق بآن انعدم الأوكسجين الذى هو عنصر الهواء
الصالح للتنفس « ج ٢ ص ٤٠٧ » لما فيها من زيادة الفائدة وبيان
أنظار العلماء في أمثال تلك المسائل :

« وإذا شك في زوال بخاره « يريد البئر » أنزل إليه سراج
أو نحوه فإن انطفأ فالبخار باق وإن لم ينطفئ فقد زال فإن النار
لاتبقى إلا فيما يعيش فيه الحيوان وإن لم يمكن إخراجه إلا بمثلة ولم
يكن إلى البئر حاجة طمت عليه فكانت قبره وإن كان طمها يضر بالمارة
أخرج بالكلايب سواء أفضى إلى المثلة أو لم يفض لأن فيه جمعا
بين حقوق كثيرة : نفع المارة ، وغسل الميت . وربما كانت المثلة
في بقائه أعظم لأنه يتقطع وينتن فإن نزل على البئر قوم فاحتاجوا إلى
الماء وخافوا على أنفسهم فلهم إخراجه وجها واحدا وإن حصلت مثلة
لأن ذلك أسهل من تلف نفوس الأحياء ولهذا لو لم يجد من السترة إلا
كفن الميت واضطر الحى إليه قدم الحى ، ولأن حرمة الحى وحفظ
نفسه أولى من حفظ الميت عن المثلة ، لأن زوال الدنيا أهون على الله
من قتل مسلم ولأن الميت لو بلع مال غيره شق بطنه لحفظ . مال
الحى وحفظ النفس أولى من حفظ المال . اه .

هذا كلام ابن قدامة وفيه من الفقه والعلم ما تفهم معه أن الفقهاء
راعوا حرمة الميت عملا بالنصوص ما لم تتعارض مع مصالح حقيقية

للحى كالإبقاء على نفسه أو ماله . ولم يقفوا جامدين عند ظاهر النصوص التي تأمر بياكram الميت وعدم إهانته دون أن ينظروا إلى إلبى ما يعارضها من أدلة الشرع الأخرى .

وقال فى « المهذب » وهو من أعظم كتب الشافعية : « وإن ابتلع الميت جوهرة لغيره وطالب بها صاحبها شق جوفه وردت إليه وإن كانت الجوهرة له ففيه وجهان : أحدهما يشق لأنها صارت للورثة فهن كجوهرة الأجنبي . والثانى : لا يجب لأنه استهلكها فى حياته فلم يتعلقت بها حق الورثة » .

قال شارحه النووى فى المجموع : « أما إذا بلع جوهرة لغيره أو غيرها ففيه طيقان ، الصحيح منهما وبه قطع المصنف والأصحاب فى معظم الطرق أنه إذا كان طلبها صاحبها شق جوفه وردت إلى صاحبها والطريق الثانى فيه وجهان ممن حكاه المتولى والبغوى والشاشى أصحابهما هذا . والمشهور للأصحاب إطلاق الشق من غير تفصيل . أما إذا بلع جوهرة لنفسه فوجهان مشهوران ، ذكر المصنف دليلهما قل من بين الأصح منهما مع شهرتهما فصحح الجرجانى فى الشافى والعبدرى فى الكفاية اشق » .

وقال أبو حنيفة وسحنون المالكى : يشق مطلقا . إلى غير ذلك وهو كثير .

فمسألة كهذه كثر فيها الخلاف لكونها محل اجتهاد لا ينبغى التنازع فيها ولا كثرة الجدل . ولكل رأيه ووجهة نظره مع تأكدا حسن النية من فضيلة الأستاذ الشيخ العربى .

أما قوله : إن هذا قياس في محل النص مستندا إلى الأحاديث التي تنهى عن إيذاء الميت فهو عجيب لأن ذلك لو خالف النص لم يكن لهذا الفرع وجود في كتب الفقهاء ، فإن شق البطن إهانة للميت وهو مصادم لهذه النصوص على فهم الشيخ العربي . والحقيقة أن الأحاديث التي نهت عن إهانة الميت ليست نصا فيما يريد ولاهى واردة في محل النزاع فإن موردها فعل ذلك استهانة بالميت كما يفيد سبب ورود الحديث وهو أن حفاراً أخرج عظما « ساق أو عضم » فذهب ليكسره فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : « لا تكسرها فإن كسرك إياه ميتا كسرك إياه حيا ولكن دسه في جانب القبر » .

أما محل النزاع فهو ما تتعارض فيه المصلحة والمفسدة ثم تكون المصلحة فيه أرجح من المفسدة وقد عرف العلماء ذلك فقالوا ما قالوا في مسألة الجنين الذى فى بطن الميت ومسألة المال الذى ابتلعه الميت ولم يروا فى ذلك مخالفة لهذه الأحاديث التى ظننها حضرته نصوصاً فى الموضوع وما هى منه فى قليل ولا كثير .

أما تقدم علم الطب بالتشريح فلم نجعلها أساسا لذلك ولكن ذكرناها على سبيل العلاوة والتكميل كما يعرف من مراجعة كلامنا . هذا ودعوى أن تشريح الحيوان مثل تشريح الإنسان كما قال بعض الكاتبيين دعوى لا يقرها العلم كما هو معروف . وأبطل منها دعوى أن علم التشريح قد وصل إلى غايته حتى أصبح وليس فيه زيادة المستزيد ، دعوى يضحك منها الباحثون والمكتشفون وناهيك ما يقررونه الآن فى الغدد وآثارها العجيبة مما لم يحلم به الأولون .

ولنذكر لك ما جاء في بعض أعداد مجلة الهلال إجابة لطلب بعض قراء المجلة الذين ألحوا علينا أن نتوسع في ذلك الموضوع الذى يهمهم كثيرا. « ولعل الشيخ العربى يقول إن صاحب الهلال مسيحي ينقل عن المسيحيين ثم يقوم فيرد علينا بذلك ». ولندع هذا وما يشبهه هذ وننقل لك ما جاء في تلك المجلة قال ما خلاصته :

« إن فى الإنسان ما يشبه الأزرار الكهربائية ، إذا ضغطت أثرت فى جسمه نمرا وسمكا وقصرا وطولاً وانتقالاً من طور إلى طور وهلم جرا . وهذه لأزرارهى الغدد المنقطعة^(١) أى التى تفرز سوائلها بدون قنوات . فالسائل يخرج مباشرة إلى الدم لا تحمله إلى الأعضاء قنوات خاصة . فالكبد مثلا غدة كبيرة بل هى أكبر غدة فى جسم الإنسان ولكنها ليست منقطعة إذ هى تفرز الصفراء فى الأمعاء بواسطة المرارة . فالمرارة قناة تحمل الصفراء من الكبد إلى الأمعاء ولكن الغدة الدرقيه التى تقع فى أسفل الحنجرة تفرز سائلها فى الدم مباشرة . فهى لذلك غدة منقطعة » .

إلى أن قال : « إننا نرى فى الإنسان بعد أن يعدو طور الجنين أن تشبيهه الغدد بالأزرار الكهربائية ليس من المبالغات . فبعض الأطفال مثلا تمرض فيهم الغدة الدرقيه فيبقون أطفالا من حيث الدهن ونمو الجسم مدى حياتهم ولا يمكن أن يبلغوا سن الرجولة العتمالية والجسمية ما لم يغذ دمهم بالغدة الدرقيه المستخرجة من الفرس » .
إلى أن قال : « فنحن الآن فى البيولوجية كما كنا فى الكيمياء قبل

(١) يعنى : الصماء .

مائتى سنة . فإذا دخلنا فى دور التجارب فإننا سنرى العجائب من الغدد .

إلى أن قال :

« ولسنا ندرى الآن على وجه التحقيق ما هى تلك الغدد التى تجعل الأوربى حديد المراج قوى الطبع فى حين أن الصينى حامل الذهن عديم النشاط . »؟

إلى أن قال ؛ :

الخلاصة

أنه انفتح للغدد ميدان وهو كنز واسع لايزال يعد بكرة أو كالبكر فى أيدينا مفاتيحه ولكننا لم نتمرن بعد على فتح مغاليقه بها .
ومن ذا يستطيع أن يقول إن العلم له غاية؟ ويعجبني قول بعضهم :
إن الغاية اسم بلا مسمى وما يتراعى من وجودها فإنما هو بحسب العقل البشرى والخيال الإنسانى

وهكذا يجب أن تكون سعة الروبوية وتصرفاتها وآثار قدرتها التى لانهاية لها ، التى يرينا العلم كل يوم من آياتها العجائب والغرائب ، خصوصاً فى الإنسان الذى لاتنتهى عجائبه : (فى أى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) ^(١) (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ^(٢) (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ^(٣) . (وَمَا عَوِّتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ^(٤) .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

(١) سورة الانفطار ، الآية ٨

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٩٦

فكيف يدعى مدع بعد ذلك كله أن تركيب الإنسان مثل تركيب
الحيوان أو أن علم التشريح بلغ غايته ، والغاية مفقودة المسمى
في هذا العالم ؟

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يجنبنا الإفراط
والتفريط في القول والعمل بمنه وكرمه .

رؤية الهلال عند الغروب وبعد الفجر

رفع إلى بعض التونسيين الأزهريين سؤالاً يقول فيه :

ماحكم الله إذا شهد شاهدان عند القاضي بأنهما رأيا هلال شوال
عند غروب التاسع والعشرين من شهر رمضان ، فحكم القاضي
بانتهاؤ شهر الصوم ، ولكن رآه آخرون بعد الفجر من تلك الليلة
فصاموا ولم يفطروا معتقدين أن الشهر ثلاثون لاتسعة وعشرون ؟
أبو القاسم التونسي الأزهرى

الجواب

جاءنا هذا السؤال منذ زمان وجاءنا اليوم أسؤال بمعناه من بعض
مدرسى المدارس ، وقد طلب منا التوسع في الجواب ونشره بمجلة الأزهر .
فنقول وبالله التوفيق غير معولين على ظواهر المنقولات ولا يفيد
كثير من العبارات ، وإنما نكتب ما يملئنا روح الشريعة السامى
ونظرها البعيد :

ومن المعلوم أن الإسلام يسر سَمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس
شظطاً . فهو يسمع الناس جميعاً على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم
وتنوع اجتهادهم ، علماً منه بان الله لم يخلق الناس على استعداد
واحد . بل بينهم من التفاوت فى الاستعداد والتخالف فى

التكوين والتباين في الدرجات والاختلاف في الآراء والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

ولم يتفق في أفراد نوع من الأنواع من التفاوت مثل ما اتفق بين أفراد نوع الإنسان . والشارع الحكيم - عز وجل - يعلم ذلك كله من خلقه « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »^(١) . والله يريد أن تكون هداية الإسلام عامة ورايته شاملة لكل من فيه مثقال ذرة من خير . وقد عرفنا أنه لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب . وقد جعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب فلم يكتف برفع الإثم عن المخطيء ، بل جعل له أجراً .

ولهذا لم يتل صلى الله عليه وسلم شيئاً لمن صلى العصر في الطريق ولا لمن أخرج الصلاة إلى بني قريظة . ولم يُلِّم على إمام السرية الذي كان يقرأ سورة الإخلاص دائماً ولا قال له إن الصبح يطلب فيها التطويل وأن الظهر تليها . إلى آخر ما قرره الفقهاء ، بل قيل أخبرود أن الله يحبه كما في الحديث الصحيح ، إلى آخر ما هو كثير ومعروف من السنة النبوية والملة المحمدية .

وكأنه - صلى الله عليه وسلم - لا يريد منا إلا عدم الخروج على الله ورسوله ، ولا يكلفنا إلا أن نخلص النيات لله تعالى ونأتي الله بقلب سليم . فالدين الإسلامي لا يتعمق تعمق الجاهلين ولا يتصلب تصلب الجامدين ولا يحب نضال المتعصبين ولا تشدق المتفیهقين ولا تنازع الثرثارين

وما كان شئٌ أبغض إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الفرقة والانقسام .

وكان المقصود الأسمى من بعثته - صلى الله عليه وسلم - إنما هو الوئام وإيجاد الألفة والمحبة بين المؤمنين وعدم التفرق فيما بينهم :
«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُوْمِنُوا وَلَا تُوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا» .

وقد شرع لذلك وسائل كثيرة حتى جعل المصافحة مكفرة للذنوب وأمر بإفشاء السلام وندب إلى التهادي . ولم يبالغ في شئ ما بالغ في حرمة المسلم كما هو معروف حتى جعله أعظم حرمة من الكعبة كما في حديث ابن ماجه وغيره . ولولا تلك الأنظار السامية وذلك التسامح البالغ والرفق المتناهي ، لم يكن الإسلام دين الأمم كلها ولم يصلح لإلقوم جامدين وطائفة مخصصين .

اعتبار الاسلام للحقائق :

ولكنه مع هذا كله لا يعتبر إلا الحقائق متى ظهرت ولا يعدل عن الواقع متى تبين ، فهو دين الحق والعلم كما أنه دين الرحمة والحكمة فمتى عرفنا الحقيقة بآى وسيلة من الوسائل لم نعدل عنها . ومتى قام البرهان على شئ من الأشياء وجب التصير إليه والتعويل عليه فهو أكبر أنصار العلم وأعظم دعاة الحقيقة ولكنه لا يحب التنطع الممقوت ولا الفلسفة الحمقاء .

الخلاصة

أن الدين لإسلامي لا يعدل عما يوجبه الدليل وتقوم عليه الحجة فهو دين البرهان ودين البيان ودين الحقائق والدقائق ودين العامة والخاصة بأساليب وأسرار تبهر العقلاء وتدهش العلماء .

فإذا تبين هذا علمنا أن القاضى الذى يحكم على مقتضى بينة المساء لاشئء عليه بعد أن يعتقد أنهم صادقون فيما شهدوا به فإن كانوا كاذبين فى اواقع متعمدين لذلك فعليهم ما يستحقون من جزاء الكاذبين المضامين . وليس على من اتبع حكم القاضى فى ذلك شئء متى انقدح فى ذهنه صدق الشهود ولم يقم عنده برهان على كذبهم .

وكذلك نتول : من رأى القمر بعد الفجر لا شئء عليه ما دام يعتقد أن الشهر باق وأن اليوم من رمضان . وكذلك يجب الصوم على من صدقه واعتقد أن البينة الأخرى كاذبة عمداً أو خطأ .

ولا يمكننا أن نفتى بأن أحدا يخالف اعتقاده فى هذا وإن كان عليه أن يبحث عما هو الواقع فى نفس الأمر بقدر ما يستطيع . وكيف نلزمه بالفطر وهو يعتقد أن اليوم من رمضان أو نوجب عليه الصوم وهو يعتقد أنه يوم عيد؟ ولا يسعنا أن نقرر إلا أن كلا يتبع ما يعتقد ولا يعدل عنه وأنه إذا خالفه كان منتهكا لحرمة الدين فيما يعتقدده . ولم يكلفنا الله بإصابة الواقع وإنما كلفنا بالعمل باعتقادنا وقد اعتبرنا

ما يقرره الفلكيون في حساب الأوقات وأمر القبلة وغير ذلك وقلنا
في كتبنا الفقهية :

قطب السما اجعل حذو أذن يسرى بمصر والعراق حذو الأخرى

إلى غير ذلك . وقد أكثر الله من ذكر الشمس والقمر وسيرهما
المنتظم فقال : (الشمس والقمر بحسبان) ^(١) (والقمر قدرناه منازل) ^(٢)
(هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا وقدرة منازل لتعلموا
عدد السنين والحساب) ^(٣) .

ومعرفة علم الفلك من فروض الكفاية على حد محدود ، فلم تهمل
الشريعة ذلك بالكلية . وسر ذلك أن عندنا أشياء يمكننا الوصول
إليها وأشياء ليست كذلك . فما كان من قبيل المغيبات والحوادث
المستقبلات فلا نخوض فيه لثلا نقع في الغلط والجهل وننقاد بغريزة
الوهم والخيال إلى مهامه لا نحسن السير فيها ولا الوقوف على خوافيها
وإن صح أن نقول ذلك كله من قبيل الأسباب والمسببات ، ولكن
لما أله بعض النامس الكواكب نهانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن
الخوض في النجوم خوفاً من الوقوف معها والانقطاع إليها .

فهنا ما نهينا عنه حرصاً على أوقاتنا وضمنا بعقولنا عن المزايق التي
لا علم فيها ولا ضرورة إليها . أما ما يكون من قبيل الحسيات التي

(١) سورة الرحمن ، الآية ٥

(٢) سورة يس . الآية ٣٩

(٣) سورة يونس الآية ٥

عرفنا من مشاهدتها المتكررة أنها من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير فهذه لا بد منها، ولا يمكننا العدول عنها . فإن الحقيقة لا يصح في نظر الدين الصحيح إغفالها ولا القول بما ينافيها وإلا كنا قائلين بأن الدين يعادى العلم وهو ما نتحاشى عنه ونبرئ الدين منه . فإن كان هناك دين يعادى العلم فليس هو الإسلام الذي حث على الفكر ، ودعا إلى النظر في مكونات السموات والأرض .

وبعد : فيجوز غلط الشهود في الرؤية ويجوز تعمدهم للكذب وكثير من الناس يتخيل ثم يخال ، فعلى القاضي أن يتحرى غاية التحرى ويتيقظ. لأمثال هذه الدقائق حتى يؤدي ما يجب لنفسه وللمسلمين .

غير أن لنا كلمة مع شهود الفجر ، وقد قال المدافعون عنهم إنه لا تمكن رؤية القمر بعد الغروب وبعد الفجر من تلك الليلة وهو ما نخاله صحيحا . ولكن نقول : كيف رأوه بعد الفجر ليلة ثلاثين والمحاق لا بد منه باعترافهم ؟ وإذا كان هذا الفريق يرى أنه لا بد من المحاق فكيف يسلم رؤية القمر بعد الفجر يوم الثلاثين ؟ وهل لا يجد في ذلك تنافيا بينه وبين المحاق الذي أوجبه ؟

يجب أن يحرر هذا المقام تحريرا يثلج الصدر وتطمئن إليه النفس وقد تكلمت مع بعض الفلكيين عندنا بمصر فقال : إنه لا يمكن أحد أن يرى الهلال بعد الفجر بالعين المجردة في ليلة ثلاثين ، فليحرر ذلك من هو أقدر مني على تحريره والدين النصيحة .

وليس قصدي أن أُحقق المسألة الفلكية عند أربابها ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن الحقيقة متى تبينت ولو على يد كافر وجب اتباعها فى الدين الإسلامى ولا يصح غير هذا . ومن المحتمل أن يكون المرئ نجما من النجوم ظنوه قمرا أو عرض لهم الخطأ فى ذلك بأى سبب من الأسباب الكثيرة .

وبعد ذلك فليست أدرى بماذا ترجح إحدى الشهادتين على الأخرى واحتمال الصدق والكذب قائم فى كل منهما ، فعلام هذا التنازع وهذه الموضوعات ؟ فأرجو أن يتحرى الفريقان الإنصاف ويدعوا التعسف فيما بينهم ولا يتنازعا ويفشلرا وتذهب ريحهم . وهى كلمة ساقنى إليها حب الوثام وبغض الانقسام .

وكل ما أخشاه هو أن يقول المتحذلقون أو الملحدون ؛ إن الدين يعادى العلم وهى التهمة التى تلقفها بعض الشبان الأغرار من المسلمين عن ملحدى الأوربيين وذلك إن صح فهو فى دين غير دين الإسلام كما قلنا . ولا يبعد أن يقوم بعض الناس فيعارضنا ببعض الظواهر من كلام الفقههاء ، غير راجع إلى ذوق الشريعة وما ترمى إليه من أسرار سامية وأنظار بعيدة وما يجب لها من الصون عن تعريضها لقالة الجامدين أو طعن الملحدين . (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (١)

ولسنا نتكلم إلا بما نعرفه من روح الشريعة الحكيمة المطهرة ولعل الله يهدى به كثيرا من عباده المنصفين المخلصين .

ذكرنا أن الإسلام يسر سمرح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا وعايته التي يرمى إليها من قرب أو بعد هي إصلاح القلوب وعرس مراقبة الله فيها وأبغض الأشياء إليه هو الفرقة والانقسام ، ولذلك وسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آراهم وتنوع اجتهادهم ، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد . بل بينهم من التفاوت في الاستعداد والتخالف في التكوين والتباين في الدرجات والاختلاف في الآراء والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى . ونصحننا بها للمفطرين الذين عملوا بحكم القاضى الذى شهد أمامه شهود المساء بروية هلال شوال وللصائمين الذين يقولون إنهم رأوا الهلال صباحاً واعتقدوا أن اليوم من رمضان .

نصحننا لهم جميعا ألا يتنازعوا فيفسلوا وتذهب ربحهم ، وقلنا إن كلا يعمل على اعتقاده وما أداه إليه اجتهاده . ونصحننا للقاضى أن يتحرى ويحتاط فإن عليه تبعة كبرى إذا تهاون فى ذلك وعلى القضاة أن يعرفوا أحوال الناس وأن يكون لهم فراسة صادقة وبصيرة نافذة بحيث لا يخفى عليهم أحوال المجتمع الذى هم فيه . فليدققوا فى أمر الشهود وليعلموا أن الأمر جليل والخطب كبير والناقد بصير .

وقد أذكرنى ذلك قول بعض المفسرين فى قوله تعالى : (يَأْذُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ)^(١) إنما نهاه الله عن اتباع الهوى بعد أن أمره أن يحكم بالحق لأن الحكم

بالحق لا يخرجهم عن المسؤولية إلا إذا حكم بالحق لأجل كونه حقاً ،
فإذا حكم به لأجل كونه موافقاً لهواه لا كونه حقاً ، لم يكن من قضاة
الحق بل من قضاة الهوى .

ولندكر لك بعد ذلك الخلاصة التي يجب التعويل عليها في رأينا
ثم نعقبها بكلام بعض العلماء فنقول :

الخلاصة

الرأى الذى نرتثيه أنه لا يمكننى بحال من الأحوال أن أقول إنه
يصح للإنسان أن يقدم على أمر وهو يعتقد حرمة أو أن يخالفه
وهو يعتقد وجوبه ولا أن أقول إن الدين يخالف حقيقة علمية قررها
العلم وقام عليها البرهان . ولا يصح أن نعرض الدين لهزء الهازئين
وسخرية الساخرين فى عصر لا داعى للإطناب فى شرحه وبيان ما فيه .
ولا نزال نكرر أن الله لم يكلفنا بالواقع (لا يكلف الله نفساً إلا
وسعها)^(١) . وقد قرروا أن المجتهد يجب اتباع ظنه ولا يجوز
مخالفته . وذكر الفقهاء أن من رأى طيراً فحلف بالطلاق وأنه غراب
مثلاً فنظر إليه آخر فحلف بالطلاق أنه حدأة ثم لم يتبين أمر ذلك
لم يحكم بوقوع الطلاق على واحد منهما حيث لم يحلف إلا عن إعتقاد
لم يتبين خلافه .

ولو سافر اثنان واشتبهت عليهما جهة القبلة وتخالفا فى أمرها
لوجب على كل الأخذ بما أدى إليه اجتهاده ورأيه وتحريره ولا يجوز

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

لأحدهما أن ينكر على صاحبه ، فإن هذا هو الواجب في حق كل منهما ولا لود على من فعل ما وجب عليه . فإن مبنى الدين على إظهار العبودية والامتثال لأوامر الربوبية . وماذا نريد من التساهل بعد ما قال كثير من العلماء : إن الحق يتعدد ؟ فإن الواجب في حق كل مجتهد ما أداه إليه اجتهاده .

وسره ما بيناه في التمهيد من أن الله يعلم ضعف البشر فلم يكلفهم بإصابة الواقع وإنما كلفهم أن يحترموا أوامره ويعتنبوا نواهيه ، ولا يخرجوا عليه ولا على رسوله فيما يعتقدون .

أما من كان بعيداً عن تلك المباحث ولم يقع في نفسه صدق إحدى الفرقتين وكذب الأخرى من أولئك الرائيين فعليه أن يتبع حكم الحاكم ويكون مع السواد الأعظم .

ولا يفوتنا أن نقول : إن الشافعية يرون أن الحاسب يعمل بمقتضى حسابه في حق نفسه . وكذلك من قلده مصداقاً له في حسابه معتقداً أنه الواقع . ولقد أرى أن التقليد في مثل هذا إذا أمكن أن يرفع به الخلاف يحصل به الوفاق أولى من الفرقة والانقسام والتنازع بالألقاب .

ولا أزال أكرر أن الله لا يبغض شيئاً مثل الشقاق والانقسام ولا يحب شيئاً مثل الألفة والوثام وقد كانت وجوه الخلاف على عهد السلف الصالح لا تكاد تحصر ولم يكن بينهم تباغض ولا تشاتم فكانوا ورثة الأنبياء حقاً ، يحب بعضهم بعضاً ويشئ بعضهم على بعض .

وقد طلب المنصور من الإمام مالك أن يحمل الناس على الموطأ فأبى علماً منه - رضى الله عنه - أن الأمر في الفروع هين وأن الظن فيه كاف وأن المخطئ فيه مأجور وأنه يجوز أن يكون الصواب مع غيره لا معه . وهذا هو شأن أئمة الهدى ، العارفين بأنفسهم وطبعها العالمين بسماحة الشريعة وسعتها .

هذا ما أملاه عليّ وارد الوقت بدون مراجعة ولا تعمق . ولا أزال أكرر أنى أحب من القضاة أن يتحروا غاية التحرى فإننا في زمان كثير فيه الزور وطم فيه الفجور .

وبعد كتابة ما تقدم رأيت في المسألة نصاً صريحاً لابن عابدين الحنفى في حاشيته على «الدار المختار» وكذلك لمولانا الشيخ محمد عليش في فتاويه ، فرأيت من النصيحة للدين أن أنقل للقراء - وإن خالف ما تقدم لنا .

وإليك ما قال ابن عابدين : « أما إذا رثى يوم التاسع والعشرين قبل الشمس ثم رثى ليلة الثلاثين بعد الغروب وشهدت بينة شرعية بذلك فإن الحاكم يحكم برؤية الهلال ليلاً كما هو نص الحديث ولا يلتفت إلى قول المنجمين إنه لا تمكن رؤيته صباحاً ثم مساءً في يوم واحد . وكذا لو ثبتت رؤيته ليلاً ثم زعم زاعم أنه رآه صبيحتها فإن القاضى لا يلتفت إلى كلامه » .

وفي فتاوى مولانا الشيخ محمد عليش ما يتفق هو وما ذكره العلامة ابن عابدين في النتيجة وطرح كلام المنجمين .

وبعض العلماء يحتاج بقوله عليه السلام : « نحن أمة أمية » الخ .
ويمكننا أن نجعل الحديث حجة لنا فإنه يشير إلى أننا إذا أصبحنا
غير أميين تعير الحكم ووجب أن نعمل بما يقتضيه العلم .

ولكني بعد هذا كله مصمم على ما قلته أولاً من أن الدين الإسلامي
لا يخالف حقيقة عملية متفقاً عليها متى تبينت فليكن البحث والتحري
عن تلك المقررات التي أجمعوا عليها مدى العصور والدهور .

ومسألتنا مسألة محسوسات ومشاهدات لا مسألة تنجيم وتخمين .
فإن ادعى مدع أن المشاهدات على غير هذا فعليه البيان . والدين
الإسلامي لا ينقض الحقائق على كل حال متى تبينت . وهؤلاء العلماء
مع إجلالي البالغ لهم ، أقول إنهم ليسوا متخصصين في علم النجوم
وقد قال تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(١) . مع
ملاحظة ما تقدم لنا من أن هناك أموراً ظنية أو تخمينية لا يجوز
الأخذ بها ولا التعويل عليها وأموراً قطعية لا شك فيها لا يجوز إهمالها
ولا العدول عنها .

وعدم رؤية الهلال في الصباح والمساءً آخر الشهر مما أجمعوا عليه
ولا تنس ما فدمنا لك من أن كل إنسان في الفروع يعمل بما وصل
إليه بحثه وانطوى عليه اعتقاده ، فلا يصح له مثلاً أن يفطر وهو
يعتقد وجوب الصوم ولا أن يصوم وهو يعتقد وجوب الفطر . ومن
لم يتكون له اعتماد فعليته باتباع السواد الأعظم وما قضى به القاضي
إلى آخر ما أسلفناه .

(١) سورة النحل ، الآية ٤٣

فالدِّين الإسلامي يسع ذلك كله ، وليس يريد من الناس إلا أن
يحترموا أوامر الله فيما يعتقدون ولا يخرجوا عليها . ولا يمكنني أن
أحيد عن ذلك . وليختر كل ما شاء .

ولا أزال أكرر أنه لا بد أن نفرق بين ما هو قطعي عند علماء
النجوم وما هو ظني أو تخميني ، غير أنني أرجوهم ألا يتنازعوا ذلك
التنازع الذي يكرهه الله ورسوله .
والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه .

أسرار الصلاة^(١) ذكر الفصول منها

إن الله لم يشرع جميع العبادات ولم يكلفك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي إلا رحمة بك . وامتنانا عليك بما يفتح لك به أبواب السعادة ويغلق عنك أبواب الشقاوة .

وبعد هذا التمهيد العام نشرع في بيان مقاصد الصلاة خاصة فنقول :

إنك تعلم أن الصلاة تشتمل على ضروب كثيرة من عبادة الله تعالى وتعظيمه فهي مشتملة على قراءة القرآن وعلى الذكر والتسبيح والخشوع والخضوع والثناء والدعاء والصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى غير ذلك ، وكل واحدة من هذه عبادة برأسها . ولذلك كانت قرعة عينه - صلى الله عليه وسلم - في الصلاة وكان يقول : «أرحنا بها يا بلال» وإذا حَزَبُهُ أمر فزع إلى الصلاة ، ويقول الله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) ^(٢) .

ولا غرو . فالصلاة صلة بين العبد ورببه وهي معراج الحضرة وبها المناجاة التي تطهر القلوب وترتفع بها إلى علام الغيوب وقد ورد أن الصلاة عماد الدين وفي القرآن الشريف (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ) ^(٣) فالصلاة

(١) مجلة الإسلام - السنة الرابعة - العدد الخامس والأربعون - الصفحة ١٥ -

سنة ١٣٥٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ٤٥ . (٣) سورة المعارج ، الآيات ١٩ - ٢٢

تطهر من جميع الرذائل وتوجب الاتصاف بجميع الفضائل وإذا داوم عليها الإنسان ارتفع إلى أوج الكمالات ، بعد أن كان في حضيض أخس الصفات معرض لجميع الآفات .

لأن الصلاة تفيض على صاحبها من الأنوار ما يوجب له الرشد في كل شيء وتمنعه أن يضل في كل ما يبأى ويذر ، فيزول من نفسه سلطان الهوى وتتضح له الأشياء على ما هي عليه .

إن المصلي حقيقته إذا أراد الصلاة طهر قلبه من كل الشواغل التي كان فيها ، وهياً سره لتساجدة ربه الذي يعلم السر وأخفى ، فقام إليها رافعا يديه إلى السماء طارحاً كل ما سوى الله تعالى وراء ظهره قائلاً لنفسه يا نفس « الله أكبر » .

فإذا قال : (الحمد لله رب العالمين) استولى عليه ما بهر قلبه وحير له من عظمة تلك الربوبية التي أحاطت بجميع الأشياء ولم يخرج عنها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ثم ينظر إلى سعة العوالم العلوية والسفلية وأن كلا تحت قهره ومسخر لأمره فيزداد دهشة ، ويظهر له تلاتيه في جانب ذلك الملك الكبير وينكشف له عياناً أن ملكه العظيم لا تحيط به الأحلام ولا تصل إليه الأوهام (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١) .

فإذا قال : (الرحمن الرحيم) ونظر ما أسبغته عليه من نعمه الظاهرة والباطنة وما عرفه من اللطف الإلهي في جميع أطواره ، وكل

أحواله ، امتلاً قلبه بمحبة ذلك المنعم الذى يمن عليه بما يحب فى الرخاء ويلطف به عند نزول البلاء فهاج منه رجاؤه فى فضله وطمعه فى رحمته .

فإذا قال (مَ لِكَ يَوْمِ الدِّينِ) تذكر أحوال القيامة (يَرْمَ لَاتَسْأَلُكَ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) ^(١) فيكاد ينزع قلبه من الخوف لولا ما يعلم من سعة كرمه ورحمته ، فطار بجناحي الرجاء والخوف معرضاً عن جميع المخلوقات ، إلى حضرة رب الأرض والسموات ، عالماً أن منه البداية وإليه النهاية ، وأنه إليه يرجع الأمر كله (بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ^(٢) فناجاه بقلب لا يعرف غيره ولا يلوى على سواه قائلاً :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) رأى نفسه مفتقراً إليه فى كل شئ ، وأنه لا يغنى عنه من الله شئ ، فترك كل شئ واستعان به على كل شئ ولما تم له فى هذا المقام مقام المناجاة بين يدى الله تعالى اضمحل رسمه ، وتبين له ما هو وما مقدار علمه ، فوض له الأدر فى جميع الأشياء وترك الاختيار معه حتى فى الدعاء عالماً أنه إذا اختار أى نوع من أنواع الهداية وطلب الرشد إلى أى طريق من طرق السعادة فإنما يطالب ذلك بعلمه واستعداد الضعيف فوكل الأمر إليه وهو أعلم بالداء والدواء (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ) ^(٣) فطلب منه تعالى أنجع الأدوية ، ودعاه بأعم الأدعية ، مما لا يصل إلى تفصيله علمه ولا يحيط به فهمه .

(٢) سورة يس ، الآية ٨٣

(١) سورة الانطار ، الآية ١٩

(٣) سورة الملل ، الآية ١٤

فقال (اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صراط الذين أنعمت عليهم) مستعيذاً به من غضبه إذ كانت ترتعد فرائضه من قوله تعالى : (وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَى)^(١) خائفاً من نفسه الكثيرة الأهواء التي تضل عن سبيل الله قائلاً بلسان العارفين بربهم ونفوسهم (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

ثم يقرأ من القرآن بعد ذلك ما يزيده من تلك الأسرار ويزج به بين سرادقات عالم الأنوار فيمتلئ من مخدراتها على قدر ما يتطيف بصيرته ويرتقي من درجاتها بمقدار ما يقتضيه استعداده فإذا وصل إلى ذلك خشع لجلال تلك الهيبة (وَخَشِعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)^(٢) ولم يجد بداً من أن يركع في تلك الحضرة قائلاً بلسان روحه (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ) .

ثم يترقى في مقامات القرب إلى أسمى مما كان فيه فيزداد خضوعاً وخشوعاً فيخسر ساجداً لله تعالى مسبحاً له عز وجل بكل ذرة من أذرات أجزائه (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى) إذ وصل إلى غاية العبودية فكان في نهاية القرب في تلك الحضرة الإلهية ، على قدم من قال له عز وجل : (وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)^(٣) ثم إذا جلس للتشهد لقي من أسرارها التي أودعت فيه مالا يحيط به العقل ولا يأتي عليه القول .

(١) سورة طه ، الآية ٨١

(٢) سورة طه ، ١٠٨

(٣) سورة العلق ، الآية ١٩

أفتراه بعدا. ذلك إذا سلم من هذه الصلاة مفارقا عالمه الذي كان فيه نازلا إلى هذا العالم وقد أحاطت به تلك الأنوار وتملكته تلك الأسرار ؛ يمكنه أن يقارن منكرا من المنكرات ، أو يفعل هفوة من الهفوات أو يبقى معه لطيش النفس أثر من الآثار ، بعدما نزلت عليها السكينة وحفتها الظلمة أئينة وجاء جند الله فذهب جند الشيطان . أم هل تنوم للكبرياء قائمة بعد ما عرف من ذلك الجلال ، وتقلب في تلك الأطوار ؟ أم هل يبقى مع ، من الشح ومعبة مصالحة الخاصة بقية ؟ وهو العبد الذي تحتمى بالعبودية الكاملة وباع نفسه بيعاً لارجوع فيه ، ولا اشمئزاز منه ، فصار لا يعرف لها حقاً من خصوصياتها ولا أمراً من شخصياتها . فكانت حركاته لله وسكناته لله عالما (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ)^(١) حتى إذا انغمس في هذا الكون السفلى بعد الصلاة فله حقه من الاشتغال به ومن حركات النفس فيه شيء من الظلمات ، وكادت تهجم على قلب بعض الآفات ، تداركه الله بالصلاة الأخرى ما زالت ما كان من تلك الظلمة وأوصلته ثانية إلى عالم الحكمة فكانت مطهرة من جميع الأوهام رادعة عن جميع الآثام .

فقد يتبين لك سر قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(٢) وسر قوله صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة كمثل نهر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليه بعد ذلك درر ؟ » .

(١) سورة التوبة ، الآية ١١١ . (٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

ولعلك تستبعد أن يلاحظ الإنسان ذلك كله ، فاعلم أن القلب متى استنار ، ورد عليه من العلوم والمعارف في اللحظة الواحدة ما يكمل عنه القلم ، ولا تنفى به العبارة في الأزمان المتطاوله ، فإن عالم القلب أوسع من عالم التعبير ونسبة ما فيك من العوالم على نحو ما في العالم الخارجى وقد قالوا : إن الأرض بالنسبة إلى الفلك الأول كحلقة ملقاة في فلاة وكذلك الأول بالنسبة إلى الفلك الثانى كحلقة ملقاة في فلاة وهكذا فكذلك عوالمك العلوية مع عوالمك السفلية فافهم . هذا .

ويزداد عجبك وابتهاجك بعد ما تقدم لك إذا عرفت ما للاجتماع المسلمين فيها وإظهار عظمة الشرع وجلاله في نظر أعدائهم بما يرونه من هذا الارتباط المتين وتلك المظاهر المدهشة « مظاهر القوة والاتحاد » وفيما بين أفراد المسلمين حيث يستوى في ذلك المالك والمملوك والغنى والصعلوك وما في ذلك من غرس الخلق التواضع في النفوس واقتلاع أصول الكبرياء منها ، واستنزال الرحمة باجتماع القلوب متضرعة مبتهلة إلى الله تعالى في وقت واحد قائلة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) واجتماع القلوب له أثر جليل عند الله تعالى وهو الذى يستثير السحب ، ويستنزل الأمطار وتستفيض الرحمات بخاصة ذلك التأثير الروحانى .

ولهذا شرع الاجتماع فى الاستسقاء والكسوف ونحوهما والمشارع ا سخاية كبرى باجتماع المسلمين فسن لهم أن يجتمعوا فى اليوم والليلة

خمس مرات وأوجب عليهم ذلك في صلاة الجمعة كل أسبوع . ولما كانت فوائد ذلك قاصرة على أهل البلد الواحد شرع الاجتماع على وجه أتم «يوم عرفة» .

ذلك اليوم لذي يتلاقى فيه المسلمون من كل بقاع الأرض فيعرف بعضهم بعضا ، فيستفيد منه ، ويأخذ عنه ، ويتذاكرون في أمور دينهم ودنياهم ثم يتوجهون إلى الله تعالى في صعيد واحد يطلبون منه تعالى أن يعز ديهم ويرفع شأنهم .

وللقلوب في اجتماعها تلك الخاصة العجيبة التي شرحناها فلا غرو أن تحنهم الملائكة، وتحيط بهم الرحمات ، وتقبل الدعوات :

فيرجع كل منهم إلى بلاده ، وقد عز سلطانه ، وتم إيقانه بعد هذا الاجتماع ، ودا بعده من الاجتماعات في المشاهد العديدة التي تذكروهم أيام الله وآياته إلى غير ذلك من الأسرار التي يطول شرحها مما يرشدك إليه نور الإيمان وقوة الإيقان .

ولا بد أن تكون قد عرفت سر قوله -صلى الله عليه وسلم- « جعلت قرة عيني في الصلاة » وأن يكون قد أخذ منك العجب كل مأخذ ممن تركوا الصلاة وهم كثيرون مع مالها من تلك الفوائد والأسرار ثم يزداد عجبك ويهيج أسفك عندما تراهم يحافظون على غسل أطرافهم ولا يتوضئون والوضوء أتم مما يفعلون ، وتراهم يحافظون على الرياضة البدنية ولا يصلون والصلاة مع أنها رياضة روحية هي أيضاً من أتم

أنواع الرياضة البدنية يتحرك فيها جميع أجزاء البدن مما لا يوجد في غيرها باعترافهم .

وما أدرى نفورهم منها وعدم إقبالهم عليها - مع كونها لا تطول مدتها ، ولا تعظم مشقتها - سراً معقولاً اللهم إلا سر الخذلان وانضمام
نور البصيرة (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الْصُّدُورِ) (١)

كيف تكتسب الأخلاق الفاضلة؟؟؟

**وان أول التربية ليست على ما يفهم الناس
وان القوانين قليلة الفناء**

ربما أطلنا عليك في هذا البيان لما فيه من النوائد الجمدة ، وأرى
الأولى بك ألا تسأم فعسى أن تجد فيه ما يكون كمالاً في علمك وتزيد
به فضلاً على فضلك .

إذا أردت ذلك فاعلم أن كثيراً من الناس يظنون بأن الطريق إلى
اكتساب مكارم الأخلاق والشفاء من أضرارها إنما هو تعلم العلم ، وعرفة
الضار من النافع والحسن من القبيح ، فيحسبون الاتصاف بالفضل
والكمال لازماً من لوازم العلم أيان كان كما يعتقد العامة أو من لوازم
العلوم الشرعية والأخلاقية على ما يعتقد كثير من الخاصة ممن لم يعنوا
بالبحث عن أسرار العلوم وأرواحها والتنقيب عن ملكات النفوس
ومقتضياتها .

ولهذا كان للعلماء المحل الأول من النفوس وكان تعلم العلم هو
الغاية المقصودة في التربية .

وكثيراً ما تسمعهم يقولون « فلان مترب » أي حائز لشهادة عالية ،
وهو خطأ فاحش .

فإن تعلم العلم بمجرد قليل الجدوى . بل قد يكون لبعض الناس
عوناً على ما يزين من الشر ، فهو قوة العقل يستعين بها على ما يشاء . فإن

صرفها للخير كان من أعظم الخيرين وإن صرفها للشر كان من أول الشريرين والسيوف يقطع في يد اللص كما يقطع في يد المجاهد في سبيل الله .

وقد قال بعض الحكماء إن الناس كالنبات وأن العلم كالغيث فإن أصاب حلو الثمر زاده حلاوة وإن أصاب مر الثمر زاده مرارة .

ولهذا ترى تلك التربية التي ينوّهون بذكرها لم تطهر ذوبها من رذائل الخصال وقبيح الفعال حتى إننا إذا لم نغتر (بتلك التربية العالية) ولم ندعهم وأهواءهم بل قيدناهم في وظائفهم الإدارية أو القضائية بلوائح وقوانين ينقادون لها ويسيروا عليها تراهم يتوسعون ويتناولون كما يشتهون . وعلى ذلك حال كثير من العلماء بالنسبة إلى الشريعة الغراء وكان استعدادهم الخبيث يحيلها إلى ما يوافق أهواءهم ، وليس هذا بالأمر العجيب فيما تفعله الاستعدادات .

وإن شئت فأنظر إلى ما كتب على الأجرومية من صرف كل ما فيها إلى الاصطلاحات الصوفية وآرائهم وقد قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) فالذي أضل به هو الذي هدى به ، فليس ذلك راجعاً إلى تغير في عينه أو تبدل في وصفه بل إلى اختلاف في استعداد الفاهمين له ولعلك رأيت من هذا القبيل شيئاً كثيراً .

فإذن ليس العلم طريقاً إلى اكتساب الفضائل ولا دليلاً على الاتصاف بالكمالات على الحقيقة . وإنما الطريق الذي يجب أن يسلكه طالب الكمال ويعتني به المرابي أتم اعتناء هو تعويد النفس الخلق الفاضل الذي يريد اكتسابه حتى يرسمخ فيها رسوخ الملكات التي تملك النفوس

وتصدر عنها الأفعال بلا تكلف ولا عناء وإلا فهو تصورات ومعلومات لا أخلاق ووجدانات ، فإن الكمال لا يتم للإنسان إلا إذا انفعلت نفسه به وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعاده فلا تنفعل به وحينئذ يصير كيفاً راسخاً فيها فيلتحق بالفرائض الأصلية فتصدر عن الآثار الحميدة بغاية السهولة على نحو ما تصدر عنه الأفعال الطبيعية .

وهذا الذي قررناه جار في اكتساب الأخلاق الحسنة والأنتلاق السيئة . فإذا يلزمنا أن نمدح بالعلاج ونفزع إلى الطبيب قبل أن يستحكم المرض ويعضل الداء فيعبي الأطباء ، فإنه إذا وصل إلى درجة الرسوخ والتحق بالطبيعيات كما شرحنا فقلما ينفع علاج أو ينجع دواء .

اللهم إلا الأفوياء العزيمة القادرين على الضغط على نفوسهم المتعمردين مخالفتها الذين لا يجبنون أمام أوامرهم المؤيدين بتأييد من عنده تعالى : (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) .

ولهذا تجد بعض من فيه شيء لا يليق بشرفه ومنصبه يتألم كثيراً مما هو فيه ولكن لا يستطيع أن ينزع عنه بمقتضى ذلك الرسوخ وقد قال تعالى في حق قوم من الكفار قد تأصلت فيهم تلك الملكات الخبيثة حتى صر يتعذر قلعها من نفوسهم لامتزاجها بها : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ^(١)) فليس الختم الذي ورد به القرآن شيئاً غير تملك السيئات للنفوس وإحاطة الظلمات بها : (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ^(٢) .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨١

(١) سورة البقرة ، الآية ٧

فالخلاصة أن الوسيلة لاكتساب الفضائل أن تمرن نفسك عليها بالعمل المتكرر ولا تضجر مما تلاقيه من العناء والمشقة زمن التمرين ، وتعتبر نفسك مريضاً يصبر على مرارة الدواء لما يرجوه من حلوة الشفاء وأن تأخذ نفسك باللطف والخدع فإنها سريعة الانخداع لا بالعنف والشدة فإنها شديدة العناد وأن تلاحظها في مبادئها ولا تستهين بها : « فَهَؤُلاَئِكَ مِنَ النَّارِ مِنْ مَسْتَصْغَرِ الشَّرِّ » وأن صغار الآفات تجر إلى كبارها من غير أن تحس بذلك لأنك تسير فيه بمقتضى ميلك إليه سيراً طبيعياً لا سيراً فكرياً .

ولعل هذا هو المعنى بالاستدراج في قوله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) .

وإن التمرانين لا تجدى شيئاً ولا تضمن عدلاً ما لم ينظر في حال القائمين بها والمنفذين لها ، وأن التربية الفاضلة ليست بنيل الشهادات العليا كما يزعم أربابها . فيجب أن ينظر فيها حتى تكون تربية صحيحة تأتي بالغاية المقصودة منها .

وليس ذلك إلا في التربية الدينية « والنظر في إصلاحها قبل النظر في إصلاح التمرانين » وأن الاستعداد الخبيث كثيراً ما يحيل الكلام عن ظاهره حتى يقطع النظر عن الغايات كلها ولعل هذا من جملة ما أريد من قوله تعالى : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)^(٢) وأن تعلم العلوم ولو كانت دينية أو أخلاقية قلما يفيد .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤٦

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٨٢

أَسْئَلْتُمْ تَنْوَعًا

وردت إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل
الشيخ يوسف اندجوى خاصة فأجاب عنها

١ - إذا بنيت دار في أرض غير مملوكة وأراد آخر أن يبني بجوارها
أو بنيت في أرض مملوكة بإذن صاحبها أو كانت في وسط القرية
أو حفرت بئر كذلك أو غرست شجرة كذلك . فما حریم كل من الدار
والبئر والشجرة المستحق من الجهات الأربعة في الصور الثلاثة ؟

٢ - إذا هبت هبة الثراب لأحد وأراد الموهوب له أن يشيب عليها
فهل يجوز أن يشيب عليها من جنسها أو يتعين أن يشيب عليها من غير
جنسها ؟ وهل هبة العرس كذلك إذا جرى العرف بالمعاوضة عليها ؟

نرجوكم كل الرجاء الفتوى فيما ذكر لأن أهل السودان يختصمون
كثيراً في العريضة التي بين الدور ونحوها .

أحمد أبو بكر مدني الأنصاري
بالبحرية بالسودان

الجواب

فالجواب عما سألت عنه أيديك الله :

١ - أن هذه الأرض إن كانت مملوكة وقد اشتراها صاحب الدار
من مالها فاشئان فيها للمالك فيا شرط أن يكون له حریم كان
لصاحب الدار ما شرط وإن لم يشترط فلا شيء له . ولكن لا بد أن يكون له

بقدر ما قضت به الضرورة من طريق يوصل إلى الدار . وفي مسألة الشجرة والبشر لابد أن يكون له ما يمكنه من سقى الشجرة وأخذ ثمرها واستخراج الماء من البئر .

وإن لم تكن الأرض مملوكة فإن كان لأهل القرية انتفاع بها كأن كانت ناديا لجلوس القوم وحديثهم أو ملعبا للصبيان أو مناخا للإبل أو مراحا للغنم أو نحو ذلك ، فهي من مرافق البلد ومنافعه ولا يجوز لأحد أن يحدث فيها شيئا مما ذكر سواء أكانت هذه الأرض وسط القرية أم حولها أم بعيدة عنها .

وإن لم يكن لأهل القرية منافع بها أصلا وكانت غير مملوكة لأحد فهي الموات . فمن أحدث في ذلك الموات شيئا مما ذكر ملكه وملك حريمه . وحريم الدار ما ينتفع به صاحبها من طريق يوصل إليها ومحل لرمى الأتربة والكنامة ونحو ذلك . ولا حريم لدار محفوفة بملك الغير من كل جانب . وحريم الشجرة قدر مد أغصانها ولو كانت قريبة من البلد على الصحيح . وقال بعضهم : لا بد أن تكون بعيدة من القرية ولا يجوز إحياء القريب منها . وحريم البئر أربعون ذراعا من كل جانب على ما رجحه بعضهم .

٢ - أما هبة الثواب فيصح أن يكون الثواب من جنسها لا فرق في ذلك بين هبة العرس وغيرها . لكن إذا كان الثواب ربويا وشرط صحيحا في عقد الهبة بأن قال : وهبتك هذا على أن تعوضني ذاك وجب حينئذ تساوى العوضين في متحد الجنس والتقابض في المجلس لأن

الهبية إذا شرط فيها العوض صارت بيعاً فتجرى فيها أحكام البيع كلها :
من الرد بالعيب وأخذها بالشفعة والتساوى في العوضين والتقابض
قبل التفرق في الربوى المتحد الجنس .

أما إذا لم يشترط العوض ولم يجز بذلك عرف فيما بينهم فللموهوب
له أن يثيب عليها بما شاء من غير وجوب عليه . هذا هو الظاهر الذى
ينبغى التعويل عليه ، خلافاً لمن لا يعتبر جريان العرف ويقول لا بد
من الاشتراط الصحيح . هذا ما استخلصناه من أقوال العلماء ورأينا
أن نسطره فى هذا الموضوع . والله يتولى هدى الجميع .

* * *

٣ - ما حكم صلاة الشفع والوتر جماعة عقب صلاة تراويح رمضان
عند السادة المالكية ؟

الجواب

الحكم فى مذهب مالك أنه تكره الجماعة فى النفل إذا كانت كثيرة
أو بمكان مشتهر .

قال الخرشي : « يكره اجتماع الجمع الكثير فى النافلة خشية الرياء »
ولو فى مسجده - صلى الله عليه وسلم - ، وهذا فى غير التراويح والعيدين
والاستسقاء والكسوف : وكذلك يكره اجتماع الجمع القليل كالثلاثة
لكن بمكان مشتهر . أما بمكان غير مشتهر فلا كراهة إلا أن يكون
من الأوقات التى صرح العلماء ببدعة الجمع فيها كليلة النصف من
شعبان وليلة عاشوراء » .

والمراد بالنفل في عبارة الفقهاء ما عدا الفرض بدليل استثناء الخرشى للعبيدين والكسوف والاستسقاء . فالشفع والوتر داخلان في هذه الأحكام الثلاثة فتكره صلاتهما بجماعة عقب التراويح إذا اشتهر المكان ولو قل العدد ، كما تكره الجماعة فيهما أيضاً إذا كثر الجمع ولو لم يشتهر المكان . أما إذا قل العدد ولم يشتهر المكان فلا كراهة كما إذا صلاهما ثلاثة في البيت جماعة . والله أعلم .

* * *

٤ - نرجو أن تفيدونا عن حكم علو الإمام على المأمومين والعكس ، أو علو بعض المأمومين على بعض ، وإذا أهكن أن تكون الفتوى على المذاهب الأربعة . كان لكم منا الثناء المستطاب ، ومن الله الأجر والثواب .
أحد مدرسي المناس

الجواب

الحمد لله والصلاة على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فمن صلى مع آخرين خلف إمام واضطره ازدحام المكان بالمصلين إلى أن يصلي محاذياً لهم مرتفعاً عن غيره بتقليل فصلاته صحيحة ولا كراهة فيها . ولندكر لك بعض نصوص المذاهب في ذلك إجابة لطلبك فنقول :^١

قالت الحنفية : يكره ارتفاع مكان الإمام عن سائر المقتدين بقدر ذراع فأكثر فإن كان أقل من ذلك فلا كراهة ، كما يكره ارتفاع المقتدين عن مكانه بهذا القدر ، والكراهة مقيدة بأن لا يكون مع الإمام أحد منهم فإن كان معه بعضهم ولو واحداً فلا كراهة .

وقالت الشافعية : يكره ارتفاع مكان الإمام عن مكان المأموم وعكسه من غير حاجة كأن كان وضع المسجد يقتضى ذلك فإنه لا يكره الارتفاع حينئذ .

وقالت المالكية : يجوز علو المأموم على إمامه ولو كان المأموم بسطح المسجد . (وهذا في غير الجمعة) وأما علو الإمام على مأمومه فهو مكروه إلا أن يكون بشئ يسير كالشبر والذراع أو كان لضرورة كتعليم الناس كيفية الصلاة أو ضيق المكان .

وقالت الحنابلة : يكره ارتفاع مكان الإمام عن المأموم ذراعاً فأكثر أما المأموم فلا كراهة في ارتفاع مكانه .

الخلاصة

أنه لا شئ في ارتفاع بعض المأمومين دون بعض عند الحنفية ، ولا في ارتفاع المأمومين ولو جميعاً عند المالكية والحنابلة . وأن الحكم الكراهة عند عدم العذر في مذهب الشافعية .

فقد اتفقت المذاهب الأربعة على كراهة ارتفاع مكان الإمام واختلقت في كراهة ارتفاع المأموم . وذلك لأن الأول ثابت بالنص ، وأما الثاني فكان محل نظر : فالشافعية قالوا فيه بالقياس دون فقهاء المذاهب الأخرى .

والنص هو ما ورد أن حذيفة - رضى الله عنه - صلى على دكان والناس أسفل منه فجذب به أبو مسعود البدرى الأنصارى - رضى الله عنه - حتى

أقامه . فلما اصرف قال : أما علمت أن أصحابك يكرهون أن يصلى
الإمام على شيءٍ وهم أسفل منه ؟ قال حذيفة : بلى قد ذكرت حين
جذبتنى .

قال الإمام النووى - رضى الله عنه - فى شرح المهذب : هكذا رواه
الشافعى وأبو داود والبيهقى ومن لا يحصى من كبار المتقدمين ومفسنفيهم
وإسناده صحيح ، والله أعلم .

أسئلة متنوعة

وردت الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل
الشيخ يوسف الدجوى خاصة فاجاب عنها

التصوير

ما حكم الصورة الفوتوغرافية أو الفنية لإنسان أو حيوان أو غيرهما
كالأشجار من حيث النظر والاستصناع ؟

الجواب

يباح التصوير إن كان لصورة غير حيوان كالأشجار والبهائم :
ويباح النظر لصورة سواء أكانت كاملة أم ناقصة ، لها ظل بأن كانت
جسمية أم لا كالفوتوغرافية .

أما إن كان التصوير لحيوان سواء أكان إنساناً أم لا ففيه تفصيل :
فإن كانت الصورة لا ظل لها ، كالفوتوغرافية كره عملها والنظر إليها ،
وإن كان لها ظل فاستصناعها والنظر إليها حرام إن كانت تامة الأعضاء
وإلا فتمتعها والنظر إليها مكروهان أو خلاف الأولى .

هذا كله منتضى مذهب مالك ، والله أعلم .

الصلاة خلف مرتكب الكبيرة

هل تصح الصلاة خلف مرتكب الكبيرة أولاً ، وعلى الصحة فهل
مع الجواز أو الكراهة ؟

الجواب

لا تشترط العدالة في الامامة على الصحيح ، وإنما هي شرط كمال فقط . فالصلاة خلف مرتكب الكبيرة صحيحة مع الكراهة . ونص المتون عندنا معشر المالكية أنه يكره إمامة فاسق بجارحة ولو لمثله على الصحيح ، أى وتحرم خلف فاسق العقيدة ، والله أعلم .

حلق اللحية

هل يجوز حلق اللحية أو يحرم ؟

الجواب

حلق اللحية حرام لما ورد « قصوا الشوارب واعفوا اللحى » . والأمر يحمل على الوجوب ما لم يصرفه صارف عن ذلك .

نعم إذا طالت كثيراً يستحب تقصيرها لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم « كان يأخذ من عرض لحيته وطولها » . وهل المطلوب التقصير بتمدد ما تحسن به الهيئة أو تقصير ما زاد على القبضة ؟ قولان ، الظاهر منهما الأول .

ومن أرباب المذاهب من يقول بالكراهة فقط ، فعلى من ابتلى بذلك وكان يشق عليه الخلوص منه كالعسكر مثلاً أن يقلد المشهور من مذهب الشافعى مثلاً ، والله أعلم .

ثبوت رمضان بالراديو

وجاءنا من البحرين من حضرات الأفاضل أصحاب التوقيع مانصه :
حضرة الأجل الفاضل علم الفضائل الشيخ يوسف الدجوى
المحترم ، حفظه الله . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد :
فنفيد فضيلتكم أنه في دخول شهر رمضان السنة الماضية في أول ليلة
منه وردتنا أنباء من مصر بواسطة الراديو برؤية هلال رمضان وثبوته
الثبوت الشرعى بمصر ، والحال أنه في تلك الليلة لم ير الهلال عندنا
بالبحرين . وبسبب أننا لانعرف المذيع لهذه الأخبار ولا من تصدر
عن أمره توقفت عن تبنييت الصيام تلك الليلة اعتمادا على هذه الأنباء .
وقد كتبنا لمجلة الأزهر إذ ذاك فلم تكتب شيئا في الموضوع . فرجاؤنا
من فضيلتكم الإفادة الشافية عن ذلك .

الداعون لكم بخير - قضاة محكمة الشرع بالبحرين

عبد اللطيف سيد محمد
عبد اللطيف على
محمود عبد اللطيف

الجواب

الحمد لله و لصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
وبعد : فقد نص في مذهب مالك - رضى الله عنه - على أنه إذا ثبت
شهر الصوم لدى حاكم وإن لم يحكم به ونقل ذلك الثبوت إلى جهة
أخرى بواسطة رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم
بمضمونه أو الظن القريب منه أو بواسطة رجل عدل فإن الشهر يثبت

في حق أهل الجهة المنقول إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك الخبر فإن المسألة من باب الرواية التي يكفي فيها خبر العدل الواحد ، وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لا بد فيه من عدلين رأيا الهلال أو جماعة مستفيضة .

ونص المالكية أيضا على أنه يعتمد في الصوم والفتور على القرائن الدالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع وإضاءة المآذن كما يعتمد على صوت المؤذن في معرفة وقت الصلاة لجرى العادة بتوجيه الإنكار الشديد إليه من جماعة المسلمين لو كذب .

ونص مولانا الشيخ عليش في فتاويه على أنه يعمل بالإشارات التلغرافية في الصوم لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين : وعلى أن من أفطر في رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولا بأن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التي لا تعتبر في ثبوت الشهر شرعا فإنه يجب عليه الكفارة (فضلا عن القضاء) لأنه متأول تأويلا بعيدا لجهله وسوء ظنه فلا عبرة بتأويله .

(وألفت نظرك لجعله ذلك جهلا وسوء ظن) . والرايو بتلك المنزلة ولا يتصور أن يذاع مثل ذلك الخبر في المذيع الذي يخترق الآفاق شرقا وغربا من غير أن يكون له حقيقة ، فإن في ذلك كذبا على المحكمة الشرعية التي أخبر أنها أثبتت رؤية الهلال - وفيه تعريض الحكومة والأمة لما لا ينبغي لدى الأمم الأخرى . ومن ذا يعرض نفسه

لتبعة ذلك وما يترتب عليه في مثل تلك الفريضة التي يهتم بها المسلمون غاية الاهتمام ؟ وأكبر ظنى أن القانون يعد ذلك من الجرائم ويعاقب عليه . فالجناية؛ إذا مضاعفة وماسة بشرف الأمة والحكومة جميعا ، وذلك كله موجب لتصديق الخبر والاعتماد عليه . على أن الظن كاف في هذه المسائل الفرعية ولا عبرة بتلك الاحتمالات العقلية .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم في رمضان والقطر أول شوال على الظن الغالب بشيئ شهر الصوم أو الفطر .^(١) وحيث إن الغالب في الأخبار التي ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلوكية واللاسلكية — أو المذيع إنما هو الصدق بعد تحرى الحقيقة وإن كان المذيع أو عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعاً أو اختلفت حكومة الجهتين المنقول منها وإليها فذلك لا يمنع غلبة الظن التي هي مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية كالأحكام الصوم والصلاة وما إليهما من المعاملات .

فإن الشارع جلت حكمته لم يكلفنا في العمل بالقطع واليقين دفعا للحرَج : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)^(٢) . ومعلوم أن الأحكام العملية يكفي فيها الظن وأنه لا يجب فيها اليقين . وقد قالوا : إن غلبة الظن في دخول وقت الصلاة كافية ، وقالوا : إن الاجتهاد يجب عليه العمل بما أداه إليه اجتهاده وأن المسائل القطعية ليست

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨

من مباحث الفقه . ولا يعقل في الملة الحنيفية السمحة التي تقول :
(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وتقول : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ »
إلا هذا .

ولو قلنا إن أخبار المذيع والبرقيات السلوكية واللاسلكية لا يعول
عليها بناءً على هذه الاحتمالات لَوَصَمْنَا الدين الإسلامي - البعيد النظر ،
الواسع الحكمة - بالجمود الذي يبرأ منه وينعاه على أهله ولصيرناه
مضغعة في أفواه أعداء الدين وسخرية بين الزنادقة والملاحدين وكان
غير صالح لكل عصر من العصور وحاشاه من ذلك .

ولو فرضنا أن المذيع أو عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم
لم يضر ذلك شيئاً لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأمور بتوصيله إلى
الجهة المعينة فهو كالبريد الذي يحمل الرسائل .

وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت
رمضان بأي وسيلة من الوسائل التي تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة
الظن ثم يصبح منطراً بعد ذلك . ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة
في هذا العصر لم تكن معروفة في العصور الأولى .

والمدار في كل ذلك على حصول المقصود الذي هو الظن الغالب ،
والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا : (وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة
بل كانت مقصداً وقد فرضناها وسيلة) : والشارع لم ينظـر الأحكام
إلا بحصول الظن الغالب . فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع حتى
يكون دين العصور كلها والأمم كلها وتكون حجته قائمة على المخالفين

في كل زمان ومكان . نعم بعض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال
وقيام الشبهة كوجوب القصاص في الجنابة على النفس ولكن ذلك
لدليل خاص كقوله صلى الله عليه وسلم : « إدْرءُوا الحدودَ بالشبهات »
وذلك لخطر التصاص .

هذا ما نقول به :

ولا نفتي بشيءٍ سواه . نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ويمنعنا
من الخطل ، وأن يلهمنا الرشد في العلم والعمل ولا يكلنا لأنفسنا طرفة
عين بمنه وكرمه .

مسألة في الطلاق

ورد أيضاً إلى فضيلته السؤال الآتي :

« ما قولكم إدام يفضلكم في الرجل قال : « على الطلاق من أول زوجة إلا أفعل أكذا » أوقد فعله وذكر ذلك منه ثلاث مرات ، ويريد أن يتزوج فماذا يكون الحال ؟ »

لرجوكم الإجابة على المذاهب الأربعة إن أمكن ، وإن تنضلتكم بذكر النصوص كان تفضيلتكم شكر على شكر . والسلام عليكم ورحمة الله .
سليمان أحمد رجب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فقد بحثنا في كتب المذاهب الأربعة ولنستق بعض نه موصها
إجابة لرغبة السائل فنقول :

إن هذه الصيغة التي ذكرت في السؤال لغو لا يقع بها شيء عند الشافعية إلا إذا كان على عصمة مملوكة . قال في شرح النهج : « وشرط في المحل كونه زوجة مملوكة للمطلق ، فلو قال : كن امرأة أنكحها فهي طالق ثم نكح امرأة لم تطلق » .

وعند الحنفية لا يقع إلا إذا كان في الملك أو مضاناً أي معلقاً على سبب الملك بأن قال : إن نكحت امرأة أو فلانة فهي طالق . فنكحها طلقت .

وظاهر أن ذلك مبني على قاعدة عندهم وهي أن الطلاق المعلق منجز عند وجود الشرط . فمن قال : إن نكحت امرأة فهي طالق فكأنه قال لها : أنت طالق عقب النكاح ، فكان الطلاق في الملك فيقع . وأما عند الشافعية فالشرط قيد ، فكأنه قال : أنت طالق وقت النكاح ، فكان في غير الملك فلا يقع .

وعند الحنابلة كذلك لا يقع الطلاق ولا يصح تعليقه إلا في الملك . قال في الإقناع : فإن قالت له أي زوجته : قل : كل امرأة أتزوجها غيرك فهي طالق ، فقال ذلك ولم يكن له زوجة غيرها ثم تزوج امرأة ، لم تطلق ، أي لأنه لم يكن مالكا لعصمتها وقت التعليق . وهذا هو المذهب عندهم . واستدلوا بقوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الطَّلَاقَ لِمَنْ أَخَذَ بِالسُّاقِ » .

وأما عند المالكية فقد شرطوا شروطاً نص عليها في (شرح الخرشى) قال : « وشرط المحل الذي يقع فيه الطلاق أن يكون مملوكاً للزوج قبل نفوذ الطلاق ، سواءً أكان ملكه حين التلفظ به ملكاً محققاً كزوجته التي في عصمته أم تعليقاً ، سواءً أكان التعليق بالنية كقوله لأجنبية : أنت طالق ونوى إن تزوجها ، وأنت طالق إن دخلت الدار ، ونوى إن دخلتها بعد نكاحها ، أو بالبساط كقوله عند خطبة امرأة : هي ! »

(١) بساط اليمين : هو اتقوية الحالة التي تدل على تقييد ما أطلقه الخالف .

طالق ، لأن وقوع هذا الكلام عند الخطبة بساط يدل على التعليق
ولو مع فقد النية ، ومثل ذلك ما إذا قال ذلك حين قبيل له :
تزوج فلانة .

فهذا هو حكم ما سألت في المذاهب الأربعة قد تلوناه عليك ، ووكلنا
أمر الاختيار إليك ، والله يتولى هداانا جميعاً بمنه وكرمه .

مسألة في الطلاق^(١)

حضرة ص حب الفضيلة مولانا الأجل الشيخ يوسف الدجوى

تحية واحتراما : وبعد فأرجو من أريحيتمكم الطاهرة ومكارمكم
العالية إفادتي عن الآتى :

تنازع رجل مع زوجته فقال لها : إن كرهت أطلقك ، فقاتلت :
كرهت ، فقاتل لها : أنت طالق ، فأعادت مقاتتها ، فأعاد مقاتته
ثلاث مرات . مع العلم بأن الكراهة عندنا مستعملة فى البراءة من
مؤخر المصداق ونفتمة لعدة ، فهل بانء بالطلقة الأولى فلا يلحق ما بعده
على مذهب الماداء المالكية ؟ أفيدونا مأجورين .

ونسعو لفضيلتكم بعز الحياتين وسعادة الدارين .

محمد محمد العدى

رئيس مكتب تل العمارة

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

ليست الكراهة فى مذهب مالك براءة ، فالطلاق المعلق عليها رجعى ،
وحينئذ فالطلاق الثانى والثالث لاحقان للزوجة لأنها رجعية . وعلى ما ذكر
السائل من أن الكراهة براءة فىكون الطلاق بائنا عنده . فمذهب
مالك أن الطلاق الثانى والثالث لاحقان أيضا لأنها زوجة عنده وبائنة

عند الغير ، فيكون نكاحها كالمختلف فيه ، والنكاح إذا اختلف فيه
ولو في مذهب الغير يباحه الطلاق . ففي فتاوى الشيخ عليش مانصه :

ماقولكم في نازلة وهي أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً مختلفاً فيه
في المذهب أو غيره بالبينونة أو الرجعة ثم بعد ذلك أوقع الثلاث ، فهل
يلحق به نظراً للمخالف كمن طلق في نكاح مختلف فيه : ويكون
محل قولهم : البائن لا يرتد عليه غيره ، إذا كان متفقاً عليه ،
أولاً ؟ أفيدوا الجواب . فأجبت بما نصه :

نعم يلحق به نظراً للمخالف واستحساناً واحتياطاً للفروج إذا كان
الإرداف في العدة . وقولهم : البائن لا يرتد عليه غيره إذا لم يكن
نسقاً ، مخصوص بالمتفق فيه على البينونة ففي ابن سلمون مانصه :

واختلف فيه أي قول الزوج لزوجته أنت طالق واحدة تملكين بها
أمر نفسك دوني على ثلاثة أقوال : فقيل : إنه يكون طلقة رجعية
كمن قال أنت طالق واحدة لا رجعة لي عليك فيها : وهو قول أشهر
ومطرف . والثاني : أنها تكون البتة كمن قال أنت طالق واحدة بائنة
فإنها ثلاث ، وهو قول ابن الماجشون وابن حبيب . والثالث : أنها
طلقة واحدة بائنة ، قال ابن القاسم وحكاها القاضي أبو محمد عن مالك
وبه القضاء ، وكان ابن عتاب - رضي الله عنه - يفتي بأن من بارأ زوجته
هذه المبارأة ثم طلقها بعد ذلك في العدة ؛ أن الطلاق يرتد عليه
نستحساناً ومراعاة لقول من يراد رجعة ا ه . والله أعلم .

هل يقع الطلاق في الحيض

استفتاءً موجه لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ الدجوى ، وجوابه عليه :

زعم بعض أن الطلاق لا يقع في الحيض ، فرد عليه بحديث عبد الله ابن عمر المروى في (موطأ الإمام مالك) فأجاب بأن هذا الحديث لا يصح الاستدلال به للطعن في بعض رجاله ، والإمام مالك لسلامة ضميره لم يفتن لذلك .

فأرجو من فضيلة مولاي القول الفصل في هذا الموضوع .

عبد الحكيم عبد الرحيم

الجواب

الحمد لله الصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد : فهذا الرجل من أجهل الجاهلين بالإمام مالك ، وفيما أقاله أغلاط فاحشة كما سيوضح لك ، فإن الحديث لم يروه مالك فقط ، بل رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم ، فهو حديث متفق عليه .

ومن العجب العاجب قوله : « ان هذا الحديث لا يصح الاستدلال به للطعن في بعض رجاله : فكأنه أعرف بالرجال من مالك ومن البخارى ومسلم وغيرهم . وليت شعري من ذلك المطعون فيه الذى لم يعرفه مالك ،

مع أنه لم يذكر في هذا الحديث بعد مالك إلا نافع وعبد الله بن عمر وعمر بن الخطاب ؟

أما عمر فهو الذى وافق ربه فى مسائل كثيرة معروفة ، وقد كان من المحدثين^(٢) وإذا سلك فجاً سلك الشيطان فجاً آخر ، كما فى الأحاديث الصحيحة ، فلندع الإسهاب والإطناب .

وأما عبد الله بن عمر فهو صحابى جليل من أكابر الصحابة وعلمائهم وأهل الفتوى فيهم ، وقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، كما فى الحديث الصحيح .

وأما نافع فهو من أجل التابعين ، حتى قال البخارى : « ان أصح الأسانيد ، مالك عن نافع عن ابن عمر » . وصرح كثير من المحدثين أن هذه السلسلة هى (سلسلة الذهب) .

وأما مالك فهو مالك وكفى . ولنذكر لك ما قيل فى أصح الأسانيد : قال أبو داود : « أصح حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مالك عن نافع عن ابن عمر ، ثم : مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، ثم : مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة » . فأنت تراه قد ذكر مالكاً فى كل ما قال إنه أصح الأسانيد ، وبدأ بروايته عن نافع ، فماذا نقول لذلك الجاهل بعد هذا .

ولنذكر لك رواية الموطأ لتكون على بصيرة منها ، فإنها لم تذكر بنصها فى السؤال : « حدثنى يحيى عن مالك عن نافع أن عبد الله

ابن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فسأل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « مَرَّةٌ فَلْيُزَجِّعْهَا فَلْيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهَرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهَرَ ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسِكْهَا بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ . فَبِذَلِكَ الْعِدَّةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ » .

ولا نطيل بذكر الروايات الأخرى التى جاءت فى البخارى وغيره . وقد رأينا أن نذكر لك شيئاً عن مالك وما قاله أئمة هذا الشأن فيه لتعرف إلى أى حد وصل جهل هذا القائل . ولكن لا عجب فقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم أن من علامات الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها . وقد قال فى آخر هذا الحديث الذى أخرجه الترمذى وغيره : « غيرت قبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً أو مسخاً وقدفلاً » . وماذا ننتظر من ذوى الجهل المركب الذين حرموا العلم الذى يفقههم على الحقائق وينأى بهم عن الترهات ، والعقل الذى يرشددهم إلى أن ذلك يضرهم ولا ينفعهم .

وسر تلك المجازفات أنهم توهموا أنهم يذكرون بذلك بين الناس ، وقد غفلوا عن أنهم إذا ذكروا فإنما يذكرون على نحو ما ذكر الأعراب فى قوله تعالى : (الأعراب أشد كُفراً وِنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)^(١) .

وما أجدرنا أن نتمثل بقول القائل :

إن العصافير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهيها

وقد جاء في بعض الآثار : لا تقوم الساعة حتى يتكلم الروبيضة
(والروبيضة الرجل التافه الحقيير) .

ألا إنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وقد قالوا قديماً : « لو سكت من لا يعرف لارتفع النزاع » .

وهناك نموذجاً من احتياط الإمام مالك وتحريه :

قال ابن القاسم وهو من أجل أصحابه : كان مالك يقول : « ربما
وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي » . وقال ابن عبد الحكم :
كان مالك إذا سئل عن المسألة قال للسائل : انصرف حتى أنظر ،
فينصرف ويتردد فيها ، فقلنا له في ذلك ، فبكى وقال : « إني
أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأى يوم » وقال ابن وهب : قال
مالك : سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط
ولا أحدث بها . وقال الشافعي : كان مالك إذا شك في الحديث
طرحه كله .

أما شهادة العلماء له فشيء كثير لا يسهه هذا المقام ، وهاك قليلاً
منها ، ولنبدأ بشهادة النبي - صلى الله عليه وسلم - له على ما رآه أجلة العلماء :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يُوشِكُ أَنْ تَضْرِبَ النَّاسُ
أَكْبَادَ الْإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ . وفي رواية : يَلْتَحِسُونَ الْعِلْمَ ، فَلَا يَجِدُونَ
عَالِمًا أَعْلَمَ ، وفي رواية : أَفْقَهُ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » .

وفي بعضها: آباط الإبل مكان أكباد الإبل . وقد رواه البخارى
عن ابن جريج موقوفاً على أبي هريرة -رضى الله عنهم- ، ومحمد بن
عبد الله الأنصارى عن ابن جريج أيضاً مسنداً ، وهو ثقة مأمون .
وخرجه أيضاً النسائى فى مصنفه مرفوعاً إلى أبي هريرة -رضى الله عنه-
قال : رسول الله -صلى الله عليه وسلم- « يَضْرِبُونَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ وَيَطْطَبُونَ
الْعِلْمَ وَلَا يَجِدُونَ عَالِمًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » . ورواه أيضاً
أبو موسى الأشعري -رضى الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ،
قال سفيان : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس . وفى
رواية عنه كنت أقول هو ابن المسيب حتى قلت كان فى زمان ابن
المسيب سلمان وسالم وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك .
وقال ابن جريج وعبد الرازق : نرى أن المراد به مالك أنه لم يوجد
لغيره من علماء المدينة ممن تقدمه أو جاء بعده من الرواة والآخذين
عنه مثل مالك ، وقد أبلغ بعضهم الرواة عنه ألقى راو .

وليعلم أن طلبه العلم لم يضربوا أكباد الإبل من مشرق الأرض
ومغربها إلى عالم ولا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك .
فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً من غير أن يجدوا آثار إحصان
وقال سفيان بن عيينة لما بلغت وفاته : ما ترك على الأرض مثله .
وكان يقول : مالك سراج الأمة ، ومالك حجة الله ، وإنما كنا نتبع
آثار مالك .

وقال الشافعي : مالك أستاذي وعنه أخذت العلم . وكان يقول :
جعلت مالكا حجة بيني وبين الله ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم
الثاقب :

وقال بقية بن الوليد : ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية
ولا باقية من مالك .

وقدمه أحمد بن حنبل على الأوزاعي والثوري والليث وحماد
والحكيم في العلم ، وقال : هو إمام في الحديث والفقه :

وقال ابن مهدي وهو من كبار الحفاظ الذين كان يعظمهم
الشافعي كل التعظيم : ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - من مالك :

وقال العقبي : ما أحسب مالكا بلغ ما بلغ الا بسريرة بينه وبين الله
تعالى . وقال أبو زرعة وهو من كبار رجال الحديث : لو حلف رجل
بالطلاق على أحاديث مالك التي في الموطأ^١ أنها صحاح كلها لم يعنث .
وقال بعضهم من أبيات كثيرة :

تفرق شمل العلم في كل تابع فكل امرئ منهم له فيه مذهب
فخلصه بالسبيك للناس مالك ومنه صحيح في المجس وأجرب
فبادرموطاً مالك واستجلى ما به فما بعده إن فات للحق مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده فإن الموطأ الشمس والغير كوكب
جزى الله عنا في موطاه مالك بأفضل ما يجزى اللبيب المهذب
لقد فاق أهل العلم حيا وميتا فصارت به الأمثال في الناس تضرب

ولا بأس أن نذكر لك شيئاً مما امتاز به مذهب مالك ولا نكاد نراه في غيره :

ذلك أن الإمام مالكا يتوسط في الامور ، كمسألة اللمس : توسط فيها بين الشافعي والحنفي ، وكذلك مسألة السجود القبلي والبعدي ، وكذلك قراءة المأموم في السرية دون الجهرية ، وكذلك عدد الجمعة ، مع ماله من الأنظار البعيدة ، كالمصالح المرسله التي يطول الكلام فيها . ولنختم هذا المقال بشيء وجيز من كلامه رضى الله عنه :

كان يقول : « لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس اها أهلا » وكان يقول : « ما جالست سفيها قط » وكان يقول : « لم أجد في الناس أقل من الإنصاف فأردت المداومة عليه » . وكان يقول « كتبت بيدي مائة ألف حديث » . وكان يقول : « لقد ذهب حفظ الناس ، ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته » . وكان يقول : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : عند هذه الأساطين (وأشار إلى المسجد) فما أخذت عنهم شيئاً ، وأن أحدهم أتواؤتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » . وكان يقول : « لا يكون إماماً من حدث بكل ما سمع » . وكان يقول إذا جاءه أحد من أهل الأهواء : « أما أنا فعلى بينة من ربي ، وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه » . ثم يقرأ (هَذِهِ سَبِيلٌ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)^(١) .

أما توقيره لحديث رسول الله فمما سارت به الركبان ، قال عبد الله ابن المبارك : كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويصفر ولا يتطع حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجبا . فقال : نعم إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

دما يلتحق بذلك أنه دخل يوما على الرشيد فحثه على مصالح المؤمنين وقال له : لقد بلغنى أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- كان فى فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة بالنار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته -رضى الله عنه- ، وقد رضى الناس منكم بدون هذا .

هذا قليل من كثير ، فإلى الله المشتكى من زمان اختلط فيه الحابل بالنابل ، وطم فيه الجهل وبخس فيه الفضل ، واضطر كثير من العلماء إلى السكوت وملازمة البيوت ياسا من الإصلاح ، عالمين أننا فى آخر الوقت الذى يصير فيه المنكر معروفاً والمعروف منكرا كما فى الحديث . ولا بأس أن ننشد فى هذا المقام قول الشاطبى ، وزماننا أصلب من زمانه ، وأقل أعوانا ، والمصلحون فيه أخرج مكانا ، ومع ذلك يقول :

بليت يا قوم والبلوى منوعة بمن أداريه حتى كاد يردىنى
دفع المضرة لا جلب لمصلحة فحسبى الله فى عقلى وفى دينى

أسأل الله أن يصلح حال الأمة المحمدية ، وأن يعلى كلمة الحق ويكثر أنصاره ، ويعرفنا قدر أسلافنا الماضين بمنه وكرمه .

مسألة في الوصية^(١)

ورد إلى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى
هذا السؤال :

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ يوسف الدجوى من هيئة
كبار العلماء: اسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فأتشرف بإرسال السؤال المرفق بجوابي هذا ، وأرجو من
فضيلتكم أن تفيدونا بما ترونه في هذه المسألة ، ولكم الشكر الجزيل .
ماقولكم دام فضلكم في وصية من رجل في شدة مرضه مشتملة على
الإيضاء بنقد معين يوزع على أناس معينين ، وبوقف عقار معين
على شخص من القرابة غير وارث وعلى ذريته من بعده ، والثالث يسع
الجميع ، والحال أن المريض المذكور لم يوص بثلاث .

والذي أملاه الوصية هو ذلك الشخص المذكور الذي جعل لنفسه
العقار ، وقد أحضر شاهدين عند المريض فقرأ الوصية أحد الشاهدين
فقالا للمريض : أنشهد عليك ؟ قال نعم ، فذهبا إلى القاضى وشهدا
شهادة مجملة . وكتب القاضى : بموجب شهادتهما ثبتت لدى هذه
الوصية وصحت ، وفي الوصية أن الوصى ابنه ، وقبل تحقق رشده

جعل الناظر عليه الموصى له بوقفية العقار المذكور . وبعد وفاة الموصى صار المتولى هو الناظر ، فحاز العقار لنفسه ، وأخرج بعض النقود الموصى بها . ثم إن ابن الموصى المذكور أثبت رشده .

وبذلك ارتفع نظر الناظر عنه وبعد ذلك قام ذلك الابن بعد بلوغ رشده يدعى بطلان الوصية بزعمه أن والده حين الإيصاء لم يكن في حسه وتمام شعوره . وحصل النزاع بين ابن الموصى وبين الناظر الموقوف عليه العقار ، فادعى الابن بدعواه المذكورة ، وأنكر الناظر ذلك ، واحتج على صحة الوصية بتثبيت القاضي عليها بعد شهادة الشاهدين ، وأحضر الحاكم الشاهدين للوصية ليستبين منهما الشهادة فأجاب أحدهما بأن الموصى كان ناقص الحواس حين الإيصاء ، والآخر قال : أنا لا أجزم بوجود حواسه ولا بعدمها حين الإيصاء له على الوصية ، وقد أقام المدعى شهودا عدولا متعددين يشهدون أن الموصى لم يكن في شعوره ولم تكن حواسه حاضرة ، كما أقام المدعى عليه شهودا أنه كان في شعوره . ومن شهود المدعى عليه من له شيء معين في الوصية المذكورة على لسان الموصى :

فهل يعد ذلك من الشاهدين رجوعا عن الشهادة الأولى ؟ وهل تثبيت القاضي على الوصية يعد حكما أم لا ؟ ويوجد في الوصية إمضاء الموصى بقلمه ولكن الابن يعارض في ذلك .

أفتونا مأجورين ، ولكم من الله الأجر والثواب .

سلمان بن احمد كمال

صاحب المكتبة الكمالية بالبحرين

الجواب

الحمد لله ، الصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
وبعد : فقد راجعنا بعض كتب الفقه عندنا ، وسنتلو عليك
بعض تلك النصوص ، وهما ما استخلصنا منها :

(أولاً) : قول القاضى الذى وقع أمامه الإِشهاد على الوصية :
« بموجب شهادتهما ثبتت لدى هذه الوصية وصحت » ليس حكماً بصحة
الوصية غير قابل للنقض وإعادة النظر فيها .

وذلك لأن احكم عندنا معشر المالكية وإن كان لا يتوقف على لفظ
« حكمت » بل يحصل بغيره كقول القاضى : نقلت الملك ، إلا
أنه لا يكون حكماً إلا بعد استيفاء مالا بد منه قبله ، ومنه الإِعتذار
للخصم فى بيئنة المدعى . وفى الحادثة المسئول عنها لم يحصل إعتذار
له ، لأن الخصم فيها لم يحضر الإِشهاد على الوصية لدى القاضى ،
بل لو حضر لكان حضوره غير معتبر لعدم رشده إذ ذاك كما يفيد نص
الاستفتاء .

وإذاً فما صدر من القاضى لا يزيد على كونه إثبات حالة قابلة
للنظر فيها بعد .

(ثانياً) نص الأمير فى حاشيته على مجموعته : أن من شرط
الموصى أن يكون غير مختلط حين الإيصاء . ونص أيضاً نقلاً عن
السيد : أن الموصى له إن ادعى أن الوصية وقعت حال التمييز من الموصى
فعليه إثبات ذلك .

(ثالثاً) حيث إن المسألة بناءً على ما قدمناه لم يقع فيها حكم ،

فرجوع شاهدى الوصية فى شهادتهما حيث قال أحدهما : أن الموصى كان ناقص الحواس عند الإِشهاد ، وقال الآخر : أنا لا أَجزم ، هذا الرجوع معتبر بأنّه قبل الحكم ، وإِذا فشهادتهما الأولى لاغية لا تثبت بها الوصية .

(رابعا) : نص الفقهاء على أنه إذا وجد بينتان متعارضتان وجب أن يصار فيهما إلى الترجيح إن أمكن ، كزيادة العدالة فى واحدة منهما . فإنه يجب الأخذ بقولها دون قول الأخرى ، وكوجود تهمة معتد بها توجب سقوط إحدى البيئتين . فإن لم يوجد مرجح سقطتا . هذا ومجرد كون الشهود من إخوان المشهود له لا يقتضى بطلان الشهادة ولو كان الشاهد صديقا للمشهود له متى كان مبرزا فى العدالة ولم يكن ممن ينفق عليه المشهود له .

الخلاصة

والخلاصة أنه يظهر من وقائع هذه الدعوى أن هذه الوصية لم يقم دليل صحيح على صحتها واعتبارها شرعا . فإِذا أن يقيم الموصى لهم دليلا صحيحا سالما من المعارضة على أن الموصى كان أهلا للوصية حين الإِيصاء ، وإِذا يجب تنفيذها ، وإِلا فهى باطلة وترجع الأعيان الموصى بها ميراثا .

ولابد حين قيام البيئة المنضمية لصحة الوصية من ثبوت أن التوقيع عليها كان بخط الموصى ، لأن ابنه يطعن فى ذلك ، ويدعى أن التوقيع ليس بخطه .

أسأل الله أن يلهمنا جميعا الرشد فى القول والعمل بمنه وكرمه .

الدِّينُ أَنْفَعُ لِلْعُمَرَانِ^(١) من كلِّ القوانين

كتبنا مقالا ضافيا بالأهرام بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٢ تحت عنوان (صوت منبعث من قلب الشرائع جمعاء) طلبنا فيه من زعماء الأمة وحكومتها أن يجعلوا قانون البلد هو القانون الشرعى وقلنا لهم : إنكم ملكتم من أمركم ما لم تكونوا تملكون ، وقد دخلتم في دور جديد من نهضتكم المباركة فعليكم أن تنهضوا بها في دينها وقوانينها أيضاً عسى أن يرجع للأمة الإسلامية مجدها الذى كانت تتمتع به ، حينما كان يمتد سلطانها إلى الصين شرقاً وأرض فرنسا غرباً ، فكانت إذ ذاك أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق .

وها نحن أولاً خطونا خطوة أخرى في نهضتها المباركة . فهل لحكومتنا السنية وزعمائنا الكرام أن يحققوا ذلك الأمل الذى يعود عليهم بالفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ؟ (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)^(٢) .

وقد عاودنى الأمل في تحقيق تلك الأمنية فكتبت هذه الكلمة اليوم راجياً أن يكون الوقت قد حان لاستعادة مجدنا الأول في أخلاقنا وآدابنا وعاداتنا وتكوين نفوسنا التى ورثت الإيمان والإسلام عن آباؤها وأجدادها فنقبل وبالله التوفيق :

(١) مجلة الازهر - الجزء السابع - المجلد السابع - رجب سنة ١٣٥٥

(٢) سورة محمد ، الآية ٧ .

إن الواجب الآن على الأمة المصرية وقد هبت تريد المثل الأعلى في حياتها أن تعمل في بقية النواحي الدينية والأدبية التي لعلها أجدى عليها وأنفع لها . وقد شرعت مصر تغير قوانينها فواجب عليها أن تتبع الطريق الاجتماعي في مثل هذه الحالة وهو أن يكون التقنين الجديد على أتم وضع وأعظم فائدة . وقد أصبحوا والحمد لله أحراراً في كل ما يعملون ويشرعون ؟ .

ولعمري إن الأمر لأوضح من الصبح فإن تشريعنا الذي لم يمر عليه قرن ولا نصف قرن قد ظهرت عيوبه وقد هبوا يطلبون له الإصلاح والتعديل ولكن ذلك التشريع السماوي مكثت فيه الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرناً قبل ذلك فكانت خير الأمم في راحتها وهنائتها . وما انحط شأنها وتضعضع مجدها إلا من يوم غيرت وجهتها واتخذت لنفسها قوانين غير قوانين ربها الحكيم العليم .

تلك القوانين السماوية التي تسيطر على الظواهر والبواطن ، وتملأ القلوب مراقبة لله وخوفاً من الله .

تلك القوانين التي تقول لهم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(١) .

تلك القوانين التي توجب عليهم أن يكونوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق ولا تزال بهم حتى تجعلهم ملوكاً في الأرض ملوكاً

(١) سورة الزلزلة . الآيات ٧ ، ٨

في السماء . وأن الباحث المدقق بنظرة واحدة يتجلى له الفرق الشاسع بين أدوارها الأولى عندما كانت متمسكة بدينها عاملة بشريعتها وبين أدوارها الأخيرة عندما نبذت شريعتها وأخذت بتلك القوانين الأجنبية التي تباين استعدادها ولا تلائم مزاجها ولا تطهر نفوسها ولا تعنى إلا بالأشباح دون الأرواح وبالشكليات دون الحقائق فانحطت عندها الآداب والأخلاق فتمكنت منها محبة الذات والانغماس في الشهوات فصار الناس وحوشاً ضارية يأكل قويهم ضعيفهم وأصبحوا كالحرباء يتلونون بكل لون ويلبسون لكل حالة لبوسها ، ويعدون للدسئولية القانونية عدتها من الغش والتزوير وتنميق الألفاظ وتحسين الفواهر ، إلى غير ذلك مما لا يأتى عليه الشرح ولا يبلغه البيان .

فهل للأمم الإسلامية أن تتنبه وقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطبيعيين فترجع إلى شريعتها التي جربتها في القرون العديدة وبلغت بها في أقل من قرن واحد ما لم تبلغه الرومان في عدة قرون ؟ .

ولا غرو فقد كان المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها كالبنيان يشد بعضه بعضاً أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ) ^(١) .

ولا دواء لهم والله إلا الرجوع لشريعتهم ولا شيء أنجح في وحدتهم الحقيقية — لا وحدة الرياء والمصانعة — من رجوعهم إلى الدين الصحيح ولادواء أنفع في استرجاع مجدهم السالف الذي كانوا به أعز الأمم على

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٩

الإطلاق وأرفعها على الإطلاق من ترسم خطا نبيهم والافتداء بعظماء
أسلافهم .

إن الإسلام جاء بمجامع السعادات كلها لجميع أفراد النوع الإنساني ،
فلم يأمر من يعتنقه بالعمل لإسعاد أمته فحسب بل لإسعاد الإنسانية
عامة والرحمة بكل فرد وكل مخلوق .

أما الذين يرمون الدين بأن فيه أشياء لاتلائم العصر ولا تسيغها
المدنية الحاضرة فهم جهال بحقيقة الدين وبعد نظره في علاج الناس
بما يقوم اعوجاجهم ويصلح أودهم . وما مثل ذلك عندي إلا كمثال
مريض فسد مزاجه وضعفت قابليته فأصبح غير قابل للدواء ولا واثق
بالأطباء أو كمثال طفل لا يعرف من الدنيا غير شهواته واو أتت على
الأخضر واليابس فهو لا يعرف للحكمة معنى ولا للحكماء قدراً فهو
ينظر إلى ما يشيرون به نظر الهازيء المستخف لأنه لا يستطيع أن
يدرك مراميهم ولا بعد غاياتهم ولا أسرار حكمتهم .

ولنهجم بك على أصعب شيء في الدين الإسلامي عند هؤلاء
المتفسيهقين من ذوى الحضارة الجديدة : أصعب شيء جاء به الدين
الإسلامى فى نظر هؤلاء هو الحدود ، وأشدّها رجم الزانى المحصن وقطع
يد السارق . ولتبين لك من أسرارهما ما يجعلك تنطق بأن الدين
الإسلامى ماجاء إلا بالحكمة البالغة التى بها رقى العمران ، وسعادة بنى
الانسان .

ولنشرح لك شيئاً من مضار الزنى ثم نعقبه ببيان الحكمة في مشروعية رجم الزانى المحصن فنقول :

إن في الزنى مضارا كثيرة وربما أدى إلى القتل وكثيراً ما كان ذلك لمزيد الغيرة الطبيعية ولما يلحق أهل المرأة وزوجها من العار وما يترتب على ذلك من إفسادها على زوجها وسوء عشرتها له أو فراقها وفراق أولادها وما فيه من إفساد هذا الزانى على زوجته العفيفة فضلاً عما وراء ذلك من ضياع الأنساب المؤدى إلى ترك التناصر ، وما فيه من غش الغير في النسب الكاذب وتمليك الأموال لغير مستحقيها عند التوريث وضياع الولد لعدم من يربيه حق التربية ولصوق العار به لعدم معرفة أبيه وسوء القالة فيه طول عمره ولزوم المذلة والانكسار له فيما بين الناس ، بله انتشار الأمراض الخطرة التي تنتقل منه إلى غيره وتورث عنه في أولاده وأولاد أولاده كالزهرى والسيلان ، إلى غير ذلك من المفاسد التي يطول شرحها .

وبعد : فأنت تعلم ما يترتب على فساد البيت عند تطلع المرأة لغير زوجها ، واتخاذها أحداناً في الخفاء وما يلحق الزوج من الغيرة التي كثيراً ما تؤدى إلى قتل ذلك المنتهك لحرمة أو قتله هو في ذلك السبيل وما يلحق أهلها من العار الذي كثيراً ما يؤدى إلى قتلها . وقد كان هذا من أسباب وأد البنات في الجاهلية والغيرة في هذا طبيعية حتى في الحيوانات .

فإذا قضينا على تلك الجريمة التي تؤدى إلى هذه المفاسد كلها بقتل رجل ثبت عليه الزنى وهو محصن - ولا يشبت عليه ذلك إلا بعد التتبع

والتي - نكون قد ارتكبنا أخف الضررين وسلكنا طريق ذلك المثل
العربي المعروف « القتل أنفى للقتل » . . .

مع أن ثبوت الجريمة التي توجب الرجم يكاد يكون مستحيلاً
عادة ولكن حصوله مرة واحدة في قطر من الأقطار يوجب حفظ نفوس
لاعداد لها وصيانة أعراض لا تدخل تحت الحصر وشرف أسر لا يعلمها
إلا الله عن أن تقع في العار والفضيحة فضلاً عما يدهور المجتمع كله
عندما تفسو فيه المنكرات لأن الأمم بأخلاقها وآدابها ولأن كل أمة
تفسو فيها المعاصي تسقط من عين الله تعالى فيحيق بها البلاء من حيث
تعلم ولا تعلم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)^(١) .

على أن الشريعة قد أتت في هذا بالعجب العجيب فملأت قلوب
المجرمين خوفاً وذعراً ، وفي الوقت نفسه شرطت للحد شروطاً لا تكاد
تتحقق إلا في النادر الذي لا حكم له بل لا يكاد يوجد إلا في ظرف
غير عادي .

فأنت تراها أولاً تقول : « ادرعوا الحدود بالشبهات » وثانياً
تشرط في ثبوت الزنى أربعة شهود (مع أنهم تكتفي في إثبات القتل
بشاهدين) .

وثالثاً : توجب حد القذف على الشهود إذا لم يكونوا أربعة أو لم
تم شهادتهم بأى وجه من الوجوه .

(١) سورة الشورى ، الآية ٣٠

ورابعاً : تشترط عليهم أن يكونوا رأوه كالمرود في المكحلة ،
وأنى لهم ذلك والحادثة مما لا يكون إلا في أخفى الخفاء حتى في الحلال
فضلاً عن الحرام ؟ .

وهب أن واحدا رأى ذلك أو اثنين فكيف يتيسر رؤية أربعة
في وقت واحد ؟ وهب أنهم رأوه معها أو رأوها متجردين في فراش
واحد ، فكل ذلك غير كاف ولا موجب للحد بل على الشهود الذين
شهدوا بالزنى حد القذف .

فمن يعرض نفسه لهذا المأزق الذى لا ينتهى غالباً إلا بحده هو ؟
وإذا وثق من نفسه فكيف يثق بالثلاثة الباقية من الشهود ؟ وكيف
بتأني لهم جميعاً أن يضبطوا هذه الرؤية ؟ إلى غير ذلك مما هو غنى
عن الشرح .

ومع تلك لعقبات كلها فضلاً عن درء الحدود بالشبهات فقد
استطاع الدين أن يقضى على تلك الجريمة الشنعاء . ومنصفو الأوربيين
يعترفون بالفرق الشاسع بينهم وبين المسلمين في ذلك خصوصاً في
عهدهم الأولى . والإحصائيات عندهم في ذلك مدهشة مخجلة .

وقد شرع الدين بجانب هذه الشدة في عقوبة الزنى بإباحة تعدد
الزوجات وسهل الأمر في ذلك لما ذكرناه ولما فيه من الفوائد العديدة
وليس يغيب عن القراء ما قررته بعض الحكومات من المكافأة على
كثرة الأولاد ، ولولا سلطان البيئة التى هى فيها لأباحت لهم تعدد
الزوجات .

هذا وقد قال بعض الأوربيين : « إننا نوجب الاقتصار على الواحدة في الزواج الشرعى ولكن نتخذ من الخليلات غير الشرعيات ما لا يقف عند حد فنضيعهن وأولادهن بلا شفقة ولا رحمة » .

فأنت ترى الإسلام منع هذه الجريمة بالخوف من تلك العقوبة الشديدة وأعد عليها بأشد العقاب في الآخرة وشرع ما يغني عنها . ومع ذلك وضع من الشروط التي تحول دون إثباتها ما يجعل وجود الحد بعد تلك الشروط مستحيلا أو كالمستحيل .

فأى نظر أبعد من هذا ؟ وأى حكمة أبلغ من تلك الحكمة التي صانت الأعراس والنفوس ولم تسرف في القتل ولا جعلت الأمر جزافاً ؟ أليس ذلك أسمى حكمة وأبلغ تشريع ؟ .

أما قطع يد السارق فأمره من أوضح الواضحات : فإن اللص يخرج من بيته موطناً نفسه على أن يُقتل أو يُقتل . وكثيراً ما قتل وقُتِل .

ومن جهة أخرى تستطيع أن تتصور فظاعة الجريمة إذا تخيلت امرأة عجوزاً تسعى على أيتامها بقليل من المال فيطلع عليها ذلك اللص فيسلبها رأس مالها الذي تعيش به هي وأولادها المساكين ، فهي إن لم تلق الموت السريع من أيديهم لقيت الموت البطيء من جراء ما فعلوه بها وبفلذات كبدها الذين أصبحوا في حالة تذيب القلوب وتدمي العيون ، إلى غير ذلك مما تعرفون ولا تجهلون .

وقد انتشرت تلك الحوادث في بلاد العالم كله انتشاراً يثير الأسف الشديد والحزن العميق ولو أقمنا الحد الشرعى مرة واحدة لأنخفنا الجميع خرفاً تصبح به السجون خالية من أولئك اللصوص وتستريح به إدارة الأمن العام من تلك المزعجات المقلقات التى فشلت فيها اللوائح والقوانين وضجت منها رجال الشرطة وقضاة المحاكم .

وعلى أن ذلك الحد داخل فى عموم الحدود التى تدرأ بالشبهات كما قانا . ولعلدء الحنفية فى ذلك تفصيلات تجعل الأمر سهلاً لدى الحاكم المتبصر - نيث قالوا : إذا صمم المسروق منه على تضمين السارق المال المسروق ، ستمط عنه الحد لأنه لا يضمه له إلا وقد ملكه إياه . على تفصيل وكلام طويل .

والمقصود أن فى مذاهب الأئمة من الآراء والأنظار سعة كبيرة . ونحن راضون أن يختار بدل هذه القوانين الأوربية قانون شرعى من كل المذاهب المعول عليها فى الدين الإسلامى ، وفيها من السعة والفسحة والأنظار الحكيمة ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فذلك خير من القوانين الأوربية على كل حال .

الخلاصة

والخلاصة أن المسلمين إذا عملوا بتعاليم دينهم وربوا أولادهم على المبادئ الشرعية، والإخلاص فى جميع الأمور كما تقتضيه مراقبة الله والخوف منه ثم أكملوا العمل بما جاء به نبيهم فاتحدوا جميعاً وكانوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى

له سائر الجسد بالسهر والحمى . إذا فعلوا ذلك كله فقد استعدوا
لأن يستعيدوا مجدهم السالف وعزتهم التي كانت لهم : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) .

وإياك أن تصغى لأولئك الملاحدين من المتفيهقين الذين لم يعرفوا من
العلم الصحيح شيئاً ولا لهم من الوجدان الرفيع ما يذوقون به أسرار
الدين أو يتعرفون به الحق ويفقهون برهانه وإن كانوا من ذوى الزخرف
والتشديق الذين يخيل لك أنهم قرءوا كثيراً ودرسوا كثيراً ، فالعلم
أجل من أن يصل إلى حقائقه كل ناظر فيه أو يذوق أسراره كل
من يدعيه :

أوقد قرر الفلاسفة أن كل من أخذ من العلم ما ليس مستعداً له
كان ضرر ذلك العلم الذى أخذه أقرب من نفعه ، وكان بمنزلة ضعيف
المزاج الذى لا يستطيع أن يهضم ما تناوله من الغذاء ، فلا غرو أن ينقلب
إلى فساد :

كذلك أدعياء العلم الذين لم يخلتوا له إذا قرأوا شيئاً من العلم
ثم يحسنوا فهمه فأولوه على ما يناسب استعدادهم ويوافق أهوائهم لأنه
لم ينهضم عندهم وكان خيراً لهم ألا يأخذوه .

ولذلك يروى فى المأثور « ما من أحد يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه
عقولهم إلا كان حديثه فتنة عليهم »^(٢) . وذلك لأنهم لم يفهموه
على وجهه .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨

والعقول عند كثير من الناس مسخرة للأهواء لا مسخرة لها فهي
لا تستمد إلا منها ولا تصدر إلا عنها ، وكان الواجب في حقهم الحمية
عما لا يستطيعون معرفته كما يجب احتيأء المريض عما يضره من الغذاء
وإن كان ضرورياً لغيره .

وربما طرقتنا هذا الموضوع مرة أخرى . والله يتولى هدى الجميع
بمنه وكرمه .

هل يجوز الدعاء على المسلم بالكفر؟

مارأيكم أدام الله فضلكم في رجل يدعى العلم ، وقد أذنب أحد أصحابه ذنبا على زعم ذلك المدعى ، فصار يدعو على هذا المذنب قائلا مانصه : « اللهم أعم بصرك يا فلان . اللهم اسلب إيمانك يا فلان . اللهم أمتك على الكفر يا فلان » في جمع من المسلمين ، فغضب أحدهم وامتنع عن مصاحبته ، فعلم ذلك المدعى بسبب امتناعه ، وهو الدعاء ، فخطأه وأفتى بجواز ذلك الدعاء ، وأصر عليه ، ففرجواكم بإلحاح الإجابة على ذلك ، ولكم من الله الثواب ، ومن المسلمين الشكر ،
أحمد عبد المنعم اللقاني

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
اطلعنا على خطابكم وما ذكرتموه عن ذلك المفتي الذي يأتى المنكرات الصريحة زاعما أنها من الدين ، وأنه من خير المسلمين الغيورين .
والجواب أنه إن صح عنه ذلك كان من أكذب الكاذبين وأجهل الجاهلين . ولو كان على شيء من العلم لاقتدى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ، أو بإبراهيم عليه السلام حيث يقول :
(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)^(١) ،
أو بالمؤمنين الأولين حيث يقولون :

(١) مجلة الأزهر - الجزء التابع - المجلد السابع - رمضان سنة ١٣٥٥ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٤١

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (١) .

ولنرو لك حديثا هو نص في الموضوع ، وسنذكر لك أحاديث كثيرة بعد :

عن عمر - رضي الله عنه - أنه قد أتى برجل شرب الخمر ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلده في الخمر قبل ذلك ، فقال رجل من القوم بحضرتة صلى الله عليه وسلم : اللهم عنه ما أكثر ما يؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله » أخرجه البخاري . وفي رواية لأبي داود عن أبي هريرة « لا تقولوا هذا ولكن قولوا : اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه » .

فهذا هو أدب الإسلام ، لا مافعله هذا الفتى . وقد كان صلى الله عليه وسلم يلاذلف من سبق عليه القضاء فوق في حد من حدود الله تعالى ، ويقول : « ادركوا الحدود بالشبهات » علما منه صلى الله عليه وسلم بالضعف البشري الذي كثيرا ما يغلب صاحبه المؤمن إيمانا قلبيا صحيحا ، علما أنه سيرده إيمانه وقتا من الأوقات ، وستنهاه صلاته يوما من الأيام ، ناظرا إلى سعة الرحمة الإلهية ، وإلى كرم الله الذي ينظر إلى القلوب لا إلى الصور ، مبينا لنا أن الندم توبة ، وأن التوبة تجب ما قبلها ، وأن الحسنات يذهبن السيئات .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم أن الإنسان بمقتضى البشرية لا بد أن يكون له هنوات وهفوات ، فأرشدنا إلى الحمية ما استطعنا . فإذا

وقعنا في مرض الذنب لم يؤيسنا ولم يقنطنا ، بل أرشدنا إلى الدواء الذي يخلصنا مما وقعنا فيه ، فقال : « أَتَقُّ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَاتَّبَعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

فانظر إلى هذا التعليم النبوي الوجيه الذي اشتمل على مجامع السعادات الدنيوية والأخروية . فجزاه الله عنا أفضل ماجازى نبيا عن أمته . وقد كان صلى الله عليه وسلم يقبل اعتذار المعتذر ، ويرشده ، ولا يؤنبه ، ويكتفى من الناس بظواهرهم ، علما منه أن صلاح الظواهر قد يجر إلى صلاح البواطن ، ولا يطلب من الناس الكمال في الأشياء ، ولا يكلفهم غاية واحدة ، نظرا إلى ما بينهم من التفاوت في الاستعداد ، وأن كلا يأخذ ما قدر له ولا يتجاوز مرتبته ، فكان يسيرهم جميعا في طريق الخير ، وينير لهم طريق الهدى ، ثم يدعهم لله تعالى .

ولا يدقق هذا التدقيق الذي يفعله الآن أولئك المتفيهقون . وقد غضب على أسامة غضبا شديدا عندما قتل الرجل الذي قال : لا إله إلا الله ، ولم يقبل منه أنه قالها تقية ، وصار يقول له : أقتلته ! بعد أن قالها ، حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل . مع أن الظاهر أن الرجل ما قالها إلا تقية ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يفتح باب الاحتمال وسوء الظن ، علما منه بما يترتب على ذلك من الشرور والمفاسد ، واتباع الأهواء والأغراض والأوهام والجهات ولذلك زجر أسامة وقال له : « هلا شققت عن قلبه »

وسر هذا أن إصلاح الظواهر كثيرا ما يجر إلى إصلاح البواطن كما قلنا ، خصوصا في بيئات الهدى وأوساط الدين والصلاح .

هذا وقد قالوا: «إن الرضا بالكفر كفر» . فهل يعتبر الدعاء بالكفر رضاء به ، أو فوق الرضاء كما هو ظاهر ؟ وقد ورد في الصحيح أن من رمى غيره بالكفر بآء به أحدهما ، إلى غير ذلك مما لا نريد أن نتوسع فيه . فانظر إلى تغليظ الشارع في هذا الباب الضيق الذي يجب أن يبتعد عنه المسلمون كل الابتعاد . ولولا أننا نعلم أن الشيخ الداعي بالكفر من المتأولين لأغلظنا عليه القول ، ولكننا لانفعل وإن كان تأويلا فاسدا ، وتهورا شنيعا .

غلظة فاحشة :

ولا يفترنا في هذا المقام أن ننبه على أن قوله الذي ساقه السائل بنصه «النهم أمتك على الكفر يافلان» غلط فاحش : فإنه جمع بين مخاطبين لمخاطبين في جملة واحدة ، وهو مما نص علماء العربية على امتناعه .

وبعد : فقد رأينا أن نسوق إلى القارئ الكريم بعض ما ورد من الأحاديث التي تبين حقوق المسلم على المسلم ، وتحث على الرحمة والشفقة حتى بالحيوان الأعجم ، ليعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فنقول :

عن وائلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «المُسلِمُ عَلَى المُسلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعَرَضُهُ ، وَمَالُهُ ، المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَا هُنَا - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْقَلْبِ - وَحَسْبُ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ » . رواه الإمام أحمد وغيره . وإسناده جيد .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« مَنْ ذَبَّ عَنِّ عَرِضٍ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ »
رواه أحمد والطبراني .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« إِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ خِيَارُهُمْ ، وَآخِرُهَا شِرَارُهُمْ مُتَفَرِّقِينَ ، فَمَنْ
كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَتَاتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ
أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » . رواه الطبراني .

وعن عائشة - رضی الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« ادْرءُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ
فَخَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَلَأَنْ يَخْطِئَ الْإِمَامُ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَخْطِئَ فِي
الْعُقُوبَةِ » . أخرجه الترمذی .

وعن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ » . أخرجه الشيخان والترمذی .
وفي أخرى لأبي داود والترمذی عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : « لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ » . أخرجه
الشيخان وأبو داود والترمذی .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا

فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ وَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الشَّرَى مِنَ
الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي
كَانَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ حُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى
الْكَلْبَ ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَغَفَرَ لَهُ . إِيَّاهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا
فِي الْبُهَائِمِ جَزَاءً ؟ قَالَ : فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ . إِيَّاهُ الشَّيْخَانِ
وَأَبُو دَاوُدَ . وَقَدْ وَرَدَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي مَوْسَى رَحِمَتْ كَلْبًا مِثْلَ ذَلِكَ .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : « إِنَّ الرَّفْقَ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا نُزْعَ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا شَانَهُ » . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ .

وعن جرير - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« مَنْ يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ .

وعن أبي موسى - رضى الله عنه - قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم -
إِذَا بَعَثَ أَحَدًا فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ : « بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا ، وَيَسِّرُوا
وَلَا تُعَسِّرُوا » . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ، إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ وَهُوَ كَثِيرٌ .

وبعد : فلا غرابة في مثل تلك الفتاوى الضالة ، فقد أخبرنا
- صلى الله عليه وسلم - أَنَّ النَّاسَ سَيَتَمَخِّدُونَ رُؤْسَاءَ جَهَالًا فَإِذَا سَأَلُوهُمْ
أَفْتَوْا بِغَيْرِ عَمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا .

وقد أخبرني من أثق به أن بعض العلماء المفتونين قال أمامه :
إِنَّ الصَّلَاةَ عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - بَعْدَ الْأَذَانِ أَشَدَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ
حَتَّى الْقَتْلِ . كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ^(١) .

(١) سورة الكهف : آية ١٥٠

مع ملاحظة أن علماء المذاهب الأربعة يرون أن الإتيان بها مستحسن .
ويصرح الشافعية بسنيتها . وقد ذكرنا وجه ذلك في بعض ما كتبناه .

فانظر إلى أي مدى وصل التبجح وقلة الحياء مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم مع أئمة المسلمين وعلمائهم :

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

ليس هذا شأن المسلم الذي يحتاط. لدينه أو يعرف قدر نفسه .
ولعل ذلك يقع منك موقع الغرابة والدهشة ولكن لا محل للغرابة بعد
ما قال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » .

ولندكر لك ما استند إليه ذلك الجاهل في فتواه الحمقاء ، تخفيفاً
لدهشك ، وتقريباً لبعض ما كنت تظن أنه لا يقع من مسلم فضلاً
عن عالم : ذلك أنه يقول : إنه تشريع جديد من عند من قال به .
ولا تشريع إلا لله ورسوله . وأما صاحب المعصية فلم يشرع شيئاً من
عند نفسه لأنه يعتقد أن المعصية حرام كما في شرع الله ورسوله .
وقد فات هذا الجاهل الغبي أن من قال ذلك من أئمة المسلمين لم يقله
على أنه شرع من عند نفسه ، بل قاله على أنه شرع الله في اعتقاده ،
فليس عليه شيء ولو كان مخطئاً في الواقع ، لأن المجتهد له أجران إذا
أصاب ، وأجر إذا أخطأ ، كما في الحديث الصحيح .

ويجب على كل مجتهد أن يعمل باجتهاده ، ولا يجوز له أن يخالف
ظنه ، كما بين ذلك في علم الأصول ، خصوصاً على رأي المصوبة .

ولكن ما للجهول ولهذه المباحث ؟ وأنى له بعد ذلك بمدارك الأئمة الذين عرفوا من روح الشريعة ما لم يذق له طعماً ، واستنبطوا من منطوقها ومفهومها وإشاراتنا وعلل أحكامها وأسرار تشريعها ما لم يشم له رائحة ؟ وكان ذلك المسكين فهم أنهم ادعوا الرسالة حتى قال ما قال .

والإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات ؟ فرحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فسلم لأئمة الهدى ما قالوا ، ولم ينازعهم فيما لم يدر سره ولم يسبر غوره :

فحسبك تسايء العلوم لأهلها وحقك فيها أن تكون متابعاً

أسأل الله أن يقينا شر فتنة العقل الناقص ، والعلم الأبتى ، وأن يخلصنا من ضلالات هذا العصر الذى تسابقت فيه عرج الحمير ،

[[عنه وكرمه :]]

الدِّينَ أَنْفَعُ لِلْعَمْرَانِ مِنْ كُلِّ الْقَوَانِينِ^(١)

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(٢) .
(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)^(٣) .

إنني أدعو في مقالي هذا إلى الإصلاح باسم الدين وأعوذ بالله من النزق وسوء التأويل ، وقد صارحتك في أول الأمر بما أريد أن أقول لأنه لا يمكنني أن أكون إلا صريحا ولا أحسن غير هذا ، فأرجو ألا تنفر من العنوان أو طول البيان ولك علينا ما شئت من تحكيم الوجدان أو الرجوع لقواعد العمران ، وافرضها أيديك الله نظرية جديدة في الإصلاح أفلا يدعوك العلم وحب استطلاع الحقائق أن تتشوف إلى تلك النظرية حتى تتمحص برأبي ورأيك ورأي أمثالك من المنصفين المخلصين ، وأستسمحك فيما عسى أن يكون من طول في نظرك فإن الموضوع خطير وكل نقطه من نقطة مهمة في ذاتها وهي مقصدان ومقدمة .

وإنني أتقدم إلى الكتابة في هذا الموضوع حبا في الإصلاح الصحيح وإجابة لصوت الدين الذي يرن في أذن كل مسلم من أعماق ضميره

(١) مجلة الاسلام - السنة الخامسة - العدد ٤٨ - ذو الحجة - سنة ١٣٥٥

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٣١ - ٣٢

(٣) سورة الاسراء ، الآية ٧

مصيخابه من سموات روجه ، صوت يسمعه كل أحد بقي في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

وإني أعلم مع هذا أن هناك آذانا صما وقلوبا غلفا لا تجيب الدعاء ولا تسمع النداء . (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)^(١) . بل أعلم فوق هذا أن للمدنية الحديثة التي سار الناس فيها على غير هدى ولا بصيرة قد أفسدت النفوس وطغت على العقائد بسيلها الجارف حتى أماتت الوجدان وأصبح لا ينفع البرهان ، فترى كثيراً من أولئك الملحدین المتحذلقين الذين أرادوا أن يكونوا من كبراء أهل الدنيا فمرقوا من الدين ولم يدركوا ما أرادوا من الدنيا فبقوا حيث هم بلا دين ولا دنيا ، وكانوا خطراً بعد ذلك على أممهم وأنفسهم ، أول مميزاتهم الطيش والنزق والكبر والصلف واحتقار الناس والإعجاب بآرامهم .

وبالجملة فالشيطنة أخمص صفاتهم وقد خلقت الشيطان من مارج من نار ، فهم في الشر نار مستعرة والنار لا تعرف الدين ولا الأناة ، وهم في الأمم أوبئة قتالة وجهالات مركبة .

أعلم أن كثيراً من هؤلاء ينفر من مثل ذلك العنوان فضلاً عن أن يقرأه أو يبحث ، ومنهم من يظن نفسه سياسياً فيجعل نفسه في السماء وهو في قاع الماء زاعماً أن السياسة علم غامض يجب أن يحتكره هو

(١) سورة البقر ، الآية ٤٥

وأمثاله ، ويرى علماء الدين أبعد الناس عنها وأجهلهم بها ، وقد ساء فهمه وكذب ظنه ، فقد رأينا السياسة عندما خاض فيها الناس كثيراً ما يخطئ فيها العظماء ويصيبها بيضاء ناصعة من سواهم ، وقد سابق الصغير الكبير والسوقة الملوك .

على أنني أعتقد أن السياسة متى اعتبرت علما ورجع فيها إلى قوانين الدول الأوروبية والمتشرعين هناك فلن ترقى بها الأمة المقلدة « التي برهنت برجوعها إليها أنها غير مستقلة » .

وأول عوامل الفناء في الأمم هو ذلك التقديس البالغ الذي يجعلها فانية في غيرها غير محسة بنفسها ولا عارفة شخصيتها ومميزاتها ، وما لم يكن التشريع مستمدا من روح الأمة وعاداتها وعقائدها التي كونت نفسها وحققته شخصيتها فلن ينفع أبدا ولن تفلح أمة أخذت به ، وليس يمكنها ذلك إلا أن يذهب تكوينها وتزول غرائزها وتبدل نفوسها وينقلب معدنها ، وفي ذلك فناؤها والقضاء عليها فالسائر بها في هذا الطريق مجد في هدمها وتقويض ما بقي من بنائها ، وكمال كل شيء إنما هو في بلوغه غايته التي هو مستعد لها لا أنه ينقلب شيئا آخر يباينه ويذهب روحه .

نعم إن العلماء والمخلصين لا يعرفون تلك السياسات المعقدة التي يلتوى طريقها ويتلون سالكها ولا يعرف أولها ولا آخرها ، وتنصبيغ الحقائق فيها كل يوم بلون جديد يبهز الطائش الأحمق ويحزن المفكر البصير .

وإني أعجب كل العجب من أولئك الجاهلين الذين يزعمون أن
لِإِصْلَاحِ ، وَإِذَا نَظَرْنَا فِي حَالِهِمْ وَحَالِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَيَّامَ تَمَسُّكِهَا
بِدِينِهَا وَعِظْمَةِ سُلْطَانِهَا عَرَفْنَا مَقْدَارَ إِدْعَائِهِمْ مَحَلِّهَا مِنَ الْكُذْبِ وَالتَّسْوِيهِ .
فَإِذَا أَلْتَمَيْتَ بِنَظْرِكَ إِلَى حَالِ الرِّسْلِ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ أَخَذَ مِنْكَ الْعَجِبَ
كُلَّ مَاخُذٍ حَيْثُ تَرَاهُمْ قَدْ اسْتَطَاعُوا أَلَّا يَغْشَوْا وَلَا يَحِيدُوا عَنِ الْحَقِّ
وَأَنَّ يَجْتَذِبُوا نَمْلِكَ الْأَمْيَالِ وَيُؤَثِّرُوا تِلْكَ الْعَوَاطِفَ وَيَقْتَلِعُوا رِذَائِلَ
الْعَادَاتِ مِنَ النَّفْسِ وَيَأْخُذُوا النَّاسَ أَخْذًا كَلْبِيًّا عَنِ طِبَاعِهِمُ الْأُولَى مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَصَادَمَ لِحَقِّ الْأَهْوَاءِ أَوْ الْأَهْوَاءِ الْحَقِّ .

وهذا شيءٌ عرفه كل من عالج الناس في طباعهم المختلفة ونزعاتهم
المتباينة . وهذا أمكنهم أن يصلحوا الأمم ويؤلفوا بين الأهواء ويجعلوا
للأمة سياجا سديكا من الوحدة التي شملت كل أفرادها .

وَحَسْبُكَ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَعْبُزُ الْفَرَسَ وَالرُّومَانَ أَنْ يَضَعُوا
قَانُونًا يَخْضَعُهَا وَنَظَامًا يُوَحِّدُهَا . فَذَلِكَ شَيْءٌ فَوْقَ طَاقَةِ حِكْمَاءِ الْفَرَسِ
وَسَاسَةِ الرُّومَانِ . أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ سَيْوْفُ كَسْرَى وَقَيْصَرِ .

ثم انظر كيف فعل الدين بالعرب عندما اعتنقوه بصدق وإخلاص
ومحبة ، فقد نقلهم من الظلم والوحشية وسفك الدماء ووأد البنات
وفعل المنكرات إلى التسابق في ميادين الخيرات واكتساب أنواع
القربات ومراقبة خالق الأرض والسموات ، وبذلك كانوا ملوكا في

الأرض ملوكاً في السماء بعد تلك الهمجية التي كانوا بها أحط الأمم على الإطلاق ثم أصبحوا بالإسلام وتعاليمه أرفع الأمم على الإطلاق .

ونقول بكل أسف : قدم فرطنا في تعاليم ديننا حتى كدنا نكون أذل من على وجه البسيطة ، يطمع فينا كل طامع ويهزأ بنا كل قوى .

وبعد فلا شك أن من حافظ على أوامر الدين وتعاليمه تربت فيه مملكة المراقبة لله والخوف من الله فيكون مصدر خير وبركة . وقد قال تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ)^(١) وقال : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)^(٢) .

الخلاصة

والخلاصة أن القوانين الوضعية لا تنفع بلاد دين فليس في استطاعة القوانين إلا أن تحيل المجرمين على المحاكم بعد تحقيق النيابة ورجال الشرطة وعمد البلاد . ولكن ليس في استطاعتها أن تهب العمدة ولا أن تمنح الشرطي مخافة من الله ولا أن تعطى وكلاء النيابة مراقبة لله ولا أن تطهر القضاة من الأغراض والغايات ولا أن تمن على الأطباء بالإخلاص والنزاهة ، وإن كان في استطاعتها أن توجب الإحالة على الطبيب لتحديد سن الزواج مثلاً فليس في استطاعتها أن تحمله على أن يقرر الحقيقة ، إلى آخر ما تعرف ولا تنكر ، وسيجد اللص والقاتل

(١) سورة الماعز ، الآية ١٩ — ٢٢

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

وكل مجرم من المجرمين من تلك الدوائر التي خات فيها نفوس من معرفة الله وأقنعت فيها قلوب من مراقبة الله مجالاً واسعاً من التلاعب بالقانون « حتى في الرسميات » لأن رجالها أحرار فيما يقولون ويتررون. وكيف يقبل المسلم تلك القوانين التي تبيح الكفر العلني وتحمي معتنقيه محافظة على تلك الحرية التي تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظته على حرته فيما يريد .

فهل ترال. أحسنت إليه ؟ ؟

لم نجد أحداً من أولئك المهرة الذين ملأوا الدنيا كلاماً أمكنه أن يصلح أفراداً معدودة إصلاحاً حقيقياً . بل ربما أعجزه إصلاح بنيه وذويه فضلاً عن أمة أو أمم . فما هذه الطنطنة الفارغة وعلام يتشدد أذيالهم الجاهلون الذين يعادون الدين ويعتقدون أنهم أوتوا علماً لم يؤتوه أحد من العالمين « إني أسمع جمعجة ولا أرى طحنا » وحقاً من جهل شيئاً عاداه فتراهم يفرون عند ذكر الله وكتاب الله كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحَيِّطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١)

فماذا علينا بعد ذلك إذا قلنا للحكومة وللجنة الحقانية أن الدين الإسلامي فيه من قواعد المدنية وال عمران ما يكفل رقي الأمم وسعادة البشر . فهل للشرائع السماوية أن تحل محل الشرائع الأرضية في هذا

الدور الجديد وفيها من الفسحة وسعة الصدر ما قرره الأئمة العارفون بروح الشريعة الواقفون على أسرارها ومراميتها . « ولنا مقال تفصيلي في أصعب شيء يذكره الملحدون عن الدين الإسلامي بسطنا القول فيه وبيننا ما فيه من الحكمة وبعد النظر بمجلة الأزهر - الجزء السابع من المجلد السابع .

أننا مقبلون على تشريع جديد . وقد آن أوان التفكير فيه وستوضع أسسه ، وبالجملة فقد أظننا إجماله وتفصيله ، فما أجدرنا أن يكون لكل منا وجهة في البحث فلا نقصر بحوثنا على جهة واحدة فقد يوضع لنا من أسس التشريع وقواعده الكلية ما يصعب التخلص منه بعد ، أو يتطلب مجهوداً كبيراً في إزالته . وقد تضيع فرصة كان يمكننا أن نمهد الطريق لما يكون خيراً للبلاد وأجدي على الأمة إذا نحن سكتنا ، فعلينا أن نفكر جميعاً كل في طريقة قبل أن يكون ما هو كائن حتى نزيل ما عسى أن يكون معه عقبة في سبيل خير أو ضياع فرصة في إزالة شر فنكون بهذا قد احتطنا من جهة وأعدنا النفوس لذلك من جهة أخرى ، وأن الأشياء بمبادئها والأمور بمقاصدها .

فهل لنا أن نلفت أنظار المشرعين ونحن في أول الطريق أن يضعوا نصب أعينهم في تشريعهم الجديد البحث في الشرائع السماوية وليفرضوا أنها قانون من القوانين التي سينظرون فيها في دور الإجمال أو التفصيل فيأخذوا منها ما يرونه أرفق بحال الأمة وأقرب إلى عاداتها وميولها من كل ما يكون موافقاً للمدنية والعمران ، وليبتدئوا بما اتفقت الشرائع السماوية كلها على تحريمه (كالزنى وما إليه) .

نقول هذا تذيراً للجائنا إليه الضرورة طلباً للإنصاف ورغبة في حمدن التفاهم . وأنا على بصيرة تامة من مدينة الإسلام ومدينة أرب . ولست أشك في أن الناس مامنهم من الأخذ بقواعد الدين الإسلامي لإجهاهم إياها وعم التفاهم إلى ما فيها من السعادة والرقى . وأن أمم أوروبا لتترب من الدين الإسلامي شيئاً فشيئاً من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

وهل تحريم الخمر الذى قرره بعض الدول التمدنية فيما مضى والذى يتوق إليه كثير من أمم أوروبا إلا ترديد لصدى صوت الإسلام الذى حرمه من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، وكأنه أبان لنا بما شرعه فيهما من الحد والتغليظ (وقد سماها أم الخبائث) أضعاف ما بينه الأطباء من أضرارها التى تفعل بالناس ما لم تفعله مكروبات الطاعون . فلهذا لا نجرمها بتقاليدنا وعلى مقتضى ديننا .

هل إذا فعلنا ذلك نكون قد بعدنا عن المدنية كثيراً وتبرأنا من الحضارة والإنسانية أم الإنسانية الحققة تبرأ إلى الله مما نحن فيه .

ان الإسلام وحكم يحضرات المتورين ليس دين العجائز ولا المتعطلين . وإنما هو دين الرقى والسعادة وال عمران لو عرفه أهله وتمسك به ذوهه ، ولقد جاء بالمساواة بين جميع الناس وبالغ في ذلك إلى حد أنه سوى الملوك « مثل جبلة بن الأيهم بالسوقة مثل ذلك الفزارى الذى أراد عمر بن الخطاب أن يقتص له من جبلة » .

أما الآن ونحن في القرن العشرين قرن الحضارة والنور كما يقولون فأوروبا تنشق بين الجنس الأبيض والجنس الأسود ، ومن لم يفرق

بينهما نظرياً فرق بينهما عملياً ، فمدنية الإسلام أكبر مدنية عرفها العلم ، غير أن الإسلام لا يعرف التطرف والإفراط بل يبني أمره على الحكمة في كل شيء .

و«و أُقيمت شرائع الإسلام على وجهها لَمَّا وجد في أوربا أولئك الاشتراكيين الذين قلبوا العروش وزعزعوا أركان السلام ، وللهُ دُرٌّ من قال مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم :

والاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متثداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

على أننا نقول قولاً إجمالياً أن كل من مارس التاريخ يعلم أن المسلمين قد امتد سلطانهم من الشرق الأقصى في آسيا إلى المغرب الأقصى في إفريقية ، ثم تخطوا إلى أوربا ، فأسسوا بها تلك المملكة الفيحاء التي وصلت إلى برودو من بلاد فرنسا في زمن وجيز لم يسبق له مثيل في التاريخ ، فإِما أن يكونوا قد وصلوا إلى ذلك كله بتأييد إلهي وإِما أن يكون ذلك بسر في تعاليم دينهم : فإن كانوا قد تغلبوا على أرباب المدينيات الراقية التي كانت للفرس والرومان بسبب تأييد إلهي وأمر سماوي ، فلماذا لانرجع إلى هذا الدين الذي أيد الله أهله ذلك التأييد ، وإن كان ذلك راجعاً إلى حسن سياسة في الدين ورفق في تعاليمه فلماذا لانرجع إلى تلك التعاليم التي رفعت العرب « وقد كانوا على ما علمت من الهمجية والجهالة على هام كسرى وقيصر وغيرهما وقد كانوا على ما علمت من الرق والحضارة والفلسفة والآداب » .

وليس يسعنا في هذه العجالة إلا أن نلمح للحقائق تلميحاً . ولسنا نريد من مقالنا هذا إلا أن نلفت الأنظار إلى الأخذ بمبادئ الدين الإسلامي بعد البحث فيه كما يريدون .

ولتلاحظ الحكومة أن ذلك أعظم شيء يرضى الأمة المصرية رضاً تاماً فتتمثل في عيبتها حكومة دينية مقدسة ، وأهل البلاد متدينون يقصدون دينهم تفديساً تاماً ويجلون من يعمل به إذا وجدوه ، وهي أئمن فرصة يجب ألا تضيع ، فهل للحكومة أن تعمل على رضا الأمة ؟ ، وهل للأمة ودينها أعز شيء عليها أن تطالب الحكومة بهذا ؟ ، وهل للعلماء أن يقوموا بواجبهم في هذا الموضوع ؟ وما عليهم ألا يجابوا ؟ . فإذا فعلوا فمقد أدوا ما عليهم وكانت التبعة على غيرهم (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ) (١) .

على أن صدق العزيمة وقوة البرهان لا يقف أمامهما شيء ، والأمة أكبر عضد لديكم أيها العلماء (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (٢) .

على أننا نتحاكم نحن والحكومة واللجنة والبرلمان إلى المصلحة الصحيحة وإلى ما يوافق روح الأمة وتقاليدها وما هو أوفق بأخلاقها ونفسياتها وأمالك لعواطفها وميولها .

ولست أحص علما بعينه فإن ذلك واجب على كل عالم بل على كل مسلم (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٣) .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩

(٢) سورة محمد ، الآية ٧

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٥

الموازنة بين الشريعة والقانون الوضعية^١

تعلم رعاك الله أن الشريعة جاءت بمطالب الروح والبدن جميعا ،
وكنى بذلك فرقا كبيرا بينهما . ولكننا نزيدك فروقا أخرى فنقول :
إن القانون لا يطلب إلا حفظ النظام العام ، ولا يعنيه إلا وحدة
الأمة وراحة الحكومة ، ولا يهتم بشئون الأفراد الروحية ، ولا من وظيفته
إصلاح قلوبهم وتربية نفوسهم ، ولا مراقبتهم في أخلاقهم .

وأما الشريعة فقد تكفلت بإصلاح قلوب الأفراد كما تكفلت
بإصلاح الأمم ، فرسمت لكل إنسان خطة واضحة يسير عليها في نفسه
وفي أسرته وفي جيرانه وفي الناس أجمعين ، وحظرت عليه أخلاقا تعوقه
عن كماله ورقيه إلى أحسن أحواله ، فطهرته من الحقد والغل والحسد
والشره وسوء الظن . . . إلخ .

حتى أمرته أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وطلبت منه أن يكون
خيبرا محضاً وأن تكون سريرته أفضل من علانيته ، وعلمته أن يؤثر
على نفسه ولو كان به خصاصة ، وأمرته بالرحمة لكل ذي روح ،
وعرفته أن « امرأة دخلت النار في هرة » ، إلى غير ذلك مما لعلك غنى
عن بيانه .

(١) مجلة الأزهر - الجزء الخامس - المجلد الثامن - جادى الأولى سنة ١٣٥٦

وقد تعلم - رعاك الله - أن الأمة لا تصلح في مجموعها إلا إذا صلحت قلوب أفرادها ، وإلا كانت كالبناء المرتفع أمام الأنظار من خارجه . المتفتت الأجزاء في داخله .

وإن شئت فألقى بنظرك إلى ثروة أمتنا المصرية تجدها قد ذهبت ثلاثة أخماسها تدريجياً . فإذا بحثنا عن سبب هذا وأردنا أن نشخص ذلك الداء الذي سرى في جسم الأمة سريان السُّلِّ في جسم الرجل العظيم ، وجدناه راجعاً إلى عدة أمور تحرمها الشريعة كل التحريم .

فمنها «النربا» الذي ورد فيه الوعيد الشديد في القرآن والسنة .

ومنها «الخمر» التي هي أم الخبائث . ومنها المقامرة التي جعلها القرآن من عمل الشيطان ، وناطق الفلاح باجتنابها حيث يقول : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(١) .

ومنها «المنازعات» التي ماجاء الدين إلا ليستأصل شأفتها من النفوس .

ومنها «كثرة صرف المال» في غير محل الضرورة ولا موطن الحكمة . وقد ذم الله المبذرين حتى جعلهم إخوان الشياطين فقال : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا »^(٢) إلى غير ذلك مما يعرفه المستبصر ولا يخفى على الباحث .

فلو أن الأمة تربيت تربية دينية وحافظت على شريعتها لحفظت عليها ثروتها . ولما كانت الآن من أغنى الأمم على وجه الأرض . فماذا

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٧

(١) سورة المائدة ، الآية ٩٠

أغنى عنها القسانون وقد تركت شريعتهما فذهبت عزتها الحقيقية
(لا الصناعية) واضمحلت ثروتها التي هي أساس مجدها ومناط حياتها
الصحية .

بل يمكننا أن نقول : إن الشريعة أبلغ فيما يريد القانون أيضاً
من منع الناس عن ارتكاب الجرائم والتعديات ، فإن الإنسان لا يخاف
القانون ولا يرهب سلطانه إلا إذا لم يكن له وسيلة إلى الخلاص منه ،
وما أكثر وسائل الخلاص وأقل بواعت الإخلاص !

فإذا عممنا التربية الدينية نكون قد وطدنا دعائم الأمن العام أكبر
توطيد بمقتضى ما يغرسه الدين في القلوب من أن الله يعلم السر وأخفى ،
وأنه يحاسب على الفتيل والنقير ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً
يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وأن « من روع أخاه لم يؤمن الله
روعه يوم القيامة » ، إلى آخر ما جاء في الكتاب والسنة وهو كثير .
فلا فرق إذاً بين أن يكون الإنسان في العواصم حيث تناول الأحكام
بمرأى ومسمع من الحكام ، وبين أن يكون في الصحراء الكبرى حين
لا ديوان ولا سلطان .

الخلاصة

إنه لا يوجد شيء أنفع للحكومة والأمم والأفراد في أحوالها الاقتصادية
والاجتماعية من التربية الدينية . فمن فوائدها للحكومة أنها تردع الناس
عن الجرائم لأنها ترجع طمعهم في الدنيا إلى الحد المعتدل ، فلا يتهاكون
عليها هذا التهاك الشديد .

فالفرق بينها وبين القوانين من هذه الوجهة : أن القوانين لا تخفف محبة الدنيا من القلوب (ومحبة الدنيا كما تعلم أساس المنازعات والمخاصمات ومنشأ التعدي وكل أنواع الإيذاء حتى أخذ الرشوة والسرقه) ولا تطهر النفوس من رذائلها كالحرص والحسد والشره والبغى والحقد والغضب ، إلى غير ذلك . ولا يخفى ما يترتب على تلك الرذائل في المجتمع الإنساني من لشور وسوء المعاملة بمقتضى تلك العوامل الخبيثة التي تسوق صاحبها إلى هلاكه وهلاك غيره شاء أم أبى .

والفرق الثاني : أن مراقبة الله لا تثمرها القوانين ، فيمكن أن يتقى الإنسان غائلة القانون بالتحيل والاختفاء مثلاً ، بخلاف الشريعة .

والفرق الثالث : أن القوانين لا تكفل نظام الأفراد ، ولا تتعرض لشؤونهم ولا لإصلاحهم - بالهم في أنفسهم .

والفرق الرابع : أن الشريعة تعطي الروح حظها من معرفة الله ، وتستحث القلوب على التنزه في الجمال المطلق الظاهر في الكون كله (الذي لأجله بحثت كل أمة عن إله تعبده) .

هذا ولا نزال نكرر أن الأمة المصرية لو كانت على الدين الصحيح ما ذهب شيء من ثرونها التي كادت تتلاشى بالكليية ، لأنها لم تذهب كما قلنا إلا بالربا ومقامرة والإسراف والتبذير والدخول فيما لا يعنى والتفاخر والتنافس ، وكل ذلك يحرمه الدين .

وانظر إلى الأمة الإسلامية في بدء أمرها حيث سادت جميع الأمم في أقل من قرن بفضل سيرها على تعاليم دينها الذي يقول لها :

علو الهمة من الإيمان . ويعلمهم أنهم يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ،
وأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ،
وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، ويعلمهم أن
ينفروا إذا دعوا خفافاً وثقالاً وجماعات ووحداناً ، وأوجب عليهم
الهجرة من أرض الذل ، وأمرهم بحسن المعاملة مع كل أحد ، والاعتدال
في كل شيء ، وحذرهم من الإفراط والتفريط . وحض على طاعة
المرئوسين للرؤساء ، ومشاورة الرؤساء للمرئوسين . وقد قال لنبيه
عليه الصلاة والسلام : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^(١) . بل أمر باحترام
الطبقة الدنيا للطبقة العليا عموماً ، وبتوقير الصغير للكبير ، ومعرفة
الفضل لذويه ، وبالجملة أمر بإنزال الناس منازلهم .

فعل كل ذلك كي تتم المحبة بين الجميع ، وتكون الروابط
على أكمل وجوها .

بالغ في الحث على التعاون والاتحاد ، وطلب من كل أحد أن يعمل
من الخير ما يعود على عشيرته وأُمَّته ، حتى جعل إِمَادَةَ الْأَذَى عن
الطريق شعبة من شعب الإيمان ، وهو القائل : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالتَّقْوَى)^(٢) . « يد الله مع الجماعة » . وأمر باستعمال العقل في
كل شيء ، ونهى عن اتباع الظن ، حتى قال : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)^(٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٢

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٣٦

وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . وَلَا تَجَسَّسُوا . وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا)^(١) . وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)^(٢) . ونعى على قوم سوء حالهم بقوله : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)^(٣) .

وبنى عقائده على صرائح العقول ومقتضى البراهين ، إلى آخر ما جاء فيه مما نريد صرح ببناء الأخلاق ، وجعل الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضًا . ولذلك كان غير قابل للنسخ لأنه لا يتأتى أن يعجز زمان يحسن فيه ترك الاعتدال ومجاوزة الحدود والتباعد عن مكارم الأخلاق .

فلا غرو أن يصبحوا بفضل هذه التعامل من أعز الأمم وأرفعها ، مع راحة القلوب واطمئنان النفوس ، وابتهاج الأرواح ، والتبريز في كل خير وفضيلة . فالمسلمون اليوم وإن كانوا على أقبح صورة ، فالإسلام عند من يعرفه على أجمل صورة . ولذلك نقول : إن نقص المسلمين وتأخرهم لنقص تربيتهم الدينية لا لنقص دينهم .

!! أوعلى الجملة فالتربية الدينية أعظم وسيلة إلى توطيد الأمن العام ، وتحسين العلاقات الوطنية والمعاملات التجارية وجميع الشؤون الاقتصادية وأكبر معين على حفظ الثروة وترقية الأمة وتقوية الروابط الودية فيما بين أفرادها عندما تكون لها تلك النفوس الطاهرة ، فتمتص منها

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢

(٢) سورة الاحزاب - الآية ٦

(٣) سورة النجم ، الآية ٢٨

عرا المحبة والإخاء بمقتضى قول الدين : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا
وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » .

وإننا لنتمنى تحقيق تلك الأمنية التي لا شىء أنفع للأمة منها في
هذا العصر الميمون إن شاء الله ، وما ذلك على الله بعزيز .

وأما التربية غير الدينية التي عنيت بها الأمم المعاصرة الآن فلا تطفىء
ملك النيران المتأججة ولا تلطف من سورتها . ولا تحدث مراقبة الله
في النفوس ، بل تجعل المترنن بها يعتقد أنه أولى بالثروة والرفعة
من غيره ، فيحتال لذلك بكل أنواع الحيل ، وتمتلىء نفسه حسداً
على كل من سواه . وربما جرت تلك التربية إلى الإلحاد ونبذ المعتقدات ،
فأصبح لا يعنيه إلا الدنيا ، ولا يهيمه إلا التنافس فيها بلا مراقبة لله
لأنه لا يعرفه ، ولا طمع في الآخرة لأنه لا يؤمن بها .

الكلمة الختامية

إن مزايا الشريعة لا تكاد تحصى ، فشتان ما بين قانون يضعه
رجال لا يعينهم إلا مظاهر الحياة المادية ، وبين قانون يضعه خالق
الكون المدبر لكل صغيرة وكبيرة يكفل به للناس سعادة الحياتين .

تلك القوانين تبيح الزنى وشرب الخمر والتلهى بالميسر، وهى أمهات
الشُرور كلها ، محافظة على مبدأ الحرية الشخصية . وما مثلها عندى
إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حرته
فما يريد . فهل تراك أحسنت إليه !

تلك القرانين تمتع دروس الدين من المدارس ، فأول ما تغرس في نفوس النشء بهذا العمل أن الدين في محل الإهمال ، فلا ينبغي أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهى طريقة عملية تترك في نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عز الدين ، وأهون عقيدة فيه .

واعلم أن فلاسفة أوروبا وعقلاءها يثنون من شيوخ الإلحاد ، ويتمنون أن يسود سلطان الدين على الأفكار ، علماً منهم أن خلو النفوس من الدين منذر بالخراب العاجل أو الآجل .

قال فيكتور هيجو من حكماء أوروبا :

« يجب أن يكون التعليم الابتدائى مبنياً على الدين حتى يكون صالحاً ، ويجب أن يُساق إلى المحاكم من يرسل ولده إلى مدرسة لا تعلم الديانة » .

تأمل كيف أوجب سوق من لا يعتنى بالتربية الدينية إلى المحاكم!

وقال فيكتور كوزان :

« إن النعوب لأشد احتياجاً إلى المبادئ الدينية منها إلى الشرائع المدنية والعلوم السياسية » .

وقال روسو :

« شر الشرور في الممالك أن يكون الله مجهولاً فيها ، فإن في ذهاب الديانة تقويضاً لأركان الهيئة الاجتماعية » . إلى غير ذلك من كلامهم ، وهو كثير . وما أصدق « روسو » فيما قال وأبعد نظره فيما أراد !

وإن أردت مصداق ذلك فانظر إلى الأمة الإسلامية في بدء أمرها
حينما كانت أعز الأمم على الإطلاق وأرفعها على الإطلاق ، ثم انظر
إليها اليوم وقد تقوَّض بناؤها وذهب مجدها ، فأصبحت تتسلى
بالسراب عن الشراب ، وبالخيال عن الحقيقة ، وبزخرف الكلام
وأضغاث الأحلام عن النظر الصحيح في سنة الله في خلقه ، وما تقتضيه
توانين العالم في ماضيه وحاضره ، وإن في ذلك لعبرة كبرى لنوى
الآبصار وأهل الاستبصار .

أسأل الله أن يعاملنا بما هو أهله ، ولا يعاملنا بما نحن أهله بمنه وكرمه

الشجاعة

لقد روى الشيخان عن أنس -رضى الله عنه- أنه قال : كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس وأجود الناس . وأشجع الناس ، لقد فرغ أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- راجعاً على فرس لأبي طلحة والسيوف في عنقه وهو يقول : لم نراعوا .

ومن مواقفه -صلى الله عليه وسلم- المشهورة الضخمة -وكل مواقفه صلى الله عليه وسلم ضخمة - موقفه يوم حنين :
روى البخارى ومسلم وحكاه القرآن أيضاً أن أصحابه ولوا عنه يومئذ مدبرين .

واتفق الشيخان على أنه -صلى الله عليه وسلم- كان راكباً بغلة .
ولفظ مسلم من رواية العباس -رضى الله عنه- : فلما التقى المسلمون والكفار ، ولّى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكفها ألا تسرع .

ولعمري الله إن ذلك لفوق مانعه من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد ما فر عنه أصحابه ، وخصوصاً إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المنطهمة والفرسان

المدرية . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكانه كان يلفتهم إليه وينبهم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه من البشر يستطيع ذلك أو قريباً منه ؟ ولكن لا عجب : فقد امتلاً قلبه ثقة بالله وتوكلاً عليه ، عالماً أنه إليه يرجع الأمر كله ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) (١) .

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تعجب أمام شهوتك عندما يشتد توقانها ، ولا أمام غضبك عند ما يحتد سلطانها ويتحكم شيطانها . ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » . رواه الشيخان .

وإنما كان هذا هو الشديد ، لأن جمرة الغضب التي تتقد في قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بل كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواد ، فصابرها حتى خمدت كل الخمود ، ولم يظهر عليه شيء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه ، فلم تجمع به ، ولم تورطه في الهلكات .

وقد روى البيهقي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال : « ألا تحسبون الشدة في حمل الحجارة ؟ إنما الشدة أن يمتلى الرجل غيظاً ثم يغلبه » .

وانظر إن شئت إلى ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف ، فكان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

وهذا شيء لا يكاد يصدقه العقل لولا أن النبي من طراز آخر غير ما تعرف في الناس ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - في ذلك الوقت الذي حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقداره - صلى الله عليه وسلم - .

وروى البخاري ومسلم والبيهقي في الأدب وأبو داود والتماضي وعياض في الشفاء واللفظ له ، عن أنس رضي الله عنه - قال : « كنت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه أعرابي بردائه جبذة سديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال يا محمد : احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي بمثل ما فعلت بي ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافيء بالسيئة السيئة . فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - ؛ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . » وهو في هذه الحادثة أيضاً لم يعف عن ذناب الجاهل فقط ، بل حمل له بعيره كما طلب . فكان في ذلك ممثلاً

قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)^(١) .
وكم له من مثل ذلك - صلى الله عليه وسلم - :

وقد قالت السيدة عائشة في بيان خلقه : « كان خلقه القرآن »
ثم قرأت قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)^(٢) . إلى آخر ما لا يمكننا
تفصيله في هذه الكلمة العجلى .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ ، وَالْاِقْتِدَاءَ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، بِمَنَّهُ
وَكَرَمِهِ .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

(٢) أول سورة (المؤمنون)

دين الإسلام كفييل بمصالح الدنيا والآخرة

جاء الإسلام بكل ماتبتهج به العقول في العقائد في الأخلاق ، في الأوامر ، في النواهي ، في معاملة الخالق والمخلوق ، فيما يحسن به حال الراعى والرعية .

وبالجملة جاء في كل أبواب السعادة الدنيوية والآخروية بما لم يأت به مصلح ولم يحلم به فيلسوف . . جاء الإسلام بتفقد أحوالك في ننسك وفي أمرتك وفي جيرانك وفي الناس أجمعين ، فأوجب عليك ألا تخاطب بنفسك فقال : (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ^(١) وقد ورد النهي عن النوم فوق سطح البيت إذا كان بلا حاجز يمنعك من السقوط رحمة بك واعتناء بشأئك ، كما ورد الوعيد الشديد فيمن قتل نفسه .

وبما أرتته في القلوب من الرغبة والرغبة من الله - عز وجل - ، أمكنه أن يردع الناس عن أن يخاطروا بأنفسهم أو يلقوا بها إلى المهالك ، وليس في إمكان لقوانين الوضعية أن تردع الناس عن قتل أنفسهم بوجه من الوجوه ، ليس يغيب عنك ماتسمعه كل وقت من حوادث الانتحار في أوروبا وأمريكا - بلاد القوانين والمدنية - وإن كان قد سرى ذلك بطريق العدوى لقوم منّا لم يدخل الإيمان في قلوبهم . ولا امتقرت تعاليمه في نفوسهم .

(١) مجلة الإسلام - السنة السادسة - العدد الخامس والثلاثون - سنة ١٣٥٦

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٥

جاء الإسلام موجباً عليك أن تراعى زوجك فقال : « خيركم من كان خيره لأهله » وقال :

« إن الرجل ليحشر مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته ». وجاء في القرآن العزيز : (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)^(١) .

بدأ بتوحيده تعالى لأنه أساس كل خير ، ثم بالإحسان إلى الوالدين لأنهما أقرب الناس إليك وآمنهم عليك ، ثم بذوى القرابة لمكان قرابتهم وعلى حسب درجتهم ، ثم باليتامى الذين لا يستطيعون حياة ولا يهتدون سبيلاً ، ثم بالمساكين من الناس ثم بعموم الناس كافة ، إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة .

جاء الإسلام بالحث على معاملة الجار بالحسنى حتى قال صلى الله عليه وسلم : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » جاء بأبلغ ما يكون من الحض على عمل الخير مع من تعرف ومن لاتعرف ، حتى جعل إمطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان ، بالغ في الحث على آداب الاجتماع حتى حرم عليك أكل الثوم والبصل إذا أردت حضور المحافل أو دخول المساجد حتى لا تسقط عنك الجمعة بذلك إذا لم تجد ما يزيله إبعاداً لضررك^٣ عن الناس .

طلب الاغتسال على سبيل الوجوب أو السنية يوم الجمعة لما يكون في ذلك اليوم من الاجتماع ، ولم يكتف بذلك بل ندبك بعد إلى

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣

التطيب ولتعطّر ، ثم أمرك أن تمضى إليها بالسكينة بعداً بك عن
الرعونة والطيّش واستبقاء لما في باطنك من الخشية وفي ظاهره من الوقار .
ندبك إلى إدخال السرور على أخيك المسلم بآى وجه من الوجوه
ووعدك عليه أحسن الجزاء .

عقد بينك وبين المؤمنين عقد الإخوة الذى نقلهم إلى دائرة الأسرة
الواحدة على تنائى ديارهم وتباعد أقطارهم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(١) .
بالغ فى محبة بعضنا لبعض حتى جعلها شرطاً فى الإيمان فقال :
« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

بالغ فى أمر النصيحة حتى جعلها الدين كله فقال : « الدين
النصيحة » .

بالغ فى ترك الأذى حتى جعله هو الإسلام فقال : « المسلم من سلم
المسلمون من لسانه ويده » .

بالغ فى أمر الإخلاص وعمل الخيرات لوجه الله تعالى ، وحذر من
الرياء الذى يفسد النفوس ويحبط الأعمال ويقلب الفضائل رذائل ،
حتى جمعاً شركاً فقال : « إن الشرك أنخى فيكم من دبيب النمل فى
الليلة الظماء » .

عرف مقدار الميل الطبيعى إلى الظلم فحذر منه بأبلغ ما يكون حيث
قال : « ما من أمير عشرة إلا يجاء به يوم القيامة مغلولة يدها إلى عنقه
فلا يفك . إلا العدل » .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

بل شدد في الأمر جداً على ما يقتضيه العدل الإلهي فلم يدع أحداً من المسئولية . وكان له في ذلك أعلى نظر وأبلغ حكمة فقال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

عرف ما جبلت عليه النفوس من الأوصاف الذميمة ، ومن السعي وراء أهوائها وشهواتها بما يضيع عليك الحياة الطيبة ويحرمك من السعادة الأبدية من حيث تشعر ومن حيث لا تشعر .

عرف ذلك بما لا يصل إليه أكبر بيداجوجي في العالم ، فنبهك أن تحذر من نفسك حذر من عدوك أو أشد فإنها أخفى مكرراً وأعظم ضرراً ، لأن متابعتها تذهب بنعيم الأبد ، وقد قال القائل :

أأنت عدو أم صديق لنفسه فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعداء بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة

عرف ذلك كله فقال : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »
(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)^(١) .

عرف مقدار تسلط الهوى علينا فحذرنا منه كل التحذير وعرفنا مكانه من نفوسنا ومبلغ سلطانه على قلوبنا حتى جعله إلهاً يعبد من دون الله ، لما علم من مسارعة النفوس إلى طاعته ، وطيرانها نحو إشارته شأن العابد مع معبوده والعبد مع سيده فقال في بيان تلك الإلهية : (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)^(٢) .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٣ .

وفي التحذير من اتباعه (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١)
وفي الترغيب في مخالفته (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىٰ النَّفْسَ عَنِ
الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) ^(٢) .

رأى أن كثيراً من الناس يتخبطون في أودية الأوهام والخيالات
غير مستعلمين عقولهم ، فأراد أن يخلصهم من إتياع الظنون فقال :
في معرض اللمز لقوم كان هذا شأنهم تفسيراً من مثل حالهم :
(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) ^(٣) .

وقال : (وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَهُنَّ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) ^(٤) فبين أن سبيل الله لا يسلك
باتباع الظن والتخرص وأنه لا يهدي إليه إلا العقل السليم
والتفكير القويم ، ولذلك أكثر من قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّفَكَّرُونَ) ^(٥) .

ثم يقول في توبيخ قوم : (أَو لَمْ يَتَّفَكَّرُوا) ^(٦) : (أَو لَمْ
يَنْظُرُوا) ^(٧) إلى غير ذلك .

عرف نفاسة الوقت وأن النفس ميالة إلى اللغو وضياع الأوقات
فيما لا ينفع ، فأرشدنا إلى ذلك وأكثر من الحث عليه فقال في ذكر
أوصاف المفلحين : (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) ^(٨) .

(١) سورة ص ، الآية ٢٦

(٢) سورة النازعات ، الآيات ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

(٤) سورة النجم ، الآية ٢٨

(٥) سورة الروم ، الآية ٨

(٦) سورة الرعد ، الآية ٣

(٧) سورة المؤمنون ، الآية ٢٠

(٨) سورة الأعراف ، الآية ١٤٥

ويقول : (قَوْرَبِكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(١)
ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يكره أن يرى عبده فارغاً
من عمل الدنيا والآخرة » ويقول : « من حسن إسلام المرء تركه
مالا يعنيه » وقد قال بعض الصالحين :

قد عملت بهذا الحديث أربعين سنة ولا تزال تتجدد فوائده
وتترادف عوائده ، ولم أفرغ منها بعد .

عرف ما للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفوائد وما هو مركزه
في الطباع من مراعاة الناس فيما تميل إليه نفوسهم فقال : « لتأمرن
بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا
خياركم فلا يستجاب لهم » وبين لنا أن ترك ذلك من موجبات سقوط
الأمم فقال في بيان جريمة قوم استحقوا بها المقت واللعنة : (كَانُوا
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)^(٢)
وقال في آية أخرى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ
خَاصَّةً)^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم :

« إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن
غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » .

وقال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد
الظالم ولتأطرنه على الحق إطرا ولتقسرنه على الحق قسراً أو ليضربن
الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعن بني إسرائيل » .

(١) سورة الحجر ، الآيات ٩٢ ، ٩٣ (٢) سورة المائدة ، الآية ٧٩

(٣) سورة الانفال ، الآية ٢٥

عرف ما جبلت عليه النفوس من محبة الدنيا والتطلع إليها
وما يكون في قلوب الفقراء من الحقد على الأثنياء والحسد لهم ،
وما يكون في نفوس الأغنياء من محبة أموالهم والحرص عليها ،
فأوجب لهم قسطاً من مالهم يؤخذ منها كرها « ولو بقتال » ،
وندهم بعد ذلك إلى الصدقات ، ووعدهم عليها الثواب الجزيل ،
حتى تذهب الشحناء وتجتث البغضاء من قلوب الفقراء فيتم الصفاء
بين الجميع وحتى تطهر نفوس الأغنياء من رذيلة الشح (وَمَنْ يُوقَ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(١) ، وندب إلى القرض وجعله أفضل
من الصدقة ، وعمل على توثيق عرى المحبة وتربية خلق المرءة في نفوس
الجميع فحرم الربا .

فانظر بصرك الله إلى أي حد وصل الناس من البعد عن الفضائل
ولو أنصفت لأعطيت الاشتراكيين بعض العذر فيما يفعلون ، وقد كان
لهم من الدين الإسلامي أكبر دواء في إزالة هذا المرض القتال للأمم
الفتاك بالشعوب . ولولا مراعاة المقام لتوسعنا أكثر من هذا . والله در
من قال : مخاطبا النبي - صلى الله عليه وسلم - :

والاشتراكيون أنت إمامهم
اولاً دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء

عرف حاجة الإنسان إلى الدنيا وأنها وسيلة سعادته ، وأنه عظيم
الشره فيها وأن ذلك سبب شقائه فقال مراعياً الأمرين جميعاً « من
طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » وروى عن عمرو

ابن الباص أنه قال : « أحرث لدياك كأنك تعيش أبداً وأعمل
لآخرتك كأنك تموت غداً » .

حث على التقوى وذكر علامة المتقى ثم عرف أن نفسه لا بد أن
تتغلبه بعض الشيء وتسوقه إلى ما لا ينبغي فوضع له الدواء الناجح وأرشده
إلى ما يصلح به حاله مع الخالق والمخلوق فقال : « اتق الله حيثما كنت
وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال : « لا يبلغ
الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » .

عرف من النفوس أنها تتأثر بأقل شيء فتكمن الحقد والشر ،
وكثيراً ما يكون لصاحب الهفوة مقصد حسن أو عذر مقبول فيما صدر منه ،
فحضر على الإصلاح بين الناس وجعله من أفضل الأعمال فقال :
(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا) (١)

عرف أن النفوس تحب مزيد الانتقام ولا تقف عند حد العدالة في
المجازاة - والظلم من شيم النفوس - وأن لصاحب الذنب من جهله وبواعثه
التي استولت على نفسه الضعيفة حتى ساقته إلى أن يعاف ذلك الذنب
بعض العذر ، فيكون العفو أقرب إلى الرحمة ، وأبعد عن الحيف فأكثر
من الحث عليه فقال : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

ويقول : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)^(١) .

ويقول في صفات المتقين : (وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)^(٢)

ويقول : (وَحَمْنٌ صَبْرٌ وَغَفَرٌ إِنْ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)^(٣) .

عرف مقدار ما في النفوس من الجهل ومحبة العاجلة ، والتأسف على الفائت الذي يتلفها ويذهب بإيمانها حيث قصرت النظر على لأسباب ولم تترق منها إلى مسبب الأسباب ، غير عالمة أن للأمور من الأسباب الخفية والمعدات القريبة والبعيدة مالا يدخل تحت علمها وقدرتها ، وإنما هو راجع للعمل الإلهي والتقدير الأزلي ، فكانت أشبه شئ بالندلة فوق القرطاس تعتقد أن الكتابة من القلم إذ لم يمكنها أن تشاهد اليد ولا تعرف الأعصاب المحركة لها ، ولا أصل ذلك كله من القدرة والإرادة وبقيمة المبادئ والنفسانية .

عرف ذلك من النemos وأنها مجبونة على هذا الجهل فداواها بأنجع الأدوية وأخرجها من ظلمة الجهالة بإشراف نور الحقيقة فقال : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)^(٤) وقال : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)^(٥) وقال : (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٦) .

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦ (٤) سورة الحديد ، الآية ٢٢ .

(٥) سورة هود ، الآية ١٢٣ (٦) سورة يس ، الآية ٨٣

جمع مجامع الآداب والفضائل حائماً على العدل الذي هو الوقوف عند الحد المطلوب في كل شيء ، وهو الفضيلة الجامعة للفضائل كلها ، ناهياً عن الرذائل جميعاً فقال موجزاً آمراً وناهياً : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) (١) .

سلك بك كل طريق ودخل بك من كل باب إلى مكارم الأخلاق ، فعارة يذكر لك ثمراتها وما يترتب عليها في الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم : « ومن وصل رحمة زيد له في عمره ووسع عليه في رزقه أو كما ورد » وتارة يرغبك بما لك عند الله من حسن مثوبته لك ورضاه عنك ،

ومن أعظم أبواب مكارم الأخلاق ما أمرك أن تشعر به نفسك في كل عبادة من الخضوع لعظمة الله تعالى ، والرغبة من جلاله حتى يمنعك ذلك الخوف وتلك المراقبة من ارتكاب الدنيا وحتى يرجع بك نور العبادة إلى طهارتك الذاتية ، وصفاتك الأصلية وحتى تعلم أن لك حظاً آخر روحياً غير حظك من الدنيا فلا تحبها الحب الشديد الذي أخذ قلبك فتكالبت عليها تكالب المتهاككين فيها ، فكثرت منك المنازعات والمخاضات لأنها محبوبك الوحيد ، وكل من نازع أحداً في محبوبه الوحيد فهو عدوه لا محالة .

وقد كان من حق الدنيا ألا تأخذ إلا شيئاً يسيراً من قلبك لانجماعه ، أو بتعبير آخر لاتأخذ إلا بظاهره دون باطنه حتى يصفو عيشك ويستقيم أمرك ويستريح الناس من شرك وتم بينكم المحبة والولاء .

(١) سورة النحل ، الآية ٩٠

ولو أخذنا نشرح ما اشتمل عليه الإسلام من أسرارهِ الحسية
والمعنوية لصال بنا القول .

وقد عرفوا الآن من أسرار الطهارة أنّها تنفع في أمراض كثيرة
أخصها ما يكون بالأنف وناهيك ما يزايل تغير رائحة الفم من المضمضة
(ثلاثاً) واستعمال السواك مع الحرص الشديد عليه حتى كناد يوجبه
- صلى الله عليه وسلم - وخصوصاً بعد النوم وما في ذلك من المحافظة على
الأسنان وم ينتظم في سلك آداب الاجتماع ، وليس يقل عن ذلك ما في
غسل القدمين كل وقت من إزالة الروائح التي تنبعث منها إذا طال
مكثهما بلا تعمد ، (إلى غير ذلك من الفوائد الطبية والحكم
الروحانية مما لا محل لذكره الآن) .

عرفوا من تلك الأسرار بل من أسرار ما جاء به الدين الإسلامي
عموماً ما جعل الكثير منهم ينتصر له مبتهجاً بما جاء فيه موقناً أن دين
الإسلام على غير ما عليه المسلمون اليوم .

ولو لم يكن من آيات الشريعة الإسلامية إلا أنها جاءت بتلك
الإصلاحات كلها في زمن يسير ، على حين أن غير المسلمين لم يهتدوا
إلى بعضها إلا في قرون عديدة لكفائها فخراً لدى المنصف المتبصر .

هذا والمقام واسع جداً ولم يمكن أن أبرز إلا شيئاً يسيراً مما في نفسى
وكل ما في نفسى ليس إلا شيئاً يسيراً من تلك الأسرار (قل لئن

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ^(١) ولا بد أن يكون قد تحرك منك
الانصاف ، وصادفك التوفيق ، فعلمت سر قوله صلى الله عليه وسلم :
« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقوله - تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ،
لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ^(٢) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

(٢) سورة فصلت ، الآيتان ٤١ ، ٤٢

رُسْفُورُ النِّسَاءِ

جاءنا سؤال من أحد الأفاضل بفلسطين فكتبنا في جوابه كلمة نحب ألا يحرم منها إخواننا المصريون ، فعسى أن يكون فيها مقنع وهداية لأرباب النفوس التي لم تفسد فطرتها ، والله يتولى هدى الجميع وها هي هذه :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد :
فقد قرأت سؤالكم الذي تطلبون فيه بيان الحكم الشرعى لوضع الحجاب وستر وجوه النساء في الطرقات أمام الرجال الأجانب .
ونقول إن الحكم الشرعى في هذا هو تحريم هذا التبذل وذلك السفور ، حتى أن من يبيح كشف الوجه والكفين من العلماء يجب أن يقول با تحريم لما يفعله النساء الآن :
(أولا) لأنهن لا يقتصرن على كشف الوجه واليدين كما هو معروف .

(ثانيا) لا بد عند ذلك القائل من أمن الفتنة والفتنة الآن غير مأمونة ، والشيطان قد جلب على الناس بخيله ورجاه (إلا الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّأَهُمْ)^(٢) ولئن كانوا موجودين ففي الكثرة المطلقة ما يثير الفساد ويوجب الفتنة . وقد قرر علماء الأصول أن المقدور الذى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والمقدور الذى لا يتم الحرام إلا به فهو حرام ، وعلى كل حال فالوسيلة تعطى حكم

(١) مجلة لإسلام - السنة الثامنة - العدد ١٨ - سنة ١٣٥٨

(٢) سورة ص الآية ٢٤

ما تؤدى إليه ، والمالكية لهم عناية كبيرة بسد الذرائع ، على أن الفتنة الآن غير مأمونة كما قلنا :

فالسؤال إجماعية لا يختص بها إمام دون آخر من أئمة المسلمين ؛ وقال بعض المتخصصين في هذا الموضوع مبيّناً ما يكون من المرأة والرجل عند التلاقى في أدواره التي بينها بقوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد **﴿﴾** فلقاء
وقال غيره :

لا يأمن على النساء أخ أخا مافي الرجال على النساء أمين

ولنسمعك بعض ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة :

روى ابن جرير وابن أبي حاتم أنه كان فيما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم على النساء عند مبايعتهن ألا يحدثن الرجال إلا أن تكون المرأة ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يكون مالا تحمد عقباه ، وإذا كان هذا في الحديث فما بذلك بالسفور وكشف الصدور في زمان الفجور ، فإن اتفق أن وقع بصر الرجل على امرأة من غير قصد فليصرف عنها بصره سريعاً ، كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله البجلي أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نظرة الفجأة قال فأمرني أن أصرف بصرى . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : لا تتبع النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة ، وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يا رسول الله :

صلى الله عليه وسلم - إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف « النظر سهم مسهم من سهام إبليس إلى القلب » أمر الله بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى الزنى ، فقال تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ^(١)) فهو من قبيل عطف المسبب على السبب ، وقد قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته : وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا رزقه الله عبادة يجد حلاوتها في قلبه ، وابتدكر قوله تعالى : (يَعْلمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) ^(٢) وفي الصحيح « زنى العينين : النظر ، والنفس ، تتمنى وتشتهى ، والفرح يصدق ذلك أو يكذبه » وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت من محارم الله وعينا سهرت في سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله . عز وجل - ، ثم قال تعالى : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) أى عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن .

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا ، محتجين بأن النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) سورة غافر ، الآية ١٩

(١) سورة نور ، الآية ٣٠

(٣) سورة نور ، الآية ٣١

قال لَأُمُّ سَلَمَةَ وَمَيْمُونَةَ اِخْتَجِبَا مِنْ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ
أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا؟ فَقَالَ : أَفَعَمِيَاوَانِ أَنْتُمَا أَوْلَسْتُمَا
تُبْصِرَانِيهِ ؟ ثم قال الله تعالى : (وَلَا يُبْصِرِينَ زِينَتَهُنَّ) ^(١) قال بعض
السلف ، الزينة زينتان : زينة لا يراها إلا الزوج الخاتم والسوار
وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب . وقالت عائشة : يرحم الله
نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله (وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) ^(٢)
شققن مروطهن فاختمرن بها فأصبحن معتجرات كأن على رءوسهن
الغربان ، وفي آية أخرى (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) ^(٣) قال السدي : فلا تخضعن عني بذلك
ترقيق الكلام ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم .
ولا بأس أن نذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : «إن المرأة عورة
فإذا خرجت استشرفها الشيطان» . وقوله صلى الله عليه وسلم : «صلاة
المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها» ولندع الاستنباط لك في
آخر السورة ثم قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءُ
الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) ^(٤)
الجلباب رداء فوق الخمار وفي الصحاح الجلباب «الملحفة» وقد قال ابن
عباس في هذه الآية : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في
حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا
واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله

(٢) سورة النور ، الآية ٣١

(١) سورة النور ، الآية ٣١

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢

نز وجل : (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ)^(١) فغطى وجهه ورأسه وأبرز
عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها .
وقالت أم سلمة لما نزلت هذه الآية (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) خرج
نساء الأنصار كان على رؤسهم الغريان من السكينة وعليهن أكسية
سود يلبسنها (ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ)^(٢) أى إذا فعلن ذلك
عرفن أنهن حرائر لسن بإماء ولا عواهر .

أما النساء الآن فلا يبالين أن يتشبهن بالعواهر ويقال فيهن ما
شاء القائلون ، وهو دليل على سقوطهن وفساد أخلاقهن ، وصغر
نفوسهن وعدم غيرة أزواجهن وأقاربهن .

فإلى الله المشتكى وبه المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم ، ولو شئنا لأطلنا وفي هذا القدر كفاية ، والله يتولى هدى
الجميع بمنه وكرمه .

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٩

سِرُّ تعدد الزوجات في الإسلام

يحسن بنا في هذا الظرف أن نعرض لهذا الموضوع وقد لاكتنه الألسن كثيرا وكان في نفوس بعض الناس شيئاً مما جاء في التشريع الإسلامي أو ميلاً إلى ما في المسيحية الأوربية التي قلدناها في كل شيء على غير هدى ولا بصيرة فنقول :

لسنا نذهب في تعليل ذلك إلى ما قاله المسيو (دولست) من أن الرجل من الشرقيين أكثر قوة وأعظم شبقاً من الغربي ، وكذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الأمم : إن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة ، أي فيجب في الشريعة العامة التي جاءت للأمم كلها أن تراعى ما يناسب طبائع الجميع . ولهذا قال (الكنت هنرى كستري) : أنه ليصعب جدا على الغربيين أن يقدرُوا شريعة القرآن في تعدد الزوجات حق قدرها ، لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلي كما لست أعلل ذلك بما لعل به بعضهم من أن العرب كانوا يتزوجون كثيرا بلا حد ، فلو جاء الإسلام يقرهم على واحدة كان ذلك صعباً على قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين اعتادوا الكثرة كغيلان الذي أسلم على عشرة نسوة فأمره - صلى الله عليه وسلم - أن يبقى أربعاً ويفارق سائرهن كما في الحديث لصحيح .

ومن علل بذلك (الكنت هنرى) حيث يقول إن ذلك ربما أدى إلى تزعزع عقيدتهم في الدين الجديد ، فلهذا أباح لهم تزوج الأربع

تخفيفاً للشّر وتألّيفاً لقلوبهم ببعض ما ألقوه فهو لم يفعل ذلك إلا لمصلحة الإسلام كما تقتضيه الحكمة البالغة .

ولست أقول في ذلك أيضاً ما يقوله (المسيو ريفيل) أننا لو رجعنا إلى زمن النبي صلى عليه وسلم ومكان ظهوره كما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثره مما أتاه عليه السلام ، فهن مدينات انبيهن بأُمور كثيرة . لسنا نعلل بشيء من ذلك كله وإن كان له من النظر قسط ، ومن الحق وجه . ولكننا نعلم بك إلى ما هو أقرب من هذا وأولى بالاعتماد عليه .

إنك تعلم أن الرجال معرضون لأخطار الحروب الآكلة ومخاوف الأسفار في البر والبحر التي تحدث كثيراً لركاب البواخر من الغرق وغيره خصوصاً في هذا الزمن (زمن الغواصات) التي نعرف خطرها وفي كل يوم نسمع خبرها فضلاً عن غيرها مثل حوادث الترام . ومخاطر الطيران ، ومهاوى الجنائيات منهم على غيرهم ومن غيرهم عليهم ومعاناة الأشغال التي تكون لاستخراج المعادن من مكائنها أو اللآلئ من مستقرها وما عسى أن يكون من خطر البراكين وغيرها وما يلتحق بذلك من أخطار السباق على الخيول أو المصارعة المعتادة في أوروبا وأمريكا ، وما يكون من بعض الطبقات الدنيا من الفضائح التي كثيراً ما تودي بحياتهم أو حياة غيرهم .

وإن شئت ضمنت إلى هذا ما تسمعه من حوادث الانتحار أو رمى الكثير بنفوسهم في البحر تخلصاً من مضايق الحياة ، ومتاعب العيش ،

كما يقع ذلك كثيرا بانجلترا وغيرها مما يتناقص به الرجال تناقصًا كثيرا .

ثم ألق ببصرك إلى ما ليس بالبعيد مما فعلته الحروب الطاحنة مثل الحرب الروسية اليابانية أو الترنسفالية الإنجليزية أو العثمانية البلقانية . وأفطع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى التي لا تزال ماثلة في الأذهان بويلاتها ومصائبها ولا يدري ما تأتي به هذه الحرب القائمة الآن إلا الله تعالى ولو نظرت في التاريخ لوجدته يفيض أنهاراً من الدماء من كل ينابيع الشقاء قديماً وحديثاً .

وقد ذكر القرآن والتوراة أن فرعون كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم وأنه غرق في البحر مع أمم كثيرة يقدرها بعضهم بستمائة ألف في يوم واحد .

وأظنك لا تشك في أن هذا كله لا يكاد يوجد في النساء حتى حوادث الانتحار الفردية إلا على سبيل الشذوذ في ندور من الأحوال .

ثم نقول بعد ذلك كله قد دلت الإحصائيات الرسمية على أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال وأصبح ذلك مما لا شك فيه .

فقل لي بعيشك إذا حصلت هذه الحوادث وكان الرجل مقصوراً على زوجة واحدة فماذا تصنع تلك النساء ومن ذا يقوم بإعفافهن إذا كان لا يجوز للرجل ألا يتزوج إلا واحدة ، بل من يؤدى واجباتهن وهي كثيرة متوقفة على الرجال لا محالة ، فإن المرأة ضعفة ، بمقتضى خلقتها كما أثبت ذلك علماء التشريح .

ولئن فرضنا أن في تلك الأمة من ذوى الإحساس والهمة من يقوم
بشئونهن على ما يجب كما يردن وتريد الإنسانية . وهو فرض
لا يكون ولئن كان فلن يدوم ، أفلا يلحقهن من المنة أو العار ما ينغص
عبيهن ويكدر صفوهن بتلك الصدقات التي هي عنوان المذلة وبرهان
المهانة ومجلية العار والشنار لهن ولأقاربهن .

وأما إذا تزوجن كانت نفقتهن واجبة على الزوج فلا يمكنه
أن يفرض فيهما ولا أن يدع أمرها يوماً من الأيام لغيره بعدما أخذ
عليه من يوم ذلك الزواج أن يزود عنها عوادي الدهر وغوائل الحياة
لمكان ذلك من نفوس الأزواج وما يكون بين الزوجين من أواصر
المحبة إلى غير ذلك من الروابط التي لا يستهان بها في نظر العقل
والدين والعرف ، وبهذا تتم السعادة والهناءة لهن مادياً وأدبياً وفي
الشريعة الإسلامية من واجباتهن على الزوج ما يضمن لهن كل راحة
ويتقدهن من كل شقاء .

ولنقف هنا اليوم خشية الإملال وموعدنا الأعداد المقبلة إن شاء الله .

سز تعدد الزوجات في الإسلام

إذا نظرت بعد ما سبق من الأنظار الكثيرة إلى أن المرأة تكون نفساء نحو شهرين وأن الرجل قد يكون في عنفوان شبابه عظيم الشبق فوى الغلطة لا يصبر على مفارقة النساء مع ذلك السائق الذى يقويه نزق الشباب وطيش حداثة السن تبين لك من الحكمة ما يثلج له صدرك وتحمد الله على ما حباك به فى دينك .

ثم تضم إلى ذلك أن الرجل قد يسافر متجراً مثلاً إلى بعض البلاد النائية فيمكث بها شهوراً أو دهوراً فلو حجرنا عليه أن يتزوج لأدركه من العناء ما أخرج صدره وشوش أمره .

وإنى أظن أنه لم يسهل عليهم ذلك مع هذا الحجر الذى فى دينهم إلا عدم وقوفهم على حدود الدين وفقد تحرجهم من أن يخالفوه ، وليتهم اقتصروا من الخليلات غير الشرعيات إلى أربع ، ولولا ذلك لضاق عن تحمل المشاق اصطبارهم ولم تسعه قدرتهم واختيارهم .

هذا ولو نظرنا لمصلحة المرأة لا لمصلحة الأمة لوجدنا ذلك خيراً لهم أيضاً فى كثير من الأحوال . وإننا نسائل حضراتهم هل من مصلحة المرأة الفقيرة التى لاتجد من ينفق عليها إذا خطبها موسر كبير ومعها امرأة أخرى ألا تتزوجه؟ هل من مصلحة المرأة الغنية الواسعة الثروة التى يخونها أنظارها ويغشها أمناؤها ويصانع فيها من تحسن إليهم وهى

لا تستطيع حياة ولا تهتدى إلى إصلاح حالها سبيلا إلا أن تتزوج
برجل معه امرأة أخرى من ذوى الدين والعمل والكفاءة والأمانة ؟

هل من مصلحة المرأة التى نبتت بين أسرة فقيرة منحطة إذا خطبها
وزير أو أمير جمالها أو مزية فيها ، وهو ما يعود عليها وعلى قومها
بالشرف الرفيع والعز المنيع ألا تتزوجه إذا كانت معه امرأة أخرى ؟

هل من مصلحة المرأة التى ساء حظها فكانت بين من لا يخافون الله
(وهم كثير) وليس لها من الجاه ما يمنع شرهم ويحسم ضررهم وخنافت
على نفسها من أولئك الأشرار وما عسى أن يكون من موجبات العار
ورأت أن فى استطاعتهم أن يلعبوا بها حتى أمام القضاء الذى هو نصير
الضعفاء بما لهم من شهود الزور وإتقان الباطل واستعمال الحيل ، هل
من مصلحتها ألا تتزوج من يريد أن يرفعها من حضيض المهانة إلى
أوج الرفعة ويحفظها بجاهه بين قومه فيجعلها مصونة بعد الابتذال
مكرمة بعد الامتهان إذا كانت معه امرأة أخرى ؟ .

إلى غير ذلك مما يعرفه المتبصر ويعترف به المنصف .

اللهم وضح الصبح لذى عينين ، وتبين أن شرعك القويم كما
قلت فى كتابك الكريم (تنزيل من حكيم حميد) ولكنها الأهواء
عمت فأعمت .

وأما ما تحتجون به من أن كثرة الزواج توجب الأحقاد بين
الأولاد فهو احتجاج باطل ونظر عاطل ، فإن ذلك راجع إلى فقد العدل
من الآباء بين الزوجات وعدم المساواة بين الأولاد ، وفقد التربية

الصحيحة من الجميع ، وهى أهم ما يجب النظر فيه الآن لو وفق الله وزراءنا لمصلحة الأمة الصحيحة ومداواة الأدواء من أصولها واحتباس جذور الشقاء من جذورها .

وحسبك مجلبة للشرور تلك الصفات الخبيثة التى ينتجها سوء التعليم مثل الكبر والطمع ومحبة الظلم والاستئثار والحقد والحسد والبخل وإجابة النفس فى كل ما تشير به وتميل إليه ما ليست نتائجه قاصرة على أولاد الضرائر بل متى وجد التغالب والتكالب وغلبة الأهواء والإفراط فى تنازع البقاء فيقتل الأخ أخاه الشقيق والابن أباه الشقيق وهو نتيجة استحكام الصفات الخبيثة فى النفوس وعدم رياضتها بمحاسن الأخلاق :

ولست أريد بالتربية الحسنة التى تمنع من اقتراف الجرائم وتسوق إلى جميع المكارم إلا أن تغرس تعاليم الدين الحنيف فى النفوس حتى تراقب الله فى خلواتها وجلواتها ، علماً بأنه يعلم (خائنة الأعين وما تخفى الصدور) . فإسناد ما يقع من تلك الهنات إلى ذلك خلط وخبط . شأن من لا يبحث عن علل الأشياء الصحيحة وأسبابها الحقيقية .

ولو رجعوا إلى كتب الأخلاق التى تبين ما جبلت عليه النفوس وما تقتضيه الطبائع إذا لم تقمع بالرياضة ولم تهذب بالدين والعلم والفلسفة أو إلى التاريخ الذى امتلأ بما يكفى الناظر وينبه القاصر لم يقولوا ما قالوا .

هذا وقد رأيت أن أتكلم في المسألة من الوجهة النقلية أيضاً تمييزاً
لموضوع بلعل بعض الناس على رأى البابا (بروغلى) الذى يقول :
إن تعدد الزوجات لم يوجد إلا مع المساجد ، مبيناً خطأه فى ذلك فإن
كثرة الزواج كانت قديمة فى الشرائع الوضعية والسماوية فقد كاذ
داود عدد كثير من النساء ولابنه سليمان عليهما السلام أكثر منه ،
وكانت العرب لاتقف عند حد فى الزواج :

ومن الأحاديث المشهورة بين العلماء أن (غيلان) أسلم نبلى عشرة
نسوة فقال له صلى الله عليه وسلم « أَمْسِكْ أَرْبَعًا وَفَارِقْ سَائِرَهُنَّ » .

وكان لجرمانيون يتفاخرون بكثرة الزواج ويتكاثرون فيه ، بل
منذ كر لك ما ستعجب له كل العجب وهو أن الإنجيل ليس فيه نص
لصريح يوجب الاقتصار على واحدة ، بل كثرة الزواج هى شريعة
التوراة فتكون شريعة الإنجيل أيضاً؛ فإن عيسى عليه السلام يقول :
« ماجئت لأنقض الناموس » أى التوراة بل كل من لا يعمل به فعليه
اللعنة (وجميع الشعب يقول آمين)

فاذا تعلم من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجزى بتعدد
الزوجات وحده بل جاء رحياً حكيماً فأباحه وأوقفه عند حد مخصوص
لرحمة بالرجال والنساء جميعاً كما علمت ، فلم يترك الأمر فوضى
لا يربطه رباط ولا يضبطه ضابط مما يوافق أهواء الرجال نظراً إلى أنه
إذا لم يقف عند حد أضر بالنساء ضرراً بليغاً ، ولم يبجحه إلا للقادر
على القيام بواجبه لكونه مصلحة له فى شخصه بل والمهية الاجتماعية .

وقد تبين لك ذلك في مقالنا الأول غاية البيان .

ولما كان الأمر غير منضبط بل يختلف باختلاف الأفراد لم يجعل أمر ذلك بيد القاضى لأنه يرتبط بأشياء كثيرة لا يعلمها إلا الشخص الإنسان مثل أحواله النفسية التى تقضى عليه بالعدل أو تميل به إلى الظلم والجور مثل الأحوال الشخصية التى تعود عليه ولا يعرفها أحد سواه وليس يفيد فى هذا إلا إيقاظ باعث الخوف من الله والمراقبة له عز وجل فهى التى تمسك النفوس إذا لم تمسكها القوانين الوضعية وهو ما تمتاز به الشرائع الآلهية ولا يوجد فى القوانين البشرية التى ليس فى وسعها أن تمنع مما تريد متى وجدت إليه سبيلا ولم تخش شاهداً أو دليلاً .

ولذلك عقب الله آية الزواج بقوله : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)^(١) كما حض عليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « من كان عنده امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » ، إلى غير ذلك وهو غاية الحكمة فى تحصيل المصلحة العامة والاحتياط فى جزئيات المسائل وأفراد الأشخاص .

(وقد قال الكنت هنرى كيستلى) مبتهجاً بما جاء فى الشرع المحمدى من حقوق المرأة أن لها أن تشتترط على زوجها عدم التزوج بغيرها وعدم التسرى وألا يغيب أياما كثيرة عن بيته بدون إذنها ، وإن آذاها أو سبها طلق عليه الحاكم جبرا بخلاف المسيحية ، إلى أن قال : وبهذا يرى القارىء مقدار اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بمنع

(١) سورة النساء ، الآية ٣

عوامل الفساد عن التفشى بين المسلمين لكي يعيش الأزواج والآباء
في راحة ونعم . . .

فخلاصة الموضوع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أباح كثرة الزواج
لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة للرجال والنساء وما يوجد من تقدم
العمران وينمى الهيئة الاجتماعية من الفوائد مالا مزيد عليه ، ثم أوقفه
عند حد محدود ، نظراً إلى أن الرجال إذا تركوا وما يشتهون لعبت بهم
الآهواء فأصروا بالنساء ثم أمرهم بالعدل وحظر على من يخشى من
نفسه بالجرير ألا يتزوج إلا واحدة .

ورأى من الحكمة ألا يجعل للحاكم تدخلا في ذلك لأنه يختلف
باختلاف الأفراد ويرتبط بأمر كثيرة لا يتبينها على الحقيقة إلا صاحبها ،
فجعل الأمر موكولا إليه فيما بينه وبين الله . . .

ومن يعانى وضع القوانين وأسرار التشريع يعلم أن الأفراد تختلف في
كلياتها اختلافاً كبيراً لا يتأتى ضبطه ، فيعطى منه الفرد حرية تسمح له
أن يتغلب فيها كما يتغلب في أحواله الأخرى بحق أو باطل مادام
لم يتجاوز حد الحظر العام الذى حدده له القانون ، وهذا جاء في القواعد
بعامة كلها التى تحدد حدوداً تحظر مجاوزتها وتمنح الحرية فيما دونها
لأفراد يتنلبون فيه كيف شاءوا على سنن الحكمة ، أو الآهواء بطهارة
النفوس أو دنسها ، بصحة الأسباب أو فسادها ، بحسن النية أو سوءها
للقصد ، بتمام الاستعداد أو نقص الوسائل ومزيد الضعف ، إلى غير ذلك .

وليس يمكن غير هذا ؛ ولذلك كان للإنسان جزءاً آخر على ما عمل
فيما بينه وبين الله بمقتضى تلك الأحوال التي لا يتسلط عليها القانون
ولا يتناولها سلطان الحدود الشرعية الظاهرة .

قد عرفت أن الدين يحتاط في هذا إلى أبلغ الاحتياط بكثرة الرعي
فيه حتى يسيطر على القلوب ويستولى على النفوس ، وبذلك تستقيم
المصالح العمومية والأحوال الشخصية .

فقل لى بربك أى حكمة وأى نظر أبلغ من ذلك :

* ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا *

هذا قليل من كثير وإنه لنى غاية الوضوح ولكنهم أخطأوا المحجة
وتنكبوا المحجة (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)^(١)
(وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)^(٢) .

بدلت لكم يا أهل مصر نصيحتى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

حِكْمٌ جَلِيلَةٌ^(١)

رأينا أن نذكر القارئ الكريم كلمات نابغة لكبار الحكماء عسى
أن ينتفع قراء مجلة الأزهر بها إن شاء الله :

قال هرمس - ويقال إنه إدريس عليه السلام - ما نصه : أول
ما يجب على المرء لفاضل بطباعه المحمود بسنخه^(٢) . المرضي في عاداته ،
المرجو في عاقبته ، تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته ، والناموس
عليه حق الطاعة . والمسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ، ولنفسه عليه
حق الاجتهاد والدب في فتح باب السعادة ، وإخلطائه عليه حق صفاء
الود ، والمسارعة لهم بالبذل عند الحاجة ، فإذا أحكم هذه الأسس
لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة ، وحسن معاشرته لهم وتعليمه
إياهم .

ومما قال أيضاً : مودة الإخوان يجب ألا تكون لرجاء منفعة أو لدفع
مضرة ، ولكن لمحبة الخير والحدب على الفضيلة .

وقال : أفضل ما في الإنسان العقل ، وأجدر الأشياء أن يفرح به
صاحبه العمل الصالح ، وأفضل ما يحتاج إليه في تدبير الأمور الاجتهاد ،
وأظلم الظلمات الجهل ، وأوبق الأشياء الحرص .

وقال : الاستخفاف بالموت هو أحد فضائل النفس .

(١) مجلة الأزهر - المجلد الثالث عشر - الجزء الخامس - جادى الأولى - سنة ١٣٦١

(٢) السنخ بالكسر : الأصل

وقال : المرءٌ حقيقٌ أن يطلب الحكمة ويثبتها في نفسه أولاً لأجل
أن يخرج من المصائب التي تعم الأخيار ، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه
من الشرف ، ولا يعير أحداً بما هو فيه . ولا يغيره الغنى والسلطان ،
وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه ،
ودينه ما لا يختلف فيه .

وقال : أنفع الأمور للناس القناعة والرضا ، وأضرها الشر والسخط .

وقال : كل شيء يطاق تغييره إلا الطباع ، وكل شيء يقدر على
إصلاحه إلا الخلق السيء ، وكل شيء يستطيع دفعه إلا القضاء .

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان صادق ناطق
بالعقل والحكمة والحق في الجماعة .

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى ،
فدينه دين الله عز وجل . وخصمه له شاهد بفاجح الحجة . ومن كان
دينه الفظاظة والأذى فدينه دين الشيطان وهو بدحوض حجته شاهد
على نفسه .

وقال : لا تكن أياً للإنسان كالصبي إذا جاع صغى : ولا كالعبد
إذا شبع طغى ، ولا كالجاهل إذا ملك بغى .

وقال : لا تشيروا على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة . أما الصديق
فذلك من واجبه بمقتضى صداقته ، وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك
إياه هابك وحسدك ، وإن صح عقله استحى منك وراجعك .

وقال : لا يستطيع أحد أن يحوز الخير والحكمة ، ولا أن يخلص نفسه من المعايب إلا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ، وولي ، وصدقة ، فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله الصالح .

وقال : لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله .

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصدق في الغضب ، والجود في العسرة ، والعفو عند المقدرة .

وقال : من لم يعرف عيب نفسه فلا قدر لنفسه عنده .

وقال : الفاصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطق له ، والجاهل منطق عليه .

وقال : لا ينبغي للعاقل أن يستخف بثلاثة : السلطان والعلماء والإخوان ، فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مروءته .

وقال : الخير والشر واصلان إلى أهلهما لامحالة ، فطوبى لمن دأبه الخير ، والويل ثم الويل لمن جر الشر وسعى فيه .

وقال : الإخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء إثنان : محبة المرء نفسه ، وما تكون عليه يوم معاده ، وتهذيبه إياها في العالم الصحيح والعمل الصالح ، والآخر مودته لأخيه في دين الحق ، فإن ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده ، وفي الآخرة بروحه .

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشره ، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب .

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعونتهم إياه ، وحسن القول منهم فيه ، حقيق بأن يكون كذلك لهم .

وقال : كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض ، فإنه إذا أصلح ذلك الباع صلحت له أموره كلها . وإذا أضاعه أضاع الجميع وقدر ذلك الباع هو نفسه .

وقال : من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبدلوا العدو صديقاً ، والجاهل عالماً ، والفاجر براً .

• • •

أسمعناك أيها القارىء الكريم شيئاً من حكم الحكماء ونريد أن نسمعك شيئاً من حكم سيد الأنبياء التي تدور عليها مصالح الدنيا والآخرة ، فنقول :

روى الطبراني من حديث أسود بن أصرم المحاربي قال : قلت : يارسول الله أوصني ، قال : « هَلْ تَمَلِكُ لِسَانَكَ ؟ قُلْتُ : مَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ لِسَانِي ؟ قَالَ : فَهَلْ تَمَلِكُ يَدَكَ ؟ قُلْتُ : فَمَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ يَدِي ؟ قَالَ : فَلَا تَقُلْ بِلِسَانِكَ إِلَّا مَعْرُوفاً وَلَا تَبْسُطْ أَيْدِكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ » .

وفي المسند عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لَا يَسْتَقِيمُ الْإِيمَانُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ » .

وخرج الطبراني من حديث أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَخْزُنَ مِنْ لِسَانِهِ » . وخرج الطبراني أيضا من حديث معاذ بن جبل عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ » .
وخرج الإمام أحمد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْنُو مِنَ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَيَتَبَاعَدُ بِهَا أَبَدًا مِنْ صَنَعَاءَ » .

وخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث بلال بن الحارث قال : سمعت انبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وفي الحديث المشهور « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » . رواه البخاري ومسلم .

وقال الله سبحانه وتعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) . وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي على يمينه هو الذي يكتب الحسنات والذي على شماله يكتب السيئات .

وخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيْفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ

حسرة . وخرج الترمذى ولفظه : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم - صلى الله عليه وسلم - إلا كان عليهم ترة » أى نقصاً .

وخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من قوم يجلسون مجلساً لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة » . وقال مجاهد : ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا قبل أن يذكروا الله إلا تفرقوا عن أنتن ريح وكان مجلسهم يشهد عليهم بغفلتهم ، وما جلس قوم مجلساً فذكروا الله قبل أن يتفرقوا إلا تفرقوا عن أطيب من ريح المسك وكان مجلسهم يشهد لهم بذكورهم » .

وقال بعض السلف : يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات . وأخرجه الطبراني من حديث عائشة رضی الله عنها مرفوعاً : « ما من ساعة تمرُّ بابنِ آدمَ لم يذكرِ اللهُ فيها بخيرٍ إلا تحسرت نفسه عليها يومَ القيامة » . وقد روى عن ابن مسعود قال : « إياكم وفضول الكلام ، حسبُ امرئٍ من الكلامِ ما بلغ حاجتهُ .

وعن النخعي قال : يهلك الناس في فضول المال وفضول الكلام . ولا غرو فإن الإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه يوجب قساوة القلب ، كما في الترمذى من حديث ابن عمر مرفوعاً : « لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذكرِ اللهِ فإن كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ اللهِ قسوةٌ للقلبِ ، وإنَّ أبعدَ الناسِ عن اللهِ القلبُ القاسي » .

وقال محمد بن عجلان : إنما الكلام أربعة : أن تذكر الله ، وتقرأ القرآن ، وتساءل عن علم فتخبر به ، أو تتكلم فيما يعينك من أمر دنياك . وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يأخذ بلسانه ويقول : هذا أوردني الموارد .

وخرج الإمام أحمد وابن حبان من حديث البراء بن عازب أن رجلاً قال : يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة ، فذكر الحديث وفيه : « فاطم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير » . قال الفضيل بن عياض : ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان .

وفي مراسيل الحسن - رحمه الله - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - قال : « علامة القرب أن يكون قلب العبد عندي متعلقاً ، فإذا كان كذلك لم ينسني على حال ، وإن كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بي كي لا ينساني ، فإذا نسيتني حركت قلبه ، فإن تكلم ، تكلم لي ، وإن سكت لي فذلك الذي تأتيه المعونة من عندي » . أخرجه إبراهيم بن الجنيد .

ولنقف هنا ، ولعلنا نعود للموضوع مرة ثانية ، إن شاء الله .

فتنر

من : أرجو شرح النقط الآتية على صفحات المجلة :

بالقرية التي أنا موظف بها ، رجل متفقه تأتم به الناس في هذه البلدة وما جاورها ، يفسر ألفاظ القرآن الكريم بظاهرها ، وهو يحرم :

١ - التوسل بالأنبياء والأولياء إلى الله تعالى .

٢ - يحرم قراءة القرآن للموتى والعناتق (الصمدية) .

٣ - والمهم الذى دعانى إلى الاستفهام قوله : (ان الله سبحانه وتعالى فى السماء فقط) ، ويستدل بقوله تعالى : (ءَأَمِنْتُمْ مَن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) ^(١) ، وقوله أيضاً سبحانه : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(٢) .

محمد سليمان الشيخ

مدرس بمدرسة بلتاج الأولية

ج : التوسل بالأنبياء والأولياء جائز لاشك فيه لدى من استنارت بصيرته وصفت قريحته ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فى العدد الثامن من المجلة ، وسنفيض القول فيه بعد .

أما قراءة القرآن فقد صححنا وصول ثوابها إلى الميت ، وذكرنا فى ذلك ما فيه مقنع وكفاية لمن أنصف ولم يتعسف ، فراجعه فى العدد الثامن من نور الإسلام (مجلة الأزهر) .

(١) سورة الملك ٤ الآية ١٦

(٢) سورة طه ، الآية ٥

رقد جاء في قراءة الصمدية أحاديث يعمل بها في مثل هذا الموضوع :
أخرج الطبراني في الكبير مرفوعاً : « مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ
كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِرَاءَةً مِنَ النَّارِ » وأخرج البزار في مسنده مرفوعاً :
« مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ » .

وقد علمت أن الصحيح وصول ثواب القراءة إلى الميت ، فلا
بأس إذن من إهداء ثوابها إلى الأموات كما يفعل الناس ، وليعلم
القارئ الكريم أن العلماء من المحدثين والفقهاء قالوا : يجوز بل يستحب
العمل في الفضائل والترغيب ، الترهيب بالحديث الضعيف ، وقد
علمت أن الصحيح لدى العلماء هو وصول ثواب القراءة وغيرها
كالصدقة والدعاء .

أما دعواه أن الله في السماء فقط فهي من الأدل الأدلة على جهله
بالمعقول والمنقول ، فإن الذي يحتاج إلى مكان يكون فيه لا يكون إلهاً ،
فإن الإله هو الذي يحتاج إليه كل شيء « حتى المكان » ولا يحتاج هو
إلى شيء وأين كان قبل المكان ، أليس المكان محدثاً بعد أن لم يكن ،
ومحتاجاً إلى من يخرج من العدم إلى الوجود ، ثم هو محتاج بعد ذلك
إلى من يحفظه بعد وجوده (إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ
تَزُولَا) (١) إن المكان يستمد وجوده وحفظه من غيره كالممكن سواء
بسواء ، وأحكم الأجسام الذاتية لا تختلف ولا تتباين ، وقد قام
البرهان العقلي على أن الله تعالى مخالف لمخلوقاته ، ولو ماثلها لكان
حادثاً مثلها .

(١) سورة فاطر ، الآية ٤١

ومن المعلوم أنه لو احتاج إلى مكان لكان جسماً مفتقراً إلى ما يقبله ،
ولكان مركباً من أجزاء ومحتاجاً إلى أجزائه وإلى من يركب تلك الأجزاء
ويضع كلاً منها في مكانه الذي هو فيه وإلى من يخصصه بطوله وعرضه
وسمكه ، فإنه كان يجوز عقلاً أن يزيد عن ذلك المقدار أو ينقص عنه ، وكان
يجوز أن تكون أجزاؤه في غير أماكنها الخاصة بها ، فإذا لابد له من
مخصص يخصصه بذلك كنه ، والمفتقر إلى غيره محال أن يكون إلهاً .

ثم نقول من وجه آخر : إن هذا الجسم لابد أن يكون أقل من
العرش أو زائداً عليه أو مساوياً له ، ونقول : لابد أن يكون قابلاً
للانحلال ، لأن كل مركب يقبل الانحلال إلى أجزائه ، ولو فرضنا
أنه في غاية الصلابة والمتانة لكان هناك من الآلات القوية التي وجدت
أو التي يجوز أن توجد ما يمكن أن يزيل كيانه ويعدم شخصه ويرحمه
إلى أجزائه الأولى .

ثم نقول أيضاً كونه في السماء يقتضى كون السماء ظرفاً له ، فيكون
أصغر من السماء والسماء أصغر من العرش بكثير ، فيلزم أن يكون الله
تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -
قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)^(١) ، فنع
المسك لها وليست ممسكة له .

أفلا يكون ذلك كله قرينة على صرف بعض الآيات عن ظاهرها
وجعلها كناية عن شيء آخر يليق بعظمة الله تعالى وجلاله ، مع أن
صرف اللفظ عن ظاهره والذهاب به مذهب المجاز أو الكناية يكفي فيه
آية قرينة من القرائن التي يستبعد معها إرادة المعنى الحقيقي - ولو من
طريق العادة - فما بالك بالبراهين العقلية التي تزول منها الجبال .

(١) سورة فاطر ، الآية ٤١

وليت شرى ! أيجعله على عرشه بمقتضى قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(١) ، أم في سمائه بمقتضى قوله تعالى : (ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ) ^(٢) وآية سماء هي ، أم في أرضه بمقتضى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) ^(٣) أم في بيوتنا ومجالسنا بمقتضى قوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) ^(٤) ، أم تحت الأرض بمقتضى ما رواه الترمذى من قوله صلى الله عليه وسلم : « لو دلى أحدكم بحبل في بئر لوقع على الله » أو كما ورد ، نعوذ بالله من قصور الفهم ، تسلط الوهم .

وماذا يصعب في حديث النزول إلى سماء الدنيا كل ليلة وقت السحر إذا أخذ بظاهر قوله تعالى : (ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ) ولعله يقول إنه في غير سماء الدنيا ، إلى آخر ما يمليه الخيال أو يقتضيه الخيال ، وما أدري لماذا يتسك بهذه ولا يتمسك بقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ^(٥)

وإذا كانت الروح من أمر الله ولسنا نعرفها وهي أقرب الأشياء إلينا ، ولا ينبغي أن نخوض فيها مع هذا الجهل ، وقد تباينت آراء العلماء فيها قديماً وحديثاً ، حتى ذهب الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالي والحاجبي وغيرهما إلى أنها من الجواهر المجردة التي لا تحتاج إلى حيز ولا مكان ، فكيف بمن هو رب الملائكة والروح .

(٢) سورة الملك ، الآية ١٦

(١) سورة طه ، الآية ٥

(٤) سورة الحديد ، الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٥) سورة النور ، الآية ١١

ولكن هناك نفوس غليظة لا يمكنها أن تعرف إلا الأجسام وأحكام
الأجسام ، وليس في استطاعتها أن تدرك ما ليس جسماً ولا جسمانياً .

ولو كلفنا الدودة الصغيرة أن تعرف حقيقة الإنسان وأحواله لكان
ذلك تكليفاً بالمحال ، وما بيننا وبين الله تعالى أبعد مما بين الإنسان
وتلك الدودة الحقيرة بما لا يستطيع تقديره ، فإنها تشترك معنا في
جنس الحيوان ،

وقد قلنا إن العوالم أنفسها تختلف أحكامها اختلافاً لا يحيط به
العد ، فمن الغلط البين أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر ، فما
بالك بمن تعالى عن سمات المخلوقات ، وتنزه عن أن يدخل تحت نوع
أو جنس ، كيف يتطاع العقل الضئيل والبصر الكليل والعلم القليل أن
يعرف ذاته أو يحيط بما له من صفات وأحكام .

ولكن أبي بعض الناس أن يعبدوا إلهاً لا يعرفون كنهه ، ولا يقفون
على حقيقة صفاته ، فإني والله آبي كل الإباء أن أعبد إلهاً يصل عقلي
إلى كنهه المحدود وصفاته التي تشبه صفاتي .

وأصرح بمسمع من الخافقين أني لا أعبد إلهاً يمكن أن أدركه بعقلي
أو ألمسه بيدي أو أمسه برجلي أو أمزقه بمدفعي الخ . . .

ولماذا لا يقلد أولئك المتفيهقون « المدعون لاتباع مذهب السلف
الذي يجهلونه ولا يعرفونه » أئمة الهدى وجماهير العلماء ، إن لم يسهل
عليهم فهم الأدلة العقلية والبراهين المنطقية وهؤلاء الهداة ، والله خير
من قلدوهم وأكبر وأكثر ، فلينظروا لأنفسهم وليحتاطوا لدينهم .

وقد قلنا ذلك نصيحة الله ورسوله والمسلمين ، والدين النصيحة ،
وما اشتدنا إلا لله ، وفي سبيل الله ما نلاقى من أولئك الجامدين الذين
نحب لهم ما نحب لأنفسنا كما أمرنا الله ورسوله .

وقد كان الإمام الشافعي -رضي الله عنه- يقول : «آمنت بما جاء
عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله» .^٢

أسأل الله أن يقينا شر الفتنة وأن يجعلنا من أهل البصيرة في
الدين ، الذين يؤمنون بالمحكم ويردون إليه المتشابه ، لامن الذين يتبعون
ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .^٣

على أن العلماء قد بينوا المراد من تلك الآيات^٤ ، فقالوا : المراد أن
في السماء سلطانه وأمره وقدرته ، والمقصود من ذكر السماء تفخيم
سلطانه وتعظيم قدرته ، وقد قال تعالى : «وهو الله في السموات وفي
الأرض»^(١) ومحال أن يكون في السموات وفي الأرض ، فالقصد أنه
متصرف في السموات والأرض تصرف المتمكن فيهما ، فما توجبه
الظرفية لمن هي له من إتقان العمل وإحكام التدبير وسهولة التصرف
وعدم غيبة شيء عنه ثابت له تعالى بأنهم معانيه في السموات والأرض .

فلا يتصور في حقه تعالى بعد ولا قرب ولا غيبة وحضور على نحو
ما نعرفه فإن ذلك لا يتصور إلا بالجسمانيات ، وأما هو فالأشياء كلها
سواء بالنسبة إليه ، فلوازم القرب والحضور ثابتة له^٥ ، كما أن لوازم

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣

البعد والغيبة منتفية عنه ، فليس قربه من جنس قربنا ولا معيته كمعيتنا ، وكما أن ذاته ليست من جنس ذواتنا وصفاته ليست من جنس صفاتنا ، فكذلك يجب التباين بين قربنا وقربه ، كما وجب التباين بين ذاتنا وذاته .

فالخلاصة : أن المراد من كونه في السموات والأرض نفاذاً أمره وقدرته وجريان مشيئته ، كذلك قوله تعالى : (**عَاْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ**) ، والمراد مزيد التخويف والتهويل فهو من وادى قوله تعالى : (**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ**) ^(١) في الآية مجاز بالحذف أو مجاز في الإسناد ، والقريضة على ذلك هي أكبر قريضة رآها الرأؤون واستند إليها المستعملون ، وهي الاستحالة العقلية التي قام عليها البرهان القاطع والدليل الساطع .

أما قوله تعالى : (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) فهو كناية عن تمام الملك وعظمة السلطان ، كما تقول لمن تم له الأمر إنه جلس على عرش المملكة لا تريد حقيقة الجلوس وإنما تجعله كناية عن استتباب الأمر وتمام الملك .

وهناك أجوبة كثيرة أعرضنا عنها مخافة التطويل والإملال .

وبعد هذا كله فليست أفهم قوله إن الله في السماء فقط مع ذكر قوله تعالى : (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) فاستلفت نظرك إلى ذلك . وليعلم أولئك الجاهلون أن مذهب السلف التنزيه وعدم الخوض في بيان المعنى ، فالفرق بينهم وبين الخالف أن الخالف يعينون المعنى المراد :

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٥

فيفسرون اليد في مثل قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)^(١) بالقدرة ،
أو يقولون إنه من الكنايات التي تتراد لوازمها لاحقاتها ، أما السلف
فلا يخوضون في شيء من ذلك ولا يبينون المعنى المراد على التعيين ،
ولكن يجب على القارئ أن يعلم أنهم ينزهون الله عز وجل عما تقتضيه
تلك الظواهر أو بتبادر من تلك الآيات ، أما هؤلاء الذين زعموا أنهم
مقلدون لهم فمشبهون لا منزهون ، فأين هم من السلف ؟

أيها المدعى سليمى سفاهاً لست منها ولا قلامة ظفر
ولنقتصر على هذا . والله يتولى هدى الجميع .

(١) سورة المتح ، الآية ١٠

الحسد والرقيّة من

الحسد ثابت في القرآن والسنة . وقد قال ابن عباس ومحمد ابن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم في قوله تعالى : (وقال يا بني لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وأدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ) (١) إنه خاف عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم يعقوب عليه السلام أن يصيبهم الناس بعيونهم .

وبالجملة فالمنسرون المتقدمون مطبقون في تفسير الآية على هذا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذُ الحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فيقولُ : « أُعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَأِيْمَةٍ » . ويقول : « هَكَذَا كَانَ يُعَوِّذُ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » .

وقد روى أن عبادة بن الصامت قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيتَه شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار فرأيتَه معافى ، فقال : « إِنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَرَقَانِي فَقَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ ، وَمِنْ كُلِّ لَعِينٍ وَحَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ » .

(١) سورة يوسف ، الآية ٦٧

ويروى أن بنى جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً فنالت
أهمهم : يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين ؟
قال : (نعم) .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « الْعَيْنُ حَقٌّ . وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ
يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَنَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن
أن يتوضأ ثم يفتسل من وضوئه المعين الذى أصيب بالعين .

وأما الذين أنكروه كئبى على الجبائى وهو رأس من رؤوس المعتزلة ،
فليس معهم شبهة فضلاً عن حجة . والتحقيق فى ذلك : أن الحسد
تأثير روحى . وللأرواح تأثير ليس على قانون ما تعرف من تأثيرات
الأجسام ، فلا يشترط فيه اتصال ولا قرب ولا غير ذلك . ولا يمتري
فى ذلك إلا من غلبت عليه أحكام الجسائيات ونواميس الماديات ،
فتقد يكون التأثير نفسانياً محضاً ولا يكون للجسمانية دخل فيه .
وقوانين النفوس البشرية مجهولة لأكثر الناس . وليس يخفى عليه أن
الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيا له ، حصل فى قلبه غضب فيسخن
مزاجه جداً . فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفسانى ،
ومبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية . فما المانع
إذا من كون بعض النفوس تؤثر فى غيرها ، والتجارب من الزمن القديم
تشهد لذلك وينطق به ؟ وقد ورد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما
سحره لبيد بن الأعصم اليهودى فأحدث به بعض الأذى فى بدنه -

لا في عقله ونفسه - عندما جيء له بتلك العقد التي عقدها لبيد المذكور - كان يقرأ عليها المعوذتين ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، فقام كأنما نشط من عقال .

وروى الترمذى عن ابن أبي خزيمة عن أبيه قال : « سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله : أرأيت رقى نسترقى بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقى بها : هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

وأما الرقى والتعاويد فقد اتفق الإجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن ، أو كانت واردة في الحديث . ويدل على صحة ذلك أن جبريل رقى النبي - صلى الله عليه وسلم - كما قلنا . وعن عوف ابن مالك - رضى الله عنه - قال : « كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « اعْرِضُوا عَلَيَّ رِقَاكُمْ » ، ثم قال : « لَا بَأْسَ بِالرَّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ » . رواه مسلم وأبو داود . وعن - جابر رضى الله عنه - قال : « لدغت رجلاً منا عقرب ونحن مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال رجل : يا رسول الله أرقى ؟ قال : « مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ » . وعن أنس رضى الله عنه قال : « رخص لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الرقية من العين والحمة ^(١) والنملة ^(٢) . رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

(١) الحمة : سم العقرب .

(٢) نملة : قروح تظهر في الخشب . فكانت نساء العرب ترقونها بتلك الكلمات مرات صباحاً ومساءً .

وقد روى أبو سعيد سيد الحى الذى نزلوا به بفاتحة الكتاب ثم أخبروا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ما يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ ؟ » إلى آخر ما جاء فى الحديث ، وهو صحيح لا مطعن فيه . ولا بأس أن نذكر لك من تلك الرقى التى كانوا يرقون بها فى الجاهلية وأقربها - صلى الله عليه وسلم - ولم ينه عنها : « العروس تحتفل وتكتحل ، وكل شئ تفتعل ، غير ألا تعصى الرجل » .

وأما من أنكروا الحسد وتأثير النفوس من الفرق الضالة فمردود عليه ولا يلتفت إليه وأن من العلم ما يكون وبالأعلى صاحبه ، فإنه يفتح له باب التأويل فيفضل ضلالاً بعيداً . وإنما الهدى هدى الله .

وقد قال بعضهم فى بيان سر تأثير الحسد : إن اهتمام الحاسد بالمحسود يوجب توجيه نظر الحاسد إليه والتفات نفسه له على وجه الغضب ، ونفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة تؤثر فى المحسود بسبب ضعفه وقوة نفس الحاسد شراً قد يصل إلى حد الإهلاك ، ورب حاسد يؤذى بنظرة .

أسأل الله أن يقينا شر الشريرين ، ويجعلنا من الراضين الموفقين بمنه وكرمه .

الاشتراك في الكتب

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ما قول فضيلتكم في الكتب التي ندفع اشتراكاتها قبل أن تطبع
وننتظرها إلى تمام الطبع ، فإن بعضهم يقول إنه حرام . فنرجو إبداء
رأيكم في هذا الموضوع على صفحات مجلة الأزهر . أبقاكم الله ذخراً
للإسلام والمسلمين بمنه وكرمه .

أبراهيم سيد نصار

جزيرة النجدي

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد : فقد وصل إلى خطابك ، وأكتب هذا من غير بحث
ولا مراجعة ، ممتلئة نفسى بأن الاشتراك في الكتب التي تطبع لأشياء
فيه ، فإنه داخل في بيع الموصوف المعروف ولو إجمالاً ومدة الطبع
تكاد تكون معلومة بالعرف والعادة ، ودين الله يسر . وليس هناك
مفسدة تترتب على مثل هذا . فروح الشريعة لا تأباه ما دام خالياً من
الضرر والأذية في غالب الأحوال . ويكفي غلبة الظن . وهذا هو الأليق
بالشريعة السمحة .

وهذا ما حضرني في الوقت . والسلام عليكم ورحمة الله .

تَعَلَّم السِّحْرَ وَحَكَمْنَا

جاءنا من أحد طلبة المعهد الأحمدي هذا السؤال :

هل تعلم السحر جائز أم حرام^(١) لأن عندنا بعض المنتسبين إلى العلم يفتي به عوازه . بحجة أنه يخلص الناس مما يقعون فيه من الأضرار ولا يضر أحداً . وحيثه القوية فيما يزعم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « تعلموا السحر ولا تعملوا به » ، إلى أن قال : وأخيراً أجمعنا على استفتاء فضلتكم في هذا المبحث الخطير ونشره بمجلة الأزهر التي هي مجلتنا الزهراء في أقرب عدد ممكن . لازلتم محنوفين بعناية الله ورعايته ، والسلام .

ابراهيم محمد حسين

معهد طنطا الأحمدي

الجواب

الفاصل في ذلك كله هو الحديث الشريف الذي هو القاعدة العظمى في كل شيء ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ إِمْرٍي مَا نَوَى » . وأما قوله « تعلم السحر ولا تعمل به » فليس بحديث أئسته . وكثير من العلماء يمنع تعلم السحر مطلقاً ويرى قتل الساحر ، إن لم يقتل أحداً بسحره ، ولكن الصحيح الذي يوجبه البرهان ويظمن له الوجدان وتشهد له أصول الشريعة . أن الأمور

(١) هذه عبارته ، وإن كانت (هل) لا يؤثر لها بمعادلة إلا على رأى ضعيف لأنها لطلب التصديق لا التصور كما هو مقرر في محله .

بمقاصدها والأعمال بآثارها وإن كان اللازم أن يحتاط الإنسان لنفسه ولا يأمنها ، وأن يراقب هواها في الدقيق والجليل « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » . « ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « فلا يأمّن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

ولنتل عليك ماقاله العلماء في ذلك الموضوع . وما وقع . بينهم من الخلاف في ذلك فنقول : اختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلمه ليبقيه أو ليجتنبه . فلا يكفر . ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا إن اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل مايلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد اباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا . فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين . وإذا قتل فإنه يقتل حدا عندهم ، إلا عند الشافعي فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصاً . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل . ولنكتف بهذا القدر سائلين الله التوفيق والتسديد والسلام .

فهرست

المجلد الأول (الجزء الأول والثانى)

من كتاب مقالات وفتاوى للشيخ يوسف الدجوى

صفحة	الموضوع
١	تقديم : لفضيلة الدكتور أمين عام المجمع
٣	الشيخ يوسف الدجوى لفضيلة الشيخ / محمد زاهد الكوثرى
٨	كلمة : مجلة الأزهر عن الشيخ يوسف الدجوى

الجزء الأول

الإلهيات

١٣	الإيمان بالله - علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه
٣٠	الإيمان بالله ومناقشة الطبيعيين
٤٣	الدين ضرورى لل عمران
٥٧	سوانح ومقتبسات
٦٧	الدين ضرورى لل عمران الفرقا بين المؤمن وغيره
٧١	سوانح ومقتبسات
٨١	في وحدة الخالق
٩٣	البعث
١٠٨	حرية الانسان : تكليفه - القضاء والقدر
١٢٣	كلمة تثير محبة الله في القلوب المستعرة
١٣٤	التوسل (١)
١٤٨	التوسل (٢)
١٦٠	التوسل والاستغاثة (٣)

صفحة	الموضوع
١٦٩	تعليق على بعض ما جاء في مقال الأستاذ الشيخ الجبالي
١٧٠	التوسل والاستغاثة (٤)
١٨٢	تنزيه الله على المكان والجهة (١)
١٩٥	رحم الله امرءا عرف قدره
٢٠١	تنزيه الله عن المكان والجهة (٢)
٢١٢	العالم الذي نوه الدين بذكره
٢٢٢	أين مقر الأرواح بعد الموت ؟
٢٣٥	حديث (كل مولود يولد على الفطرة)
٢٤٨	توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية (١)
٢٥٧	توحيد الأنوهمية وتوحيد الربوبية (٢)
٢٧٣	الحكم على المسلمين بالكفر
٢٩١	طريقة عمليه تقضى على عمل المبشرين
٢٩٦	الدين والعلم
٣٠١	تعليقات وحقائق
٣١١	غاطة دينية خطيرة
٣١٤	ما السر في أن الإنسان يدعو فلا يستجاب له ؟
٣٢٥	تنزيه الله عن المكان والجهة (٣)
٣٣٥	كلمة للشيخ الفزالي وأخرى للشيخ محمد عبده
٣٣٨	حياة الأرواح وإدراكها بعد الموت
٣٤٧	التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح
٣٥١	أفعال العباد
٣٦٩	الشرك وعقوبته الأخروية
٣٩٢	سوانح ونصائح

صفحة	الموضوع
٣٩٦	سوانج ومقتبسات
٤٠٢	كلمة مع مقدسى النواميس الطبيعية
٤٠٦	رد على مبشر
٤١٣	محبة الله عز وجل
٤٢٤	حاجة الانسان الى الشريعة
٤٣١	ان لم ترضوا بحكم الشريعة فتعالوا نتحاكم الى العقل
٤٤٠	الفرق بين الانسان المادى والانسان الروحانى
٤٤٣	التوحيد
٤٥٢	حدث جال لا يمكن الصبر عليه (١)
٤٦١	حدث جال لا يمكن الصبر عليه (٢)
٤٦٨	حدث جال لا يمكن الصبر عليه (٣)
٤٧٥	حدث جال لا يمكن الصبر عليه (٤)
٤٨٢	التوسل (١)
٤٨٧	التوسل (٢)
٤٩١	الغيرة على الدين
٤٩٦	التفكر أمر السعادة
٥٠٠	أدلة القرآن وأدلة العلماء على وجود الله

الجزء الثانى

النبوات

٥٠٩	نبوته - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته الحسية
٥٢٤	المعراج
٥٢٧	كرامات الأولياء
٥٣٨	ذكر قصص الأنبياء فى القرآن (١)

صفحة	الموضوع
٥٥٠	ذكر قصص الأنبياء في القرآن (٢)
٥٦٢	حياة الأنبياء
٥٧٠	هل تأكل الأرض اجساد الأنبياء ؟
٥٨٥	شق صدره صلى الله عليه وسلم
٥٩٥	قصة يوسف عليه السلام
٦٠٦	الاسراء والمعراج
٦٢١	الفيلسوف والنبى
٦٣٦	بعض معجزاته عابه الصلاة والسلام
٦٤٢	مناسبة الاسراء والمعراج
٦٤٦	عظمته صلى الله عليه وسلم ووجوب محبته (١)
٦٥١	عظمته صلى الله عليه وسلم وشيء من سيرته (٢)
٦٧٤	عظمته صلى الله عليه وسلم (٣)
٦٧٩	حياة الأنبياء في قبورهم
٦٨٤	هجرته صلى الله عليه وسلم
٦٩٠	كرامات الأولياء
٦٩٤	حكم الصلاة التيممية
٦٩٧	كأمة عن النبى صلى الله عليه وسلم
٧٠١	نبوته - صلى الله عليه وسلم (١)
٧٢١	نبوته - صلى الله عليه وسلم (٢)

فهرست
المجلد الثاني (الجزء الثالث والرابع)
من كتاب مقالات وفتاوى للشيخ يوسف النجوى

صفحة

الموضوع

الجزء الثالث

التفسير

١	« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »
١٦	« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »
٢٨	هل السموات هي الكواكب ؟
٣٥	شبهة ملحد
٤٥	حقائق وتعليقات
٥٤	الى شيخ الدعاوى وصاحب الحديث عن نفسه
٦٣	حديث الفرائق
٧٠	ان الله لا يستحيى من الحق
٧٦	تعالوا تتحاكم الى العقل والمنطق
٨٧	تفسير قوله تعالى « ان في السموات والأرض لايات للمؤمنين »
١٠٤	خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
١١٤	في ترجمة معاني القرآن
١٢٠	سورة الأعلى (١)
١٣١	سورة الأعلى (٢)
١٤٠	سورة الأعلى (٣)
١٧٥	سورة العصر
١٨٣	تفسير سورة العصر
١٩٩	سورة الاخلاص (١)
٢٢٥	سورة الاخلاص (٢)
٢٨٦	تفسير سورة « الشمس »
٣٤٠	تفسير سورة الانشراح
٣٤٤	تفسير سورة الزلزلة
٣٤٨	تفسير سورة العاديات
٣٥٣	تفسير سورة القارعة
٣٥٧	تفسير سورة التكاثر
٣٦١	تفسير سورة الهمة
٣٦٤	تفسير سورة قريش
٣٦٩	تفسير سورة الماعون
٤٧٣	شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن
٣٧٨	تفسير سورة الكوثر
٤٨٢	تفسير سورة الكافرون

صفحة	الموضوع
٥٤٩	متى تجب الزكاة في التقدين والحب
٥٥٠	البيع نقدا وباجل
٥٥٢	الحنف بأيمان المسلمين
٥٥٤	حكم أكل الفسيخ
٥٥٦	البيع بالزيادة الفاحشة
٥٥٨	بدع الذكر
٥٦٥	سر تعدد الزوجات
٥٧٣	جواز التقليد والرد على من يحرمه
٥٨٣	كلمة خنامية
٥٨٩	الحرية
٥٩٤	فضل الصلاة وبيان أسرارها
٥٩٨	المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة
٦٠٢	أسباب المحبة
٦١١	المحبة وأنواعها
٦١٣	محبة الأصدقاء
٦١٦	محبة الوطن
٦١٩	محبة الله عز وجل
٦٢٤	حكم الصرف من أموال الزكاة على المستشفيات ونحوها
٦٣٠	حكم صلاة الجمعة في البيوت وفي المساجد المتعددة
٦٣٢	الرحمة
٦٤٢	مسألة في القراض
٢٤٨	الشجاعة
٦٥٩	معاملة التجار وما فيها من الربا
٦٦٥	حكم تشريح الميت في الشريعة الإسلامية
٦٦٧	ماذا يراد بولد الصلب في عبارة الواقفين ؟
٦٧١	تشريح الأموات
٦٨٩	رؤية الهلال عند الغروب وبعد الفجر
٧٠٢	أسرار الصلاة - ذكر المقصود منها
٧١٠	كيف تكتسب الاخلاق الفاضلة ؟
٧١٤	أسئلة متنوعة
٧٢٠	أسئلة متنوعة
٧٢٢	ثبوت رمضان بالراديو
٧٢٧	مسألة في الطلاق
٧٣٠	مسألة في الطلاق
٧٣٢	هل يقع الطلاق في الحيض ؟
٧٤٠	مسألة في الوصية
٧٤٤	الدين أنفع للعرمان من كل القوانين
٧٥٥	هل يجوز الدعاء على المسلم بالكفر ؟
٧٦٣	الدين أنفع للعرمان من كل القوانين

صفحة	الموضوع
٧٧٣	الموازنة بين السريعة والقوانين الوضعية ✓
٧٧٩	الكلمة الختامية
٧٨٢	للشجاعة
٧٨٦	دين الاسلام كميل بمصالح الدنيا والآخرة
٧٩٨	سيفور النساء ✓
٨٠٣	سر تعدد الزوجات في الاسلام ✓
٨٠٧	سر تعدد الزوجات في الاسلام ✓
٨١٤	حكم جليلة
٨٢١	فتنة
٨٢٩	الحسد والرقية منه
٨٣٣	الاشترار في اكتب
٨٣٤	نعلم السحر وحكمه

طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الامرية

رئيس مجلس الادارة
مختاسب / صالح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٦٩ / ١٩٨١

الهيئة العامة لشؤون المطابع الامرية

٥٠٠٢-١٩٨٠-١٢١١٥



مقلالات
وفتاوی



یوسف الدجوی

۲

